سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٧)

تفسير

القرآن الكريم

سورة العنكبوت

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٧)

تفسير القرآن الكريم

سورة العنكبوت

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة العنكبوت. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ
٤٥٥ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٣٧)
ردمك: ٣ ـ ٤٤ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة العنكبوت ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧٫٦ ١٤٣٦/٧٨٢٦

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٢٦
ردمك: ٣ ـ ٤٤ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَي الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمَدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[1]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بِإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤَسَّسةِ الشَّيخ مُحَمَّد بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراج ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقواعِدِ والضَّوابط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالِصًا لِوجهِه الكَرِيم؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلِمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضاعِفَ لهُ المثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ، نبيِّنا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لَهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ
فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ
٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

الآيات (١- ٣)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣].

•••

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أشْرفِ الأنْبياءِ والمرْسَلِين نَبينا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأصْحابِه، ومَنْ تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين، أمَّا بَعْدُ:

قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: البَسْملةُ آيةٌ مستقِلَّةٌ يُؤتَى بها في ابتداءِ السُّورِ ما عدا سورةِ براءةَ[1].

قَالَ المُفَسِّر[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿الٓمٓ﴾ اللهُ أعْلَمُ بمُرادِهِ بذلكَ] اهـ.

وهذا حقٌّ فيما لو جعلْنَا لهذه الكَلمةِ معْنًى، ولكنَّ الصوابَ: أنه لا مَعْنى لها كما قَالَه مجاهِدٌ وغيرُهُ[3]، فهي في حدِّ ذاتِها ليس لها مَعْنًى، وذلك لأنَّ القرآنَ نزلَ باللُّغةِ العربيَّةِ، والحروفُ المركَّبةُ الهجائيَّةُ ليس لها مَعْنًى، فإن (ألف، باء، تاء، ثاء، جيم) ليس لها مَعْنًى، ومع هذا فابتِداءُ السورَةِ بالآياتِ المقَطَّعَةِ له مغْزًى، وهو

---

(١) انظر: تفسير سورة البقرة، لفضيلة الشيخ رحمه الله تعالى المجلد الأول.

(٢) المقصود بـ(المُفَسِّر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رحمه الله تعالى، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ١٥٧)، وتفسير القرطبي (١/ ١٥٥).

الإشارةُ إلى أنَّ هذا القُرآنَ الكريمَ الذي أعْجَزكم معْشَرَ العربِ وأعْجزَ غيرَكُم لم يأتِ بحروفٍ جَديدَةٍ لا تَعرِفونها، وإنما أَتَى بحروفٍ تَعْرِفونها وتُركِّبونَ منها كَلامَكم، ومع ذلك أعْجَزَكم.

ولهذا لا تكادُ تَجِدُ سُورةً مَبْدوءةً بهذه الحروفِ الهِجائيَّةِ إلَّا وجدْتَ بعدها ذِكْرَ القُرآنِ أو ما هو مِنْ خصائصِ القُرآنِ، انظُرْ قولَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:١-٢]، وقولَه: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران:١-٣]، وقولَه: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١-٢]، وقولَه: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس:١]، وقولَه: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الأحقاف:١-٢]، وقولَهُ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [السجدة:١-٢]، وهَكَذَا.

وأما قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ فلَيس فيهِ ذِكْرُ القرآنِ، لكِنْ فيها ذِكرُ ما هو مِنْ لازمِ القُرآن، وهو قَولُه: ﴿أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، فإنَّ مَنْ آمَنَ بالقُرآنِ لا بُدَّ أن يُفْتَنَ.

قولُه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ قولُه: ﴿أَن يَقُولُوٓا۟﴾ هَذَا مَحِلُّ الاستِفْهامِ، يعني: أيظُنُّ الناسُ أن يُترَكوا إذا قالوا: آمنَّا بدونِ أن يُختبَروا؟ هذا أمْرٌ لا يكونُ، بل لا بُدَّ من الاخْتِبارِ، وكُلَّما كانَ الإنسانُ أقْوى إيمانًا كان اختِيارُهُ أكثَرَ، فإنَّ الله تعالى يَبتِلي الناس، فيُبتَلى الصالحونَ الأمْثَلُ فالأمْثَلُ، حتَّى يَنْظر في دِينِهِ هل فيه قُوَّةٌ أو هو دِينٌ ضَعِيفٌ.

وقوله: ﴿أَحَسِبَ﴾ بمَعْنَى: ظَنَّ، وقولُه: ﴿ٱلنَّاسُ﴾ يشْمَلُ المؤمِنينَ وغيرَ المؤمنِينَ، وذلِك لأن قَولَهُ: (إِنِّي مُؤمِنٌ) يكونُ مِنَ المؤمنِ حقًّا، ويكونُ مِنَ المنافِقِ،

والمنافِقُ لا يصحُّ أن يُسمَّى مؤمنًا على الإطْلاقِ، بل إنَّما يقالُ: مؤمنٌ بِلِسَانِهِ كافِرٌ بقَلْبِهِ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَن يَقُولُوٓاْ﴾ أي: بِقَوْلِهِمْ: ﴿ءَامَنَّا﴾] اهـ.

يَعْنِي: أيَظُنُّ النَّاسُ أن يُتْرَكوا بلا فِتْنةٍ إذا قَالُوا: آمَنَّا.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ يختبرون بما يتبين به حقيقة إيمانهم]، وهذا الاستْفهامُ للإنْكارِ، يعني: لا تَظُنُوا أنكم إذا قُلتم: آمنا، تُرِكتُم بلا فِتْنةٍ، بل لا بُدَّ مِنْ فِتْنة واخْتبارٍ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَبْتلي المرءَ تارةً بأفعالِهِ التي يفْعلُها به عَزَّوَجَلَّ، وتارَةً بأفعالِ غيرِهِ التي يُسَلَّطون بها عَليهِ، أما بأفْعالِهِ: فإنَّ الله تعالى قد يَبتِلِيَ الإنسانَ بمصائبَ يَخْتبِرُ بها إيمانَهُ، مصائبَ في أهلْهِ أو مالِهِ أو بدَنِهِ، ومِنَ الناسِ منْ إذا أصابَتْهُ هذه المصائبَ -والعياذُ بالله- عَجزَ أن يَصْبر، ورُبَّما ارتَـدَّ بعدَ إسلامِهِ وكَفرَ، ومِنَ النَّاسِ من يَصْبرُ ويحْتَسِبُ.

كذلك قد يُبتَلى المرءُ بأمْر يُسلِّطهُ اللهُ عليه، مِثْلُ أن يُسَلِّط عليه قومًا يُؤْذُونه بالقولِ أو بالفِعلِ أو بهما جميعًا، مثل ما حَصَل للنَّبيِّ ﷺ وأصحابِهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، فإنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أُوذِيَ إيذاءً عظيمًا من قَومِهِ، ومن غيرِ قومِهِ، وكذلكَ أصْحابُهُ أُوذُوا إيذاءً عظيمًا، ومع ذلك صَبرُوا واحتَسبُوا، فإن عمَّارَ بنَ ياسرٍ وآلَه حصل لهُم إيذاءٌ عظيمٌ، وكذلك غيرُهُمْ مِنَ المؤمنين، منهم مَنْ يُؤْذَى بالقَولِ، ومنهم مَنْ يُؤْذَى بالفِعْلِ، ومنهم من يُؤْذَى بالقولِ وبالفِعْلِ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَنَزَل فِي جماعَةٍ آمنُوا فآذَاهُمُ المشْركونَ] اهـ.

أي: مِنَ الناسِ مَن يقولُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠]، ثمَّ يرْتَدُّ والعِياذُ بالله.

كذلك مِنَ الناسِ الآن، وخُصُوصًا مِنَ الشبابِ المتَّجهِ إلى الدِّين مَنْ يُؤذِيهِ أولئك الفَسَقَةُ ويسبُّونَه ويقولون: (أنتَ رَجْعيٌّ) وما أشْبَهَ ذلك، وهذا ابْتلاءٌ مِنَ اللهِ وامتحانٌ ليَعْلمَ هل يَصْبرُ هذا على دِينِه أو ينْحَسرُ ثم يرْجِعُ خوفًا من أذِيَّة هؤلاء؟

ومن النَّاسِ أيضًا من يُؤْذَى بتحلِّيهِ بأخلاقِ المؤمِنينَ، كإعفاءِ اللِّحيَةِ مثلًا، فيؤذَى بذلكَ إما بالقَولِ والاستهزاءِ والاسْتِخفافِ، وإما بالفعل فيُضْربُ عليها أو يُحْبس، فتَجدُه يحلِقُ لحيَته خوفًا مِنْ هذا الأمْرِ، وهذا لا يجوزُ؛ لأن الواجِبَ أن يَصْبِرَ، نعم: إن أُكْرِهت على هَذَا وغُلَّتْ يدُك وأُتِيَ بالمُوسَى وحُلِقَتْ؛ فهذا أمر ليسَ إليكَ، لكن ما دَامَ الأمر إليكَ فإنَّهُ لا يجوزُ لك أن تَفْعلَ المعْصِيةَ خَوْفًا مِنَ الناسِ، بل يجبُ أن يَصْبرَ ويحتَسِبَ.

أما قاعِدَةُ (المشَّقَّةُ تجْلِبُ التَّيْسِيرَ) فلا تُطبَّقُ هنا، فهذا الرَّجُل ما أُكرِه، غايةُ ما هنالك أنه سيُضْربُ أو يُحْبس، فليقلْ: لن أفْعلَ المعصيةَ، ثُمَّ إذا أردتم ضَربِي فاضْرِبوني كما شِئتُم، فالضَّرب مشقَّةٌ تَزُول، فلْيَصْبر ولْيَحْتسِب على دِينِه.

ولا يَرِدُ على هذا قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل:١٠٦]، يَعْني: فلا شيءَ عليهِ؛ لأنَّ بعضَ العُلماءِ يقول: إن هذا في الكُفْرِ القَوليِّ الذي مصدرُه اللِّسانُ، وإن كان الصحيحُ أنه حتى في الكُفر الفِعْلي، فهو شامِلٌ؛ لأنَّ الآيَةَ عامَّةٌ، حتى لو أُكْره على السُّجودِ وما أشْبَه ذلك، أما التَّخلِّي عن الأمرِ الشرعِيِّ، فهذا لا يمكنُ أن يَتَخلى المرءُ عنه، فَفَرْقٌ بينَ الفِعل الذي يُجبَر فيه على فِعلِ المعْصِيةِ، كأن تُكْره على الكُفر، فهذا يُعْذر به، وأما أن يَترُكَ واجبًا كوجوبِ إعْفاءِ اللِّحيةِ فهذا لا يجوزُ، مثاله: لو قيلَ لكَ: اتركِ الصلاةَ، فهذا كُفر، ولا يجوزُ لك أن تَترُكَهَا، صلِّ ولو أُوذِيتَ بالضَّربِ والحبْسِ، ولا مانِعَ من ذلك.

أما أَكْلُ الميتةِ إذا اضْطُرِرْتَ إليه فلأنك إذا أكلتَ منه بَقِيَتْ حياتُك، لكنَّ الإكراهَ على تـركِ الواجبِ فليس كذلك، فقَد تُهـدَّدُ بالضربِ ولا تُضْرب، وقـد تُضْرب وتَصْبر وتَحْتـسبُ، هذه هي الفِتْـنة التي ذَكَر الله، وإذا لم نُطَبِّـقْهَا على هذا فمَتَى تكونُ الفِتنةُ ما دُمْنَا قلنا: إن الإنسانَ إذا أُوذِيَ في الله يجوزُ أن يَدَع ما أَمَر الله به؟ فلا بُدَّ من فِتْنة واخْتبارٍ وإلَّا أصبحتِ الفِتنةُ لا فائدةَ فِيها.

• ● ● •

الآيــة (٣)

• ● ൕ ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٣].

• ● ൕ ● •

قوله تعالى: ﴿فَتَنَّا﴾ بمَعنَى: اخْتَبرنَا الذين من قَبْلِهم، وقد أخبرَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن ذلك بقَولِهِ: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ»[1]، يعني: يُؤتَى بأمشَاطِ الحديدِ ويُفصَلُ بها اللَّحمُ ويمشَّطُ، ومع ذلك كله يصْبِرُ على دِينِهِ ويحْتسبُ ولا يَرْتدُّ، فإذا كان هذا فيمن كان قَبْلنا فإن هذه الأُمَّةَ أوْلى بالصَّبر على هذا الأمرِ العَظيمِ، لا سِيَّما إذا كان المقامُ مقامَ جهادٍ، مثل ما وقَعَ للإمام أحمدَ رَحِمَهُ اللَّهُ في أيامِ المِحْنَةِ، فإنه كان يُضربُ بالسِّياط ويُجرُّ بالبِغالِ، ليقول: إن القرآنَ مخلوقٌ، ومع ذلك أَبى أن يقول: إن القرآنَ مخلوقٌ؛ لأنه لو قال: إن القرآنَ مخلوقٌ سيَترَتَّبُ على ذلك فسادُ الأمَّةِ كلِّها، فليست المسألةُ متعَلِّقةً به وحده.

ولهـذا مَنْ أُكْرِهِ على الكُفرِ وكان كُفرُهُ يستـلزمُ كُفر غيرِهِ وفسادَ المِلَّة، فإنـه لا يجوزُ له أن يوافِقَ ولو أُكْره؛ لأن المقـامَ في حَقِّهِ مقامُ جهادٍ، والإنسان يجـبُ أن

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، رقم (٦٥٤٣).

يجاهِدَ في سبيلِ الله ولو تَعرَّض للقتلِ، أما إذا كانتِ المسألةُ إكْراهًا شخصيًا على الكُفرِ، فإن هذا يجوزُ بشرطِ أن يكونَ قلبُه مُطمئنًا بالإيمانِ.

فعلى هذا إذا كان هناكَ رجلٌ قُدوةٌ أمامَ الناسِ وأُكرِهَ على أن يفعلَ معصيةً أو أن يفعَلَ كُفرًا، وفِعْلُه لها ليس لمجرَّدِ أن يتَخَلَّص من الأَذِيَّةِ ولكن سَيُفسِدُ به أمةً مِنَ الناسِ، فهذا نقول له: لا تَفْعَلْ ولا توافِقْ، ولو أُكْرِهْتَ ولو ضُربْتَ؛ لأن المقامَ مقامُ جِهادٍ في سبيلِ الله. وإنسانٌ آخرُ لا يُؤبَهُ به ولا يَنظرُ الناسُ إليه ولا يحفِلُون به، وأُكرِهَ على أن يفعَلَ شيئًا مِنَ الكُفر أو ما دونه، فله أن يَفْعَلَ بشرط أن يكون قلْبُه مُطْمئنًا بالإيمان، مِثلَما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولو قال قائل: الإمامُ أحمدُ لم يَقُلْ بخَلقِ القُرآنِ لأنه قدوةٌ، فكيف تُجِيزُونَ التَّحاكُمَ للعلماءِ عندَ الضَّرورةِ؟

الجواب: الإمام أحمد لو قال: إن القرآنَ مَخلوقٌ فهو قَولٌ باطِلٌ، أما هذا فلم يتَحاكَمْ إليهم لِكَي يَحكُموا له بالبَاطِلِ، لذلك اشتَرَطْنَا أنه إذا حَكَمَ له بغيرِ الحقِّ أن يَرْفُضَ الحُكْمَ.

وقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ الصِّدقُ مطابقةُ القولِ للواقعِ، أو مُطابقةُ الفِعل للواقِعِ، فالذين صَدَقوا صدَقوا في قولهم: إنَّهم مؤمنونَ، فمَنْ كانَ صادِقًا في إيمانِهِ فإنه يَسْلَمُ بذلك، ومن كانَ كاذبًا فإنه -والعياذُ بالله- يَنْخدِعُ بهذه الفِتنَةِ، وينقَلِبُ على وجهِهِ، ويخسرُ الدُّنيا والآخِرة.

وقولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عِلْمَ مُشَاهَدَةٍ]، يشير إلى أن قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ مستَقْبلٌ، بدليلِ دخولِ نونِ التوكيدِ عليه، وبدَليلِ أنَّ الجملةَ قسَميَّةٌ، والجملةُ القَسَمِيَّةُ

تكون في المستقبلِ، فهو فِعـلٌ مضارعٌ واقعٌ في جملة قسَميَّة مؤكَّدٌ بالنُّـونِ، فيكون للمستقبل.

والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يعلمُ ذلك قبلَ أن تَحْصُلَ الفتنةُ، فكيف الجواب عن قوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ يدلُّ على أن العِلْمَ لا يكونُ إلا بعدَ الفِتْنةِ؟

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [عِلمَ مُشاهَدَةٍ]، وهذا فيه وجهان:

الوجهُ الأَوَّلُ: أن عِلمَ الله تعالى بالأشياءِ يَنقَسمُ إلى قِسْمين:

- علمٌ بأنها ستَقَعُ؛ وهذا علمٌ بما لم يَكُن.

- وعلم بأنها وَقَعَتْ، وهذا علمٌ بما كانَ، وهذا هو الذي يُنَزِّلُ عَلَيهِ مثلُ هذه الآياتِ، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ﴾ [محمد:٣١]، المراد: عِلْمُ مشاهدةٍ، وأما العِلم بمَنْ سيكون مجاهَدًا فهذا سابِقٌ، ولكنَّهُ عِلمٌ بأنه سيكون.

فمتَعَلَّقِ العلمِ: إما مستَقْبلٌ يعلَمْه الله بأنه سيكونُ، وإما واقعٌ عَلِمَ الله بأنه قد كانَ.

الوجه الثاني: أن العِلمَ ينْقسمُ إلى قسمين:

- عِلمٌ يترتَّبُ عليه جزاءٌ، فعِلمُ الله تعالى بعدَ الوُقوعِ هو عِلمٌ يترتَّبُ عليه الجزاءُ.

- وعِلمٌ لا يتَرتَّبُ عليـه جزاءٌ، فعِلمُ الله عَزَّوَجَلَّ في الأَزَلِ قبـلَ وقوعِ الشَّيءِ عِلمٌ لا يتَرتَّبُ عليه الجزاءُ.

فيكونُ العِلم الذي يجعلُهُ الله تعالى مَرتَّبًا على الوُقوعِ؛ المرادُ به عِلمُ المُجازاةِ، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

فهذان جوابانِ عن مثلِ هذه الآيَةِ، ولا يقـالُ: إن اللهَ لا يعْلمُ الشيءَ إلّا بعدَ وقـوعِهِ، كما قال ذلك غُلاةُ القَدَرِيَّة، فإن غلاةَ القَدَرِيَّةِ يقولون: إن اللهَ لا يَعْلَـمُ بالشيءِ إلا بعدَ وُقوعِهِ، ويستـدلون بهذا المتُشَابهِ مِنَ القرآنِ، ولكننا نقـول: هؤلاء في قُلوبهم زَيْغٌ؛ لأنهم اتَّبعُوا ما تَشَابه منه، ولو رَجَعُوا إلى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠]، لتبيَّن لهم أن اللهَ عالمٌ بما سيكون قَبلَ أن يكونَ.

قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يعني في قولهم: إنهم مُؤمنونَ، فالله تعالى إذا فَتَن الخلْقَ عَلِم من كان صادِقًا في قولِه ومَن كان كَاذِبًا، وفي هذا تحذيرُ المرءِ عندَ وُقوعِ الفِتنَ أن يرْتدَّ عن إيمانِهِ فيكونُ بذلك كاذبًا.

قولُهُ: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ﴾ اللام للتَّوكيدِ، وهي أيضًا مُوطِّئةٌ للقَسمِ، فتكونُ الجملةُ مُؤكَّدَةً بثلاثَة مؤكِّداتٍ.

وقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ﴾ بفَتْحِ آخرِهِ مع أنه لا يوجَدُ ناصِبٌ؛ لأنه مبْنِيٌّ على الفتحِ في محلِّ رَفعٍ وليس مَنصوبًا.

من فوائد الآيات الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: الحِكْمةُ في ابتداءِ السورةِ بالحروفِ الهِجائِيَّةِ، وقد تَقدَّم الحكمُ فيه هذا.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ يختَبِرُ المؤمنين ليعَلَم بذلك صِدقَ إيمانِهِمْ من عَدَمِهِ.

الفَائِدة الثَّالِثة: أن هذا الاخْتبارَ ليس خاصًّا بهذه الأُمَّةِ، بل لهذا الأُمَّةِ ولغيرِها مِنَ الأمم، لقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

الفَائِدة الرَّابعة: أنَّ حقيقةَ المرءِ لا تُعرفُ إلا بامتِحانِهِ، فإذا امتُحنَ وثبتَ كان ذلكَ دَليلًا على صِدْقهِ، وإن انْحرفَ كان ذلك دَليلًا على كَذبِهِ وعدمِ صدْقِهِ، كما قيل: «عندَ الامتحانِ يُكْرمُ المَرءُ أو يُهانُ».

الفَائِدةُ الخامِسة: إثباتُ العِلمِ لله عَزَّوَجَلَّ لقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾.

الفَائِدةُ السَّادِسَة: انقسامُ النَّاسِ في الإيمانِ إلى صادِقٍ وكاذِبٍ، فالصادقُ الذي يَثْبُتُ على إيمانِهِ عندَ الامْتحانِ، والكاذبُ الذي لا يَثْبتُ.

الآية (٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت:٤].

قولُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ (أَم) مُنقطعةٌ؛ وهي تأتِي في اللُّغةِ العربية على قِسْمينِ: متَّصلةٍ ومُنقطِعَةٍ، والفرق بينهما:

١- أنَّ المتِّصلةَ بمعنى (أو).

٢- وأنها تَأتِي بعدَ همزة التَّسْوِية.

٣- وأنها تأتِي بينَ متقَابِلَينِ.

فهذه ثلاث علامات لها.

فمثال المتصلة قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦]، فهنا جاءتْ بمَعْنى (أو)، أي: أنَّ هَذَا وهذَا سواءٌ.

ثانيًا: أنها بعد همزةِ التَّسوية: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦].

ثالثًا: أنها بين متقابلين: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة:٦].

ومِنها أيضًا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ [إبراهيم:٢١]، ولها أمثِلةٌ متَعَددةٌ.

أما المنْقَطِعةُ: فهي التي تأتِي بمعنى (بَل)، وليست بمعنى (أَوْ)، ولا تقعُ بعدَ همزةِ التَّسْوية، ولا بينَ مُتقابلينِ.

فهنا ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ بمعنى: بَلْ أحسَبُ، وهذا الإضرابُ إضرابُ انتقالٍ وليس إبْطَالًا، يعني: بعد أن ذَكَرَ الله عَزَّوَجَلَّ وأنْكَر على الذين حَسِبُوا أن يُتْركوا أن يَقُولوا: آمنَّا وهم لا يُفتَنُون، انتقَل عَزَّوَجَلَّ إلى ذِكْر صِنفٍ آخرَ من النَّاس، وهم الذِينَ لم يقُولوا: آمنا ولم يُؤمِنوا، بل هم يَعْملونَ السيِّئاتِ، ويَظُنُّون أن الله تعالى لن يُحيطَ بهم.

وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، يعني: يَعْملونَ الأعمالَ السيِّئةَ، والسيئُ: ما يسُوءُ فاعِلَهُ، وكل عَمَلٍ محرَّمٍ فإنه سَيِّئ؛ لأنه يسوءُ صاحِبَه، بِما يجِدُ فيه مِنَ العُقوبةِ الحاضِرَةِ والمستْقبليَّة.

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الشِّرْك والمعاصِي]، أفادَنا المُفَسِّر أن السيِّئةَ هنا تَعُمُّ الصَّغائرَ والكَبائرَ، الكبائرُ: التي أعْلاهَا الشِّركُ، والصَّغائرُ: ما دُونَ الكَبائرِ، وهي المعَاصِي، فهي تشمَلُ كلَّ ما يسُوءُ فاعِلَهُ من مَعصِيةِ اللهِ تعالى في الشِّرْك فما دُونَهُ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ هذا مَفعولُ (حَسِبَ)، ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾، أي: [يفُوتُونَا فلا نَنْتَقِمُ منهم]، والسَبْقُ: بمَعْنى الفَواتِ، كما تقول: سَبقتُ فلانًا، يعني: فُتُّهُ لم يُدْرِكْني، فهؤلاء يَظُنُّونَ أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يُدْركُهم، وأنَّ الله لا يَنْتَقم منهم، وهذا بلا شكٍّ سوءُ ظَنٍّ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولهذا قال: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، أي: ساءَ حُكْمهم هذا، وهو حُسبانُهم أن اللهَ تعالى لن يُدْرِكَهُمْ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿سَآءَ﴾ بِئسَ ﴿مَا﴾]، وبئسَ: فِعلُ ماضٍ جامد لإنشاءِ الذَّمِّ، و﴿مَا﴾ بمعنى: الَّذي، فهِي اسمُ مَوصُولٌ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿يَحْكُمُونَ﴾ ـهُ] قَدَّر المُفَسِّر الهاءَ لتكونَ عائدًا إلى الموصُولِ، أي: ساءَ الذي يحكُمونَهُ.

إذن: (الَّذِي) فاعلٌ، والمخصوصُ بالذَّم.

وقولُه: [حُكْمهُمْ هَذَا] اهـ.

هذا هو المخْصُوصُ، وكلُّ فِعْلٍ من الأفعالِ الجامِدةِ التي للذَّمِّ أو للمَدْحِ تحتاجُ إلى فاعلٍ وتحتاجُ إلى مَخصوصٍ، والمخصوصُ دَائمًا يُحذَفُ لدَلالَةِ الفاعِلِ عليه، تقول: (نِعمَ دارُ المتَّقِين الجنَّةُ)، الفاعلُ قولنا: دارُ، والجنَّةُ هي المخْصوصُ بالمدْحِ، والجنَّةُ: فيها وجهانِ للإعرابِ:

أحَدُهُمَا: أن تجعلها مُبتدأً مُؤَخَّرًا، والجملَةُ خبرٌ مُقَدَّمٌ.

والثاني: أن تجعلها خَبرًا لمبتَدَأ محذوفٍ، تَقْدِيره: هي الجنَّةُ.

أما قولَه: [نِعْمَ دارُ المتقينَ] فَهِي فِعلٌ وفاعِلٌ.

يقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بِئسَ ما يَحْكُمونَ حُكمهُم هَذَا]، ولا ريبَ أن ما حَكَموا به وظَنُّوهُ هو ظنُّ سَوءٍ لا يَلِيقُ بالله، فإن اللهَ تعالى يقولُ في آياتٍ كثيرَةٍ: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر:٥١]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:٤٤]، فهؤلاءِ الذين استَمَرُّوا في عَمَلِ السَّيئاتِ، وظَنُّوا أن اللهَ تعالى لا يَقْدِرُ عليهِمْ ولا يَنتَقِمُ منهم، أضَافُوا والعِياذُ باللهِ شَرًّا إلى شرِّهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدة الأُولَى: التَّهْدِيدُ والوَعيدُ لمنَ ظَنَّ أن اللهَ لا يَقدِرُ عليه بعَملِ السيِّئاتِ، لقَولِهِ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾.

الفَائِدة الثَّانِية: تَهديدُ عامِلِي السيِّئاتِ بأخذِ الله لهم وأنَّهم لَنْ يُعْجِزُوا اللهَ.

الفَائِدة الثَّالِثة: تَحريمُ ظَنِّ السُّوءِ بالله تعالى لقولِهِ: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

• ● ۞ ● •

الآية (٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:٥].

•••

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ يخافُ ﴿لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ بِهِ ﴿لَأَتٍ﴾، فَلْيَسْتَعِدَّ لَهُ، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأَقْوالِ العِبادِ، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بِأَفْعَالِهِمْ] اهـ.

قولُه: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ﴾، قَالَ المُفَسِّر في تَفْسيرِ ﴿يَرْجُواْ﴾: [يخافُ] وهذا صَرفٌ للَّفْظِ عن ظاهِرِه؛ لأن الرجاءَ غيرُ الخوفِ، الرجاءُ: أي: الأَمَل، وهذا هو الصوابُ، فالمعنى: ﴿يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾، أي: يأمل أن يلقى الله عَزَّوَجَلَّ راضيًا عنه ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ﴾، كما في قولِه تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، وليس هناك ما يوجِبُ صرفَ اللَّفظِ عن ظَاهِرِه، بل إن المعنى: مَنْ كانَ يرْجُو لقِاءَ اللهِ وأنه يَلْقاهُ وهو راضٍ عنه، فإن الأمر لَيْسَ ببعيدٍ ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾، أي: المدَّةُ التي جعلَها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حائلًا بينكَ وبين لقَائه سوف تَأتِي، يعني: سوفَ يأتِي ذلك الأجلُ لا محالَةَ، ويُحتمَلُ أن قولَهُ: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾، أي: المدَّةُ التي قَدَّرهَا للقائه، وهذا أحسنُ، فالمدَّةُ التي قدَّرهَا للقائِهِ لا بُدَّ أن تَأْتِيَ.

قولُهُ عَزَّوَجَلَّ: [﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ به]، أي: باللِّقاءِ، ﴿لَأَتٍ﴾ (اللام) للتَّوكِيدِ لأنها واقعةٌ في خبرِ (إنَّ)، وقَدْ تقدَّم في شرحِ الألْفيَّةِ أن محلَّها في أَوَّل الجملةِ،

ولكنهم أَخَّروهَا لأن (إنَّ) للتوكيدِ أيضًا، فكَرِهوا أن يجتمِعَ مؤكِّدانِ متواليانِ، وزَحْلَقوا اللام إلى مكانها في الخبَرِ.

وقوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ﴾ (آتٍ): خبرُ إنَّ لأنها اسمٌ منْقُوصٌ؛ والاسم إما منْقُوصٌ أو مقْصورٌ أو ممْدودٌ أو صحيحُ الآخِرِ، فهنا نقولُ: لأنها منقوصةٌ، أصلُهَا: (لآتي) بالياء، فحُذِفَتِ الياءُ وعُوِّض عنها بالتنوين: ﴿لَأٓتٍ﴾ وعلى هذا فنقول: (آتٍ) خَبَرُ (إنَّ) مرفوعٌ بها، وعلامة رَفْعِه ضمَّة مقدَّرة على الياءِ المحذوفةِ لالتقاءِ الساكِنَين.

﴿وَهُوَ﴾ أي: اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقْوالِ العِبادِ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفْعالِهِمْ] اهـ.

السَّمِيعُ يعني: ذا السَّمْعِ، الذي لا يَخْفَى عليه شيءٌ، كلُّ شيءٍ مِنَ المسمُوعاتِ فإنَّ الله تعالى مُدْرِكه، والسَّمْعُ ينقسم إلى قسمين:

١- سَمْعُ إدْراكٍ. ٢- سَمْعُ إجابةٍ.

فالأَوَّلُ: مثلُ قولِهِ تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾ [المجادلة:١].

والثاني: مِثْلُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، ومثلُ قولِ المصلِّي: (سمِعَ اللهُ لمن حَمِدهُ)، فإن المعنى: أنه استَجابَ.

وسَمْعُ الإدراكِ ينْقسِمُ إلى أقسامٍ:

مِنهَا: ما يَقْتضي التَّهديدَ.

ومنها: ما يَقْتضِي النَّصر والتأييدَ.

ومنها: ما يُقصدُ به مجرَّدُ الإدراكِ.

فمثالُ الأوَّلِ الذي للتَّهديدِ: قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١].

ومثالُ الذي للنَّصر والتَّأييدِ: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

ومثالُ المقصودِ به مجرَّدُ الإدراكِ: أي الذي يُرادُ به بيانُ أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ محيطٌ بالشيءِ سميعٌ له قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ﴾ [المجادلة:١].

كونُه تعالى سَمِيعًا هلْ يلْزَمُ منه إثباتُ الأُذُنِ؟

الجواب: لا يَلْزَمُ، كما أن كونَه بَصِيرًا لا يلزمُ منه إثباتُ العَين، ولكن العَينَ ثَبتَتْ بدَلِيلٍ آخرَ، ولولا أنَّ اللهَ أثْبَتَهَا لنَفْسِهِ بدليلٍ آخر ما أثْبَتْناهَا، فلا نقول: يلزمُ من كونِهِ سَمِيعًا أن يكونَ لَهُ أُذُن، كما لا يلزمُ من كونِه متكلِّمًا أن يكونَ له لِسانٌ وشَفتانِ وما أشبه ذلك، فإنَّنا نعلمُ أن الأرض تُحدِّثُ أخْبارَهَا، ولا تُحدِّثُ إلَّا بسماعٍ، وليس لها أُذُنٌ فيما نَعلم، ولا نعلمُ أن لها لِسَانًا أيضًا، فعلى هذا نقول: لا يلزمُ مِنْ إثباتِ السمعِ إثباتُ الأُذُن.

فإذا قالَ قائلٌ: ولكن ثبت في الحديث الصحيح: «مَا أَذِنَ اللهُ لَشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ»[1].

فالجواب: ما أَذِنَ له، أي: ما استَمَعَ له، وليس المعنى: ما قَدَّرَ؛ لأنه مُعَلَّقٌ بصوت، قال: «لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ»، وإلا فإنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أذِنَ للناسِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ: «المَاهِرُ بِالْقُرآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ»، رقم (٧١٠٥)؛ ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، رقم (٧٩٢).

من جِهةِ الإذنِ الشَّرْعِيِّ، فرخَّصَ لهم وأباحَ لهُمْ ما هو أعظمُ من هذا، فإن التَّوحيدَ وغيرَهُ مما هو أكبرُ مِن قراءةِ القُرآنِ لا شكَّ أن الله عَزَّوَجَلَّ يأْذنُ به أكثر، والحاصلُ أنه لا يَلزمُ من هذا أيضًا إثباتُ الأُذُن؛ لأنه ليسَ بصَرِيحٍ، والصفاتُ لا يُمكنُ أن نُثْبِتَهَا بالاحتمالِ، فلا بُدَّ أن تكونَ المسألةُ واضِحةً وصريحةً.

وقوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِأَفْعَالِهِمْ]، والحقيقَةُ أن العِلم يتَعلَّقُ بالأفعالِ والأقوالِ أيضًا، فتَخْصِيصُه بالأفعالِ فيه نَظَرٌ؛ لأن الرُّؤيَةَ هي التي تَختَّصُ بالأفعالِ، أما العِلمُ فإنه أَعَمُّ، فهو يتعلَّقُ بالأفعالِ ويتعلَّقُ بالأقوالِ، ويتعلَّقُ بحديثِ النَّفْس ويتعلَّقُ بالجَهْرِ، وبكلِّ شيءٍ.

أما جواب ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾، فقد قدَّره المُفَسِّر بقوله: [فَلْيَسْتَعِدَّ لَهُ]، وجعلُه محذوفًا، وعِندِي أنه لا بأسَ أن نقولَ: إن جوابَ الشَّرْطِ هو قوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ﴾.

ويكون المعنى: أن الذي يرجو لقاءَ اللهِ فإنه سيَحْصُلُ له، ولا حاجةَ أن نُقَدِّر شيئًا محذوفًا؛ لأن الأصلَ عدمُ الحذفِ، وهذا الذي قَدَّره المُفَسِّر مثل ما قدَّره في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة:٩٧]، فقَدْ قدَّرَهَا المُفَسِّر بقولِه: [فَلْيَمُتْ غَيْظًا]، لكِنْ لا حاجةَ لهذا التَّقْدِيرِ.

قوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ أي: يُؤَمِّل؛ لكنَّ الأملَ مبنِيٌّ على المحبَّةِ، فأنت لا تؤَمِّلُ الشيءَ إلا وأنتَ تُحبُّهُ، فرجاءُ الشيءِ بمعنى الأملِ في حصولِهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدة الأُولَى: طَمأْنَةُ أولئكَ الذين يَرجُونَ لقاءَ الله بأنَّ ما رَجَوه سيأْتِي.

الفائِدَتانِ الثَّانِيَةِ والثالِثَةِ: إثباتُ الجزاء، وإثبات يوم القيامة؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ﴾.

الفَائِدة الرَّابِعة: إثباتُ اسمي (السَّميعِ، والعَليمِ) لله عَزَّوَجَلَّ.

الفَائِدة الخامِسة: إثبـاتُ ما تَضَمَّناهُ من صِفَةٍ، فالأول تَضَمَّنَ صفـةَ السَّمعِ، والثاني تضمَّن صفةَ العِلمِ.

• ● ۞ ● •

الآيـة (٦)

• ● ● •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت:٦].

• ● ● •

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ جِهادُ حَرْبٍ أو نَفْسٍ]، أفادنا المُفَسِّر من هذه العبارةِ أن الجِهادَ ينْقسمُ إلى قِسمَين:

- جهادِ حَرْبٍ، وذلك بجهادِ الأعداءِ.
- وجهادِ نفْسٍ، وذلك بأن تُجاهِدَ نَفْسكَ على فِعلِ الطاعاتِ وعلى تَركِ المحرَّماتِ.

والجهاد: بذلُ الجُهدِ في الشيء، والذي يجاهِدُ لا يُجاهدُ لله وإنما يعْملُ لنَفْسهِ، كقولِه تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت:٤٦].

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾، فإنَّ مَنْفعةَ جِهادِهِ لَهُ لَا للهِ]، وذلك لأنّه مأجورٌ، سـواءٌ جاهَدَ نفْسَه أو جاهدَ غيرَهُ، مع أنه إذا جـاهدَ غيرَهُ قد تكون منْفعـتُهُ أيضًا للغيرِ، فإن هذا الغيرَ بالجهادِ رُبَّما يدخُـلُ في دِينِ اللهِ، وحينئذٍ يحصُلُ له منْفَعَةٌ.

المُهِمُّ أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا ينْتفِعُ بهذا الجهادِ، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهذا تَعْليلٌ لقولِه: ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦ﴾، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غَنِيٌّ عنهم،

لا ينتَفِعُ بطاعَتِهم ولا يتَضَرَّرُ بمَعْصيتِهِمْ، ومعْنَى غِناهُ عنهم: كونُهُ لا يحتاجُ إليهم لما عِندَهُ مِنَ الجُودِ والسَّعَةِ والتَّدبيرِ للأمورِ، فهو لا يحتَاجُ إلى العالمِينَ كُلِّهِمْ.

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الإنْسِ والجِنِّ والملائكَةِ وعَنْ عِبادَتِهِمْ]: فهو غَنِيٌّ عنهم لا يحتاجُ إليهِمْ، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٧]، وكذلك غَنِيٌّ عن عِبادَتِهِمْ، لأن عِبادَتِهم إنما تكونُ منْفَعَتُها لهُم، أما اللهُ عَزَّوَجَلَّ فإنه لا يَنْتَفِعُ بطاعَةِ الطَّائِعِينَ، ولا يَتَضَرَّر بمعصيةِ العاصِينَ، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ﴾: الجُملَةُ هنا مُؤكَدةٌ بمُؤَكِّدَينِ وهما: (إنَّ) و(اللام).

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدة الأُولَى: أن الإنسانَ لا بُدَّ أن يحْصلُ له مَشقَّةٌ في القيامِ بما يجِبُ عليه؛ لأن الجهادَ معناه: بَذْلُ الجهدِ لإدرَاكِ أمرٍ شاقٍّ؛ لقوله: ﴿وَمَن جَـٰهَدَ﴾.

الفَائِدة الثَّانية: أن من جاهَدَ في العَملِ الصالِحِ فإن جهادَهُ لنفْسه لا ينْتفِعُ اللهُ به؛ لقوله: ﴿وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾.

الفَائِدة الثَّالِثة: إثباتُ غِنى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن خَلْقه؛ لقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

الفَائِدة الرَّابعة: أن مَنْ لم يجاهِدْ فإن ضَرَرَهُ على نفْسه؛ لأنه إذا كانت منفعَةُ الجهادِ لكَ فمَضرةُ تركِه علَيك.

الآيـة (٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٧].

• • ❁ • •

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ بَعَمَلِ الصَّالحاتِ، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ﴾ بمعنى: حَسَن، ونصبُهُ بنزعِ الخافِضِ (الباء) ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهُو: الصَّالحَاتُ] اهـ.

قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هذا في مقابِلِ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾.

والإيمانُ كما تقَـرَّرَ كثيرًا هو التَّصديقُ مَع القَبـولِ والإذعانِ، وليـس مجردَّ التَّصديقِ، وقولُه: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هذا في أعْمالِ الجوارحِ، فالإيمانُ في القَلبِ، وعَمَلُ الصالحاتِ في الجوارِحِ، والعملُ يتناولُ الفِعلَ والقَولَ، وعلى هذا ليس قَسِيمًا للقولِ كما يظنُّ بعضُ الناسِ، فيقول: قولٌ وعَمَلٌ، بل إن قسيمَ القولِ هو الفِعلُ، أما العملُ فإنه يشمَلُ القولَ ويشملُ الفِعلَ أيضًا.

فعَملُ الصالحاتِ إذن: يتنَاولُ الأفعالَ، مثلَ الرُّكوعِ، والسُّجودِ، والصلاةِ، والقيامِ والقُعودِ فيها، ويتناولُ الأقوالَ، كقِراءةِ القرآنِ، والتَّسبيحِ، والتَّحميدِ، وغيرِ ذلكَ.

وقولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: يَعنِي: الأعمالَ الصالحاتِ، فهِي صِفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، تَقدِيرُهُ: الأعمالُ الصَّالحاتُ، والعملَ الصالحُ هو الَّذي جمعَ الإِخْلاصَ والمتابَعَةَ؛ فالإخلاصُ يعْني: أن تَقْصدَ بعملِك وجْهَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والدارَ الآخِرَةَ، والمتابعةُ: أن تكونَ في ذلِك مُتَّبعًا للنَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وضِدُّ الأَوَّلِ الإِشراكُ، وضِدُّ الثاني البِدعَةُ، فلا تكونُ مُشْركًا ولا مُبتَدِعًا.

قولُهُ: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ﴾: الجُملةُ جوابٌ لقَسَمٍ مُقَدَّرٍ، تقدِيرُهُ: واللهِ لنُكفِّرنَّ، فهي إذَنْ مؤكَّدَةٌ بثلاثةِ مؤكِّداتٍ: القَسمِ، واللَّامِ، والنُّون.

وقولُهُ: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾: التَّكفِيرُ بمَعْنى السَّتْر، ومنه الكُفُرَّى: وهي القِشْرةُ التي تسترُ طَلْعَ النَّخلةِ، فمَعْنى: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: نَسْتُرُهَا، والمراد بالسَّتْر لازِمُهُ، وهو العفْو.

بماذا نُكِّفُرُ عنهُمْ سيِّئاتِهِمْ؟

الجواب: بإيمانِهِمْ وعَملِهِمُ الصَّالحِ؛ لأن الإيمانَ يهدِمُ ما قَبلَهُ، والعَمَلُ يقولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيه: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء:٣١]، فالتَّكْفيرُ مأخوذٌ مِنَ التَّغْطِيَةِ، وتغْطِيةُ السَّيئاتِ معناهَا: إزَالتُهَا وعَدَمُ المؤاخذَةِ عليها.

وقوله: [﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ بِعَمَلِ الصَّالحَاتِ]: فأعْمالُهُمْ الصَّالحةُ تكون مكفِّرةً للسيِّئاتِ، قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الصَّلواتُ الخَمْسُ، وَالجُمعَةُ إِلَى الجُمْعَةِ، وَرَمَضانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ، إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»[1]، وقالَ ﷺ:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، رقم (٢٣٣).

«الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا»[1]، فالأعمالُ الصَّالحةُ تكونُ بمنزلةِ الغُلافِ على الأعمالِ السَّيِّئةِ، حتى لا يظهرَ لها أثرٌ.

وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: الجزاءُ بمعنَى المكافأةِ علَى الشيءِ، وقولُه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ هذه الجملةُ أيضًا مؤكَّدةٌ بثلاثةِ مُؤكِّداتٍ، وهي: القَسمُ، واللَّامُ، والنُونُ.

وقولُهُ: [﴿أَحْسَنَ﴾ بمعنى حَسَن]، وكأنَّه فَرَّ من إشكالٍ قَدْ يُورَدُ، وهو: أن الآيةَ تَدُلُّ على أنهم يُجْزَونَ أحسنَ الذي كانوا يعْملونَ، فأينَ جَزاءُ الحَسَنِ؟ لأن العَملَ الصالحَ حسَنٌ وأحسَنْ، فإذا كَانتِ الآيَةُ: ﴿أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فمعنى ذلك أن الحَسَنَ لا يُجازَون عليه، فلهذا أوَّلَ المُفَسِّر ﴿أَحْسَنَ﴾ بمعنى: حَسَن، أي: حسَنُ ما كانوا يعمَلُونَ.

ولكن نَحْنُ نَرى أنه لا حاجَةَ إلى التَّأويلِ، وأن ما دَلَّتْ عليه الآيَةُ أَوْلى مما قدَّرهُ المُفَسِّر، وهو أنَّ اللهَ يقولُ: لنَجْزِينَّهم أحسنَ جزاءٍ، وأحسنُ جزاءٍ بيَّنَهُ اللهُ تعالى في قَولِهِ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٦١]، فهذا الجَزَاءُ أحسنُ جزاءٍ؛ لأن الجزاءَ غايَتُهُ أن يكونَ مِثْلما فَعَلَ الفاعِلُ، لكن هنا يجازَى بأحسنَ وأعْظَمَ، وعلى هذا فيكونُ (أحسنَ) ليس مَنْصوبًا كما قال المُفَسِّر: [بِنَزْعِ الخَافِضِ البَاءِ]، بل هو مفعولٌ ثانٍ لقوله: (نَجْزِي)، والمفعولُ الأوَّلُ هو الهاء. والنون في قولِهِ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ للتَّوكيدِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب وجوب العمرة وفضلها، رقم (١٦٨٣)؛ ومسلم: كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، رقم (١٣٤٩).

هذا هو مَعنَى الآية الكريمة، يعني: أن اللهَ وعَدَهم بأمْرين: بتكْفيرِ السَّيِّئات بالأعمالِ الصالحةِ، وبالجزاءِ على هذه الأعمالِ أحسنَ جزاءٍ يُعطَوْنه، وذلك أن تكونَ الحسنةُ بعَشْرَةِ أمثالها إلى سَبعِمِئةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرة.

وقوله: [﴿أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهُوَ: الصَّالِحاتُ]: فهذه الأعمالُ الصالحةُ التي يَعْملُونَها يجازِيهِمْ اللهُ عَليها أحسنَ جَزاءٍ يُجازَونَ بِهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدة الأُولَى: فضيلَةُ الإيمانِ والعَملِ الصَّالحِ.

الفَائِدة الثَّانِية: أنه تُكفَّرُ بهما السيِّئاتُ، والمراد بالسيِّئاتِ: الصَّغائرُ، لقولِه ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمْعَةُ إِلَى الجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ»(١)، أما الكبائرُ فلا تَدخلُ هنا لأنها لا تُكَفَّر بعملِ الصالحاتِ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أن جَزاءَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أفضلُ من عَملِ المؤمِنِ وأحسنُ، لقَولِهِ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

الفَائِدة الرَّابِعة: أنه لا بُدَّ في العملِ من أن يكونَ صَالحًا، والصالحُ كما تقدَّم هو ما جمعَ شَرْطين: الإخلاصَ لله عَزَّوَجَلَّ، والمتابعةَ للرَّسولِ ﷺ، فإذا لم يكنْ مُخْلَصًا فهو فاسِدٌ، وإذا لم يكن على وَجهِ الشَّريعةِ فهو أيضًا فاسدٌ، قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٢).

لو قالَ قَائلٌ: هل يُشْتَرطُ للإخلاصِ والمتابعةِ التَّصديقُ؟

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

فالجواب: الإيمانُ معنَاه التَّصديقُ، والإيمانُ شَرطٌ في قَبولِ العملِ، فغيرُ المؤمن لا يُقْبَل عملُهُ، فلا بُدَّ من التَّصديقِ السابقِ على العملِ الصالِح، ثم الإخلاصُ لا يكونُ إلا بالتَّصْديقِ، كيف تُخلص لمن لا تُصدِّقُ به، بل كيف تَتَّبعُ من لا تُصدِّقُ به، فالإخلاصُ والمتابَعَةُ متَضَمِّنانِ التصديقَ.

• ● ۞ ● •

الآيـة (٨)

• ● ● •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٨].

• ● ● •

لما ذَكَر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُجملَ ما تَوعَّد به المخالفينَ وما وَعَد به الموافِقِينَ، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾.

الوَصيَّةُ معناها: العَهدُ بالشَّيءِ المهِمِّ، فمَعْنى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: عَهِدْنَا إليه بأمْرٍ مُهِمٍّ ليقومَ بِهِ، وقوله: ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي: أُمه وأَبيه، وقوله: ﴿حُسْنًا﴾ مَفْعولٌ لـ(وصينا)، ويُحتَمَلُ احتمالًا قَوِيًّا أن ﴿حُسْنًا﴾ منصوبٌ بنَزْعِ الخافِضِ، أي: عَهدنا إليه بحُسْنٍ، أي: بإحسانٍ إليهما، ولا حاجَةَ إلى قولِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: إِيصَاءً ذَا حُسْنٍ]، بل إنَّ المُوصَى به هو نفْس الحُسْنِ، وليس الحُسن هنا وصْفًا للإيصاءِ، بل هو وصْفٌ للمُوصَى به.

والمؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يريدُ من هذا التَّقدِيرِ أن يكونَ الحُسْن وصْفًا لإيصاءِ اللهِ، ومعنى هذا أن يكونَ ﴿حُسْنًا﴾ وَصْفًا لمحذوفٍ، والتَّقْدِيرُ: إيصاءً حُسْنًا، وحُسْنٌ مصْدَرٌ، وإذا كانت مَصْدرًا فإنه يجبُ أن يُقَدَّرَ لها مُضافٌ وهو: ذا حُسْنٍ؛ هكذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والصَّوابُ: أنه وصْفٌ للمُوصَى به، أي: وصَّيْناه بأمرٍ ذِي إحسانٍ، كما قال

تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف:١٥].

وقال المُفَسِّر: [بِأَنْ يَبَرَّهُمَا]. البِرُّ: هو الإحسانُ دُونَ مقابِلٍ، فيُحسنُ إليهما بالقَولِ وبالفعلِ وبالمالِ، والمالُ في الحقيقةِ مِنَ الفِعلِ، فيَحْسُنُ إليهما بالقولِ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء:٢٣]، وبالفِعلِ؛ لقولِه: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤]، وبالمالِ؛ لقوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ﴾ [الإسراء:٢٦].

مثالُهُ: إذا كانَ الإنسانُ يُحسِنُ إلى والِدَيهِ بالمالِ ولا يجعَلْ لهما حاجَةً أبدًا، وقد أَغْرَقهُما بالمالِ إغراقًا، لكنَّه مُجْنِفٌ عنهما من قِبَلِ الكَلامِ، شَكسٌ عليهما، عبوسٌ في وجْههما؛ فإن هذا ليس بِبارٍّ لوالِدَيْهِ، كذلك لو كان ضَحُوكًا إليهما، وليِّنًا معهما بالقولِ، مُغدقًا لهما بالمال، لكن لا يَخْدُمُهُما بنفسِهِ إذا دعَتِ الحاجَةُ إلى ذلك؛ فإنه ليس بِبَارٍّ، فالبِرُّ لا بد أن يكونَ بالقَولِ والفِعْلِ والمالِ.

قوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ أي: بَذَلا جُهْدهما، والجهادُ هُنا مَعْناه: الإلزامُ والإرْغامُ والإحْراجُ، فجَاهَداكَ على أن تُشْرِكَ بِي، بأنْ أمرَاك بالشركِ وبَذَلا الجَهْدَ في ذلك، بالإلزامِ عليك والإحْراجِ، تارةً بمدحِ الشِّركِ، وتارة بذَمِّ التَّوحيد، وتارةً بالإلزامِ والإرْغامِ، وتارة بالتَّوعُّدِ بالقَطِيعة؛ فإذا جاهداك على هذا، يقول الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾؛ لأن حقَّ الخالِق مُقدَّمٌ على حقِّ المخلوقِ، والإشراكُ بالله ظُلم حقِّ الخالق، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، فلا يجوزُ أن تُفرِّطَ في حقِّ اللهِ مِن أجلِ حقِّ هؤلاءِ.

وقوله: ﴿جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾ هِي مِثلُ قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ﴾ [لقمان:١٥].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ﴾ بِإِشْرَاكِهِ ﴿عِلْمٌ﴾ مُوَافَقَةٌ لِلْوَاقِعِ فَلَا مَفْهومَ لَهُ] اهـ.

نَنظُرُ إلى الآية، يقولُ الله تعالى: ﴿لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، فهلْ يقولُ قائلٌ: فإنْ جاهدَاكَ على أن تُشرِكَ بي ما لَكَ به عِلْمٌ فأطِعْهُما؟

الجواب: لو أخَذْنَا بظاهِرِ الآية لقُلنَا: إنها تَدُلُّ على أن الإشراكَ بالله ينقسمُ إلى قِسمين: إشراكٌ ليس بِه عِلمٌ، وإشراك به عِلْمٌ، فالإشراكُ الذي بِهِ عِلمٌ يجوزُ، والإشراكُ الذي ليسَ به عِلْم لا يجوزُ، قلنا: لَيسَ الأمرَ كذَلِكَ، ولكنَّ هذا بيانٌ للواقِعِ أن كُلَّ شركٍ بالله فإنه لا عِلْمَ به عندَ الإنسان، قال الله تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الأعراف:٣٣]، ومَعلومٌ أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما جَعل شِركًا فيه سُلطانٌ، فكُلُّ الشركِ ليس فيه سُلطانٌ، بل إن الشِّرْكَ قد قامَ السلطانُ والعِلْمُ الصحيحُ على أنه باطل، فصَارَ قوله: ﴿لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ معناه: أنه موافِقٌ للواقِعِ، فيكونُ كالتَّعْليلِ لتَحْريمِ الشِّركِ، كأنه يقول: على أن تُشركَ بي والحالُ أن الشركَ ليس لك به عِلْم، فإن الشِّركَ قطعًا لا يمكن أن يقومَ الدَّلِيلُ على وجودِهِ، بل إن الدَّلِيلَ الصحيحَ على انتِفَائِهِ، فإن الله تعالى لا شريكَ لَهُ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ فِي الإِشْرَاكِ]: يعْني لو قال الوالدُ والوالِدةُ مثلًا: إذا لم تُشْرِكْ فإننا نُقاطِعْكَ ولا نُكلِّمْك ولا نَأتي إلى بيتِكِ، فلا تُطِعْهما مهما كان الأَمْرُ؛ لأن هذا هو مَعنى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ معناهُ: ولا تَظُنُّ أنك بمَعصِيَتِكَ لهما يلْحَقُكَ إثمٌ، فإن مَرْجِعَكما إليَّ يوم القيامَةِ فأنبِّئُكم بما كنتم تَعمَلونَ، والمرادُ بالإنْباءِ هُنا لازِمُه، وهو المعاقبَةُ والمؤاخذَةُ، فأنتَ بقيتَ على التَّوحيدِ

فتُجازِى جزاءَ الموحِّد، وهما بَقِيا على الشِّركِ فيُجازَيان جزاءَ المشْرِكِ، بل أبلغُ من ذَلكَ يجازَيانَ جزاء المشركِ الدَّاعِي إلى الشِّركِ؛ لأنهما ما جاهَدَاهُ على الإشراكِ إلا وهما مُقِيمانِ عليه ومُصَرَّانِ عليه، فيكونُ عليهما عُقوبتانِ:

إحداهما: عُقوبَةُ إشراكِهما.

والثانية: عقوبةٌ على دَعْوتِهما إلى الشِّركِ بل ليس دَعوةٌ فقط، وإنَّما مجاهَدَةٌ للولَدِ على أن يُشرِكَ.

قوله: ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني: أنتَ وهُما، ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أُخْبِركُم، والمراد بالإخْبارِ لازِمُهُ، ولهذا قال المُفَسِّر: [فَأُجَازِيكُمْ بِهِ].

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: وجوبُ الإحسانِ إلى الوالِدَيْنِ بالقَولِ والفِعل والمالِ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: إثباتُ رَحْمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حيثُ وَصَّى الإنسانُ بوَالِدَيْه.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: أن للوالِدَين حقًّا وإن كانَا كافِرَينِ، لقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ فهُما مُشركانِ ويجاهِدَانِهِ أيضًا بأنْ يُشْرِكَ، ومع ذلكَ أوْجبَ اللهُ لهما الإحسانَ.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: أنه لا طاعَةَ لمخْلوقٍ في مَعْصِية الخالِقِ لقوله: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾.

الفَائِدةُ الخامِسة: وجوبُ طاعتِهما في غيرِ المعْصيةِ إذا كان ذلك مِنَ الإحسانِ إليهما؛ لأنه إنما نُهي عن طاعَتِهما في المعصِيةِ، وهنا يقال: نُهِيَ المرءُ عن طاعَةِ الوالِدَيْنِ في الشِّرْكِ وسكتَ عن طاعَتِهما في غيرِ الشِّرْكِ، يعني: نهى عن طاعَتهما في المعْصِيَةِ وسَكَتَ عن طاعَتِهما في غيرِ المعْصِيَةِ، وطاعتهما في الواجبِ واجِبَةٌ؛ لأن اللهَ أوْجَبَهَا.

مثاله: إذا قالَ والِدُكَ لك: قُمْ صَلِّ مع الجماعَةِ، وجبَ عليكَ أن تُصَلِّيَ، أما طَاعتُهما فيما ليس بطاعَةٍ ولا معصيةٍ فنقول: إن كانَ في طاعَتِهما إحسانٌ إليهما فإنَّ الآية تدلُّ على الوُجوبِ، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة:٨٣]، فإن لم يكنْ في طاعَتِهما إحسانٌ إليهما فالآية لا تدلُّ على الوُجوبِ، ولهذا قال شيخُ الإسلامِ: «إنَّ طاعَةَ الوالِدَينِ إنما تَجبُ فيما لهما فيه مَنْفَعَةٌ وليس عليه فِيهِ مَضَرَّةٌ»[1].

والآيَةُ تَدُلُّ على ما قالَهُ الشَّيخُ؛ لأنَّ اللهَ نَهَى عنْ طاعَتِهما في المعْصيةِ، وسكتَ عن طاعَتِهما في غيرِ المعْصيةِ، فننظرُ: إن كانَتْ طاعَتهما في غيرِ المعصِيَةِ تَتَضَمَّنُ الإحسانَ إليهما فَهِي واجِبَةٌ، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة:٨٣]، مثاله: إذا أمَرَكَ أبوكَ أن تذهبَ وتشتَرِيَ مِنَ السُّوق حاجَةً، كان ذلِكَ واجبًا عليك لأنه من الإحسانِ إليه، فيَجِبُ عليكَ أن تفعلَ، وإذا أمَرَكَ أبوكَ ألَّا تُصاحِب فلانًا لأنه مُستقِيمٌ، فلا يجبُ عليكَ ذلك؛ لأن في ذَلكَ مَضَرَّةً، أو على الأقل فَوات منْفعةٍ لك، وليس فيه منْفعَةٌ لَهُ.

وإذا قال: لا تُصاحِبْ فلانًا؛ لأن فلانًا بينه وبين أبيكَ عَداوةً شخصيةً وأنت ليس عليك مَضَرَّةٌ وليس لك مَنفعَةٌ من مصاحَبَتِهِ فإنه تجِبُ طاعَتُهُ؛ لأن مصاحبتَكَ لعَدُوِّ أبيكَ يَغيظُ أباكَ، فيكون بذلك منْفَعَةً.

ولو قال لك أبوكَ: لا تَحُجَّ هذا العام، وأنت قادِرٌ على الحجِّ بمالك وبدَنِك ولم تؤدِ الفَريضةَ فلا تُطِعْه؛ لأنه يجبُ عليك أن تَحُجَّ ولو كان لا يَرْضَى بذلِكَ.

فإن قيلَ: إن في تَركِ الحجِّ حصولَ منْفعةٍ للأب، وهي خِدمتُهُ عند الحاجَةِ، فهنا ينظر: فإن كانَ لا يقومُ مقامَكَ أَحدٌ وهو مُضطَّرٌ إليك فالحجُّ يَسقُطُ في هذه الحال،

---

(١) الفتاوى الكبرى (٥/ ٣٨١).

أما إذا كان الحجُّ نَفْلًا، والأب ليس له مَصلَحةٌ في بقاءِ الابن، ولكنه يقولُ: الحُجَّاجُ كثيرون في هذه السَّنَةِ، فلا تَجِبُ طاعَتُهُ ولكن تجوزُ، وإذا قلنا: تجوزُ ولا تَجِبُ، فحينئذٍ ينْبَغي للإنسانِ أن يَنْظرَ ماذا يَتَرتَّبُ على سَفرِهِ، فقد يكونُ الوالدُ لا يستطيعُ أن يستَقِرَّ وولَدَهُ قد سافَرَ إلى هذا الجمع الكثير، ويبْقى قَلِقًا مُدَّة غيابِ ولده، فهنا تترجَّحُ الطاعَةُ وعدمُ السَّفرِ، أما إذا عَلِمنا أنه لا يُبالي ولكنه من بابِ المشُورةِ ولن يتَأَثَّر، فحينئذٍ لا تجبُ طاعَتُهُ في هذا الأمر، إلا أنه يَنْبَغي المدَارَاةُ ما أمكنَ في هذا الباب.

وإذا قال: طَلِّقْ زوجتَك، فلا يجبُ عليك أن تُجيبَهُ، إلا إذا كان في ذلك مصْلحةٌ شرْعِيَّة، مثلُ أن يكونَ الأبُ اطلَّعَ على أمْرٍ لا يتَحَمَّلُ أن تَبْقى زوجتك معك مِنْ أجله، أما إن كان بينَهُما عداوةٌ شَخْصية فلا يجبُ على الابنِ تَركُ زَوجتِهِ، لكن في مثلِ هذا تستَطِيعُ أن تُدَارِيهِ بنَقْلِهَا إلى مكان آخر فيستَريحُ هو وهِي.

وأما فِعْلُ ابنِ عُمرَ مع أبيه، فهذا أُورِدَ على الإمامِ أحمدَ لما سألَهُ رجل أن أَبَّاه أمَرَهُ أن يُطلِّقَ زوْجتَهُ، قال: لا تُطَلِّقْهَا، قال: أليس عُمَرُ أمرَ ابنَ عمرَ أن يطلِّقَ زوجته، فأمَره النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بتَطْليقِها؟ قال: نعم، حَصَلَ هذا، ولكن: هَل أبوكَ عُمَرُ؟ (١)

والجواب: لا. ليس هو عُمَرُ.

إذن الآية الكريمةُ تدلُ على تحريمِ طاعتِهما في المعْصِيَةِ، وسكَتَتْ عن طاعتِهما في غيرِ المعْصيةِ، وعلى هذا فلا تجِبُ طاعتُهُما إلا إذا كانَ دَاخِلًا في أوَّلِ الآية بأن كانَ في ذلكِ إحسانٌ إليهما، فتكونُ واجِبةً لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف:١٥].

---

(١) طبقات الحنابلة (١/ ١٧١).

والحاصلُ أن القاعدةَ في طاعَةِ الوالِدَينِ: ألا تكونَ في مَعْصِيةِ الله، وأن تكونَ مِنَ الإحسانِ إليهما، وألا يكونُ عليه ضَرَرٌ.

الفَائِدةُ السَّادسَة: أن حَقَّ اللهِ أعظمُ من جَميعِ الحقوقِ، ويدْخُلُ في ذلك حقُّ نَبيِّهِ ﷺ، فحَقُّ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عليك أعْظَمُ مِنْ حقِّ والِدَيكَ.

الفَائِدةُ السَّابِعة: أن الإشراكَ باللهِ لا يمكنُ أن يقومَ عليه دَلِيل، والأدِلَّةُ كلُّها على بُطلانِهِ.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: إثباتُ البَعثِ والرُّجوعِ إلى الله لقولِهِ: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾.

الفَائِدةُ التَّاسِعةُ: أن الإنسانَ مُجازَى بعَملِهِ لقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الفَائِدةُ الْعاشِرَةُ: إثباتُ عِلمِ اللهِ؛ لأنَّ الإنباءَ هو الإخْبارُ، ولا يكونُ الإخْبارُ إلا عَنْ عِلْمٍ.

الآيــة (٩)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت:٩].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ فيما سبَقَ أن الَّذينَ آمنُوا وعمِلوا الصالحات يكفِّر اللهُ عنهم سيِّئاتِهِمْ ويَجزِيهِمْ أحسنَ الذي كانوا يعْملُون، وذَكَر هنا جَزاءً آخر: وهو أنه يُدخِلُهم في الصَّالحينَ فيُحشَرُون معهم، و(اللام) في قولِهِ: ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ﴾ موطئةٌ للقَسَمِ، و(النون) للتَّوكيدِ، فالجملة مُؤَكَدةٌ بثلاثَة مؤكِّداتٍ كما تقدم.

قولُهُ: ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هم صالحونَ، ولكنَّ المرادَ بالصَّالحينَ الذين سبقُوهم ودَلُّوهم إلى الخَيرِ، وهمُ الأنبياءُ، والأنبياءُ بلا شكٍّ مِنَ الصَّالحينَ، فقد كان الأنبياءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يُقَابِلُون النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في المعراجِ ويَقولون: «مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ»[1]، فوصَفُوهُ بالصَّلاحِ، وكذلك أيضًا في سُورةِ الأنْبياءِ قَالَ: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء:٨٦]، ولا شَكَّ أنَّ أخصَّ الناسِ بوصفِ الصَّلاحِ هُم الأنبياءِ؛ لأنهم صالحُونَ مُصْلِحون عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء؟ رقم (٣٤٢)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، رقم (١٦٤).

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الأَنْبِياءُ وَالْأَوْلِياءُ بِأَنْ نَحْشُرَهُمْ مَعْهُمْ].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَالْأَوْلِياءُ] فيه نَظَرٌ؛ لأنَّ الذِينَ آمنُوا وعَمِلوا الصالحاتِ هُمُ الأولياءُ، قالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة:٥٥]، فعَلَى هذا يكونُ إدخالُهم في الصَّالحينِ كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّهم يومَ القيامَةِ يُحْشَرُون مع الأنبياءِ، وليس معْناهُ أنهم يُلْحقُون بدَرَجتِهم، فالأنبياءُ أعْلى منْهم، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]، والنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ معه اللِّوَاءُ يُحشَرُ في زُمْرتِهِ كُلُّ من آمَنَ بِهِ.

لو قالَ قائِلٌ: إن قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩]، يؤيدُ قَولَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أن المرادَ بالصَّالحينَ الأولياءُ والأنبياءُ؟

الجواب: هذه الآيةُ لا تُؤيِّد قولَ المُفَسِّر، بل قولُه فيه نَظرٌ كما سبق؛ لأن هؤلاء المذكورينِ هُمْ أولياءُ، ولم يَذْكرِ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ أربعةَ أصنافٍ، بل ذَكَر صِنْفًا واحدًا فقط وهم الصَّالحونَ؛ أي: الأنبياءُ وإن كانَتِ الأصنافُ أربعةٌ، أعني: أصنافَ الَّذينَ أنْعمَ الله عليهم وهُمُ النَّبِيُّونَ، ويدخلُ فيهمُ الرُّسُلُ والصِّدِّيقونَ والشُّهداءُ والصَّالحونَ، والصَّالحونَ عامٌّ يشْمَلُ عُمومَ المؤمنينَ، لكِنِ اعلَمْ أن كُلَّ صالحٍ فهو وَلِيٌّ؛ لأن الوِلايَةَ أَعَمُّ، حتى الأنبياءُ مِنَ الأولياءِ بالمعْنَى العام.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: فضيلَةُ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أنَّ الإيمانَ والعملَ الصالِحَ يُتَوَصَّلُ بهما إلى اللُّحوقِ بالصالحينَ، لقولِهِ تعالى: ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أن الإيمانَ وحْده لا يكْفي في اللُّحوقِ بالصَّالِحينَ.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: أن العَملَ لا ينْفَعُ إلا إذا كانَ صَالحًا، وهو مَا جمعَ شَرْطَيْنِ: الإخلاصَ والمتابَعَةَ، لقولِه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

• ● ❁ ● •

الآية (١٠)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٠].

قولُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (مِنْ) هذه للتَّبْعيضِ، والجارُّ والمجرورُ خبرٌ مُقدَّمٌ.

وقولُهُ: ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ (مَنْ) مبتدأٌ مُؤخَّر معناه: أنه يقولُهُ بِلسانِهِ، ولكنَّه لم يرْسَخِ الإيمانُ في قلْبه، ولهذا فإذا أُوذِيَ في الله جعلَ فِتنةَ الناس كعذابِ اللهِ، فهو يقولُ بلسانه: آمنَّا باللهِ.

قولُهُ: [﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أَذاهُمْ لَهُ ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الخوفِ منه فيُطِيعُهُمُ فيُنَافِقُ] اهـ.

قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ شَرْطٌ، و﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ الجوابُ، وإيذاءُ المؤمنِ من غيرِهِ فِتْنَةٌ يُختَبرُ بها المرءُ، فإن بعضَ النَّاس إذا كان مؤمنًا وحصلَ لَهُ أَذِيَّةٌ لم يصْبِرْ وارْتَدَّ، نسألُ الله العافية، وبعضُ الناسِ في إيمانِهِ قُوَّةٌ لو أُوذِيَ صَبَرَ وازدادَ قوَّةً في إيمانِهِ، لكن هذا الذي قال: آمنا باللهِ لكنْ ليس عِندَهُ إيمانٌ راسخٌ في القلْب؛ لأنه إذا أُوذِيَ في اللهِ ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الخوفِ منْهُ، فيرتَدُّ بسببِ هذا الإيذاءِ ويقول: هذه عُقوبة، فأنا أرْجِعُ عما أنا عليه، وحينئذٍ يُنافِقُ، ولكنه مع هذا

يَدَّعِي أنه مُؤمنٌ، ومتى تكونُ دَعْواهُ هذه؟

الجوابُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾.

﴿وَلَئِن﴾ يَقولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(اللَّامُ) لَامُ القَسَمِ] اه.

و(إن): شَرْطِيَّةٌ، و﴿جَآءَ﴾: فِعْلُ الشرْطِ، وجملة ﴿لَيَقُولُنَّ﴾: جوابُ القسَم، فاجتَمعَ قسَمٌ وشرْطٌ، وابنُ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ جَوَابَ مَا أَخَّـرْتَ فَهْـوَ مُلتَزَمْ[1]

فهنا الذي أُخِّر الشرطُ، فحُذف جوابُه لدلالَةِ جوابِ القَسمِ عليه.

قَال المُفَسِّر: [﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ﴾ لِلْمُؤمِنِينَ ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ فَغَنِمُوا ﴿لَيَقُولُنَّ﴾]: هؤلاءِ جماعَة، فعادَ الضَّميرُ على ﴿مَن﴾ مجموعًا في قولِهِ تعالى: ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ باعتِبَارِ المعْنى، وعادَ الضَّميرُ مُفردًا في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَن يَقُولُ﴾ ولم يَقُل: [مَن يَقولونَ] باعتبارِ اللَّفْظِ.

وأنه إذا جاءَ الاسمُ الموصولُ أو اسمُ الشَّرطِ العام للواحِدِ والجماعةِ، فإنه يجوزُ في ضَميرِهِ أن يكونَ مجمْوعًا وأن يكون مُفْردًا، يعني: أن يُراعَى فِيهِ اللفظُ أو المعْنَى، فإن رُوعِيَ اللفظ صارَ مُفردًا، وإن رُوعِي المعْنى صارَ بحسبِ ما يُرادُ به في المعنى، وسَواءٌ كان ذلك في أسماءِ الشَّرطِ أو في الأسماءِ الموصُولَةِ.

مثالُه في الاسمِ الموصُولِ: هذه الآية.

ومثالُهُ في أسماءِ الشَّرطِ: قولُهُ تعالى في سورةِ الطَّلَاقِ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ

(١) الألفية البيت رقم (٧٠٦).

صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ هنا رَاعى اللَّفْظَ، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ هنا راعَى المعْنَى، ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق:١١]، هنا رَاعَى اللفظَ، ففي هذه الآيةِ مراعاةُ اللَّفظِ، ثم مُراعاةُ المعْنى، ثم مُراعاةُ اللَّفْظ مرَّة ثانيةً.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَيَقُولُنَّ﴾ حُذِفَتْ مِنْهُ نُونُ الرَّفْعِ لتَوالِي النُّوناتِ، والوُاوُ ضَميرُ الجمعِ لالْتقاءِ السَّاكِنينِ]: وبَقِيَت الضَّمة في قولِه: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ دَالَّة على الواوِ المحْذُوفةِ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ فِي الإيمانِ فأَشْرِكُونا فِي الغَنيمَةِ]: هؤلاءُ إِذَا أُوذُوا في اللهِ ارتَدُّوا على أدْبارِهم ووافَقُوا مَن آذاهُمْ، ولكنهم إذا أصابَ المؤْمنينَ نَصرٌ قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ يعني: فنُريدُ أن يحصُل لنا ما حصَل لكُم مِنَ الغَنِيمة، قال الله تعالى رَدًّا عليهم: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الجوابُ: بَلَى.

قَال المُفَسِّر: [﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ﴾ أَيْ: بعَالِمٍ]: وسبقَ أن قولَهُ لا يُعتبرُ تَفسيرًا ولكنَّه تحريفٌ؛ لأن (أعلَمَ) أبلغُ مِنْ (عالم)، فكيف يُردُّهَا إلى عالمٍ وهو أنقَصُ.

قوله: ﴿بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المرادُ بما في صُدُورهم: أي قُلوبِهِم، يعني: أعلمَ بقُلوبِ النَّاسِ؛ لأن القلْبَ محلُّه الصدْرُ، والقلبُ محَلُّ الإرادَةِ، وفي هذا دليلٌ على أن محَلَّ التَّصديقِ والتَّدبيرِ هو القلبُ.

وقولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَلَى]: أي: الجوابُ: بَلَى، وعلى هذا فنَقُولُ لهذا الذي قال: إني معكم؛ نقولُ لست معهم في الحقيقةِ، وذلك لأنَّك كافِرٌ بالله عَزَّوَجَلَّ حينما ارْتَدَدتَ عندما أُوذِيتَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أنَّ الإيمانَ باللِّسانِ فقط لا ينْفَعُ.

الفَائِدة الثَّانِية: حِكمةُ الله تعالى في ابتِلاءِ المرءِ بإيذاءِ الناسِ له في إيمانِهِ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أن الابتلاءَ هو المحَكُّ الذي يتبَيَّنَ به الصادِقُ من غيرِهِ، وإلا لكانَ كُلُّ الناسِ يقول: أنا مؤمنٌ.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: أن من لم يَرْسُخِ الإيمان في قلْبه رجعَ عنه إذا أُوذِيَ فيه.

الفَائِدةُ الخامِسُة: أن المنافِقِينَ يدَّعونَ مشاركَةَ المؤمنينَ عندَ الرَّخاءِ عُمومًا والغَلَبةِ من بابِ أَوْلى، ويُفارِقُونَهُمْ في الشدائِدِ.

الفَائِدةُ السَّادسَةُ: أن النَّصر مِن عندِ الله.

الفَائِدةُ السَّابِعةُ: التحذيرُ مِن النفاقِ، لقولِه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

الآية (١١)

• ● ● •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت:١١].

• ● ● •

قولُه: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: في المستَقبلِ، لأن المضارِعَ إذا دَخلَت عليه نونُ التوكيدِ جعلتْه للمستقْبَلِ، والجملَةُ مؤكَّدَةٌ بثلاثةِ مؤكِّداتٍ، وهي: القَسَمُ، واللامُ، ونُونُ التوكيد، والمرادُ بالعِلْمِ: الذي أكدَّهُ الله هنا وجعله مستقبلًا: عِلمُ المشاهدةِ والمجازَاةِ؛ لأنَّ الله تعالى عالمٌ بالمنافِقِ وبالمؤمِنِ من قَبلِ ذلكَ.

لكنَّ أوَّلًا: إن عِلمَهُ السابقُ علم بأن هذا سيقَعُ، وعِلمُه اللاحقُ عِلم بأنه واقعٌ، هذا الأول.

ثانيًا: عِلْمُه السابقُ لا يترتبُ عليه مجازَاةٌ، إذ لا مجازَاةَ إلا بعدَ الاختبارِ، وعِلمُه اللاحق يتَرتَّبُ عليه مجازاةٌ.

إذنْ: كلما رَأينا اللهَ تعالى عبَّر في القرآنِ عن عِلْمِه بالمستقبل، فإننا نَحْملُه على عِلمِ المشاهَدَةِ والمجازَاةِ، وليس على العِلمِ السابِقِ في الأزلِ؛ لأن العِلمَ السابقَ في الأزَلِ ثابتٌ قبلَ أن يُخلَقَ الناسُ، فضْلًا عن كونِه قبلَ أن يَعمَلُوا، ولكنَّ العلمَ الذي يترتبُ عليه المجازاةُ والمشاهدةُ ما كان بعدَ ذلك ووَقَع، وقد تقدم ذلك.

قَال المُفَسِّر: [﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بِقُلوبِهِمْ]: يعني: لا بأَلْسِنَتِهِمْ،

وأما الإيمانُ الذي تقدَّمَ ذِكرُه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ هذا إيمانٌ باللِّسانِ لا ينْفَعُهُم عندَ الله، صحيحٌ أنه ينْفَعُ في الدنيا، ولهذا لم يَقْتُلِ النبيُّ ﷺ المنافِقينَ مع عِلمِه بهم، لكنه امتنَعَ عن ذلك لأن ظاهِرُهم الإسلامَ، ولو أنه قتَلَهم لكان في ذلك وسيلةٌ إلى أن يُقْتَلَ المسلم بحُجَّةِ أنه منافِقٌ، مع أن ما في قَلبِهِ لا يعْلَمُهُ إلا الله، ولهذا قالَ الرسولُ ﷺ: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»(١).

والحمدُ لله أن هذا هو الشَّرْعُ؛ لأنه لو كانَ الأمرُ خلافَ ذلك لاستطاعَ أيُّ ظالمٍ إذا رأى شخصًا مُتَدَيِّنًا أن يقول: إنه منافِقٌ ومُراءٍ وكافرٌ في الباطنِ، ثم يقْتُله، ولكن من نِعمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن الشَّرع جعلَ الحُكم في هذه الدُّنيا على الظواهِرِ، أما في الآخرة فعَلَى السَّرائرِ.

قَال المُفَسِّر: [﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فَيُجازِي الفَريقَيْنِ]: المؤمنُ يجازِيهِ جزاءَ المؤمِنِ، والمنافقُ يُجازِيه جزاءَ المنافِقِ، وجزاءُ المنافِقِ أنه في الدَّرْكِ الأسفلِ مِنَ النار، والعياذُ باللهِ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٤٥].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَ(اللامُ) فِي الفِعْلينِ لامُ قَسمٍ]: والفِعلانِ هُما (ليَعْلَمَنَّ) الأول، والثاني، في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، فالجُملة مُؤَكَّدَةٌ بثلاثَةِ مؤكِّداتٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾، رقم (٤٦٢٢)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا، رقم (٢٥٨٤).

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن الحكمةَ مِنَ الامتحانِ إظهارُ المؤمنِ مِنَ المنَافق.

الفَائِدةُ الثَّانيةُ: إثباتُ النِّفَاقِ، لقولِهِ: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

الفَائِدة الثَّالِثة: أن المنافِقِينَ ليسوا بمُؤمِنِينَ؛ لأنه خلافُهُ.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: إثباتُ عِلمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما في القُلوبِ.

الفَائِدةُ الخامِسةُ: أن الإيمانَ مَحِلُّهُ القلبُ وليس الجوارحَ، إذ لو كان مَحِلُّهُ الجوارحُ لكان المنافقونَ مُؤمنينَ.

• ● ۞ ● •

الآيـة (١٢، ١٣)

• ● ● •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت:١٢-١٣].

• ● ● •

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ دِينَنَا]: يعني: طَريقَنَا، فالسَّبيلِ بمعنى الطَّريقِ، وهذه دعوةٌ إلى الباطلِ، يقولُ الكُفَّارُ للمؤمنين الذين آمنوا بالرَّسُولِ ﷺ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ أي: طَرِيقَنَا، وهو الشِّرْكُ.

قوله: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ (اللامُ) لامُ الأمْرِ، والمرادُ به الخبرُ، يعني: ونحن نَحْمِلُ خطَاياكُمْ، وإنما جَعُلوا الخبرَ بصِيغةِ الأمرِ لإظْهارِ التزامِ الكافِرينَ للمؤمنينَ بذلك، يعني: بَدَل أن يقولوا: (ونَحْنُ نحْمِلُ)، كأنهم يقولون: ونحنُ نُلزمُ أنفسنا بذلك، فنُوَجِّهُ الأمرَ إليها.

وقوله: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ الخَطَايا: جمعُ خَطِيئَةٍ، وهي ارْتكابُ الإثمِ، يعني: أن ارْتِكَابِكم الإثمَ نحن نَتحَمَّلُهُ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ في اتِّباعِنا إن كانَتْ، والأَمْرُ بمَعْنَى الخَبرِ]: [إن كانت]، إنما قدَّرَهَا المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: لأن هؤلاءِ المشْركينَ الذين دَعَوْا إلى متابَعَتهم لا يعتَقِدونَ أنهم على خَطَأ، فهم يقولونَ للمؤمنين: اتَّبِعُوا سَبِيلنَا، وإن كان

لكُمُ خطايا بهذا الاتِّبَاع فإننا نتحَمَّلها، فالتَّقدِيرُ الذي ذكَرَهُ المُفَسِّر واضحٌ مِنَ الآية؛ لأنهم لو كانوا يَعتَقِدُونَ أنهم إذا دخَلُوا في الشِّرك كانوا مُخطِئينَ لَمَّا دَعَوا إلى الشِّركِ، فتَضَمَّن هذا الكلامُ دَعوةً ودِعايةً، الدعوةُ في قُلوبِهِمْ: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ والدِّعايَةُ: بتَزْيِينَ هذا الأمرِ لهم في قَولِهِمْ: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ يَعْنِي: لا شَيءَ عليكُمْ.

قال اللهُ تعالى مُكَذِّبًا لما ادَّعُوهُ: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ (ما) نافية، وهي هنا حِجازِيَّةٌ، ودخلتِ الباءُ في خَبَرِهَا على حَدِّ قولِ ابنِ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ألفيته[1]:

وَبَعْـدَ (مَا) وَ(لَيْسَ) جَرَّ البَـا الخَـبَرْ ....

فهُنَا بعدَ (ما) أَتَى بـ(الباءِ) الزائدةِ إعْرابًا لتأكِيدِ النَّفْي، أي: أن هَذَا الأمرَ مؤكَّدٌ.

قولُه: ﴿مِّن شَيۡءٍ﴾ (من): حرفُ جَرٍّ زائدٍ، وفائدةُ الزِّيادة تأكيدُ العُموم، سواء كانَ هذا الشَّيءُ قَليلًا أو كثيرًا، أما قوله: ﴿مِنۡ خَطَٰيَٰهُم﴾ الجارُّ والمجْرُورُ في موضعِ نَصْبٍ على الحالِ مِنْ ﴿شَيۡءٍ﴾؛ لأن الوَصْفَ إذا سبَقَ النَّكِرَةَ صارَ حالًا منها، وإن تأخَّرَ صارَ نَعتًا.

وقولُه: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ أي: ما هُمْ حامِلُون شيئًا مِنْ خطاياهُمْ. وهل هذا خبرٌ عن حكمٍ شَرْعِيٍّ، أو عن حُكمٍ شرْعِيٍّ قَدَرِيٍّ؟

أما كونـه حُكمًا شَرْعِيًّا فلا يمكنُ أن يحْمِلَ هؤلاء مِن خطَايا هـؤلاءِ شيئًا، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤].

(١) البيت رقم (١٦١).

وأما كونُهُ خَبرًا عن حُكمٍ قَدَرِيٍّ فلا يمكن أيضًا، لأن هؤلاءَ لو قالوا لهم: نَحمِلُ خطَايَاكُمْ فإنهم كاذِبونَ في ذلك، لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة:١٦٦]، فكأنَّ اللهَ تعالى يُكَذِّبهم في ذلك، ويقول: ﴿وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ﴾، أي: أنَّهمُ لا يَصْدقُون فيما قالُوا.

فصارتِ الآيةُ متَضَمِّنَةً للنَّفْي حُكمًا شَرْعيًّا وللنَّفْيِ حُكمًا واقِعيًّا، فهم في الشَّرْعِ لا يحملونَ أوْزَارَهُمْ، وهم في الواقعِ لا يَحمِلُونَ أوزارِهم أيضًا، ولو قالوا ما صَدَقُوا ولكن يريدون أن يَخْدَعُوهم ويُغْروهُمْ.

ولهذا قال: ﴿إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ أي: كاذِبُونَ في قولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾، ولو قالوا ما صَدَقُوا، كما أنه بالنِّسْبَةِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا يُمكِنُ أن يُحَمِّل أوزارَ هؤلاءِ لهؤلاءِ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤].

ولما كانَ قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ قد يُوهِمُ أنهم لن يَحْملُوا شيئًا مِنْ أوْزارِهِمْ، أي: لن يَحْمِلَ الدعاةُ شيئًا من أوْزَارِ المدْعُوِّين، قال: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ﴾: الفاعلُ هم الدُّعاةُ، وهذه الجملةُ مؤَكَّدَةٌ بالقَسَمِ واللامِ والنُّونِ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَثْقَالَهُمْ﴾ أوْزارَهُم]: يعْنِي: عُقُوبَةَ الذُّنوبِ، وسُمِّيَتِ الأَوْزارُ أثْقَالًا؛ لأنها والعياذُ باللهِ تُثْقِلُ صاحبَها، والضمير في: ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾ يعودُ على الدَّاعِين، يعني لَيحْمِلُنَّ هؤلاء الدعاةُ أثقالَ أنفسهمْ، ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾، أي: أثْقالًا أخْرى مَع أثقالِهِمْ، وهي أثقالُ دَعْوتِهِمْ، قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل:٢٥]،

فهم يَحمِلُونَ أثقالَهُمْ كاملةً، أما أثقالُ المدْعُوِّينَ فلا يَحمِلُونها كامِلةً، ولو حملوهَا كامِلة ما بَقِي للمَدْعُوِّينَ شيء، ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾ نكرةٌ، وتَقَدَّمَ قولُهُ في الآيةِ الأُخْرَى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ [النحل:٢٥]، وذلك لأن الدَّاعِيَ لا يتَحَمَّلُ وِزْرَ المدعوِّ كامِلًا، ولو تحمَّله كاملًا ما بَقِي للمَدْعو شيءٌ، ولكن الوِزْرَ على الدَّاعِي والمدْعُو، والعياذُ باللهِ.

وقوله: ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ لدَعوتِهِمْ إلى الضَّلالِ، وكل مَنْ دَعَا إلى ضلالَةٍ فلَهُ مِثلُ وِزرِ مَن عَملَ بها من غيرِ أن يَنْقُصَ من أوْزارِهِمْ شيء.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ بقولِهم للمُؤمنينَ: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ وَإِضْلالِهِمْ مُقَلِّدِيهِمْ]: والمقلِّدونَ هم الذين اتَّبَعُوهُمْ؛ لأن الكفَّارَ مجتهِدُونَ ومُقَلِّدونَ، أي: رؤساءُ ومُقَلِّدونَ، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص:٤١]، والإمامُ له مأمومٌ يَتبَعُهُ، فالكُفارُ منهم رؤساءُ ومُقَلِّدُونَ، فهؤلاء المقلِّدونَ يحمِلُ الرؤساء مِن أوْزارِهِمْ ما يتَحَمَّلُونَ، وكذلك من أوْزارِ الَّذينَ يَدْعونهُمْ بغيرِ عِلمٍ، لكن إذا دَعْوا شخصًا ولم يَقْتدِ بهم فإنهم يحمِلُونَ أوزارِ الدَّعوةِ فقط دون وِزْرِ العملِ، والسببُ هو عدمُ وجودِ العملِ.

قوله: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ يسألُهُمُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يومَ القيامَةِ، وقد سُمِّي بذلك لأمورِ الأشْهادِ، فإن الأشهادَ يقومونَ في ذلكَ اليوم، والأشْهادُ هُمُ الرُّسُلُ ﷺ وكذلك غَيْرُ الرُّسُلِ مِنَ العلماءِ، وكذلك الجلودُ والألْسُنُ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَفْتَرُونَ﴾ يَكْذِبونَ علَى اللهِ]: لأنهم قالوا: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، فهم كاذِبُونَ في هذا، وسيُسْألُونَ عن هذا الكذبِ، وكذلك كلُّ دَجَّالٍ يَدْعو إلى باطِلَه بالكذبِ، سيُسْألُ عَنْ هذا الكذبِ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سُؤالُ تَوبِيخ]: نعم هو سُؤالُ توبِيخٍ لأجل أن يُقِرُّوا، كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك:٨]، والجوابُ: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:٩-١١].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [و(اللامُ) في الفِعْلين لامُ قَسَم، وحُذِف فَاعِلُهُما الواوُ ونونُ الرَّفْع]: (اللام) الأُولَى في قولِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ والثانية في قولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ﴾ فـ(اللام) لامُ قَسَمٍ، والقَسَمُ مُقَدَّرٌ، والنونُ للتَّوكِيدِ، فصارَ التَّوكيدِ بثلاثَةِ مؤكِّداتٍ.

[وحُذِفُ فاعِلُهُما الواوُ، ونونُ الرَّفْعِ]: أما حذفُ نونِ الرفْعِ فيقولون: لتَوالِي الأمْثَالِ؛ لأن هناكَ ثلاثة نُوناتٍ اجتَمَعْنَ وكُلُّهُنَّ زائدَاتٌ، فحُذِفتِ النُّونُ الأُولى لتَوالِي الأمثالِ، ولم تُحْذَف نونُ التوكيدِ لأنه جَيءَ بها لمعْنًى، فكان الحذفُ لنونِ الرَّفْعِ التي جرتِ العادَةُ أن تُحذَفَ، ومعلومٌ أن الأفعالَ الخمسةَ تُحذفُ نُونها وجوبًا في حالِ النَّصْبِ والجزْمِ، وجوازًا بكثرةٍ في حالِ النَّفْي، وجوازًا بقِلَّةٍ في حالِ الإثباتِ، وحُذِفتِ الواوُ لالتقاءِ السَّاكنين، على حَدِّ قولِ ابن مالك في الكافِيَةِ:

إنْ ساكنـانِ التقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ وَإِنْ يكُنْ لَيـنًا فحذْفُهُ اسْتَـحَـقْ

فقول ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إنْ ساكنانِ التقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ] مثاله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البينة:١]، كُسِرَتِ النُّونُ.

وقوله: «وإن يكنْ لَيِّنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقَّ»، أي حروف اللِّينِ: الألف أو الواو أو الياء.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفَائِدةُ الأُولَى: حرصُ الكافِرينَ على إِغواءِ المؤمنين لقولهم: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾.

الفَائِدةُ الثَّانِيةُ: أن أولئكَ الضَّالينَ يستَعْملونَ أساليبَ الدِّعَايةِ الباطِلَةِ كقولِهِمْ: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾، فإن هذا مِنَ الدِّعايةِ الباطِلَةِ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أن هؤلاءِ الدُّعـاةِ إلى الضَّلالِ كاذِبونَ فيما التَزمُوا به من حَملِ الخَطَايا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾.

الفَائِدةُ الرَّابِعَةُ: أن من كَفرَ هـانَ عليه ما دُونَ الكُفْرِ، فهؤلاء كَفـروا فهانَ عليهم الكَذِبُ لقولِهِ: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾.

الفَائِدةُ الخامِسةُ: الحذَرُ مِن دَعوةِ أهلِ الضَّلالِ ودِعَايتِهِمْ، وأقصدُ بالدِّعَايَةِ تَزْيينُ ما دَعَوا إليه وتَسْهِيلَهُ في نُفوسِ المدْعُوِّينَ، فيجِبُ علينا أن نَحْذَرَ من هؤلاءِ.

الفَائِدةُ السَّادسَة: تَقريرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤]، لقولِهِ: ﴿وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾.

الفَائِدةُ السَّابِعةُ: إثباتُ عِلمِ اللهِ لقولِهِ: ﴿وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾؛ لأنه خَبَرٌ عن الذي سيقَعُ في المستقبلِ.

الفَائِدةُ الثَّامِنةُ: إثباتُ عَدلِ الله حيثُ لا يحَمَّلُ أحدٌ خَطِيئةَ أحدٍ.

الفَائِدةُ التَّاسِعةُ: أن الدُّعاةَ إلى الشَّرِّ عليهم من أوزارِ المدْعُوِّين؛ لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾.

الفَائِدةُ العاشِرَةُ: أن الدُّعاةَ إلى الخيرِ لهم مِثلُ أجرِ المدْعُوِّينَ؛ لأنه إذا كان الدَّاعِي

إلى الشرِّ ينالُه من العُقوبَةِ وهذا من العَدلِ، فإن الدَّاعِيَ إلى الخيرِ ينالُهُ من الأجْرِ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذُو فَضلٍ عَظِيمٍ، فإذا كان اللهُ يُعاقِبُ مَن دَعَا إلى الضَّلالَةِ فكيف لا يُثِيبُ من دَعَا إلى الهُدَى.

الفَائِدة الحَادِيَة عشْرَةَ: خطورةُ الدَّعوةِ إلى الضَّلالِ، حيث إنَّ كلَّ من تأثَّر بهذه الدَّعوة فإن عَلَى الدَّاعِي مثلَ وِزْرِهِ، أو مِنْ وِزْرِه، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥].

الفَائِدةُ الثانِية عشْرة: إثباتُ يومِ القيامَةِ، لقولِهِ: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ﴾.

الفَائِدةُ الثالثةَ عَشَرَةَ: إثباتُ سؤالِ هؤلاءِ عَنْ أعمالِهِم السَّيئةِ، لقوله: ﴿عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ وقد جَمَعْنَا في موضعٍ آخر قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨]، وبينَ قولِهِ تعالى في هَذِهِ الآية: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت:١٣].

الفَائِدةُ الرابعةَ عَشَرَةَ: أن الكَذِبَ يُعاقَب عليه المرءُ، لقوله: ﴿عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ يعني: الَّذي كانُوا يَفْتَرُونه، أما الكذِبُ المباحُ فلا عُقوبة فيِهِ، لكن الكذبَ غيرُ المباحِ عليه عُقـوبَةٌ، وهناك من يقولُ مِنَ النـاس: إن الكَذبَ نوعانِ: أبيض وأسود، فالأسودُ هو ما كان عليه العُقوبَةُ، والأبيض لا عقوبة فيه، والحقيقةُ أن الكَذِبَ كُلُّه أسودُ، وقد يقـولون: الأسودُ ما فِيهِ أكْلُ مالٍ للغَيْرِ أو اعتـداءٌ عليه أو انتـهاكٌ لعِرْضِهِ، يعني ما فيـه مَضَّرة على الغَيرِ فهو كَذِب أسـود، وأما ما فيه التَّرويحُ عن النَّفْسِ والإصلاح وما أشبه ذلك فهذا أبيض، وهذا ليسَ بصَحيحٍ، بل وَرَدَ الوعيدُ على مَن كذِبَ ليُضْحِكَ به القومُ كما في قولِهِ ﷺ: «وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ

فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ»[1]، فالإنسانُ يجِبُ عليه أن يتَجَنَّبَ الكَذِبَ كُلَّهُ، والأصل أن الكَذِبَ حرامٌ.

لو قال قائل: هـل على الدَّاعِـينَ إلى الضَّلالِ وِزْرٌ من كـل الأعمالِ السيِّـئَةِ للمَدْعُوِّين؟

فالجواب: على الدَّاعِينَ وِزْرُ ما تأَثَّرُوا به من دَعْوتِهِمْ، وكذلك كلُّ شيء يتَّبِعُ ما دَعَوا إليه فعَليهم وِزْرُهُ، أما الأعمالُ السيِّئةُ الأُخْرى وما لا دَخْلَ له بالدَّعوةِ، فليس عليهم مِنْ وِزْرِهِ شيء.

• ● ۞ ● •

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب، رقم (٤٩٩٠)؛ والنسائي: كتاب تفسير القرآن، باب سورة المطففين، رقم (١١٦٥٥)؛ والترمذي: كتاب الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس، رقم (٢٣١٥)؛ وأحمد (٥/ ٢) (٢٠٠٣٥).

الآيـة (١٤)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:١٤].

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ (اللام) مُوطِّئَةٌ للقَسَمِ و(قد) للتَّحْقيق، فالجملة مؤكَّدَةٌ بثلاثَةِ مُؤكِّدَاتٍ، وإنما أكَّد الله ذلك وإن كان الخطابُ لغير مُنْكِرٍ؛ لأنه كما تقدَّمَ أن الأمورَ الهامَّة تؤكَّد وإن لم يُخاطَب بها من يُنكِرُ أو يتردد.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ أي: بَعَثْناهُ برسالَةٍ، وكان هذا بعدَ مُدَّةٍ طويلة من آدَم، إذ كان الناسُ بعد آدمَ على ملَّة واحدةٍ بدُونِ رسالَةٍ؛ لأن آدَمَ نَبِيٌّ وليس برَسولٍ، إذ إنه ليس هناك أحدٌ يُرسَلُ إليه، وإنما أُوحِيَ إليه بشرعٍ، وجعل يتعبَّدُ به واتَّبعَه بَنُوه على ذلك، ولكن لما كثُر بنُو آدم اختلفتْ آراؤهُم وأهْواؤهُم فاحتاجُوا إلى الرِّسالةِ، قال الله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، فبيَّن عَزَّوَجَلَّ أن الرُّسُلَ أُرْسِلوا بعد أن اختلَفَ الناسُ، ولهذا هناك قراءة: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّنَ»(١)، وهذه القِراءةُ دلَّ عليها آخرُ الآية: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ

(١) هذه قراءة أُبَيٍّ وابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، انظر: تفسير الطبري (٢/ ٣٤٧)، والتحرير والتنوير (١/ ٥٨٦).

فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾، فأرسلَ اللهُ نُوحًا وهو أوَّلُ رسولٍ أُرسِل إلى البَشرية.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ وعُمرُهُ أربعونَ سَنةً أو أكْثَرَ]: نحن لا نَعلَمُ بالتَّحديدِ كم عُمرُهُ، لكننا نَعلمُ عِلمَ اليَقينِ أنَّ اللهَ أرْسلَهُ وعمره قابلٌ لأن يكون أهْلًا للرِّسالة سواءٌ كان أرْبعينَ سَنةً أو أكثرَ، ولا أظنُّه يكونُ أقلَّ، وقوله: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ فيه شاهد للحَديثِ الصحيحِ: «كَانَ النَّبِيُّ يُبعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(١).

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ يَدعُوهم إلى توحيدِ اللهِ فكذَّبُوه].

﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾ أي: في دَعوتِهم إلى دِينِ اللهِ، ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾: تِسْعَمئةٍ وخمسينَ سنةً يدْعوهُم إلى عبادة اللهِ، عُمرٌ طَويلٌ وهو معهم في صِراعٍ، وفي سُورةِ نُوحٍ يقولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ لئَلَّا يسْمعُوا ما أقولُ: ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ تغطَّوا بها لئلا يرَوْنِي -أعوذ بالله- يعني أنهم يَسدُّونَ كلَّ منافِذَ الوعي: السمعَ والبصرَ، ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ على ما هم عليه مِنَ الباطِلِ ومِنَ المعاصِي، ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن الواجباتِ، ﴿ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح:٢-٩].

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له: في أول كتاب التيمم، رقم (٣٢٨)؛ ومسلم في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢١).

فانظرُ مراحِلَ الدَّعوةِ العَظيمَةِ ومع ذلك ما استَفَادُوا شيئًا، فما آمَنَ معه إلا قليلٌ، فالمدَّةُ طويلَةٌ والدَّعوةُ متنَوِّعَةٌ والمضادَّةُ والمحادَّة لنُوحٍ شديدةٌ وعظيمةٌ، يمرُّونَ به وهو يصنَعُ السفينة ويَسخَرونَ منه، لكنه مؤمِنٌ بالله عَزَّوَجَلَّ ويقولُ: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود:٣٨-٣٩].

هذه المدَّة الطويلةُ يقولُ الله تعالى في سُورَةِ هُودٍ: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠]، حتى إن أحدَ أولادِهِ ما آمَنَ، وهذا يوجِبُ لنا أن نَصْبِرَ ونحْتَسبَ، والإنسانُ مِنَّا إذا دَعا الناس لمدة ساعَةٍ ولم يَسْتَجِبْ أحدٌ غضِبَ وتركَ الدَّعوةَ وقال: لا توجدُ فائدةٌ، ونوحٌ لَبِثَ ألفَ سنة إلا خمسين عامًا ومع ذلك ما آمنَ مَعه إلا قليلٌ.

يقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ القَصصُ تكون أحيانًا مختَصَرةً يُذكرُ فيها السببُ والأثرُ بدونِ تفْصيلٍ، إرسالٌ ومكثٌ طويلٌ وبعدَ ذلك أخذٌ، لكِنْ أخذٌ بسببٍ، وهو قولُه: ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ (أخذهم) أبْلغُ من قوله: (فأغْرقهم)، والأخذُ يكون في مقابَلَةِ عَملٍ فهُو جَزاءٌ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلطُّوفَانُ﴾ أيْ: الماءُ الكَثيرُ، طافَ بهم وعَلاهُم فغَرِقُوا]: طافَ بهم من كلِّ جانبٍ -والعياذُ بالله-، وقد ذَكر اللهُ تعالى شأنَ هذا الأمرِ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١١-١٢]، كلُّ أبوابِ السماء فُتِحتْ، وإذا فتِحَتْ أبوابُ السماءِ ستكونُ مِثْلَ القِربِ، ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾: يعني نازلًا بشِدَّةٍ وقُوَّةٍ، ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾: الأرضُ كلها تَفجَّرتْ عُيونًا حتى قال الله في آيَةٍ أُخرى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود:١٠]،

وهو موضِعُ النارِ البَعيـدِ عن الرُّطوبَةِ، (فار): بدأ يَفورُ عُيونًا، يعـني سيكونُ الماء بعدَ ساعاتٍ فوقَ قِمَمِ الجبالِ، وهكذا كان بإذنِ الله، فالأرضُ كُلُّها تَبُثُّ عُيونًا، والسماءُ مُنهَمِرَةٌ بالمياهِ العَظِيمة، ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾: ماءُ الأرضِ وماءُ السماءِ ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ وقد وردَ في الحـديثِ أنه: «لَو رَحِمَ اللهُ أَحَـدًا مِنْ قَوْمِ نُوحٍ لَرَحِـمَ أمَّ الصَّبِيِّ»[1]، وهي امرأة كانَ معها صَبِيٌّ كلما وصَلَهَا الماءُ صَعِدت إلى الجبلِ، وكلما وصَلَها صَعِدت، حتى وصلتْ إلى قِمَّةِ الجبل فلما ألجَمهَا الماء حَملتْ ولَدَها فوقها لأجلِ أن تَغرق قبلَ ابنِهَا، ولكن -والعياذ بالله- رحمةُ الله تعالى لا تُدركُ الكافِرينَ بعد أن يَروا العذابَ، قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر:٨٥].

قوله: ﴿وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ جملةٌ في موضِعِ نَصبٍ على الحالِ مِنَ الهاءِ في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾، يعني: والحالُ أنهم ظالمونَ، أي: مُقِيمون على الظُّلمِ لم يُؤمنُوا؛ لأنه ما آمن مع نُوحٍ إلا نفَرٌ قليلٌ.

•●۞●•

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٧٢) (٣٣١٠).

الآيــة (١٥)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٥].

• • • •

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي: نُوحًا]: أي: أَنْجَى اللهُ نُوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من هذا الطُّوفانِ العَظيمِ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾، ﴿وَأَصْحَٰبَ﴾ معطوفَةٌ على الهاءِ في قولِهِ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ يعني: وأَنْجَيْنَا أيضًا أصحابَ السفينةِ، يعني: أهلَهَا الذين كانوا معه فيها وهم مُؤمنونَ، أي: أهلُ نوحٍ كُلُّهُم إلا ابنَه الكافرَ وامرأتَهُ، والمؤمنون من قومِهِ، وكذلك أيضًا الحيوانات من كلِّ زَوجين اثْنين، فكلُّ الذي على وجْهِ الأرضِ من الحيواناتِ حُمِلَ في هذه السَّفِينَةِ؛ لأن الله أغرقَ كلَّ شيءٍ على الأرض.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ جَعلنَاهَا عِبرةً للعَالمينَ]: والهاءُ في قولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ قد تعودُ إلى القِصةِ، وتحتمل أن تعود إلى السَّفينةِ، ويؤيد أنها للسَّفينةِ أنها أقربُ مَذْكورٍ، ويؤيِّدُ العمومَ أن العِبرة ليستْ بالسَّفينة فقط بل بالسفيـنةِ والقِصَّةِ، حيث إنه بَقِي هذه المدةَ الطويلةَ ولم يؤمِـنْ معه إلا قليلٌ، وحصل هذا الغَرقُ العظيـمُ الذي لا نَظيرَ له فيما نعلـمُ، فَهي -أي: القـصة- آيَةٌ للعَالِمينَ.

وأما إذا قلنا: إن الهاءَ تعودُ إلى السَّفينةِ فذلك لأن الله تعالى يقولُ: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤٢]، أي: خَلَقْنا لهم مِن مِثْلِ الفُلْكِ المشْحونِ الذي نُجِّيَ به نوح ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾، فصار أوَّلَ من صَنعَ السُّفنَ نوحٌ، ثم أخذهَا الناسُ منه.

وتأمَّلِ الحكمةَ في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر:١٣]، ولم يقل: حَمَلْناه على السَّفينةِ، تنبيهًا على الموادِّ التي يُسمُّونها الموادَّ الخامَ في صُنعِ السفينة، وهي الألـواحُ والدُّسُر، يعني: المسَاميرَ، فهي تُصنـعُ من الألواحِ والمسَاميرِ حتى يَعرفَ الناسُ ذلك، وهذا هو الواقع، فإنَّ الناس عَرَفوهَا وتطورتِ الصنْعةُ إلى أن وصلتْ إلى ما وصلتْ إليه الآن.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ بعضُ العُلماءِ يقول: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ أي: السفينةَ عينَهَا، وأن أجزاءً من هذه السَّفينةِ بَقي موجُودًا إلى أن أدْركَهُ آخِرُ الأمم، وهم أَوَّلُ هذه الأمَّةِ على الجُودِيِّ الذي ثَبتَتْ عليه، وهذا فيه نَظَرٌ.

والقولُ الثاني: أن الهاءَ في قولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ يعودُ على السفينةِ باعتبارِ الجِنسِ لا باعتبارِ الشَّخْصِ؛ لأن سفينةَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مرَّتْ عليها قُرونٌ عظيمة فتكَسَّرَتْ وأتْلَفتْها الرِّياحُ والشمسُ وذهبت، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا﴾ [الملك:٥]، (جعلناها) أي: الشُّهُبَ التي تخرجُ من هذه المصَابِيحَ: ﴿رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك:٥]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾ [المؤمنون:١٢]، أي: الإنسانَ باعتبارِ جِنْسِه، فالضَّميرُ يعودُ إلى الإنسانِ باعتبار الجنْسِ لا باعتبارِ الشَّخصِ؛ لأنَّ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي خُلِق مِن سُلالةٍ من طِين ولم يكن في الأرحامِ نُطفةً في قرار مَكِينٍ.

فعلى هذا يكونُ قوله تعالى هنا: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ فيه قولانِ لأهْلِ العِلم:

- إما باعتِبارِ الشَّخصِ.
- وإما باعتبارِ الجِنْسِ.

قوله: ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، المرادُ بالعالمين هنا منْ بعدَهُم مِنَ الناسِ، كما قال المُفَسِّر: [لِمَنْ بعْدَهم مِنَ الناسِ إن عَصَوا رُسُلهُمْ]، فكأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إن الضَّميرَ في قولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ يعودُ على القصَّة كلِّها، وأنها عِبرةٌ للعالمين، يعني: أنهم إن عَصَوا رُسلَهُم فسيَحِلُّ بهم مِنَ العُقوبَةِ ما حَلَّ بقومِ نُوحٍ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وعَاشَ نُوحٌ بعدَ الطُّوفانِ سِتِّينَ سَنَة أو أكثرَ حتى كَثُرَ الناسُ]: أي: أن نُوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عاشَ أربعينَ سَنة قبلَ البَعْثَةِ، وسِتِّينَ سنة بعدَ الطُّوفانِ هذه مئةُ سَنة، ودَعا النَّاس تِسْعَمئةٍ وخمسين سنة، فالمجموعُ ألفٌ وخمسون، لكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يجْزِم لأنه قال: [عَاشَ سِتِّينَ سَنَة أو أكثرَ]. ونحن نقول: ليس لنا فائدةٌ في مَعرِفةِ كَم لَبِثَ قبلَ الرِّسالة، ولا في معرفةِ كَمْ لَبِثَ بعد الطوفانِ؛ لأن المهمَّ هي القصَّةُ، فهذا أولُ الرُّسُلِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ومع ذلك وَجَد مِنْ قومِهِ مِنَ المعارضاتِ والاستِكبارِ وَرَدِّ دَعوته ما لم يجِدْهُ نَبِيٌّ مثله، ولا نَعلمُ أن نَبِيًّا بقي في قومِهِ ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عامًا إلا نُوحًا.

وعندنا مَثَلٌ عامِّيٌّ مشهور يقول: (عَسى عُمرُك عُمْر شُعَيبٍ) فهذا مثل غيرُ صَحيحٍ؛ لأن الذي بلَغَنا مِنْ كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن أطولَ النَّاسِ عُمُرًا نوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولو قالوا: (عَسى عُمُرك عمرَ نوحٍ) كان معقولًا، ولا ندري إن كان نوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أطولَ عُمرًا من آدم عليه السلام.

فائدة: في قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقولُ الله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [هود:٢٥]، فالذي يُكذِّبُ رَسولًا

مِنَ الرُّسلِ مُكَذِّبٌ للجميعِ، فلا فَرقَ بينَ نُوحٍ وهودٍ وصالحٍ، فكُلُّهُم يجِبُ الإيمانُ بأنهم رُسلٌ، فمَنْ كذَّب واحدًا منهم قامَتِ البَيِّنَةُ على أنه رسولٌ فكأنما كذَّبَ جميعَ الرُّسلِ، مثلُ الذي آمن بِبَعْضِ الرِّسالاتِ وكَفَر ببعضٍ فقد كَفَر بالجميع، ومن يقـول: إن الصلاةَ مفروضةٌ لكني لا أُؤمِنُ بأن الزَّكـاةَ فَرضٌ، نقول: الآن كَذَّبتَ بالصلاةِ وبالزكاة؛ لأن إيمانَكَ بأن الصلاةَ مفروضةٌ دون الزكاةِ عن هَـوىً لا عن هُدًى؛ لأنه لو كان عن هُدى لآمنتَ بالزَّكاةِ كما آمنتَ بالصلاةِ، فأنتَ إذن لستَ بمُؤمن لا بهذه ولا بِتلكَ.

• ● ❁ ● •

الآية (١٦)

• ● ● •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:١٦].

• ● ● •

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ مفعولٌ لِفعلٍ محْذُوفٍ تَقديرُهُ (اذْكُرْ)، والفَائِدةُ من حذْفِ العامِلِ هو الاختصارُ وبيانُ الاهتمامِ بالمعمولِ، فهُنا حُذِفَت (اذكر) اختصارًا واهتمامًا بالمعمولِ وهو (إبراهيمُ) ليبْدَأ به أوَّلًا.

وإبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كلنا يَعْرفُ أنه ثاني أُولي العَزمِ من الرسلِ الَّذين أولُهم محمَّدٌ ﷺ، واختلَفُوا أيهما أفْضلُ -أعني نوحًا وعِيسى- والأَوْلى أن يُقالَ: لكلٍّ منهما مَزِيَّةٌ، أما الثلاثةُ محمَّدٌ ثم إبراهيمُ ثم مُوسى، فهذا متَّفقٌ عليه، أي: على التَّرتيبِ.

وقد ابتَلاهُ الله تعالى بأمْرين:

أحدهما: في الدَّعوةِ إلى اللهِ. والثاني: في أعزِّ محبوبٍ إليه.

أما في الدَّعوةِ إلى اللهِ فإن الله ابتَلاهُ بأن سلَّط عليه قومَه ليَحْرقُوهَ، والنتيجةُ أن الله أنْجاهُ مِنَ الموتِ، وقال للنَّارِ: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩].

أما الأمرُ الثَّانِي: فهو في أعزِّ الأشياءِ إليه، وهو ابنه حين بلَغَ السَّعْي، وهو وَحيدُهُ وأوَّلُ أولادِه، وهو إسماعيلُ على القولِ الصَّحِيحِ، ابتلاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بأنْ أَمرَهُ بذَبْحِهِ، بل أمْرُهُ بأن يَذْبَحه هو، فاستَسْلَمَ لهذا الأمرِ وامتَثَلَ، والقِصَّةُ معروفةٌ،

وأنجاهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منه حينَ قالَ له: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الصافات:١٠٤-١٠٦]، إلى آخرِ الآياتِ، وسُمِّي خَليلًا واتَّخذَهُ الله خَليلًا بسببِ هذا الأمْرِ، حيثُ قدَّمَ محبَّةَ الله تعالى على أحبِّ شيءٍ إليه، وبعضُ النَّاسِ الجهالِ -في الواقع- يَصفُونَ النَّبيَّ ﷺ بأنه حبيبُ الله وأن إبراهيمَ خليلُ الله، وهذا خطأ، فإن مُحَمَّدًا ﷺ خليلُ الله أيضًا، كما ثَبتَ ذلك عَنْهُ[1]، والذي يقولُ: إن مُحَمَّدًا حبيبٌ وإبراهيمُ خليلٌ قد تَنقَّصَ النَّبيَّ ﷺ؛ لأن دَرجَةَ المحبَّةِ أدْنَى مِنْ درجةِ الخُلَّةِ.

وقوله: ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ﴾ (إذ): ظرف في موضعِ نَصْبٍ على الحالِ، أي: حالَ كونِهِ قائلًا لقومِهِ، والقومُ هُم الجماعَةِ الذين يَنْتَسِبُ إليهم الإنسان بنَسَبٍ أو هَدَفٍ، كل من ينْتَسِبُ إليه الإنسان بنَسبٍ أو هدفٍ فهم قومُهُ: وذلك بأن تكونَ دَعواهم واحدةٌ وطَريقهم واحدِةٌ، والمراد بقومه هنا: مَن ينْتَسِبُ إليهم بقرابَةٍ.

قَال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾: خَافُوا عِقابَهُ]: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أصلُ العِبادَةِ مأخوذٌ مِنَ الذُّلِّ، ومنه قولهم: طريقٌ مُعَبَّدٌ، أي: مُذَلَّلٌ؛ لأن العبدَ يَذِلُّ لَمعبُودِهِ، فالعبادةُ إذن: التَّذَلُّل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بفعلِ أوامِرِهِ واجتنابِ نَواهِيهِ، وقد حدَّها شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنها: «اسمٌ جامعٌ لكُلِّ ما يحبُّهُ اللهُ ويرْضاهُ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ»[2]، وهذا حد لها في الواقع باعتبارِ مَيدَان العبادةِ، أما أصْلُهَا فإنها من الذُلِّ؛ لأن مقتضاهَا في اللُّغَةِ أن يتَذَلَّل الإنسانُ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بطاعَتِهِ، فِعْلًا للأوامِرِ وتَركًا للنَّواهِي.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور...، رقم (٥٣٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

واعلم أن العبادةَ تنْقسمُ إلى قسمين:

أوَّلًا: الخضوعُ للأمرِ الكَونِيِّ؛ وهذه عامَّةٌ لكل أحَدٍ، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، كُلُّ مَن في السَّمواتِ والأرضِ من مؤمنٍ وكافرٍ وبارٍّ وفاجرٍ، كلهم يأتُونَ الله تعالى بهذا الوصفِ.

وهل من هذا قوله تعالى يخاطِبُ إبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢]؟

الجواب: إن قلنا الاستِثْنَاءُ متَّصِلٌ فهو منهم، أي: إبليس، وإن قُلنا: منْقَطِعٌ فليس منهم، أي: إن جعلنا الاستِثْنَاءَ متَّصِلًا فإن المرادَ العبوديةُ العامَّة، التي لا يُستَثْنَى منها أحدٌ، فكلُّ الخلْقِ خاضِعونَ لأمرِ اللهِ الكَونِيِّ، ولا أحدَ يقْدرُ أن يدفعَ المرضَ أو الموتَ عن نفسه، ومنه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، وإن جعلناه منْقَطِعًا فالمرادُ هو النَّوعُ الثاني مِنَ العُبودِيَّةِ.

النوع الثاني: العُبودِيَّةُ الخاصَّةُ، وهي التَّذَلُّلُ لأمرِ الله الشرعيِّ، ومنها قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]. فهؤلاءِ تذَلَّلُوا للأمرِ الشَّرْعِيِّ، وهنا في الآية الكريمةِ قال إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، فهو يريدُ التَّعبُّدَ لله بالعبادةِ الشَّرعيةِ.

قوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ عَطْفًا على قولِهِ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، والعَطفُ كما قِيلَ: يقْتَضِي المغَايَرةَ، ونحنُ ذكرنَا أن العِبادَةَ هي التَّذَلُّلُ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالطاعةِ.

و(التقوى): اتِّخاذُ وقايَةٍ مِنْ عذابِهِ بطاعتِهِ، وعلى هذين التَّفْسِيرَيْنِ يكون عطفُ التَّقْوى على العبادةِ من بابِ عطفِ الشَّيءِ على نَفْسِهِ، والمعروفُ أن بلاغَةَ القرآنِ

تَأْبى ذلك، أي: تَأبى أن يَعْطِفَ الشيء علَى نفْسِهِ لأن ذلك من بابِ التَّكْرارِ.

فما هو الفرقُ الذي يكونُ به العَطف مُقْتَضِيًا للمغايَرَةِ؟

ونزيدُ الأمرَ وُضوحًا فنقول: إذا قلنا: إن التَّقْوَى اتِّخَاذُ وقايةٍ مِنْ عذابِ الله بطاعَتِهِ، والعبادَةُ التَّذَلُّلُ لله تعالى بطاعَتِهِ، صارَ معناهما واحدًا، والعطفُ يقْتَضِي المغايَرَةِ.

فكيف يمْكِنُ أن نُفَسِّرَ العبادةَ بمَعنى يُغَايِرُ معنى التَّقْوى؟

والجوابُ على هذا من أحدِ وَجْهينِ:

الوجه الأول: أن يُرادَ بالعبادَةِ في هذه الآيـة فِعلُ الأوامِرِ، وبالتَّقْـوى تركُ النَّواهِي، يعني أن تَتَّقِيَ المعاصِيَ وأن تفعلَ الطاعَاتِ، هذا إذا كانت الكلمتان كُل واحدة منها تَشْمَلُ معنى الأُخْرَى عندَ الانفرادِ وتَغَايُرها عند الاجتماعِ؛ وهذا له أمثِلةٌ كثيرة، مثـل: الفَقير والمسكِينِ، هما شيءٌ واحدٌ عنـد الانفرادِ، ويختلفانِ عندَ الاجتماعِ، البِرُّ والتَّقْوى كذلك، هما شيء واحدٌ عند الانفرادِ، وشيئان عندَ الاجتماعِ، فهنا نقول: العبادةُ والتَّقْوى شيءٌ واحد عند الانفِرَادِ، وعند الاجتماعِ تُفَسَّرُ العِبادةُ بفِعلِ الأوامِرِ، والتَّقْوى باجتِنَابِ النَّواهِي.

الوجه الثاني: أن يُرادَ بالعبادَةِ: مطلقُ الالتزامِ والتَّـذَلُّلِ، والتَّقوى المرادُ بها: اتِّقاءُ العمـلِ المعَيَّنِ؛ لأنه ليس كلُّ من قام بمُطلقِ العِبادَةِ يقومُ بالتَّقوى، فكثيرٌ من المسلمين الآن يعبدون اللهَ، ولكنهم لا يتَّقُونَهُ في أشياءَ كثيرة.

عنـدنا الآن الصومُ، هل الصائمُ يتَّـقِي الله عَزَّوَجَلَّ في كلِّ شيء بحيـثُ يتْرُكُ الكذِبَ والغِيبةَ والشَّتْمَ والمحرَّم وقولَ الزورِ والعملَ بِهِ؟

الجواب: ليس كُلُّ صائمٍ هكذا.

وعلى هذا فنقول: المرادُ بالعِبادَةِ: مُطلَقُ الالتزامِ والتَّذَلُّلِ، وبالتَّقْوى أن يتَّقِيَ الإنسانُ ربَّه في كُلِّ جِنسٍ من جِنسِ المعاصِي وأفرادِها، وهنا يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [خَافُوا عِقَابَهُ]، ولو أن المُفَسِّر فسَّرَ الآيَةَ بما يُطَابِقُ اللفظَ لكان أَوْلى، فلو قال: اتَّقُوا عقابَه لكانَ أَوْلَى.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني: مما أَنْتُم عليه مِن عبادَةِ الأصنامِ، و﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المشارُ إليه العبادةُ والتَّقْوى.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: فَضيلَةُ إبراهيمَ حيثُ أمَرَ قومَه بما ذُكِر.

الفَائِدة الثَّانِية: أنه ينبغي ذِكْرُ الدُّعاةِ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما يَرفَعُ من شَأْنِهِمْ؛ لأننا قَدَّرْنا ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ مفعولٌ لِفِعْلٍ محذوفٍ تقْديرُهُ: اذْكر إبراهيمَ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: وجوبُ عِبادةِ الله وتَقْواهُ، لقولِه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾، لأن الأصلَ في الأمْرِ الوجوبُ.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: أن خيرَ ما يحصُلُ عليه العبدُ عبادةُ الله وتَقْواه، لقولِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

الفَائِدةُ الخامِسة: أنه لا يَعْقِل الخيريَّةَ في العبادَةِ والتَّقْوى إلا أهلُ العِلْمِ، وذلك لقولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

• ● ۞ ● •

الآية (١٧)

• • ☙ • •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:١٧].

• • ☙ • •

الفَائِدةُ الأُولَى: أن كُلَّ ما يُعبدُ من دُون الله فإنه وَثَنٌ لا ينْفَعُ ولا يأتِي بالرِّزْقِ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أن تَسمِيَةَ هذه الأوثانِ بالآلهَةِ كَذِبٌ، لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أنه يَنْبَغِي لمن ذَكَرَ حُكمًا أن يَذْكُر عِلَّته، لقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾.

الفَائِدة الرَّابِعة: أنه ينْبغي الاستِدْلالُ بالمَحْسُوسِ على المعقولِ، لقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾، فهذا دَلِيلٌ محسُوسٌ، ووجه الاستِدلالِ بالمَحْسوسِ على المعْقولِ أن المحسُوسَ لا ينكِرُهُ أحدٌ، لكنَّ المعْقُول قد لا يتَصَوَّرُهُ الإنسانُ فضلًا عَنْ كونِهِ يُقِرُّ به، فالاستدلالُ بالشَّيءِ المحسُوسِ على المعْقولِ، هذا مِن طُرقِ المناظَرةِ وإقامةِ الحُجَّةِ والإلْزَامِ.

الفَائِدةُ الخامِسة: أن الَّذي يجِبُ أن يُلجأ إليه هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لقَولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾.

الفَائِدة السَّادسَة: أن العبادةَ والشُّكْرَ سببٌ لتَحصيلِ ووجودِ الرِّزقِ، وسببٌ أيضًا لبَقائِهِ، فقولُه: ﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾ هذا سبـبُ الرِّزق، وقوله: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ هذا سَببُ البَقاءِ.

الفَائِدة السَّابِعة: وجوبُ شُكرِ النِّعمَةِ لقوله تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾، و(شَكَرَ) يأتي متَعدِّيًا ولازمًا، فاللازمُ مثلُ قولِهِ: شَكَرتُ له، والمتعدِّي مثل قوله: شَكَرْتُهُ، فهنا إذا قُلنا أنه متَعَدٍّ فيكونُ المفعول محذوفًا، والتقديرُ: اشْكُروا نِعمتَهُ مخلِصِينَ له.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: إثباتُ البَعثِ، لقوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، وهذا يكونُ يومَ القيامةِ بعدَ البَعثِ.

الفَائِدةُ التَّاسِعةُ: إثباتُ الجزاءِ على الأعمالِ لقولِه تعالى: ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ لأن الفَائِدةَ من هذا الإخبارُ بأنهم سيُبْعثونَ ويجَازَوْنَ ليس مجردَ بعْثٍ بدونِ جزاءٍ، بل لا بُدَّ فيه من جَزاءٍ.

الآية (١٨)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت:١٨].

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: تَهديدُ المكذِّبينَ للرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لقَولِهِ: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾، وقد عَلِموا ما جَرَى لهم، فعَلى هذا يكونُ في ذلِكَ تَهديدٌ لهؤلاءِ المكذِّبينَ للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أن الرُّسُلَ يجبُ عليهم الإبلاغُ لقولِهِ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾؛ لأن (على): تُفِيدُ الوجوبَ، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران:٩٧]، يعني: الواجِبَ، فـ(على): إذا قيل: على فُلانٍ كذا وكذا، فإنها تُفِيدُ الوجوبَ.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: أن الرُّسلَ لا يجبُ عليهم هِدايَةُ الخَلْق، فليس عليهم إلا البلاغُ، أما الهِدايةُ فإلى الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك الحسابُ على الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠].

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: وجوبُ الإبلاغِ على أهلِ العِلمِ؛ لأن العلماءَ ورَثَةُ الأنبياءِ[1]،

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود: كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم (٣٦٤١)؛

فيَجِبُ عليهم الإبلاغُ كما يجِبُ على الرُّسُلِ.

الفَائِدةُ الخامِسة: أن القرآنَ متضمِّنٌ لجميعِ الأحكامِ العَقَدِيَّةِ والعمليَّةِ، وأنه أتى بذلك على أكملِ وَجْهٍ وأبْيَنِهِ، لقولِه: ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، فعليه البلاغُ لكُلِّ ما أُرْسِل به، والنَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أُرْسِلَ بعقَائدَ صحيحةٍ سليمةٍ وبأعمالٍ قويمَةٍ وبأقوالٍ مستَقِيمَةٍ، وعلى هذا نستَدِلُّ بهذه الآية على أن جميعَ الشَّريعة بيِّنة مُكَمَّلَةٌ واضِحةٌ، فنردُ بها على جميعِ أهلِ البِدَعِ؛ لأن أهلَ البِدَعِ يستَلْزِمُ قولهم ألا يكونَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بلَّغَ البلاغَ المبِينَ.

مثال ذلك: الذين يُنْكِرُونَ حقيقةَ استواءِ اللهِ على عَرْشِهِ، يقولون: إن معنى الاستواءِ الاستيلاءُ على العَرْش، هؤلاء تُكَذِّبُهم هذه الآية، إذ لو كان المرادُ بالاستِواءِ الاستيلاءُ لأتى هذا المعنى ولو في آيَةٍ واحِدَةٍ، وآيات الاستواءِ في القُرآنِ سبعُ آياتٍ، لم يأتِ في أي منها: استَوْلى على العَرش، فنقول: أنتم كاذِبُونَ، تكذِّبُكُم هذه الآية.

وكذلك بقِيَّةُ الشبهات التي يحتَجُّ بها أهلُ التَّعطيلِ أو أهلُ التَّمْثِيلِ أيضًا، فأهلُ التمثِيلِ الذين يقولون: إن الله استَوى عَلَى عَرْشِهِ حقيقة، فإن استواءه كاستواء المخلوقِ عَلى المخلوقِ، كاستواءِ المَلِك على عرش المُلك، وما أشبه ذلك، نقول: هؤلاءِ أيضًا يُكَذِّبُهُم قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ لأنَّ الرسولَ بلَّغَ البلاغَ المبِينَ، وقد أتَانَا من بيانِه قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

= والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٢)؛ وابن ماجه: افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٣).

فإن قال قائلٌ: يوجدُ وقائعُ الآن تَقَعُ ولا نَرى لها ذِكرًا في القُرآنِ ولا في السُّنَّةِ، فما هو الجواب على ذلك؟

فالجواب: إنها مُبيَّنةٌ بيان الجِنس، فليس بلَازمٍ أن القرآنَ يأتِي بكُلِّ فَرد، أو السُّنَّة تأتي بكُلِّ فرد؛ لأن أفرادَ القضايا لا حَصْرَ لها، ولو أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذَكَر في القرآنِ كُلَّ قَضِيَّةٍ تأتي إلى يوم القيامةِ فكَمْ يكونُ القُرآنُ مِن مجلَّدٍ؟

لكننا نقولُ: هذه الأفرادُ -أعني أفراد هذه المسائل- موجودَةٌ بأجْناسِهَا وعِلَلِها وقواعِدِهَا، إما أن تكون بالقياسِ وإما أنها مسْكوتٌ عنـها، والسُّكوتُ في مقامِ البيانِ بيانٌ، كما قال النبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «مَا سُكِتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ»(١).

المهم أَنَّنَا نقولُ: ما من قَضِيَّـةٍ تقعُ إلا وحُكْمها موجـودٌ في القرآنِ أو السُّنَّةِ باعتبارِ جِنسِهَا، فجِنسُ هذه القضية موجودٌ في القُرآنِ إما بقاعِدَةٍ عامَّةٍ أو بقياسٍ صحيحٍ أو ما أشبه ذلك، لكن الخَلَلَ والنَّقْصَ جاء من قلَّة العِلم وقُصورِ الفَهم - أو نقول: عدمُ معرِفَةِ الحقِّ من الكتابِ والسُّنَّةِ- سببُهُ أربعةُ أمورٍ:

الأولُ: قِلَّةُ العِلم؛ فالخللُ هنا مِنَ الإنسانِ؛ لأنه ليسَ عِندَه عِلم، فالإنسان لا يستطيع أن يُحيطَ بالسُّنَّةِ رغمَ أنه قد يُحيطُ بالقرآن، فتوجَدُ أحاديثُ قد لا يَعْلَمُها الإنسان وما كانت تَدورُ في ذِهْنِهِ من قبل لعَدمِ عِلمه بها.

الثاني: قُصورُ الفَهْمِ؛ فيكونُ الإنسانُ عندَهُ عِلْمٌ لكن فَهْمَه قاصِرٌ، واختلافُ الناس في الفَهمِ أكثرُ وأعظمُ من اختلَافِهِم في العِلْم، يوجد بعضُ الناسِ يستَنْبطُ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأطعمة، باب ما لم يذكر تحريمه، رقم (٣٨٠٠) عن ابن عباس؛ والترمذي: كتاب اللباس، باب لبس الفراء، رقم (١٧٢٦)، وابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب أكل الجبن والسمن، رقم (٣٣٦٧).

من دليلٍ واحدٍ عِدَّةَ مسائلَ وآخر لا يَسْتَنْبِطُ إلا مسألةً أو مسألتين.

الثالثُ: أن يكونَ عِندَ الإنسانِ سوءُ قَصدٍ؛ بحيثُ لا يُريدُ الحقَّ وإنما يريدُ أن ينْتَصِرَ لقولِهِ؛ فإن هذا -والعياذ بالله- يُحالُ بينه وبينَ الصَّوابِ ومعرفَةِ الحقِّ.

الرابعُ: المعَاصِي؛ لأن المعاصِي تُوجِبُ نِسيانَ الموجودِ، كما تمنَعُ المفْقودَ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٣].

فهَذِهِ أسبابٌ أربعةٌ كلها تَحولُ بينَ الإنسانِ وبينَ الوُصولِ إلى معرفَةِ حُكمِ الله الذي في الكِتابِ أو السُّنَّةِ، أما نفسُ الكِتاب والسُّنَّةِ فإنهما بلا شكٍّ محيطانِ بجميعِ القَضَايا إلى يوم القيامة.

وأما قولُ من قالَ مِنْ أهلِ العِلم: إن الكتابَ والسُّنَّةِ ليس فيهما إلا حُكْمُ القليلِ من القَضايا، حتى إن بعْضهم يزْعُم أنه ليس في القُرآن والسُّنَّةِ إلا نحو عُشرُ القضايا، فهذا خطأٌ عظيمٌ، ولهذا قال الله في القرآنِ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

الفَائِدةُ السَّادسَةُ: أن الرُّسُلَ أفصَحُ الخلقِ، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، (المبين): سواءٌ قلنا: إن المُبينَ بمَعْنى بيِّن أو بمعنى مُظهِر، والصواب أنها بمعنى مُظهِر.

• • ❁ • •

الآية (١٩)

• • ❁ • •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت:١٩].

• • ❁ • •

قوله: [﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ بِاليَاءِ والتَّاءِ يَنْظُرُوا]: الأُولَى: ﴿يَرَوْا﴾، والثانية: (تَروا)، فهما قِراءتان سَبْعِيَّتَانِ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَنْظُروا]، الرؤية هنا فَسَّرَها المُفَسِّر بمعنى النَّظَرِ، فهي رُؤيَةُ عَينٍ، ويحتمل أن تكون رُؤْيَةً قَلْبِيَّةً، أي: علمية، بمعنى: أو لم يعْلَموا، وننظرُ مِن سياق الآية أيهما أَوْلَى.

قوله: [﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ هو بِضَمِّ أَوَّلِه وقُرِئ بفَتْحِه مِنْ بَدَأَ وأَبْدَأ بمعنى، أي: يخْلُقُهُمْ ابتِدَاءً]: اصطلاح المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا قال: «قُرِئ» فهي قِراءةٌ شاذَّةٌ، فقوله: ﴿يُبْدِئُ﴾ فيه قراءتَانِ قراءةٌ سَبْعِيَّةٌ وقراءة شاذَّةٌ، القراءة السَّبْعِيَّةُ (يُبدئ) من الماضي (أَبْدَأ)، والقراءةُ الشَّاذَّةُ بفتح أَوَّلِهِ (يَبدأ) من (بدأ)، والمؤلف يقول: [مِنْ بَدَأ وأَبْدَأ]، لكن هذا اللَّفَ والنَّشْرَ مُشَوَّش يعني: غيرُ مُرتَّب، والحقيقةُ ليتَ المُفَسِّر لم يَفْعل هذا لأن الإنسان قَدْ لا يَفْهمُ أن هذا مِنَ اللَّفِّ والنَّشْرِ المشَوَّشِ، ولا داعي له، ولو قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ أَبْدَأ وبَدَأ] لكان أوضح.

وقوله: [بمَعْنى] يعني: بمَعْنًى واحد، يعني (بَدَأ وأَبْدَأ) معناهما واحدٌ، أي:

يخلُقُهُمْ ابتداءً، يعني: كيف يخلُقُهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ابتداءً.

وقوله: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ (الخلْق) هنا مَصْدَرٌ بمعنى اسمِ المفعولِ، أي: المخلوقِ، كيف يَبْدؤُه ثم يُعيدُه، والمصدر يأتي بمعنى اسم المفعولِ كَثِيرًا في اللُّغَةِ العَربيةِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ﴾ [الطلاق:٦]، يعني الحملَ الذي في البَطْنِ، بمعنى محمولٍ، وقولُه ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١)، بمعنى: مَرْدودٍ، هنا (خَلق) بمعنى مَخْلوقٍ، ومثلها قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:١١]، أي: مخْلُوقَهُ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثُمَّ﴾ هو ﴿يُعِيدُهُۥٓ﴾ أي: الخَلْقَ كَما بَدَأَهُمْ]: وهَذا إشارةٌ إلى أن الخَلقَ هنا بمَعْنَى المخْلوقِ، فيَعُمُّ كُلَّ النَّاسِ.

وقوله: [﴿ثُمَّ﴾ هو ﴿يُعِيدُهُۥٓ﴾]: قدَّرَ (هو) لتكونَ الجملةُ استِئْنَافِيَّةً؛ لأن إعادةَ الخَلقِ لا يمكنُ أن يَنْظُروا إليها لأنها تكونُ يوم القيامة، أي في المستَقْبَلِ، لكنَّ ابتداءَ الخَلْق يمكن أن يَنظُروا إليه، فنَحنُ مثلًا ننظر إلى مخلوقاتِ الله عَزَّوَجَلَّ كيف تَتوالَدُ وكيف تَتنامَى وكيف تَكْبُرُ إلى آخره، لكنَّ إعادة الخلْق لا يمكن، ولهذا قَدَّرَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثُمَّ﴾ هُوَ ﴿يُعِيدُهُۥٓ﴾]، لئلا يتوَهَّمَ الإنسانُ أنها معطوفةٌ على يُبْدِئ وهو أمرٌ غيرُ ممكنٍ؛ لأنها لو كانت معطوفةً عليها لكان المعْنَى أولم ينْظُروا كيفَ يُبْدِئ الخلق ثم كيف يُعِيدُهُ، والنظر إلى كيفية الإعادَةِ متعَذِّرٌ.

ذكرنا أن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ يُحتمل أن تكون عِلْمِيةً، والمؤلف يَرى أنها بَصَرِيَّةٌ، فأيها أشْمَلُ؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

والظاهر أن القَلبيَّةَ أشْمَلُ؛ لأنها تَشملَ ما رآه الإنسانُ بعَيْنِهِ وما عَلِم به من غَيْرِهِ، واعلم أن الآية إذا احتَملتْ مَعْنيين أحدهما أشْمَلُ والثاني أخَصُّ فالأَوْلَى حَمْلُها على الأشْمَلِ؛ لأن الأخصَّ داخلٌ فيه، بخلافِ ما إذا حُمِلَتْ على الأخَصِّ فمعناه أننا أخْرجْنَا بعض دَلالَتِهَا فالأَوْلَى أن نَحْمِلها على الرُّؤيَةِ العِلمية التي تحصلُ بالبَصر وبالسَّمع أيضًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل:٧٨]، السمعُ والإبصارُ طَريقُ العِلْمِ، والأفئدةُ مَحَلُّ الوَعْي.

قوله: [﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ المذْكورَ مِنَ الخلْق الأوَّلِ والثَّانِي ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾]: أي: سهلٌ، فابتداءُ الخلْقِ سَهْلٌ على اللهِ، واقرأ قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩]، فالأمرُ سَهْلٌ على اللهِ، وإعادَةُ الخلْقِ أيضًا سَهلَةٌ لقولِهِ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الصافات:١٩]، زَجْرةٌ واحِدَةٌ فقط ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٤]، وأعمُّ من ذلِكَ قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]، واحدةٌ بدون تأَخُّرٍ؛ يأمرُ الله الشيءَ فيكونَ مثلَ لمحِ البَصر، وهذا دَليلٌ على كمالِ قُدرتِهِ جَلَّوَعَلَا.

في هذه الآية يقولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وفي آيَةٍ ثانِيَةٍ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

فإننا نقولُ لهؤلاءِ المنْكِرينَ للبعثِ: هل تُقِرُّونَ بأن الله خلقَكُم ابتِداءً؟

هم يقولون: نَعم، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

فنقول لهم: أيهما أهونُ الابتداءُ أو الإعادَةُ؟

الجواب: الإعادةُ أهونُ.

فنقول: كيف تُقِرُّونَ بالأصعبِ ثم تُنْكرونُ الأهْونَ، وأقولُ: بالأصعبِ لا باعتبارِ كونِهِ منْسُوبًا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ لأن الكُلَّ يهونُ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، لكن نقولُ لهؤلاء: ما دامَ الابتـداءُ أشَدُّ وأشَقُّ فالإعادَةُ مِن بابِ أوْلى أن تُقِرُّوا بها، لكن هم يُقِرُّونَ بالابتداءِ لأنهم لا يستطيعونَ الإنْكارَ، فلا يستطيعون أن يقولوا: ما خَلَقَنا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، نحن الذين خلقْنـا أنفسنا، الزَّوْجُ هو الذي خَلَق الولدَ في رَحِمِ الأم، هذا لا يمكن أن يَقُولُوه، فلهذا احتَجَّ الله عليهم بالابتداءِ ليُقِرُّوا بالإعادَةِ، ولذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَكيفَ يُنْكِرُونَ الثَّانِي].

• • ۞ • •

الآيـة (٢٠)

• • ❊ • •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت:٢٠].

• • ❊ • •

قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾، هذه الآية مَع التي قبْلها ربما يَظْهُر فيهما إشْكالٌ؛ لأن الأُولى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ تَقْريرٌ لهم بأنهم يَرَونَ كيف يُبْدئ الله الخلْق ثم يُعيدُه، وهنا يقولُ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ فيقْتَضِي أنهم حتى الآن لم يَعْلموا كيف بَدَأ الله الخلْق؟

والجواب على ذلك: أنهم وإن كانوا يَرَوْنَ كيف بدأ اللهُ الخلْق، لكنهم قد يُنْكِرُونَهُ، فأمرَ الله تعالى نَبِيَّهُ أن يأمرَهم بالسَّير في الأرضِ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾، امشُوا في الأرض وانْظُروا مثلًا إلى الوحوش، وانظروا إلى الحشَراتِ وانْظُروا إلى مخلوقاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كيف تنْشَأُ هذه الأشياء بدون أن نَرَى لها خالِقًا سِوَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا من بابِ إلزامِهِمْ، ولا سيما إذا قلنا: إن الرُّؤيةَ الأُولى عِلمية، فهي من باب إلزامِهِمْ بما يُشاهِدُونه في الأرض بعدَ أن يَسِيرُوا فيها.

وقولهُ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هل المرادُ السَّيْرُ بالبدنِ؟ أو السَّيْرُ بالقَلْبِ؟ أو بهما جميعًا؟

الجواب: بهما جميعًا؛ لأن الإنسانَ قد يَسِيرُ ببدنِهِ ويطَّلع على مخلوقات اللهِ، وقد يسيرُ بقلْبِهِ فيقرأُ ما كُتِبَ عن مخلوقاتِ اللهِ، فربما تَقْرَأُ كِتابًا عن الحيواناتِ أو غيرها وأنتَ في مكَانِكَ أو في حُجْرتَكِ وتكون قد اطلعتَ على ما في مشارِقِ الأرض ومَغَارِبِها، ويكون السيرُ حينئذ بالقَلْبِ، فهو شامل للأمْرَيْنِ جميعًا.

بل إذا نظَرنا إلى السَّيْرِ في الأرض -إلى واقعه- أيهما أكثرُ بالقَلْبِ أو بالقَدَمِ؟

فالجواب: بالقَلْبِ، ولا إشكال في ذلك.

ثم اعلم أيضًا أن السيرَ بالقَدَمِ لا ينفع إذا لم يكن هناك سَيْر بالقَلب واعتبارٌ، فلو أن الإنسان ماجَ فِجاجَ الأرض كلَّها وهو غافِلٌ ما استفادَ من ذلك السَّيرَ شيئًا، بل لا بد أن يكونَ هناك تَيَقُّظٌ واعتبارٌ، فالسير بالقَدمِ إذا لم يُقْصدْ به الاعتبارُ فإنه لا فائدَةَ منه، فإذا قَصدَ به الاعتبار عاد إلى كونه سَيرًا بالقَلب.

قولُه: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَ﴾، هنا قال: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ﴾، وفي الآية التي قَبلها قال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ﴾، ومعلوم أنَّ: (انْظُروا) و(يَرَوا)، أفعالٌ متعَدِّيَةٌ، فأين مفعولها؟

الجواب: مفعـولها (كيفَ)، في موضِعِ نصبٍ على الحالِ، وهي مُعَلِّقَةٌ للفعلِ عن العَملِ، وقد مر هذا في (ألفية ابن مالك) في باب ظَنَّ وأخواتِهَا؛ قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

....	والْتَـزِمِ التَّعلِيـقَ قَبْـلَ نَفْـيِ مَا
وَإِنْ وَلَا لَامُ ابتــداءٍ أَوْ قَـسَـــمْ	كَذَا والاستـفـهامُ ذَا له انْحَتَـمْ

(١) البيتان (٢١٢، ٢١٣) من الألفية.

قولُهُ: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ في صَدْرِ هذه الآية أَتَى بالصِّيغَةِ الفِعلية، وهنا أتى بالجملة الاسْمِيَّةِ ليُفيدَ تَقَرُّرَ هذا الأمْرِ وتأكُدِّهِ.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ﴾ (الله) هنا عَلَمٌ على البَارِي جَلَّوَعَلَا، وأصلُها الإِلَه وحذفتِ الهمْزَةُ تخفيفًا لكثرةِ الاستعمالِ كما حُذِفَتْ مِنَ الناس، والإله معناه: المألُوه، أي: المعبودُ، سواء بحقٍّ أو بغيرِ حَقٍّ، وعلى هذا فيكون الله هنا: هو المعبودُ بحَقٍّ، بدليل قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يعني: لا معبود بِحَقٍّ إلا اللهُ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، أي: لا إله هو الحقُّ إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: [﴿يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ مَدًّا وقَصْرًا مع سُكونِ الشِّينِ]: فهما قراءتان (النَّشَاءَةَ) و﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾[1].

وقوله: ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾ يُحتَمَلُ أن تكونَ مَصْدَرًا كما تقول: يضْرِب الضَّربَةَ، ويحتمل أن تكون بمعنى اسمِ المفعولِ، أي: يُنْشِئُ المُنشأَ الآخِر، والمعنى واحد: أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُنشِئُ الخلْق مرَّةً ثانية.

فإذا قال قائل: كيف نُسَمِّيها نشأةً وهي إعادة؟

قلنا: إن هـذه الإعادةِ تختلِفُ عن سابَقتِها اختلافًا كَثيرًا، فهي بالنسبة إليها نشأةٌ؛ لأن حياةَ الآخِرَةِ ليست مثلَ حياةِ الدنيا، فحياةُ الآخِرةِ حياةٌ أبَدِيَّة، وحياةُ الدُّنيا حياةُ فناءٍ، ولذلك تجِدُها ناقِصة، يُخلق الإنسان من ضَعف إلى قوَّة إلى ضعْف، أما في الإعادَةِ فإنه يُخلَق للأبَدِ، فلذلك سميت نشأةً وإن كانت هي إعادَةٌ، لاختلاف الحالين.

---

(١) انظر: السبعة في القراءات (ص: ٤٩٨).

انظر إلى الجَنين في بطنِ أمِّه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيه بعد أن ذَكَر أطوارَهُ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون:١٤]، هل هو إنشاءٌ أو تطويرٌ؟ هو تطوير، لكنه لما كان التَّطويرُ الأخير الذي فيه نَفْخُ الرَّوح يختلفُ عن الأَوَّلِ وهو في بطنِ أُمِّه؛ حيث كان جَمادًا ثم تُنْفَخُ فيه الروح، فيكون نشأةً جَديدةً غير الأولى، فسُمِّيَ نشأةً وإن كان تطويرًا من حالٍ إلى حَالٍ.

قوله: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وَمِنْه البَدءُ والإعَادَةُ]: هذه الجملَةُ تَعليلُ لما سَبَقَ من كونِهِ ابتدأَ الخلقَ ثم أعادَهُ؛ لأن الله على كُلِّ شيءٍ قَدير، والقُدرةُ: وصفٌ يتَمَكَّنُ به الفاعلُ من الفِعلِ بدونِ عجزٍ.

والقدرةُ غيرُ القوَّة؛ فالقوَّةُ يقابِلُها الضَّعْفُ، والقُدْرَةُ يقابِلُها العَجْزُ، ويظهر ذلك بالمثالِ، فمثلًا: أنا إذا حَملتَ كِتابًا لكن بمَشَقَّةٍ، فأوصَفُ بأني قادر، ولكنِّي لستُ قَوِيًّا، وآخر لما أرادَ حَملَ الكِتاب عَجز عنه، فهو عاجِزٌ، والثالث حَمَلَهُ كأنه رِيشَةٌ في يَدِهِ فهذا قادِرٌ قَوِيٌّ. فتبَيَّنَ بهذا أن القُدرةَ غيرُ القوةِ.

كذلك أيضًا: القدرةُ يوصَفُ بها ذو الشُّعورِ ولا يوصفُ بها غيره، فَلا يقالُ للحَديدِ: إنه قادِرٌ، بينما القوة يوصَفُ بها ذُو الشُّعورِ وغَيْرِه، فنقول للحديدِ: قَوِيٌّ، ونقول للإنسان: قَوِيٌّ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى موصوفٌ بالقُدْرةِ وموصوفٌ بالقُوَّةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨].

وهل قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عامٌّ مخصوصٌ أم لا؟

هذا على عُمومِهِ، لا يُخَصَّصُ بشيءٍ، لكنَّ السُّيوطِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال في تفسيرِ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٢٠]: [وخَصَّ العقلُ ذاتَهُ فليس عليها بقَادِرٍ!].

[خصَّ العقلُ ذاتُهُ]: يعني: ذاتَ اللهِ، فليس عليها بقادَرٍ، فقال: إن العقلَ يُخَصِّصُ هذا العمومَ، ونحن نقولُ: لا يخصصُ هذا العمومُ مِنَ العُقولِ إلا العقلَ الفاسِدَ الذي يَرَى امتِنَاعَ قيامِ الأفعالِ الاختِيارِيَّةِ بالله عَزَّوَجَلَّ، أما العقلُ الصَّحِيحُ السليم فهو يَرَى أن الله يفعل ما يَشاءُ، ينْزِلُ، ويستَوِي على العَرشِ، ويستَوي إلى السماءِ، ويضْحَكُ، ويَعْجَبُ، وغير ذلك من الأفعالِ الاختِيارِيَّةِ التي تَليقُ بجَلالِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فقوله: [خَصَّ العقلُ ذَاتَه فليسَ عليها بقَادِرٍ]، هذا خَطأٌ عَظِيمٌ، إذا كان لا يَقْدِرُ على نفسه فكيفَ يَقدِرُ على غيرِهِ، هذا من أكبرِ المُحالِ ومِنْ أكبرِ الغَلَطِ!

لكن لو قال قائل: لعلَّ المُفَسِّر يريدُ أنه لا يَقْدر على إفناءِ نَفسِهِ مثلًا، أو على خَلْقِ مماثِلٍ له.

قلنا: هذا لا تَتَعَلَّقُ به القدرةُ أصْلًا، فالقُدرةُ لا تتعلق بالشيءِ المستَحِيلِ إطْلاقًا، فهو غيرُ داخِلٍ في العمومِ مِنَ الأصلِ، وليس بمخرَجٍ منه.

وها هنـا عبارة يقولها بعضُ الناس: إنه على ما يشـاءُ قَدِيرٌ، فما صحة هذا التعبير؟

والجواب: هذا التعبير خطأٌ؛ لأن الله تعالى على كُلِّ شيءٍ قَديرٍ، فهو قادرٌ على ما يشاءُ وما لا يشاءُ، حتى الذي لا يشاؤه قادِرٌ عليه، فلو شَاءَهُ لفَعَلَهُ، ثم إن هذه العبارةَ مخالِفَةٌ لما جاء به القرآنُ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة:١٢٠]، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب:٢٧]، ثم إن بعضَ أهلِ العِلمِ يقولُ: إن هذه العبارةَ تُوحِي بمَذهَبِ المعتَزِلَةِ الذين يقولون بأن الإنسان مسْتَقِلٌّ بعَمِلِهِ، فقالوا: إذا كان الإنسان مستقلًا بعمَلِهِ فلا دَخْلَ لمشيئةِ الله فيهِ، ومعنى ذلك أن اللهَ عاجِزٌ عن عَمَلِ الإنسان، وهذا خطيرٌ كما هو معروف، فالذي ينْبَغِي

أن نقول: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]، على الإطلاق.

فإذا قال قائل: ألا يَنْتَقِضُ علينا هذا بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩].

قلنا: المشيئةُ هُنا عائدةٌ على الجمعِ لا على القُدْرَةِ، والمعنى: أنه إذا شاءَ أن يجمَعَهم جمَعهم بدون عَجْزٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا تنافي ما تقدَّم ذِكْرُهُ.

ويقولون: إن الشيطان جمعَ جنودَهُ، أو هم اجتَمَعوا إليه فقالوا له: إنك تَفْرَحُ بموت العالمِ ولا تفْرحُ بموت العابِدِ، فقال لهم: نعم؛ لأن العابدَ إذا ماتَ يموتُ عن نَفْسِهِ لكنَّ العالِمَ إذا مات يموتُ عن عالَمٍ، وإذا بقي يُفْسِدُ علينَا الأمور.

ومراده بالعلماءِ العُلَماءِ الحقِيقِيُّونَ الذين يعمَلُونَ ويَدْعُونَ.

ثم قال الشيطان لجنوده: أذهَبُ أنا وأنتم إلى عالمٍ نَسألُه وإلى عابِدٍ.

فذهبوا إلى العابَدِ فقالوا له: هل يَقْدِرُ اللهُ أن يخْلُقَ مثلَ نَفْسِهِ؟

قال: نعم.

قالوا: ما الدليل؟

قال: لأنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قَديرٍ.

فهذا الرجل كَفَرَ؛ لأن أي إنسان يعتقدُ هذا الاعتقادَ فهو كافِرٌ، وهو اعتقادٌ غيرُ صحيحٍ وفاسد، ولا يمكن، لو لم يكن مِنَ الفَرقِ -والفرق عظيم جدًا- إلا أن هذا الإله لو قُدِّرَ فهو مخلُوقٌ، والإلهُ الحقُّ غيرُ مخلوق.

ثم جاؤوا إلى العالِمِ وقالوا له: هلْ يَقْدِرُ الله أن يضَعَ السمواتِ والأرض في بَيضَةٍ واحِدةٍ؟

فقال العالم: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، لو أراد ذَلِك لفَعَلَهُ.

مع أن الأخير يُنكَر حسبَ ما يَبْدو للناسِ أكثرَ مِنَ الأوَّل، والحاصلُ أن الإنسان إذا قَرأَ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يجوز أن يَقعَ في نفسه استثناء شيءٍ من هذا العُموم، بل يكونُ على عُمومِهِ بدونِ تَفْصِيلٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدة الأُولَى: الاستدلالُ بالمبدأ على المعَادِ؛ لقولِهِ: ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾.

الفَائِدة الثَّانِية: أنه يَنْبغِي للمستَدِلِّ أن يستَدِلَّ بالمُشَاهدِ على الغائِبِ لاقتناع الخصم بذلِكَ.

الفَائِدة الثَّالِثة: إثباتُ البَعثِ؛ لقولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾.

الفَائِدة الرَّابِعة: إثباتُ قُدرَةِ الله؛ لقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الفَائِدة الخَامِسة: عُمومُ هذه القُدْرَةِ؛ لقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الفَائِدةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ الأفعالِ الاختِيَارِيَّةِ لله عَزَّوَجَلَّ، فإنها مِنْ تمامِ قُدرَتِهِ جَلَّوَعَلَا، كالمجِيءِ والنُّزولِ والاستِواءِ على العَرْشِ والضَّحِكِ والعَجبِ وما أشبه ذلك.

الفَائِدةُ السَّابِعةُ: خَطأُ مَنْ قال: خَصَّ العقلُ ذاتَه فليس عليها بقَادِرٍ، وقد بيَّنَّا أنه ليسَ بصحيحٍ، وقلنا: إن هذا مذهبُ الذين يُنْكِرُونَ قِيامَ الأفعالِ الاختيارية بالله عَزَّوَجَلَّ، وهذا لا شَكَّ أنه يَرُدُّه الكِتابُ والسُّنَّةُ وإجماعُ السَّلَفِ، وهذا مما نَبَّهنا عليه وإن كان ليس داخلًا في مَضمونِ الآيَةِ.

الآيـة (٢١)

• ● ● •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ [العنكبوت:٢١].

• ● ● •

قولُهُ: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ يعْنِي: بعدَ البعثِ يُعذِّب من يشاءُ، ويجوز أن يكونَ العذابُ في الدنيا؛ لأنَّ العذابَ يكونُ في الدنيا ويكونُ في الآخرَةِ، فالعقوباتُ التي رُتِّبَتْ على الجرائمِ من العَذابِ، لقولِ النبيِّ ﷺ في المتَلاعِنَيْنِ: «عَذَابُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ»[1]، وكذلك ما يُصِيبُ الإنسانَ من المصائبِ في بَدَنِهِ وأهلِهِ ومالِهِ هو أيضًا من العَذابِ، قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى:٣٠].

وقوله: ﴿يُعَذِّبُ﴾ أتى بالفِـعْلِ المضارِعِ الدَّالِّ على أن هـذا الأمر مِن أفعالِهِ مستَمِرٌّ، ليس أمرًا مَضَى وانقَطَع، فكما أنه يكونُ في الحاضِرِ، يكون أيضًا في المستقبَلِ، والعذابُ هو العقوبة، أي: يُعاقَبُ.

وقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ تقدَّمَ كثيرًا أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ إذا أضافَ الفعل إلى المشيئةِ فإنه يكون مَقْرُونًا بالحِكْمَةِ؛ لأن اللهَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لا يفْعَلُ لمجرَّدِ المشيئةِ، بل كلُّ ما يَفْعَلُه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ فهو بمشِيئَتِهِ المقرُونَةِ بالحكمة، وهذا أمرٌ واضِحٌ، فإن من يُعذِّب

---

(١) أخرجه مسلم: في بداية كتاب اللعان، رقم (١٤٩٣).

لا بُدَّ أن يكون قد أَتى ما يستَوْجِبُ التَّعذِيبَ، وحينئذٍ تكون الحِكمَةُ في تَعْذيبِهِ، ولا يُعذِّبُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من شاءَ بِدونِ ذَنبٍ أبدًا لأن حِكمَتَهُ ورَحمتَهُ تأبَى ذلك، خِلافًا لمن قال(١):

وَجَازَ لِلْمَوْلَى يُعَذِّبُ الْوَرَى ... مِنْ غَيْرِ مَا ذَنْبٍ وَلَا جُرْمٍ جَرَى

ثم عَلَّلَ ذلك بقَولِهِ:

فَكُلُّ مَا مِنْهُ تَعَالَى يَجْمُلُ ... لِأَنَّهُ عَنْ فِعْلِهِ لَا يُسْأَلُ

فهذا ليس بِصَحيحٍ، وهو وإن جازَ عَقلًا لكنه مُمتَنِعٌ شَرعًا؛ لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقول في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا»(٢)، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في القرآن: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢].

فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ قلنا: إنه مَقْرونٌ بالحِكمَةِ، فلا يُعَذِّبُ إلا من يستَحِقُّ التَّعذِيبَ.

قوله: ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ الرَّحْمَةُ صفَةٌ من صفاتِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهي تقْتَضِي الإنعامَ والإحسانَ، سواءٌ كان الإحسانُ بإيجادِ محبوبٍ أو بِدفعِ مكْرُوهٍ، فإن رَحمةَ الله عَزَّوَجَلَّ تكونُ للإنسان إما بجَلْبِ ما ينْفعُه وإما بدفع ما يَضُرُّه.

وقوله: ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ (يرحم) فعل مضارعٌ مشتَقٌّ مِنَ الرَّحمةِ، والرحمةُ

---

(١) هو السَّفارِيني في الدُّرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية، البيتان (٦٥، ٦٦)؛ وانظر شرح العقيدة السفارينية لفضيلة الشيخ الشارح رَحِمَهُٱللَّهُ (ص: ٣٣٨، وما بعدها).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

صِفَةٌ من صِفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ ثابِتَةٌ على وجهِ الحَقيقَةِ، ومِنْ آثارِهَا الإنعامُ والإحسانُ أو إرادةُ الإنعامِ والإحسانِ، وليست هي الإنْعامُ والإحسانُ والإرادةُ، خِلافًا لمن قال بذلك مِنَ الأشاعِرَةِ ومَنْ وراءهم من المعطِّلَةِ المحْضَةِ الذين هم أشدُّ وأشدُّ، فهم يقولون: إن الرحمة معناها إرَادَةُ الإنعامِ، وبعضهم يقول: هي الإنعامُ، والصوابُ خِلافُ قولهم؛ لأن الإرادة ناشئةٌ عن الرَّحْمَةِ، يرحم فيريدُ أن يحْسِنَ أو يُنْعِمَ، وهذا الذي عليه مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة، أن الرحمةَ صِفَةٌ ثابِتَةٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على وجهِ الحَقِيقَةِ.

وقال الذين احتجُّوا بمنْعِ أن تكونَ الرَّحمةُ حقيقةً: إن الرحمة خَوَرٌ وضعْفٌ في الراحِمِ، فتجدُ نفسه تَنْكسِرُ حتى تَرحَمَ.

وجوابنا على هذا من وجهين:

أحدهما: أن نَمْنَعَ أن يكون هذا من باب الخَوْرِ والضَّعف، فإننا نَجِدُ الملوك الجَبَابرةَ قد يَرْحمون، ومع أنهم ليس فيهم خَوْر ولا ضَعْف.

وثانيًا: لو فُرِضَ أن هذا المعنى لازمٌ للرَّحْمَةِ في الإنسان فليس بلازم بالنسبة لله، كغَيْرِهِ مِنَ الصِّفَاتِ التي تَثْبُتُ حقيقةً للمَخْلُوقِ وتَثْبُتُ للخالِقِ أيضًا، فإن اللوازِمَ والعوارِضَ التي تكون لِصِفَةِ المخلُوقِ لا يمكن أن تكونَ لِصِفَةِ الخالِقِ، لما بينهما مِنَ الفَرقِ العَظيمِ في الذَّاتِ والصِّفاتِ، وكما أن الله عَزَّوَجَلَّ لا شَبِيهَ ولا مَثِيلَ له في ذاته، فكذلك لا شَبِيهَ له ولا مَثِيلَ له في صِفاتِهِ.

قولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تَعْذِيبَهُ، ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ رَحْمَتَهُ، ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ تُرَدُّون]: يعني: تُقْلَبُونَ إليه لا إلى غَيرِهِ، فتَقْديمُ المعمولِ يُفِيدُ الحصْرَ،

فالقَلبُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ لا إلى غَيْرِه، وهذا عامٌّ لكُلِّ أحدٍ مهما كان، فالناسُ مرْجِعُهُمْ إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مهما فرُّوا، فالقَلْبُ يَعني الرَّدَّ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وإذا كان مَرَدُّنا إلى الله صارَ هو الحَكَمُ بيننا، وحُكْمُ الله في العبادِ يَشْملُ الحكْمَ فيما بينَهُ وبينَهُمْ، والحكمُ فيما يختلفون فيه، فالمؤمنون مع الكفَّارِ مختَلِفُونَ، فيَحْكُمُ الله بينهم يومَ القِيامَة، وكذلك المعتَدُونَ مع المعْتَدَى عليهم مختَلِفونَ، فيَحُكُم الله بينهم يومَ القِيامَةِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: إثباتُ الأفعالِ الاختِيَارِيَّةِ لله عَزَّوَجَلَّ لقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ﴾، ﴿وَيَرْحَمُ﴾، وهذا هو مَذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة مِنَ السَّلَفِ والأئِمَّةِ، أن الله يفعلُ ما يشاءُ، وخالفَ في ذلك الأشاعِرَةُ وغيرهم، فقالوا: إن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يتعَلَّقُ به فِعْلٌ حادِثٌ، وعلَّلُوا ذلك بأنه لا يقومُ الحادث إلا بحادِثٍ، وأننا لو أثْبَتْنا حدوثَ الأفعالِ لله لَزِمَ من ذلك أن يكونَ الله تعالى حادِثًا.

ولا ريب أن هذا قولٌ باطِلٌ؛ لأننا نقول لهم: من قال لكم: إن الحادِثَ لا يقومُ إلا بحادِثٍ، من أين جاءت هذه القاعدةُ، هل هي في القُرآن، هل هي في السُّنَّةِ، هل هي في العَقْلِ؟

ثم إننا نقابلُ هذه القاعدةَ الفاسِدَةَ بقاعِدةٍ أكملَ منها وأوضحَ، وهي: أن الفَعَّال لما يُريدُ أكملُ من الذي لا يَفْعَلُ، فأنتم إذا عطَّلْتُم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن أفعالِهِ الاخْتِيارِيَّةِ فمعنى ذلك أنكم وصَفْتُموهُ بأنْقَصَ ما يكون، وهذا أمرٌ معلومٌ لجميعِ العُقَلاءِ: أن الفاعل لما يُريدُ أكملُ من الذي لا يفْعَلُ، وأكملُ من الذي يجْبَرُ على الفعلِ أيضًا.

الفَائِدة الثَّانِية: إثباتُ المشيئةِ لله عَزَّوَجَلَّ لقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ في الموضِعين.

الفَائِدة الثَّالِثة: أن الرَّحمَةَ لا تُطْلَبُ إلا من الله، لقولِهِ: ﴿وَيَرْحَمُ﴾، وهذا في مقام التَّقْسِيمِ يَدُلُّ على الاختِصَاصِ، ﴿يُعَذِّبُ﴾ ﴿وَيَرْحَمُ﴾، فلا تَطْلُبُ الرحمة إلا مِنَ اللهِ، حتى الذين يَرْحَمون مِنَ الخلْق ينْبَغِي عندما تَطْلُب رحمتَهم أن تجعل ذلِكَ متعَلِّقًا بالله؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ لو شاء أن لا يَرْحَمُوكَ لم يرحموك.

الفَائِدة الرَّابِعة: إثباتُ البعثِ لقولِهِ: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾.

الفَائِدة الخامِسة: التحذيرُ مِنَ المخالَفَةِ؛ لأنه إذا كان المرجعُ إلى الله فاحذر من مخالَفتِهِ، فإن هذا يُشْبِهُ التَّهْدِيدَ والوَعيدَ مِن المخالَفَةِ.

• ● ۞ ● •

الآية (٢٢)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [العنكبوت:٢٢].

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: الخطابُ إما أن يكونَ للكافِرينَ، وإما أن يكون لعُمومِ الناسِ، وكونُه لعُمومِ الناس أَوْلى، يعني: وما أنتم أيُّها الناسُ، وكونه للمُكَذِّبينَ المعانِدينَ أبلغُ؛ لأنهم يظنُّونَ أنهم أَعْجَزُوا الله.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ (ما) هنا حِجازِيَّةٌ؛ لأن القرآنَ بلُغةِ قريشٍ، واسمها: الضَّميرُ المنْفصِلُ (أنتم)، وخبرُها: (بمُعجزين)، والباءُ زائدةٌ للتَّوكيدِ، قال ابنُ مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

وَبَعْدَ مَا وَلَيْسَ جرَّ الْبَا الْخَبَرْ ... وَبَعْدَ لَا وَنَفْيِ كَانَ قَدْ يُجَرْ

إعراب ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾:

(الباءُ): زائِدةٌ للتَّوكيدِ.

(معجزين): خبرُ (ما) منصوبٌ وعلامة نَصبِهِ ياءٌ مقدَّرةٌ على الياءِ، منَعَ من ظُهورِهَا اشتِغالُ المحَلِّ بعلامةِ إعرابِ حرفِ الجرِّ الزَّائِدِ، وإن كان هذا في الحقيقة

(١) الألفية لابن مالك، البيت رقم (١٦١).

من التكَلُّفِ المعروفِ، لكن لا بُدَّ أن نُعرب هذا الإعراب حسب القواعدِ المعروفةِ في النحوِ، فالياء في قوله: ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ جَلَبَتَهَا الباءُ وليس الخبر، وهي نَفْسُها علامةُ النَّصْبِ.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ (معجزين) من (أَعْجَزَ) فهو متَعَدٍّ؛ لأن عجَزَ لازم، وأعْجَزَ متعدٍ، وإذا كانت متَعَدِّيَةٌ وهي اسمُ فاعلٍ فتحتاجُ إلى مفعولٍ، فأين المفعول؟

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ رَبَّكُم عنْ إِدْراكِكِمْ]: فيكون المفعولُ محْذوفًا تقديرُهُ: بمُعجِزينَ ربَّكُم، أو بمعجزين اللهَ، فلا مانِعَ، والمُعجِزُ هو من فعل ما يُعْجِزُ به غيرَهُ، ولهذا قال بعضُ أهلِ العِلم عن آيات الرُّسُلِ: إنها معْجِزاتٌ؛ لأنها تُعجِزُ أعداءَ الرُّسلِ عن معارَضَتِهَا.

قوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، هذا الجارُّ والمجرورُ حالٌ مِن مُعجِزينَ، يعني: حال كونِكُمْ في الأرض أو في السماءِ، فلا تُعجِزونَ اللهَ سواء كنتم في الأرضِ أو في السماء، ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَوْ كُنْتُم فِيها]، فيكون قوله: ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ على سَبيلِ التَّقديرِ وليس على سبيلِ الحَقيقَةِ؛ لأن الناسَ في الأرضِ وليسُوا في السماءِ.

وقيل: إن المعنى على سبيلِ المبالَغَةِ، يعني: لا تُعْجزونَ اللهَ سواءٌ كُنتم في أعماقِ الأرض أو في أجواءِ السماءِ، فيكون المعنى: لا تُعجزونُه في أيِّ مكانٍ كُنتم.

وقيل: إن قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني به أهلَ السماءِ، يعني: أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يُعجزُه شيء في السمواتِ ولا في الأرضِ، فأهلُ السماء لا يُعْجِزُونَهُ وأهل الأرضِ لا يُعجزونه، فيكون المعنى على هذا الوجه: وما أَنْتُمْ بمُعْجزينَ في الأرض،

ولا مَن في السماءِ مُعجِزٌ الله، على حَدِّ قولِ الشَّاعرِ حسَّانَ بنِ ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ الله مِنْكُمْ ... ويَمْدَحُهُ ويَنْصُرُهُ سَوَاءُ

فأظنُّ أننا نَعرِفُ جميعًا أن الأوَّلَ غيرُ الثاني؛ لأن الذي يَهجُوه لا يمْكِنُ أن يمْدَحه وينْصُرَهُ، فيكون على تقديرِ: ومن يَمْدحُهُ وينْصُرُه سواء، فهذه مثلها.

والذي يظهر لي أن المعنى: أنَّكُم لا تُعجِزُونَ الله في أي مكانٍ كُنتم، سواء كُنتم في السماءِ أو في الأرضِ؛ لكن وقتَ نُزولِ القُرآن لا يُمكِنُ أن يُرادَ بالسماءِ حقيقةٌ، إلا أن يُرادَ بالسماءِ ما عَلا ولو على قِمَمِ الجبالِ، لكن في وَقْتِنا الآن يمكن أن يكونَ الإنسانُ في السماءِ، أي: في العُلُوِّ، وليس المرادُ السماءَ الدنيا؛ لأن السماءَ الدُّنْيا لا يصلُ إليها أحَدٌ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٣٢]، حتى النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وجبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ما استطاعَا أن يَدْخلا السماءَ الدُّنْيا إلَّا بعد الاستفتاحِ والاستِئْذَانِ(٢).

قال المُفَسِّر في تَفْسيرِهَا الإجمالي: [أي: لَا تَفُوتُونَهُ]: أي: لا تَفوتُونَ الله، بل إذا شاءَ أن يُعذِّبكُمُ أدْرككُم فإن الله تعالى لا يَفوتُه شيءٌ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

واعلم أن عُقوبَة الله عَزَّوَجَلَّ وإدراكَه للإنسانِ تارَةً يكونُ بأمورٍ حِسِّيَّةٍ، فيُقَدِّرُ

---

(١) في ديوانه (ص: ٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب المعراج، رقم (٣٨٨٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، رقم (١٦٤)، وهو حديث المعراج وفيه «فَانْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَفَتَحَ».

اللهُ تعالى أسبَابًا مَعلُومةً لنا ونُشاهِدُها، وتارةً يكونُ بأمورٍ لا نُدرِكُها، فتأْتِيهِ العُقوبةُ مِنَ الله بدونِ أيِّ سَببٍ معلومٍ لنا، مثلُ أسبابِ نَصْر الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أحيانًا تكونُ بأسبابٍ غيرِ مَعلُومةٍ، وأحيانًا تكونُ بأسبابٍ مَعلُومةٍ، مثاله: نَصْرُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للرَّسولِ ﷺ، في غزوةِ الخَندَقِ: أرسلَ اللهُ عليهم رِيحًا وجُنُودًا لا نَراها، الجنودُ التي لا نَراهَا هي مِنَ الأُمورِ غيرِ المعلومةِ إلا بالشَّرْع، لكنَّ الرِّيح التي أَقلَقتْهُمْ وأكْفَأَتْ قُدورَهُم وهَدَمَتْ خيامَهُمْ هذه محسُوسَةٌ معلومَةٌ، لكنَّ الجنودَ التي لم نَرَهَا لولا إخبارُ الله إيَّانا عنها ما كُنَّا نَعْلَمُهَا.

فالله عَزَّوَجَلَّ يُدرِكُ الإنسانَ إما بأسبابٍ مَعلُومة تَظْهَرُ للعَيانِ، وإمَّا بأسبابٍ خَفِيَّةٍ لا تَظهرُ للعَيانِ، ثم قد نَعْلمُهَا بطريقِ الوَحي وقَدْ لا نَعْلَمُهَا.

قولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرُهُ ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يَمْنَعُكُمْ مِنْه ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يَنْصُرُكُم مِن عَذَابِهِ]: (ما) في قوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ هل هِي تَمِيمِيَّةٌ أم حِجازِيَّةٌ؟

الجواب: اتَّفقتْ فيها اللُّغتانِ، وذَلك لعَدمِ التَّرتِيبِ لأنَّ ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ هو المبتدأُ، و﴿لَكُم﴾ هو الخَبَرُ، يعني: لا وَلِيَّ لكُمْ مِن دُونِ اللهِ، وقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أيْ: غَيْرُهُ] صحيحٌ، وعبَّر عنِ الغَيْرِ بالدُّونِ لانْحطَاطِ رُتبَتِهِ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يَمْنعُكُم منه، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينْصُرُكم مِن عَذابِهِ]: ولا أعلمُ إلَّا أن النَّصْرَ بمعنى المنْعِ والعَوْنِ؛ لكنَّ الصَّحِيحَ أن قولَهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أن الوَليَّ من يتَوَلَّى الإنسانَ في جميعِ أحوالِهِ فينْصُرُه في مقابلة عَدُوِّه، ويأتي إليه بالخيرِ ولو في غيرِ مقابَلَةِ العَدوِّ، فالوليُّ هو الأعَمُّ، فهو الذي يتَوَلَّاهُ في

جَلْبِ الخيرِ ودَفْعِ الشَّرِّ، والنَّصِيرُ هو الذي يَدفَعُ عنكَ فقط، قد لا يكونُ من أَوْلِيائِك لكن يدْفَعُ عنك في الحالِ المعَيَّنة التي تحتاج فيها إلى نَاصِرٍ، والنُّصْرَةُ تكون في دَفعِ المكرُوه، فيكون الوَلِيُّ هنا أَعَمُّ.

يعني: لا أَحَدَ يتولَّاكُمْ فيَجْلِبُ لكمُ الخيرَ ويدفعُ عنكم الشرَّ، ولا أحدَ أيضًا ينْصُرُكُم من دُونِ اللهِ فيمنعُ عنكم العِقابَ، وهذا أمرٌ واقِعٌ فإنَّ بأس اللهِ إذا نزلَ بقومٍ فلا يستَطِيعُ أحدٌ أن يدْفَع عنهم هذا البأسَ، ولا أن يمنْعَهم منه.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: كَمالُ قُدرةِ الله عَزَّوَجَلَّ وأنه لا يُعجِزُه شيءٌ؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

الفَائِدة الثَّانِية: أنه لا مَفَرَّ للمرءِ مِن قَدَرِ الله، سواء كانَ في السماءِ أم في الأرضِ، لقولِهِ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

لو قال قائل: هل في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ رَدٌّ على القَدَرِيَّةِ؟

فالجواب: هذا فيه نَظَرٌ؛ لأن القُدْرَةَ يقولون: إن الإنسانَ مستَقِلٌّ بعَمَلِهِ ولا دَخْلَ لمشِيئَةِ اللهِ فيه، لكنهم يقولون: إنَّ اللهَ قادِر على إهْلاكِهِمْ واستِئصالِهِمْ إذا خالَفُوا.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: ضعفُ البَشَرِ بالنِّسبَةِ إلى الخالق؛ لأن الخطابَ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ للعُمومِ، فالبشرُ مَهْمَا بلَغُوا من القوة فَهُم بالنِّسبة إلى الخالِقِ عاجِزُونَ ضُعفاءُ. ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ﴾

قال تعالى: ﴿خَلَقَهُمْ﴾ ولم يقل: أولم يَرَوا أن الله هو أَشَدُّ؛ لأن الذي خَلَقَهم هو أَشَدُّ منهم قُوة، فإذا كانوا مَخْلُوقينَ فإنَّ الخالِقَ أقوى بلا شَكٍّ، فالخالقُ أقْوى مِنَ المخلُوقِ، فأتى بالموصولِ وصِلَتِهِ كالتَّعْلِيلِ والدِّلالَةِ على ضَعفِهِمْ أمام الله عَزَّوَجَلَّ.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: أن لا مَلجأَ للبَشَرِ في جَلْبِ المنافِعِ ودَفعِ المضَارِّ إلا إلى الله تعالى، وأنهم مهما استَعانُوا بغيرِهِ فإنهم خائبونَ لقولِهِ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: وهي فائدةٌ بلاغِيَّةٌ: أن مِنْ أدواتِ التَّوكيدِ زِيادَةَ الحروفِ لقولِهِ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ لأن (مِنْ) هنا زائدةٌ لإفادَةِ العُمومِ، أي: التَّنْصيصُ على العُمومِ.

الآية (٢٣)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [العنكبوت:٢٣].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ ﴾ أي: القُرآنُ والبَعْثُ].

قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾ مبتدأٌ وخبرُه الجملةُ الاسميَّةُ في قولِهِ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ ﴾، فهذه الجملةُ كُبرى وصُغْرى، يقول النحويون: جملةٌ كُبْرَى وصُغْرى فإذا كانت الجملةُ خبرًا يُسَمُّونَها جملةً صُغْرى، وإذا كانت مكونة مِنْ مبتدأ وخبرٍ تُسَمَّى كُبْرى، فعندنا الآن ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ إلى آخر الجملةِ نُسَمِّيها جملةً كُبْرَى، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ ﴾ هذه جملَةٌ صُغْرى لأنها جزءٌ مِنَ الجُملةِ الكُبرى، فهي مبتدأٌ وخَبرٌ لكنها خبرٌ، وأتى بالجملة الاسمِيَّةِ للدَّلالَةِ على الثُّبوتِ والاستِقْرارِ.

قوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾، (الآيات): جمعُ آيَةٍ، والآيةُ في اللُّغَة: العَلامَةُ، وآياتُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نوعان: كونِيَّةٌ وشَرْعِيَّةٌ.

فالكونية: ما خَلقَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في السَّماءِ والأرضِ، فهي آياتٌ كَونِيَّةٌ لدَلالَتِها على خالِقِها، فهي دالَّةٌ على الخَالِقِ، وكلُّ شيءٍ مِنها يَدُلُّ على صِفَةٍ تُناسِبُهُ؛ لأن الآياتِ كلَّهَا على سبيلِ العُمومِ تَدُلُّ على الخالِقِ، كلُّ آيَةٍ منها تدلُّ على صِفَةٍ مُعيَّنَةٍ

من صفاتِهِ، فإذا كانت الآياتُ عظيمةً دلَّتْ على وجودِ الخالِقِ وعلى قُدرَتِهِ، وإذا ظَهَرَ فيها إحكامٌ وإتِّقانٌ دَلَّت على الحِكمَةِ، وهكذا.

فالآياتُ بعُمومِهَا دالَّةٌ على وُجودِ الخالِقِ، ثمَّ كُلُّ آيَةٍ منها لها دِلالَةٌ خاصَّةٌ تَدُلُّ على ما تَدُلُّ عليه من هذه الصِّفاتِ الخاصَّةِ، ومثال الآيات الكَونِيَّةِ قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧]، وفي سُورَةِ الرُّومِ عِدَّة آياتٍ ذَكَرها الله عَزَّوَجَلَّ.

النوعُ الثَّانِي من الآياتِ: الآياتُ الشَّرْعِيَّةُ، وهي ما جاءتْ بها الشَّرائعُ.

وها هنا فائِدَةٌ: وهي أن الآياتِ الشَّرْعِيَّةَ يعْجزُ البشَرُ أن يأْتُوا بمِثْلِهَا؛ لأنها كلَّهَا إصلاحٌ ودَرءٌ للمَفاسِدِ، فكُلُّ الشرائعِ جاءتْ بالإصْلاحِ، ولكنَّ الإصلاحَ يكونُ في كُلِّ أُمَّةٍ بحسَبِهَا، فالشِّدَّةُ على اليهودِ مناسِبَةٌ، والتَّخْفيفُ على النَّصارَى مناسِبٌ، والجمعُ بينهما في هذه الأُمَّةِ غايةُ المناسَبَةِ، وإن كان دِينُ الإسلامِ يُسْرًا لا حرجَ فيه بالنِّسْبَةِ إلى دِينِ النَّصارَى، دِينُ النَّصارَى فيه أشياءُ كثيرةٌ مسامَحٌ فيها لأن حالهم تُناسِبُ ذلك، ودِينُ اليَهودِ فِيه شِدَّةٌ وأغْلالٌ حَطَّهَا الله عنا بهذا النَّبِيِّ الكريم، فهذِه الشرائعُ كُلُّها آياتٌ تَدُلُّ على كمالِ مَنْ شَرَّعها وسنَّها لعِبادِهِ، ولكنَّ النوعَ الأوَّلَ من الآياتِ الإيمانُ بِهِ صَعبٌ والوصولُ إلى حَقِيقتِهِ سَهْلٌ، لكنَّ الثاني هو الذي يكونُ فيه نوعٍ مِنَ الصُّعوبَةِ؛ لأنه لا يعرفُ كمالَ الشَّريعَةِ ودِلالَتِهَا على مَنْ شَرَّعها إلا من تَعَمَّق فيها، وعَرَفَ الحُكْمَ والأسرارَ التي تَتَضَمَّنُهَا هذه الأحكام، ولهذا يَنْبَغِي لنَا التَعَمُّقُ في معرفة حِكَمِ التَّشْرِيعِ؛ فكَوْنِي أعْرِفُ أن هذا حلالٌ أو هذا حرامٌ؛ هذا قد يكون سَهلًا، لكن كوني أعرِفُ لماذا حُرِّم أو لماذا حُلِّل هذا هو المهِمُّ جدًا، وهو الذي يَتبَيَّنُ به كونُ الشَّرعِ منْ آيات الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ أي: يومُ القيامةِ، يعني: كذَّبُوا باللِّقَاءِ اللازمِ منه البعثُ؛ لأن البعثَ لازِمٌ من لَوازِمِ اللِّقَاءِ، لا لقاءَ إلا ببعْثٍ، ولقاءُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ثابتٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ المسلمينَ، قالَ اللهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، يعني: فأَنْتَ مُلاقِيهِ فجَازِيك على هذا الكَدْحِ إما خَيرًا وإما شَرًّا.

وقوله: ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ يعْنِي: البَعْثَ؛ لأن المنْكِرينَ للبَعْثِ لا يؤمنونَ بلِقاءِ اللهِ؛ لأنهم يقولونُ -والعياذ بالله- إنهم إذا كانُوا عِظامًا ورُفاتًا فلا يمكِنُ أن يُبْعَثُوا خَلقًا جديدًا، فكذَّبوا بهذا.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي﴾ جَزاءُ هذا التَّكذيبِ اليأسُ مِنْ رَحمةِ اللهِ، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: جَنَّتِي]، فأوَّلها إلى الرَّحمَة المخلوقَةِ لا إلى الرَّحمةِ التي هي صِفةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وذلك لأنَّ الرَّحمَةَ المضافةَ إلى اللهِ قد يُرادُ بها دَارُ رَحمتِهِ فتكونُ مخلوقَةً، كما في الحديث القُدُسِيِّ أن الله عَزَّوَجَلَّ قال للجنَّةِ: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[1]، وتُطْلَق على الرَّحمة التي وُصِف الله عَزَّوَجَلَّ بها، وحينئذٍ تكونُ صفةً مِن صِفاتِ اللهِ غيرَ مخلوقةٍ، ومنه قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧].

فما المرادُ بالرَّحمةِ في هذه الآية؟ هل المرادُ بها النوعُ الأوَّلُ: الرّحمةُ المخلوقةُ التي هي موضِعُ الرَّحمةِ، أو الرحمةُ التي هي صِفَتُهُ؟

الظاهرُ: أن المرادَ بها الرَّحمةُ التي هي صِفَتُهُ؛ لأنه إذا أُطلِقَتِ الرَّحمةُ مضافَةً إلى الله فالمرادُ بها الصِّفَةُ، فلا نَحمِلُها على أنها موضِعُ الرَّحمةِ إلا إذا وُجِدتْ قَرينَةٌ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب تفسير سورة (ق)، رقم (٤٥٦٩)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٤٦).

فإذا وُجدت قرينةٌ عَمِلْنا بهذه القَرينَةِ، وإلَّا فالأصلُ أنها صِفَةٌ من صفاتِ اللهِ.

فعلى هذا يكون معنى الآية: يَئسوا من أن أَرْحَمَهُم، وإذا لم يرحْمُهم اللهِ لم يَدْخُلوا الجنة، وهذا هو المعنى الصَّحِيحُ للآية، وما ذَكَرَهُ المُفَسِّر فهو محتَمَلٌ، فلا نُنكرُ عليه إنكارًا شديدًا؛ لأن الرَّحمةَ كما تُطْلَقُ على الصِّفَةِ تُطلقُ على موطنِ الرَّحْمَةِ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هاتان جملْتانِ كُبرى وصُغرى أيضًا: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأٌ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ مبتَدأٌ وخَبرٌ، والجملةُ خَبرٌ، كلُّ هذا لكمالِ التَّهْديدِ لهم، فهم حُرِموا من الخيرِ ووَقَعُوا في الشَّرِّ؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مُؤْلِمٌ]، والعَذابُ مَعناه العُقوبةُ، يعني: لهم عُقوبة أليمةٌ، أي: شَديدَةٌ مؤلمَةٌ والعياذُ بالله، وذلك في النارِ، ولا حاجَة إلى شَرح ما في هذه النَّارِ من العَذابِ لأنه معلومٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن الكفَّار لا يدْخلونَ الجنَّة؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي﴾.

الفَائِدةُ الثَّانِية: إثباتُ الآياتِ الكونيَّةِ والشَّرْعِيَّةِ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

الفَائِدةُ الثَّالِثَةُ: رحْمةُ اللهِ تعالى بالعِبادِ؛ حيثُ أظهرَ لهم مِنَ الآياتِ ما يؤمنون على مِثْلِهِ، فمن نِعْمة الله تعالى أن يُرِيَ عبادَه مِن آياتِه ما يؤمنونَ على مِثْلِهِ، ولهذا كلَّما ظَهَرَ للإنسانِ مِنْ آياتِ اللهِ شيءٌ كانت نِعمَةُ اللهِ عليه أكبرُ وأشدُّ في رُسوخ إيمانِهِ.

ومن ذلك الكَراماتُ التي حَصَلت لبعضِ أولياءِ اللهِ، فإنها تَزِيدُ في إيمانهم وتؤيدُ ما كانوا عليه مِنَ الحقِّ، قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكَثُرَتِ الكراماتُ في زَمنِ التابِعينَ دونَ الصَّحابَةِ؛ لأن الصحابة عندِهُم منَ الإيمانِ ما ليس عندَ التَّابِعين، فليسوا في حاجَةٍ إلى كَراماتٍ تُقَوِّي إيمانَهُم كحاجَةِ التَّابِعِينَ»، ذكر هذا في كتاب الفُرقانِ[1]، وهذا حَقٌّ، فإنك إذا تأَمَّلْتَ الكراماتِ التي ذُكِرَتْ وجَدْتَها في التابِعين أكثر، والمهِمُّ أن إظهارَ الآياتِ للإنسانِ سواء كانت شَرعِيَّةً أم قَدرِيَّةً: من نِعمةِ الله عليه؛ لأنها تَزيدُ في إيمانِهِ ورُسوخه في القَلبِ.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: إثباتُ رؤيةِ الله عَزَّوَجَلَّ، لقولِهِ: ﴿وَلِقَآيِهِۦٓ﴾، فإنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ استدَلُّوا بذلك على إثبات الرُّؤيَةِ؛ لأن الملاقاة إذا لم يكنْ مانعٌ فلا بُدَّ حينئذ مِنَ الرُّؤية، ولا مانِعَ يمنَعُ.

وهذه المسألةُ فِيها خِلافٌ كثيرٌ بين أهلِ السُّنَّةِ وأهلِ البِدَعِ، والصوابُ الذي دلَّ عليه الكِتابُ والسُّنة إثباتُ رؤيةِ الله تعالى بالعين، وأنه في الآخرة يُرَى، أما في الجنَّـةِ فيَراهُ المؤمنون ولا يَراهُ غيرُهم لأنهم ليسوا فيها، وأما في عَرصاتِ القيامة فالصَّحِيحُ أنه يَراهُ المؤمنونَ ويَراه المنافِقُونَ، لكنَّ المنافقين يَرَوْنَهُ رؤيةَ تَنْديمٍ لا رؤية تَنْعِيمٍ؛ لأن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يظهر لهذه الأمَّةِ وفيها منافِقُوها فيُكْشَفُ لهم عَنْ سَاقِهِ عَزَّوَجَلَّ ويأمُرُهم بالسُّجودِ، فمن كان يسْجُد لله سَجدَ، ومن كان لا يسْجُدُ إلا رِياءً وسُمْعَةً يَعْجزُ فلا يسْجُدُ.

فالمؤمنون يَرْونَه رؤيةَ تكريمٍ، وهؤلاء يَرونَه رؤيةَ تَنْديم؛ لأنهم إذا حُجِبُوا عنه بعدَ ذلك صارَ أشَدَّ وقْعًا في نُفوسِهِم، مثلُ المنَافِقِين الذين يُعطَوْنَ نورًا يوم القيامة

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، (ص: ١٦٦).

ثم يُحْجبُ عنهم، فهذا وقْعُه عليهم أشدُّ من الذين لم يُعْطُوا نورًا مِنَ الأصْلِ.

إذا قالَ قائلٌ: هذه الرُّؤيَةُ كيفَ تُقِرُّونَها وتؤمنون بها مع أن الله جَلَّوَعَلَا يقولُ لموسَى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]، ويقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

فالجوابُ: أن قولَهُ لموسَى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ جوابٌ لقولِ مُوسَى: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ وهو يريدُ رؤيةَ ربِّه الآن، ولهذا قال: ﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]، فدَلَّ هذا على أن نَفْي الرُّؤيَةِ في ذلك الوقتِ، وهذا حَقٌّ، فإن الله جَلَّوَعَلَا لا يُرَى في الدُّنْيَا لعَجْزِ الإنسان عن تَحَمُّلِ ذلك، وقد ضَربَ الله لرَسولِه موسَى ﷺ مَثَلًا بالجَبلِ؛ فإنَّ الله تعالى لما تَجَلَّى للجبلِ جَعلَهُ دَكًّا وخرَّ موسى صَعِقًا.

أما قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، فهي إلى الدَّلالَة على ثُبوتِ الرؤية أقربُ من الدَّلالةِ على نَفْي الرؤية؛ لأن الله -جل ذكره- لم يَقُلْ: لا يُرَى، بل قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ ونَفْيُ الأخصِّ لا يدُلُّ على نَفْي الأعَمِّ؛ لأن الإدراكَ أخصُّ من مُطلَقِ الرُّؤيةِ، وهذه قاعِدةٌ معروفةٌ عندَ أهلِ العِلم.

فهنا نقول: إن الآية تَدلُّ على أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُرَى؛ لأنه لو لم يُرَ لقال: لا تَراهُ الأبصارُ، فلما قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ عُلِمَ أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُرَى لكن لا يُدرَك، ونحن نقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ حتى في الآخرة، فإنه لا يُمكِنُ الإحاطةُ بالله عَزَّوَجَلَّ، لكنَّه يُرَى.

وضَرْبُ المثل لا بأس به لكن مع الفَرْقِ: ألَسْنا نَرَى الشمسَ ولا نُدْرِكُها؟ بل نَرى أصغرَ حيوانٍ بالعين ومع ذلك لا ندرك ما فِيه مما خلَق الله في جوفِه أو في جِلْدِهِ.

فالحاصلُ: أنه لا يلزمُ مِن نَفْيِ الإدراكِ نَفْيِ الرؤية، بل هو دَلِيلٌ على ثُبوتِ الرُّؤيَةِ؛ ولهذا استدَلَّ أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ بهذه الآية على ثُبوتِ الرُّؤيَةِ.

أما الكفَّارُ فإنهم لا يَرونَ الله عَزَّوَجَلَّ يومَ القِيامَةِ، والذي يستدل بقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، نقول: قد دلَّ قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، على أن الكافِرَ لا يَرى الله تعالى يومَ القِيامَةِ.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: وجوبُ الإيمانِ بلقاءِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الله تعالى عاقَبَ الذينَ لا يؤمِنونَ بذلك باليأسِ مِن رَحمَتِهِ.

الفَائِدةُ السَّادسَة: ثبوتُ الرَّحمةِ لله جَلَّوَعَلَا؛ لقَولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي﴾، والإضافةُ هنـا إن قلنا: إن المرادَ بالرَّحمةِ الجنَّةَ، فهي من بابِ إضافَةِ المخْلـوقِ إلى خالِقِهِ تَشْرِيفًا وتكْريمًا، وإذا قُلنَا: إنها صفةٌ من صفاتِ الله، فهي من بابِ إضافَةِ الصفةِ إلى مَوْصوفِها.

والمضافُ إلى الله تعالى نوعان: إما أعيانٌ وإما أَوْصافٌ، والأعيانُ إما أن تكونَ إضافَتُهَا إلى الله على سبيلِ العُمومِ أو على سبيلِ الخُصوصِ.

فالأولُ الذي يُضافُ إلى الله على سبيلِ العُمومِ: يرادُ به أن الله عَزَّوَجَلَّ خالقٌ لهذا الشيءِ، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣]، وهذا يَشْمَلُ كلَّ ما في السمواتِ والأرضِ، وإما أن يكون خاصًّا يُرادُ به التَّشْرِيفُ والتكريم، مثل: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ و(بيتُ اللهِ) و﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ وما أشبه ذلك.

أما إذا كان المضافُ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَصْفًا لا يقومُ بغَيْرِهِ فإنه يكونُ صِفَةً

منْ صفاتِ الله، مثلُ: كلام الله، وقُدرة الله، وعِزَّة الله، وما أشبه ذلك، وبهذا استدَلَّ أهلُ السُّنَّةِ على أن القرآنَ غيرُ مخلوقٍ؛ لأن القرآنَ وصْفٌ يقوم بالمتكَلِّمِ، فهو كلامٌ يقومُ المتكلِّم به، فهو من إضافَةِ الصِّفة إلى الموصوفِ بها.

لو قال قائل: أضافَ الله عَزَّوَجَلَّ رُوحَ آدمَ ورُوحَ عِيسى -عليهم السلام- إليه؛ هذه الإضافة مِنْ أيِّ الأقْسامِ؟

فالجواب: هذه الإضافةُ من باب إضافَةِ المخلوقِ إلى الخالقِ تَشْريفًا، وذلك لأنَّ الرُّوحَ عينٌ لا صِفَةٌ؛ لأنها تُقْبَرُ وتُلَفُّ في الكفَنِ -كما جاء في الحديث-: «ويُصْعَدُ بِها إلى اللهِ تعالى»[1]، فهي عَيْنٌ لكنها عَينٌ غيرُ مَعْلومَةٍ ليس لها نَظِيرٌ فما نُشاهِدُهُ، فهي ليست كالأعْيانِ الجِسْمِيَّةِ، ولهذا قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾، ثم قالَ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، وأما قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١]، أي: مِنَ الأَرْواحِ التي يَخْلُقُها لأنَّ الأرْواحَ مَخلُوقَةٌ لله، وليس المعْنَى أني جَعلْتُهُ جُزءًا مِنِّي، فهذا ما أحدَثَهُ إلا الحُلوليَّةُ مِنَ النَّصارِى وأشبَاهِهِمْ.

لو قال قائلٌ: عبدُ اللهِ وعبدُ الرحمنِ مِنْ أيِّ أقسامِ الإضَافَةِ؟

فالجواب: هذه الإضَافَةُ تكون على سبيلِ الخُصوصِ وعلى سبيل العُمومِ، فإذا قلنا: (عبدُ الله) فالمرادُ العُبودِيَّةُ العامَّةُ، وإذا قُلنا: (عبادُ الرَّحمنِ) فالمرادُ الخُصوصُ.

الفَائِدةُ السَّابِعة: إثباتُ العُقوبةِ للكَافِرينَ، وأنها عقوبةٌ شَدِيدةٌ، لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، والآياتُ في هذا كَثِيرةٌ جِدًّا، ولا حاجَةَ إلى كثْرةِ الكلامِ فيها لأنها واضحةٌ والحمدُ لله.

---

(١) معناه عند: أحمد (٤/ ٢٨٧) (١٨٥٥٧)؛ الحاكم في المستدرك (١/ ٩٣) (١٠٧)؛ مصنف ابن أبي شيبة (٣/ ٥٤) (١٢٠٥٩)؛ الطبراني في الكبير (٣/ ٥٨) (٢٦٧٦).

الآية (٢٤)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٢٤].

قوله تعالى في قِصَّةِ إبراهيمَ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾، الجُملةُ على رَأيِ المُفَسِّرِ مُعترِضَةٌ من قولِهِ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ [العنكبوت:١٨]، إلى قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت:٢٣]، هذا ما ذَهَب إليه المُفَسِّر وابنُ جَريرٍ وأكثرُ المفسِّرينَ.

وقال بعضُ المفسِّرينَ: إن الكلامَ كلَّه مِن كلامِ إبراهيمَ وليس فيه شيءٌ معْتَرَضٌ، واختارَ هذا ابنُ كَثيرٍ[1]، وقال: إن الكلامَ كلَّه مِن كلام إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكن قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى﴾ [العنكبوت:٢٣]، فيَرَوْنَ أنه من كَلامِ اللهِ.

أما قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت:٢٠]، فالظاهِرُ مِنْ سياقِ الآياتِ أن الكلامَ ليس مِن كلامِ إبراهيمَ، بل هو مِنْ كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مُعْتَرِضٌ في القصة، والقول بأنه مِنْ كلام إبراهيمَ لا يستَقِيمُ مع السياقِ إلَّا بالتكلُّفِ، وذلك بأن نقولَ: لما كان رَسُولًا مِنَ اللهِ كان خطابَ الله تعالى على لِسَانِهِ وإن كان مُضَافًا إلى الله، فهذا هو وجهُ التكلُّفِ.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٧٠).

أما قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ [العنكبوت:١٨]، فهذا مِنْ كلامِ إبراهيمَ، ولا إشكالَ في ذَلِكَ؛ لأنه يُوجدُ أُمَمٌ قد سَبقت إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وأما قوله تعالى: (أَوَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخَلْقَ) على قراءةِ التَّاءِ، فلا إشكالَ أنه مِنْ كلامِ إبراهيمَ؛ لأن إبراهيمَ يُخاطِبُهم ويقولُ هذا الكلامَ، وأما على قراءةِ الياءِ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ فظَاهِرُهُ أنه مِن كلامِ اللهِ معترَضًا في القصَّةِ.

قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾، هذا جوابٌ شَديدٌ والعِياذُ بالله، لكن فيه إشكالٌ من حيثُ الإعرابِ، فلماذا نَصبَ اسمَ (كان) والمعروف أن (كان) تَرفعُ الاسمَ وتنْصِبُ الخبرَ؟

والجواب على هذا: إن قولَهُ: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ هو اسم (كان)، وقوله: ﴿جَوَابَ﴾ خبرٌ مُقدَّمٌ لـ(كان)، والتقدير: فما كان جَوابَ قومِه إلا قَولُهم.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ هذه تُفيدُ الحَصرَ، يعني: ما كان الجـوابُ بالاستِسْلامِ ولا كان بالرَّدِّ الجميـلِ، ولكن كان -والعياذ بالله- بمقامِ التَّهديدِ بالقوَّةِ، وهكذا كلُّ إنسان لا يستطيع ردَّ الحَقِّ فإنه يُهدِّدُ بالقوَّةِ إذا كان له قُوَّة على خَصمِهِ، وإن لم يكن له قُوَّة صارَ يتكَلَّمُ بالسَّبِّ والشتْمِ، كما قال فرعونُ لموسَى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩]، عندمَا ناظَرَهُ، والمناظَرةُ في سورةِ الشُّعراءِ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ فسَخِرَ بِهِ: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، الجوابُ: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ثم رَماهُ بالجُنون: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، الجواب: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾،

أي: فأنتم المجَانِين في الحقيقةِ، لكن جاء بها بأسلوبٍ واضحٍ مُنطِقِيٍّ، أي: فإن كنتم عُقلاءَ فربُّ المشرقِ والمغرب الذي يأتي بالشمسِ مِنَ المشرقِ ويأتي بها مِنَ المغْرب هو اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأخِيرًا لما لم يستطع الإجابة: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٣-٢٩].

وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ [الشعراء:٢٨]، يُشْبِّهُ قولَ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للَّذِي حاجَّه في اللهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨]، وهنا كانَ الجوابُ: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾، فهو تَهديدٌ بالقُوَّةِ لا بالمنْطِقِ، وهو نَظيرُ ما حصلَ للرُّسُلِ وخُصمائِهم، فهي سِلْسِلةٌ لا تَتفَرَّقُ، فقد أُوذِي محمدٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠].

فلو قالَ قائلٌ: هنا في هذه الآية قالَ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾، وفي آيةٍ أُخْرى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٦٨]، والجمعُ بينهما سَهْلٌ، فهنا قال بعضهم: اقتُلُوه، وقال بَعضُهم: حرِّقُوه، ثم قرَّ قرارُهُم على التَّحريقِ، والله أعلمُ، ونسألُ الله العافية.

قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾: (أو) هذه هل هي للتَّخْيِيرِ أو للشكِّ أو للتَّنْويعِ؟

فالجواب: هي للتَّنْويعِ، وليست للشَّكِّ؛ لأن كلامَ الله لا يقَعُ فيه الشكُّ لكمالِ عِلمِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا للتَّخْيِيرِ؛ لأنه خلافُ ظاهِرِ القُرآنِ في سورةِ الأنبياءِ: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ﴾، فكان الرأيُ على التَّحْريقِ.

فإذا قال قائل: أليسَ الإحْراقُ يحصلُ به القَتْلُ؟

قلنا: بلى، لكن يحصُلُ التَّعْذيبُ فيه أكثرُ، ثم -والعياذ بالله- لحنُقْهِمْ وشدَّةِ ما في صُدورِهِمْ على إبراهيمَ رأَوْا أنه يُعذَّبُ بالنارِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حكيمٌ، وتَجْري الأمورُ على مُرادِهِ وحِكْمتِهِ، فلَعَلَّهم لو قتَلُوه لما حصلتْ هذه الآيةُ العَظيمةُ، وهي: أن تكونَ النَّارُ بَرْدًا وسلامًا عليه، لكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ حَكيمٌ.

قوله: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ الآيةُ فيها حَذفٌ، والتقديرُ: فحَرَّقُوه فأنجاهُ اللهُ مِنَ النَّار، أي: خلَّصَهُ من النَّار، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الَّتِي قَذفُوه فيهَا بأَنْ جَعلَها بَرْدًا وسَلامًا]، ونقولُ ذلك لأن اللهَ قالَ: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ فكانت بَرْدًا وسَلامًا، قال أهلُ العِلمِ: لو أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿بَرْدًا﴾ فقط لكانتْ ثَلْجًا عليه، ولكنه قال: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لأجلِ أن يسْلَم، وفيه أن البَرْدَ يقتُل كَما أن الحَرّ يقْتل، ولولا أن البردَ يقتُلُ ما احتِيجَ إلى قوله: ﴿وَسَلَٰمًا﴾.

قوله: [﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: إنْجائِهِ منْها ﴿لَأَيَٰتٍ﴾] اسم إنَّ، واللام للتَّوكيدِ، وكسرتْ هنا لأنها جمعٌ خُتِمَ بألفٍ وتاءٍ، قال ابنُ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

وَمَا بِتَا وَأَلِفٍ قَدْ جُمِعَا ... يُكْسَرُ فِي الجَرِّ وفِي النَّصْبِ مَعَاً

فتُنصبُ بالكسْرةِ، فالآياتُ جمعُ آيَةٍ وهي العَلامةُ، والمرادُ هنا الآيات الكونِيَّةُ لا الشرعيَّةُ وجمَعَها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وبيَّن وجْه الجمعِ فقال: [هِي عَدَمُ تأْثِيرِهَا فيه مَع عِظَمِها، وإخْمَادِهَا، وإنشاءِ رَوْضٍ مكانَها في زَمنٍ يَسِيرٍ]، هكذا بيَّن المُفَسِّر الآيات، وهي:

أولًا: أنها لم تُؤَثِّرْ مع عِظَمها؛ لأنهم جمَعُوا حَطبًا عظيمًا، وأَضْرَمُوا نَارًا عظيمة،

---

(١) البيت رقم (٤١) من ألفيته.

حتى ذُكِرَ أنهم ما استَطَاعُوا أن يقْربُوها، وأنهم ألْقَوْه بالمنْجَنِيقِ فحَذَفَ ورَمَي مِن بُعدٍ، والله أعلم.

ثانيًا: إخمادُهَا، أي كونها تُخْمُدُ وتَهْدَأُ من اللَّهبِ في لحظة، هذا من آياتِ الله عَزَّوَجَلَّ، ونحنُ -والله أعلم- لا نعرفُ هل خَمَدَتْ أم أنها بَقِيَتْ، والظاهر أنها بَقِيت لأنه قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ [الأنبياء:٦٩]، والله عَزَّوَجَلَّ ما أمَرَهَا أن تَخْمُد بل قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾، وعلى هذا فيكون في كلامِ المُفَسِّر نظرٌ، ويكونُ الصوابُ أنها بَقِيتْ على ما هي عليه ولكنها كانتْ بَرْدًا وسلامًا على إبراهيم، وهذا أظهرُ في الإعجازِ.

ثالثًا: أنها كانتْ رَوضَةً، لكن يكفي أنها كانتْ بَردًا وسلامًا على إبراهيم.

وعنْدِي أن الآيات أكثرُ مما قال المُفَسِّر، فإن من الآيات:

- إبطالُ كَيدِ هؤلاءِ.
- ومنها: صبرُ إبراهيمَ وتحمُّلُهُ؛ لأن حقيقةَ الأمْرِ أن هذا شيءٌ لا يقْوى عليه إلَّا أمثالُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهو مِنْ أُولِي العَزمِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.
- ومنها: انْقلابُ هذه الحرارةِ إلى بُرودَةٍ.
- ومنها: انْقِلابُ كونها سَبَبًا للهَلاكِ إلى أن كانَتْ سَلامًا عليه.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يُصَدِّقونَ بتوحيدِ اللهِ وقُدرَتِهِ؛ لأنهم المنتَفِعُونَ بِهَا]: هذه الآياتُ قَيَّدَهَا اللهُ بأنها ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ احْتِرَازًا مِنَ القومِ الذين لا يؤمنون، فالقَومُ الذين لا يؤمنونَ وإنْ كانَتْ الآياتُ أمامَهُم لا ينْتَفِعُونَ بها، فليست لهم آياتٌ، ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

وهل نَعلَمُ في الكلامِ شَيئًا أَعْظَمَ آيةٍ من كلامِ اللهِ؟

الجواب: لا نعلمُ، وهو الواقِعُ، ومع ذلك مَنْ ليسَ بمؤمنٍ إذا تُلِيَ عليه القرآنُ قال: ﴿أَسَطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ولذلك إذا رَأَيْتَ مِنْ نفسِكَ أنك لا تَتَأَثَّرُ بالقرآنِ فاتَّهِمْ نفسك؛ لأن الله تعالى لم يَقُلْ عن أحدٍ إنه لا ينْتَفِعُ بالقرآنِ، إلا عن المكذِّبِينَ الذين لا يرون في القرآن شيئًا يأخذُ بِلُبِّهِمْ وروعِهِمْ، وهذه المسألةُ نسألُ الله النَّجاةَ منها؛ لأن كَثِيرًا من النَّاسِ يَقْرؤون هذا القرآنَ ولكنَّهُ لا يَهُزُّ مشاعِرَهُمْ، وهذا خطيرٌ جِدًّا على الإنسان، فيجبُ على الإنسان أن يتَّهِمَ نفسه بهذا الأمر حتى يُعدِّلَ ما مَالَ منهُ ويُقوِّم ما اعْوَجَّ.

وعلى هذا نقول: إنَّ الآياتِ الكونِيَّةَ والشرعيَّةَ لا ينتَفِعُ بها إلا المؤمنُ، أما غيرُ المؤمنِ فلا ينْتَفِعُ بآياتِ الله؛ لأنها تمُرُّ عليه وكأنها أمرٌ عادِيٌّ أو بمقتَضى الطَّبيعَةِ، فالزلازِلُ والبَراكِينُ التي تُصيبُ الناس يقولون: هذه براكينُ عادية وليست بشيء، والرياحُ العاصِفَةُ العظيمة التي تُدمِّرُ المحاصيل والأشجارَ، وكذلك ما يَحْصُلُ مِنَ الأمطارِ المغْرِقَةِ؛ كل هذه الآيات يقولون: إنها ظواهِرُ طبيعِيَّةٌ، وكأنها ليست عُقوبة مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ، فلم يَنْتَفِعُوا بهذه الآيات، والآن بَدَؤوا في الكُسوفِ، يقولون: هذه أسبابٌ ظاهِرَةٌ، ونسألُ اللهَ السَّلامَة، فهم ينْشُرونَهَا قبلَ أن تَقعَ لأجلِ أن تأتِيَ إلى الناس وقد اطمَأَنُّوا إليها واستقرتْ في نُفُوسِهِمْ فلا تُرْعِبُهم ولا تخوفُهم، بينما نَجِدُ النَّبِيَّ عَلَيهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَا عِبَادَهُ»(١)، وهؤلاء جعلوها كأنَّها هلالُ عِيدٍ، حتى إن بعضهم خاطَبَنا بذلك وقال:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الكسوف، باب قول النبي ﷺ: «يُخَوِّفُ اللهُ عِبَادَهُ بالكُسوفِ»، رقم (١٠٠١)؛ ومسلم: كتاب الكسوف، باب ذكر النداء بصلاة الكسوف الصلاة جامعة، رقم (٩١١).

نحـنُ نُخبرُ الناسَ لأجلِ أن يتهَيَّئوا ويترَقَّبـوا لذلك، حتى يأتيَ الكُسـوفُ وهم مستعدون له، كأنه هلالُ عيد يَخْرُج حتى يخْرُجوا إلى المصَلَّى، وهذا غَلَطٌ.

وأنا أَذْكُرُ، والمتقدِّمُ في السِّنِّ يَذْكُرُ أن النـاس كانوا إذا جاءَ الكسوفُ يحصلُ عنـدهُم مِنَ الخوفِ والانزعاجِ والفَـزعِ كما أمرَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ به، الفَزَعُ إلى المسجدِ والبكاءِ، أما الآن -فنسأل الله العافية- تَرَى بعضَ الناس يشاهدُ الكُسوفَ، وعنده آلاتُ لهو تُغَنِّي وما أشبه ذلك؛ المهِمُّ أن هذه الآيات لا ينْتَفِعُ بها إلا المؤمِنُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: بيانُ طُغيانِ قومِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث إنه يَدُلُّهُم على الحقِّ ويكون هذا جوابُهُمْ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: اختلافُ قومِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما يَصْنَعونَ به ثم قرَّروا إحراقَهُ، وذلك بناء على الجمعِ بين هذه الآية وبينَ آيةِ الأنبياء، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: تمامُ قُدْرَةِ اللهِ، حيث كانت هذه النَّارُ المحرِقةُ برْدًا وسلامًا على إبراهيم؛ لأن هذا مِن آياتِ الله الدَّالَّةِ على قُدرَتِهِ.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: أن كـلَّ مَن قامَ لله فإنَّ الله يُنَجِّيهِ بمفَـازَتِهِ، يعني: يُنْجِيـهِ في موضعِ هَلاكِهِ، قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ﴾.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُقَدِّرُ مِنَ الأمورِ لإنْجاءِ أوليائِهِ ما لا يخْطُرُ بالبالِ، وإلا فمَن يخطُرُ ببالِهِ أن هذه النارَ العَظيمةَ تكون بَرْدًا وسَلامًا؟ ولكنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُقَدِّرُ لأوليائِهِ مِن أسبابِ النَّجاةِ ما لا يخْطُرُ لهم على بالٍ.

الفَائِدةُ السَّادسَةُ: أن الجمادات تَعرِفُ رَبَّها فتَمْتثِلُ لأمرِه؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا قالَ لهذه النَّارِ: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾.

الفَائِدةُ السَّابِعة: أن الأسبابَ لا تَفْعَلُ فِعلَها إلا بإرادةِ الله عَزَّ وَجَلَّ، فالأسبابُ مهما قَوِيَتْ لا تَفعلُ الفِعلَ إلا بإذنِ الله عَزَّ وَجَلَّ، فمعنى أن اللهَ تعالى قد يمْنَعُ تأْثِيرَها، فالنارُ سببٌ للإحْراقِ بلا شَكٍّ، وهنا سُلِبتْ هذه السَّبَبيةَ ولم تؤثِّر.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: أن الآياتِ لا ينْتَفِعُ بها إلا المؤمنونَ، لقولِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وقوله هذا لا ينافي ما جاءَ في عِدَّةِ آياتٍ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وكقولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وما أشبه ذلك؛ لأن العَقلَ والتَّفكُّرَ ونحوهما من مقْتَضياتِ الإيمانِ، فكلَّما كانَ الإنسانُ أقْوى إيمانًا كانَ أكثرَ عَقلًا وتفكُّرًا، والتفكُّرُ أيضًا يدْعُو إلى الإيمانِ، فهُما متلازِمانِ.

لو قالَ قائلٌ: هل ثبتَ أن أحدَ الصَّحابة نَجا مِنَ النَّارِ بعدَ إلقائه فيها وكانت آيةً كإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

فالجواب: نعم ثبت ذلك، ذكره ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في البداية والنهاية[1]، وقال: إنه ما مِنْ آيَةٍ لنبيٍّ سابِقٍ إلا كانت آيةً للنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أو أعظمَ، لكن منها ما جَرى للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نفْسِهِ، ومنها ما جَرى لأمَّته، وما جَرى لأُمَّته فإنه من آياتِهِ لأنه يشهدُ بصِحَّةِ الطريقةِ التي هُم عليها، فيكونُ ذلك مِنْ آياتِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٣١٠).

الآية (٢٥)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ﴾ إبراهِيمُ ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا﴾ تَعْبُدُونَها، و(ما) مَصْدَرِيَّةٌ ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ خبرُ (إن)، وعلى قِراءَةِ النَّصْبِ: مفعولٌ له، و(ما) كافَّةٌ، المعنى: تَوادَدْتُم على عِبادَتِها].

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيَّن لنا أن قولَهُ: ﴿مَّوَدَّةَ﴾ فيه قِراءتانِ سَبْعِيَّتانِ: قراءة الرفعِ: (مَوَدَّةُ)(١)، وعلى هذه القراءةِ المُفَسِّر أعربَ (ما) مَصْدَرِيَّةٌ، لا كافَّـة ولا موصولة، والتقديرُ على رأيه: إن اتِّخاذَكُم من دون الله أوْثَانًا مودةُ بيْنِكم، فيكونُ المصدرُ المنْسَبِكُ مِن (مـا) والفعل اسم (إن) و(مودة) خـبرُ إن، ويكون قولُه: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ شِبْهُ الجملة حَالًا مِنْ أوثانٍ؛ لأنها قُدِّمَتْ عليها.

وعلى قراءةِ النَّصْبِ يقولُ المُفَسِّر: إن (مودةَ) مفعولٌ لَهُ، يعني: مَفْعولًا لأجله، يعني: إنما اتَّخَـذْتُم مِنْ دونِ اللهِ أوْثانًا لأجِل المَوَدَّةِ بينكم، ولكن على هذه القراءة

(١) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي، انظر: تفسير الطبري (١٨/ ٣٨٢)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٣٣٨).

(ما) كافة، فتكونُ داخِلَةً على (إن)، و(ما) الكافة إذا دخلتْ عَلَى (إن) تفيدُ الحَصْرَ، يعني: ما اتخذتُمُ الأوثانَ إلَّا لأجلِ المَوَدَّةِ بينكم؛ هذا ما قاله المُفَسِّر.

وقيل: إنَّ (ما) اسمٌ موصولٌ -على قراءةِ الرَّفع- وإن العائدَ محذوفٌ، والتقدير: إن الذي اتَّخَذتمُوه مِنْ دونِ اللهِ أوثانًا مودَّةُ بينكم، وعلى هذا التقْدِيرِ يكونُ مفعول (اتخذ) الأَوَّلَ محْذوفًا ومفعولها الثاني: أَوْثَانًا، وعلى هذا فنقولُ:

(إن): أداةُ توكيدٌ تَنْصِبُ الاسمَ وترفعُ الخبرَ.

و(ما): اسمُها بمعنى الذي، و﴿ٱتَّخَذۡتُم﴾: صِلةُ الموصُولِ، والعائدُ محذوفٌ، والتقديرُ: اتَّخذتمُوه، و﴿أَوۡثَٰنًا﴾ مفعولٌ ثان لـ(اتَّخذ)؛ لأن (اتخذ) تَنصبُ مفعولَينِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء:١٢٥].

وهذا التقديرُ الذي ذَكرْنَاه يُصلُح حتى على قِراءةِ النَّصْبِ: إن الذي اتَّخذْتمُوه أوثانًا لأجلِ المودَّةِ بينكم لا ينفعكم، فيكون الخبرُ على قِراءةِ النَّصْبِ محذوفًا، والتقدير: لا ينْفَعُكُمْ.

وعلى القول بأن (ما) مَصدَرِيَّة أو كافَّة، نقول: إن المفعولَ الثاني أيضًا محذوف، والتقدير: آلهةً؛ كقوله تعالى: ﴿قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ والمعنى: اتخذْتُم هذه الأوثانَ آلهةً مودَّة بينكم.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [المعْنَى: تَوادَدْتُمْ على عِبادَتِهِمْ]، لأنَّ أهلَ الشرِّ -والعياذ بالله- يتوادُّونَ على فِعلِ الشَّرِّ، كما أن أهلَ الخيرِ يتَناصَرُونَ أيضًا على فِعلِ الخيرِ، يعني: إن الذي اتخذْتمُوه أوثَانًا لا يجمَعُكم عليه إلا المودَّة.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ﴾ يجوزُ في كَلِمَةِ (بينَ) أن يضافَ إليها ما قَبْلَها،

ويجوزُ أن تقطعَ عَنِ الإضافةِ، فيجوزُ في غيرِ القُرآن: مودَّةً بينكم، ويجوز: مودَّةَ بينِكم، وهي هنا على هذا الوجه.

وقوله: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلِّقَةٌ بما قَبلَها، يعني أنها مودَّةٌ في الحياة الدنيا فقط، فهؤلاءِ المشْركون يتوادُّونَ في الشِّرك في الدنيا فقط، فتَجِدُهم متَناصِرين متَعاونِينَ؛ لكن: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ ومعنى قولِهِ: ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾: يعْنِي: يُنْكِرُهُ، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة:١٦٦]، وهذا لا شَكَّ أنه إنكارٌ وكُفْرٌ لبَعضِهِمْ ببَعْضٍ.

﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٧-٦٨]، ومجادَلَةُ الأتْباعِ للمَتْبوعِينِ في عِدَّةِ آياتٍ مِن القرآنِ، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾، وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ وما أَشْبهَ ذلِكَ.

والحاصل: أن هذه المَودَّة بينَ المُشْركينَ في الدُّنْيا فقط، أما يوم القيامة فإن كُلَّ واحدٍ منهُمْ يتبَرَّأُ مِنَ الآخر ويُنكِرُه ويَلْعنُه أيضًا، وهذا لا شك أنه من أشَدِّ ما يكونُ مِنَ العُقوباتِ، لكنَّ المتَّقِينَ خُلَتُّهم باقيةٌ إلى يومِ القيامَةِ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧]، وأما هؤلاءِ فإن المودَّةَ فيما بينهم تَزُولُ في الموقِفِ.

وقوله: [﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ يتبَرَّأُ القَادةُ مِنَ الأتْباعِ، ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ يلْعنُ الأتْباعُ القادَةَ]، وهذه الآية عامَّةٌ، يتبَرَّأُ القادةُ من الأتْباعِ

ويلْعَنُ الأتْباعُ القادَّةَ، وكذلك يَلْعنُ بعْضُهم بَعْضًا.

قوله: [﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾، مَصِيرُكم جَمِيعًا]: فالمأْوَى بمَعْنى المصْيرِ؛ لأنه مِنْ أَوْى يَأْوِي إذا صارَ إلى الشيءِ واتَّجه إليه.

قوله: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ هذه النَّارُ قد أعدَّهَا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للكافرين، وهي الآنَ موجودةٌ، ورآهَا النَّبِيُّ ﷺ ليلةَ أُسرِيَ به، وهي نارٌ لا يستطيعُ الإنسانُ أن يُدرِكَ في الدنيا ما فيها مِن العَذابِ، فإنها فُضِّلتْ على نارِ الدُّنيا بتِسعٍ وستِّينَ جُزءًا، والرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقولُ: «عَلَى نَارِكُمْ هَذِهِ»(١)، أي: على نارِ الدُّنيا، ونارُ الدُّنيا كما هو معروفٌ فيها نارٌ شَديدةُ الحرارةِ وفيها نَارٌ متوسطة وفيها نارٌ باردة بالنِّسْبَةِ لغيرِهَا، ومع ذلك فإنها تُقاس بأعلى نارٍ في الدنيا فتفَضَّل عليها بتِسعٍ وستِّينَ جزءًا.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ مَانِعِينَ عنْهَا]: ﴿مِّن﴾: زائِدةٌ للتَّوكيدِ؛ لأن ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ أصْلَهَا مبتدأٌ، وخبرُهُ قوله: ﴿لَكُم﴾ يعني: لا أحدَ ينْصُرُكُمْ فيمنعُكُم مِنْ دُخولِ النار، وهذا كلامُ إبراهيم ﷺ لأنه قالَ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٩٢)؛ ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها...، رقم (٢٨٤٣) عن أبي هريرة، ولفظه عند مسلم: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ». قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله؟ قال: «فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا».

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن الأصنامَ لا تنْفَعُ عابِدِيها.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أن غايَةَ ما يحصُلُ لهم من هذه الأصنامِ المَوَدَّةُ بينهم في هذه الحياةِ الدنيا على الباطلِ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أن أهلَ الباطِلَ قد يقَعُ بينهم موَدَّةٌ لحمايةِ باطِلِهِمْ والانتصارِ على الحقِّ، ولكن هذا لا يدُومُ.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: أن هؤلاءِ الذين اجتمَعوا على الباطِلِ إذا كانَ يوم القيامة؛ فإن بعْضَهُم يتبَرَّأُ من بعضٍ ويلْعَن بعضهم بعضًا، لقولِهِ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.

الفَائِدةُ الخامِسة: إثباتُ البعثِ، لقولِهِ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾، وسمِّي يومَ القيامَةِ لوجوهٍ ثلاثة:

أولًا: أن الناسَ يقومُونَ فيه مِن قُبورِهِم.

ثانيًا: أنه يقومُ فيه الأشْهَادُ الذين يَشْهدُونَ على الرُّسلِ أنهم بلَغُوا، وعلى الأمم بأنهم بُلِّغوا، وكذلك الجوارحُ تشْهَدُ على الإنسانِ بما عَمِل، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١].

ثالثًا: أنه يُقامُ فيه العَدْلُ قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧].

الفَائِدةُ السَّادسَة: إثباتُ النَّارِ، لقولِهِ: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾، وهي موجودةٌ الآن بدَليلِ قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤].

الفَائِدَةُ السَّابِعة: أن هؤلاءِ المشْرِكينَ لا يجِدُون من يمْنَعُهم مِنْ عذابِ الله، لقولِهِ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ فلا أحدَ يمْنعُهم مِن عذابِ الله يوم القيامةِ.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: أن المتَّقِينَ تبْقَى مودَّتهم يومَ القِيامةِ، فهذهِ الفَائِدةُ ربما تُؤخَذُ مِنَ الآية بما يُسمَّى قياسُ العَكسِ، وقياسُ العكسِ أثْبتَهُ الرسولُ ﷺ في قوله: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»، يعني الإنسانَ إذا جامعَ زوْجتَهُ فهو صَدَقةٌ، قالوا: يا رسولَ اللهِ أيأْتِي أحَدُنا شَهوتَه ويكونُ له فِيهَا أجرٌ؟ قال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ»(1)، الجوابُ: نعم، يكونُ عليه وِزْرٌ، فكذَلكَ إذا وَضعَها في الحلالِ كانَ له أجْرٌ.

هذا يُسَمَّى قياسُ العَكسِ، فمِنَ الممكنِ أن نقول: إذا كانَ هؤلاءِ المشركونَ يتبَرَّأُ بعضهم من بَعضٍ يوم القيامة ويلْعَنُ بَعضُهم بَعضًا، فالمتَّقُون الموحِّدُون المخلِصُون على عكسِ ذلك، ومُرادِي هل يؤخذُ هذا الحُكم مِن هذه الآية، ولست أُريدُ إثباتَ الحكمِ نَفْسِهِ، فإن الحُكمَ ثابتٌ في آيةٍ أُخْرى، وهي قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم الحديث (١٠٠٦).

الآية (٢٦)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:٢٦].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ﴾ صَدَّق بإبراهيمَ، ﴿لُوطٌۘ﴾ وهو ابنُ أخِيهِ هارَان، ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيمُ ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ مِنْ قومِي، ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي: إلى حيثُ أمَرَني رَبِّي، وهَجَرَ قومَهُ، وهاجَرَ مِنْ سوادِ العِراقِ إلى الشَّامِ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ في مُلْكِه، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في صُنْعِهِ].

الإيمانُ في اللغةِ: التَّصدِيقُ، ولكنه ليس مطلَقَ التَّصديقِ، بل هو تَصديقٌ بطُمأنِينَةٍ؛ لأن مادة (آمن) هي مادَّةُ الأمْنِ، يعني فيها الهمزةُ والميمُ والنون، وعلى هذا فليسَ الإيمانُ مُطلَقَ التَّصديقِ، بل هو تَصديقٌ خاصٌّ متَضَمِّنٌ للطمأنينة في الشيءِ، وهو يتعدَّى بـ(اللام) كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾، وكذلك ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾، ونحو ذلك مِنَ الآياتِ.

ويتعَدَّى أيضًا بـ(الباء) وهو كثيرٌ كما في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ﴾، وقوله: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ وما أشْبَه ذَلِكَ.

فهل هذا من بابِ التَّرادُفِ، أي: أن اللامَ بمَعْنَى الباءِ، والباء بمَعْنَى اللام، أم أن هناكَ فَرْقًا بينهما؟

يمكنُ أن يُقـالَ: إنه من بابِ التَّرادُفِ وأن كلَّ واحدةٍ منهما -أي من اللام والباء- تأتي مَحِلَّ الأخرى لكثرَةِ استعمالِ هذه وتلك، ويمكِنُ أن يقـالَ بالتَّغايُرِ، وأن اللامَ تدُلُّ على الاستِسْلامِ، وأما الباء فتَدُلُّ على طُمأنينةٍ في القلب، فـ(اللام) للاستسلامِ فيُضَمَّنُ ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ﴾ بمعنى (انقاد)، وأما الباءُ فإنها تَدُلُّ على طمأنينة في القَلْبِ (فآمن به)، أي: اطْمَئنَّ به، والله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فرَّق بينهما في القُرآنِ الكريمِ في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦١]، وهذا في آيةٍ واحدَةٍ.

فالظاهرُ -والله أعلم- مِنْ مواردِهما في القرآنِ الكريمِ أنهما ليْستَا مترادِفتَينِ وأن بينـهُما فَرْقًا، فما كانَ فيه معـنى الطمأنينةِ فهو بالباءِ، وما كـان مُضَمَّنًا لمعنى الانْقيادِ ولو ظاهِرًا فإنه يأتي باللَّامِ.

مثـالُ ذلك مِنَ القُرآنِ: سَحرةُ فرْعونَ، قال لهم فرعونُ مرَّة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ وقال مرة أخرى: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ فهل القولانِ معناهما واحد؟

الجواب: لا، بناءٌ على ما تقدَّمَ، فيكون معنى: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، أي: صدَّقْتُمْ به بطُمأنِينَةٍ واطمأنت قلوبُكُم بصِدقِهِ، ومعنى: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾، أي: تابَعْتُموهُ واستَسْلَمْتُمْ له، ولهذا قـال لهـم: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [الشعراء:٤٩]، وإذا أَخَـذْنَا بمجموعِ الآيتـين يكونُ المعنْى أنـه قرَّرَ أنهم اطمأنوا بِهِ وانقَـادُوا له، أي: أنهـم مُعتَرِفُونَ به وبِصِدْقِه وانقَادُوا له أيضًا بسِحْرِهِ.

وعلى هذا لا يَصِحُّ أن نقول: إن (الباء) و(اللام) إذا اجتمعا افترَقَا في المعنى، وإذا افترقَا اجتَمعا؛ لأننا في الحقيقةِ لو تَتَبَّعْنا اللام لوجدناهَا تأتِي فِي أمورٍ لا تقْتَضِي الطمأنينة، ولهذا لم يأتِ في القرآن: آمنت لله، لكن جاء: أسلمت لله، فتَنْزِلُ كُلَّ آيةٍ علَى معنى.

وهنا قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ صَدَّقَ بإبْراهِيمَ]: وهذا يدُلُّ على أنه يَرَى أن اللام بمَعنَى الباءِ، فيَرَى المُفَسِّر أن ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ﴾ بمعنى آمنَ بِهِ، فـ(صَدَّقَ) تَفسيرُ ﴿فَـَٔامَنَ﴾ و(بإبْراهِيـمَ) تفسير ﴿لَهُۥ﴾، ونحـن نعلمُ أن لُوطًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ آمن لإبراهيمَ وبِهِ، فهو آمنَ به بقَلْبِهِ واطمأنَ إلى صِدْقِهِ، وكذلك انقادَ له، وتضَمَّنَ الإيمانُ هنا معنى الانقيادِ ومعنى الطُّمأنِينَةِ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لُوطٌ﴾ وهُو ابنُ أَخيهِ هَارانَ]، يعْني: أن إبراهيمَ له أَخٌ اسْمُه هارانَ بنُ آزر، وهارانَ له ابنٌ اسمْهُ لوطٌ.

قوله: [﴿وَقَالَ﴾ إبراهِيمُ ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ مِنْ قومِي ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾، أي: إِلى حيثُ أَمَرنِي ربِّي، وهَجـر قَومَهُ، وهاجَـرَ مِنْ سوادِ العِراقِ إلى الشَّام]، المُفَسِّر يقول: إن الضميرَ في قوله تعـالى: ﴿وَقَالَ﴾ يعودُ إلى إبراهيمَ، وعلى هذا فَفِي التِّلاوةِ تقِفُ على: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ ولا تَقُـلْ: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ لأنك لو وصَلْتَ لأَوهَـمَ أن القولَ من لُوطٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وقال بعضُ العلماءِ: إن الضميرَ يعودُ على لُوطٍ بناءً على ظاهِرِ السِّياقِ، وأن لوطًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ آمن وهاجَرَ فجمعَ بينَ الإيمانِ والهِجْرةِ.

وقوله: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ (مفاعِلٌ) في اللغة العربية تَرِدُ على ما اشترك فيه اثنانِ فصَاعِـدًا كما يقال: (مقاتِلٌ)، وتَرِد على ما ليـس فيه إلا طرفٌ واحدٌ كما يقال: (مسافِرٌ)، وكلمة ﴿مُهَاجِرٌ﴾ يحتمل أنها مما هو مُشتركٌ بينَ طَرفين، ويكون المعنى: أنه هَجَرَهُم وهم هَجَرُوه يُريدُونَ مُفارقَته، ويُحتمَلُ أنها من باب ما فيه طرفٌ واحدٌ فقط كمُسافِرٍ، وتكون مهاجرٌ بمعنى هجر؛ فكلاهما محتمل.

قوله: [﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ إِلى حيثُ أَمَرنِي رَبِّي]: يعني: إلى الجِهةِ التي أمَرهُ الله عَزَّوَجَلَّ

أن يُسافِرَ إليها، هذا ما فسَّرهُ به المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ والغَريبُ أن بعض المحشِّينَ قال: إن المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [إلى حيثُ أمَرَني] فرارًا من إثباتِ الجِهةِ لله؛ لأننا لو أخَذْنا بظَاهِرِ الآية وهو قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّ﴾ لكان متَّجِهًا إلى الله ذاته، وهم يرون أن الله تعالى ليس في جِهةٍ، وهذا رأي الأشاعرةِ وكذلك مُعطِّلةُ الجَهمِيَّةِ.

فإن الجَهْمِيَّةَ انقَسَموا في مسألةِ الجِهةِ إلى قِسمين:

- قِسمٌ حُلولِيَّةٌ، يَرونَ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كلِّ مكانٍ، وهؤلاء القدماءُ.
- وقِسمٌ أهلُ التَّعطِيلِ، يَرونَ أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس في مكانٍ وليس في جِهةٍ، فيقولون: لا دَاخلَ العالم ولا خارِجَه، ولا متَّصِلٌ بالعالمِ ولا منْفصِلٌ عنه، ولا مُبايِنٌ ولا محايِدٌ. نسألُ الله العَافِيةَ.

وهذه الجِهةُ يُتوصَّلُ بها إلى إنكارِ عُلُوِّ الله عَزَّوَجَلَّ بذاتِهِ، فيقولون: إنك إذا قلت: إن اللهَ عالٍ بذاتِهِ على عرْشه، لزِمَ من ذلك أن يكون في جهةٍ، وإذا كان في جِهةٍ لَزِم أن يكونَ متَحيِّزًا، والمتحيزُ محدودٌ، سبحان الله! لا أدْرِي من أين جاءتهم هذه المُقدِّمَاتُ والنَّتائِجُ، ونحنُ نقولُ لهم: مسألةُ الجِهةِ لا نُنْكِرُها في المعنى، ولكِّننَا ننكرُ جِهةً تحْصُرُ الله عَزَّوَجَلَّ، أي: تُحيطُهُ به؛ لأن الله تعالى مُحيطٌ بكُلِّ شيءٍ، لكِننا نُثبتُ بأنَّ له جِهة هي العُلُوُّ.

فالجهات ثلاث:

- جِهة سُفْلٍ.
- وجِهَةُ عُلُوٍّ محيطَةٌ بالله.
- وجِهَةُ عُلُوٍّ لا تحيطُ به.

والمثْبَتُ هو جِهةُ العُلُوِّ التي لا تُحيط به، أما جِهة السُّفْلِ فمُمْتَنِعَة، وأما جِهةُ العلُّو التي تُحيطُ به فممتَنِعَةٌ أيضًا؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس فوقَهُ شيءٌ.

إذنْ: كيفَ نُؤَوِّلُ قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾؟ القولُ الصحيحُ الرَّاجحُ أن قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾، أي: إلى دِينِهِ، أي: إلى مكانٍ فيهِ دِينُ الله، كقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، أي: مَنْ يَنْصُرُ دِينَهُ، وليس المرادُ أن دِينَ اللهِ موجودٌ في كل بُقْعَةٍ، ولو كان دِينُ اللهِ موجودًا في كلِّ بُقْعَةٍ ما خَرج عَلَيْهِ السَّلَامُ مِن مَكانِهِ.

فالحاصلُ: أن الإنسانَ المهاجِرَ إلى دينِ الله يلتَمسُ المكان الذي يُقيمُ فيه دِينَهُ، ولذلك صارَتِ المدينةُ دارَ هِجْرةٍ لما أُقيمَ فيها الدِّينُ، ولهذا يقولُ العلماءُ في الهجْرةِ: إنها الانتقالُ من بلدِ الشِّرْكِ إلى بلدِ الإسلامِ حيثُ يُقيمُ دِينَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ (إلى): للغاية، وفيها الإشارةُ إلى حُسنِ نِيَّتِهِ وقصْدِهِ، قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»(١).

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وهَجَرَ قومَه، وهاجَر مِن سَوادِ العِراقِ إلى الشَّام]: سوادُ العِراقِ هو العِراقُ نفسه، أي: أرضُ العِراقِ، وسُمِّي سَوادًا لكثْرةِ نَخيلِهِ وأشْجارِهِ، والشَّامُ معروف.

لو قال قائل: وَردَ في الحديثِ أن إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لزَوجَتِهِ سَارة: «لَيْسَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ رقم الحديث (١)؛ ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إِنَّما الأَعْمالُ بِالنِّيَّةِ»، رقم الحديث (١٩٠٧).

عَلى وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ»[١].

فهلِ المرادُ بالأرض في الحديثِ عامَّةُ الأرض أم ماذا؟

الجواب: قوله: [فِي الأرْضِ] ليس المرادُ عامَّة الأرضِ، بل الصَّحيحَ أن المرادَ أرضُ مصر؛ لأنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قال هذا في مَصرَ لا في الشَّامِ.

قَال الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فِي مُلكِهِ، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فِي صُنْعِهِ]: هكذا يجْرِي الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرِ هذين الاسْمينِ فيقولُ: العزيزُ في مُلكِهِ الحكيمُ في صُنعِهِ، وهذا فيه شيءٌ مِنَ القُصورِ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عزيزٌ بذاتِهِ وبصِفاتِهِ، وعزَّتُه ثلاثةُ أنواعٍ: عِزَّة القَدْر، وعزة القَهرِ، وعزَّة الامتِناعِ.

أما عِزَّةُ الامتِناعِ فمعناها: أنه يمْتَنِعُ أن ينالَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نقْصٌ في جميعِ صِفاتِهِ وأفعالِه.

وأما عِزَّةُ القَدْرِ: فهي المنْزِلةُ والجَلالةُ والعظَمةُ.

وأما عِزَّةُ القَهْرِ: فهي القُوَّةُ والسُّلطانُ، فهو الغالِبُ، ولهذا فسَّرها كَثيرٌ مِنَ العُلماءِ بأنه الغَالبُ، وكذلك لا أحدَ ينالُهُ بسُوءٍ، وكذلك لا ينالُه نَقْصٌ في صِفاتِهِ.

وأصلُ هذه المادة وهي العَيْن والزَّاي تدُلُّ على القوَّةِ، ومنه قولهُمْ للأرضِ الصَّلْبَةِ: أرض عَزازٌ[٢]، يعني: قَويَّةٌ صلْبةٌ، وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فِي صُنعِهِ] فيه قُصورٌ؛ لأن حِكمةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا تختَصُّ بصُنعِهِ في خَلقِهِ، بل هي في صُنعِهِ وشَرعِهِ، فهو حكيمٌ بما صنَعَ حَكيمٌ فيما شرَعَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، رقم (٣١٧٩).
(٢) لسان العرب، مادة (عزز).

والحَكيمُ ليستْ مِنَ الحِكمَةِ فقط؛ لأن الحكيمَ مِنَ الحِكمَةِ بمعنى المتْقِنِ، ومن الحُكْم أيضًا، وفِعيلٌ كما تقدَّمَ في اسمِ الفاعِلِ تأتي بمعنى الفاعل للمبالَغَةِ، وأمثِلَةُ المبالغَة كما قال ابنُ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

فَعَّالٌ أو مِفْعَالٌ أو فَعُولٌ ....

ثم قال بعدها:

.... وفي فَعِيلٍ قَلَّ ذا وفَعِلِ

هذه خمسةٌ، إذن: فَعِيلٌ من حَكَمُ فهو حاكِمٌ، لكن صارت بمعنى حكيمٍ للمبالَغةِ، أو لكونها صِفَةٌ مشبَّهَة، فهي من الحُكْم وهو القضاءِ.

وحُكمُ الله عَزَّوَجَلَّ ينْقَسِمُ إلى قسمين: كَونِيٌّ وشَرْعِيٌّ.

مثال الكونِيِّ ما وردَ في قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ [يوسف:٨٠]، فهذا كوْنِيٌّ، ولهذا لم يقل: يحكُم عليَّ، قال: (يحكُمَ لي)، يعني: يُقَدِّر لي، والحُكْم الشَّرعي مثلُ قولِهِ تعالى في سورةِ الممتَحنَةِ: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:١٠].

وأما قولُه: ﴿يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ في أوَّلِ سورةِ المائدةِ فيتناولُ الأمْرينِ، والحِكمةُ تكون في الشَّرعِ وتكون في القَدَر، وهي مشتَقَّةٌ من الإحْكامِ، بمعنى الإتْقانِ، وتكونُ في الشَّرعِ بمعنى أن جميعَ ما شَرعه اللهُ عَزَّوَجَلَّ فهو موافق للحِكمَةِ، وتكون في القَدرِ بمعنى: أن كلَّ ما قدَّره الله فهو لحِكمَةٍ، كما في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾، فالفسادُ من حيث هو فسادٌ وجُودُهُ ليس بحِكمَةٍ؛

---

(١) الألفية البيتان رقم (٤٣٢، ٤٣٣).

لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يحِبُّ الفسادَ، لكن للغايةِ التي سيؤولُ إليها هو حِكْمةٌ قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، فهذه هي الحكْمةُ، فكونُ أمورِ الخيرِ حِكمةً ظاهرٌ للجَميعِ.

فوجـودُ ما فيه الخير للعبادِ حكمتُـه ظاهِرةٌ، ووجود ما فيـه الشَّرُّ للعِبادِ هذا لا يقَـعُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إلا لحِكمَةٍ، ولهـذا قالَ النبي عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1]، فلم يَقُلْ: ليـس منك، فالشَّرُّ لا يُنْسَبُ إلى الله، لكن كُلُّ ما يقَعُ من خَيرٍ أو شَرٍّ فهو مِنَ اللهِ، وهو الذي قَدَّرَهُ، لكن الشَّرَّ لا يُقَدِّرُه الله عَزَّوَجَلَّ إلا لمصلحةٍ أعظمَ منه، وإذا كان لمصلحةٍ أعظمَ منه صارَ حكْمَةً.

ولذلك تجِـدُ الأبُ الذي هو أرحـمُ الخلقِ بابنه، يأتي به إلى الطَّبِيبِ ليُـشَقَّ جلْدَهُ فيسيل دَمُه، هذا شَرٌّ؛ لأنه يؤلمُ الصَّبِيَّ، لكنه لمصلحتِهِ، فالعاقِبةُ حميدةٌ، ويأتي به إلى الطَّبيبِ ويقول: احمِ هذه الحديدَةَ على النَّارِ واكوِهِ بها. والْكَيُّ شرٌّ في حَدِّ ذاته لكن غايَتَهُ حميدَةٌ.

وكذلك في الخِتانِ يأتي بابنه إلى الخاتِنِ ويقولُ له: اقطَع جِلْدة من ذَكَرِ ولَدِي، فالموضوع حسَّاس وسيقَطعُ منه جِلْـدة، لكنَّ العاقِبَة حَميدَةٌ، فالشَّرُّ قد يكونُ خيرًا باعتبار ما يَؤولُ إليه وإن كان هو في حَدِّ ذاتِهِ شَرًّا.

والحكمـة أيضًا تكونُ في الشَّرْعِ، فكـلُّ ما شَرعَهُ الله فهو لحِكمَـةٍ، شرعَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الزَّاني المحصَنِ أن يُرجَمَ بالحجارةِ، ولو قُتلَ بالسَّيفِ لكان أهونَ؛

---

(١) أخرجه مسلم: كتـاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعـاء في صلاة الليل وقيـامه، رقم (٧٧١).

لكن كونه يُرجَمُ بالحجارة ويُشهَّرُ به، فهذا لِحكمةٍ عظيمةٍ، وهي رَدْعُ غيرِه عن مواقَعَـةِ هذا المحْذورِ، ثم مِنْ أجل أن هذا البـدنَ الذي تَلَذَّذَ كُلَّهُ بالشيءِ المحـرَّمِ ينبغي أن ينالَهُ ألمٌ مِنَ العقوبةِ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٢٧)

• • ❁ • •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧].

• • ❁ • •

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ بعدَ إسماعِيلَ ﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بَعدَ إسحَاقَ].

(الهِبةُ): معناهَا الإعطاءُ بدونِ ثوابٍ أو بدون عِوَضٍ، وكل ما تفَضَّل اللهُ به على عبادِهِ فهو بدون عِوَضٍ تفضُّلًا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: [﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يعقوبُ بعدَ إسحاقَ]: وإنما جَعَلَ الله يعقوبَ هبةً لإبراهيمَ لأنه ابنُ ابنِهِ، ولأنه وُلِدَ في حياته، وأقرَّ الله عَينَهُ به وهو حَيٌّ، كما قال الله تعالى عن امرْأتِهِ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١].

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ الضميرُ في قولِهِ: ﴿ذُرِّيَّتِهِ﴾ يعودُ على إبراهيمَ، فالمرادُ بالذُّرِّيَةِ هنا ذُرِّيةُ إبراهيمَ، وهنا خالفَ الضَّمِيرُ القاعدةَ فعادَ على المذكُورِ الأوَّلِ ولم يَعُدْ على أقربِ مذكورٍ، والغالبُ أن الضَّميرَ يعودُ إلى أقربِ مذكورٍ، لكنه قد يخرج عن هذه القاعِدَةِ، وذلك بحسبِ السِّياقِ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨]، فضميرُ الفَصلِ في قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾ يعودُ على الله جَلَّ وَعَلَا،

مع أن إبراهيمَ أقربُ مذكورٍ.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ قـدَّمَ الجارَّ والمجرورَ، أي: قدَّمَ الظرفَ على المظْروفِ -وهو النبـوة والكتاب- إشارةً إلى الحَصْرِ، ولهذا قـال أهل العلمُ: ما مِنْ نَبِيٍّ بعـدَ إبراهيم إلا وهو مِن ذُرِّيَة إبراهيـمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولذلك يُكنَى إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأَبِي الأنبياء، ولذلك قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فكُلُّ الأنبياءِ بعدَ إبراهيمَ مِنْ ذُرِّيَتِهِ].

قوله: [﴿وَٱلْكِتَٰبَ﴾ بمَعنى الكُتُب؛ أي: التَّورَاةُ والإنْجيلُ والزَّبُورِ والفرقان]: فالكِتابُ مُفْردٌ يرادُ به الجِنْسُ، أي: التورَاةُ التي نَزَلتْ على مُوسى، والإنجيلُ الذي نَزَلَ على عِيسَى، والزَّبُورُ الذي نزل على دَاودَ، والفُرقانُ الذي نَزل على مُحَمَّدٍ ﷺ.

قالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ وَهُو الثَّناءُ الحسنُ في كُلِّ أهلِ الأدْيانِ]: قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ﴾، (أتى): نَصَب مَفعولَين أحدهما الهاءُ، والمفعول الثاني أجرُهُ.

و(الأجْرُ): هو العِوَضُ، ومنه الأُجرةُ عِوضًا للعامِلِ عن عَملِهِ.

وقوله: ﴿أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ هل نقولُ كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هُوَ الثَّناءُ الحَسَنُ في كلِّ الأدْيانِ]، أو نقول: هو أعَمُّ؟

الصوابُ: أنه أعَـمُّ من ذلك، فيشَمَلُ قُرَّةَ عينِهِ بأولادِهِ وانتَشارَهُم وكثْرتَهُم، وكذلـك مِنَ الثَّناءِ الحَسَنِ أن كلَّ الأديانِ ينْتَـمونَ إليه ويُريدُون أن يكونُـوا مِنْ أوليائِهِ، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا﴾ كما ادَّعَتِ اليهودُ، ﴿وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ كما ادَّعتِ النَّصارَى، ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٦٧]،

ثم حكَمَ الله تعالى بين الطَّوائفِ فقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ﴾ محمد ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨].

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، (اللام) في قولِهِ: ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ للتَّوكيدِ، فالجُملةُ مؤكَّدةٌ بـ(إنَّ) و(اللام).

وقوله: ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي الذين لهم الدَّرجاتُ العُلا، والمراد هنا أعْلى أنواعِ الصَّالحينَ وهم الأنبياءُ أو الرُّسلُ؛ لأن إبراهيمَ ﷺ مِنْ أُولي العَزمِ الخمسةِ، وهم: مُحَمَّدٌ ﷺ، وإبراهِيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومُوسَى وعيسَى، ونُوحٌ -عليهم السلام-.

وقوله: ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إذا جاءتِ (الصالحون) وحْدَها شَمِلَتْ كُلَّ الأجناسِ الأربعة، وهم: النَّبيُّونَ والصِّدِّيقُونَ، والشُّهداءُ والصَّالحونَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن الذُّرِّيَةَ التي يَمُنُّ اللهُ بها على العَبدِ مِنْ مِنَحِ الله عَزَّوَجَلَّ لقولِهِ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾، لكن هذه المِنْحةَ قد تكون مِحْنَةً إذا أضاعَ الإنسانُ حقَّ الله فيهم، ثم هو مأجورٌ على تَرْبِيتِهِمْ وتَوجِيهِهِمْ، والغالبُ إذا قامَ الإنسانُ بما يجِبُ لله في تربيَةِ أولادِهِ فإنهم يَصْلُحونَ ولو في المستَقْبَلِ.

الفَائِدةُ الثَّانِيَةُ: أن ابنَ الابنِ ابنٌ؛ لأن يعقوبَ ابنُ ابنِ إبراهيمَ، وجَعَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ إسحاقَ مَوهُوبًا لإبراهيمَ، ويدل لِذَلكَ قولُ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الحسنِ ابنِ عَلِيِّ بنِ أبي طالب: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ»[1]، والعلماءُ أجْمَعوا في بابِ الميراثِ أنَّ ابنَ الابنِ بمنزلَةِ الابنِ عندَ فَقْدِهِ، وإذا كان ابنُ الابنِ ابنًا لَزِمَ أن يكونَ أبو الأبِ أبًا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، رقم الحديث (٢٥٥٧).

ولهذا يُروى عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه قال في زَيْدِ بنِ ثابتٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ألَا يتَّقِي اللهَ زَيدٌ يجْعَلُ ابنَ الابنِ ابنًا، ولا يجعَلُ أَبَا الأبِ أبًا»[1]، وهذا هو الصحيحُ، فيكون على هذا فيه دَلِيلٌ على سُقوطِ الإخْوَةِ بالجَدِّ في بابِ الميراثِ.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: فضيلةُ إبراهيمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وبَركتُهُ لقولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾، وهذا هو الثَّناءُ المبارَكُ، وذلك بأن يكون في ذُرِّيَّةِ الإنسانِ من يُعطِيهُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ النُّبُوَّةَ والكِتابَ، أما النُّبوة بعد محمَّدٍ ﷺ فمتعَذِّرَةٌ ومُسْتَحِيلَةٌ، أما الكتابُ الذي هو العِلْمُ فربما يجعلُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في ذُرِّيَّةِ الإنسانِ بركةً في العِلْمِ ونَشْرِهِ.

ومن ذلك قِصَّةُ عبدِ الله بن أبي طَلْحة حيثُ دَعَا النَّبِيُّ ﷺ أن يبارِكَ اللهُ لأبي طَلْحَةَ في لَيلَتِهِ مع أهلِهِ، فصارَ لعبدِ اللهِ هذا عَشَرَةٌ مِنَ الولَدِ كلُّهُم يحفَظُونَ القُرآنِ[2]، وحِفْظُ القُرآنِ عندَ السلفِ ليس بالأمْرِ الهَيِّنِ كما هو عندنا الآن، الإنسانُ يحفظُ القرآن ولكن لا يظْهَرُ عليه أثَرُهُ، لكن عندَ السَّلَفِ إذا حَفظَ الإنسانُ القُرآنَ ظهَرَ عليه أثَرُهُ بالسَّمْتِ والآدابِ والأخلاقِ والأعمالِ الصَّالحةِ.

الفَائِدةُ الرَّابعة: إثباتُ الجزاءِ، لقولِهِ: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾.

الفائِدَتانِ الخَامِسةُ والسَّادِسَةُ: أن الإنسانَ قد يُعَجَّلُ له الجزاءُ في الدنيا، لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾، وتَعْجِيلُ الجزاءِ للإنسانِ في الدنيا لا يُعَدُّ حِرمانًا له مِنْ أجرِ الآخِرَةِ، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، وينبَغِي

---

(١) انظر: المغني لابن قدامة (٧/ ٦٤)، وإعلام الموقعين (١/ ١٦٩)، وبداية المجتهد (٤/ ١٦٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٥، رقم ١٢٠٤٧)؛ وابن حبان (١٦/ ١٥٥، رقم ٧١٨٧)؛ وأبو يعلى (٦/ ٤٧٢، رقم ٣٨٨٢).

على هذه الفَائِدة أنَّ تَعْجِيلَ الثوابِ للإنسانِ في الدُّنيا مِنْ نِعْمَةِ الله على العبد؛ لأنَّ الإنسانَ يرَى أثرَ عَملِهِ فينشَطُ على العَملِ سواءٌ كان هذا الأثرُ في الأشياءِ الخارِجِيَّةِ أو كان في نفْسِ الإنسانِ، أي: في باطِنِهِ.

مثال ذلك من ثوابِ الأعمالِ الصالحِةِ: أن يجِدَ الإنسانُ في قَلبِهِ السُّرورَ والنُّورِ والارتياحِ إلى العَملِ الصالحِ، وهذا لا شكَّ أنه من الثوابِ العاجِلِ، ومثالُ الأشياء الخارجية أن تُرى له مَرَاءٍ سارَّةً، كما أخبرَ النَّبِيُّ ﷺ بأن ذلك عاجِلُ بُشْرى المؤمِنِ، أعنِي الرُّؤيا الصالحة يَراهَا الرجُلُ أو تُرَى له، قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»(١)، قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس:٦٤].

الفَائِدةُ السَّابِعة: يجوزُ الوصفُ بالمعنى الأعَمِّ دونَ الأخصِّ لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وجهُ ذلك أن وصْفَ الصَّلاحِ أعمُّ من وصفَ النُّبُوَّةَ، ويجوزُ أن يُوصفَ به النَّبيُّ ﷺ، والأنبياءُ في ليلَةِ المعراجِ يقولون للرسول ﷺ: «مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ»(٢).

الفَائِدةُ الثَّامِنة: تأكيدُ الثَّناءِ على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حيثُ أُكِّدَتِ الجُملَةُ بـ(إن واللام).

• • ✿ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أثني على الصالح فهي بشرى ولا تضره، رقم الحديث (٢٦٤٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم الحديث (٣٤٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، رقم الحديث (١٦٤).

الآية (٢٨)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت:٢٨].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(و) واذْكُرْ (لُوطًا)]: فيكونُ مَفْعُولًا لفعْلٍ محذوفٍ تقدِيرُهُ: (اذكر)، والأمرُ بذِكْرِ هؤلاءِ الفُضلاءِ مِنَ الأنبياءِ ليس لمجَرَّدِ الثناءِ عليهم وإعلاءِ رُتْبَتِهِمْ بينَ النَّاسِ، بل لهذا الغرضِ ولغرضٍ آخرٍ، وهو الاقتِدَاءُ بِهِمْ واتِّبَاعُهم والصبرُ كما صَبروا.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ﴾ بتَحْقِيقِ الهَمْزتَينِ وتَسهيلِ الثانيَةِ، وإدخالِ ألفٍ بينَهُما على الوَجْهَيْنِ في الموضُوعَينِ]: هذه قراءاتٌ في الآيَةِ، والمؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذَكَر القِراءاتِ التي في الآيَةِ ولم يُشِرْ إلى القِراءةِ التي في المصْحفِ، وكان ينبَغِي أن يُشيرَ إليها، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بتَحْقيقِ الهَمْزتَيْنِ]، أي: إثباتُ الهمْزتَيْنِ، وقولُهُ: [تَسهيلُ الثَّانيةِ]، التَّسْهيلُ: هو النُّطقُ بالهمزَةِ مسهَلَّةً بينَ الهمزةِ والحَرْفِ الذي تشَكَّلْت منه، أي: تُنْطق بين الهَمزةِ والياءِ، والإِدْخَالُ: هو إدخالُ أَلِفٍ بينَ الهمْزتَيْنِ هكذا «أَائنَّكُمْ».

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي الموضِعَيْنِ]، الموضعانَ هُما قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، والثاني قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ [النمل:٥٥].

هذه القِصَّةُ كغَيرِها مِنَ القِصَص تَردُ في القرآنِ الكَريمِ على وُجُوهٍ متنَوِّعَةٍ، فكيف نجْمعُ بين هذه الوُجوهِ في قصَّةٍ واحِدَةٍ؟

نقول في الجمعِ: إن كان مما يمكن أن يتكَرَّرُ فإنها تكون قد تكرَّرتْ على الوجهينِ، وإن كان مما لا يُمِكُنُ تكرُّرِهِ فإن الله تعالى يَحْكِيهَا بالمعنى هذا تارة وبالمعنى هذا تارة.

مثال ذلك: يقولُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآيةِ في قصَّةِ لُوط: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ وفي آية أخرى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل:٥٤]، فَفِي هذه الآية قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ وفي الآية الأُولَى قال: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا اختلافٌ، والجمعُ بينها الوجهُ الأَوَّلُ هو تعدُّدُ القولِ، فمرَّةً قال لهم: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ومرة قال لهم: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾، وهذا لا إشكالَ فِيهِ.

وكذلك في قصَّةِ فِرعونَ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء:٣٤]، وفي سورة الأعراف: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:١٠٩]، والجمعُ بينَ الآيتَيْنِ أن كلَّهُم قالوا ذلك.

فإذا أمكنَ التَّعَدُّدُ سواءٌ مِنَ القائلِ أو بالقولِ حُمِلَ عليه، فإذا لم يمكن التَّعَدُّدُ يكونُ من بابِ نقْلِهِ بالمعنى، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتكَلَّمُ به في كُلِّ موضِعٍ بما يُناسِبُه وبما تقْتَضِيهِ البلاغَةِ.

قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾، اللام في قولِهِ: ﴿لَتَأْتُونَ﴾ لام التَّوكِيدِ، و(تأتون) بمعنى تَجِيئونَ، والاستفهامُ في قولِهِ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ للإنكارِ والتَّوبِيخِ،

وأكَدَّ هذا الإنكارَ باللامِ.

وقوله: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ اللام هنا للعَهْدِ، أي: الفاحِشَةُ المعلُومَةُ لديكم ودخلت (ال) عليها لعِظَمِها وقُبْحِها، وفي بابِ الزِّنَا قالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ [الإسراء:٣٢]، وفي نِكاحِ المحَارِمِ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [النساء:٢٢]، فهذه ثلاثةُ تَعْبِيراتٍ، في اللُّواطِ وصَفَهُ الله بالفاحِشَةِ بما نقله عن لُوطٍ، وفي باب الزِّنَا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾، وفي نِكاحِ المحَارِمِ قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾، إذنْ: نكاحُ المحارِمِ أعظمُ مِنَ الزِّنَا؛ لأنه وُصِفَ بوَصْفين سَيِّئَيْنِ: الفاحِشَةِ والمقْتِ، واللِّواطُ أقبحُ منهما من حيث الوصفِ فإنه الفاحِشَةُ التي تُسْتَفْحَشُ عند جميعِ النَّاسِ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أيْ: أَدْبَارَ الرِّجالِ]: -أعوذُ بالله- أدبارُ الرِّجالِ هذا لا شكَّ أنه فاحِشَةٌ، كلُّ ذِي عَقْلٍ سليمٍ يستَفْحِشُهُ، أما من نَكَسَ اللهُ قَلْبَهُ فلا تَستَغْرِبْ إذا قال: ليس بفاحشةٍ، كما أن الذين يَعبدُونَ الأصنام يَرَونَ أن ذلك منْقَبَةٌ وحَسَنَةٌ، فكذلك الذين يفعلون هذه الفاحِشَةَ يستَحْسِنُونَ هذا الأمر، ومن عجبٍ أن الواحدَ منهم يأتي الذَّكَرَ في حال شَبابِهِ، وهذا المأتي إذا كَبِرَ أتى غيره فيكون فاعلًا ومفعولًا بِهِ.

قوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾.

﴿مَا﴾: نافيةٌ.

﴿مِنْ أَحَدٍ﴾: فاعل (سبَق)، وحرفُ الجرِّ زائدٌ للتَّوكِيدِ، أي: ما سبقَكُم بها أحدٌ.

﴿بِهَا﴾: هل نقولُ: إن (الباء) هنا بمعنى (على)، أي: ما سَبَقَكُمْ عليها، أم نقول: إن الباءَ على معناها، أي: لم تُسْبَقُوا بها؟

الجواب: الباءُ هنا على معناها؛ لأننا لو قُلنَا: لم تُسْبَقوا عليها، لكان هذا فيمنْ أدركَ زَمنهُمْ وكانوا هم أسبقُ إلى هذا منه، أما إذا قُلنَا: ما سبقكم بها فهذا يقْتَضِي السبْقَ الزَّمَنِيَّ.

قَال المُفَسِّر: [﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الإنْسِ والجِنِّ]: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يجوزُ أن يكونَ عامًّا إلا فيما يُخَصِّصُهُ العَقْلُ كالملائكةِ فتَشمَلُ الجِنَّ والإنسَ، ويجوز أن يكونَ عامًّا أُريدَ به الخاص، أي: من بَنِي آدَمَ، وأما البهائمُ فغَيرُ مكلَّفة.

فقوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يريد زِيادَةَ التَّشْنيعِ عليهم، يعني: أنتم الذين سننْتُم هذه الطريقةَ، ومن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فعليه وِزْرُها ووِزْرُ من عَمِلَ بها[1]، كأنه يقول لهم: لو سُبِقْتُم بهذه الفاحِشَةِ لكان لكم نوعٌ من العُذْرِ لكنكم ما سُبِقتم بها، فأنتمُ القُدْوَةُ فيها والعياذُ بالله.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدة الأُولَى: رَفعُ ذِكر هؤلاءِ الدُّعاةِ إلى الله مِنَ الأنبياءِ وغيرهم؛ لأن قوله: [اذْكُرْ] يعْني: اذْكُرْهُ في موضِعِ الثَّناءِ، ولهذا قـال الله تعالى في القرآن في قصَّةِ مريمَ: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مريم:١٦].

---

(١) أخرجه مسلم بلفظ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَام سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة...، رقم الحديث (١٠١٧)؛ وهو بلفظه عند ابن ماجه: افتتاح الكتاب في الإيمان وفضل الصحابة والعلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، رقم الحديث (٢٠٣)؛ وأحمد (٤/ ٣٦١) (١٩٢٢٥).

الفَائِدةُ الثَّانية: فضيلَةُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: التَّركيزُ على الأمر الذي انغمَسَ فيه الناسُ وإن كان غيرُهُ أولى مِنْهُ؛ لأن لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يُرَكِّز على التَّوحيدِ في هذه القصَّةِ، لكنه ركَّزَ على العملِ السائدِ بينَ الناس، وما مِنْ رَسولٍ إلا ويدْعو قومَهُ إلى التَّوحيدِ، ولهذا بعضُ النَّاسِ إذا رأى بعضَ الدُّعاة يُنْكرُ شَيئًا مُعَيَّنًا انغمَسَ فيه الناس، قال: النَّاسُ أشدُّ من هذا، لماذا تتكلَّمُ على هذا، في الفَخِّ أكبرُ من العُصفورِ، يعني: لا تَتكَلَّمْ عنِ الملاهِي أو عَنِ الميْسِرِ أو عنِ الرِّبَا والناس لا يُصَلُّون، لماذا لا تتكلم على تَركِهِمُ الصَّلاةَ.

فنقول: لا مانِـعَ أن يُرَكِّزَ الدُّعاةُ على ما انْغَمَسَ فيه النـاسُ وإن كان غيرُهُ مما لم ينْغَمِسُوا فيه أهمَّ منه؛ لأن المقصودَ علاجُ هذا الدَّاءِ الذي انغْمَسَ فيه الناس.

الفَائِدةُ الرَّابعَةُ: فُحْشُ اللُّواطِ -والعياذ بالله-، وهو إتْيانُ الذَّكَرِ الذَّكَرَ، ولا رَيبَ أنه مِنْ أعظَمِ الفواحِشِ، وفي الآية الكريمَةِ لم يذْكُرْ حَدَّ اللُّواط، وكذلك السُّنَّةُ ليس فيها أحاديثُ صحيحةٌ صريحةٌ في حدِّ اللُّواطِ، ولذلك اختلف أهلُ العِلم على ثلاثةِ أقوالٍ:

القولُ الأَوَّلُ: أن حدَّهُ القَتْلُ بكلِّ حالٍ، يعني: سواء كان الفاعِلُ والمفعولُ به مُحصَنيْنِ أم غيرَ مُحصَنٍ، والمحْصَنُ: هو الذي تزوَّجَ وجامَعَ في نِكاحٍ صَحيح، واستَدَلُّوا بقولِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ، وَالْمَفْعُولَ بِهِ**»[1]، وهو حديثٌ أدْنَى أحوالِهِ أن يكونَ حَسَنًا.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط، رقم الحديث (٤٤٦٢)؛ والترمذي: كتاب الحدود، باب حد اللوطي، رقم الحديث (١٤٥٦)؛ وابن ماجه: كتاب الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط، رقم الحديث (٢٥٦١)؛ وأحمد (١/ ٣٠٠) (٢٧٣٢).

ثم إنَّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمَعُوا على قَتْلِ اللُّوطِيِّ الفاعلَ والمفعولَ بِهِ، إلا أنهم اختلفوا كيف يُقْتَلُ؟

فقال بعضهم: إنه يُحَرَّقُ بالنار، وقال بعضُهم: إنه يُرْجَم بالحجَارَةِ، وقال آخرون: يُلْقَى مِنْ أعْلى مكانٍ في البلَدِ.

والذي اختَارَهُ شيخُ الإسلامِ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1] أن يُقْتَلَ الفاعِلُ والمفعولُ به؛ للحَديثِ والآثارِ عَنِ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وللمَعْنى والقياسِ الصَّحيحِ؛ لأن هذه الفاحِشَةَ والعياذُ بالله لا يُمكنُ التَّحَرُّزُ منها، فإذا لم يكن لها رَادعٌ قَوِيٌّ استَشْرَتْ في الناس -والعياذُ بالله-؛ ولأنها قَتْلٌ للرُّجُولَةِ، فإن الإنسان يكونُ بمنزلَةِ المرأةِ.

وأما كيفيةُ قتْلِهِ فالذي نرَى أن يُرجَع إلى رَأيِ الإمامِ فيُقْتَلُ بما يَراه أنْكى وأبْلغَ.

القول الثاني: أن حَدَّهُ كحَدِّ الزَّانِي، يعني: إن كان مُحْصَنًا رُجِمَ، وإن كان غير مُحصن فإنه يجلَدُ ويُغَرَّبُ، وهذا القولُ هو المشهور من مذهبِ الإمامِ أحمدَ، وقالوا: إن الحديثَ لا تقومُ به حُجَّةٌ، بمعنى أنه لا يَصِلُ إلى درَجَةٍ يُستَباحُ بها دَمُ المسلمِ، واللواطُ فاحِشَةٌ بنصِّ القرآن، فيجب أن يلْحَقَ بالفاحِشَةِ التي نَصَّ القرآن على حدِّهَا وهي الزِّنَا، فعليه يكون طريقُه طَرِيقُ الزِّنَا، فيُرْجَم المُحْصَن ويُجلَد غيرُ المُحْصَن ويغرب.

لو قالَ قائلٌ: المذهبُ يأخُذونَ بآثارِ الصحابَةِ؛ لأن مِنْ أُصولِ أحمَدَ العِلْمُ بقولِ الصَّحابِيِّ، فلماذا في هذه المسألة لم يأْخُذوا بالآثار التي ورَدَتْ عنِ الصحابة

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٤١٢، ٢٠/ ٣٩٠، ٢٨/ ٣٣٥، ٣٤/ ١٨٠، ١٨١)، والصارم المسلول (ص ٨٧).

في حدِّ اللُّوطِيِّ؟

فالجواب: إذا قيل: مذهبُ الإمامِ أحمدَ، فالمرادُ المذْهَبُ الاصطلاحيُّ لا المذهبُ الشَّخْصِيُّ، فقد يكونُ مذهبُ الإمامِ الشخصِيِّ خلافَ المذهب الاصطلاحيِّ، فلذلك نَنسُبُه إلى الإمام أحمدَ اصطلاحًا.

القول الثالثُ: أنه لا حدَّ فيه، وأنه يُكتَفَى فيه بالرَّادِعِ النَّفْسِيِّ، وما كان خبيثًا في النفوس فإنه لا حدَّ فيه بل يُكْتَفَى فيه بالرَّادِعِ النَّفْسِيِّ، فالبولُ أخبث من الخمْر، والخمر فيه حَـدٌّ، والبولُ ليس فيه حَدٌّ لأن النفوس تنْـفِرُ منه وتستَقْذِرُهُ، فاكتفى بالرادِعِ الطَّبيـعِيِّ عن الرادِعِ التأْدِيبِيِّ، وهذا القـول حكي عن أبي حنيـفة رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو قولٌ ضَعِيفٌ جِدًّا.

وأما قولهُمْ: إنه مستَقْذَرٌ لا تألَفُه الطِّباعُ، فهذا صحيحٌ بالنسبة للطِّباعِ السَّليمَةِ، لكن بالنسـبة للطِّباعِ المِهينَةِ فإنها تألَفُه، فهؤلاء قومُ لوط أَمَّةٌ كلُّهُم على هذا الأمر، فكيـف نقول: الذي يُسْتَقْذَرُ في الطباعِ السليـمَةِ لا يرْدَعُ بالتأدِيبِ، فالصوابُ أن هذا القولَ ضَعيفٌ جِدًّا، ولولا أنه قيل ما حَكَيْنَاهُ.

الفَائِدةُ الخامِسة: ينْبَغِي ذِكْرُ ما يُنَفِّرُ عن العملِ السَّيِئ، لقولِهِ: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ووجه كونه مُنَـفِّرًا لأنهم ليس لهم قُدْوَةٌ حتى يُعذَرُوا بها، وكذلك آثامُ مَنْ بَعدهُم تكونُ عليهم.

الفَائِدةُ السَّادسَة: تأكيدُ الأمرِ المنْـكَرِ بما يقْتَضِيهِ الأُسلوبُ في اللغـة العَربِيَّةِ، لقولِهِ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ فإن (إن) و(اللام) للتوكيد.

وكيف يُؤَكَّدُ هذا الأمرُ مع أنهم معتَرِفُونَ به؟

الجواب: لأنه نَزَّلَ غيرَ المنكَرِ منْزِلةَ المنْكَرِ؛ لأن ممارسَتَهُم لهذا الفعل يقْتَضِي أنهم ينْكِرُونَ كونَه فاحشةً، فحالُهم تقْتَضِي أنهم يستَبِيحُون ذلك ولا يَرَوْنَهُ مُنْكرًا، فكونهم يمارِسونَهُ ولا يبالُونَ بها ويرونَهَا أمْرًا سَائغًا فهُمْ كالمنْكِرِينَ لكونِهَا فاحِشَةً، ونظيرُ ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون:١٥]، فـ(إنَّ) و(اللام) مؤكدَّةٌ للموتِ والموتُ لا شكَّ فيه، لكن أتى بالتوكيدِ مِنْ أجلِ أن فِعْلَ هؤلاءِ المشركين فِعْلُ المنْكِرِ للموتِ؛ لأن مَنْ أقَرَّ بالموتِ فلا بُدَّ أن يستَعِدَّ له، والآية ساقها الله جَلَّ وَعَلَا في ذِكْر ابتداءِ الخلقِ وانتِهائه، ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٥-١٦].

• ● ۞ ● •

الآية (٢٩)

• ● ● •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩].

• ● ● •

قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ عبَّر بالإتيانِ كنايَةً عَنِ الجِماعِ؛ لأن القرآنُ يُكَنِّي عَمَّا يُسْتَقْبَحُ ذِكْره بما يدلُ عليه، وهذا كثيرٌ في اللغة العربية، ومثال آخر مِنَ القرآنِ قال الله تعالى: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣]، فكَنَّى عن الجِماعِ بالإتيانِ.

قوله: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ السَّبِيلُ: الطَّريقُ، وقطْعُهم الطريقَ له صِفتانِ:

الصفةُ الأُولى: قَطعُ الطريقِ المعروفِ، وهو أن يتعَرَّضُوا للناس بالسَّلْبِ والنَّهبِ والقتل، ويسمى عندنَا باللِّغَةِ العامية: الحنشَلَة.

الصفةُ الثانية: يَقْطعونَ السَّبِيلَ، أي: يتَسَبَّبونَ لعدمِ سُلوكِ الطُّرقِ بما يفعلونَ بأهْلِهَا؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [طَرِيقُ المارَّةِ بفِعْلِكُم الفَاحِشَة بمن يمُرُّ بِكُمْ، فترَكَ النَّاسُ الممَرَّ بِكُمْ].

هاتـان خصلتـانِ، والخـصْلَةُ الثَّالثـةُ: [﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ نَادِيكُمْ، أي: متَحَدَّثُكم]، فالنَّادِي، والمنْتَدى، والنَدِي، كلُّها أسماء لمكانِ الحديثِ والاجتماعِ بينِ الناسِ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ فِعْلَ الفَاحِشَةِ بِعضِكُم ببَعْضٍ]: المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فسَّرَهُ بِفِعْلِ الفاحِشَةِ، وعلى هذا يكونُ فيه تكْرارٌ، والأصَحُّ أن المنْكرَ أعمُّ من فِعل الفاحِشَةِ، وهو: كلُّ ما يُنْكرُ عُرْفًا أو شَرْعًا؛ ذَكروا من ذَلِكَ أنهم يتلاكَزُون، يعني: بعضُهم يلْكِزُ بعْضًا مع عَجِيزَتِهِ، وذَكرُوا من ذلك أيضًا أنهم يتَضَارَطُونَ(١) الضَّرطةَ المعروفةَ، وذكروا من ذلك أيضًا أنهم يحُلُّون أُزْرتَهم -أي: أزرَة القِباءِ- يعني كما تقول العامة يدْلُعُون، وهذه ليست منكرة لكن بعضهم ذكر ذلك، وكذلك الحذْفُ بالحصَى، وكذلك الكلامُ الذي يتضَمَّنُ السخرية والاستهزاءَ، المهِمُّ أن المنْكرَ هو كلُّ ما يُنْكرُ عُرفًا أو شَرْعًا فهو عامٌّ في كل شيءٍ.

وقد وُجِدَ في هذه الأمة من عَمِلَ عَملَ قومِ لوطٍ، وإذا سألت عن مجتمَعاتِهِمْ وجدتَهُم يفعلونَ مثلَ فِعل قومِ لوطٍ من السُّخْرِيَةِ والاستهزاء واللَّغَطِ واللَّهوِ وغيرِ ذلك، والنبي ﷺ يقول: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»(٢).

قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بعد هذا التَّوجِيهِ والإرْشادِ والإنْكارِ عليهم كان هذا الجوابُ جوابَ المستكْبِرِ المتَحَدِّي.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ﴾ ﴿جَوَابَ﴾ بالنَّصْبِ على أنها خبرُ كانَ مُقدَّمًا ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ اسمُهَا مؤَخَّرٌ، التَّقْدِيرُ: (إلا قولهُم).

---

(١) انظر لسان العرب، مادة (ضرط).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الفتن، باب لتركبن سنن من كان قبلكم، رقم الحديث (٢١٨٠)، وأحمد (٥/ ٢١٨) (٢١٩٤٧) عن أبي واقد الليثي، وأصله عند البخاري بلفظ: «لَتَتْبَعُنَّ (لَتَتَّبِعُنَّ) سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ...»، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ...»، رقم الحديث (٦٨٨٩).

وقوله: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ (ائتِ) فِعلُ أمْرٍ، والمرادُ به التَّعْجِيزُ والتَّحدِّي، يعني: نتحداك أن تأتيَ بالعَذابِ الذي وَعْدتَنا به.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فِي استِقْباحِ ذلِكَ، وأن العذابَ نازِلٌ بفَاعليهِ]: وهذه الجملةُ شرْطِيَّةٌ قيل: لا تحتاجُ في مِثْلِ هذا التركيبِ إلى جوابِ شرطٍ، للعِلْم به مما سبق، وقيل: إنه محذوفٌ دلَّ عليه ما سبَقَ، والأصحُّ الأول، وهو الذي اختارَهُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١)، وقال: إذا كان في الكلامِ ما يدُلُّ على المحذوفِ فلا حاجة إلى تَقْديرِهِ لأنه نوعٌ مِنَ العبَثِ.

وقول هؤلاءِ الكفَّارِ للُوطٍ: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أبلغُ من قَولِهِمْ: (إن كُنتَ صَادقًا)؛ لأن كلَّ إنسانٍ يُحِبُّ أن يكون مِنَ الصَّادِقِينَ، لكن لو قالوا: (إن كُنتَ صادِقًا) لكان المعنى صادقًا في هذه المسألَةِ بخُصوصِها، أما قولهم: ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: الموصُوفِينَ بالصِّدْقِ، وهذا أشدُّ في التَّحدِّي، فكأنهم يقولون: إنك من عِدادِ الكَاذِبينَ ولست من عِدادِ الصَّادِقِينَ، فإن كنتَ مِنْ عِدادِهم فائْتِنَا بما تَعِدُنا.

ماذا كان جوابُ لوطٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟

كان جوابُه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن لجأَ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فقَالَ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: ما كان عليه قومُ لُوطٍ مِنَ الشَّرِّ والفَسادِ غيرَ فاحِشَةِ اللِّوَاطِ؛ من قطْعِ السَّبيلِ وإتيانِ المنْكرِ في نادِيهِم، لقولِه تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص ٢).

وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾.

الفَائِدةُ الثَّانِية: بيانُ عُتُوِّ هؤلاء القومِ واستِكْبارِهِم.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أن لُوطًا حذَّرَهُمْ مِن عذابِ اللهِ، لقولِهِ: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: أنه ينْبَغِي للدَّاعِيَةِ أن يَدْعُو مبَشِّرًا ومُنْذِرًا ولا يقولُ: إذا أَنْذَرْتُ نَفَّرْتُ؛ لأن الإنذارَ قد يكونُ لا بُدَّ منه.

الفَائِدةُ الخامِسة: أن مجرَّدَ الإيمانِ باللهِ لا يُدْخِلُ الإنسانَ في الإيمانِ، فإن هؤلاءِ القومِ كانوا مُقِرِّينَ بالله لقَولِهِمْ: ﴿بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ فليس مُجَرَّدُ كونِ الإنسانِ يؤمِنُ بأن للخليقَةِ ربًّا مدبِّرًا يُدْخِلُه هذا في الإيمانِ.

الفَائِدةُ السَّادِسَةُ: أن هؤلاءَ القَوْمِ مُكَذِّبُونَ للوطٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لقَولِهِمْ: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

• ● ۞ ● •

الآية (٣٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٠].

قوله: ﴿رَبِّ﴾ مُنادَى، وحُذِفَتْ ياءُ النِّداءِ تَخْفِيفًا، وللبَدَاءةِ بـ(باسم الله) سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وهي منصوبةٌ لأنها منادَى مَضافٌ، فأصلُها (ربي) ولهذا كُسِرَتِ الباءُ للدَّلالَةِ على الياءِ المحْذوفَةِ.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾ اعلَمْ أن مادَةَ (نَصَرَ) تتعَدَّى أحيانًا بـ(مِنْ) وأحيانًا تتعدَّى بـ(على)، فإن تَعَدَّتْ بـ(مِنْ) فمعناها: المَنْعُ والإنْجاءُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأنبياء:٧٧]، أي: منَعْناهُ، وإن تَعَدَّتْ بـ(على) كان مَعْناهُ: الظُّهورُ والغَلَبَةُ.

وأحيانًا لا تَتَعَّدَى بـ(من) ولا بـ(على) فتَشْمَلُ المعْنَيَيْنِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ [الصافات:١١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]، وأمثلتُها كثِيرة.

وأما قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [محمد:٧]، الظاهر أنه يَشْمَلُ الأنواعَ الثلاثةَ إن تَنْصُروا الله يعنِي: تَمنَعُوا دِينَهُ مِنَ الاعتداءِ عليه، وكذلك تَنْصُروه بمحاولةِ إعلاءِ

هذا الدِّينِ، قال تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ هذا المنع، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩]، هذا الظُّهورُ.

فالحاصلُ: أن مادة (نَصَرَ) لها ثلاثةُ استعمالاتٍ: تارَّة تتعَدَّى بـ(من) وتارَّة تَتعَدَّى بـ(على) وتارة تأْتِي مُطْلَقَةً، فقولُه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ هنا تَعدَّتْ بـ(على) فيكونُ معنَاها الظُّهُورُ والغَلَبَةُ، ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾ بتَحْقِيقِ قَولِي فِي إنْزالِ العَذَابِ ﴿عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾].

وقوله: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ ذَكَرَ حالَ المَدْعُوِّ عليهم من باب التَّوَسُّلِ؛ لأن كلَّ وصْفٍ يسْتَوْجِبُ الإجابة فإنه يُعتبَرُ وسيلَةً، وقد ذَكَرْنا فيما سبَقَ أن التَّوَسُّلَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ أنواعٌ، منها التَّوسُّلُ بذِكْرِ حالِ الدَّاعِي كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص:٢٤]، وهنا التَّوسُّلُ بحالِ المَدْعُوِّ عليهم.

وقولُهُ: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ لأن إفْسادَهُم يقْتَضِي إهلاكَهُمْ وذُلَّهم والغَلَبَة والظُّهورَ عليهم.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أَيْ: العَاصِينَ بإتْيانِ الرِّجالِ، فاستَجَابَ دُعاءَهُ]: وهذا تَفْسِيرٌ للشَّيْءِ بسَبَبِهِ؛ لأن المعصِيَةَ سببُ الفسادِ، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]، ولا شكَّ أن فِعْلَ قومِ لُوطٍ مِنْ أعظمِ الفَسادِ في الأرْضِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: جوازُ الدُّعاءِ على القَومِ إذا أَيِسَ مِنْ صَلاحِهِمْ وتَمَرَّدُوا تمَرُّدًا بالِغًا، ولهذا لما قالَ: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾، وتحَدُّوه قالَ: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، وأيضًا نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦]، والنَّبِيُّ ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ**»[1]، ولكنَّ الرَّسولَ ﷺ قيَّدَ ذلِكَ؛ لأن سِنِي يوسُفَ سبعُ سنواتٍ مع أن قولَهُ: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ ليس بظاهِرٍ في الدُّعاءِ عليهم، لكن لو تأَمَّلْنا الآيةَ وجَدْنا أنه يقْصِدُ النصرَ عليهم بما تحَدُّوه به وهو قولهُم: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وإلا فمُجَرَّدُ قولِهِ: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ لا يَدُلُّ على أنَّه دَعا علَيْهِمْ، لكن لما قالُوا لَهُ: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، دَعَا اللهُ أن ينْصُرَهُ عليهم بأن يُظهر صِدْقَه فيما توعَّدهُمْ به.

الفَائِدةُ الثَّانية: ضَرورةُ الإنسان إلى ربِّهِ جَلَّ وَعَلَا مهما علَتْ منْزِلتَهُ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: إثباتُ ما يستَلْزِمَهُ الدعاء، ودُعاءُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يستَلْزِمُ أُمورًا، منها: إثباتُ العِلْمِ لله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنَّ مَنْ لا يعْلَمُ لا يُدْعَى ولا يستطيعُ أن يأْتِيَ بما دُعِيَ.

وكذلك يستلزمُ الدعاءُ إثباتَ السَّمعِ لله جَلَّ وَعَلَا، ويستَلْزِمُ أيضًا إثباتُ القُدْرةِ لأن من لا يَقدر لا يُدْعَى، ولو أنك رأيت شخصًا زَمِنًا أو أَشَلَّ فإنه لا يُمْكِنُ أن تُطلَبَ منه أن يُساعِدَك في حَمْلِ شيءٍ مَثَلًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب تسمية الوليد، رقم (٥٨٤٧)؛ ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، رقم (٦٧٥) عن أبي هريرة.

والدعاءُ يَستَلزِمُ الرَّحمةَ أيضًا؛ لأن مَنْ لا يَرْحم لا يُدْعَى بل يُخْشَى منه، ويستلْزِمُ كذلك الكرَمَ لأن مَنْ ليس بكريمٍ لا يؤمَّلُ فلا يُدْعى.

وإجابة الدُّعاءِ لا تستَلْزِمُ البصرَ؛ لأنك لو دَعَوْتَ أعْمَى أن يساعِدَكَ ساعدَكَ، لكن لو دَعَوْتَهُ لِيقَرَأَ لك كِتَابًا لم يُجِبْ، فالبَصَرُ ليس مِنْ لازمِ إجابَةِ الدُّعاءِ فقد تكون الإجابَةُ بدُونِ بصَرٍ، وكَذَلِكَ لا تَسْتَلْزِمُ إجابَةَ الدُّعاءِ القُرْبُ؛ صحيحٌ أن الله ذَكَر أنه إذا دُعِيَ فهو قَريبٌ، ولولا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبَرَنَا بأنه قَرِيبٌ ما أَثْبَتْنَا قُربَهُ بمجرَّدِ أنه يُدْعَى، فالقُرْبُ ليس مِنْ لازمِ إجابَةِ الدُّعاءِ.

وكذلك القوةُ ليست مِنْ لازِمِ إجابَةِ الدُّعاءِ؛ لأن القُوَّة تكونُ في مقابَلَةِ الخَصْمِ، ومُرادُنَا ما يستَلْزِمُهُ الدُّعاءُ مُطْلقًا.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: أن اللِّواطَ مِنَ الإفسادِ في الأَرْضِ، لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: ظهورُ التَبرُّؤ منهم؛ لأنَّ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ تَبَرَّأَ منهم، تؤخَذُ من قَولِهِ: ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ﴾ ولم يقُلْ: (على قَوْمِي) مع أنه قالَ في الآياتِ السابِقَةِ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾، وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ فأضافَهُمْ إليه، لكنَّ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ يُضِيفُهُمْ إلى نَفْسِهِ، وهذا ظاهرٌ في التبرُّؤ منهم.

الفَائِدَة السَّادسَة: ينبَغِي للدَّاعِي أن يبدأ بـ(باسم الله) ويَحْذِفَ ياء النداء، ويجوزُ أن يقولَ: (يا رب)، بإثباتِ الياء كَمَا قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ»[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم (١٠١٥).

الآية (٣١)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [العنكبوت:٣١].

قوله: ﴿وَلَمَّا﴾ (لما) هُنَا مِنْ أدواتِ الشَّرطِ غيرِ الجازِمَةِ؛ لأن (لما) لا تَجْزِمُ إلا إذا كانتْ نافِيةً، أما إذا كانتْ شَرْطية فإنها لا تَجْزِمُ وتكون مثل (إذا) و(لو) أي: مِنْ أدواتِ الشرطِ غيرِ الجازِمَةِ.

مثال (لـمَّا) النافية قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [ص:٨]، أي: لم يَذُوقُوا العذابَ لكنه قَرِيبٌ منهم؛ لأنها تنْفي لكن تَدُلُّ على تَوَقُّعِهِ، وهذا مِنَ الفُروقِ بينها وبين (لم).

وجوابُ الشَّرطِ قولُهُ: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ﴾.

قـوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ (الباء) هنا للمصاحَبَةِ أي: مصْطَحِبِينَ للبُشْرَى، والبُشْرَى بمَعْنَى البِشَارَةِ، والبِشَارَةُ هي الإخبارُ بما يَسُرُّ، وقد تُطْلَقُ على الإخبارِ بما يَسُوءُ مثل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق:٢٤]، واستعمالها فيما يَسُوءُ قيل: إنه من بابِ التَهكُّمِ بالمبَشَّرِ، ولكنَّه ضَعِيفٌ.

ووجه كونِهِ بشَارَةً: لأنه يؤثِّرُ على بَشْرَةِ المخاطَبِ به كما يؤثِّرُ الخَبرُ السَّارُّ.

وقَال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ بإسْحاقَ ويَعْقُوبَ بَعْدَهُ]: والدَّليلُ على

أن المرادَ بالبُشْرى خصوصُ هذه المسألَةِ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١]، وعلى هـذا فلا نَقولُ: إنَّ المرادَ بالبُشْرى هنـا البُشْرى بالولَدَيْنِ وبالعِقابِ؛ لأن ظاهِرَ الآية أن العِقابَ مما بُشِّرَ به إبراهيمُ، وأيضًا لأن (ال) في قولِهِ: [البُشرى] عَهْدِيَّةٌ، أي: البُشْرَى المعْهُودَةُ.

قوله: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ هذه الجُمْلَةُ مؤكَّدَةٌ، و﴿مُهْلِكُوٓاْ﴾ خبر (إن) وحُذِفَتِ النون من أجلِ الإضَافَةِ.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي: قَرْيَةُ لُوطٍ]: لقولِهِ: ﴿هَٰذِهِ﴾ فالإشارَةُ للتَّعْيينِ، وكأن القَريةَ قريبةٌ مِنْ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ ولهذا أشارَ إليها باسمِ إشارَةٍ للقَريبِ، وهو (هذه).

والقرية تُطْلَقُ على مكانِ القومِ ومساكِنِهم، وتُطْلَقُ على نفسِ القَومِ الساكِنِينَ، وجاءت في القرآن مُرادًا بها هذا وهذا، والذي يُعَيِّنُ أحدَ المعْنَيْنِ السياقُ، مثلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩]، فالمرادُ بالقريةِ في هذه الآية مكانُ القَرْيَةِ، وأما قولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج:٤٨]، فالمرادُ أهلُهَا.

وعلى هذا فيكونُ قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢]، ليس فيه مجازٌ بل المرادُ أهْلُها؛ لأن السؤالَ لا يتـوَجَّه إلا إلى عاقلٍ يُدْرِكُ ويُجيبُ، فيكون قـوله تعالى: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ المراد بالقَرْيَةِ هنا المكان لأنه قالَ: ﴿أَهْلِ﴾.

واعلَمْ أن القريةَ في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ تَشملُ حتى أكبرَ المدُنِ، فمكَّةُ سمَّاها الله قَرِيَةً، وما هو أعظَمُ من مكَّة سَمَّاهُ اللهُ كذلك قَريَةً، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد:١٣]، وأما القريـةُ

في المفهوم العُرْفِيِّ فهي اسم البلد الصَّغِير، ولذلك في عُرفِنَا الآن يقال: المدينة وما يتبعها من القرى.

قوله: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾، أَخبرُوا وعلَّلُوا، فأخبروا بقولهم: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾، وعلَّلُوا هذا الإهلاكَ بقولهم: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾.

قَال المُفَسِّر: [﴿ظَٰلِمِينَ﴾ كَافِرينَ]: فالظُّلْمُ هنا المرادُ به الكُفْرُ، والظُّلْمُ تارةً يُرادُ به الكُفر كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، وتارةً يُرادُ بالظُّلمِ ما دُونَ الكُفْر كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران:١٣٥]، فالآيةُ في سِياقِ صِفَةِ المؤمنينَ المتَّقِينَ، ولهذا يُشْكِلُ على بعضِ الناس إنكارُ شيخِ الإسلامِ وتلميذِهِ ابنِ القيم -رحمهما الله- المجاز في اللُّغة العربية، وقالوا: هذا غيرُ معْقولٍ؛ لأن اللغة العربية مملوءةٌ بالمجازِ؛ لكن من تَدَبَّرَ أن الألفاظَ لا يتَحَدَّدُ معناها إلا بالسِّياقِ عَرَفَ وجْه كلامِ شيخِ الإسلام(١).

والناسُ في هذه المسألة على ثلاثةِ أقوالٍ:

القولُ الأولُ: لا يُوجدُ مجازٌ في اللُّغةِ العربية أبدًا.

القولُ الثاني: يوجدُ مجازٌ في اللُّغةِ العَربيَّةِ لكنْ لا مجازَ في القُرآنِ خاصة.

القولُ الثالثُ: يُوجَدُ مجازٌ في القُرآنِ وفي اللُّغةِ العَربيَّةِ، حتى إن بعضَ عُلماءِ اللُّغةِ قال: إن كُلَّ اللُّغةِ مجازٌ، فإنك إذا قلت: (قُلتُ قولًا)، فإن قَولًا نُعْرِبُها على

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٦٠).

أنها مفْعولٌ به، والمفعولُ به لا بُدَّ أن يكونَ شيئًا يُرى حتى يقَعَ عليه الفِعل، والقولُ لا يرى فيكونُ (قُلتُ قولًا) مجازًا.

ويصْرفونَ الكلام ويقولون: كُلُّه مجازٌ، وليس في اللُّغة العربية شيءٌ حَقِيقِيٌّ -نعوذ بالله- هذه مبالغة.

فالصوابُ في هذه المسألة ما اخْتارَهُ شيخُ الإسلامِ ابنِ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، وأن الكلماتِ ليست لها معنى ذاتِيٍّ خُلِقتْ له، بل لا يتَحَدَّدُ معناها إلَّا بالسِّياقِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن الله أجابَ دُعاءَ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لقولِ الرُّسلِ: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾.

الفَائِدةُ الثَّانِيةُ: إثباتُ أن مِنَ الملائكةِ رُسلًا، لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾، وفي القُرآنِ في سُورَةِ فاطِرٍ: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:١].

وهل المرادُ أن كلَّ مَلَكٍ فهو رَسولٌ أو أن منهم رسلًا؟

الظاهِرُ الثَّاني؛ لأن مِنَ الملائكَةِ من هو قائمٌ راكِعٌ لله ساجِدٌ، ومنهم من يُرسِلُهُم الله.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أن الرَّسولَ يُطلَقُ على البشَرِ والمَلَكِ، بخلافِ النَّبيِّ فإنه لا يُطلَقُ إلا على البَشَرِ، فيكونُ الرَّسولُ أعَمُّ من حيثُ متَعَلَّقِهِ، يعني يكون للبشَرِ والملائكَةِ، وفي القرآن الكريم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢٠]، وفي الآية الثانية قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة:٤٠-٤١]، فالرَّسُولُ في الآيةِ الأُولَى في سُورَةِ التَّكوير

جِبريلُ، والثاني محمَّدٌ ﷺ.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: أن مِنْ طَبِيعَةِ البَشَرِ الفَرَحَ بالولدِ، لقوله تعالى: ﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾.

الفَائِدةُ الخامِسة: أن الفرحَ بالولَدِ لا يُنافِي كمالَ المرتَبَةِ، فإبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من الكُمَّلِ مِنَ الرُّسُلِ، ومع ذلك استبشر بالأولاد وفرح بهم، فلا يقال: الفرحُ بالأولادِ ينَافِي الكَمالَ.

الفَائِدةُ السَّادسَة: إثباتُ أن الملائكةَ أجسامٌ وليسوا أرْواحًا أو عُقولًا كما ادَّعاهُ بعضهم، كيف نقول: إنهم أرواحٌ ومعانٍ وعُقول، وهم لهم أجنِحَةٌ ويأتون ويَذهَبُونَ ويتكَلَّمونَ، فجِبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رآه النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وله سِتُّمِئة جناحٍ قد سَدَّ الأُفُقَ[(١)]، لكن هذه الأجسام ليست كأجسام بَنِي آدمَ؛ فإن فيها من الخِفَّةِ والقُوَّةِ ما ليس لبَنِي آدم، والله عَزَّوَجَلَّ قد يجعَلُهُمْ على صُورةٍ غيرِ الصورةِ الأصلية، مثلُ مجيء جبريلَ بصورة دِحْيَةَ الكَلْبيِّ[(٢)]، وبصورةِ رجلٍ شديدِ بياضِ الثِّياب شَديدِ سوادِ الشَّعَرِ[(٣)].. إلخ.

وكذلك الجنَّ قال بعضُ الناس -أعنِّي الذين يُقِرُّون بهم؛ لأن هناك من الناس من أنكرَ الجن، وإنكار الجِنِّ كُفر بلا ريب- قالوا: إنهم أرواحٌ وليسوا أجسامًا،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٥) (٣٧٤٨)، وأصله عند البخاري: كتاب التفسير، باب سورة النجم، رقم (٤٥٧٦)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم (١٧٤) عن ابن مسعود، ولفظ مسلم: «أن النبي ﷺ رأى جبريل له ستمئة جناح».

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٤٣٥)؛ ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أم سلمة...، رقم (٢٤٥١).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أن الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان...، رقم (٨).

وهذا أيضًا خطأ، والصحيحُ المتَعَيَّنُ أنهم أجسامٌ؛ لأنهم يأكلون كما ثبت في الحديث: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ، أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا»(١).

الفَائِدة السَّابِعة: أنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أعظمُ منزلةً مِن لُوطٍ، ولهذا جاءتِ الملائكةُ إليه وأَخْبَرُوه بأنهم مُهْلِكُو أهلِ هذا القريةِ.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: أن الهلاكَ في الأصلِ إذا جاء يَشْمَلُ الصَّالِحَ وغير الصَّالِحِ، لقوله: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾، فلولا أنه يَشْملُ الجميعَ ما نَبَّهَهُم على هذا، بل إن الله ذَكَرَ ما يَدُلُّ على ذلك صَرِيحًا، قال تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:٩٣-٩٤].

الفَائِدةُ التَّاسِعة: أن الملائكةَ -عليهم الصلاة والسلام- لما أَخْبَرُوا بأنهم سيُهْلِكون هذه القريةَ بيَّنُوا السببَ مِنْ أجلِ أن يطْمَئِنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

الفَائِدةُ العاشِرَةُ: جوازُ إضافةِ الحُكم إلى سَببِه، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾؛ لأن الذي يُهْلِكُهم حقيقةً هو الله جَلَّ وَعَلَا كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج:٤٥]، ولا بُدَّ عند إضافةِ الشيءِ إلى سببِهِ أن يكونَ مَعْلومًا شَرعًا وحِسًّا.

• • ۞ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، رقم (٤٥٠).

الآية (٣٢)

• • • •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٢].

• • • •

قوله: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ ﴿لُوطًا﴾ منصوبة؛ لأنها اسمُ ﴿إِنَّ﴾ مُؤَخَّرٌ.

قَال المُفسِّر: [﴿قَالَ﴾ إبراهِيمُ ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا﴾ أي: الرُّسُلُ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾]: ﴿أَعْلَمُ﴾ ظاهِرُهَا أنها اسمُ تفضِيلٍ والمفَضَّلُ عليه (إبراهيم).

وجه ذلك: أن هذا التَّعبيرَ يخاطَبُ به من يُرادُ إعلامُهُ عند المتكلم كما قال الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «نَحْنُ أَحَقُّ بالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»[(١)]. فإبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠]، فقولُ الرَّسولِ ﷺ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»، فـ(أَحَقُّ) اسمُ تَفْضِيلٍ.

لكن باعتبارِ المفَضَّلِ والمفَضَّلِ عليه هل يُوجَدُ منهما شَكٌّ؟

الجواب: لا، فالمعنى أنه لو كانَ عندَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَكٌّ لكُنَّا أولى منه، فكما أننا لا نشُكُّ فإبراهيم لا يشك.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء، باب قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾، رقم (٣١٩٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، رقم (١٥١).

وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ معناها: كما أنكَ أنتَ عالمٌ فنَحْنُ عنْدنَا عِلْمٌ بذلك.

وقولُه: ﴿أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ يَشْمَلُ لوطًا وغيرَه؛ لأن (مَنْ) اسم موصولٌ يُفِيدُ العُمومَ.

لو قال قائل: لماذا لا نجعَلُ أفعلَ التَّفضيلِ على بابِه وتَكونُ الملائكة أعلمُ مِن إبراهيمَ؟

فالجواب: إذا قُلْنا باعتبارِ عِلْمِ الملائكةِ بالمجموع -أي: بلُوطٍ وقومِهِ- فلا مانِعَ من أن تكونَ الملائكةُ أعلمُ مِن إبراهيمَ؛ لأننا لا نَجْزِمُ أن إبراهيم يعلَمُ كلَّ مَنْ فيها، وإذا قلنا باعتِبَارِ ما وقَعَ عنه الاعتراض، وهو قوله: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ فليست على بَابِها، بل المعنى: نحن عالمون كما أنتَ عالمٌ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ بالتَّخْفِيفِ والتَّشْدِيدِ]: قراءتان سَبْعِيَّتَانِ[1]، (نُنَجِّي) من المضعَّفِ (نَجَّى)، و(نُنْجِي) من المزيدِ بالهَمْزةِ (أَنْجَى)، وكلاهما صحيح، والمعنى واحد، والنَّجاةُ معناها الإنقاذُ مِنَ الهلاكِ.

قوله: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ العطفُ هُنا على الضَّمِيرِ.

الجملةُ في قولِهِ: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ مؤكدَّةٌ بثلاثَةِ مؤكِّدَاتٍ، وهي: القَسمُ المقَدَّرُ، واللامُ، ونُونُ التَّوكيدِ.

قوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ مستثْنَى من قولِهِ: ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾، والمرادُ بالمرأةِ هُنا الزَّوجَةُ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ البَاقِينَ فِي العَذَابِ]: ﴿كَانَتْ﴾ هل نَقُولُ: إن (كان) فِعل ماضٍ مسلوبُ الزَّمَنِيَّةَ كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ

---

(١) انظر: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص:٤٤٠)، والبحر المحيط (٨/ ٣٥٥).

غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥]، وقولُهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤]، فـ(كان) في مثل هذه الآياتِ مَسلُوبَةُ الزَّمَنِ، والمراد اتِّصافُ اسمهَا بخَبرِهَا، أو نقول: دالَّةٌ على الزَّمَنِيَّةِ؟

الجواب: كلاهما محتَمَلٌ، فإن شئتَ فقل: كانت في عِلْمِ الله مِن الغابِرِينَ، وإن شئت فقل: كانت، أي: اتَّصَفتْ بكونها مِنَ الغَابِرينَ، أي: الباقِينَ في العذاب، يعني: ليست بناجية.

لو قال قائل: ما الفرقُ بين أن نقول: زوجة فلانٍ أو امرأةُ فُلانٍ؟

الجواب: لا فَـرْقَ، وأما من قال: إنَّنا نُعبِّرُ بالمرأة بدلًا عن الزَّوجَـةِ إذا كانت مُسلِمَـةً وزوجها كافِرٌ أو بالعكس، كما في قـوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم:١١]، نقول: هذه القاعدة تُنتَقَضُ بقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد:٤]، فأُطْلِـقَتْ على الزوجةِ مع اتِّفاقِ الدِّينِ ودائمًا الإنسان يَبْـدُو له أن الشيءَ مُطَّرِدٌ ويَغيـبُ عنه أنه قد يُنتَقَضُ، فلذا يجِبُ على الإنسان أن يحترِزَ بقولِهِ: [غالبًا]؛ لأجل إذا نُقِضَ كلامُه لا يكون في تعْبِيرِهِ خَللٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدَةُ الأُولَى: رأفةُ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وحِلْمُه، لقولِهِ: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ وكأنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يريدُ ألَّا تَهْلِكَ هذه القريةُ لوجودِ هذا الرَّجُلِ الصَّالحِ، هذا احتمال.

واحتمال آخر: هو أنه أوْرَدَ هذا الإيرادَ لِيَنْظُرَ ماذا ستكون عليه حَالُ لُوطٍ.

والاحتمال الثاني أرْجَحُ، والمعنى: ماذا تفعلون بهذا الرجل، ويُؤَيِّدُهُ قوله تعالى: قالُوا ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾.

وأما قوله تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:٧٤]، فإنه يُؤَيِّدُ الاحتمالَ الأوَّلَ، ولا يمْنَعُ أن يكونَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قال ذَلِكَ للغَرَضينِ، وعلى كِلا الاحتمالين فَفِيهِ دَليلٌ على رَأْفَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا مَشْهُورٌ عنه حتى قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦].

الفَائِدَةُ الثَّانية: إثباتُ القولِ والعِلْمِ للملائكَةِ مما يَدُلُّ على أنهم ذَوُو عقولٍ، وذَوُو نُطْقٍ خلافًا لمن قال: إنهم لا عقولَ لهم، وهذا مِنْ أغربِ ما يكون، أن يكونَ هؤلاء الملائكةُ الذين يُسَبِّحونَ الليلَ والنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ، والذين وَصفَهُم الله تعالى بأنهم عبادٌ مُكْرمُونَ؛ أن يكونـوا لا عقولَ لهم، فمن له عقلٌ بعد ذلك؟! وخلافًا أيضًا لمن قال: إنهم أرواحٌ لَيْسُوا أجسَادًا، وقد تقدم.

الفَائِدَةُ الثَّالِثة: جوازُ إضافَةِ الشيءِ إلى سببِهِ، لقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾، ومعلـوم أن الإنجاءَ مِنَ الله، لكن لما كانـتِ هؤلاءِ الرُّسُلُ رسلُ اللهِ أُضِيـفَ إليهم فِعْـلُ الله، أي: أن ما قَدَّرَهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو فِعلُهُمْ، وإضافة الشيء إلى سبَـبِهِ له أربعةُ وُجوهٍ:

الوجهُ الأَوَّلُ: أن يُضافَ إلى السببِ الحِسِّيِّ أو الشَّرْعِيِّ بدونِ ذِكرِ الله عَزَّوَجَلَّ.

الوجهُ الثَّانِي: أن يُضافَ إلى السَّببِ الحِسِّيِّ أو الشَّرْعِيِّ مع الله بـ(الواو).

الوجه الثالثُ: أن يُضافَ إلى السببِ الحِسيِّ أو الشرْعِيِّ معَ الله بـ(ثُم).

الوجهُ الرابع: أن يُضافَ إلى السَببِ الحِسِّي أو الشَّرعي مع اللهِ بـ(الفاء).

فالوجهُ الأول جائزٌ، ومِنَ الأدلة على جوازِهِ قولُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في أَبِي طالِبٍ:

«لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»(١)، والحقيقةُ أن الذي منعَهُ أن يكونَ في الدَّركِ الأسفلِ مِنَ النار اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكنَّ الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سببٌ، ومن الأَدِلَّةِ أيضًا هذه الآية.

والوجهُ الثَّاني: إذا أُضِيفَ السببُ الحسِّيُّ أو الشَّرعي مع اللهِ بالواو فهذا شِرْكٌ، ودَليلُهُ قولُ الرسولِ ﷺ للرجلِ الذي قال له: ما شَاءَ اللهُ وشئتَ، قال: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا، قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»(٢)؛ ولأن التَّعليلَ يقتَضِي أن يجعلَ هذا السببَ مُسَاوِيًا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا حُكْمُهُ لا يجوز، وقد يكونُ شِرْكًا أكبرَ أو أصغر بحسْبِ ما قام في قَلْبِ هذا المشْرِكِ، إنما هو شركٌ على كُلِّ حالٍ.

الوجهُ الثالثُ: إذا أُضيفَ السَّببُ معَ الله بـ(ثُم)، فهذا جائزٌ ودَلِيلُهُ حديثُ قُتَيلَةَ وفيه: «فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الكَعْبَةِ، ويَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ»(٣)، وكذلك حديثُ ابنِ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو مَشْهُورٌ(٤)، والتعليل أن (ثُم) تَدُلُّ على التَّرْتِيبِ بمُهْلَةٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٦٧٠)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، رقم (٢٠٩).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى: كتاب عمل اليوم والليلة، باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشاء فلان، رقم (١٠٨٢٥) عن ابن عباس بلفظ: أن رجلًا أتى النبي ﷺ فكلمه في بعض الأمر، فقال: ما شاء الله وشئت، فقال النبي ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي للهِ عَدْلًا، قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ».

(٣) أخرجه النسائي: كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بالكعبة، رقم (٣٧٧٣) عن قتيلة بن صيفي بلفظ: أن يهوديًا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تنددون وإنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: «ورب الكعبة» ويقولون: «ما شاء الله ثم شئت».

(٤) أخرجه ابن ماجه: كتاب الكفارات، باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت، رقم (٢١١٧) بلفظ: «إِذَا حَلَفَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَقُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتُ. وَلَكِنْ يَقُلْ: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتُ».

الوجهُ الرَّابعُ: إذا أُضِيفَ السَّببُ مع اللهِ بـ(الفاء) فمن حيثُ إنها للتَّعْقِيبِ تكونُ جائزةً، ومن حيثُ إنها مباشَرَةٌ تكون غيرَ جائزةٍ، والأَوْلى للإنسانِ تَركُها.

الفَائِدتانِ الرَّابعةُ والخامِسَةُ: أن الزوجَةَ داخِلَةٌ في الأهلِ، لقولِ الملائكة: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾، ثم استَثْنَوْا مِنْ ذلك امرأَتَهُ.

لو قالَ قائلٌ: هذا الاستثناءُ مُنْقَطِعٌ فلا دَلالَةَ فِيهِ، لأن الاستثناءَ المنْقَطِعَ أن يكونَ المسْتَثْنَى من غيرِ جِنسِ المستَثْنَى منه، فتكونُ امرأَتُهُ ليست مِن الأهلِ؟

فالجواب: إن الأصلَ في الاستِثْناءِ الاتصالُ؛ لأنه لَولا أنه مِنَ المسْتَثْنَى ما احتِيجَ إلى إخْراجِهِ. ويَنْبَني على هذا الفَائِدةِ أن أزْواجَ النَّبيِّ ﷺ من أهلِ بَيْتِهِ ولا شَكَّ، خِلافًا للرَّافِضَةِ الذين يُخْرِجُونَ زوجاتِهِ مِنْ أهلِ بيتِهِ، وفي القرآنِ ما يدُلُّ على ذلك صَريحًا، قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

الفَائِدةُ السَّادسَةُ: أن الاتصالَ بالصالِحِ لا يستلزِمُ أن يكون المتَّصِلُ صالحًا وإن كان الاتصالُ بالصالحِ مِن أسبابِ الصَّلاحِ، ولهذا حثَّ النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على الجليسِ الصَّالحِ[1]، لكنه ليس بلازمٍ، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، أي: كانت مِنَ الهالِكِينَ أو الباقِينَ في الهلاكِ مع أنها امرأةُ رَجلٍ صالحٍ

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع...، رقم (١٩٩٥)؛ ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، رقم (٢٦٢٨) عن أبي موسى الأشعري، ولفظ مسلم: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً».

نَبِيٍّ مِنَ الأنبياءِ، فلا تُدِلُّ الزوجة على رَبِّها بصلاحِ زَوجِهَا، وهذه المسألة جاءتْ في سُورةِ التَّحريمِ لأجلِ ألَّا تُدِلَّ زوجات الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الله بكونِهِنَّ زوجات للنَّبِيِّ ﷺ.

لو قال قائل: وردَ حديثٌ أنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جمع فاطِمَة وعَلِيًا والحسنَ والحسين وقال: «اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي؛ فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا»، قالت أم سلمة: وأنا مَعَهُمْ يا نبي الله؟ قال: «أَنْتِ عَلَى مَكَانِكِ، وَأَنْتِ عَلَى خَيْرٍ»[1].

فالجواب: نَنْظُر في صحَّةِ الحديثِ لأنَّ الآياتِ صريحةُ المعْنى، وإن ثَبتَ يكون أهلُ بَيتِهِ هم قَرابتُهُ ﷺ.

الفَائِدةُ السَّابِعة: جوازُ القَسمِ بدونِ استِقْسَامٍ، لقولِه تعالى: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: اعتِبارُ القَسَمِ المقْدَّرِ، بمعنى أنه لا يُشتَرَطُ في القَسمِ أن تَنطِقَ به.

فلو قالَ قائل: لأفْعَلَنَّ كذا، يكون مُقْسِمًا؛ لأن هذه الجملةَ تكونُ جَوابًا لقَسمٍ مُقَدَّرٍ، ولو قال: لئن آتانِي اللهُ مِنْ فَضلِهِ لأَتَصدَّقَنَّ يكون نذرًا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة:٧٥-٧٦]، فجعَلَ هذا نَذْرًا؛ لأن النَّـذْرَ ليس له صِيغةٌ مُعَيَّنَة بل كُلُّ ما دَلَّ على الالتـزامِ فهو نَذْرٌ بأَيِّ صِيغَةٍ، وقد يكون نَذْرًا مَقرونًا بالقَسَمِ فيفيد التَّوكِيدَ.

لو قال قائل: هل وُجودُ الصَّالحينَ سببٌ لدَفعِ العَذابِ؟

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب سورة الأحزاب، رقم (٣٢٠٥) عن عمر بن أبي سلمة، والطبراني في الكبير (٣/ ٥٣) (٢٦٦٦) عن أم سلمة.

فالجواب: وجودُ الصالحينَ قد يكونُ سببًا لدفعِ العَذابِ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣].

الآية (٣٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ﴾ تقدَّمَ بيانُها وأنها شَرطيَّةٌ غيرُ جازِمَةٍ.

قوله تعالى: ﴿أَن جَآءَتۡ﴾ (أنْ) زائدةٌ للتَّوكيدِ، وكل حُرفٍ زائدٍ في القرآن فإنه للتَّوكِيدِ، وغالبًا تكونُ (أَنْ) بعد (لَـمَّا) زائدَة، وضابِطُ الحرفِ الزائدِ أنه إذا حُذِفَ استقامَ الكلامُ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ حَزِنَ بسَبَبِهِمْ]: فأفاد أن الباءَ للسَّبَبِيَّةِ، يعني لما تحقَّق مجيئُهُمْ له سِيئَ بهم وحَزِنَ بسببِهِمْ، أي: لحِقَهُ السوءُ بسببِهِمْ وحصلَتْ بهم المَساءَةُ، و ﴿سِيٓءَ﴾ هذا فِعل ماضٍ مبْنِيٌّ للمفعولِ مثلُ: قِيل وبِيع، قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَاْكسِرْ أَوْ اشْمِمْ فَا ثُلَاثِيٍّ أُعِلّ   عَيْنًا وَضُمٌّ جا كَـ(بُوعَ) فَاحتُمِلْ

وفي بِناءِ هذا الفِعْلِ للمَفعولِ ثلاثةُ أوْجُهٍ في فَائِهِ:

---

(١) البيت رقم (٢٤٧) من ألفيته.

١- إخلاصُ الكَسرِ لفاءِ الفِعلِ.

٢- إخلاصُ الضَمِّ لفاءِ الفِعلِ.

٣- الإشمامُ للفَاءِ.

وقوله تعالى: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ هو جَوابٌ ﴿وَلَمَّآ﴾، ونائبُ الفاعِلِ يعودُ إلى لُوطٍ، ونائبُ الفاعلِ هنا الجارُّ والمجرورُ؛ لأن ساءَ في الأصل يكون متعَدِّيًا بنفسه تقول: ساءَنَي هذا الشيءُ، وهنا تَعَدَّى بالجار والمجرور.

قوله تعالى: ﴿ذَرۡعٗا﴾ إعرابُهُ تَميِيزٌ مُحَوَّلٌ عن الفاعِلِ، والتَّمْييزُ يكونُ مُحَوَّلًا عنِ الفاعِلِ وعَنِ المفْعُولِ، مثالُ المحَوَّلِ عَن المفْعُولِ: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ [القمر:١٢]، أصله: فجَّرْنَا عيونَ الأرضِ، ومثالُ المحَوَّلِ عَنِ الفاعِلِ هذه الآيةُ، ومثالُهُ أيضًا أن تقولَ: انشَرِحْ بهم صَدْرًا، أي: صَدرُهُ، هنا ضاق بهم ذَرعًا، أي: ضاقَ ذَرْعُهُ.

وقد فسَّرَ المُفَسِّر الذَّرْعَ بقوله: [ضَاقَ بِهِمْ صَدْرًا]: أي: ضاق صَدْرُهُ بهم ولم يَنْشَرِحْ، أي: حَصَلَ له هَمٌّ وغمٌّ بذلك.

وقيل -وهو الصحيح-: إن الذَّرْعَ الطاقَةُ، أي: ضَاقَ بهم طاقَةً، فصار غيرُ محتمل لهم، وهذا مِنْ معناه في اللُّغةِ العربيةِ، وسمِّيَتْ الطاقَةُ ذَرْعًا مِنَ الذِّرَاعِ؛ لأن الذِّرَاعَ محل الحِمْلِ، والطاقَةُ هي التي يستطيعُ المرءُ أن يحمِلَ بها الشيءَ أو لا يحْمِلَهُ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ لأنَّهُم حِسانُ الوُجُوهِ في صُورَةِ أضْيَافٍ فخَافَ علَيهِمْ قَومَهُ، فأَعْلَمُوهُ أَنَّهُمْ رُسُلٌ]: فهو ضاقَ بهم خوفًا عليهم من قَومِهِ لأن قومَـه أهلُ خُبْثٍ، كما قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأنبياء:٧٤]، فلما سَمِعُـوا بذلك كما ذَكَرَ اللهُ في آيـاتٍ أُخْرى

جاءَهُ قومُه يُهْرعُونَ إليه، يعني: مُسْرِعينَ -والعياذ بالله- يُريدونَ هؤلاءِ الأضيافَ، وهذا مِنْ فِتْنَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للعبدِ أن يجعلَ الأُمورَ المحرَّمَةَ عليه في صورةٍ تَهْواهَا نفسه، ليَعْلَمَ اللهُ من يخافُهُ بالغَيْبِ.

فهم -والعياذ بالله- لما جاءوا إلى لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُرِيدُونهم قال لهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود:٧٨]، فقالَ له الرُّسُلُ: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾.

الخوفُ مِمَّا يُتَوَقَّعُ حُدوثَهُ في المستقبلِ، والحُزنِ مما وقَعَ في الماضِي، وقد يقعُ الحُزن لما يتوقَّعُ في المستقبلِ، ومثالُهُ قولُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]، فقولُهُ: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ بمَعْنَى: لا تَخَفْ، ويُحْتَمَلُ أن تكونَ على بابِها، أي: لا تحْزنْ مما حَصَلَ من خُروجِنَا ودُخُولِنَا إلى الغَارِ واختِبَائِنَا.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾؛ مَا حصَلَ لِلُوطٍ من كونِهِ سِيءَ بهم وضاقَ بِهِمْ ذَرْعًا.

وهل السَّبَبُ الخوفُ عليهم مِنْ قومِهِ، أو السببُ أنه خافَ أن يُعُمَّه الهلاكُ؟

الجواب: لا مانِعَ من أن يكونَ خافَ عليهِمْ وخافَ أيضًا على نَفْسِهِ أن يَعُمَّهُ العذابُ؛ لأن العذابَ إذا نَزَلَ يَعُمُّ إلا مَنْ أنْجاهُ الله، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:٩٣-٩٤]، فكُلُّ إنسانٍ مُعَرَّضٌ لأن يشْمَلَهُ العذاب، فالجملةُ إما استئنافِيَّةٌ أو تَعْلِيلية، وإن كانت تحتاجُ إلى تَأَمُّلٍ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ بالتَّشْدِيدِ والتَّخْفِيفِ]: قراءتانِ، «مُنْجُوك» من الفِعلِ الماضِي (أنْجى)، و﴿مُنَجُّوكَ﴾ بالتَّشْدِيدِ من الفعل (نَجَّى)[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾، (أهلكَ) بالنَّصْبِ عطفًا عَلَى الضَّمِيرِ مِنْ ﴿مُنَجُّوكَ﴾.

وهنا إشكالٌ: الضَّمِيرُ في ﴿مُنَجُّوكَ﴾ محله الجَرُّ بالإضافَةِ، وهنا جاءت (أهل) منصوبة، فما وجهُ النَّصْبِ؟

والجواب: لأن اسمَ الفاعِلِ تارَّةً يعملُ عمَلَ الفِعْلِ وتارَةً يُضَافُ، ولِذَا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَنَصْبُ (أهلك) عَطْفٌ عَلَى مَحَلِّ الكَافِ]، قال ابنُ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]:

وَاجْرُرْ أَوِ انْصِبْ تَابِعَ الَّذِي انْخَفَضْ ... كَمُبْتَغِـي جَـاهٍ وَمَـالًا مَـنْ نَهَـضْ

ويجوزُ: كمُبْتَغِي جَاهٍ ومَالٍ مِن نهض.

ويجوز أن تكونَ الواوُ في قولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ للمَعِيَّةِ، وقد قالَ ابنُ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]:

يُنْصَبُ تَالِي الْـوَاوِ مَفْعُـولًا مَعَـهْ ... فِي نَحْوِ سِيرِي وَالطَّرِيقَ مُسْرِعَـهْ

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدَةُ الأُولَى: إطلاقُ الرُّسلِ على الملائكةِ لقولِهِ: ﴿رُسُلُنَا﴾، وتقدمت الأَدِلَّةُ على ذلك.

---

(١) انظر: حجة القراءات (ص:٥٥١).

(٢) البيت رقم (٤٣٦) من ألفيته.

(٣) البيت رقم (٣١١) من ألفيته.

الفَائِدَةُ الثَّانِية: تشريفُ هؤلاءِ الرُّسُلِ لإضافَتِهِمْ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإن الشيء يَشْرُفُ بشَرَفِ ما يُضافُ إليه.

الفَائِدَةُ الثَّالِثة: الأنبياءُ كغَيرِهِمْ مِنَ البَشر يَلحَقُهم المساءَةُ والأحزانُ والسُّرورُ، لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ فالعَوارِضُ البَشَرِيَّةُ لا تُنَافي كَمالَ الرِّسَالاتِ، ولهذا قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَما تَنْسَوْنَ»[1]، وكذلك يَعْتَرِي الأنبياءُ البردَ والحرَّ والجوعَ والعَطَشَ.

الفَائِدَةُ الرَّابِعة: شدة احتِرَازِ لُوطٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ قومِهِ؛ لأنه إنما سِيءَ بِهِمْ وضاقَ بهم ذَرْعًا، أي: خَوفًا عليهم من قَومِهِ؛ لأنهم جاءوا بصُورةِ شبابٍ ذَوي جَمالٍ وحُسْنٍ، فتنةً من الله عَزَّوَجَلَّ.

الفَائِدَةُ الخَامِسة: الاستدلالُ على الأحوالِ بالملامِحِ، لقولِهِمْ: ﴿لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾، ولأنهم رَأَوا مِنَ العلاماتِ الظاهِرَةِ على مَلامِحِهِ ما يَدُلُّ على خوفِهِ.

الفَائِدَةُ السَّادِسَة: وهي مَبْنِيَّةٌ على الفَائِدة السابِقَةِ: العَمَلُ بالقَرائِنِ، والعملُ بالقَرائِنِ ثابِتٌ في القُرآنِ، ودَليلُه مِنْ قِصَّةِ يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٢٦-٢٧]، هذه قَرِينَةٌ، وأيضًا في قصَّة سُليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في المَرْأتَينِ اللَّتَيْنِ تنازَعَتا الغُلامَ، فدَعَا عَلَيْهِ السَّلَامُ بالسِّكِّينِ لِيَشُقَّهُ نِصْفَينِ فوافقَتِ الكُبْرَى لأن ولَدَها أكلَهُ الذئبُ، فأرادتْ هلاكَهُ، وأما الصغيرةُ فقالت: يا نبي الله هو لها، أدْرَكَها الحنانُ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب أبواب القبلة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم (٣٩٢)؛ ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٢).

فعلم بهذه القَرينَةِ أنه للصُّغْرَى[١].

وأيضًا في شَريعَتِنَا شَريعَةِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قِصَّة ذَهبِ حُيَيِّ بنِ أخطبَ لما سألَ عن مالِهِ أين هو؟ فقالوا: يا مُحَمَّدُ أذهبَتْه الحروبُ والسُّنُونُ، فقال: «المَالُ كَثِيرٌ وَالْعَهْدُ قَرِيبٌ»، ثم دفع الرجلُ إلى الزُّبَيرِ بنِ العوَّامِ، قيل: فَمسَّهُ بِعذابٍ، فلما أحسَّ بالعذاب قال: انتظر، إني أَرَى حُيَيَّ بن أخطبَ يدورُ حول هذه الخَرِبَةِ فلعله دَفنَهُ فيها، فوجودُه فِيهَا[٢]، فهذا من العَملِ بالقَرائِنِ.

الفَائِدةُ السَّابِعة: أنه ينْبَغِي طمأنَةُ الخائفِ ليزُولَ عنه الخوفُ، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾، ومن هذا ما يُسْتَعْمَلُ في الطِّبِّ الآن، فإن الطبيبَ يقولُ للمريضِ: هذا أمرٌ سَهْلٌ وهَيِّنٌ -يطمئنه- لأجل أن ينْشَرِحَ صَدرُهُ.

الفَائِدة الثَّامِنة: إزالَةُ المؤْذِي قبلَ حُصُولِ السَّار لقوله: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ فبدؤوا بنفي الخَوفِ والحزنِ ثم أعْقَبوهُ بالبِشارةِ؛ ولهذا من الكلماتِ المشهورة عند أهل العِلْمِ يقولونَ: (التَّخْلِيَةُ قبلَ التَّحْلِيَةِ)، يعني: جَرِّدِ الشَّيءَ مِمَّا يَشُوبُهُ من النَّقْصِ ثم بعد ذلك كمِّلْهُ بالتحْلِيَةِ، ومن كلمة الإخلاص: (لَا إِلَه إِلَّا اللهُ) النَّفْي أسبَقُ مِنَ الإثباتِ.

الفَائِدةُ التَّاسِعةُ: أن الاتِّصالَ بالصَّالحِ لا يَلزمُ منه الصَّلاحُ، وقد تقدم نحوه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، رقم (٣٢٤٤)؛ ومسلم: كتاب الأقضية، باب بيان اختلاف المجتهدين، رقم (١٧٢٠) عن أبي هريرة ولفظ مسلم: «بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا فَقَالَتْ هَذِهِ لِصَاحِبَتِهَا إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ أَنْتِ وَقَالَتْ الْأُخْرَى إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَام فَأَخْبَرَتَاهُ فَقَالَ ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَكُمَا فَقَالَتْ الصُّغْرَى لَا يَرْحَمُكَ اللهُ هُوَ ابْنُهَا فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى».

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب ما جاء في حكم أرض خيبر، رقم (٣٠٠٦).

الآية (٣٤)

قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [العنكبوت:٣٤].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾ بالتَّخْفِيفِ والتَّشْدِيدِ]: أي: «مُنَزِّلُوْنَ»، و(مُنْزِلون)[1].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزًا﴾ عَذَابًا]: والرِّجْزُ غيرُ الرجْسِ، الرَّجْزُ بالزَّاي: هو العَذابُ، والرِّجْسُ النَّجَسُ.

قوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، هل المرادُ بالسماءِ السَّقْفُ المحفوظُ أو العُلُوُّ؟

قد يُرادُ هنا المعنَيانِ؛ لأن استعمالاتَ السماءِ للسَّقْف المحفوظِ كثيرةٌ، وكذلك السماء بمعنَى العُلُوِّ كثيرٌ، وسواء قُلْنَا: إنه السَّقْفُ المحفوظُ وأن هذا العذابَ نَزَلَ مِنَ السماءِ الدُّنيا، أو قلنا: إن المرادَ به العُلُوُّ؛ على كِلا الحالَينِ العذابُ أتاهُمْ من فَوق، وكونُه يأتِي مِنْ فوقَ أَشَدُّ وأَبْلَغُ؛ لأن ما يأتي مِن فوق يكونُ عاليًا ومحيطًا -والعياذ بالله- بخلافِ الذي يأتي من أسفلَ فإنه لا يكونُ كذلِكَ.

قَال المُفَسِّر: [﴿رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا﴾ بالفِعْلِ الَّذي ﴿كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ بِه، أي: بِسَبَبِ فِسْقِهِمْ]: وكلامُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ غريبٌ وفيه شيء مِنَ التَّنَاقُضِ، الباءُ في

(١) انظر: االنشر في القراءات العشر (٢/ ٣٤٣).

قوله: ﴿بِمَا﴾ للسَّبَبِيَّة، و(ما) أعْربَها على أنها اسم موصولٌ ثم قَدَّرَها بالمَصْدَرِ، مما يَدُلُّ على أنه جعَلَهَا مصدَرِيَّةٌ وهذا من الغرائبِ.

فعلى التَّقديرِ الأوَّلِ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالفِعْلِ الذي كانُوا يَفْسُقونَ بِهِ] فتكونُ (ما) اسمًا موصولًا صِفَةً لموصوفٍ محذُوفٍ تقديرُه: بالفعلِ، والاسمُ الموصولُ يحتاجُ إلى جملةٍ تكون صِلَةً، ويحتاجُ إلى عائدٍ يربِطُ الجملة بِهِ، أعْني: جملةَ الصِّلَةِ، وهي قولُه: ﴿كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، والعائدُ قدَّرَهُ بقولِهِ: بِهِ.

وهذا خلافُ المشهور عندَ النَّحْوِيِّينَ من أنه إذا كانَ العائدُ مجرورًا، فلا بُدَّ أن يكونَ مُوافِقًا لاسم الموصول في نَوعِ العاملِ وفي نَوعِ حرفِ الجرِّ.

والشاهدُ من كَلامِ ابنِ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في اشتِراطِ هذا الشيء قوله[1]:

كَذَا الَّذِي جُرَّ بِمَا المَوْصُولَ جُرّ   كَـ(مُرَّ بِالَّذِي مَرَرْتُ فَهْوَ بَرّ)

فقال: كـ(مُرَّ بالَّذِي مَرَرتُ فَهُو بَرٌّ)، وهنا اختلفَ العامِلُ، فالصحيحُ أن (ما) هنا مَصْدَرِيَّةٌ، أي: بكونِهِم يَفْسُقونَ فهي مَصْدَرِيَّةٌ وليست موصولةً.

وقوله: ﴿يَفْسُقُونَ﴾ الفِسْقُ في الأصل: هو الخُروجُ عن الطَّاعَةِ، ومِنْهُ قولهم: (فَسَقَتِ الثَّمرةُ) إذا خَرجتْ مِنْ قِشْرِهَا.

وينقَسِمُ الفِسْقُ إلى قِسمَيْنِ:

- فسقٌ أَكْبَرُ مخرِجٌ عَنِ المِلَّةِ.
- وفِسقٌ أصغَرُ لا يُخرِج عَنِ المِلَّةِ.

---

(١) البيت رقم (١٠٤) من ألفيته.

والمصطَلَحُ عليه عندَ أهلِ العِلمِ الثاني، فإذا أطلَقُوا الفِسْقَ فإنما يُريدُونَ به ما لا يُخرِج من المِلَّةِ، لكنه في القرآن ينقسم إلى هذين القِسمَيْنِ؛ وهو بقِسْمَيْه مخرِجٌ من العَدالَةِ، فالفاسِقُ ليسَ بعَدْلٍ.

والشاهدُ من القُرآنِ للفِسْقِ المخرجِ مِنَ المِلَّة قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:٣٣]، وكذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة:٢٠]، في مقابِلِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

وأما الفِسْقُ الذي لا يُخرِجُ مِنَ المِلَّةِ، ففي مثل قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات:٦]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام:١٢١].

وأما سببُ الفِسْقِ -الذي هو الخروجُ عن الطَّاعَةِ- فقد يكون سبَبُه تركَ واجبٍ، كما لو تركَ الإنسانُ صلاةَ الجماعَةِ فإنه يكون فاسِقًا لأن الجماعَةَ واجبةٌ، وقد يكونُ سَببُه فِعْلَ محرمٍ كما لو حلَقَ لحيتَهُ فإن حَلْق اللِّحيةِ مُحَرَّمٌ، إلا أن العلماءَ يقولون في المحرَّمِ إن كان كبيرةً: (فَسَقَ بمُجَرَّدِ فعلها إذا لم يَتُبْ منها)، وإن كانت صغيرةً: (لم يَفْسُقْ إلا بالإصرارِ عليها)، فحالِقُ اللِّحْيَةِ لا يَفْسُقُ إذا فعَلَهُ مرَّةً واحدةً، لكن إذا أصرَّ، أي: كُلَّما نبَتَتْ حَلقَها صارَ فاسِقًا، لكن قَصَّ اللِّحيَةِ ليس كحلْقِ اللِّحْيَةِ، لكنه مَعصيةٌ لأن الرسولَ ﷺ قال: «**أَعْفُوا اللِّحى**»(١).

لو قال قائلٌ: إن عَذابَ قومِ لُوطٍ ذَكَرَهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في القرآنِ فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر:٣٤]، ويُذْكَرُ أن جِبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب إعفاء اللحى، رقم (٥٥٥٤)؛ ومسلم: كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، رقم (٢٥٩).

حَمَل هذه القُرَى، ثم قَلَبَها، فكيف الجَمْعُ؟

الجواب: إن صَحَّ عنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن جبرَيل حَمَل هذه القُرَى وقَلَبها فلا كلامَ لأَحَدٍ، وإن لم يَصِحَّ فإننا لا نَقُولُ بِهِ(١)؛ لأن هذا خلافُ ظاهِرِ الآياتِ، وأما قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم:٥٣]، وهي قُرى قَومِ لُوطٍ التي صَنَعَتِ الإفكَ والكَذِبَ؛ فلا دَلالَة فيها على مَا سَبَقَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ العُلُوِّ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِهِ: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾.

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: شِدَّةُ العذابِ إذا كانَ آتِيًا من فَوقَ، لقولِهِ: ﴿مُنزِلُونَ﴾؛ لأن كونَ العَذابِ يأتِي مِنْ أعْلى فهُو أشَدُّ وأبْلَغُ؛ لأن العذابَ في هذه الحالِ يكونُ عالِيًا ومُحِيطًا.

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ الأسبابِ؛ لقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾، فإن الباء للسَّبَبِيَّةِ.

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الفِسْقَ سببٌ للعُقوباتِ، ولهذا جَعَلَ الله المَعَاصِي مِنَ الفسادِ في الأرضِ؛ لقولِهِ: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾.

الفَائِدَةُ الخامِسَةُ: الردُّ على الأشاعِرَةِ والجَهمِيَّةِ والجَبْرِيَّةِ، والجبريةُ هم الجَهْمِيَّةُ؛

(١) أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ قال: لما أصبحوا عدا جبريل على قريتهم فقلعها من أركانها ثم أدخل جناحه، ثم حملها على خوافي جناحه بما فيها، ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم قلبها، فكان أول ما سقط منها سرادقها، فلم يصب قومًا ما أصابهم، ثم إن الله طمس على أعينهم، ثم قلبت قريتهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل. انظر: فتح القدير (٢/ ٧٤٥)، وتفسير الطبري (٧/ ٩١)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٩٧).

والجَهْمِيَّةُ عندهم ثلاثةُ جِيماتٌ، أعاذَنا اللهُ من هذه الجيماتِ، والاستِعاذَةُ ليس من كل جِيمٍ لأننا نتعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرَّجيم، وهذه الجيمات هي: جيم جَبْرٍ وإرجاءٍ وتَجَهُّمٍ، يقولُ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١):

جَبْرٌ وإِرْجَاءٌ وَجِيمُ تَجَهُّمٍ ....

فهؤلاء الطوائفُ يقولونَ: لا تُوجدُ أسبابٌ مؤَثِّرَةٌ، حتى إنك إذا رَمَيْتَ بالحَجَرِ على الزجاجة فانكَسَرَتْ قالوا: لم يَكْسِرْها الحجَرُ، بل انكَسَرَتْ عنده لا به، وعندما تَضَعُ ورَقَةً في النَّارِ وتحترق يقولون: النارُ لم تَحْرِقْها.

ونقول لهم: لو أَتَيْنَا بالحَجَرِ ووَضَعْنَاه عندَ الزُّجاجةِ هل تنكَسِرُ؟ فكلامُهُمْ لا يُعْقَلُ، وتصورُهُ كافٍ في رَدِّهِ؛ لكن هم يُرِيدُون أن يتَوَصَّلُوا إلى شيءٍ من وراءِ ذلك وهو: أن الإنسانَ مُجْبَرٌ على العمل، فإذا عذَّبَهُ الله تعالى وهو عاصٍ فإن تَعْذِيبَهُ إياه ليس بحُجَّةٍ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد يُعذِّبُ بدونِ سببٍ، والأسبابُ عندهم غيرُ فاعلةٍ، ونحن نوافِقُهُم أنها غيرُ فاعلة بنفسها، بدليلِ أن النَّارَ المُحْرِقَةَ صارتْ على إبراهيم برْدًا وسلامًا، لكن نقول: هي فاعِلَةٌ بتَقْدِيرِ الله عَزَّوَجَلَّ الذي جَعلها تَحْرِقُ فأحرَقَتْ.

• ● ۞ ● •

(١) القصيدة النونية (ص: ١٦٦).

الآيــة (٣٥)

• • ✿ • •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٣٥].

• • ✿ • •

قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا﴾ الجملةُ مؤَكَّدَةٌ بثلاثَةِ مُؤكِّداتٍ، وهي: القَسَمُ، واللامُ، وقَدْ.

قوله: ﴿تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ﴾، أي: أبْقَيْنا مِنْها، فالتَّرْكُ هنا بمعنى الإبقاءِ، وهو ظاهرٌ في اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ، تقول: أخذت كذا وتركتُ كذا، أي: أبقَيتُ.

قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ﴾ يعني: أبْقَيْنا من هذه القَضِيَّةِ آيةً بيِّنَةً، ﴿ءَايَةَۢ﴾ بمعْنَى علامَةٍ، و﴿بَيِّنَةٗ﴾ بمعنى ظاهِرَة وواضِحَة، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ظَاهِرَةٌ، هِي آثارُ خَرابِهَا].

وفي سورةِ الصَّافاتِ قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨]، فكان العربُ يَمُرُّونَ على هَذِه القُرى ذاهِبينَ وعائدينَ إلى الشَّامِ، فيرونَ مِنْ آثارِ العَذابِ ما هو ظاهِرٌ لكنهم لا يسْتَفْسِرُونَ، ولهذا قال: [﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ يتدبرون].

قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ متعَلِّقَةٌ بـ﴿تَّرَكۡنَا﴾، ويجوزُ أن تكونَ متعَلِّقَةً بـ﴿بَيِّنَةٗ﴾، فيجوزُ أن يكون المعنى: بيِّنَةً للعَاقلينَ، ويجوزُ أن يكون المعنى تَرْكَنَاهَا للعاقِلِينَ.

وقوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ تَقَدَّمَ أن العقلَ ينقَسِمُ إلى قسمين: عَقْلٌ يُرادُ به الإدراكُ، وعَقْلٌ يرادُ به الرُّشْدُ، والعَقْلُ الذي يُرادُ به الإدراكُ هو مناطُ التَّكْليفِ، ولذا يقولُ الفقهاءُ: مِنْ شروطِ هذه العبادة التَّمْيِيزِ والعَقْلِ.

وعقلُ الرُّشْدِ هو مناطُ المدْحِ والذَّمِّ، يعني: الذي يُمْدَحُ عليه الإنسان ويُذَمُّ، وبه يكونُ الإنسانُ حسنَ التصرفِ، بحيثُ يعْقِلُه ما معه مِنَ الإِدْرَاكِ عما يَضُرُّهُ إلى ما يَنْفَعُهُ، وهو المرادُ في هذه الآية: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، فالمرادُ بِهِ عَقْلُ الرُّشْد.

وكذلك العَقْلُ الذي يُذْكَرُ في القرآنِ غالبًا ما يرادُ به عَقْل الرُّشد؛ لكن العقلَ الذي ذُكِرَ في كلامِ أهلِ العلم فمُرادُهُم به عقْلُ الإدراكِ.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَتَدَبَّرُونَ] في الحقيقة ليسَ تَفْسِيرًا مُطَابِقًا لِلَفْظِ؛ لأن التَّدَبُّـرَ سابقٌ على العَقلِ، فالإنسانُ يتَدَبَّرُ أولًا ويعـرفُ النافع من الضَّارِّ، ثم يَعْقلُ فيتَّبعُ ما ينْفَعُهُ ويدَعُ ما يَضُره.

قوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ مفهومُ الآية أنَّ من لا يَعْقِلون فإنهم لا ينتَفِعُونَ بالآيات ولا يتَّعِظُونَ بها، والآية إذا لم تَنْفَعْ فليست بآيةٍ لمن رآهَا وشاهدَهَا وسَمِعَ بها وبَلَغَتْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدَةُ الأُولَى: حِكْمَةُ الله بإبقاءِ آثارِ الآياتِ؛ لقولِهِ: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ﴾.

الفَائِدَةُ الثَّانِيَة: أنه لا ينْتَفِعُ بالآيات إلا ذَوُو العُقولِ؛ لقولِهِ: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾.

الفَائِدَةُ الثَّالِثَة: فائدَةُ العَقْلِ، فإذا أُوتِيَ الإنسانُ عَقْلًا فإن هذا من نِعْمَةِ الله عليه؛ لقولِهِ: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، فصاحبُ العَقْلِ ينتَفِعُ بالآيات التي تركَهَا الله عَزَّوَجَلَّ.

الآيـة (٣٦-٣٧)

• • ◦ • •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت:٣٦-٣٧].

• • ◦ • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وَأَرْسَلْنا إلى مَدْيَن]: فعلى هذا يكونُ قولُهُ: ﴿أَخَاهُمْ﴾ مفعُولًا لفعل محذوفٍ تقْديرُهُ: أَرْسَلْنا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَخَاهُمْ﴾ ولم يقلْ: أخوهم؛ لأنه اسمٌ من الأسماءِ الخَمْسَةِ -لأهل الآجُرُّوميَّةِ- أو من الأسماء الستة -لأهلِ الألْفِيَّةِ-.

قوله: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ الأخوة هنا ليست في الدِّينِ قَطْعًا؛ لأن الكُفَّارَ ليسوا بإخـوةٍ للمُؤمِنِينَ، وقال بعضُ الناس: إن الكافِرَ والمسلمَ أخوانِ في الإنسانِيَّةِ؛ لأن كُلَّهم بَشَرٌ.

وإذا نَظَرْنا إلى المسألة بعقْلٍ وبدونِ عاطِفَةٍ عَلِمْنا فسادَ هذا القول؛ لأننا حُدِّثْنا أن رَجُـلًا من أهلِ الخيرِ تكلم في مسجدٍ مِنَ المساجِدِ يَعِـظُ الناس ويقول: هؤلاء إخواننا في الإنسانية يعني: الكُفَّارَ، والجواب عن هذا قولُه عَزَّوَجَلَّ في سورةِ الممتحنة عن إبراهيم: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤]، فكيف تكونُ الأُخُوَّةُ وقد كفَرَ بهم وبَدَا بينه وبينهم العَداوةُ والبَغْضاءُ،

وأيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال:٥٥]، وأيضًا قال تعالى في سورة البيِّنَة عنهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦].

لو قال قائلٌ: ليس المرادُ الأُخُوَّةُ الإيمانية، إنما المرادُ بالأُخُوَّةِ التي تَتعلَّقُ بالناحية البشريةِ، يعني: مُطْلَقُ الموافَقَةِ والمشابَهَةِ؟

الجواب: نقول: هذا شُعَيبٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال الله في هذه الآية: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وقال في سُورَةِ الشُّعراءِ: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:١٧٦-١٧٧]، ولم يقل: أخوهم، قال أهلُ العلمِ: أن أصحابَ مَدْيَنَ كان شعيبٌ منهم، فهو أخوهم في النَّسَبِ، وأصحابُ الأَيْكَةِ ليس منهم في قَرْيَةٍ حولَ مَدْيَنَ أرسلَهُ الله إليها، ولو كانت الأُخُوَّةُ هي الأخوة الإنسانيةُ لكانَ يُقالُ في أصحابِ الأيكة أيضًا: إنه أَخُوهُمْ، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف:٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف:٧٣].

ثم إن الأُخُوَّةَ في اللغة العربية ليست مطلَقَ الموافَقَةِ في البشرية، إذا تَتَبَّعْنَاهَا وجدنا الأُخُوَّة إما في النَّسَبِ فيكونُ الأصل الجامع بينهما نَسَبًا، وإما أن يكونَ الأصلُ الجامِعُ هدفًا واحدًا يَسْعَى إليه الجميع، ومعلوم أن المسلِمَ والكافرَ مختلفانِ في الهدَفِ، ولا يمكن أن يكون أحدُهُما موافقًا للآخر.

والحاصل: أننا لا نوافِقُ على هذا القول مهما كان الأَمْرُ؛ لأن أي مُسلِمٍ يقول: هذا الكافِرُ أَخُوهُ، لا شك أنه سيَحْصُلُ له رِقَّةٌ ولِينٌ وموافقة، ويُسَهِّل ما في النفوس من بُغضِ الكفَّارِ، وكنا في السابق إذا قيل: نَصْرَانِيٌّ أو يهودي يتخوف الإنسانُ ويتهَيَّبُ، والآن صارت المسألة تَمُرُّ على القلب مُرورَ الماء البارِدِ، ولا يتأثر أحد إلا ما شاء الله، وهذا له خَطَرُه العظيم، نسأل الله السلامة.

لو قال قائلٌ: هل يجوزُ أن يقولَ المسلمُ للكافر: هذا قَرِينِي؟

الجواب: على المسلِمِ أن يتحَاشَى كُلَّ لفظٍ يَدُلُّ على الموافقَةِ للكَافِرِ، وعلى كُلِّ حالٍ القَرِينُ للإنسان الشيطانُ وهو عَدُوٌّ، لكن لفظَةُ (قرين) تَدُلُّ في الوقتِ الحاضِرِ على المصَاحَبَةِ والموافَقَةِ والمرافقة، فالأَوْلَى البعدُ عن كل لَفْظٍ يدل على الاتِّفاقِ مع هؤلاء.

وقوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، هل مَدْينُ اسمٌ للقبيلَةِ أم أنه اسمٌ للبَلَدِ؟

قال تعالى في آيةٍ أُخْرى: ﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾ [الحج: ٤٤]، ظاهِرُ هذه الآية أن المرادَ بها المكانُ، وأما قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، فهذا من بابِ إطلاقِ القَريَةِ وإرادَةِ الأَهْلِ، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص:٢٢]، فيُرادُ بها المكان مع أنها ليستْ بصَريحَةٍ؛ لأن الإنسانَ قد يتوَجَّهُ تلقاءَ القومِ، ويُحْتَمَلُ أن البلدَ سمِّيَتْ باسم القَبيلَةِ، وإذا قلنا بهذا يَخِفُّ الإشكال.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ (يا): حرفُ نِداءٍ، و(قوم): مُنَادَى منصوبٌ على النِّداءِ، وعلامة نَصبِهِ فتحةٌ مقدَّرَةٌ على ما قبل ياءِ المتكَلِّمِ المحذُوفَةِ لالتقاءِ الساكِنَيْنِ، منعَ من ظُهورها اشتِغالُ المَحِلِّ بحركةِ المناسَبَة، وفي قوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ من التَّلَطُّفِ ما هو ظاهر؛ لأن قومَ الرجلِ لا بُدَّ أن ينْصُروه ويَقْبَلُوا ما جاء بِهِ.

وقوله: ﴿ٱعْبُدُواْ﴾: أي تَذَلَّلُوا له بالطَّاعَةِ؛ لأن العبادَةَ مأخوذَةٌ مِنَ التذَلُّلِ، ومنه قولهم: طريقٌ معبَّدٌ أو مذَلَّلٌ للسَّالكِينَ، فالعبادُة هي التَّذَلُّلُ لله عَزَّوَجَلَّ بطاعَتِهِ، والطاعـةُ هي امتـثَالُ الأمرِ واجتنابُ النَّهْي عن الإطـلاقِ، أما إذا قَرَنتَ فقيـل: (طاعَةٌ ومَعْصِيَةٌ) صارت الطاعةُ في الأوامِرِ والمعْصِيَة في النَّواهِي.

وقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: أي: أَخْلِصُوا له العبادَةَ، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

فالمرادُ بالعبادَةِ هُنا: إخلاصُ العِبادَةِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقَال المُفَسِّر: [﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ اخشَوْه، هو يومَ القِيامَةِ]: الرجاءُ يُطْلَقُ على الطَّمَعِ في المحبوبِ في الأصلِ، ويُطْلَقُ الرجاءُ بمعنى الخَوفِ، فهو من بابِ الأضدادِ؛ لأن اللُّغَةَ العربيةَ فيها كَلِماتٌ تدُلُّ على المعنى وضِدِّهِ تُسَمَّى (الأضداد)، وأَلَّفَ علماءُ اللُّغةِ في هذا كُتُبًا، فتَجِدُ الكلِمَةَ الواحدةَ تَدُلُّ على المعنى وضِدِّهِ.

وهل الرجاءُ هنا بمعنى الخوفِ أو بمعنى الطمعِ في المحبوبِ؟

المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ حَمَلهَا على أن المرادَ بها الخوفُ، وذلك أن المقامَ مقامُ إنذارٍ، ويُحتَمل أن تكونَ بمعنى الطَّمَعِ في المحبوبِ؛ لأن اليومَ الآخِرَ فيه المحبوبُ وفيه المكرُوهُ، قال تعالى: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ۝١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [هود:١٠٥-١٠٨].

فلو قال قائلٌ: ألا يجوزُ أن نَحْمِلَهُ على المعْنَيينِ جَميعًا، أي: ارْجُوه خَوفًا من العقابِ وطَمَعًا في الثَّوابِ؟

الجواب: نعم، يجوزُ أن يكونَ شامِلًا للأمرين، والرَّاجِحُ عندي -وهو قولٌ لبعض العلماء- جوازُ استِعْمالِ المشتَرِكِ في مَعنَيين إذا لم يكن بينهما تَنافٍ.

وقولُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ هُو يومُ القِيامَةِ]: لأنه لا يومَ بعدَهُ إذ إن الناسَ لهم أربعُ مراحِلَ:

المرحلةُ الأولى: فِي البَطْنِ. والمرحلة الثانية: في الدُّنْيَا.

والمرحلة الثالثة: في القُبورِ.

والمرحلةُ الأخيرةُ: يومُ القيامةِ، ولهذا سُمِّيَ باليومِ الآخِرِ.

قولُهُ: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (لا تَعْثوا) أي: لا تُفْسِدُوا.

وإعرابُ ﴿مُفْسِدِينَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [حالٌ مؤَكِّدَةٌ لعامِلِها من عَثِيَ بكَسْرِ المُثَلَّثَةِ، أي: أفْسَدَ]، ومعنى قولِ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: حالٌ مؤكِّدَةٌ له، أي: بمعناه: وهذا التأْكِيدُ معنَوِيٌّ لأنه ليس من مادَّةِ الفِعلِ.

يقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِنْ عَثِيَ بكسرِ المثلَّثَةِ: أفسَدَ]: يقال: عَثِيَ يَعْثَى كفَرِحَ يَفْرَحُ، وأبواب التَّصْريفِ سِتَّةٌ منها: فَعِلَ يفْعَلُ كرَضِي يَرْضَى، ويجوز أن تكونَ من باب فَعَلَ يفْعُلُ كعَثَا يَعْثُو، وكلاهما بمعنى أفْسَدَ.

قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (لا): ناهية، ولهذا جُزِمُ الفِعلُ بحذفِ النُّونِ.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾ هلِ المرادُ الإفسادُ الحِسِّيُّ كهدْمِ البِناءِ وإفْسادِ الأنهارِ وقَطْعِ الأشجارِ ونحو ذلك، أو أنَّ المرادَ الإفسادُ المعْنَوِيُّ، أو كلاهما؟

المرادُ: كلاهما، فالإفسادُ في الأرضِ يشْمَلُ الإفسادَ بالمعَاصِي، ويشْمَلُ الإفسادَ الحِسِّيَّ المادِّي، والدليلُ على هذا أن النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نهى عَنْ إضاعَةِ المالِ[1]، وروى أبو داودَ أن الصَّحَابَة كانوا مع النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فنزلوا أرْضًا فنهاهُمْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يكره من قيل وقال، رقم (٦١٠٨)؛ ومسلم: كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة...، رقم (٥٩٣) عن المغيرة بن شعبة، مسلم بلفظ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ وَوَأْدَ الْبَنَاتِ وَمَنْعًا وَهَاتِ وَكَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ».

عن قطعِ أشجَارِها؛ لأنها للاستغلال، فقَطْعُها إفساد لها.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ كانت مقابَلَةُ هؤلاء القومِ لهذه الدَّعْوَةِ التي تدْعُو إلى الخيرِ في قولِهِ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ وتَنْهَى عَنِ الشَّرِّ في قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ كان جوابُهم وردُّهم قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ مع أن التَّكذِيبَ إنما يكونُ في الخبَرِ، وشُعيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾، وقال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، وكلُّ هذه الجُمَلِ الثلاثِ إنشائيَّةٌ وليستْ خبَرِيَّةً، وكان مقتَضَى الظاهِرِ أن يقولَ: فعَصَوْه، وهنا قال: فكذَّبُوه.

الجواب: يقال: إنه قال لهم هذه الأوامرَ باعتبارِهِ رَسُولًا من عندِ اللهِ فكذَّبُوه، أي: بدَعْوى الرِّسالَةِ، وهذا أبلَغُ مِنَ العِصيانِ؛ لأنهم أنكَرُوا رسالَتَهُ رأسًا، فلم يُقِرُّوا بالرسالة، ثم يقولوا بعد ذلك: إننا نَعْصِيكَ في هذه الأوامِرِ، فكان هذا أبلغَ من قولِهِ: فعصوه.

قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ (الفاء) يُحتَمَلُ أن تكونَ للتَّعْقِيبِ أو للسببية، فإن قلنا: إنها للتَّعْقِيبِ؛ فهو دَليلٌ على أنه بمجرَّدِ تكذِيبِهم عُوقِبُوا، وإن قلنا: للسَّبَبِيَّةِ، فإنه لا يلزم من ذلك أن تكونَ عُقوبتُهم قريبَةً مِنْ تَكْذِيبِهم؛ لأنه يحتمل أن الله أمْهَلَهُمْ بعد التكذيبِ ثم أخذتَهْمُ الرَّجْفَةُ؛ على أننا إذا جعلناها للسَّبَبِيَّةِ لا تُنَافي أو لا تمْنَعُ أن تكونَ العُقوبَةَ مباشِرَةً، وعلى هذا فنقول: إن الأَوْلى أن تكونَ للسَّبَبِيَّةِ لوجُوهٍ ثلاثَةٍ:

الوجه الأول: دَلالَتُها على حكمة العُقوبةِ وهي التَّكْذِيبُ.

الوجه الثاني: أنها أوْسَعُ دَلالَةً من أن تكونَ الفاءُ للتَّرْتِيبِ؛ لأنها تَشْمَلُ ما أَعْقَبَ التكذِيبَ وما تأَخَّرَ عنه.

الوجهُ الثالثُ: أننا نسْلَم مِنْ دَعْوى أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يُمْهِلْهُمْ وليس عندنا عِلْمٌ بذلك.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ أبلغُ من قوله: أصَابتْهم؛ لأن الأخذَ دِليلٌ على أنه لا هَوادَةَ فيه وأنَّه مُدَمِّرٌ.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزَّلْزلَةُ الشَّدِيدَةُ]: وفي سورة هودٍ أخذَتْهُم الصَّيْحَةُ، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود:٩٤-٩٥]، ولا تَنافي بينهما لإمكان اجتماعِهما، إذ يكونُ العذابُ بالصَّوتِ، أي: بالصَّيْحَةِ، ثم رجَفتْ بهم الأرْضُ، فيكون العذابُ بالأمرين جميعًا.

قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ (الفاء) نقول: إنها عاطِفَةٌ، ويجوز أن تكون سَبَبِيَّةً.

وقوله: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ بالنَّصْبِ خبرُ (أصبح).

في هذه الآية قال: ﴿فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، وفي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿دِيَٰرِهِمْ﴾، ولا منافاةَ، وذلك لأن (دارَ) مُفردٌ مضافٌ والمفردُ المضافُ يَعُمُّ، ومثالُهُ من القرآنِ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، ﴿نِعْمَتَ﴾ مفردٌ، ودَليلُ إفادَتِها العموم قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ وكذلك الجمعُ في قولِه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟﴾.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: [﴿جَٰثِمِينَ﴾ بارِكِينَ عَلى الرُّكبِ مَيِّتِينَ]: فلِشِدَّة ما نزلَ بهم بَرَكُوا على رُكَبِهِمْ، ثم هَمَدوا وصارُوا جاثِمِينَ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفَائِدةُ الأُولَى: إثباتُ رَحْمةِ اللهِ وحِكْمتِهِ بإرسالِ الرُّسلِ، أما الرَّحمة فظاهِرةٌ؛ لأنه لا يمكِنُ للعبادِ أن ينتَفِعُوا بعقولهم في التَّعَبُّدِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا يقولُ العلماءُ: العباداتُ توقِيفِيَّةٌ، وأما الحِكمةُ فلئَلَّا يكونَ للنَّاسِ على اللهِ حُجَّةٌ بعدَ الرُّسُلِ.

الفَائِدة الثَّانية: أن النبيَّ غالِبًا يكونُ من قومِهِ، وجه ذلك: لأنَّ الأنبياءَ الذين ذُكروا في القرآنِ كان التَّعْبيرُ القُرآنِيُّ عنهم بقولِهِ: ﴿أَخَاهُمْ﴾، والمرادُ أُخُوَّةُ النَّسَبِ لا الأخوةَ الإيمانيَّةَ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أن الرسولَ ينْبَغِي أن يكونَ مَعروفًا بينَ قومِهِ لأجلِ أن يُسَاعِدُوه ويُعِينُوه ولا يُكَذِّبُوه.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: وجوبُ العِبادَةِ لقولِهِ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾.

الفَائِدة الخَامِسة: وجـوبُ الاستِعدادِ لليومِ الآخِـرِ، لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾.

الفَائِدة السَّادسَة: إثباتُ اليومِ الآخِرِ.

الفَائِدة السَّابِعة: تحريمُ الإفسادِ في الأرضِ؛ لقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، والأصلُ في النَّهْي التَّحْرِيمُ.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: أن الشرائـعَ تجْمَعُ بينَ الأمْرينِ الإيجـابِيِّ والسَّلْبِيِّ: الإيجـابيُّ بالأوامـرِ والسلبِيُّ بالنَّواهِي، يعني أن الشرائعَ أفعـالٌ وتُروكٌ ولا يُصْلِحُ العبـاد إلا هذا؛ لأن الإنسانَ قد تناسِبُه الأوامرُ ولا تناسِبُه النَّواهِي، وقد يكون العَكْسُ، فجمعَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في شرائعِهِ بينَ الأمرِ والنَّهي.

الفَائِدَةُ التَّاسِعة: تحريمُ الإفسادِ في الأرضِ: الإفسادِ المعْنَوِيِّ بالمعاصي، والحِسِّي بالتَّدْميرِ والإتْلافِ.

الفَائِدَةُ الْعاشِرَة: بيانُ ما يُعانِيهِ الرُّسلُ -عليهم الصلاة والسلام- من أقوامِهِمْ، لقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، ولا رَيبَ أن تَكْذِيبَ الإنسانِ الذي على حَقٍّ يبلُغُ في نفسِهِ كُلَّ مبْلَغٍ؛ لأن الرسولَ معه الحقُّ والآياتُ، وجاء لمصْلحَةِ الخَلقِ ثم يُكَذِّبونَهُ، هذا أمر ليس بهيِّنٍ على النَّفْسِ.

الفَائِدَةُ الحَادِيةَ عشْرَةَ: تَسْلِيَةُ الدُّعاةِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ إذا عُورِضُوا في دَعوتِهِمْ، وجه ذلك: أن الرُّسُل كُذِّبوا فهُم من بابِ أَوْلَى، ولهذا يُسَلِّي الله النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بمِثْلِ هذا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران:١٨٤]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ [الأنعام:٣٤]، فالداعِي إلى الله لا يَنْبَغِي أن يأْنَفَ مِنَ أن يُكذَّب، فإن هذا هو طريقُ الرُّسُلِ -عليهم الصلاة والسلام- وأتباعِهِم سيكونُون مثلَهُم.

الفَائِدَةُ الثانيةَ عشْرَةَ: التَّعْجِيلُ بالعُقوبَةِ للمكذِّبِ، هذا إذا قلنا: إن الفاءَ في قولِهِ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ عاطِفَةٌ، أما إذا قلنا: إنها سبَبِيَّةٌ فلا دَلالَةَ فيها؛ لأن المسببَ قد يتَأَخَّرُ عن السبب.

الفَائِدَةُ الثالثةَ عشرةَ: حكمة الله عَزَّوَجَلَّ في عُقوبَةِ المكذِّبينَ لرُسُلِهِ.

الفَائِدَةُ الرابعةَ عشرةَ: أن العُقوبَةَ ليستْ جَورًا ولا ظُلْمًا؛ لأن الله تعالى مُنَزَّهٌ عن الظُّلْمِ، فلولا أن هؤلاء يُعاقَبُون بحقٍّ ما عاقَبَهُمْ.

الفَائِدَةُ الخامسةَ عشرةَ: قُدْرَةُ اللهِ لقولِهِ: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾،

وهم قَبيلةٌ كَبيرَةٌ أبادَهُم الله في لحظَةٍ، وهذا دليل على قُدرتِهِ وأنه إذا أرادَ شيئًا فإنما يقولُ له: كن فيكون.

الفَائِدة السادسةَ عشرةَ: أن الملاجِئَ لا تنْفَعُ مِنَ اللهِ، لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِى دَارِهِمْ﴾ فالدارُ ملجأٌ للإنسانِ يلْجَأُ إليها من عَدُوِّهِ، لكن بالنِّسْبَةِ إلى الله لا تنْفَعُ، ولهذا قالَ: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ﴾.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٣٨)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٨].

قال المُفَسِّر: [﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ (و) أهْلَكْنا ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ بالصَّرْفِ وتَرْكِهِ، بمَعْنَى: الحَيِّ والقَبِيلَةِ]: والصرفُ هو التَّنْوِينِ، قال ابن مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

الصَّـرْفُ تَـنْـوِينٌ أَتَـى مُبَـيِّـنَـا   مَعْنًـى بِـهِ يَكُـونُ الاسْـمُ أَمْكَـنَـا

فيجوزُ صرفُ ثمودَ ويجوز تركُ الصَّرْفِ، وهما قراءتانِ في (ثمود) فالصَّرْفُ باعتبارِ الحَيِّ وهو مذكر، وعدمُ الصَّرفِ باعتبارِ القَبيلَةِ وهي مؤنثة، فعليه إذا قلنا: (ثمود) بدون صرْفٍ نقول: معطوف على عاد، والمعطوف على المنصوبِ منصوبٌ، ولم يُنوَّن لأنه لا ينْصَرِفُ، والمانعُ مِنَ الصَّرف العَلَمِيَّةُ والتأنيثُ، باعتبارِهِ عَلَمًا على قَبيلةٍ، وإذا قلنا: إنه مصروفٌ فيكونُ مَعْطُوفًا أيضًا على عادٍ، والمعطوفُ على المنصوبِ منصوبٌ، ونوِّن لأنه مذكر باعتبار الحَيِّ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ مفعولانِ لِفِعْلٍ محذوفٍ تَقْديرُهُ: [أهْلَكْنا عادًا وثمودًا]، وعادٌ مَحِلُّهم بالأحقافِ، لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ

(١) الألفية البيت رقم (٦٤٩).

إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١]، وثمودُ قومُ صالحٍ جِهة ثمود، معروفة إلى الآن.

وقوله: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾، أي: ظَهَرَ لكُمْ، والخِطابُ لقُرَيْشٍ؛ لأنهم تَبيَّنَ لهم هذا ويعْرفُونَهُ.

وقوله: ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ على تقديرِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تكون سَبَبِيَّةً، أي: تبينَ لكُمْ إهلاكُنا إياهم بسببِ رؤْيتِكُمْ مساكِنَهُمْ؛ لكن: أفلا يجوز أن نجعل (مِن) للتَّبعِيض، ويكون المعنى: تبيَّنَ لكم من مساكنِهِمْ، أي: بعضَ مساكنِهِمْ، لكني ما رأيت أحدًا أعرْبها هذا الإعراب، أي: تبيَّن لكم بعضَ، والبعض قد زَال، فإن المشاهد الآن بعضُ هذه المساكِنِ والآثارِ.

أما على تَقْدِيرِ المُفَسِّر فإن فاعِلَ ﴿تَّبَيَّنَ﴾ مستَتِرٌ والتقدير: إهلاكُهُمْ.

بالنسبة للفاعل: هل نقول: الفاعلُ محذوفٌ أو مُسْتَتِرٌ؟

قالوا: الفاعلُ محذُوفٌ لأنه لا يُمْكِنُ تَقْدِيرُهُ في هذا الموضِعِ، أما إذا كان يمكنُ تقْدِيرُهُ فإنه يقال: مُسْتَتِرٌ، والمحذوفُ قد يكون عُمدَةً وقد يكون فَضْلَةً، والمؤلف كلامُهُ يوهِمُ بأنه محذوفٌ، ولو قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ﴾، أي: إهْلاكُهم، وجَعَلها مُفَسِّرَةً للمحْذُوفِ لكان أوْلَى.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ مسَاكِنِهِمْ بالحِجْرِ واليمَنِ] هذا لَفٌّ ونشْرٌ مشَوَّشٌ وليس مرَتَّبًا؛ لأن الحِجرَ يعودُ على ثمودَ، وهو متأخِّرٌ في القرآنِ، واليمنُ يعودُ على عادٍ، ومثل هذا لا ينْبغي؛ لأن الجاهلَ الذي لا يَدْرِي عن مكانهم يقول: الحِجْرُ لعَادٍ، اليمنُ لثمودَ.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ هذا على تقدير (قد)، يعني: وقد زَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من الكُفْرِ والمعاصِي].

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ﴾ بمعنى: حسَّن وجمَّل، فحَسَّنَ لهم -والعياذ بالله- الأعمالَ مِن الشركِ والمعَاصِي، وقال: إن هذه الأصنامَ تُقَرِّبُكُم إلى الخالقِ، قال تعالى في شأنِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، ثم إنَّكُم تَرْجُونها وتَدْعُونها فيحصلُ لكم المقصودُ؛ لأنَّ الله تعالى قد يَبْتَلِي العابِدين فيحصُلُ مقْصُودُهُم عند هذا الشيء لا بِهِ.

الآن نقول: عندَهُ لا بِهِ، فقد يَدْعُو المشركُ الصنَمَ أو النَّبِيَّ أو ملِكًا من الملائكةِ فيُقَدِّرُ الله ابتلاءً وامتحانًا أن يكونَ هذا السبب عندَ دُعائه لَهُ، نحن المؤمنين نعلم أنه ما حصل به لكن حَصَلَ عِنْدَهُ، وقد يُبتَلَى الإنسان بالامتحانِ بالمعْصِيَةِ وتُسَهَّلُ له وتُزَيَّنُ، وقد امتحنَ الله اليهودَ بالحِيتانِ تأتي يومَ السبت ولا تأتِي غيرَهُ.

وابتَلَى الله الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بالصَّيْدِ تنالُه أيدِيهم ورِمَاحُهم وهم مُحْرِمُونَ.

وأيضًا قال النَّبِيُّ ﷺ في رَجُلٍ دَعَتْه امرأةٌ ذاتُ منْصِبٍ وجَمالٍ فقال: «إِنِّي أَخَافُ اللهَ»(١)؛ لأنه لا يوجد عندَها أحَدٌ، لو كان عندهما أحدٌ لقال: إني أخاف الناسَ، لكنه قال: إني أخافُ الله.

والحاصل: أن الشيطانَ يُزَيِّنُ الشِّركَ وكذلك يُزَيِّنُ المعاصي للإنسان، ويقول: اعْمَلْ والرَّب غَفور رحيمٌ، ثم تَتُوبُ، الدنيا أمامَكَ، إذا لم يتِمَّ لك أربعون سنة فإن الصلواتِ لا تَجِبُ عليك، وكذلك الصيامُ، فإذا بلغت أشدك فحينئذ تَجِبُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب فضل من ترك الفواحش، رقم (٦٤٢١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١).

عليكَ الصلاةُ والصيامُ، هذا موجود الآن عند بعض المسلمينَ الجهالِ.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الشيطانُ قِيلَ: مِنْ (شطن) أي: بَعُدَ عن رحْمَةِ اللهِ، فيكونُ وزنُهُ فَيْعَال، وقيل: من شاطَ فيكون وَزْنُهُ فَعلان، والأقربُ أنه من شَطَنَ إذا بَعُدَ، والشيطانُ مَصروفٌ وليسَ ممنوعًا من الصَّرْفِ لأنه مُنكَّر؛ لأن الذي يُمْنع مِنَ الصرفِ لا بد أن يكونَ وَصْفًا أو عَلَمًا مع زيادة الألف والنون، والشيطان ليس بِعَلَمٍ، لكن قد يرادُ به الجِنسُ كما في قوله ﷺ: «الْكَلْبُ الأَسْوَدُ شَيطَانٌ»(١).

ولذلك يقولُ الفقهاءُ -رحمهم الله تعالى-: «لا يجوزُ تَأْخِيرُ القَضَاءِ إلى رَمَضانٍ آخَرَ» (رمضانٍ) بالتنوين لأنه نكرة.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ هنا أضافَ التَّزْيينَ إلى الشيطانِ، وفي آية أُخرى أضافَ التَّزْيينَ إلى نفسه عَزَّوَجَلَّ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل:٤]، فالجمعُ بين الآيتين: أن الإضافةَ باعتبارِ السَّببِ وباعتبارِ الفاعِلِ الحقيقي، فالفاعل الحقيقيُّ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن كلَّ شيءٍ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ، والسبب هو الشيطانُ، وأضيفَ التَّزْيينُ إليه لأنه مباشِرٌ له، فيضافُ إلى الله تعالى خَلْقًا وتقديرًا، ويضاف إلى الشيطانِ على سبيل المبَاشَرَةِ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: صَرَفهُم، وهذا مِنِ استِعْمالِ الفِعلِ (صَدَّ) متعديًا؛ لأنه يكونُ لازِمًا ومتَعَدِّيًا، فإذا قلت: (صدَّ الرَّجُلُ عن سبيلِ اللهِ فَضَلَّ)، هذا لازمٌ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب قدر ما يستر المصلي، رقم (٥١٠).

وأما ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هنا الفِعْلُ متعدٍّ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء:٦١]، ﴿صُدُودًا﴾ مصدرٌ على وَزنِ فَعُولٍ، فصدَّ هنا لازمٌ، قال ابنُ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

وفَعَلَ اللازمُ مِثْلُ قَعَدَا ... لَهُ فُعُولٌ بِاطِّرادٍ كَغَدَا

يعني: (فَعَلَ) اللازم مَصْدَرُهُ فعولٌ، صَدَّ... صُدُودًا.

وأما (صَدَّ) المتعدِّي فمصدَرُهُ (صدًّا) لقولِ ابنِ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَعْلٌ قياسُ مَصْدَرِ المُعَدَّى ... مِنْ ذِي ثَلَاثَةٍ كَرَدَّ رَدَّا(٢)

وأما قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد:١]، هل هِي لازِمَةٌ أو متَعَدِّيَةٌ؟ الأقرب أنها متَعَدِّيَةٌ لأنهم صدُّوا عن سبيلِ الله غيرَهُم.

وقوله: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (ال) في ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ للعَهْدِ الذِّهْنِي المعلومِ، وهو سبيلُ الحَقِّ، ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سَبيلُ الحقِّ]، وهو سبيلُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وسُمِّي سبيلُ الله لأنه يوَصِّلُ إليه، ولأنه هو الذي وضَعَهُ لعبادِهِ كما في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٣]، وقد يُضافُ إلى المؤمنين كقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١١٥]، فأضافَهُ للمُؤمِنينَ لأنهم هم المنْتَفِعُونَ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ ذَوِي بَصائِر]، يعني: أن الله عَزَّوَجَلَّ

(١) الألفية البيت رقم (٤٤٢).
(٢) الألفية البيت رقم (٤٤٠).

أعطاهم مِنَ العُقولِ والبَصائرِ ما يُمَكِّنُهم الاهتداءَ بِه، وقد ذَكَر الله ذلك في قومِ صالحٍ فقالَ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، كان عندهم بصَائرُ وعندَهُم عِلم لكِنَّهُم كانوا مسْتكْبِرينَ -والعياذ بالله-، فهم يَصُدُّونَ عن سبيلِ اللهِ مع أن الله أعْطاهُم مَا يتمَكَّنُونَ به من مُدافَعَةِ الشيطانِ، ولكن غُلِبُوا على أمْرِهِمْ بما زَيَّن لهم الشيطانُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: ينبْغِي الاعتبارُ بأحوالِ مَنْ مَضَى، لقولِهِ: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ يعني: فاعْتَبِرُوا واتَّعِظُوا.

الفَائِدةُ الثَّانية: بيانُ قُدْرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن عَادًا مِنْ أقْوى عِبادِ اللهِ حتَّى إنهم قَالُوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، ومع ذلك أهْلَكَهُم اللهُ بالرِّيحِ التي هي مِنْ ألطفِ الأشياءِ، فدَلَّ هذا على كَمالِ قُدرة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنهم مَهْما بلَغَ الناسُ مِنَ القُوَّةِ فليست قوَّتُهم بشيءٍ بالنِّسْبَةِ إلى قوَّةِ اللهِ.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: أن الشيطان قد يُسَلَّطُ على بَنِي آدَمَ، لقولِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: التَّحْذِيرُ من تَزْيين الأعمالِ، ويُفْهَمُ من قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أن هذِه الأعمالَ أصلُها قَبيحٌ لكنَّها زُيِّنَتْ، فيَجِبُ الحذَرُ من تَزْيينِ الشيطانِ.

لو قال قائل: ما هو الضابطُ في تَزْيينِ الشَّيطانِ، قد أهْوى هذا العملَ ويُزَيَّنُ في نَفْسي فأفعلُه ولا أدْري هل هو من تَزْيين الشيطانِ أو من هِدايةِ الله عَزَّوَجَلَّ؟

فالضابِطُ: إذا كانَ العملُ على خِلافِ شريعَةِ اللهِ فهو من تَزْيينِ الشيطانِ، وإن كانَ مُوافِقًا لشريعة الله عَزَّوَجَلَّ فهو من هِدَايَةِ الله وليس من تَزْيينِ الشيطان.

الفَائِدةُ الخامِسة: الردُّ على الجبْرِيَّةِ في نسبةِ الأعمالِ إلى الخلْقِ، فإذا نُسِب العملَ إليهم فمعنى ذلك أنَّهُم فاعلُون حقِيقَة.

الفَائِدةُ السَّادسَة: أن الأعمالَ السَّيِّئة قد تكون سببًا لضلالِ العَبدِ؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، ولا ريب في ذلك، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٣]، فالأعمالُ السيئةُ يَجُرُّ بَعْضُها بعضًا حتى يَعْمَى الإنسان -والعياذ بالله- عن الحقِّ بسببِ مَعْصِيَتِهِ.

الفَائِدةُ السَّابِعةُ: بشاعَةُ الصَدِّ عن سبيلِ الله مع البَصِيرَةِ لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾، فإن الجملةَ هنا حالِّيَّةٌ على تقديرِ (قَدْ)، يعني: فصَدُّوهُم وقد كانوا مستَبْصِرينَ، والمسْتَبْصِرُ كان بصددِ أن لا يُصَدَّ لكن قوةَ السبب وضعفَ المانع هو الذي أوجب لهم ذلك -والعياذ بالله-.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: أن المخاطب قد يحالُ على ما يَفْهَمُه ذِهْنُه مِن دَلالَة الخطابِ لقوله: ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾.

فلو قال قائل: في الآيةِ إبهامٌ في قولِهِ: ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ لا نَدْرِي أيَّ سبيلٍ؟

قلنا: لا إبهامَ ما دامَ هناكَ شيءٌ معْهُودٌ للمُخاطَبِ؛ لأن (ال) في ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ للعَهْدِ الذِّهْنِيِّ.

• • ۞ • •

الآية (٣٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت:٣٩].

قَال المُفَسِّر: [وأهْلَكْنَا ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ﴾]: وهـذا التقديرُ باعتبارِ السِّياقِ يعني: أن السِّيـاقَ يَدُلُّ على أن هناكَ شَيـئًا مُقَدَّرًا وهو (أهْلَكْنا).

قوله: ﴿وَقَـٰرُونَ﴾: رجلٌ تاجرٌ من بَنِي إسرائيلَ، ولكنه كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: بَغَى، وقد أعْطَاهُ اللهُ مَالًا عَظِيمًا حتى إن مفاتِحَهُ تَثْقُل على العَصَبةِ، أي: الجماعةِ مِنَ الناس، هذه المفاتِحُ مفاتِحُ الخزائنِ، ولهذا مَا آمن بموسى، اغترَّ بماله -والعياذُ بالله- فلم يُؤمِنْ بِربِّهِ.

وقوله: ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾: معروفٌ، هو ملكُ مِصْرَ الَّذِي ادَّعى أنه الرَّبُّ، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤].

وقوله: ﴿وَهَـٰمَـٰنَ﴾: وَزِيرُه، وإنما قدَّم قارونَ لعُلُوِّ نسبه؛ لأن بني إسرائيلَ أشرفُ من الأقْباطِ، وقدَّمَ فِرعون على هامَان لعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِ، وليس هذا الترتيبِ من بابِ البداءةِ بالأَدْنَى؛ لأنه لو كان كذلك لقال: قارونُ وهامانُ وفرعونُ.

وقـارون وفرعون وهامـان كلها لا تَنْصَرِفُ، والمـانع من الصَّرْفِ العَلَمِيَّةُ والعُجْمَةُ.

قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾ الجملَةُ مؤكَّدة بثلاثِ مُؤَكِّداتٍ، وهي: القَسَمُ المقدَّرُ، واللامُ، وقَدْ، ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ﴾ من قَبْلِ الهلاكِ، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، (الباء) هنا للمصَاحبَةِ، يعني: أتاهُمْ إتْيانًا مَصْحوبًا بالْبَيِّنَاتِ؛ لأن الله تعالى لا يُرْسِلُ رَسُولًا إلا أعْطاهُ من الآيات ما يؤمِنُ على مِثْلِه البَشَرُ[1]؛ لأن الحِكْمَةَ والرَّحْمَةَ تقْتَضِي هذا، إذ ليس مِنَ الحكمةِ أن يُرسَل رسولٌ من البشَرِ إلى الناس ويقول: إني رَسولٌ بِدُونِ بَيِّنَةٍ، فلا بُدَّ من بَيِّنَةٍ، أي: آية واضِحة تدُلُّ على أنه رسولُ، ولهذا قال: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: بالآياتِ البَيِّناتِ والحُجَجِ الظاهرات، منها العَصَا ومنها اليدُ، وكذلك السُّنُونَ التي أخَذُوا بِهَا، ولكن مع هذا لم ينْتَفِعُوا، نسألُ اللهَ العافيةَ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: (استكبروا): بمعنى تكبَّرُوا وعَلَوْا وارتفعـوا على الحقِّ ولم يَقْبَلُوا، ونَاظَر موسى فِرعَونَ وهدَّده حتى وصل الأمْرُ إلى أن قال: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ فَائِتِينَ عَذَابَنا]، يعني: ما كانوا سباقِينَ لنَا فلم يَسْبِقُونَا، والسَّبْـقُ بمعنى الفواتِ، فإذا قلت: سابَقْتُ إنْسانًا وسَبـقَكَ، أي: فاتك وعَجَزْتَ عنه، هؤلاءِ مع استكْبَارِهِمْ وعظَمتِهِمْ وعُلُوِّهِم ما سبقوا الله عَزَّوَجَلَّ أبَدًا.

لو قالَ قائلٌ: ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾، هل يؤخذُ منه أن غَيرَهُمْ سبقَهُم إلى هذا العملِ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل، رقم (٤٦٩٦)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ..، رقم (١٥٢)، عن أبي هريرة، واللفظ لمسلم: «مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنْ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ».

الجواب: لا يصِحُّ، فليس المراد أنهم سابِقونَ، أي: متقَدِّمونَ في الزَّمنِ، بل المرادُ كانوا سابقينَ في الأرض.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: ذَمُّ هؤلاءِ الثلاثة: قارونَ وفرعونَ وهامانَ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أن سببَ الطُّغيانِ قد يكونُ المالُ وقد يكونُ الجاهُ والرئاسةُ، فقَارونُ سببُ طُغيانِه المالُ، وفرْعونُ وهامان الجاهُ والرئاسةُ، وهذان السببان هما سببُ استكِبْارِ الإنسان عن طاعَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: إثباتُ رسالة مُوسَى ﷺ؛ لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

الفَائِدة الرَّابِعة: أن موسَى رسولٌ إلى فِرعونَ وإلى بَنِي إسرائيل.

لو قالَ قائل: فرعونُ ليس مِنْ بَنِي إسرائيلَ، وأرسلَ إليه مُوسى، بل أصلُ رِسالةِ مُوسى إلى فرعونَ، فكيف نجْمَعُ بين هذا وبين قولِ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»(١)، وقوم موسى هم بنو إسرائيلَ ومُوسَى أُرْسِلَ إلى فرعون وإلى بني إسرائيل؟

فالجواب من أحدِ وجهين:

الوجهُ الأَوَّلُ: أن قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً**»، هذا باعتبار الأكثرِ والأعَمِّ، ونقول: دَلَّ الدليلُ على أن مُوسى بُعِثَ إلى فرعون

(١) أخرجه البخاري بلفظه: في بداية كتاب التيمم، رقم (٣٢٨)؛ ومسلم: في بداية كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢١).

وإلى بني إسرائيل، كما دَلَّ الدَّلِيـلُ على أن شُعَيبًا أُرْسِلَ إلى قومِهِ وإلى أصحاب الأَيْكَةِ، ولهـذا لم يأتِ التعبيرُ القرآنِيُّ بقولِهِ: ﴿أَخَاهُمْ﴾ كما عبَّر عن قومِـهِ فهذا العمومُ مخصوصٌ.

وهذا جوابٌ ليسَ فِيه تكَلُّفٌ.

الوجه الثاني: يُمْكِنُ أن نقـولَ: الرسالةُ إلى فِرعونَ، ولا يُمكِنُ الوصول إلى بَنِي إسرائيلَ واستقلالِ الدَّعوةِ فيهِمْ وأن يَقُوموا بِوَاجِبِ الرِّسَالَةِ واتِّبَاعِ موسى إلا بعدَ أن يُسْلِمَ فِرعونُ، ولذلك ما كان لهم دَولة وسُلطة إلا بعدَ أن أَهْلَكَ الله فِرعونَ فتكونُ رِسَالتُهُ إلى فرعـونَ من بابِ الوَسائلِ إلى المقْـصُودِ، وكلُّ الأقباطِ الذين كانوا تحـتَ وِلايَةِ فِرعونَ دَاخِلُونَ في دَعْوةِ مُوسى؛ لأنه بالضَّرُورةِ إذا آمن فِرعونُ فسيؤمِنُون؛ لأنه له السَّيطَرةُ عليهم.

الفَائِدةُ الخامِسةُ: أن الرُّسُلَ مُؤَيَّدُونَ بالآياتِ البيِّناتِ لقولِهِ: ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾، وثبتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قَالَ: «**مَا مِنَ الأَنْبياءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ**»[(١)].

الفَائِدةُ السَّادسَة: إثباتُ الرَّحمةِ والحِكمةِ في آياتِ الأَنْبياءِ؛ لأنَّ الآياتِ التي مع الرُّسُلِ هي رَحمةٌ بالخَلْقِ، ولأجلِ أن تكونَ سَبَبًا لاهتِدَائهم، فالآياتُ وسيلَةٌ إلى الهِدَايةِ وحِكْمَةٌ لإقامَةِ الحُجَّةِ عليهم، حتى لا يقولَ قائلٌ: إن هذا الرسولَ ما آتانا بآيَةٍ فيُكَذِّبُوه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل، رقم (٤٦٩٦)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ...، رقم (١٥٢)، عن أبي هريرة، واللفظ لمسلم: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر».

الفَائِدةُ السَّابِعةُ: بشاعَةُ كُفرِ هؤلاء الثلاثةِ قَارون وفِرعون وهَامان، وذلك بالاسْتِكْبَارِ عن الحقِّ والإعراضِ عنه لقولِهِ: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: كمالُ قَدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حيث لا يَفُوتُه أحَدٌ من خَلقِهِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾، فمع عَظَمَتِهِمْ وكِبْريائِهِمْ وأموالِهم لا يَسْبِقُونَ الله، وهذا تَحقيقُ قولِهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في أذكار الصلاة: «وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»[1]، فإنَّ الإنسانَ مهما عَظُمَ وكَثُر أتباعُهُ وجنُودُه لا تَنْفَعُه عَظَمتُهُ ولا كَثْرَتُهُ.

•●۞●•

(١) أخرجه البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب من لم ير رد السلام على الإمام...، رقم (٨٠٨)؛ ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (٥٩٣).

الآيـة (٤٠)

• • ● • •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

• • ● • •

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَكُلًّا﴾ مِنَ المذْكُورِينَ ﴿أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ﴾].

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قدَّرَ ﴿فَكُلًّا﴾ بالتَّنوينِ، والأصلُ أن يُقَدَّرَ (فكُلَّ أَحدٍ)، لكنَّ المُفَسِّر منعه مِنْ تقديرِ (أحد) أن (كُلًّا) منونَّةٌ، وهو لا يجبُ أن يُغَيَّرُ لفظُ القرآن، ولهذا قال [مِنَ المذكورين].

والتنوين في (كلًّا) يقول النحويون: إنه تَنوينُ عِوضٍ عن كَلمَةٍ، والتقديرُ: (فكلُّ أحَدٍ)، والتنوين قد يكونُ عِوضًا عن كلمة كهذه الآيةِ، وقد يكون عِوضًا عَنْ حرف في نَحْو: (جوارٍ وغواشٍ)، وقد يكون عِوضًا عن جُملةٍ وهو اللاحِقُ لـ(إذ) عوضًا عن جملة كَما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة:٨٤]، التقدير: (وأنتم حِينئذِ بلغَتِ الرُّوحُ الحلقومَ تَنظُرونَ)، ومثاله أيضًا قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم:١٤]، التقدير: (ويومئذٍ تَقومُ السَّاعةُ).

قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ﴾ يعني: كُلًّا من هؤلاء أَخذَه الله عَزَّوَجَلَّ بذنْبِهِ، والباء في قوله: ﴿بِذَنبِهِۦ﴾ تكون سَبَبِيَّةً وللمعاوضَةِ والمقابلَةِ، يعني: أنهم بسببِ

ذُنُوبِهِمْ أُخِذُوا، وعلى قَدْرِ ذُنوبِهِمْ أُخِذُوا، وما تجاوزُ الله بهم أكثرَ مما يستَحِقُّونَ، بل بالسَّبَبِ والقَدَرِ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِذَنۢبِهِۦ﴾ بالإفرادِ، وجاء في موضعٍ آخَرَ مِنَ القرآن الكريم: ﴿بِذُنُوبِهِمۡ﴾ بالجمعِ، والجمعُ بينهما أن المفردَ هنا مضافٌ فيَعُمُّ، أي: بذُنوبِهم، والذُّنوبُ هي المعاصِي سواءٌ كانت كبيرةً أو صغيرةً، وهي هنا بلا شك من أكبرِ الكبائرِ.

قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾: قوله: ﴿فَمِنۡهُم﴾ هذا تَفْصِيلٌ؛ لأن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِذَنۢبِهِۦ﴾ مجمَلٌ فُصِّل بقولِهِ: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾، قال: ﴿أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ﴾ ولم يَقُل: أرْسلَنْا إليه؛ لأن هذا إرسالُ عَذابٍ فهو عالٍ عليهم، وليس إرسالَ خِطابٍ حتى نقول: إن غايةَ هذا الخطابِ المرسَلِ إليه، بل هو إرسالُ عَذابٍ.

وقوله: [﴿أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ﴾ رِيحًا عاصِفَةً فيها حَصْبَاءُ كقومِ لُوطٍ]: هذا فيه نظَرٌ؛ لأن قومَ لُوطٍ أرسلَ الله عليهم حاصِبًا مِنَ السماءِ وهي حِجارةٌ مِنْ سِجِّيلٍ تَحْصِبُهُمْ، كالتي أُرسِلَتْ على أصحابِ الفِيلِ، وليست هي الحَصباءُ التي تُذْرِيها الرياح، وليس في عِلْمِنَا أن الله تعالى أرسل الرياحَ على قوم لوطٍ، ولو كانت رِياحًا تَحْمِلُ الحصباء لبينها الله عَزَّوَجَلَّ.

ولو قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّا أَرْسَلْنا عليهم حاصِبًا كقومِ لُوطٍ؛ لكانَ صَوابًا.

وقوله: [﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ كثَمُودَ]: أي: قومُ صالحٍ، وكذلك كقومِ شُعَيبٍ أصحابِ مَدْيَنَ، ففي آياتٍ أُخْرَى أنهم أخَذَتهُم الصَّيْحَةُ.

قوله: [﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كقَارُونَ]: خَسفَ الله بِهِ وبدَارِهِ الأرضَ، وبَقِي فيها إلى يومِ القِيامَةِ، وما نَفَعه بيْتَهُ الذي احتَمى فيه ولا مالَه الذي كَنَزَه.

قوله عَزَّوَجَلَّ: [﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقـوم نُوحٍ وفِرعونَ وقَومِهِ]: فِرعونُ وقومُه أهْلِكُوا بالغَرقِ، غَرقوا في البحر الأحمر، أغْرَقَ الله فِرعونَ بما كان يفْتَخِرُ به، قال لقومِهِ: ﴿يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:٥١]، فأخْرجَهُ الله من مِصْرَ وأهلكَهُ بمثْلِ ما افتَخَرَ به -بالماء- فأهلكَهُ الله، فما فاتَه الله عَزَّوَجَلَّ، مع أن فِرعونَ حين إهْلاكِهِ كانَ يظن أنه منتَصِرٌ لأنه أَرسَلَ في المدائن حَاشِرينَ، وجمعَ النـاس واتَّبعُوا موسى وقومه على أن الأمرَ يَسيرٌ وأنهم في قَبْضَتِهِم؛ لأنهم ظنُّوا أن مُوسَى وقومَه إما أن يَسْقُطوا في البحر أو يأخُذُوهم أخْذًا لا هَوادَةَ فيه، فكانَ -والحمد لله- الأمرُ على عَكسِ ما ظَنُّوا؛ أهلكَ الله فِرعونَ وقومَه وأنْجَى مُوسى وقَومَه.

وأما قومُ نُوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فأُغْرِقُوا بالطُّوفانِ العظيم، فأمرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ السماءَ ففُتِحتْ أبوابُها بماءٍ منْهمرٍ، وفجَّرَ الله الأرضَ عُيونًا، انظر إلى التعبيرِ القُرآنِيِّ، لم يَقُلْ: فجَّرنَا عيون الأرض؛ لأنه لو عبَّر بهذا لكان شيءٌ كثيرٌ من اليابِسِ لم يتفَجَّرْ، لك التعبيرُ القرآني: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر:١٢]، كأنَّ الأرض كلَّها صارَتْ عُيونًا، حتى إن التَّنُّورَ الذي هو مَحَلُّ إيقادِ النارِ وأبعد ما يكونُ عَنْ ظُهورِ الماء صارَ يَفُورُ عُيونًا، سبحان الله العظيم! ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١٢]، حتى عَلا قِمَمَ الجبالِ واستوتِ السَّفينَةُ على الجُودِيِّ، والجودِيُّ هو الجبلُ الرَّفيعُ جدًّا، وحمل الماءُ السفينةَ إلى أن رَسَتْ على هذا الجبلِ مما يدُلُّ على كثرةِ هذه المياهِ.

الله أكبر! الإنسانُ لو تَصَوَّرَ أن المطرَ يرتَفِعُ أربعة أمتارٍ لأصابَهُ الفَزَعُ من ذلك، لكنَّ قُدرةَ الله عَزَّوَجَلَّ عظيمةٌ، والله على كلِّ شيءٍ قَديرٍ.

قوله: [﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ فيُعَذِّبُهم بِغيرِ ذَنْبٍ]: (اللام) هذه لامُ الجحودِ وهي المسْبوقَةُ بكونٍ منْفِيٍّ، أو نقولُ بتَعْبِيرِ أصحابِ الآجُرُّومِيَّةِ: ما سَبقها (مَا كانَ) أو (لم يكُنْ).

وقوله: [﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ فيُعَذِّبُهم بغَيرِ ذَنْبٍ]، لما نَفَى أن يكونَ اللهُ ظَلَمَهُم بيَّنَ من أين وقَعَ هذا الظلمُ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بارْتِكابِ الذَّنْبِ].

جملة: ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ خبَرُ (كان) و(الواو) اسْمُها.

و﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ مفعولٌ مُقَدَّمٌ لـ﴿يَظۡلِمُونَ﴾، وتقْدِيمُه له فائدتان: فائدةٌ لَفْظِية وفائدةٌ معْنَوِيَّةٌ.

الفَائِدةُ اللَّفْظِيَّة: مراعاةُ الفَواصِلِ، يعني: أواخِرُ الآياتِ لأنَّه لو قالَ: وكانوا يظْلِمُونَ أنْفسَهُمْ، لم تَتَناسَب مع ما قَبلها وما بَعْدَهَا.

والفَائِدةُ المعنويةُ: هي الحصْرُ والاختِصاصُ، يعني: ما ظَلَموا إلا أنْفُسَهم في الحقيقةِ، أي: هم الذين ظَلَمُوا أنفسهم، ولكن كما قال تعالى في آياتٍ أُخْرَى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦].

لو قالَ قائلٌ: قولُ المُفَسِّر في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَا﴾ قال: [كَقومِ نُوحٍ وفِرعونَ وقومِهِ]، مع أن الضَّمِيرَ يعودُ على آخِرِ مَذكورٍ، وهو فِرعونَ فقط، فما وَجْهُ ذِكْر نُوحٍ، وهل الترتيبُ القُرآني ذَكَر العَذابَ بالتَّسلْسُلِ؟

الجواب: الضميرُ هنا لا يعودُ على آخِرِ مذكورٍ، فالمؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضربَ أمثلةً، لكنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: [فكُلًّا مِنَ المذْكُورِين]، ولو قال: (فكُلًّا من المذْنِبِين) لما أُوردَ مثل هذا الإيرادِ، وأما التَّسَلسُلُ في ترتيبِ العَذابِ فهو غيرُ واردٍ هنا لأنه قالَ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ قال: كثمودَ؛ لأن شُعَيبًا قبلَ هؤلاء، وعلى كل حالٍ المسألةُ بسَيطَةٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: تمامُ قُدرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بإرسالِ هذه العُقوباتِ، لأنها كلَّهَا عقوباتٌ تدُلُّ على كمالِ القُدْرَةِ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: إبطالُ قولِ الملْحِدِينَ في الوقت الحاضر: إن هذه الآيات من الكَوارِثِ، فتَأْتِي الزلازِلُ التي هي الرَّجْفَـةُ ويقولون: هذه مسألةٌ طبيـعِيَّةٌ، وتأتي الفيضاناتُ العظيمةُ التي تُدَمِّرُ وكذلك الرياحُ الشَّديدةُ، ويقولون: هذه كوارثُ طبيعية، لا يعْتَبِرون ولا يَرون أنها نوعٌ مِنَ العُقوباتِ التي جَرتْ على الأُمَمِ السابِقَةِ، وهذا من موتِ القَلبِ -والعياذ بالله-، فيُعْرِضُ الإنسان عن التأَمُّلِ والتَّدَبُّرِ في هذه الآيات ويُضِيفُها إلى أمورٍ طَبيعِيَّةٍ، وكأن الطبيعةَ هي التي تَخْلُق وتفْعل دونَ الله عَزَّوَجَلَّ.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: حِكمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾، سواء قُلْنَا: إن الباءَ للسَّبَبِيَّةِ أو المقابَلَةِ.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: إثبـاتُ الأسبابِ، وكلُّ ما جـاءَ في القُرآنِ مِن (لام) للتَّعليلِ أو (باء) للسَّببية فإنها تدُلُّ على إثباتِ الأسبابِ والحِكَم.

الفَائِدةُ الخامِسة: الردُّ على الجَبْرِيَّةِ ومن وافقَهُم مِنَ الأشْعرية الذين يُنْكِرُونَ

الأسبابَ، وأما نحنُ أهلَ السُّنَّةِ والجماعة فنؤمنُ بالأسبابِ؛ لكنَّنا لا نقول: إن هذه أسبابٌ مؤثرةٌ بنَفْسِهَا، لكن بخَلقِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها التأثيرُ.

الفَائِدةُ السَّادسَة: أن الجزاءَ من جِنْسِ العملِ، وهذا على الاحتمالين فِي الباء: البَدَلِيَّةِ أو المقابلَةِ لقولِهِ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾، ومِنَ المعلومِ أن الجزاءَ من جِنسِ العَمَلِ فِي الجزاءاتِ الشَّرعِيَّةِ وفي الجزاءاتِ الكونيَّة، الجزاءات الشرعِيَّةُ مثلُ الحُدود، فالعقوباتُ المقدَّرةُ من قِبَل الشرْع كلُّها في الواقِعِ عقوباتٌ موافِقَةٌ للحِكمة، فقَطع اليدِ بالسَّرقةِ لا شكَّ أنه موافق للحِكْمَةِ؛ لأن اليدَ بها الأخذ والإعطاءُ، وقطعُ الأيْدي والأرْجلِ من خِلافٍ في عقوبَةِ قطَّاعِ الطريقِ موافِقةٌ للحِكمةِ؛ لأن قطَّاعَ الطريق يعْتَدونَ على الناس بأيْدِيهِمْ وأرجُلهِمْ، ورَجْمُ الزانِي بالحجارةِ دُونَ قتلِهِ بالسيفِ موافِقٌ للحِكْمَةِ، وهكذا كلُّ العُقوباتِ الشَّرعيةِ والكونيةِ فإنها موافقةٌ للحِكْمَةِ، ويَدُلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾.

الفَائِدةُ السَّابعةُ: أن العُقوباتِ لا تأتِي مِن نوعٍ واحد، بل تأتِي مِنْ أنواعٍ مُتعَدِّدةٍ بحسبِ حالِ المعاقَبِ لقولِهِ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ هذه الأنواعُ الأربعةُ ذِكْرُها له حِكمَةٌ؛ لأن قولَهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ هذا إهلاكٌ من فَوْق، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ هذا إهلاكٌ من تحت، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ هذا إهلاكٌ بالقولِ والصَّوتِ، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ هذا إهلاكٌ بالماءِ.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: كمال عَدْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، وهذه الصِّفةُ من الصفاتِ السَّلبيَّةِ، والصفاتُ السلبيَّةُ لا تكون مدْحًا

إلا إذا تَضَمَّنَتْ ثُبوتًا، فمُجَرَّدُ النفي ليس بمدحٍ إلا إذا تضَمَّنَ ثُبوتًا، إذا نَفَى الله الظُّلْمَ عن نفسه فليس معناه أنه لا يَظْلِمُ فقط، بل لكَمالِ عَدْلِهِ لا يظْلِمُ، وليس المعنى أنه غيرُ قادرٍ على الظلمِ بل هو قادِرٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على أن يظْلِمَ لكنَّه لكمالِ عَدْلِه لا يظلم، ولو كان غيرَ قادرٍ على الظلم لم يكن نَفْيُ الظلمِ عن نفْسِهِ مَدْحًا.

والجَبْرِيَّةُ يقولون: إن الظلمَ مُحالٌ على الله لذَاتِهِ لا لعَدَمِ إرادةِ اللهِ، وذلك أنهم يقولون: إن الظلْمَ أن يتَصَرَّفَ الإنسان في مِلْكِ غيرِهِ، والله تعالى إذا تَصَرَّفَ في مُلكه فليسَ بظالمٍ على زَعمِهِمْ، وليس بظالمٍ أن يُعاقِبَ المطِيعَ الذي أمضى ليلَهُ ونَهارَه في طاعَةِ الله فيُعاقِبُه عقوبَةِ الكافِرِ، وعلى هذا قال السفارِيني رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

وَجَازَ لِلْمَوْلَى يُعَذِّبُ الْوَرَى ... مِنْ غَيْرِ مَا ظُلْمٍ وَلَا ذَنْبٍ جَرَى

فَكُلُّ مَا مِنْهُ تَعَالَى يَجْمُلُ ... لِأَنَّهُ عَنْ فِعْلِهِ لَا يُسْأَلُ

وهذا ليس بصحيحٍ، وهو إن جازَ عَقْلًا لكنَّهُ ممتَنِعٌ شَرْعًا، وقد تقدَّمَ تفصيلُ ذلك في أوَّلِ السورةِ.

المهم أن مُجَرَّدَ النَّفي لا يَدُلُّ على الكمالِ حتى يتَضَمَّن مَدْحًا، ولهذا قالوا في قول الشَّاعِرِ[2]:

قُبَيِّلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ ... وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

هذا ذَمٌّ وليس بمَدحٍ، فهم لعَجْزِهِمْ لا يظْلِمُونَ.

---

(١) البيتان (٦٥، ٦٦) من العقيدة السفارينية.

(٢) البيت للنجاشي أحد بني الحارث بن كعب، انظر الحماسة الشجرية (٤٥٢)، والشعر والشعراء لابن قتيبة (٣٣٠-٣٣١).

وكذلك قول الشاعر[1]:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كانُوا ذَوِي حَسَبٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

يقول: ما هم مِنَ الشَّرِّ في شيءٍ ولا يأتونَ شرًّا أبدًا، بل أبلَغُ من هذا أنهم:

يُجْزُونَ بِالظُّلْمِ أَهْلَ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانًا

فإذا ظَلَمهُم أحدٌ قابَلُوه بالمغفرَةِ والسَّماحِ، وكذلك إذا أساءَ إليهم أحسَنُوا، هذا ظاهِرُهُ أنه مَدحٌ لكنه في الحقيقة ذَمٌّ من أبْلَغِ الذَّمِّ؛ لأنه يحتَقِرُهُم ويقول: إنهم لا يستطيعون أن ينْتَصِرُوا لأنفسهم، بل إذَا أُسِيءَ إليهم قابلوا ذلك بالإحسانِ خوفًا من إساءَةٍ أعْظَمَ وإذا ظُلِموا غفَروا، ولهذا قال نفس الشاعر:

فَلَيْتَ لِي بِهِمْ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا شَنُّوا الإِغَارَةَ فُرْسَانًا وَرُكْبَانًا

ونَفْي الصِّفاتِ من حيثُ العُمومِ قد يتَضَمَّنُ الكمالَ وقد يتَضَمَّنُ النقْصَ، وقد يكونَ لعدمِ القابِلِيَّةِ، فالذي لله من هذه الثلاثة الكمالُ، مثاله قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨].

وقد يكون النَّفْي لعدمِ القابِلِيَّةِ، تقول: هذا الجدار لا يتَعْبُ، وهذا الجدار لا يظلِمُ؛ لعدم القابِلِيَّةِ، فهذا ليس بمدحٍ لأنه أصلًا لا يقبل هذا الوصف حتى يُنفى عنه.

وقد يكونُ النَّفْي للعَجْزِ مثاله ما سبَقَ في البَيْتَيْن.

ولا يكون لله من هذه الأقسامِ الثلاثة إلا القِسْمُ الأولُ، وهو ما تَضَمَّنَ كمالًا

---

(١) قال في خزانة الآدب (٧/ ٤٤١): إن البيت لقريط بن أنيف العنبري.

ومَدْحًا، ولهذا يقولُ أهلُ العِلْمِ: إن الله إذا نفى صِفة عن نفْسِه فإن المراد به أمران: نَفْي تلكَ الصِّفةِ، والثاني إثباتُ كمالِ ضِدِّهَا.

وصفاتُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تنقَسِمُ إلى قِسْمينَ: ثُبوتِيَّةٌ وسَلْبِيَّةٌ.

فالثُّبوتِيَّةُ: ما أثْبَته اللهُ لنفْسه ولا تكونُ إلا صِفَةَ كمالٍ.

والسَّلبِيَّةُ: ما نَفَاهُ عن نفْسِه ولا تكون إلا صِفَةَ نَقْصٍ، وهي تدورُ على شيئين: أحدهما النَّقْصُ، والثاني مشابهةُ المخلُوقِينَ، أو نقول: إن مشابهة المخلوقينَ نقْصٌ، ونحصرُ هذين الشيئينِ في شيءٍ واحدٍ.

الفَائِدة التَّاسِعة: أن الإنسانَ هو الظالمُ لنَفْسهِ بفعْلِ المعَاصي؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ ففعلُ المعَاصِي حَرامٌ؛ لأنه ظُلْمٌ لنفسِك، أما الله تعالى فلا يَظْلِمُ أحَدًا.

الفَائِدةُ الْعاشِرَة: أن العاصِي ظالمٌ لنفْسه لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ ووجه ذلك: أن النفْس عندَك أمانَةٌ، فكما أنك ممنوعٌ مِنْ نَقْصها نقْصًا حِسِّيًا فأنت ممنوعٌ من نَقْصِها نَقْصًا مَعنَويًا، بمعنى أن الإنسان لو أرادَ أن يقْطَعَ يدَهُ أو أصابعه أو يُسِيء إلى بدَنِهِ كان ذلك مُحَرَّمًا، ولهذا من قَتلَ نفسه بشيء عُذِّب به في جهنَّمَ خالدًا مخلَّدًا، فجعل النبيُّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قاتِلَ نفسِهِ[1] كقاتل الغيرِ في التَّخليدِ في النَّار والتَّعذيبِ بما قتَل به نفْسَه، وعلى هذا نقول: كل من عَصَى الله فإنه ظالمٌ لنَفْسِه، ومن هنا يتبَيَّن لنا معنى قوله: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما جاء في قاتل النفس، رقم (١٢٩٧) عن ثابت بن الضحاك؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وأن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار، رقم (١٠٩).

إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠]، وأن العُدولَ عن مِلَّةِ إبراهيمَ سفَهٌ لأنه ظُلمٌ للنَّفس من حيثِ لا يشعرُ الإنسان.

• • ۞ • •

الآيــة (٤١)

• • ◦ • •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١].

• • ◦ • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾ أَصْنَامًا يَرْجُونَ نَفْعَهَا] اهـ.

وقوله: ﴿مَثَلُ﴾: (مَثَل) و(مِثْل) كـ(شَبَه) و(شِبْه) وزنًا ومَعْنى، فالمَثَلُ بمعنى الشَبَهُ، وهو عبـارةٌ عن تَشْبِيهِ شيءٍ مَعقولٍ بشيءٍ محْسوسٍ؛ لأن تمثيلَ المعقولاتِ بالمحسوساتِ يَزِيدُهَا وُضوحًا وبيـانًا وتَصوُّرًا، وإن كانت لا تَتَسـاوَى من كُلِّ وجهٍ، لكنها متساويةٌ مِنْ هذا الوجه الذي حَصل فيه التَّشْبِيهُ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾ المراد بالأوليـاء الأصنامُ؛ لأن عابِدِيهَا يَرْجُون نَفْعَها كالوَلِيِّ الذي ينْفعُكَ في النُّصْرَةِ والدِّفاعِ عنكَ وجَلـبِ الخيرِ، فسَمَّي العابِدينَ أولياء لأنهم ينْصُرون هذه الآلهـةَ، ولهذا قال قومُ إبراهيمَ: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٦٨]، فهم ينْصُرونها ويرْجونَ النَّصْرَ منها.

وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عَبَّر بالدُّونِ لدُنُـوِّ مرتَبَتِهِ بالنسبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ،

والمرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾ المشرِكُونَ.

قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ أي: كَشَبَهِ العَنْكبوتِ، والعنكبوتُ دُوَيْبَّةٌ معروفة تَتَّخِذُ لها بيتًا من العُشِّ، وهذا البيتُ هي التي تَنْسجه، أي: هي تُفرزُ مادَّته، والله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على كلِّ شيءٍ قديرٍ، هذه العنكبوت إذا سقطتْ مِنْ أعلى فإنها تُفرزُ بسرعة هذا العشَّ وتتعلق به حتى لا تقعُ على الأرض وتظل متدلِّيَةً بهذا الخيطِ وإذا شاءت أن تصعد بـه صعِدتْ، فتَتَقلَّبُ، وتجعـلُ رأسها إلى أعْلَى وتصْعَدُ مع هذا الخيـط الذي أفرزته ثم إنها عند صَيدِهَا -وأكثر ما تصيـد الذباب- تقيِّدُهُ بهـذه الخيوطِ حتى تَقْضِيَ عليه، وهذا بعضٌ من قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]، هَدَى هؤلاءِ الخلقَ لمصالِحِهم.

قوله عَزَّوَجَلَّ: [﴿ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗا﴾ اتَّخَذَتْ بَيْتًا لنِفْسهَا تَأوِي إِليهِ]: وهذا البيت هو المشاهدُ.

قوله: [﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ﴾ أضعْفَ ﴿ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾]: هذا كلام الله عَزَّوَجَلَّ وهو العالم بما لم نُحِطْ به عِلْمًا، وما أكثرَ مخلوقاتِ الله تعالى التي لها بيوتٌ ونحن لا نَعْلَمُ عن هذه البيوتِ إلا ما نُشَاهِدُهُ منها، وما أكثرَ الغائبِ عنَّا!

وقوله: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ الجملة مؤكَّدَةٌ بـ(إنَّ) و(اللام) من أجلِ تأكيدِ ضَعـفِ هؤلاءِ الأولياءِ، فكما أن هذه البيـوتَ التي تَأْوي إليها العناكِبُ ضَعِيفَةٌ بل هي أوْهَنُ البيوتِ وأضْعَفُها، فإنَّ هؤلاء الأولياءِ كَذلِكَ أضْعَفُ ما يكون مِنَ الأولياءِ؛ لأنهم لا ينْفَعُون عابِدِيهِمْ، بل إن الله يقولُ في القرآنِ: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ﴾ حقًّا ﴿مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨-٩٩]،

فَتَشْمَلُ الآلِهَةَ والمتَأَلِّهين، فلو كانوا آلِهةً حَقًّا لمنعوا أنفُسهُم وعابِدِيهم من دُخولِ النَّارِ ولكنها آلهةٌ باطِلَةٌ لا تنْفَعُ، فهذا وجه المشابَهَةِ في قولِهِ: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾.

وهذا التَّشْبيهُ يُسَمِّيهِ البيانِيُّونَ التَّشْبيه التَّمْثِيلِيّ، يعني أنه مكونٌ من جُملَةٍ، فأنت إذا قلت: فلانٌ كالبحرِ في الكرمِ، فهذا تَشْبِيهٌ، لكنه تَشْبِيهٌ إفرادي، أي: شَبَّهْتَ فَرْدًا بفردٍ، أما تشبيهُ قضيةٍ بقضية أو قصة بقصة فإن هذا التَّشْبِيهُ تَشْبِيهٌ تَمْثِيلِيٌّ مركَّبٌ من عدة أوْجُهٍ، من مشبَّهٍ متعدِّد ومشبه به كذلك متعدِّد، وأوجهُ الشَّبَهِ متعدِّدة لأنه مركبٌ من قِصَّةٍ متكامِلَةٍ، وذلك لأنه لم يقْصِدْ أن يشبِّه العابِدين بالعنكبوتِ وَحْدَه ولا قصدَ تَشبيهَ المعْبُودِين بالبيوتِ وحْدهَا، بل قصَدَ تشبيهَ قَضيةٍ كامِلَةٍ بقضيةٍ كاملة حتى تتَّضِحَ الصورةَ أمام المخاطب.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: [﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ لا يَدْفَعُ عنها حرًّا ولا برْدًا]: وكذلك لا يَقِيهَا مِنَ الآفاتِ، كأن يسقُطُ عليها شيء أو نحو ذلك، فهذا البيتُ أوهنُ البيوتِ.

ثم قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كذلك هذه الأصنامُ لا تَنْفَعُ عابِدِيهَا]: فهؤلاء الذين عبدُوا الأصنامَ ما لجَؤوا إلى ملجأ نافعٍ، بل لجَؤوا إلى مَلْجأ ليس بنافعٍ ولا مانعٍ ولا دافعٍ، ولهذا شبَّه الله ذلك البيتَ ببيتِ العنكبوتِ.

وفي آية أخرى شبَّه هذه الأصنامَ ودعاءَها برَجلٍ باسِطِ كَفَّيْهِ إلى الماء ليبْلُغَ فاه، ولا يَبلُغُه، فهذا الرجلُ أمامَه الماء وهو عطشانُ فبَسَطَ كَفَّيْهِ إلى الماء يريدُ أن يَصِلَ الماءُ إلى فَمِه، والماء لا يمكن أن يَصِلَ إلى فَمِهِ أبدًا، فكذلك هذه الأصنامُ لا تنفع عابِدِيها كما أن الماءَ لا يصِلُ إلى فم هذا العطشان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ لو كانُوا يَعْلَمُونَ ذلك ما عَبَدُوهَا]: (لو): هنا شَرطِيَّةٌ، وفِعْلُ الشرطِ قولُه: (كَان) وجوابُ الشَّرطِ مقدَّرٌ على كلامِ المُفَسِّر والتقدير: (ما عَبَدُوهَا)، ولهذا لا ينبغي أن تُوصَلَ هذه الجملة بالتي قَبْلَها؛ لأنك لو وصلْتَها بالتي قَبلهَا لكان وَهَنُ بيتِ العَنكبوتِ مشروطًا بعِلْمِهِمْ، مع أن بيتَ العَنكبوتِ أوهنُ البيوتِ سواءٌ عَلِمُوا أم لم يعلَموا، ولهذا ينْبَغِي أن نَقِفَ على قوله: ﴿لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ ثم نَقْرَأُ ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

وهذا يُذَكِّرُنَا بآيةٍ في سورةِ التكاثرِ يُخْطِئ فيها كثيرٌ مِنَ الناس، حيث يقرؤون بوصلِ الآيتينِ ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾ [التكاثر:٥-٦]، وهذا خطأٌ؛ لأن المعْنَى يفْسُدُ به فسَادًا وضاحًا؛ لأنك لو وصلت لكان قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾، جواب قوله: ﴿لَوۡ تَعۡلَمُونَ﴾، والأمرُ ليس كذلك، فجملة ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ مستأنفة مستَقِلَّةٌ فيجبُ الوقْفُ على قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾.

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: [﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ ذَلِك ما عَبَدُوهَا] ويحتمل الجوابُ: لو كانُوا مِنْ ذَوِي العِلْمِ النافِعِ ما خَفِي عليهِمُ الأمْرُ، فإذا لم يخفَ عليهم هذا الأمْرُ لم يَقُومُوا بالعِبادَةِ.

والحاصل: أن هـذا يَدُلُّ على جهلِ هؤلاءِ العابِدِينَ، فمهما بلَغُوا من الذَّكاءِ وحُسنِ التَّصَرُّفِ في الدنيا فإنهم من هذه الناحية سُفهاءُ ليسَ عندَهم عِلم ولا عَقل.

لو قال قائل: إن العنكبوتَ قد تَنْتَفِعُ مِنْ بَيْتِهَا، أما عبَّادُ الأصنامِ فلا ينتَفِعُون قطعًا فلا مشابَهَة بينهما، فما وَجْه الشَّبهِ بينهما؟

الجواب: عُبَّادُ الأصنام أيضًا قد ينتَفِعُون بما يحصلُ لهم مِنْ منْفعَةٍ مادِّيَة من

الوافدينَ لعِبادَتِها والتَّبَرُّكِ بها، لكن هذه المنافع مادِّيَة، أما النفعُ الحقيقي الذي هُم يَرْجونَ وهو دَفْع الضُّرِّ عنهم وجلبُ النَّفْعِ لهم فليس بحاصِلٍ، فلا تنْفَعُهم آلهتهم ولا تمنْعُهُم، كما أن بيتَ العنكبوتِ لا ينْفَعُها ولا يمْنَعُها فيأتيها الهواءُ والبَرْدُ والمطرُ ويَعْلَقُ بها التراب فلا تنتفع به الانتفاعَ الكامِلَ، وأما الصيدُ فالعنكبوت لا تَصِيدُ بالبَيْتِ، أي: لا تنتفعُ به في الصَّيدِ بل بالعُشِّ الذي يخرج منها وهو الخُيوطُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدَةُ الأُولَى: تَقْبيحُ هؤلاءِ المشركينَ وتَنزيلُ مَرْتبَتِهِمْ، حيث شُبِّهوا بالعناكِبِ؛ لأن تشبيه الإنسان بالحيوان إذلالٌ له وتَنزيلٌ لمرْتبَتِهِ؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠].

الفَائِدَةُ الثَّانِية: أن هذه الأصنامَ لا تنْفَعُ عابِدِيها ولا تدْفَعُ عنهم، فهي لا تجلِبُ الخيرَ ولا تدْفَعُ الضُرَّ، حيث شُبِّهَتْ ببَيْتِ العنكبوتِ.

الفَائِدَةُ الثَّالِثة: جوازُ ضربِ الأمثالِ بالدُّونِ حسبَ ما تقتَضِيهِ الحالُ، لقولِهِ: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ فإن العنكبوتَ مِنْ أدنى ما يكون مِنَ المخلوقاتِ، وقد قال تعالى في سورةِ البَقَرةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة:٢٦]، وقد ضَرَبَ الله مَثَلًا بالذُّبابِ وبالحِمارِ وبالكلبِ وبالبعُوضةِ وبالعنكبوتِ، كل هذا حسبَ ما يقْتضيهِ المقَامُ.

الفَائِدَةُ الرَّابِعة: أن أَوْهَنَ البيوتِ وأَضْعَفَها بيتُ العنكبوتِ، من هذا نأخذ أنه لا ينبغي أن يقال مثلًا: هذا البيتُ أوْهى مِنْ بيتِ العنكبوتِ، لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾، لكن يجوز أن نقول: حُجَّةُ هذا الرجل أوْهَى مِنْ بيتِ العَنكبوت؛ لأن الحجَّةَ ليست بيتًا، فهذا لا بأس به لأنه ليس فيه معارضة للقرآن.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٤٢)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:٤٢].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا﴾ بمَعْنَى الَّذِي]: فتكونُ اسمًا موصولًا، وهذا الإعرابُ هُو المتبادَرُ مِنَ الآية.

وبعض المُعرِبينَ قال: إن (ما) استفهامية، فيكونُ الوَقْفُ على قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾، ثم يأتي الاستفهامُ: ما الذي يَدْعُونَ من دُونِهِ مِن شيء؟ أي: هل يَسْتَفِيدُون شيئًا؟ ولكن هذا بعيدٌ، فإعرابُ المُفَسِّر هو الصوابُ، وأن (ما) موصولة، وعائد الموصولِ محذوفٌ، وحذفُ العائدِ المنصوبِ مطَّرِدٌ في اللغةِ العربية، التقدير: (إنَّ الله يعلمُ ما يدْعُونَهُ من دُونِهِ من شيء).

وقوله: [﴿يَدْعُونَ﴾ يَعْبُدونَ]: فالدعاءُ هنا دُعاءُ عِبادَةٍ، وكما يكون الدعاءُ دعاءَ عبادَةٍ كذلك يكون دعاءَ مَسألَةٍ.

أما دعاءُ المسألَةِ فكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، فدعاء المسالة كأن تقول: يا ربِّ اغفر لي، يا ربِّ ارْحمْنِي، وما أشبه ذلك.

ودعاءُ العبادة أن تَتَعَبَّدَ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما أمَرَك به، وإنما كان ذلك دُعاءً؛ لأن

حقيقةَ حالِ العابِد طلبُ مغفرةِ الله ورَحمتِهِ، فهو في الحقيقة داعٍ ضمنًا، ودليلُه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

فقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مَا يَدْعُونَ﴾ ما يَعْبُدُونَ] فيه نظَرٌ، فينبغي أن نجعلَ الدُّعاءَ هنا شامِلًا لدعاءِ العبادَةِ ولدعاءِ المسألَةِ، وأيضًا فالمشركون يدْعُونَ الأصنامَ دعاءَ عِبادَةٍ، ودعاءَ مسألَةٍ، فالذين يُشْرِكُونَ بالأنبياء والأولياء فإنهم يَدْعُونَهُم دعاءَ مسألَةْ، يقول أحدُهم: يا رسول الله اغفر لي، ويا رسول الله يَسِّرْ أمْرِي، وما أشبه ذلك!

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿يَدْعُونَ﴾ يَعْبُدونَ بالياءِ والتاءِ]: يعني: (يَدْعُونَ) و«تُدْعَوْنَ» قراءتان سبعيتان[1].

قوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ هذا بيانٌ لـ﴿مَا﴾ يعني: أي شيء تَدْعُونه فإن الله تعالى عالم به، أي: أنه يعْلَمُ حالَ هذا المدْعو المعْبُودِ، وهي كالتَّعْليلِ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ﴾، ويؤيدُ ذلك أن هذا المثَلَ مطابِقٌ للواقِعِ؛ لأنه صادرٌ عن عِلم، فإنه لما ذكَرَ أنهم كالعنكبوت بيَّن أن هذا عَنْ علمٍ من الله، وأن هذا الشيءَ الذي يُدْعَى لا ينْفَعُ.

قوله: [﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيزُ في مُلكِهِ، الحكيمُ في صُنْعِهِ]:

لو قال قائل: إن المناسب أن يقالَ: وهو السميعُ العَليمُ؛ لأن الله تعالى يقولُ: ﴿يَعْلَمُ﴾ فمُقتَضَى الظاهرُ أن تُختَمَ الآية بالعِلْمِ؟

(١) السبعة في القراءات (ص: ٥٠١).

قلنا: هذا حقٌّ بالنسبة لظاهِرِ الكَّلامِ، لكن عندَ التأَمُّلِ نجِدُ أن ختامَهُ بالعِزَّةِ والحكمَةِ أبلغُ، فإنهم يُريدونَ الاستِنْصارَ بهذه الأصنامِ والغَلبةَ والظهورَ، وأكبرُ شاهـد لذلك قولُ أبي سفيـان يوم أحد: (اعْلُ هُبَلْ)[1]، فاعتـزازهم بهذه الأصنام مقابلٌ بعـزَّةِ مَنْ لا يُغْلَب وهو الله جَلَّوَعَلَا، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالبُ لهذهِ الأصنامِ ولعَابِدِيها.

و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ من أسماءِ الله عَزَّوَجَلَّ، ويتَضَمَّنُ العزَّة مِنْ ثلاثةِ وُجوهٍ: عزَّةُ القَدْر، وعزَّةُ القَهرِ، وعزَّة الامتِنَاعِ، كما تقدم.

أما عِزَّةُ القَدْر فمعناها: أنه عَزَّوَجَلَّ لا يُشْبِهُه أحدٌ في عَظَمَتِهِ وجلالِه وقَدْرِه، وأما عزَّة القَهْرِ فمعناها: أنه لا أَحَدَ يُشْبِهُ الله عَزَّوَجَلَّ في قَهْرِهِ وسُلطانِهِ ومُلكِهِ، وأما عزَّة الامتْناع فمعناها: أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ممتَنِعٌ عن كُلِّ نَقْصٍ وعن كلِّ عَيْبٍ، فهو عزيزٌ أن يُنال بعَيْبٍ أو نَقْصٍ.

وقوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ دائمًا يَقْرِنُ الله عَزَّوَجَلَّ العزَّة بالحِكْمَةِ؛ لأن بعضَ أهلِ العِزَّةِ من الخَلْقِ تحْمِلُهم العزَّةُ على التَّهوُّرِ وعدمِ التَّثبُّتِ، وعدمُ تنزيلِ الأشياءِ منازِلَها، ودليلُ ذلكَ قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة:٢٠٦]، وكون العِزَّةِ تأْخُذُه بالإثمِ خلاف الحكمة، فلهذا يَقْرِنُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ دائمًا العزيزَ بالحكيمِ إشارةً إلى أن عِزَّتَهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مَقْرُونَةٌ بالحِكمةِ، فهو وإن كانَ عَزِيزًا غالبًا قاهِرًا لَهُ السلطانُ الكامِلُ؛ فإنه عَزَّوَجَلَّ لا يُدَبِّرُ الأمرَ إلا على وجْهِ الحِكمةِ البالِغَةِ.

ثم إنه على تَفْسيرِنا ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ بأنه ذُو الحُكم والحِكمة، فإن عِزَّتَهُ عَزَّوَجَلَّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة أُحد، رقم (٣٨١٧).

مقرونةٌ بحُكْمِه وأن له الحكمَ المطلقَ في عبادِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

واعلم أن أسماءَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لها مَعانٍ عندَ إفرَادِهَا، وإذا قُرِنتْ مع غيرها يتركَّبُ من هـذا الاقترانِ معنًى آخر فوقَ المعنى الإفرادِي لكُلِّ اسـم، فالعزيزُ مِنْ أسماءِ الله جَلَّ وَعَلَا له مَعْنى عندَ انفرَادِهِ، والحكيم له معنى عند انفرَادِه لكن إذا اقْترنَا جميعًا حصل منهما معْنى ثـالث زائد على المعنى الانْفرادِيِّ، وهو ما يحصل باجتماع هذين الاسمين من المعْنى الكامِلِ.

وقـد تقدَّمَ أن الحكيم ذو الحُكـم والحِكْـمة، وأن الحُكْم ينقَسِـمُ إلى كونِيٍّ وشَرْعِيٍّ، فمثالُ الكونِيِّ قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ [يوسف:٨٠]، ومثالُ الشَّرْعِيِّ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورَةِ المُمْتَحنَةِ: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:١٠]، ويشملهما -أي: الحكم الكَوْنِي والشرعي- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١]، وما أشبه ذلك.

فالحِكمةُ ثابتةٌ لله عَزَّوَجَلَّ وهي تَنزيلُ الأشياءِ منازِلها، وتكون في الحُكم الكوْنِيِّ والحُكمِ الشَّرعِيِّ، هذا باعتبارِ موضِعِها، وتكون أيضًا حِكمةٌ غائِيَّةٌ وحكمَةٌ صُورِيَّةٌ، بمعنى أن كونَ الشيءِ على هذه الصورةِ المعَيَّنَةِ موافقٌ للحِكمةِ، ثم الغايةُ منه حِكْمَةٌ، فتكون الحِكمةُ في الغايَةِ وفي الهيْئةِ التي كان عليها هـذا الأمر، وهذا شامِلٌ لجميعِ أحكامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الكونية والشَّرْعِيَّةِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: إثباتُ العِلْمِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيما يتعَلَّقُ بالخلقِ؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا ما حكم على هؤلاء المشركين بمشابهتهم للعَنكبوتِ إلا عن عِلْمٍ بأن هذه الأصنامَ لا تنفعُ ولا فائدةَ منها، فالآية كالتَّعْلِيلِ لما قَبلَها.

الفَائِدةُ الثَّانِية: وهي مبنية على الأُولى، الردُّ على غُلاةِ القَدرِيَّةِ الذين قالوا: إن الله لا يعلَـمَ الأشياء المتعلِّقَةَ بالخَلْقِ إلا بعـدَ وُقوعِها -نعوذ بالله- لكن شيـخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول[1]: إنهم قَلِيلٌ، وذلك في وَقْتِهِ، لأنهم رأوا أن إنْكارَهُم العلْمَ نداءٌ على أنْفُسهِمْ بالكُفر فأثْبَتُوا العِلمَ لله وأنكَرُوا الكتابةَ والمشِيئةَ.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: إثباتُ اسمينِ مِنْ أسماءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وهما: العَزيزُ والحَكيمُ، وإثباتُ ما تَضَمَنَّـاهُ من صِفةٍ وهي: العِزَّةُ والحِكمةُ، وكذلك إثبـات ما تَضَمَنَّاه من صفةٍ بدَلالة الالتزام.

فنُثْبِـتُ ما يستْلزِمُه هذان الاسمانِ منَ الصِّفاتِ؛ لأنَّ دَلالَةَ اللفـظِ على معناه تكون بدلالةِ المطابَقَةِ والتَّضَمُّنِ والالتزامِ، وقد تقـدم الكلام على ذلك، ونضربُ لذلك مثلًا:

كلمـة (دَارَ) أي: المسكُونَةُ، تدلُّ على هذه الكُتـلةِ من البناء المتضمنة للغُرَفِ والحُجَر والسُّطوحِ؛ تدل على ذلك بالمطابَقَةِ، وتدل على كُلِّ حجرةٍ بمُفْردِهَا أو غرفةٍ بمـفردها أو سطح بمُفرده؛ تدل على ذلك بالتَّضَمُّـنِ، يعني: أنها متَضِمَّنة لغُـرفٍ وحُجَرٍ... إلخ، وتدل على أن لها بانِيًا بِدِلالَةِ الالتزام.

فالعزيزُ يدُلُّ على العزَّةِ دلالةَ مطابَقةٍ، ومن لازم العزة أن يكون العَزِيزُ عالمًا قادِرًا قَوِيًّا، ودلالةُ العزيزِ على الذات والصِّفَةِ دلالةُ مطابَقَةٍ، وعلى الذات والصفة وحدها دلالة تَضمُّنٍ.

ولهذا فالحيُّ القيومُ اسمان تَضَمنا جميعَ الصفات، لأن الحيَّ مستلزمٌ لجميعِ صفاتِ الكمالِ، والقيُّومُ مستلزمٌ لجميعِ صفاتِ السلطانِ والمُلك والتَّدْبِيرِ وما أشبه

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٩).

ذلك من الصفات، ولهذا ورد في الحديث أنهما اسمُ الله الأعْظَمُ(١).

وقـوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيه إثبـاتُ الحُكْمِ والحِكْمَةِ، وفي الجمع بين اسمي العَزيزِ والحكيـم تظْهر صفةٌ ثالثةٌ، وهي أن عِزَّةَ الله مقـرونَةٌ بالحِكمةِ ليست كعِزَّةِ غيرِه من المخلوقين؛ لأن عِزَّةَ المخلوقِ قد تكونُ خالية مِنَ الحِكْمةِ، وقد تقدم ذلك في التفسير.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: ينبغي التأَمُّلُ إذا خُتِمتِ الآيات بما يكون مخالفًا لظاهِرِ الحالِ أو السيـاقِ كهذه الآية، فقد يتبادَرُ إلى الذِّهْنِ أن تُختَمَ بالعِلم، ولكن عنـد التأَمُّلِ يكون ختْمُـهَا بالعزَّةِ والحكمةِ أوْلى، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]، فظاهِرُ السياقِ يَدُلُّ على أن تُخْتَمَ الآيةُ بالغفورِ الرَّحِيم؛ لكن عدَلَ عنه لغايَة بلاغِيَّةٍ، فتأَمَّل وتوقَّفَ فإن الخَلَلَ منك، وكلامُ الله عَزَّوَجَلَّ لا خَللَ فِيه.

• • ۞ • •

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٩٦)، ولفظه: اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وفاتحة سورة آل عمران ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾؛ والترمذي: كتاب الدعوات، باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ، رقم (٣٤٧٨)؛ وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم، رقم (٣٨٥٥)؛ وأحمد (٦/ ٤٦١) (٢٧٦٥٢).

الآيــة (٤٣)

• ● ● •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

• ● ● •

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ﴾ فِي القُرْآنِ، ﴿نَضْرِبُهَا﴾ نجعَلُها ﴿لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾ أي: يفْهَمُها ﴿إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ المتدبِّرُونَ] اهـ.

قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ﴾ أتى بـ(تِلكَ) الدَّالَةُ على البعدِ ولم يقل: هذا المثل، حتى نقولَ عدَلَ بالكلامِ عَن ظاهِرِه أو عن مُقتَضَى سياقِهِ؛ لأن المثَلَ المضروبَ قَريبٌ، لكن قـال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ﴾ لأن الأمثـالَ الأُخْرَى غيرُ مَثَلِ المتَّخِذِينَ الأصنامَ آلهة بعيدةً بالنِّسْبَةِ لهذا المكان؛ لأنها متفَرِّقةٌ في القرآنِ، فلهذا جاءت الآية بـ(تلك) الدَّالة على البُعدِ ولم يَقُلْ: هذا المثل، فهو شامِلٌ لكلِّ الأمثال الوارِدَةِ في القرآن.

والأمثالُ الوارِدَةُ في القرآن كثيرةٌ ومتَعَدِّدَةٌ، وقد أَلَّفَ فيها بعضُ أهل العلم كُتُبًا مستَقِلَّةً، وأفردها السيوطي في الإتقانِ بفَصلٍ مستَقِلٍّ، وبيَّنَ فوائد الأمثال التي يُضْربَ المثَلُ منْ أجْلِهَا.

والفَائِـدةُ الملموسَةُ القريبةُ جدًّا من ضربِ الأمثـال هي تقريبُ العُقـولِ إلى الأذهان، إذ إن المثـل هو ضَرْبُ شيءٍ معـقولٍ قد يَبعدُ عن الإنسان تَصَوُّرُهُ بشيءٍ محسوسٍ يَسْهُلُ تصَوُّرُهُ.

قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي: نجعَلُها أمثالًا للنَّاسِ جميعًا، فـ(ضَرَبَ) هنا بمعنى: جعل، فإذا قلت: (ضَرَب ذَلِكَ مثلًا)، فالمعنى: جعل ذلك مثلًا، وكذلك قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم:٢٨]، أي: جعل لكم مثلًا من أنفسِكُمْ.

فالضربُ يأتي بمعنى الجَعلِ إذا أضيفِ إلى المثَلِ، فمادة (ضرب) ليست خاصَّةً بالضَّرْبِ الذي هو الضربُ باليد، بل تَشْمَلُ الضَّربَ بمعنى الجَعْلِ، وتشمل الضربَ بمعنى: تحويلِ النُّقودِ من سَكَّة إلى سَكَّة، والسياق هو الذي يُبيِّنُ المعْنَى المرادَ.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ضرَبَ الأمثالَ لجميعِ النَّاسِ في التَّوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ ولكن الذي يَعْقِلُها وينتفع بها هم العَالِمُونَ.

قوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي: ذَوُو العِلم والفَهمِ الذين ينتَفِعونَ بفَهْمِهِم وعِلْمهِمْ، ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المتَدبِّرُونَ]. وهذا التفسيرُ فيه نَظَرٌ لأن العِلمَ بعدَ التَّدبُّرِ، لكن لما كان العِلمُ لا يحصلُ إلا بِهِ فسَّرَهُ المُفَسِّر بِهِ.

والحقيقةُ أن المرادَ بالعالِمِينَ ذَوُو العِلم والفَهْم الذين يَعْقِلُون الأشياء ويفْهَمُونها، احترَازًا من أهلِ الجَهلِ المعْرضينَ الذين لا ينتَفِعونَ بما أعطَاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِنَ الفُهومِ، فإنهم لا يعْقلُون هذا الأمثالَ، وإذا لم يَعْقِلُوها لم ينْتَفِعُوا بها.

وحَرِيٌّ بطالبِ العِلم أن يتَتَّبعَ الأمثالَ التي في القُرآنِ، فيقرأُ القُرآنَ بتَدَبُّرٍ ثم يجمَعُ هذه الأمثال على هيئة بحثٍ يصْنَعه لنفسه، ثم إن شاء بعدَ إتمامِه أن يرجِعَ إلى الكُتب المؤلَّفةِ في هذا فلا بأسَ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ عمَّم في ضَربِ المثَلِ

وخَصَّصَ في عقْلِ المثَلِ، التَّعميمُ في ضربِ المثلِ في قوله تعالى: ﴿نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ والتَّخصيصُ في قولِهِ: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾.

وأسلوبُ التَّعْميمِ ثم التَّخْصِيصِ كثيرٌ في القرآنِ؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس:٢٥]، فعمَّم في الدَّعوةِ وخَصَّصَ في الهِدايَةِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدَةُ الأُولَى: فائِدةُ ضَرْبِ الأمثالِ وأنه نَوعٌ من التَّعليمِ والتَّوجِيهِ، لقوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾.

الفَائِدَةُ الثَّانِية: رحْمَةُ اللهِ تعالى بالخَلقِ بضَرْبِ الأمثالِ لهُم؛ لأن ضَربَ الأمثالِ كما تقدَّمَ يقرِّبُ المعْقولَ، وتَصَوُّرُ الإنسانِ للمحْسوسِ أقْوى من تَصَوُّرِهِ للمَعقولِ، فقد تَشْرحُ لشخْصٍ صفةَ الحجِّ شرْحًا بيِّنًا وافيًا، لكن لو ذهبتَ به إلى الحجِّ ورَأى المناسِكَ لكان أبْلَغَ لأنه يُحِسُّه بعَينِهِ، بخلافِ ما تَصوَّره بقلْبِهِ فإنه لا يُدْرِكُه كإدراكه للمَحْسُوسِ.

الفَائِدَةُ الثَّالِثة: أنه ينْبغِي التأمُّلُ في الأمثالِ لقولِهِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ فالعَالِمُ هو الَّذِي يتَأَمَّلُ وينْظُرُ حتى يَعْقِلَ.

الفَائِدَةُ الرَّابِعة: إثباتُ عظَمَةِ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لقوله: ﴿نَضۡرِبُهَا﴾، فإن النُّونَ للعظَمة.

واعْلمَ أن ما أضافَهُ الله تعالى لنَفْسِه بلفظ العَظَمَةِ فإنه يدُلُّ على عظَمَةِ نفْسِهِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وقد يُرادُ به مَلائِكَتُهُ لا نَفْسَهُ إذا دَلَّ على إرادةِ الملائكةِ، وإلا فالأصلُ

أنه يعودُ إلى الله جَلَّوَعَلَا.

ومما أراد الله به ملائكته قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨]، الضميرُ في ﴿قُرْءَانَهُۥ﴾ يعودُ على الفاعِلِ وهو جِبريلُ، وأضافه اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلى نفْسِهِ لأن جبريلَ رَسُولُه، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:٧٤]، فإبراهيمُ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ يجادِلُ الرُّسُلَ ولم يجادِلِ اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

وكذلكَ قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٥]، الضَّميرُ (نحن) يعودُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فالمرادُ بالقُربِ هنا قُربُ الملائكَةِ، والدَّليلُ على إرادةِ الملائكةِ قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾، فإن الملائكة تحْضُرُ إلى الميِّتِ لقبضِ رُوحِهِ وتجلِسُ منه مَدَّ البَصَرِ[1]، لكن لا نُبْصِرها نحن، فالقُربُ هنا قربُ الملائكةِ لوُجودِ الدَّليلِ؛ لأن حمْلَ ما أُضِيفَ إلى الله بصيغَةِ العَظمةِ على رُسُلِهِ وملائِكَتِه لا بُدَّ له مِنْ دَليلٍ.

وأما ما أضافَهُ الله إلى نَفْسِهِ بصيغةِ الإفرادِ فهو لله جَلَّوَعَلَا، مثال ذلك قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦]، هذه الضَّمائرُ كلُّها بصِيغَةِ الإفرادِ، فعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ المرادُ قُربُ اللهِ نفسه من دَاعِيهِ، ولكن هذا القُربُ لا يلْزَمُ منه أن يخْلُوَ منه العَرشُ أو أن ينْتَفِيَ عنه العُلُوُّ، كما أنه ينْزِلُ إلى السماءِ الدُّنيا[2]، ولا يلزم أن يخْلُو منْه العَرشُ أو أن ينافِيَ ذلك عُلُوَّه.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧، رقم١٨٥٥٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء نصف الليل، رقم (٥٩٦٢)؛ ومسلم: كتاب المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

والحاصلُ أن ما أضافَه الله إلى نفسه بصيغَةِ الإفرادِ فهو لله عَزَّوَجَلَّ، وما أضافه إلى نَفْسِهِ بصيغَةِ الجمعِ فقد يكونُ لله عَزَّوَجَلَّ وقد يكون للملائكَةِ، لكن مع وُجودِ دَليلٍ على إرادَةِ الملائكةِ، لكن مع وُجودِ دليلٍ على إرادَةِ الملائكَةِ، وهذه الفَائِدةُ مُهِمَّةٌ جِدًّا في بابِ الصفاتِ وغيرِهَا.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: الثَّناءُ على العَقْلِ، لقولِهِ: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ﴾، والمرادُ بالعقلِ هنا عَقلُ الرُّشْد وهو الذي يُثْنِى عليه، وليس المراد عَقلَ الإدْراكِ.

الفَائِدةُ السَّادسَة: فَضِيلَةُ العِلم، لقوله: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ فغيرُ العالِمِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ لا يعْقِلُ هذه المعاني؛ لكن العالِمَ هو الَّذِي يعْقِلُها ويعرف مَغْزاهَا ومعْنَاها وأوجُه الشَّبَه بينها حتى يصل إلى دَرَجَةِ الكمالِ.

الآية (٤٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت:٤٤].

قوله: [﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: مُحِقًّا، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ دالَّةٌ على قُدرَتِهِ تعالى] اهـ.

معنى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: أَوْجَدَهَا، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ وبَدِيعِ السَّمواتِ والأرضِ، قال أهلُ العِلْمِ: بديعٌ بمَعْنَى مبْدِعٍ، والإبداعُ إيجادُ الشيءِ على غيرِ مِثالٍ سَبَق، ومنه: البِئر البِدْعُ، أي: الجديدةُ التي حُفِرَتِ الآن، فالخَلْق أعمَّ من البِدعِ، لكن قدْ بيَّن اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آياتٍ أُخْرَى أنه خالِقٌ وبَدِيعٌ، فهو الذي أَوْجَدَ السمواتِ والأرضِ، وهو عَزَّوَجَلَّ بَدِيعُ السَّمواتِ والأرضِ.

وقوله: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ يعني بما فيهما؛ لكن بالنِّسبَةِ لبَنِي آدم هم مِنَ الأرضِ وليسوا فيها؛ لأن الإنسان خُلِق من طِينٍ، والطينُ من الأرضِ، والنباتُ أيضًا مِنَ الأرضِ.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ سبق أن المُفَسِّر يقولُ: [محقًّا] فالجارُّ والمجرور في موضعِ نصْبٍ على الحال من فاعلِ (خلَق) أي: محقًّا، ويجوز أن يكونَ مفْعولًا من أجلِهِ،

يعْنِي بمعنى المفعولِ من أجلِه، أي: خلقَهُما للحقِّ.

وتفسيرُ المُفَسِّر يُؤيِّدُه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص:٢٧]، ويؤيِّدُه أيضًا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨]، فإذا لم يَكُنْ لاعبًا تعالى الله عَنْ ذلك عُلُوًّا كبيرًا- كان محقًّا.

قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ المشار إليه الخـلْقُ، فيشمَلُ كلَّ ما تطوَّرَ مِنْ خلقِ السمواتِ والأرض فإنه آية، فنَفْسُ السمواتِ والأرضِ خلْقُها آية دالَّةٌ على الله، لأن آيَةَ الشيءِ ما كان دَالًّا عليه دونَ غيرِهِ، فالسمواتُ والأرضُ دالَّةٌ على الله لأنه لا أحـدَ يستَطِيعُ أن يخلُقَ مثـلَ هذه السمواتِ والأرْضِ، فوجـودُ السمواتِ والأرض دالٌّ على القُدرَةِ، وما فيها من الانتظامِ وعَدَمِ الاضطرابِ والتناقُض دالٌّ على الحِكمَةِ.

ولو تأَمَّلْتَ أشياءَ كثيرةً من حَوادثِ السمواتِ والأرض لوجدت كُلَّ واحِدٍ منها يدُلُّ على القُدرةِ والعِلمِ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، وأيضًا يدُلُّ على الحِكْمَةِ، وأيضًا له دَلالَةٌ خاصَّةٌ على ما يَدُلُّ عليه بنْفسِه؛ وهذا شيءٌ لو تَأَمَّلهُ المؤمنُ ظَهَرَ له من ذلك آياتٌ كثيرةٌ!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَءَايَةً﴾ دَالَّةٌ على قُدرتِهِ تعالى]: وأيضًا دالَّةٌ على علْمِهِ وحكْمتِهِ ورَحمَتِه وقوَّتِه، فحوادِثُ السمواتِ والأرضِ، كلُّ شيءٍ منها يَدُلُّ على تلك الصِّفةِ الخاصَّةِ.

وقوله: [﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ خُصُّوا بالذِّكرِ لأنهم المنتَفِعُونَ بها في الإيمانِ بخلافِ الكافِرينَ]: وهذا صحيحٌ؛ فالآياتُ الكونِيَّةُ لا ينتَفِعُ بها إلا المؤمنُ، وأما الكافرُ فلا ينْتَفِعُ بها، يقول: هذه طبيعةٌ تُدبِّرُ نَفْسها، وتنتَقِمُ من الناس بنفسها، وتَجْلِبُ الخيرَ

للناس بنَفْسِهَا، وكذلك الآياتُ الشَّرعِيَّةُ، فالمؤمن ينْتَفِعُ بها، وغيرُ المؤمن لا ينْتَفِعُ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥]، فالآيات الكَوْنِيَّةُ والشَّرْعِيَّةُ لا ينتفع بها إلا المؤمن.

وانتِفَاعُ المؤمن بالآياتِ الشَّرعِيَّةِ والكونِيَّةِ يكون بزيادةِ إيمانِهِ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤].

وزيادةُ الإيمانِ لا شكَّ أنه نفْعٌ عظيمٌ؛ لأن الإيمانَ إمَّا أن يَزيدَ وإما أن ينْقُصَ وإما أن يبْقَى بلا زيادَةٍ ولا نُقْصانٍ، وهذا قد يكون نادرًا، بل أنا أشكُّ في وُجودِ هذا القِسْمِ؛ لأن عـدَمَ زيادةِ الإيمانِ يؤدِّي إلى نَقْصِهِ؛ إذ إن الإيمان يزيدُ بالطَّاعَـةِ فإذا فَقَدْتَ الطاعةَ حصلَ النَّقْصُ، لكن القِسْمَةَ العقليَّةَ أن يكونَ إما زائدًا وإما ناقِصًا وإما باقيًا على حالِهِ، وتَصَوُّرُ أو وقوعُ القسم الثالث اللهُ أعلمُ بِهِ.

والمُرْجِئَةُ هم الذين قالوا: إن الإيمانَ لا يزيدُ ولا ينْقَصُ، وليس لهم دليلٌ، بل عندهم تَعليلٌ عَلِيلٌ قالوا: إن الإيمان هو إقرارُ القلبِ والإقرارُ لا يتفاوت، وكذلك المعتزِلَةُ والخوارِجُ يقولون: إن الإيمانَ لا يتبعَّضُ، إما أن يُوجدَ كلُّه وإما أن يُعدَمَ كله.

لو قال قائل: هل يصِحُّ أن نقول: إن بقاء الإيمان على حالِهِ -أي عدم زيادته ونقصه- يدلُّ على صِحَّةِ قول من قال: إن مَن ترك ما ينْفَعُه لا بد أن يُبْتَلَى بما يضُرُّه؟

الجواب: وجه ذلك أن الإنسان لا بُدَّ أن يكون حارِثًا وهَمَّامًا، قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، فالإنسان لا بد أن يفعل شيئًا، ولا بُدَّ له من هِمَّةٍ وعَمَلٍ، فإذا كان هذا العملُ فيما لا ينْفَعُ لَزِمَ أن يكون فيما يَضُرُّ.

فإذا قال قائل: هذا القولُ يستلْزِمُ إبطالَ القولِ بوجودِ قِسْمِ المباحِ في باب التَّكْلِيفِ كما يُذْكَرُ ذلك عن الكَعْبِيِّ المعتزلي[1]، قال: لا يُوجَدُ قِسْمٌ مباحٌ في الشريعة، قال: لأن لازِمَ هذا الشيءِ المباحِ الذي تشتَغِلُ به أن يكون كافًّا لك عن المحَرَّمِ فيكونُ واجبًا، فالأشياء إما واجِبَةٌ وإما مُحَرَّمَةٌ، وردَّ عليه أهلُ العلمِ بأدِلَّةِ العَقْلِ والنَّقْلِ، وقالوا: إن المباحَ إذا تضَمَّنَ تركَ واجبٍ صارَ محرَّمًا لتركِ الواجِبِ لا لكونه مباحًا، ولذا لو فَعَلَ مباحًا بدون أن يتَرَتَّبَ عليه تركُ واجبٍ وفِعلُ محرَّمٍ لم يكن آثمًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: إثباتُ أن خالقَ السمواتِ والأرضِ هو الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

لو قالَ قائلٌ: الآيات ليس فيها حَصْرٌ حتى تَقُولوا: إن الخالِقَ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ؟

فالجواب: نعم، ليسَ في الآياتِ حَصْرٌ بالطُّرقِ المعْرُوفَةِ، لكن في الآيات حَصْرٌ من حيثُ إنه لا يُوجَدُ إلا سموات واحدة وأرضٌ واحِدَةٌ، وإذا كانَ الخالقُ لهما هُو الله عَزَّوَجَلَّ انتفَى أن يكونَ غَيرُهُ خالِقًا لهما.

الفَائِدةُ الثَّانِيةُ: الردُّ على أهلِ الطَّبيعَةِ الذين يقولون: إن السمواتِ والأرضَ ليس لها خالقٌ، بل هي أشياء تَتَفاعَلُ وتتحولُ وتتقَلَّبُ، وأن الخلقَ لا أَوَّلَ له ولا نِهايَةَ.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: إثباتُ حُدوثِ السَّموات والأرضِ وأنها ليستْ قَدِيمَةً، لقوله: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فهي مُوجَدَةٌ من العدمِ، وكُلُّ ما سِوَى الله عَزَّوَجَلَّ

---

(١) البحر المحيط في أصول الفقه (١/ ٢٤١)، (٤/ ١٨٦)، والتقرير والتحبير (٢/ ٣٠٧).

فهو موجودٌ بَعد العَدَمِ.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: إثباتُ أن السمواتِ سبعٌ، نأخذ هذه الفَائِدةَ مِنْ آيات أُخْرَى كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢].

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: إثباتُ أن الأَرَضِينَ سبْعٌ مع أن عَدَدهَا لم يأتِ في القرآنِ لكِنْ أُشِيرَ إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، فالمماثَلَةُ في الوصْفِ هنا متعَذِّرَةٌ، وإذا تَعَذَّرَتِ المماثَلَةُ في الوصْفِ رجَعْنَا إلى المماثلَةِ في العددِ، وقد جاءتِ السُّنَّةُ صَريحَةٌ في ذلك، قالَ ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(١).

الفَائِدةُ السَّادسَة: اطمئنانُ المؤمن بما يُحْدِثُه اللهُ في السمواتِ والأرضِ، وجه ذلك: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ فإذا عَرَف المؤمنُ أن ما حدثَ مِنْ جُوعٍ ومَرَضٍ وزَلازِلَ وفيضانات أنه بالحَقِّ اطمأنَّ ورَضِيَ وسَلِمَ، ولا راحة في الحقيقة للإنسانِ إلَّا بهذا، أي: بالإيمانِ بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه وأنه حَقٌّ، وإلا فإنه سيتكَدَّرُ؛ لأنه ما مِنْ ساعةٍ تمرُّ إلا وسيَجِدُ الإنسانَ فيها ما يَسُوؤه إما في نفْسِهِ أو أهلِهِ أو صحبه أو بلده، أو البلاد الإسلامية عامة.

لو قالَ قائلٌ: ما معنى قولِ البعضِ: (منَازَعَةُ الأَقْدَارِ بالشَّرْعِ واجِبَةٌ)، وهل هي صحيحة أم لا.

الجواب: المرادُ بالمنَازَعَة هنا المقابَلَةُ، فإذا جاءَنَا مِنَ القَدَرِ ما يَسُوؤنَا، فإننا نُنازِعُه بالصَّبْرِ، فإذا صَبَرْنَا ما ساءَنَا، أي: أن نُقابِلَ القَدَرَ بما يقْتَضِيهِ الشَّرْعُ، لكن

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين، رقم (٣٠٢٦)؛ ومسلم -واللفظ له-: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠).

منازَعَةَ القَدَرِ بالقَـدَرِ لا تجوزُ، والأَوْلَى البُـعْدُ عن مثلِ هـذه الألْفاظِ، لأنها كلماتٌ صُوفِيَّةٌ وتحتاجُ إلى بحث، ثم بعضُ الناس قد ينْفِرُ مِنْ كَلمةِ منَازعة.

الفَائِدةُ السَّابِعة: أن خَـلْقَ السمواتِ والأرضِ آيـة دَالَّةٌ على ما يقْتَضِيـهِ هذا المخلُوقُ من صِفاتِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وقد تقَدَّمَ أن منه ما يَقْتَضِي الدَّلالَةَ على قُدرَةِ اللهِ، والدَّلالة على حِكْمَةِ الله، والدَّلالةَ على عِزَّتِهِ حسبَ ما تقْتَضِيهِ الآيةُ.

الفائدتان الثامنة والتَّاسِعة: أنه لا ينْتَـفِعُ بالآياتِ إلا المؤمنونَ، لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ويتَفَرَّعُ على هذه الفَائِدةِ أنه كُلَّما كَمُلَ إيمانُ العبدِ ازداد انتفاعًا بالآياتِ.

وجه هذه الفَائِدةِ: ما سبـقَ ذِكْرُهُ من أن الحُكْمَ إذا عُلِّقَ بوصفٍ ازْدَادَ قُـوَّةً بقوَّتِهِ وضَعْفًا بضَعْفِهِ، فكلَّما كان الإنسانُ أقْوَى إيمانًا ظَهَر له مِنْ آياتِ اللهِ في هذه المخلوقاتِ ما لم يَظْهَرْ لمن هو دُونَهُ.

الآيــة (٤٥)

• • ● • •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٥].

• • ● • •

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱتْلُ ﴾ فِعْلُ أمرٍ مَبْنِيٌّ على حَذفِ حرفِ العلَّةِ، أصله: تَلا يَتْلُو. والقاعدةُ: أن فِعـلَ الأمرِ هو فعلٌ مضارعٌ مجْزُومٌ حُذِفَ منه حرفُ المضارَعةِ، فإذا أردت أن تَصوغَ الأمرُ مـن (خـاف) تقول: (خِفْ)، ومثله (نامَ) الأمر منه: (نَمْ) لأن مضارِعَه المجزوم (لم يَنَمْ)، وهكذا.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱتْلُ ﴾ يتَضَمَّنُ التلاوةَ اللَّفْظِيَّةَ، والتلاوة الحُكمِيَّةَ، أما التلاوة اللَّفظية فهي أن تَقْـرَأَ القرآنَ، والتلاوةُ الحُكمِـيَّةُ أن تأْخُذَ بأحكامِهِ وهي تـلاوة الاتِّباعِ، مأخوذةٌ من قولهـم: تَلا فلانٌ فلانًا، أي: تَبِعَه، قال تعـالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة:١٢١].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱتْلُ ﴾ الخطابُ للرَّسولِ ﷺ، وليس مُوَجَّهًا لكل من يَصِحُّ خِطَابُه؛ لأنه قال: ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ فهو خاصٌّ بالرسولِ ﷺ؛ لأن غيرَهُ لم يُوحَ إليه، ومع ذلك فالخِطابُ للرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خطابٌ له وللأُمَّةِ، بدليلِ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١]،

إلا ما دَلَّ الدَّلِيلُ على اخْتِصاصه به، كقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾، لو انْتَهتْ الآية هنا لجازَ للأُمَّةِ هذا الفعلَ، لكن قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٥٠]، فدَلَّ ذلك على أن الخطابَ الموَجَّه للرسولِ ﷺ خِطابٌ لأُمَّتِهِ ما لم يَدُلَّ دليلٌ على اخْتصاصِهِ به.

واعلم أن الخطابَ الموَجَّهَ للرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثلاثةُ أقسامٍ:

القسمُ الأَوَّلُ: يدُلُّ الدَّلِيلُ بمُقْتضى اللفْظِ الخاص أنه لـه ولغَيرِهِ، مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ [الطلاق:١]، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ثمَّ قالَ: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، ومثل قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم:١]، ثم قالَ: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم:٢]، ومِثْلُ قولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، ثم قالَ: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ [الأحزاب:٣٧].

القسمُ الثَّاني: يختَـصُّ بِهِ ولا يتَعدَّاهُ إلى غيرِهِ عَمَلًا بمُقْتَضَى اللَّفْظِ، مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:١-٤]؛ كلُّ هذا خاصٌّ بالرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

القِسْمُ الثالِثُ: يكونُ خاصًّا به بمُقْتَضَى الخِطابِ، لكن يَتناولُ غيرَه بمُقْتَضى التأَثُّرِ بدَلِيلٍ منْفصلٍ؛ مثل هذه الآية، فالرَّسُول أُمِرَ بالتلاوة وإقامَةِ الصلاةِ، والأُمَّةُ يجب عليها أن تَتْلُو ما أَوْحَاهُ الله إلى نَبِيِّهِ.

وقوله: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ (مَا) اسمٌ موصُولٌ يُفِيدُ العُمومَ.

وقـوله: ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ الوَحْي في اللُّغَةِ: الإعلامُ بسرعة وخَفـاءٍ؛ مثاله: رجلٌ بين قومٍ وتريدُ أن تُخْبِرَه وتُعْلِمَه بشيء، تريدُ أن تقول له: قُمْ نذهبُ إلى فلانٍ،

فأشرتَ إليه بيَدِك فَفِهم وقام معك، ولم يَفْهَمِ القومُ الذين معه، هذا هو الوحْي في اللغة.

وأما الوحْيُ في الشَّرعِ: فهو إعلامُ الله عَزَّوَجَلَّ بالشَّرْعِ لأحدِ أنْبيائِهِ أو رُسُلِهِ، والمراد هنا الوَحْيُ شَرْعًا، وله مراتب ذَكرها الله تعالى في سورة الشُّورَى.

قوله: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (مِنْ) هنا بيَانِيَّةٌ، بيان لـ(مَا) في قولِهِ: ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ المرادُ بـه القرآنُ، وسُمِّي كِتَابًا لأنه يُكْتَبُ في المصاحِفِ؛ ولأنه مكتوبٌ في اللَّوحِ المحْفُوظِ، ولأنه مكتوبٌ في أيْدِي الملائكة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١١-١٦].

و(كِتابا) فعـال بمعنى مفعول، وهو كثـير في اللغة العربية، كفِراش بمعـنى مفروش، وغِراس بمعنى مغروس، وبِناء بمعنى مبني.

قولـه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: ائتِ بها على وَجهِ الكمالِ؛ لأن إقامَـةَ الشيءِ جعله قَويًا ليس فيه اعْوجاجٌ ولا نَقْصٌ.

والخطاب في قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ للرسولِ ﷺ، ومعلومٌ أنه يُقِيمُ الصلاةَ وأنه أقْوَمُ المصلِّينَ صلاةً، فكيف وجَّه إليه الخطابُ بإقامَةِ الصَّلاةِ؟

الجواب: تَوجِيهُ الخِطابِ لمن يتَّصِفُ به، المرادُ به الاستمرارُ عليه لا تجْدِيدُه لأنه موجـودٌ، مثل قولـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٣٦]، فالخطابُ ليس عَبَثًا حتى نقولَ: إن هذا أمْرٌ بالإيمانِ؛ لأن الأمرَ بالإيمانِ

تحصيلُ الحاصِلِ؛ لأنهم مؤمنون، فالخِطابُ المرادُ منه الاستمرارُ على الإيمانِ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تقدَّمَ أن تِلاوةَ القُرآنِ تشْمَلُ الاتِّباعَ والعملَ بأحكامِهِ؛ لأن إقامَةَ الصَّلاةِ من اتِّبَاعه والعَمَلِ بأحكامِهِ، إذن عَطفَها على قوله: ﴿ٱتْلُ﴾ من باب عَطْفُ الخاصِ على العام، وعَطفُ الخاص على العـام هو إيذانٌ برِفْعةِ شأنِهِ، ولا شكَّ أن الصلاةَ من أفضلِ أعمالِ البدنِ؛ ولهذا خُصَّتْ بالذِّكْرِ.

وهل عطفُ الخاص على العام معناه ذِكْرُه مَرَّتَينِ أو مَعناهُ أنه أُفْرِدَ بالذِّكرِ من بينِ العُمومِ؟ في هذا رأيان لأهل العلم:

فمنهم من قال: إن ذِكْرَ الخاص بعد العام معناه أنه سُلِبَتْ دَلالَةُ العُمـوم بالنسبة إليه، ثم أُفْرِدَ بالذِّكْرِ.

ومنهم من قال: إنه داخلٌ في العُمومِ الأوَّلِ ثم أُفردَ بالذِّكرِ فيكون ذُكِرَ مرَّتينِ، وكـلا القولين يدلُّ على شرفِ هذا المذْكُـورِ، لكن أقواهما الأخير، وهو أن يُذْكَرَ مرتين: مرة بذِكْرِ العُموم ومرة بالخُصوصِ، وتظهر الفَائِدةُ فيما لو قلت: أُكْرِمُ الطلبةَ ومحمدًا، فعلى القول بأنه داخـلٌ في العمومِ ثم خُصَّ بالذِّكرِ، نعـرفُ أن مُحَمَّدًا من الطلبة، أما إذا قلنا: نُزِعَ من العمومِ ثم خُصَّ بالذِّكرِ، نبحث عن محمد هل هو طالب أو ليس بطالب، ونحتاج إلى قَرينَةٍ تَدُلُّ على أنه مِنَ الطَّلَبَةِ، والصحيحُ ما تقَدَّمَ.

قال عَزَّوَجَلَّ مُعَلِّلًا الأمرَ بإقامَةِ الصَّلاةِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، وهذا التعليلُ هل هو تَعْلِيلٌ بالنسبة للمخاطَبِ أو بالنِّسْبَةِ للمخاطَبِ بِهِ؟

إذا قلنا: إن التَّعْلِيـلَ بالنسبَةِ للمُخاطَبِ وهو الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ صارَ المعنى إن الصلاة تَنْهَاكَ عَنِ الفَحشاءِ والمنْكَرِ، وهذا يقْتَضِي جوازَ وُقوعِ الفَحشاءِ

والمنكرِ مِنَ الرَّسولِ ﷺ.

وإذا قلنا: إن التعليلَ بالنِّسْبَةِ للمُخاطَبِ به وهو الصلاة؛ قلنا: إن الصلاةَ من حيثُ هي صلاةٌ تنْهَى عن الفحشاءِ والمنْكَرِ، ويكونُ هذا وصفًا صادِقًا لغيرِ الرَّسولِ ﷺ، وهذا هو المتَعَيِّنُ؛ لعِلْمِنَا أن الرسولَ ﷺ معصومٌ من الفَحْشاءِ والمنْكَرِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ المرادُ بالصلاةِ في الموضِعَيْنِ صلاةُ الفَريضةِ والنافِلَةِ.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ أي: تمْنَعُ، لكنَّ التَّعبير بالنَّهْي أبلغُ من التَّعْبيرِ بالمنْعِ، فإنَّ المانِعَ قد لا يَكون مُحَذِّرًا، لكنْ في النَّهْي تَحْذِيرٌ، وهو أشَدُّ مِنَ المنْعِ لأنه يوجَدُ في القلبِ كراهَةٌ لهذا الشَّيءِ ونُفورٌ منه، ومجرَّدُ المنْعِ لا يقْتَضِي ذلك، فكأنَّ الصلاةَ فيها سِرٌّ يَقْتَضِي أن يبْعُدَ الإنسانُ عن الفَحشاءِ والمنْكَرِ، كأنها تُؤَنِّبُ ضمِيرَهُ: لماذا تَفْعَلُ هذا؟ فالصلاةُ تُوجِبُ المنْعَ مِنَ المعاصِي.

وقوله: ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ الفحشاءُ: كُلُّ ما يُستَفْحَشُ مِنَ المعاصِي كالزِّنَا والسَّرقَةِ وشربِ الخمرِ وقتلِ النفس وما أشبه ذلك، والمنْكَرُ ما دونَ ذلك، وعَطْفُ المنْكرِ على الفحشاءِ من عَطْفِ العامِ على الخاص؛ لأن كُلَّ فحشاء منْكر، وليس كل مُنْكَرٍ فَحشاء.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ شَرعًا، أي: مِنْ شأنِها ذلِكَ ما دَامَ المرءُ فِيها].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ شَأْنِهَا ذَلكَ] صحيحٌ، لكن قوله: [مَا دَامَ المرءُ فِيهَا] ليس بصحيحٍ، بل هي تَنْهى عن الفحشاءِ والمنْكَرِ ما دَامَ المرءُ فيها وما لم يدُمْ فيها، يعني

ليس نَفْعِها خاصًّا؛ لأن المصَلِّي حالَ كونِهِ يُصَلِّي لن يفعلَ الفَحشاءُ والمُنْكَرُ، لكن الفَائِدةَ العَظِيمَةَ أنها تؤَثِّرُ في قلْبِكَ تأثِيرًا يقْتَضِي إبعادُكَ عَنِ الفَحشاءِ والمنكرِ، وهذه هي الثَّمَرةُ والنتيجةُ، فتَقْيِيدُ المُفَسِّر ليسَ بصوابٍ، بل هي مُطْلَقَة تنهَى عن الفحشاءِ والمُنْكرِ داخلَ الصلاةِ وخارَجها.

ووجه ذلك: أن الإنسانَ يُنَاجِي ربَّه كما وَرَدَ في الحديثِ، فبَيْنَه وبينَ ربِّه صلِةٌ، هذه الصلِـةُ تُكْسِبُ القلبَ إِيمانًـا ونُورًا؛ ولهذا قـال النَّبِيُّ ﷺ: «**الصَّلاةُ نُورٌ**»[1]، ومعلومٌ أن القَلبَ إذا اكتَسَب نُورًا لا يَمِيلُ إلى الفحشاءِ والمنكرِ؛ لأنه كُلَّما هَمَّ أن يفعلَ معصِيَةً تَذَكَّرَ أنه قبلَ ساعات كان واقفًا بين يدَي اللهِ عَزَّوَجَلَّ فيخْجَلُ ويبْتَعِدُ.

وهـذا أمرٌ مشَاهَدٌ، فالإنسانُ أحيانًا يَذْكُر وُقوفَهُ في صلاةٍ منـذ عِشرين سنة أو أكثـر، صلَّى صلاةً في غايَةِ الإحسانِ كما جاء في الحـديث: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَّ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»[2]، فصلى كأنـه يَرَى ربَّهُ، فإنه يَجِـدُ طَعْمَ هذه الصلاةِ ولو بعدَ حينٍ طـويل فيَذْكُرُها ولا تَغِيـبُ عن قَلْبِهِ، هـذه الذِّكْرَى لا بـد أن تُؤَثِّر في نَهي الإنسـانِ عنِ الفحشاءِ والمنْكرِ، وهذا وجه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾.

لكن مُرادَه بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: الصلاةُ المقَامَةُ، فليس كلُّ صلاةٍ تَنْهَى عنِ الفَحشاءِ والمنْكَرِ، واللهِ لو كانتْ صلاتُنَا تَنْهانا عَنِ الفَحشاءِ والمنكرِ لكُنَّا سالِمِينَ؛ لكن نسألُ الله أن يُعامِلَنَا بعفْوِهِ، يدخُل الإنسانُ في الصلاةِ بقلبٍ ويَخرُجُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان الإسلام والإحسان وعلم الساعة، رقم (٥٠) عن أبي هريرة؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله عَزَّوَجَلَّ، رقم (٨) عن ابن عمر.

بنَفْسِ القلْبِ أو أَسْوأ، لكن العبادات إذا لم تُؤَثِّرْ على قلبكَ حُسْنَى فهي ضَرَرٌ، فالذي لا تنْفَعُه الآياتُ تَضُرُّهُ كما قال النبي ﷺ: «القُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»[(١)]، وكذلك جاءَ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا»[(٢)].

وهذه المسألةُ ما أكثرَ مَنْ يُعانِي منها من المسلمين، يقولُ الواحِدُ منهم: أنا لا أَتأَثَّرُ بالصلاةِ ولا يَحْضُر قَلْبِي ولا يَخْشَعُ، فما هُو الدَّواءُ؟

ثم إنَّ بعضَ الناس يشُكُّ في خبرِ الله عَزَّوَجَلَّ، فيقول: أنا أُصلِّي ولا تَنْهَانِي الصلاة عنِ الفحشاء والمنْكرِ، أصلِّي مع الجماعةِ في الصَّفِّ الأوَّلِ خلفَ الإمامِ، ثم أَخْرُجُ إلى مَتْجَرِي وأَبيعُ بالرِّبا وأَغُشُّ وأبيعُ بالكَذِبِ، وأجدُ في نَفْسي غلًّا وحِقدًا على المسلمين، وكَراهَةً لبَعْضِ شرعِ الله وما أشْبَه ذلك! ويقول: أين الصَّلاةُ التي تنْهَانا عَنِ الفَحشاءِ والمنْكَرِ؟

نقول: إن على كُلِّ مؤمنٍ أن يَعْلمَ عِلْمَ اليَقِينِ أن الصلاةَ تنْهَى عَنِ الفَحشاءِ والمنْكرِ؛ لأن خَبَرَ الله عَزَّوَجَلَّ صِدْقٌ، والله عَزَّوَجَلَّ عالم بكُلِّ شيءٍ، وهو -سبحانه- قال ذَلِكَ عن علمٍ، إذْنَ فالبَلاءُ في المصَلِّي لا في الصلاةِ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أكْبَرُ من غيرِهِ من الطَّاعاتِ]: (اللام) في قولِهِ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ﴾ لامُ الابتداءِ وقوله: (ذِكْرُ) مصدر مُضَافٌ إلى اسم الله جَلَّوَعَلَا، فهو مُضافٌ إلى مَفعولِهِ، وإعرابُ هذه الجملةِ:

﴿وَلَذِكْرُ﴾: (اللام) لامُ الابتداءِ، و(ذِكر): مبتدأٌ مرفوعٌ وعلامَةُ رَفعِهِ الضَّمَّةُ، وهو مضافٌ، والاسم الكريمُ مضافٌ إِلَيْهِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٥٤) (١١٠٢٥) عن ابن عباس.

﴿أَكۡبَرُ﴾: خبرُ المبتدأ.

وقوله: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ يَشْمَلُ مَعْنَيين:

الأوَّلُ: ولَذِكْرُكَ ربَّكَ أكْبَرُ.

والثاني: ولَذكرُ الله إياكَ بالصَّلاةِ له أكبرُ من نَهْيِهِ عَنِ الفَحشاءِ والمُنْكَرِ، والشأنُ بذِكْرِ اللهِ لكَ لا بِذِكْرِكَ لله، كما أن الشأنَ بمَحَبَّةِ الله لك لا بمحبتِّكَ لله.

وانـظر إلى قولـه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، فالشأنُ أن تُذكَرَ لا أنْ تَذكُرَ، وكما أن هذا بالنِّسْبَةِ للمَخلوقِ مع الخالقِ هو أيضًا بالنِّسْبَةِ للمخلُوقِينَ مع بعضهِم، كونَكَ تحِبُّ فُلانًا أو تذكر فُلانًا لا تَسْتَفِيدُ شَيئًا، إذا كان فلان مُعْرِضًا عنك لا تَسْتَفِيدُ إلا العناءَ والبلاءَ، ويشْهَدُ لِذلكَ قضيةُ بريرةَ مع زَوجِـهَا مُغيثٌ، هو يَذْكرها لكن هي لا تَذْكُـرُه ولا تُريدُهُ، هو يُحِبُّهَا حبًّا شَدِيدًا وهي لا تحِبُّه[1]، فالشأنُ أن يذْكُرك الله، ولكن ثِـقْ بأنك إذا ذَكرتَ اللهَ مِنْ قَلْبِكَ فإن ذكرَ الله لكَ أعظمُ من ذِكركَ له، وفي الحديـث القُدْسِيِّ: «إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي»، ونفْـسُ الله أعظمُ من نَفْسِكَ بلا شكٍّ، «وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»[2]، فأنتَ اذكرْ رَبَّك حقيقةً، فالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يذْكُرُك ذِكْرًا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب شفاعة النبي ﷺ على زوج بريرة، رقم (٤٩٧٩) ابن عباس بلفظ: أن زوج بريرة عبد أسود يقال له: مغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبي ﷺ لعباس: «يَا عَبَّاسُ! أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا». فقال النبي ﷺ: «لَوْ رَاجَعْتِهِ». قالت: يا رسول الله! تأمرني؟ قال: «إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ». قالت: لا حاجة لي فيه.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾، رقم (٦٩٧٠)؛ ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة.

أعظمَ مِنْ ذِكْرك إياه.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ مَنْ غَيْرِهِ مِنْ الطَّاعاتِ]: ظاهِرُ كلامِ المُفَسِّر أن المرادَ بالذِّكْرِ الذكرُ المنْفصِلُ عن الصلاةِ لا الذِّكْرَ الذي في الصلاة، يعني: أن الصلاةَ تَنْـهَى عنِ الفَحشاءِ والمنْكَرِ، وذكر الله أعظـمُ نهيًا عَنْ الفحشاءِ والمنكرِ وأكبر، ويحْتَمُلُ أن يكونَ المرادَ: ولِذِكْرِ اللهِ الموجودِ في الصَّلاةِ والموجودِ بها، الموجودُ فيها كالتَّسْبيحِ والتَّكبيرِ والقِراءةِ، وذِكْرُ اللهِ الموجودُ بها يعْني ما يحصلُ من ذِكرِ الله بِسببِها.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ هذه الجملـةُ خَبَرِيَّةٌ، لكن ليس المقْصودُ منها إخبارَنا أن الله يعْلَمُ ما نصْنَعُ، بل لها معنى عظيم وهو: التَّحْذِيرُ من أن نَصْنَعَ ما يخالِـفُ شَريعَتَهُ وُقوعًا في النَّهْي أو تَرْكًا للأمْرِ، فالآية للتَّرغيـبِ في فِعْـلِ الأوامِرِ وللتَّرهيبِ من مخالَفَتِهِ وعِصْيانِهِ فَهي شامِلَةٌ للأمْرَيْنِ، وإن كان الأقربُ أنها للتَّرْغِيبِ لأن قَبْلَهَا أمْرٌ، بخِلافِ ما لو كان قبلها نَهْي لكانت للتَّرهيبِ.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (مَا) اسمٌ موصولٌ دالٌّ على العمومِ يشْمَلُ كلَّ ما نصنَعُ من قولٍ أو فعْل، سواء فيما يتعلَّق بحقِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وفِيما يتعلَّق بحقِّ عبادِهِ.

وقوله: [﴿يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ ليُجازِيَكُم بِهِ]: هذ النتيجةُ، وهي نتيجَةٌ واضِحةٌ، والمجازَاةُ تكونُ في الدُّنْيا ويومَ القِيامة، والمجـازَاةُ على ما نَصْنَعُ قد تكونُ شَرْعِيَّةً بفعلِ العبدِ مثلُ الحُدودِ، فإن الحدودَ عقوبةٌ شَرْعِيَّةٌ بِفعْلِ العبدِ، فالعبدُ هو المأمورُ بِفِعْلِهَا، وقد تكونُ المجازاة كونية قَدَرِيَّةٌ بِفِعْلِ الله، كما لو أصيبَ الإنسانُ بأمراضٍ وتَلَفِ أموالٍ وما أشْبَه ذَلِكَ.

لو قالَ قائلٌ: هل الأمراضُ والمصَائبُ التي تُصِيبُ العبدَ عُقوبة أو ابتلاء؟

فالجواب: قد تكونُ عُقُوبَةً وقد تكون ابتلاءً وامتِحَانًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥]، فيكونُ اخْتِبَارًا، والمصائبُ التي تأْتِي الرَّسولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من باب الامتحانِ والابتلاءِ حتَّى يَصِلَ الإنسانُ إلى دَرَجَة الكمالِ؛ لأن الصبْرَ منْزِلَةٌ عاليَةٌ عظِيمةٌ في الدِّينِ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]؛ لكنَّ الصَّبْرَ بدونِ مَصبورٍ عليه لا يمكن، فلا بُدَّ من أشياءَ تَرِدُ على الإنسانِ من قضاءِ اللهِ يَصْبِرُ عليها.

والابتلاءُ والفِتْنَةُ قد تكونُ بالخيرِ والشَّرِّ، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، والفتْنَةُ بالنسبة للخيرِ فِتْنَةُ الشُّكْرِ، وبالنِّسبَةِ للشَّرِّ فِتنةُ الصَّبْرِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: وجوبُ تِلاوةِ القرآنِ على الوجوهِ الثلاثَةِ المتقدِّمةِ، وهي: تلاوةُ اللَّفْظِ، والمعْنَى، والاتباعِ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: إثباتُ أن النَّبِيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رسولٌ لقَولِهِ: ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾، فإن الوَحْيَ إليه يَدُلُّ على رِسَالَتِهِ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أهمِّيَّةُ الصلاة والعِنايةُ بها، لقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فالصلاةُ داخِلَةٌ في تِلاوةِ ما أُوحِيَ إليه، ثم خَصَّها بالذِّكْرِ للعِنايَةِ بشأنِها.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: أن المأمورَ به إقامَةُ الصَّلاةِ وليس فِعْلُ الصَّلاةِ، ولا يخْفَى الفَرْقُ بينَ الإقامَةِ وبينَ مُجَرَّدِ الفِعْلِ.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: الآثارُ الحميدَةُ المتَرَتِّبَةُ على إقامَةِ الصَّلاةِ، وهي النَّهي عن

الفَحشاءِ والمنْكَرِ، لقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾.

الفَائدتَانِ السادِسَةُ والسابعةُ: فضيلَةُ ذِكْرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، هذا إذا كانتِ الإضَافَةُ للمَفعولِ، وفيها أيضًا فضيلَةُ ذِكرِ اللهِ العَبْدَ وأنه مِنَ المَراتبِ العاليَةِ لقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، هذا إذا كانت مُضافَةً للفاعِلِ.

الفَائِدةُ الثَّامِنةُ: الأمورُ الإيجابيَّةُ أكمَلُ من الأمورِ السَّلْبيَّةِ؛ لأن ذِكرَ اللهِ أمرٌ إيجابِيٌّ؛ ولهذا قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، والنَّهي عنِ الفَحشاءِ والمنْكَرِ أمرٌ سَلْبِيٌّ، ولهذا قال العلماء: إن الصبرَ على طَاعَـةِ اللهِ أكْمَلُ مِنَ الصبرِ على معْصِيَـةِ الله؛ لأنه صَبرَ على فعلِ مُعانَاةٍ ومَشَقَّةٍ، فالإنسانُ يجاهِدُ نفْسَهُ بالصَّبْرِ على طاعَةِ الله مِنْ وَجْهَيْنِ: من جِهَةِ إلْزامِهَا بها، ومن جِهَةِ الصبرِ والتَّحمُّلِ لهذه الأفعالِ والأقْوالِ.

وليس المرادُ بالذِّكرِ ذِكْرَ الصُّوفِيَّةِ؛ لأنهم في الحقيقةِ لا يَذْكُرونَ الله، فذِكْرُهم بِدْعِيٌّ، والبِدْعَةُ مَرْدُودَةٌ عندَ اللهِ، والذِّكْرُ ليس باللسانِ فقط، بل الذِّكْرُ يكونُ باللسانِ والقلبِ والجَوارحِ، ولا بُدَّ أيضًا أن يكون على مُقْتَضى الشريعةِ، فكُلُّ ذِكْرٍ على خلافِ مقْتَضى الشَّريعَةِ فلَيْسَ ذِكْرًا، ولو ادَّعى صاحبُهُ أنه ذِكْرٌ.

الفوائدُ التاسِعَةُ والعَاشِرَةُ والحَادِيَةَ عشْرَةَ: إثباتُ علمِ الله عَزَّوَجَلَّ، لقَولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾، وإثباتُ عُمومِ العِلْم لقوله: ﴿مَا تَصْنَعُونَ﴾، وإثباتُ تعلُّقِ علْمِ الله بِفعلِ العِبادَ لقوله: ﴿تَصْنَعُونَ﴾ فيكون فيها رَدٌّ على طائِفةٍ وهمُ القَدَرِيَّةُ -أعني: غلاتَهُمْ- لأنهم كانوا قَدِيمًا يُنْكِرُونَ تعلُّقَ عِلمِ الله بِفعْلِ العَبدِ، ويقولون: إن الأمرَ أُنُفٌ، أي: مسْتَأْنَفٌ، وأن الله لا يعْلَمُ بأفعال العِبادِ إلا إذا عَمِلُوها، ولا شكَّ أن هذا كُفرٌ، كما قال الشافِعِيُّ وغيره: «جَادِلُوهُمْ بالعِلْمِ فإنْ أقَرُّوا بِهِ خُصِمُوا، وإنْ أنْكَرُوه كَفَرُوا».

الفَائدتَانِ الثانِيَةَ عشرةَ والثالثةَ عَشرةَ: إثباتُ الأفعالِ الاخْتِيارِيَّةِ للعَبْدِ ونَسْبتُهَا إليه؛ لقوله: ﴿تَصْنَعُونَ﴾، وفيها أيضًا رَدٌّ على طائفة ضِدٍّ القَدَرِيَّةِ وهم الجَبْرِيَّةُ.

الفَائِدَةُ الرابِعَةَ عشرةَ: أن من لم تَنْهَهُ صلاتُه عَنِ الفحشاءِ والمنْكَرِ فإنه لم يُقِمْهَا، لقولِهِ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، فجعل هذا أمرًا مُرَتَّبًا على إقامَةِ الصلاةِ، فإذا لم تَنْـهَكَ الصلاةُ عن الفَحشاءِ والمنْكَرِ فإنكَ لم تَقُمْهَا.

وهـذه المسألة كما تقدم يجب أن نُحاسِبَ أنْفُسنا عليـها فلا نقولُ: إننا أقَمْنَا الصلاةَ حتى نَنْظُر آثارها، فإذا وَجَدْنَا أن القلوبَ لم تَتَغيَّرْ ولم تَكْرَهِ الفَحشاءَ والمنكرَ بفعْلِ الصلاةِ، عَلِمْنَا أَنَّنا مُقَصِّرون في إقامتها، وإلَّا لَوْ أقمْنَاها لكانتِ النَّتِيجَةُ كما أخْبَرَ الله عَزَّوَجَلَّ.

• • ❁ • •

الآية (٤٦)

❁ قالَ الله عزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦].

•●○●•

قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾ الخطابُ للأمَّةِ جميعًا، وهو نَهْي، وقوله: ﴿تُجَٰدِلُوٓاْ﴾ المجادَلَةُ: هي مُنَازَعَةُ الخَصمِ لأمرين: للظُّهورِ عليه، وإبطالِ حُجَّتِهِ، مأخوذةٌ من فَتْلِ الرأسِ، وفَتْلِ الحبْلِ، لأن الجدَلَ هو فَتْلُ الحبْلِ، والمقصودُ به إحكَامُهُ وتَقْوِيَتُهُ، كأن المنَازِعَ يريدُ أن يُقَوِّيَ حُجَّتَهُ على خَصْمِهِ، وفي اللغة العامِّيَّةِ نَسَمِّي قرون المرأة (جدايل) لأنها تَفْتِلُها وتُقَوِّيها.

قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني: الذين أُوتُوهُ، وأهلُ الشيءِ هم من أُوتُوا الشيءَ وإن لم يَعْمَلُوا به، ويُرادُ به من أُوتِيَ الشيءَ وعَمِلِ به، ومحلُّ الثَّناءِ الثاني، فأهلُ القرآنِ حقًّا هم الذين حَفِظُوه تِلاوَةً وعَمِلُوا به، وكذلك الذين حَفِظُوه ولم يَعْمَلُوا به هم أهلُ القرآنِ لكن ليسُوا أهلَه حقًّا، ومَحِلُّ الثناءِ والمدْحِ مَنْ كان مِنْ أهله تِلاوَةً وعَمَلًا.

وقوله: ﴿أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ المرادُ بالكتابِ هُنا للجِنْسِ، وإلا فهما كتابان: التوراةُ لليهودِ والإنْجِيلُ للنَّصارَى.

قوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ هذا الاستثناء مفرغٌ مِنْ عُمومِ الأحوالِ، يعني: في أيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ لا تُجادِلُوهُم إلا بالَّتِي هِي أحْسَنُ.

وعبَّرَ ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ ولم يقل: (بالذي) مع أن (التي) للمؤنث؛ لأن المراد هنا: أي بالطَّريقَةِ التي هي أحسنُ، لأن المجادَلَةَ ليست كلمةً تُلْقى، بل هي طُرُقٌ، ولذلك في أَدَبِ المناظَرةِ تُوجَدُ طُرُقٌ يتمَكَّن بها الإنسان من الوصولِ إلى إقناعِ الخَصم وإقامَةِ الحُجَّة عليه.

وقوله: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: بالطريقَةِ المثْلَى التي يتَوَصَّلُ بها إلى إفْحَامِ الخَصمِ وهِي الأَدَاءُ، وكذلك الطَّريقةُ الأَقْوَى في إقنَاعِهِ وإقامَةِ الحُجَّةِ عليه وهي الصيغةُ، أي: صِفَةُ هذه المجادَلَةِ أو المنَازَعَةِ.

وقوله: ﴿أَحۡسَنُ﴾ اسمُ تَفْضِيلٍ مُطْلَقٌ ليِعُمَّ الحُسنَ في سِيَاقِ الأَدِلَّةِ، ويَعُمَّ الحسنَ في كيفِيَّةِ المجادَلَةِ، فلا بد مِنَ الأمرين، لا بُدَّ من حُسنِ الطَّريق، بمعنى: أن تأتي بأقربَ الطُّرُقِ لإقناعِ الخَصْمِ، ولا بد أيضًا من كيْفِيَّةِ عرضِ هذه الطريقة، ونضربُ مثلًا للأمْرَيْنِ:

إنسانٌ عندَهُ قوة في المناظَرَةِ وإيرادِ الحُجَجِ، لكنه إذا جاءَ يجادِلُ أخذَ في السَّبِّ والشَّتْمِ، يقول: أنت بَليدٌ وأنت كذا وكذا، هذا ليس بحَسَنٍ، وإن كان عَرْضُ الطريقِ وسياقُ الأدلَّة جيِّدًا؛ لكن كيفيةُ المجادَلَةِ ليس داخِلًا في قوله: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

وإنسانٌ آخَرُ لَيِّنُ الكَلامِ مُهَذَّبٌ لكن لا يُحسِنُ المناظَرَة؛ هذا أيضًا ليس دَاخِلًا في قولِهِ: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

انظُر إلى إبراهيمَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لـمَّا حاجَّه الملِكُ في ربِّه: ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي

يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾ لم يَذْهبْ إبراهيمُ ليُنازِعَهُ ويقول: أنت لا تُحْيِي ولا تُميتُ، أنت أنما تفعَلُ السبب، بل قال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ أتاهُ بدَليلٍ ولازِمٍ لا ينْفَكُّ منه، ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨]، أي: ما استطَاعَ أن يتَخلَّصَ من هذا الإيرادِ.

وأيضًا من الأحْسَنِ في المناظرةِ إذا رَأيت بسُلوكِكَ أحدَ الطُّرقِ أنه قد ينْفتِحُ عليك بابُ المعارضة، فاسلُكِ الطريقَ الآخَرَ، ولا تقل: أنا أحِبُّ أن أُبْقِي على الحُجَّةِ التي أدْلَيْتُ بها ولا أُورِدُ أُخْرَى لأني أخْشَى أن يكونَ ذلك التزامًا!

نقول: ما دامَ عندَكَ حُجَّةٌ تَعرفُ أنه لن يستَطِيعَ أن يُنَازِعَ فيها، فاتْرُكِ التي أَدلَيتَ بها أوَّلًا حتَّى لا ينْفَتِحَ عليكَ أبوابُ النَّقْدِ؛ ولأن هذه الحُجَّةَ تؤَدِّي إلى إفحامِ الخصْمِ، ولئلَّا تكون المنازَعَةُ بالحجَّةِ الأُولَى سَببًا لظُهورِهِ عليك؛ بينما أنت عِندكَ ما هو أقْوى مِنْ حُجَجِه إذا سلكْتَ الطريقَ الآخَرَ، وإن كان بمَجموعِ الطُّرقِ ينْتَفِي الاعتراضُ؛ فأَوْرِدْ جَميعَها.

فالحاصلُ: أن المجادلَةَ بالتي هي أحسنُ تشْمَلُ الطريقةَ التي تنْدَفِعُ بها حجَّةُ الخَصْمِ وتقومُ عليها الحُجَّةُ، وتَشْمَلُ كيْفِيَّةَ إلقاءِ هذه الحُجَّةِ.

وقوله: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: بالبَراهينِ الصَّادِقَةِ والأدِلَّةِ القاطِعةِ، وليست كلُّ حُجَّةٍ مَقْبُولةً إلا حُجَّةً من اللهِ ورسولِهِ.

لو قالَ قائلٌ: ما هي حُجَّةُ مُنْكِري صفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ، وكيف تُدْحَضُ هذه الحُجَجُ؟

الجواب: في الواقع أن مُنكِري الصفاتِ عندَهُمْ شُبَهٌ وليس عندهم حُجَجٌ،

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ [الشورى:١٦]، فاحتجَّ من يُنْكِرُونَ صِفاتِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى على اختلافِ مَشارِبِهِمْ؛ سواءٌ من يُنْكِرُ منهم الصفاتِ الخَبَرِيَّةَ أو الفعلية أو كلَّ الصفاتِ؛ احتَجُّوا بشبهةٍ وهي: أن إثباتَ هذه الصفاتِ يستلزمُ التَّشبيهَ، قالوا: لأنا لا نعْقِلُ في الخارجِ من يُوصَفُ بهذه الصفة إلا المخلوق، فيَقْتَضِي أن يكونَ الله تعالى مُشَابِهًا للخلْقِ، وعلى هذا فيَجِبُ إنكار الصفات، هذه غالبُ حُجَّةِ أهلِ التَّعْطِيلِ.

وهذه الشُّبْهَةُ سهلٌ إبْطالها، فنقـول لهم: أنتم تُشَاهِدُونَ المخلوقاتِ بعضَها تَتَّفِقُ مع بعضٍ في الأسماء، فالجَمَل له يَدٌ ورِجْلٌ، والحِصانُ له يَدٌ ورِجْلٌ، والنَّمْلَـةُ لها يدٌ ورِجْلٌ، والإنسانُ له يَدٌ ورِجْلٌ، وهي مختلفة غير متَشَابِهَةٍ؛ فإذا انتَفَى التَّشَابه في المخلوقاتِ مع أنها كُلَّها حادِثةٌ؛ فانتفاءُ التَّشَابُهِ بين الخالقِ والمخلُوقِ من بابِ أَوْلى وأقْطَعِ وأظهَرِ وأبيَنِ.

وقولهم: (في الخارِجِ) أي: في الواقعِ، احتِرازًا من الفَرضِ الذِّهْنِيِّ، فقد يَفْرِضُ الذِّهْـنُ أشياءَ لا وُجودَ لها، فيُصَـوِّر شخْصًا له آذانٌ طويلَـةٌ، الأُذُنُ طول المنَـارَةِ، والإصْبَعُ عشرةُ مليمترات، لكن هذا الذي صَوَّرَهُ ذِهنكَ غيرُ موجودٍ في الخارج، فيـمكن للذِّهْنِ أن يُصَوِّر كلِّيَّةً عامة يدخلُ فيـها الإنسانُ والبَعيرُ والحِـصانُ لكن لا وجود لها في الواقع.

فالحاصلُ: أنهم نَفَوا الصِّفاتِ عن اللهِ لأنه لا يُوجَدُ شيءٌ متَّصِفًا بهذه الصفاتِ إلا المخْلُوق، فقالوا: يجِبُ أن نَنْفِيَ عنه هذه الصفاتِ، وكذلك غُلاةُ الجَهْمِيَّةِ قالوا: لا نُثْبِتُ الأسماءَ، فلا نُسَـمِّيَ اللهَ بالسَّميعِ ولا بالعَليمِ ولا بالغَـفورِ ولا بالرَّحيمِ؛ لأن هـذه أسماءُ المخلـوقِ فلا نُسَمِّي بها الله، وقالـوا: لا نُثْبِتُ إلا فاعـلًا وقادِرًا،

وأثبَتُوا هذين الاسمَيْنِ فقط لأنهم جَبْرِيَّةٌ يَرَوْنَ أن الإنسانَ لا يفْعَلُ بنفسِهِ ولا يَقْدِرُ على الفِعلِ، فلما انتفَتْ صِفَةُ الفعلِ والقُدْرَةِ في الإنسان أثبَتُوا أن اللهَ فاعِلٌ وقادِرٌ مع أنهم يجِبُ أن يُثْبِتُوا الإرادَة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الإنسان ليس له إرادَةٌ عِنْدَهُمْ.

وقوله: [﴿إِلَّا بِٱلَّتِي﴾ أَيْ: المجادَلَةُ الَّتِي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ كالدُّعاءِ إلى اللهِ بآياتِهِ والتَّنبيهِ على حُجَجِهِ]: الدُّعاءُ إلى الله بآياتِهِ الشَّرعِيَّةِ والكونِيَّةِ لأن الله يَقُيمُ الحجَّةَ بها جميعًا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ أي: بالقُرآنِ ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢]، فالآياتُ الشَّرعِيَّةُ المجادَلَةُ بها حَقٌّ، وكيْفِيَّةُ المجادَلَةِ بها هي أن تُبَيِّنَ ما في شَريعةِ اللهِ من الحِكَمِ والأَسْرارِ، فإن هـذه الشريعةَ إذا بانَتْ حِكَمُها وأسْرارُها لكُلِّ ذِي عَقْلٍ تبَيَّنَ أنها هي الحقُّ، وكذلك أيضًا تبَيَّنَ ما في آياتِ اللهِ الشرعيَّةِ من الالْتِئَامِ والانتظامِ وعَدَمِ الاختلافِ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

وأما المجادَلَةُ بالآياتِ الكونِيَّةِ أن نُرِيَهُم آياتِ اللهِ الكونِيَّةِ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥]، وهذه الآية وما بَعْدَها من سورةِ الطُّورِ مناظَرَةٌ بالآياتِ الشَّرْعِيَّةِ ومناظَرَةٌ بالآياتِ الكونِيَّةِ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور:٣٦-٣٨]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور:٣٣-٣٤]، فالآيةُ الأَخِيرَةُ مناظَرَةٌ بالآياتِ الشَّرْعِيَّةِ والآيات التي قَبلَها مناظَرَةٌ بالآياتِ الكَوْنِيَّةِ.

ومن ذلك مناظَرَةُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في الذي حَاجَّه في رَبِّهِ، ناظَرَه بالآياتِ الكوْنِيَّةِ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [والتَّنْبِيهُ عَلَى حُجَجِهِ]: الحُجَجُ جمع حُجَّة، وهي الدَّلِيلُ المقْنِعُ.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ هذا مستَثْنَى مِنْ قولِهِ: ﴿أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وهذا الاستثناءُ يجوزُ فيه النَّصْبُ ويجوز فيه البَدَلِيَّةُ، والأرجحُ البَدَلِيَّةُ؛ لأنه بمعنى النفي لأنه مسبوقٌ بنَهْي، قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

مَا اسْتَثْنَتِ الّا مَعْ تَمَامٍ يَنْتَصِبْ وَبَعْدَ نَفْيٍ أَوْ كَنَفْيٍ انْتُخِبْ

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ بأَنْ حارَبُوا وأَبَوْا أنْ يُقِرُّوا بالجِزْيَةِ فجَادِلُوهُم بالسَّيْفِ حتى يُسْلِمُوا أو يُعْطُوا الجِزيَةَ]: هؤلاء هُمُ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ولعَلَّ الآية أعَمُّ مما قال المُفَسِّر، ويكونُ المرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: كابَرُوا وعانَدُوا ولم يَرْضَخُوا للحَقِّ الذي تبيَّنَ، فهؤلاء لا يجادَلُون بالتي هي أحسَنُ؛ لأنه تبَيَّنَ عنادُهم.

وهل الآيةُ تَدُلُّ على أنهم يُتْرَكون، أم أن الآيـة تَدُلُّ على أنهم يجادَلُونَ بالَّتِي هي أسْوأُ؟

اختـلف كلامُ المفَسِّرينَ في هـذه المسألة: فمنـهم من قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ فاتْرُكوهُم ولا تُجادِلُوهم؛ لأنه لا فائِدَةَ من جِدَالِهم ما دامَ قد ظَهَرَ عِنادُهُم وظُلْمُهُمْ. ومنـهم من قال كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ يعني: فجَالِدُوهم ولا تُجادِلُوهُم أي: فجالِدُوهم بالسَّيْفِ حتى يُسْلموا أو يَعْطُوا الجزية.

وعِنْـدي أن الآية تحتَمِلُ المعْنَيين جميعًا، وأنه ينبَغِي أن تنْزِلَ على الحالَين وتستعمل كلَّ حالٍ بما يَليقُ ويُناسِبُ، فإذا كان المقامُ يقْتَضِي أن نجَالِدَهُم بالسيفِ،

---

(١) البيت رقم (٣١٦) من ألفيته.

وذلك بأن يكونَ لَدَينا مِنَ القُوَّةِ والقُدرَةِ ما نتمكن به مِنْ ذلِكَ، وإذا لم يكن لنا قُدْرةٌ وكانت المصْلَحَةُ تقْتَضِي تَرْكهم فإنَّنَا نتْرُكهم، وهذا -واللهُ أعلم- هو السير في أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يَذْكُر حُكم هذا المستثنى صَريحًا، فلم يَقُلْ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ فجادِلُوهم بالتي هي أسْوأ، ولم يقل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ فلا تجادِلُوهم. بل جعله صالحًا للأمرين!

لو قال قائلٌ: تَفْسِيرُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآية بقوله: [فجَادِلُوهُم بالسَّيفِ حتَّى يُسْلِموا أو يُعْطُوا الجِزيةَ]، كيف يَسْتَقِمُ هذا التَّفْسِيرُ مع أن الآية مكِّيَّةَ؟

الجواب: يَستَقِيمُ هذا التَّفْسِيرُ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذَكَرَ حالَ أهلِ الكِتابِ في مَكَّةَ ليَسْتَعِدَّ الناسُ لها.

قوله: [﴿وَقُولُوٓاْ﴾ لمَنْ قَبِلَ الإقْرارَ بالجِزْيَةِ إذَا أَخْبَروكُم بشَيْءٍ مما فِي كُتُبِهِمْ]: أي: فقولـوا: عنْدَ المنَازَعَة والمحَاجَّة؛ لأن بعضَ الناسِ إذا نازَعَ أو خاصَمَ صار يَسُبُّ مَحِلَّ الحجَّةِ من خَصْمِهِ، فإذا قال له المنازِعُ: إن هذا القول قاله فلانٌ في مؤلَّف له، صارَ يَصُبُّ جامَّ السَّبِّ والغَضب على هذا الكتاب، ويقول هذا خَطأ، ولا ينبغي هذا العمل لأن هَذه قَضِيَّةُ عاجِزٍ.

فهنا نقول لهؤلاء المجادِلِين مِنْ أهلِ الكتاب: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ وهو القرآن ﴿وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ وهو التَّوراةُ إذا كانُوا مِنَ اليهودِ، والإنْجِيلِ إذا كانوا مِنَ النَّصارى، فنحن لا نُنْكِرُ ما أُنزل إليكم، بل نقول: إنه حقٌّ، لكن نؤمن بما أُنْزِلَ إلينا ونقول: إنه حق، وإذا آمَنَّا بهذا فبأَيِّهِمَا يكونُ الحُكْمُ؟

الجواب: بما نَزَل أَخِيرًا وهو القُرآنُ، لأنه ناسِخٌ، وحينئذٍ يكون في قولنا هَذَا:

أولًا: تَهْدِئَةً لنفُوسِهم.

ثانيًا: إلزَامًا لهم بالإيمانِ بما أُنزلَ إلينا؛ لأن الإنسانَ بُشَّرَ فإذا قيل له: أنا آمنت بما أُنزِلُ إليك فآمِنْ بما أُنْزل إليَّ، سيأخُذُه الخَجَلُ والفَضْلُ وربما يوافِقُ، لأنه سيقول في نفسه: كيف يُؤمِنُ هذا الرجل بما أُنزَل إليَّ وما أُنْزِل إليه وأنا أُكَذِّبُ ما أُنزِلَ إليه، وهذا في الحقيقةِ مِنَ المجادلَةِ بالتي هي أحْسَنُ.

وقوله: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾، كلما جاءَ الأمرُ بالقولِ فالمرادُ به القولُ باللِّسانِ بعد الإقرارِ بالجنانِ؛ لأن مجرَّدَ القولِ باللِّسانِ لا يكون إيمانًا كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة:٨]، فالإيمانُ الذي لا يتطابَقُ فيه القلبُ واللِّسانُ، هذا ليس بإيمان، بل هو نِفاقٌ والعياذ بالله.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ هذا من بلاغَةِ القُرآنِ، لم يقُلْ: وما قُلتم أو ما جِئتم به، بل قال: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾؛ لأن لديْهم من التَّحريفِ والتَّبدِيلِ ما لا يمكن معه أن نَقْبَلَ كلَّ ما جاءوا به، لكن نؤمِنُ بالمنَزَّلِ إليهم، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**لا تُصَدِّقُوهُمْ ولا تُكَذِّبُوهُمْ وقُولُوا:** ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾»(١)، فنحن مؤمِنُون بالمنَزَّلِ لا المبَدَّلِ، وصِفةُ الإيمان بما أُنزل إلينا ليس كصِفَةِ الإيمانِ بما أُنزِلَ إليهم، لأن إيمانَنا بما أُنزل إلينا مَلْزِمٌ بالاتِّباعِ وإيمانُنا بما أُنزل إليهم ليس مُلْزِمًا، فإذا وُجِدَ في شَرْعِنَا ما يخالِفُ شَرعَهم فالمتَّبعُ شَرعُنَا،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف بهذا اللفظ عن عطاء بن يسار (٦/ ١١١) (١٠١٦١)، وأصله عند: أبي داود: كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، رقم (٣٦٤٤)؛ وأحمد (٤/ ١٣٦) (١٧٢٦٤) عن أبي نملة الأنصاري.

لكننا نؤمن بأن ما نُزِّلَ إليهم من عندَ الله وأنه حَقٌّ، وأنه يجِبُ عليهم اتِّباعُه في حالِ قيامِهِ وعدمِ نَسْخِهِ.

وقوله: بما ﴿أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن جميعَ الكُتبِ المنزَّلةِ على الأنبياء من الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾، أي: معبودُنا؛ لأن (إله) بمَعنى مألُوهٍ، وصيغة فِعَالٍ بمعنى مَفعُولٍ كثيرة في اللغة العربية، فالمألُوه بمعنى المعبُودُ، والإله يُطْلَقُ على المعبودِ بحَقٍّ وعلى المعبودِ بغيرِ حَقٍّ؛ لكن اللهَ وحْدَهُ هو المعبودُ بحَقٍّ، وما عَداه فمعبودٌ بالباطِلِ، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢]، فهذه الأصنامُ تُسَمَّى آلهةً لكن أُلُوهِيَّتها باطلةٌ شَرْعًا، ولهذا صحَّ النَّفي في قولـه: (لَا إِلَهَ إِلَّا الله)، فهذا النَّفي لا يعْني أنه لا يوجَدُ آلهة في الكونِ إلا اللهُ، بل يوجَدُ آلهة لكن ألوهِيَّتَها باطلةٌ، فما عدا الله عَزَّوَجَلَّ فألوهيَّتُهُ باطِلَةٌ، ولذا فهي لا تُسَمَّى آلهة حقًّا، بل آلهة باطلة، وقد سمَّاها الله عَزَّوَجَلَّ آلهة وسمَّاها الرسلُ كذلك؛ لكنها آلهة باطلة.

لو قال قائل: قولنا: (لَا إِلَهَ إِلَّا الله)، لماذا لا نَقْدِّر الخبر بـ(موجود) ونجعل تلكَ الآلهة مجرَّد أسماء؟

الجواب: لا يصِحُّ هذا التقدير، وقد قـدَّرَهُ بعْضُهم فقال: إن التقديرَ: لا إله مَوجُودٌ، لكن لو قَدَّرْنَا هذا التقديرَ لاحتَجَّ المشركونَ علينا، وقالوا: إذَا كُنْتُم تقولون: هذه ليست آلهة فلَسْنَا بمُشْرِكينَ؛ لأننا ما عَبَدْنَا إلهًا.

فالصواب: أن نقَدِّرَ: لا إله حق إلا الله، وهذا صَريحُ القُرآنِ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سمَّاها آلهة فقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص:٨٨]، سمَّاها إلهًا،

وهذا ليس فيه مُحَاجَّة للمشركينَ حتى نقول: إنه من باب التَّنَزُّلِ مع الخَصْمِ.

وقال إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومِهِ: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات:٨٦]، وقال الرجلُ الصالِحُ النَّاصحُ لقومِهِ: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس:٢٣]، فاتَّفَقَ على ذلك الوَحْيُ المُنَزَّل وكلامُ الرُّسُلِ وكلامُ الصَّالحينَ.

وقوله: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ هذا في مخاطبةِ اليهودِ ظَاهِرٌ وبيِّن، لكن في مخاطَبَةِ النَّصارَى كيف يَصِحُّ أن نقول: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ وهم يَعبدُونَ المسيحَ ويَرَوْنَهُ إلهًا، ويقولون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣]، والإله عندهُم مكوَّنٌ من أقانيمَ ثلاثة هي: الأبُ، والابنُ، والرُّوح القدس.

وهذا لا شكَّ أنه مكابَرَةٌ؛ كيف يكون الإلهُ في ثلاثةٍ، وكلُّ واحدٍ قائم بنَفْسِه منْفردٌ عن الآخَرِ، والذي جاء به الإنجيلُ والتوراةُ أن الإله واحدٌ.

إذن: فالرَدُّ على زَعمِهِمْ أن نقول: إننا نُنْكِرُ أن يكون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَتعَّددًا، ونُلْزِمُهم بذلك؛ لأن النَّصارَى يقولُون: الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن زَعْمِهِمْ الباطلِ بسؤالِهِ لعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يوم القيامة: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، والله يعلم أنه لم يَقُلْ شيئًا، لكن من أجلِ إبطالِ دَعْوى قومِه وإلْزَامِهِمْ بالحُجَّة ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٦-١١٧].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾، هذا فيه أيضًا إلزامٌ لهم بالقَبُولِ؛

لأنه إذا كانَ الإلهُ واحِدًا ونزَّلَ الكتابَ السابق، ثم نَزَّلَ الكتابَ المهَيْمِنَ اللاحقَ، فالواجبُ علينا وعليكم اتِّباعُ هذا الذي نَزَل من عند الله المتَّفَقِ عليه بَيْنَنا وبينكم.

ونضْرِبُ لذلك مثلًا على سبيلِ التَّقْدِيرِ ولله المثل الأعلى: مَلِكٌ له رَعِيَّةٌ، فأمر جماعةً بأمرٍ وأمرَ آخرين بأمرٍ آخر، فالواجب علينا جميعًا الطاعةُ ما دُمْنا نعترفُ بأنه هو الملِكُ، كلٌّ يُطِيعُه بما أمَرَ به؛ فأنتُمْ أُمِرْتُمْ بشيءٍ ثم نُسِخَ هذا الأمر إلى أمر ثانٍ من إلهٍ واحد، فالواجبُ عَلينا جميعًا أن نَنْصاعَ تحت أمرِ هذا الإله الواحدِ.

قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي: نحن وأنتم لا نَحْنُ وَحْدنا، ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ أي: لهذا الإله الواحدِ مسلمون، وتَقْدِيمُ المعْمُول يُفيدُ الحَصْرَ، يعني: له لَا لغَيْرِهِ.

ومعناه أيضًا: أنكم لم تُسْلِمُوا لله بل أَسْلَمْتُمْ لأهوائِكُمْ.

والمرادُ بالإسلامِ هنا الاستسلامُ ظاهِرًا وباطِنًا، ولهذا فَسَّرَهُ العلماءُ بأنه الاستِسْلامُ لله ظاهرًا وباطنًا، الاستسلامُ ظاهرًا: أن يقومَ الإنسانُ بالأعمال الظاهرةِ كالصَّلاةِ والزَّكاةِ والصِّيامِ والحجِّ، والاستسلامُ باطنًا هو: إخلاصُ النِّيَّةِ لله عَزَّوَجَلَّ، قال الله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة:١١٢]، إسلامُ الوجْهِ لله أي: إسلامُ القَصْدِ، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ بالعَملِ الصَّالِحِ، أي: عَملِ الجوارحِ.

والإسلامُ عندَ ذِكْرِه وَحْدَهُ يشْمَلُ الإيمانَ، والإيمانُ إذا ذُكِرَ وَحْدَهُ يَشْمَلُ الإسلامَ وإذا اجتمَعا صارَ الإيمانُ للباطِنِ والإسلامُ للظاهِرِ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤].

قَال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ مُطِيعُون]: فَفسَّر الإسلامَ بالطاعَةِ، والطاعَةُ هي موافقَةُ الآمِرِ أو النَّاهِي، يعني أنها فِعْلُ المأمورِ وتركُ المحظُورِ على الوجهِ

الذي قُصِدَ من الآمِرِ أو النَّاهِي.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: وجوبُ اتِّباعِ الأحسنِ في المجادَلَةِ، نأخُذُه من الحصْرِ في قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، والنَّهْي يقْتضي التحريمَ، فإذا حُرِّمت المجادلَةُ إلا بالتي هي أحْسَنُ وجبَتِ المجادَلَةُ بالتي هي أحسنُ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أنه يجِبُ على المرءِ أن يعرفَ ما عند خَصْمِه ليجادِلَهُ به، يعني لو أن رجلًا أراد أن يجادِلَ اليهودَ فقال: سأقرأُ التَّوراةَ وما في كُتُبِهِمْ حتى أستَطِيعَ أن أَرُدَّ عليهم فلا بأس، لكننا قلنا سابقًا: إن في القرآنِ والسُّنَّةِ من ذلك ما يَكْفِي ويشْفِي، فإن ما فيهما حقٌّ وما في التوراةِ قد يكونُ محرَّفًا.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أنه يجِبُ ألا نجادِلَ غيرَ أهلِ الكتابِ إلا بالتي هي أحسنُ، كما لو جادَلْنا الفلاسفةَ وغيرَهم.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: يجبُ في المجادلةِ اتِّباعُ ما يكون أشَدَّ إقْناعًا وإبْطالًا لحُجَّةِ الخصْم، لقوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؛ لأن (أَحْسَنُ) اسم تفضيل، وتقدم أن المجادَلة إذا كانت تفْتَحُ بابَ المنازَعَة فإنه يُترك هذا البابِ إلى بابٍ آخرِ، وذَكَرْنا مناظرةَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الذي حآجَّه في رَبِّه.

واعْلَمْ أن المقصودَ من المجادَلَةِ الوصولُ إلى الحقِّ لا مجرَّدَ الغلَبةِ، فالذي يَقْصِدُ بمجادَلتِهِ مجرَّدَ الغلبة لا لله ولكن لنَفْسِهِ؛ هذا في الحقيقةِ خاسِرٌ وإن ظَهَرَ وغَلَب، هذه هي المرتبةُ الأُولى.

والمرتبة الثانيةُ: منْ قَصَد الظهورُ والغَلَبة على خَصْمِه لأنه يعتَقِدُ أن الحقَّ معه،

فيريدُ أن يَعْلُو هذا الحقُّ، فهذا لا شك أنه حَسَنٌ ولا يُلامُ عليه المرءُ، لكن أعلى منه مَنْ قَصَدَ إظهارَ الحقِّ بقَطْعِ النَّظَرِ عن كونِ ذلك انتصارًا لنفسه أوْ لا، وهذه هي المرتبَةُ الثالثة.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: أن الظالم في المحاجَّة لا يجادِلُ بالتي هي أحسنُ، لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾، ولكن هل يُتْركُ أو يستَعْمَلُ معه الشِّدَّةُ؟

ذكرنا فيما سبق أنه على حسبِ الحالِ: فإن كانتِ المصْلَحَةُ تقْتَضي تَرْكَهُ تُرِك، وإلا فلنَتَّبِعِ الشِّدَّةَ.

الفَائِدةُ السَّادسَة: أن من أهلِ الكتابِ من هو معانِدٌ ظالمٌ، ومنهم من قد يكونُ خَفِي عليه الحقُّ فبالمجادلة يتبَيَّن له، لقولِهِ: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾.

فقـوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ يدُلُّ على أنهم منْقَسِـمُونَ إلى ظالم معانـِدٍ مكابِرٍ، وآخر مستَرْشِدٌ قد يخْـفَى عليه الحقُّ بما لُبِّسَ عليه من علمائِهِمْ، فإذا تَبَيَّنَ له الحقُّ رجعَ وأخذَ بِهِ.

الفَائِدةُ السَّابعة: سلُوكُ ما يقْتَضِي اطمئنانُ الخَصْمِ في المناظرةِ وسُلوكِ ما يقْتَضِي إلزَامَهُ، لقوله: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: إثباتُ أن التوراةَ نزلَتْ مِنْ عندِ الله، لقوله: ﴿وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾.

الفَائِدةُ التَّاسِعة: إثباتُ أن التوراةَ والإنْجِيلَ والقُرآنَ كلامُ الله، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾.

لو قالَ قائلٌ: هل القـرآنُ عَيْنٌ قائمَةٌ بنفسه أم أنه صِفَـةٌ، وما شُبـهةُ الجهْمِيَّةِ

في كونِ القرآنَ مُنَزَّلًا كما في قوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾؟

الجواب: الواجبُ أن يُقالَ: إنَّ القرآنَ صِفَةٌ من صِفاتِ الله؛ لأن كلامَ الله صِفَةٌ وليس عَيْنًا قائمًا بنفسه، ولا بُدَّ لكُلِّ صِفةٍ مِنْ مَوصوفٍ، وبهذا نعرف أن القرآنَ كلامُ اللهِ.

أما مسألةُ الإنزالِ فَهِي شُبْهَةٌ وليستْ حُجَّةً، وهي أن يحتَجَّ عليك الجهْمِيُّ بقول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦]، ومعلومٌ أن الأزواج الثمانية مخلوقةٌ، وسمَّاه اللهُ إنزالًا، وقال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد:٢٥]، والحديدُ لا شكَّ أنه مخْلُوقٌ!

لكن هذا الإيرادُ نَنْفَكُّ منه بأن هذه أعيانٌ قائمةٌ بنَفْسِها، والأعيان القائمةُ بنفسها مخلُوقة بكلِّ حالٍ، فكلُّ ما سِوى اللهِ فإنه مخْلُوقٌ، ونُبْطِلُ الحجَّةَ بهذا.

الفَائِدةُ العْاشِرَة: إثباتُ العُلُوِّ لله عَزَّوَجَلَّ لقوله: ﴿أُنزِلَ﴾، والنزولُ لا يكونُ إلا مِنْ أعْلَى.

الفَائِدةُ الحَادِيَةَ عشْرَةَ: أن أهلَ الكتابِ يُقِرُّونَ بألوهِيَّةِ اللهِ لقولِه: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾.

الفَائِدة الثانيةَ عشرة: أن الإسلامَ إنما يكونُ لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وَجْهُ ذلك: تقديمُ المعمولِ في قولِهِ: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾، وتَقديمُ ما حقُّه التَّأخيرُ يفيدُ الحصرِ، قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [البقرة:١١٢].

الآية (٤٧)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت:٤٧].

إعرابُ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الكاف: اسمٌ بمَعْنى (مثل) محلُّه مِنَ الإعرابِ النَّصبَ على المفعولِيَّةِ المطلَقَةِ، التقدير: ومثل ذلك الإنزالِ: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وقد يكونُ مفعولًا به مُقَدَّمًا، ومثلُ هذا كثيرٌ في القرآنِ كقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٧٤]، أي: مثل ذلكَ الفِعْلِ يفْعَلُونَ.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الخطابُ في قَولِهِ: ﴿إِلَيْكَ﴾ للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وقوله: ﴿أَنزَلْنَآ﴾ أضافه الله إليه لأنه كَلامُه لَفْظًا ومَعْنًى، وهذا الذي عليه أهلُ السنَّة والجماعة، وهو الذي دلَّ عليه القرآنُ والسنَّة وإجماعُ الأئمةِ.

وهو مخالفٌ لقولِ الأشاعِرَةِ: إن القرآنَ كلامُ الله معنى لا لَفْظًا، وإن هذه الحروفَ مخلوقة خَلقها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لتكونَ عِبارَةً عن كلامِ الله وليست هي كلامُهُ.

والكُلَّابِيَّةُ أتباعُ سعيدِ بن كُلَّابٍ يقولون: حكاية عَنْ كلامِ الله وليس عبارةً.

وأهل السُّنَّـةِ يقولون: إنه كلامُ الله حقيقةً لا حكايَـةً ولا عبارةً، وكل مـن الأشَاعِرَةِ والكُلَّابِيَّةِ جعل الكلام هو المعنى القائمُ بنَفسه.

والغَريبُ أنهم يقولون أيضًا: إنه قَدِيمٌ، يعْنِي: لا يتَجَدَّدُ وأنه بمعنى واحدٍ وأنَّ (قُلْ) مثل (لْ)، وأن الخبرَ مثلُ الأمرِ، وأن التوراةَ والإنجيلَ والقرآنَ وسائرُ ما يتكلَّمُ الله به شيءٌ واحِدٌ.

وكل هذا تَصَوُّرُه كافٍ في رَدِّهِ، وهو في الحقيقةِ إنكارٌ لكَلامِ اللهِ، ولهذا قال بعضُ المحقِّقِينَ منهم: في الحقيقةِ أنه لا فرق بينَنَا وبين المعْتَزِلة والجهْمِيَّةَ، فإننا جميعًا متفقون على أن في دَفَّتَي المصحْفِ مخلوقٌ لكن هم أكثرُ شجاعَةً مِنَّا.

المعتزلة أكثر شجَاعَةً من الأشْعَرِيَّةِ، لأنهم يقولون: القرآنُ مخلوقٌ لفْظًا ومعنى، والأشعرية يقولونَ: مَخْلوقًا لفظًا لا معنى.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ (ال) في قولِهِ: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ للعَهْدِ الذِّهْنِيِّ، والكتاب المراد به القرآنُ.

قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ (الفاء) هنا للتَّفْرِيعِ، أي: تَفَرَّع عن إنزالِ الكتابِ على الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن انْقَسَم الناسُ فيه إلى قِسْمَيْنِ: قِسمٌ آتاهُمُ الكتابُ فآمَنُوا به، وقِسْمٌ آخرُ لم يُؤْمِنُوا به.

وقولُه: [﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التَّوراةُ كعَبْدِ اللهِ بنِ سَلام وغَيْرِهِ]: لكن هذا التفسيرُ فيه شيءٌ من الإشكالِ، لأن قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يَدُلُّ على أن جميعَ الذين أُوتُـوا الكتابَ يؤمنون به مع أن أكْثَرهُم في عهـدِ الرَّسولِ ﷺ ما آمَنَ به، فالمرادُ إذن بقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: إيتاءً كَوْنِيًّا وشَرْعِيًّا، بمعنى:

أن الله آتاهُمُ الكتابَ وعَمِلُوا به، فهؤلاءِ هُمُ الَّذين أُوتُوا الكتابَ على وَجْهِ الكَمالِ والإطلاقِ فآمَنُوا بالقُرآنِ، مثلُ عبدِ الله بن سَلام من اليهودِ، والنَّجَاشِي مِنَ النصارى، وسلمانُ الفَارِسِيُّ لم يؤتَ الكتابَ لكنَّه آمن بالقرآنِ؛ لأنه تلَّقى العِلمَ عن أهلِ الكِتابِ.

فهؤلاء ثلاثةُ أصنافٍ: اليهودُ، والنصارَى، ومن تَلَقَّى العِلمَ عنهم؛ كلهم فتَحَ الله عليهم، فآمنوا بهذا القُرآنِ.

ولا يقالُ: إن قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ عامٌّ؛ لأن الإيمانَ عند الإطلاقِ يشْمَلُ الإيمانَ الحَقِيقِيَّ وليس مجرد التَّصْدِيق، وهم أيضًا لم يُصَدِّقُوا، بل غالِبُهم أنكرَ وكذَّب، ولهذا مَثَّل المُفَسِّر بالذين أسْلَمُوا كعبدِ اللهِ بن سَلامٍ.

وقوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ بمعنى أعْطيناهُم، وقد تأتي بمعنى جِئناهُم، والفَرْقُ بينهما أن ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ مِنَ الرُّباعِي بمعنى أعْطَيناهم، ومن الثُّلاثِي بمعنى جِئنَاهم.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ الجملة خبرٌ لمبتدأ، والمبتدأُ قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ﴾.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآنِ فيُصَدِّقُونه، فأهلُ العِلْمِ منهم الراسخونَ فيه الذين يُرِيدُون الحقَّ، آمنوا بالقرآنِ واتَّبَعُوه ورَأَوْا أنه حَقٌّ.

لو قالَ قائلٌ: إن المعْنَى ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: يَعْرِفُونَ أنه حقٌّ ولكن لا يؤمنون به فهل هذا المعنى صحيح؟

الجواب: هذا خلافُ ظاهرُ الآيـة، وإن كان المعنى من حيـثُ هو يُحْتَمَلُ، والإيمان عندَ الإطلاقِ المرادُ به التَّصديقُ المستَلْزِمُ للقَبولِ والإذعانِ، ولهذا قال في آية أُخْرَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾، هذا يَشْمَلُ الجميعَ،

ثم قال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ أَيْ: أَهْلِ مَكَّةَ]: و(مِنْ) للتَّبْعيض، وعلامة (مِنْ) التَّبْعِيضِيَّةِ أن يَحِلَّ محلَّها (بعض)، يعني: وبعض هؤلاء يؤمنون بِهِ، والمشَارُ إليه في قولِهِ: ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ أهلُ مَكَّةَ؛ لأن هذه السورةَ مَكِّيَّةٌ، فالمشار إليهم قَريبون إذ إنها نَزلتْ قبلَ الهجرة.

وانظرِ الفرقَ بينَ التَّعْبيرين: ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، وقوله: ﴿وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ﴾، كأن المؤمنين بذلك من قُريشٍ قِلَّةٌ، بَعضُهم يُؤمِنُ به والأكثرُ لا يؤمِنُ به، والمرادُ مَنْ يؤمن به الآن في الحاضر لا المستقبل.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ تقدَّمَ أن الإيمانَ عندَ الإطلاق يرادُ به التَّصدِيقُ المستَلْزِمُ لقبولِ ما جاءِ به الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والإذعانُ: وهو الانقيادُ وليسَ مجَرَّدَ التَّصديقِ، ولو كان الإيمانُ مجرَّدُ التَّصْديقِ لكان أبو طالب مُؤمنًا.

قوله: [﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ بَعْدَ ظُهورِها ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ أَيْ: اليهودُ، وظَهَرَ لهم أن القُرآنَ حَقٌّ، والجَائي به مُحِقٌّ وجَحَدوا ذَلِكَ]: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ هذا استثناءٌ مُفرَّغٌ، أي أن العَامِلَ قبلَ الاستثناءِ مَفرَّغٌ لما بعده، وعلى هذا فنُعْرِبُ ﴿الْكَافِرُونَ﴾ فاعلٌ لـ﴿يَجْحَدُ﴾.

وقوله : ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ المعروفُ أن الجُحودَ يتعَدَّى بنفْسِهِ فيقال: جَحَدَ الشيءَ لكِنَّهُ هنا مضَمَّنٌ معنى الكُفر أي: وما يَكْفُر بها جحودًا إلا الكافرون.

فإذا قال قائل: إذا قُلتم: وما يَكْفُر بها إلا الكافرون كأنه تَحْصِيلُ الحاصلِ؟

فالجواب: لا، لأننا نقول: وما يكْفُرُ بها جُحُودًا؛ لأن الكُفْرَ قد يكونُ استِكْبارًا،

وقد يكونُ جُحودًا كهذه الآيَةِ.

وقوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي: الشَّرْعِيَّةِ والكونية، فإن مِنَ النَّاسِ مَنْ جحدَ الآياتِ الكونِيَّةِ، جَحَدَ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحْيِي الموتَى، بل مِنَ الناس من جَحَدَ أن تكونَ هذه الخَلِيقَةُ بخالِقٍ، وأما جَحْدُ الآياتِ الشَّرعيةِ فكَثِيرٌ.

قوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ مفهومها أن غيرَ الكافرين يُقِرُّونَ بها، وعلى هذا فكُلُّ من جَحَدَ شيئًا من آياتِ الله فإنه يَسْتَحِقُّ من الكُفْرِ بقَدْرِ ما جَحَدَ، إن كان كفرًا مُطْلَقًا أو أقلَّ.

وقَال المُفَسِّر: [أي: اليَهُود]: هذا قُصُورٌ في التَّفْسِيرِ؛ لأن قوله: ﴿ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ أعَمُّ من اليهودِ؛ لأن (ال) اسمٌ مُوصولٌ، قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

وَصِـــفَةٌ صَرِيحَـــةٌ صِـــلَةُ (ال) وَكَوْنُهَـا بِمُعْـرَبِ الأفْعَـالِ قَـلّ

فـ(ال) تُفِيدُ العُمومَ، يعني: ما يَجْحَدُ إلا الكافِرُ، وعليه فقوله: ﴿ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ يشمَلُ اليهودَ وغيرَ اليهودِ، أليس الله تعالى قال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤]، وفرعونُ ليس مِنَ اليهودِ، فرعون من الأقباطِ، وذلك قبلَ أن يكونَ بَنُو إسرائيل يهودًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن القرآنَ مُنَزَّلٌ من عِندِ اللهِ، لقولِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ﴾، وأنه كَلامُهُ حُروفُه ومعانِيهِ، لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ والذي يُكْتَبُ هو الحُروف، وعلى هذا فيكونُ كلامَ الله حروفَه ومعانِيهِ.

---

(١) البيت رقم (٩٨) من ألفيته.

الفَائِدة الثَّانِية: الإشارةُ إلى أن القرآنَ الكريمَ مكتوبٌ، لقوله: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾، وقد ذكرَ الله عَزَّوَجَلَّ أن القرآنَ مكتوبٌ في ثلاثةِ مواضِعَ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أن من أهلِ الكِتابِ مَنْ آمَنَ به فِعْلًا، لقولِهِ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، والمراد البعضُ مِثْلُ عبدِ اللهِ بن سلامٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الفَائِدة الرَّابِعة: الاستِشْهادُ بالغيرِ على صحَّةِ المدَّعَى به، يعني أن الإنسانَ يستَشْهِدُ بغيرِهِ من خُصومِهِ كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الرعد:٤٣]، وهذه الآية أيضًا ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، فيقالُ: ممن أُوتِيَ الكتابَ منْكُم أيها اليهودُ أو النصارى من آمَنَ بهذا القرآن، وهذه الحُجَّةُ مُفِيدَةٌ جدًّا عند المناظَرةِ؛ أن تحتجَّ على الطائفة بقولِ بعضِ عُلمائها، ولهذا كان شيخُ الإسلامِ ابن تيمية يحتجُّ على الفلاسفة وغيرهم بقولِ بعْض نُظَّارِهِمْ، واحتج على بطلانِ قولِ المتكلِّمِينَ بقولِ الرَّازِي وهو مِنْ أكابرِهِم[1]:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ	وَأَكْثَرُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا	وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنا	سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيه قِيلَ وَقَالُوا

ولا شك أن (قِيلَ وَقَالُوا) ليست بفائدة.

والشاهدُ من مثل هذا: أن الرَّازِيَّ نَفْسُه هو الذي يتكَلَّمُ بهذه الأبيات إما مُنْشِدًا أو مُنْشِئًا، وقبلَ هذه الأبيات يقول: «لقد تأَمَّلْت الطرقَ الكلامِيَّةَ والمناهِجَ الفلسفية، فلم أَرها تَرْوِي غَلِيلًا ولا تَشْفِي عَلِيلًا، ووجدتُ أقربَ الطرقِ في ذلك

(١) انظر الفتوى الحموية (ص:١٩٢).

طريقةُ القرآن، اقرأ في الإثباتِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، واقرأ في النَّفْي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٠]، ومن جرَّبَ مِثْلَ تجرِبَتِي عَرَف مثلَ مَعْرِفَتِي][1]، فأقر الرجل على نفسه بأن المذاهبَ الفلسفية كلها لا خيرَ فيها؛ لا تَشْفِي العَلِيل ولا تَرْوي الغليل.

الفَائِدة الخامِسة: أن من مُشْرِكِي قريشٍ من آمَنَ بالقرآنِ لقوله: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾، فقد آمن مِنْ قُريش من أشْرافِهِمْ ووُجهائِهِم ممن سَبَقوا إلى الإسلام مثلِ أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان مِنْ أشْرَافِهِمْ، وكانوا يرْجِعُونَ إليه في النَّسبِ، ومعروفٌ بالكَرَمِ، ويُعِينُ على نَوائب الحق، فأوصافُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كأوصافِ النبي ﷺ، ومع ذلك كان أسبقَ الناسِ إلى الإيمانِ بالرسولِ ﷺ، فلماذا تُنْكِرُونَ وفيكم مَنْ آمن به؟

الفَائِدة السَّادسَة: أن كُلَّ من جَحدَ بآياتِ اللهِ فهو كافِرٌ، لقولِهِ: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، وهذا يشمل جَحْدَ الآياتِ عُمومًا وجَحْدَ أفرادِها، فمَنْ جَحدَ بعضَ القرآنِ وأقرَّ ببعضِهِ حُكِم بكفره، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٥٠]، فمن آمن ببعضٍ وكَفَرَ ببعضٍ عَلِمْنَا يَقِينًا أن إيمانَهُ ليس بحَقٍّ، لو كان إيمانُهُ حقًّا لم يكن هناك فرقٌ بين ما آمَنَ به وكَفَرَ به، وإنما كَفَر بِبَعْضِهِ لمجَرَّدِ هَواهُ.

فمن جَحَدَ شيئًا مِنَ الشَّريعَةِ الإسلاميةِ فإنَّهُ كافِرٌ ولو آمَنَ بالبَاقِي، لكن ليُنْتَبَهَ إلى أن هذا مشروطٌ بالعِلْمِ، فإذا انْتَفَى العِلْمُ وجَحَدَهُ لعدمِ عِلْمِه لم يَكْفُر حتى يَتَبَيَّنَ له الحقُّ؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]،

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٥٠٠)؛ ومجموع الفتاوى (٤/ ٧٢-٧٣)؛ والبداية والنهاية (١٣/ ٦١-٦٢).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥]، فإذا بُيِّن لهم ما يتَّقُون ولم يتَّقوا؛ حينئذٍ يحكمُ بضَلالِهِم.

أما أن يُضِلَّهُمُ الله جَلَّ وَعَلَا قبل أن يُبيِّنَ لهم ما يتَّقُونَ، هذا لا يُمْكِنُ حُدوثُهُ؛ لأنه ليس مما تَقْتَضِيهِ حكمَةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعَدْلُه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ﴾ [القصص:٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

وأخذَ أهلُ العلمِ من ذلك أن من نَشَأ بالبَادِيَةِ أو بِدَارِ كُفْرٍ وجَحَدَ ما هو معلومٌ عندَ المسْلِمينَ بالضَّرورَةِ فإنه لا يكْفُرُ حتى يُعرَّف به، فإذا عُرِّفَ به وتَبيَّنَ أنه أنْكَرَ؛ حينئذٍ يَكْفُرُ، وهذه مسألة يجِبُ علينا أن نتأمَّلَها؛ لأن بعض الإخوةِ الغَيورِينَ على دِينهم يحكُمُون بالتَّكْفيرِ على سَبيلِ الإطلاقِ، وهذا خطأٌ؛ فإنه ثَبَتَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ: «أَنَّ مَنْ دَعَا رَجُلًا بالكُفرِ أَوْ قَالَ: عَدُوُّ اللهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ»(١).

وأيضًا: الحكمُ بالتَّكفيرِ حُكمٌ من أحكامِ الله؛ لأن قولَكَ عن هذا الرجل: إنه كافِرٌ، كقولك عن هذا الطعام: إنه حرامٌ أو إنه حَلالٌ، فالحكمُ بالكُفر والإيمان لله جَلَّ وَعَلَا، فلا يجوزُ أن تُكَفِّر إلا مَنْ كَفَّره الله ورسولُهُ، بل ولا أن تُفَسِّق إلا مَنْ فَسَّقَه الله ورسولُه، فالأمرُ ليس إليك، الحكمُ على العبادِ بيدِ خالِقِهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إن حَكَمَ عليهم بالكُفر فاحكمْ به وإلا فَلا.

كذلك أيضًا من شروطِ التَّكْفيرِ: ألا يوجَدَ مانِعٌ، فإن وُجِد مانِعٌ من التَّكفيرِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم، رقم (٦١) عن أبي ذر.

لم يَكْفُرْ؛ لأن العلمَ بما يُوجِبُ الكُفْرَ شرطٌ، كذلك انتفاءُ المانع شَرْطٌ، فإن وجد مانِعٌ يَمْنَعُ من التَّكفيرِ لم يَكْفُرْ.

والموانع كثيرة، منها الإكراهُ، لو أُكْرِهَ رجل على الكُفر وقَلْبه مطمَئِنٌّ بالإيمان لم يَكْفُر بنَصِّ القرآن وإجماعِ المسلمينَ.

ومن الموانع ألا يحولَ بين إرَادَتِهِ حائلٌ، بمعنى ألا يكون هناك حائلٌ يمْنَعُهُ من الإرادةِ والقَصْدِ، فيكون خرجَ منه الكُفْرُ بغيرِ قَصْدٍ، فإذا خرج منه الكفرُ بغير قَصْدٍ لم يكْفُر ولو كانَ كُفرًا صريحًا كالشَّمْسِ، مثل أن يكون غاضبًا غَضَبًا شَدِيدًا، أو فَـرِحًا فَرَحًا شديدًا، أو خائفًا خَوْفًا شَدِيـدًا، فيُطْلَقُ الكُفْـر من غيرِ إرادَةٍ؛ فهذا لا شكَّ أنه لا يَكْفُرُ.

وقد قالَ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في فَرَحِ الله بتوبَةِ عبدِهِ المؤمن أنه: كرجلٍ أضلَّ بَعِيرُه وعليـه طعَامُه وشرَابُه فلم يجِدْهُ، فنامَ تحتَ شَجَرةٍ ينتَـظِرُ الموتَ، ثم استيقظَ وإذا بخِطَام ناقَتِه متعَلِّقٌ بالشَّجرةِ، فأخَـذَ الخِطَامَ وقال من شِدَّةِ الفرح: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ [1]، ولا شكَّ أن هذه الكلمةَ كُفرٌ، بل لو قال: أنت عَبْدِي فقط، وقد قال: (أنتَ عَبدي وأنَا ربُّكَ) فادَّعَى لنفسه الربوبيةَ ولرَبِّهِ العُبودية، لكن قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَخطَأَ مِنْ شَدَّةِ الْفَرَحِ».

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، رقم (٢٧٤٧) عن أنس بلفظ: «لله أَشَدُّ فَرحاً بتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَا هُوَ كَذلِكَ إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»، وأصله عند البخاري: كتاب الدعوات، باب التوبة، رقم (٥٩٤٩) عن ابن مسعود.

وهذا الأمرُ -وهو: اعتبارُ وجودِ الشُّروطِ وانتِفَاءِ الموانِعِ- ليس خاصًّا بمسألةِ التَّكْفِيرِ بل هو عامٌّ، فكلُّ الأشياء لا تَتِمُّ إلا بوجود شُروطِهَا وانتفاءِ موانِعِهَا.

لكن إذا ادَّعَى أحدُ الجهال ومثلُه لا يَجْهَلُه هل يُقْبَلُ لو قال: أنا لا أعْلَمُ أن هذا واجبٌ، لو علمتُ أنه واجبٌ ما جَحَدْتُهُ؟ نقول: الحمدُ لله، إذا قلت هذا فأنت الآن تائبٌ وقد أَقْرَرْتَ بِهِ.

لكن لو جحَدَهُ رَأْسًا قبلَ أن نُطَالِبَهُ فإذا كان مثْلُهُ لا يجْهَلُه فهو كافِرٌ، كما لو جَحَدَ تحريمَ الزِّنَا وهو ناشِئٌ في بلادٍ إسلامِيَّةٍ محافظة تُحَرِّمُ الزِّنَا، وقال إن الزنا حلالٌ؛ هذا لا يُعْذَرُ، لكن لو نشأ في بلادٍ إسلامية متَهَتِّكَةٍ فيها أسواقُ الزِّنا مفتوحة وجحَدَ تحريمَ الزِّنَا وهو لا يَدْرِي، نقول: ما دام أن هناك شبهة فإن الحدودَ تُدْرَأُ بالشُّبهاتِ، والإنسان المسلمُ هو مسْلِم ولا يمكن أن نُخْرِجَهُ من الإسلام إلا بيَقِينٍ.

وكذلك لو نشَأ إنسانٌ في بلادٍ كُلِّها رِبويَّةٍ تعمل البنوكُ فيها بالرِّبَا، وقال: أنا لا أدري أن الربا حرام، هذا كذلك لا نُخرِجُه مِنَ الإسلام لأنه جاهل، وأيضًا الذين نَشَؤوا في بلاد ينْتَحِلُ عُلماؤُهَا مَذْهَبُ الأشاعِرَةِ، فهؤلاء لا يَدْرُون عن مذهب أهلِ السُّنَّةِ شيئًا يحسبون أن هذا هو الحق، حتى أن منهم من يؤلف ويقول: «إن مذهَبَ أهل السُّنْةِ والجماعَةِ ينْحصرُ في مذهبِ الأشاعِرَةِ والماتُرِيدِيَّةِ»، لأنه جاهل، وهذه بَلِيَّةٌ عظيمة، وهذا سبب عُذْرِهِ مع أنه طالب علم أنه قد لا يكون هناك كُتُبٌ من كُتبِ أهلِ السُّنَّةِ قرأها، وهذا من جنس الذي عاش في بلاد كُفْرٍ وليس عندَهُ كُتُب من كُتبِ الإسلام، فالجهلُ واحِدٌ، لأنه قد لا يَطْرَأُ على بالهم إطلاقًا أن هناك مذهبًا ثالثًا غير هَذين المذهبين، ويَظُنُّ بعضُ العامة عندنا أنه لا يوجَدُ مَذْهَبٌ إلا مذهب الحنابلة.

والمهم: أن مسائِلَ الجَهْلِ هذه ليس لها حَدٌّ، والحمدُ لله أن الإنسان ما دامَ يجِدُ مَخْرجًا مِنْ تكفيرِ المسلِمِ فلْيَسْلُكْه، لكن إذا عادَ وأصرَّ وعانَدَ فهذا شيءٌ آخَرُ.

ولو ادَّعَى رَجَلٌ الجهلَ في صَرْفِ شيء مما يختصُّ بالله مِنَ العبادات إلى غيرِ الله فإننا نَنْظُرُ: إذا كان مِثْلُهُ يَجْهَلُهُ نقول: عَلِمتَ فأَقِرَّ، أما إذا كان مثلُهُ لا يجهله نقول: كَذَبْتَ في دَعواك الجَهل؛ لكن أَقِرَّ بما يَقْتَضِيهِ العِلْمُ.

لو قال قائل: قريةٌ كامِلَةٌ يَدْعُو أصحابها القبورَ هل نَحكمُ بكُفرِهِمْ؟

الجواب: لا نَحْكُمُ بكفرِهِمْ في ظاهِرِ الحال إذا كان مِثْلُهم يجْهَلُونَ، لكننا نَدْعُوهُم إلى الحَقِّ، فإذا أصَرُّوا وقالوا: لا نَقْبَلُ منكم هذا، وهذا دِينٌ جديدٌ، نَحْنُ على ما كان عليه آباؤنَا؛ حينئذٍ نُكَفِّرُهُمْ.

• • ❁ • •

الآيــة (٤٨)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨].

قَال المُفَسِّر: [﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: القُرآنُ]: وهذا لا يَسْتَقِيمُ، لأنه ليس بواضحٍ ولا يتَناسَبُ مع السياقِ؛ لأن لفْظَةَ (كِتَابٍ) منونة، وفي نَسْخَةٍ أخرى: [﴿مِن كِتَٰبٍ﴾ لله]؛ فعَلى هذه النسخة يكون المعنى: ما قرأتُ كُتُبًا نازِلَةً من قَبْلُ حتى تُتهَّمَ، وأما إذا حَذَفْنا لفظة (لله) كما في بعض النُّسَخِ فيكون المرادُ بالكتابِ هنا المكتوبُ، يعني: ما كنت تَتْلُو مَكْتُوبًا سواء هو نازِلٌ من عندِ اللهِ أم مِنْ عندَ غَيْرِ اللهِ، والأخيرُ أعَمُّ، وعلى هذا فالذي يظْهَرُ -والله تعالى أعلم- زيادة اسم (الله) في كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله: ﴿تَتْلُوا۟﴾ يَعْنِي: تَقْرَأُ.

وقوله: ﴿مِن كِتَٰبٍ﴾ (من) زائِدَةٌ لَفْظًا ومَعْنًى، فزَائِدَةٌ لَفْظًا بمعنى أنها لو حُذِفَتْ لاستقامَ الكلامُ، وزائِدَةٌ معنى، أي: فيها زِيادَةُ مَعْنى وهو التوكيدُ، والتعبير المعروفُ يقولون: [زَائِدَة لفظًا لا مَعْنى]، وزيادَتُها لتَأْكِيدِ النَّفْي غالِبًا، قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

وزيــدَ فِي نَفْـي وشِـبْهِهِ فَجَـرُّ ... نكِـرةً كَـما لِبَـاغٍ مِـنْ مَفَـرْ

(١) البيت رقم (٣٧٠) من ألفيته.

وزيادَتُها في الإثباتِ مختَلَفٌ فيها، فبعضُ النَّحْوِيِّينَ يُجِيزُهَا كالمبَرِّدِ.

وأما التعبيرُ بلفظِ (زائد) على شيء مِنْ ألفاظِ القرآن فيَرَى بعضُ أهل العِلْمِ من المعْرِبِينَ أنه لا ينْبَغي، لما يوهِمُه من الحَشْوِ في القُرآنِ، والقرآن ليس فيه حَشْوٌ، لكن هذا الوَهْمُ يَزُولُ إذا قلنا: زائدٌ لفْظًا ومَعْنًى.

وقوله: ﴿مِن كِتَٰبٍ﴾ محَلُّهُ مِنَ الإعرابِ مفعولٌ بِهِ، وقال بعضهم: إنها تَوكِيدٌ لـ﴿تَتْلُوا۟﴾ لأنه لا يُتْلَى إلا المكْتُوبُ، فعندما أقول: قرَأتُ، تَفْهَمُ أني قرأتُ شيئًا مَكْتُوبًا، فلِذَا قالوا: إنها توكيد، لكن هذا فيه نظر؛ لأن الذي يُتْلى قد يكونُ مَكْتُوبًا وقد يكونُ مَسْمُوعًا، فعندما أسمعُ منكَ كَلامًا وأُتَابِعُكَ فيه أكون قد تَلَوْتُهُ، وفي ظني أنها ليست من باب التوكيدِ لـ﴿تَتْلُوا۟﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ هذا من باب التوكيدِ وليس من بابِ التَّقْييدِ؛ لأننا لو قلنا: إنه من بابِ التَّقْييدِ لكان مفهومها (وتخُطُّهُ بيَسارِكَ)، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام:٣٨]، فإن الطيرَ معروفٌ أنه بالجَناحِ، ولهذا لو انكسرَ جناحُ الطائرِ لا يَطِيرُ، وإن كان بعضُ المتأخرين يقول إن قولـه: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ احترازٌ مِنَ الطائرات؛ لأن الله يعلمُ أنه سيكونُ طائرٌ بدون جناحٍ، وهذا لا يَسْتَقِيمُ، وذلك لأنه قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]، والطائراتُ لا تُحْشَرُ يوم القيامة، فعَلَى هذا يكونُ من بابِ التوكيدِ لا من باب التَّقْييدِ.

لو قال قائل: هل نأخُذُ من هذه الآية أن الذي يَكْتُبُ باليَمِينِ أفضلُ ممن يكْتُبُ باليسارِ؟

الجواب: الظَّاهِرَ أن التَّقْييدَ باليمِينِ لكونِ الأخذِ والإعطاءِ والكِتابَةِ والضربِ غالِبًا باليَمِينِ، ونادِرٌ أن يُوجَدَ أحدٌ يكتُبُ ويَعْمَلُ باليسارِ، وأنْدَرُ منها من يعْمَلُ بهما

جميعًا، وإن كان بعضُ الناسِ يُعْطِيهِ الله القوةَ فيعَمْلُ بهما سواء.

قوله: ﴿إِذًا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ (إذًا) هذه منَوَّنَةٌ، ويُسَمِّي علماءُ النحو هذا التنوين -كما تقدم- تَنْوينَ العِوَضِ، وهو عِوَضٌ عن جملَةٍ، والتقدير: إذ لو كُنتَ تَتْلُو من قبلِهِ من كتابٍ أو تَخطُّه بيَمِينِكَ لارتابَ المبطلونَ، وعلى هذا فـ(اللام) في قولِه: ﴿لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ واقعة في جوابِ (لو) المحْذُوفَةِ في الجملَةِ المعَوَّضِ عنْها بالتَّنْوينِ.

وقوله: ﴿لَّٱرۡتَابَ﴾ أي: شَكَّ، إلا أنَّ أهلَ العِلمِ يقولون: إن الرَّيبَ والشَكَّ بينهما فرْقٌ، فالرَّيْبُ شكٌّ بقَلَقٍ، ولا شَكَّ تَرَدُّدٌ بدونِ قَلَقٍ، يعني: لو كنت على هذه الحال لارتابَ المبْطِلُونَ.

وقوله: ﴿لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ لم يقل: لارتابَ الناس؛ لأنه لو فُرِضَ أن النبيَّ ﷺ يتلو كتابَ الله من قَبْلِ ذلكَ ويخُطُّه بيَمِينِهِ، وأتى بهذا القرآن مع وجودِ الآياتِ الدَّالَّةِ على صِدْقِهِ لا يحصُل ارْتيابٌ، لكن المبْطِلَ قد يحتَجُّ بالشبْهَة ويَراها بَيِّنَةً.

وقوله: ﴿لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ (ال) في قولِهِ: ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ اسم موصول صلتُهُ (مبطلون)، قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَصِفَةٌ صَرِيحَةٌ صِلَةُ (ال) وَكَوْنُهَا بِمُعرَبِ الأَفْعَالِ قَلْ

وقوله: ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أي: المائِلونَ إلى الباطِلِ أو الدَّاخِلُونَ فيه؛ لأن زيادَةَ الهَمْزَةِ قد تُفيدُ الدُّخولَ في الشيءِ، يقالُ: أَحْصَدَ الزرعُ، أي: دَخَلَ وقتُ الحصادِ، ويُقالُ: أَنْجَدَ الرَّجلُ أي: دخل في نَجْدٍ، وأَبْطَلَ أي: دخل في الباطِلِ وأخَذَ به،

---

(١) البيت رقم (٩٨) من ألفيته.

فالمبْطِلُونَ أي: المبْتَغُونَ للباطِلِ الدَّاخِلُونَ فيه.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ أن رَسولَ الله ﷺ لا يَقْرَأُ ولا يكْتب قبل أن يَنزِلَ عليه القرآنُ، لقولِهِ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾.

واختلَفَ العُلماءُ هل صارَ النَّبيُّ ﷺ يُحسِنُ الكِتابَةَ والقِراءةَ بعدَ نُزولِ القُرآنِ أو لَا؟

جمهورُ الأمَّةِ على أنه لا يُحْسِنُهَا، وأنه ﷺ ماتَ وهو لا يَقْرَأُ ولا يَكْتُب، واستَدَلُّوا لذلك بأن النَّبيَّ ﷺ كان أُمِّيًا وصفَه الله عَزَّوَجَلَّ بأنه النَّبِيُّ الأُمِّيُّ، والأمِّيُّ هو الذي لا يَقْرأُ ولا يَكْتُب، وهذا الوصفُ الأصْلُ بقاؤُه حتى يَتبيَّنَ زواله.

واستدلُّوا بأن الرسولَ ﷺ كان لَدَيْهِ كُتَّابٌ يَكْتُبونَ الوحْيَ والرسائلَ للملوكِ يدْعوهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولو كان يكْتُبُ بيدِهِ لكانت كِتَابَتُه بيدِهِ أوثَقُ وأقْوَى اطمِئْنَانًا في المكْتوبِ، والرسولُ ﷺ لم يكُنْ ليَدعَ ما هو أوْثَقُ وأقوى اطْمئنَانًا لأمرٍ دونَهُ إلا عند العَجزِ عنه.

وقال بعضُ أهلِ العِلْمِ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ صارَ يُحسِنُ الكِتابَةَ والقِراءةَ بعدَ نُزولِ الوَحْيِ عليه، واستَدَلُّوا بأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ فمفهوم ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ يقْتَضِي أنه بعد ذلك لا يمْتَنِعُ عليه أن يَقْرأَ أو أن يَكْتُبَ.

واستدَلُّوا أيضًا بأن النَّبيَّ ﷺ في غزوةِ الحُدَيبِيَةِ لما أمرَ علَّي بنِ أبي طَالِبٍ أن يكْتُبَ: «هَذَا، مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله»، فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو: لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ، وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله،

فَأَمَرَ عَلِيًّا أن يَمْحُوَهَا، فَأَبَى عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ فَمَحَاهَا وكَتَبَ: مُحَمَّدُ ابْنُ عَبْدِ اللهِ[(١)]. هذا لفظُ البُخَارِيِّ، قالوا: فكلمة (كَتَبَ) تدل على أنه بَاشَرَ الكِتَابَة.

القولُ الثالِثُ: أن النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قرأ وكَتَبَ بعـد أن نَزَلَ عليه القُرآنُ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْطَاهُ عَقْلًا وأَعْطَاهُ عِلْمًا، والعاقِلُ العالمُ لا يَشُـقُّ عليه أن يَقْرأَ ويَكْتُبَ بعد أن ينْزِلَ عليه القرآنُ؛ لأن التعلمَ يكون مِنَ الصَّبيانِ الصِّغارِ فكيف بمثل حالِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلا يَمْتَنِعُ عليهِ ذَلِكَ.

وأجابوا عن احتِجَاجِ أولئكَ بقولِهِمْ: إن وَصْفَه بالأُمِّي لا ينَافِي أن يكون تَعَلَّمَ الكتابَة بعد ذلك من وجهين:

الوجهُ الأَوَّلُ: أن وصْفَهُ بكونِهِ أُمِّيًّا لا يَعْنِي الوَصْفَ الشَّخْصِيَّ، إذ قد يراد به أنه مِنَ الأُمِّيينَ، فيكونُ الأُمِّيُّ مثلَ القُرَشِيِّ، يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢].

أو يقالُ: إنه كان أُمِّيًّا حين نُزولِ القرآنِ عليه.

والجوابُ عن كونِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ له كُتَّابٌ، هو: أن الكبيرَ والرئيسَ جرتِ العادَةُ أن يكون له كُتَّاب يكْتُبون له ما يُرِيدُ، كما هو مشهور، فهذا شأنُ النَّبِيِّ ﷺ مع كُتَّابِ الوَحْيِ وكُتَّابِ الرسائل إلى الملوكِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان وفلان بن فلان...، رقم (٢٥٥٢) عن البراء بلفظ: فلما كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقالوا: لا نقر بها، فلو نعلم أنك رسول الله ما منعناك، لكن أنت محمد بن عبد الله، قال: «أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله». ثم قال لعلي: «امح رسول الله». قال: لا والله، لا أمحوك أبدًا. فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله...؛ ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، رقم (١٧٨٣) عن البراء.

وقالوا: إن المحْذُورَ الذي يُخْشَى مِنْهُ وهو كونُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقْرَأُ أو يَكْتُبُ قد زَالَ بعد أن نَزَلَ عليه الوَحْي وهو لا يَقْرَأُ ولا يكْتُبُ، وثَبَتَتِ الرِّسَالَةُ وإن كان يُمْكِنُ أن يُقالَ: إنه قَرَأَ أو كتَبَ ما يَنْزِلُ عليه من الوَحْي شيئًا فشيئًا، لكِنَّ الأَصْلَ أنه بعدَ ثُبوتِ نُبُوَّته لأَوَّلِ مرَّةٍ زال هذا المحذورُ.

وتوَسَّطَ بعضُ أهلِ العِلْم فقال: إنَّ الرسولَ ﷺ لا يَقْرَأُ ولا يَكْتُبُ صناعةً، أي: من حيثُ الصِّناعَةِ لا يقْرَأُ ولا يكْتُبُ؛ لأن الأصلَ بقاءُ ما كان على ما كان، وأما ما وَقَعَ في الحُدَيْبِيَةِ فهو إما أنه مِنْ آياتِ الله، يعني أنه معجزةٌ ويكونُ النَّبِيُّ ﷺ لا يقْرأ لا يكْتب، ثم في تلك اللحظةِ الحَرِجَةِ صارَ يقرأُ ويَكْتُبُ وكتب اسمه، وقَرأَ؛ لأن من كَتَبَ قرأَ، أو يقال: إن قوله: [فكَتَبَ] أي أَمَرَ من يَكْتُبُ، فإن الأفعالَ تُسْنَدُ إلى من يَأْمُرُ بها، وهذا كثيرٌ، والله عَزَّوَجَلَّ دائمًا يُسْنِدُ أفعالَ الخلْق إلى نفْسِهِ لأنه مُدَبِّرٌ لها، ويُقالُ: بنى عَمْرُو بنُ العاصِ مدينة الفُسطاطِ، والعمَّالُ هم الذين بَنَوْهَا بأمْرِهِ.

وقال بعضهم: إن الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يكْتُبُ اسمَهُ فقط، لا أنها آية في تلكَ اللَّحْظَةِ، ومن كان يكتبُ حَرْفًا دونَ حرفٍ وأكثرُ الكلمات لا يَكْتُبها لا يخْرُجُ عنْ وصْفِه بكونِه أُمِّيًّا، ولهذا نَجِدُ الآنَ كثيرًا من الناسِ يستَطِيعُ أن يكتُبَ اسمه لكنه لا يكْتُب غيرَهُ، ومع ذلك لا نقول: هذا الرجلُ كاتِبٌ.

والخلاصَةُ: أن المسألةَ ما زالَتْ محَلَّ إشكالٍ، والأَدِلَّةُ فيها متَقابِلَةٌ، وإذا كانت الأدِلَّةُ متقابلةً فإننا نرْجِعُ إلى القاعِـدَةِ العَامَّةِ وهي: أن الأصلَ بقـاءُ ما كان على ما كان، فنقول: إن الأصلَ أنَّ الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يكْتُبُ ولا يقرأُ، فهذا الذي نَبْقَى عليه حتى يتبَيَّنَ لنا بيانًا ظاهِرًا بأنه ﷺ تَعَلَّمَ الكِتابَةَ والقِراءَةَ.

لو قال قائل: هل يترَتَّبُ على الخلافِ في كونِ النَّبيِّ ﷺ كاتِبًا أو غيْرَ كاتبٍ أثَر؟

الجواب: لا يَتَرَتَّبُ عليه أثَرٌ بالِغٌ؛ لأنه بعدَ ثبوتِ نُبوَّتِهِ لا يَضُرُّهُ أن يكون قد قَرَأَ وكتبَ، لكنَّ المحْذُورَ الشَّدِيدَ الذي يترَتَّبُ على هذا أنه لو ثبَتَ أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان قَارِئًا أو كاتبًا قبلَ النُّبُوَّةِ، لكان حجَّةً للمُبْطِلِينَ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾؛ لكن ما دام ثبتَ أنه كانَ قبلَ النُّبُوَّة لا يقرأُ ولا يكتب فإنه بمجرَّدِ الوَحْي صارَ نَبِـيًّا فيزولُ المحْذُورُ، واحتِجَاجُهُمُ الثاني يزولُ حتى لو تعلَّم الكتابة، لكن الكلامَ على أن هذا ثَبَتَ أَوْ لَا.

لو قالَ قائلٌ: هل نأْخُذُ مما سَبَقَ استِحْبابُ عدمِ تعلُّمِ القِراءةِ والكِتابَةِ، كما أخذ هذا بعضُهم من هذه الآية؟ !

الجواب: هذا جَهْلٌ إلا إن كان القائل بهذا يريدُ أن يكونَ نَبِيًّا، نقول: لا تقرأ ولا تَكْتُبْ، فالقائلُ بهذا جاهلٌ جهلًا مُرَكَّبًا، بل إنه أجْهلُ من الحمارِ إن كان يركبُ الحَمِيرَ، وإلا فكيف يُحْفَظُ الدِّينُ، فلو عاد الدِّينُ إلى صُدُورِنَا لذَهَبَ وما بَقِي، والله تعالى يقول: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة:١٢٩]، ويقول: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٤-٥]، والآية في مقامِ الامْتِنانِ، والرَّسولُ ﷺ أَمَرَ زَيْدَ بن ثابتٍ بتعَلُّمِ لُغَةِ اليهودِ، بل حينما هاجَرَ إلى المدينة أمَرَ بتَعَلُّمِ الكتابَةِ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أن كلَّ مُبطِلٍ فإن الله تعالى أبْطَلَ شُبْهَتَهُ -ولا نقول: حُجَّتَهُ-، فالإسلامُ مبْطِلٌ لجميعِ شُبَهِ المبْطِلِينَ، لقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: ينبَغِي في المناظَرَةِ التَّنَزُّلُ مع الخَصْمِ وإبطالُ ما يحتَجُّ به، وليس بلازمٍ أن نقول: إنَّكُمْ كاذِبُونَ في إبطالِكُمْ لنُبُوَّةِ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولكن مع ذلك بيَّنَ اللهُ هذه الآية الواضِحَةَ المحْسُوسَةَ أنه لو كان يَقْرَأُ ويكْتُبُ لكان في ذلك

ارْتيابٌ للمُبْطِلِ، بمعنى: شُبْهَةٍ يحتَجُّ بها، وهذا كقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾، أبطلَ اللهُ هَذِهِ الحُجَّةَ بمثلِ ما أبْطَلَ حُجَّتَهم السابِقَةِ فقال: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣]، كيف يكون هذا؟ !

الفَائِدَةُ الرَّابِعة: أن المُبْطِلَ يتعَلَّقُ بكل شُبْهَةٍ؛ لأن كونَ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقْرَأُ أو يَكتب، ثم يقول: إنه أُوْحِيَ إليه ويُؤَيِّدُ ذلك بالآيات، هل تكونُ كِتَابَتُهُ وقراءته مانِعًا من قبولِ حُجَّتِهِ؟

الجواب: لا، لكِنَّ المُبْطِلَ يتَعَلَّقُ بكل شبهة، ومع ذلك تَنَزَّلْنَا مَعَهُ وقُلْنَا له: أنتَ لو زَعَمْتَ أنَّ الرَّسولَ ﷺ تَعَلَّمَهُ من غيرِهِ ثم كتَبَهُ وجاء يقول: أُوحِيَ إِلَيَّ هذا القرآنُ، فإننا نقولُ لك: إن الرسولَ ﷺ لم يَقْرَأ ولم يَكْتُب.

الفَائِدَةُ الخامِسَةُ: أن المبطلَ شَكُّه مقتَرِنٌ بالقَلَقِ؛ لأنه ليس شَكًّا مَبنِيًّا على أصل، فهو قَلِقٌ منه: هل يكونُ ذلك الشَّكُّ حقِيقَة أو مجَرَّدَ شُبْهَة واشتباه؟ بخلافِ الشَّكِّ الذي له أصْلٌ حَقِيقِيٌّ فنَجِدُ صاحبه ليس بقَلِقٍ منه، كما لو شكَّ في عَدَدِ ركعاتِ الصلاة.

• • ۞ • •

الآية (٤٩)

• ● ● •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

• ● ● •

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ (بَلْ) هنا للإضرابِ، والإضرابُ نوعان: انتِقَالي وإبْطَالي، وهنا يحتَمِلُ أن الإضْرَابَ للإبطال؛ لأنه لما قالَ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، قال: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾، ووجه كونِ الإضْرابِ للإبطالِ؛ لأنه أبْطَلَ قولهم: إنه جاء به من عنده.

ويُحْتَمَلُ أن يكونَ الإضرابُ انتِقَاليًا؛ لأنه لما نفى ما يكون به مُتَقَوِّلًا على الله أثْبَتَ أنه آياتٌ من الله، فيكون انتقالًا من النَّفْي إلى الإيجابِ.

وقوله: ﴿ءَايَٰتٌۢ﴾ جمعها لأن كُلَّ آيةٍ مِنَ القُرآنِ فهي آيَةٌ على صِدْقِ الرسولِ ﷺ؛ لأن كلَّ آيَةٍ منه مُعْجِزَةٌ، وإعجازُهُ في لفْظِهِ ومعناه، تَحَدَّى الله الناسَ والعَرَبَ كُلَّهُم أن يَأْتُوا بمثل هذا القُرآنِ أو بعشْرِ سُورٍ مِنْ مِثْلِهِ أو بسورةٍ أو بحَدِيثٍ، ولو آيَةٍ، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٨]، هذا عمومُ القُرْآنِ، تَحَدَّاهُمْ الله جَلَّ وَعَلَا أن يَأْتُوا بمِثْلِهِ، وتحدَّاهم أن يَأْتُوا بعشْرِ سُورٍ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود:١٣]، وتحدَّاهم أن يأْتُوا بسُورَةْ واحدةٍ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس:٣٨]، وتحدَّاهُم أن يأْتُوا بآية واحدة قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور:٣٤].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ﴾ الآياتُ: العلامَاتُ، وآياتُ الله تنْقَسِمُ إلى كَوْنِيَّةٍ وشَرْعِيَّةٍ.

وقوله: ﴿بَيِّنَاتٌ﴾ أي: ظَاهِرَاتٌ.

قوله: ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ (فِي) للظرفية، حمَلَها المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكثيرٌ مِنَ المفسِّرِينَ على أن المرادَ حِفْظُهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، وأن هذا القرآنَ محفوظٌ في الصُّدُورِ، ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: المؤْمِنُون يَحْفَظُونَهُ]، فيكون المعنى أن هذا القرآنَ محفوظٌ في الصُّدورِ، ويحتمل أن المعْنَى ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: في قُلوبِهِمْ، أي: أنهم يعلَمُونَ أنه حقٌّ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

وقد يُقالُ: إن المراد كلا المَعْنَيَيْنِ، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: المؤْمِنُونَ]، بناءً على أن المرادَ أهلُ العلمِ العامِلِينَ به، وهذا لا يكونُ إلا للمُؤْمِنِينَ.

قوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ الجحدُ هُنا ضُمِّنَ التكذيبَ.

وقوله: ﴿الظَّالِمُونَ﴾ الظُّلْـمُ هنا الظلمُ الأكبَرُ؛ لأن الظلـمَ ظُلمانِ: ظُلْمٌ أصْغَرُ، وهو ما دُونَ الشِّرْكِ والكُفْرِ، وظلمٌ أكْبَرُ، وهو الكفر والشرك، وكلاهما موجودٌ في القُرآنِ، مثالُ الظُّلْمِ الأكبرِ قوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]،

ومثاله أيضًا هذه الآية، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، ومثالٌ للظُّلْمِ الأصْغرِ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص:١٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورى:٤٢].

لو قالَ قائلٌ: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ عامٌّ يشْمَلُ الذين أُوتُوا العِلْمَ من المسلِمِينَ والنَّصَارَى وغيرهم، فلماذا خَصَّهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالمؤمِنِينَ؟

الجواب: حَمَلَها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ على المؤمنين لأنهم هم المنْتَفِعُونَ بالعِلْمِ.

وهل غيرُ المؤمنين مِنْ أَوْلي العِلم يكونُ القرآنُ آياتٍ بيِّنَاتٍ لهم؟

الجواب: قد يكون آياتٌ بيِّنَاتٌ ويجْحَدُونَ كما حدثَ من بعضِ زُعماءِ قُريش، لما سَمِعَ القرآنَ أعْجِبَ به وأقرَّ بأنه ليس من قولِ البَشَرِ، واعترف بأنه من الله لكن منَعَهُ الكِبْرُ، وقد ذَكَرَ الله عن قومِ فرعونَ أنهم جَحَدُوا بالآيات واسْتَيْقَنَتْهَا أنفسُهم، فعلى هذا إبقَاؤها على أنها عامَّةٌ يكونُ أَوْلى، فتَشْمَلُ المؤمنينَ وغير المؤمنين.

لو قال قائل: ذَكَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الإيمان في قولِهِ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، وذَكَر الحِفْظ في هذه الآيةِ ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾، ألا يكونُ في هذا تكرار؟

الجواب: لا يُوجَدُ تَكْرارٌ؛ لأن قولَهُ: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ يشمل هذا وهذا، أي: الإيمانَ والحِفْظَ، فقد لا يَحْفُظونَهُ لكن يَعْرِفونَ أنه حقٌّ وهذا على الوجه الثاني.

وقوله: [﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: اليهودُ، وجَحَدُوها

بعدَ ظُهُورِهَا لَهُمْ]: قوله: [أي: اليهودُ] لا شَكَّ أنه قاصِرٌ، فإن الآية عامَّةٌ تشملُ اليهودَ والنَّصارَى والمجوسَ، بل كُلُّ من عانَدَ فإنه ظَالِمٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن أسلوبَ القرآنِ كما يُبْطِل الشبْهَة مَعْنًى يُبْطِلُها لفظًا؛ لأن (بَلْ) للإضرابِ الإبْطَالي.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أن الذين يَتبَيَّنُ لهم كونَ القرآنِ آية هم أُولُو العِلمِ، لقوله: ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾، والعلماء ينْقَسمونَ إلى عُلماء ينْتَفِعُون بعِلْمِهِمْ، وهم العُلماء باللهِ، وهم الذين يخْشَون الله جَلَّوَعَلَا، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، وإلى علماء لم يَنْتَفِعوا بعِلْمِهم فالعِلمُ يُطْلَقُ حتى على من لا يَنْتَفِع بعِلمه، وسبق أن الآية عامة.

الفائِدَتانِ الثَّالِثةُ والرابِعَةُ: الثناءُ على حفَظَةِ القُرآنِ، لقولِهِ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾.

ويتفرَّعُ على هذه الفَائِدةِ: الثناءُ على طلبِ العِلمِ وأن العِلْمَ من الله عَزَّوَجَلَّ.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: أن مَحِلَّ العقلِ والوعْيِ القَلْبُ، لقولِهِ: ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾، والقلوبُ في الصُّدورِ، كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

الفَائِدةُ السَّادسَةُ: الثناءُ على العلمِ والقَدْحُ في الجهلِ، وجه ذلك: أن الذي يَعْلَمُ ويتَدَبَّرُ القرآنَ حقًّا هم أهلُ العِلمِ، وهذه منْقَبَةٌ، والذين يجهَلُونَ ذلك هم أهلُ الجهلِ، وهذه مذَمَّةٌ.

الفَائِدةُ السَّابِعةُ: ظهورُ كون القرآنِ آيةً، لقولِهِ: ﴿بَيِّنَٰتٌ﴾ فليس في القرآنِ خفاءٌ، بل كونُه آيةٌ للرسول ﷺ أمرٌ بيِّنٌ ظاهِرٌ.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: أن الجَحْدَ بالآياتِ ظُلْمٌ والإقرارَ بها عَدْلٌ، لقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، في مقابل ذلك فإنَّ أهلَ العَدلِ والإنصافِ مؤمنون به، ولهذا كل من كان مُنْصِفًا فإنه لا بُدَّ أن يُقِرَّ بأحَقِّيَّةِ القرآنِ.

• • ۞ • •

الآية (٥٠)

• ● ◌ ● •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت:٥٠].

• ● ◌ ● •

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالُواْ﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ]: لأنهم هم الذين اقْتَرحُوا الآيات، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء:٩٠].

قوله عَزَّوَجَلَّ: [﴿لَوْلَآ﴾ هَلَّا]: فتكونُ للتَّحْضِيضِ، وهذه إحْدَى معَانِي (لولا)، والمعنى الثاني: أن تكونَ شَرطِيَّةً، أي: حرفَ امتِنَاعٍ لوُجودٍ، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة:٢٥١]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٤]، أما هنا فهي للتَّحْضِيضِ بمعْنَى (هلَّا).

قوله: [﴿ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وفِي قِراءَةٍ: «آيَة»[1] كنَاقَةِ صَالحٍ وعصَا مُوسى ومائِدَةِ عِيسى]: والقراءة هنا سَبْعِيَّةٌ؛ لأن من اصْطِلاحِ المُفَسِّرِ إذا قال: «وفي قراءةٍ»، فَهِي سبعيَّة، وإذا قال: «وقُرِئَ» فهي شَاذَّةٌ. وآية وآيات بمعنى واحد؛ لأن آيةً نكِرَةٌ في سياق ما يُشْبِهُ الشَّرطَ فتعَمُّ، والمعنى: هلَّا أُنزل عليه آية، أي: علامةٌ على صِدْقِه

(١) انظر: السبعة في القراءات (ص:٥٠١).

حتى نُصَدِّقَه ويتبيَّنُ لنا صِدقه.

وقول المُفَسِّر: [آياتٌ كناقةِ صَالحٍ وعصَا مُوسى ومائِدَةِ عِيسى]: هذه آياتٌ حِسِّيَّةٌ وهم طلبوا ذلك تَعنُّتًا، وإلا فقد جاءَهُم مِنَ الآيات الحِسِّيَّةِ والمعْنوِيَّةِ ما هو أعظمُ، فقد أراهُم النَّبيُّ ﷺ انشقاقَ القَمرِ[(١)]، ولقد أخبرهم بما رأى ليلةَ الإسراءِ والمعراجِ[(٢)]، فهذه الآيات من جِنْسِ ما طَلَبُوا، لكن كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧]، وكلُّ إنسانٍ مُتعَنِّتٍ لا يمكن أن يَقْبلَ؛ لأن من قَصْدُه الحقُّ يكْفِيه الآيةُ التي تدُلُّ على صدْقِ ما قال صاحبها، أما المتعَنِّتُ فلو جاءته آية لقال: أنت ساحرٌ، نُريدُ غيرها.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كناقةِ صَالحٍ]، هذه الناقةُ كانت تَشْرَبُ الماءَ يومًا ويُشرَبُ لبَنُها يومًا، ولبَنُها يكْفي القبيلَةَ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥]، أما ما ذُكِرَ من الإسرائيليات من أنها خَرَجَتْ مِنَ الحجَرِ وما أَشْبه ذلك -فالله أعلم- به.

وعصَا مُوسى آية مِنْ وجوهٍ متعَدِّدَةٍ:

منها: أنه إذا ألقَاهَا كانت ثُعبانًا عظيمًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية...، رقم (٣٤٣٨)؛ ومسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب انشقاق القمر، رقم (٢٨٠٢) عن أنس، واللفظ لمسلم: «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر مرتين».

(٢) انظر: معجم أبي يعلى الموصلي (ص: ٤٥)؛ وسيرة ابن هشام (٢/ ٢٤٨)؛ والكامل في التاريخ (١/ ٥٨١)؛ والبداية والنهاية (٣/ ١١٠)؛ وتفسير البغوي (٣/ ٩٦)؛ وروح المعاني (١٥/ ٦).

ومنها: أنها التَقَمَتْ ما جاءَ به السَّحرةُ من الحِبالِ والعِصِيِّ.

ومنها: أنه كان يَضْرِبُ بها الحجرَ فتَنْفَجِرُ عيونًا.

ومنها: أنه ضَربَ بها البحرَ فانْفلَقَ، بل كان كُلُّ فِرْقٍ كالطَّودِ العظيمِ.

لو قال قائل: هل يُسْتَحَبُّ أخذُ العَصا؟

الجوابُ: هذا ليس من سُنَّةِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ومَائدَةُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ]، هذا التَّمْثِيلُ من المُفَسِّر يَدُلُّ على أنه يَرَى أن المائدة أُنْزِلَتْ، وهذه المسألة فيها خِلافٌ بين أهل العِلمِ، فمنهم من قال: إن الله أنزلَ المائدَةَ على بَنِي إسرائيل، ومنهم من قال: إن الله لم يُنْزِلْها، ولنَنْظُرْ في الآيات:

قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١١٢ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة:١١٢-١١٣]، الله أكبر! الناسُ دائمًا يُريدونَ ملءَ بُطونِهم، وأيضًا قومُ موسَى قالوا: (حِنْطَة) بدَل (حِطَّة).

ثم قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:١١٥].

إذا نظرنا إلى قوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ فظاهِرُهُ أنها نزلَتْ، وإذا نظرنا إلى الشَّرطِ في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ﴾ قلنا: إنها لم تَنْزِلْ؛ لأن الله تعالى ذَكَرَ شَرْطًا لنُزولها ولم يُوجَدْ هذا الشرطُ، فدَلَّ عدمُ وجودِ الشرطِ على عدمِ وجودِ النُّزولِ، والشرطُ سواء ذكر في أولِ الآية أو آخرها فهو معْتَبَرٌ، فهذا التَّعْذيبُ

الذي لم يُعَذَّبْ به أحدٌ من العالمين لم يحْصُلْ.

وأيضًا هذه المائدة لو نزلت لكانت عِيدًا لأَوَّلِهِمْ وآخِرِهِمْ، وهي الآن مجهولة فليس عندَ النصارى عيد يُسَمَّى المائدة، فهذه أدِلَّةُ من قال: إنها لم تنزل.

لو قالَ قائلٌ: هل العذابُ الذي سيَنْزِلُ عليهم غيرُ معروفٍ في الدُّنيا؟

الجواب: العذابُ معروفٌ في الدُّنْيَا وهو عُقوبَةٌ لهم؛ لأن الآياتِ المقتَرَحَةَ إذا نزلَتْ ولم يُؤمِنْ أصحابها فإنهم يُعَذَّبُونَ.

وقوله: [﴿قُلْ﴾ لهُمْ ﴿إِنَّمَا ٱلْأَيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يُنَزِّلُها كيفَ يشَاءُ]: ولو قال المُفَسِّر: ومتَى شاءَ. لكانَ أحسنَ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْأَيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ هذه الجملَةُ حَصْرٌ، يعني: ما الآياتُ إلا عنـدَ اللهِ ليس عِنْدِي حتى أعْطِيَكم ما تقْتَرِحُونَ، وإذا كانت من عِنـدِ الله فإنها تكونُ تبَعًا لمشَيئتِهِ وحكْمتِهِ يُنَزِّلُها كيفَ يشَاُء ومتى شاءَ، فالحُكم إلى الله، والله عَزَّوَجَلَّ ينَزِّلُها لِحكمة، ومع ذلك فإننا نعْلَمُ عِلْمَ اليقينِ أن اللهَ ما أرْسَلَ رسولًا إلا آتاه مِنَ الآياتِ ما يؤمِنُ على مِثلِهِ البَشَرُ؛ لأن الله حكيمٌ لا يُرْسِلُ رسولًا يقول للناس: إني رسول الله إليكم أَسْتَبِيحُ دِمَاءَكُم وأمْوالَكُم ونساءَكُم إذا لم تُؤمِنُوا بي، فلا يُمَكِّنُهُ الله تعالى إلا بالآياتِ التي تُلْزِمُ الناسَ بقَبُولِ قولِهِ، ولو جاء رسولٌ بدونِ آيات لكان مُنَافِيًا للحِكْمَةِ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْأَيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ في كِلَا العَبارَتين حَصْرٌ، لكن هل الحَصْرُ فيها حَقِيقِيٌّ أو إِضَافِيٌّ؟

الحَصْرُ الأوَّلُ حَقِيقِيٌّ؛ لأن الآياتِ لا تكونُ إلا من عندِ الله، ولا أحدَ يستطيعُ

أن يَأْتِيَ بها.

والحصرُ الثَّانِي إضَافِيٌّ؛ لأن قولَهُ: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ باعتبـارِ الواقِعِ والحقيقة، فإنَّ الرَّسُولَ ﷺ ليس نَذِيرًا فَقَطْ بل هو نذيرٌ مُبِينٌ، وبَشِيرٌ، وسِرَاجٌ مُنِيرٌ، فالحصرُ إضافِيٌّ -أي بالإضافة إلى كذا- فهو بالإضَافَةِ إلى الإتيانِ بالآيات غيرُ قادِرٍ، لكن يَقْدِرُ على شَيْءٍ آخرَ وهو الإنذارُ.

وقوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ يقولُ العلماءُ: الإنذارُ هو الإخْبارُ بالمُخَوِّفِ، أما الإخبارُ بالمرْغُوبِ فيُسَمَّى بِشَارَةً، فالنَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نَذِيرٌ، وهنا لم يَقُلْ: بَشِيرٌ، لأن المقامَ يقْتَضِي ذَلكَ، إذ هو يُخاطِبُ المكَذِّبينَ المعانَدِينَ.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى (بيِّن) ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُظْهِرٌ]، وقد عَلِمْنَا أن (بان) لا تستعمل إلا لازِمَةً، يقال: (بانَ الصَّبْحُ) إذا ظَهَرَ، و(بان هذا من هذا) إذا انفَـصَلَ عنه، وأما (أبان) فتُسْتَعْمَلُ لازمةً ومتَعَدِّيةً، يقال: (أبانَ الصبحُ)، بمعنى بانَ وظهَر، ويقال: أبان الأمرَ، بمَعْنَى أظْهَرَه ووَضَّحَهُ، وفي بعض الأحيـان تكونُ الآية لا تحتَمِلُ إلا اللازمَ، وفي بعض الأحيانِ لا تحتَمِلُ إلا المتَعَدِّي، وأحيانًا تَصْلُح لهذا وهذا.

فالرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لإنْذَارِهِ، أو نَذِيرٌ بَيِّنُ الإنذارِ، وعلى هذا يكون النَّعتُ سببيًا أي: إذا جعلنـا (مُبين) بمعنى (بيِّن) والأصل أن النـعت حَقِيقِيٌّ وليس سَببيًا.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُظْهِرٌ إنْذَارِي بالنَّـارِ أهلَ المعْصِيَةِ]، أهلَ: مفعـولٌ لإنْذَار؛ لأن إنذارَ مصدرٌ، والمصدر يعْمَلُ عَمَلَ فِعْلِهِ، فالرسول ﷺ هذا شأْنُهُ وهذه وَظِيفَتُـهُ أنه مُنذِر، أما أن يَأْتِيَ بالآيات إذا طُلِبَـتْ، أو أنه يَهْدِي النَّـاس إذا ضَلُّوا،

فهذا ليس إليه، بل هذا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ لأنه هو الذي يَمْلِكُ هذا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: تَعنُّتُ المشركين بطَلَبِهِمُ الآيات، لقولِهِ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وإلا فقد جاءَتْهُم آياتٌ لكنهم يقولونَ هذا تَعنُّتًا.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أن المتَعَنِّتَ مكابِرٌ لإنكارِهِ ما هو ظاهِرٌ، فإنهم قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، مع أنهم قد جاءَتْهُمُ الآياتُ، والنَّبِيُّ ﷺ وغيرُهُ مِنَ الأنبياءِ ما أُرْسِلُوا إلا بالآيات التي يُؤمِنُ على مِثْلِهَا البَشَرُ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: إقرارُ المشْرِكِينَ بُربوبيَّةِ الله جَلَّوَعَلَا، لقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: إقرارُ المشركين بعُلُـوِّ الله جَلَّوَعَلَا، لقولِهِ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، فيكون اعتقادُ المشْرِكينَ في الله من حيثُ العُلُوِّ أَكْمَلُ من اعتقادِ المعْتَزِلَةِ والجَهْمِيَّةِ والأَشَاعِرَةِ؛ لأن هؤلاء يُنْكِرُونَ عُلُوَّ اللهِ الذَّاتِيِّ ويقولون: إنَّ الله لا داخلَ العالم ولا خَارِجَهُ، ولا مُتَّصِلٌ ولا مُبَايِنٌ.

الفَائِدةُ الخامِسة: أن الرَّسولَ ﷺ بَشَرٌ لا يَمْلِكُ لنفسِهِ نَفْعًا ولا ضَرًّا، لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

الفائِدَتانِ السَّادسةُ والسابِعَةُ: أن إضافَةَ الأمورِ إلى الله تَقْطَعُ الحُجَجَ، لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، ويتَفَرَّعُ على هذه الفَائِدة أن الأحكامَ الشَّرْعِيَّةَ إذا سُئِلنا عن الحِكْمَةِ من كون كذا، كذا وكذا، نقول: هذا من عِندِ الله، هذا حُكْمُ الله، وهذا كافٍ لكلِّ مؤمنٍ، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦].

ولهذا احتَجَّتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على عَمْرَة بنتِ رَواحَةَ لما سألتها: ما بالُ الحائضِ تَقْضِي الصومَ ولا تَقْضِي الصلاةَ؟ فقالت: أحَرُوريَّةٌ أنت؟ قلت: لَسْتُ بحَرُوريَّةٍ ولكني أسأل. قالت: «كان يُصيبنا ذلك، فنُؤمَرُ بقَضاءِ الصَّومِ ولَا نُؤمَرُ بِقَضاءِ الصَّلَاةِ»[1]، فإسنادُ الأمْرِ إلى الله هو أعْظَمُ حُجَّةً وهو كافٍ في إبطالِ الشُّبَهِ.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: إثباتُ قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ، لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن الشيء لا يكون آية حتَّى يكون خارِقًا للعادةِ، فلو جاء رَسُولٌ إلى الناسِ فقَالُوا: نريدُ آية فقال: سآتِيكُمْ بآية، وكان ذلك في وقتِ الاعْتَدالِ الرَّبِيعِيِّ فقال: آيتي أن تَطْلع الشمسُ الساعة الثانية عشرة وتَغِيبَ الساعَة الثانية عشرة[2]، فهذه ليست بآية؛ لأن العادةَ هكذا، فلا بُدَّ أن تكون الآيةُ مخالفة للعَادَةِ، فإذا أجْرَى الله الأمر على خلافِ العادَةِ دلَّ ذلك على قدرْتِهِ جَلَّوَعَلَا.

الفَائِدةُ التَّاسِعة: الردُّ على أهل الطَّبِيعَةِ الذين يقولون: إن الكونَ طَبيعَةٌ مُنظِّمةٌ لنفسها بنفسها، وأنها عبارة عن مقدِّمَاتٍ ونتائجَ يُنتِجُ بعضها من بعْضٍ، لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي يُدَبِّرُ الكون ويأتي بالآياتِ الدَّالَّةِ على كمالِ قُدْرتِهِ وسُلطانِهِ.

الفَائِدةُ الْعاشِرَة: أن رسولَ الله ﷺ وظيفتُه الإنذارُ لا الهِدايةُ، لقوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

الفَائِدةُ الحَادِيَة عشْرَة: أن الرسولَ ﷺ لا يَمْلِكُ أن يأْتِيَ بآيةٍ إلا مِنْ عندِ الله،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣١٥)؛ ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (٣٣٥) عن عائشة.

(٢) هذا على حسب التوقيت الغروبي لا الزوالي.

وهذا ما يُفِيدُهُ الحَصْرُ في قوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، وأكبر شاهِدٍ على ذلك أنهم سألُوه عن قِصَّةِ أصحابِ الكَهْفِ فقال: أُخْبِرُكُمْ بذلِكَ غدًا[١]، فامتَنَعَ الوحْي خمسةَ عشرَ يومًا لم ينزل، فضَاقَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بهذا، لكن هذا في الحقيقةِ من تَأْيِيدِ الله للرسولِ ﷺ، لأنه يَنْفِي كلَّ شُبهة عن النَّبيِّ ﷺ بأنه يتَقَوَّلُ القرآنَ؛ لأن الذي يتقولُ القرآن يحْرِصُ غايةَ الحِرْصِ ألا يُخْلِفَ ما قاله لهم، وجاء به من الغَدِ بناءً على وَعْـدِهِ، ولكنه ﷺ لا يتقول وإنما يتَلَقَّى، فهو يتَلَـقَّى مِنَ الله الوَحْيَ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:٦].

الفَائِدةُ الثانيةَ عشرةَ: أنه لا يجبُ على مَنْ بَلَّـغ عَنِ الرَّسولِ ﷺ إلا الإنـذارَ، فأهلُ العِلم الذي هُم ورَثَةُ الأنبياء لا يملِكُون هِدايةَ الخلْقِ؛ لكن عليهم الإنذارُ والتَّبْلِيغُ.

الفَائِدةُ الثالثة عشرة: أن من بَلاغَةِ الكلام أن يكونَ الخِطابُ مُوافِقًا لمقْتَضَى الحال، وجه ذلك: الحصرُ في ذِكْرِ الإنذارِ فقط، فالرَّسُولُ ﷺ بَشِيرٌ ونَذِيرٌ، لكن المقام مقامُ محاجَّةِ الكافِرينَ، فكان مُقْتَضَى الحال ذِكْرُ صفةِ الإنذارِ فقط وعدَمِ ذِكْرِ كونِهِ بَشِيرًا.

الفَائِدةُ الرابعة عشرة: المنْقَبَةُ للمُنذِرِ إذا كانَ مُبِينًا في إنْذارِهِ، فيكون فيه مدْحٌ للفَصَاحَةِ والبَلاغَةِ، وقد قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ مِنَ الْبَيانِ لَسِحْرًا»[٢].

وكم من رَجُلٍ قليلِ العِلْمِ لكِنَّهُ قويُّ الفصاحَةِ، فيُؤَثِّرُ تأْثِيرًا كَبِيرًا أكثر مما

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٠٧)؛ وأبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة (١/ ٢١٦)، وانظر: سيرة ابن هشام (٢/ ١٣٩-١٤٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب إن من البيان سحرًا، رقم (٥٤٣٤) عن ابن عمر؛ ومسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٩) عن عمار.

يؤَثِّرُهُ كثيرٌ من أهلِ العِلْمِ، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى إذا أَعْطى الإنسانَ قوَّةً في البيانِ وانْطِلاقًا في العبارَةِ فإن ذلك من نِعْمَةِ الله، ثم مِنَ الناس من يُعطِيهِ اللهُ الفصاحَةَ في القولِ والكِتَابَةِ، ومنهم من يُعْطِيهِ الله تعالى الفصاحَةَ في القولِ دُونَ الكتابةِ، ومنهم من يكون فَصِيحًا في الكِتابةِ دُونَ القولِ.

وحدَّثَنِي شيخُنَا محمدُ العبد العزيز المطَوع رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن عالمًا من العلماءِ المشْهُورينَ الذين يَمْلِكُون زِمامَ الفصاحة في كتابتِهِمْ، كتابته بليغة جدًا، ولكنه في الإلقاءِ ضَعِيفٌ جِدًّا؛ لأن عبارَتَهُ ليست بجَيِّدَةٍ ولا سلسلة ولا مُقْنِعَةٍ، لكنَّ كتاباته -سبحان الله العظيم- مشهودة له بالفصاحة والبيان.

ومن الناس من تجِدُه بعكس ذلك، تجده إذا قام يتكَلَّمُ لا تريدُهُ أن يسْكُتَ، فعندَهُ قوة في البيانِ وإيرادِ الحُجَجِ، لكن عندما يكْتُبُ تجِدُ ركاكَةً وعِيًّا وعدمَ فصاحَةٍ، وبعضُ الناس رَدِيءٌ من الجهتين.

لو قال قائل: هل هناك عوامِلُ تساعِدُ على الفصاحَةِ؟

فالجواب: كل الطبائعِ غريزةٌ ومكتسبةٌ، فمن الناس مَنْ يُعْطِيهِ الله تعالى موهِبَةً من أصل طَبِيعَتِه ثم ينَمِّي هذه الموهبةَ بالاطِّلاعِ والقِراءةِ، ومن الناس من تكونُ فصَاحَتُه بسببِ الدِّرَاسَةِ وكثرة القِراءةِ وسماع الخطباءِ فيتَأَثَّرُ بهم كثيرًا ويكتسب هذه المَوْهِبَةَ، ولهذا الذي يُطالِعُ كتبَ عالمٍ من العلماء ويُدْمِنُ المطالَعَةَ في كُتُبه تَجِدُهُ يتأَثَّرُ به من حيثُ العلم، ومن حيثُ الأُسلوبِ وإيرادِ الكلامِ.

• • ۞ • •

الآيــة (٥١)

• • ◦ • •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥١].

• • ◦ • •

قال اللهُ تعالى معارِضًا لطَلَبِهِمْ بما هو أَوْلَى منه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فِيمَا طَلَبُوا ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القُرْآنَ ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾].

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ الضَّميرُ يعودُ على الذين ﴿وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، والهمزةُ هنا للاستِفْهامِ، والواوُ عاطِفَةٌ على جملَةٍ مقدَّرَةٍ تُقدَّرُ بحسبِ المقامِ؛ هذا أحدُ الرَّأْيينِ لأهلِ النَّحْوِ.

والرأيُ الثاني: أن الواو عاطِفَةٌ على الجملةِ السابِقَةِ ولا تحتاجُ إلى تقدير، وأنَّ ترتيبَ الهمزةِ التَّأَخُّرَ، وأن التقدير: (وألم يَكْفِهِمْ)، وهذا القولُ أسْهَلُ؛ لأن القولَ الأول وإن كان مَبْنِيًا على أصْلٍ وهو عدَمُ التَّقْدِيم والتَّأْخِيرِ؛ لكن على القولِ الأَوَّلِ أحيانًا لا تَسْتَطِيعُ أن تُقدِّرَ المحْذُوفَ، وأما على القولِ الثاني فلا إشكالَ.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ الكِفَايَةُ بمَعْنَى الغِنَى عن الشيء، ومنه ما هُو معروفٌ لأهلِ الفِقْهِ: «يجبُ عليه كفَايَةُ مَنْ يَمُونُه» أي: إغناءُ من يَمونُهُ عن غيره، فمعنى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾: أولم يُغْنِهِم عنْ كُلِّ آيةٍ ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾، (أنَّ) واسمُها وخبرها

تُؤَوَّلُ بمصدر على أن يكونَ فاعِلَ (يكفي) التقدير: أولم يكْفِهم إنْزالُنا.

ولهذا قال: ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القرآنُ]، وسُمِّي كِتَابًا لأنه مكتوبٌ في اللَّوْحِ المحْفوظِ، وفي الصُّحُفِ التي بين يَدِي الملائكةِ، ومكتوبٌ في المصاحف التي بَيْنَ أَيْدِينَا.

قوله: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يُقْرَأُ ولا أحد يَحُول بينهم وبينَهُ، والذي يتْلُوهُ الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، يتْلُوه عَلَى النَّاسِ ويُبَلِّغُهُمْ إياه فيَتَنَاقَلُونَهُ.

وقوله: [﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فَهُو آيَةٌ مسْتَمِرَّةٌ لا انْقضاءَ لها، بخلافِ ما ذُكِرَ مِنَ الآياتِ]: فالقرآنُ آيةٌ مُستَمِرَّةٌ إلى يومِ القِيامَةِ؛ لأن الله تعالى يقولُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، بخلاف الآياتِ السَّابِقَةِ، الآياتُ السابِقَةُ مشهودةٌ يَنْتَفِعُ بها المشاهِدُونَ لها، أما مَنْ بَعْدهُمْ فإنما تَصِلُ إليهم عن طريقِ الأخْبارِ، ومن المعلومِ أنه ليس الخبرُ كالعَيانِ، أما القرآنُ فإنه بينَنَا نُشَاهِدُه ونَسْمَعُه ونَتْلُوه، فليس هو من طريقِ الخبرِ عن شيءٍ مَضَى، فيكون أعظمَ مِنَ الآيات التي انقَضَتْ وزالَتْ، وهذا هو السرُّ في أن القرآن كان آيةً لكُلِّ الناس؛ لأن النبيَّ ﷺ مبعُوثٌ إلى جميعِ البَشَرِ.

واعلم أن القرآن آياتٌ بَيِّنَاتٌ في صُدورِ الذين أُوتُوا العِلْمَ، أما المستكبِرُونَ الذين يَقرؤونَ القرآنَ وهم مُعْرِضُونَ عنه فلا تَظْهرُ لهم الآيات ولا يكون لهم آية، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة القتال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ [محمد:١٦].

فالقرآنُ آياتٌ لمن أَقْبَلَ عليه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

ثم إن هذا القرآن آيةٌ بنَفْسِهِ لا لوجودِ مانع من مُعَارَضَتِهِ؛ خِلافًا لمن قال: إن عدمَ معارَضَةِ القرآن ليسَ للقرآنِ نَفْسِهِ ولكن بصَرْفِ الناسِ عن مُعارَضَتِهِ، وإلا فهم قادِرُون على مُعارَضَتِهِ. وهذا لا شكَّ أنه خَطأ بيِّن، ولو صحَّ لكان آيةً لكنه لم يَصِحَّ.

بل نقول: إن القرآن نفسَهَ آيةٌ من آياتِ اللهِ، وكَافٍ للدَّلالَةِ على صدقِ الرسولِ ﷺ لكن لمن تَدبَّرَهُ؛ فإن العامِّيَ قد لا يظهْرُ له كونُ القرآنِ آيةً بيِّنَةً للرسولِ ﷺ؛ لأنه ليس من أهلِ العِلمِ، العامِّيُّ يعلم أن هذا القرآن كلامُ اللهِ، وكذلك يَشْعُرُ بما فيه مِنَ التَّرغيبِ والترهيب، ولهذا تَجِدُهُ يسأَلُ الله من فضْلِهِ عند آيات الترغيبِ، ويسْتَعِيذُ بالله مِنَ النَّارِ والعذاب عندَ آياتِ التَّرْهِيبِ، وإذا جاءتْ أسماء الله فإنه يَشْعُرُ بأن جِلْدَه يقْشَعِرُّ ثم يَلِينُ لذِكرِ الله، لكن الآياتِ العظيمَةَ التي يتَضَمَّنَهَا هذا القرآن لا يعْرِفُها العامَّةُ.

وقوله: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أوّلُ من تَلاه وبلَّغه الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقال: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يَقُلْ: تَتْلُوه عَليهم؛ لأَنَّهُ أعمُّ، لأن الرسولَ ﷺ يتْلُوه على النَّاسِ ثم الناسُ يعَلِّمُ بَعْضُهم بعضًا.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: [﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الكِتابِ]: يُحْتَمَلُ أنه إنزالُ الكتابِ؛ لأن الذي ذَكَرَ اللهُ أَنَّه يَكْفِيهِمْ هُوَ إنزال الكتابِ، فيكون الَّذِي فيه الذِّكْرَى هو الإنزالُ، ومعلومٌ أن الذِّكْرَى تكونُ في الإنزال باعتبارِ المُنَزَّلِ لكن إنزالَهُ من الله ذِكْرَى،

فالقرآنُ في الحقيقة ذِكْرَى مِنَ الوجهين: من جهَةِ أنه نَزَلَ من عند اللهِ، ومجرَّدُ شعورِ الإنسانِ بأنه نَزَل مِنْ عندِ اللهِ لا شكَّ أنه يتَذَكَّرُ به ويُعَظِّمُهُ؛ لأنه كلامُ ربِّه، وكذلك أيضًا ما فيه من المعَانِي العَظيمَةِ والآثارِ الحَميدَةِ، هي أيضا آيةٌ مِنْ آياتِ اللهِ.

ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾ فالرَّحْمَةُ مِنَ اللهِ، فالله عَزَّوَجَلَّ أنزلَ القُرآنَ رحمةً للنَّاسِ، وأيضًا ذِكْرَى، يعني: عِظَةً يتَذَكَّرُ به الناسُ، فبه يتَرَاحَمُونَ ويُرْحَمُونَ؛ فهو ذِكْرَى ولكن ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأن من لم يُؤْمِنْ فليس رَحمَةً في حَقِّهِ، بل يَزِيدُهُ رِجْسًا إلى رِجْسِهِ فيَضِلُّ أكثرَ ويزدادُ كفرًا -والعياذ بالله-، فالمؤمن هو الذي يكونُ القرآنُ رَحمةً له وذِكْرَى ويُنْتَفَعُ به.

وما دامَ الأمْرُ عُلِّق على الوَصْفِ في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، فكلَّما كان الإنسانُ أقْوى إيمانًا كان أكثرَ رَحمةً بهذا القرآن وتَذَكُّرًا، وكلما كان الإنسان أضعفَ إيمانًا كان القرآنُ أقلَّ رحمةً له وتَذَكُّرًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن القُرآنَ كلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لقوله: ﴿أَنزَلْنَا﴾.

الفَائِدةُ الثَّانِية: إثباتُ عُلُوِّ الله عَزَّوَجَلَّ، لقَولِهِ: ﴿أَنزَلْنَا﴾.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: إثباتُ رِسالَةِ النَّبيِّ ﷺ، لقوله: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وهذا يعْنِي أنه مُوحَى إِلَيْهِ بالقُرآنِ.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: الإشارةُ إلى شَرفِ هـذا القُرآنِ حيثُ إنه مَكتـوبٌ في اللَّوحِ المحْفوظِ وفي الصُّحُفِ التي في أَيْدِي الملائكة.

الفَائِدةُ الخامِسةُ: أن المشركينَ قـد قامَتْ عليهم الحُجَّـةُ، لقولـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، فالقرآنُ ليس غائبًا عنهم حتى يَعْتَرِضُوا، ولكنه يُتْلَى عَلَيهِمْ.

الفَائِدَةُ السَّادسَة: أن مجرَّدَ تلاوةِ القُرآنِ على شخصٍ يكونُ مُلْزِمًا له بالاتِّباع؛ لأن الله لم يَذْكُرْ أكثرَ مِنَ التِّلاوةِ، فإذا تَلِيَ القرآنَ على إنسانٍ فقد قامتِ عليه الحُجَّةُ، ولهذا الجِنُّ ولَّوْا إلى قومِهِمْ مُنْذِرِينَ بمُجَرَّدِ سماعِهِمْ القرآنَ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن:١-٢]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف:٣٠].

فقِراءَةُ القرآنِ مُلْزِمَةٌ، لكن إذا كان لا يَفْهَمُ لغة القُرآنِ فلا تكونُ مُلْزِمة، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، ولا يحْصُلُ البيانُ وهو لا يَدْرِي لُغَةَ القُرآنِ.

الفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: ما يتَضَمَّنَهُ إنزالُ القرآنِ من الحُرمَةِ والذِّكْرى، وهو الاتِّعَاظُ والتذكُّر، لقولِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ﴾.

الفَائِدة الثَّامِنة: أنه لا ينْتَفِعُ بهذه الرَّحمةِ والذِّكْرى إلا المؤمنونَ، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: كُلَّما كانَ الإنسانُ أقْوَى إيمانًا كان أكْثَرَ انتِفَاعًا بالقُرآنِ، وكلما كان أضعفَ إيمانًا أو أكثرَ مَعْصِيَةً كان أبعدَ عن فَهْمِ القُرآنِ والانتفاعِ به، بل إن المعَاصِيَ تَحُولُ بينَ الإنسانِ وبين فَهْمِ القرآنِ.

وقد استَنْبَطَ بعضُ العلماءِ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١٠٥-١٠٦]، استنبَطَ أن الاستغْفَارَ سببٌ لبيانِ الحقِّ عندَ الحُكْمِ، سواء كان هذا الحُكْم فُتْيَا أو قَضَاء؛ لأن ذِكْرَ الاستغفارِ يدُلُّ على أن له أثرًا في المسْتَقْبَلِ؛ لأن هذا ليس آخِرَ حُكْمٍ للرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فالإنسانُ إذا استغْفَرَ الله كانَ ذلكَ مَفْتَاحًا للفَهْمِ والعلمِ؛ لأن الذنوب حائلٌ بينَ الإنسان وبينَ التَّوفِيقِ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]، ولهذا لما رانَ على قُلوبِهِمْ ما كَسَبُوا صَارُوا يقولُونَ عَلى القُرآنِ أنه أساطِيرُ الأَوَّلِينَ ولم ينْتَفِعُوا به.

الفَائِدةُ الْعاشِرَةُ: فضيلةُ الإيمانِ حيثُ تَتِمُّ به الرَّحْمَةُ والذِّكْرَى، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الفَائِدة الحَادِيَةَ عشْرَةَ: إثباتُ الرَّحمةِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لقولِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾، فهو أَنْزَلَهُ ليَرْحَمَ به الخلْقَ.

الآيــة (٥٢)

• ● ◌ ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت:٥٢].

• ● ◌ ● •

قوله: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ يقولُ المعْرِبُونَ: إن (الباء) زائِدَةٌ، وإن ﴿شَهِيدًا﴾ هنا ليست مَصْدَرًا ولا اسمًا جامِدًا، بل هي مشْتَقَّةٌ فتَصْلُحُ أن تكونَ حَالًا من الاسمِ الكَرِيمِ، وتصْلُحُ أن تكونَ تَمْيِيزًا كقولهم: (لله دَرُّهُ فَارِسًا)، أي: كفى شهادة الله بَيْنِي وبَيْنكُم.

قوله: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ ضَمن الشهادة هنا معنى الحُكْمِ، فالشهادَةُ تُطْلَقُ بمعنى الحُكم، كما في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٢٦-٢٧]، فإن قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ بمَعْنَى: حَكَم حاكِمٌ، والحاكِمُ في الحقيقة شاهدٌ، وذلك من وجهين:

أَوَّلًا: لأنه شاهِدٌ بحُكْمِ الله لأنه حَاكِمٌ به، فهو إذا حَكَمُ يقول بلِسَانِ الحال: أشهدُ بأن حُكْمَ الله كذا وكذا، وهو شاهِدٌ على المحق بالحَقِّ وعلى المبْطِلِ بالباطِلِ،

ولذلك يقولون: الحاكِمُ شاهدٌ ومُفْتٍ ومَلْزِم كالأمير، فهنا ضمَّن الشهادةَ معْنَى الحُكمِ، وإلا فإن الشاهِدَ لا يكون شاهِدًا بينَ فُلانٍ وفلان ولكن يكون شاهِدًا لفُلانٍ على فلان، لكنه ضَمَّنَ الشهادَةَ معنى الحُكْمِ، وهو كذلك فإن شهادةَ اللهِ لنبيِّهِ ﷺ بالحق حُكْمٌ له بالحق، ووَجْهُ كون ذلك شهادَةً وحُكْمًا: لأنَّ كونَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يُمَكِّنُ نبيَّهُ ﷺ من قتالِ هؤلاءِ الكُفَّارِ، واستباحَةِ دمائِهِمْ وأموالهم، وكونه يمَكِّنُ له في الأرض فيَفْتَحُ بلادَهُم، بل يفتحُ له الأرض أرْضًا أرْضًا؛ يدُلُّ على أن الله حكمَ لنَبِيِّهِ على الكُفَّارِ، وهو أكبرُ دَليلٍ على شهادة الله له بالصِّدْقِ، ولهذا قال في سورةِ الأنعام: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام:١٩]، فهذا أكبرُ ما يكونُ من الشَّهادَةِ، وقد شَهِدَ الله لنبِيِّه بالفعل والتَّمْكِينِ بأنه على الحقِّ والإيمان وهم على الكُفْرِ والباطِلِ.

قوله: [﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومِنْهُ حَالي وحَالُكُم]: الجملة حَالٌ مِنْ لفْظِ الجلالةِ، يعني: حالَ كونه يَعْلم، ويجوز أن تكونَ استِئْنَافِيَّةً لبيانِ صحَّةِ شهادَةِ الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وحُكْمِهِ، فإنه يشْهَدُ على حقٍّ، فيعلم المُحِقَّ فيحُكْمُ له والمُبْطَلَ فيحكُم عليه.

(مَا) اسم موصولٌ يُفِيدُ العُموَمَ، وهي تُسْتَعْمَلُ لغيرِ العاقِلِ، أما (مَنْ) فتُستَعْمَلُ للعقلاءِ، وهنا قالَ: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولم يَقُلْ: (مَنْ في السمواتِ والأرضِ) إمَّا تَغْلِيبًا للأكثر، وإما لملاحظَةِ الصِّفَاتِ مع الذَّواتِ، وهذا أَوْلَى، لأننا قد نُمانِعُ بأن الأكثرَ غيرُ عاقِلٍ باعتبارِ السَّمواتِ والأرض، فإن السمواتِ ما فيها موضِعُ قَدَمٍ إلا ومَلَكٌ قائمٌ أو رَاكِعٌ أو ساجِدٌ، والسمواتُ عَظِيمَةٌ وواسِعَةٌ، قالَ تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

فـ(مَا) يُعْبَّرُ بها عن الصِّفَةِ دونَ الموصوفِ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣]، ولم يقل: مَنْ طابَ لكُمْ، لأن المرأةَ إنما تُنْكَحُ لصِفَاتِهَا؛ لأن المقصودَ وَصْفُ المرأةِ لا عَيْنُها كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لمَالِهَا، وحَسَبِهَا، وجَمَالِهَا، ودِينِهَا»[1].

﴿مَا﴾ موصولةٌ، وصِلَةُ الموصولِ شِبْهُ الجُمْلَةِ، قال ابنُ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أَلْفِيَّته[2]:

وَجُمْلَـةٌ أَوْ شِـبْهُهَا الَّـذِي وُصِـلْ بِهِ كَمَنْ عِنْدِي الَّذِي ابْنُـهُ كُفِـلْ

فصِلَةُ الموصُولِ إما أن تكونَ جُملَةً اسمية أو فِعلية أو شِبْهَ جملة، وهو الظرفُ أو الجارُّ والمجْرُورُ.

والظرفُ أو الجارُّ والمجرورُ هل هو نَفسه صِلَةٌ كما هو ظاهِرُ كلامِ ابنِ مالكٍ، أو متَعَلِّقُه هو الصلَةُ كما هو قولُ الجمهور؟

الجواب: متعَلِّقُه هو الصِّلَةُ.

وهل يُقَدَّرُ صلةُ الموصول فعلًا أو اسمًا؟

الصحيح أنه يُقَدَّرُ فِعْلًا لأن هذا هو الأصلُ، وعمل الاسمِ عندَ الحذف قليلٌ وضعيفٌ.

وخبرُ المبتدأ يقَدَّرُ باسْمٍ ويجوزُ تَقْديرُه بفعلٍ، لكن تَقْدِيرُه باسمٍ هو الأصل،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم (٤٨٠٢)؛ ومسلم: كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، رقم (١٤٦٦) عن أبي هريرة.

(٢) البيت رقم (٩٧).

تقول: الرَّجلُ عِنْدَكَ؛ التقدير: الرَّجُلُ كائنٌ أو مستَقِرٌّ عنْدك، فالخبرُ جملة اسمية، ويجوز: الرجلُ استَقَرَّ عندك، على أن يكون الخبرُ جملةً فِعْلِيَّةً، لكن هذا خلافُ الأصل؛ لأن الأصلَ في الخبر أنه مُفرد، أما صِلَةُ الموصول فنقدرها جملَةً فِعْلِيَّةً، فلو قلت: جاء الذي عندك، التَّقْدِيرُ: مستقرٌّ عِنْدَكَ؛ لَزِمَ أن تقدر مبتدأ مرة ثانية، ويكون التقدير: جاء الَّذِي هو مُسْتَقِرٌّ عندَكَ.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إذا كان للعمومِ فهو يَشْمَلُ أفعالَ الإنسانِ وأقوالَهُ وسِرَّهُ وعَلانِيَتَهُ، وفيه ردٌّ ظاهِرٌ على غُلاةِ القَدَرِيَّةِ الذين كانوا قديمًا يَنْفُونَ العِلم والعياذ بالله، ويقولون: إن الأمْرَ أُنفُ، يعني مستأنفٌ، وهم كفَّارٌ لأنهم مَكَذِّبُونَ للقُرآنِ.

ودائمًا يجمَعُ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ويُفرِدُ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾، وكلها في العَدَدِ سواءُ كما ثَبتَ في السُّنَّة، وكما هو ظاهِرُ القرآنِ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، فتكون الأرضُ مفردَةً لكن معناهُ الجمعُ، فـ(ال) هنا لاستِغْرَاقِ الجِنْسِ، يعني: كل ما يُسَمَّى أرْضًا، فيَشْمَلُ السبعَ الأرَضِين.

وقوله: [﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومِنْهُ حَالي وحالُكُم]: ونص المُفَسِّر على ذلك لأن المقامَ يَقْتَضِيهِ، حيثُ قالَ: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾.

ثم قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مستأنفًا الكلامَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، (الذين): مبتدأٌ خَبَرُه جملَةُ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وهذا من الحُكْمِ بينَه وبينهم.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الظاهِرُ أنها من كلامِ الله، وأنها جملةٌ مستأْنَفَةٌ وليست من كَلامِ النَّبيِّ ﷺ.

قوله: [﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وهُو مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ]: آمنوا به يعني: اعترَفُوا به وأقَرُّوا به ورَأَوا أنه حَقٌّ، هؤلاء هم الخاسرون.

والباطِلُ: كلُّ ما عُبِدَ من دُونِ اللهِ في هذا المقام، وإلا فَفِي غَيرِهِ يقال: كلُّ ما خالَفَ الحَقَّ فهو باطِلٌ، حتى الشيء الذي لا خيرَ فيه يُسَمَّى بَاطِلًا وإن لم يَضُرَّ، كما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «كُلُّ لَهْوٍ يَلْهُو بِهِ ابْنُ آدَمَ فَهُوَ بَاطِلٌ إِلَّا كَذَا وَكَذَا»[1]، فالباطل يُفسَّرُ في كل مكان بَحسَبِه.

وهذه القاعدةُ شامِلَةٌ لجميعِ الكلماتِ، تجِدُ الكلمة الواحدةَ في سِياقٍ لها معنى وفي سياقٍ آخرَ لها معنى آخر بحَسَبِ السِّياقِ، وهذا هو الذي يُطَمْئِنُ الإنسانَ إلى صِحَّةِ القولِ بأنه لا مجازَ في اللُّغةِ العربيـةِ، حيث إننا قلنا: إن الذي يُحَـدِّدُ مَعْنى الكلمة هو سِياقُها ومكانها في هذا السِّياقِ، باعتبار حالِ المتكلِّم بها وحالِ الموضوعِ الذي هو مَسُوقَةٌ له، فالباطِلُ هنا هو الأصنام، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: [﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ مِنْكُمْ]، وقوله: ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أَيْ: أنْكَرُوا ما يجِبُ له مِنْ حَقٍّ، وذلك لأن الكُفر في اللُّغَةِ العربِيَّةِ

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، رقم (١٦٣٧) عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين؛ وابن ماجه: كتاب الجهاد، باب الرمي في سبيل الله، رقم (٢٨١١) عن عقبة بن عامر الجهني، ولفظ الترمذي: «كل ما يلهو به الرجل المسلم باطل إلا رمية بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فإنهن من الحق».

بمعنى السَّتْرِ، ومنه سُمِّيَ الكُفُرَّى وهو طَلْعُ النَّخْلِ لأنه يَسْتُرُ التَّمْرَ، وعندنا يُسمونَهُ الكافور.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [منكم] هذا من أغربِ ما يكونُ، إلا إذا كان يَرَى أن قولَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ من كلام الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فيكونُ قوله: [مِنكُمْ] له وَجْهٌ، ويكونُ الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يخاطِبُ المشْرِكِينَ، ويكونُ المعنى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ منكم أيها المشْرِكُونَ، أما إن كانت مِنْ كلامِ الله فهي عَامَّةٌ.

قوله: [﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فِي صَفْقَتِهِمْ حيثُ اشْتَرَوا الكُفْرَ بالإيمانِ]: وصياغَةُ الجملَةِ على هذا الوجه له مَعْنَى عَظِيمٍ، حيث جاءتِ الجملَةُ الاسميةُ المفِيدَةُ للحَصْرِ، لو قال: والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله الخاسرونَ، لعُلِمَ المعنى، لكن قولَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أبْلَغُ، لأن الإشارةَ للتَّعْيينِ.

وضميرُ الفَصْلِ يُفِيدُ الحَصْرَ، فيكون حَصْرُ الخسرانِ فيهم من جِهَتَيْنِ: من جهةِ التَّعْيينِ بالإشارة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، ومِنْ جِهَةِ الفَصْلِ بالضَّمِيرِ ﴿هُمُ﴾، فهؤلاءِ خَسِرُوا صَفْقَتَهُمْ، فما رَبِحُوا بل تَضَرَّرُوا بهذه الصفْقَةِ.

واعلم أن ضَميرَ الفَصْلِ يُفِيدُ التوكيدَ والحَصْرَ، وكذلك التَّمْيِيزُ أو الفَصلُ بين الصِّفَةِ والخبرِ، ولهذا سُمِّيَ (ضمير فصل)، فإذا قُلْتَ: «زيد الفاضلُ»، يُحتملُ أن الفاضِلَ صِفَةٌ والخبرُ منتظَرٌ يعني: زيدُ الفاضِلُ قائمٌ، فإذا قلت: زيدٌ هو الفَاضِلُ، تعَيَّنَ أن يكونَ خبرًا.

وضَمِيرُ الفَصْلِ الأَصَحُّ أنه حَرفٌ لكنه بصِيغَةِ الضَّمِيرِ.

وبعضهم يقول: إنه ضَمِيرٌ، لكن ليس لَهُ مَحَلٌّ من الإعرابِ.

وبعضهم يقولُ: هو ضميرٌ ومَحلُّهُ مِنَ الإعراب ما قَبْلَهُ.

لكنَّ الأخيرَ خلافُ قواعدِ اللُّغَةِ العربية؛ لأن الضَّمائرَ لا يُنْعَتُ بها ولا تُنْعَتُ، صَحيحٌ أنها تُؤَكِّدُ كما تقولُ: قام هو، والأَرْجَحُ الذي عليه الأكثرُ أنه حَرْفٌ جِيءَ به للفَوائدِ الثلاثةِ السابقة.

وقوله: ﴿ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ اعلم أن الخُسْرانَ، يكونُ بفواتِ المحْبُوبِ ويكونُ بحصولِ المكْرُوهِ، والذي حصَلَ لهؤلاءِ المؤْمِنينَ بالباطِلِ الكافرين بالله كِلا الأَمْرَيْنِ، فهم فاتهُمُ المطلوبُ ووقَعُوا في المكروه: فاتهم الثَّوابُ العظيمُ الذي أعدَّهُ الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنـين به مِنَ الجنَّاتِ، ووقَعُوا في المكروهِ وهي النَّـارُ -والعياذ بالله- فخَسِرُوا الأمْرَيْنِ جميعًا.

فـ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ في صَفْقَـتِهِمْ، حيـث اشتروا الكفـرَ بالإيمانِ، فخَسِرُوا أنفُسَهُم وأهْلِيهم وأمْوالِهِمْ ودُنْياهُم وآخِرَتهم، نعوذُ باللهِ من ذلك، خَسِرُوا أنفسهم لأن أنْفُسَهُم التي كانوا بِصَدَدِ أن يحْمُـوها عَنِ المحارِمِ وعن البـاطل ضَيَّعُوها فخَسِرُوها، ضاعَتْ مع نُفوسِ الهالِكِينَ، وخَسِرُوا أهْلِيهم لأن المؤمنين قد رَبِحُوا أهْلِيهِمْ في الدنيا والآخرة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور:٢١].

أما هؤلاء فخَسِرُوا ذُرِّيَّتَهم في الدُّنْيا والآخِرَةِ ولم يَنْتَفِعُوا بها؛ لأن أهلَ النَّار لا يجْتَـمِعُون ولا يتآلَفُونَ ولا يتحابُّـون، بل العَكْسُ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨]، وكلُّ إنسانٍ -والعياذ بالله- في تابُوتٍ مُعذَّبٌ وحْدَهُ، وخَسِرُوا أموالهُم

أيضًا قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال:٣٦]، ثم إن المالَ المفروضَ أن ينْتَفِعَ به الإنسانُ، لكنَّ هؤلاءِ الكفَّارَ لم ينْتَفِعُوا بمالهم، فمَهْما أنْفَقُوا مِنْ نفَقَةٍ فلن تُقْبَلَ منهم، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤]، فهم الخاسرونَ من كُلِّ وجه -والعياذ بالله-، ولهذا حَصَرَ الخَسَارَة فيهِمْ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدة الأُولَى: أن اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى شهادَتُهُ أعظَمُ وأكبرُ شَهادةٍ، لقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾، وفي سُورَةِ الأنعامِ قال تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةًۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام:١٩].

الفَائِدةُ الثَّانِيةُ: أن شهادةَ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى تكونُ بالقَولِ وبالفِعْلِ:

أما بالقول: فإنَّ اللهَ تعالى يقولُ للنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٦٦].

وأما بالفعل: فإن تَمكِينَ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لرَسولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الأرضِ ونَصْرَهُ إيَّاهُ وخُذلانَ أعدائِهِ أكبرُ شهادَةٍ على أنه صاحِبُ الحقِّ وأن أعداءَهُ أهلُ الباطل؛ إذن: فالشهادَةُ نوعان: شهادةٌ فِعْلية، وشهادة قَولِيَّة.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: إطلاقُ الشَّهادةِ على الحُكم، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ لم يقل: شَهيدًا لي عليكُمْ، بل قالَ: ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾.

لو قال قائل: إذا كان عندَ الحاكِمِ شهادةٌ هل يحكُمُ بها؟

الجواب: إذا كانَ عندَ الحاكِمِ شهادةٌ فلا يُحْكَمُ بها كما قالَ أهلُ العِلم، بل يُحوِّلُ القَضِيَّةَ إلى قاضٍ آخرَ ويَشْهَدُ.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: إثباتُ عِلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لقولِهِ: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وإثباتُ عُمومِ عِلم اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعُمُومُ العِلم غيرُ مطْلَقِ العِلْم، فالإنسان عالمٌ، لكن عِلْمَهُ ليس بعام، أما اللهُ عَزَّوَجَلَّ فعالم وعِلْمُهُ عامٌّ شامِلٌ لكُلِّ شيءٍ.

الفَائِدةُ الخامِسةُ: إثباتُ تعَدُّدِ السمواتِ، لقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهي جَمْعٌ، وهي هنا مُبْهَمَةٌ، لكنها بُيِّنَتْ في آياتٍ متَعَدِّدَةٍ بأنها سبعُ سمواتٍ.

الفَائِدةُ السَّادسَةُ: إثبـاتُ عِلم اللهِ لما يَفعَلُه الإنسان؛ لأن ما يَفْعَلُـه الإنسانُ داخلٌ في كونِهِ في السموات والأرض، فيكون في ذلك رَدٌّ على غُلاةِ القَدَرِيَّةِ الذين أنْكَرُوا عِلْـمَ اللهِ وقالوا -والعياذ بالله-: إن الله تعالى لا يَعلَـمُ أفعالَ العَبْدِ، وأن الأمْرَ أُنُف، أي: مستأْنَفٌ، وقد تقدم.

الفَائدةُ السَّابِعة: أن الإيمانَ بالباطِلِ والكُفْرَ باللهِ سببٌ للخَسَارَةِ، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، ويَتَرَتَّبُ على ذلـك أن الخسرانَ يكونُ بقَدْرِ ما آمَنَ الإنسـانُ به مِنَ الباطِلِ وكَفَر به مِنَ الحـقِّ، فأعْظَمُهُ الشركُ بالله عَزَّوَجَلَّ، ومنه ما هو دُونَ ذلك، كما لو آمَنَ بحُكْمٍ مخالِفٍ لحُكْمِ الشَّريعَةِ وكَفَر بحُكْمِ الشَّرِيعَةِ؛ فإن لَدَيْهِ مِنَ الخُسرانِ بقدر ما حصَلَ منه مِنْ هذه المخَالَفَةِ.

وما فَسَدَتْ أحوالُ العالمِ الإسلامي وغيرِ الإسلامي إلا بالحُكْمِ بغيرِ ما أنْزَلَ الله عَزَّوَجَلَّ، ولو كانتِ الأُمَّةُ الإسلامية صادِقَةً في إرادَةِ العِزَّةِ والكرامَةِ والسعادَةِ والفَلاحِ، لرَجَعَتْ إلى الحكمِ بكِتابِ الله؛ لأن الحكمَ بالقُوانِينِ الوَضْعِيَّةِ المخالِفَة للشريعةِ لا شكَّ أنه خَسارةٌ بنصِّ القرآنِ، لأنها باطِلٌ، وما أنزل به القرآن فَهُو الحقُّ، فيكون عليهم مِنَ الخسْرانِ بقدرِ ما خالَفُوا من الحقِّ.

الفَائِدةُ الثَّامِنةُ: أن من حَقَّقَ الإيمانَ باللهِ والكُفْر بالباطلِ فهو الرَّابحُ، ويَدُلُّ على ذلك قَولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣].

هل نأخُذُ من هذه الآيةِ أنَّ مَنْ آمَنَ بالباطِلِ فهو كافر بالله؟

الجواب: ظاهِرُ الآية أنهم لا يَكْفُرونَ؛ لأنها جمعَتْ أمْرينِ، والعَطْفُ يقْتَضِي المغايَرَةَ، ويمكنُ أن يُقالَ: إن قولَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ لبيانِ حالِهِمْ، وأنه يَلْزَمُ مِنَ الإيمانِ بالباطلِ الكُفرُ باللهِ، لأننا نقول: هب أنهم آمَنُوا بالباطلِ وآمنُوا بالله، هل يكونُ إيمانُهُم صَادِقًا؟

الجواب: لا؛ لأنَّ مَنْ آمَنَ بالله رَبًّا ثم ذَهَبَ يعْبُدُ صَنَمًا، هذا ليس بمؤمنٍ باللهِ، فإيمانهم بالباطِلِ يلْزَمُ منه كُفْرُهم بالله عَزَّوَجَلَّ.

لو قالَ قائلٌ: هل التَّحاكُمُ للمحاكِمِ غيرِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ الإيمانِ بالباطلِ، وهل هُو كُفْرٌ؟

فالجواب: من اعتقَدَ في القَوانِينِ الوَضْعِيَّةِ المخالفةِ للشَّريعَةِ أنها حَقٌّ، فإننا نَحكُمُ بكُفْرِهِ؛ لأنه إذا أثْبَتَ الحقَّ في أحدِ المتَضادَّيْنِ لَزِمَ أن يَنْتَفي الحقُّ عن الضِّدِّ الآخَر.

فهذه المسألةُ خَطِيرَةٌ، فإشعارُ الناسِ مِنْ بعضِ أهلِ العِلْمِ أن هذه القَوانِينَ الوَضْعِيَّةَ صحيحةٌ وحَقٌّ، وهي تخالِفُ الشَّريعةَ؛ هذا خَطَرٌ عَظِيمٌ.

لو قال قائلٌ: ما الحكم إذا قَرَّبُوا هذه القَوانِينَ الوَضْعِيَّةَ إلى الإسلامِ؟

فالجواب: إذا أمكنَ أن نُصَحِّحَهَا بطريقٍ من الطُّرُقِ فهذا أَوْلَى؛ لكن كون هذه الأحكامِ مخالِفَة للشريعةِ، ثم نقول: إنها حقٌّ؛ فهذا خطأ ولا يجوزُ.

لو قالَ قائلٌ: ما الحُكْمُ إذا كانت هذه الأحكامُ الوضْعِيَّةُ يَكَمِّلُ بَعْضُها بعْضًا؟

فالجواب: الإيمان ببعضِ الكِتابِ والكُفْرُ ببعضٍ هو كُفرٌ بالجَميعِ؛ لأنه اتِّبَاعٌ للهَوَى، حيثُ أخَذَ ما يُوافِقُ هَوَاهُ.

ولو قالَ قائلٌ: الذين سَافَرُوا إلى الغَرْبِ وجَاءوا يتَحَدَّثُونَ عن الحياة والسعادةِ، هل يَدْخُلُونَ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ ...﴾ الآية؟

فالجواب: الذي يَمْدَحُ الغَرْبَ على سبيلِ الإطلاقِ، هذا في الحقيقة عنده جَهْلٌ عظيمٌ؛ لأن ما عليه الغربُ من حَقٍّ كالصِّدْقِ والإخْلاصِ في المعامَلَةِ وما أشبه ذلك يُحْمَدُون عليه إذا ثَبَتَ أنهم كذلك؛ لأن هذا هو العَدْلُ، وأما ما عندهم من بَاطلٍ وفِسْقٍ وفُجور وكُفْرٍ، فلا يحمدون عليه.

لو قال قائل: بَعْـضُ العَـوامِّ يقولون: أنتم دائمًا تَقُولونَ: الدَّجَّـالُ سيَخْرُجُ، والآن له ما يزيدُ على ألْفِ سَنَةٍ ولم يَخْرُجْ، هل هَذَا يَدْخُل في قولِهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾؟

الجواب: هؤلاءِ العـوام يُنْصَحُونَ ونَقُولُ لهُمْ: ربما يكون هذا تَكْذِيبًا بالحقِّ فتكْفُرون وأنتم لا تَشْعُرونَ، إن كان شكًّا فهو يُشْبِهُ الاستعْجَالَ بالعَذَابِ، مع أن

الدَّجَّالَ ليس عَذَابًا فقط، بل هو عَذَابٌ على قومٍ ورَحْمَةٌ على آخرين، فهذا الذي يقتُلُه ويُحْيِيه هو أَعْظَمُ الناس شهادَةً عندَ الله، وهو له رَحْمَةٌ، وعُمومًا هذا الكلامُ خَطِيرٌ.

ونقولُ لهم: أَلَسْتُمْ في كلِّ صلاةٍ تقولون: «**نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ**»(١)، والرسولُ ﷺ حَذَّرَ الصَّحابَةَ(٢)، والصحابةُ خَافُوا حتى ظَنُّوا أنه في أَطرافِ النَّخلِ، خافُوا لشِدَّةِ إنذارِ الرَّسُولِ ﷺ لا لكونه سيَخْرُجُ، لكن كونُكَ أيضًا تُوهِمُ الناسَ أن الدَّجَّالَ سيَخْرُجُ الآن، أو أنه سيأتِي بعدَ سَنَةٍ أو سَنَتَينِ، هذا غَلَطٌ لأَنَّنَا لا عِلْمَ لنا بهذَا، بل نقول: إنَّهُ مِنْ أَشْراطِ السَّاعةِ.

لو قالَ قائلٌ: ما حُكْمُ التَّحَاكُمِ إلى المحاكِمِ غيرِ الشَّرْعِيَّةِ، أي: التي تَحْكُمُ بالأحكامِ المخالِفَةِ للشَّريعَةِ؟

فالجوابُ: إذا أُلجِئَ إلى المحاكَمَةِ إلى هذه المحاكمِ غيرِ الشَّرْعِيَّةِ، فإننا نقولُ بالجوازِ إذا كان وَسِيلَةً لاستِخْراجِ حقِّه، بشَرْطِ ألا يَقْبَلَ ما زادَ عَلَى الحقِّ، فالناسُ حقيقة مضطَّرون إلى هذا في البلادِ الأُخْرى لأن حُقُوقَهم تَضِيعُ، ولو قيل بالمنعِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٧٩٨)؛ ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، رقم (٥٨٩)، عن عائشة.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، رقم (٧١٢٧)؛ ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صيام، رقم (١٦٩)، عن ابن عمر، واللفظ لمسلم: قام رسول الله ﷺ في الناس، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: «**إني لأنذركموه، ما من نبي إلا وقد أنذره قومه، لقد أنذره نوح قومه، ولكن أقول لكم فيه قولًا لم يقله نبي لقومه: تعلموا أنه أعور، وأن الله تبارك وتعالى ليس بأعور**».

لكان له وَجْهٌ؛ لأن التحاكمَ إليه يُوجِبُ اغترارَ المسلمين بذلك، لكنَّ جوازَ التَّحاكُمِ هو الظَّاهِرُ، إلا إذا كانت المفْسَدَةُ متيَقَّنَةً فيَجِبُ أن تَتَجَنَّبَ هذا وتجعلَ مَا لك مِنْ حقٍّ مِنَ الأُمورِ التي قَدَّرَ الله عليها التَّلَفَ بحَريقٍ أو بِلُصوصٍ تَسَلَّطُوا عليه، وإذا كان عَالِمًا أو قُدْوة ويُخشَى أن تكونَ مَفْسَدَةٌ من تحاكُمِهِ، فالأَوْلَى ألا يَتحَاكَمَ إليهم، إلا إذا تيَقَّنْتَ المفسدةَ فيَجِبُ عدمُ التَّحاكُمِ، ويَرَى أن هذا أمرٌ قَدَّرَهُ الله عَزَّوَجَلَّ عليه، ولو جعل مُحَاميًا عنه -أي وكيلًا عنه- قد يكونُ أخْفَى وأَوْلى؛ لأنَّه قُدْوَةٌ؛ هذا إذا كان مضطرًا لذلك.

وأما حُكْمُ من يعْمَلُونَ في هذه المحاكمِ غيرِ الشَّرْعِيَّةِ: فإذا كان عمَلُهُم للتَّخْفِيفِ من مخالَفَةِ الشرعِ فهذا لا بأس به، بل قد يَجِبُ عليهم هذا إذا قالوا: سنكونُ حُكَّامًا لأجلِ أن نَحْكُم بالشَّريعَةِ بقدرِ ما نَسْتَطِيعُ، وكي نُخَفِّفَ الأحكامَ المخالِفَةَ للشرعِ، مثاله: في بعض الأحيان يَحْكُمُ بالحقِّ، وإذا أُجْبِرَ حَكَمَ بالحقِّ ثم أتى بمُبَرِّرَاتٍ تُخَالِفُ معارضَةَ هذه الأحكامِ الوضْعِيَّةِ، فهذا يجبُ عليه الدُّخولُ، أما إذا كان لا يُمْكِنُ أن يحْكُم إلا بالطَّاغوتِ، فلا يجوز أن يدْخُلَ هذه المحاكم ولا يعمل فيها.

• • ❁ • •

الآيات (٥٣-٥٥)

• • • •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٣-٥٥].

• • • •

قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ يعني: يَطْلُبونَ منك التَّعْجِيلَ بالعذابِ، قال تعالى في آيَةٍ أُخْرى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس:٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾ [السجدة:٢٨-٢٩].

هذا تحدٍّ للرُّسُلِ والعِياذُ بالله- وعلى رَأسِهِمْ خاتمهم محمد ﷺ، وهذا كقولهِمْ في البَعْثِ: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥]، انظر إلى الشُّبْهَةِ، نعم شُبْهَة وليست بحُجَّة، الرسلُ قالوا بالبعثِ في الآخرةِ لا في الدُّنْيا، ومع ذلك قالُوا: ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، فالرُّسُلُ لم يقولوا لكُمْ أيها الكفار: إنهم سَيُبْعَثُونَ اليوم حتى تَقولُوا: ائتُوا بآياتِنا!!

فالحاصلُ: أن هـؤلاء يستَعْجِلُونَ بالعَذابِ لا أنهم يُرِيـدُونَ العَذابَ، بـل يستَعْجِلُونَهُ تحدِيًّا، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ

مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال:٣٢]، وأحيانًا يَسْتَعْجِلُونَه كالمضطهد الذي يُريدُ أن يَنْتَحِرَ، فهم يقولون: إن كان هذا هو الحقُّ فإنا لا نُرِيدُ البقاءَ في الدُّنيا، ولِيَأْتِنَا العذابُ حتى نَتَخَلَّصَ من هذه الدنيا، لكن الغالبَ أن المستَعْجِلِينَ بالعذابِ يُريدونَ التَّعْجِيزَ والتَّحَدِّي، بدليل قولهم: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:٢٣].

لو قال قائل: هل المبَاهَلَةُ تكون معَ المسلِمِينَ أم معَ الكفَّارِ فقَط؟

الجواب: المباهَلَةُ تكونُ مع غيرِ المسْلِمِينَ وتكونُ مع المسلمين، وابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا طَلَبَ المباهَلَةَ في بعضِ مسائلِ الفرائضِ.

قوله: ﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ (ال) هنا هَلْ هِي للعَهْدِ أو لبيانِ الحَقيقَةِ؟ إذا قلنا: إنها للعَهْدِ، يكونُ المرادُ العذابَ الذي وُعِدُوا به، الذي قال لهُمْ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إنه سيقَعُ بهم، وإذا قُلْنَا: إنها لبيانِ الجِنْسِ صارتْ أعَمَّ من ذلك.

﴿وَلَوۡلَآ﴾: شَرْطِيَّةٌ ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ هذا جوابُ الشَّرْطِ.

﴿أَجَلٞ﴾: مبتدأٌ سَوَّغَ الابتداءَ به وُقُوعَهُ في سياقِ الشَّرطِ، وكذلك وصَفَهُ بقوله: ﴿مُّسَمّٗى﴾، وخبرُ المبتدأ محذوفٌ وُجُوبًا والتَّقْدِيرُ: لولا أجَلٌ مُسَمَّى مُقَدَّرٌ.

والشاهِدُ على حذفِ الخبرِ مِنْ كلامِ ابنِ مالك رَحِمَهُ اللَّهُ(١):

وَبَعْدَ (لَوْلَا) غَالِبًا حَذْفُ الخَبَرْ ... حَتْمٌ وَفِي نَصِّ يَمِينٍ ذَا اسْتَقَرْ

---

(١) البيت رقم (١٣٨) من ألفيته.

وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ الأجَلُ: هو غايةُ الشيءِ يعني: لَولا الغَايةُ التي حَدَّدَها اللهُ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُّسَمًّى﴾ أي: مُعَيَّنٌ أو محدَّدٌ بنظامٍ وانتظامٍ لا يَزِيدُ ولا يَنْقُصُ، فأفعالُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تابِعةٌ لِحِكْمَتِهِ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ كُلُّ شيءٍ عندَهُ بمقدارٍ، حتى القَطْرَةُ التي تنْزِلُ مِنَ السماءِ لا تَنْزِلُ إلا بمقدارٍ في وَزْنِها وحَجْمِها وزَمَنِها ومكانِها، ولهذا قال: ﴿مُّسَمًّى﴾، ويَدُلُّ لهذا قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٨-٩]، لا يَخْفَى عليه شيءٌ ولا يَشِذُّ عن تَقْدِيرِهِ شيءٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد:٤١].

وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ استعْجَلُوا العذابَ ولكن الله عَزَّوَجَلَّ يَحْلُمُ ويحْكُم ويُحْكِم فهو حَليمٌ حَكِيمٌ، فلولا أجلٌ مُسَمًّى لجاءهُمُ العذابُ عاجِلًا، ولكن سيُنْزِلُهُ الله عنْدِمَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ.

ولو كان عَزَّوَجَلَّ كُلَّما طلَبَ هؤلاءِ من آيَةٍ أعْطاهُم وكُلَّما استعْجَلُوا بالعَذَابِ عاجَلَهُمْ؛ لفَسدتِ الأرضُ، قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١]، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ حكيمٌ يُقَدِّرُ الأشياءَ حسبَ ما تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ، وهذه الحكمة لغايةٍ قد نَعْلَمُها ولو مُسْتَقْبلًا، وقد لا نَعْلَمُها لأن عِلْمنا محْدُودٌ، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

ثم قال مُتوَعِّدًا لهم: [﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقْتِ إتْيانِهِ]: وقوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ هذه الجملَةُ مؤكَّدَةٌ بثلاثِ مؤكِّداتٍ: القَسَمِ المقدَّرِ، واللامِ، ونونِ التَّوْكِيدِ.

ومعنى: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم﴾ يجيئهُمُ -أي العذاب- بَغْتَةً.

البغْتَةُ: كل ما باغَتَ الإنسانَ، أي: أتاهُ من غَيْرِ تَوَقُّعٍ لَهُ.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جملة مُؤَكِّدَةٌ لقوله: ﴿بَغْتَةً﴾ لأن المبَاغِتَ للإنسانِ يَأْتِيهِ بدُونِ شُروطٍ، وقيلَ إنها جملة مُسْتَقِلَّةٌ بمعناها، وإن قوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ هذه صِفَةُ وُقوعِ العَذابِ، ففيه تهديدٌ وتَحْذِيرٌ، أي: فاحْذَرُوا أن يأْتِيكُمْ، وأن قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: أنه لا يأْتِيهِمُ الآن؛ لأنهم إذا أتاهُمُ العذابُ حين طَلَبهُمْ يكونُ قَدْ أتاهُمْ وهم متَوَقِّعُون له شَاعِرُونَ به فيكون أخفَّ وَقْعًا، ولكنه سيأْتِيهِمْ في غيرِ وقْتِ طَلَبِهِمْ، والحال أنهم لا يشْعُرونَ.

وعلى القولِ الأَوَّلِ أنها توكيدٌ لقولِهِ: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ فيكونُ هذا مُفسَّرًا بقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٨]، فالإنسانُ النائمُ ليس مُسْتَعِدًّا للعَذابِ، بل هو آمِنٌ غايَةَ الأمْنِ، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال:١١]، وكذلك الإنسان الذي يلعب في رابعَةِ النهار هذا أيضًا آمِنٌ، ولكنَّ الله هدَّدَ هؤلاءِ المبْطِلِينَ في حال أَمْنِهِمْ أن يأْتِيهُم عذابُ الله عَزَّوَجَلَّ بَغْتَةً.

وظاهرُ الآية الكريمةِ أن هذا في الدُّنْيا، ولا فَرْقَ بينَ أن يكونَ هذا العذابُ على يَدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأصحابِهِ أو مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فالعذابُ الذي أَتَى قُرَيشًا لما دَعَا النَّبِيُّ ﷺ ربه فقال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ»[1]،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب تسمية الوليد، رقم (٥٨٤٧)؛ ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، رقم (٦٧٥) عن أبي هريرة.

فأَصَابهُم الجَدْبُ والقَحْطُ والجوعُ؛ هـذا العذابُ مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك ما كان على أَيْدِي المؤمنينَ في غزوةِ بَدْرٍ فإن تلكَ الغزوةَ أصابَتْهُم إصابةً بالِغَةً عظِيمَةً، ولهذا سَمَّى الله يومَهَا يومَ الفِرقانِ، ما من بَيْتٍ من بُيوتِ مكَّةَ الكبارَ إلا وقَدْ أُصيبَ بهذه المصِيبَةِ وعُذِّبَ بهذا العذابِ.

وعلى العُموم فإن قُرَيشًا أُصِيبُوا عامَّةً بنكْبَةٍ بالِغَةٍ لأن صَنَادِيدَهُم ورُؤساءَهم قُتِلُوا، ثم قُتِـلُوا وغُلِبُوا وأُسِرُوا وهُزِمُوا وخابُوا، على حين أنهم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:٤٧]، خرَجُوا وقد جَزَمُوا أنهم غَانِمُونَ وهازِمُونَ للرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأصحابِهِ، ويقـول أبو جَهْلٍ: واللهِ لا نَرْجِـعُ حتى نَقْدَمَ بَدْرًا فَنَنْحَرُ الجَزُورَ، ونُسْقَي الخمور، وتُعْزَفُ علينا القِيانُ، ويَسْمَع بِنَا العرب فلا يزالونَ يهابُونَنَا أَبَدًا[١].

لكِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ مِنْ ورَائِهِمْ مُحِيطٌ، فالذي حَصَلَ أن العربَ تَحَدَّثُوا بهم، وأن القِيانَ عَزَفَتْ عليهِمْ بالنَّعْي لا بالفَرَحِ، وأنهم سُقُوا كأسَ الحِمامِ ولم يُسْقَوا الخَمْرَ، فصارَ الأمرُ عكسَ ما قالُوا تمامًا، والنَّبِيُّ ﷺ رفعَ اللهُ رايَتَهُ ونصرَهُ، ووقَـفَ عليهم مُوَبِّخًا على القَلِيـبِ وهم جُثَثٌ هامِـدَةٌ، يقول: **«يَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ! هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللهُ حَقًّا، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي اللهُ حَقًّا»**[٢]، هل يُوجَدُ أبلغُ من هذا الذُّلِّ

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ١٦٦) غزوة بدر الكبرى، أبو سفيان يرسل إلى قريش يطلب منهم الرجوع.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، رقم (٣٧٥٧)؛ ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه...، رقم (٢٨٧٤) عن أنس، ولفظ مسلم: أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثًا ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: **«يا أبا جهل بن هشام! يا أمية بن خلف! يا عتبة بن ربيعة! يا شيبة بن ربيعة! أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًّا»**.

والعارِ -والعياذ بالله- وسبعون رَجُلًا منهم أُسِرُوا ولم يُطْلَقُوا إلا بفـداءٍ، وصَاروا بَدَلَ الكَرَاسِي العالية يُدرِّسونَ الصِّبْيانَ في المَدِينَةِ ويُعَلِّمُونَهُم الكتابةَ، هذا ذُلٌّ ما وراءَهُ ذُلٌّ، وعذابٌ ما وراءه عَذَابٌ!

وليس في الحقيقة العذابُ ألمَ البدنِ فقط، أنا عندي وعندَ كُلِّ النَّاسِ أن العذابَ المهِينَ هو ألمُ القَلبِ والنَّفْسِ، هذا أشـدُّ وأعْظَمُ، فالعذابُ العظيـم في الحقيقةِ هو عذَابُ القَلْبِ، ولِذَلكَ إذا مَنَّ الله على الإنسانِ بقَلْبٍ مُطْمَئِنٍّ وصدْرٍ مُنْشَرِحٍ مهما يحْدُثُ لا يتعَذَّبُ ولا يتألَّمُ بشيءٍ.

الحاصِلُ أن ما أصابَهُم بفِعْـلِ الله عَزَّوَجَلَّ أو بفِعْلِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو مِنَ العَذابِ بَغْتَةً،، وكذلك أيضًا ما يُصِيبُ الواحِدُ منهم عند الموت -وما أقْرَبُ الموتِ مهما طالتْ بالإنسانِ الحياةُ- إذا جاءَهُ الموتُ يُبَشَّرُ بغضبٍ من اللهِ وسَخَطٍ، ويقال لرُوحِهِ: اخْرُجِي أيتها الروحُ الخَبِيثَةُ[1]، فهذا -والعياذ بالله- مِنَ العَذابِ، فعَذَابهم في الدُّنيا وعندَ الموتِ، وفي الآخِرَةِ العذابُ المهينُ.

لو قال قائل: هل يستفادُ من قوله تعالى: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ جواز أن يقولَ الإنسانُ: هذا وَقَعَ صِدْفَةً؟

الجواب: هذا فيه تفصيلٌ: أما بالنِّسْبَةِ للخالقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فلا يجوزُ التَّعْبِيرُ بكلمَةِ صِدْفَةٍ، فلا يجوزُ لأحدٍ أن يقولَ: إن الله تعالى أوْقَعَ هذا صُدْفَةً، بمعنى أن الله جَلَّ وَعَلَا ما أرادَهُ وقدَّرَهُ، لكن بالنسبة للإنسان نَفْسِهِ، فالإنسانُ قاصِرُ العِلْمِ يقَعُ الشيءُ عليه بدُونِ تَوَقُّعٍ، فيقـول: حصل كذا صُدْفَةً أو صادَفَنِي فُـلانٌ، والمعنى:

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبور وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣)؛ وأحمد (٤/ ٢٨٧) (١٨٥٥٧) عن البراء بن عازب.

لَقِيَنِي بدونِ سابِقِ عِلْمٍ، فهذا لا بأسَ به، وما زالَ النَّاسُ يُعَبِّرُون بهذا.

قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ يعني: يَطْلُبونَ منْكَ تَعْجِيلَهُ، ولكن الأمورَ مُقَدَّرةٌ في يدِ الله عَزَّوَجَلَّ، وهم عذابٌ لن يَسْتَطِيعُوا الخلاصَ منه، لهذا قال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هذه الجملةُ مؤكَّدةٌ بمُؤَكِّدَيْنِ بـ(إنَّ) و(اللام).

ومعنى الإحاطَةِ بالشيءِ، أن يَأْتِيهُ العَذابُ من كلِّ جانِبٍ، و﴿جَهَنَّمَ﴾ هي اسم للنَّارِ أعاذَنَا الله منها، وسُمِّيَتْ بذلك لأمرين: لبُعدِ قَعْرِهَا، وسوادِها، فهي من الجَهمة، والنون زائدة فيها، وعلى هذا فيكونُ وَزْنُها (فَعَنْلَل) وقيل: إنها اسم أعْجَمي وإن أصلها (كهنام) في اللغة الأعجمية، لكن عندما عُرِّبَتْ حصَلَ فيها تَغْيِيرٌ فصارَتْ جَهَنَّمَ.

والغريب أن العَجَمَ الآن عندما يتحدثونَ إذا أرادُوا أن يُعَبِّرُوا عن النارِ يقولون جهَنَّم حتى نار الدُّنيا يُسَمُّونَها جهنم مع أننا نقول جهنَّم للنارِ العظيمَةِ، أما النار التي تَشْتَعِلُ بعودِ الكبريتِ فلا نُسَمِّيهَا جهنَّم لكن عندَ العجمِ اسمٌ لمطْلَقِ النَّارِ.

وأما حديثُ: «أُوقِدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ عَامٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ...» الحديث[1]، فهو حديثٌ ضعيفٌ، لكن مادة الجِيمِ والمِيمِ تَدُلُّ على هذا، والجَهمة في اللُّغَةِ الظُّلمَة، فهي سوداءُ مظلِمَةٌ والعياذ بالله.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ٨٩) (٢٥٨٣) عن عمر بن الخطاب بلفظ: «إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنم فأوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثم امر فأقد عليها ألف عام حتى اسودت»؛ والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤٨٩) (٧٩٩) عن أنس.

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ ولم يقل: (يسْتَعْجلونَكَ العذابَ)، هذا الفعلُ يتعَدَّى بالباء وبنفسه، تقولُ: استَعْجَلَ به، واستَعْجَلَهُ، والظاهر أنها من جِنْسِ: شَكَرَهُ وشكر له.

لو قال قائل: الشخصُ من أهلِ الجنَّةِ رَأى شَخْصًا يُعَذَّبُ -وإن كان المعذَّبُ مستَحِقًّا للعذاب- ألا يتأَلَّم، والجنَّة لا ألمَ فيها ولا كَدَرَ، فكيفَ نَجْمَعُ بين هذا ورؤيتُهُمْ لأهلِ النَّار وهم يُعَذَّبونَ؟

الجواب: إن عذابَ أهلِ النَّارِ يزيدُ سُرورَ أهلِ الجنَّة واغْتباطَهُم بنِعْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ، ويَدُلُّ على هذا قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات:٥٦-٥٧].

ومن وَجْهٍ آخرَ: أن الإنسانَ في الحَقيقَةِ يُسَرُّ إذا رَأى عَدُوَّهُ يُعْذَّبُ ولو كان عَذَابًا عظيمًا، خصوصًا إذا كان في وقتٍ لا يتَمَكَّنُ من الاستِعْتَابِ، فالآن هذا العَدُوُّ لا يمكن أن تحسُنَ حاله حتى يكونَ وَلِيًّا لي.

قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الحمدُ لله قال: ﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يَقُلْ: بالظالمين، الكافِرُ يكونُ في قَعْرِ الجَحِيمِ والعِياذُ بالله، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٥٥]، أي: في المكانِ السَوِيِّ منها وهو الوسطُ، فهؤلاء -والعياذ بالله- تُحِيطُ بهم النارُ من كُلِّ جانبٍ؛ لأن الإحاطَةَ تَقْتَضِي ذَلِكَ، لكن يُشْكِلُ على هذا قولُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٥٥]، يغْشَاهُمُ العَذابُ: يعني يُغَطِّيهِمْ، ومنه قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقولُهُ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل:١]، يعني: يُغَطِّي الأرضَ بسَوادِهِ، فعَلَى هذا يَغْشَاهُمُ العذابُ، أي: يُغَطِّيهم، لكن مِنْ فوقِهِمْ ومن تحتِ أَرْجلِهِمْ.

ونحن قلنا: الإحاطةُ من كلِّ جانبٍ، فهل يكون قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، مخصِّصًا لهذه الإحاطة، وتكونُ الإحاطَةُ من فوق ومن تَحت، أو يقال: إن تغْشِيَةَ العذابِ أبلغُ من إحاطة النارِ، وهذا هو الأقرب، وخصَّ الفوقَ والتحتَ لأنه لا يُمْكِنُ الفِرارُ مِنْهُ، لكن الجوانبَ يمكنُ الفِرارُ منها، فإذا جاء العذابُ من الخلفِ تَفِرُّ إلى قدَّام، وإذا جاءَ من قُـدَّامَ تَفِرُّ إلى الخلْفِ، ومن يمين تَفِرُّ إلى يسـار، ومن يسار تَفِرُّ إلى يمينٍ.

وقال بعضُ المفسِّرينَ: خَصَّ الفوقَ والتحتَ لأن نارَ الدُّنيـا لا تَأْتِي مِنْ فوق ومن تحت، بل تكون من جانِبٍ إلى جانِبٍ، وهذا منقوضٌ بمن أُلْقِيَ فِي نفسِ النَّارِ، فإن النارَ تأْتيهِ من جميعِ الجهاتِ.

والذي نَرَى -والله أعلم- أن ما بعدَ قولِهِ: ﴿لَمُحِيطَةٌۢ﴾ لا يُخَصِّصُهُ، فتكونُ الإحاطةُ عامَّةٌ من كلِّ جانِبٍ، وتَغْشِيَةُ العذابِ من فوقَ ومن تحت يُشَدِّدُ عليهم أكثر، فتكونُ تَغْشِيَةُ العذاب أشدُّ من الإحاطَةِ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يَغْشَاهُم: أي يُغَطِّيهِمْ، وتقدَّم تفسيرُ هذا في الآية التي قَبْلَها، وقلنا: إن قوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ليس مُخَصِّصًا لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وقلنـا: إن الإحاطَةَ عامَّةٌ وتَغْشِيةُ العذابِ من فوق ومن تحت للتَّشْدِيدِ عليهم، وأن التَّشْغِيَةَ أشدُّ مِنَ الإحاطَةِ.

قوله: [﴿وَيَقُولُ﴾ فِيهِ بالنُّونُ أي: نَأْمُرُ بالقولِ، وبالياء (يقول) أي: يقُولُ الملَكُ الموكَّلُ بالعَذابِ]:

قَال الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نقولُ، أي: نَأْمُرُ]، هذا في الحقيـقة تحريفٌ من الْمُفَسِّر

رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ما الدَّاعِي لصَرْفِ اللَّفْظِ عن ظَاهِرِهِ؟ ولهذا فالمتَعَيِّنُ أن يكونَ القائل هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون:١٠٨-١٠٩]، وهذا واضحٌ وصَرِيحٌ أن القائل هو الله عَزَّوَجَلَّ.

وهنا أيضًا في هذه الآيةِ القائلُ هو الله جَلَّ وَعَلَا، فقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نقولُ، أي: نَأْمُرُ مَنْ يقولُ] تحريف، فما الذي يمْنَعُ أن الله تعالى هو الذي يقولُ؟ ! أليس الله عَزَّوَجَلَّ يتكَلَّمُ بما شاءَ ومتى شاءَ، وكلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مسموعٌ بصوتٍ لا يُشْبِهُ الأصواتَ وبحروفٍ يفْهَمُها المخاطَبُ بهذا الكلامِ، ومما يدُلُّ على أن القائل هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن القراءةَ الثانِيَةَ بالياءِ، فلو فسَّرنا قوله تعالى: (نقول) بأنه المُلْكُ لخالَفْنا القراءة الثانية، والقراءات يُفَسِّرُ بعضُها بعضًا كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦]، فمَعْنَى (تبيَّنُوا) فسَّرتها القراءةُ الثانيةُ «فتَثَبَّتُوا».

واعلم أن مَنْ يعْتَقِدُ مَذْهبًا مِنَ المذاهبِ تَجِدُهُ يحرِّفُ الكلِمَ عن مواضِعِه لأجلِ أن يُوافِقَ ذلك المذْهَبَ، وهذا خطيرٌ جدًّا، فالواجبُ أن يكونَ الإنسانُ نحو الأدِلَّةِ ساذَجًا، بمعنى خاليًا وتابعًا تَمامًا للدَّليلِ، ولا يجعلُ الدليلَ تابِعًا، بل يجعلُ نَفْسَهُ تبعًا للدَّليلِ، ويكونُ كالأرض التي ليس فيها عُشْبٌ ولا نَباتٌ، فهي مهَيَّأَةٌ لما يُبْذَرُ فيها، بخلافِ الأرض التي يُوجدُ فيها نباتٌ من قَبْل، فلا بُدَّ أن يكونَ الغَرْسُ مثلَ النباتِ الذي قَبلَهُ.

لو قال قائل: أهلُ السُّنَّةِ يقولون: إن الله جَلَّ وَعَلَا يتكَلَّمُ بحرفٍ وصوتٍ، مع أن قولهم: «بحرف وصوت» لم يأتِ به النقْلُ في الكتاب والسُّنَّةِ، فما الجوابُ؟

الجواب على هذا: أولًا: ينْبَغِي أن نَعْرِفَ أن أهلَ السُّنَّةِ والجماعَةِ -جعلنا الله منهم- صارَ لهم أحْوالٌ وأوْقاتٌ يُنزِّلون كلَّ حالٍ وكلَّ وقتٍ منْزِلَتَهُ.

ثم هم ابتلوا بقومٍ يقولون: إن كلامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ هو المعنى القائمُ بالنَّفْسِ، وهذا القولُ في الحقيقة نفيٌ لكلامِ الله عَزَّوَجَلَّ، فاضْطَرَّ أهلُ السُّنَّةِ أن يقولوا: «بحرفٍ وصوتٍ» تأكِيدًا لمعنى الكلامِ فقط، فهم مضْطَرُّونَ لمقابلةِ هؤلاء، ولهذا لما قيلَ للإمامِ أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنهم يأْتُونَ بكلماتٍ لأجلِ دفعِ إيهامِ القَولِ بما يقُولُه أهلُ الباطِلِ، لو سَكَتَ السَّلَفُ وقالوا: «القرآنُ كلامُ اللهِ» فقط، صارَ في هذا إيهامٌ، حتى إن الإمامَ أحمدَ سُئلَ عن رجلٍ يقولُ: إن الله معنا، ولا أزيد على هذا؟ قال: قَدْ تَجَهَّمَ؛ لأن الجهمية كانوا يُضِلُّونَ الناسَ، أحيانًا يُصَرِّحُونَ ويقولون: إن الله مَعَنَا بذاتِهِ في الأرض، وأحيانًا يقولن: إن الله مَعَنا، لأجل أن يهْرُبُوا مِنْ إثارَةِ الناسِ عليهم، فهم يتَسَتَّرُون بمثل هذا الشيءِ.

وكذلك السَّلَفُ يقولون: إن الله استَوى على العَرْش بذاتِهِ، وقولهم: «بذاتِهِ» ليست موجودة في الكِتابِ والسُّنَّة؛ لأنهم لو قالوا: استوى على العَرْشِ، وسكَتُوا، لقال لهم أولئك المحرفون: نعم هو عَلا على العرشِ لكن عُلُوًّا معْنويًا، فيكون (استوى) بمعْنَى (استَوْلَى)، فاحتاجَ السلَفُ أن يقولوا: «بذاتِهِ».

كذلك عَبَّرَ بعضُهُمْ في حديثِ النُّزُولِ: «يَنزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»[1] فقالوا: بذاتِهِ؛ دَفْعًا لتَحريفِ من قالوا: ينزلُ أَمْرُهُ أو مَلَكٌ من ملائِكَتِهِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، رقم (١٠٩٤)؛ ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل...، رقم (٧٥٨) عن أبي هريرة.

أو تَنْزِلُ رَحْمَتُهُ.

فالسلفُ -رحمهم الله- يُضِيفُونَ بعضَ الكَلماتِ لدَفْعِ تَوَهُّمِ الباطِلِ، كما أنهم يَسْكُتونَ عن بعضِ الكَلماتِ خَوْفًا مِنْ توَهُّمِ الباطلِ.

وقد ذكرَ شيخُ الإسلامِ أن مسألةَ الذاتِ لم ترِدْ في لسانِ العربِ العُرباءِ[1]، لكنها عبارةٌ صَحِيحَةٌ فجوَّزَ الإخبارَ بها عنِ الله، ولكن لا نجْعَلُها من أسماءِ الله عَزَّوَجَلَّ، كما يجوزُ أن تقول: (إن الله موجودٌ)، والموجود ليس من أسماءِ الله عَزَّوَجَلَّ، لكن من المعلومِ أنه لا بُدَّ مِنَ الإقرارِ بأن الله مَوجودٌ، فنُخْبِرُ عنِ الله بأنه موجودٌ وفي أسماءِ الله ما يُغْنِي عنها، مثل الحيِّ الذي لا يَمُوتُ.

وكذلك (القديم) يَصِحُّ أن تُخْبِرَ عنه بأنه قَديمٌ، والمراد بالقديم ما لا أَوَّلَ له، لكن لا يجوزُ أن تجْعَلَ القَديمَ اسمًا من اسماءِ الله عَزَّوَجَلَّ، خِلافًا لبعضِ المتأخِّرِينَ الذين جعلوا أخصَّ أوصَافِهِ أنه قديم، وهذا ليس بصحيحٍ، وفي القرآنِ والسُّنَّةِ ما يُغْنِي عنه وهو (الأول)، وهو أيضًا أبلَغُ مِنَ القديمِ؛ لأن القديمَ قد يُطْلَقُ على الحادِثِ المتقدِّمِ كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩]، فالقديمُ لا يَدُلُّ على السَّبْقِ المطْلَقِ؛ ولأن الأَوَّلَ يُفيدُ معنى زائدًا على تَقَدُّمِ الزَّمَنِ، وهو أن الأشياءَ تَؤول إليه وترْجِعُ إليه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢].

لو قالَ قائلٌ: وهل نأْخُذُ من ذلكَ جوازَ تَغَيُّرِ الفَتْوى بتَغَيُّرِ الزمانِ؟

فالجواب: أهل العلمُ تتغَيَّرُ فتواهُم مَعْنَوِيًّا لا لَفْظِيًا بتغَيُّرِ الزمان، هذا عُمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أجازَ الطلاقَ الثلاثَ وجعلَهُ طَلَاقًا بائِنًا، مع أن النَّبِيَّ ﷺ وأبو بكرٍ يجعلُونَ

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٩٩).

طلاقَ الثلاثِ واحدة[١]، بل هو نَفْسُه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يجعَلُ الطلاقَ الثلاثَ واحدةً سنتَيْنِ من خلافَتِهِ، لكن لما رَأَى النـاسَ كَثُرَ فيهم هذا الشيءَ أرادَ أن يُلْزِمَهم لأجـلِ أن يرْتَدِعُوا.

ونحن دائمًا نقَرِّرُ أن العِلمَ ليس مجرَّدَ علمٍ، بل هو عِلْمٌ وتَرْبِيَةٌ، فأهمُّ شيءٍ أن يُرَبَّى الناسُ على الشريعةِ، ولهذا يُرْوَى عن عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بما يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ ورَسُولُهُ»[٢].

وقوله: ﴿وَيَقُولُ﴾ أضافَهُ اللهُ إلى نَفْسِهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بِصِيغَةِ العَظَمَةِ هذا على قراءةِ النُّونِ؛ لأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أعظَمُ العُظَماءِ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨١]، ومعلومٌ أنه واحِدٌ، لكن هذا من بابِ التَّعْظِيمِ، ولا شكَّ أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عظيم، وقد سبق أن مَا أضافَهُ الله لنَفْسِهِ بِصِيغَةِ العظمةِ قد يُرادُ به نفسه جَلَّوَعَلَا، وهذا هو الأصلُ وهو الغالبُ الكثيرُ، وقد يُرادُ به ملائكتُه إذا وُجِدَتْ قرينةٌ ودَلِيلٌ.

وقوله: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الأمر هنا للإهانَةِ، لإهانَتِهِمْ وتوبِيخِهِمْ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (ما): اسم موصولٌ بمعنى الذي، وعلى هذا فيكونُ العائدُ مَحْذُوفًا، والتقدير: ما كُنْتُم تعملونه، قال المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [أي: جَزاءَهُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطلاق، باب طلاق الثلاث، رقم (١٤٧٢) عن ابن عباس بلفظ: «كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن الخطاب: إن الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم».

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا، رقم (١٢٧).

فلا تَفُوتُونَا]، وهو كذلك، لكنه عبَّرَ بالعملِ نَفْسِهِ لأنه السببُ، ولأن الجزاءَ مِنْ جِنْسِهِ.

من فوائد الآيات الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: سَفَهُ هؤلاءِ الكفَّارِ، فإن الإنسانَ إِذَا وُعِدَ بالشيءِ فإن العَقْلَ والرُّشْدَ يقْتَضِي ألا يستَعْجِلَ به لقولِهِ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، ولهذا قال مؤمنُ آل فرعونَ لقومِهِ: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨].

الفَائِدةُ الثَّانِية: أن هؤلاءِ الكُفَّارِ قومٌ عُتَاةٌ معانِدُونَ، ولهذا تَحَدَّوُا الرُّسُلَ باستِعْجالِهِم العذابَ، لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: إثباتُ حِكْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنها غايةٌ في الكَمالِ، لقوله: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾. فلولا الحكمةُ لعُوجِلُوا بالعَذابِ لاستِعْجالهم به، ولكن الحكْمَةَ تقْتَضِي عدمَ ذلكَ.

وانظر إلى غايةِ الحِكْمَةِ الإنسانيةِ في قولِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لملكِ الجبالِ لما قال له: إن شئتَ أنْ أُطْبِقَ عليهم الأخشَبَين؟ فقال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[1]، ما ظنُّكَ لو أن مِثْل هذا وقعَ لأحدِ النَّاسِ، قومٌ كذَّبُوه وأخرجُوه من بَلَدِه ثم رجَعَ من البلدِ الآخَرِ على نفس الحال، مقْتَضَى الطبيعةِ البشرية إذا جاء من يُمَكِّنُكَ منهم ويقول:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء...، رقم (٣٠٥٩)؛ ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٥) عن عائشة.

سأُهْلِكُهم، لك أن تقول: نعم وجزاكَ الله خيرًا، لكن الحكمةَ هي التي تمْنَعُ الإنسانَ من أيِّ فِعْلٍ لا يُحْمَدُ عُقْباهُ، ولذلك يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

وكثيرًا ما ينْدَمُ الإنسان على تَصرُّفاتِهِ بسببِ عدمِ الحِكْمةِ، فلهذا يجِبُ على الإنسان أن يُغلِّب جانب العَقْلِ دائمًا لا جانِبَ العاطِفة؛ لأن جانب العاطِفَةِ فيه خَللٌ كثيرٌ، لكن تغليبَ جانبِ العقلِ هذا هو الحِكمَةُ.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: أن أفعال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى مقدَّرَةٌ منظَّمَةٌ لا تأتي صُدْفةً بغيرِ عِلْمٍ ولا بغيرِ رَشَدٍ، بل هو سُبْحَانَهُوَتَعَالَى كاملُ العِلم كامِلُ الحِكمَةِ، كلُّ أفعالِهِ مُقدَّرةٌ منظَّمَةٌ لقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: أن الحوادث مُقَدَّرَةٌ عندَ الله تعالى في عِلمِهِ، لقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، فيكونُ هذا فردًا مِنَ الأفرادِ الكثيرةِ الدَّالَّة على أن الله عَزَّوَجَلَّ قدَّرَ ما يكون، ولا نقول: خلَق، بل قَدَّر؛ لأن الخَلْقَ تابعٌ للإرادَةِ، متى أرادَ أن يفْعَلَهُ عَزَّوَجَلَّ خلقه لكِنَّهُ مُقدَّرٌ.

وقد دَلَّ على هذا قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠]، وهاتان مَرْتَبتانِ من مراتبِ القضاءِ والقَدرِ، فالقضاءُ والقَدَرُ يتضَمَّنُ أربعَ مراتب عندَ أهلِ السُّنَّةِ ففي هذه الآية الكريمة مرتبتانِ: وهما العِلْمُ والكتابةُ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾، والمرتبة الثالثةُ: المشِيئةُ، والرابعة: الخَلْقُ.

عِلْمٌ كِتابَةُ مَوْلَانَا مَشِيئَتُهُ وَخَلْقُهُ وَهْوَ إِيجَادُ وَتَكْوِينُ

الفَائِدةُ السَّادِسَة: عِظَمُ العذابِ إذا كان غيرَ متوَقَّعٍ، لقولِهِ: ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

الفَائِدةُ السَّابِعَةُ: تهديدُ هؤلاءِ المسْتَعْجِلينَ بالعذابِ بأنه سَيأتِيهِمْ؛ لكنه سيأتِيهِمْ على غِرَّةٍ وبغْتَةٍ ليكونَ أَشَدَّ وَقْعًا.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: تكرارُ ما به الذَّمُّ على من يَسْتَحِقُّه، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾، هذا إذا جَعَلْنَا ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ الثانية تَوْكِيدًا للأُولَى، أما إِذَا حَمَلْنَا الأُولَى على عذابِ الدُّنْيَا والثانية على عَذابِ الآخِرَةِ، فلا توكيدَ فِي المسألَةِ.

الفائِدَتانِ التَّاسِعَةِ والْعاشِرَة: إثباتُ النارِ، وكذلكَ إثباتُ يومِ القيامَةِ، لقوله: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ﴾ وهذا قَطْعًا في النَّار ولا يكون إلا يوم القيامة.

الفَائِدةُ الحَادِيَةَ عشْرَةَ: أن أهلَ النارِ -والعياذ بالله- يأْتِيهِمُ العَذابُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، لقولِهِ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

الفَائِدةُ الثانية عشرة: عِظَمُ هذا العذابِ، حيث إنه يُغَلَّظُ عليهم مِنْ ناحِيَتَيْنِ: مِنَ العُلُوِّ ومن السُّفْل؛ لأنه يكون كالغِطاءِ والوِطاءِ، كأَنَّهُم يُطْبَقُ عليهم بنارٍ وموقَدُ من تحتهم نارٌ، هذا عَدَا ما يأْتِيهِمْ من كلِّ جانِبٍ؛ لقولِهِ: ﴿لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

الفَائِدةُ الثالثةَ عشرةَ: أن تعْذِيبَ الكفارِ جِسْمِيٌّ ونَفْسِيٌّ:

الجسمي ما يَذُوقونَهُ مِنْ أنواعِ العَذابِ، والنَّفْسِيُّ ما يحْصُلُ لهؤلاءِ المعذَّبِينَ مِنَ التَّقْرِيعِ والتَّوْبِيخِ الذي فيه الألم النَّفْسِيُّ، والألم النفسي قد يكون أشدَّ من الألم الجِسْمِيِّ، لقولِهِ: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

ولا أدري كيف يتَصَوَّرُ الإنسانُ حَسْرَتَهم حين يقالُ لهم: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ

تَعْمَلُونَ﴾، ولا أدْرِي كيف يتَصَوَّرُ الإنسانُ مَقْتَ هؤلاءِ لأنفسهِمْ، لا شَكَّ أنهم سيَبْغَضُونَ أَنْفُسَهُم أشدَّ البغضِ ويقولونَ: هذا هو عَمَلُنَا، فتأْثِيرُهُم النفسي لا نظيرَ له.

الفَائِدةُ الرابعةَ عشرةَ: جوازُ التَّعْبِيرِ بالسَّبب عن المسَبَّبِ، لقولِهِ: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وهم في الحَقيقةِ لا يَذُوقون ما كانوا يعْمَلُونَ، إنما يذُوقُونَ جزاءَهَ، لكنه من بابِ التَّعْبِيرِ بالسَّببِ عن المسبَّبِ.

وأيضًا هو أشدُّ في التَّقْرِيعِ؛ لأن هذا العملَ اختَارُوه بأنفُسِهِمْ والجزاءُ لم يختارُوهُ بأنفسهم، فكأنه يقول: هذا هو الَّذِي اختَرْتُم تمامًا.

الفَائِدةُ الخامسةَ عشرةَ: أن الجزاءَ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، لقوله: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فنَجْعَلُ الجزاءَ هو نفسُ العملِ وهو نَظِيرهُ تمامًا؛ لأنه عبَّرَ به عنه، وهو بالنسبَةِ للكفَّارِ وأهلِ الظلْم يجازَوْنَ بقَدْرِ أعمالِهِمْ، أما من عَمِلَ خَيْرًا فإنه يُجْزَى الحسنَةَ بعَشْرِ أمثالها إلى سبعمئة ضِعْفٍ إلى أضعْافٍ كثيرةٍ أعظمَ وأكثرَ.

الفَائِدةُ السادسةَ عشرةَ: إثباتُ العَدْلِ، حيثُ كان الجزاء من جِنْسِ العَمَلِ.

الفَائِدةُ السابعةَ عشرةَ: فيه رَدٌّ على الجبْرِيَّةِ الذين يقولون: إن الإنسان لَا يُضافُ إليه العَمَلُ إلا على سبيلِ المجازِ فقط. فعمَلُ الإنسان عندهم كإحْراقِ النار لما تَحْرِقُهُ، فهو شيء مُجْبَرٌ عليه بدونِ اختيارِهِ، وجه ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

• • ۞ • •

الآيــة (٥٦)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٦].

قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في هـذه الآيةِ إشارَةٌ إلى أن مُقْتَضى العبودِيَّـةِ والإيمانِ أن يقومَ الإنسانُ بحَقِيقَةِ ما تَقْتَضِيهِ هذه العُبودِيَّةُ؛ بحيث لا يَرَى لنفْسِهِ حقًّا بجانِبِ حقِّ الله، بمَعْنَى ألا يُقَدِّمَ حظوظَ نَفْسِه على حُقوقِ رَبِّهِ، وليس المعنى ألا يقـومَ بالأَمْرَيْنِ؛ فـإن الإنسانَ مأمورٌ بـأن يقومَ بالأَمْرَيْنِ، كما قـال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لعبدِ اللهِ بن عَمرٍو: «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»[1].

وإضافَةُ العُبودِيَّةِ إلى الله هنا فيها من التَّشْرِيفِ والتَّكريم ما هو ظاهِرٌ؛ لأن كون الله يُنادِيهِمْ فيقول: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ ويضِيفُ ذلك إلى نَفْسِهِ، هذا له معنًى عَظِيمٌ.

وقوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ اعلم أن العِبادَةَ تَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ: عبادةٍ كَوْنِيَّةٍ، وعبادة شَرْعِيَّةٍ.

فالعبـادةُ الكوْنِيَّةُ: هي الخُـضُوعُ لحُكمِ الله الكَوْنِيِّ، وهذه ثابِتَـةٌ في حقِّ جميعِ الخلقِ المؤمِنِ والكافِرِ والبَرِّ والفَاجِرِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع...، رقم (١٨٦٧) عن أبي جحيفة.

والعبادةُ الشرعِيَّةُ: هي الخضوعُ للحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، وهذه خاصة بمَنْ أطاعَ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه خضعَ لحُكْمِ اللهِ الشرعيِّ أَمْرًا ونَهْيًا.

واخترت أن أعبر بِقَوْلِهِمْ: (حُكم) دون قولِهِمْ (أمر) لأجلِ أن يَشْمَلَ الأمرَ والنَّهْي، فإن العبادةَ هي القيامُ بطاعَةِ اللهِ امتثالًا لأمْرِهِ واجتِنَابًا لنَهْيِهِ.

ومن أمثلَةِ العُبودِيَّةِ العامَّةِ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ فتُوبُوا إلى اللهِ، ولهذا قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، وأيضًا: قوله تعالى لإبليسَ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢]، إذا قُلْنَا: الاستِثْنَاءُ متَّصِلٌ، فالعُبودِيَّةُ عامَّةٌ.

ومثالُ العُبودِيَّةِ الخاصَّةِ قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، هذه عُبودِيَّةٌ خاصَّةٌ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ (الذين) محلُّها مِنَ الإعراب النَّصْبُ؛ لأن (عِبادِيَ) منادًى منصوبٌ بسببِ الإضَافَةِ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ سبَقَ مرارًا أن الإيمان هو التصديقُ المسْتَلْزِمُ للقبُولِ والإذعانِ، وليس مجرَّدَ التَّصْدِيقِ كما قال أهلُ الإرْجاءِ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ﴾ هذا هو محطُّ النِّدَاءِ، المنَادَى ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ والمنادَى بِهِ قولُه: ﴿أَرْضِي وَٰسِعَةٌ﴾.

وقوله: ﴿أَرْضِي﴾ الإضافةُ هنا هل هي من بابِ إضافَةِ المملوكِ إلى مالِكِهِ، فتكونُ من بابِ إضافَةِ الخلْقِ والتكوينِ فيكونُ المعْنَى: هاجِروا إلى بلادِ كُفْرٍ أو إسلامٍ، أو أنها من بابِ إضافَةِ الاختصاصِ، يعني الأرضَ التي هي محَلُّ عِبادَتِي،

وهي البلادُ الإسلامِيَّةُ؟ وهذا الثاني هو الظاهِرُ وهو أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ يحُثُّ المقِيمِين في بلادِ الكُفْر أن يُهاجِرُوا إلى أرض الله، كَما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء:٩٧].

وقوله: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ الواسعُ: ضِدُّ الضَّيِّقِ، يعْني الذي يَسَعُ ما يكونُ فيه، أي: ليس فيها ضَيِّقٌ فلا حُجَّةَ لكُمْ في التأَخُّرِ عن الهِجرَةِ، ولهذا قال: ﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ (إياي): إعرَابُهُ مفعولٌ به لِفِعْلٍ محذوفٍ دَلَّ عليه ما بعْدَهُ والتقدِيرُ: إيَّاي خُصُّوا بالعِبادَةِ. أما مَفْعُولُ الفِعْلِ الموجودِ فَهُو محذوفٌ دَلَّتْ عليه نُونُ الوِقايَةِ.

وقوله: ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ قد يقولُ قائلٌ: هذا يتَناقَضُ مع قوله: ﴿يَـٰعِبَادِىَ﴾.

ولكننا نقول: لا تَنَاقُضَ؛ لأن المرادَ بقولِهِ: ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ أي: أَدِيمُوا عبادَتِي وأكْمِلُوها؛ لأن الأمر بما هو واقِعٌ لَغْوٌ من القولِ، فحينئذٍ لا بُدَّ أن نُقدِّرَ معْنًى يتَلاءمُ مع الأمرِ.

وقوله: ﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ هذه الآية تُفِيدُ الحَصْرَ والاخْتِصاصَ.

قَـال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ فِي أيِّ أَرضٍ تيَـسَّرَتْ فِيهَا العبـادةُ، بأن تُهاجِرُوا إليها مِنْ أرْضٍ لم تتَيَسَّرْ فيها، نَزَلَ في ضُعفاءِ مُسْلمي مَكَّةَ كانُوا فِي ضِيقٍ مِنْ إظْهارِ الإسْلامِ بِهَا]: فاللهُ عَزَّوَجَلَّ رَغبَ في الهِجرةِ في قولِهِ: ﴿أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾، وأمَرَ بها في قـولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾؛ لأن العِبـادَةَ لا تَتَحقَّقُ في بلدِ الكُفْرِ، فإذا لم تَتحقَّقْ فما لا يَتِمُّ الواجِبُ إلا به فهو واجِبٌ، فعلى هذا تكون الهِجْرَةُ واجِبَةً.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [نَزَلَ في ضُعفاء مُسْلِمِي مَكَّةَ] صحيح، كانوا في ضِيقٍ

مِنْ إظهارِ الإسلامِ بها فأُمِرُوا أن يُهاجِرُوا إلى بلادٍ يَسْتَطِيعُونَ أن يُقِيمُوا فيها دِينَهُم، فهاجَرَ جماعةٌ مِنْهُمْ إلى الحَبَشَةِ، ثم قِيلَ: مِنْ مُشْرِكِي قُرَيشٍ أَسْلَمُوا، فرَجعوا، ولكن كفَّارَ قُرَيش ازْدَادُوا في اضطهَادِهِمْ -والعياذ بالله-، فرَجَعُوا مرةً ثانِيَةً إلى الحَبَشَةِ، ثم بعدَ ذلك أُذِنَ للنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يهاجِرَ هو وأصحابُه إلى المدينَةِ فهاجَرُوا، فكانَ أوَّلَ بلدٍ إسلاميٍّ تُقامُ فيها حكومةٌ إسلامِيَّةٌ هو المدينة، وتحقَّقَ ذلك بالهِجْرَةِ.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كانُوا فِي ضِيقٍ مِنْ إظْهَارِ الإسلام بِهَا]، الضيقُ الذي حصَلَ مِنَ الكفَّارِ متنَوِّعٌ بالقَوْلِ وبالفِعْلِ، وربما أدَّى إلى القَتْلِ، فكانوا يُعَذِّبُونَهُمْ في شِـدَّةِ الحرِّ في الرَّمضاءِ ويَضَعُـونَ الأحجارَ الحامِيَـةَ على بطونِهِمْ، ولكن ذلـك لا يُثْنِيهِمْ عن دِينِهِمْ أبدًا؛ لأنهم مؤمِنُونَ حقًّا ويَرَوْن أنَّ الدنيا هذه ليست بشيءٍ، مِثْلَما قال السَّحرَةُ الذين آمنوا بمُوسَى، قالوا: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه:٧٢].

وهذا هو الإيمانُ الحَقِيقِيُّ أن الإنسان يَفْدِي دِينَهُ بنَفْسِه ومالِهِ، وأما الإيمانُ الهشُّ الذي إذَا أُوذِي صَاحِبُه في اللهِ جعلَ فِتْنَةَ الناسِ كعَذابِ اللهِ، فرجع عمَّا كانَ عليـه، هذا في الحقيقةِ إيمانٌ ناقِصٌ غايةَ النُّقْصانِ، ومن حِكْمَـةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يَبْتَلِيَ الإنسانَ بالفِتَنِ في دِينِهِ لأجلِ أن يَتبيَّنَ صِدْقُ إيمانِه من ضَعْفِهِ كما تُفِيدُ هذه الآية، ولهذا قال بَعْدَهَا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ المؤمِنَ عبدُ اللهِ، والمرادُ هنا العُبُودِيَّةُ الخاصَّةُ، لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

الفَائِدَةُ الثَّانِية: شَرَفُ الإيمانِ بالله عَزَّوَجَلَّ حيثُ جعَلَ الله تعالى هؤلاء المؤمنين

عِبَادًا، وإِضَافَتُهم إلى الله بالعُبودِيَّةِ تشريفٌ لهم بلا شَكٍّ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: وجوبُ الهجْرَةِ، وأن الهِجرةَ من عِبادَةِ اللهِ لقوله: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: الحِكْمَةُ من الهِجْرَةِ هو القيامُ بعبادَةِ الله، لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾، وعليـه إذا تَمَكَّنَ الإنسانُ من عبـادَةِ الله فلا تَجِبُ عليـه الهِجْرَةُ، لكنَّ الأفضَلَ الهِجْرَةُ.

الفَائِدةُ الخامِسةُ: أن المهاجِرَ سيَجِدُ سَعةً في أرضِ اللهِ، لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ ويَشْهَدُ لهذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء:١٠٠]، فهؤلاءِ تَرَكُوا بلادَهُم التي ضُيِّق عليهم فيها، فعَوَّضَهُم اللهُ بِلادًا لا يجِدُونَ فيها الضِّيقَ بل يجِدُونها ذَاتَ سَعَةٍ، ومن تركَ شيئًا لله عوَّضَهُ اللهُ خيرًا مِنْهُ.

الفَائِدةُ السَّادِسَة: إنعامُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عِبادِهِ بالتَّرْغِيبِ بفِعْلِ الواجباتِ، لقولِهِ: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾، وهذا فيه مِنَ التَّرْغِيبِ والحثِّ على القيامِ بالواجِبِ ما هو ظاهِرٌ وبيِّنٌ.

الفائِدَتانِ السَّابِعَةِ والثَّامِنَةِ: تَوجِيـهُ الأمرِ للإنسانِ بما هو متَّـصِفٌ بِهِ، لقوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ ثم قَالَ: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾، ويَنْبَنِي على هَذِهِ الفَائِدة أن الأمْـرَ الموجَّه لمن يتَّصِفُ به يرادُ به أمران هما: تحْقِيـقُهُ، والاستِمْرارُ فيه وتكمِيـلُهُ؛ لأنك إذا قلت: يا قائمُ قُمْ، فليس لهذا مَعْنًى إلا إذا كان الغَرضُ أن تأْمُرَهُ أن يستَمِرَّ في القيامِ، وكذلك لو قلت: يا رَجُلَ كُنْ رجلًا، أي: اثْبُتْ على هذا وحقِّقِ الرُّجولَةَ وكَمِّلْهَا.

الفَائِدةُ التَّاسِعةُ: وجوبُ الإخلاصِ لله عَزَّوَجَلَّ، لقولِهِ: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

الفَائِدةُ الْعاشِرَة: أن دارَ الإسـلامِ تُضافُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنها مكانُ عبـادَتِهِ، لقولـه: ﴿إِنَّ أَرۡضِى وَٰسِعَةٌ﴾، وهذه الإضافَةُ كما تَقَدَّمَ ليْسَتْ إضافَةَ خلْقٍ وتكوينٍ؛ لأن كلَّ الأرَاضِي لله عَزَّوَجَلَّ، ولكِن إضافَة تشريفٍ، وأَخَصُّ من ذلك أن أضافَ المكانَ المعيَّنَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ مثل: المساجدُ بيوتُ الله عَزَّوَجَلَّ.

لو قال قائلٌ: الذين يُسَافِرُونَ من بلادِ الإسـلامِ إلى بلادِ الكُفْرِ ويُقِيـمُونَ عندهم، ويستَطِيعُونَ إقامَةَ شعائرِ الإسلامِ؛ هل يَجبُ عليهم أن يَسُبُّوا آلهةَ الكُفَّارِ ويُنْكِرُوا عليهم، ويُظْهِرُوا المخالَفَة لهؤلاءِ الكُفَّارِ؟

الجواب: الذين يُسَافِرُون إلى بلادِ الكُفَّار إذا كانوا يُقِيمونَ عِبادَتَهم مثلَ صلاةِ الجُمعَةِ وإقامَةِ الجماعاتِ والأمْرِ بالمعْروفِ والدَّعْوَةِ إلى اللهِ، فليس بواجبٍ عليهم أن يَسُبُّوا آلِهَةَ الكُفَّارِ ولا أن يُظِهُروا لهم المخالَفَةَ؛ لأنهم سيُخْرِجُونهم وسَيُؤْذُونهم، والكافِرُ يُقَرَّ على دِينِهِ عندَ عدَمِ الاستِطَاعَةِ.

لكني أَرَى أن السَّفَر إلى بلادِ الكُفَّارِ لا يجوزُ إلا بشُروطٍ:

الشرطُ الأَوَّلُ: الحاجَةُ، بحيث يسَافِرُ إلى شيءٍ لا يُوجَدُ في بَلَدِهِ مثل دَراسات لا توجدُ في بلَدِهِ، أو مَرَضٌ يحتَاجُ إلى علاجٍ لا يُوجَدُ في بَلَدِهِ، وما أَشْبَه ذَلِك.

الشرطُ الثَّانِي: أن يكونَ عنـدَهُ مِنَ العِلمِ ما يَدْفَعُ به الشُّبهاتُ، فإن كان ليس عندَه من العِلْمِ ما يدْفَعُ به الشُّبهاتُ فلا يجوز؛ لأنه حِينئذٍ يُلَبَّسُ عليه دِينُه ويَضِلُّ.

الشَّرطُ الثالثُ: أن يكونَ عِنـدَهُ من التَّقوى ما يَدْفَعُ به الشَّهـواتِ، فإن كان الإنسـان ضَعِيفًا في دِينِهِ ولا تَقْـوَى عنْدَهُ فإنه لا يجوزُ له السفر؛ لما في تلـك البلاد

من الفِتَـنِ العَظِيمَةِ، ولهذا رأَيْنَا مِن الناسِ من ذَهَبُوا ورَجَعُوا متأثِّرينَ، وهذا خطرٌ عَظِيمٌ ليس بالأمرِ الهَيِّنِ.

فإذا تمت هذه الشروطُ الثلاثةُ فيجوزُ، أما مُجَرَّدُ أن يسافر -والعياذ بالله- لأجلِ النُّزْهَةِ أو يسافِرُ لأجلِ دراسَةٍ يجدُ في بلَدِهِ ما يقومُ عنْهَا، أو يسافرُ وهو يعْرِفُ من نَفْسِهِ اتِّبَاعَ الشَّهواتِ وضعفَ الدِّينِ؛ فإن هذا لا يجوزُ له السَّفَرُ مهما كان.

لو قالَ قائلٌ: ما مِـن عِلْمٍ إلا وهو موجودٌ في بَلادِ المسْلِمينَ فكيفَ يُجِيزونَ السَّفَرَ لبلادِ الكُفَّار مِنْ أجلِ الدِّرَاسَةِ؟

الجواب: كَثيرٌ من التَّخَصُّصاتِ الحديثةِ لا تُوجَدُ في بلادِ المسْلِمينَ كعلمِ الطبِّ والجُيُولوجيـا وغيرها، وقد اشترَطْنَـا العِلْمَ وقوةَ الإيمانِ وكذلك الحاجَـةَ، وكونُنَا نُشَـدِّدُ على الناس في هذا الأمر خطأٌ، فالمسألة ليست نظرية فقط، بل المسألةُ نَظَرِيَّةٌ وعَمَلِيَّةٌ؛ لأن معنى ذلك أن كلَّ الَّذِين ذَهبوا للدِّرَاسَةِ كلهم على معصيةِ الله منذ ذَهَابِهم إلى أن يَرْجِعُوا، ويجبُ علينا أن نَهْجُرَهُمْ، فنعودُ إلى الجاهِلِيَّةِ الأُولَى.

فيجبُ أن نعرفَ أن المسألَةَ تحتاجُ إلى نوعٍ مِنَ المرُونَةِ في هذه الأمور، فالرجل الذي نعرف أنه ذهبَ إلى بلدٍ فيها تَخَصُّصاتٌ ليست في بلادِ المسْلِمِينَ ونعرفُ أن الرجلَ قُوِيُّ الإيمان وأن عِنْدَهُ عِلْمًا؛ كيف نَمْنَعُه مِنْ إفادَةِ المسلِمينَ بهذه العُلومِ؟

لو نَحْظُرُ الأمر على الناس لقالوا: أنتم متحَجِّرُونَ لا تُرِيدُونَ أن نَنْتَفِعَ بأيِّ شيءٍ مما انتَفَعَ به النَّاسُ، دَعُونا نَذْهَبُ ونتعَلَّمُ ونَرْجِعُ إليكم -إن شاء اللهُ- بالنَّفْعِ والعِلْـمِ، والآن -والحمد لله- تحَسَّنَتِ الأمورُ كَثِيرًا بالنِّسْبَـةِ للمُبْتَعِثِينَ حسب مـا سمِعْنا، فهم يحْرِصُون على إظْهَارِ دِينِهِمْ، بل وعلى الدعوةِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ويَلْتَفُّ بعضهمُ حَول بعضٍ، فأنا أَرَى ألَّا نضْغَطَ على الناس ونقول: إن السفر حرامٌ مُطْلَقًا،

وما دامَ هذا للحاجَةِ وليس إقامةً دائِمَةً مع اشتراطِ العِلْمِ والتَّقْوى؛ فما المانع؟

وأما حديث: «مَنْ جَامَعَ المشْرِكَ...»(١) فقد يُحمَلُ على السُّكْنى الدَّائِمَةِ التي يتَّخِذُ الإنسانُ فيها بلادَ الكُفَّارِ وطَنًا بلا ضرورةٍ، فالمسألةُ خَطِيرَةٌ من ناحِيَتَيْنِ: من ناحيةِ أن الناسَ في حاجة إلى هذا، ومن ناحِيَةٍ أن الناسَ في حاجةٍ إلى أن يَعْرِفُوا أولِياءَهم من أعدائهم، فالمسألةُ تحتاجُ إلى بَحْثٍ وتحريرٍ ومراجَعَةٍ كثيرة.

لو قِيلَ: ما حكمُ الذَّهابِ إلى بلادِ الكُفَّارِ مِنْ أجلِ الدَّعوة إلى الله؟

فالجواب: يجوزُ إذا كانَ الدَّاعِي إلى الله عِنْدَهُ عِلْمٌ وقوةُ إيمانٍ.

لكن لو قالَ قائلٌ: لا حاجةَ لذَهَابِهِ.

قلنا: بل له حاجَةٌ، وهي الدَّعوةُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ومعلوم أن الَّذِي ذَهَبَ لِيَدْعُوَ إلى الله ليس كالذي ذَهَبَ لِيَنْتَفِعَ مِنْ عُلومِهِمْ؛ لأن الثاني يَرَى أنه ذَلِيلٌ أمامَهُم ومحتاجٌ إليهم، لكنَّ الدَّاعِيَ إلى الله هُمُ المحْتاجونَ إليه، فبينهما فَرْقٌ، ولهذا -والله أعلم- كان من الأسبابِ التي انْحرفَ بها مِنِ انحرفٍ من أولئكَ الذَّاهِبين.

ولو قيل: ما حُكْمُ من يسافرُ إلى بلاد الكفَّار لنيلِ شهادَةِ الدُّكتوراة في الشَّريعَةِ؟

فالجواب: هذا حرامٌ ولا إشكالَ من كونِهِ حَرَامًا؛ لأنه:

أوَّلًا: ليس بحاجَةٍ أن يَذْهَبَ ليدْرُسَ شريعةَ الإسلامِ في بلاد الكُفْرِ،

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الإقامة بأرض الشرك، رقم (٢٧٨٧)؛ والطبراني في الكبير (٧/ ٢٥١) (٧٠٢٣) عن سمرة بن جندب، ولفظ أبي داود: «مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ».

قد يدرِّسون الإسلامَ محرَّفًا.

وثانيًا: لأنه تهَجْينٌ[١] بالغٌ للمسلمين، كأنَّ المسلمِينَ ليس عندهم تخَصُّصاتٌ شرْعِيَّةٌ ولا عندهم شيء يعْرِفُونَ به دِينهُم.

لو قالَ قائلٌ: ما حُكْمُ من يذهبُ لبلادِ الكفَّارِ لدِرَاسَةِ لغَتِهِمْ، ومن شُروطِ هذه الدراسةِ أن يَعِيشَ مع أسرةٍ غيرِ مُسلِمَةٍ من أجلِ تعَلُّمِ اللُّغةِ؟

فالجواب: هذا حرامٌ ولا يجوزُ؛ لأن الجلوسَ مع هذه الأسرةِ فيه مفاسِدُ كثيرةٌ، فقد يكونُ في هذه الأسرةِ فتياتٌ شَابَّاتٌ يُفْسِدْنَ هؤلاءِ الدارسين من المسلمين، ومشْكِلَةُ السفَرِ إلى بلاد الكفَّارِ مشكلةٌ عظيمةٌ جدًّا.

مسألة: ما حدُّ دارِ الإسلامِ ودارِ الكُفْرِ؟

دار الإسلامِ هي التي تُقامُ فيها شعائرُ الإسلامِ بقَطْعِ النَّظَرِ عن حكَّامهم؛ حتى لو تَوَلَّى عليهم حاكمٌ كافرٌ، فما دامُوا يُقِيمونَ شعائرَ الإسلامِ، كالأذانِ وإقامةِ الصلاةِ والجمعِ والأعيادِ الشَّرْعِيَّةِ والصومِ والحجِّ وما أشْبهَ ذلك؛ فهذه دارُ إسلامٍ.

وأما قول من يقولُ: إن بلادَ الإسلامِ هي التي يحْكُمُها المسلمون، أي: يكونُ حُكَّامُهَا مسلمين، فهذا ليسَ بصَحِيحٍ.

ولكن إذا كان يَظْهَرُ فيها شعائرُ الإسلامِ وشعائرُ الكُفْرِ، كما لو كانت تُقامُ فيها الجُمَعُ والجماعاتُ، ولكن يُسْمَعُ فيها أيضًا أبواقُ اليهودِ ونواقِيسُ النَّصارى، وتُقامُ فيها صلواتُ النَّصارى واليهود، ففي هذه الحال قد نَرْجِعُ إلى الحُكَّامِ والأغْلَبِيَّةِ؛ لأن الحاكِمَ قد يَعْجزُ عن إزالة شعائرِ الكُفْرِ، فإذا كان غالبُ البلد

(١) التهجين: التقبيح. انظر القاموس المحيط (هجن).

مُسلمين وحُكَّامُها مُسلمون، قلنا: هذه بلادُ إسلامٍ وإن كان فيها شيءٌ من شَعائرِ الكُفْر؛ لأن الغَلبةَ كمِّيَّةٌ وسُلْطَةٌ للمسلمين، لكن يَعْجَزُونَ عن إزالةِ شعائرِ الكُفْر؛ لأن إظهارَ شعائرِ الكُفر في بلادِ المسلمين لا يجوزُ ويجِبُ مَنْعُهُ، حتى إظهارُ الصَّليبِ ممنوعٌ في بلاد الإسلامِ، فكون الصَّليبِ يُرْفعُ على الكنائسِ أو في الطُّرقاتِ هذا ممنوعٌ في بلاد الإسلام.

• • ❁ • •

الآيــة (٥٧)

• ● ● •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:٥٧].

• ● ● •

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ هذه قَضِيَّةٌ عامَّة[1]؛ لأن جميعَ المخلوقات داخِلُونَ تحتَ عُمومِ: ﴿كُلُّ﴾ إلا ما دلَّ الدَّلِيلُ على استِثْنائِهِ.

قوله: ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: مَيِّتة، لكن عَبَّر عن حقيقةِ الموتِ بالذَّوْقِ لأن الإنسانَ يذوقُ مرارةَ الموتِ وألَمَ فِراقِ الحياةِ، إلا إذا كانَ مؤمنًا فإنه يَذُوقُهُ مِنْ وجْهٍ لكن يُهَوِّنُ عليه الأمرُ، وجهٌ آخر: وهو أنه إذا بُشِّرَ بالجنَّةِ عند موتِهِ فإنَّهُ يُسَرُّ بذلكَ ولهذا يَسْهُلُ على نفسه الخُروجُ؛ لأن الملائكة تَتنزَّلُ عليهم: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠]، فيُسَرُّونَ بذلك ويَهونُ عليهم فراقُ الأحبَّةِ، ثم يَشْعُرونَ في هذه الحال أن إِمَامَهُم أَمَامهُم الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وخلَفاؤُه الراشِدُون والصَّحابَةُ، فيقولُ المؤمن: الحمدُ لله أني أنْتَقِلُ من دارِ العَناءِ والشَّقاءِ والابتلاءِ والامتحانِ، إلى دارِ النَّعِيمِ مع النَّبِيِّ ﷺ وخلفائِهِ الراشدينَ وأصحابِهِ، فيَزْدادُ بُشْرَى ويهونُ عليه الفِراقُ.

فهن نقولُ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، ولكن فرق بينَ المَذاقَيْنِ: بين مذاقِ المؤمنِ ومذَاقِ غيرِ المؤمنِ.

---

(١) انظر: رسالة في المنطق، إيضاح المبهم في معاني السُّلَّم (ص: ٦٢).

وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ بعدَ الإشارةِ إلى الهجرةِ كأنه يقولُ: بقاؤكُمْ في بلادِ الكُفرِ من أجلِ التَّمَتُّعِ بالمالِ والبلاءِ والأَوْطانِ نقصٌ في التَّفْكِيرِ؛ لأن هذا الأمرَ الذي أنتُمْ تحافِظُونَ عليه -وهو البقاءُ في البلادِ والتمتع بها- زَائِلٌ، فإذا كانَ زَائلًا ولا بُدَّ فكيف نُحافِظُ عليه ونَدَعُ ما هو أهمُّ وهو الهِجْرَةِ، ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: ثم بعدَ الموتِ نرْجِعُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا رَجَعْنَا يتبَيَّنُ الكشْفُ، أعني: كَشْفَ الحسابِ؛ لأن هذا الكتابَ ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩]، فلا يغادِرُ صغيرةً ولو صَغُرَتْ؛ لأن قوله: ﴿صَغِيرَةً﴾ نكرةٌ في سياقِ النَّفْيِ فتعُمُّ، وكذلك لا يُغادِرُ كبيرةً ولو عَظُمَتْ إلا أحْصَاهَا.

ولو أن الإنسانَ أرادَ أن يُحْصِيَ ما يتكَلَّمُ به في اليوم لكان عنده في الأسبوعِ مجلَّداتٌ، ولقد جَرَّبْتُ هذا وتبَيَّنَ لي عظِمَ الأمرِ، وذلك أن بعضَ الإخوانِ سجَّلُوا دُروسَنَا في الحَرَمِ وكتَبُوها في أوراقٍ، ثم أتَوْنِي بها فوَجْدُتَها شيئًا كثيرًا ما ظَنَنْتُ أن تبْلُغَ هذا المبلَغَ، بعضُ الأسئلة يكونُ جوابُها صفْحَةً أو صَفْحَتَيْنِ، والإنسانُ يظن أن الجوابَ كلماتٌ يَسِيرَةٌ، نسألُ الله أن يعْفُو عَنِ الجميعِ.

فالإنسانُ يجِبُ عليه أن يَعْتَبِرَ بمثلِ هذه الأمورِ، وينْظُرَ كم تَبْلُغُ كلماتُه في كلِّ يومٍ، وفي كلِّ أسبوعٍ، وفي كلِّ شهرٍ، وفي كلِّ سَنَةٍ، وفي العُمْرِ كلِّه.

وقوله: [﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بالتَّاءِ والياءِ[1] بعدَ البَعْثِ]: بالتاءِ والياءِ قراءتانِ سَبْعِيَّتانِ: «يُرْجَعُون» و﴿تُرْجَعُونَ﴾، والفرق بينهما من حيثُ المعْنَى أن (يُرجعون) للغائبِ، و(تُرجعون) للمخاطبِ.

---

(١) السبعة في القراءات (ص:٥٠٢).

وفي قوله: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ ترغِيبٌ وتَرْهِيبٌ، فالإنسانُ إذا نظرَ إلى رحمةِ الله عَزَّوَجَلَّ وسَعَى في عَفْوِهِ رَغِبَ وقال: سأرجِعُ إلى ربٍّ عَفُوٍّ كريمٍ، وإذا نظَرَ إلى شدَّةِ عِقابِهِ وأن أَخْذَهُ أليم شديدٌ فإنه يخافُ.

وهل يُغَلَّبُ جانبَ الرجاءِ أو جانبَ الخوفِ؟

فيه آراء لأهلِ العِلم، منهم من قال: يُغَلِّبُ جانبِ الرَّجاءِ، ومنهم من قال: يُغَلِّبُ جانبَ الخوفِ، والآيات فيها دِليلٌ لكِلَا القولَيْنِ كما في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، فبدأ بالمغفرةِ والرَّحْمَةِ قبلَ ذلكَ العَذابِ، وكذلك قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨]، فبدأ بالتَّهْدِيدِ قبلَ الوَعِيدِ.

وقال بعضُ العلماء: في حالِ الصِّحَّةِ يُغَلِّبُ جانبَ الخوفِ حتى يَسْتَقِيمَ على أمرِ الله، وفي حالِ المَرَضِ يُغَلِّبُ جانبَ الرَّجاءِ، لأجل أن يُلاقِيَ اللهَ وهو يُحْسِنُ الظَّنَّ، فاعتبَرُوا اختلافَ الحالينِ.

وقال آخرون: يجْعَلُ خوفَهُ ورَجَاءَهُ واحدًا، قال الإمامُ أحمد رَحِمَهُٱللَّهُ: ينْبَغِي أن يكونَ خوفُهُ ورَجُاؤُه واحدًا، فأيهما غَلَّبَ هلَكَ صاحِبُه؛ لأن إن غلَّب جانب الخوفِ استَوْلَى عليه اليأسُ من رَحْمَةِ الله، وإن غلَّب جانبَ الرَّجاءِ استَوْلَى عليه الأمْنُ من مَكْرِ الله، فيكون بين هذا وهذا.

وقال بعضُ العلماء: في حالِ الطاعَةِ يغَلِّبُ جانبَ الرَّجاءِ، وفي حال المَعْصِيَةِ يغَلِّبُ جانبَ الخوفِ، يعني: إذا عَمِلَ الطَّاعَةَ يقول: أرْجُو أن يَقْبَلَهَا الله فينْشَطُ على العبادَةِ، وفي المعصية يُغَلِّبُ جانبَ الخوفِ لئلا يَفعَلَ المعْصِيَةِ أو يستمِرَّ عليها بدون تَوْبَةٍ.

والذي يظْهَرُ -والله أعلم- إذا لم يكن هناك سببٌ لتَغْلِيبِ أحَدِهما على الآخر فالأَوْلَى أن يكون سواء، أما إذا كان هناك سببٌ فإنه ينْبَغِي أن يَتَّبِعَ ذلك السَّببَ، فإذا هَمَّ بالمعْصِيَةِ لو جعلَ رجاءَهُ وخوفَهُ سواء هانَتْ عليه؛ لكن لو غلَّب جانبَ الخوفِ وتَذَكَّرَ عظمَةَ من يَعْصِيهِ كان ذلك أدْعَى لتَجَنُّبِ المعصِيَةِ، وأما إذا وقعَ في المعصية وأراد التوبة قُلْنا: غَلِّب جانبَ الرَّجاءِ.

لو قالَ قائلٌ: الرَّسُولُ ﷺ دخل على غُلامٍ وهو يحتَضِرُ فقال: «**كَيْفَ حالُكَ؟**» فقال: أرجو الله وأخافُ ذُنُوبي. فقال الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا اجْتَمَعَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هذا الموْطِنِ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ**»[1]، أو كما قال ﷺ، ألا يَدُلُّ هذا على استواءِ الخوفِ والرَّجاءِ؟

فالجواب: أن المسألةَ لها أحوالٌ، وقد تَقَدَّمَ تَفْصِيلُهَا، وهذا الحديث نَنْظُرُ صِحَّتَهُ من ضَعْفِهِ.

لو قال قائلٌ: الكلامُ المباحُ الذي ليس بحَسَنَةٍ ولا سَيِّئَةٍ هل يَكْتُبُه الملَك، وهل يُمْحَى بعد ذلك أم لا؟

فالجواب: الكلامُ العَادِي -والله أعلم- المؤَكَّدُ أنه يُكْتَبُ، أما مسألة هل يُمْحَى أو لا؟ فلا أَدْرِي، إلا ما أَخْبَرَ اللهُ به من أنَّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئاتِ قال تعالى:

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الجنائز، باب ما جاء أن المؤمن يموت بعرق الجبين، رقم (٩٨٣)؛ والنسائي في السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يقول المريض إذا قيل له: كيف تجدك؛ رقم (١٠٩٠١)؛ وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد، رقم (٤٢٦١) عن أنس، ولفظ الترمذي: أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال: «**كَيْفَ تَجِدُكَ؟**» قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «**لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمُوطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ**».

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، فتُكْتَبُ الحسناتُ وتُمْحَى السَّيِّئاتُ، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:٣٩]، يدْخُلُ في هذا النَّوعِ، فالكلامُ العادِي يُكْتَبُ لكن لا يُجازَى به.

لو قال قائل: ورَدَ فيمن قال: تَعِسَتِ الدَّابَّةُ، أن مَلَكَ السَّيئاتِ يقول: ليست بحَسَنَةٍ ولا سَيِّئَة فأَكْتُبها[1]، وقال ملك الحسنات: ليستْ بحَسَنَةٍ ولا سيئةٍ فأَكْتُبُها، فأخبرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ما ليس بحَسَنَةٍ ولا سَيِّئَةٍ يُكْتَبُ سيئة؟

الجواب: هذا حرامٌ ولا يجُوزُ أن يَنْسِبُوه إلى الله عَزَّوَجَلَّ، الله لم يَقُلْ تُكْتَبُ سيِّئة، بل قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن كلَّ المخلوقاتِ تموتُ والله جَلَّوَعَلَا لا يموتُ، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨]، ولكن يُسْتَثْنَى مِنْ هذا العُمومِ ما دَلَّتْ النصوصُ على استِثْنائِهِ، وهم الذين خُلِقُوا للبقاءِ مِثْلُ: الحُورِ والوِلْدانِ، فإنهم يبْقَوْنَ كما هو ثابِتٌ ومعلومٌ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: إثباتُ البَعْثِ، لقولِهِ: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: محاسَبَةُ الإنسانِ لنَفْسِهِ، فينْبَغِي للإنسانِ أن يُحاسِب نَفْسَهُ لأن الله تعالى تَوَعَّدَ بأنهم يُرْجَعون إليه، يعني: فيُحَاسِبُهُمْ.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٢١٨) بلفظ: بينما رجل راكبًا على حمار إذ عثر به، فقال: تعست. فقال صاحب اليمين: ما هي بحسنة فأكتبها، وقال صاحب الشمال: ما هي بسيئة فأكتبها، فنودي صاحب الشمال أن ما ترك صاحب اليمين فاكتب»؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٠١) (٥١٨٢) موقوفًا على حسان بن عطية.

قال عمرُ بنُ الخطَّابِ: «حاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أنْ تُحاسَبُوا، وزِنُوا أعْمالَكُمْ قَبْلَ أنْ تُوزَنُوا»[1].

الفَائِدةُ الرَّابِعة: أنه لا رُجوعَ لأحَدٍ سِوَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لقولِهِ: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، فالعَالَمُ مَهْمَا فَرُّوا فالنهايةُ والغَايةُ إلى اللهِ.

• • ❁ • •

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، رقم (٢٤٥٩) موقوفًا على عمر بن الخطاب.

الآيــة (٥٨)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [العنكبوت:٥٨].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ نُنَزِّلَنَّهُم، وفي قِراءَةٍ بالمثلثَةِ بعدَ النون[1]، مِنَ الثَّواءِ: الإقامَةِ، وتَعْدِيتُه إلى ﴿غُرَفًا﴾ بحذفِ (في)] اهـ.

فالآية فيها قراءتانِ: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ بمعنى لنُنَزِّلَنَّهم، وعلى هذا فتكون الهاءُ في (نُبوِّئنهم) المفعولَ الأولَ و﴿غُرَفًا﴾ المفعولَ الثاني.

وفي قراءةٍ أخرى بدلِ (الباء) (ثاء)، وبَدَلِ الهَمْزَةِ (ياء): «لنُثْوِيَنّهم» مأخوذةٌ من الثَّواءِ وهو الإقامَةُ، يقال: ثَوَى في المكانِ أقامَ فِيهِ، وعلى هذا فتكون ﴿غُرَفًا﴾ منصوبةً بنزعِ الخافِضِ أي: لنُقيِّمَنَّهم في غُرَفٍ.

وقيل: إنها منصوبةٌ بتَعَدِّي الفِعْلِ إليها على سبيلِ التَوسُّعِ، وهذا أصحُّ؛ لأننا على هذا الوجه لا نحتاج إلى تقديرِ (في).

والقراءتانِ يَثْبُتُ معناهما فتكونُ الآيةُ على الإنزالِ، وأنه إنزالُ إقامَةٍ لا إنزالَ

---

(١) السبعة في القراءات (ص:٥٠٢).

إعـارةٍ، يعني: لنُنْزِلَنَّهُم على وجه الإقامةِ الدائمةِ، كما في آياتٍ كثيرةٍ تَدُلُّ على دوامِ نعيمِ أهلِ الجنَّةِ.

وقـوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يتكَرَّرُ في القرآنِ ذِكْـرُ الإيمانِ والعملِ الصالحِ، واعلم أنه إذا أطْلَقَ الإيمانَ شَمَلَ العَملِ الصالح، وإذا ذُكِرَ مع العملِ الصالحِ صارَ الإيمانُ في القلب والعَمَلِ في الجوارِحِ.

وقوله: ﴿غُرَفًا﴾ جمعُ غُرْفةً، وهي السَّكَنُ العَالي، والحُجْرَةُ هي السَّكَنُ الأسفلُ النازِلُ، ويُسَمَّى حجرة لأنه متَحَجِّرٌ.

قوله: ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: جمع نهرٍ، وهذه الأنهارُ أربعةُ أصنافٍ، كما قال تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥]، اللهُ أكبرُ!

إنها تَجْري من لَبَنٍ وهذا اللبنُ لم يأتِ من بَقَرٍ ولا من إبل فالذي خَلَقَ اللَّبنَ في الدنيا من بينِ فَرْثٍ ودَمٍ قادِرٌ على أن يجْرِي أنهارًا في الجنة من هذا اللَّبَنِ، وكذلك العَسَلُ والماءُ والخَمْرُ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

واعلم أن أحوالَ الدُّنْيَا لا تُقاسُ بها أحوالُ الآخرةِ، وإنما تُفْهَمُ أحوالُ الآخرةِ مِنْ أحوالِ الدُّنيَا بالاسمِ فقط، أما حقيقَةُ المسَمَّى فإنه لا مُقَارَنَةَ ولا مساوَاةَ بينَ هذا وهذا، قال ابنُ عباسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «ليس فِي الدُّنْيَا مِمَّا في الجَنَّةِ إِلَّا الأَسْمَاءُ فَقَطْ»(١)؛

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/ ١٧٢)؛ وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦٦)؛ والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١٠/ ١٦)؛ وهناد في الزهد (١/ ٤٩).

لكنَّ الحقيقةَ التي هي عليها تختَلِفُ اختِلافًا عظِيمًا، وليس قَصْدُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن هذه الأسماءَ مُجَرَّدَةٌ عن المعَانِي، فالعَسَلُ معروفٌ، وهو الشَّرابُ الحُلْوُ، لكنَّ حلاوَتَه ولذَّتَهُ في الدُّنيا ليس كحَلاوَتِهِ ولَذَّتِهِ في الآخرة، فليس قَصْدُهُ أننا لا نعْرِفُ إلا اسمَ العَسَلِ فَقَطْ: (عين، سين، لام)، لو كان كذلك تَفْوِيضًا.

لو قال قائل: هل يوجَدُ في الجَنَّةِ غيرُ هذه الأنهارِ الأَرْبَعَةِ؟

فالجواب -والله أعلم-: ليس فيها غَيْرُها؛ لأن مَقامَ الامْتِنَانِ يسْتَوْعِبُ كل ما يمكن أن يَمْتَنَّ الله به، ولما لم يَذْكُرِ اللهُ تعالى سِواهَا عُلِمَ أنه ليس فيها غيرها، ولكِنَّنَا لا نجْزِمُ بذلك؛ لأن هذه الأمور التي لا نُدْرِكُها يُقْتَصَرُ فيها على النَّصِّ.

وقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ انظر كيف يتَصَوَّرُ حُسْنَ المنظرِ إذا صَارتْ هذه الغُرفُ وهذه القصورُ العظِيمَةُ والخيام تَجْرِي مِنْ تحتِهَا الأنهارُ، فالمَنْظَرُ يُبْهِجُ الناظرينَ ولا يُسَاويهِ شيءٌ في الحُسْنِ والسُّرُورِ، وهذه الأنهار كما قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ وردَتْ أحاديثُ تَدُلُّ على أنها تَجْرِي بِدونِ أُخْدُودٍ[1]، يعني بدونِ شيءٍ يَمْنَعُها، فيتَصَرَّفُ فيها الناس كيفَمَا شَاءوا، فهذه الأنهارُ لا تَحْتَاجُ إلى عمَّالٍ ولا إلى مَسَاحي، قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في النونية[2]:

أَنْهَارُهَا فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ جَرَتْ سُبْحَانَ مُمْسِكِهَا عَنِ الْفَيَضَانِ

نعم سبحانه! ونَضْرِبُ مثلًا مِنَ الدُّنْيَا، وفرقٌ بين أمورِ الدُّنْيَا وأمورِ الآخرةِ: لو كان على يَدِكَ دَسَمٌ وجرى عليها الماءُ أليس ينْحَصِرُ في حُبَيْبَاتٍ؟ هذا الانحصارُ

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٠٥).
(٢) في النونية (ص: ٣٢٦).

لا تُوجَدُ حدودٌ تَمْنَعُهُ، فإذا كان هذا الأمرُ مُمْكِنًا في الدنيا فإنه يُمْكِنُ في الآخرة ما هو أشَدُّ وأعْظَمُ، والله جَلَّوَعَلَا الذي يُمسِكُ السماءَ بلا عَمَدٍ قادِرٍ على جريانِ هذه الأنهارِ في الجنة بِلا أُخْدُودٍ.

فالحاصل: أن هذه الأنهار عندَمَا يتَخَيَّلُها الإنسانُ وهي تجْري مِنْ تحتِ هذه الغُرفِ يتَصَوَّرُ منـظَرًا عَظِيمًا، ولا سيما الذين لهم ذَوْقٌ في هذه الأمورِ، وإلا فنحن ليس عندنا ذَوْقٌ في هذه الأمور، فلا نَتَصَوَّرُ كيف يكون هذا المنظرُ وهذه البهجَةُ.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُقَدَّرِين فيها الخُلودِ]، ذلك لأن كلمة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ تدلُّ على الخُلـودِ، والخلودُ مستَمِرٌّ، فإذا كان مُسْتَمِرًا فإنه لا يكون مع الدخـول، فتكونُ حالًا مُقَدَّرَةً، والحالُ المقَدَّرَةُ هي التي لا تأتي دَفْعَةً واحدة، مثاله: إذا قلت: (جاء الرَّجُلُ قائمًا)، هو حالُ مجَيئِهِ قَائمًا، لكن في هذه الآية وَعْدُ اللهِ المؤمنين فقال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾، وهذا الخلودُ لم يحْصُلْ حينَ الوَعْدِ في قولِهِ: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾؛ لأن ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ فِعْلٌ للمُسْتَقْبَلِ فهو غَيْرُ حاصلِ حالَ الوعْدِ؛ لأن هذا الوعدَ في الدُّنْيَا، فيكونُ الخلودُ مُقَدَّرًا؛ لأن الإنسانَ عندما يَنْزِلُ يبْقَى خَالِدًا إلى الأبد.

قوله جَلَّوَعَلَا: [﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ هَذَا الأجْرُ]: قدَّرَ المُفَسِّر (هذا الأجر) ليُبَيِّنَ المخصوص بالمدحِ؛ لأن نِعْمَ وبِئْسَ تحتاجُ إلى فاعِلٍ وإلى مخْصُوصٍ بالمَدْحِ أو الذمِّ، كما تقول: نعمَ الرجلُ زيدٌ، فزيد هو المخْصُوصُ بالمَدْحِ، والرجل فاعل، فقوله: ﴿نِعْمَ﴾ فعل ماضٍ جامد، أي: لا يتَصَرَّفُ.

وقوله: ﴿أَجْرُ﴾ فاعلٌ ومُضَافٌ، و﴿ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ مضافٌ إليه، وهذه الجملة تحتاجُ إلى مخصوصٍ بالمدْحِ فقَدَّرَهُ المُفَسِّر: [هَذَا الأجْرُ]، فالتقدير: نِعْمَ أجْرُ العاملين هَذا الأجْرُ والجزاءُ، وإعراب (هَذا الأجْرُ) أي المخصوص: مبْتَدَأٌ مؤخَّرٌ، وجملة

﴿نِعْمَ أَجْرُ﴾ خبرٌ مُقدَّمٌ.

وسمَّى الله تعالى الثَّوابَ أجْرًا من بابِ إظهارِ كَرَمِهِ على عِبادِهِ كأنهم أُجَراءُ، فيكون هذا الثوابُ واجِبًا وُجوبَ الأُجْرَةِ للأجِيرِ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سَمَّى الإنفَاقَ في سبيلِهِ إقْراضًا فقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥]، كأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل هذا الإنفاقَ بمَنْزِلَةِ الشيءِ اللازِمِ رَدُّهُ كما يلزمُ رَدُّ القَرْضِ، وهذا لا شكَّ أنه مِنْ نِعْمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وفضْلِهِ، وإلا فهو المتَفَضِّلُ أوَّلًا وآخِرًا.

فالله تعالى هو المتَفَضِّلُ بالعملِ وهو المتَفَضِّلُ بالجزاءِ، ولكِن لنِهايَةِ كرَمِهِ وغايَةِ جُودِهِ جعل عَمَلَ الإنسانِ كأنَّهُ عَمِلَ مِنْ نَفْسِهِ ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، نسأل اللهُ أن يجْعَلَنا من المحْسِنِينَ المجازين بالإحسانِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدَةُ الأُولَى: أن الإيمانَ إذا قُرِنَ بالعَمَلِ الصَّالِحِ فالمرادُ به ما فِي القَلْبِ، ووَجْهُ ذلكَ: أن العطفَ يقْتَضِي المغايَرَةَ، أما إذا ذُكِرَ الإيمانُ وحدَهُ فإنه يدْخلُ فيه العملُ الصالحِ.

الفَائِدَةُ الثَّانِيَة: اشتراطُ أن يكونَ العملَ صَالحًا، والعملُ الصَّالحُ ما جمعَ شَرْطَيْنِ: الإخلاصِ، والمتابَعَةِ لرسولِ الله ﷺ.

فالمُرائِي بعملِهِ عَمَلُهُ ليس صَالحًا لفَقْدِ الإخلاصِ، والمخْلِصُ المبْتَدِعُ عَمَلُه كذلك غيرُ صالحٍ؛ لأنه غيرُ متابعٍ للنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكن هل تُشْتَرَطُ المتابَعَةُ أو عدمُ العِلْمِ بالمنافاةِ؟ يعني: هل يُشْتَرَطُ أن نعْلَمَ أن هذا العملَ فيه متابَعَةٌ وأنه مشروعٌ أو يُشْتَرَطُ ألا نَعْلَمَ أنه غيرُ مَشْرُوعٍ؟

الأَوَّلُ يَقِينًا، يعني يُشْتَرَطُ أن نعْلَمَ أن هذا العملَ فيه متَابَعَةٌ وأنه مشروعٌ؛ لأنـه ينْبَنِي على هذا لو أن إنْسَانًا تعبَّدَ بعملٍ وقلنا له: لماذا تَتَعَبَّدُ بهذا؟ قال: أريدُ دَليـلًا على أنه غيرُ مَشروع، قلنا: ليس عِنْدَنَا دَلِيـلٌ ينُصُّ على أن هذا العمل ليس بمَشْرُوعٍ؛ فهل لنا سُلطَةٌ على مَنْعِهِ؟

الجواب: نعم؛ لأنه يُشتَرطُ أن نعْلَمَ أنه مشروعٌ لتَتَحَقَّقُ المتابعَةُ، فالمقامات ثلاثة:

تارةً نعلمُ أنه غير مشروعٌ كالنَّهْيِ عن صومِ العِيدَيْن، وما أشبه ذلك(١).

وتارة نَعْلمُ أنه مَشْرُوعٌ كصومِ يوم الاثنين(٢).

وتارة لا نَعْلَمُ أنه مشروعٌ أو غيرُ مشروعٍ، مثل لو قال قائل: ائتوني بدليلٍ على اتخاذ ليلة ولادةِ النَّبِيِّ ﷺ عِيدًا ليس بمشروع، أو قال: ائتوني بدَليلٍ على أن مَنْ لازَمَ ثلاثةَ آلاف تَسْبِيحة في اليوم وجَعَلَها سُنَّةً راتِبَةً؛ أن عَمَلَهُ غيرُ مَشْرُوعٍ؟

نقولُ: الدَّليلُ على الفاعِلِ؛ لأن الأصلَ في العباداتِ المنعُ حتى يقومَ دليلٌ على المشْروعِيَّةِ.

لو قال قائل: ورَدَ في الحديثِ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب صوم يوم الفطر، رقم (١٨٨٩)؛ ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم يوم الفطر ويوم الأضحى، رقم (١١٣٧) عن عمر بن الخطاب، ولفظ مسلم: «إن هذين يومان نهى رسول الله ﷺ عن صيامهما، يوم فطركم من صيامكم، والآخر يوم تأكلون فيه من نسككم».

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس، رقم (١١٦٢) عن أبي قتادة الأنصاري، ولفظه: وسئل عن صوم الاثنين؟ قال: «ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ وَيَوْمٌ بُعِثْتُ -أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ- فِيهِ».

وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ...» الحديث(١)، أهلُ البِـدَعِ يستَدِلُّونَ بهذا الحديثِ على جوازِ ما يبْتَـدِعُونَهُ، فكيف الجوابُ عن هـذا الحديثِ؟

الجواب: ليس مَعْـنَى قوله: «مَنْ سَنَّ» أي: مَنْ شَرعَ، بل معنى قوله: «مَنْ سَنَّ» أي: من فَعَلَ ما هو مَشْرُوعٌ وابتـدأ به.

ويَدُلُّ على هذا سببُ الحديثِ، فإن سببَهُ أن رَجُلًا لما دَعَا النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى التَّبَرُّعِ للقوم الذين جَاءوا من مُضَرَ مُجْتَابِي النِّمَار فُقَراء، فجاء رجلٌ مِنَ الأنصارِ بِصَرَّةٍ لا يستطيع أن يحْمِلهَا مِنْ ثِقَلِها، فأخَذَها النَّبِيُّ ﷺ ثم تَتَابَعَ الصحابةُ بعدَهُ، فقال ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا» فيُحْمَلُ الحديثُ على أن المراد بالسَّنِّ، الفعلُ، يعني: ابتداءَ العَمَلِ، يعْنِي: من بادَرَ وسابَقَ حتى صارَ قُدْوَةً للناسِ في ذلك، ولذلك قال: «فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا»، وإلا فلا يُمْكِنُ أن نقولَ إن البِـدْعَةَ التي ابتُدِعَتْ إنها حَسَنـةٌ، لقولِ الرَّسـولِ ﷺ: «كُلُّ بِـدْعَةٍ ضَلَالَـةٌ»(٢)، والضَّلالُ لا يوصَفُ بالحُسْنِ؛ هذا جوابٌ.

والجوابُ الثاني: أن يُقَالَ: المرادُ بـ«مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً» ما كان وَسِيلَةً إلى مأمورٍ به، مثاله: رجلٌ بَنَى بُيُوتًا لطلبَةِ العِلم، أو أنشأَ مطَابعَ لطِباعَةِ كُتبِ العلم وما أشبه ذلك، هذه سنَّةٌ ابتدائية لكنها وَسِيلَةٌ، ووسائلُ المَشْرُوعِ مشروعة لا لِذَاتِهَا لكِنْ لغَايتِهَا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب مَنْ سنَّ سنة حسنة أو سيئة...، رقم (١٠١٧) عن جرير بن عبد الله البجلي.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧) عن جابر بن عبد الله.

وأما قولُ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «نِعْمَتِ البِدْعَةُ»(١) فالبدْعةُ هنا نَسْبِيَّةٌ، فإن جمعَ الناسِ على إمامٍ واحدٍ بعدَ أن تَرَكَهُ النَّبيُّ ﷺ وأبو بكرٍ وأَوَّلُ خلافةِ عُمَر يُعْتَبَرُ بِدْعَةً نِسبيَّةً، أي: بالنِّسْبَةِ لتركِها هذه المدة.

أو نقول: إنها بِدْعَة لُغَوِيَّةٌ، والذي وردَ النَّهْي عنه والذَمُّ لفاعِلِه هي البِدْعَةُ الشرعِيَّةُ.

والمعنى الأوَّلُ أقْوى: أنها بِدْعَةٌ نَسْبِيَّةٌ إضافية بالنِّسْبَةِ لتَرْكِها هذه المدة بدون أن تُقامَ، وتَرْكُهَا كان لسببٍ، فلما انتَفَى هذا السببُ عادَتِ المشْرُوعِيَّةُ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أن جزاءَ المؤمنين العامِلِينَ عَمَلًا صالحًا سُكْنَى الجنَّاتِ، لقولِهِ: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: الإقامَةُ الدَّائمَةُ في الجنَّةِ على قِراءةِ: (لَنُثْوِيَنَهم) وأيضًا لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ﴾؛ لكن لَيسَتْ صَرِيحَةً.

الفَائِدةُ الخامِسَةُ: أن مَنازِلَ الجنَّةِ عالِيَةٌ، لقوله: ﴿غُرَفًا﴾.

الفَائِدةُ السَّادسَة: أن في الجنَّةِ أنهارًا، لقولِهِ: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، والأنهار قد تَقَدَّمَ أن أصنافَهَا أَرْبَعَةٌ.

الفَائِدةُ السَّابِعةُ: التَّنَعُّمُ في الجنَّةِ كما يكونُ بالأكْلِ والشُّرْبِ والنِّكَاحِ واللباسِ يكون كذلكَ بالنَّظَرِ وبالبَهْجَةِ، لقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، فإنك لا تستَطِيعُ الآن أن تَتصورَ البَهْجَـةَ التي تَنالهُا، إذا رأيتَ هـذهِ الأنهارَ تجْرِي تحـتَ قُصورِكَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة في رمضان، باب ما جاء في قيام رمضان، رقم (٢٥٠) بلفظ: «نعم البدعة هذه».

وغُرَفِكَ ولها منظرٌ لا يُتَصَوَّرُ.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: عِظَمُ هذا الثوابِ الذي يحصُلُ للذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ لأن الله أثْنَى عليه في قولِهِ: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾.

الفَائِدةُ الْعاشِرَة: الردُّ على الجَبْرِيَّةِ، لقوله: ﴿ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ حيث أضافَ العملَ إليهم، فدَلَّ هذا على أنهم يَعْمَلُونَ باخْتِيارِهِمْ وإلا لما استَحَقُّوا الثَّنـاءَ، فلولا أن الإنسانَ يعْمَـلُ باختيارِهِ ما استَحَقَّ أن يُثْنَى عليـه بالعملِ الصَّـالِحِ، ولا أن يُـذَمَّ بالعملِ السَّيِّئِ، ومن ثَمَّ قالت الجبريةُ: إن أفعالَ اللهِ غيرُ مُعَلَّلَةٍ، فالله عندَهُمْ يَظْلِمُ من شاءَ وإن كان هو الذي أَجْبَرَهُ على العَمَلِ، ويُثِيبُ مَنْ شاءَ وإن كان هو الذي أَجْبَرَهُ على العمـلِ، ولا حِكمةَ في ذلك، فَهُمْ لا يُعَلِّلُونَ أفعـالَ اللهِ، بل أفعـالُ الله عندهم لمجَرَّدِ المشيئة.

• • ۞ • •

الآية (٥٩)

• • • •

❁ قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [العنكبوت:٥٩].

• • • •

إعراب: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ فيه ثَلاثَةُ أَوْجُهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أن يكونَ خَبَرًا لمبتدأ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: همُ الَّذين صَبَرُوا.

الوجه الثاني: أن يكونَ نَعْتًا مَقْطُوعًا فيكونُ مَنْصُوبًا على المدْحِ، يعني: أَمْدَحُ الذين صَبَرُوا.

الوجه الثالثُ: أن يكونَ صِفَةً للعَامِلِينَ فيكونُ نَعْتًا مَوْصُولًا.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ أي: عَلَى أَذَى المشْرِكِينَ والهِجْرَةِ لإظهارِ الدِّينِ]: صبَرُوا على أمْرَيْنِ: على أذى المشْرِكِينَ، وعلى الهجْرَةِ لإظهارِ الدِّينِ؛ لأن في كِلَيْهِمَا مَشَقَّةٌ على النُّفوسِ، فهم صَبَرُوا على أَذَى المشركين المتَنَوِّعِ بالقولِ وبالفِعْلِ، كما يقال: حربُ الأعْصابِ والمضَايقاتِ النَّفْسِيَّةِ، وصبَرُوا كذلك على الهجرةِ مِنْ بلادِهِمْ التي سَكَنُوهَا وأقاموا فيها إلى بلاد أخرى يكونون فيها غُرباءُ، كل هذا لا شك أن فيه مَشَقَّةٌ على النُّفوسِ.

وإنما خصَّ المُفَسِّر الصَّبرَ بهذينِ الأمْرَيْنِ لتَعْيينِ السِّياقِ لهما، إذ إن السياقَ كُلَّهُ في مسألةِ الهجْرَةِ، ولو قيلَ بالعُمومِ لكانَ أَوْلَى، أَيْ: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ على كُلِّ ما أُمِرُوا بالصَّبْرِ عليه، فهم صَبروا على أقسامِ الصَّبْرِ الثلاثةِ: صَبَرُوا على طاعةِ اللهِ،

ومجاهَدَةِ النَّفْسِ على فعلها وإتمامِها وإتقانِها، وصَبَرُوا على المعصيةِ بحَبْسِ النَّفْس عن فعلها، وصَبَرُوا على أقْدارِ الله فحَبَسُوا أنْفُسَهُم عن التَّسَخُّطِ على القَدَرِ. فإن مقاماتِ المصابِ بأذى أربعةٌ.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، وقدَّمَ الجارَّ والمجْرُورَ على عامِلِهِ لإفادةِ الحَصْرِ.

والتوَكُّلُ معناه: الاعتمادُ، وعرَّفَهُ بعْضُهم بقَولِهِ: صِدْقُ الاعتمادِ على الله في جلبِ المَنافِعِ ودَفْعِ المضارِّ مع الثِّقَةِ به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: لا يتوَكَّلُونَ على غيرِهِ.

واعلم أن التَّوَكُّلَ ينْقَسِمُ إلى ثلاثةِ أقْسامٍ:

الأولُ: توَكُّلُ عبادةٍ مَقْرُونٌ بالخَشْيَةِ والمحبَّةِ والتعظيمِ، وتفويضِ الأمر تَفْويضًا كاملًا إلى المعتَمَدِ عليه، وهذا النوعُ لا يجوزُ إلا لله عَزَّوَجَلَّ.

الثاني: توكُّلُ اعتمادٍ بلا عبادة، بمعنى أن الإنسان يَعْتَمِدُ على غَيرِهِ، لكنَّه اعتمادٌ لا يَشْعُرُ معه بأنه متَذَلِّلٌ وخاشٍ له ورَاغِبٌ إليه، وهذا القِسْمُ إذا كان على ما يمكن الاعتمادُ عليه فهو شَرْكٌ أصْغَرُ، وإن كان على ما لا يُمْكِنُ الاعتمادُ عليه فهو شِرْكٌ أكبَرُ، يعني: إذا كان على ميِّتٍ أو غائبٍ لا يمكنك أن تعْتَمِدَ عليه فيكون شِرْكًا أكبرَ؛ لأنه ليس لذلك معنى إلا أن تَعْتَقِدَ أن هذا المعتَمَدَ عليه متَصَرِّفٌ في الكُونِ بغير مباشَرَةٍ، وهذا يحْصُلُ لكثيرٍ مِنَ المشْرِكِينَ الذين يعْتَمِدُون على الأمواتِ والأولياءِ وإن كانوا بَعِيدِينَ.

أما إذا كان يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ وهو يُمْكِنُ أن يكونَ سَبَبًا في جَلْبِ المنفعةِ أو دفْعِ

المَضَرَّةِ؛ لكنه مُعْتَمِدٌ عليه على أنه أعْلى مِنْهُ، فإن هذا نوعٌ مِنَ الشِّرْكِ الأصغرِ، مثل اعتمادِ كثيرٍ من الناسِ الآن على رَواتِبِ الدَّولَةِ وما أشبه ذلك، فكونك تَعْتَمِدُ على الدولة على أنها مصدرُ رِزْقِكَ، فإن هذا نوعٌ مِنَ الشركِ الأصغر لأن الدولَةَ ليستْ إلا مجردَ سَببٍ، ولهذا من كان على هذا الحالِ تَجِدُه يُراعي المُتوكَّل عليه ويَخافُه وربما يَتْرُكُ ما أَوْجَبَ الله عليه مُراعَاة لَهُ ومُداهَنَةً، أو يَفْعَلُ ما حرَّمَ الله عليه منْ أجْلِهِ.

أما القِسْمُ الثالثُ: فهو الاعتمادُ على الغَيْرِ لا على سَبيلِ الخَشْيَةِ والخوفِ والرَّغْبَةِ ولا على سَبيلِ أنه يَشْعُرُ أنه أعْلى مِنْهُ، بل على سَبيلِ أنك أنْتَ الَّذِي فوقَهُ وأنت الذي تُدَبِّرُهُ فتَعْزِلُ وتُنَصِّبُ، فهذا جائز ولا حرجَ فيه، وقد وَقَعَ مِنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإنه كان يَبْعَثُ السعاةَ تَوْكيلًا لهم على مَا يُرِيدُ، فهذا لا بأسَ بِهِ.

وهذا القِسْمُ يحصُلُ عن طريقِ الوِكَالَةِ، فعِنْدَمَا أُوَكِّلُ إنسانًا أن يَشْتَرِيَ لي شَيئًا أو يَبِيعَ لي شَيئًا وما أشْبَه ذَلِكَ، فأنا معتَمِدٌ عليه في هذا الأمرِ، لكن ليس على سَبيلِ الاحْتِياجِ إليه وأنه أعْلَى مِنِّي، بل على العَكْسِ؛ على سبيل الاعتقادِ بأنِّي أعْلَى منه، لا سِيَّما إذا كان بِعِوَضٍ، وأن الأمرَ إليَّ بشَأْنِهِ إن شئت عَزَلْتُ وإن شئت نَصبت.

وقد أجمعَ العلماء على جوازِ التَّوكِيلِ بالبَيْعِ والشِّراءِ وغيرِهِ مما تَدْخُلُ فيه الوِكالَةُ، والمراد من قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ القِسْمُ الأوَّلُ والثاني بنَوْعَيْهِ، فإنهم لا يعْتَمِدُونَ على أحدٍ سِوَى الله عَزَّوَجَلَّ في جَلْبِ المَنافِعِ ودَفْعِ المَضارِّ.

واعلم أن التَّوكُّلَ أحدُ شَقَّي الدِّينِ، فإن الدين مُكَوَّنٌ منْ أمْرَيْنِ: من عِبَادَةٍ واسْتِعَانَةٍ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]، وهذا كثيرٌ في القُرآنِ؛ لأن العبادةَ

لا تكُونُ إلا بفعلٍ مِنَ العَبْدِ وبمَعُونَةٍ مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويجبُ على المرءِ عِنْدَما يتَعَبَّدُ لله أن يكونَ مُعْتَمِدًا على ربِّهِ؛ لأن الله لو وَكَلَهُ إلى نفْسِهِ لوكَلَه إلى ضَعْفٍ وعَجْزٍ وعَوْرَةٍ، فلا يستَطِيعُ أن يقومَ بما أَوْجَبَ الله عليه.

قوله: [﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيَرْزُقُهم مِنْ حيثُ لا يَحْتَسِبُونَ]: هذه الجملةُ من المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا تُناسِبُ التَّوكُّلَ؛ لأن الذي يُنَاسِبُ التوكُّلَ أن يقول: فيكونُ حَسْبُهُم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، أما الرِّزْقُ من حيثُ لا يَشْعُرُ فيُنَاسِبُه التَّقْوى لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣]، وفرقٌ بينَ الأمْرَينِ، لكنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أتى بهذه الجُملةِ توطِئةً لما بعدها، وهو قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾، وإلا فبالنظَرِ إلى الآيةِ المفَسَّرَةِ لا يناسِبُها هذا القولُ.

لو قال قائل: التوكُّل يناسِبُه الرِّزْقُ؛ لأن النَّبِيَّ ﷺ يقولُ: «**لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرُ...**» الحديث[1]، فكيفَ الجوابُ عن هذا؟

فالجواب: معْنَى الحديثِ لو تَوَكَّلْتُمْ علَى الله في طَلَبِ الرِّزْقِ، لكِنَّ التَّوكُّلَ المطْلَقَ هو أن يكونَ اللهُ حَسْبَهُ، فيقول: حَسْبُنَا اللهُ ونَعْم الوكيلُ.

فهل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يكونُ وَكِيلًا ومُوَكِّلًا؟

الجواب: نعم يكون الله وكيلًا، وهذا كَثيرٌ في القُرآنِ، وقال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب:٣]، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب:٣٩].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، رقم (٢٣٤٤)؛ وابن ماجه: كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، رقم (٤١٦٤)؛ وأحمد (١/ ٣٠) (٢٠٥) عن عمر بن الخطاب.

ويكونُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مُوَكِّلًا، قال تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩]، وليس التوكيلُ مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كتَوْكِيلي لفلانٍ وفلانٍ؛ لأن تَوْكِيلي لفلانٍ وفلان إما لعَجْزي أو لتَقْصيري أو ما أشبه ذلك، لكنَّ تَوْكيلَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمعنى أن الله عَزَّوَجَلَّ يجعلُ هؤلاءِ هُمُ القائمُون بها، لا أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عاجزٌ.

وبعض الناس مِنَ العَوامِّ إذا وكَّلْتَهُ بشيءٍ قال: (وكِّلِ الله)، ولا بأس بمثل هذه العبارة، وقوله: (وكِّلِ الله) يعني: اجْعَله حَفِيظًا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حفيظٌ على كلِّ شيءٍ، وليس معناها أنه هو الله، بل المعنى: اجعلِ الله وَكِيلًا وحَارِسًا، أي: حَفِيظًا، وأني سأقومُ بالأمَانَةِ؛ لأن الله تعالى لا يَغِيبُ عنه شيء، وهو عَليمٌ بكُلِّ شيءٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: وجوبُ إفرادِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتَّوَكُّلِ والاعتمادِ، لقولِهِ: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

الفَائِدةُ الثَّانِيةُ: ينبَغِي للصابرِ أن يعتَمِدَ على ربِّهِ في صبْرِهِ، لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وفائدةُ اعتمادِهِ في صَبْرِهِ على رَبِّهِ:

أولًا: الثَباتُ على ذَلِكَ، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

ثانيًا: أن صَبْرَهُ يكون عبادةً؛ لأن بعضَ الناس يَصْبِرُ ويتَجلَّدُ على حَدِّ قول الشاعِرِ(١):

---

(١) البيت لأبي ذؤيب قاله يرثي بنيه، ذكره الزمخشري في الكشاف (٢/ ٣٥٧).

وَتَجَلُّـــدِي لِلشَّـــامِتِينَ أُرِيهُـــمْ أَنِّي لِرَيْـبِ الـدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَـعُ

هذا الصَّبْرُ لا شك أنه خلق جميلٌ، لكنه لا يُثابُ عليه، وإنما يُثابُ على الصبْرِ المقرونِ بالتَّوَكُّلِ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو الذي يكونُ فيهِ الثَّوابُ والأجْرُ.

الفَائِدة الثَّالِثة: كفايةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لأنه لا يَتَوَكَّلُ إلا عَلَى مَنْ هو كافٍ.

الآية (٦٠)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:٦٠].

• • • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَكَأَيِّن﴾ كَمْ]: على هذا تكونُ خَبَرِيَّةً، يعني: وكَمْ من دَابَّةٍ، أي: كثيرٌ مِنَ الدَّوابِ.

والدابَّةُ في اللغة العربية: كل ما يَـدُبُّ على الأرضِ، سـواء مَشَى على بَطْنِـهِ أو على رِجْلَينِ أو على أربعٍ، أما في العُرْفِ فهي لذَواتِ الأربعِ فقـط، فلا تَشْمَلُ ما يَمْشِي على بَطْنِـهِ ولا ما يمْشِي على رِجْلين، ولا على ما يمْشِي على سبـعٍ وسبعين، وهي دابة عِنْدَنا تُسَمَّى أم سبعٍ وسبعين، وهي مثلُ الدُّودةِ تَمْشِي ولها أرجلٌ كثيرةٌ -سبحان الله!- وقد أخْبَرَنِي بعضُ الطُّلابِ أنهم عَدُّوا هذه الأرجلَ فوجَدُوها فوق الخَمسين ودونَ السِّتِّين، ولعله نوعٌ آخَرُ أو لعل هذه التسمية على سبيلِ المبالَغَةِ الظاهِرَةِ.

لو قال قائل: هل السيارةُ تُسَمَّى دابَّةٌ؟

فالجواب: لا تُسَمَّى دابة؛ لأن الدابَّـة هي التي تَدُبُّ بنَفْسِهَا، أما السيـارةُ فلا تَدُبُّ بنَفْسِهَا بل بسائِقِهَا، وقد تَدْخُلُ السيارة في الفَـلكِ لأنها مِثْلُ السَّفِينَةِ لصاحبِهَا.

وقوله: ﴿وَكَأَيِّن﴾: مبتدأٌ.

وقوله: ﴿مِّن دَآبَّةٍ﴾: تمييزٌ لها.

وجملة: ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ قيل: إنها هي الخبرُ، وقيل: جملةٌ ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ هي الخَبَرُ، وجملة: ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ صِفَةٌ لدَابَّةٍ، وهذا أقربُ؛ لأن الكلامَ لا يَتِمُّ إلا بقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تستطيعُ أن تكْتَسِبَ وتحْمِلَ الرِّزْقَ حتى تقومَ بكفايَةِ نفْسِهَا، وهذا شيء كثيرٌ ويَرِدُ علَيْنَا نحنُ في حال الصِّغَرِ والطُّفولَةِ فلا نَسْتَطِيعُ أن نحملَ رِزْقنَا، ولولا أن اللهَ قيَّضَ لنا الأمَّ وقيَّضَ لنا الرضاعة من الأمِّ ما حَمَلْنَا الأرزاقَ، كذلك يُوجَدُ دوابٌّ تأْتِيهَا أمراضٌ وعاهات فلا تستطيعُ أن تَطْلُبَ الرِّزْقَ فيُهَيِّئُ الله لها رِزْقًا بحيثُ يأْتِيهَا وهي في مكانِهَا.

وكم قُصَّ عَلَيْنَا مِنْ قصصٍ كَثِيرةٍ في هذا البابِ؛ كدابَّةٍ جاءَهَا أمراضٌ وكُسِرَتْ رِجْلُها أو عَمِيت، أو طائر كُسِرَ جناحُهُ وما أشْبَه ذلك، فيَجِدُونَ الأشياء تأتي إليها بإذنِ الله جَلَّ وَعَلَا، وتأكلُ وهي في مكانِهَا، وتوجَدُ دوابُّ صغيرةٌ لا تستطيع أن تَذْهَبَ بَعِيدًا ثم يُقَيِّضُ الله لها طعامًا يَسْقُطُ حولها وتأتِي إليه، وهذه الدَّوَابُّ منها ما يستَطِيعُ أن يدَّخِرَ الرزقَ بنَفْسِهِ، ومنها ما لا يَدَّخِر الرزقُ، ومنها من له أعوانٌ، ومنها من ليس له أعوانٌ، والذي يتفكَّرُ في مخلوقاتِ الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الأمرِ يجِدُ العَجَبَ العُجابَ!

وقد ذكَر ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قِصَّةً، أن رَجُلًا وضَعَ طَعَامًا لنَمْلةٍ فلما أحسَّتْ به عَجَزتَ عن أن تَحمِلَهُ فذهبت إلى صاحباتها مِنَ النملِ ودَعَتْهُم فجاءوا، فلما جاءوا وصارُوا حول المكان رُفِعَ الطعام فلم يجدوه، فجَرَوا وبقِيَتْ هي تُفَتِّشُ حول المكان

فوضَعَه لها ثانية، فلما تيَقَّنَتْهُ ذهبت ودَعَتْهُم، فلما أقْبَلُوا رَفعَه، ثم بدأتْ تطلُبُه ورَجَعوا، ثم وضَعه في المرة الثالثة وذهبت ودَعَتْهُم فلمّا رفعَه ولم يجِدُوه قتَلُوها.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فذكرتها لشيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: إن الكَذِبَ لا يُحِبُّه أحدٌ، حتى النَّمْلَةُ لما كَذَبْتَ عليهم وأتَتْ بهم مِن بيوتِهِمْ واستَفْزَعَتْهُم قتَلُوها[1].

فهذه الدوابُّ الضَّعِيفَةُ التي لا تستطيع أن تحمِلَ رِزْقَها يقومُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ برِزْقِها؛ لأن الله تعالى قال في كتابه عن نَفْسِهِ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦].

وقوله: ﴿دَآبَّةٍ﴾ دابَّةٌ: نكِرَةٌ في سياقِ النَّفْي المُؤكَّدِ عُمومِه بـ(مِنْ) الزائدة، فأي دابَّةٍ في الأرض على اللهِ رِزْقُها ويعْلَمُ مستَقَرَّهَا ومستَوْدَعَهَا كذلك، وليست الدوابُّ كلها تَرْتِزَقُ من شيء واحد، بل بعْضُهَا يناسِبُه هذا وبعضها لا يناسبه، وأيًا كان فإن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُقَدِّرُ لها الرزقَ المناسب لها، ومع ذلك يعلم جَلَّ وَعَلَا مسْتَقَرَّهَا ومستَوْدَعَها، يعني: محل استقرَارِها ومحلَّ استِيدَاعِهَا.

فالمستَقَرُّ: ما تؤُولُ إليه في يومِ القِيامَةِ، والمستودَعُ: الدُّنيا والبَرْزَخُ الذي بين الدنيا والآخرة؛ لأنَّ الإنسانَ يكون فيه بمَنْزِلَةِ الوَدِيعَةِ يبْقَى زَمَانًا ثم ينْتَقِلُ.

لو قال قائلٌ: إن قولَهُ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ يحتَمِلُ الأمْرَيْنِ: أي لا تَحْمِلُ رِزْقَها لضَعفِها، وكذلك: لأنها لا تَسْتَطِيعُ التكَسُّبَ؟

فالجواب: لا تحتملُ الآيةُ الأمْرَيْنِ، فليس بصوابٍ أن نَقولَ: لا تَحْمِلُ رِزقَها

---

(١) شفاء العليل (ص: ٦٩، ٧٠).

لضَعْفِها؛ لأن هذا التَّعْليلَ معناه أنها لا تَحمِلُ رِزقها لأنها ضَعِيفَةٌ، إما ضَعِيفَةٌ في الإِرَادَةِ أو ضَعِيفَةٌ في البَـدَنِ، فليـس هذا مَعْنَى الآية، بل معنـاها: لا تَسْتَطِيـعُ أن تَكْتَسِبَ.

وكتابة الرِّزْقِ والأجلِ ليست خاصَّةً بالآدَمِيِّ بل الدَّوابُّ وغيرها داخلةٌ في هذا التَّقديرِ، لكن النُّصوصَ تكاثَرتْ في الآدَمِيِّ؛ لأنه هو محِلُّ الخطابِ والتَّكْلِيفِ حتى يَسْتَعِدَّ، وإلا فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقولُ في القُرآنِ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨]، فقوله: [كُلُّ شَيْءٍ] عامٌّ، فكلُّ شيءٍ مكتوبٌ أجلُهُ وجميعُ حالاتِهِ مُقَدَّرَةٌ، قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، فما دَامَ اللهُ خَلَقَهُ فهو عالمٌ بِهِ جَلَّ وَعَلَا في كُلِّ أحْوالِهِ، وكلُّ أحْوالِهِ مُقَدَّرَةٌ، فما من شيء إلا عَلِمَهُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا وقَدَّرَهُ حتى القَطرةُ من المطرِ مكتوبةٌ ومُقَدَّرَةٌ، مع أنها ليست ذاتَ إرادَةٍ.

ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقولُ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]، فقال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾، وهذا يَدُلُّ على أن اللهَ عالمٌ بِهِ ومُقَدِّرُهُ، ثم قال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يعني: كلُّ شيءٍ له حَياةٌ سيُبْعَثُ يومَ القِيامَةِ، وقُدْرَةُ الله عظيمةٌ لا يَتَصَوَّرَهَا الإنسانُ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

وكيف يقال: إن الله هو الذي خَلَقَ هذا الشيءَ وقدَّره فناءً ووجُودًا، ثم نقول: ما عِلَمَه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠]؟ فلا تسْتَعْظِمْ هذا ولا يُبْهِرُكَ؛ لأن الأمر على الله جَلَّ وَعَلَا يَسِيرٌ، وقدرةُ الله جَلَّ وَعَلَا ليس لها منْتَهَى وليس لها حَدٌّ.

فالمهِـمُّ: كلُّ شيءٍ مكتـوبٌ ومقدَّرٌ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْـلَمُه، حتى إن أحـدَ

أصحابِ الإمامِ أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ دخل عليه وهو مريضٌ، ويَئِنُّ من المرضِ، فقال: يا أبا عبدِ اللهِ كيفَ تَئِنُّ وقد رَوى طَاووسُ أن الملائكةَ تَكْتُبُ حتى أَنِينَ المرِيضِ[1]، فلما قال ذلك كفَّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وصارَ يتحَمَّلُ ولا يَئِنُّ مِن مرضِهِ، مع أن الأنينَ أحيانًا يكون شَيْئًا طَبِيعِيًّا.

والشاهد: أنه يجبُ علينا أن نعتَقِدَ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالِمٌ بكُلِّ شيءٍ، وأنه مقدِّرٌ لكلِّ شيء، وأن آجالَ كلِّ شيءٍ مكتوبةٌ، وكُلُّ حركاتِهَا وسكنَاتِهَا مكتوبة، وأنه لا يحدُثُ شيء في الأرضِ ولا في السماء إلا بعِلْمِ اللهِ وإرَادتِهِ وخلْقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

مسألة: هل مَلَكُ الموتِ يَقْبِضُ أرواحَ الحشراتِ؟

هذا مَحَلُّ نِزاعٍ بينَ السَّلَفِ، والأدِلَّةُ فيها تكادُ تكونُ متكَافِئَةً، لكن الذي يظهرُ أن قبضَ ملكِ الموتِ للأرْواحِ عامٌّ؛ لأن (مَلك) مضافٌ إلى (الموت) فيُفِيدُ العمومَ، فيَشْمَلُ موتَ كُلِّ حَيوانٍ.

لو قال قائل: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾، هل هذا العُمومُ يَشْمَلُ بَنِي آدَمَ؟

فالجواب: لغةً يَشْمَلُ بني آدمَ، لكن لما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ عُلِمَ أن المرادَ ما سِوَى بَنِي آدَمَ، أما قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، فهو عامٌّ لبَنِي آدمَ وغَيْرِهِ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أتى بالجُمْلَةِ الاسمية؛ لأن الجملَةَ الاسْمِيَّةَ تُفِيدُ بأصلِ وَضْعِهَا ثبوتَ الحُكمِ، والرزقُ: بمعنى العطاءِ بلا عِوَضٍ،

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥/ ٣٢٥).

والضمير في ﴿يَرْزُقُهَا﴾ أي: هَذِهِ الدَّابَّةُ، ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾: معطوفة على (الهاء)، والضميرُ هنا واجِبُ الانفصالِ إذ إن الضَّمِيرَ المتَّصِلَ لا يُمْكِنُ أن يتأَتَّى هنا، فلا يَصِحُّ أن تقولَ: (الله يَرْزُقها وكُم)، فالضمير إذا أتى بعدَ العَطْفِ أو بعد (إلا) فلا بُدَّ أن يكونَ مُنْفَصِلًا.

وقوله: [﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أيُّها المهَاجِرُونَ وإن لَمْ يكُنْ مَعَكُمْ زادٌ ولا نَفَقَةٌ]: لأن الكلامَ -كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ سابقًا- مَسُوقٌ في الهِجْرَةِ ومغادَرَةِ البلَدِ، فاللهُ تعالى كما رَزَقَ هذه الدَّوابَّ الكثيرةَ التي لا تُحصَى جِنسًا، فضلًا عن النوع، فَضْلًا عن الأفرادِ، فأنتُمْ كذلك إذا هَاجَرْتُمْ لا يَضِيعُ رِزْقُكُمْ، بل رِزْقُكُم على الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال:٧٠]، وقد حصَلَ، فأَسْرَى بَدْرٍ الذين أَسْلَمُوا حَصَل لهم مِنَ الفَيْءِ والغنائِمِ أكثرَ مِمَّا أُخِذَ منهم.

قوله: [﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقْوالِكُمْ، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بضمائِرِكُمْ]: فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سميعٌ لكُلِّ شيءٍ، يسمَعُ كلَّ صوتٍ وإن خَفِي، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]، فهو يعلمُ كلَّ ما يكون من صوتٍ خَفِيٍّ، سواء كان قولًا أمْ غيرَ قولٍ، لكنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خصَّ القولَ لأنه مَحَطُّ التَّكْلِيفِ، ومَحَطُّ الإثمِ أو الأَجْرِ.

و﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: من أسماء اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وله مَعْنَيانِ:

أحدُها: إدْراكُ المسْمُوعِ.

والثاني: إجابَةُ الدُّعاءِ.

أما إدراكُ المسْمُوعِ فَلَهُ أمثِلَةٌ كثيرةٌ كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ

ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١].

وأما إجابَةُ الدُّعاءِ فكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، بمعنى: يَسْمَعُ صوتَ الدَّاعِي أو يُجيبُ دُعاءَهُ.

قوله: [﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بضمائِرِكُمْ]: فعلى رأي المُفَسِّر تكونُ هذه الآية دَالَّةٌ على الأقوالِ وما في الضَّمائرِ فَقَطْ، مع أن هناكَ أفعالًا وهي أفعالُ الجوارحِ.

فالآية بهذا التفسيرِ ليس فيها دليلٌ على عِلْمِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأفعالِ النَّاسِ، ولهذا كان الصوابُ أن يقالَ: العَليمُ بجميعِ أحوالِكُمْ، فالله عليمٌ بما في الضمائرِ وعَلِيمٌ بما يَفْعَلُ وبما يسْمَعُ؛ لأن العلـمَ مِنْ أشملِ ما يكونُ مِنَ الصفـاتِ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢]، فهو من أعَمِّ الصفاتِ شُمُولًا.

وقوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ يقولُ العلماءُ: إن العلمَ هو إدراكُ المعْلُومِ على ما هو عليه إدْرَاكًا جَازِمًا مطابقًا، وقولنا: (على مَا هُو عَلَيْهِ) يُغْنِي عن قولنا: (مُطَابِقًا)، لكن إذا قلنا: العِلْمُ إدراكُ الشيءِ إدْرَاكًا جازِمًا مُطَابقًا فهذا صحيحٌ.

المهم: لا بُدَّ أن يكونَ الإدراكُ (جَازِمًا) فنُخْرِجُ به الشَّكَّ والظَّنَّ والوَهْم.

و(مطابِقًا) نُخرِجُ به الجَهْلَ المرَكَّبَ.

و(إدْرَاكًا) نُخْرِجُ به الجهلَ البَسِيطَ، فيكونُ الإدراكُ للأمورِ على سِتَّةِ أنواع: عِلْمٍ، وجهْلٍ بسيطٍ، وجَهْلٍ مُرَكَّبٍ، وشَكٍّ، وظَنٍّ، ووَهْمٍ.

ننظر إلى تفصيل ذلك:

العلم: أن تُدْرِكَ الشيءَ على ما هو عَلَيـه إدْراكًا جَازِمًا، فنَـفْرِضَ أنَّ أمامـك

جهازُ تَسجِيلٍ، فالعِلْمُ أن تُدركَ أن الذي أمامَك جهازُ تَسجيلٍ.

الجهْلُ البسيط: يقال لك: ما هذا الَّذِي أمَامَكَ؟ تقولُ: لا أَدْرِي.

الجهْلُ المرَكَّبُ: يقال لك: ما هذا الَّذِي أمَامَكَ؟ تقول: هذه أُلْعُوبَةُ أطفالٍ، هـذا جهْلٌ مُرَكَّبٌ من جهلِك بحقيـقةِ الحالِ ومن جَهْلِكَ بحالِكَ؛ حيـث ظَننتَ أنك عَالمٌ وأنت جاهلٌ.

الشكُّ: يقال لك: ما هذا الذي أمَامَـكَ؟ تقول: إما جهازُ تَسجيلٍ أو راديو؛ لأن أحدَ الاحتمالين صحيحٌ، فمَعَ التَّساوي يكونُ شَكًّا.

وإذا رجَّحتَ أنه جهازُ تَسجيلٍ فهو ظَنٌّ، والمرجوح يكونُ وَهْمًا.

وكل هذه الأشياء منْتَفِيَةٌ عن الله عَزَّوَجَلَّ، ما عدا العِلْم فإنَّه ثابتٌ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى على كلِّ وَجْهٍ.

لكن لو قال قائلٌ: هذا الجزم بأن هذه الأمـور منْتَفِيَةٌ عنِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ما عـدَا العِلْم، يَرُدُّه قولُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى في الحديـث القدسي: «وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[1]، فأثبـتَ أن الله عَزَّوَجَلَّ يتَرَدَّدُ في بعضِ أفعَالِهِ؟

والجوابُ: أن التَّرَدُّدَ قِسْمانِ:

الأوَّلُ: تَرَدُّدٌ لتَوَقُّفِ المتَرَدِّدِ في الأمرِ هلْ يكونُ خَيْرًا أو لَا، وهذا بالنِّسْبَةِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ ممْتَنِعٌ؛ لأن الله تعالى يَعْلَمُ.

الثَّانِي: تَرَدُّدٌ باعتبـارِ النَّظَرِ، يعْنِي: تَرَدَّدَ لأمرٍ يتَعَلَّقُ بغَيْرِهِ مثـلُ هذه الحـالِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦١٣٧) عن أبي هريرة.

فإنَّ تَرَدُّدَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا لخفاءِ الأمْرِ عليـه، ولكن لأَنَّهُ يَكْرَهُ أن يَسُوءَ عَبْـدَهُ، فيتَرَدَّدُ لا لشكٍّ في الأمر واستظهارٍ للواقِـعِ، ولكن لأجلِ أن الأمرَ يتعَـلَّق بغيرِه، فهذا لا يُعْتَبَرُ نَقْصًا بل كَمالًا؛ لأنه يدُلُّ على رحمةِ الله عَزَّوَجَلَّ، وبهَذا يَزُولُ الإشكالُ.

وقوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ مِنَ الأسماءِ المتَعَدِّيَةِ، فيكونُ متَضَمِّنًا لثُبوتِ الاسمِ والصِّفَةِ والحُكْمِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: الإرشادُ إلى النَّظَرِ في مخلوقاتِ الله، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾؛ لأجلِ أن نَتفَكَّرَ في هذه الدَّوابِ التي لا تَحْمِلُ رِزْقَها.

الفَائِدةُ الثَّانِية: إثباتُ عدةِ صِفَاتٍ من صفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، منها كمالُ القُدْرَةِ؛ حيث يخْلُق هذه الدَّوابَّ الصَّغيرةَ التي لا تحمِلُ رِزْقها، ويخلُقُ الدَّوابَّ العظيمة التي تَكْتَسِبُ الرِّزْقَ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: إثباتُ صِفَةِ القُدرةِ لله عَزَّوَجَلَّ، وإثباتُ عِلْمِهِ ورحْمَتِهِ وإحاطَتِهِ بكُلِّ شيءٍ؛ لأن هذه الدوابَّ الصغيرةَ الي لا تحْمِـلُ رِزْقَهَا يعْلَمُها ويَرْزُقها، لقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: إثباتُ اسْمَي السَّميعِ والعَليمِ وما يتَضَمَنَاهُ مِنَ الصِّفَةِ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٦١)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:٦١].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَئِن﴾ لامُ قَسَمٍ ﴿سَأَلْتَهُم﴾ أي: الكُفَّارَ] اهـ.

يقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن﴾: (اللام) لامُ القَسَمِ، يعْنِي: موطِئَةٌ للقَسَمِ، وقد اجتَمَع في هذه الآية قَسَمٌ وشَرْطٌ، والقاعدة: إذا اجتَمَعَ شرطٌ وقَسَمٌ حُذِفَ جوابُ المتأخِّرِ، قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ(١):

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ ... جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

وقوله: ﴿وَلَئِن﴾: (اللام) لامُ القَسَمِ، و(إن) شَرطِيَّةٌ، فكانَ الجوابُ للقسمِ وهو قولُهُ: ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، وحُذِفَ جوابُ الشَّرْطِ.

قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ فيها ضميران: (التاء) و(الهاء)، التاءُ خِطَابٌ للنَّبِيِّ ﷺ أو لكلِّ مَنْ يتأتى خِطابُه، والهاء خطابٌ للمَسْؤولِينَ.

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: ولئنْ سألتَ هؤلاءِ الكُفَّارِ ﴿مَّنْ خَلَقَ﴾، (خلق): بمعنى أوْجَدَ، ولكن على تقديرِ مُعَيَّنٍ، فالخَلْقُ ليس بمعنى الإيجادِ المجَرَّدِ، بل هو

---

(١) البيت رقم (٧٠٦) من ألفيته.

إيجادٌ على تَقْديرٍ مُعَيَّنٍ، أي: أنه يكون مَسْبُوقًا بتقديرٍ، ولذلك لا يكون إلا فيما فيه إتقانٌ وجودةٌ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: والسموات تُجْمَعُ دائمًا في القرآنِ، والأرضُ لا تأتي إلا مُفْرَدَةً، ولكنَّ الثابتَ أن الأَرَضِين سبْعٌ كما أن السموات سبْعٌ.

قوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ﴾ بمعنى: ذَلَّلَ الشَّمْسَ وجَعلهَا مُذَلَّلَة لمصالحِ العِبادِ تَسيرُ بهذا النِّظامِ الذي لا يختَلِفُ ولا يتغَيَّرُ لا تَقدُّمًا ولا تَأَخُّرًا، ولا عُلُوًّا ولا نُزُولًا، ولو تَدَبَّرْت هذه الشمسَ لرَأَيْتَهَا على نظامٍ بديعٍ لا يَتَغَيَّرُ على عِظَمِهَا وكِبَرِها.

ثم إن فيها من آيات الله الكثيرةِ: انْظُرْ إلى حَرارَتِهَا في أيام الصيفِ، وهذه الحرارةُ العظيمةُ ما هي إلَّا نفَسٌ بسيطٌ مِنَ نَارِ جهَنَّمَ، كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: يا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ فِي الصَّيْفِ ونَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ»[(١)]، هذه الحرارة العَظِيمَةُ مع أن المسافَةَ بيْنَنَا وبينها بَعِيدَةٌ جدًّا، ومع ذلك يقولون: لو قَرُبَ منها أَقْوَى حَدِيدٍ وأَمْنَعَ حديدٍ لصارَ هَباءً قبلَ أن يَصِلَ إليها مِنْ شِدَّةِ الحَرارَةِ، وهذا أمرٌ مَعْلُومٌ؛ لأنك لو تُوقَدُ نارًا عَظِمية مِنْ أعظمِ نِيرانِ الدُّنيا فلا تَجِدُ هذه الحرارةَ العَظِيمَةَ من هذه المسافَةِ البعيدة.

ثم إن هذه الشمسَ كلُّ يومٍ لها مَطْلَعٌ، وكل يوم لها مَغْرِبٌ؛ وذلك لأن الله سَخَّرَها، ولولا ذَلِكَ ما اختلَفَتْ مشَارِقُ الشتاءِ ومشَارِقِ الصَّيْفِ.

الحاصلُ: أن الشَّمسَ مخلوقٌ عَظِيمٌ وأنها مُذَلَّلَةٌ لمصالِحِنَا بها تَنْضُج الثمارُ، وبها

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب الإبراد بالظهر في شدة الحر، رقم (٥١٢)؛ ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر لمن يمضي إلى جماعة...، رقم (٦١٧) عن أبي هريرة.

تُعْلَمُ السُّنونُ، ولو قَرُبَتْ أو بَعُدَتْ تَغَيَّرَ الجوُّ بلا شكٍّ، مع أنها تأتي يومَ القيامَةِ يكون بينها وبينَ النـاسِ قَدْرَ مِيلٍ[1]، واللهُ على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ، وأحوالُ الآخِـرَةِ لا تُقاسُ بأحوالِ الدُّنْيا.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾: القَمَرُ معروف، وإنما ذَكَر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هنا الشَّمْـسَ والقَمْرَ لما فيهما مِنَ المَصَالِحِ الظاهِرَةِ؛ لأن النُّجومَ والكواكبَ ليس فيها مصالِحُ ظاهِرَةٌ لنا، وإلا فقدْ سَخَّـرَ اللهُ الشمسُ والقمر والنجوم، فكُلُّها مُسَخَّرَةٌ؛ لكنَّ المصالحَ في الشمسِ والقَمَرِ أظهرَ وأبْيَنَ.

وفي قـوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ دليل على أنهما هُمَا اللذانِ يَجْرِيانِ حولَ الأرض، خِلافًا لمن قال: إنهما لا يَسِيرَانِ حولَ الأرض، وإنَّ اختلافَ الليلِ والنهار بسببِ دَورانِ الأرْضِ نَفْسِها.

ولا شكَّ أن الذي لا يعْتَقِدُ أنهما يَدُورانِ حولَ الأرضِ أنه على خَطَرٍ عظيم، ربما يَصِلُ به ذلك إلى الكُفْرِ؛ لأن الذي نُؤمِنُ به ونعْتَقِدُهُ ما أخبرنا الله عنه من أنَّ الشمسَ هي التي تَدُورُ حولَ الأرضِ، وكذلك القَمرُ قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٧]، فأضافَ الله هذه الأفعالَ الأرْبَعَةَ إلى الشمسِ: (طَلَعت، تَزَاور، غَرَبت، تَقْرِضهم).

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٧) (١٧٤٧٥)؛ والحاكم (٤/ ٦١٥) (٨٧٠٤) عن عقبة بن عامر، ولفظ أحمد: «تَدْنُو الشَّمْسُ مِنَ الأَرْضِ، فَيَعْرَقُ النَّاسُ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَبْلُغُ عَرَقُهُ عَقِبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْعَجُزَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الخَاصِرَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ مَنْكِبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ عُنُقَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ وَسْطَ فِيهِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ فَأَلجَمَهَا فَاهُ، -رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يُشِيرُ هَكَذَا-، وَمِنْهُمْ مَنْ يُغَطِّيهِ عَرَقُهُ»، وضرب بيده إشارة.

ولو كان الأمرُ كما يقولُ هؤلاءِ الخرَّاصُونَ لكانت الأرضُ هي التي تَزَاورُ وهي التي تَطْلُعُ على الشَّمْسِ، وهي التي تَغْرُب عن الشمسِ، فَهُمْ ليس عندهم إلا أمورٌ ظَنِّيَّةٌ فقط، والقرآنُ دَلالَتُهُ ظاهِرَةٌ على أن الشمسَ تَدُورُ حولَ الأرضِ، وكذلك القَمْرُ، والنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما غَربت الشمسُ قال لأبي ذَرٍّ: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ»[1]، ولم يقل: أتَدْرِي أينَ نَذْهَبُ عن الشمسِ، بل الشمسُ هي التي تَذْهَبُ وهي التي تَأْتِي، وهي التي تستأذنُ وهي التي يُؤْذَنُ لها أو تُمْنَعُ.

ومن العَجِيبِ أن هذا القولَ المخالِفَ لظاهِرِ القُرآنِ قد سَرَى إلى أناس لا نَشُكُّ في دِيانَتِهِمْ، لكن غرَّهُم السَّرابُ فانْخَدَعُوا، والواجِبُ علينا في هذه الأمورِ أن نَمْشِيَ على ظاهِرِ القُرآنِ حتَّى يَتبَيَّنَ لنا ما يكونُ مخالِفًا لهذا الظاهِرِ، أما ما دَلَّ عليه القرآنُ دلالَةً يَقينِيَّةً فإنه لا يُمْكِنُ لشيءٍ أن يخالِفَهُ، فدَلالَةُ القرآنِ إما ظاهِرَةٌ وإما صَرِيحةٌ، فالصَّريحةُ قَطْعِيَّةُ الدِّلالَةِ، ولا يمكن لشيءٍ أن يخالِفَهَا، والظاهرةُ ظَنِّيَّةُ الدِّلَالَةِ فنبقى على الظاهرِ حتَّى يَتبَيَّنَ لنا بأمرٍ قَطعِيٍّ خلافُهُ، وحينئذٍ ما دام ظاهرًا فإنه يُمْكِنُ أن يُؤَوَّلَ.

فالحاصلُ: أن عِندنَا الآن ثلاثةُ مسائلَ:

الأُولَى: ثبوتُ الشمسِ والقَمَرِ، يعني: وُقوفُهما، فقائلُ هذا مُكَذِّبٌ للقرآنِ.

والثانية: كونُ الليلِ والنَّهارِ بسببِ دَورانِ الأرضِ أو بسببِ دَورانِ الشمسِ والقمر، نقول: هذا خلافُ الظاهِرِ، فنُكَذِّبُهم في قولهم: إن تَعاقُبَ الليلِ والنَّهارِ بسببِ دَورانِ الأرضِ حتى يأْتُوا بدَلِيلٍ قَطْعِيٍّ واضحٍ مثل الشمسِ يكون حُجَّةً لنا

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم (٣٠٢٧)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم (١٥٩) عن أبي ذر.

في تأويلِ ظاهِرِ القُرآنِ، وإلا فلا نَقْبَلُ قولَهم ولو اجتمَعُوا جميعًا؛ لأننا نعْرِفُ أن أقوالهم هذه تَخَرُّصاتٍ، حتى إن الآخِرَ منهم يَنْقُلُ عبارةَ الأَوَّلِ بِنصِّهَا، مما يدل على أن المتأَخِّرِينَ ببغاوات كلما نطَقَ لهم نَطَقُوا بما سَمِعُوا.

الثالثة: دَورانُ الأرضِ حولَ نَفسِهَا، هذا لا يوجَدُ في القرآنِ دليلٌ -لا ظاهرٌ ولا صَريحٌ- يدُلُّ على أن الأرضَ تدورُ أو لا تَدُورُ، لكن قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان:١٠]، قد يقول قائل: إن قوله: (تَمِيدَ) يدل على أنه هناك حَركة، ووُضِعَتْ هذه الجبالُ لاتِّزانِ هذه الحركةِ؛ لأن نَفْيَ الأَخَصِّ لا يَدُلُّ على نَفْيِ الأعَمِّ، ومع ذلك نقول: ما لنا ولمثل هذا البحث، لو أن هذا مِنَ الأمور التي يجبُ علينا اعتقادها أو اعتقادُ نَفْيِهَا لكان قد بُيِّنَ في القرآنِ غايَةَ البيانِ؛ لأن الله تعالى يقولُ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

ولو قالَ قائلٌ: لماذا نُشْغَلُ بهذه المسألةِ؟

فالجواب: إذا ابتُلِي الإنسانُ فلا بُدَّ أن يَنْزِلَ إلى الميدانِ.

ومثلُ هذا طُرقُ أهلِ الكلامِ في إثباتِ العقيدةِ فهي ليست على طريقةِ السَّلفِ، لكنَّ السلفَ لم يتْرُكوهُمْ وشأنهم، بل خاضُوا معهم، وقبلَ أرْبعينَ سنةً كانَ الناسُ على عقائدهم الفطْرِيَّةُ أن الشَّمسَ تطْلُعُ وتَغِيبُ والقَمَرُ يطْلُعُ ويَغِيبُ، ولم يكن يَطْرَأْ ببالِهِمْ إطْلاقًا هذه الأُمورَ المحْدَثَة.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ تَسْخِيرُ القَمرِ أيضًا لمنَافِعِ العبادِ ومصالِحِهِمْ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩]، بيَّنَ اللهُ الحكمةَ مِنْ ذلك في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس:٥]،

فباختلافِ منـازِلِ القَمَرِ نعلمُ عَدَدَ السِّنينَ والحساب؛ لأن الأَهِـلَّةَ هي المواقيتُ العالميَّةُ الفِطْرية، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٩]، عامَّة، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٦]، وهذه الأَشْهُرُ التي بيَّنَهَا الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: هي الأَشْهُرُ الهِلاليَّةُ.

وبالمناسَبةِ: حدَّثَنِي أحدُ الناس أن في بعضِ البلادِ يعْتَقِدُونَ أن سببَ الكسوفِ أن مخلوقًا يحولُ بينَ القمرِ وبين الأرض، وأيضًا في بعضِ البلاد يعتَقِدُونَ أن حيوانًا سَماوِيًا يتَرَصَّدُ بالقَمرِ -لعله حوت- فيحْجُبُه عن الأرضِ، ولذلك هم يخْرُجونَ بالطبولِ يهْتِفُون: يا فلانة يا فلانة انْقِذِي القَمَرَ، وهذا من البِدَعِ والمصائبِ التي حَلَّتْ بالمسلمين، والواجبُ على أهْلِ العلمِ التَّنْبيه على خَطر هذه البِدَعِ والتَّحْذِيرِ مِنْهَا.

قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ نونُ التوكيدِ اتَّصَلَتْ بالمضارِعِ، والمعروفُ عندَ أهلِ النَّحْو أن نون التوكيد إذا اتصلتْ بالمضَارعِ يُبْنَى على الفَتْحِ، والموجودُ هنا ضمَّةٌ؟

والجواب: أن نون التوكيد إذا اتَّصَلَتْ بالمضارع فيُشْتَرَطُ أن تكونَ مباشِرةً للفعل لفظًا أو تَقْدِيرًا، ولذلك يقول ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

....	وَأَعْرَبُــوا مُضَــارِعًا إِنْ عَرِيَــا
مِـنْ نُـونِ تَوْكِيـدٍ مُبَـاشِرٍ وَمِـنْ	نُونِ إِنَاثٍ كَـ(يَرُعْنَ مَـنْ فُـتِنْ)

فالنـون في قولِه: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ ليستْ مباشِرَةً للفِعْلِ تقديرًا؛ لأنه حـالَ بينها

(١) البيتان (١٩، ٢٠) من ألفيته.

وبين الفعلِ اسمٌ وهو (الواو)، وحرفٌ وهو (النون) أي: نُونُ المضارِعِ، وحُذِفَتْ نونُ المضارِعِ لتوالِي الأمثالِ، والواو حُذِفَتْ لالتقاءِ السَّاكنين؛ لأنه لما حُذِفَتِ النُّونُ الأُولَى لتَوالِي الأمثالِ والنُّونُ الثانِيَةُ مشَدَّدَةٌ، والحرفُ المشَدَّدُ أوله ساكن فيلتقي مِنْ ساكِنٍ، وهو الواو فتُحْذَفُ الواو، قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في الكافية:

إِنْ سَاكِنَانِ الْتَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ وَإِنْ يَكُنْ لَيْنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقْ

قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي: المسؤولُونَ مِنَ الكفَّارِ.

لفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ إعرابه: خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ تقْدِيرُهُ: (هو الله)، فالكفار يُقِرُّونَ بأن الله هو الذي خلقَ هذه الأشياء، ويعْتَرِفُونَ أن هذه الأشياءَ لا تَصْنَعُها الآلهةُ لا خَلْقًا ولا تَدْبيرًا، والآية جمعتْ بين الإيجادِ والتَّدْبيرِ في قوله -سبحانه-: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ولم يقل: خَلَقَ الشمس والقمر.

والحاصل: أنهم مُقِرُّونَ بأن خالقَ السمواتِ والأرض ومُسَخِّرُ الشمس والقمر هو الله تعالى دونَ أصنامِهِمْ، وهم لما أقَرُّوا هذا الإقرارَ أقامُوا الحُجَّةَ على أنفسهم؛ لأن مَنْ أقرَّ بالرُّبُوبِيَّةِ لَزِمَهُ أن يُقِرَّ بالألوهية، ومَنْ أقَرَّ بالألوهية فقد أقرَّ بالرُّبُوبِيَّةِ، فهما متلازِمَانِ، والإقرارُ بالرُّبوبِيَةِ أسبقُ لأن الإنسان لا يَعْبُد إلا ربًّا يعلَمُ أسماءَه وصِفَاتِه وأفْعَالَهُ.

قوله: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (أنَّى): اسمُ استِفْهامِ الغَرضُ منه التَّوبِيخُ، يعني: بعد أن أَقَرُّوا بهذا كيف يُصْرَفُونَ؟ وسمِّي الصَّرْفُ إفْكًا لأنه صَرفٌ للشيءِ عن حَقِيقَتِهِ كما يُسَمَّى صَرْفُ الكلامِ عن الواقع إفكًا، كما لو قال لكَ رجلٌ: (قَدِمَ زَيدٌ). وزيدٌ لم يَقْدم، هذا يُسَمَّى إفْكًا؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾: أَنَّى يُصْرَفُونَ عن تَوْحِيدِهِ بعدَ إقْرارِهِمْ بِذَلكَ].

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: إقامَةُ الحَجَّةِ على الخَصْمِ حتى يُذْعِنَ ويُقِرَّ، لقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

الفَائِدةُ الثَّانية: سَفَهُ هؤلاءِ المشركينَ باللهِ في عِبادَتِهم حيثُ يُقِرُّونَ بربوبِيَّتِهِ ثم يُنْكِرُونَ ألوهِيَّتَهُ، وكان مِنَ العَقْلِ أن من أقَرَّ بالرُّبوبِيَّةِ يُقِرُّ بالألوهية.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: إثباتُ خلقِ السَّموات والأرضِ، وأن الذي خَلَقَهما هو الله، لقولِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: أن تَدبيرَ الكونِ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لقولِهِ: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾.

الفَائِدةُ الخامِسةُ: رحمةُ الله عَزَّوَجَلَّ بخَلْقِهِ، حيثُ سَخَّرَ لهم الشمس والقمر.

الفَائِدةُ السَّادسَة: إقرارُ المشْرِكينَ بربُوبِيَّةِ الله عَزَّوَجَلَّ، لقولِهِ: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

الفَائِدةُ السَّابِعة: أن الإقرارَ بالرُّبوبِيَّةِ لا يكْفِي في التوحيدِ، وبهذا نَعْرِفُ بطلانَ تفسيرِ من فسَّرَ الإله بالقادِرِ على الاختراعِ، فإن المتكلِّمِين يُفَسِّرون الإلهَ بالقادِرِ على الاختراعِ، وإذا فَسَّرُوا الإله بهذا التَّفْسِيرِ لم يكن هناك فَرقٌ بين تَوحيدِهِمْ وبين توحيدِ المشْركينَ.

وأهلُ السُّنَّةِ يقولون: الإله هو المعبودُ حقًّا، وإن كان المعبودُ بالباطِلِ يُسَمَّى إلهًا لأنه يُعْبَدُ؛ لكِنَّ ألوهيَّتَهُ باطِلَةٌ.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: إثباتُ علمِ اللهِ للأمورِ التي تقَعُ في المستقبلِ، لقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾، فإن هذا خَبرٌ عن أمرِ مسْتَقْبَلٍ، ولا شكَّ أنه سيقَعُ كما أخبرَ الله عَزَّوَجَلَّ.

الآيـة (٦٢)

• ● ● •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [العنكبوت:٦٢].

• ● ● •

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يُوَسِّعُهُ ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ امتِحَانًا، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيِّقُ ﴿لَهُۥٓ﴾ بعدَ البَسْطِ، أي: لَمَنْ يَشاءُ ابتِلاءً] اهـ.

وقوله: ﴿يَبْسُطُ﴾ يعني: يُوَسِّعُ الرِّزقَ، والرزقُ بمعنى العَطاءِ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ المراد بالعبادِ هُنا المُتعَبَّدُون له، بالمَعْنَى العامِّ الشاملِ للمؤمن والكافرِ والبَرِّ والفَاجرِ، فالله تعالى يوسِّعُ الرزقَ لمن يشاءُ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ (مَنْ): اسم موصولٌ بمعنى الذي، وهو مِنَ الأسماءِ الموصولة العامَّةِ، ويشاء بَسْطَ الرزق لِهُ، ومفعولُ ﴿يَشَآءُ﴾ محذوفٌ دَلَّ عليه السياقُ، وعنـدنا قاعِدَةٌ مهمَّة جدًّا وهي: أن كلَّ شيءٍ عَلَّقَهُ الله تعالى بالمشيئةِ، فالمرادُ المشِيئَةُ المبْنِيَّةُ على الحكمةِ؛ لأن جميعَ أفعالِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأحكامُهُ مَبْنِيَّةٌ على الحِكْمةِ عَلِمْناها أم جَعِلْناها.

قوله: [﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ امْتِحَانًا]: والامتحانُ هُو الابتلاءُ، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن سُلَيمانَ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ بمَعْنَى يَضِيقُ، وفَسَّرْنا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ بمَعْنَى يَضَيِّقُ،

ولم نجعلِ القُدْرَةَ هنا بمعنى استطاعَةِ العملِ لمقابَلَتِهِ بالبَسْطِ ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق:٧]، فمَعْنَى ﴿قُدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: ضَيِّقَ عليه.

وقوله: ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ الضَّميرُ يعودُ على ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، يعني: ويَقْدِرُ لمنْ يشاءُ.

وهل المبسوطُ له والمقَدَّرُ له واحد؟

ظاهرُ كلامِ المُفَسِّر أنه واحدٌ، ولهذا قال: ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ بعد البَسْطِ، والسببُ أن الضميرَ في قوله: ﴿لَهُۥٓ﴾ يعودُ بلا شك على قولِهِ: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ فكأن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أرادَ أن يعودَ عليه باعتِبارِ عَيْنِهِ، لكننا نقولُ: لا مانع من أن يعودَ إليه باعتبارِ جِنْسِهِ لا باعتبارِ عَيْنِهِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر:١١]، فلا يَصْلُحُ أن يعودَ الضميرُ في قوله: ﴿مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ على المُعَمَّر؛ لأنه إذا نَقَصَ مِنْ عُمُرِه لم يكنْ مُعَمَّرًا، فالمرادُ من عمَّرَه باعتبارِ الجنْسِ، فيكون: [عُمُر مُعَمَّرٍ آخر].

ومثله أن تقول: (أعْطَيْتُ هذا الرجلَ دِرْهمًا ونِصْفَه) أي: نصفَ دِرْهَمٍ آخر؛ لأن قولك: (ونصفه) ليس المرادُ نصف هذا الدرهم، ولو كَسَرْتَ هذا الدِّرْهَم وأعطيتَهُ إياه كامِلًا أعطيتَهُ نِصْفين ولم تُعْطِهِ دِرْهمًا ونِصْفًا.

فالذي يَظْهَرُ أن الضميرَ في قوله: ﴿لَهُۥٓ﴾ يعودُ عَلَى ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ باعتبار الجِنْسِ لا الفعلين، فالله عَزَّوَجَلَّ يبْسُطُ الرِّزْق لهذا ويُضَيِّقُه على هذا، كما أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يبسُطُه لهذا أحيانًا ويُضَيِّقُه عليه أحيانًا، ونحن نرى مِنَ الأغنياءِ من رَجَع فقيرًا ومن الفُقراء من رجعَ غَنِيًّا، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يبْسُطُ الرزقَ باعتبارِ العَيْنِ وباعتبارِ الجِنْسِ.

وهذا البسطُ تابع لعِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومنـه البَسْطُ والتَّضْيِيقُ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يبسطُ أو يُضَيِّقُ إلا عن عَلْمٍ، ثم هذا العلم تَتْبَعُه الحكمة، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُغْنِي مَنْ يُصْلِحُهُ الغِنَى ويُفْـقِرُ مَنْ يُصْلِحُهُ الفَقْرُ.

ولهذا جاء في الحديثِ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْغِنَى، وإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَفْقَرْتُهُ لأَفْسَدَهُ الْفَقْرُ»(١)، وإذا مَنَّ الله على العَبْدِ وتَفَضَّلَ عليه وجَعَلَ رِزْقَهُ تابِعًا لمصلحَتِهِ حصَلَ بذلك خيرٌ كَثِيرٌ.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾: مما يَفْعَلُهُ الله جَلَّ وَعَلَا ومما يَفْعَلُهُ عبادُهُ، فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يَخْفَى عَلَيْه شيءٌ مِنْ ذلكَ.

قال بعضُ أهلِ العلمِ من أهلِ الأُصولِ: ما مَنْ عامٍّ إلا خُصَّ، إلا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكُلِّ شيءٍ عليمٍ لا يُسْتَثْنَى من ذلك شيءٌ، لا الواجبُ ولا الجائزُ ولا المستحيل، حتى المستَحِيلُ يعْلَمُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال هؤلاء: أما غَيْرُهُ مِنَ العُمـوماتِ فإنه مُخَصَّصٌ؛ بمَعْنَى أنـه يُسْتَثْنَى منه شيء، إما بدَلالَةِ العَقْلِ أو بِدَلالةِ الشَّرْعِ، لكن هذا القولَ غيرُ صحيحٍ، والصوابُ أن الأصلَ في العُموماتِ بقاؤهَا على العُمومِ، نعم إن أَرَادُوا التَصوُّرَ والتَّقْدِيرُ فهذا ممكنٌ، أما إن أَرَادُوا الواقعَ فَلا.

(١) أخرجه أبو نعيم في الحيلة (٨/ ٣١٩) عن أنس بلفظ: «وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، وإن بسطت له أفسده ذلك».

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: أن الرِّزْق بيدِ الله عَزَّوَجَلَّ، فإن كان كذلِكَ فهو الذي يَطْلُبُ منه الرِّزقَ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أن إثباتِ القَدَرِ لا يَعْنِي الكفَّ عنِ الأسبابِ، ففي هذه الآية بَيَّنَ اللهُ أن بسطَ الرِّزْقِ وتقديرَه بِيَدِهِ، وفي آيةٍ أُخْرَى يقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك:١٥]، لم يقل: نَامُوا علَى الفُرُشِ ويأتِيكُمْ الرِّزْقَ، بل قالَ: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾.

فالقَدَرُ لا يُنافِي فِعلَ الأسبابِ؛ لأنه قد يكونُ مُقَدَّرًا عليك بهذا السبب، كما أن دُخولَ الجنَّةِ والنجاةِ مِنَ النَّارِ له سببٌ وهو العملُ، فإذا لم تَعْمَلْ لم يحصلْ لك الفوزُ بالجنَّة والنَّجاةِ مِنَ النارِ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: إثباتُ كمالِ التَّصرُّفِ لله عَزَّوَجَلَّ لقولِهِ: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ وقال تعالى في آيةٍ أُخْرَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران:٢٦]، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له التَّصرُّفُ المطْلَقُ في مخلوقَاتِهِ.

الفَائِدةُ الرَّابعة: إثباتُ المشَيئَةِ، لقولِهِ: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ فمَشِيئَةُ الله جَلَّ وَعَلَا تَتعَلَّقُ بما يحبُّه وبما يَكْرَهُهُ، والمسلمون مجمعونَ على قولهم: «ما شَاءُ اللهُ كانَ وما لم يشأ لم يَكُنْ».

وأما إرادتُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَفِيهَا تَفْصِيلٌ، فإرادتُهُ الشَّرْعِيَّةُ تَتعَلَّقُ بما يحبُّهُ جَلَّ وَعَلَا، وإرادتُهُ الكَوْنِيَّةُ تتعَلَّقُ بما يُحِبُّه وما لا يُحِبُّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الفَائِدةُ الخامِسة: إثبـاتُ عِلمِ الله عَزَّوَجَلَّ، لقـوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وأنه عامٌّ في كلِّ شيءٍ، فيشْمَلُ الصغيرَ والكبيرَ، ويشْمَلُ ما يتَعَـلَّقُ بفعْلِهِ وما يتعلق بفعلِ عِبادِهِ، وإذا كان يَعْلَمُ فِعْل عبادِهِ لزم أن يكونَ مُقَدَّرًا له؛ لأنه إذا كانَ عالمًا به فإنه لا يمْكِنُ أن يقَعَ خلافُ مَعْلُومِهِ، وحينئذٍ يكون مقَدَّرًا له، وقد قال الشافعي رَحِمَهُٱللَّهُ في المعْتزلَةِ والقَدَرِيَّةِ: «جَادِلوهُمْ بالعِلْمِ، فإن أنكرُوه كَفَروا وإن أقَرُّوا بِهِ خُصِمُوا»[1]. وهذا صحيحٌ، وهذه الحُجَّةُ قائمةٌ وقَيِّمَةٌ.

الفَائِدةُ السَّادسَة: فَضْلُ الله عَزَّوَجَلَّ بالرِّزْقِ سواء كان مَقْدُورًا أو مَبْسُوطًا، ولا نقـول: (مُقَدَّرًا) بل الصـواب: (مقدورًا) لأنه اسم مفعـول من فعل ثلاثي لا رُبَاعِيٍّ.

•••

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٢٧)، وشرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٠٢)، ومجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٩).

الآيــة (٦٣)

• ● ● •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٦٣].

• ● ● •

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَئِن﴾ لامُ القَسَمِ]: وجوابُ القَسَمِ قولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

قوله: ﴿مَّن﴾: اسم استِفْهامٍ في محَلِّ رَفْعٍ مُبْتَدَأ؛ لأنه وَقَعَ بعدَ سؤالٍ وهو قولُهُ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾.

قوله: ﴿نَّزَّلَ﴾: في محَلِّ رَفْعِ خبرِ المبتدأ، و﴿نَّزَّلَ﴾ هنا بالتَّشْدِيدِ وفي آيات أخرى (أنزل)، والفرقَ بينهما: أن (نَزَّلَ) تُفيدُ نُزولَ الشيءِ شيئًا فشيئًا، كما قال تعالى في القرآن: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦]، وأما (أنزَلَ] فتُفيدُ نُزولَ الشيءِ جُملةً واحِدَةً.

قوله: ﴿نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ لأن النزولَ يكونُ مِنْ أعْلَى، فالمرادُ بالسماءِ هنا العُلُوُّ، وليس المرادُ السَّقْفُ المحفوظُ بدليلِ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤]،

والمطرُ ينزِلُ مِنَ السحابِ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور:٤٣]، وبهذا نَعْرِفُ أن المرادَ بالسماءِ هنا العُلُوُّ، فكلُّ ما علاكَ فهو سماءٌ؛ لأنه مِنْ (سما، يسمو) إذا علَا.

والحكمةُ مِنْ نُزولِهِ مِنَ السماءِ أنه إذا نَزَلَ من السماءِ شَمِلَ النَّازِلَ والعَالي، ولو كانَ ينـزِلُ مِنَ الأرضِ لم يَصِلْ إلى العَالِي حتى يُدمِّرَ النازِلَ، ولكنَّ حكمةَ الله أن نُزولَهُ من أعْلَى.

وقوله: ﴿فَأَحْيَا﴾ (الفاء) هنا تَدُلُّ على التَّرْتيبِ والتَّعْقيبِ، لكنها إذا اتصلتْ بجملَةٍ تَدُلُّ على السَّبَبِيَّةِ مع التَّرْتيبِ والتَّعْـقيبِ، بخلافِ ما إذَا دخلتْ على اسمٍ فإنها لا تَدُلُّ على السَّبَبِيَّةِ، تقول: (قامَ زيدٌ فَعَمْرو) وليس المعنى أن قيامَ زيدٍ سببٌ في قيامِ عَمْرٍو، لكنَّ المعْنَى أن قيامَ عَمْرٍو بعدَ قيامِ زَيْدٍ؛ لكن إذا اتَّصلَتْ بفِعلٍ فإن الغالبَ إنها تُفِيدُ مع التَّرْتِيبِ السَّبَبِيَّةَ.

وقوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يكونُ الماءُ سَببًا لإحياءِ الأرضِ، والإحياءُ يكون في الحالِ لأن السببَ لما كانَ مُؤَثِّرًا صارَ كأنَّ الأثرَ مترَتِّبٌ عليه فورًا، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج:٦٣]، فالأرضُ لا تُصْبِحُ مخضَرَّةً بمجرَّدِ نزولِ الماءِ في اللَّيْلِ، لكن هذا سببٌ مُوجِبٌ، فلما كان سببًا موجِبًا صارَ كأنَّ السببَ موجودٌ في الحالِ، ومن ذلك قولهم: تَزَوَّجَ فلان فولِدَ لَه، وإن كان هذا أضعفَ مما تَقَدَّمَ لكن قوله: [فولد له] نحن نعلم عِلْمَ اليَقِينِ أنه لا يُولَدُ له في ليلةِ الزَّواجِ لكنَّ الزواجَ سببٌ للوِلادَةِ، ويكون الترتيبُ بحَسَبِه، فلا يَلْزَمُ أن يكونَ عَقِبَ المسبَّبِ، لكن إذا كان السَّبَبُ مُوجِبًا صارَ كأن المسَبَّبَ عقب السببِ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ الجمادُ يَحْيَا ويمُوتُ، وكلُّ شيءٍ حياتُهُ وموتُهُ بحَسَبِهِ، فلا تَظُنَّ أن الحياةَ والموتَ لا تُضافُ إلا إلى ما يمكن أن يكونَ متحرِّكًا، فهذه الأصنامُ يقولُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل:٢٠-٢١]، وكلُّ شيءٍ لا حَرَكَة فيه ولا نُمُوَّ يمكن أن يُسَمَّى مَيِّتًا، وإن كان مما لا تَحِلُّهُ الحياة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ قيل: إن المرادَ بالأرضِ نَفْسُ الأرضِ، وإنها باخْتِلاطِ الماءِ فيها تكونُ حَيَّةً وبيَبْسِهَا تكونُ ميتة.

وقيل: المرادُ ما عليها مِنَ العُشْبِ والزَّرْعِ ونحو ذلك، يعني النبات، وأن الأرضَ لا تكونُ أَرْضًا في الحقيقةِ ينْتَفِعُ بها الناسُ إلا بالنَّباتِ الذي فوقها، فيكونُ المرادُ بحَياتِهَا وموتِهَا حياة نباتها وموت نباتها، وهو أظهَرُ؛ لأنه مَحِلُّ الانتِفَاعِ، وربما يستَشْهِدُ له بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [البقرة:٢٥٩]، والخَاوِي على العُروشِ النَّباتُ، فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾، فجعلَ الموتَ للنَّباتِ، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت:٣٩]، قال بعضُ العُلَماءِ: التي تَهْتَزُّ هي الأرضُ نَفْسُها، لكِنَّ الظاهِرَ -والله أعلم- أنَّ المرادَ بالأرضِ النَّباتُ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ تقدم أن اللَّامَ واقِـعَةٌ في جوابِ القَسَمِ، وأصْلُهَا (يقولونَنَّ)، فحُـذِفَتْ نُونُ الفِعْلِ لتوالي الأمثالِ، ولم تُحْذَفْ إحْـدَى نُونَي التوكيدِ؛ لأن نونَ التوكيدِ جِيءَ بها لغرضٍ وهو التَّوكِيدُ، ونونُ الرفعِ دائمًا تُحْذَفُ في النَّصْبِ والجزمِ والتَّخْفِيفِ، ثم حُذِفَتِ الواوَ لالتقاءِ السَّاكنين؛ لأنَّ نونَ التوكيدِ مكونَةٌ من حَرفينِ أوَّلُهما ساكنٌ.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ لفظ الجلالَةِ خَبَرٌ لمبتدأ محذوفٍ تقْديرُهُ: هو الله.

قوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، في هذه الآيةِ قالَ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وتَقدَمَّ أنه قال: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ بعدَ قولِهِ: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وذلك لظُهورِ دَلالَةِ الخلْقِ والتَّدْبيرِ على الرُّبوبِيَّةِ المستلزِمِ للإقْرارِ بالألوهِيَّةِ، وهذا فيه تَخْلِيَةٌ.

وأما قوله هنا: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فهذا فِيهِ التَّحْلِيَةُ، ومن المعلومِ أن التَّخْلِيَةَ قبلَ التَّحْلِيَةِ، ففِيهِ إثباتُ الكمالِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنه يَسْتَحِقُّ الثَّنَاءُ؛ ولهذا قال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يعني: الحمدُ لله على قِيامِ البيِّنَةِ عليكُم وظهورِ الحُجَّةِ ووُضُوحِهَا.

وأما قولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فكَيْفَ يُشْرِكُونَ بِهِ]: فهذا أَتَى بِهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على حدِّ قولِهِ في الآيةِ الأُولَى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، ولكن عِنْدِي أن الآية الثانيَةَ فيها إقامَةُ الحُجَّةِ على أمرٍ آخَرَ هم يُنْكِرُونَهُ وهو البَعْثُ، وحقيقةُ الأمرِ أن مُنْكِرَ البَعْثِ سيُشْرِكُ بالله وسيَعْمَلُ ما شاءَ؛ لأنه مُنْكِرٌ للبعثِ يَعْتَقِدُ أن لا جزاءَ ولا حِسابَ، ومن اعتقدَ هذا الاعتقادَ لا يَعْمَلُ، ولهذا تَرَوْنَ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَجْمَعُ دائمًا في القرآنِ بينَ الإيمان به وباليومِ الآخِرِ؛ لأن الإيمانَ باليومِ الآخِرِ هو الباعثُ للإنسانِ على العملِ؛ لأن من لا يعْتَقِدُ أن هناك جزاءً كيفَ يَعْمَلُ، فالَّذي يَظْهَرُ -والله أعلم- أن الآية الثانية سِيقَتْ لإلْزامِهِمْ بالإقرارِ بالبَعْثِ.

وقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الحمدُ هُو: الثَّناءُ بالجميلِ الاختِيارِي، هكذا يُعرِّفُه الأكثَرُونَ، وهذا غيرُ صحيحٍ، فإن الثَّناءَ غيرُ الحمدِ، ودليلُ ذلك ما وردَ في الحديثِ القُدُسِيِّ من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: «قَسمْتُ الصَّلاةَ بَيْني وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالَ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ

ٱلدِّينِ﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي»[١]، وهذا دليلٌ واضِحٌ على أن الثَّناءَ غيرُ الحمْدِ، وإلا لكان تكرارًا.

وأيضًا: المعنى يقْتَضِي ذلك؛ لأن الثَّناء من الثَّني وهو الرُّجوعُ، فإنك إذا ثَنَيْتَ العَصَا رجَع طرفُها الآخرُ، ومنه لفظ (اثنين) يَعنِي: واحدًا وواحدًا فَفِيهِ رجوعٌ.

والصواب في تعريفِ الحَمْدِ هُوَ: وصفُ المحْمُودِ بالكمالِ مع المحَبَّةِ والتَّعْظِيمِ، وقولنا: مع المحَبَّةِ والتَّعْظِيمِ؛ حتى يَخْرُجَ المدْحُ، فإن المدْحَ وصفُ الممدوحِ بالكمالِ، لكن قد يكون بمَحَبَّةٍ وتَعْظِيم، وقد يكونُ لخوفٍ لا لمحَبَّةٍ، فهذا الرجل الذي وقَفَ أمام مَلِك ظالم جبَّارٍ، وقال: أنت الملكُ الكَريمُ المحسِنُ العادِلُ الذي لا تَظْلِمُ أحدًا؛ هذا مَدْحٌ لكن ليس عن مَحَبَّةٍ وتعْظيمٍ.

ومن الفُروقِ بينَ الحمْدِ والمدْحِ: أن المدْحَ قد يكونُ مُوافِقًا للواقِعِ، وقد يكونُ غيرَ مُوافِقٍ، والحمدُ لا بد أن يكونَ موافِقًا للواقِعِ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ (ال) فِي ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ يقولُ العلماءُ: إنها للاسْتِغْرَاقِ، فجميعُ المحامِدِ لله جَلَّوَعَلَا.

وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ (اللامُ) في لفْظِ الجلالَةِ لشِبْه المِلْك، قال ابنُ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]:

وَاللَّامُ لِلْمِلْكِ وَشِبْهِهِ وَفِي ... تَعْدِيَةٍ أَيْضًا وَتَعْلِيلٍ قُفِي

والشاهِدُ قولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [واللامُ للمِلْكِ وشِبْهِهِ]، فالحمْدُ مُسْتَحِقٌّ لله جَلَّوَعَلَا ومختَصٌّ بِهِ، والمراد بالحمدِ: الحمدُ الكاملُ، أما مجَرَّدُ الحمدِ فلا يَخْتَصُّ بالله، فقد يُحْمَدُ الإنسان على خَصْلَةٍ من الخِصالِ فيُحْمَدُ بقدْرِ هذه الخصْلَةِ، أما الحمْدُ الكاملُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٥) عن أبي هريرة.

(٢) البيت رقم (٣٧٢) من ألفيته.

الواسِعُ فهو مختَصٌّ ومستَحِقٌّ لله وَحْدَهُ.

وقوله: [﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ تناقُضُهم في ذَلِكَ]: قوله: ﴿بَلْ﴾ هنا للإضرابِ الانتِقَالِي، يعني: بعد أن ثَبَتَ الأمرُ وقامَتِ الحُجَّةُ واستَحَقَّ البارِي الحمدَ، حينئذٍ يَصِحُّ أن يُسَجِّلَ عليهم الجَهْلَ فـ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يعني: عندَهُم من السَّفَهِ ما هو ظاهِرٌ وبَيِّنٌ؛ لأنهم لو كان عِنْدَهُم عقول لكانَ إقرارُهُمْ بما أَقَرُّوا به مُلْزِمًا لإقرارِهِمْ بما أَنْكَرُوه، فهم أَقَرُّوا أن الذي خلَقَ السمواتِ والأرضَ وسخَّرَ الشمسَ والقمر هو اللهُ، وأَقَرُّوا أن الذي أَنْزَلَ منَ السماءِ ماءً فأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بعدَ مَوْتِهَا هو الله، إذن: أين العقلُ وأنتم تُنْكِرُونَ البَعْثَ وتُشْرِكُونَ بالخالِقِ؟

ويُشْبِهُ هؤلاءِ الذين يدَّعُونَ أَنَّهُمْ عُقلاءُ مِنَ المتكلِّمينَ ثم يُنْكِرُونَ بعضَ صفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ، محتَجِّين أن العَقلَ لا يُقِرُّ هذه الصفاتِ، مع أن العقلَ يَلْزَمُهم أن يُقِرُّوا بما أَنْكَرُوه نظيرَ إقرارِهِمْ بما أَقَرُّوا بِهِ، ونضْرِبُ مِثالًا بالأشاعرة فيهم يقولون: نُثْبِتُ لله الإرادةَ ونُنْكِرُ الرَّحمةَ، قالوا: لأن الإرَادةَ دَلَّ عليها العَقْلُ، والرحمةُ دَلَّ العقلُ على بُطلانِهَا، فأَثْبَتُوا الإرادَةَ لأن العقلَ دلَّ عليها بالتَّخْصِيصِ؛ تَخْصِيصُ كونِ السماءِ سماء والأرض أرضًا، والإنسان بَشَرًا والحمارُ حيوانًا وما أشبه ذَلِكَ، فالله جَلَّوَعَلَا أرادَ أن يكونَ الإنسانُ إنسانًا، وأن تكون السماء سماءً فكانتِ سماءً، والحيوانُ حيوانًا غيرَ ناطِق فكان حيوانًا... إلخ.

والرحمةُ يقولون: دلَّ العَقْلُ على إنكارِهَا؛ لأن الرحمةَ لِينٌ ورِقَّةٌ، والله جَلَّوَعَلَا لا يُوصَفُ باللِّين والرِّقَّةِ.

فقلنا لهم: أنتم استَدْلَلْتُم بالواقِعِ على الإرادَةِ، ونحن نَسْتَدِلُّ عليكُمْ بالواقع على الرَّحْمَةِ، ودَلالَةُ الواقِعِ على الرَّحمةِ أعظمُ من دلالَةِ الواقِعِ على الإرادَةِ، ولو تأتي

إلى العَامِّي وتقول: ما دليلُ الإرادة عقلًا؟ ما أَدْرَكَ هذا، ولو تقول له: إنزالُ المطرِ بعدَ الجَدْبِ حتى تَخْصِبَ الأرضُ، ورِزْقُ الله المال للفقيرِ فيُصْبِحُ غَنِيًّا بعد الفقر؛ على ماذا يدل؟ لأجاب العامي: يدلُّ على أن الله رَحِيمٌ، فدلالَةُ الواقع الذي لا يُحْصَى مِن نِعِمَ الله على رَحمةِ الله أبلغُ من دَلالة التَّخْصِيص على الإرادة، ومع ذلك يَزْعُمونَ أنهم أهلُ العقلِ.

وأما قولهم: إن الرحمةَ معناها اللِّينُ والرِّقَّةُ، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى منزه عن ذلك.

فالجواب عن هذا مِنْ ثلاثَةِ أَوْجُهٍ:

الوجهُ الأولُ: نقول: هذا لازِمٌ؛ لكن في رَحْمَةِ المخلوقِ ورَحْمَةُ الخالق غيرُ رَحْمَةِ المخلوقِ.

الوجه الثاني: أن الرِّقَّةَ واللِّينَ ثابِتَةٌ لله عَزَّوَجَلَّ، واللِّينُ للغَيْرِ لإيصالِ الإحسانِ إليه ليس بصِفَةِ نَقْصٍ.

الوجه الثالثُ: أن الرَّحْمَةَ ليست هي الرِّقَّةُ واللِّينُ، فقد يَرْحَمُ الملِكُ فَقِيرًا من أفرادِ رَعِيَّتِهِ ويعْطِفُ عليه وهو باقٍ على عِزَّتِهِ ومُلْكِهِ، ولا ينْحطُّ عنْ رُتْبَةِ القُوَّةِ والحَزْمِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: حِكْمَةُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى في إنزالِ المطَرِ منَ السماءِ.

الفَائِدةُ الثَّانِية: أنه لا يَقْدِرُ على إنزالِ المطرِ منَ السماء إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

الفَائِدةُ الثَّالِثةُ: عَجْزُ هؤلاء الذين أعْطاهُم الله تعالى مِنَ الصَّنائعِ أن يُنْزِلُوا المطرَ منَ السماءِ؛ لأن هذا خاصٌّ باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: قُدرةُ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على إحياءِ المَوْتَى، لقولِهِ: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَآ﴾.

الفَائِدةُ الخَامِسَةُ: أن الجمادَ يوصَفُ بالحياةِ وبالموتِ.

الفَائِدةُ السَّادسَةُ: قياس الغائبِ على الشَّاهِدِ، الغائبُ هو البعث وإحياءُ الناسِ بعد الموتِ، والشاهِدُ هو إحياءُ الأرض بعدَ مَوْتِها.

الفَائِدةُ السَّابِعة: اعتبارُ القِياسِ الصحيحِ خِلافًا لمن أنْكَرَهُ أو غَلا فِيه؛ لأن الناس انْقَسَمُوا فيه إلى قسمين: منهم مَنْ غَلا، ومنهم من أنْكَرَهُ، يعني: منهم من أنكرَ القِياسَ مُطْلَقًا كابنِ حزْمٍ رَحِمَهُٱللَّهُ، ومع ذلك يَقِيسُ أحيانًا، ومنهم من غَلا فيه وتجاوزَ الحدَّ حتى بلغ بهم أن يَقِيسُوا صِفاتِ الخالِقِ بصِفَاتِ المخلوق كالمشبِّهَةِ.

الفَائِدةُ الثَّامِنة: حسنُ مناظَرَةِ القُرآنِ ومجادَلَتِه، وأن مناظَراتِه ومجادَلاتِهِ تكونُ ملْزِمَةً، وجهُ ذلك: أن إقْرارَهم بتَوحيدِ الرُّبُوبِيَّةِ مُلْزِمٌ لهم أن يُقِرُّوا بتوحيدِ الألوهية وكمالِ صِفاتِهِ جَلَّوَعَلَا.

الفَائِدةُ التَّاسِعة: وجوبُ إعلانِ الثَّناءِ والحمدِ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أمامَ المشْرِكينَ، لقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

الفَائِدةُ العاشِرَةُ: إقرارُ المشْرِكينَ بما يختَصُّ به اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من القُدرةِ، هو في الحقيقةِ كمالُ لله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا أمَرَ نَبِيَّهُ أن يُثْنِيَ عليه بالحمدِ، وأن يصِفَهُ بالحمدِ بعدَ إقْرارِهِمْ، كما في قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

الفَائِدةُ الحَادِيَة عشْرَةَ: أن أكثرَ هؤلاءِ المشْرِكينَ سُفهاءُ، وأن أكْثَرَهُمْ غيرُ عقلاءِ؛ لأنهم لو كانُوا عقلاءُ لعَرَفُوا اللازمَ ومَلْزُوماتِه وأقَرُّوا به، لقوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

الفَائِدَةُ الثانيةَ عشرةَ: أن الأشاعِرَةَ ونَحْوهُم فيما ذَهَبُوا إليه من إثباتِ بعضِ الصِّفَاتِ وإنكارِ بَعْضِها؛ ليس عندهُمْ مَعْقولٌ؛ لأنهم يُنكِرُون ما يُقِرُّونَ بمثله أو دُونَه، وتقدَّم أن كلَّ من أقرَّ بشيءٍ مِنْ صفاتِ الله تعالى وأفعالِهِ وأنْكَرَ آخر؛ فهو دَلِيلٌ على قِلَّةِ عَقلِهِ، وليس المرادُ بالعَقْلِ هنا عقلُ الجنونِ، بل عقْلُ الرَّشَدِ والهِدَايَةِ، وكذلك ليس عند هؤلاءِ الأشاعِرَةِ أثرٌ منقولٌ.

الآيــة (٦٤)

• ● ✧ ● •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤].

• ● ✧ ● •

قوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾: (مَا): نافِيَـةٌ وليست حِجَازِيَّةً؛ لأن النَّـفْي انتَقَضَ، وابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول في الألْفِيَّةِ[1]:

إِعمالَ لَيْسَ أُعْمِلَتْ (مَا) دُوْنَ (إِنْ) مَـعَ بَقَـا النَّفْـيِ وَتَرْتِيـبٍ زُكِـنْ

فالشاهد قوله: [مَعَ بَقَا النَّفْيِ] أي: بشرطِ ألا يَنْتَقِضَ نفْيُها.

وقوله: ﴿هَٰذِهِ﴾ الإشارةُ هنا للتَّحْقِيرِ ودُنُوِّ مرْتَبَتِهَا، والإشارةُ للتَّحقِيرِ وارِدَةٌ في اللُّغةِ العربيَّةِ كما في قوله تعالى عن الكفَّارِ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٣٦]، يعني: ما هذا الحقيرُ الذَّلِيلُ الذي يذْكُرُ الآلهةَ، وهي عندهم عَظِيمَة وعالِيَةٌ.

وقوله: ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ هي الدَّارُ التي نحن فيها، ووُصِفَتْ بالدُّنْيا لسببين: لدُنُوِّها زَمنًا، ودُنُوِّهَا مَرتبةً.

وقوله: ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾ جاء بها ليُقابِلَ بها الحياة الثانية.

---

(١) البيت رقم (١٥٨) من ألفيته.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ هذا الحصْرُ حَقِيقِيٌّ، فالدُّنْيا تنْحَصِرُ في هذين الأمرين: في اللَّهْوِ واللَّعِبِ، والفرقُ بينَ اللَّهْوِ واللَّعِبِ أن اللَّعِبَ بالجوارِحِ، واللَّهْو باللِّسانِ، لقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان:٦]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ [الطور:١٢].

وقيل: إن اللَّهْوَ في القَلْبِ وهو غَفْلَتُهُ وانطلاقُهُ في الملاهِي، أي: فِيمَا يُلْهِيهِ عَنْ طاعَةِ الله عَزَّوَجَلَّ، وأن اللعبَ بالجوارِحِ مِنَ اللسانِ وغيرِ اللِّسانِ، وهذا أقربُ: أن اللَّهْو في القُلوبِ واللَّعِبِ في الجَوارِحِ.

فحاصل الدنيا أنها لهو يَلْهُو به الإنسانُ، غَفَلاتٌ يَمِينٌ وشِمالٌ، وكذلك لَعِبَ، حتى الأمورُ الجِدِّيَّةُ التي في الدُّنْيا هي لَعِبٌ لأنها تذْهب ولا تَبْقى، أو يذْهَبُ عنها صاحِبُها، فهي كلَعِبِ الأطفالِ يتَسَلَّوْنَ به ما دَامُوا أطْفالًا، ثم يهْجُرونُه إذا كَبِروا وعَقَلوا وعرَفوا ما هم عليه.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَأَمَّا القُرَب فَمِنْ أمورِ الآخِرَةِ لظُهورِ ثَمرَتِهَا فيها]: هذا جوابٌ عن سؤالٍ مُقَدَّرٍ: كيف تكون الدُّنْيا لهْوًا ولَعبًا، مع أن الإنسان يعْمَلُ فيها عمَلًا صَالحًا؛ يُصَلِّي ويزَكِّي ويصومُ ويَحُجُّ ويَبَرُّ والِديه ويَصِلُ رَحِمَهُ، وما أشبه ذلك، هل هذا يُعَدُّ من اللَّعبِ؟

فيقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: ليس بِلَعِبٍ مع أن هذه القرباتِ في الدُّنْيا وذلك لأن ظهورَ ثَمرتِهَا في الآخرة، ولهذا قال: «أمَّا القُرَبَ فمِنْ أمورِ الآخِرَةِ لظهورِ ثَمَرتِهَا فيهَا» وصدَقَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، فإن الأعمالَ الصالحَةَ ليست من أعمالِ الدُّنيا، ولهذا لو أرادَ بها الإنسانُ الدُّنْيا لبَطَلت ولم يكن له أجْرٌ فيها.

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «من حَجَّ لِيأْخُذَ فليس له في الآخرة من خلاق». يعني: من نَصِيبٍ، ولا شكَّ أن هذا الكلامَ الذي ذكَرَهُ الشيخ يدُلُّ له قولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦]، ويُدَلِّلُ له قولُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ...» الحديثَ[(٢)]، والحاصلُ أن أعمالَ الآخرةِ ليست مِنْ أعمالِ الدُّنْيا، بل إذا أُرِيدَ بها أعمالُ الدنيا بَطَلَتْ.

قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ هذه الجملة مؤَكَّدَةٌ بثلاثةِ مؤكِّداتٍ: إن، واللام، وضميرِ الفصل.

وقوله: ﴿ٱلْحَيَوَانُ﴾ بمعنى الحياةِ، لكنـها جاءتْ على هذا الوزنِ للمبـالَغَةِ، ﴿ٱلْحَيَوَانُ﴾ على وزن (فَعَلان)، ففيها زيادةُ الألفِ والنُّونِ للمبالَغَةِ، والواو قيل: إنها منْقَلِبَةٌ عن (ياء) وأنها قُلِبَتْ واوًا لئلا تَلْتَبِسَ بالمثَنَّى، هذا رأي سِيبَويه لأن أصلَهَا (حَيِي يَحْيا)، وقيل: الواوُ أصلية، لكن قُلِبَـتْ ياءً لتَحَرُّكِها وانكسـارِ ما قبْلَهَا.

فالحياةُ الحقيقـيةُ هي حياة الآخرة؛ لأن حياةَ الدُّنيا في الحقيـقة ليست حياة، ولذلك يقـولُ الكافِرُ يومَ القيامة: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر:٢٤]، فالحياة الدنيا ليست حياةً:

أولًا: لأنها منَغَّصَةٌ، فكُلُّ صَفْوِهَا كَدَرٌ.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٦/ ١٩، ٢٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال، رقم (٦٠٧١) عن أبي هريرة.

وثانيًا: أنها غَيْرُ باقِيَةٍ.

وثالثًا: أن الإنسانَ مُهدَّدٌ فيها فلا يَدْرِي متى يَجِيئهُ أَجَلُهُ صُبحًا أو مساءً، وكم مِنْ إنسان خرجَ من أهلِهِ ولم تَرْجِعْ إلا جُثَّتُهُ، وكم من إنسان على كرْسيه فجاءَهُ الموت فلم يُكْمِلِ الكتابَةَ التي يخُطُّها بيَمينِهِ، ولهذا يقول الشاعر[1]:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً   لَذَّاتُـهُ بِادِّكَـارِ المَـوْتِ وَالهَـرَمِ

مهما طالتْ بك الحياة سوف تهْرَمُ وتَدَعُ هذا العيشَ الطَّيِّبَ، أو تموتَ فلا تَبْقَى لهذا العيش أصلًا.

والحاصل: أن الدارَ الآخرة -صدَقَ ربنا جل وعلا- هي الحيوانُ، فهي التي ينْبَـغِي للإنسانِ العاقِلِ أن يَسْعَى لها، والغريبُ أنه إذا سَعَى للآخرة حصَّلَ الدنيا والآخرة، وإذا سَعَى للدُّنْيـا فقط فاتَتْهُ الدُّنيا والآخرة، والدَّليـلُ على ذلك قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى:٢٠]، ومعنى: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ نُعْطِهِ حرْثَ الآخِرَةِ مع الدُّنْيَا، لقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ هذا جَزاءٌ عاجِلٌ، ثم قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]، هذا الجزاءُ الآجِلُ، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى:٢٠]، ولا نُعْطِيهَا لغَيرِهِ، وهذا الوعدُ مَقْرُونٌ بالمشِيئةِ كما في آية الإسراءِ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨]، قال: ﴿مَا نَشَآءُ﴾، ولم يَقُلْ: عَجَّلْنَا له فِيها مَا يُرِيدُ ولا بَعض ما يُرِيدُ، ثم قالَ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:١٨].

---

(١) البيت في أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (١/ ٢٤٧)، وتلخيص الشواهد لابن هشام (ص:٢٤١)، وغيرهما غير منسوبٍ.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: [﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ذَلِكَ مَا آثَرُوا الحياةَ الدُّنْيَا عَلَيْهَا]: أي لو كانوا يَعْلمونَ الفَرْقَ بينَ الدُّنْيا والآخِرَةِ ما آثَرُوا الحياةَ الدُّنْيا عليها، وهذه جملَةٌ مستَأْنَفَةٌ، و(لَوْ) ليست صالةً تَتَعَلَّقُ بما قَبْلَهَا، ولكنها مسْتَأنَفَةٌ، فهي شَرطِيَّةٌ وجوابُ الشرطِ محذُوفٌ قدَّرَهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ذَلِكَ مَا آثَرُوا الدُّنْيَا عَلَيْهَا]، وتقديره رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَصِحُّ أن يكونُ جـوابًا، لكنَّ الجوابَ أبلَغُ مِمَّا قدَّره المفَسِّرُ، فحُذِفَ لأجلِ أن يبْلُغَ الذِّهْنُ في تقدِيرِهِ كلَّ مبْلَغ ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ لعَمِلُوا لها لَيْلًا ونهارًا، والمعنى: أن مَنْ قَدمَ الدُّنيا على الآخِرَةِ فليس عنده عِلْمٌ، ولو كان يعلَمُ حقيقةَ ومن ذِوَي العِلْمِ والفَهمِ، ما قدَّمَها على الآخرة.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ حقارةِ الدُّنْيَا وأنها ليستْ بشيءٍ مُطْلَقًا، لقوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾، فظـاهرُ الآية أن الدُّنيا لَهْوٌ ولَعِـبٌ على سَبيلِ الإطلاقِ، ويُمْكِنُ أن نقولَ إن ذَلِكَ على سبيلِ المقارَنَةِ بالآخِرَةِ، لقولِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، وأما القُرب فقد سبقَ قولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إنَّها مِنْ أعمالِ الآخِرَةِ لظُهورِ ثَمرتِها فِيهَا].

الفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: لا يجوز أن يُقْصَدَ بأعمالِ الآخرةِ شيئًا مِنْ أعمالِ الدُّنْيَا؛ لأن الدنيا لهوٌ ولَعِبٌ، والدارُ الآخرة هي الحيوانُ، وعليه فالمسائلُ التي يُقْصَدُ بها الآخرةُ لا يجوزُ أن يُؤخَذَ عليها عِوضٌ مِنَ الدنيا، وهذا فيه خِلافٌ بين أهلِ العِلمِ في باب الإجارَةِ.

الفَائِدَةُ الثَّالِثَة: كما حياةُ الآخرةِ، لقولِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾

وهو كذلك؛ لأن الدارَ الآخِرَةَ دائمةٌ إما عَلَى الخيرِ وإما عَلَى الشرِّ.

الفَائِدةُ الرَّابِعة: الحثُّ على العِلْمِ، لقولِهِ: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

الفَائِدةُ الخامِسة: أن مِنَ العِلْمِ بل من أفضلِ العُلومِ التفريقُ بين الأمور النافِعَةِ والأُمورِ الضَّارَّةِ، وهذا التَّفْرِيقُ من أعظمِ ما يكونُ، وإذا أُوتِيه طالبُ العِلمِ فقدْ أُوتِيَ خَيرًا كثيرًا، فإذا أُوتِيَ مَعْرِفةَ الفرقِ بينَ الأمورِ النافِعَةِ والضَّارَّةِ ومعرفةِ الفَرقِ بينَ الأمورِ المتَشَابِهةِ في العلم، فقَدْ نالَ خَيرًا كثيرًا.

ولذا أهلُ العلمِ يُؤَلِّفُونَ كُتُبًا يُسَمُّونَهَا الفروقَ والتَّقَاسِيمَ، يذْكُرونَ فيها الفَرْقَ بينَ الفرضِ والنَّفْلِ، والفَـرْقَ بينَ الأذانِ والإقامَةِ، والفرقَ بين الجَعالَةِ والإجَارَةِ، والفَرقَ بينَ العَطِيَّةِ والوَصِيَّةِ، وهذه الكتُبُ مُفِيدَةٌ لطالبِ العِلْمِ، ولشيَخْنَا الشيخِ عبدِ الرَّحمنِ السَّعْدِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالةٌ في هذا الموضوعِ، وهي مُفِيدَةٌ في هذا البابِ.

• • ۞ • •

الآيــة (٦٥)

﴿ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥].

قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا﴾ الضَّمِيرُ يعـودُ على المشرِكِينَ، يعني: سَلْ هؤلاءِ عن آلهَتِهِمْ هل هُمْ يَرْجِعونَ إليها عندَ الشَّدائِدِ أم يَعْتَرِفُونَ بأنه لا يُفرِّج الكربَ والشِّدَّةَ إلا اللهُ؟

الجوابُ الثَّانِي: فهم معترِفُونَ بأن أصنامَهُم لا تَنْفَعُهُم، واعترَفُوا فيما تقدَّمَ منَ الآياتِ بأن الذي خلقَ السمواتِ والأرضِ هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وأن الذي يُنزِّل مِنَ السماءِ مَاءً هو الله جَلَّوَعَلَا، وأن الَّذِي سَخَّرَ الشَّمسَ والقمرَ هو الله جَلَّوَعَلَا، وأن الذي يَدْفَعُ الضُّرَّ هو الله جَلَّوَعَلَا كما في هذه الآيَةِ.

قوله: ﴿الْفُلْكِ﴾ السُّفُن أو السفينة؛ لأنه لفْـظٌ صالِحٌ للجَمْعِ والمفْرَدِ، قـال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢]، فالفُلْكُ هنا مُفْرَدٌ.

قوله: ﴿دَعَوُا﴾: الفعلُ أصْلُهُ (دعا) فحُـذِفَتِ الألِفُ وبقِيَتِ الفتْـحةُ دَليلًا عليه، و(الواو) ضميرٌ في محلِّ رفعٍ، حُرِّكَتْ بالضَّمِّ لالتقاءِ الساكنين، سكونُ الواوُ وسكون (ال) في لفظِ الجَلالةِ، وإن كانتِ القاعِدَةُ أن تُحذَفَ الواوُ، وقد تَقَدَّمَ قولُ

ابنِ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكافية:

إِنْ سَاكِنَانِ الْتَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ وَإِنْ يَكُنْ لَيْنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقْ

لكنَّ حذْفَ الواوِ هنا غيرُ ممكنٍ؛ لأننا لو حَذَفْنَا الواوَ استَلْزمَ ذلك إرجاعُ ألِفِ الفِعْلِ، وهذا يؤدِّي إلى أنه لا يكونُ لدَينا دَليلٌ على الضَّميرِ، فصارَ وجودُ الضميرِ لا بُدَّ منه، وحُرِّكَ بالضمِّ لأنه يجانِسُ الواو، ولأن ظُهورَ الفتحةِ على الواوِ ثقيلٌ جدًا، والضَّمة أقربُ لمجانَسَتِهَا الواو، وهذا كثير في القرآنِ.

قوله: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ دعاءُ مسألَةٍ.

وقوله: ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ الإخلاصُ: تَنْقِيَةُ الشيءِ عما يَشُوبُهُ، فمعنى ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ﴾ أي: لا يجْعَلُونَ مع هذا الدعاءِ دعاءً لشيءٍ مِنَ الأصنامِ.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: الدُّعاءُ]: لأن الدُّعاءَ عِبادَةٌ فهو مِنَ الدِّينِ؛ لأن الإنسان حين يدْعُو رَبَّهُ متعَبِّدًا يَشْعُرُ بأنه سيُثَابُ على هذا فيكون من الدِّينِ، ولهذا قالَ: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَا يَدْعُونَ مَعهُ غَيْرَهُ] لأنهم في شِدَّةٍ لا يكْشِفُهَا إلا اللهُ، وهم بذلك معْتَرِفُونَ ومضطَرُّونَ؛ لأن الواحدَ منهم في هذه الحالِ لا يُمكِنُ أن يَدْعُو صَنَمًا؛ لأنه يعْلَمُ أن الصَّنَمَ لا ينْفَعُه، فلا يَدْعُونَ إلا الله، وهذه حُجَّةٌ رابِعَةٌ عليهم:

الحُجَّةُ الأُولَى: خَلْقُ السمواتِ والأرضِ.

الحُجَّةُ الثانيةُ: تَسْخِيرُ الشمسِ والقمرِ.

الحُجَّةُ الثالثةُ: إنزالُ الماءِ مِنَ السماءِ وإحياءِ الأرْضِ.

الحُجَّةُ الرابِعَةُ: دعاؤُهُم الله جَلَّوَعَلَا في حالِ الشِّدَّةِ.

والحُجَّةُ الخامِسَةُ: إخلاصُهُم الدُّعاءَ في حالِ الشِّدَّةِ لله جَلَّوَعَلَا.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا﴾ شَرْطِيَّةٌ، وفِعْلُ الشَّرْطِ: ﴿نَجَّـٰهُمْ﴾ وجوابُهُ: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾، و﴿إِذَا﴾ يُسَمِّيهَا النَّحْويونَ فُجَائيةً، والفُجَاءَةُ الشيءُ الذي يَأْتِي بَغْتَةً، والمعنى أنهم إذا نُجُّوا إلى البَرِّ فاجَؤوا وبادَرُوا بالشركِ -أعوذ بالله- جزاءَ النِّعْمَةِ أن يكفروا.

والمعنى: فلما نَجَّاهُمْ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأنْقَذَهُم مِنَ الشِّدَّةِ التي هم فيها إلى البَرِّ الذي هو شاطئُ السلامةِ ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ تُفِيدُ الثُّبوتَ، أي أن الشِّرْكَ صارَ كالصِّفَةِ اللازمة لهم، فهم مُسْتَمِرُّونَ على الشركِ مُبادِرُونَ به، وهذا غَايَةُ ما يكون من اللُّؤمِ؛ لأن الإنسانَ بطَبيعَتِهِ وفِطْرَتِهِ لا يَكْفُرُ بمن أنْعَمَ عليه، بل يَشْكُرُ مَنْ أنعَمَ عليه، أما هؤلاء فإنهم بمُجَرَّدِ حصولِ نِعمةِ النَّجاةِ يُشْرِكُونَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدةُ الأُولَى: بيانُ أن المشرِكينَ يُخْلِصُونَ في حالِ الشِّدَّةِ ويُشْرِكُونَ في الرخاءِ، لقولِهِ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

الفَائِدةُ الثَّانية: اعترافُ المشرِكِينَ ضِمْنًا بأن آلهتَهم لا تَنْفَعُهم؛ لأنهم لو كانوا يعْتَقِدُونَ نَفْعَها لدَعَوْهَا في هذه الحالِ، لكن هم يَعْرِفُون بأنها لا تنْفَعُهُمْ.

الفَائِدةُ الثَّالِثة: أن إشراكَ السابِقِينَ أهونُ مِنْ إشراكِ مَنْ أشركَ مِنَ المتأَخِّرِينَ

من هـذه الأُمَّةِ؛ لأن المشركينَ المتَـأَخِّرِينَ يُشْرِكُون في الرَّخاءِ وفي الشِّـدَّةِ، وأيضًـا لا يَدْعُون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لكِنْ يَدْعُونَ أولياءَهُم، فالرافِضَةُ يدْعُون عليًّا، وسمعتُ رَجُلًا يَدْعُو عند المقامِ ويَرْفعُ صوته بقوةٍ: يا عَلِي يا علي، فجاء أحدُ رجالِ الحِسْبَةِ وزجَرَهُ، وقال: تشركُ عندَ الكعْبةِ، فقال أنا أقولُ: (يا علي) والله يقولُ في القرآنِ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى:٤]، وهذا من التَّقيَّةِ عندَهم التي هي سبيلُ المنافقين؛ لأن هذا الرَّجلَ الظاهِرُ أنه يريدُ عَلِيًّا وإلا لقال: يا رب، أو: اللهم، وما أشبه ذلك.

الفَائِدةُ الرَّابِعةُ: أن اللُّجوءَ إلى الله في حالِ الشِّدَّةِ أمرٌ فِطْرِيٌّ، بدليل أن هؤلاء غَلَبَتْهم فِطْرَتُهم حتى دَعَوا اللهَ وحْدَهُ مخْلِصينَ له الدِّينَ.

الفَائِدةُ الخامِسةُ: أن الدُّعـاءَ من الدِّينِ لقولِهِ: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ولا شكَّ أن الدُّعاءَ من الدِّينِ والعبادةِ؛ لأن فيه غايَةَ الذُّلِّ والاعترافِ بكمالِ الله عَزَّوَجَلَّ، وأنت عندما تقول: يا رَبِّ، فأنتَ مُفْتَقِرٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ومعناه أن اللهَ كامِلٌ، ولهذا «بايعَ الصَّحَابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ النبيَّ ﷺ على ألَّا يَسْأَلُوا الناسَ شيئًا، فكان الرَّجُلُ يسقُطُ سَوْطُه من بَعِيرِهِ فيَنْزِلُ ويأْخُذُهُ ولا يقول: نَاوِلْنِي إِيَّاه يا فُلانُ»[1]، بينما في وَقْتِنَا تجـدُ الإنسانَ يتَذَلَّلُ غايةَ الذُّلِّ في سؤالِ المال وهو غيرُ محتـاجٍ، فهؤلاء يأتون يومَ القيامَةِ وليس في وجوههم مِزْعَةُ لحْمٍ -والعياذ بالله-.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم (١٠٤٣) عن عوف بن مالك بلفظ: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ الله؟» وكنا حديث عهد ببيعة فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله. ثم قال: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ الله؟» فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله. ثم قال: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ الله؟» قال: فبسطنا أيدينا، وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك؟ قال: «عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ وَتُطِيعُوا -وأسر كلمة خفية- وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا». فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدًا يناوله إياه.

فالحاصل: أن الدُّعاءَ تَذَلُّلٌ، ولهذا كان مِنَ العابِدَةِ.

الفَائِدةُ السَّادسَة: أن هؤلاءِ المشركينَ إذا نَجَوْا مِنَ الشدَّةِ كَفَرُوا بالنِّعْمَةِ، لقولِهِ: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

الفَائِدةُ السَّابِعةُ: سَفَهُ من يجْعَلُ النِّعَمَ سببًا للأشَرِ والبَطَرِ، فإن مَن فَعَلَ ذلك فيه شَبَهٌ من هؤلاءِ المشركين، لأن الواجِبَ على مَنْ أنعَمَ اللهُ عليه النِّعْمَةَ أن يزْدَادَ عبادَةً لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن العِبادَةَ مِنَ الشُّكْرِ، فإذا أنْعمَ عليكَ ربُكَّ بنِعْمَةٍ فازْدَدْ له شُكرًا، وقد تقدَّم أن الرَّسولَ ﷺ لما دَخَل مكَّة فاتحًا طأْطَأ رأسَهُ[1]، حتى إنه ليُصِيبُ مَورِكَ رَحْلِهِ ﷺ، كلُّ هذا من أجلِ التَّذَلُّلِ للمُنعِمِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا تَجْعَلْ نِعَمَ الله سَبَبًا للأشر، بل اجْعلَها سببًا للشكرِ والذُّلِّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى تَزْدادَ هذه النِّعَم وتكون نِعِمًا حَقِيقَةً.

• • ❁ • •

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٣٣٩٣)؛ والحاكم في مستدركه (٣/ ٤٩) (٤٣٦٥)؛ وابن عساكر في تاريخه (٤/ ٨٠) عن أنس، ولفظ الحاكم: «دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على رحله متخشعًا».

الآية (٦٦)

• ● ● •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٦].

• ● ● •

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ مِنَ النِّعْمَةِ ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ باجتِماعِهِم عَلَى عبادَةِ الأصنامِ، وفِي قِراءَةٍ بسُكونِ اللَّامِ، أَمْرُ تَهْدِيدٍ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عَاقِبَةَ ذَلكَ] اهـ.

قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ (اللام) هنا لامُ الأمْرِ على قِراءةِ تَسْكِينِ اللام في قوله: (ولْيَتَمَتَّعُوا) والأمر هنا المرادُ به التَّهْدِيدُ؛ لأن اللهَ لا يأمُرُ بالكفرِ أمرَ إرشادٍ، ولا أمْرَ إلزامٍ، وعلى القراءة الثانية: وهي كَسْرُ اللامِ في قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ تكون (اللام) لام كَي، ولكن هذه اللامُ هِي لامُ التَّعْلِيلِ أو لامُ العاقِبَةِ؟

الجواب: هي لامُ العاقِبَةِ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يُنْجِهْم إلى البرِّ لِكَي يُشْرِكُوا ويَكْفُروا، لكن صارَتْ عاقِبَتَهم الكُفْرُ، ولام العاقِبَةِ معروفةٌ في اللُّغَةِ العرَبِيَّةِ، قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، لكن هل آل فرعونَ الْتَقَطُوا مُوسَى لهذا الغَرضِ؟

الجواب: لا، لكن صارتِ العَاقِبَةُ هذه، وهُم لو عَلِمُوا أنه سيكونُ لهم عَدُوًّا وحَزَنًا ما الْتَقَطُوه، أو التَقَطُوه وأهْلَكُوه، فهنا العاقِبَةُ أنهم كَفَرُوا بما آتَيْناهُمْ.

وقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ الفِعْلُ (كَفَرَ) تَعَدَّى إلى مَفْعولِهِ بـ(الباء) مثل: كَفَرَ باللهِ، وكفر بالرسولِ.

وقوله: ﴿بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: بما أعْطَيْنَاهُم من النِّعمَةِ، والنِّعْمَةُ هي إنجَاؤُهُم من الغَرقِ.

قوله: [﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ باجْتِماعِهِمْ على عِبادَةِ الأصنامِ]: ويُمْكِنُ أن يُقالَ: وليَتَمَتَّعُوا بالنِّعَمِ التي أعْطَاهَا اللهُ لهم، فهم كَفَرُوا بها فَلَم يَشْكُروهَا، وتمتَّعُوا بها إلى مآلهم ومَصِيرِهِمْ.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَفِي قِرَاءَةٍ بِسُكونِ اللَّامِ] في ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾، والعامَّةُ يَقْرَؤونَ بسكونِ اللامِ على القِراءةِ الثَّانِيَةِ التي تخالِفُ القراءةَ التي في المصحَفِ، فالواجبُ أن نَرُدَّ عليهم ونُصَحِّحَ لهم هذه القراءةَ، ونقولُ: ارجعوا أيها العَامَّةُ إلى المصْحَفِ وستَجِدُون ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ بالكَسْرِ لا بالسكونِ، فقِرَاءتُهم بالسكون عن جَهلٍ وعَدَمِ معرفة، أما لو كانَ القَارِئُ بالسكونِ طالبَ عِلمٍ فلا يُرَّدُ عليه.

لو قال قائل: قراءة العامي (ولْيتمتعوا) بالسُّكونِ في واقع الأمر صَحِيحَة كما قلنا بصِحَّةِ أذانِ من قال: أشهد أن محمدًا رسولَ الله بنصب (رسول)، فكيف الجوابُ عن هَذَا؟

الجواب: أن العوَامَ ما أرَادُوا ما تَدُلُّ عليه اللُّغةُ العَربيَّةُ من الأمرِ، بل أرادُوا الذي في المصْحَفِ، أرادُوا (لام العاقبة) لا (لام الأمر).

أما قولهم: أشهدُ أن مُحَمَّدًا رسولَ الله بنصبِ (رسول)، هؤلاء أرادُوا ما تدلُّ عليه اللغة العربية، أرادوا أن (رسول) خبر (أن)، فهم أرادُوا ما له وَجْهٌ في اللغة العربية.

ولو قيلَ: ما حكمُ مَنْ كان يقْرأُ القرآنَ وأخطأَ، لكنه أصابَ قراءةً سبْعِيَّةً صحيحةً؟

فالجواب: إذا كان عَامِّيًا نَرُدُّ عليه ويؤمَرُ بأن يقْرأ بالقِراءةِ المعْرُوفَةِ، وإلا فلا يُخطَّأُ ولا يُصوَّب، بل نستَفْسِرُ: هل قَصْدَتَ هذه القراءة أو قرأتَ خطَأ؟

إذا قال: إنا لم أقْصِدْ إلا القِراءةَ المعروفةَ، نقول: أنتَ مُخْطِئٌ ثم نَنْصَحُهُ ألا يَتْلُوَ القرآنَ بقراءةٍ غيرِ مَشْهُورَةٍ عندَ العامَّةِ؛ لأن قراءةَ القرآنِ بغيرِ القِراءةِ المشهورةِ عندَ العامَّةِ تُحْدِثُ فِتْنة للعامَّةِ؛ لأن العامِّيَّ لا يَسْتَنِكِرُ، ثم يُغادِرُ وقد ينخَفِضُ قدْرَ المصحَفِ في نظَرِهِ، حتى الأشرطةِ التي فيها قِراءاتٍ ويَسْمَعُهَا العامَّة نرى أنه مِنَ الخطأ أن تنْتَشِرَ بينَهُم، أما إذا كانَ عندَ طلبَةِ عِلْمٍ حيثُ يُعَلِّمُهُم القراءاتُ فهذا لا بأس به؛ لأن السُّنَّةَ أن نَتْلُوَ القُرآنَ بكلِّ قراءةٍ ورَدَتْ، مثلَ غيرِهِ مِنَ العباداتِ التي جاءتْ على وُجوهٍ متنَوِّعَةٍ، فإن الأفضلَ أن نأخُذَ بهذا الوَجْهِ مرَّةً وبهذا الوجه مرة، لأن كلَّ القِراءاتِ وردت عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

مسألة: هل كُلُّ القِراءاتِ السَّبْعِ متَواتِرَةٌ، وما رأيكُمْ في أسانِيدِ هذه القِراءاتِ؟

القراءاتُ السبْعُ كلُّها متَواتِرَةٌ بالإجماع، وأما إذا كانت القِراءةُ آحادًا فاختلفَ العلماءُ في جوازِ القِراءةِ بها، وتَقَدَّمَ أن الرَّاجِحَ أنه إذا صَحَّتْ عن النَّبِيِّ ﷺ فهي قراءةٌ مُعْتَبَرَةٌ.

أما هذه الأسانيد -أعني أسانيد القراءات- فإنها متواتِرَةٌ، والتواترُ يُغْنِي عن الأسانيدِ، كما لو قال لك أحدٌ: أين الدليل على أن هناك بلدًا تُسَمَّى واشَنِطن؟ لا تقول له: حدثني فلان عن فلان؛ لأن هذا متواتر.

قوله: [﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عَاقِبَةَ ذَلِكَ]: يقول النحويون: إنها تُفِيدُ التوكيدَ بمُهْلَةٍ فهي حرف تَسْويفٍ عندهم بخلافِ السِّينِ؛ لأنها تُفِيدُ التَّحْقِيقَ بقُرْبٍ.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ الجملة خبَرِيَّةٌ ويرادُ بها التَّهديدُ، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة التكاثر: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٣-٤]، وقال تعالى في سورةِ النَّبأ: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ:٤-٥]، أي: العذابَ -والعياذ بالله- نازِلٌ بهم لا مَحَالَةَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدَةُ الأُولَى: تهديدُ أهلِ الكفرِ والتَّمَتُّعِ المحرَّمِ؛ لأن الأمرَ هنا للتهديدِ، إذ لا يأمُرُ اللهُ أحدًا أن يَكْفُرَ ولا أن يتَمَتَّعَ تمتعًا محرَّمًا.

الفَائِدَةُ الثَّانِيَة: أن هؤلاءِ المشركينَ صارتْ عاقِبَةُ أمرِهم إلى الكفرِ والتمتُّعِ الزائلِ، هذا على قراءةِ الكسْرِ، أي: أن اللامَ للعَاقِبَةِ.

الفَائِدة الثَّالِثة: الحذَرُ الشديدُ مما عليه بعضُ المسْلِمينَ اليوم، الذين ليس لهم هَمٌّ إلا التمتُّعُ بالدنيا فقط، فهؤلاء لا يتَحدَّثُونَ إلى على الرَّفَاهِيَةِ والتَّرْفِيهِ، لكن أمراضَ القلوبِ وعِلَلَ وانحرافاتِ القُلوبِ قَلَّ أن يتكلَّمُوا عليها مع أنها هي الأصلُ فإذا مَرِضَتْ القلوبُ فما الفَائِدةُ من تَرْفِيهِ الأبدانِ، ثم إن نَزَلَتْ نِقْمَةٌ مِنَ اللهِ ازْدَادُوا حَسْرةً والعياذُ بالله، فترْفِيهِ القُلوبِ بطاعةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي فيه الفَائِدةُ الحَقِيقِيَّةُ للبدنِ وللقَلْبِ ولكِلِّ شيءٍ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

الآية (٦٧)

• قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت:٦٧].

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ تقدَّمَ الكلامُ على مِثْلِ هذا التركيبِ، وذَكَرْنَا أن الهمزةَ للاستفهامِ، والواو حرفُ عَطْفٍ، وهل الهمزةُ مقدَّمَة عن مكانها أو لا؟ وذَكَرْنَا أن في ذلك خلافًا، وأن الأرْجَحَ أن الهمزةَ للاستفهامِ، وأن الواو عاطِفَةٌ على ما قَبْلَها.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يَعْلَمُوا ذلِكَ]: لأن الرُّؤيَةَ نوعان: عِلْمِيَّةٌ، وبَصَرِيَّةٌ، إن تَعَدَّتْ إلى مَفْعولين فهي عِلْمِيَّـةٌ، كقولك: (رأيتُ العِلْمَ نافِعًا)، وإن تعَدَّتْ إلى مفعولٍ واحد فَهِي بصَرِيَّة، كقولك: (رأيت فلانًا).

ومثال الرؤيةِ العِلمِيَّةِ في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:٦-٧]، أي: نَعْلَمُه قَرِيبًا، والرؤْيَةُ في ﴿يَرَوْنَهُ﴾ الأُولى رؤيةُ ظَنٍّ أي: يَظُنُّونه بعيدًا.

وقوله: ﴿جَعَلْنَا حَرَمًا﴾ الحَرَمُ ما له حُرْمَةٌ، أي: تَعْظِيمٌ، وسُمِّيَ التَّعْظِيمُ حُرمة؛ لأنه يمْنَعُ بهذا التَّعْظِيمِ ما كان سَائغًا لَوْلَاهُ، ومن جُمْلَةِ حُرماتِ مكَّةَ: تحريمُ قتلِ الصَّيْدِ، والقتالِ فيها، وقَطْعِ الشجَرِ، وحَشِّ الحَشِيشِ، حتى الحيواناتِ غيرِ المؤْذِيَةِ يجبُ أن تكون آمنة.

وقوله: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أهل المجاز يقولون: آمِنًا مَنْ فيه، والصواب أن الحرَمَ نَفْسَهُ آمن، ولهذا عَصَمَهُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من كلِّ أحدٍ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل:١]، وحرَّمَ النبيُّ ﷺ القتالَ فِيهِ(١)، فهو نفْسُهُ آمِنٌ، وإذَا أمِنَ نفْسُه أمِنَ مَنْ فيه.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ قَتْلًا وسَبْيًا دُونهُم]: ففي عَهْدِ الجاهِلِيَّةِ كان غيرُ أهلِ الحرَمِ لا يعرِفُونَ الأمنَ والأمانَ، يُغَار عليهم ويُقتلُون ويُسْبَـون وتؤخَذُ أموالُهُمْ ونساؤهم؛ لكنَّ أهلَ مكَّة آمنـون، حتى إن الإنسان يجِدُ قاتِلَ أبِيهِ في الحرمِ ولا يَقْتُلُه مع شِـدَّةِ الحَمِيَّة عندهم، لكن في غيرِ الحرَمِ تَجِدُ القتلَ والسَّبْي والنَّهْبَ، فكانت نِعْمَةُ الأمْنِ على قريشٍ نِعْمَةً عظيمةً، وكان عليهم أن يُقابِلُوا هذه النِّعْمَةَ بالشُّكْرِ والتَّصْديقِ للرسولِ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، مع أنَّ الرسولَ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ منهم يَعْرفونَهُ، ويُسَمُّونَه قبل أن يأتي بالرسالة بالأمينِ، ويحتكِمون إليه أحيانًا؛ لكن لما بُعِثَ بالرسالةِ وخالَفَ أهواءَهُم كَفَروا به، فالحرَمُ آمِنٌ وهذه نِعْمَةٌ تُوجِبُ الشُّكْرَ، حتى في فِتنَةِ القَرامِطَةِ وأَخْذِهِمُ الحَجَر ما تغيَّر الحرم بل بقي آمنًا، ولم تتعَطَّلْ فريضةُ الحجِّ.

قوله: [﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ الباطِلُ: الصَّنَمُ]: وهذا فيه نَظَرٌ إلا إذا قَصَدَ

(١) روى البخاري معناه في كتاب المغازي، باب من شهد الفتح، رقم (٤٠٥٩)؛ ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٣) عن ابن عباس، ولفظ البخاري: أن رسول الله ﷺ قام يوم الفتح فقال: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَهِيَ حَرَامٌ بِحَرَامِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي وَلَمْ تَحْلِلْ (تُحْلَلْ) لِي قَطُّ إِلَّا سَاعَةً مِنَ الدَّهْرِ لَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا وَلَا يُعْضَدُ شَوْكُهَا (شَجَرُهَا) وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا وَلَا تَحِلُّ لُقَطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ». فقال العباس بن عبد المطلب: إلا الإذخر يا رسول الله فإنه لا بد منه للقين والبيوت؟ فسكت ثم قال: «إِلَّا الْإِذْخِرَ فَإِنَّهُ حَلَالٌ».

المُفَسِّر التمثيلَ وأن مِنْ جُملةِ الأشياء الباطلةِ الأصنامَ، وإلا فإن الباطِلَ يشْمَلُ كلَّ ما لا خيرَ فيه من صَنَمٍ أو دُنيا أو رِئاسة أو غيرها، كلُّ شيءٍ سِوَى الحقِّ فهو باطل، قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ لَبِيدُ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ...»(١).

فعلى هذا نقول: الباطلُ أعمُّ مما ذَكَرَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يُصدِّقُونَ ويَطْمَئِنُّونَ إليه، فتَجِدُهُم في الأمورِ الباطِلَةِ مُطْمَئِنِّينَ مصدِّقينَ متَّبِعِينَ، لكن بنعمةِ الله يَكْفُرونَ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: بما أنْعَمَ الله عليهمْ مِنَ المالِ والجاهِ والرئاسةِ وغيرها ﴿يَكْفُرُونَ﴾؛ لأن هذه النِّعَمَ تحتاجُ إلى شُكرٍ بالرجوع إلى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا بَقِي الإنسانُ على مَعْصِيَةٍ مع كَثْرَةِ النِّعَمِ صارَ بذلك كافرًا بالنِّعْمَةِ.

وبالنسبةِ للمُسْلِمِينَ كُفْرهُم بنِعْمَةِ الله يكونُ بكفْرِ النِّعْمَةِ المادِّيَّةِ والجسَدِيَّةِ والنعْمَةِ المعنَوِيَّةِ القَلْبِيَّةِ، فالإسلامُ أكبرُ النِّعَمِ، إذا كَفَرَ به الإنسان ولم يَقُمْ بواجباتِهِ فإنه يُوَبَّخُ ويقال له: أَلَسْتَ مُسْلِمًا؟ فسيقول: بلى، فنقولُ: إذنْ لماذا لم تصلِ؟ لماذا لم تزكِّ؟ لماذا لم يفْعَل كذا وكذا من واجِباتِكَ؟

فشكر نِعْمَةِ الإسلامِ واجبٌ، كما أن شُكْرَ نِعْمَة الله تعالى عَلَيْنَا في المالِ والبَنِينِ والأمْنِ والراحةِ وما أشبَهَ ذلكَ واجِبٌ، بل الشُّكْرُ على نِعْمَةِ الإسلام أوجبُ، وكُفْرُ نعمةِ الإسلامِ أخطَرُ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقولُ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه، رقم (٥٧٩٥)؛ ومسلم: في بداية كتاب الشعر، رقم (٢٢٥٦) عن أبي هريرة.

فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩]؛ لأن الله يمكن أن يَنْزِعَ الإسلامُ من قـومٍ لا يقومونَ بواجِبَاتِهِمْ كما ينْتَزِعُ الأمنَ والرخاءَ من قـومٍ لا يَشكُرونَ، فالنِّعَمُ واحدةٌ وسَبيلُهَا واحد.

وقوله: ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾: قُولُه: ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾ مفْـرَدٌ مضافٌ فَيَعُمُّ، والدَّلِيلُ قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وقوله: ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾ متَعلِّقٌ بـ﴿يَكْفُرُونَ﴾ وقُدِّمِ لإفادَةِ الحَصْرِ ولمراعَاةِ الفَواصِلِ.

• • ۞ • •

الآية (٦٨)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٨].

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَمَنْ ﴾ أي: لَا أحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ بأَنْ أشرَكَ بِهِ، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾ النَّبِيِّ أو الكِتابِ، ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى ﴾ مَأْوَى، ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: فِيهَا ذَلك وهُو مِنْهُم] اهـ.

قوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أي: اخْتلَقَ عَلَى اللهِ كَذِبًا.

قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِأَنْ أَشْرَكَ بِهِ]، هذا أيضًا تفسيرٌ قاصِرٌ، إلا أن يُريدَ التَّمثيلَ، فمن أشركَ بالله فقد افترَى على اللهِ كذِبًا؛ لأنه زَعَم أن مع الله إلهًا آخَرَ وهو كاذِبٌ.

فالافتراءُ على الله كَذِبًا له أنواع كثيرة، فمَنْ قال: إن الله حرَّمَ كَذَا، والله تعالى لم يحرِّمْه، فقد افترَى على الله كَذِبًا، ومن قال: إنَّ الله أرادَ بكلامِهِ كذا دونَ كذا، فقد افترَى على الله كَذِبًا، ومن قال إن الله ليس له يَدٌ حَقِيقية، وليس له وجْهٌ حقِيقِيٌّ، وليس له رِضًا حقيقي وما أشبه ذلك، فقد افترَى على الله كَذِبًا؛ فكلُّ من قال عَنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أو عنْ أفعالِهِ أو عن أحكامِهِ شيئًا لم يَقُله اللهُ ولا رسولُه؛ فإنه مفْتَرٍ على الله كَذِبًا.

فمن قال: إن لله شَريكًا فقدْ افترَى على اللهِ كَذِبًا، ومن قال: إن مِنْ أسماءِ الله كذا، وهو ليس من أسمائِهِ، فقد افترَى على الله كَذِبًا، وكذلك النَّصارَى الذين يسمونَ الله أبًا، والفلاسفة الذين يَقُولونَ إنه العِلَّةُ الفاعِلَةُ، كل هذا كذبٌ على الله عَزَّوَجَلَّ.

وكذلك الكذبُ على اللهِ في صِفاتِهِ -وقد تقدم- والكذِبُ على الله في أحكامِهِ، مثلُ الذي يقولُ: هذا حَلالٌ وهذا حرامٌ، وهو ليس بحلالٍ وليس بحرامٍ، فالله تعالى بيَّن أنه لا أحدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

لكن يُشْكِلُ على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أن مثل هذه الصِّيغَةِ تأتي في سياقاتٍ أُخْرى وقد جمعهم الله تعالى في آيَةٍ واحدةٍ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٩٣]، وأيضًا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة:١١٤]، وورد في الحديث: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»(١).

والجواب عن هذا: إما أن نَقُولَ: لا أحدَ أظْلَمُ في المعنى المعيَّنِ، وذلك أن الافْتراءَ على اللهِ الكَذِبَ يكونُ على الله ويكون على غيرِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، لكن الذي افْتَرَى على الله الكذِبَ أظلمُ ممن افْتَرَى على غيرِهِ.

وكذلك من مَنَعَ مساجِدَ الله، ومن مَنَعَ الأسواق، ومن مَنَعَ بيتك أن تَدْخُله،

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب نقض الصور، رقم (٥٦٠٩)؛ ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة...، رقم (٢١١١) عن أبي هريرة.

أيهم أعْظَمُ منعًا؟ الذي منَعَ مساجِدَ الله، وهكذا نَجعلُ كلَّ شيءٍ مختصًّا بما يقْتَضِيهِ السِّياقُ.

أو نقول: إن الجمعَ اشتركَ في الأظْلَمِيَّةِ، يعني: لا أحدَ أظلمُ من هذا ولا أظلمُ من هذا، وتكون كلها اشتركت في الأظلمية.

قوله: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ﴾ الحقُّ هو الشيءُ الثابِتُ، فإن كان خَبَرًا فهو الصِّدْقُ، وإن كان حكمًا فهو العدل.

وقوله: ﴿لَمَّا﴾: بمعنى حين، أي: حين جاءَهُ الحقُّ كَذَّبَ به، وقال: ﴿لَمَّا جَآءَهُۥ﴾ لأنه قَبْلَ مجيئِهِ لا يُلْزِمُ به؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى برَحْمَتِهِ وعدْلِهِ لا يُعاقِبُ أحدًا حتى تقومَ عليه الحجَّةُ في بلوغِ الشَّرعِ له.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ مَأْوى ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: فِيهَا ذَلِكَ]: إشارة إلى أن المراد بالاستفهامِ هنا التَّقْرِيرُ، والغالبُ أنه إذا دَخلَتْ همزةُ الاستفهام على أداةِ النَّفْيِ تكونُ للتَّقريرِ، مثاله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة:٤٠]، فكُلُّ ذلك يَدُلُّ على أن الهمزةَ المرادُ بها التَّقْرِيرُ.

قوله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ المعنى: جهَنَّمُ مثْوًى للكافرين، ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: فِيهَا ذَلِكَ، وهو مِنْهُمْ].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ المثْوَى هو المَأْوى، لكنَّ المأْوَى الذي هو

مَحَلُّ إقامَةِ الإنسانِ، يَأْوي إليـه على أنه مَحَلُّ إقَامَتِهِ، فثَوَى في ذلك: أي: أقَـامَ فيه إقامةً دائِمَةً.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ هذا في الحقيقة إظهارٌ في موضعِ الإضمارِ، إذ إن مقْتَضَى السياقِ أن يقال: أليس في جهنَّم مثْوًى لهم، لكنه أظْهَرَ في موضع الإضمارِ، والإظهارُ في موضع الإضمار يُستَفادُ منه ثلاثةُ فوائدُ:

أَوَّلًا: تَعْميمُ الحُكْمِ.

ثانيًا: الحكْمُ على موضِعِ الضَّميرِ بما يقْتَضِيهِ هذا الوَصْفُ.

ثالثًا: الإشارةُ إلى العِلَّةِ، وهذا إذا كان مُشْتَقًّا.

•●۞●•

الآية (٦٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

قوله: [﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ في حقِّنا]:

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأٌ، وجملة ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ خبَرُه، والخبرُ مُؤَكَّدٌ بثلاثِ مؤَكِّداتٍ: القَسمِ واللامِ ونونِ التوكيدِ.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ أي: بَذَلُوا الجَهْدَ للوصولِ إلى الغايةِ، هذا هو الجهادُ: بَذْلُ الجَهْدِ للوصولِ إلى الغايةِ.

وقوله: [﴿فِينَا﴾ في حقِّنَا]: أي: في دِينِ الله عَزَّوَجَلَّ، وفيما يجِبُ له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وفي بيانِ شَريعَتِهِ عَزَّوَجَلَّ، وفي الأمرِ بالمعْرُوفِ والنهْيِ عن المنْكَرِ، وفي كفِّ النفْس عما يحْرُمُ وإلزامُها بما يجِبُ، وفي قتالِ الكفَّارِ لإعلاءِ كلِمةِ الله، فالآية عامَّةٌ؛ كل هذا مِنَ الجهادِ في الله، فكُلُّ مَنْ بذلَ وجاهَدَ في الله فإن جزاءَهُ العاجلُ قبل الآجلِ: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ هدايةَ دِلالَةٍ وهِدايَة توفيقٍ.

فالهدايةُ هنا شامِلَةٌ للأمْرَيْنِ، ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ ولم يَقُلْ: (لنهْدِينَّهُم إلى) بل قال: ﴿سُبُلَنَا﴾، فعَدَّى الهِدايةَ بنَفْسِها إلى المفعولِ الثَّاني.

فيَشْمَلُ ذلكَ هِدايةَ الدِّلالَةِ والتَّوفيقِ، ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ في سورةِ الفاتحة:

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، لم يَقُلْ: اهدِنْا إلى الصِّراطِ المستقيمِ، بل قال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ﴾، فيَشْمَلُ الهِدايَةَ إليهِ، ويَشْمَلُ الهِدايَةَ فيهِ، فالهدايةُ إليه الدِّلالَةُ إليه، أي: يَدُلُّكَ على الصِّراطِ المستقيمِ، والهدايةُ فيه أن يُوَفِّقَكَ للعملِ في إطارِ هذا الصِّراطِ، فقوله تعالى: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ يشملُ الأمْرَينِ، هداية الدِّلالَةِ والعِلْمِ، وهِدَايَةَ التَّوفيقِ والإرْشادِ، وهذا وَعْدٌ من الله عَزَّوَجَلَّ مؤكَّدٌ بهذه المؤكدات الثلاثِ، فإذا كان الإنسانُ يؤمِنُ بهذا الوَعْدِ وأنه مِنَ الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا، وهو لا يُخْلِفُ الميعادَ لتمامِ عِلْمِهِ وقُدرَتِهِ وصِدْقِهِ، وإخلافُ الموعِدِ يكون بتَخَلُّفِ واحدٍ من هذه الثلاثة: العِلم والصدْقِ والقُدرةِ؛ فالذي يُخْلِفُ المَوْعِدَ لا يكونَ إلا جاهِلًا وَعَدَكَ بشيءٍ وهو يَظُنُّ حُصولَهُ ولم يأتِ الأمرُ على ظَنِّهِ، أو أنه كاذِبٌ وَعَدَكَ وكذَبَكَ، أو أنه عاجِزٌ، أي: هو صَدوقٌ ويعْلَمُ الأسبابَ لكن عَجزَ، لكن الله جَلَّوَعَلَا انْتَفَى بحقِّه كلُّ هذه الثلاثة: الجَهلِ والكذبِ والعَجْزِ، فلِتمامِ قُدْرتِهِ وعِلمِهِ وصِدْقه لا يُخْلِفُ الميعادَ.

فمن صدَّق بهذا الوعدِ فإنه لا بُدَّ أن يَبْذُلَ جُهدَهُ في حق الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وهذا مِصْدَاقُ ما جاء في الآثارِ الكَثيرَةِ؛ من أن الإنسانَ إذا عَمِلَ بعِلمِهِ فإن الله يَزيدُهُ عِلْمًا، ويُثبِّتُ عِلمَهُ الذي يعْمَلُ به، ولهذا قيل: قَيِّدُوا العِلمَ بالعَمَلِ، وقيل: إن العِلْمَ يهتِفُ بالعملِ فإن أجابَ وإلَّا ارْتَحَلَ، (يهتف) أي: يُنادِي، فإن عَمِلَ الإنسان بعلْمِهِ بَقِي وزادَ لأن قوله: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ هذه زيادةٌ، وإن لم يُجِب ارْتَحَلَ.

وهذا حقٌّ يُؤَيِّدُه الواقعُ ويُؤَيِّدُهُ المعلومُ بالشَّرعِ، فإن الواقعَ إذا صار طالبُ العِلمِ يعْمَلُ بعِلمِهِ، فإن عَمَلَهُ بالعلمِ دِراسَةٌ له؛ أنت عَلِمَتْ كيف كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي وطبَّقْتَ ذلك في كل صَلواتِكَ لا تَنْسَاهُ؛ لأن التطبيقَ دراسة.

وهنا أُحِبُّ أن أُنبِّه طالبَ العِلْمِ ألا يَهْتَمَّ بحفظِ المسائلِ فَقَطْ، فالتَّسجيلُ

أفضَلُ وأقْوَى منَّا حِفظًا للمسائلِ، لو تُعْطِيه ألفَ مسألة ثم تأتي بعـدَ عِشرينَ سنَةً أعادَهَا عليك كما هي، المهم: أن يَفْهَمَ طالبُ العلم، فَفَهْمُ الدَّلالَةِ من القُرآنِ والسُّنَّةِ ومعـرفةِ كَيفِيَّةِ استنباطِ الأحكامِ، إذا أُوتِيهِ طالبُ العِلمِ فقَدْ أُوتِيَ خَيرًا كَثِيرًا وعِلمًا كثيرًا، والذي يُؤتَى الفَهمَ في الكتابِ والسُّنَّةِ كالطبيبِ، والذي يَحْفَظُ العِلْمَ كالصَّيْدِلِيِّ يَحفْظُ لك الدواءَ، لكنَّ الطَّبيبَ هو الذي ينْتَفِعُ وينْفَعُ، ولذا قال عليُّ بنُ أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لما سئـلَ: هل عندكُمْ كتـابٌ؟ قال: لا، إلا كِتابَ اللهِ أو فَهْمٌ أُعْطِيَـهُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ، أو ما فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ[1]، ولا شك أن عَلِيًا أُوتِي شَيئًا كَثِيرًا.

فالمهم: على طالبِ العِلْمِ أن يهْتَمَّ في دِرَاسَتِهِ للكتابِ والسُّنَّةِ بجانبِ الاستِنْباطِ والفَهْمِ والتَّفْرِيعِ أيضًا، وقد تقَدَّمَ أن دَلالَةَ اللَّفْظِ على معناه تكونُ على ثلاثةِ أَوْجُهٍ: مطابَقَةٍ وتضَمُّنٍ والتِزَامٍ، المطابِقَةُ والتَّضَمُّنُ أمرهُمَا بسيطٌ، أدْنَى طالِبُ عِلم يَفْهمها، لكن دَلالَةَ الالتزامِ هي التي يتَفَرَّعُ عليها مسائلُ لا يُحْصِيهَا إلا الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا وُفِّقَ الإنسانُ لها يَنالُ خَيرًا كثيرًا.

ثانيًا: من النَّاحِيَةِ الشرعِيَّةِ يقولُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم:٧٦]، فكلُّ من اهْتَدَى فإنَّ الله يَزِيدُهُ هُدًى وعِلْمًا.

وفي الحقيقة نحنُ نعْرِفُ هذا ونَقْرؤهُ دائمًا، لكن يَغْلُبُ علينَا السَّهْوُ والغَفلَةُ والنِّسْيانُ.

وقوله: ﴿سُبُلَنَا﴾ الضمير (نا) جمْعٌ والمرادُ بِهِ التَّعْظِيمُ، وتقدَّمَ الرَّدُّ على زَعْمِ النَّصارَى الذين يقولونَ إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثة ويستَدِلُّونَ بالمتَشَابِهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم (١١١) عن أبي جحيفة.

قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هذه الجملَةُ مُؤَكَّدَةٌ بـ(إن) و(اللام).

و(مَعَ): مِن النَّحويِّين من يَرَى أنها اسمٌ وهو الصحيحُ، ومنهم من يَرَى أنها حرف، وفيها لغتانِ: الفتحُ وهو الأكثر، والتَّسْكِينُ.

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

وَمَـعَ مَـعْ فِيهَـا قَلِيـلٌ وَنُقِـلْ فَـتْـحٌ وَكَسْـرٌ لِسُكُونٍ يَتَّصِـلْ

الشاهد: ومَعَ مَعْ فيها قَلِيلٌ.

فالحاصل: أن (مَعَ) ظرف وهي اسمٌ؛ لأنها لا تُضَافُ إلا إلى الأسماءِ، فهي ظرفٌ منْصُوبٌ على الظَّرْفِيَّةِ لأنها تَدُلُّ على الصُّحْبَةِ، و(مَعَ) مضاف و﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مضاف إليه.

وقوله: [﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المؤمِنِينَ بالنَّصْرِ والعَوْنِ]: هذا تفسيرٌ ناقِصٌ؛ لأن المحسنين أَخَصُّ مِنَ المؤمنين، ولهذا قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ...»إلخ، ثم قال: «الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»(٢) فكُلُّ مُحْسِنٍ إحسانًا شَرعيًا ليس عادِيًّا فهو مُؤمِنٌ ولا عَكْسَ.

وقولنا: (إحْسانًا شرعيًا) احتِرَازًا من الإحسانِ العادي؛ لأنه يَقَعُ حتى مِنَ الكافِرِ، لكن الإحسانَ الشَّرْعِيَّ هو الذي فَسَّرَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، فالمحسنُ أَخَصُّ مِنَ المؤمنِ.

---

(١) البيت رقم (٤٠٩) من ألفيته.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، رقم (٥٠) عن أبي هريرة؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله عَزَّوَجَلَّ، رقم (٨) عن عمر بن الخطاب.

وقَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالنَّصْرِ والعَوْنِ]. هـذا صحيحٌ، فالله جَلَّ وَعَلَا معـهم بالنَّصْرِ والعَوْنِ، وليس المرادُ أنه مَعَهم في مكانِهِمْ؛ لأن هذا شيء مُسْتَحِيلٌ، أي: مُسْتَحِيلٌ على اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يكونَ مع الناسِ في أمْكِنَتِهِمْ لا المحْسِنِينَ ولا غير المحسنين، وذلك لأن هذا القولَ يستَلْزِمُ نَفْيَ عُلُوِّهِ، وقد التزمَ بذلك من قال به مِنَ الجَهْمِيَّةِ القُدماءِ، أما المتَأخِّرون فيَرَونَ بأنه لا داخلَ العالمِ ولا خارِجَهُ، ولا فوق العالمِ ولا تحْتَه، ولا مُتَّصِلٌ ولا مبايِنٌ، هذا ما استَقَرَّ عليه مذهبُ الجَهْمِيَّةِ، وتَبِعَهُم في ذلكَ الأشاعِرَةُ، فإنهم يرونَ هذا النَّفْيَ المحْضَ، والعياذُ بالله.

أما قدماءُ الجهمية فقالوا: بأن اللهَ تعالى بذاتِهِ في الأرضِ وليس في السماءِ - والعياذ بالله- فقَلَبُوا الحقائقَ، فمِنَ العَجائبِ أن يَنْفُوا العُلُوَّ مع تَطابُقِ الأدِلَّةِ على إثْباتِهِ، وأثبَتُوا الحلُولَ مع تطابقِ الأدِلَّةِ على إنكاره.

والعُلُوُّ دَلَّ عليـه الكتابُ والسُّنَّـةُ والعقْلُ والفِطْرَةُ وإجماعُ سَلَـفِ الأمةِ، فالكتابُ مملوءٌ بما يَدُلُّ على عُلُوِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حتى إن بعضَ أهلِ العِلم قال: إن في الكتابِ أَلْفَ دَلِيلٍ على عُلُوِّ الله عَزَّ وَجَلَّ.

والسُّنَّةُ كذلك مملُوءةٌ من الدَّلالَةِ على عُلُوِّ الله عَزَّ وَجَلَّ على وجوه متَنوِّعة، من قولٍ وفِعل وإقرارٍ.

قال النبي ﷺ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤، رقم١١٠٢١)، وابن حبان (١/ ٢٠٥) (٢٥)، وأصله عند البخاري: كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع، رقم (٤٠٩٤)؛ ومسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٤) عن أبي سعيد الخدري بلفظ: «أَيَأْمَنُنِي عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا تَأْمَنُونِي؟ ».

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «والْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ»(١).

وأشارَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأُصْبعِهِ إلى السماءِ يَشْهَدُ اللهَ على إقرارِ أُمَّتِهِ بالبلاغِ في أعظمِ مجمَعٍ للمسلمينَ يومَ عَرفة حين قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»(٢).

وكذلك دَعَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في خُطْبَةِ الجمعةِ رَبَّه، فرفَعَ يدَيْهِ يقول: «اللَّهُمَّ أَغِثْنَا»(٣)، فهذه سُنَّةٌ فِعْلِيَّةٌ.

وأما السُّنَّةُ الإقراريةُ فإنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سأَلَ الجارِيةَ قالَ: «أَيْنَ اللهُ؟» قالت: في السماء، قال: «أعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»(٤).

وأما دلالةُ العقلِ فظاهِرَةٌ أيضًا، لأننا نقولُ: العُلُوُّ صِفَةُ كمالٍ أم صِفَةُ نقصٍ؟

والجواب: لا أحدَ يُنْكِرُ أن السُّفولَ صِفَةُ نقصٍ والله عَزَّوَجَلَّ مستَحِقٌّ للكمالِ، أو واجبٌ له الكَمالُ مُنَزَّهٌ عن النَّقص.

أما الفِطْرَةُ: فسلِ الصَّبِيَّ والعَجوزَ والجاهِلَ الذي لا يعلم، فسيقُولونَ لك: إن اللهَ في السماءِ.

ومذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على عَرْشِهِ بذَاتِهِ وهو معنا

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٩٧، رقم ٦٨٦٠) عن عبد الله بن عمرو قوله: والعرش فوق ذلك، وفي العقود الدرية (١/ ٩٤): والعرش فوق ذلك والله فوق عرشه وهو يعلم ما أنتم عليه.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨) عن جابر.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، رقم (٩٦٨)؛ ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧) عن أنس.

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة، رقم (٥٣٧) عن معاوية بن الحكم السلمي.

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حقًّا، وقالت الجهمية: إنه بِذاتِهِ في الأرضِ وليس في السماءِ -والعياذ بالله-، فقَلَبُوا الحقائقَ.

ثم إن طائفةً تَحَذْلَقَتْ وهم الأشْعَرِيَّةُ، حكَى ذَلكَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ عَنِ الأشْعَرِيِّ في المقالات -أعني مقالات الإسلاميين- قالوا: نحن نقول بالدَّلِيلَيْنِ، نقولُ: إن الله معَنَا بذَاتِهِ، وهو في السماءِ عَلَى العَرْشِ بذَاتِهِ، فيكون مكانُهُ على زَعمِهِمْ فوق، تحت، فهؤلاء وافَقُوا الجهْمِيَّةَ من وَجْه، ووافَقُوا أهلَ السُّنَّةِ من وَجْهٍ: وافَقُوا أهلَ السُّنَّةِ في قولهم: إن الله على عرشِهِ بذاتِهِ، ووافَقُوا الجهْمِيَّةَ في قولهم: إنه بذَاتِهِ في الأرض، وقالوا: نحن أخذنا بكلا الدليلين، فنحن أسعدُ بالدَّلِيلِ من أهلِ السُّنَّةِ والجماعة ومن الجهْمِيَّةِ، لأن أهلَ السُّنَّةِ أخذُوا بدليلٍ وتَرَكُوا دليلًا، أخذوا بنصوص العُلُوِّ وتَركُوا نصوصَ المعِيَّةِ، والجهمية أَخَذُوا بنصوصِ المعِيَّةِ وتركوا نصوصَ العُلُوِّ، ضرَبُوا عنها صَفْحًا، وهم يزعمون أنهم أَخَذُوا بالنصوص جميعًا.

والجوابُ عن هذه الشُّبهةِ: نقول: أنتم الآن جمعتُم بينَ النَّقِيضَين، إذا كان عاليًا كما هو الحق، فكيف يكونُ في الأرض؟ هل هو إلهٌ واحدٌ أم آلهة متعددة؟

الجواب: هو إله واحد، فإذا كان فوقَ فلا يمكن أن يكونَ تحتَ؛ لأن الفوقيةَ والتَّحتِيَّةَ من الأمورِ المتقابِلَةِ التي إذا انتَفَى أحدُهَا ثَبتَ الآخر، ولا يمكن أن تجتمع بحال.

ثم نقول: إذا قُلتم بذَاتِهِ في الأرض، لَزِمَ منه إذا كانَ الإنسان في المسْجِدِ أن يكونَ الله في المسجدِ وإذا كان في السوقِ أن يكونَ الله في السوقِ، وإذا كان في البرِّ أن يكون الله في البرِّ، وإذا كان في الجوِّ أن يكون اللهُ في الجَوِّ، تَعَالى الله عما يقُولونَ عُلوًّا كَبيرًا.

فإذا قالوا: وأنتم يا أهلَ السُّنَّةِ تقولون: إن الله مَعَنَا حقًّا وهو فوق العَرْشِ حقًّا؟!

قلنا لهم: هو مَعَنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حقًّا، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فوقَ العرْشِ يعْلَمُنَا ويرَانا ويَسْمَعُنَا ويُدَبِّرُنا وله السلطةُ والهيمَنَةُ، ومن كان كذلك فهو معك وإن كان فوقك، فالذي يعْلَمُكَ ويَسْمَعُك ويراك ويحيطُ بك ويُهَيْمِنُ عليكَ تَدْبِيرًا وسُلطانًا لا شكَّ أنه معك، فالرجلُ يقال: إنه مع امرأتِهِ وهو في المكتَبِ وهي في بَيْتِهَا، والرجلُ له نوعُ سُلطةٍ على امرأتِهِ، والمصاحَبَةُ بسيطةٌ، فكيف بالخالقِ عَزَّوَجَلَّ الذي لا يُعْزُبُ عنه مثقالُ ذرَّةٍ في السموات ولا في الأرض، فنحن نقول: هذا أمرٌ مُمكِنٌ أن يكون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى معنا وهو فَوْقَ عَرْشِهِ؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى معنا محيطٌ بنا عِلْمًا وسَمعًا وبَصَرًا وقدرة وسُلْطانًا وتَدْبِيرًا، وغيرَ ذلك من معاني رُبوبِيَّتِه، والذي هذا شأنه يَصِحُّ أن يقال: إنه معك وهو فوق عَرْشِهِ.

وشيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أشار إلى مَثَلٍ يُقرِّبُ هذا الشيء فقال[1]: إن العرب تقول: ما زلنا نسير والقمر معنا، أو والنَّجْمُ مَعَنا، أو والقُطْبُ مَعَنَا، والقمرُ في السَّماءِ ونحْنُ في الأرضِ، مع أنه مخلوق، فكيف بالخالق جَلَّوَعَلَا؟!

فالحاصل: أن هذا التَّلْبِيسَ وهو قولهم: نحنُ نؤمِنُ بالدَّلِيلَيْنِ وأنتم يا أهلَ السُّنَّةِ لا تؤمنونَ إلا بدليلٍ واحدٍ، قد يُورِدُ شُبْهَةً في قُلوبِ بعض الناس.

والجوابُ عن هذه الشُّبْهَةِ أن نقول لهم: ما آمنتم بالدَّليلَيْنِ، بل أنتم في الحقيقة أنْكَرْتُم الدَّليلين؛ لأن المعِيَّةَ لا يريدُ الله بها ذلِكَ أبدًا، لا يمكنُ أن يريدَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بمَعِيَّتِهِ أن يكونَ في الأرض، ولو قلنا: إن هذا هو حقيقةٌ أو ظاهرُ النصوص، أي: لو قلنا: إن ظاهِرَ نصوصِ المعِيَّةِ أن الله في الأرض، لكان لازمُ هذا القول أن ظاهرَ

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٠٣).

النصوصِ الكُفرُ؛ لأن الإنسان الذي يعْتَقِدُ أن الله في الأرضِ كافِرٌ مكَذِّبٌ للأدِلَّةِ العقلية والأثَرِيَّةِ الدَّالةِ على عُلُوِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولهذا الذي مَشَى عليه المُفَسِّر في تفسيرِه حقٌّ، فإذا قُلنا كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ المؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ والعونِ]، صحَّ، وهذا النوعُ مِنَ المعِيَّةِ يقول أهلُ العلمِ: إنه من المعِيَّةِ الخاصَّةِ لا العامَّـة، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى.

لو قال قائل: يمكن أن نُجِيبَ على شُبهَةِ الجهمية التي هي الجَمْعُ بين الدليلين بقولنا: إن الله مَعَنا بعِلْمِهِ؟

فالجواب: هذا ليس بصوابٍ؛ لأنهم سيقُولونَ: قولُكُمْ يا أهلَ السُّنَّةِ: إن الله مَعَنا بعِلْمِهِ تأويلٌ؛ لأن قولكُم: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد:٤]، أي: عِلْمُهُ معكم، خالفتم فيه ظاهرَ اللَّفْظِ.

ولو قيل: نُجيبُ على هذه الشُّبْهَةِ بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧]، فبَدَأَ بالعِلْمِ وانتَهى بالعِلمِ؟

فالجواب: هم في الحقيقة قد يُجِيبُونَ عن هذا، يقولون: الذي معك عالمٌ بِكَ، ونحن لم نَقُلْ: إنه مَعكُمْ وليس يَعْلَمُكُم؛ فهو معكم، ومن مُقْتَضَى معِيَّتِهِ أن يكونَ عالمًا، فكأنَّ قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ تعليلٌ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

واعلم أن المعيةَ نوعانِ: عَامَّةٌ وخاصَّةٌ.

المعيةُ العامَّةُ: التي تَشْمَلُ كلَّ أحدٍ، ومنه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧]، هذه مَعِيَّةٌ عامَّةٌ لأنها شامِلَةٌ للمؤمنِ والكافرِ والبَرِّ والفاجِرِ، والمقصودُ بها إحاطةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكُلِّ شيءٍ، ولهذا سُئِلَ إسحاقُ ابن رَاهِويه -وهو من أئمةِ السَّلَفِ- عن معنى هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧]، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حيثُما كُنْتَ فَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ]، ففَسَّرَ المعِيَّةَ بالقُرْبِ، وهذا التَّفْسِيرُ لا ينافي تَفْسِيرَ غيرِهِ من السَّلَفِ من أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معهم بالعِلْمِ.

إذن: المعِيَّةُ العامَّةُ تقتَضِي الإحاطةَ، وقد تكون للتَّهْدِيدِ، كقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨]، هذه المعِيَّةُ المقصودُ بها التَّهْديدُ، أي: بيانُ أن الله محيطٌ بِهِمْ، وأيضًا ليُهَدِّدَهُم بسببِ هذا العملِ القَبيحِ، وهو كونهم ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾، حال كون الله جَلَّ وَعَلَا مُحِيطًا بِهِمْ عِلْمًا وسَمْعًا وبَصَرًا وقُدْرَةً.

المعِيَّةُ الخاصَّةُ: نوعان: خاصَّةٌ بشخْصٍ، وخاصَّة بوصْفٍ، المخْصُوصَةُ بالشَّخْصِ: كما في قول الله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، وقول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]،

والخاصَّةُ بالوَصفِ: كما في هذه الآية: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١٩]. وقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، والآياتُ في هذا كَثيرَةٌ.

واعلم أنه لا يُوجَدُ تناقُضٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ؛ لأن التَّنَاقُضَ معناه أن أحدَهُما باطلٌ والآخَرُ حقٌّ، فليس في الكتابِ والسُّنَّةِ شيءٌ من التناقُضِ، فإذا توَهَّمْتَ تناقضًا فاعلَم أن ذلك لا يخلُو من ثلاثةِ أحوالٍ: إما لقُصورِ عِلْمِكَ، أو لنُقْصانِ فهمْكَ، أو للتَّقْصِيرِ في التَّدبُّرِ، ودليلُ ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

هذا في الذي يتوَهَّمُ تَنَاقُضًا، أما الذي يَدَّعِي تناقضًا فهذا نزيدُ على الثلاثةِ المتقدِّمَةِ أمْرًا رابعًا: وهو: سوءُ القَصْدِ، ودليله قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤].

ولِنَفرِضَ أن رَجُلًا يُريد أن يتدَبَّرَ القُرآن، فقَرأ آيتيْنِ ظاهِرُهما التَّعارُضُ وأرادَ أن يجْمَعَ بينهما، فعَجَزَ عن أن يجْمَعَ بينَ الآيتين، لا فَهِمَ وجْه الجَمْعِ، وأيضًا ليس عنْدَهُ عِلم أن إحدَاهما ناسِخَةٌ للأخرى، فماذا يَصْنَعُ؟

نقول: يقول -كما قالَ الرَّاسِخُون في العِلم-: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]، ويتَوَقَّفُ، لكن لا يكْفِي التَّوَقُّفُ وهو يعْتَقِدُ أن في القرآن تَنَاقُضًا وأن الأمرَ مُشْتَبِهٌ عليه، بل لا بُدَّ مع تَوَقُّفِهِ أن يعلَمَ أنه ليس في القرآن تناقضٌ، وأن يدَعَ جانبًا تَوَهُّمَ التعارضِ، فلا يبْقَى على تَوهُّمِهِ لأنه إن بَقِيَ على توهُّمِ التعارضِ فقد رَكَن إلى هذا التوهُّمِ، وهو في هذه الحال على خَطَرٍ، فالواجبُ أن يعْلم أنه ليس في كتابِ الله وليس بينَ الكِتابِ والسُّنَّةِ تعارُضٌ، وبهذا نعْرِفُ أن السُّنَّةَ كالقُرآنِ،

خِلافًا لمن قال: إنها ليست بحُجَّةٍ.

وهؤلاء الذين قَالُوا: إنَّ السُّنَّةَ ليست بحُجَّةٍ، قد أخْبَرَ عنهم النَّبيُّ ﷺ فقال: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ: لَا نَدْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللهِ اتَّبَعْنَاهُ»[1]، هذا الأمرُ وَقَعَ، ويُوجَدُ الآن أناسٌ -والعياذ بالله- يقولون: لا نَقْبَلُ ما في السُّنَّةِ إطْلاقًا، والذين لا يَقْبَلُونَ ما في السُّنَّةِ هم في الحقيقة كافِرُون بالقرآنِ نصًّا؛ لأن القرآنَ يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر:٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]، فبيَّنَ أن مَعْصِيَةَ الرسولِ معصيةٌ لله، ولو كان المرادُ مَعْصِيَةَ الرسولِ فيما أمَرَ الله به لم يكُنْ لذِكْرِ الرَّسُولِ فائدة.

ثم إنَ الله تعالى يقولُ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، القرآنُ لم يُبيِّنْ كلَّ شيءٍ تَفْصيلًا، بل أكثرُ التَّفْصِيلاتِ موجودةٌ في السُّنَّةِ.

إذن: تِبيانُ السُّنَّةِ من تِبيانِ القُرآنِ، والأدِلَّةُ في هذا ولله الحمدُ كثيرةٌ.

والغريبُ أنه ظَهَرَ في أمريكا أحدُ الخُبثاءِ -والعياذ بالله-، رَجُلٌ أصلُهُ مسلم يقال له، يعْمَلُ مُدَرِّسًا في إحْدَى الكلِّيات، يدَّعِي أنه أحدُ العلماءِ الرَّاسِخِينَ في العِلْمِ، هذا الرجلُ صارَ يجمع أموالًا، وألَّفَ طائفةً سمَّاها (طائفة الكِتاب)، وأخذ يدْعو إلى القُرآنِ وتَعْظِيمِ القرآن، والعملِ بالقرآنِ، ويُنْكِرُ السُّنَّةَ إنكارًا عظيمًا -والعياذ بالله-، ويقول: ما هؤلاء الذين يَعْمَلُونَ بالسُّنَّةِ إلا قومٌ مجانين مغفَّلون هَمَج، ليس

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٥)؛ والترمذي: كتاب العلم، باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث رسول الله ﷺ، رقم (٢٦٦٣)؛ وابن ماجه: افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه، رقم (١٣) عن أبي رافع.

عندهم مَعْرِفَةٌ، والقرآن هو الدستورُ الأعْظَمُ، وأما السُّنَّةُ فلا قيمةَ لها.

وصارَ -والعياذ بالله- يَدْعُو إلى هذا المذهبِ الخَبِيثِ، ولأنه جَمَعَ أموالًا كثيرة فقد استَخْدَمها في هذا الغرضِ، وألَّفَ كِتابًا في تفْسِيرِ القرآنِ كلُّهُ هجومٌ على السُّنَّةِ وعلى المتَمَسِّكِينَ بالسُّنَّةِ.

فالحاصل: أن القرآنَ والسُّنَّةَ كلاهما صِنْوانٌ، وكلاهُما مِنْ عندِ الله، وهما مصدرُ التَّشْرِيعِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [النساء:٥٩].

ويَغْلُب على ظَنِّي أن هذا الرجل كتب مقَالَةً في جريدة، قال: القرآنُ مركَّبٌ على العددِ تسعةَ عشَرَ، وأن كلَّ شيءٍ فيه يَدُورُ على هذا العـدد، فسُورُ القرآن مئة وأربع عشرة سورة، هي نتيجةُ ضَرْبِ تسعةَ عشَرَ في ستة.

وكذلك حرَّف قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٣٠]، قال: (عليها)، أي: على صِحَّةِ ما جاءَ في القُرآنِ (تسعة عشر) أي: تسعةَ عشَرَ حرفًا هي البَسْمَلَةُ، مع أن تفسير قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ يعني على النار مَلائكةٌ، ومرادُهُ من وراءِ ذلك أن يَسْتَدِلَّ على أن هذا القرآنَ لا يمْكِنُ أن يأتِيَ به محمَّدٌ؛ لأن كونَ القرآنِ مكَوَّنٌ من هذا العددِ لم يُعرَف هذا إلا بعدَ ظهورِ الكمبيوتر.

ويقول أيضًا في قوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق:١]: ابتدأتِ السورةُ بالقاف؛ لأن مجموعَ ما فيها من القافات يُقْسَمُ على تسعة عشر، والدليلُ على ذلك لم يقل: «وقَوم لوط» بل قال: ﴿وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ﴾؛ لأنه لو قال: وقوم لوط لزاد قاف ولم تحْصُل القِسْمَةُ المطلوبةُ.

فهو على كلِّ حالٍ ملبِّسٌ صاحبُ شُبهَةٍ، وقد كَتَبْنَا رَدًّا عليه.

وأول ما يمكن هَدْمُهُ مسألةُ البسملَةِ، فالبسملَةُ ليست بأَوَّلَ ما نَزَلَ من القرآن حتى نقول: إذًا القرآنُ مركَّبٌ عليها، بل أولُّ ما نزل قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق:١].

ثانيًا: البسملَةُ ليست كما زَعَم تسعةَ عشرَ حَرْفًا، فحروفُ البسملة هي: الباء، والسين، والميم، والهمزة، واللام، واللام الثانية، والهاء، والألف، والراء مكررة، والحاء، والميم، والألف، والنون، هؤلاء أربعة عَشَرَ حرفًا، وكذلك الهمزة والراء مكَرَّرَةٌ، والحاء والياء والميم، فهؤلاء عشرونَ لا تِسْعة عشرَ كما زعم؛ لكنَّه يقولُ: المعتبَرُ الكتابةُ، والرحمن ليست فيها أَلِفٌ؛ لأنه بإسقاط الأَلِفِ مِنَ الرحمن يكونُ العددُ تسعة عشر، ونحن نقول: إذا قلت هذا فأَثْبِتِ الألف التي في (الرحمن والرحيم) فإذا أَثْبَتَ الأَلِفَ صارَ العددُ واحدًا وعشرين.

ثم نقول له أيضًا: إذا اعْتَبَرْتَ الكتابة هل نزلَ القرآنُ مكتوبًا أم نَزَلَ منْطُوقًا؟

وأيضًا: لو كانت القاعِدَةُ الكتابيةُ على غير هذا الوجه لزادَتِ الحروفُ ونَقَصت، فالحروفُ المكتوبةُ تزيدُ وتنْقُص بتَغَيُّرِ القاعدةِ الكتابية، أما الحروف المنطوقةُ فلا تَزيدُ ولا تَنْقُص، ولذا نجِدُ في الكتابة الإنجليزية بعضَ الأحيان يكتبونَ الحركاتِ حُروفًا، وانظر إلى الصينيين عندهم آلاف الحروفِ.

الحاصل: أن الكتابةَ صناعِةٌ ليس لها دخلٌ في النُّطْقِ، والقرآن نزل باللُّغَةِ العربية، بلسانٍ عَرِبِيٍّ مُبِينٍ، لكنهم يُلَبِّسُونَ ويُلْقُونَ الشُبَهَ، ويزْعمونَ أنهم خدَمُوا القرآن بهذه الأفعال أمامَ هؤلاء الأجانب الذين لا يَعْرِفُون إلا المادَّةَ.

ولو أنهم بَيَّنُوا للناسِ هذا الدِّينَ وما جاء به من الأخلاقِ والمعامَلاتِ، لكانَ خيرًا لهم لو كانوا يَعْلَمُونَ!

• • ۞ • •

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث **الصفحة**

«قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ» ١٢
«مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ» ٢٣
«الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ، إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ» ٢٩
«الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا» ٣٠
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» .... ٣١، ٧٨
«مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ» .... ٤٠، ١٣٤
«لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» ٤٨
«وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ» ٥٦
«كَانَ النَّبِيُّ يُبعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» .... ٥٩، ١٩٧
«لَو رَحِمَ اللهُ أَحَدًا مِنْ قَوْمِ نُوحٍ لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ» ٦١
العلماءَ ورَثَةُ الأنبياءِ ٧٣
«مَا سُكِتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ» ٧٥
«عَذَابُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ» ٨٨

«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا» ٨٩
النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وجبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما استطاعا أن يَدْخلا السماءَ الدُّنْيا إلَّا بعد الاستفتاحِ والاستئذانِ ٩٥
«أَنْتِ رَحْمَتِي أرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ» ١٠١
«وَيُصْعَدُ بِها إِلى اللهِ تعالى» ١٠٦
«إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَا عِبَادَهُ» ١١٢
«عَلَى نَارِكُمْ هَذِهِ» ١١٨
«أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ» ١٢٠
«مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» ١٢٥
«لَيْسَ عَلى وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ» ١٢٦
«وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» ١٢٨
«إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ» ١٣٢
«أَلَا يَتَّقِي اللهَ زَيدٌ يَجْعَلُ ابنَ الابنِ ابنًا، ولا يجعَلُ أَبَا الأبِ أبًا» ١٣٣
«مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ، وَالْمَفْعُولَ بِهِ» ١٣٩
«لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» ١٤٤
«اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ» .... ١٤٩، ٣١٤
«يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ» ١٥٠
فجبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رآه النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وله سِتُّمِئة جناحٍ قد سَدَّ الأُفُق ١٥٥
مجيء جبريلَ بصورة دِحْيَةَ الكَلْبِيِّ ١٥٥

بصورةِ رجلٍ شديدِ بياضِ الثَّياب شَديدِ سوادِ الشَّعَرِ ١٥٥

«لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ، أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا» ١٥٦

«نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ» ١٥٧

«لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ» ١٦١

«أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا، قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ» ١٦١

فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وربِّ الكَعْبَةِ، ويَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ ١٦١

«اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي؛ فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا» ١٦٣

«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ» ١٦٩

«المَالُ كَثِيرٌ وَالْعَهْدُ قَرِيبٌ» ١٧٠

«أَعْفُوا اللِّحَى» ١٧٣

«إِنِّي أَخَافُ اللهَ» ١٨٠

«الْكَلْبُ الأَسْوَدُ شَيطَانٌ» ١٩١

«مَا مِنَ الأَنْبِياءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ» ١٩٨

«وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ» ١٩٩

«مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ» ٢٣١

«الصَّلَاةُ نُورٌ» ٢٣٨

«القُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ» ٢٣٩

«مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا» ٢٣٩

«إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِه ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي» ٢٤٠

«أَنَّ مَنْ دَعَا رَجُلًا بالكُفْرِ أَوْ قَالَ: عَدُوُّ اللهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ» ٢٦٦
«أَخْطَأَ مِنْ شَدَّةِ الْفَرَحِ» ٢٦٧
«هَذَا، مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» ٢٧٣
«كان يُصيبنا ذلك، فنُؤمَرُ بقضاءِ الصَّومِ ولَا نُؤمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ» ٢٨٩
«إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا» ٢٩٠
«تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لمَالها، وحَسَبِهَا، وجَمَالها، ودِينِهَا» ٣٠٠
«كُلُّ لَهْوٍ يَلْهُو بِهِ ابْنُ آدَمَ فَهُوَ بَاطِلٌ إِلَّا كَذَا وَكَذَا»........................ ٣٠٢
«نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ جهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المسِيحِ الدَّجَّالِ» ٣٠٩
«واللهِ لا نَرْجِعُ حتى نَقْدَمَ بَدْرًا فنَنْحَرُ الجَزُورَ، ونُسْقِي الخمور، وتُعْزَفُ علينا القِيانُ، ويَسْمَعُ بِنَا العرب فلا يزالونَ يهابُونَنا أَبَدًا» ٣١٥
«يَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ! هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللهُ حَقًّا، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي اللهُ حَقًّا» ٣١٥
«أُوقِدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ عَامٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ...» ٣١٧
«يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا» ٣٢١
«حَدِّثُوا النَّاسَ بما يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ ورَسُولُهُ».................. ٣٢٣
«بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» ٣٢٤
«إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا».......................... ٣٢٨
«مَنْ جَامَعَ المشْرِكَ...» ٣٣٥

«مَا اجْتَمَعَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هذا المَوْطِنِ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ» ٣٤١

«حاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحاسَبُوا، وزِنُوا أَعْمالَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا» ٣٤٣

«ليس فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الجَنَّةِ إِلَّا الأَسْمَاءُ فَقَطْ» ٣٤٥

«مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ...» ٣٤٩

«كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» ٣٥٠

«نِعْمَتِ البِدْعَةُ» ٣٥١

«لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرُ...» ٣٥٦

«وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ» ٣٦٦

«اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: يا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ فِي الصَّيْفِ ونَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ» ٣٦٩

«أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ» ٣٧١

«إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْغِنَى، وإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَفْقَرْتُهُ لأَفْسَدَهُ الْفَقْرُ» ٣٧٨

«جَادِلوهُمْ بالعِلْمِ، فإن أنكَرُوه كَفَروا وإن أَقَرُّوا بِه خُصِمُوا» .... ٢٤٣، ٣٨٠

«قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ» ٣٨٤

«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ...» ٣٩٢

«بايعَ الصَّحَابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ النبيَّ ﷺ على أَلَّا يَسْأَلُوا الناسَ شيئًا، فكان الرَّجُلُ يسقُطُ سَوْطُه من بَعِيرِهِ فيَنْزِلُ ويأْخُذُهُ ولا يقول: نَاوِلْنِي إِيَّاه يا فُلانُ» ٣٩٩

أن الرَّسولَ ﷺ لما دَخَل مكَّة فاتحًا طأْطأَ رأسَهُ........................ ٤٠٠
«أصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ لَبِيدُ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ...»............... ٤٠٧
«ومَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»................................ ٤١٠
الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ...»........................ ٤١٦
«أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»............................ ٤١٧
«والْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ»........................ ٤١٨
«اللَّهُمَّ اشْهَدْ».. ٤١٨
«اللَّهُمَّ أَغِثْنَا».. ٤١٨
«أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ».................................... ٤١٨
«لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ: لَا نَدْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللهِ اتَّبَعْنَاهُ»...................... ٤٢٤

فهرس الفوائد

الفوائد	الصفحة
البَسْملةُ	٧
الحروفُ المركَّبةُ الهجائيَّةُ ليس لها مَعْنًى	٧
لا تَكادُ تَجِدُ سُورةً مَبْدوءةً بهذه الحروفِ الهِجائيَّةِ إلَّا وجدْتَ بعدها ذِكْرَ القُرآنِ أو ما هو مِنْ خصائصِ القُرآنِ	٨
الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَبْتلي المرءَ تارَةً بأفْعالِهِ التي يفْعلُهَا به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتارَةً بأفْعالِ غيرِهِ التي يُسَلَّطون بها عَليهِ	٩
من النَّاسِ أيضًا من يُؤْذَى بتحلِّيهِ بأخلاقِ المؤمنينَ	١٠
قاعِدَةُ «المشَقَّةُ تَجْلِبُ التَّيْسِيرَ»	١٠
أَكْلُ الميتةِ إذا اضْطُرِرْتَ إليه	١١
ما وقَعَ للإمام أحمدَ رَحِمَهُ اللَّهُ في أيامِ المِحْنَةِ	١٢
مَنْ أُكْرِهِ على الكُفرِ وكان كُفرُهُ يستلزمُ كُفر غيرِهِ	١٢
الإمامُ أحمدُ لم يَقُلْ بخَلقِ القُرآنِ لأنه قدوةٌ	١٣
أن عِلمَ الله تعالى بالأشياءِ يَنقَسمُ إلى قِسْمين	١٤
ولا يقالُ: إن اللهَ لا يعْلمُ الشيءَ إلَّا بعدَ وقوعِهِ، كما قال ذلك غُلاةُ القَدَرِيَّةِ	١٥
أن السيِّئةَ هنا تَعُمُّ الصَّغائرَ والكَبائرَ	١٨
قوله: [نِعْمَ دارُ المتقينَ]	١٩

قَالَ المُفَسِّر فِي تَفْسِيرِ ﴿يَرْجُواْ﴾: «يخَافُ» وهذا صَرفٌ للَّفْظِ عن ظاهِرِه.......... ٢١
كونُه تعالى سَمِيعًا هلْ يلْزَمُ منه إثباتُ الأُذُنِ؟ ٢٣
أن الجِهادَ ينْقسمُ إلى قِسمَينِ ٢٦
بماذا نُكَفِّرُ عنْهُمْ سيِّئاتِهِمْ؟ ٢٩
الجزاءُ بمَعنَى المكافَأةِ.......................... ٣٠
لا حاجَةَ إلى التَّأويلِ.......................... ٣٠
لا بُدَّ في العملِ من أن يكونَ صَالحًا.......................... ٣١
هل يُشْتَرطُ للإخلاصِ والمتابعةِ التَّصديقُ؟ ٣١
الوَصيَّةُ معناها: العَهدُ بالشَّيءِ المهِمِّ.......................... ٣٣
إثباتُ رَحْمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ٣٦
إذا قالَ والِدُكَ لك: قُمْ صَلِّ مع الجماعَةِ، وجبَ عليكَ أن تُصَلِّيَ.......................... ٣٧
قال شيخُ الإسلامِ: «إنَّ طاعَةَ الوالِدَينِ إنما تجِبُ فيما لهما فيه مَنْفَعَةٌ وليس عليه فِيهِ مَضَرَّةٌ» ٣٧
أنَّ أخصَّ الناسِ بوصفِ الصَّلاحِ هُم الأنبياءِ ٤٠
إذا جاءَ الاسمُ الموصولُ أو اسمُ الشَّرطِ العام للواحدِ والجماعةِ، فإنه يجوزُ في ضَميرِهِ أن يكونَ مجمْوعًا وأن يكون مُفْردًا.......................... ٤٤
أن الكفَّارَ مجتهِدُونَ ومُقلِّدونَ، أي: رؤساءُ ومُقَلِّدونَ ٥٣
حذفُ نونِ الرفْع ٥٤
خطورةُ الدَّعوةِ إلى الضَّلالِ ٥٦
هل على الدَّاعِينَ إلى الضَّلالِ وِزْرٌ من كل الأعمالِ السيِّئَةِ للمَدْعُوِّين؟ ٥٧

«وعَاشَ نُوحٌ بعدَ الطُّوفانِ سِتِّينَ سَنَة أو أكثرَ حتى كَثُرَ الناسُ».......................... ٦٤

عندنا مَثَلٌ عامِّيٌّ مشهور يقول: «عَسى عُمرُك عُمْر شُعَيبٍ» ٦٤

بعضُ النَّاسِ الجهالِ -في الواقع- يَصفُونَ النَّبيَّ ﷺ بأنه حبيبُ الله وأن إبراهيمَ خليلُ الله، وهذا خطأ، فإن مُحَمَّدًا ﷺ خليلُ اللهِ أيضًا ٦٧

أن العبادةَ تنْقسمُ إلى قسمين ٦٨

كيف يمْكِنُ أن نُفَسِّرَ العبادةَ بمَعنى يُغَايِرُ معنى التَّقْوى؟ ٦٩

هل الصائمُ يتَّقِي الله عَزَّوَجَلَّ في كلِّ شيءٍ بحيثُ يتْرُكُ الكذِبَ والغِيبةَ والشَّتْمَ والمحرَّم وقولَ الزورِ والعملَ بِهِ؟ ٦٩

وجوبُ شُكرِ النِّعمَةِ ٧٢

تَهديدُ المكذِّبينَ للرَّسولِ ﷺ ٧٣

وجوبُ الإبلاغِ على أهلِ العِلمِ؛ لأن العلماءَ ورَثَةُ الأنبياءِ......................... ٧٣

أن القرآنَ متَضمِّنٌ لجميعِ الأحكامِ العَقَدِيَّةِ والعمليَّةِ ٧٤

الشبهات التي يحتَجُّ بها أهلُ التَّعطيلِ أو أهلُ التَّمْثِيلِ ٧٤

ما من قَضِيَّةٍ تقعُ إلا وحُكْمها موجودٌ في القرآنِ أو السُّنَّةِ باعتبارِ جنسِهَا......................... ٧٥

أسبابٌ أربعةٌ كلها تَحولُ بينَ الإنسانِ وبينَ الوُصولِ إلى معرفَةِ حُكمِ الله الذي في الكِتابِ أو السُّنَّةِ ٧٦

قولُهُ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ هل المرادُ السَّيْرُ بالبدنِ؟ أو السَّيْرُ بالقَلبِ؟ أو بهما جميعًا؟ ٨١

إذا نظَرنا إلى السَّيْرِ في الأرض -إلى واقعه- أيها أكثرُ بالقَلْبِ أو بالقَدَمِ؟ ٨٢

القدرةُ غيرُ القوَّة ٨٤

هل قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عامٌّ مخصوصٌ أم لا؟ ٨٤

إثباتُ الأفعالِ الاختِيَارِيَّةِ لله عَزَّوَجَلَّ ٨٧
أن الرَّحمَةَ لا تُطْلَبُ إلا من الله ٩٢
أن الوَلِيَّ من يتَولَّى الإنسانَ في جميعِ أحوالِهِ ٩٦
ضعفُ البَشَرِ بالنِّسبَةِ إلى الخالِ ٩٧
الآياتُ بعُمومِهَا دالَّةٌ على وُجودِ الخالِقِ ١٠٠
المرادُ بالرَّحمةِ ١٠١
الكَراماتُ التي حَصَلت لبعضِ أولياءِ اللهِ ١٠٣
إثبات الرُّؤيَةِ ١٠٣
لا يلزمُ مِن نَفْيِ الإدراكِ نَفْيِ الرؤية ١٠٥
المضافُ إلى الله تعالى نوعان: إما أعيانٌ وإما أَوْصافٌ ١٠٥
باب إضافَةِ المخلوقِ إلى الخالِقِ تَشْريفًا ١٠٥
قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ﴾ على قراءةِ التَّاءِ ١٠٨
أليسَ الإحْراقُ يحصلُ به القَتْلُ؟ ١٠٩
هل نَعلَمُ في الكلامِ شَيئًا أعْظَمَ آيةٍ من كلامِ اللهِ؟ ١١٢
إنَّ الآياتِ الكونِيَّةَ والشرعيَّةَ لا ينتَفِعُ بها إلا المؤمنُ ١١٢
هل ثبتَ أن أحدَ الصَّحابة نَجا مِنَ النَّارِ بعدَ إلقائه فيها وكانت آيةً كإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ ١١٤
الموَدَّة بينَ المُشْركينَ في الدُّنْيا فقط ١١٧
إثباتُ البعثِ ١١٩
إثباتُ النَّارِ ١١٩

أن المتَّقِينَ تبْقَى مودَّتهم يومَ القِيامةِ ١٢٠
قياسُ العَكسِ ١٢٠
الإيمانُ في اللغةِ: التَّصدِيقُ ١٢١
سَحرةُ فرْعونَ ١٢٢
(مفاعِلُ) في اللغة العربية ١٢٣
إن الجَهْمِيَّةَ انقَسَمُوا في مسألةِ الجِهةِ إلى قِسمين ١٢٤
الحكيمُ ليستْ مِنَ الحِكمَةِ فقط ١٢٧
حُكمُ الله عَزَّوَجَلَّ ينْقَسِمُ إلى قسمين: كَونِيٌّ وشَرْعِيٌّ ١٢٧
أن ابنَ الابنِ ابنٌ ١٣٢
أن الإنسانَ قد يُعَجَّلُ له الجزاءُ في الدنيا ١٣٣
إذا أمكنَ التَّعَدُّدُ سواءٌ مِنَ القائلِ أو بالقولِ حُمِلَ عليه ١٣٦
لا مانِعَ أن يُرَكِّزَ الدُّعاةُ على ما انْغَمَسَ فيه الناسُ وإن كان غيرُهُ مما لم ينْغَمِسُوا فيه أهمَّ منه ١٣٩
فُحْشُ اللُّواطِ ١٣٩
إنَّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجْمَعُوا على قَتْلِ اللُّوطِيِّ الفاعلَ والمفعولَ بِهِ، إلا أنهم اختلفوا كيف يُقْتَلُ ١٤٠
يستلزمُ الدعاءُ إثباتَ السَّمعِ لله جَلَّوَعَلَا ١٤٩
إجابة الدُّعاءِ لا تستَلْزِمُ البصرَ ١٥٠
ينْبَغِي للدَّاعِي أن يبدأ بـ(باسم الله) ويَحْذِفَ ياء النداء ١٥٠
يجوزُ أن يقولَ: «يا رب» ١٥٠

القرية تُطْلَقُ على مكانِ القومِ ومساكِنِهم ١٥٢
أن القريةَ في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ تَشملُ حتى أكبرَ المدُنِ........ ١٥٢
المجاز في اللُّغة العربية........ ١٥٣
أن الرَّسولَ يُطلَقُ على البشَرِ والمَلَكِ، بخلافِ النَّبيِّ فإنه لا يُطلقُ إلا على البَشَرِ.... ١٥٤
أن الملائكةَ أجسامٌ وليسوا أرْواحًا أو عُقولًا........ ١٥٥
جوازُ إضافَةِ الحُكم إلى سَببِهِ........ ١٥٦
ما الفرقُ بين أن نقول: زوجة فلانٍ أو امرأةُ فُلانٍ؟ ١٥٩
إثباتُ القولِ والعِلْمِ للملائكَةِ........ ١٦٠
إذا أُضِيفَ السببُ الحِسِّيُّ أو الشَّرعي مع اللهِ بالواو........ ١٦١
إذا أُضيفَ السَّببُ معَ الله بـ(ثُم)........ ١٦١
إذا أُضِيفَ السَّببُ مع اللهِ بـ(الفاء) ١٦٢
إن الأصلَ في الاستِثْناءِ الاتصالُ........ ١٦٢
أن الاتصالَ بالصالِحِ لا يستلزِمُ أن يكون المتَّصِلُ صالحًا وإن كان الاتصالُ بالصالحِ مِن أسبابِ الصَّلاحِ ١٦٢
هل وُجودُ الصَّالحينَ سببٌ لدَفْعِ العَذابِ؟ ١٦٣
إن الذَّرْعَ الطاقَةُ ١٦٦
الأنبياءُ كغَيرِهِمْ مِنَ البَشر يَلحَقُهم المساءَةُ والأحزانُ والسُّرورُ........ ١٦٩
قصَّة سُليمانَ في المرْأتَينِ اللَّتَيْنِ تنازَعَتا الغُلامَ، فدَعا عَلَيهِ السَّلَامُ بالسِّكِّينِ ليَشُقَّهُ نِصْفَينِ ١٦٩
هل المرادُ بالسماءِ السَّقْفُ المحفوظُ أو العُلُوُّ؟ ١٧١

المشهور عندَ النَّحْوِيِّينَ من أنه إذا كانَ العائدُ مجرورًا، فلا بُدَّ أن يكونَ مُوافِقًا لاسم الموصول في نَوعِ العاملِ وفي نَوعِ حرفِ الجرِّ ١٧٢
إن صَحَّ عنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن جبرَيل حَمَل هذه القُرى وقَلَبها فلا كلامَ لأَحَدٍ، وإن لم يَصِحَّ فإننا لا نَقُولُ بِهِ ١٧٤
إثباتُ العُلُوِّ لله عَزَّ وَجَلَّ ١٧٤
أن الفِسْقَ سببٌ للعُقوباتِ ١٧٤
عقلُ الرُّشْدِ هو مناطُ المَدْحِ والذَّمِّ ١٧٧
إن الأُخُوَّةَ في اللغة العربية ليست مطلَقَ الموافَقَةِ في البشرية ١٧٩
هل يجوزُ أن يقولَ المسلمُ للكافر: هذا قَرِينِي؟ ١٨٠
أن الشرائعَ تجْمَعُ بينَ الأَمْرَينِ الإيجَابِيِّ والسَّلْبِيِّ ١٨٥
ما يُعانِيهِ الرُّسلُ -عليهم الصلاة والسلام- من أقوامِهِمْ ١٨٦
تَسْلِيَةُ الدُّعاةِ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ١٨٦
أن الشيطانَ يُزَيِّنُ الشِّركَ وكذلك يُزَيِّنُ المعاصي للإنسان ١٩٠
بيانُ قُدْرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ١٩٣
تَزْيين الأعمالِ ١٩٣
الضابطُ في تَزْيِينِ الشَّيطانِ ١٩٣
قارون وفرعون وهامان كلها لا تَنْصَرِفُ ١٩٥
مُوسَى أُرْسِلَ إلى فرعون وإلى بني إسرائيل ١٩٧
إثباتُ الرَّحمةِ والحِكمةِ في آياتِ الأَنْبياءِ ١٩٨
التنوين في (كلًّا) ٢٠٠

قومُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فأُغْرِقُوا بالطُّوفانِ العظيم ٢٠٢
الرَّدُّ على الجَبْرِيَّةِ ومن وافَقَهُم مِنَ الأشْعرية الذين يُنْكِرُونَ الأسبابَ ٢٠٤
أن الجزاءَ من جِنْسِ العملِ ٢٠٥
أن العُقوباتِ لا تأتي مِن نوعٍ واحد ٢٠٥
كمال عَدْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ٢٠٥
الجَبْرِيَّةُ يقولون: إن الظلمَ مُحالٌ على الله لذَاتِهِ لا لعَدَمِ إرادةِ الله ٢٠٦
نَفْي الصِّفاتِ من حيثُ العُمومِ قد يَتَضَمَّنُ الكمالَ وقد يَتَضَمَّنُ النقْصَ ٢٠٧
أن العاصِي ظالمٌ ٢٠٨
والعنكبوتُ دُوَيْبَّةٌ معروفة تَتَّخِذُ لها بيتًا من العُشِّ ٢١١
التَّشْبيه التَّمْثِيلِيّ ٢١٢
جوازُ ضربِ الأمثالِ بالدُّونِ حسبَ ما تقتَضِيهِ الحالُ ٢١٤
أن أَوْهَنَ البيوتِ وأَضْعَفَها بيتُ العنكبوتِ ٢١٤
العزَّة مِنْ ثلاثةِ وُجوهٍ: عزَّةُ القَدْر، وعزَّةُ القَهرِ، وعزَّة الامتِنَاعِ ٢١٨
الحِكمةُ ثابتةٌ لله عَزَّوَجَلَّ وهي تنزيلُ الأشياءِ منازِلها ٢١٩
إثباتُ الحُكْمِ والحِكْمَةِ ٢٢١
أسلوبُ التَّعْميمِ ثم التَّخْصِيصِ كثيرٌ في القرآنِ ٢٢٤
ما أضافَه الله إلى نفسه بصيغَةِ الإفرادِ فهو لله عَزَّوَجَلَّ ٢٢٥
الآياتُ الكونِيَّةُ لا ينتَفِعُ بها إلا المؤمنُ ٢٢٨
انتِفاعُ المؤمن بالآياتِ الشَّرعِيَّةِ والكونِيَّةِ يكون بزيادةِ إيمانِهِ ٢٢٩
المُرْجِئَةُ هم الذين قالوا: إن الإيمانَ لا يزيدُ ولا ينْقُصُ ٢٢٩

الردُّ على أهلِ الطَّبيعةِ الذين يقولون: إن السمواتِ والأرضَ ليس لها خالقٌ...... ٢٣٠
إثباتُ أن السمواتِ سبعٌ.. ٢٣١
إثباتُ أن الأَرَضِينَ سبْعٌ....................................... ٢٣١
اطمئنانُ المؤمن بما يُحْدِثُه اللهُ في السمواتِ والأرضِ ٢٣١
معنى قولِ البعضِ: «منَازَعَةُ الأقْدَارِ بالشَّرْعِ واجِبَةٌ»........................ ٢٣١
قوله: ﴿ اَتْلُ ﴾ يتَضَمَّنُ التلاوةَ اللَّفْظِيَّةَ، والتلاوة الحُكمِيَّةَ........................ ٢٣٣
أن الخطابَ الموَجَّهَ للرَّسول عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثلاثةُ أقسامٍ........................ ٢٣٤
الوحْيُ في الشَّرعِ.. ٢٣٥
تَوجِيهُ الخِطابِ لمن يتَّصِفُ به.. ٢٣٥
التَّعبير بالنَّهْي أبلغُ من التَّعْبِيرِ بالمنْعِ.. ٢٣٧
«القُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ» ٢٣٩
أن الصلاةَ تنْهَى عَنِ الفَحشاءِ والمنْكرِ.. ٢٣٩
المجازَاةُ تكونُ في الدُّنْيا ويومَ القِيامة ٢٤١
هل الأمراضُ والمصَائبُ التي تُصِيبُ العبدَ عُقوبة أو ابتلاء؟ ٢٤١
الابتلاءُ والفِتْنَةُ قد تكونُ بالخيرِ والشَّرِّ ٢٤٢
الأمورُ الإيجابيَّةُ أكمَلُ من الأمورِ السَّلْبِيَّةِ ٢٤٣
قال الشافِعِيُّ وغيره: «جَادِلُوهُمْ بالعِلْمِ فإنْ أقرُّوا بِهِ خُصِمُوا، وإنْ أنْكَرُوه كَفَرُوا»... ٢٤٣
قوله: ﴿وَلَا تُجَدِلُوٓا﴾ الخطابُ للأمَّةِ جميعًا.. ٢٤٥
الطريقَةِ المثْلَى التي يتَوَصَّلُ بها إلى إفْحَامِ الخَصمِ وهِي الأَدَاءُ ٢٤٦

إذا رَأيتَ بسُلوكِكَ أحدَ الطُّرقِ أنه قد ينْفتِحُ عليك بابُ المعارضة، فاسلُكِ الطريقَ الآخرَ ٢٤٧
حُجَّةُ مُنْكِري صفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ ٢٤٧
المجادَلَةُ بالآياتِ الكونِيَّةِ ٢٤٩
مناظَرَةُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في الذي حَاجَّه في رَبِّهِ ٢٤٩
المنَازَعَة والمحَاجَّة ٢٥١
قوله: ﴿وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ ٢٥٣
لو قال قائل: قولنا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، لماذا لا نُقدِّر الخبر بـ(موجود) ونجعل تلك الآلهة مجرَّد أسماء؟ ٢٥٣
المرادُ بالإسلام ٢٥٥
الإسلامُ عندَ ذِكْرِه وَحْدَهُ يشْمَلُ الإيمانَ، والإيمانُ إذا ذُكِرَ وَحْدَهُ يَشْمَلُ الإسلامَ وإذا اجتَمَعا صارَ الإيمانُ للباطِنِ والإسلامُ للظاهِرِ ٢٥٥
يجِبُ على المرءِ أن يعرفَ ما عند خَصْمِه ليجادِلَهُ به ٢٥٦
أن المقصودَ من المجادَلَةِ الوصولُ إلى الحقِّ لا مجرَّدَ الغلَبَةِ ٢٥٦
الكُلَّابِيَّةُ أتباعُ سعيدِ بن كُلَّابٍ ٢٥٩
المعتزلة أكثر شجَاعَةً من الأشْعَرِيَّةِ ٢٦٠
أن الإيمانَ عندَ الإطلاق يرادُ به التَّصدِيقُ المستَلْزِمُ لقبولِ ما جاءِ به الرسولُ ﷺ .. ٢٦٢
أن كُلَّ من جَحدَ بآياتِ الله فهو كافِرٌ ٢٦٥
من جَحَدَ شيئًا مِنَ الشَّريعَةِ الإسلاميةِ فإنَّهُ كافِرٌ ولو آمَنَ بالبَاقِي ٢٦٥
من نَشَأ بالبَادِيَةِ أو بِدَارِ كُفْرٍ وجَحَدَ ما هو معلومٌ عندَ المسْلِمينَ بالضَّرورَةِ فإنه لا يكْفُرُ حتى يُعرَّف به ٢٦٦

الحكمُ بالتَّكفيرِ حُكمٌ من أحكامِ الله ٢٦٦
لو نشأ إنسانٌ في بلادٍ كُلِّها رِبويَّةٍ تعمل البنوكُ فيها بالرِّبَا........................ ٢٦٨
لو ادَّعَى رَجُلٌ الجهلَ في صَرْفِ شيء مما يختَصُّ بالله مِنَ العبادات إلى غيرِ الله ٢٦٩
قريةٌ كامِلَةٌ يَدْعُو أصحابها القبورَ هل نَحكمُ بكُفرِهِمْ؟ ٢٦٩
التعبيرُ بلفظٍ (زائد) على شيء مِنْ ألفاظِ القرآن........................ ٢٧١
اختلَفَ العُلماءُ هل صارَ النَّبيُّ ﷺ يُحْسِنُ الكِتابَةَ والقِراءةَ بعدَ نُزولِ القُرآنِ
أو لَا؟ ٢٧٣
هل يتَرَتَّبُ على الخلافِ في كونِ النَّبيِّ ﷺ كاتِبًا أو غيْرَ كاتبٍ أثَر؟ ٢٧٦
هل نأْخُذُ مما سَبَقَ استِحْبابُ عدمِ تعلُّمِ القِراءةِ والكِتابَةِ ٢٧٦
ينْبَغِي في المناظَرَةِ التَّنزُّلُ مع الخَصْمِ وإبطالُ ما يحتَجُّ به........................ ٢٧٦
هل غيرُ المؤمنين مِنْ أوْلي العِلم يكونُ القرآنُ آياتٍ بيِّناتٍ لهم؟ ٢٨٠
أن مَحَلَّ العقلِ والوعْي القَلْبُ ٢٨١
الإنذارُ هو الإخْبارُ بالمُخَوِّفِ، أما الإخبارُ بالمرْغُوبِ فيُسَمَّى بِشَارَةً ٢٨٧
أن إضافَةَ الأمورِ إلى الله تَقْطَعُ الحُجَجَ........................ ٢٨٨
من بَلاغَةِ الكلام أن يكونَ الخِطابُ مُوافِقًا لمُقْتَضَى الحال........................ ٢٩٠
كم من رَجُلٍ قليلِ العِلْمِ لكِنَّهُ قويُّ الفصاحَةِ ٢٩٠
هل هناك عواملُ تساعِدُ على الفصاحَةِ؟........................ ٢٩١
القرآن آياتٌ بيِّنَاتٌ في صُدورِ الذين أُوتُوا العِلْمَ........................ ٢٩٣
(مَا) اسم موصولٌ يُفيدُ العُمومَ........................ ٢٩٩
(مَا) يُعبَّرُ بها عن الصِّفَةِ دونَ الموصوفِ........................ ٣٠٠

هل يُقَدَّرُ صلةُ الموصول فعلًا أو اسمًا؟ ٣٠٠
تجِدُ الكلمة الواحدةَ في سِياقٍ لها معنى وفي سياقٍ آخرَ لها معنى آخر بحَسَبِ السِّياقِ.. ٣٠٢
ضميرُ الفَصْلِ يُفِيدُ الحَصْرَ........................ ٣٠٣
إطلاقُ الشَّهادةِ على الحُكم ٣٠٥
إذا كان عندَ الحاكِمِ شهادةٌ هل يحكُمُ بها؟ ٣٠٦
ما فَسَدَتْ أحوالُ العالم الإسلامي وغيرِ الإسلامي إلا بالحُكْمِ بغيرِ ما أَنْزَلَ الله ... ٣٠٧
هل التَّحاكُمُ للمحاكِمِ غيرِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ الإيمانِ بالباطلِ، وهل هُو كُفْرٌ؟ ٣٠٧
ما الحكم إذا قَرَّبُوا هذه القَوانِينَ الوضْعِيَّةَ إلى الإسلامِ؟ ٣٠٨
ما حُكْمُ التَّحاكُمِ إلى المحاكِمِ غيرِ الشَّرْعِيَّةِ، أي: التي تَحْكُمُ بالأحكامِ المخالِفَةِ للشَّرْعِيَّةِ؟ ٣٠٩
هل المبَاهَلَةُ تكون معَ المسلِمِينَ أم معَ الكفَّارِ فَقَط؟ ٣١٢
هل يستفادُ من قوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ جواز أن يقولَ الإنسانُ: هذا وَقَعَ صِدْفَةً؟ ...٣١٦
إن عذابَ أهلِ النَّارِ يزيدُ سُرورَ أهلِ الجنَّة واغْتَباطَهُم بنِعْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ ٣١٨
ما الدَّاعِي لصَرْفِ اللَّفْظِ عن ظَاهِرِهِ؟ ٣٢٠
مَنْ يعْتَقِدُ مَذْهبًا مِنَ المذاهبِ تَجِدُهُ يحرِّفُ الكلِمَ عن مواضِعِه لأجلِ أن يُوافِقَ ذلك المذْهَبَ ٣٢٠
ذكرَ شيخُ الإسلامِ أن مسألةَ الذاتِ لم تردْ في لسانِ العربِ العُرباءِ........... ٣٢٢
جوازُ تَغَيُّرِ الفَتوى بتَغَيُّرِ الزمانِ........................ ٣٢٢
كثيرًا ما ينْدَمُ الإنسان على تَصَرُّفاتِهِ بسببِ عدمِ الحِكْمةِ........................ ٣٢٥
أن تعْذِيبَ الكفارِ جِسْمِيٌّ ونَفْسِيٌّ........................ ٣٢٦

جوازُ التَّعْبيرِ بالسَّببِ عن المسَبَّبِ ٣٢٧
أن الجزاءَ مِنْ جِنْسِ العَملِ ٣٢٧
مُقْتَضَى العبودِيَّةِ والإيمانِ ٣٢٨
أن العِبادَةَ تَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ: عبادةٍ كَوْنِيَّةٍ، وعبادة شَرْعِيَّةٍ ٣٢٨
الإيمانُ الحَقِيقِيُّ أن الإنسان يَفْدِي دِينَهُ بنَفْسِه ومالِهِ ٣٣١
تَوجِيهُ الأمرِ للإنسانِ بما هو متَّصِفٌ بِهِ ٣٣٢
الذين يُسَافِرُونَ من بلادِ الإسلامِ إلى بلادِ الكُفْرِ ويُقِيمُونَ عندهم ٣٣٣
أن السَّفَر إلى بلادِ الكُفَّارِ لا يجوزُ إلا بشُروطٍ ٣٣٣
كَثيرٌ من التَّخَصُّصاتِ الحديثةِ لا تُوجَدُ في بلادِ المسْلِمينَ ٣٣٤
حكمُ الذَّهابِ إلى بلادِ الكُفَّارِ مِنْ أجلِ الدَّعوة إلى الله ٣٣٥
حُكْمُ من يسافرُ إلى بلاد الكفَّار لنيلِ شهادَةِ الدُّكتوراة في الشَّريعَةِ ٣٣٥
حُكْمُ من يذهبُ لبلادِ الكفَّارِ لدِرَاسَةِ لغُتِهِمْ ٣٣٦
حدُّ دارِ الإسلامِ ودارِ الكُفْرِ ٣٣٦
أن الإنسانَ أرادَ أن يُحْصَي ما يتكَلَّمُ به في اليوم لكان عنده في الأسبوعِ مجلَّدَاتٌ.... ٣٣٩
هل يُغَلِّبُ جانبَ الرجاءِ أو جانبَ الخوفِ؟ ٣٤٠
أن المسألَةَ لها أحوالٌ ٣٤١
أن أحوالَ الدُّنْيَا لا تُقاسُ بها أحوالُ الآخرةِ ٣٤٥
هل يوجَدُ في الجنَّةِ غيرُ هذه الأنهارِ الأرْبَعَةِ؟ ٣٤٦
المُرائي بعملِهِ عَمَلُهُ ليس صَالحًا لفَقْدِ الإخلاصِ ٣٤٨

ليس مَعْنَى قوله: «مَنْ سَنَّ» أي: مَنْ شَرعَ، بل معنى قوله: «مَنْ سَنَّ» أي: من فَعَلَ ما هو مَشْرُوعٌ وابتدأ به........................... ٣٥٠

الضَّلالُ لا يوصَفُ بالحُسْنِ ٣٥٠

قولُ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «نِعْمَتِ البِدْعَةُ» ٣٥١

التَّنَعُّمُ في الجنَّةِ كما يكونُ بالأكْلِ والشُّرْبِ والنِّكَاحِ واللباسِ يكون كذلك بالنَّظَرِ وبالبَهْجَةِ ٣٥١

الردُّ على الجَبْرِيَّةِ........................... ٣٥٢

أن التَّوَكُّلَ ينْقَسِمُ إلى ثلاثةِ أقْسامٍ ٣٥٤

أجمعَ العلماء على جوازِ التَّوكيلِ بالبَيْعِ والشِّراءِ وغيرِهِ مما تَدْخُلُ فيه الوِكالَةُ ٣٥٥

أن التَّوَكُّلَ أحدُ شَقَّيِ الدِّينِ ٣٥٥

هل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يكونُ وَكِيلًا ومُوَكِّلًا؟ ٣٥٦

هل السيارةُ تُسَمَّى دابَّةٌ؟ ٣٥٩

إن الكَذِبَ لا يُحِبُّه أحدٌ، حتى النَّمْلَةُ ٣٦١

كلُّ شيءٍ مكتوبٌ ومقَدَّرٌ ٣٦٢

هل مَلَكُ الموتِ يَقْبِضُ أرواحَ الحشراتِ؟ ٣٦٣

﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: من أسماء اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وله مَعْنَيانِ ٣٦٤

قوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ ٣٦٥

السمواتُ تُجْمَعُ دائمًا في القرآنِ، والأرضُ لا تأتي إلا مُفْرَدَةً ٣٦٩

دَورانُ الأرضِ حولَ نَفسِهَا ٣٧٢

أن الإقرارَ بالرُّبوبيَّةِ لا يكْفِي في التوحيدِ ٣٧٥

هل المبسوطُ له والمقَدَّرُ له واحد؟ ٣٧٧
قال بعضُ أهلِ العلمِ من أهلِ الأُصولِ: ما مَنْ عامٍّ إلا خُصَّ، إلا قوله تعالى:
﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ٣٧٨
أن إثباتِ القَدَرِ لا يَعْنِي الكفَّ عنِ الأسبابِ ٣٧٩
إثباتُ كمالِ التَّصرُّفِ لله عَزَّوَجَلَّ ٣٧٩
الحكمةُ مِنْ نُزولِهِ مِنَ السماءِ ٣٨٢
الصواب في تعريفِ الحَمْدِ ٣٨٥
من الفُروقِ بينَ الحمْدِ والمدْحِ ٣٨٥
اعتبارُ القِياسِ الصحيحِ ٣٨٨
إن اللَّهْوَ في القَلْبِ ٣٩١
(من حَجَّ لِيأْخُذَ فليس له في الآخرة من خلاق) ٣٩٢
الحياةُ الحقيقيةُ هي حياة الآخرة ٣٩٢
لا يجوز أن يُقصَدَ بأعمالِ الآخرةِ شيئًا مِنْ أعمالِ الدُّنْيا ٣٩٤
اعترافُ المشرِكِينَ ضِمْنًا بأن آلهتهم لا تَنْفَعُهم ٣٩٨
أن إشراكَ السابِقِينَ أهونُ مِنْ إشراكِ مَنْ أشركَ مِنَ المتأَخِّرِينَ من هذه الأُمَّةِ ٣٩٨
أن الدُّعاءَ من الدِّينِ ٣٩٩
لامُ العاقِبَةِ ٤٠١
ما حكمُ مَنْ كان يقْرأُ القرآنَ وأخطأَ، لكنه أصابَ قراءةً سبْعِيَّةً صحيحةً؟ ٤٠٣
هل كُلُّ القِراءاتِ السَّبْعِ متَواتِرَةٌ، وما رأيكُمْ في أسانِيدِ هذه القِراءاتِ؟ ٤٠٣
الرؤْيةِ العِلْمِيَّةِ ٤٠٥

شكر نِعْمَةِ الإسلامِ واجبٌ.. ٤٠٧
الافتراءُ على الله كَذِبًا له أنواع كثيرة.. ٤٠٩
المهم: أن يَفْهَمَ طالبُ العلم ٤١٥
على طالبِ العِلْمِ أن يهْتَمَّ في دِرَاسَتِهِ للكتابِ والسُّنَّةِ بجانبِ الاستِنْباطِ والفَهْمِ والتَّفْرِيعِ ٤١٥
العُلُوُّ دَلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ والعقْلُ والفِطْرَةُ وإجماعُ سَلَفِ الأمةِ........... ٤١٧
مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أن الله جَلَّوَعَلَا على عَرْشِهِ بذَاتِهِ وهو معنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَى حقًّا.. ٤١٨
أن المعيةَ نوعانِ: عَامَّةٌ وخاصَّةٌ.. ٤٢٢
المعِيَّةُ العامَّةُ تقتَضِي الإحاطةَ.. ٤٢٢
المعِيَّةُ الخاصَّةُ: نوعان: خاصَّةٌ بشخْصٍ، وخاصَّة بوصْفٍ........................ ٤٢٢
لا يُوجَدُ تناقُضٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ.. ٤٢٣
تِبيانُ السُّنَّةِ من تِبيانِ القُرآنِ ٤٢٤
ظَهَرَ في أمريكا أحدُ الخُبثاءِ يدَّعِي أنه أحدُ العلماءِ الرَّاسِخِينَ في العِلْمِ............ ٤٢٤

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة
تقديم	٥

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾ ٧

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ ١٢

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٤﴾ ١٧

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٥﴾ ٢١

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ ٢٦

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٧﴾ ٢٨

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٨﴾ ٣٣

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾ ٤٠

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ

ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ٤٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ ٤٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ ٥٠

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ ٥٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ .. ٦٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ ٦٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ ٧١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ ٧٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ ٧٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ ٨١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ ٨٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ ٩٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ ٩٩

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ١٠٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ ١١٥

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ ١٢١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ١٣٠

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ ١٣٥

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ١٤٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ ١٤٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ ١٥١

" قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢)﴾ ١٥٧

" قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣)﴾ ١٦٥

" قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤)﴾ ١٧١

" قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥)﴾ ١٧٦

" قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧)﴾ ١٧٨

" قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)﴾ . ١٨٨

" قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩)﴾ ١٩٥

" قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ ٢٠٠

" قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)﴾ ٢١٠

" قال الله عزّوجلّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾ ٢١٦

" قال الله عزّوجلّ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ٢٢٢

" قال الله عزّوجلّ: ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ٢٢٧

" قال الله عزّوجلّ: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ٢٣٣

" قال الله عزّوجلّ: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ٢٤٥

" قال الله عزّوجلّ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ٢٥٩

" قال الله عزّوجلّ: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ٢٧٠

" قال الله عزّوجلّ: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ٢٧٨

" قال الله عزّوجلّ: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ ٢٨٣

" قال الله عزّوجلّ: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ ٢٩٢

" قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ ٢٩٨

" قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ٣١١

" قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ . ٣٢٨

" قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ ٣٣٨

" قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ ٣٤٤

" قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ٣٥٣

" قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ ٣٥٩

" قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ ٣٦٨

" قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ ٣٧٦

" قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ٣٨١

" قال الله عزّوجلّ: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ٣٩٠

" قال الله عزّوجلّ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ٣٩٦

" قال الله عزّوجلّ: ﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ٤٠١

" قال الله عزّوجلّ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ٤٠٥

" قال الله عزّوجلّ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ٤٠٩

" قال الله عزّوجلّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ٤١٣

فهرس الأحاديث والآثار ٤٢٧

فهرس الفوائد ٤٣٣

فهرس آيات السورة ٤٤٩

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٨)

تفسير القرآن الكريم

سورة الروم

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٨)

تفسير القرآن الكريم

سورة الروم

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ⓒ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة الروم. / محمد بن صالح العثيمين - ط ١ - القصيم، ١٤٣٦هـ.
٣٥٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٣٨)
ردمك: ٩ - ٥٥ - ٨١٦٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - سورة الروم - تفسير.
أ - العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٣٧

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٣٧
ردمك: ٩ - ٥٥ - ٨١٦٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع - شارع محمد مقلد - متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحِ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَريم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَي الطُّلاب هُو (تَفْسِير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمَدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)(١). تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخِ مُحمَّد بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لإِخْراجِ ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَريمِ؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلِمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأوَّلِينَ والآخِرينَ، نبيِّنا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لَهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ
فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ
٢٠ جُمادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

سورة الروم

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

قال المُفَسِّر[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَكِّيَّة إلا آية ١٧، فمدنيَّةٌ، وآياتها ستون] اهـ.

المكِّيُّ هو الَّذي نزل قبْلَ الهجرة، والمدَنِيُّ ما نزل بعدها سواءٌ نزل في مكَّة أم لا، وعلى هَذا فإن قوْلَه تَعالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، هو من المدنيِّ، رغم أنه نزلَ بعرفَة يومَ حجة الوداع، أي قَد نزلَ بمكة.

وقوله: [وآياتها ستون]: أو تِسعٌ وخمسُونَ آيةً، إِنْ جعلنا ﴿الٓمٓ﴾ آيةً مستقلَّةً صارتْ سِتِّينَ آيةً، وإِلَّا فتِسعٌ وخَمْسونَ.

---

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

• • ❊ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

• • ❊ • •

تقـدَّم[1] أنَّ البسملةَ آيَةٌ مستقلَّةٌ يُؤْتَى بِهـا فِي ابتداءِ السّـوَرِ، وليست تابعَةً لـما بعدَها لَا فِي الفاتِحَةِ ولا في غيرِها؛ خِلافًا لِبعضِ العلَماء الَّذِين يقُولونَ هِي آيَةٌ مِن الفاتحِةِ، فيحْسِبُونَ الفاتحَةَ سبْعَ آياتٍ منْهَا البسملة، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:١-٧]، هَذِهِ سبْعٌ بالبسملةِ، والصَّحِيحُ أنَّ البسملةَ ليست آيةً مِن الفاتحَةِ ولَا مِنْ غيرِها، فأوَّلُ آياتِ الفاتحة هِي: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فإن قِيلَ: لكنها سبعُ آياتٍ بالِاتِّفاق، فأَيْنَ الآيَةُ السّابِعَةُ؟

قُلْنَا: قوْله تَعالَى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آيتَان، فقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هو الآية السَّادِسة، و﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ هو الآيَةُ السّابعةُ، وفِي المصحَفِ المنتشر بينَ النّاس نجدُ أن البسملةَ مِن الفاتحةِ آيةً، ومِنْ غيرِها ليسَتْ آيةً، ولكِنَّ الصّحِيحَ أنّه لا فرقَ.

---

(١) انظر الكلام على البسملة في (تفسير سورة الفاتحة) لفضيلة الشّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

الآيـة (١)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓمٓ﴾.

• ● ● •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿الٓمٓ﴾ الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ فِي ذَلِكَ] اهـ.

نعم، إذا لم نعلم شيئًا فالواجبُ أن نقولَ: «الله أعلمُ بما أرادَ»، وَهَذا قدْ قِيل أنّه نِصْفُ العلْمِ[1]؛ لأَنَّ الإنسان إمَّا عالمٌ وإمّا جَاهِلٌ، فإِذَا قَال فِيما يعْلَمُ بما عَلِم وفيما يجْهَل: «الله أعلم» صارَ نِصْف العلْمِ، ولَا شَكَّ أنَّ قولَ الإنسان: «الله أَعْلَمُ» فيما لم يعلَمْه هُو الواجِبُ، فَلا تقُلْ: إذا قلْتُ: «لا أَدْري» نقَص قدْرِي عندَ النّاسِ، فإنَّ قدْرَكَ عِند النّاس لنْ ينْقُص بل سيزْدَاد عنْدَهم، فكَما أنَّه لا ينْقُص عنْدَ الله فإِنَّهُ لَا ينْقُص عنْدَ النّاس؛ لأَنَّ النّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول: «مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إلا رَفَعَهُ الله»[2]، وَهَذا مِن بَاب التّواضُع للهِ أَنَّك تقُولُ فِيما لا تعلَمُ: «لا أعلم»، وهُوَ نظِيرُ العفْوِ لا يَزِيدُ الإنسان إلا عِزًّا، ونَظِيرُ الصّدقَةِ لا ينْقُص بِها المالُ[3]، فكَذَلِك قولُ: «لا أدري» لا ينْقُص بِه قدْرُ الإنسان في العِلْم، بَلْ يزْدَادُ لأَنَّ النّاس إِذا رَأَوْا هَذا

---

(١) أخرجه الدّارمي (١/ ٦٣) والفقيه المتفقه (٢/ ٣٦٩) عن الشّعبي في قولة: (لا أدري).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨)، ونصه: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ الله عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لله إِلَّا رَفَعَهُ الله».

الرّجُلَ محترِزًا يقُولُ فِيما يعْلَمُ ويتوقَّفُ عمَّا لا يَعْلَمُ وثِقُوا بِه، وعرَفُوا أنَّه لا يتكلَّمُ إلا بما عَلِم.

فقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الله أعلم بمراده بذلك]، هَذا هُو الوَاجِبُ عَلَى كلِّ إِنْسَانٍ لا يَدْرِي مَا أرادَ الله.

ولَكِنْ إِذا رجعْنَا إِلَى قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزّخرف:٣]، عَلِمْنا أنَّ هَذا القرآنَ بمُقْتَضى اللُّغَةِ العرَبيَّةِ، وأنَّه لا تُوجَدُ فِيهِ كلِمَةٌ إلا وَهِي معْقُولَةٌ، وإلّا لَكانَ الله أَنْزَلَ شيْئًا لا نَعْرِفُ معْنَاهُ، فإِذَا طبَّقْنا هَذِهِ الحرُوفَ الهجَائِيَّةَ عَلَى هَذِهِ القاعِدَةِ، والقاعِدَةُ هِي قوْله تَعالَى: ﴿جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وجَدْنا أنَّ مَثل هَذا التّرْكيبِ في اللُّغَةِ العربِيَّةِ ﴿الٓمٓ﴾ لَيْس له معْنًى فيها، إِنَّما هِيَ مجمُوعَةُ حُروفٍ هجَائِيَّةٍ: (ألف، ولَامٌ، ومِيمٌ)؛ وَلهِذا أنْتَ لا تنْطِقُ بِها فتقُول: (ألم)، بَلْ تقُول: (ألف، لام، ميم).

إِذَنْ: فهِيَ بمقْتَضى اللِّسَانِ العربِيِّ الَّذي نزَل بِهِ القرآنُ لِنَعْقِلَهُ لَيْسَ لها معْنًى، وإِنَّما هِي حُروفٌ هِجائِيَّةٌ ليْس لها معْنًى في ذاتِها، وحِينَئِذٍ نكونُ قَدْ علِمْنا.

لَكِن مَا مُرَادُ الله بِها؟

ذَكَر شيْخُ الإسْلام وكَثِيرٌ مِنْ أهْلِ العلْمِ أنَّ الغرضَ منْهَا بيان أنَّ القرآنَ مُعجِزٌ معَ كونِه مِنْ هَذِهِ الحرُوفِ الهجَائِيَّة التّي يتكَلَّمُ النّاسُ بِها، فَلَمْ يَأْتِ بحُروفٍ غريبةٍ جديدةٍ حتَّى نقُولَ أنَّه أعْجزَ النّاسَ لأنَّهُ أَتى بحُروفٍ لا يفْهَمُونَها وَلا ينْطِقُونَ بِها، بلْ هِي حُروفٌ يترَكَّبُ منْهَا كلامُهُمْ.

إِذَنْ: فالإِعْجازُ ليس مِنْ حيْثُ الحُروفُ، يعني ليسَ أنَّه أَتى بحرُوفٍ جديدةٍ،

بَلْ مِن حيْثُ التّركِيبُ والسّيَاقُ والمعَانِي الجليلَةُ النّافِعَةُ، وَهَذا الّذي ذَهَب إِلَيْهِ شَيْخُ الإسْلام لَا شَكَّ أنّه قَوِيٌّ وأنَّ هَذِهِ الحروفَ الهجَائِيَّةَ فِي حدِّ ذاتِها ليْسَ لَها معْنًى، لَكِنْ لها مغْزًى ومُرَادٌ، وهُوَ أنَّ هَذا القرآنَ الّذي أعْجزَ كُلَّ الخلْقِ لمْ يأْتِ بجَدِيدٍ في الحرُوفِ، وَإِنّما هُوَ مِنَ الحرُوفِ التّي يتكلّمُونَ بِهَا.

وَذَهبَ بعْضُ المعَاصِرينَ إِلَى أنَّ هَذِهِ الحروفَ كالمِفتَاح لِلسُّورَةِ التّي هِيَ فِيها بمَعْنَى أنّكَ إِذا وجَدْت (لَام، وَمِيم) مُصَدَّرًا بِها سُورَةٌ مِنَ القرآنِ فَما ذَاكَ إلا لِكَثْرَةِ (الّلامِ والميم) فِيها، فتكُونُ كَالمِفتَاح لها، وَكَذلِكَ إِذَا وجدْتَ (نون) فهُوَ لكَثْرَةِ النّونِ فِيها، وَإِذا وَجدتَ فِيها (اللّام، والرّاء) فَهِي لكَثْرَةِ اللّامِ والرّاءِ، لكِنَّ هَذا مُنْتَقِضٌ، وَإِلّا لَو اطّردَ هَذا لَكانَ أيضًا لَهُ وَجْهٌ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: نحْنُ نعْلَمُ بمقْتَضَى كَوْنِ القرآنِ بِاللِّسانِ العرَبِيِّ لنَعْقِلَه أنَّ هَذِهِ الحرُوفَ الهجَائِيَّةَ فِي حدِّ ذاتِها ليْسَ لها معْنًى.

الآيــة (٢)

• • ● • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم:٢].

• • ● • •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، وَهُمْ أَهْل الكتَاب، غَلَبَتْهَا فَارِسُ وَلَيْسُوا أَهْلَ كِتَابٍ، بَلْ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ، فَفَرِحَ كُفَّار مكَّة بِذَلِكَ، وَقَالُوا لِلْمُسْلِمِينَ: نَحْنُ نَغْلِبكُمْ كَمَا غَلَبَتْ فَارِس الرّومَ] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿غُلِبَتِ﴾: فعلٌ مبني للمجهول، و﴿ٱلرُّومُ﴾ نائبُ فاعِلٍ، وأنَّثها فقال: ﴿غُلِبَتِ﴾، لم يقل غُلِب الرّوم معَ أن الَّذي يحارِبهم هُمُ الرّجالُ، لكِنَّهُ أنَّثها باعتبارِ القبيلَةِ، والَّذي غَلَبَها الفرْسُ، والحكْمَةُ -واللهُ أعْلَمُ- في حَذْفِ الفاعِلِ لِسَبَبَيْنِ:

السَّببُ الأوَّلُ: لِيَكُونَ ذَلِك أعْظَمَ إِهَانَةً للفُرْسِ، وَأنَّهُمْ لَيْسُوا أَهْلًا لِلذِّكْرِ.

السَّببُ الثَّانِي: لِيَكُونَ هَذا أخْفَى بِالنِّسْبَةِ لِذُلِّ الرّوم وخِذْلانِها، أَيْ: تَهْوينًا للأَمْرِ عَلَى الرّومِ؛ لأَنَّهُ إذا قِيلَ لَلإنْسَانِ: أنْتَ غُلِبْتَ، أَهْونُ مِن أَنْ يُقالَ لَه: غَلَبَكَ فُلانٌ؛ فإِنَّهُ إذا قِيل لَهُ: غَلَبَك فُلانٌ صارَ معْنَاه أنَّه ذَلِيلٌ لهذَا الرَّجُلِ المذْكُورِ.

وقـوْلهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلرُّومُ﴾ هُمْ أهْـلُ الكتَابِ]: ولـوْ قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أهـلُ كتابٍ) لكَانَ أحْسَـنَ؛ لأَنَّ الرّوم نَصارَى، وأَهْـلُ الكتَابِ يَشْمَلُ اليَهُود والنّصارَى.

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [غَلَبَتْهَا فارسُ، وَلَيْسُوا أَهْلَ كِتَابٍ، بَلْ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ]، لأنَّهم مجوسٌ يعبدونَ النّارَ، [فَفَرِحَ كُفَّارُ مكَّة بِذَلِكَ، وَقَالُوا لِلْمُسْلِمِينَ: نَحْنُ نَغْلِبُكُمْ كَمَا غَلَبَتْ فارسُ الرّومَ]، يعني أنَّ كُفَّارَ مكَّة تفاءَلُوا بِهَذا الشَّيْءِ، وقَالُوا: إِذا كان الرّوم أهلَ كتابٍ وغلبَتْهم الفرْسُ وهُمْ أهْلُ أوْثَانٍ فهَذا مِفتَاح نصْرٍ لَنا أَنْ نغْلِبَ المسْلِمِينَ الَّذِين هُمْ أهْلُ كِتَابٍ ونَحْنُ أَهْلُ أوْثَانٍ.

• ● ۞ ● •

الآيـة (٣)

• • ❖ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الرّوم:٣].

• • ❖ • •

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾: أَيْ أَقْرَبَ أَرْضِ الرّوم إِلَى فَارِسٍ بِالجزِيرَةِ التَّقَى فِيهَا الجيْشَانِ، وَالبادِي بِالغزْوِ الفرْسُ، ﴿وَهُم﴾ أَيْ الرّوم، ﴿مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ أُضِيفَ المصْدَرُ إِلَى المفْعُولِ، أَيْ غَلَبَة فَارِسٍ إِيَّاهُمْ ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ فَارِسَ] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ قِيلَ: المعْنَى أقربَ الأرْض إِلَى فارسَ، وأنَّ فارِسَ اعتدَوْا عَلَى الرّوم، فحَصل القتَالُ بيْنَهُما، وقِيلَ: إِنَّ معْنَى قوْله تعالَى: ﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ أيْ فِي أقْرَبِها إِلَى أَرْض العرَبِ، وَهَذا يرْجعُ إِلَى التّاريخِ الَّذي يُحدِّد موقعَ هَذِهِ المعْرَكَةِ حتَّى نعرِفَ أدْنَى الأرْض، إِنَّما لا شَكَّ أنَّ (أدْنَى) بمعْنَى أقْرب.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَهُم﴾ أي الرّوم ﴿مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ أضيف المصدر إِلَى المفعول أي غلبة فارس إياهم ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ فارس]، انظر تأكيدَ هَذا الوعدِ، حيْثُ صُدِّر بالاسْمِ ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ﴾؛ لأَنَّهُ إذا صُدِّر بالاسْمِ صارَ جمْلَةً اسْمِيَّةً دالَّةً عَلَى الدّوامِ والثّبوتِ، وأكَّد مِنْ وَجْهٍ آخر بقُرْبه حيْثُ كانَ الخبَرُ مقرونًا بالسّين الدّالَّةِ عَلَى القرْب، ثمَّ أكَّدَه أيضًا بمؤكّد ثالِث وهُوَ قولُه: ﴿مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾؛

لِتحقُّق الغلَبَـةِ، وأنَّ هَذا أَمْـرٌ لا بُدَّ أنْ يقَعَ وَلَوْ كَانُوا مغلُوبِينَ؛ لأَنَّهُ لو حُـذِف قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ فقال: (وهم سيغلبون) لقِيلَ: سَيَغْلِبُون، ولَوْ غُلِبُوا: لقَال البعْضُ: إِذَا كَانُوا قَدْ غُلِبوا فإنَّهُم لا يَغْلِبُون، فلَمَّا قَال: ﴿مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ صارَ فِي ذَلِك تأكِيدٌ للْغلَبَةِ، فصارَ تأكِيدُ غَلَبَةِ هَؤُلاءِ مِنْ وُجوهٍ ثلاثَةٍ.

• ● ۞ ● •

الآيتان (٤، ٥)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم:٤-٥].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ هُوَ مَا بَيْن الثّلاث إِلَى التّسْع أَوْ العشر فَالتقى الجيْشَانِ فِي السّنَة السّابِعَة مِنْ الالتقاء الأَوّل وَغَلَبَتْ الرّوم فَارِس ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾ أَيْ مِنْ قَبْل غَلْب الرّوم وَمِنْ بَعْده المعْنَى أَنَّ غَلَبَة فَارِس أَوّلًا وَغَلَبَة الرّوم ثَانِيًا بِأَمْرِ الله أَيْ إِرَادَته ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أَيْ يوم تغلب الرّوم ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ إِيَّاهُمْ عَلَى فَارِس وَقَدْ فَرِحُوا بِذَلِكَ وَعَلِمُوا بِهِ يَوْم وُقُوعه أَيْ يَوْم بَدْر بِنُزُولِ جِبْرِيل بِذَلِكَ مَعَ فَرَحهم بِنَصْرِهِمْ عَلَى المشْرِكِينَ فِيهِ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿الرَّحِيمُ﴾ بِالمؤْمِنِينَ] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ متعلِّقٌ بقوْله تعالَى: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ أي في خِلالِ هَذا البضع، والبضْعُ هُوَ مَا بَيْن الثّلاثِ إِلَى التّسْعِ، أَوْ مَا بَيْن الثّلاثِ إِلَى العشْر، يَعْني إِمّا خمْسُ سنَواتٍ وإمّا سِتّ سنواتٍ هَذا البضْعُ، فَإِذا قُلْنا إِنّه مَا بَيْن الثّلاثِ إِلَى العشْر، فهي: (أَرْبعٌ وخمْسٌ وسِتٌّ وسَبْعٌ وثَمانٍ وتِسْعٌ)، فَهَذِه سِتٌّ، وإِذَا قُلنَا إِنّه مَا بَيْنَ الثّلاثِ إِلَى التّسْعِ يكونُ: (أَرْبَعٌ وخمْسٌ وسِتٌّ وسَبْعٌ وثَمانٍ)،

فهذِهِ خَمْسُ سنَواتٍ، يَعْني الثّلاثُ غيْرُ داخِلَةٍ، لأَنَّ مَا بَيْن الشّيءِ والشّيْءِ لَا يدْخُلُ فِيه الجانِبَانِ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فالتقى الجيْشَانِ فِي السّنَةِ السّابِعَةِ مِن الالتقَاء الأوّل وغَلَبَتِ الرّوم فَارِس]: يعْنِي حصَل بَيْنَهُما حَرْبٌ أُخْرَى فغَلَبَتِ الرّوم فارِسَ، فصَدَق بذَلِك خَبَرُ الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بأنَّهُمْ سيَغْلِبُونَ فِي بِضْع سِنِينَ؛ لأَنَّ الأمْر لم يتَجَاوَزْ سبْعَ سَنَواتٍ حتَّى كانَتِ الغلبَةُ لِلرُّومِ عَلَى الفرْسِ، فَصدَقَ الله وَعْدَهُ.

قوْله تَعالَى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ المعْنَى أنَّ الغلَبَةَ تتِمُّ فِي خِلَالِ بِضْع سِنِينَ، ولَيْس المعْنَى أنّ الغلبَةَ تحْصُل بعْدَ سَبْع سَنَوَاتٍ.

قوْله تَعالَى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾: هَـذِهِ الجملة اسميَّـةٌ قُـدِّم فِيها الخبَرُ لإفَـادَةِ الاخْتِصَاصِ للهِ وحْدَه، و(أل) هُنَا للاسْتِغْرَاقِ، يَعْني كُلَّ الأمْرِ، أيْ لاسْتِغرَاق الجنْس، و(أل) التي للاسْتِغْراقِ هِي التي يحِلُّ محلَّها (كُلّ) فَإِنْ كانَتْ لاسْتِغْراقِ المعْنَى فَهِي لاسْتِغْراقِ المعْنَى، وإِنْ كَانَت لاسْتِغْراقِ الأفْرادِ فَهِي لاسْتِغْراقِ الجِنْس، فَفِي قوْلِه تَعالَى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النّساء:٢٨]، (أل) لاسْتِغراق الجِنْس؛ لأَنَّهُ يَصِحُّ أنْ يَحِلَّ محلَّها (كُلُّ)، فيُقَالُ: وَخُلِق كُلُّ إِنْسَانٍ ضَعيفًا، وَفِي قوْلِه تعالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:١-٢]، هَذِهِ أيضًا لاسْتِغْراقِ الجِنْس، أيْ كُلُّ إنسانٍ، وإِنْ كانَت لاسْتِغْراقِ المعْنَى فَهِي لاسْتِغْراقِ المعْنَى، ومثَّلوا لِذَلِكَ بقَوْلِهِم: (زَيْدٌ نِعْم الرّجُلُ)، أَي: نِعْم الشّخْصُ الجامِعُ لِصِفَات الرّجُولَةِ.

وَهِلِ المَرادُ بالأمْر هُنا الأمْرُ الكوْنِيُّ أو الأمْرُ الشّرْعِيُّ؟

والجوابُ: الأمْرُ الكوْنِيُّ، أَي أنَّ جَمِيعَ الأمورِ تَرْجِـعُ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ، المتعَلِّقة

بأفْعَالِ العبادِ والمتعلِّقَة بأفعَالِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإِنَّها راجِعَةٌ إلَيْهِ، والأمْرُ الإلهيُّ ينْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: أَمْرٌ كَوْنِيٌّ وأَمْرٌ شَرْعِيٌّ.

مِثالُ الأمْرِ الكوْنِيِّ: قوْلُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

ومِثالُ الأمْرِ الشّرْعِيِّ: قوْلُه تعالَى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾، أي عَنْ أَمْرِه الشّرْعِيِّ، ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النّور:٦٣]، ومِثْلُ قوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ﴾ [النّساء:٥٨]، هَذا أَمْرٌ شَرْعِيٌّ.

وعَلَيْهِ فإنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسْراء:١٦]، مِنَ الأمْرِ الكوْنِيِّ، وهَذا هُوَ المتعَيِّنُ، فيَأْمُرُهُم الله أمرًا كونيًّا بالفسْقِ فيفْسُقُونَ، وأمَّا مَن قَال: إنَّ المرادَ بِالأمْرِ في الآيَة هُو الأمْر الشّرْعِيُّ وأنَّ الله يأْمُرُهم بالطّاعَةِ فيَفْسُقونَ ثمَّ يأْخُذُهم بِالعذابِ، فَهذا القوْلُ بَاطِلٌ لأنَّهُ يقْتَضِي أنْ يكُونَ المعْنَى أنَّ الله يُرْسِلُ الرّسُلَ فيأْمُرونَ النّاسَ بِطَاعَةِ الله؛ لأَجْلِ أنْ يَفْسُقوا فَيحلَّ بِهم العقابُ، وَهَذا يَرْجِعُ إِلَى أنَّ المعْنَى أنَّ الله بعَثَ الرّسُل نِقْمَةً عَلَى العبَادِ، وهُوَ أَمْرٌ لا يُمْكِنُ، ثمَّ إنَّنا نقُولُ: إنَّ الأمرَ الشّرْعِيَّ لَا يَختَصُّ بالمتْرَفِينَ، بَلْ هُوَ عامٌّ لَهُمْ ولِغَيْرِهِمْ.

المُهِمُّ: أنَّ هَذا القوْلَ ضعيفٌ وبَاطِلٌ ويُنافي حكْمَةَ الله عَزَّوَجَلَّ بإرسالِ الرّسُلِ.

فقوْلُه تَعالَى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ﴾ يُرادُ به الأمرُ الكوْنِيُّ.

وقوْله تَعالَى: ﴿قَبْلُ﴾: ضُمَّتْ مَع أنَّ قبْلَها حَرْفَ الجرِّ ﴿مِن﴾؛ لأَنَّ ﴿قَبْلُ﴾ و﴿بَعْدُ﴾ إِذَا حُذِف المضَافُ إِلَيْهِ ونُوِي مَعْنَاهُ بُنِيا عَلَى الضَّمِّ، هَذا السَّببُ فَإِنْ

وُجِد المضَافُ صَارا مُعْرَبَيْنِ فتقُول: (أَتيتُ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِي زيْدٌ) فتَجُرَّها، وَكَذلِكَ إذا حُذِف المضَافُ إِلَيْهِ ولم يُنْوَ لَا لفظًا ولَا معْنًى، فإنَّها تُعْرَبُ كَقَوْل الشّاعِر[1]:

فَسَاغَ لِي الشّرَابُ وَكُنْتُ قَبْلًا أَكَادُ أَغَصُّ بِالماءِ الفرَاتِ

وَكَذلِكَ إِذَا حُذِف المضَافُ إِلَيْهِ وَنُوِي لفْظُهُ فَإِنَّها تُعرَبُ، لكِنَّها لا تُنَوَّنُ فيُقَالُ مَثَلًا: (كُنْتُ حَرِيصًا عَلَى الدّرْسِ، فأَتَيْتُ مِنْ قَبْلِ)، أَي: مِنْ قَبْلِ ابْتِدَاءِ الدّرْس، فهُنا حُذِف المضَافُ ونُوِي لفْظُهُ، وَالَّذي دلَّنا عَلَى أَنَّه نُوِي لفْظُه أَوْ نُوِي مَعْناهُ الإعْرَاب نفْسُه، فَإذا كَانَتْ مبْنِيَّةً عَلَى الضَّمِّ عَلِمْنا أَنَّه قَدْ حُذِف وَأُرِيد المعْنَى، وَإِذا لَم تَكُنْ كَذَلِكَ عَلِمنا أَنَّهُ قدْ حُذِف وَأُرِيد اللَّفْظُ، فَإِنْ نُوِّنَتْ علِمْنا أَنَّه ما أُرِيد اللَّفْظُ ولَا المعْنَى.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لَو حُذِف المضاف إِلَيْهِ في كلام الله عَزَّوَجَلَّ فهل يصح أن نقول: أَنَّه منوي؟

قُلْنَا: لا، لا نقول ذَلِك، لكن يصِحُّ أن نقولَ: هو المُراد، أي أَنَّ الله أراد بالنّسبة للمضاف إِلَيْهِ؛ لأَنَّ الإرادَة في جنابِ الله عَزَّوَجَلَّ بمعنى النّية للخَلْق.

(١) اخْتُلِفَ في نسبة البيت، كما اخْتُلِفَ في عجزه. فنسبه العيني في المقاصد النّحوية (٣/ ٤٣٥)، إلى عبد الله بن يعرب، وعجزه: (أكاد أغص بالماء الحميم). ووافقه في النّسبة والعجز: الجرجاوي في شرح شواهد ابن عقيل (ص:١٦٦)، والعدوي في فتح الجليل (ص:١٦٦). ووافقه في النّسبة دون العجز: الشّنقيطي في الدّرر اللوامع (٣/ ١١٢)، وعجزه: (أكاد أغص بالماء الفرات)، وابن حمدون في حاشيته على شرح المكودي (١/ ٣٤٥)، وعجزه: (أكاد أغص بالماء الزّلال). ونسبه البغدادي في خزانة الأدب (١/ ٢٠٤) ليزيد بن الصّعق، وعجزه: (أغص بنقطة الماء الحميم). والرّواية المحفوظة: (الحميم)، ولكن رواية: (الفرات) هي المشهورة، كما قال ابن يعيش في شرح المفصل (٤/ ٨٨)، وهي الّتي رجحها العيني، والجرجاوي، والعدوي. ويرى ابن حمدون أن رواية: (بالماء الزّلال) مناسبة لمعناها.

قوْلهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ [بِأَمْرِ الله إرادته]: هَذا في الحقيقةِ تحرِيفٌ، بَلِ الصّوابُ أنَّه (بأمرِه)، أيْ بقوْلِه، قَال تَعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فإنَّ الله تَعالَى لَا يُقَدِّر شَيْئًا إلا بالقوْلِ، و﴿شَيْـًٔا﴾ نكِرَةٌ في سِيَاق الشّرطِ فتعُمُّ كُلَّ شَيْءٍ أَرادَهُ الله، فإنما ﴿يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، فالصّوابُ أنَّ المرادَ بالأمْرِ هُنا هُو القوْلُ.

وَالإرَادَةُ ليْسَت هِيَ القوْلُ فإِنَّ الإرَادَةَ صِفَةٌ لا تسْتَلْزم القوْلَ إِذْ إِنَّ المرِيدَ قَدْ يفْعَلُ مَا أَرادَ، أَوْ قَدْ يقُولُهُ، وأمَّا القوْلُ فإِنَّهُ أخصُّ مِنَ الإرَادَةِ، كُلُّ قَوْلٍ فهُوَ متضَمِّنٌ لِلإرَادَةِ، وليْسَت كُلُّ إرادَةٍ متضمِّنَةً للقَوْلِ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ﴾: (يومَ) ظرفٌ متعلِّقٌ بـ(يفرح)، وهِي مُضافَةٌ إِلَى (إِذْ)، ونُوِّنَت (إِذْ) تنوِينَ عِوَضٍ عَن جُمْلَةٍ؛ وَلِهَذا قَال: (أَيْ يَوْمَ تَغْلِبُ الرّومُ) فالمحْذُوفُ جُمْلَةٌ، وَالفرَحُ لا يُمكن لِلإِنْسَانِ أن يُعبِّر عنْهُ، لذا قد نقول: الفرح خِفَّةُ النّفْسِ وسُرُورُ النّفسِ، أَوْ نَقُولُ: الفرَحُ معْلُومٌ؛ وَلِهَذا نَجِدُ صاحِبَ القامُوسِ إذا عرَّف مثْلَ هَذِهِ الأشْياء قَال: (م)[1]، يعْنِي أنَّه مَعْرُوفٌ وَلا حاجَةَ لأنْ يُبيَّن.

وقوْله تَعالَى: ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: المرادُ بِهِم النَّبيّ ﷺ وأصحَابُهُ.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾: متعلِّقٌ بـ(يفْرَحُ) وهُو مصْدَرٌ مُضَافٌ إِلَى فاعِلِه، أمَّا مفعولُه فمَحْذوفٌ، وتقْدِيرُه (بِنَصْر الله الرّوم عَلَى الفرْسِ)؛ وَلِهَذا قَال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِنَصْرِ الله إِيَّاهُمْ عَلَى فَارِسَ]، والنّصْر معْناهُ العوْنُ والظّهورُ، أَيْ أنَّ الله يُعِينُهُم حتَّى يَظْهَرُوا عَلَى أعْدَائِهم.

---

(١) هو الفيروزآبادي في القاموس المحيط، ومن ذلك قوله في (ص:٣٧): «الحدَأَةُ، كَعِنَبَةٍ: طَائِرٌ م، ج: حِدَأٌ وحِدَاءٌ وحِدْآنٌ بالكسْرِ».

وسُمِّي ذَلِك نَصْرًا مَع أنَّه لِكُفَّارٍ عَلَى كُفَّارٍ لأنَّ النَّصر هُو العوْنُ والظّهُورُ، وهُوَ لا فَرْق بَيْن أنْ يكُونَ بَيْن مُؤْمِنٍ وكَافِرٍ، أَوْ بَيْن كافِرٍ وكافِرٍ، ثمَّ إنَّ أهْلَ الكتَابِ أقْرَبُ مِن الفرْسِ؛ وَلِهَذا لَهُمْ أحْكَامٌ خاصَّةٌ تُقرِّبُهم مِنَ المسْلِمِينَ.

قولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَرِحُوا بِذَلِكَ وعلِمُوا بِهِ يَوْمَ وُقوعِهِ يَوْمَ بَدْرٍ بِنُزولِ جِبْرِيلَ بِذَلِكَ مَع فَرَحِهم بِنَصْرِهِمْ عَلَى المشْرِكِينَ فِيهِ]، يعْنِي أنَّ الواقِعَة حصلَتْ بَيْن فارِسَ والرّومِ في الزّمَن الَّذي حَصلَتْ فِيه الواقِعَةُ بيْنَ الكفَّار وَالمؤْمِنِينَ، وَذَلِكَ في بَدْرٍ، وَعَلى هَذا فتكُونُ هَذِهِ الآيَة نَازِلَةً قبْلَ الهجْرَةِ بخَمْسِ سَنواتٍ؛ لأَنَّهُ إذا كانَتِ المدَّةُ التي حصَلتْ فِيها الغلَبَة سبْعَ سنَواتٍ، وبَدْرٌ كانَتْ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لَزِم أنْ يكُونَ نُزولُ الآيَة وغَلَبَةُ فَارِسَ لِلرُّومِ قبْلَ الهجْرَةِ بخَمْسِ سَنَوَاتٍ.

وقولُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [مَع فَرَحِهِمْ بِنَصْرِهِمْ عَلَى المشْرِكِينَ فِيهِ]، فيَكُونُ فِي هَذا الزّمَنِ اجْتَمعَ نصْرُ أهْلِ الكتابِ عَلَى المجُوسِ ونَصْرُ المسْلمِينَ عَلَى المشْرِكِينَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل قولُ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ عليْه دَليلٌ نقْلِيٌّ؟

فالظّاهِرُ أنّه تابعٌ للتَّارِيخِ فقَطْ، أمَّا عَنِ الرّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَلا يُوجَدُ دَلِيلٌ، لكنَّ التّارِيخ يقُولُ هَذا.

قوْله تَعالَى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾: هَذِهِ عامّةٌ تعُمُّ كلَّ منْصُورٍ، سواءٌ كانَ المنْصُورُ كافِرًا أوْ مؤمِنًا؛ لأَنَّ الأمْرَ بيَدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكُلُّ شيْءٍ مقيَّدٌ بالمشِيئَةِ فإنَّهُ يتضَمَّنُ الحكْمَةَ؛ لأنَّ الله تَعالَى لا يَشَاءُ شيْئًا إلا لِحِكْمَةٍ، فينْصُرُ مَنْ يشَاءُ نصْره لحكْمَةٍ اقتَضتْ ذلِكَ.

قوْله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب]: هَذا أحَدُ مَعانِي العزَّةِ؛ لأَنَّ العزَّةَ

تنْقَسِمُ إِلَى ثَلاثَة أقْسَامٍ: عِزَّةُ القدْر، وعِزَّةُ القهْر، وعِزَّةُ الامتِنَاعِ.

عِزَّةُ القدْر: بمعْنَى أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عظِيمُ القدْر، وكُلَّما كانَ الشَّيْءُ عظِيمَ القدْرِ كان عزيزًا، أيْ قَلِيلَ الوُجُودِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا مِثْلَ لَهُ، عَظِيمٌ لا نَظِيرَ لَهُ في قدْرِه وعظَمَتِهِ.

وعِزَّةُ القهْر: بمعْنَى الغلَبَةِ والظُّهُورِ، بمعْنَى أنَّه قاهِرٌ وَغَالب لكُلِّ شيْء.

وعِزَّةُ الامتِنَاعِ: معْنَاها امْتِنَاعُ جَمِيع النَّقْصِ علَيْه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أيْ أنَّه يمتَنِعُ عليْه كُلُّ نقْصٍ، ومِنْ هَذا المعْنَى قولُهُم: (أَرْض عَزَازٌ)[1]، أي الصَّلْبَةُ التي يمتَنِعُ أن يُؤثِّر فِيها شيْءٌ.

فالله عَزَّوَجَلَّ متَّصِفٌ بالعزَّةِ مِن جَمِيعِ هَذِهِ الوُجُوهِ الثَّلَاثةِ.

وقوْله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين]: استدلَالٌ بقوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، والصَّوابُ أنَّ رحمَةَ الله تَعالَى تكُونُ عامَّةً وخاصَّةً، فإنَّ كُلَّ مَن في السَّموَات وَالأرْض فهُم في رَحْمَةِ الله العامَّةِ، ولَوْلا هذِه الرَّحْمَةُ العامَّةُ لما بَقِي أحدٌ مِن الكفَّارِ، فكَوْنُ الله يُدِرُّ عليْهِمُ الأرْزَاقَ والعافِيَةَ وَالنَّشاطَ والعقْل ومَا أشْبَه ذَلِك لا شَكَّ أنَّه مِن رحْمَةِ الله، ولكِنَّ الرَّحْمَةَ التي تكُونُ بِها رَحمَةُ الدّنيا والآخرةِ خَاصَّةٌ بالمؤمِنِينَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ كَلامَ الله عَزَّوَجَلَّ بالحروفِ، يَعْني ﴿الٓمٓ﴾ حُرُوفٌ، فَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الأشْعَرِيَّةِ الَّذِين يقُولونَ إِنَّ كَلامَ الله هُو المعْنَى القائِمُ بالنَّفْسِ ولَيْسَ الحرُوفَ،

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس (١٥/ ٢٢٢)، و لسان العرب (٥/ ٣٧٤).

وَأنَّ هَذِهِ الحرُوفَ مخلُوقَةٌ لِتعبِّرَ عَن هَذا المعنى القائِم بنفسِهِ، ثمَّ يقُولونَ أيضًا: إنَّ هَذا المعْنَى القائِمَ بالنَّفسِ لا يتغَيَّرُ ولَا يختَلِفُ، فهُوَ واحِدٌ سوَاءً كانَ اسْتِفْهامًا أوْ خبَرًا أو أمْرًا أو نَهْيًا أو قُرآنًا أوْ زَبُورًا أو تَوْرَاةً أو إِنْجِيلًا، فالتّوْارَةُ هِي الإنْجِيلُ وهِي القرآنُ وهِي الزّبُورُ وهِي صُحُفُ إِبْراهِيمَ وصُحُف مُوسَى، ويقُولونَ أنَّها اخْتَلفَتْ في التّعْبيرِ، فَإِن عبَّرَ عَن هَذا الكلامِ بالعرَبيَّةِ صارَ قُرآنًا، أَو بالعبْرِيَّةِ صَار تَوْرَاةً، أوْ بالسُّرْيانِيَّة صارَ إِنجيلًا، أوْ بلُغَةِ داوُدَ صَار زَبُورًا... وهَكذا، وتصُوُّرُ هَذا غيْرُ ممْكِنٍ، وَهُو معْنًى غيْرُ معقولٍ، ثمَّ يقُولونَ أيضًا: إنَّ الاسْتِفْهام وَالخبْر معناهُما واحِدٌ، فإذا جَاء اسْتِفْهام مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ فهُو كالخبَرِ عنْهُ ومعناهما واحدٌ، وَلا شكَّ أن مجرَّد تصورِ هذَا القولِ كافٍ في رَدِّه وإبْطَاله.

الفائِدَةُ الثّانِيَةُ: إثْبَات عِلْمِ الله بِالغيْبِ؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: إثْبَات رِسالَةِ النّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأَنَّ الإخبارَ عَنِ الغيْبِ لَا يكُونُ إلا بِوحْيٍ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَامِلُ السّلْطانِ والتّدْبيرِ؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أنَّ كُلَّ الأشْياء لَا تكونُ إلا بِأَمْرِ الله؛ لأنَّهُ لما قَالَ: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾، قَال: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾.

إِذَنْ: فكوْنُهُمْ غُلِبوا فبِأَمْرِ الله، وكَذلك انْتِصارُهم بِأمْرِ الله، فكُلُّ الأمُورِ بتَقْديرِ الله تَعالَى وأمْرِه، فكُلُّ الأشْياء بِأَمْرِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: الرّدُّ عَلَى القَدَرِيَّةِ الَّذِين يقُولونَ باسْتِقْلالِ العبْد بفِعْلِه، فَهُم يقُولونَ: إنَّ العبْدَ مسْتَقِلٌّ بفعْلِه ولَيْس للهِ تَعالَى فِيه تقْدِيرٌ ولَا أَمْرٌ ولَا إنْشاءٌ ولَا مَشِيئَةٌ.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: جَوازُ التّعْبيرِ بمَا يُدْخِلُ الخوفَ وَالحزْنَ عَلَى العدُوِّ؛ لأَنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ وهِي مِن ثَلاثَةٍ إِلَى عَشْرٍ، أَو إِلَى تِسْعٍ، معْنَاه أَنَّه سيَبْقَى هَؤُلاءِ الفرْسُ في ذُعْرٍ وخَوْفٍ، كُلَّ سنةٍ تَأْتِي يقُولونَ: هَذِهِ سَنَةُ الغلَبَةِ، ولَا شَكَّ أَنَّ هَذا مما يَزِيدُهم ذُعرًا وخوفًا؛ لأَنَّهُم لَو غُلِبوا في أَوّلِ سنَةٍ انْتَهى الأمْرُ، لكِنَّ كوْنَهُم يتوَعَّدُون بأَمْرٍ لا يُدْرَى في خِلالِ سَبْعِ سِنِينَ لَا شكَّ أَنَّهُ أَشَدُّ علَيْهِم مِنْ أنْ يَأْتِي الأمْرُ ويَنْتَهِي.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: أنَّ مِن البلاغَةِ حذْفَ الفاعِلِ إذْلالًا لَهُ وإِهانَةً؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، فلَمْ يَذْكُر الغالب إذلالًا لَهُم، وَرِفْقًا بِالرّوم.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: جوازُ فَرَحِ المؤْمنِينَ بانْتِصارِ بعْضِ الكفَّار بعضِهم عَلَى بعْضٍ، إذا كَان في ذَلِك مصلَحَةٌ للإِسْلَامِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾، ما انْتَصر مُسلِمُون عَلَى كُفَّار، بَلِ انْتَصر كُفَّار عَلَى كُفَّارٍ، لكنَّ هَذا في مصلحَةِ الإسْلام؛ فلَا بأْسَ أنْ نفْرَح بانْتِصارِ بعضِهم عَلَى بعْضٍ إذا كانَ المنتَصِرُ فِيه نفْعٌ للإِسلامِ، ثمَّ يُساعِدُون المسْلِمينَ بِالمالِ والسّلاحِ، أَوْ عَلَى الأَقَلِّ قدْ كَفَّ شرَّهُ مَع أنَّ الثّانِيَ فيه شرٌّ لكِنَّهُ أَقَلُّ شرًّا مِن هؤُلاءِ.

فعَلى هَذا إذا اقتَتَلَتْ دوْلَتانِ مِنْ دُوَلِ الكفَّار وكانَتْ إِحْداهُما أَقْربَ إِلَى نفْعِ المسْلِمين مِنَ الأخرى، فهلْ فَرَحُنا بانتصارِها جائِزٌ، أم نقولُ: كيفَ نَفْرَح بانْتِصارِ كَافِرٍ عَلَى كَافِرٍ، فهو حرامٌ؟

والجوابُ: هُو جَائِزٌ كما فَرِح المؤْمِنُون بانْتِصار الرّوم عَلَى فارِسَ، مَع أنَّ كِلَيْهما مِن الكفَّار، لكِنَّ هؤُلاءِ أهلُ كِتابٍ، فَهُمْ أقْرَبُ مِن المؤْمنينَ، وأقْرَبُ إِلَى الإسْلام ومُرَاعاةِ المسْلِمينَ مِنَ المجُوسِ.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: جَوازُ تَسْمِيةِ غَلَبَةِ الكفَّار نَصْرًا؛ لقَوْلِه تعالَى: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيفَ تجْمَعُونَ بَيْن هَذِهِ الآيَة وبَيْنَ قوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج:٤٠-٤١]، مَع أنَّ الرّوم لا يتَّصِفُون بِهَذِه الصّفَةِ؟

فالجوابُ: أنَّ النّصر نَوْعانِ:

١- **نَصْرٌ مُطْلَقٌ دائِمٌ**: فَهذَا لا يَكُونُ إلا لمَنْ يَنْصُر الله.

٢- **نَصْرٌ عارِضٌ مؤَقَّتٌ**: فهَذا يَكُونُ لهؤُلاءِ ولِغَيْرِهِمْ.

ونَصْرُ الله لِلرُّومِ عَلَى الفرْسِ ليْسَ نَصْرًا دائمًا، والدّلِيلُ أنّه بعْدَ ذَلِك نَصَرَ الله المؤْمِنِينَ عَلَى الفرْسِ وعَلى الرّومِ، فافْتَتَحُوا ممالك كِسْرَى وممالك قَيْصَرَ، فَلَمْ يَكُن هَذا نصْرًا دائِمًا.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: إثْبَات المشيئَةِ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْلِه تعالَى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾.

الفوائِدُ الثّانِيَةَ عشْرةَ والثالِثَةَ عشْرةَ والرّابِعةَ عشْرَةَ: إثْبَات العزَّةِ لله؛ لقوْله تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، وإثْبَات الرّحمةِ في قوْله تَعالَى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، وإثْبَات كَمالِ عِزّته حيْثُ قُرِنَتْ بالرّحمَةِ؛ فإنّنا ينبَغِي أنْ نعرِفَ أنَّ الأسْماءَ الحسْنَى تدُلّ كُلُّ واحدةٍ منْها

عَلَى كمالٍ بانفِرادِه، ثمَّ باجْتماعِ الاسْمَيْن بعضِهما إِلَى بَعْضٍ يدُلَّان عَلَى كَمالٍ مركَّب، فالعزِيزُ يدُلُّ عَلَى الكمالِ، والرَّحِيمُ يُدُلُّ عَلَى الكمالِ فإذا اجْتَمعَا أُخِذ مِن ذَلِك كمالٌ آخَرُ فوْقَ الكمالِ الَّذي يتضمَّنُه كُلُّ اسْمٍ عَلَى انفرَادِهِ، وهُو أنْ تَكُونَ عِزَّتُه مقرونَةً بالرَّحْمَةِ؛ لأنَّ عِزَّةَ غيرِه قَدْ تكُونُ خاليَةً مِنَ الرَّحْمَةِ، فإذا صار عزِيزًا أخذ الَّذي هُو ظاهِرٌ علَيْه أخْذَ عزِيزٍ مُقتَدِرٍ ولم يرْحَمْه، بِخَلافِ عِزَّة الله فَهِي مقرونَةٌ بالرَّحْمَةِ، وهِيَ أيضًا مقرونَةٌ بالحكْمَةِ.

مثالُ ذَلِك: لَوْ أنَّ رجُلًا غلَب عَلَى قوْمٍ وصَار عزِيزًا وهُمْ أَذِلَّاءُ فإنَّ هَذا الرَّجُلَ قدْ تأخُذُه العزَّةُ بالإثْمِ، فيَبْطِشُ بِهم ولَا يرحَمُهُم، لكِنَّ عِزَّةَ الله عَزَّوَجَلَّ ليْسَتْ كَذَلِكَ، بِل أنَّها مقرونَةٌ بالرَّحْمَةِ كَما أنَّها مقرونَةٌ بالحكْمَةِ؛ وَلِهَذا دائِمًا يَقْرِنُ الله العزَّةَ بالحكْمَةِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كلُّ اسْمٍ مِنْ أَسْماءِ الله عَزَّوَجَلَّ يتضمَّنُ صِفةً، فهَلْ كُلُّ صِفَةٍ يُشتَقُّ منْهَا اسْمٌ؟

فالجوابُ: لَا يجُوزُ، فمثلًا المشِيئَةُ لَا نقُولُ إنَّ مِن أسْماءِ الله: (الشَّائي)، أَو المرِيد أو المتكَلِّم، فلَا نقُولُ أنَّ هَذه من أسْماءِ الله، فالصِّفَاتُ أوْسَعُ بِلا شَكٍّ، فيُخْبَرَ عَنِ الله بأشْياءَ ولَا يُسَمَّى بِها، ولكِنْ لَا يُخْبَرُ عنْهُ بصِفَةٍ إلا حيْثُ ورَدَتْ، فلَيْس كُلُّ صِفةٍ يجُوزُ أن يُخْبَر بِها عَنِ الله، فَلا يجُوزُ أنْ نُسمِّيَ الله مَثَلا بالحزِين، ولا نُسمِّيه بالعاشِقِ، ولا نُسمِّيه بالهمَّام، ومَا أشْبَه ذَلِك، فالصِّفَاتُ تكُون توقِيفِيَّةً، لا نَخْتَرِعُ مِن أنفُسِنا صِفَةً لَه، لكِنَّ الصِّفاتِ أوْسَعُ مِن الأسْماءِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل (المنْعِم) مِنْ أسماءِ الله عَزَّوَجَلَّ؟

قُلْنَا: لَيْسَ مِن أَسْمَاءِ الله، لكنَّ الله جَلَّوَعَلَا يُنْعِـمُ، فَهِي صِـفَةٌ، قَال الله تَعالَى: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١]، ولا تَكُونُ نِعْمَةٌ بِدُون مُنْعِمٍ، وَكَذلِكَ قَوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧]، يُؤْخَذُ منْهَا (المنْعِم).

أمَّا (المحْسِنُ) فورَدَ أنَّه مِن أسْمَاءِ الله عَزَّوَجَلَّ في قَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ الله مُحْسِنٌ، كَتَبَ الإحسَان عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القتْلَةَ»[1]، وَبِهذَا يَزُولُ الإشْكال الَّذي يَرِدُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، في التَّسْمِيَةِ بـ(عَبْد المحْسِنِ).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَل يجُوز التسمِّي بعبْدِ المنْعِم؟

قُلْنَا: إنْ ثَبَت أنَّه مِن أسْمَاءِ الله عَزَّوَجَلَّ، وإلا فَقَدْ يقُولُ قَائِلٌ: إنَّه يجُوزُ؛ لأنَّ المنْعِم عَلَى الإطْلَاقِ هُوَ الله عَزَّوَجَلَّ، وكُلُّ إِنْسَانٍ لَهُ نعْمَةٌ فهِي مقيَّدَةٌ، وإلا فقَوْلُنا: (أنْعمْتَ علَيْـهِ) تكُونُ حتَّـى للإنْسَانِ، قَال تَعالَى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٣٧].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ابْنُ حزمٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ بجوازِ التَّسمِيَةِ بـ(عبْدِ المطَّلبِ)[2]؟

قُلْنَا: هَذا غلطٌ مِنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والتَّسمِيَةُ بِهِ لَيْسَتْ سلِيمَةً.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَل يجُوز التَّسمِّي بـ(حَمِيد) و(مُحْسِن)؟

قُلْنَا: هَذا لَيْس بالأحْسَنِ، لكِنْ إذا لم تُقْصَد الصِّفةُ فَلا بَأْسَ، فقَدْ وردَتِ التَّسمِيَةُ بِـ(حَكِيم) في عهْدِ الرّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولم يُغَيِّرْه، معَ أنَّ الحكِيمَ مِنْ أسْمَاءِ الله؛ لأنَّهُ ما أُرِيد بِه الصِّفَة، فأسْمَاء الله عَزَّوَجَلَّ يُرادُ بِها إثْبَات الصِّفَة مَع الاسْمِ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصّيد والذّبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذّبح والقتل وتحديد الشّفرة، رقم (١٩٥٥).

(٢) مراتب الإجماع (ص:١٥٤).

وَقَدْ يُسمي أحدُهـم وَلده بـ(حكيم) وهُوَ مِن أسْـفَهِ النّاس، وَكَذلِكَ قدْ يُسـمِّيه بـ(مُحسن) وهُوَ مِن أشَدِّ النّاس جَوْرًا فضْلًا عَن الإحسَان، أمَّا (عبْدُ الحكِيم) فيَجُوزُ، ولَيْس فِيه شَيْءٌ، وَكَذلِكَ (عَبْد الحمِيدِ)؛ لأَنَّ الحمِيدَ مِنْ أسْماءِ الله عَزَّوَجَلَّ، قَال تَعالَى: ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوْله تَعالَى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ إِلَى آخِره، هَل نقِفُ عَلَى الآيَات ولو تعَلَّق بِها ما بَعْدَها، أو نَصِلُ ونُرَاعِي المعْنَى؟

قُلْنَا: فِي هَذا قَوْلانِ لأَهْلِ العلْمِ:

فمِنْهم مَن يَرَى أنْ نَقِف عَلَى الآيَات، ويَقُولُ هَذا هُوَ الوَارِدُ عَنِ النّبيِّ ﷺ، أَنّهُ كَان يقْرَأُ القرآنَ آيَةً آيَةً[1]، والدّليلُ عَلَى ذَلِك أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ جعلَها آيَةً فتقِفُ علَيْها ولَوْ تعلَّقَ بِها مَا بعْدَها، وَهَذا كثِيرٌ فِي القرآنِ، كَما فِي قوْله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون:٤]، هَذِهِ آيَةٌ فيَجوُز أنْ نقِفَ، وقوْلُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢١٩ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [البقرة:٢١٩]، فيَجُـوزُ أنْ نَقِـفَ عَلى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾، وقوْلُه تَعالَى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ آيَةٌ، وقوْلُه تَعالَى: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ.

وبعْضُ أهلِ العلْم يَرى أنْ تراعِي المعْنَى فتقِفَ عنْدَ انتِهاءِ المعْنَى، ولَا تفصِلَ الآيَة عَنْ آيَةٍ تتعلَّقُ بِها.

وَلو قِيل بالتَّفْصِيل، فَإذا كانَ يَسْرِدُ وهُوَ يقْـرَأُ فإنَّهُ يَقِفُ عَلَى كُلِّ آيَةٍ؛ لأَنَّ الكلامَ لَنْ ينْقَطِع بَلْ سيتَّصِل ويتَّضِحُ المعْنَى، وَإذا كنْتَ تُريد أنْ تتكلَّم عَلَى معَانِي

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الحروف والقراءات، رقم (٤٠٠١).

الآيَات فإنَّك تُراعِي المعْنَى، لكَانَ لَهُ وجْهٌ، لكنْ لَا أعْلَمُ هَلْ قالَ بِذَلك أحدٌ مِن أهلِ العلْمِ، إنّما القولُ بِه عَلَى حسَبِ قواعَدِ أهْلِ العلْم لَا بأْسَ بِه؛ لأَنَّ إِحْدَاثَ قولٍ ثالِث يتكوَّنُ مِن القوْلَيْنِ قبْلَه لَا بَأْسَ بِهِ.

وهَذِه مسـألَةٌ محلُّ بحثِها أصولُ الفقـهِ، وهِي هَلْ يَجُوزُ إِذا أجْمَع العلَماء عَلَى قوْلَيْنِ إِحْداثُ قولٍ ثالِث؟

والصّوابُ: أنَّه إِذا كانَ القولُ الثالِث لا يَخْرُجُ عنْهُما فَغايَةُ مَا هُنالك أَنَّه يُفَصَّل فِيه، فهُوَ جائِزٌ لأَنَّهُ لا يَكُونُ قدْ خرَج عنِ الخلَافِ، أمَّا إذا كَانَ يَخْرُجُ عنْهُما فَلا يَجُوزُ.

فإِذَا قُلْنا بالتَّفْصيل هُنا مَا خرَج عنِ القوْلَيْنِ، لكِنَّهُ يقَفِ في شيْءٍ، ولَا يقِفُ في شيْءٍ آخَرَ، ومِثْلُ هذَا الوِتْرُ، فمِنَ العلَماء مَنْ قَال بأنَّ الوترَ واجِبٌ، وقالَ آخرُونَ: إنَّ الوِتْرَ ليْسَ بواجِبٍ، فإِذا قُلْنا إنَّه واجِبٌ عَلَى مَن كَان كَذا، وغيرُ واجبٍ عَلَى مَن كَان كَذا، كَما اخْتَار شيخُ الإسْلام أنَّه واجِبٌ عَلَى مَن لَهُ وِرْدٌ مِن الليلِ يقُومُ بِهِ، وغَيْرُ واجِبٍ عَلَى مَن سِوَاه[1]، صار هَذا القولُ الثالِث لا يَخرُج عَنِ الإِجْمَاعِ؛ لأَنَّهُ يُوافِقُ أحَدَ القوْلَيْنِ في حالٍ، ويُوافِقُ القولَ الآخر في حالٍ أُخْرَى، فيَكُون قولًا ثالِثًا لكِنَّهُ لا يَخْرُج عنْهُما، أمَّا إذا كانَ واحِدٌ يَقُولُ بالتّحْرِيم وَوَاحِدٌ يقُول بالحِلِّ، ثمَّ جاءَ قولٌ ثالِث يقُولُ بالوُجُوبِ فهَذا لَا يمْكِنُ؛ لأَنَّهُ في هذِهِ الحالِ لَا يُوافِقُ القوْلَيْنِ.

• • ۞ • •

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٨٨).

الآيــة (٦)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرّوم:٦].

• ● ● •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، مَصْـدَرٌ بَدَلٌ مِن اللَّفْظِ بِفِعْلِهِ، والأَصْـلُ وَعَدَهُمُ الله النَّصْرَ]؛ نعْلَم أنَّه مصْدَرٌ ولَيْسَ فعْلًا، مصْدَرٌ مضَافٌ إِلَى الفاعِلِ، يعْنِي وَعَد الله إِيَّاهُم، فالمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: [إنه بدَلٌ مِن فِعْله]، أيْ نَائِبٌ منَابَ الفعْلِ، أيْ وعَدَهُمُ الله وقِيلَ: مصْدَرٌ فعلُهُ محذوفٌ ولَيْسَ نائِبًا عنْهُ، وعَلى هَذا فيكُونُ المَقَدَّرُ كالموجُودِ، أيْ وعَدْناهُم وعْدَ الله، وَهَذا أقرَب، والمعْنَى أنَّ الله وعدَهُم وعدًا مُضافًا إِلَيْهِ، والوَعْدُ المضَافُ إِلَيْهِ لا يختَلِفُ؛ وَلهَذا قَال: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾، فهَذِه الجمْلَةُ كالتَّوكِـيد لقَوْلِه تَعالَى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ لأَنَّ المضاف إِلَيْهِ في ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ لا يُمْكِـنُ أن يخلِفَ أبَدًا، إِذ إِنَّ إخْلَاف الوَعْدِ ناشِئٌ عَن كذِبٍ أَوْ عَجْزٍ، فإِذا وَعدَكَ أحدٌ فأَخْلَفَك فَهُو إمَّا كاذِبٌ وإِمَّا عاجِزٌ، والكَذِبُ والعجزُ ممتَنِعانِ عِنِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لكمالِ صِدْقِهِ وقُدرَتِه، فعَلى هَذا لا يُخْلِف الله وعدَه، ولَا يُمْكِنُ أن يُخْلِفَه.

وإِخْـلَافُ الوَعْدِ أنْ يَأْتِي الوَاعِـدُ بخلَافِ ما وَعَد بِه، مثلًا رجُـلٌ قَال لَك: سأَزُورُك غـدًا في السّاعَةِ الثّامِنَةِ، ثمَّ تأْتِي الثّامِنةُ ولَا يزُورُكَ، فهذا أَخْلَفَ وعْـدَه، وسبَبُ إخلَافِه إمَّا أنّه عاجِزٌ أَوْ هُو كاذِبٌ مِنْ أوَّلِ الأمْر أَوْ نَسِي، والنّسيانُ أيضًا

عَيْبٌ، فعَلى هَذا نقُولُ: إنَّ الله لا يُخْلِفُ وعدَه؛ لِكَمال صِدْقِه في خَبَرِه، وكمالِ قُدْرَتِه في تنْفِيذِ وعْدِه، واللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كامِلُ القُدْرَة، وكَلامُهُ كامِلُ الصِّدْقِ؛ ولهذا قَال المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ به]، أيْ بالنَّصْر، والنَّصْرُ الَّذي وُعِدوا، ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾.

وفِي الآيَات التي سبَقَتْ وعْدٌ آخَرُ للمُؤْمِنينَ بالفَرَح؛ لقَوْلِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، فوَعَدَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بانتصار الرّوم عَلَى الفرْس وبِفَرَحِ المؤْمِنينَ، ولا شَكَّ أنَّ الفرَحَ فِيه مِن انبِسَاط النَّفْس وسُرورِها وانْشِراحِها مَا هُو نعمَةٌ يُنْعِمُ الله بِه عَلَى الفرِحِ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ عُطِف علَيْه قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾، أو يحتَمِلُ أَنَّه معطُوفٌ عَلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾، و(لكنَّ) تنصِبُ الاسْم وترْفَعُ الخبَر، واسْمُها ﴿أَكْثَرَ﴾ وخبَرُها جُمْلَةُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوْله رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أي كُفَّار مكة]: تخصِيصُ ذَلِك بكُفَّارِ مكَّةَ فِيه نَظَرٌ، والصَّوابُ أنَّه يشْمَلُ كُفَّار مكَّةَ وغيرَهم، وكلُّ مَن ليْسَ عنْدَه إيمانٌ فإنَّهُ لَا يعْلَمُ ما للهِ تَعالَى مِن تنفيذِ الوَعْدِ؛ لأنَّهُ بيْنَ مكذِّبٍ وشَاكٍّ متردِّدٍ فلَا يعْلَمُه.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعدَه تَعالَى بنصرهم]: والظَّاهِرُ أنَّهم لا يعلمُونَ وعدَه تعالَى بنصرِهم، ولا يعلمونَ أنَّ الله تَعالَى لا يُخْلِف الوَعْدَ، أيْ لا يعْلَمُون الأمْرَيْنِ جميعًا، فَلا يعْلَمُون أنَّ الله تَعالَى سيُحقِّق النَّصْرَ لَهُمْ إمَّا لجهلهم بما أخْبَرَ الله بِه، وإمَّا لشَكِّهم في صِدْقِه أو قُدرةِ الله علَيْه، ولَا يَعْلَمُونَ أيضًا أنَّ الله لا يُخْلِفُ الوَعْدَ فِي هَذا وفِي غيْرِهِ لشَكِّهم في صِدْقِ الله وفي قُدْرَته تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عَلَى إنْفاذِ موْعُودِهِ.

وقَوْله تَعالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾: مقْتَـضاهُ أنَّ أقلَّ النّاس يعْلَمُـونَ، لأنَّهم مُؤمِنُون باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبما لَهُ مِن القُدْرَة والصّدْقِ والقوْلِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ غلبَـةَ الرّومِ للْفُرسِ وفـرَحَ المؤْمِنينَ بذَلِك خبَـرٌ متَضَمِّنٌ للوَعْدِ.

الفائِدَةُ الثّانيةُ: امتِـنَاع إخْـلَافِ الله تَعالَى وعْـدَه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: ثُبـوتُ القُدْرَة والصّدْقِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ مأخُـوذَةٌ مِنْ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾؛ لأنَّهُ متضَمِّنٌ لكمالِ الصّدْقِ والقُدْرَة.

الفائِدَةُ الرّابعَةُ: أنَّ أكْثَر النّاسِ غَيْرُ عَالـمينَ بما يسْتَحِقُّه الله تَعالَى مِن صِفاتِ الكمالِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أنَّ العلْمَ الحقيقِيَّ هُو العلْمُ باللهِ تَعالَى وأسمـائِهِ وصِفاتِهِ؛ لا العلْمُ بالدّنيا؛ لقوْلِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، ثـمَّ قالَ في الآيَة التي بعدَها ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا﴾، فنَفَى العلْمَ عنْهُم لأنَّ علْمَ الدّنيا في الحقيقةِ ليْسَ بعِلْمٍ، فيُستفَاد منْهَا أنَّ العلْم الحقيقِيَّ الّذي يُمْدَح علَيْه المرْءُ هُو العلْمُ باللهِ وأسمائِه وصفَاتِه وأحْكَامِه.

• • ۞ • •

الآيــة (٧)

• ● ۞ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الرّوم:٧].

• ● ۞ ● •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ مَعَايِشها مِنَ التِّجارَة وَالزِّرَاعَة وَالبِناء وَالغرْس وَغَيْر ذَلِك ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ إعادَة هُمْ تأكيد] اهـ.

قوْله تعالَى: ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ خبَرٌ ثانٍ لـ(لكنَّ)، والخبَر الأوَّلُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴾، وقِيل أنّه بدَلٌ مِنْ قوْلِه تعالَى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴾، ورُدَّ هذا القوْلُ لأنَّهُ لا يُبْدَلُ المثبتُ مِن المنفِيِّ للتَّضادِ، فَكيْفَ تُبْدِلُ شيْئًا مثبَتًا مِن شيْءٍ مضَادٍّ له، وعلَى هَذا فَإنَّ ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ الثّانِيَة خبَرٌ ثانٍ لـ(لكنَّ)، وتعَدُّد الخبَر جائِزٌ.

قوْله تَعالَى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ سبحانَ الله العظيـمِ! أثْبـت لَهُمُ العلْمَ لكِنَّهُ علْمٌ قاصِرٌ مِن وجْهَيْنِ:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنَّهم إنّما يعلَمُونَ ظاهِـرًا مِن الحياةِ الدّنْيـا، لَا باطِنًا، وكَـمْ مِنَ الأمورِ الخفِيَّةِ في هَذِهِ الحياةِ لا يعْلَمُها أُولِئكَ الكفّارُ، فالكفّارُ لا يعْلَمُونَ كُلَّ خفِيٍّ في هَذِهِ الدّنيا، والدّليلُ عَلَى هَذا تطوُّرُ الصّنائعِ والمخترَعاتِ لأَنَّ هَذا التّطوُّرَ بالنِّسبَةِ للسَّابِقِينَ غيْرُ معلومٍ، ثمَّ سيأْتِي تطوُّرٌ آخرُ يكونُ بالنِّسبَةِ للمَوْجُودِينَ غيرَ معلومٍ.

إِذَنْ: هُم إنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فلا يعْلَمُون كُلَّ مَا في الدّنيا مِن ظَاهِرٍ وبَاطِنٍ.

الوَجْهُ الثَّاني: أَنَّهم يعلَمونَ ﴿ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وليْسَ كلَّ ظاهِرٍ، وفرْقٌ بينَ أنْ يعْلَمُوا كلَّ ظاهِرٍ مِن الحياةِ الدّنيا وأنْ يعْلَمُوا الظّاهِرَ مِن الحياةِ الدّنيا وأنْ يعْلَمُوا ظاهِرًا منهَا، فالتّعبِيرُ يكُونُ عَلَى هَذِهِ الوُجُوهِ، والأخِيرُ يعني أنّهم لَا يَعْلَمُونَ كُلَّ ظاهِرٍ إنما يعْلَمُون ظاهِرًا منْهَا فقَطْ، وأنَّ هناك ظَواهِرَ أخْرَى لَا يعْلَمُونَهَا أيضًا، فعُلم بِهَذا قُصُورُ عِلْمِ هَؤُلاءِ، فهُمْ فِيما يتعلّقُ باللهِ جَلَّ وَعَلَا جُهّالٌ لا يعلمونَ، وفِيما يتعلّق بالدّنْيا إنّما يعْلَمُونَ ظاهِرًا مِنَ الحياةِ الدّنيا فقطْ.

أمّا فِيما يتعلّقُ بالآخرةِ فيقولُ تعالَى: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ﴾، وهذِهِ جمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ أُكِّد فِيها المبتدأُ (هم) بتكرارِه، فـ(هُم) الثّانية توكِيدٌ للأُوْلى، ولَو حُذِفَت وقِيلَ: (وَهُم عَن الآخرةِ غَافِلُون) كانَ الكلامُ مستقيمًا، لكنّه كُرِّر للتَّوكِيد، يَعْني هُم بالنّسْبَة لأُمُورِ الآخرة غافِلُون مُعْرِضُون عنها لا يُفكِّرونَ فِيها، تَجِد الواحِدَ منْهُم في أُمُور الدّنيا فتَنبَهِرُ مِن علْمِه بِها، ولكن فِي أمورِ الآخرةِ عنْدَه غفْلَةٌ لا يُفكِّر فِيها، ولَا يُحاوِلُ أن يُعمِلَ فِكْرَهُ، ولا أنْ يَنْظُرَ في هَذا الخلْقِ العظِيم، غَافِل عنْ مَاذا يكونُ مآلُه؟ وكَيْف خُلِق؟ وإلى أيْنَ ينْتَهي؟

وقالَ الله تَعالَى في آيَةٍ أخْرَى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا﴾ [المؤمنون:٦٣]، يعْني مِنْ أَمْرِ الإِيمان باللهِ وبرَسُولِه ﷺ، ﴿وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أعمالٌ أخْرَى، ﴿هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ﴾ [المؤمنون:٦٣]، يُدرِكونَها تمامًا، لكِنْ في أمْرِ الإِيمَـان باللهِ واليَوْمِ الآخـر قلوبُهم في غمْرَةٍ؛ ولِهَذا يجِدُ جزاءَ هذهِ الغمرةِ إذا قِيلَ لَهُ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢]، وَهَذا يكُونُ يومَ القيامَةِ.

المُهِمُّ: أنَّ هَؤُلاءِ الَّذِين غَفَلُوا عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وعَنِ الآخرة عنْدَهم عِلْمٌ مِنَ الحياةِ الدّنيا، راجِع الآن الصّنائِع تجِدْ شيْئًا يُبْهِرُك لكِنْ مِنْ قَوْمٍ هُم في أمْرِ الآخرةِ أُمِّيـون لَا يعْلَمُونَ شيْئًا؛ لأنَّهُم -والعياذُ باللهِ- عنْدَهم غفْلةٌ وَلِهَذا تتعجَّبُ: كيْـفَ يَصِلُ هـؤُلاءِ إِلَى الأجْواءِ ويصْنَعونَ الطّائراتِ والآلاتِ الغرِيبَةَ، ومَع ذَلِك ليْسَ عنْدَهُم عِلْمٌ بِاللهِ واليَوْمِ الآخر، فلَو سألتَ الطّفل مِن المسْلمينَ أجابَك، ولو سألت أكبَرَ واحدٍ منْهُم مِن المختَرِعِينَ ما أجاب، وَذَلِكَ فضْلُ الله يُؤتيهِ مَنْ يشَاءُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هلِ الضّمِيرُ في قوْله تَعالَى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعودُ عَلَى الكفَّار أمْ يعُودُ عَلَى غيرِهم مِن المسْلمينَ الغافِلِينَ؟

قُلْنَا: يَعُود عَلَى الكفَّارِ؛ لأَنَّ المقْصُودَ بِهَذا تأْكِيدُ الذّمِّ في حقِّهم، وإلّا فحَتَّى المؤمِنُون لا يَعْلَمُونَ إلا ظاهرًا مِنَ الحيَاةِ الدّنيا، بِدَليلِ قوْله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النّحل:٨].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعْضُ المسْلِمينَ غافِلُون عَنْ أكْثَرِ أُمـورِ الدّينِ، ولكنَّهُم عالمونَ بأمُور دُنياهُم؟

قُلْنَا: هذَا صحِيحٌ، وَهَذا فِيه شبَهٌ مِنَ الكفَّارِ حيْثُ حقَّق أمورَ الدّنيا، وأَعْرَضَ عَن أُمورِ الآخرةِ.

الحاصِلُ: أنَّ المقْصُودَ مِن هَذا تأكِيدُ الذّمِّ بِالنّسبَةِ لهُم، هَؤُلاءِ الَّذِين جهِلُوا باللهِ وصِدْقِ وعدِه لا لِقُصورٍ فِيهم أَو في أفْهامِهِمْ، لكِنْ لغَفْلَتِهم، وإلَّا فإنَّ المؤمِنِين أيضًا يعْلَمُون ظَاهرًا مِن الحيَاةِ الدّنيا ولَا يعْلَمونَ كُلَّ شيْءٍ، لكنَّ المؤمِنِين معَهُم عِلْمٌ باللهِ وأسمائِهِ وصِفَاتِهِ وحِينَئِذٍ لا يكُونُ هَذا نقْصًا فِيهم، إنما محَطُّ النّقْصِ هُو أنَّ هَؤُلاءِ لا يَعْلَمُونَ ما يتعلَّقُ بالإِيمان باللهِ، ويَعْلَمُون ظاهِرًا مِنَ الحيَاةِ الدّنْيا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَل الكفَّارُ يُؤمِنُون بوجُودِ الله أمْ يُنْكِرون وُجودَه؟

قُلْنَا: يَخْتَلِفُون، فمِنْهم مَن يُنْكِرُ وُجودَ الله، ومِنْهُم مَن لَا يُنْكِرُ، لكِنَّ الَّذي لا يُنْكِرُ وُجُودَ الله ويُؤْمِنُ بِوجُود الله ثمَّ يَعْبُد غيرَهُ ويُشْرِكُ فهَذا مُتَناقِضٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: قُصُور عِلْم المرْءِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، ليْسَ كُلَّ الظَّاهِر، وليْسَ الباطِنَ، فالمرْءُ علْمُه قاصِرٌ حتّى في أُمورِ الدّنيَا أيضًا، فَلا يمْكِنُ للمَرْء الإحَاطَةُ بعِلْمِ الدّنْيا.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: ذَمُّ الَّذِين يتكالَبُون عَلَى العلوم الدّنْيويَّةِ مَع غفْلَتِهم عَن الآخرةِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: أنَّها تتضمَّنُ مدْحَ مَنْ يُقْبِلونَ عَلَى الآخرةِ، ويَحْرِصُونَ علَيْها وإِنْ فَاتَهُم شيْءٌ مِنْ أُمورِ الدّنيا؛ لأنَّهُ إذَا ذَمَّ مَن كانَ عَلَى العكْس فذَمُّ الضّدِّ مدْحٌ لضِدِّه، فالَّذِين يُقْبِلُونَ عَلَى الآخرةِ -وإِنْ كانَ ليْسَ عنْدَهُم إلا عُلُومٌ قليلَةٌ مِن الدّنيا- أكْمَلُ بكَثِيرٍ مِنَ الَّذِين يُقْبِلُون عَلَى الدّنيا ويَغْفَلُونَ عنِ الآخرةِ، وَهَذا ما تدُلّ علَيْه هَذِهِ الآيَات.

• ● ۞ ● •

الآية (٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الرّوم:٨].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ لِيَرْجِعُوا عَنْ غَفْلَتِهِمْ ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لِذَلِكَ تَفْنَى عِنْدَ انْتِهَائِهِ وَبَعْده البعْث ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ كُفَّار مَكَّة ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ أَيْ لَا يؤمنون بالبعث بعد الموت] اهـ.

قَوْله تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾: مثْلُ هَذا التَّركيبِ فِي إعرابِه للنَّحْويِّينَ قولَان:

أحدُهُما: أنَّ الهمزَةَ مُقدَّمَةٌ عَلَى مكانِها، وأنَّ أصلَها: (وَأَلم يتفكَّروا)، فتكُونُ الجمْلَةُ معطوفَةً عَلَى مَا سبق.

والوَجْهُ الثَّاني: أن تكُونَ الهمزَةُ داخِلَةً عَلَى محذوفٍ يُقدَّر بحسب السِّياقِ، ويكُونُ ما بعْدَها مِن حرْفِ العطْفِ عاطِفًا عَلَى ذَلِك المحذوفِ، وفي هَذِهِ الآيَة يكُون التَّقْديرُ: (أَغَفَلوا ولم يتفكَّروا)؛ لأنَّهُ لما قال: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْأٓخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ قالَ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾، والاسْتِفْهام للتَّوبيخِ؛ لأنَّ الإنسان مأْمُورٌ بأَنْ يتفكَّر.

قَوْله تَعالَى: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ هل هُو محَلُّ التَّفكُّر أو آلَةُ التَّفكُّر، بمعْنَى هَل المقْصودُ مِنَ الآيَة الحثُّ عَلَى تفكُّرِهم في أنْفُسِهم كَما في قوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ

أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]، أوِ الحثُّ عَلَى التّفكُّرِ في خلْقِ السّموَات وَالأرْض في أنْفُسِهم؟

نَقُول: يُراد بِه كِلا الأمْرَين، لكنَّ الأقربَ الأخيرُ؛ وَلِهَذا قالَ: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، فالمعْنَى: (أَوَلم يَرْجِعُوا إِلَى أنْفُسِهم ويتفكَّروا تفكيرًا حقيقيًّا في هَذا الكوْنِ ليَعْرِفُوا بذَلِك حكمَةَ الله عَزَّوَجَلَّ وما يتضَمَّنُه مِن صفَاتِه العظِيمَةِ).

قوْله تَعالَى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: ﴿مَّا﴾ نَافِيَةٌ، والدّلِيلُ قوْله تَعالَى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، وَ﴿خَلَقَ﴾ بمعْنَى أوْجَد وأبْدَع، ولا يَكُون غالبًا إلا بتَقْدِيرٍ وتنظيمٍ؛ لأَنَّ أصلَ الخلْقِ التّقْدِيرُ في النّفْسِ، كما قال الشّاعر:

وَلأَنْتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وَبَعْـ ـضُ النّاس يَخْلُقُ ثمّ لا يَفْرِي[1]

يَعْني تُمْضِي ما قَدَّرتَ، فالخلْقُ هُو الإبْداعُ بتَقْديرٍ وتنْظِيمٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: المرَادُ بِها الطّباقُ، وكانَتْ سبْعًا.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: مفْرَدٌ، والمرَادُ الجِنْس، فيَشْمَلُ جميعَ الأرْضينَ وهِي سبْعٌ، وعُطِفت عَلَى السّمَوَاتِ وهِي منصُوبَةٌ؛ وَلِهَذا فُتِحَتْ بخلَافِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنَّها جَمْعُ مؤنَّثٍ سالِمٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾: ﴿مَا﴾ اسْمٌ موصُولٌ معطُوفٌ عَلَى السّمواتِ، والعلَماءُ يقُولونَ أنّه إذا تعدَّدَتِ المعطُوفَاتُ فالمعطُوفُ عليْه هُو الأوَّل؛ لأَنَّهُ المبَاشِرُ للعامِلِ وما بَعْدَه فرْعٌ عليْهِ، فيكُونُ العطْفُ إِذَنْ عَلَى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، فلَو قُلْتَ: جاءَ زيْدٌ وعمْرٌو وبَكْرٌ وخالدٌ وسعيدٌ، فسَعِيدٌ معطُوفٌ عَلَى زيدٍ الأوّلِ؛ لأَنَّهُ المباشِرُ

---

(١) ذكر الجوهري في الصّحاح (٤/ ١٤٧١)، ونسبه إلى الشّاعر زهير بن أبي سلمى.

ومَا بعْدَه فرْعٌ، والفرْعُ لا يُعْطَفُ عَلَى فرْعٍ، بَل يُعْطَفُ عَلَى أصْلٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ البيْنيَّةُ لا تقتضِي التماسَّ، فقَدْ يكونُ الشّيْءُ بيْنَ الشّيئَيْن وهُوَ لا يمسُّ أحدَهما، فهنا الَّذي بيْنَ السّماءِ والأرْض لا يلزمُ أنْ يمَسَّ أحدَهما، لكنَّه يمكِن أن يمسَّ، فعَلَى هَذا نقولُ: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ يشمَلُ السّحابَ والرّياحَ والنّجومَ والشّمسَ والقمرَ وغيرَ ذَلِك مِنَ المخلوقَاتِ العظِيمَةِ التي لا نعلَمُها، وفي التّنْصيصِ عَلَى ذِكْر مَا بيْنَ السّموَاتِ وَالأرْض دلِيلٌ عَلَى أنَّ ما بَيْنَهُما أمْرٌ عظِيمٌ يُقارَنُ بنَفْسِ السّموَاتِ وَالأرْض، وَهَذا يعلَمُهُ أهْلُ الفلَكِ الَّذِين يَطَّلِعُونَ عَلَى مَا في الأفُقِ مِنَ الآيَات العظِيمَةِ التي تدُلّ عَلَى مَا تدُلّ عليْه مِنْ كَمالِ الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: هَذا محطُّ الفائِدَةِ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، فهذَا حصْرٌ، أيْ هَذا الخَلْقُ مُقارَنٌ بالحقِّ، فـ(الباءُ) إِذَنْ للمُصاحَبَةِ والملابَسَةِ، أيْ أنَّ خلْقَهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مصْحُوبٌ بالحقِّ؛ لأَنَّهُ مُتضمِّنٌ لكَمالِ العدْلِ وكَمالِ الصّدْق، فَما قامَتِ السّموَاتُ وَالأرْض إلا بالعدْل، والعدْلُ حقٌّ، وهذَا يشْمَلُ أنْ يكُونَ الغايَةُ منْ خلقِها الحقَّ ابتداءً وانتهاءً، كمَا قالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦]، وَلَوْ كانَتْ هَذِهِ السّموَاتُ وَالأرْض خُلِقَتْ لتَحْيا الخليقَةُ عليْها وتَعيشَ وتمُوتَ بِدُونِ جَزاءٍ ولا حِسابٍ ولا ثَوابٍ ولا عِقابٍ لكَانَ خلْقُها بَاطِلًا ولَيْس بحَقٍّ.

إِذَنْ: لا بُدَّ لهذِهِ المخلُوقاتِ العظِيمَةِ أنْ يكُونَ لها غَايَةٌ، وهَذه الغايَةُ هِيَ الحقُّ، فعَلى هَذا نَقُولُ: إنَّ قوْله تَعالَى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يشمَلُ الابْتِداءَ والانْتِهاءَ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: معطُوفٌ عَلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، يعْنِي ما خلَقَهم أيضًا إلا بأَجَلٍ مُسمًّى، أيْ مُعيَّن، والأجَلُ غايَةُ الشّيْءِ، وهُوَ مُسمًّى مِن

قِبَل الله تَعالَى، فهُو الَّذي عيَّنه، وهذَا التَّعْيينُ يشْمَلُ الابتِداءَ والانتِهاءَ، فابتِداؤُها بأَجَلٍ وانتِهاؤُها بأَجَلٍ أيضًا، فإِنَّ الله تَعالَى أَوْجَد هَذِهِ السَّموَاتِ وَالأرْض بَعْدَ أنْ كانَتْ معدُومَةً، وإيجادُهُ لها كَانَ بِالأجَلِ المعَيَّنِ عنْدَه، وَكَذلِكَ سوْفَ يُنْهِي السَّموَاتِ وَالأرْضَ، وإِنْهاؤُه إيَّاها بالأجَلِ.

إِذَنْ: كُلُّ شيءٍ عنْدَ الله عَزَّوَجَلَّ مُقَدَّرٌ، حتَّى الحوادِثُ التي تَحْدُث فِي السَّمواتِ وَفِي الأرْض بعْدَ خلْقِها، وإيجَادُها كُلُّه بأَجَلٍ لا يتَقَدَّمُ ولا يتَأَخَّرُ، وإِذا تأَمَّلْتَ قلِيلًا عرَفْتَ بذَلِك كَمالَ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكيْفَ أنَّ هَذِهِ الأمُورَ والشُّؤُونَ العظِيمَةَ الكثِيرَةَ كُلَّها تُدَبَّرُ بأَجَلٍ لا يتقَدَّمُ ولا يتأَخَّرُ، فنَحْنُ مثَلًا نُقَرِّرُ أنْ نبْدأَ الدَّرْسَ في السَّاعَةِ الثَّامِنَةِ، ولكِنْ أحيانًا نبْدَأُ السَّاعَة الثَّامِنَةَ والنِّصْفَ، وأحْيانًا السَّاعَةَ الثَّامِنَةَ والثُّلُثَ، فنتَأَخَّرُ وَلا يَنْتَظِمُ أمرُنا مَع أنَّه بَسِيطٌ، وهكَذَا كُلُّ شُؤونِ الخلْقِ لا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يَضْبِط جَمِيعَ أعمَاله بأَجَلِها المحَدَّدِ مهْما بلَغَ فِي الحِرْصِ؛ لأَنَّهُ قد يَعْتَرِيه مَا لا طَاقَةَ لهُ بِه؛ فَلا يستَطِيعُ، لكِنَّ الرّبَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حدَّدَ كُلَّ شيْءٍ بأَجَلِه لا يتَقَدَّمُ ولا يتَأَخَّرُ، ولا شَكَّ أنَّ هذَا مِن كَمالِ الحِكْمَةِ والصّنْعِ، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النّمل:٨٨].

فإِذَا تأَمَّلْنا هَذا الكَوْنَ العظِيمَ عَلَى مَا فِيه مِنَ الحوَادِث الفلَكِيَّةِ والأرْضيَّةِ والعامَّةِ والخاصَّةِ فإِنَّنا فِي الحقِيقَةِ نسْتَدِلُّ بِه دَلالَةً واضِحَةً عَلَى كَمال قُدْرَةِ المدَبِّرِ لهذَا الكَوْن الخالِق لَه، وأنَّ كُلَّ شيْءٍ بِأَجَلٍ.

وفِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرّعد:٨]، فهُو أيضًا بمِقْدارٍ، فهُوَ بأَجَلِه وبمِقْدَارِه، لا يَزِيدُ ولا يَنْقُصُ، سُبْحانَ الله العظِيمِ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لِذَلِكَ تَفْنَى عِنْدَ انْتِهَائِهِ وبَعْدَهُ البعْثُ]: أي:

تَفْنى السّموَاتُ وَالأرْض وما بَيْنَهُما عنْدَ انتهاءِ هَذا الأجَلِ، ثمَّ يأْتِي البعثُ.

قولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي كُفَّار مكَّة]: خصَّه المُفَسِّـر بأَهْلِ مكَّةَ، والصّـوابُ العُمُوم، فيَشْمَلُ أهْلَ مكَّةَ وغيْرَهم، فَكثِيْـر مِنَ النّاسِ يُنْكِـرُونَ البعْـثَ، بلْ يُمْكِنُ أنْ نَجِد في غيـرِ أهْلِ مكَّةَ مَنْ هُم أشَـدُّ منْهُم إنْكارًا للْبَعْـثِ، فتَخْصِيصُ العامِّ في القرآنِ أمْرٌ لا يَنْبَغِي إلا إِذَا قَامَ الدّلِيلُ عَلَى هَذا.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ﴾: اللِّقَاءُ بمعْنَى المواجَهَةِ والمقابَلَةِ، وكُلُّ إِنْسَانٍ سواءٌ مؤمنًا أو كافِرًا سوْفَ يَلْقى الله عَزَّوَجَلَّ؛ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]؛ لأَنَّهُ قالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ وَهَذا عَامٌّ، ثمَّ قالَ بعدَ قوْله تَعالَى: ﴿فَمُلَـٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق:٦-٧]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق:١٠]، فدَلَّ هَذا عَلَى أنَّه عامٌّ، فكُلُّ أحدٍ ملاقٍ الله عَزَّوَجَلَّ، وسوْفَ يحاسِبُه، ولكِنَّ حِسابَ الله للنَّاسِ يخْتَلِفُ، فالمؤْمِنُ يُقرِّرُه الله بذُنُوبه، فَإِذا أقَرَّ بِها غَفَر لهُ، وأمَّا الكافِرُ -والعياذُ باللهِ- فإِنَّهُ يُجْزَى بِها ويُعاقَبُ علَيْها، ويَكُونُ هوانًا لَهُ.

والكفْرُ في اللُّغَة السّتْرُ، ومنْه سُمِّي الكفُرَّى الَّذي هُو كافُورُ النّخْل -غُلاف الطّلْع-؛ لأَنَّهُ يستُرُهُ والمرادُ بالكفْر سَتْرُ نعمةِ الله عَزَّوَجَلَّ عَلَى المرْءِ بحَيْثُ يَعْصِيهِ إِذا أمَرَه ويجْحَدُه إذا طلَبَ مِنْه الإِيمان، وأنْواعُ الكفْر كثِيرَةٌ:

منْهَا: الكفْر المخْرِجُ عَن الملَّةِ.

ومِنْها: الكفر أَي: خِصالُ كَفْرٍ، وليْس الكفْر المطْلَقِ.

وَهَذا يَرْجِعُ إِلَى حَسَبِ النّصُوصِ الشّرْعِيَّةِ.

فَائِدَةٌ: الَّذي لَا يَعْمَلُ بمقْتَضَى إيمانِه فَوُجودُ إِيمانِهِ كالعدَمِ؛ لأَنَّ الكفْرَ نَوْعَانِ:

- كُفْرُ جَحْدٍ.

- وكُفْرُ اسْتِكْبارٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾: (اللام) للتوكيد، و(كافِرُون) خبَرُ إنَّ، و﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّقٌ بِه، وقُدِّم علَيْه لمرَاعَاةِ الفواصِلِ، ومُراعَاةُ الفواصِلِ في القرآنِ الكرِيم ظاهِـرٌ؛ لأَنَّ القرآنَ -أوْ لأَنَّ الكلامَ عامَّةً- إذا كانَتْ لَهُ فواصِـلُ متَّفِقَةٌ يَكُونُ هَذا أنْشطَ للنَّفْسِ وأرْغَبَ فِي استِماعِهِ وتِلَاوَتِهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفوائِدُ الأوْلى والثّانِيَةُ والثالِثَةُ: تَوبِيـخُ مَن أعْرَض عَنِ التّفكُّرِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾؛ لأَنَّ الاسْتِفْهام هُنا للتَّوبِيخِ، ويتفَرَّعُ عَلَى هَذِهِ الفائِدَةِ فائِدَةٌ ثانِيَةٌ: وهِي الحثُّ عَلَى التّفكُّرِ، ويتفرَّع علَيْه الفائِدَةُ الثالِثَةُ وهِي أهمِيَّةُ التّفكُّرِ؛ لأَنَّ الله لا يَحُثُّ عَلَى شَيْءٍ ويُوبِّخُ عَلَى ترْكِه إلا لما فِيهِ مِنَ الفائِدَةِ والمصْلَحِة.

الفائِدَتانِ الرّابِعَـةُ والخامِسَةُ: أنَّ محَلَّ التّفْكِيـرِ هُو العقْـلُ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾، هَذا إذا قُلْنا: إنَّ المرَاد كَوْنُ النَّفْسِ آلةَ التّفكُّر وطرِيقَ التّفكُّرِ.

أمَّا إذا قُلْنَا أنَّها محَلُّ التّفكُّر فيُستَفاد منِه فائِدَةٌ وهِي عظِيمُ صُنْعِ الله عَزَّوَجَلَّ في نَفْسِ الإنسان، ومَا أوْدَعهُ فِيه مَنَ العجائِبِ، وإذا أرَدْتَ أنْ تعْرِفَ ذَلِك فاذْهَبْ إلَى أهْلِ العلومِ والطّـبِّ تجدْ في جِسْمِك العجَبَ العجابَ، فهَذا الطّـعامُ الَّذي تأْكُلُه يتحَوَّلُ إلَى دَم، ويتوزَّعُ عَلَى الجسْمِ بحسَبِ أنْسِجَتِه، فتُعطَى الأعْصابُ كمِّيَّةً تلِيقُ بِها، ويُعطَى اللَّحْمُ كمِّيَّةً تلِيقُ بِه، وتُعطَـى العظَامُ كميَّةً تلِيقُ بِها، فهَذِه الأنَابِيـبُ الدّقِيقَةُ مثْلَ الشّعْرِ توزِّعُ عَلَى هَذا الجسْمِ بقَدْرِ ما يَحْتَاجُ إلَيْهِ.

وقَدْ ذَكر ابْنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِ (مِفْتَاحُ دَارِ السّعادَةِ) مِنْ هَذا شيئًا كثيرًا، وهَذا قَبْلَ أنْ يَرْتَقِي الطّبُّ إلَى ما ارْتَقى إلَيْهِ اليَوْمَ.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أنَّ خالق السّمواتِ وَالأرْض هُو الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾، فلَمْ يخْلُقْهما أحَدٌ؛ وَلِهَذا قَال فِي سُورَةِ الطّورِ ﴿أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطّور:٣٦].

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: إثْبَات تعدُّدِ السّمواتِ وهِي سَبْعٌ، وأمَّا الأرْض فَهِي دائِمًا تُفْرَدُ فِي القرآنِ، ومَا ذُكِرَتْ في القرآنِ مجْموعَةً، لكِنْ أُشِير إلَى أنّها جَمْعٌ فِي قوْله تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ [الطّلاق:١٢].

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: أنَّ بَيْن السّمواتِ وَالأرْض مِن المخْلُوقاتِ العظِيمَةِ مَا استَحَقَّ أنْ يُجْعَل قَسِيمًا لخَلْقِ السّموات وَالأرْض، لقولِه تعالَى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾، وهَذِه ثلاثَةُ أشْياءِ: (السّمواتُ، وَالأرْض، ومَا بَيْنَهما)، وكُلُّنا يعْلَم عِظَم الأرْض وعِظَمَ السّماءِ، إذَنْ: فعِظَمُ مَا بَيْنَهما مُوازٍ لهُما.

الفائِدَتانِ التّاسِعَةُ والعاشِرَةُ: عِظَم قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ وبَالغ حكْمَتِه، أمّا الحكْمَةُ فنأْخُذُها مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾، فهِي ليْسَتْ عبَثًا بل بالحقِّ، أمّا القُدْرَة فنأْخُذُها مِن عِظَم المقْدُورِ، فعِظَمُ المقْدُورِ يَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ الخلْقِ، وَهَذا مِنَ الدّلالَةِ باللّازِم، وَإنَّ الله إذا فتَح عَلَى العبْدِ مَعْرِفَةُ لوَازِمِ النّصوصِ اسْتَفادَ بذَلِكَ فوَائِدَ عظِيمَةً، حتَّى أنّه يأْخُذُ مِنَ النّصِّ الوَاحِدِ مِنَ المسَائِلِ مَا لا يَأْخُذُ غَيْرُه نِصْفَها أوْ أقَلَّ.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: أنّه ينْبَغِي لِلإنْسَانِ أنْ لا يُضيِّعَ وقتَهُ سبَهْلَلًا[1] وسُدًى؛

---

(١) قال الفيروزآبادي في القاموس المحيط (ص:١٣٠٩): «يَمْشِي سَبَهْلَلًا: إذا جاء وذهَبَ في غيرِ شيءٍ».

نأخُذه مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأَنَّ ضِدَّهُ الباطِلُ، والباطِلُ إِمَّا ضارٌّ وإِمَّا غيرُ ضارٍّ ولَا نافِعٍ، وكُلُّ لهوٍ يلْهُو به ابنُ آدم فهُوَ بَاطِلٌ إلا كَذا وكَذا[1].

والمُهِمُّ: أنَّه ما دَامَتِ السّموَاتُ وَالأرْض كُلُّها خُلِقَتْ بالحقِّ والجدِّ والصّدْقِ والثّباتِ فيَنْبغِي لكَ أنْ تكُونَ موافِقًا لهِذه الحكْمَةِ التي مِنْ أجْلِها خُلِقتِ السّموَاتُ وَالأرْض.

الفائِدَتانِ الثّانِيَةَ عشْرَةَ والثالِثَةَ عشْرَةَ: أنَّ هَذا الخلْقَ عَلَى عِظَمِه لَه أَجَلٌ محدُودٌ؛ لقوْله تَعالَى: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي مُعيّنٍ، وكلُّ شيءٍ في السّموَاتِ وَالأرْض كُلِّيًّا كَان أمْ جُزْئِيًّا فإنَّهُ مُحَدَّدٌ إِلَى أجَلٍ مُسَمًّى، وسوَاءٌ كانَ ذَلِك عيْنًا أَوْ صِفَةً فإنَّها محدَّدةٌ إِلَى أجَلٍ مُسَمًّى؛ وَمِن الحكَم المشْهُورَةِ (دَوَامُ الحالِ مِنَ المحَالِ)، وَهَذا يتفرَّعُ علَيْه فائِدَةٌ أُخْرَى وَهِي أنَّ الخلْقَ ناقِصٌ، حيْثُ لم يُقَدَّر لَهُ الأبدِيَّةُ، فَهُوَ نَاقِصٌ، وَلِهَذا تأْتِي الحياةُ الآخرةُ كامِلَةً؛ لأَنَّهَا مؤَبَّدَةٌ.

الفائِدَةُ الرّابعة عشْرَةَ: كَمالُ الحكْمَةِ؛ حيْثُ كانَ كُلُّ شيْءٍ لَهُ أجَلٌ مقدَّرٌ منَظَّمٌ، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرّعد:٨]، والمقْدَارُ يشْمَلُ مِقْدَارَ الكمِّيَّةِ ومِقْدَارَ الكيْفِيَّةِ ومِقْدَارَ الزّمنيَّةِ ومِقْدَارَ المكَانِيَّةِ، فكُلُّ هـذِه الأنْواعِ الأرْبعَةِ يشْمُلُها قوْلُه تعالَى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرّعد:٨].

الفائِدَةُ الخامِسَةَ عشْرَةَ: أنَّه مَع هَذِهِ الآيَات العظْمَى -خَلَقِ السّموَاتِ وَالأرْض وما بَيْنَهُمـا، وتأْجِيلِ ذَلِك بأجَـلٍ مُسَمًّى، وتقْدِيره بتَقْدِيرٍ مُعَيَّـنٍ- كَثِيرٌ مِن النّاسِ يُنْكِرُون لِقاءَ الله.

---

(١) كما ورد في الحديث: «كُلُّ مَا يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ المسْلِمُ بَاطِلٌ إلا رَمْيَهُ بِقَوْسِهِ، وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ، وَمُلَاعَبَتَهُ أَهْلَهُ، فَإِنَّهُنَّ مِنَ الحقِّ»، أخرجه التّرمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرّمي في سبيل الله، رقم (١٦٧٣).

والحقِيقَةُ أنَّ العاقِلَ يَسْتَدِلُّ بِهذا التَّأجِيلِ عَلَى وُجوبِ لِقَاءِ الله إِذَا رَأَى أَصْحابَهُ وقُرنَاءَه الَّذِين كانُوا بالأمْسِ معَهُ يذْهَبُون واحِدًا فَواحِدًا، فَلا شكَّ أنَّ هذا يحْمِلُه عَلَى الإيمان؛ لأنَّهُ يعْلَمُ أنَّه لَو دامَتِ الدّنيا لأَحَدٍ مَا وصَلَتْ إِلَيْهِ، فإنَّها مَا وصلَتْ إِلَيْك إلا بعْدَ أنْ خلَّفَتْ غيرَكَ.

إِذَنْ: يُستَدَلُّ بهذه الآجالِ المقَدَّرةِ عَلَى أَنَّه لا بُدَّ أنْ يكُونَ هُناكَ شيْءٌ وراء هَذا كلِّه، ومِنَ المؤَكَّد أنَّه ليْسَ مِن الحكْمَةِ أنْ تُنْشَأَ هَذِهِ الخَلِيقَةُ العظِيمَةُ، وَبِهذَا النِّظَامِ البدِيعِ، ثمَّ تكُونُ النِّهايَةُ أنْ يَموتَ الإنسان كَجِيفَةِ حِمارٍ؛ وَلِهَذا قالَ الله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، فهَذِه الشَّرائِعُ التي نزَلتْ لا بُدَّ أنْ يكُونَ وراءَها شيْءٌ وهُوَ البعْثُ الَّذي بِهِ لِقَاءُ الله عَزَّوَجَلَّ، لكِنْ مَع هَذا ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾.

الفائِدةُ السّادسَةَ عشْرَةَ: إِثْبَات البعْثِ المفْهُومِ مِنْ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾.

الفائِدةُ السّابعَةَ عشْرَةَ: أنَّ كُلَّ أحدٍ سيُلاقِي الله عَزَّوَجَلَّ؛ نأْخُذُه مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ﴾، وقَال تعالَى فِي سُورَةِ الانْشِقاق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانْشِقاق:٦].

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَل هَذا اللِّقاءُ شامِلٌ للمُؤْمِنِ والكافِرِ؟

قُلْنَا: نَعَمْ، لكِنْ هُناكَ فَرْقٌ بيْنَ اللِّقائَيْـنِ، كَما أنَّ الرَّجُلَ يُلاقِي زيْدًا ويُلاقِـي عَمْرًا ويَكُونُ بَيْن اللِّقائَيْنِ فَرْقٌ عظِيمٌ، فَيُلاقِي هَذا بِوَجْهِ غَضَبٍ، ويُلاقِي هَذا بوَجْهِ رِضًا، وَهَذا بِوَجْهِ انْقباضٍ وَهَذا بِوَجْهِ انْبِساطٍ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَلِ المرادُ باللِّقاءِ هُنا اللِّقاءُ المجَرَّدُ أَم المرادُ بِه الرُّؤْيَةُ؟

قُلْنَا: المرْادُ باللِّقاءِ المواجَهَةُ، لكِنَّها بَعْد البعْثِ، فمِنْ لازِمِها البعْثُ، أمَّا مسأَلَةُ الرُّؤيَةِ فاللهُ أعْلَمُ، لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذَكر فِي الكفَّارِ ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥].

الفائِدَةُ الثَّامِنَةَ عشْرَةَ: إثْبَات الرُّبُوبِيَّة العامَّةِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ﴾، مع أَنَّه يتكَلَّمُ عَن الكافِرِينَ، فَهِي الرُّبُوبِيَّة العامَّةُ.

والرُّبُوبِيَّةُ تنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: عامَّةٍ وخَاصَّةٍ، وقَدِ اجْتَمعَا فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢]، فالأُولى عامَّةٌ والثَّانِيَةُ خاصَّةٌ، والفرْقُ بَيْنَهُما أنَّ الرُّبُوبِيَّةَ العامَّةَ تَسْتَلْزِمُ التَّصرُّفَ المطْلَقَ فِي المرْبُوبِ، والخاصَّةُ تسْتَلْزِم مَع التَّصرُّفِ المطْلَقِ العنَايَةَ بِهِ ونصْرَه وتأْيِيدَهُ ومَا أشْبَه ذَلِك، ومِثْلُ هذَا نقُولُه فِي المعِيَّةِ العامَّةِ والخاصَّةِ، ومَسائِلَ كثِيرَةٍ مِن هَذا النَّوْعِ.

الفائِدَةُ التَّاسِعَةَ عشْرَةَ: ذَمُّ مَن كَفرُوا بِلقاءِ الله عَزَّوَجَلَّ مع آياتِهِ العظِيمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى وُجُودِهِ وحِكْمَتِه؛ لقوْلِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾، وهَذِه الجمْلَةُ بِلا رَيْبٍ تدُلّ عَلَى الذَّمِّ.

الآيـة (٩)

• • ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم:٩].

• • ● ● •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِنْ الأمَم وَهِيَ إهْلَاكهم بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلهمْ ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كَعَادٍ وَثَمُود ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ حَرَثُوهَا وَقَلَّبُوهَا لِلزَّرْعِ وَالغرْس ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أَيْ كُفَّار مَكَّة ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ بِالحجَجِ الظَّاهِرَات ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بِإِهْلَاكِهِمْ بِغَيْرِ جُرْم ﴿وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلهمْ] اهـ.

قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معْطُوفٌ عَلَى قوْله تعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾، فالتّفكُّر في خلْقِ السّموَاتِ وَالأرْض، والسّيرُ في الأرْض فقَط، ثمَّ السّيْرُ في الأرْضِ إمَّا أنْ يكُونَ سيْرًا بالأقْدام أوْ سَيْرًا بالأفهام، فَإِنْ كانَ سيْرًا بالأفهام فَهُو داخِلٌ فِيمـا سبَق، وقَدْ نَقُولُ: إنَّ هَذا أَخَصُّ مما سَبَق؛ لأَنَّهُ قَال هُنَا: ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، فهُوَ نَظَرٌ في حوَادِثَ لَا في خلْقِ الأرْض؛ فتكُونُ هَذِهِ الآيَة منفصِلَةً عَنِ التي قبْلَها مِن حيْثُ المعْنَى، فالأُولى تفْكِيرٌ؛ وَلِهَذا جاءَ متعلِّقُها

عامًّا: (فِي السَّمَوَاتِ والأرْض ومَا بَيْنَهُما)، وَهَذا السَّيْرُ لأمْرٍ مخصُوصٍ، أي الحوادِثِ، أنْ ينْظُروا كيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذين مِنْ قبْلِهِمْ، فيَشْمَلُ السَّيْرَ بالقدَمِ، والسَّيْرَ بالفكْرِ والفهْمِ، عَلَى القوْلِ بأنَّه سيْرُ أقْدامٍ يكُونُ السَّيْرُ حسِّيًّا، وعَلى الثّاني يكُونُ معنَوِيًّا، فيَشْمَلُ السَّيْرَ الحسِّيَّ والسَّيْرَ المعْنَوِيَّ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيْفَ تطْلُبونَ مِنَ الإنسان أنْ يسيرَ بقَدَمِه إِلَى مَواقِعِ العذابِ وقَدْ نَهى النّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنْ ندْخُلَ مواقِعَ العقَابِ إلا ونحْنُ باكُونَ؟

قُلْنَا: لا تعارُضَ؛ لأَنَّ هَذا هُو المقْصُودُ، فالسَّيْرُ إِلَى مواقِعِ العذابِ المقْصُودُ بِه الاتِّعاظُ والانْزِجارُ، وَهَذا يتحَقَّقُ بالبكاءِ، وَلِهَذا نَهى النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنْ ندْخُل دِيَارَ ثَمُودَ إلا ونَحْنُ باكُونَ، وقَالَ: «إِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا»[1]، وبعْضُ النّاسِ يذْهَبُ إِلَى دِيَارِ ثمُودَ عَلَى سبِيلِ النّزْهةِ والطّرَبِ والتّمتُّعِ بالمناظِرِ؛ وَلِهَذا يأْخُذُونَ لها صُوَرًا؛ إعْجابًا بها لا خوفًا، وَهَذا مِنْ قسْوَةِ القلْبِ -والعياذُ باللهِ-، والجهْلِ بِمَا جاء بِهِ النّبيّ ﷺ؛ لأَنَّ غالب هَؤُلاءِ الَّذين يذْهَبُون لِهَذا المقْصَدِ يَكُونُونَ جاهِلِينَ، ولَا نَقُولُ: إِنَّ كلَّهم عنْدَهم قسْوَةُ قلْبٍ تعمَّدُوا مخالفةَ الحقِّ، لكنَّنا نقُولُ أنَّ عنْدَهم شيْئًا مِنَ الجهْلِ أوِ الغالب عليْهِمُ الجهْلُ، وإلا لا يُمكِنُ أنْ يفرَحَ أحدٌ في مكَانٍ نَهى الرّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عنْ دُخُولِه إلا في حَالِ البكاءِ، وإلا فَإِنَّ الإنسان الَّذي لا يعْرِفُ مِن نفْسِه أنّه إذا ذَهَبَ سيتَأَثَّرُ حتّى يَبْكي لا يَجُوزُ لَهُ أنْ يدْخُلَ؛ لأَنَّ النّبيّ ﷺ نَهى عَنْ ذَلِك.

---

(١) في قوله ﷺ: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ المعَذَّبِينَ إلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ لَا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ»، أخرجه البخاري: كتاب الصّلاة، باب الصّلاة في مواضع الخسف والعذاب رقم (٤٣٣)، ومسلم: كتاب الزّهد والرّقائق، باب لا تدخلوا مساكن الّذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، رقم (٢٩٨٠).

وقَوْله تَعالَى: ﴿فِي﴾ معنَاها (عَلى)؛ لأنَّهَا لَو أُخِذَتْ بِظاهِرِهَا لكَانَ السّيْرُ في سرَادِيبَ تحتَ الأرْض؛ لأنَّ ﴿فِي﴾ للظَّرْفِيَّةِ، والظّرْفُ محِيطٌ بِالمظْروفِ مِن جَمِيعِ الجوَانِبِ، ولا يُمْكِنُ أنْ تُحِيطَ بِك الأرْض مِن جَميعِ الجوانِبِ إلا إِذَا كُنْتَ دَاخِلَ الأرْض في سرْدَابٍ، ولَيْس هَذا مُرادًا، فَعلَى هَذا تكُونُ ﴿فِي﴾ بِمَعْنَى (عَلَى).

وقِيلَ إِنَّ ﴿فِي﴾ للظَّرْفِيَّةِ عَلَى بَابِها ولَا حاجَةَ إِلَى تأْوِيلِها، وأنَّ ظَرْفِيَّةَ كُلِّ شيءٍ بحسَبِه؛ فيَكونَ معنَى قوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: فِي ظَهْر الأرْض، وكُلُّ أحدٍ يعْرِفُ أنَّه لا يُرادُ أنْ تخْرِقَ الأرْض وتَمْشِيَ في أسْفَلِها، ولَا أحدَ يفْهَمُ هَذا، وأيًّا كَان فَإِنَّ المرَادَ السّيْرُ عَلَى ظَهْرِ الأرْضِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِذَا كانَ يسِيرُ عَلَى ظهْرِ الأرْضِ فإِنَّ الأرْضَ تكونُ محِيطَةً بِه؟

قُلْنَا: لَا تكونُ محِيطَةً بِه مِنْ يمينِه ويَسَارِه، إِذْ لَا تُوجَدُ جُدْرانٌ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: فالمعْنَى واضِحٌ، وحَتّى لَوْ قُلْنا إِنّ ﴿فِي﴾ للظَّرْفِيَّةِ، فإِنَّ الظّرْفَ في كُلِّ موْضِعٍ بحسَبِهِ، وليْسَ بِلَازِمٍ أنْ يكُونَ (فِي) بمعنَى جَوْف.

وقوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾: الأرْضُ مفرَدٌ، والمرادُ بِه الجِنْس، أي الأراضِي التي وَقَع العذَابُ بأَهْلِها، مثْلَ دِيارِ ثَمُودَ والأحْقَافِ ودِيَارِ قَوْمِ لُوطٍ، كَما قَالَ الله تَعالَى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر:٧٦].

قوْله تعالَى: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾: هَل نظَرَ بَصرٍ أوْ نظَرَ بَصِيرَةٍ؟

والجوابُ: إنْ كانَ السّيْرُ بالقدَمِ فالنّظَرُ نظَرُ البصَرِ، وإِنْ كانَ السّيْرُ بالفهْمِ فالنّظَرُ نظَرُ بَصِيرَةٍ، يعْني فينْظُروا بعَيْنِ البصِيرَةِ أوْ بعَيْن البصَر حسَبَ السّيْرِ كَما سَبَق.

والمرَادُ بعَيْـنِ البصِر الّذي يُؤدِّي إِلَى عيْنِ البصِيرَةِ، وَليْس المقْصُود أنَّك إِذا

سِرْتَ بقدَمِك وَوصلْتَ المكانَ تُغْمِضُ، بلْ تنْظُر بعَيْنِك.

وهلْ النّظَرُ بالعيْن يُفيدُ أوْ لا يُفيدُ؟

إن كانَ ليْسَ فِيه بصِيرَةٌ فَلا يُفِيدُ، فالمرَادُ بالسّيْرِ عَلَى القدَمِ النّظَرُ بالعيْنِ لِيُؤدِّيَ ذَلِك إِلَى النّظَرِ بالبصِيرَةِ، وإلّا فالنّظرُ المبَاشِرُ بالسّيرِ عَلَى القدمِ هُو بِالعيْن.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾: (الفاء) هنَا يَجوز فِيها وجْهَانِ:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنْ تكُونَ عاطِفَةً، والمعْنَى: أفَلَمْ يَسيرُوا فَلَمْ ينْظُروا.

الوَجْهُ الثَّاني: أنْ تكُونَ سَبَبِيَّةً، والمعْنَى: أفَلَمْ يَسيرُوا فَيَنْظُروا، فِبَسَبب سيْرِهم ينْظُرون كيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِين مِن قبْلِهم.

وقوْله تَعالَى: ﴿يَسِيرُواْ﴾ و﴿فَيَنظُرُواْ﴾: مجْزومانِ بحذْفِ النّونِ، والوَاوُ فَاعِلٌ؛ لأنَّهما مِنَ الأفْعَالِ الخمْسَةِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿كَيْفَ﴾: اسمُ اسْتِفْهامٍ خبرُ ﴿كَانَ﴾ مقدَّمًا، و﴿عَٰقِبَةُ﴾ اسْمُها فِي مكانِها، والعاقِبَةُ مصْدَرٌ بمعْنَى العقْبى، وعاقِبَةُ الشّيْءِ ما يتْلُوه ويَأْتِي بعْدَهُ، فقوْلُه تَعالَى: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، أيْ مَا تَلا تكْذِيبَهُمْ لِلرُّسُلِ.

قـولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مِنَ الأمَـم، وهِي إهْـلاكُهُم بتكْذِيبهـم رُسُلَهم]: كانَت عاقِبَةُ ثمودَ الإهلاكَ والدّمارَ، وعادٌ الّذِين استكْبَرُوا في الأرْضِ وقَالُوا: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أيْ: لَا يُوجَدُ أحَـدٌ أشَدُّ منَّا قُوَّةً، كانَـتْ عاقبَتُهم أنْ أُهْلِكُوا بأَمْـرٍ مِن ألْطَف الأشْيَاء وهُـو الرّيحُ، وَالرّيحُ جسْمٌ لطِيفٌ لَا يُرَى، لكنَّ هَؤُلاءِ كِبارَ الأجسامِ شدَيدي القوى أُهلِكُوا بهذِه الرّيحِ اللَّطِيفَةِ التي لا تُرى ليتبَيَّنَ ضعْفُ الإنسان، وأَنَّه مهْما كانَ فاللهُ عَزَّوَجَلَّ أقْوَى مِنْهُ، كَما قَال تعالَى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ

أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، وَكَذلِكَ قُرى قوم لوطٍ الَّذِين أُتْرِفُوا فتَلِفُوا -والعياذُ باللهِ-، أُتْرِفُوا ونُعِّمُوا حتَّى كانُوا مِنْ شِدَّةِ التّرفِ -والعياذُ باللهِ- يعْدِلُونَ عمَّا خلقَ الله لهمْ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ إِلَى إِتْيانِ الذّكُورِ، نسْأَلُ الله العافِيَةَ.

قوْله تَعالَى: ﴿كَانُوٓاْ﴾: جملةٌ استئنَافِيَّةٌ يُراد بِها بَيان حَال هَؤُلاءِ السّابِقِينَ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كعاد وثمود]: لا أُشكُّ أنَّهم أشَدُّ مِن قُرَيْشٍ قوَّةً، فعَادٌ معرُوفَةٌ قوَّتُهم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر:٦-٨]، وثمودُ أيضًا الَّذِين ينْحِتُون مِن الجبال بُيوتًا فارِهِين، بُيوتًا آمِنَة عاليَةً شامخةً مِنَ الجبَالِ وَالأحْجَار، وَهَذا يدُلُّ عَلَى القوَّةِ، ومِنَ السّهولِ يتَّخِذُون قصورًا عظِيمةً فخْمَةً، ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ [الأعراف:٧٤]، وهَذا لمْ يَحصُلْ لأهْلِ مكَّةَ، ومَع ذَلِك دمَّرهم الله عَزَّوَجَلَّ بكُفْرِهم وتكْذِيبِهِمْ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾: معطُوفٌ عَلَى ﴿كَانَ﴾، وليْسَ معطوفًا عَلَى خَبَرِ كانَ، أيْ عاقبةُ الَّذِين مِنْ قبْلِهم أَثَارُوا الأرْض، وليْسَتْ معطُوفةً عَلَى ﴿أَشَدَّ﴾، حتَّى نقُولَ: كانُوا أشَدَّ منْهُم وكانُوا أَثَارُوا الأرْض وعَمَرُوها، بَلْ معطُوفَةً عَلَى كَانَ.

قوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ حرثوها وقلبوها للزرع والغرس]: هَذِهِ إثَارَةُ الأرْض، فالإنسان إِذا حرَثَ الأرْضَ لَا شكَّ أنَّه يُثِيرُهَا، والحرْثُ معرُوفٌ بالمسحاة[1] أوْ بالجرَّاراتِ تُثِيرُ الأرْض يعْنِي ترفَعُها، وَكَذلِكَ أيضًا الغرْس فإِنَّ الإنسان يُثِيرُ الأرْضَ ليَحْفِرَ للشَّجَرةِ حتَّى يثبِّتَها، فهَؤُلاءِ أشَدُّ منْهُم قوَّةً، وأيضًا قَد أثَارُوا الأرَاضِيَ، أمَّا أهْلُ مكَّةَ فلَمْ يُثِيروا الأرْضَ؛ لأنَّهم فِي وادٍ غيْرِ ذِي زَرْعٍ.

---

(١) المسحاة: كالمجرفة إلا أنها من حديد، الصّحاح للجوهري (٧/ ٢٢٣).

قوْله تَعالَى: ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾: أي السّابِقُون عمرُوا الأرْضَ بالتّجارَةِ والبنَاءِ والمصانِع وغيرِها، فسُلَيْمانُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قالَ الله لَهُ: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ:١٣]، والجفانُ الصّحَافُ التي فِيها الطّعامُ، ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ والجابيَةُ هِي بِرْكَة الماءِ، فَالصّحْفَةُ مِثْل بِرْكَةِ الماءِ، هَذا عظِيمٌ ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ لا تُحْمَلُ مِنْ كِبَرِها وكثْرَةِ الطّعامِ فِيها، هَذا كُلّه ومَا هُو مِثْلُه لمْ يحْصُلْ لِقُرَيْشٍ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجَجِ الظّاهِـرَاتِ]: (الباءُ) للمُصَاحَبَةِ أوْ للتَّعْدِيَةِ، والمعْنَى أنَّ الرّسَل -علَيهِمُ الصّلاةُ والسّلامُ- جاءَتْهُم مِنْ قِبَلِ الله تعالى ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، أي بالحجَج البيِّنات، أوْ قُل: بِالآيَات البيِّناتِ التي تشْمَلُ الحجَجَ والأحْكامَ؛ فإنَّ الحكْمَ إذا كانَ حُكْمًا عادِلًا نافِعًا للعِبادِ فإِنَّهُ بيِّنَةٌ تدُلّ عَلَى صِـدْق مَن أَتَى بِه، فَالرّسُلُ كُلُّهم جاؤُوا بالبيِّناتِ، ومَا مِنْ رسُـولٍ إلا أَتى بِبيِّنَةٍ، ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الحديد:٢٥].

إِذَنْ: فمَعَ كُلِّ نَبيٍّ كِتابٌ، كُلُّ نبيٍّ لَهُ كِتابٌ، وكُلُّ نَبيٍّ له آياتٌ بيِّناتٌ، ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣].

المُهِمُّ: أنَّه مَا مِن رسُولٍ إلا مَعَه بيِّنةٌ وكِتابٌ.

قولُه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾: (اللّامُ) في قولِه ﴿لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ تُسَمَّى لامَ الجحُودِ، أيْ لامَ النّفْي؛ لملازَمَتِها لَهُ، وهِي التي سبقَها (لم يكن)، أو (ما كان)، وهِيَ تنْصِبُ الفعْلَ المضارِعَ.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾: إذا قِيلَ: (مَا كانَ الله ليَفْعَل كَذا)

ومَا أشْبَه ذَلِك فاعْلَم أنَّه مُمْتَنِعٌ غاية الامْتِنَاعِ، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤]، أيْ ممتنِعٌ غايَةَ الامْتِناعِ، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص:٥٩]، مُمْتَنِعٌ غايَةَ الامتِناعِ، وهَكذا كُلَّما جَاء مثْلُ هَذا التّعبيرِ، فالمرَادُ أنّه ممتَنِعٌ غايَةَ الامْتِنَاعِ.

والظّلمُ في أصلِ اللُّغَة النّقْصُ، ومِنْهُ قولُه تعالَى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣]، وهُوَ في الشّرعِ كَذلِكَ نَقْصٌ فِيما يَجِبُ، فيَشْمَلُ الإهْمالَ في الوَاجِبِ والتّعدِّي في المحَرَّم، فالتّعدِّي في المحَرَّمِ نقْصٌ؛ لأنّك بَخَسْتَ نفْسَك حقَّها؛ حيْثُ لَمْ تجتَنِبِ المحَرَّمَ، وكَذلِكَ أيضًا التّقْصِيرُ في الوَاجِبِ نقْصٌ، فمَنْ قصَّرَ فِي واجبٍ فقَدْ ظَلَم نفْسَهُ، ومَنْ تعدَّى فِي مُحَرَّمٍ فقَدْ ظلَم نفْسَهُ؛ لأنّهُ نَقَصَ مِمَّا يَجِبُ أنْ يُعامِلَ بِه نفْسَهُ، فيَكُونُ الظّلْمُ إمَّا تركًا لوَاجِبٍ، وإمَّا فِعْلًا لمحَرَّمٍ.

وبِالنّسبَةِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنَّ نَفْيَ الظّلْمِ صِفَةٌ سلبِيَّةٌ، تتضَمَّنُ كمالَ العدْلِ، فهُوَ لَا يظْلِمُهُمْ لا لأنّهُ عاجِزٌ عنْهُم، ولا لأنّهُ غَيْرُ قابِلٍ لَهُ، ولكِنَّهُ لِكَمالِ عدْلِه عَزَّوَجَلَّ لَا يُمْكِنُ أنْ يَظْلِم.

ونَفْيُ الظّلْمِ يكُونُ لِثلاثَةِ أسْبَابٍ: إمَّا لِكمال العدْلِ، أَو العجْزِ، أوْ عدمِ القابِلِيّةِ.

فَإذا قُلْت: إنَّ الجدارَ لَا يَظْلِمُ فهُو لِعَدم القابِلِيَّةِ لَا يَقَع منْهُ الظّلْمُ أصْلًا.

وإذا قُلْتَ: فُلانٌ ضعِيفٌ لَا يظْلِمُ عدُوَّه، فهَذا للْعَجْزِ، قَال الشّاعِرُ[1]:

قَبِيـلَـةٌ لَا يَـغْـدِرُونَ بِـذِمَّــةٍ وَلَا يَظْلِمُونَ النّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

(١) هو النّجاشي الحارثي واسمه قيس بن عمرو، انظر الحماسة الشّجرية (٤٥٢)، والشّعر والشّعراء (١/ ٢٨٨).

فهُم لا يظْلِمُونَ لِعَجْزِهم.

وإذَا قُلْتَ: إنَّ الله لا يَظْلِمُ النّاسَ شيْئًا، فهُوَ لِكَمالِ عدْلِه، فإنَّه قادِرٌ جَلَّوَعَلَا أنْ يظْلِمَ لكِنَّهُ ممتنِعٌ علَيْه لكَمالِ صِفاتِه، وقَالت الجبْرِيَّةُ أنَّه لا يَظْلِمُ لعَدَمِ قابلِيَّته، واللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يملِكُ جَمِيعَ الخلْقِ فتصَرُّفُه في مُلْكِه ليْسَ بظُلْمٍ، ولا يُتَصَوَّرُ الظّلْمُ في حَقِّ الله لَا لِكَمالِ عدْلِه، ولكِنْ لأنَّهُ غيْرُ قابِلٍ لَهُ؛ وَلِهَذا قَال ابْنُ القيِّم[1]:

وَالظّـلْمُ عِنْدَهُمُ المحَـالُ لِذَاتِـهِ ....

فهُو مُحَال لذَاتِه عنْدَهُمْ، لا يُتَصَوَّرُ الظّلْمُ في حقِّ الله، ولكِنَّ قولَهم هَذا لَا يُعَدُّ مدْحًا لله عَزَّوَجَلَّ ولا ثناءً ولا كمالًا، إِذْ نَفْيُ الظّلمِ لا يكونُ مدْحًا وكمالًا إلا إذا كانَ مَع القُدْرَة علَيْه وإمْكَانِه، لكِنْ منعَه كمالُ عدلِه منْهُ.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: منصوبَةٌ عَلَى أنّها مفْعُولٌ مُقَدَّمٌ لـ﴿يَظْلِمُونَ﴾، يعْنِي ولَكِنْ كانُوا يظْلِمُونَ أنْفُسَهُم، والمرادُ أنّهم يظْلِمُونَ أنْفُسَهم بمعصِيَةِ الله، إمَّا بتَرْك واجِبٍ أوْ فِعْلِ مُحَرَّمٍ، وسيأْتِينا إنْ شَاءَ الله في الفوائِدِ مَا تدُلّ علَيْه هَذِهِ الجمْلَةُ.

المُهِمُّ: أنَّ الله تَعالَى مَا ظَلَم هَؤُلاءِ المكَذِّبِينَ الَّذِين أهْلَكُهم، ولَكِنْ هُمُ الَّذِين ظَلَمُوا أنْفُسَهم، فالجنَايَةُ منْهُم عَلَى أنْفسِهم، واللهُ عَزَّوَجَلَّ عامَلَهُم بِكَمالِ العدْلِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَتَانِ الأوْلَى والثّانِيَةُ: تَوْبِيخُ مَنْ غَفِلوا عَنِ السّيْرِ في الأرْضِ سواءٌ بأبْدَانهِم أوْ بقُلُوبِهم؛ لأنَّ الاسْتِفْهام في قوْلِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ للتَّوبيخِ، ويتفَرَّعُ عَلَى ذَلِك الحثُّ عَلَى السّيْرِ في الأرْضِ، ومِن السّيْرِ في الأرْضِ بالقلوب مراجَعَةُ كُتُبِ

(١) الكافية الشّافية في الانتصار للفرقة النّاجية - القصيدة النّونية (ص:٦٣).

التّارِيخِ والأمَمِ؛ لأنَّ مَن راجَعَها لا سِيَّما التّوارِيخَ الحرِيصَةَ عَلَى الضّبْطِ والمُوثُوقَةِ، مَن راجَعَها يتبيَّنُ لَه العجَبُ العجَابُ فِي خَلْقِ الله عَزَّوَجَلَّ ومداولَتِه الأيّامَ بَيْنَ النّاسِ، وتغْيِيرِهِ للأُمورِ، وتَزِيدُ الإنسان إيمانًا باللهِ، لكِنْ إنْ كانَتْ هَذِهِ الحوادِثُ مِنَ السّيرَةِ النّبويَّةِ وسِيَرِ الخلَفاءِ الرّاشِدِينَ ازْدَادَ بِها مَع الإِيمان باللهِ أنْ يصْطَبغَ بِصِبْغَتِها، ويَحْتَذِي حذْوَها في السّيْرِ، وإنْ كانَتْ مِنَ الأمُورِ العامَّةِ العابِرَةِ فإنَّهُ يَسْتدِلُّ بِها عَلَى قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ وكَمالِ سُلطانِهِ وتغْيِيرِ الأمُورِ.

فالمُهِمُّ: أنَّ السّيْرَ في الأرْضِ -بمعْنَى مُراجَعةِ الحوادِثِ والتّوارِيخِ- يُفِيدُ المرْءَ، وَيعْتَبِر بِها، ولكِنَّها لا تُفِيد كُلَّ أحدٍ، كَما قَال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

الفائِدَةُ الثالِثةُ: أنَّ عاقِبَةَ الكفَّارِ وخِيمَةٌ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

الفائِدَةُ الرّابعَةُ: أنَّ الإنسان مهْمَا قَوِيَ فهُو ضعِيفٌ بالنّسْبَةِ لِقُوَّةِ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، ومَعَ ذَلِك لَمْ يتَحَصَّنُوا بِهذا مِنْ عَذابِ الله، بَلْ إنَّ الله تَعالَى بحِكْمَتِه أهْلَكَ أعْتَى أهْلِ الأرْضِ بأَهْوَنِ الأشْياءِ وألطَفِها، وهُمْ عادٌ أُهْلِكُوا بالرّيحِ، ومَنْ كَانَ يفْتَخِرُ بالأنْهارِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِ أهْلَكَهُ بالماءِ الَّذي كانَ يفْتَخِرُ بِه بالأمْسِ، وَهَذا مما يدُلُّ عَلَى كَمالِ سُلطانِ الله تَعالَى وعظَمَتِه، وأنَّه مهْمَا قوِيَ الإنسان فهُوَ ضَعِيفٌ بالنّسْبَةِ لقُوَّةِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأظُنُّ أنَّهُ فِي حَوالَي عَامِ ألف وأرْبَعِمِئَةٍ حصَلتْ هزَّةٌ أرضِيَّةٌ في إيرانَ دمَّرَتْ في لَمحِ البصَرِ خمسًا وعِشْرِينَ ألف نَسمَةٍ مِنْ بَني آدَم، فضْلًا عَنِ الحيَوانَاتِ والمواشِي ومَا إِلَى ذَلِكَ، ودمَّرَتْ مِئَتَيْنِ وثَلاثِينَ قَرْيَةً ومَدِينتَيْنِ كبِيرَتَيْنِ، والهزَّة ليْسَت

تهُزُّ مثْلَ الأرْجُوحَةِ، إنَّمـا هِي كلَمْحِ البصرِ مثْلَ ما حكَاهَا إِنْسَانٌ كَتَبَ للشَّيخ عبْدِ العزيزِ بْنِ بَازٍ في الهزَّةِ التي أصَابَتِ اليَمَنَ، فصوَّرَها تصْوِيرًا عجِيبًا في سُرْعَتِها، وأصواتِ صَحِبتْهَا وحالِ النّاسِ والرّعْبِ الَّذي أصَابَهُم حتَّى أنَّها، ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج:٢].

فهَذِه القُدْرَة العظِيمَةُ لَا يُمْكِنُ لأحَدٍ أنْ ينْجُو منْهَا إذا شاءَها الله عَزَّوَجَلَّ أبدًا، ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥].

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أنَّ التّأمُّلَ في حَال الكفَّارِ للاعْتِبَارِ، يعْنِي أنْ يعْتَبِر به الإنسان أمْرًا مطلوبًا لَوْ جَاء إِنْسَانٌ وَأَرَادَ أنْ يدْرُسَ تارِيخَ أمَّةٍ كافِرَةٍ ماذَا حصَل لَها ومَا الَّذي جاءَها، فإنَّنا لا نَنْهاه عنْ ذَلك ما دامَ يُرِيدُ أنْ ينْتَفِع بِهذا، ويَعْرِفَ مَاذا كانَتْ عاقِبَةُ المجْرِمينَ، فإنَّهُ مأمُورٌ به، أمَّا إذا كَانَ يُرِيدُ أن يتَعَجَّبَ مِنْ قُوَّتِهم وصنْعَتِهم ومَا إِلَى ذَلِك فإنَّهُ يُنْهَى عنْهُ، مِثْل مَا قُلْنا في الَّذِين يذْهَبُونَ إِلَى دِيارِ ثَمُودَ قصْدُهُمُ التَّفْرُّج والنّزْهَةُ، فهَذا حرَامٌ والَّذِين قصْدُهُم الاعْتِبار فهَذا جَائِزٌ بالشّرْطِ الَّذي ذَكَرَهُ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهُوَ ألَّا يدْخُلوها إلا وهُم بَاكُون[1].

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أنَّ إِثَارَةَ الأرْضِ مِنْ أسْبَابِ القوَّةِ، أي الاشْتِغَالُ بِالزّراعَةِ مِنْ أسْبَابِ القوَّةِ بِلا شَكٍّ؛ لأنَّهَا يَحْصُل بها الاكْتِفاءُ الذّاتِيُّ عَنِ الغيْرِ، فإذا كَانَتْ بِلادُنا -مثَلًا- تُنْتِجُ الثِّمارَ والزّروعَ استَغْنَيْنَا بذَلِك عنْ غيرِنا، ورُبَّما يكُونُ لدَيْنا فائِضٌ

(١) في قوله ﷺ: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ المعَذَّبِينَ إلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ لَا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ»، أخرجه البخاري: كتاب الصّلاة، باب الصّلاة في مواضع الخسف والعذاب رقم (٤٣٣)، ومسلم: كتاب الزّهد والرّقائق، باب لا تدخلوا مساكن الّذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، رقم (٢٩٨٠).

نُصدِّرُه لغَيْرِنا فنكْسبُ، فإِثَارَة الأرْضِ مِنْ أسْبَابِ القوَّةِ، وَكَذلِكَ عُمْرَانُ الأرْضِ بِغَيْرِ الإِثَارةِ بالبنَاءِ والتّجارَةِ وما أَشْبَهَ ذَلِك مِنْ أسْبابِ القوَّةِ.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ما تَرك أحدًا بدُونِ رُسُلٍ؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: أنَّ كلَّ رسولٍ معَه بيِّنَةٌ تُؤيِّدُه؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾.

الفائِـدَتانِ التّاسِعَةُ والعاشِـرَةُ: نسْتَفِيدُ مِن إرْسالِ الرّسُلِ وإِيتَائِهِمُ البيِّناتِ فائِدَتَيْن وهُمَا:

أولًا: رحْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ وحِكْمَتُه، أمَّا الرّحمَةُ فلأنَّ العقُولَ لا يُمْكِنُ أن تهتَدِيَ لما يُريدُهُ الله منْهَا إلا بالوَحْيِ، فَلا يُمْكِنُ لِلإِنْسَانِ بعقْلِه أنْ يعْرِفَ كيْفَ يتوضَّأُ، وكَيْف يُصلِّي، وكَيْفَ يصُومُ، وكَيْفَ يَحُجُّ.

إِذَنْ: لا بُدَّ مِن أنْ يكُونَ هناكَ رسُولٌ يَأتِيهِ الوَحْيُ مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ ليبيِّنَ لنا مَا يرْضَاهُ الله ومَا لا يَرْضَاهُ.

ثانيًا: كونُ هَؤُلاءِ الرّسُل يأْتُونَ بالبيِّناتِ مِن الرّحمَةِ لَوْ أَرْسَلَ الله الرّسُلَ بدُونِ بيِّنَاتٍ وأَلزَم العبَادَ أنْ يَخْضَعُوا لهُمْ بِدُون أنْ يكُونَ هُناكَ بيِّنَةٌ يطْمَئنُّونَ إِلَيْها يكُون في هَذا مِن العنَتِ والمشَقَّةِ مَا لا يعْلَمُه إلا الله، ولكِنْ مِن رَحْمَةِ الله جَلَّوَعَلَا أنْ جعَلَ مَعَ كُلِّ نَبيٍّ بيِّنَةً، ولاَحِظ أنَّ الأنْبياءَ الَّذِين تُقَيَّدُ نُبوَّتُهم ورسالَتُهم بزَمَنٍ أوْ مكانٍ وهُمْ جَمِيعُ الأنْبِياءِ مَا عَدا مُحَمَّدًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تَجِدُ آياتِهِمْ غالبًا آياتٍ حِسيَّةً تنْتَهي بانْتِهائِهِمْ، وتكُونُ بعْدَ موْتِهم خبَرًا يُنْقَلُ ويُؤثَر، أمَّا النّبيّ ﷺ فآيَاتُه اشتَمَلَتْ عَلَى

الأمْرَيْنِ: عَلَى أُمورٍ حِسِّيَّةٍ نُقِلَتْ بعْدَه وأُثِرَتْ، وعَلى أُمورٍ معْنَوِيَّةٍ بقِيَتْ بعْدَه مثْلَ القرآنِ العظِيمِ، ومِثْلَ إخْبارِه ببعْضِ الأمُورِ الغيْبِيَّةِ التي وقعَتْ كَما أخْبَرَ؛ لأَنَّ رسالَةَ النّبيِّ ﷺ دائِمَةٌ ومستَمِرَّةٌ وثابِتَةٌ، فلا بُدَّ أن تكُونَ الآيَات المؤيِّدةُ للرَّسُولِ ﷺ باقيَةً حتَّى تقُومَ بها الحجَّةُ عَلَى الباقِينَ مِنَ النّاس لأَنَّ الباقِينَ مِنَ النّاسِ لم يشْهَدُوا الشّيْءَ بأيْدِيهِم، وإنما هِي أخْبارٌ تُؤْثَرُ، فإِنَّهُ كَما جاءَ في الحدِيث: «لَيْسَ الخبَرُ كَالمعَايَنَةِ»(١).

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عَشرَةَ: انتِفَاءُ الظّلْمِ عنِ الله؛ لكَمالِ عدْلِهِ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: انتِفاءُ الظّلْمِ عنِ الله نُوافِقُكُمْ عليْهِ؛ لأَنَّ الله نفَاهُ عَنْ نفْسِه ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، لكنْ مِن أيْنَ لكُم قولَكُمْ: (لكَمالِ عدْلِه)؟

فالجوابُ: لأَنَّ النّفيَ يدُلُّ عَلَى انْتِفَاءِ المنْفَي، والانْتِفاءُ يُساوِي العدَمَ، والعدَمُ نفْسُه ليْسَ بشَيْءٍ، العدَمُ عدَمٌ عَلَى اسْمِهِ، فإِذا كَانَ ليْسَ بشَيْءٍ فلَا يكُونُ صِفَةَ كَمالٍ يُثْنِي الله بِها عَلَى نفْسِه لأَنَّهُ ليْسَ بشَيْءٍ.

إِذَنْ: لا بُدَّ مِن أنْ يكُونَ متضَمِّنًا لشَيْءٍ وهُو الإِثْبَات، هَذا الإِثْبَات إِمَّا أنْ يكُونَ للعَجْزِ، وإِمَّا أنْ يكُونَ لعدَمِ القابلِيَّةِ، وإِمَّا أنْ يكُونَ لكَمالِ العدْلِ، والاحْتِمال اللائِقُ بالله عَزَّوَجَلَّ هو كَمالُ العدْلِ، وَبِهذَا عرَفْنَا أَنَّ التِزام نفْيِ الظّلْمِ لكَمالِ العدْلِ لازِمٌ عقْلِيٌّ لا بُدَّ منْهُ بالنّسْبَةِ لله عَزَّوَجَلَّ ليْسَ بالنّسْبةِ لكُلِّ مَن يُنْفَى عنْه الظّلْمُ، وحِينَئِذٍ يُسْتَفَادُ منْهَا انتِفَاءُ الظّلْمِ لِكَمالِ عدْلِ الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥، رقم ١٨٤٢).

الفائِدَةُ الثّانِيةَ عَشْرَةَ: أنَّ نفسَ الإنسان عنْدَه أمانَةٌ؛ تُؤخَذُ مِنْ قَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، فأثْبَتَ الله تَعالَى ظُلْمَ الإنسان نفسَه، ولو كانَتْ غيْرَ أمانَةٍ لكَان غيرَ ظالم؛ لأنَّهُ يتصرَّفُ ويتحكَّمُ، لكنَّها أمانَةٌ عِنْدَهُ يَجِبُ عليْه أن يَرْعاهَا حقَّ رعايَتِها؛ وَلِهَذا قَالَ النّبيُّ ﷺ: «**إنَّ لِنفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**»[1]، وَهَذا كَما يشْمَلُ إعْطَاءَ النّفْسِ راحَتَها يشْمَلُ إعْطَاءَ النّفْسِ حقَّها مِنَ العبادَةِ فَلا تُهمِلْها، والإنسان فِيه ثلاثَةُ أنْفُسٍ: أمَّارَةٌ، ومطمَئِنَّةٌ، ولوَّامَةٌ.

أمَّا المطْمَئِنَّةُ: فهِيَ التي تأمُرُه بِرِضَى الله.

وأمَّا الأمَّارَةُ بالسّوءِ: فهِيَ التي تأمُرُه بمعْصِيَةِ الله.

وأمَّا اللَّوَّامَةُ: فَهِي التي تلُومُه، سواءٌ لامَتْه عَلَى ترْكِ الشّرِّ فهذِه مِنَ النّفْسِ الأمَّارَةِ التي تقولُ لَهُ: لماذا لَمْ تذْهَبْ مَع هَؤُلاءِ تشْرَبُ الخمْرَ وتَزْنِي وتُقامِرُ إِلَى آخرِه، فتَلُومُه عَلَى ما تَركَ من فِعْل السّوءِ، فهذِه تكونُ مِن الأمَّارَةِ بالسّوءِ، وكذَلِك تُوجَدُ نفْسٌ لوَّامَةٌ تلُومُهُ عَلَى فِعْل الشّرِّ وتَرْكِ الخيْرِ، وهَذِه هِي النّفْسُ المطْمَئِنَّةُ.

فَفِي الإنسان ثَلاثُ أنْفُسٍ، كَما ذكرَ الله تَعالَى، وكُلُّ إنْسانٍ لا بُدَّ أنْ يكُونَ لَدَيْهِ هَذِهِ الأنْفُسُ، وهِي فِي الحقِيقَةِ أوْصَافٌ وإلَّا فنَفْس العقْل أوِ التّفكِيرُ واحِدٌ، الإنسان يُوجَدُ فِيه الجميعُ، يُحِسُّ مِن نفسِه أحْيانًا بما يأْمُرُه بالمعْصِيَةِ، ويُحِسُّ أحْيانًا بما يَعْمَلُ مِنَ الخيْر، ويُحِسُّ أحيانًا بما يَلُومُهُ.

ويُنْظَرُ أيُّها التي تغْلِبُ، فَمِن النّاس مَن تغْلِبُه نفْسُهُ الأمَّارَةُ، وَمِنَ النّاسِ مَنْ تغْلِبُه المطْمَئِنَّةُ، لكِنِ ابْتداءً خَلَق الله فِيه هَذِهِ القوى، فهَذِه القوَى النّفسِيَّةُ مخْلُوقَةٌ في الإنسان.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب صنع الطّعام والتّكلف له، رقم (٦١٣٩).

الفائِدَةُ الثالِثةَ عَشْرَةَ: أنَّ الإنسان بمعصِيَتِه لا يضُرُّ إلا نفسَهُ، ويدُلُّ لهذا قوْلُ الله عَزَّوَجَلَّ في الحديثِ القدسيِّ: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِك فِي مُلْكِي شَيْئًا»[1]، يعْنِي لا يضُرُّه، فحتَّى لوْ خَرَجْتُم عنْ عِبَادتِي والتَّعبُّدِ لي فإنَّ ذَلِك لا يَضُرُّني.

الفائِدَةُ الرَّابِعَة عشْرَةَ: أنَّ العبْدَ فاعِلٌ مختَارٌ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، فأثْبَتَ الظّلْمَ منْهُم لأنْفُسِهِمْ، ومِنْ وجْهٍ آخر يُؤْخَذُ أيضًا مِن نفْسِ الآيَة ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾؛ لأنَّهُ لَو كانَ يجْبِرُهم عَلَى ذَلِك لكانَتْ عُقوبَتُهم ظُلْمًا، لو اعْتَقَدَ الإنسان أنَّ الله يُجْبِرُ الإنسان عَلَى فِعْلِ المعْصِيَةِ ثمَّ يُعاقِبُهُ علَيْها فإنَّ هَذا ظلمٌ، فَفِيها دَلِيلٌ عَلَى الأفْعَالِ الاخْتِيارِيَّةِ مِن جِهَتَيْنِ:

- مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.
- ومِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الظّلْمَ في حَقِّ الله مِنْ حيْثُ هُو مُمكِنٌ يعْني مِن حيْثُ القُدْرَةُ عليْه فهُو ممكِنٌ؛ وَلهَذا أثْنَى الله عَلَى نفْسِه بانْتِفَاءِ الظّلمِ عنْهُ، أوْ أَثْنَى عَلَى نفسِه بنَفْيِهِ ظُلْمَه للعِبادِ، وَهذا أحْسَنُ، ولَوْ كَان هَذا مِنَ الأمورِ المستَحِيلَةِ مَا كانَ هُناكَ محَلٌّ للثَّناءِ، فهُوَ قَادِرٌ عَزَّوَجَلَّ عَلَى أَنْ يظْلِمَ لَوْ شَاء، لكِنَّهُ لا يَشَاءُ ذَلِك لكَمالِ عدْلِه.

إِذَنْ: فالظّلْمُ ممتَنِعٌ عَنِ الله لكَمالِ عدْلِهِ خِلافًا للجَهْمِيَّةِ الَّذِين يقُولُونَ إِنَّ الظّلْمَ ممتَنِعٌ لاستحالته بذَاتِهِ عَلَى الله، قَالُوا هَذا شيْءٌ مستَحِيلٌ فجَعلُوا محَلَّ الثّناءِ أمْرًا مستَحِيلًا عقْلًا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصّلة والآداب، باب تحريم الظّلم، رقم (٢٥٧٧).

الآية (١٠)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الرّوم:١٠].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ تَأْنِيث الأَسْوَأ الأَقْبَح خَبَر كَانَ عَلَى رَفْع عَاقِبَة وَاسْم كَانَ عَلَى نَصْب عَاقِبَة وَالمَرَاد بِهَا جَهَنَّم وَإِسَاءَتهمْ ﴿أَن﴾ أَيْ بِأَنْ ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن ﴿وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾] اهـ.

قوْله تعالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ﴾ العاقِبَةُ مصْدَرٌ بمَعْنى العقْبى، وفِيها قِراءَتَانِ سبْعِيَّتَانِ[1]: النّصبُ ﴿عَـٰقِبَةَ﴾، والثّانِيَةُ الرّفْعُ «عاقبةُ»، أمَّا عَلَى قِرَاءَةِ الرّفْعِ فإنّها اسْمُ ﴿كَانَ﴾، وأمَّا عَلَى قِراءَةِ النّصْبِ فإنّها خبَرُ ﴿كَانَ﴾ مُقدَّمًا، يَبْقَى النّظَرُ: أيْنَ اسْمُ ﴿كَانَ﴾ عَلَى قِراءَةِ النّصْبِ، أوْ خبَرُها عَلَى قراءَةِ الرّفْعِ، سيذْكُرُه المُفَسِّر.

قوْله تعالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟﴾: أيْ عَمِلُوا العملَ السّيِّئَ مِن الكفّارِ المكذِّبِينَ للرُّسُلِ كما قصَّ الله عَزَّوَجَلَّ، و﴿أَسَـٰٓـُٔوا۟﴾ ضِدّها أحْسَنُوا. فالّذِين أَحْسَنوا قالَ الله فِيهِمْ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس:٢٦]، والّذِين أساؤُوا كان عاقِبتَهم ما ذَكَرَهُ الله هُنَا.

قولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ تأنيث الأسوأ الأقبح]، قوْله تعالَى: ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ اسْمُ

---

(١) التيسير في القراءات السّبع (ص:١١٥).

تفْضِيلٍ مثْـلِ ما نَقُولُ الفضْلَى اسْمَ تفْضِيلٍ، والعظْمَى اسْمَ تفْضِيلٍ، ومُذَكَّرُ الفضْلَى الأفْضَلُ، ومُذَكَّرُ العظْمى الأعْظَم، ومُذَكَّر الأُولى الأوَّل، ومُذَكَّرُ ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ الأسْوَأُ.

إِذَنْ: فـ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ اسْمُ تفْضِيلٍ مؤنَّثِ (الأسْوَإِ)، ومعْنَى الأسْوَإِ: الأقْبَحُ، يعْنِي عمَلُهم السّيِّئ كانَتْ نَتِيجَتُه أسْوأَ، وَهَذا أسْوَأُ بالنّسْبَةِ لما هُمْ علَيْه مِنَ النّعِيمِ فِي الدّنْيا فلَاقَوْا بعْدَ ذَلِك الجحِيمَ، ولا تَظُنَّ أنَّ هَذِهِ الآيَة تدُلّ عَلَى أن السّيِّئَةَ تُجزَى بأسْوَأَ منْهَا؛ لأنَّ الله يقُولُ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠]، لكِنَّ الأسْوَأَ باعْتِبَارِ حالهم لَا باعْتِبَارِ الجزاءِ عَلَى سُوئِهِمْ، فهُمْ كانُوا فِي الدّنيا مُنَعَّمِينَ وكانَتِ الدّنيا بالنّسْبَةِ للْكَافِرِ جنّةً فلَمّا ماتُوا عَلَى الكفْر انتقَلُوا إِلَى أَسْوَأَ وأَسْوَأَ بكَثِيرٍ، ولا يُنْسَبُ إِلَى حالهم فِي الدّنْيا.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: خبـرُ ﴿كَانَ﴾ عَلَى رَفْعِ (عَاقِبَةُ)، واسْمُ كَـان عَلَى نَصْبِ ﴿عَـٰقِبَةَ﴾]، أفَادَنا المُفَسّـر أنَّ فِي ﴿عَـٰقِبَةَ﴾ قراءَتَيْن: النّصْبُ والرّفْعُ، فعَلى قِراءَةِ الرّفْـع نعْرِب ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ اسمَ ﴿كَانَ﴾ و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ خبـرُها منْصُوبٌ بفَتْحَةٍ مُقَدَّرَةٍ عَلَى الأَلِف منَع مِنْ ظُهورِها التّعَذّرُ، وعَلى قِراءَةِ النّصْبِ نعْرِبُ ﴿عَـٰقِبَةَ﴾ خبَرَ ﴿كَانَ﴾ مُقدَّمًا، و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ اسمُها مؤخَّرٌ، وهَذا أحَدُ الأوْجُه فِي الأعْرَابِ.

وقِيل إِنَّ ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ مفعُـولٌ مُطْلَقٌ يعْنِي أَسَاؤُوا السّيِّـئَة السّوأَى، فيَكُـونُ مفْعُـولًا مُطْلَقًا ويَكُونُ الخبَـرُ أَو الاسْم هُو المصْدَرُ المؤَوَّلُ مِـنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَن كَذَّبُواْ﴾، أيْ صَار عاقِبَتُهم حِين أَسَاؤُوا أنْ كَذَّبُوا؛ لأَنَّ الأعْمَالَ السّيِّئَةَ -والعياذُ باللهِ- تَجُرُّ إِلَى السّيِّئَةِ كَما أنَّ الحسَناتِ يَجْرُرْن إِلَى الحسَناتِ.

ولكِنْ مَا ذَهبَ إِلَيْهِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَوْلى، فنَجْعَلُ السّوأَى إِمَّا خبَرَ ﴿كَانَ﴾ عَلَى قِراءَةِ الرّفْعِ، وإِمَّا اسمَها عَلَى قِراءَةِ النّصْبِ.

قولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَالمرَادُ بِها جهَنَّم وَإِسَاءَتِهم ﴿أَن﴾ أَيْ بِأَنْ ﴿كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرْآنِ ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾]: بَيَّنَ لنا المُفسِّر أنَّ العاقِبَةَ أنَّهُم عُذِّبُوا بالنَّارِ، وأنَّ المصْدَر في قوْلِه تعالَى: ﴿أَن كَذَّبُوا﴾ عِلَّـةٌ لكَوْنِ عاقِبَتِهم السّوءَ، أيْ لأنَّهم كذَّبُوا بآيَاتِنا، لكِنَّ المُفسِّر أتى بـ(الباءِ)، والباءُ تكُونُ للسَّبَبِيَّةِ ولِلتَّعْلِيل، والمعْنَى واحِدٌ، أيِ كانَتْ عاقِبَتُهم السّوأَى لأنَّهم كذَّبُوا بآيَاتِ الله، هَذا بِالنّسْبَةِ لأخْبار الآيَات كذَّبُوا بِها، وقَالُوا ليْسَتْ بِصَحِيحَةٍ، وبِالنّسْبَةِ للْعمَل ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾، فجَمَعُوا بيْـنَ الاسْتِهْزَاءِ بالأحْكَامِ والتّكْذِيـبِ بالأخْبارِ وَهَذا الَّذي ذَهَب إِلَيْهِ فِي إعْرَابِ ﴿أَن كَذَّبُوا﴾ أحـدُ الأوْجُهِ أيْضًا؛ لأنَّ هناكَ وجهًا آخَرَ يقُولُ: إنَّ قوْلَه تعالَى: ﴿أَن كَذَّبُوا﴾ بَدَل مِنَ السّوأَى، أوْ بَيان لَهَا، ويَكُونُ المعْنَى أسَاؤُوا السّوأَى، وهُوَ تَكْذِيبُهم فيَكُون عاقِبَتَهم إِذَن التّكذيب والاستهزاءُ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: سواءٌ قُلْنا أنَّها بدَلٌ أو عطْفُ بَيان مِنَ السّوأَى، أوْ: أنَّها لِلتَّعْلِيلِ في ثُبوتِ السّوأَى لَهُم فإِنَّهُ يدُلُّ عَلَى أنَّ هَؤُلاءِ كانُوا مُكَذِّبينَ ومُسْتهزِئِينَ مُكَذِّبِينَ بالخبَرِ ومُسْتهزِئينَ بالحكْمِ، يتَّخذُونَ آيَاتِ الله هُزُوًا فِي الأحْكَامِ وكَذِبًا بالأخْبارِ، فتَجِدُهم مَثَلًا في صَلاتِهم عنْدَ البيْتِ يُصَلُّون مُكَاءً وتَصْدِيَةً، ويسْخَرُونَ مِن الَّذِين آمَنُوا، ومَا إِلَى ذَلِك فيتَّخِذُونَه هُزُوًا.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَن كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن]: فِيه نَظَرٌ ظَاهِرٌ؛ لأَنَّ الآيَة عامَّةٌ، فتَشْمَلُ مَن كذَّبَ بآيَاتِ الله بالقرآنِ بعْدَ بعْثَةِ الرّسُولِ ﷺ، ومَنْ كذَّب بالتّوراة فِي زَمَن مُوسَى، وبالإنْجيلِ فِي زَمن عِيسَى، فالصّوابُ في الآيَة العُمُوم.

بَل لَوْ قِيلَ: لا يَدْخُل فِيها مَنْ كَذَّب بالقرآنِ لكَانَ لَهُ وجْهٌ، يعْنِي لَوْ قِيلَ: إنَّ الأمْر عكْسُ مَا قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا

كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾، فالسّياقُ في قومٍ سَبقُوا لا في قومٍ حَاضِرينَ، فكَوْنُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يجْعَلُ الآيات هُنا بمَعْنَى القرآنِ بَعِيدٌ جدًّا، بَلْ إمَّا أنْ نَجْعَلَها للعُمُوم، وإمَّا أنْ نجْعَلها للأُمَم السَّابِقِينَ، أمَّا أنْ نَخُصَّها بالقرآنِ فهَذا فِيه نَظَرٌ ظَاهِرٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ المرادُ بالآيات هُنا الآيَات الشَّرْعِيَّةُ لأنَّها محَلُّ التَّكذِيبِ، وقَدْ يَكُونُ التَّكْذِيبُ أيْضًا بالآيات الكوْنِيَّةِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾: الاسْتِهزَاءُ يشْمَلُ الاسْتِهزاءَ القوْليَّ، والاسْتِهزاءَ الفعْلِيَّ، فالاسْتِهزاءُ القوْليُّ أنْ يسْخَر بها، مثْلَ مَا وَردَ فِي المنَافِقِينَ، قَالُوا: مَا رَأَيْنا مِثْلَ قُرَّائِنا هَؤُلاءِ أَرْغبَ بُطونًا، وَلَا أَكْذَبَ ألسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ[1]، والاستِهْزاءُ الفعْلِيُّ كأَنْ يَحُجَّ ساخِرًا، أوْ يفْعَلَ شيْئًا مِن العبادَاتِ عَلَى وَجْهِ السّخرِيَةِ والاسْتِهزَاءِ والتَّحْقِيرِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدتَانِ الأوْلى والثّانِيَةُ: سُوءُ العاقِبَةِ للمُسيئِينَ؛ لأنَّ عاقِبَةَ هَؤُلاءِ الَّذِين أسَاؤُوا عاقِبَتُهم السّوأَى؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾، وَهَذا عَلَى رأْيِ المُفَسِّر ظَاهِرٌ؛ لأنَّهُ جَعَل ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ هِي خبَرَ ﴿كَانَ﴾ أوِ اسْمَها عَلَى اخْتِلَافِ القِرَاءَةِ فِي ﴿عَٰقِبَةُ﴾، ويتَفرَّعُ عَلَى هَذِهِ الفائِدَةِ أنَّ عاقِبَةَ المحْسِن الحسْنَى لأنَّ الحكْم يدُورُ مَع علَّتِه، فإذا كانَتْ عاقِبَةُ المسيئِينَ السّوأَى، كَانتْ عاقِبَةُ المحسِنِينَ الحسْنَى، ويُؤيِّدُ ذَلِك قوْله تعالَى:

(١) تفسير الطّبري (١٤/ ٣٣٣).

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: أنَّ الإساءَة هُنا هِي التّكذِيبُ بآيَاتِ الله، والاسْتِهزاءُ بِها عَلَى تقْدِيرِ المُفسِّر؛ لأَنَّهُ قَال بأنْ كَذَّبُوا، وعَلى الرّأيِ الثّاني يكُونُ قوْلُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَن كَذَّبُواْ﴾ هِي العاقِبَةُ فيُستَفادُ منْهَا أنَّ عاقِبَةَ المعَاصِي تكُون الكفْر والتّكذيبَ بآيَاتِ الله والاسْتهزَاءَ بِها، لقَوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾، إذا قلْنَا إنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أيْ عَمِلُوا السّيِّئاتِ فَكان عاقِبتُهُم التّكذِيبَ والاستِهْزاءَ، ويكُونُ معْنَى ذَلِك أنَّ المعَاصِي تكُونُ سببًا للْكُفْرِ، وهُو كَذَلِكَ، وقَدْ قَال أهْلُ العلْم: إنَّ المعَاصِيَ بَرِيدُ الكفْرِ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ الوَحْي الَّذي أنْزَلَهُ الله عَلَى الرّسُلِ مِن آيَاتِه لقوْلِه تَعالَى: ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وإِنَّما كانَ مِن آيَاتِه لَما يشْتَمِلُ علَيْه مِنَ الصّدْقِ في الأَخْبَارِ والنّفْعِ فِي القصَصِ والعدْلِ في الأحْكامِ والإصْلاحِ، فكُلُّ الكتُبِ النّازِلَةِ متضمِّنَةٌ لهِذه الأمورِ: صِدْقٌ في الخبَرِ، نفْعُ القصَصِ، عدْلٌ في الأحْكَامِ، مصْلَحَةٌ للعِبَادِ؛ فلِهَذا كانَتْ هَذِهِ الكتُبُ مِن آياتِ الله؛ لأَنَّهُ لا يُمْكِنُ للْبَشَرِ أنْ يضَعُوا مثْلَها.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: الفرْقُ بيْنَ التّكذِيبِ والاستِهْزَاءِ، فالتّكذِيبُ ردُّ الخبَرِ، والاستِهْزاءُ السّخرِيَةُ بالأعْمالِ الظّاهرَةِ أوِ الباطِنَةِ، والاستِهْزاءُ أشَدُّ؛ لأَنَّهُ جامِعٌ بيْنَ التّكذِيبِ والسّخرِيَةِ.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: التّحذِيرُ مِنْ أعْمالِ السّيِّئاتِ حيْثُ كانَتْ هَذِهِ عاقبَتَها، سواء قلْنَا إنَّ السّوأَى هِي العاقِبَةُ، أوْ أنَّ العاقِبَةَ هِي التّكْذيبُ، فإِنَّهُ يتضَمَّنُ التّحذِيرَ مِنَ الأعْمالِ السّيِّئَةِ.

• • ❁ • •

الآيــة (١١)

• ● ☙ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم:١١].

• ● ☙ ● •

هَذا لتَأْكِيدِ الإِيمان بِاليَومِ الآخرِ، ذَكَّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عبادَه بأَمْرٍ يعْتَرِفُون بِه، وهُو أَنَّه بدَأَ الخلْقَ ولَا أَحَدَ يُنْكِرُ ذَلِك، لا أَحَدَ يدَّعِي أَنَّه خلَقَ نفْسَه، فكُلُّ إِنْسَانٍ يعْرِف أَنَّه مخلُوقٌ مِن عدَمٍ، ومِنَ المعْلُومِ أَنَّه لو ادَّعى أَنَّه خُلِق مِنْ غير خالق فإنَّ كُلَّ أحدٍ يُكذِّبُه، وإِذَا أقرَّ بأَنَّه لَا بُدَّ مِن خالق فنَقُول لَهُ: مَنْ، عَيِّنْهُ لنا؟ وحِينَئِذٍ لَا يستَطِيعُ أن يعيِّنَ، فنَقُولُ: إِنَّ الَّذي خلَقَكَ هُوَ الله.

قوْله تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ أيْ يُنْشِئُه أوَّلَ مرَّةٍ، كَما قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]، وتطْوِيرُ الخلْقِ وجعْلُه أطوارًا أمْرٌ معلُومٌ؛ لأَنَّ هَذا هُو مقْتَضَى الحكْمَةِ، فمُقْتَضى حِكْمَةِ الله تعالَى أنَّ الأشْياءَ تَتطَوَّرُ شيْئًا فشيْئًا حتَّى تَصِل إِلَى حَدِّ الكمالِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب بمهلَةٍ؛ لأَنَّ الإعادَةَ لا تَكُونُ إلا عنْدَ قِيامِ السّاعَةِ، فقِيامُ السّاعَة يتأَخَّرُ كَثِيرًا عَنِ ابْتِداءِ الخلْقِ، ﴿يُعِيدُهُۥ﴾ أيْ يُرْجِعُه مرَّةً ثانِيَةً، وليْس يَبْتَدِئ خلْقًا جديدًا، وَإِنما يُعِيدُ المخْلُوقَ الأوَّلَ، فلَيْس إِنْشَاءَ خلْقٍ جدِيدٍ، بَلْ إعادَةُ مَا سبَقَ، وفرْقٌ بَيْن الأمْرَيْن؛ لأَنَّنا إِذا قُلْنا أَنَّه ابْتِداءُ خلْقٍ جدِيدٍ فمَعْنى ذَلِكَ أَنْ يُعَـذِّبَ مَنْ لم يَعْمَل، وأنْ يُنْعِّمَ مَنْ لم يعْمَل، وأيْضًا فإنَّ كوْنَه يَبْتَدِئ خلقًا جديـدًا

لا يُنْكِرُه المكذِّبونَ بالبعْثِ؛ لأنَّهم يُقرُّونَ بالابْتِدَاءِ، إنما هُمْ يُنْكِرُون الإعادَةَ، ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، وعَلَى هَذا فالبعْثُ إعَادَةُ وجمْعُ مَا تفرَّقَ، وليْس ابتدَاءَ خلْقٍ جدِيدٍ.

وَإذا قِيلَ: هَذا المتفرِّقُ صَار رَمِيمًا، ثمَّ تُرابًا وتَلاشَى، أوْ أنَّ الإنسان أكلَتْه السّباعُ أوْ الحيتَانُ، أَوْ مَا أشْبَهَ ذَلِك.

قُلْنَا: مَهما كَانَ، فاللهُ تَعالَى قادِرٌ عَلَى أنْ يجْمَعَهُ ثمَّ يُعيدَه، وَلِهَذا قَالَ: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ لَا إِلَى غيْرِه، ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فِيها قراءَتَانِ «يُرْجَعُونَ» و﴿تُرْجَعُونَ﴾[1]، فعَلَى قراءَةِ التاء تكونُ الجمْلَةُ للخِطَابِ، وعَلَى قِراءَةِ اليَاءِ تَكونُ الجمْلَةُ للغَيْبَةِ.

ويُشْكِلُ عَلَى هَذا أنَّه قَال: «يُرْجَعُونَ» مَع أنَّ الخلْق في قوْلِه تَعالَى: ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ مفْرَدٌ، ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، ومقْتَضى السّياقِ أنْ يقُولَ: «ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُ»، لكنَّه قال: «يُرْجَعُونَ».

والجوابُ عَلَى ذَلِكَ: أنَّ (الخلْقَ) مصْدَرٌ بمعْنَى اسْمِ مفْعُولٍ، فمَعْنَى يبْدَأُ الخلْق يعْنِي يبْدَأُ المخْلُوقِينَ، ولكنْ لَمَّا كَان مصْدَرًا فإِنَّ المصْدَر لا يُثَنَّى ولَا يُجْمَعُ، قَال ابْنُ مَالك في الألفيَّةِ[2]:

وَنَعَتُوا بِمَصْدَرٍ كَثِيرَا ... فَالتَزَمُوا الإِفْرَادَ وَالتَّذْكِيرَا

---

(١) الحجة للقراء السّبعة (٥/ ٤٤٤).

(٢) البيت رقم (٥١٣) من ألفيته.

وعَلى هَذا فنَقُول: إنَّ الخلْقَ بمعْنَى المخْلُوقِين، يَعْنِي ثمَّ إِلَى الله يَرْجِعُ هَؤُلاءِ المخلُوقُونَ بَعْدَ الإعادَةِ، وَهَذا الرّدُّ إِلَى الله والإرْجاعُ مِنْ أجْلِ الجزاءِ والحسَابِ، ثمَّ المآلُ إِلَى دَار النّعِيمِ أوْ إِلَى دَارِ الجحِيم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: قدْرَةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حيْثُ ابْتَدَأ الخلْقَ.

الفائِدَةُ الثّانِيَةُ: ثُبوتُ حُدوثِ العالمِ، وأَنّهُ ليْسَ قَدِيمًا لَا أَوّلَ له كَما زعَمَتِ الفلاسفَةُ أنَّ الله ابْتدأَهُ، والمبْتَدَأُ معْناه كَان بالأوّلِ عدمًا.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: ثُبُوت البعْثِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ البعْثَ ليْسَ ابْتِداءَ خلْقٍ، ولكنَّه إعادَةٌ، خِلافًا لمَنْ قَال: إنَّ البعْثَ ابتِدَاءُ خلْقٍ؛ نأخُذُها مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، والضّمِيرُ يعُودُ إِلَى الخلْق المبْتَدَأِ، وقَد سبَق فِي كلامِنا عَلَى هَذِهِ الآيَة أنَّه لوْ كانَتِ الإعادَةُ ابتداءَ خلْقٍ جدِيدٍ لكانَ يُعَذَّبُ مَنْ لم يَعْمَلْ، ويُنعَّمُ مَنْ لم يَعْمَلْ، ولكِنَّ البعْثَ إعادَةٌ لما سَبَق.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هلِ المرَادُ إعادَةُ نفْسِ الأجْسَام أمْ تنبُتُ نَباتًا جديدًا؟

قُلْنَا: نفْسُ الأعْيَانِ التي تفتّتت وذَهبَتْ يُعِيدُها الله، فإِذَا تحوَّلَ إِلَى تُرابٍ يُعادُ، وَهَذا الجسْمُ المخْلُوقُ هُو نفْسُ الأوّل، يجْمَعُ الله تَعالَى ما تفرَّقَ منْهُ ثمَّ يُحْيِيهِ.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: الاسْتِدلال بالمبْدَأ عَلَى المعَادِ، تُؤْخَذُ مِنْ قوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَبْدَؤُاْ﴾، و﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، فإنَّ هَذا استِدْلالٌ بالمبْدَإِ عَلَى المعَادِ، والاسْتِدلال بالمبْدَإِ عَلَى المعَادِ استِدْلَالٌ حقِيقِيٌّ ومنْطِقِيٌّ ومعقُولٌ، فالمبْدَأُ أشَدُّ وأصْعَبُ، فالقادِرُ عَلَى الابتِداءِ قادِرٌ عَلَى الإعادَةِ؛ وَلِهَذا قالَ الله تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ

﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧]، الكلُّ هيِّنٌ لكِنَّ هَذا أهْوَنُ؛ لأَنَّ هَذا إعَادَةٌ.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أنَّ مرجِعَ الخلائِق إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ في الدّنْيا وفِي الآخرةِ، أمَّا فِي الآخرةِ فيَرْجِعُونَ إِلَى الله ليحْكُم بينَهُم بالجزاءِ، وأمَّا فِي الدّنيا فيَرْجِعُونَ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ ليحْكُمَ بينَهُم بالعمَلِ، ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشّورى:١٠]، هَذا خَبَرٌ، وقالَ ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النّساء:٥٩].

فالمُهِمُّ: أنَّ المرْجِعَ إِلَى الله في الدّنْيا والآخرةِ، فالمرْجِعُ إِلَى الله تَعالَى في أُمُورِ دُنْيانا وفِي أُمورِ دِينِنا، وَكَذلِكَ فِي أمْرِ الآخرةِ نُرجَع إِلَى الله ويُجازِينا بِمَا نستَحِقُّ، وإِنْ كانَتْ تَعْني الآخرةُ بالأوْلَويَّةِ فقَطْ؛ لأنَّهَا في سِيَاقِ هَذا، لكِنْ لَا مانِعَ مِنْ أنْ تُحْمَل عَلَى العُمُوم، لا سِيَّما أنَّه ذَكَر ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنّه لا يَجوزُ التّحاكُمُ إِلَى غيرِ الله؛ تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾، وجهُه الحصْرُ فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿إِلَيْهِ﴾، يعْنِي لَا إِلَى غيْرِه.

الآيــة (١٢)

• ● • ●

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [الرّوم:١٢].

• ● • ●

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ يَسْكُت المشْرِكُـون لانقطاع حجتهم] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿ وَيَوْمَ ﴾: ظَرْفٌ متعلِّقٌ بقوْلِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يُبْلِسُ﴾، وهِي مُضافَةٌ إِلَى الجمْلَةِ بعْدَها، والجمْلَةُ بعْدَها ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، فالجمْلَةُ إِذَنْ في محَلِّ جرٍّ بالإضافَةِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾: أيْ تأْتِي، كَما قَالَ الله تَعالَى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾، والسّاعَةُ المرادُ بِها ساعَةُ البعْثِ، فـ(أل) فِيها للْعَهْدِ الذِّهْنِيِّ، يعْنِي السّاعَةَ المعهُودَةَ العظِيمةَ التي فِيها قِيامُ الخلْقِ مِنْ قُبورِهِم إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ.

قوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يسكـت]: فالإبْلاس بمعْنَى السّكُـوتِ، وقِيلَ الإِبْلاس بمَعْنَى اليَأْسِ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾ [الرّوم:٤٩]، أي لآيِسِينَ، ومِنْه (إِبْلِيسُ)؛ لأَنَّهُ أَيِس مِن رحْمَةِ الله، وعَلى هَذا فيَكُونُ (يُبْلِسُ) بمعْنَى ييأَسُ، ولا يَبْعُدُ أَنْ تَكُونَ الآيَة جامِعَةً للمَعْنيَيْنِ أيْ ييْأَسُونَ فيَسْكُتُونَ؛ لأَنَّهُ إِذا أَيِس سكَتَ ولَمْ يتكَلَّمْ بشَيْءٍ، إِذ إِنَّ الكلامَ لَا ينْفعُهُ، وعَلى هَذا فنَقُولُ: إِنَّ مَعْنى (يُبْلِسُ) ييْأَسُ مَع السّكوتِ.

وقوْله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: اسْمُ فاعِلٍ مِنْ (أَجْرَمَ)، أيْ فَعَل الجرْمَ، وهُو الذّنْبُ العظِيم؛ وَلِهَذا فسَّرها المُفسِّر بقَوْلِه: (المشْرِكُونَ)، ويُسْتَدَلُّ عَلَى أنَّ المرَادَ بِه المشْرِكُونَ بقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآيِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ﴾، فهُمْ يَوْمَ القيامَةِ يَيْأَسُونَ ويَسْكُتونَ ولَا يجِدُونَ لهُمْ حُجَّةً.

• • ❁ • •

الآيــة (١٣)

• ● ○ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الروم:١٣].

• ● ○ ● •

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَلَمْ يَكُن ﴾ أَيْ لَا يَكُـون ﴿لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ مِمَّنْ أَشْرَكُـوهُمْ بِالله وَهُمْ الأَصْنَام لِيَشْفَعُـوا لَهُمْ ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ﴾ أَيْ يَكُونُـونَ ﴿بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ مُتَبَرِّئِينَ مِنْهُمْ] اهـ.

قوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَلَمْ يَكُن ﴾ أي لا يكون]: فسَّر (لم) بـ(لا)؛ لأَنَّ (لم) في قوْلِه تَعالَى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ ﴾ لِلْماضِي، فتَقْتَضِي أن يكونَ هَذا الأَمْرُ قدْ وَقَع وهُوَ لم يأتِ لأَنَّهُ يَوْمَ القيامَةِ، فعلَى هَذا يكُونُ الماضِي بمَعْنى المسْتَقْبَلِ، أيْ: ولَمْ يَكُنْ لَهُم حِينَئِذٍ، وعِنْدِي أنَّه لَا حاجَةَ إِلَى هَذا التَّأْويلِ، أيْ لَا حاجَةَ إِلَى أنْ نَجْعَلَ (لم) بمعْنَى (لا)؛ لأَنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿ وَلَمْ يَكُن ﴾ مقيَّدَةٌ بِكلِمَةِ (يُبْلِس)، يعْنِي ولَمْ يكُنْ لَهُم فِي حالِ الإِبْلاس، وحَالُ الإِبْلاس يكُونُ يوْمَ القيامَةِ، لكِنَّ المُفَسِّر أَخذ الآيَة عَلَى أنَّها مُطْلَقَةٌ بدُونِ أنْ تُقيَّدَ بقَوْلِهِ: (يُبلِسُ)، وعلَى هَذا لا بُدَّ أنْ نَقُولَ: إنَّ (لم) بمَعْنَى (لا).

قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ اسْمُ ﴿يَكُن﴾، ﴿مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ خبرُها مقدَّمٌ، و﴿شُرَكَآئِهِمْ﴾ جمْعُ شَريكٍ، وهُو بمَعْنى اسْمِ مفعُولٍ، مثْلُ قَتِيل بمَعْنى مقْتُول، أيْ مشْرُوك بِه، والمعْنى مَن جَعلُوهم شُركَاءَ مَع الله كَمـا قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ مَنْ

أَشْرَكُوهُمْ بِاللهِ]، فصَارَتِ الإضافَةُ هُنا مِنْ بَابِ إضافَةِ الشَّيْءِ إِلَى مفْعُولِهِ، أي الَّذِين جَعلُوهُمْ شُركَاءَ لَهُمْ.

وقوْله تَعالَى: ﴿شُفَعَـٰٓؤُاْ﴾ جَمْعُ (شَفيع) بمعْنَى شَافِع، وَالشّافِعُ هُو مَن يتوسَّطُ للغَيْرِ إمَّا لجَلْبِ منفعَةٍ، وإمَّا لدَفْع مضَرَّةٍ، وسُمِّي شافِعًا لأنَّك بِه كُنْتَ شِفْعًا بعْدَما كنْتَ قبْلَه منْفَرِدًا؛ وَلهِذا سُمِّي الشَّفِيع شافِعًا لهذا الوَجْهِ، أما الشَّفاعةُ لجلْبِ المنْفَعة فكأَنْ يَكُونَ فَقِيرًا فيتوسَّطُ له عنْدَ الملِكِ ليُعْطِيَه مالًا. وأمَّا دفْعُ المضَرَّة فكَأَنْ يتوسَّطَ لَهُ ليُخْرِجَهُ مِن السّجْنِ، ومثاله أيْضًا في الشّرْعِ شفاعَةُ النّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في أهْلِ النّارِ أنْ لَا يدْخُلوهَا، فهَذِهِ شفاعَةٌ لدَفْعِ مضَرَّةٍ، وشفاعَتُه لأهْلِ الجنَّة أنْ يدْخلُوهَا جلْبٌ لمنْفَعَةٍ، فهَؤُلاءِ لم يَكُنْ لهم مِنْ شُركائِهم شُفَعَاءُ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَانُواْ﴾ أي يكونونٍ]: مثْلُ مَا قَال فِي: ﴿وَلَمْ يَكُن﴾.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ أي متبرِّئِيـنَ منهم]: نَعَمْ، فِي يوْمِ القيامَةِ هؤُلاءِ الشّـركَاءُ الَّذِين كانُوا يَرْجُونَ منْفَعَتَهُم فِي يوْمِ القيامَةِ يَكْفُرونَ بِهم ويتبرَّؤُونَ منْهم، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ [البقرة:١٦٧]، فهُمْ يكْفُرونَ بِهم يوْمَ القيامَةِ لَا هَؤُلاءِ ولَا هَؤُلاءِ المعبُودُون يكْفُرونَ والعابِدُون أيضًا يكْفُرونُ، كُلٌّ منْهُم يكْفُرُ ببَعْضٍ -والعياذُ باللهِ-، بيْنَما كانُوا فِي الدّنيا يَرْجُونَ شفَاعَتَهُم وخيْرَهُم، قَال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، لكِنَّهُم فِي يَوْمِ القيامَةِ -والعياذُ باللهِ- يتبرَّأُ بعضُهُم مِن بعضٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: قِيامُ السّاعَة وأنَّه كائِنٌ لَا محالَةَ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: أنَّ أهْلَ الشّرْكِ إذا قامَتِ القيامَةُ سكَتُوا وأَيِسُوا مِن الرّحْمَةِ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ بخِلَافِهم فِي الدّنْيا، فإنَّهم فِي الدّنيا يُعانِدُونَ ويسْتَعْلُونَ بآلِهتِهم كَما قَال أَبُو سُفْيانَ: أُعْلُ هُبَل، ولكِنْ فِي الآخرةِ لَا حِراكَ لَهُمْ ولَا قولَ، ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: أنَّ هَذِهِ المعبُوداتِ لا تنْفَعُ أصحابَها فِي أَحْوَجِ ما يَكُونُونَ إليْها؛ وجْهُ ذَلِك من الآيَة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ﴾، فذَلِك اليوْم هُو محلُّ الشّفاعَةِ لكِنَّهُم لَا يسْتَفِيدُونَ مِن هَذِهِ الأصْنَامِ، بَلْ أكْثَرُ مِن هَذا أَنَّهُم يَكْفُرون بِهذا، ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾، يكْفُرون بِهم كَما أنَّ الأصْنَامَ تَكْفُر بِهم أيضًا، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦]، فيتبَرَّأُ كُلٌّ مِن الآخر مَع أنَّ ذَلِك هُو محلُّ الأزْمَةِ ومحلُّ الفرَجِ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: الإِشارة إِلَى أنَّ هَؤُلاءِ المشْرِكينَ إِنَّما أشْرَكُوا لطلَبِ أنْ يكُونَ هَؤُلاءِ المشْرَك بِهم شُفعاءَ، وَهَذا ما صرَّح الله بِه في قوْلِه تَعالَى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، فإذا قَال هَؤُلاءِ الَّذِين يعْبُدونَ القبورَ: نَحْن مَا نعْبُدُهُمْ لأَنَّنا نرْجو منْهُم نفعًا مباشِرًا لكِن نعْبُدهم ليَشْفَعُوا لنَا إِلَى الله.

قُلْنَا: هَذا شِرْكُ الأوَّلِين، وَهَذا مَا حكَاهُ الله عَن المشْرِكِينَ أنَّهم لَا يُريدُونَ النّفْع المباشِرَ لكنَّهُم يُريدُونَ أنْ تكُونَ شفِيعَةً لَهُمْ عِنْدَ الله عَزَّوَجَلَّ.

• • ۞ • •

الآيتان (١٤، ١٥)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ [الروم:١٤-١٥].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ ﴾ تَأْكِيد ﴿يَتَفَرَّقُونَ ﴾ المؤْمِنُونَ والكافرون، ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ ﴾ جَنَّة ﴿يُحْبَرُونَ ﴾ يسُرُّونَ، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ القرْآن ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ البعث وغيره ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾] اهـ.

نقُولُ فِيها كَما قُلْنا فِيما سبَقَ أَنَّ المرَادَ بالسّاعَةِ ساعَةُ البعْثِ المعْهُودَةِ المعْلُومَةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿يَتَفَرَّقُونَ ﴾: مُتعَلِّقٌ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ يعْني أنَّ قوْله تعالَى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ﴿يَتَفَرَّقُونَ ﴾، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تأكيدٌ للأُولَى، والدّلِيلُ عَلَى أنَّها تأكِيدٌ أنَّها لَوْ حُذِفَتْ وقِيلَ: (ويَوْم تَقُومُ السّاعَةُ يتفرَّقُون) اسْتَقامَ الكلامُ لكِنْ يفُوتُ التّوْكِيدُ الّذي أرادَهُ الله عَزَّوَجَلَّ، يعْنِي فِي ذَلِك اليَوْمِ بالتّأكِيدِ.

والتّنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ -وفي كُلِّ مواردِها- عِوَضٌ عنْ جُمْلَةٍ، أيْ (يَوْمَ إِذْ تَقُومُ السّاعَةُ) وكَذلِكَ يُقَالُ فِي (حينَئِذٍ) و(وقتِئذٍ)، التّنوينُ فِيها عِوَضٌ عنْ جُمْلَةٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿يَتَفَرَّقُونَ ﴾: الضّميرُ يعُودُ عَلَى الخلْقِ فيشْمَلُ المؤْمِنَ والكافِرَ حَتَّى لَو كانُوا أقَارِبَ لوْ كَان أَبٌ مسْلِمٌ وابْنٌ كافِرٌ أوْ بالعكْسِ تفرَّقُوا لأنَّها دارُ

الجزاءِ وكلٌّ يُجْزَى بعمَلِه.

قولُه تعالَى: ﴿ فَأَمَّا ﴾: حرْفُ شَرْطٍ وتفْصِيلٍ؛ ولذَلِك يُؤْتَى بِها دَائِمًا في مَواضِعِ التَّفْصيل، كَما فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ [الليل:٥]، ثُمَّ قالَ في ضِدِّه: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ [الليل:٨]، وهِي أيْضًا حرْفُ شرْطٍ؛ ولِذَلِك تَحْتاجُ إِلَى جَوابٍ، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ [الليل:٥-٧]، وهنَا قالَ تعالَى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ ﴾ فتكُونُ إِذَنْ حرْفَ شرْطٍ وتفْصيلٍ، وهِي أيْضًا متضَمِّنَةٌ لمعْنَى التّوكِيدِ، فإِنَّها تُؤكِّدُ لأَنَّ قولَك: (أمَّا مَن فعلَ كَذا فَلَهُ كذا) أقْوى مِنْ قَولِكَ: (مَن فعَلَ كذا فلَهُ كَذا)، فهِيَ عَلَى هَذا تفِيدُ الشّرْطِيَّةَ وَالتَّفْصيل والتّوكِيدَ، وهُوَ تقْويةُ الكلامِ، وأيْضًا تُفيدُ حصْرَ التّفرُّق عَلَى هذَيْنِ الفريقَيْنِ.

قوْله تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مبْتَدأٌ، والخَبرُ ﴿فَهُمْ﴾ مِنْ جُملة ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾.

وقوْله تَعالَى: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يعْنِي جَمَعُوا بيْنَ الإِيمان وَالعمَلِ، واعْلَمْ أنَّ الإِيمان إِذا أُفْرِد شَمِلَ العمَل كَما أنَّ عمَلَ الصّالحاتِ إِذا أُفْرِد يشْمَلُ الإِيمان، فَإِذا قُرِن أحَدُهما بالآخر صَار الإِيمان يعْني الأعمالَ الباطِنَةَ، وعَملُ الصّالحاتِ للأَعْمالِ الظّاهِرة أيْ عَمل الجوارِحِ، والإِيمان يَشْمَلُ الإِيمان باللهِ وملائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ والْيَومِ الآخر والقدَرِ خيْره وشَرِّه، هكَذا فسَّرهُ النّبيُّ ﷺ لجبْريلَ حينَ سأله مَا الإِيمان؟ قَال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخرِ وَتُؤْمِنَ بِالقدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1].

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٨).

قَوْله تَعالَى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: ﴿عَمِلُواْ﴾ تشمَلُ الفعْلَ والقوْلَ، والعمَلُ الصّالح يشْمَل قوْلَ اللّسانِ وعمَلَ الجوارِحِ، والعمَلُ الصّالح هُو ما جَمعَ بَيْنَ أمْرَينِ:

- الإِخْلاص للهِ عَزَّوَجَلَّ.

- والمتَابعَة لرَسُولِه ﷺ.

فقوْلُه تَعالَى: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِن هَذيْن الأمْرَيْنِ إيمانٌ وعمَلٌ، ومجردُ الإِيمان لا ينْفَعُ بدُونِ عملٍ، وَالعملُ بدُونِ إيمانٍ أيْضًا لا ينْفَعُ، بلْ لا بُدَّ مِن إِيمانٍ وعمَلٍ، وَبِهذَا نعْرِفُ أنَّ بعْضَ النّصوصِ المطْلَقةِ التي فيها الوَعْدُ بالجنَّةِ لمنْ كَانَ فِي قلْبِهِ أدْنَى حَبَّةِ خرْدَلٍ مِنْ إيمانٍ ومَا أشْبَهَ ذَلِك أنَّ المرادَ الإِيمان المتضمِّنُ للعَملِ تحقِيقًا أو تقْديرًا، تحقِيقًا بأنْ يكُونَ عامِلًا فعْلًا، وتقْدِيرًا بأنْ يكُونَ لم يتمَكَّنْ مِن العمَلِ، ولكِن مَعه الإِيمَان، كَما لَوْ آمَن عنْدَ قُربِ وفَاتِهِ مثْل الأصَيْرِم مِن بَنِي عبْدِ الأشْهَل قصَّتُه معروفَةٌ في أُحُدٍ[(١)].

وقوْله تَعالَى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾: جمْلَةٌ اسْميَّةٌ، للدّلالَةِ عَلَى الثّبوتِ

---

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: حَدِّثُونِي عَنْ رَجُلٍ دَخَلَ الجَنَّةَ لَمْ يُصَلِّ قَطُّ؟، فَلَمَّا لَمْ يَعْرِفْهُ النَّاسُ سَأَلُوهُ مَنْ هو؟ فَقَالَ: أُصَيْرِمُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، عَمْرُو بْنُ ثَابِتِ بْنِ وَقْشٍ، قَالَ الحُصَيْنُ: فَقُلْتُ لِمَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ: كَيْفَ كَانَ شَأْنُ الأُصَيْرِمِ؟، قَالَ: كَانَ يَأْبَى الإِسْلَامَ عَلَى قَوْمِهِ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى أُحُدٍ، بَدَا لَهُ الإِسْلَامُ فَأَسْلَمَ، فَأَخَذَ سَيْفَهُ فَغَدَا حَتَّى أَتَى القَوْمَ، فَدَخَلَ فِي عُرْضِ النَّاسِ فَقَاتَلَ حَتَّى أَثْبَتَتْهُ الجِرَاحَةُ، فَبَيْنَمَا رِجَالُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ يَلْتَمِسُونَ قَتْلَاهُمْ فِي المَعْرَكَةِ إِذَا هُمْ بِهِ، فَقَالُوا: وَالله إِنَّ هَذَا لَلْأُصَيْرِمُ وَمَا جَاءَ، لَقَدْ تَرَكْنَاهُ وَإِنَّهُ لَمُنْكِرٌ هَذَا الحَدِيثَ، فَسَأَلُوهُ فَقَالُوا: مَا جَاءَ بِكَ يَا عَمْرُو؟، أَحَرْبًا عَلَى قَوْمِكَ أَوْ رَغْبَةً فِي الإِسْلَامِ؟، فَقَالَ: بَلْ رَغْبَةً فِي الإِسْلَامِ، آمَنْتُ بِالله وَرَسُولِهِ وَأَسْلَمْتُ، ثُمَّ أَخَذْتُ سَيْفِي فَغَدَوْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَقَاتَلْتُ حَتَّى أَصَابَنِي مَا أَصَابَنِي، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ فِي أَيْدِيهِمْ، فَذَكَرُوهُ لِرَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»، أخرجه أحمد (٣٩/ ٤١، رقم ٢٣٦٣٤) طبعة الرّسالة.

والاسْتِمرارِ ﴿فِي رَوْضَةٍ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جنَّة] وهِي كذَلِك، فالرَّوْضَةُ عبارَةٌ عَنِ البساتِينِ المشْتَمِلَةِ عَلَى الأزْهارِ وَالأشْجارِ وَالرّوائِح الطَّيِّبَةِ وَالمنَاظِرِ البهِيجَةِ؛ وَلهَذا قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُحْبَرُونَ﴾: أي يُسَرُّون]، وقِيلَ: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يُنَعَّمُون، وهُما متَلازِمَانِ؛ لأَنَّ النَّعِيمَ يحْصُلُ بِه السّرورُ، هَؤُلاءِ الَّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحاتِ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُون.

قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُحْبَرُونَ﴾: الماضِي منْهُ (حُبِرَ)، وهُوَ فِعْلٌ مضَارِعٌ مبْنِيٌّ للمَجْهُولِ والماضِي منْهُ إذا كَان فِيه الفاعِلُ الظّاهِرُ بالكسْرِ (حَبِرَ)، فتكُونُ مثْلَ (فَرِح يَفْرَح، حَبِرَ يَحْبَرُ).

الآية (١٦)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآيِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم:١٦].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ القرْآن ﴿وَلِقَآيِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ البعث وغيره ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾] اهـ.

فِي هذِهِ الآيَة بَيان لِلْقِسْمِ الثّانِي، وَهُمُ الَّذِين كفرُوا بتَـرْك العمل الصّالح، ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ فلَمْ يُؤْمِنُوا.

وقولُه رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ القرْآن]، غيرُ صحِيـحٍ، بَل قطْعًا يشْمَلُ القرآنَ وغَيْرَ القرآنِ؛ لأَنَّ الَّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحاتِ والَّذِين كَفرُوا وكذَّبُوا بِآيَاتِ الله ولِقَائِهِ هؤُلاءِ يَكُونُونَ في هَذِهِ الأمَّةِ ويَكُونُونَ فِي غيْرِها.

وقوْلُهُ رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿وَلِقَآيِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ البعْثِ وغَيْرِه]، البعْثُ الإخراج مِنَ القبورِ وغَيْرُه مِن الحَسَابِ والجزاءِ وَالجنَّةِ والنّار، فيُكَذِّبُونَ بِها فيَقُولونَ لَا تُوجَدُ جَنَّةٌ ولا نَارٌ ولا حِسابٌ ولَا عَذابٌ، والعجِيبُ أنَّ هَذا القوْلَ الباطِلَ الفاسِدَ نَحا إِلَيْهِ مَنْ يُسمُّونَ أنْفُسَهُم بِالحكَماءِ وهُمُ الفلاسِفَةُ، يقُولونَ أنَّه لا تُوجَدُ جنَّةٌ ولا نَارٌ ولا بَعْثٌ، ولَكِنَّ الرّسلَ قَالوا لِلنَّاسِ هَذا مِن أجْلِ إقامَتِهم عَلَى الطّريق التي اختَرعُوها لَهُم، ويَزْعُمونَ -وَالعياذُ بِاللهِ- أنَّ الرّسُلَ رجَالٌ عباقِرَةٌ عنْدَهُم ذكَاءٌ وحُسْنُ سِيرَةٍ وتنْظِيمٌ، لكِنَّهم

لَو قَالُوا لِلنَّاس: افْعَلُوا كَذا أوْ لَا تفْعَلُوا كَذا بدُونِ ترْهِيبٍ ولَا ترْغِيبٍ مَا أطَاعَهُم النّاسُ، فكَانُوا يقُولونَ لِلنَّاسِ: إنَّ لكُم ربًّا عظِيمًا وإلهًا قادِرًا، وإنَّ لكُم معادًا يَكُونُ فِيه الجنَّةُ أوِ النّارُ، والأمْرُ ليْسَ كَذَلِكَ عنْدَهُم، يعْنِي إنَّما ذَكَرُوا ذَلِك مِنْ أجْلِ إقَامَةِ النّاسِ عَلَى الطّـريقِ التي سَنُّوها لهُم، وَهَذا معْنَاهُ الكفْر بالبعْـثِ وَبِالرّسالَةِ وحتَّى بأنْفُسِهم؛ لأنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ باللهِ عَزَّوَجَلَّ فقَدْ كَفَر أوَّلَ مَا كَفَر بنَفْسِه؛ لأنَّهُ أنْكَرُ أنْ يكُونَ لَه خالقٌ.

قَوْله تَعالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾: أعُوذُ باللهِ، المَرادُ بِالعذَابِ هُنَا العقوبَةُ، وجَعل العذابَ ظرْفًا لهُم لأنَّهُ محِيطٌ بِهِمْ مِن كُلِّ جانِبٍ، كَما قَالَ الله تَعالَى: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ [العنكبوت:٥٥].

وقوْله تَعالَى: ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ مِن الإحْضَارِ أحْضَرْتُه، بمَعْنى: جعلْتُه يَحْضر هَذا الشّيْءَ، فهَؤُلاءِ مُحضَرُونَ فِي العذابِ بدُونِ اخْتِيارِهِمْ، لَوْ رَجع الأمْرُ إلَى أنْفُسِهم مَا حَضَرُوا، لكِنَّهم يُحْضَرونَ فِيه كَرْهًا.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفَائِدَةُ الأولَى: إثْبَات القِيامَةِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾.

الفَائِدَةُ الثّانِيَةُ: أنَّه في ذَلِك اليَومِ يتفَرَّقُ النّاسُ إلَى فَريقَيْنِ: فَريقٌ في الجنَّةِ، وفَريقٌ في السّعِيرِ.

الفَائِدَةُ الثالِثَةُ: أنَّ الآباءَ مَع أوْلادِهِم والأمَّهاتِ مَع أوْلَادِهم إذا كانَ أحَدُهم كافِرًا والثّاني مُؤْمِنًا يتفرَّقونَ، ولَا يُمْكِنُ أنْ يُنْقِذَ أحَدٌ أحدًا فِي ذَلِك اليَوْمِ لِعُمُوم قوْله تَعالَى: ﴿يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ولم يَسْتَثْنِ الأوْلادَ مَع والدِيهم

أَوْ بالعكْس فَفي ذَلِكَ اليَوم لَا يُوجَدُ اجتِماعٌ إلا إِذا كَانُوا عَلَى الحقِّ، وَهَذا لا يَشْمَلُ المؤْمِنيـنَ؛ لأَنَّ المؤْمنيـنَ تَفرُّقُهم إِلَى جِهَةٍ واحِدَةٍ؛ وَلِهَذا قَال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فجَعلَهُم قِسْمَيْنِ: إمَّا في منَازِلِهم فِي الجنَّة، كُلٌّ في منْزِلَتِه لكِنْ فِي عَرُصاتِ القيَامَةِ يَكُونُ فَرِيقُ المؤْمِنينَ جَمِيعًا، وفَرِيقُ الكفَّارِ جَمِيعًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل كُلُّ إِنْسَانٍ مستقِلٌّ بنفْسِه حتَّى ولَوْ كانَ مُؤْمِنًا؟

قُلْنَا: هَذا لَيْسَ بظَاهِرٍ؛ لأَنَّ قوْلَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وقولَه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يقْتَضِي أَنَّ المقْصُودَ تفرَّقُ الجِنْس ينْقَسِمُونَ مثْلَ مَا قَالَ الله تَعالَى: ﴿فَرِيقٌ فِي الجنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧].

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: إِثْبَات الجزَاءِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ﴾، وقوْلِه تعالَى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

الفائِدتَانِ الخامِسَةُ والسّادِسَةُ: فضِيلَةُ الإِيمَـان والعمَلِ الصّالح؛ حيْثُ كانَ جَزاؤُه مَا ذَكر والتّحْذِيرُ مِنَ الكفْر، حيْثُ كَان جَزاؤُه مَا ذَكر أَيْضًا.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنَّ الإِيمَان والعمل يتَّفِقانِ إِذا افْتَرَقَا ويَخْتلِفانِ إِذا اجتَمَعا، فعَلَى هَذا يكُونُ كُلٌّ منْهُما بمَعْنَى الآخر عنْدَ الانْفِرادِ، ويَخْتَلِفُ كلٌّ منْهُما عَنِ الآخر عنْدَ الاجْتِماعِ.

الفائِدتَانِ الثّامِنةُ والتّاسِعةُ: أَنَّ العمَل لا ينْفَعُ إِلا إِذا كَان صَالحًا؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وحيْثُ إِنَّنا فسَّرْنا الصّالح بأَنَّه مَا اجْتَمع فِيه الإِخْلاص والمتابَعَةُ يُسْتَفادُ مِنْهُ أَنَّ العمَل الَّذي فِيه الشّرْكُ لَا ينفَعُ صاحِبَهُ، وَهَذا واضِحٌ، وفِي

الصّحيح مِن حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ عَنِ النّبيِّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أنَّ الله قَال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُه وَشِرْكَهُ»[1]، وهَل هَذا يشْمَلُ الشّرك في الصّفَةِ، وفِي أصْلِ العمَلِ، أوْ نَقُولُ: إذا كَانَ أصْلُ العمَلِ لَا شِرْكَ فِيه والصّفَةُ فِيها شِرْكٌ قُبِل أصْلُ العمَل دُونَ صِفَتِه، مثَلًا رجَلٌ أرَادَ أنْ يُصلِّي الرّاتِبَةَ لكِنَّهُ أحْسنَها وأتْقَنَها واطمَأَنَّ فِيها رياءً، فإِنَّ هَذا لا ينْفَعُه، فَمَنْ ذَكَر الله: يُسَبِّحُ مرَّةً واحِدَةً، ولكنَّه من باب الرِّياءِ يُسَبِّحُ ثلاثًا، فتسبيحُه الثّلاثُ لَا ينْفَعُه، لكِنْ لا نقولُ أنّه يحْبطُ عمَلُه، بَل يأْثَمُ عَلَى ذَلِك؛ لقوْلِه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النّساء:٤٨]، فالشّرك مِن خصائِصِه ولَوْ كانَ أصْغَر ألا يُغفر إلا بتَوْبَةٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَل يُفرَّقُ بيْنَ الاسْتمرارِ عَلَى الشّرْك الأصْغَرِ وعَدمِ الاسْتمرارِ؟

قُلْنَا: لا يُفرَّق بيْنَهُما، مَا دامَ أنّه لَا يصِلُ إِلَى حدِّ الأكْبَر فهُوَ أصْغَرُ، لكِنْ يُفرَّقُ بيْنَهم مِن جِهَةِ الإصْرارِ عليْه، فيكُون أعْظَم مِن فِعْلِه مرَّةً ثمَّ ترْكِه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الرّياءُ إِذا طرَأَ فِي أثْناءِ العبادَةِ، هلْ يَكُون مُبطِلًا للعِبادَةِ؟

قُلْنَا: الرّياءُ إِذا طرَأَ فِي أثْناءِ العبادَةِ فإِنْ كافَحه ودَافَعه مَا ضَرّه، وإِنِ اسْترْسَل معَه واطمأَنَّ إِلَيْهِ فإنَّهُ يضُرُّه، أمَّا هَل يكُونُ مُبْطِلًا للعِبادَةِ أوْ غيْرَ مُبْطِلٍ فإِنْ كانَتِ العبادَةُ تتجزَّأُ، كَما لَو أرَادَ أنْ يتَصدَّق بصَاعَيْنِ فأخْرج صاعًا بدُونِ رِياءٍ، ثمَّ أخْرَجَ الثّانِي برِياءٍ فإِنَّ البطْلانَ يَخْتصُّ بِما حصَل بِه الرّياءُ فقَطْ، يعْنِي الأوّلُ يكُونُ صحِيحًا، وَإِنْ كانَتِ العبادَةُ لا تتجزَّأُ -كَما فِي الصّلاةِ- فإِنَّ مِن أهْلِ العلْمِ مَن يَرى أنَّ الصّلاةَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزّهد والرّقائق، باب من اشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

تبطُل لأَنَّ الرِّياءَ طَرَأَ عليْهَا وهِي لا تتجزَّأُ، فَلا يُمْكِنُ أنْ يَصِحَّ أوَّلُها دُونَ آخِرِها ومِنْهُم مَن يقُولُ: لَا تَبْطُل لأَنَّ أصْلَ هَذا العمَلِ خَالصٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، فَلا يُبْطِلُه الرِّياءُ.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أنَّ الجنَّة روْضَةٌ لقوْلِه تعالَى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾، ويُرْوَى أنَّ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَال لِلنَّبيِّ ﷺ ليْلَة عُرِج بِه: «أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجنَّةَ قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَها: سُبْحَانَ الله، وَالحمْدُ لله، وَلَا إله إلا الله، وَاللهُ أَكْبَرُ»(١).

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: أنَّ هَذِهِ الجنَّةَ مملُوءَةٌ بالسّرورِ؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾؛ لأَنَّ الحبورَ معْنَاه التَّنَعُّمُ والسّرور الَّذي لا شيْءَ فوْقَهُ.

الفائِدَةُ الثَّانيةَ عَشْرَةَ: أنَّ الكفْر أعَمُّ مِن التَّكذِيبِ؛ لأَنَّ العطْفَ يقْتَضِي المغايَرَةَ، كَفَرُوا وكَذَّبُوا لأَنَّ الكفْر ينْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: إمَّا جحْدٌ وإمَّا اسْتِكْبَارٌ، وَلِهَذا كَان أعَمَّ مِنَ التَّكْذِيبِ.

الفائِدَةُ الثالِثةَ عَشْرَةَ: أنَّ الكتُبَ المنَزَّلَةَ مِن آيَاتِ الله، وسبَقَ قبْلَ قلِيلٍ وجْهُ كونِها مِنْ آيَاتِ الله؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

الفائِدَةُ الرّابعةَ عشْرَةَ: إثْبَات البعْثِ، وأنَّ مُنْكِرَه كافِرٌ؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾، هَذا اللِّقاءُ العظِيمُ الَّذي يتلاقَى فِيه كُلُّ المخْلُوقاتِ، ويُلاقُونَ الله تعالَى.

الفائِدَةُ الخامِسَةَ عشْرَةَ: أنَّ هَؤُلاءِ المكذِّبِينَ الكافِرينَ يُحْضَرونَ إِلَى العذَابِ قصْرًا وقهْرًا؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾، وهُوَ كقوْلِه تعالَى:

(١) أخرجه التّرمذي: كتاب الدّعوات، باب ما جاء في فضل التّسبيح والتّكبير والتّهليل والتّحميد، رقم (٣٤٦٢).

﴿ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطّور:١٣]، يعْنِي يُدْفَعُونَ بعُنْفٍ وشِدَّةٍ -والعياذُ باللهِ-، ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطّور:١٤]، ومعْلُومٌ أنَّهم لوْ رجَعَ الأمْرُ لاخْتِيارِهِم لَا يدْخُلونَ، لكنَّهم يُدْفَعُونَ بعُنْفٍ وشِدَّةٍ حتَّى يدْخُلُوها.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا الصَّحِيحُ فيمَنْ تُوفِّي قبْلَ البلُوغِ؟

قُلْنَا: الصّحِيحُ فيمَنْ تُوفِّي دُونَ البلوغِ ومَنْ لَمْ تبلُغْه الدّعوَةُ أيْضًا، إنْ كانَ مَن تُوفِّي قبْلَ البلوغ مِن أوْلادِ المؤْمِنينَ فهُو مؤْمِنٌ مطلقًا؛ تبعًا لأَبَوَيْه أوْ للمُؤْمِن منْهُما، ولَا يُشْهَدُ لَهُم بالجنَّةِ كَما لَا يُشْهَد لآبَائِهِم، لكِنْ يُشْهَد بالعُمُوم والجِنْس، فنَشْهَدُ لكلِّ مُؤمِنٍ بأنَّه في الجنَّةِ، وأَمَّا التّعيينُ فيَحْتَاجُ إِلَى نَصٍّ، وأمَّا مَن تُوفِّي وهُو لَمْ يُميِّزْ، يعْنِي قبْلَ البلُوغِ، وهُو مِن الكفَّارِ فالمَناطُ التّمْييزُ لَا البلوغُ، فإنَّ أصحَّ الأقْوالِ فِيه أنَّه يُمْتَحَنُ يومَ القيامَةِ بما يشَاءُ الله عَزَّوَجَلَّ، ثمَّ تَكونُ النّتيجَةُ إمَّا إِلَى الجنَّةِ وإمَّا إِلَى النّارِ، والامْتِحانُ ورَد فِيه آثَارٌ: أَحادِيثُ ضعيفَةٌ وآثَارٌ عنِ الصّحابَةِ.

وقَدْ وَرَد حدِيثَانِ فِي أوْلادِ المشْركينَ، قَال ﷺ: «هُمْ مِنْهُمْ»(١)، وقال: «الله أعْلَمُ بِما كَانُوا عَامِلِينَ»(٢)، أمَّا قولُه: «هُمْ مِنْهُمْ» فالمرادُ بِه أحكامُ الدّنْيا، فوَلَدُ المشْرِكِ الَّذي أبواهُ كافِرَانِ يُحْكَمُ بأنَّه كافِرٌ فَلا يُغَسَّلُ، ولَا يُكَفَّنُ، ولَا يُصَلَّى علَيْهِ، ولَا يُدْفَنُ مِع المسْلِمينَ، ولكِنْ فِي الآخرةِ يكونُ الجوَابُ الثّاني، حِينَ قالَ الرّسولُ ﷺ لِعَائِشَةَ: «الله أعْلَمُ بِما كَانُوا عَامِلِينَ».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسّير، باب أهل الدّار يبيتون فيصاب الولدان والذّراري، رقم (٣٠١٣)، ومسلم: كتاب الجهاد والسّير، باب جواز قتل النّساء والصّبيان في البيات، رقم (١٧٤٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم (١٣٨٣)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، رقم (٢٦٥٨).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لو امتُحِنَ لآمَـنَ؛ لأَنَّ الله هُو المُمْتَحِنُ، وكُلُّ شَيْءٍ مِن أهْـوالِ القيَامَةِ أَمَامَه؟

فالجوابُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقُـولُ: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، فالآيَات التي جاءَتْ بِها الرّسلُ واضِحَةٌ، ومَعَ ذَلِك كفَرُوا وأَيْضًا قدْ لَا يُمْتَحن بأنْ يُقالَ لَهُ: هَل تُصدِّقُ بِهَذا اليْومِ أوْ لَا؟ وقَدْ يُمْتَحَن في أُمورٍ أُخْرَى؛ وَلِهَذا قُلنَا: الله أعْلَمُ فِيما يمتَحِنُه بِه، قَدْ يمتَحِنُه بأمْرٍ يُمْكِنُ أنْ يَقع فِيه اشْتِبَاهٌ.

الآيتان (١٧، ١٨)

• • ● • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:١٧-١٨].

• • ● • •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ سَبِّحُوا الله بِمَعْنَى صَلُّوا ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ أَيْ تَدْخُلُونَ فِي المَسَاء وَفِيهِ صَلَاتَانِ المَغْرِب وَالعشَاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ تَدْخُلُونَ فِي الصَّبَاح وَفِيهِ صَلَاة الصُّبْح، ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اعْتِرَاض وَمَعْنَاهُ يَحْمَدهُ أَهْلهمَا ﴿وَعَشِيًّا﴾ عَطْف عَلَى حِين وَفِيهِ صَلَاة العصْر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ تَدْخُلُونَ فِي الظَّهِيرَة وَفِيهِ صَلَاة الظُّهْر] اهـ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ سَبِّحُوا الله]، (سبحان) منصُوبَةٌ عَلَى المَفْعُولِيَّةِ المطْلَقَةِ، وعامِلُها محذُوفٌ، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعلَ المَفْعُولَ المطْلَق بمَعْنى فِعل الأمْر، لَا عَلَى أَنَّ عامِلَه محذُوفٌ بَلْ جعَلَه نائبًا عَن فِعلِه.

وتَسْبِيحُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معْنَاه تنْزِيهُ عمَّا لا يَلِيقُ به، والتَّنزِيهُ يتضمَّنُ أمْرَيْن:

أحدُهما: تَنزِيهُ الله عَنْ كُلِّ نَقْصٍ في صِفات كَماله.

وثَانِيهما: تَنزِيهُ الله عَنْ مُشابَهَةِ المخْلُوقِين.

أمَّا الأوَّلُ: فإنَّنا نَرى كَثيرًا مَا يَذْكُر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه لا يَتْعَبُ ولَا يظْلِمُ ولَا يَغْفُل ومَا أَشْبَه ذَلِك؛ لِكَمالِ صِفاتِه.

وأمَّا مشابَهةُ المخلُوقِين: فقَدْ قَال الله تَعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وتَنْزِيهُ الله عَنْ مُشابَهَةِ المخْلُوقِينَ هُو فِي الحقِيقَةِ تنْزِيهٌ لَهُ عَنِ النَّقْص؛ لأَنَّ المخلُوقَ ناقِصٌ، وتشْبِيهُ الكامِلِ بالنَّاقِص يجْعَلُه ناقِصًا، بل إنَّ المقَارنَةَ بينَهما تحُطُّ مِن رُتبَة الكامِلِ، كَما قِيلَ:

أَلم تَـرَ أنَّ السَّـيْـفَ يَنْـقُــصُ قَـدْرُهُ ... إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ العصَا

قولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [سبحوا الله بمعنى صلوا]: أفادَنا المُفَسِّر بهذَا أنَّ المرادَ بتَسْبِيحِ الله تَعالَى هنَا تَسبِيحٌ خاصٌّ وهُوَ الصَّلاة، فلَمْ يجْعل التّسبيحَ عامًّا يشْمَلُ الصّلاةَ وغيْرَها، لتَقْيِيدِه بهَذِه الأوقاتِ، فإِنَّ تقْيِيدَه بهَذِه الأوْقَاتِ يدُلُّ عَلى أنَّ المرَادَ الصّلاةُ وأُطْلِق عَلَى الصّلاةِ تَسْبِيحٌ لأَنَّ التّسبِيحَ مِن واجِباتِها كَما قَال الله تَعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧٤]، قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «اجْعلُوها فِي رُكوعِكُمْ»، و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، قَالَ: «اجْعلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ»[1]، وعَلى هَذا فتكُونُ الصّلاةُ هِي المرَادُ بالتّسبِيحِ، ويَدُلُّ عَلَى التّخصِيصِ تقْيِيدُها بأوْقَاتِ الصّلاةِ، وأيْضًا التّسبِيحُ المطْلَقُ خصّهُ الله بوَقْتَيْـنِ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩]، ولَمَّا جعَل هَذا خَمْسَةَ أوْقَاتٍ عُلِم مِنْ قَرينَةِ التَّقْسِيمِ فِي الوَقْتِ أنَّ المرادَ بِذَلِكَ الصّلواتُ الخَمْسُ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ مبْتَدأٌ وخَبَرٌ، والخَبَرُ مُقدَّمٌ لإِفادَةِ الحصْرِ، فلَهُ وحْدَه الحمْدُ، وحَمْدُ الله تَعالَى يختَصُّ بأنَّه حَمْدٌ يستَحِقُّه المحمودُ؛ ولِهَذا نقُولُ: إنَّ (اللامَ)

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٥، رقم ١٧٤٥٠)، وأبو داود: كتاب الصّلاة، باب ما يقول الرّجل في ركوعه وسجوده، رقم (٨٦٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصّلاة والسّنة فيها، باب التّسبيح في الرّكوع والسّجود، رقم (٨٨٧).

هُنا للاستِحْقاقِ والاخْتِصَاصِ، وقولُه (أَل) فِي (الحمْد) للعُمُوم، يعْنِي جميعُ المحامِدِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي السّمَـوَاتِ وَالأرْضِ، وهُو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ محْمُودٌ علَى كُلِّ حَـالٍ، وَكانَ النّبيّ ﷺ إذا أصَابَه ما يَسرُّه قَال: «الحمْدُ للهِ الَّذي بنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصّالحاتُ»، وَإذا كَان الأمْرُ علَى خِلافِ ذَلِك قَالَ: «الحمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»(١)، وأمَّا مَا يقُولُه بعْضُ العامَّةِ: (الحمد لله الَّذي لا يُحمَدُ عَلَى مكروهٍ سواه) فهَذا وإِن كانَ حقًّا لكِنَّهُ لا ينْبَغِي التّعبيرُ بِهَذا الشّيْءِ؛ لأَنَّ فِيه شيئًا مِن العتب عَلَى الله عَزَّوَجَلَّ في قولِهِ: (الَّذي لا يُحْمَد عَلَى مكروهٍ سواه)، وإِنَّما يُقالُ كَما قالَ النّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الحمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

قوْله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ اعتِراضٌ، ومَعْناهُ يَحْمَدُهُ أَهْلُهُما]: لا شَكَّ أنّه داخِلٌ في الآيةِ، وأنَّ قوْله تَعالَى: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾ يعْني أنّه يُحْمَدُ، ولكِنْ ينْبَغِي أنْ يُقالَ بِما هُو أعَمُّ، أيْ أنَّ مَا خَلَقَهُ في السّمواتِ والأرْضِ فإِنَّهُ مُستَحِقٌّ لِلْحَمْدِ علَيْه، سواءٌ حُمِدَ أمْ لم يُحْمَدْ، فكُلُّ مَا في السّموات وَالأرْضِ فإِنَّهُ شيْءٌ يُحْمَدُ الله علَيْه، أمَّا في أمُورِ الخيرِ فظَاهِرٌ، وأمَّا في أُمُورِ الشّرِّ فيظْهَرُ ذَلِك؛ لأَنَّ الشّرَّ بالنّسبةِ لِفعْلِ الله وإيجادِهِ لَه ليْسَ بِشَرٍّ، بَل قالَ النّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَالشّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»(٢)، فلا يُنْسَب إِلَيْهِ الشّرُّ.

مثَالُ ذَلِكَ: الجدْبُ والمرضُ والفقْرُ والجهْلُ والاقْتِتالُ بينَ النّاسِ والخسوفاتُ في الأرْضِ، هَذِهِ كلُّها بالنّسبَةِ لِلإِنْسَانِ شَرٌّ، لكِنَّها بالنّسبَةِ لقَضاءِ الله خيْرٌ لأَنَّ الله ما قَضاهَا إلا لحِكْمَةٍ، وحِينَئِذٍ يكونُ محْمُودًا علَيْها، والشّر في المقْضِيِّ لا فِي القضاءِ؛

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدّعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧١).

وَلِهَذا فِي حَدِيث الحسَنِ بْنِ عَلِيٍّ قَال: «وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ»[1]، أيْ شَرَّ الَّذي قضَيْت، فأَضافَ الشَّرَّ إلَى المقْضِيِّ لَا إلَى القضاءِ.

واعْلَم أيْضًا أنَّ المقْضِيَّ نفسَه ليْسَ شَرًّا محْضًا، بَل هُو شَرٌّ مِنْ وَجْهٍ، خَيْرٌ مِنْ وجْهٍ آخَر، أوْ شَرٌّ فِي محَلٍّ، خيْرٌ فِي محَلٍّ آخَر، مثَلًا الفسادُ في البرِّ والبحْرِ شَرٌّ، لكِنَّهُ خيْرٌ مِن جِهَة عاقِبَتِه؛ لأَنَّ الله قالَ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الرّوم:٤١].

إِذَنْ: هَذا خَيْرٌ، كَذَلِكَ أيْضًا قدْ يَكُون شَرًّا في مكَانٍ لكِنَّهُ خيْرٌ في مَكَانٍ آخَر، فإهْلَاكُ الأمَم السّابِقِينَ بذُنُوبِهم شَرٌّ بالنِّسْبَةِ لهُمْ، فقدْ أُهْلكوا ولم يَرْجِعُوا ولَم يَسْتَفِيدُوا، لكِنْ بالنِّسْبَةِ لغَيْرِهم ممَّن يَعْتَبِرُ بحالهم خيْرٌ، فيَكُونُ هَذا شرًّا في محلِّه خيرًا فِي محلٍّ آخَر.

والمُهِمُّ: أنَّ قضَاء الله نفسَه ليْسَ فِيه شَرٌّ أبدًا، بَل هُو خَيْرٌ؛ وَلِهَذا قالَ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في جَمِيعِ الأحْوَالِ، المقْضِيُّ يكُون فِيه الشَّرُّ، ومَع ذَلِك فإنَّنا نَقُولُ أيْ مَع إثْبَاتنا أنَّ الشّرَّ في المفْعُولاتِ لَا في الفعْل، نَقُول أيْضًا إنَّ هَذا الشَّرَّ في المفْعُولاتِ ليْسَ شرًّا محْضًا لَا خَيْرَ فِيه، بَلْ قَدْ يَكُونُ شرًّا مِن وَجْهٍ وخيرًا مِنْ وَجْهٍ فِي نفسِ المحَلِّ، كقوْلِه تعالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الرّوم:٤١]، وقدْ يَكُون شرًّا في محلّه خيرًا في محلٍّ آخر.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصّلاة، باب القنوت في الوتر، رقم (١٤٢٥)، والّترمذي: كتاب الصّلاة، باب ما جاء في القنوت في الوتر، رقم (٤٦٤)، والنّسائي: كتاب قيام الليل وتطوع النّهار، باب الدّعاء في الوتر، رقم (١٧٤٥)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصّلاة والسّنة فيها، باب ما جاء في القنوت في الوتر، رقم (١١٧٨).

وقوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خصَّهما بِالذِّكْر لأنَّهما محَلُّ نُفوذِ فعْلِه، فإِنَّ الَّذي فِي السَّموَات وَالأرْض مِن الملائِكَةِ والبشر والجنِّ وغيرِها كلُّها تَحْمَدُ الله، وكلُّها محَلُّ حمْدِه.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هلِ الكافِرُ يحْمَدُ الله؟

فالجوابُ: بِلِسانِ المقَالِ لَا، أمّا بلِسَانِ الحالِ فنَعم، بمَعْنى أنَّ حاله تسْتَوْجِبُ لمَنْ تأمَّلَها أنْ يَحْمَدَ الله، هَذا معْنَى قوْلِهم: إنَّ هَذا يحْمَدُ بلِسَانِ الحالِ، أوْ يُسَبِّحُ بلِسانِ الحالِ، يَعْنِي أنَّ حاله مَن تأمَّلَها عرَفَ بِها مَا يسْتَحِقُّه الله تَعالَى مِنَ الحمْدِ والتَّنْزِيه.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَعَشِيًّا﴾: معْطوفٌ عَلَى قوْلِه تعالَى: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، يعْنِي وسَبِّحُوا الله عَشِيًّا، والعشِيُّ مِنَ الزَّوالِ إِلَى غُروبِ الشَّمْسِ، وَفي حدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي المسِيءِ فِي صَلاتِه قَالَ: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله ﷺ إِحْدَى صَلَاتَي العشِيِّ»(١).

قوْله تَعالَى: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾: معْطوفٌ عَلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، والقاعِدَةُ فِي المعطُوفاتِ أنْ يكُونَ العطْفُ عَلَى أوَّلِ واحِدٍ لأنَّهُ هُو المحَلُّ الَّذي وَقع علَيْه عمَلُ العامِلِ، فيكُونُ العطْفُ عَلَى الأوَّلِ، فإذا قُلْتَ: (قامَ زيْدٌ وبَكْرٌ وعمْرٌو) فإِن عمرًا معْطُوفٌ عَلَى زيدٍ، فهَذِهِ الأوْقاتُ الخمْسَةُ هِي أبْسَطُ مَا ذكَرهُ الله تعالَى فِي القرآنِ مِن أوْقَاتِ الصّلواتِ وذَكَرها مُجْمَلَةً في قوْلِه تَعالَى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسْراء:٧٨]، ففِي هَذِهِ الآيَة ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾، يَعْنِي وقْتَ دُلُوكِ الشَّمْسِ؛ لأَنَّ (اللامَ) للتَّوْقِيتِ مثْلَ ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطّلاق:١]، أيْ وقْتَ اسْتِقبَالِ عِدَّتِهِنَّ، فَـ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ لِـزَوالها

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصّلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم (٤٨٢)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصّلاة، باب السّهو في الصّلاة والسّجود له، رقم (٥٧٣).

﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾، أي نصْفِه، وهُو شِدَّةُ ظلْمَتِه، وَذَلِكَ عنْدَ انتِصافِه؛ لأَنَّ أشدَّ ما يَكُون اللَّيلُ ظلْمَةً إِذا انْتصفَ؛ لأَنَّ نصْفَ اللَّيْل هُو أبْعَدُ مَا تكُون الشّمْسُ عَن سطْحِ الأرْضِ، ويدْخُل في هَذا -مِن زَوالِ الشّمْسِ إِلَى نصْفِ اللّيلِ- أرْبَعُ صلَواتٍ: الظّهرُ والعصْرُ والمغْرِبُ والعشاءُ ثمَّ قالَ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ فَفَصَلَه والمرَادُ بِه صلاةُ الصّبحِ، وفَصْلُه عمّا قبْلَه يدُلُّ عَلَى أنَّ وقْتَ العشاءِ ينْتَهي بنِصْفِ اللّيْلِ، وَهَذا هُو الَّذي دلَّتْ علَيْهِ السّنَّةُ أيْضًا، ومَنْ قَال أنَّه ينْتَهِي بِطُلوعِ الفجْر فلَا دَلِيلَ لَه، وهَذِه المسألَةُ ينْبَنِي علَيْها مَا لو طَهُرت المرْأَةُ في نصْفِ اللَّيلِ الثّاني هَلْ يلْزَمُها صلَاةُ العشَاءِ؟ فعَلى قَوْل مَن يقُولُ إِنَّ وقْتَ العشَاءِ يمتَدُّ إِلَى طُلوعِ الفجْر يلْزَمُها العشَاءُ، وَكَذلِكَ المغْرِبُ أيْضًا، وعَلى القوْل الرّاجِح لَا تلْزَمُها صَلاةُ العشَاءِ لأَنَّ صلاةَ العشَاءِ إِلَى مُنْتَصَفِ اللَّيلِ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائِدَةُ الأولَى: رحْمَةُ الله تَعالَى بعِبَادِه؛ حيْثُ علَّمَهُم مَا فِيه مصْلَحَتُهم.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: أنَّ الصّلاةَ تسْبِيحٌ وتنْزِيهٌ لله؛ لأَنَّ الله أطْلَقَ علَيْها اسْمَ التّسْبيحِ.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: وُجوبُ التّسبيحِ فِي الصّلاةِ؛ لأنَّ القاعِـدة أنَّه إِذا أُطْلِـق عَلَى العبادَةِ جُزْءٌ منْها دَلَّ ذَلِك عَلَى أنَّ هَذا الجزْء مِن وَاجِباتِها، وأنَّه لا بُدَّ منْهُ فِيها.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: بَيان الأَوْقَاتِ الخَمْسَةِ مفصَّلَةً؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾.

الفائِدَتانِ الخامِسَةُ والسّادِسَةُ: أنَّ المسَاء يُطلَقُ عَلَى أوّلِ اللَّيلِ، فإنَّ قوْله تعالَى: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ يدْخُل فِيه المغْرِبُ والعشَاءُ، وقَدْ يُؤْخَذُ مِن هَذا جوازُ رَمْي الجمَراتِ

ليْلًا؛ لأنَّ رجُلًا قَال: يَا رسُولَ الله! رَمَيْتُ بعْدَ مَا أمْسَيْتُ؟ فقَالَ: «لَا حَرَجَ»[١]، فإذا كَان المسَاءُ يُطْلَقُ عَلَى أوَّلِ اللَّيْل، وأطْلَق النّبيُّ ﷺ نَفْيَ الحرَجِ، عُلِمَ أنَّه جَائِزٌ.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: حِكْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ في تَوْزِيع الصّلوَاتِ عَلَى هَذِهِ الأوْقَاتِ، ووَجْهُ الحكْمَةِ أمْرَانِ:

الأمْرُ الأوَّلُ: أنّها لَو جُمِعَت في وقْتٍ واحِدٍ لخلَتْ بقيَّةُ الأوْقَاتِ عَن الاتِّصال باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعْنِي لَو جَعَل الإنسان يُصلِّي في الفجْرِ كُلَّ الصّلواتِ الخمْسِ جميعًا فسَيَبْقى بقيَّةَ النّهارِ واللَّيْل بِلا صَلواتٍ مفْروضَةٍ.

الأمْرُ الثّاني: أنَّه لو جُعِلت هَذِهِ في وقْتٍ واحِدٍ لكَان فِي ذَلِك نَوعٌ مِن المشَقَّةِ، يعْنِي يُوجِبُ عَلَى الإنسان أنْ يُصَلِّي سبْعَ عشْرَةَ ركْعَةً في آنٍ واحِدٍ، فَهَذا فِيه مشقَّةٌ عَلَى الأقْوِياءِ الأصحَّاءِ، فكَيْف بِالضّعفَاءِ والمرْضَى؟!

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: كَمالُ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أنَّه وحْدَه المستَحِقُّ لأنْ يُحمَد عَلَى وَجْهِ الإطْلاقِ؛ نأْخُذه مِن تقْدِيم الخبَرِ فِي ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أنَّ كُلَّ ما يحْدُث في السّموَات وَالأرْضِ مِن خيْرٍ أوْ شَرٍّ فإنَّ الله تَعالَى يستَحِقُّ علَيْه الحمْدَ؛ تُؤْخَذُ مِن الإطْلاقِ فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾، ولم يَقُلْ: عَلَى الخيْر أوْ عَلَى مَا يَنْفَعُ، بَلْ أطْلَق، فيُسْتفادُ مِنْه أنَّ الله تَعالَى محْمُودٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب الذّبح قبل الحلق، رقم (١٧٢٣).

الآيــة (١٩)

• • ◦ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم:١٩].

• • ◦ • •

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ كالإنسانِ مِنَ النُّطفَةِ، والطّيرِ مِن البَيْضةِ]: أما البيضَةُ فليس عنْدِي فيها عِلْمٌ فلا نَقْدِرُ أن ننْفِي إنْ كانَ فِيها حياةٌ في بعْضِ الأجْزاءِ التي يتكون منْهَا الطّائِرُ أم لا، والنّطفَةُ باعْتبارِ مَا يظْهَرُ لنا ميّتَةٌ، وَكَذلِكَ البَيْضةُ، لكِنْ في الواقِع إنَّ النّطفَة ليْسَتْ ميّتَةً، فلقَدْ سُئِل النّبيّ ﷺ عن العَزْل فقَالَ: «هُوَ الوَأْدُ الخَفِيُّ»[1]، فجَعَله وأدًا، والوَأْدُ لا يكُونُ إلَّا لحَيٍّ، فالحيَوانَاتُ المنويَّةُ حيَّةٌ، لكِنَّها لَا تُرى، وهَذِهِ النّطْفَةُ البَسيطَةُ التي ليْسَتْ بشَيْءٍ يقُولونَ -والله أعلمُ إنْ كانَ هـذَا مبالغـةً أو لا- فِيها حوالَي خَمْسَةِ مَلايِيـنَ أوْ أكْثَر مِن الحيَوانَاتِ المنَويَّةِ، وهِي التي تُرى بَسِيطَةً.

إذَنْ: فباعْتِبارِ مَا يُرى ويَظْهَر أن النُّطفةَ ميّتَةٌ جَمادٌ، لكِنْ باعتِبارِ الحقِيقَةِ ليْسَتْ كَذلِكَ، وإخْراجُ الميِّتِ مِن الحيِّ ليْسَ مشْكِلَةً، لكِنَّ المشْكِلَةَ إخْرَاجُ الحيِّ مِن الميِّت.

وقوْله تَعالَى: ﴿ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾، هَل المُرادُ الحياةُ الحسيّة أوِ المعنَويَّة؟

والحقِيقَةُ أنَّ المُرادَ الأمْـرانِ، فإنَّ الكافر ميِّتٌ معنًـى، ويخْرُج منْه المسْلِمُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب النكاح، باب جواز الغيلة... وكراهة العزل، رقم (١٤٤٢).

أوِ بالعَكْسِ، قَال الله تَعَالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، يعْنِـي أنَّ هَؤُلاءِ الكفَّارَ بمنْزلةِ الأمْواتِ، والمُؤمِنُ حيٌّ ولا سيِّمـا العالِم، قالَ الله تَعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، وسمَّى الله القرآنَ رُوحًا فدَلَّ هَذا عَلَى أنَّ مَن عَمِل بِه فهُوَ حَي فالآية أعمُّ مما قاله المُفَسِّر، وَإن كَان سياقُها يقْتَضِي أنَّ المرادَ بِها بالأَوْلى الحياةُ الحسِّيَّة.

قوْله تَعالَى: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: بِما أنْزَل الله علَيْها مِن المَطَرِ، ولَا أحَدَ يسْتَطِيعُ أنْ يفْعَل ذَلِك إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، هَذِهِ الأرْضُ الهامِدَةُ اليَابسَةُ التي ليْس فِيها خُضْرَةٌ يُنزِلُ الله علَيْها الماءَ فتُصْبِح الأرْضُ مخضَرَّةً بأمْرِ الله تَعالى، ولَوِ اجْتَمعَ الخلائِقُ كلُّهُم علَى أنْ يفْعَلُـوا ذَلِك لَمَا استْطَاعُوا، ولَنْ يُخْرِجُوا ولَا أدْنـى حشِيشَةٍ مِن هَذِهِ الحشائِشِ، ولكِنَّ الله تَعالَى بقُدْرَتِه يفْعَلُ ذَلِكَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعْضُ الحشراتِ تتولَّدُ وتَخْرُجُ مِنْ طَعامٍ أوْ غيرِه، ونُواةُ التَّمر يخْرُج منْهَا نباتٌ؟

قُلْنَا: هَذِهِ حياةٌ بِلا إدْراكٍ، والمتَوَلِّدُ واضِحٌ أيضًا أنَّه حَيٌّ مِن ميِّتٍ؛ لأَنَّ المتولِّد يخْرُج مِن العفونات والقاذورات وهو حيٌّ يتحرك.

قوْله تَعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: الكافُ اسْمٌ بمَعْنى مثْل، يعْنِي ومِثْلُ ذَلِك الإخراج تخْرُجونَ، فتكونُ مفعُولًا مطْلَقًا، ويَجُوزُ أنْ تكُونَ هُنا حرْفَ جَرٍّ، و(ذَا) اسْمُ إشارَةٍ مبْنِيٌّ عَلَى السُّكونِ في محَلِّ جرٍّ، يعْنِي وكَهذا الإخراجِ تخْرُجونَ، ولَا تكُونُ مفعولًا مُطْلَقًا.

وقوْلُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تخْرُجُونَ مِنَ القُبُورِ]: ظاهِرُ الآيات الكَريمَـاتِ أنَّ خُروجَ النّاسِ مِنَ القُبورِ يُشْبِهُ خُروجَ النَّباتِ مِنَ الأرْضِ، وخُروجُ النَّباتِ مِنَ الأرْضِ

يكُون بِنُزولِ المَطرِ علَيْها، فيَكُونُ فِي هَذِهِ الآيَة إشَارَةٌ إِلَى مَا ورَد في الحديثِ مِنْ أنَّ الله تَعالَى يُمْطِرُ عَلَى القُبورِ مَطرًا غَلِيظًا كَمَنِيِّ الرِّجالِ أرْبَعِينَ يوْمًا تنبتُ مِنْهُ الأجسادُ فِي القُبـورِ[1]، ثمَّ بعْدَ ذَلِك تخْرُج إذا نُفِخ فِي الصّـور، وَهَذا ورَدَتْ بِه أحادِيث في إسْنَادِها مقَالٌ، لكِنَّ مجمُوعَها يقْضِي بأنّها أحادِيثُ حسَنَةٌ، وظَاهِرُ القرآنِ أيضًا يُشيرُ إلَيْه.

وقوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالبِنَاءِ للْفَاعِلِ والْمُعولِ]: البِنَاءُ للفاعل «تَخْرُجون»، وللمَفْعول «تُخْرَجُون»، قراءَتَانِ سبْعِيَّتانِ[2]؛ لأَنَّ مِن عادَةِ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أنّه إِذا أَتى بِقِرَاءَةٍ شاذَّةٍ يقولُ: (وَقُرِئ).

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: بَيانُ قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيْثُ يُخرِجُ الحيَّ مِن الميِّتِ وبالعَكْس، وَهَذا مِن تَمامِ القُدْرَة أنَّه يُخرِج الشَّيْءَ مِن ضِدِّه.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: قُدْرَتُه عَلَى إحْياءِ الأرْض مِنْ بعْدِ موْتِها؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: ثُبوتُ قِيامِ الأفْعَالِ الاخْتِيارِيَّةِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالأفْعالُ الاخْتِيارِيَّةُ هِي التي يفْعَلُها بمشِيئَتِه، إنْ شَاء فَعَلَ وإنْ شاءَ لَـمْ يفْعَلْ؛ تُؤخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تعالَى:

---

(١) أخرج الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٩٧) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ثُمَّ يَكُونُ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ مَا شَاءَ الله أَنْ يَكُونَ، فَلَيْسَ مِنْ بَنِي آدَمَ خَلْقٌ إِلاَّ مِنْهُ شَيْءٌ»، قَالَ: فَيُرْسِلُ الله مَاءً مِنْ تَحْتِ العَرْشِ كَمَنِيِّ الرِّجَالِ، فَتَنْبُتُ لُحمَانُهُمْ وَجُثْمَانُهُمْ مِنْ ذَلِكَ المَاءِ، كَمَا يُنْبِتُ الأَرْضُ مِنَ الثَّرَى»، ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ الله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر:٩].

(٢) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص:٣٩٥).

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾، وقوْلِه تَعالَى: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ والبَعْدِيَّةُ تقْتَضِي حُدوثَ هَذَا الشَّيْءِ، وقِيامُ الأفْعالِ الاخْتِيارِيَّةِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ هُو الَّذي علَيْهِ أهْلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ قاطِبَةً، ولَا أحَدَ منْهُمْ أنْكر ذَلِك، فيُثْبِتُونَ الاسْتِواءَ عَلَى العرْشِ فعْلًا لله، والنُّزولَ إلَى السَّماءِ الدُّنْيا فعْلًا لله، والمَجِيءَ للفَصْل بيْنَ العِبادِ فعْلًا لله، والعجَبَ فعْلًا لله، والضَّحِكَ فعْلًا لله، والخلْقَ فِعْلًا لله، ويَقُولونَ إنَّ الله تَعالَى يفْعَلُ ما يشَاءُ، كيْفَ شَاءَ، متَى شَاءَ.

ولكِنَّ أهْلَ البدَعِ مِن المُعْتـزِلة والأشعَـرِيَّة وغيرِهم يُنْكِـرُون قِيامَ الأفْعالِ الاخْتِيارِيَّةِ بِه، ويَقُولونَ لَو قامَتْ بِه الحوادِثُ لكَان حادِثًا، واللهُ تَعالَى لَمْ ولا يَزالُ، فنَقُولُ: هَذا قولٌ بَاطِلٌ؛ أوَّلًا لأنَّهُ قِياسٌ فِي مُقابَلَةِ النّصِّ، فإنَّ النُّصوصَ متكاثِرَةٌ في إثْبَات الأَفْعالِ الاخْتِيارِيَّةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ التي تتعَلَّقُ بمشِيئَتِه، وثَانِيًا قوْلُكُم إنَّ الحوادِثَ لَا تَقُوم إلا بحَادِثٍ ليْسَ بِصَحِيحٍ فإنَّ الحوادِثَ لَا تَقُومُ إلَّا بِكامِلٍ قَادِرٍ عَلَى مَا يَشَاءُ، أمَّا كوْنُها لَا تقُومُ إلا بحَادِثٍ فما هُو العَقْلُ الَّذي يُوجِبُ هَذا.

الفائِدَةُ الرّابعَةُ: قِياسُ الغائِبِ عَلَى الشّاهِدِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾، فإنَّ قِياسَ الغائِب عَلَى الشّاهِد لَيحْمِلُ عَلَى الإقرار بِه طريقَةً مُتَّبَعَةً.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: إثْبَاتُ البَعْثِ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: إثْبَاتُ القِياسِ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾، وإثْبَاتُ القِياسِ لَه أدِلَّةٌ كثِيرَةٌ فِي القُرآنِ منْهَا عَلَى سَبِيل التَّعْمِيم والحدِّ كُلُّ مَثَلٍ ضَربَه الله في القُرْآنِ فَهُو دالٌّ عَلَى ثُبُوتِ القِيَاسِ، ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس:٢٤]، و﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:١٧]، ومَا أشْبَه ذَلِك، فإنَّ الأمْثَالَ ضَرْبُها تشْبِيهُ حالٍ بحالٍ، أوْ فَرْدٍ بِفَرْدٍ، فتكُونُ دالَّةً عَلَى ثُبُوتِ القِياسِ، وَكَذَلِكَ القَصَصُ التي قَال الله

تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [يوسف:١١١]، وفي السُّنَّة أيْضًا كثِيرٌ مِن ذَلِك، مثْلَ قوْلِه ﷺ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟» قال: نعم، قال: «فَمَا لَوْنُهَا» قال: حمر[١]، الحديثَ، وقوْلُه: «أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ»[٢].

وَكَذلِكَ العَقْلُ يقْتَضِي ثُبوتَ القِيَاسِ، فإِنَّ العَقْلَ السّلِيمَ الصَّرِيحَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُفَرِّقَ بيْنَ مُتماثِلَيْنِ أبدًا، ودائِمًا حتَّى الصّبيُّ إِذا منعْتَه مِن شَيْءٍ وأَبحْتَ لَهُ نَظِيرَه، قَال: لماذا؟ أَلَيْسَ هَذا مثْلَ هَذَا؟! فهَذا مِمَّا تشْهَدُ العُقولُ وَالنّصوصُ والفِطَرُ بثُبوتِه، لكنَّ القِياسَ الباطِلَ الَّذي يتوَسَّعُ فِيه بعضُ النّاسِ حتَّى يُعطِّلُوا دِلالَةَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ لا شَكَّ أَنَّه بَاطِلٌ، أمَّا القِيَاسُ الصَّحِيحُ فإِنَّهُ لَا رَيْبَ فِي ثُبوتِهِ، والَّذِين أَنْكَرُوا القِيَاسَ هُمْ فِي الحقِيقَةِ مُضطَّرِبُونَ، فأَحْيانًا يقولُونَ بالقِياسِ مِن حيْثُ لا يَشْعُرونَ وَلا يُمْكِنُهم إِلَّا أنْ يَقِيسُوا لأَنَّنا لَو أَرَدْنا أنْ نَحْصُرَ دَلالَةَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ عَلَى الأَحْكامِ عَلَى سَبِيلِ العُمُوم والقَواعِدِ والضَّوابِطِ فهِي وَافِيَةٌ، لكِنَّ الأفْرادَ والجزْئِيَّاتِ لَا مُنْتَهى لَها وَلا حصْرَ لَهَا، وهُمْ لا بُدَّ أنْ يُضطَّرُّوا إِلَى إِثْبَاتِ ذَلِك.

يَدْخُلُ فِي العُمُومِ مِن حيْثُ الشُّمولُ اللَّفْظِي إِنْ كَان داخِلًا فِي اللَّفْظِ أَحْيانًا لَا يدْخُلُ فِي اللَّفْظ لكِنْ يشْمَلُه العُمُومُ المعنَوِيُّ وهُوَ القِيَاسُ؛ لأَنَّ العُمُومَ المعْنَوِيَّ هُو القِيَاسُ.

• • ❁ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد، رقم (٥٣٠٥)، ومسلم: كتاب اللعان، رقم (١٥٠٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب من شبه أصلًا معلومًا بأصل مبين قد بين الله حكمهما ليفهم السائل، رقم (٧٣١٥).

الآيــة (٢٠)

• • ◦ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الرّوم:٢٠].

• • ◦ • •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ تَعَالَى الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ أَيْ أَصْلكُمْ آدَمُ، ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ ﴾ مِنْ دَمٍ وَلَحْمٍ ﴿تَنتَشِرُونَ ﴾ فِي الأَرْضِ] اهـ.

قوْله تَعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾: (من) للتَّبعِيضِ، يعْنِي بعْضُ آياتِه، و(مِنَ) التّبْعيضِيَّةِ قالَ العلَماءُ: هِي التي يصِحُّ أنْ يَحِلَّ محَلَّها بعْضُ، وَ(آياتِهِ) جمْعُ آيَةٍ، وهِي العَلامَةُ، أي العَلامَةُ البيِّنَةُ الواضِحَةُ الدّالَّةُ عَلَى مَا تَختَصُّ بِه مِنْ صِفاتِ الله حسَبَ مَا سِيقَتْ لَهُ، وكُلُّ شيْءٍ مِن آياتِ الله عَزَّوَجَلَّ فإِنَّهُ يدُلُّ عَلَى كَثيرٍ مِن صِفَاتِ الله تَعالَى دلالَةً مطَابِقَةً باعْتِبَارِ مَا ذُكر فِيها أوْ مَا ذُكر مِنْ هَذِهِ الآيَات، ودَلالَةُ التِزامٍ بِما يلْزَمُ مِنْ وُجودِ هَذِهِ الصِّفَةِ، مَثلًا قوْلُه تَعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾، فخَلْقُنا مِن تُرابٍ إِلَى أنْ نكُونَ بَشرًا، هَذا مِن الآيَات إِذْ إنَّ قلْبَ الجمادِ إِلَى حَيَوانٍ لَا شَكَّ أَنّه مِنَ الآيَات، ولكِنَّ كوْنَهُ دالًّا مثلًا عَلَى القُدْرَة والعِلْم والحكْمَةِ ومَا أشْبه ذَلِك، هَذِهِ دلَالَةُ التِزامٍ، ودلالة الالتِزام مِن أفْيَدِ مَا يَكُون لِطالب العِلْم إِذا وُفِّق للْفَهْم الصَّحيحِ فِيما يَلْزَمُ مِن كَلامٍ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كيفَ تكُونُ الأشْيَاءُ عَلامَةً عَلَى الله عَزَّوَجَلَّ وهُوَ أبْيَنُ وأظْهَرُ؛ لأَنَّ معرِفَتَهُ مرْكُوزَةٌ في الفِطَرِ والعُقولِ؟

فالجوابُ: أوَّلًا: أنَّ بعْضَ الفِطَرِ قَدْ يَعْتَرِيها مَا يصْرِفُها عَن الصِّراطِ المُسْتَقِيم فتَحْتَاجُ إِلَى دَعْمٍ لِبَيانِ الآيَات.

ثانيًا: أنَّ هَذِهِ الآيَات كُلُّ آيَةٍ تدُلّ عَلَى نوعٍ خَاصٍّ مِن صِفَاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بخِلافِ العَقْلِ والفِطْرَةِ، فإِنَّهُ يهْتَدِي إِلَى وُجودِ الخالِق عَزَّوَجَلَّ، مِنْ حيثُ الجمْلَةُ أمَّا التَّفْصيلُ فَلا يُمْكِنُ إلا بِذِكْرِ هَذِهِ الأجْناس والأَنْواعِ؛ ولِهَذا لَا يُمْكِنُ الوُصولُ إِلَى الإِحاطَةِ بِذَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ، نُحِيطُ بِالآيَات الدَّالَّةِ عَلَى صِفَاتِه، أمَّا أنْ تُحِيطَ بِذَاتِ الله فَهذَا أمْرٌ لَا يُمْكِنُ؛ ولِهَذا يُرْوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قَال: «تَفَكَّرُوا فِي آيَاتِ الله، وَلَا تفَكَّرُوا فِي ذَاتِ الله»[(١)].

قوْله تعالَى: ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾: ﴿أَنْ﴾ مَصْدَرِيَّةٌ لأَنَّ المخَفَّفَةَ هِي التي تَكُونُ بَعْدَ عِلْمٍ أوْ ظَنٍّ، مثْلُ قوْلِه تَعالَى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ [المزمل:٢٠]، ومِثْلُ قوْلِه تَعالَى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء:٨٧]، وأمَّا هَذِهِ فليْسَتْ كَذَلِكَ، وَعَلى هَذا فتَكُونُ مصْدَرِيَّةً، ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ فتكُونُ هِي ومَا بعْدَها فِي تأْوِيلِ مصْدَرٍ مبْتَدَأٌ مؤَخَّرٌ يعْنِي خلقَكُم والخَبَرُ قوْلُه تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ تَعالَى الدّالة عَلَى قدرته]: قيَّدها بالدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَته لأنَّها أبْرَزُ شَيْءٍ فِي الآيَات فِي هَذا الخَلْقِ، وَإِلَّا فَهُو دَالٌّ عَلَى الحكْمَةِ العَظِيمَةِ إِذْ لَا خلْقَ إِلَّا بعْدَ عِلْمٍ، كَما قَالَ تَعالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

---

(١) أخرجه أبو الشيخ (١/ ٢٤١، رقم ٢٢) عن ابن عباس موقوفًا عليه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: أصلكم آدم]: (أصلكم) تفسيرٌ للكَاف في قوْلِه: ﴿خَلَقَكُم﴾، يعْنِي باعْتِبَارِ أصْلِنا بالاعْتِبار المُباشِرِ فإنَّ الإنْسانَ خُلِق مِنْ نُطْفَةٍ كَما قالَ تَعالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون:١٢-١٣]، والسُّلالَةُ خالصُ كُلِّ شيْءٍ عَلَى حَسَبِ مَا يَبِينُ، فقوْلُه تَعالَى: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ آدم، وقوْلُه تعالَى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ هَؤُلاءِ بَنُو آدمَ، وقَوْلُه: ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ أيِ الإنسانُ بِاعْتِبَارِ جِنْسِه.

قوْله تَعالَى: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾: (مِنْ) لابْتِداءِ الغايَةِ، وَالمَعْنى أنَّ ابْتِدَاءَ الخلْقِ مِن التُّرابِ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾ مِنْ دَمٍ وَلَحْمٍ ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ فِي الأَرْضِ]: كُنْتُم تُرابًا والتُّرابُ لا يتحرَّكُ مِن مَكانِهِ ولَا يَنْتَشِرُ وَلَيْس فِيه حرَكَةٌ، ثمَّ بعْدَ ذَلِك إِذَا أَنْتُم بَشَرٌ تنْتَشِرُونَ، (ثُمَّ) دالَّةٌ عَلَى المُهْلَةِ؛ لأَنَّهُ بعْدَ خلْقِ آدم لَمْ يأْتِ الأوْلَادُ مباشَرَةً بَلْ خُلِق لَهُ زوْجَةٌ ثمَّ جَاء مِنْ هَذِهِ الزَّوْجَةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾: ﴿إِذَآ﴾ فُجائِيَّةٌ، يعْنِي ثم صَارَتِ المُفاجَأَةُ عَلَى هَذا الوَجْه.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَآ﴾: قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إنَّ في هَذا ما ظَاهِرُه التَّناقُضُ لأَنَّ (إذا) هُنا فُجائِيَّةٌ، وَ(ثُمَّ) للمُهْلَةِ، والمُفاجَأَةُ والمُهْلَةُ متناقِضَانِ، إذ إنَّ المُفاجَأَةَ تدُلّ عَلَى المُبادَرَةِ فيُجَابُ عَنْ ذَلِك بأنَّ المفاجَأَةَ بعْدَ المُهْلَةِ؛ لأَنَّ التُّرابَ لَا يَكُونُ بَشرًا في الحالِ، وإنَّما تطَوَّر لمدَّةٍ حتَّى وَصَلَ إِلَى البَشرِيَّةِ، هَذا إذا قُلْنا: إنَّ المُرادَ بالبَشَر خُصوصُ آدم، أمَّا إذا قُلْنَا: المُرادُ بِهِ ذُرِّيَّته، فالمُهْلَةُ ظَاهِرَةٌ؛ لأَنَّ هَذا يشْمَلُ الذُّرِّيَّةَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَة فالمُهلَةُ ظاهِرَةٌ، لكِنَّ المفاجَأةَ فِي قوْلِه تعالَى: ﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾، قدْ تُوحِي إِلَى أنَّ المُرادَ

بِه آدَمُ، فإِنَّ آدَم بَشَرٌ وذُرِّيَّتُه انْتَشرَتْ فِي الأَرْضِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾ مبْتَدأٌ وخبرٌ، وجُمْلَةُ ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ في محلِّ رفْعِ صفَةٍ لـ(بَشَرٌ)، وإِذا جعَلْناها صِفَةً لِـ(بَشَرٌ) صَار فِيها إِشْكَالٌ مِنْ جِهة أَنَّ (بَشَرٌ) مفْرَدٌ و(تنتشرون) جمْعٌ، لكن المُفْرد المُرادَ بِه الجِنْس يكُونُ لِلْجَمْعِ.

وسُمِي الإنْسانُ بَشرًا قِيلَ لأَنَّ بشْرَته بَادِيَةٌ، إِذْ إِنَّ الحيوانَاتِ الأخرى عَلَى أَبْشَارِها مَا يستُرُها لحكْمَةٍ، وأمَّا الآدَمِيّ فإِنَّ بشْرَتَهُ بَارِزَةٌ ظَاهِرَةٌ، وقِيلَ: لأَنَّهُ تبْدُو عَلَى بشْرَتِه انفعالاتُه النّفسيَّةُ، مثْلُ الغَضبِ والفَرَحِ ومَا أَشْبَهَ ذَلِك، فإِنَّها تبْدُو ظَاهِرَةً عَلَى وجْهِه.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿تَنتَشِرُونَ﴾ في الأَرْض]، قيَّدَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ الانْتِشارَ بأَنَّه فِي الأَرْضِ، لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُواْ فِى الْأَرْضِ﴾ [الجمعة:١٠]، فالانتِشارُ والتّوسُّع فِي الأَرْضِ، فقوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ أيْ تذْهَبُون يَمِينًا وَشمالًا؛ وَلِهَذا لا شَكَّ أَنَّ بَنِي آدَم كانُوا فِي أَوَّلِ أَمْرِهمْ فِي مكَانٍ واحِدٍ، ثمَّ انْتَشرُوا فِي جَمِيعِ القارَّاتِ عَلَى تباعُدِ مَا بيْنَها، وانْظُر الآن البَشر منتَشِرٌ في جَمِيع أَقْطَارِ الدّنيا، وسُبْحانَ الله العظيمِ، فمَنِ الَّذي أَوْصَل أهلَ أَمَرِيكا إِلَى أَمِرِيكا، ومَنِ الَّذي أَوْصَلَهُم إِلَى البِلادِ الأخرى مَع هَذِهِ المحِيطاتِ العَظِيمَةِ؛ لأَنَّ آدم لا شَكَّ كانَ فِي إِحْدَى القارَّاتِ، لكنْ مَنِ الَّذي أَوْصَل بَنِيه إِلَى القارَّاتِ الأخرى؟ الله أعلَمُ، وقدْ يَكُونُ الله يسَّر لَهُم فِي ذَلِك الوَقْتِ مِنَ الأَسْبَابِ مَا قدْ زَالَ الآنَ ولَا نعْرِفُه حتَّى وصَلُوا إِلَى هَذِهِ البِلَادِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما صِحَّةُ مَا ساقَهُ القُرطُبِيُّ فِي تفسِيرِ آيَةِ الحَجِّ مَن أَنَّ المَنِيَّ فِيه تُرابٌ؟

قُلْنَا: لا نستَطِيعُ أنْ نَجْزِمَ بنفي هذَا أوْ إثْبَاتِه؛ لأَنَّهُ يجُوزُ أنَّ نَفْسَ الإنْسَانِ فِيه مادَّةٌ تُرابِيَّةٌ، والآنَ هُمْ يقُولونَ: إنَّ الإنْسانَ فِيه مِنْ جَمِيعِ مَعادِنِ الأرْضِ، فِيه رَصاصٌ ونُحَاسٌ وجِيرٌ وحَدِيدٌ وتُرَابٌ وكُلُّ شَيْءٍ، فنَفْسُ الجِسْم مُكَوَّنٌ مِن هَذِهِ الأشْيَاءِ، فلَا يبْعُدُ أن تكونَ هَذِهِ السّلالة التي تخْرُج منهُ فِيهَا هَذِهِ المَوادُّ، والحَقِيقَةُ ليْسَ عنْدَنا عِلْمٌ عمِيقٌ فِي هَذِهِ المسْأَلةِ، لكِنَّ الله عَلَى كُلِّ شيْءٍ قَديرٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعْضُ النّاسِ يقُولونَ إنَّ آدَم أوَّلَ مَا خَرَجَ مِنَ الجنَّةِ ونَزل إِلَى الأرْضِ نَزل بسِيلَانٍ؟

قُلْنَا: الله أعْلَمُ، لَا يُوجَدُ حَديثٌ صَحِيحٌ عنِ النّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، إنَّما كُلُّها آثَارٌ إسْرَائِيلِيَّةٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفَائِدَةُ الأولَى: إثْبَات الآيَاتِ لله عَزَّ وَجَلَّ، أي العَلامَاتِ الدّالَّةِ عَلَى مَا تدُلّ علَيْهِ مِن صِفاتِهِ لأَنَّ كُلَّ فعْلٍ يدُلُّ عَلَى نوْعٍ مِنَ الآيَاتِ لكِنْ هِي عَلَى سَبيلِ العُمُوم تدُلّ عَلَى القُدْرَة فجَمِيعُ الآيَاتِ تدُلّ عَلَى القُدْرَة والحكْمَة، لكِنْ لكُلِّ نوْعٍ منْهَا آيَةٌ خاصَّةٌ: الحكْمَةُ، القُدْرَة، العِزَّةُ، ومَا أشْبَه ذَلِكَ.

الفَائِدَةُ الثّانيَةُ: أنَّ أصْلَ بَني آدَمَ مِنْ تُرابٍ؛ لقَوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾.

الفَائِدَةُ الثالِثَةُ: أنَّ ابْتِداءَ خلْقِ الإنْسَانِ مِن تُرابٍ؛ لقَوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾.

الفَائِدَةُ الرّابِعَةُ: إبْطَالُ النّظرِيّة الملْحِدَة الخاطِئَة، وهِي نظرِيَّةُ النّشوءِ والتّطَوُّر

التي ذَهب إليْها أوْ كَان قائِدَها (دَارُون)، فهِي نظريَّةٌ خاطِئَةٌ وباطِلَةٌ بِلا شَكٍّ، وجْهُ ذَلِك مِنَ الآيَة أنَّ الله يقُولُ: ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ فيُخاطِبُ البَشَرَ باعْتِبارِه بَشَرًا.

إذَنْ: فهُو بشَرٌ منْذُ أنْشِئ مِنَ التُّرابِ إلَى اليَوْم، أمَّا أُولئِك فيَقُولُون: إنَّ أصْلَ الإنْسَانِ ليْسَ بشَرًا، بَلْ أصْلُ الإنْسَانِ قِرْدٌ ثمَّ تطَوَّر فصَار بَشَرًا، ويُمكِنُ أنْ يتطَوَّر بعْدَ ذَلِك ويَصِير مَلَكًا، ولَا أَدْرِي مَاذا يقُولُ فِي أصْلِ الحَمِيرِ وَالبِغَالِ والخَيْلِ والدَّجاجِ مَا أصلُها وتطَوَّرتْ إِلَى مَاذا؟ ثمَّ لا نَدْري مَا هو التَّطوُّرُ الآخَرُ، هَل نحْنُ نكُونُ ملائِكَةً؟

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: إنَّ هَذِهِ النظرِيَّةَ -الحَمْدُ لله- حتَّى فَلاسِفَةُ الغرْبِ وعُلَماءُ الطَّبيعَةِ مِنَ الكفَّار الآن أبْطَلُوها، وتبيَّن لَهُمْ أنَّها نظَرِيَّةٌ باطِلَةٌ خاطِئَةٌ، ثمَّ نَحْنُ نَعْلَمُ عِلْمَ اليَقِين بِدُونِ أيِّ نَظَرٍ أنَّها باطِلَةٌ، وَأنَّ اعتِقَادَها كُفْرٌ لأنَّهَا تكْذِيبٌ للْقُرآنِ والسُّنَّةِ وَإِجْماعِ المُسلِمِينَ، فكُلُّ هَذا لا شَكَّ أنَّه كَذِبٌ ولَا أصْلَ لَهُ، فالإنسانُ خُلِقَ مِنْ تُرابٍ كَما قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ، تُرابٌ جعلَهُ الله طِينًا، ثمَّ فَخَّارًا حتَّى كانَ صَلْصالًا لَهُ صَلْصلَةٌ إِذا ضَرَبْتَ علَيْهِ فَهُو كالفَخَّارِ، كَما قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ ثمَّ تكَوَّنَ الإنسَانُ، واللهُ عَلَى كُلِّ شيْءٍ قَدِيرٌ، فَهَذا وغَيْرُه تكْذِيبٌ لصَرِيحِ القُرآنِ.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: حكْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ في كَوْن الآدَمِيِّ بَشَرًا، أَيْ بَادِي البَشْرَةِ؛ لأَنَّكَ إِذا علِمْتَ أنَّك مُفتقِرٌ إِلَى اللِّبَاس الحِسِّيِّ علِمْتَ أنَّك مُفتقِرٌ إِلَى اللِّبَاس المعْنَوِيِّ: لِباسِ التَّقْوَى كَما قَالَ الله تَعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف:٢٦].

الفائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ هَذا البَشَر الَّذي خُلِق مِن أصْلٍ واحِدٍ انْتَشر ومَلأَ الأرْضَ، فَهَذا البَشَرُ مِن طَبيعَتِه الانْتِشَارُ والذَّهَابُ والمَجِيءُ وطَلَبُ الرِّزْقِ وطَلَبُ الصَّنائِع

وطلَبُ الأعْمَالِ، وَهَذا هُو الوَاقِع؛ وَلِهَذا قَالَ: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾، وَهَذا مِن آيَاتِ الله: كيْفَ مِن أصْلٍ واحِدٍ مِنْ رَجُلٍ وَاحِدٍ انْتَشَرَتْ هَذِهِ الخَلِيقَةُ فِي جَمِيعِ أنْحَاءِ الأرْضِ؟

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنَّ الإنْسَانَ متحَرِّكٌ بالطَّبعِ لا بُدَّ أنْ يتحَرَّكَ وينْتَشِر ويَذْهَب ويَجِيءَ؛ وَلِهَذا قَال النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَصْدَقُ الأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّامٌ**»[1]، لأَنَّ الإنسان دَائِمًا يهتَمُّ ويحرث ويطْلُب رزقه.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: مِنْ فَوائِد الآيَةِ ومَا بعْدَها مِنَ الآيَات مِنَّةُ الله عَزَّوَجَلَّ عَلَى عِبادِهِ بتَنْبِيهِهِمْ إِلَى آيَاتِه، يعْنِي أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ مَنَّ عَلَى العِبادِ بتَنْبِيهِهِمْ إِلَى الآيَاتِ، ولَمْ يَكِلْهُمْ إِلَى مَا فِي فِطَرِهم مِن الاعتَرافِ بالخَالِق، بَل أعَانَهُم عَلَى ذَلِك وأمَدَّهُم بالتَّنبِيهِ عَلَى مَا فِي هَذا الكَوْنِ مِنْ آيَاتِه فَفِيها مِنَّةٌ عظِيمَةٌ لأَنَّ الإنْسَانَ كَما قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ بَشَرٌ يَغْفُل ويَنْسَى فيُنَبِّهُه الله عَزَّوَجَلَّ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٤٥، رقم ١٩٠٥٤)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، رقم (٤٩٥٠)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٣٧، رقم ٤٤٠٦).

الآية (٢١)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم:٢١].

• ● ● •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ فخُلِقَتْ حَوَّاءُ مِنْ ضِلْعِ آدَمَ، وَسَائِرُ النَّاسِ مِنْ نُطَفِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ وَتَأْلَفُوهَا ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ جَمِيعًا ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المَذْكُورِ ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فِي صُنْعِ الله تَعَالَى] اهـ.

بَدأ أوّلًا بخلْقِ النّفْسِ، ثمَّ بخَلْق الزّوْجِ؛ لأنّهُ لَا يَتِمُّ التّناسُلُ إلا بالأزْوَاجِ، ونَقُولُ فِي قوْلِه تعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم ﴾، كَما قُلْنَا فِي قوْلِه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم ﴾ أنَّ معْنَى قوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أيْ مِنْ ذَوَاتِكُم، فعَلَى رأْيِ المُفسِّر المُرادُ بالنّفْسِ هُنا الذّاتُ.

وقوْله تعالَى: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾: (اللامُ) للاخْتِصاصِ وليْسَت للمُلْكِ؛ لأنَّ الإنْسَانَ لَا يمْلِكُ زوْجَته، ويُحْتَملُ أنْ تكونَ للتَّعْليل كَما فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، أيْ خَلق لأجْلِكُم، لكِنَّ المَعْنى أبْلَغُ فِي الإنْعَامِ، حيْثُ إنَّ كُلَّ إنْسَانٍ زوْجَتُه تخْتصُّ بِه؛ وَلِهَذا لَا يَجُوزُ للْمَرْأَةِ أنْ تتزَوَّجَ أكْثَر مِنْ رَجُلٍ فِي آنٍ واحِدٍ.

قوْله تَعالَى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: مشَى المُفَسِّر عَلَى أنَّ المُرادَ بالنَّفْسِ الذّاتُ، وأنَّ (مِن) للتَّبْعِيضِ، يعْنِي أنَّ نَفْسَ هَذِهِ الزّوجَةِ مِن نَفْسِ الإنْسَانِ، جُزْءٌ منْهُ؛ وَلِهَذا فسَّرهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بخَلْق حوَّاءَ مِنْ ضِلْع آدَمَ وسَائِرَ النساءِ مِن نُطَفِ الرّجال والنّساءِ.

ويُحْتَملُ أنَّ المُرادَ بالنّفْس الجِنسُ، كَما قالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التّوبة:٢٨]، يعْنِي مِن جنْسِكُم ولَيْس المُرادُ مِن أنْفُسكُم، أيْ مِن نَفْسِ الإنْسَانِ إلّا باعْتِبارِ حوَّاءَ؛ فإنّها خُلِقَتْ مِن ضِلْع آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فالمُرادُ بالنّفْسِ الجِنْس، ويُؤَيِّدُ هَذا المَعْنى قوْلُه تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾؛ فإِنَّ الإنسانَ يسْكُن إِلَى بَني جنْسِه دُونَ غيْرِهم، فلَو كانَتِ المرأةُ تخالِفُ الرّجلَ وليْسَت مِن جنِسِه لَكانَ في ذَلِك مشْكِلَةٌ ولَا يُمْكِنُه أنْ يسْكُنَ إِلَيْها، ومَا حصَل بيْنَهُما ائْتِلافٌ ومودَّةٌ لبُعْدِ الفَرْقِ بيْنَهُما؛ لهذا جعلَها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِنْ جنْسِه؛ لأجْلِ أنْ يسْكُن إِلَيْها، لكِنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُريدُ أنَّ المرادَ بالنّفْس في ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ الذَّات، أيْ مِن ذَواتِكُم، بدَلِيل أنّه فسَّرها بآدَم، خُلِقَت منْهُ حوّاءُ، وبَقِيَّةُ النّاسِ خُلِقوا مِنَ النُّطَفِ التي مِن الإنْسَانِ الذّكر والأُنْثى، ولكِنَّ الّذي ذكَرْناهُ أوْجَهُ؛ بدَلِيلِ قوْلِه تعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾، إذ إنَّ هَذا التّعْلِيلَ يُناسِبُ أنْ يكُونَ المُراد بالنَّفس أيْ الجِنْس، علَى أنّه لا يَمْنَعُ أنْ تكُونَ النّساءُ مخلوقَةً مِن ذَواتِ الرِّجالِ؛ لأَنَّ ما ذَكَرَهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ صحِيحٌ، لكِنَّ التّعْلِيلَ يُؤَيِّدُ القَوْلَ الأوّلَ.

قوْله تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾: اللّامُ للتّعْليلِ، أي لأَجْلِ أنْ تسْكُنوا، وهِي مُعلِّلَةٌ لقَوْلِه تَعالَى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، والسّكُونُ معْناهُ الاستِقْرارُ، ومنْه السُّكْنى في البَلدِ اسْتِقْرارُه فِيها، فقوْلُه تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ مِن السُّكونِ، وهُوَ عدَمُ النُّفورِ

مَنَ الشَّيْءِ؛ لأَنَّ السَّاكِنَ هُو المسْتَقِرُّ؛ وَلِهَذا نقُول لمن في البيْتِ أَنَّه ساكِنٌ مِن السُّكْنى، فالمَعْنى: لتستَقِرُوا وتطْمَئِنُّوا لها وتأْلَفُوها كَما قَال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوْله تَعالَى: ﴿لِتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾: ضَمَّن السّكونَ معْنَى المَيْل؛ فعَدَّاه بـ(إلى)، إذْ لم يقُلْ لتسْكُنوا منْهَا ولَا عنْدَها، ولكِنْ ﴿لِتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾، وَلِهَذا كَان الرّجُل ميَّالًا بطبْعِه إِلَى المَرْأَةِ وسَاكِنًا إِلَيْها، وَلا سيَّما إِذا وُفِّق لامْرَأةٍ تكُونُ مُلائِمَةً لَهُ، فَإِنَّ هَذا يبْدُو ظاهِرًا جِدًّا مِنَ التَّعليل.

قوْلهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ جميعًا]: هل المُراد بيْن الزّوج وزوجَتِه، أوْ بيْنَ النّاس جميعًا؟ كلامُ المُفسِّر يقْتَضِي العُمُومَ، لكِنَّ ظاهِرَ السِّياقِ يخْتَصُّ بالمَرْأَةِ وزَوْجِها، فإِنَّ هَذِهِ المرأةَ الأجْنبِيَّةَ التي لا تعْرِفُها ولَا تعْرِفُك مِنْ قَبْلُ إِذا تَمَّ العَقْدُ بيْنكُما ألقَى الله تَعالَى في قُلوبِكُما المودَّةَ والرّحمَةَ.

قوْله تَعالَى: ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾: المَودَّةُ: خالصُ الحبِّ. والرّحمةُ: الرّأفَةُ والحُنُوُّ والعَطْفُ، وهَل هَذا عَلَى سَبيلِ التّوزِيعِ أوْ عَلَى سَبيلِ الجَمْعِ، بِمَعْنى: هَلِ المودَّةُ مِنَ المَرْأَةِ للرَّجُل والرّحمةُ منْهُ لَها، أوْ أَنّه عَلَى سَبيلِ الجمْعِ أيْ كُلٌّ واحِدٍ منْهُم يَودُّ الآخَرَ ويَرْحَمُه؟ والظّاهِرُ أَنَّهُ عَلَى سبيلِ الجمْعِ، فالمودَّةُ في قلْبِ المَرْأَةِ، والرّحْمَةُ في قلْبِ الرّجُل؛ لأَنَّهُ هُو الَّذي لَهُ السُّلْطانُ علَيْها، وهِي التي تَمِيلُ إِلَيْهِ، فتكُونُ المودَّةُ منْهَا والرّحْمَةُ منْهُ، فيكُون الوَصْفانِ مُوزَّعَيْنِ عَلَى الزّوْجِ والزّوجَةِ.

والأقْربُ أنَّ الوَصْفَيْنِ لكُلٍّ مِن الزّوْجَيْنِ يعْنِي أنَّ المودَّةَ تكُونُ بَيْنَ الزّوجِ وزوْجَتِه، وَكَذلِكَ الرّحمَةُ تكُونُ بيْنَ الزّوْجِ وزوْجَتِه، هَذا هُو الأقْرَبُ وهُوَ الَّذي يُؤَيِّدُه الوَاقِعُ أيْضًا، فإِنَّ المَرْأَةَ إِذا ودَّتْ زوْجَها يكُونُ فِيها رحْمَةٌ لوْلَا أنَّ الأمَّ أرْحَمُ النِّساءِ، لقُلْنا أنّها مثْلُ رحْمَةِ الأمِّ؛ وَلِهَذا تَجِدُها تتْبَعُ زوْجَها وتدَعُ أُمَّها وأَبَاها وأهْلَها

ووَطَنَها؛ وَلِهَذا تجِدُها تُلاحِظُه إِذا مَرِضَ، وتجِدُ أنَّه يجِدُ مِن عِنايَتِها أكْثَر مِمَّا يجِدُ مِن عِنايَةِ أَبِيهِ وأُمِّهِ به، وتحْزَنُ إذا حَزِن وتُسَرُّ إذا سُرَّ، وإذا كانَتِ الحالُ بيْنَهُما جيِّدَةً يُمكِنُ أنْ تَبيعَ كُلَّ مَا تملِكُ مِن أجْلِ راحَتِه وإِسْعَادِهِ، حتَّى إنَّ بعْضَ النِّساءِ تَبيعُ حُلِيَّها ومَا زَاد عَنْ ضَرورَتِها مِن الثِّيابِ مِنْ أجْلِ الرَّحمَةِ بزَوْجِها، هَذا لا شَكَّ أنَّه رحْمَةٌ.

وبالنِّسبة للرَّجُل كَذَلِكَ ظاهِرٌ، فإنَّ مودَّةَ الرَّجلِ لزَوْجَتِه أمْرٌ لا يُنْكَرُ، وَكَذلِكَ رحْمَتُه إيَّاها أمْرٌ لا يُنْكَرُ، وأمَّا المودَّةُ فظَاهِرَةٌ ولَوْلا قُوَّةُ المودَّةِ بيْنَ الزَّوْجَيْنِ مَا حصَل الاتِّصالُ بيْنَهُما الَّذي أرادَهُ الله عَزَّوَجَلَّ لأجْلِ أنْ تكْمُل هَذِهِ الخليقَةُ وتنْمُو، فمِنْ أجْلِ هَذا جعَلَ الله تَعالَى المودَّةَ والرَّحْمَةَ.

وَقالَ ابْنُ الجوْزِيِّ فِي (صَيْد الخاطِرِ) قَالَ: لوْلَا أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحكْمَتِه قَضَى أنْ تَبْقَى هَذِهِ الخَلِيقَةُ لكَانَ الاتِّصَالُ بَيْن الزَّوْجِ وزَوْجَتِه مِنْ أقْبَح الأُمورِ، فكُلُّ واحِدٍ منْهُما يكْشِفُ عورَتَهُ للآخَرِ، ثمَّ يحْصُل هَذا الشَّيءُ الَّذي قدْ يكُونُ مسْتكْرَهًا في أذْوَاقِ بعْضِ النّاسِ، لكِنْ جَعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذِهِ المودَّةَ بَيْنَهُما لأَجْلِ أنْ تَسْتَقِيمَ الأُمورُ وتَنْمُوَ الخليقَةُ، وَهَذا صحِيحٌ، وَهَذا حقٌّ فلوْلَا أنَّ الله جعَل هَذا الأمْرَ مودَّةً مَا حصَل الاتِّصالُ بيْنَ الزَّوْجَيْنِ؛ وَلِهَذا كلَّما كانَ الزَّوْجُ أوِ الزَّوْجَة بعضُهم لبعْضٍ كارِهًا قَلَّ الاتِّصالُ بيْنَهُما.

والجَمْعُ بيْنَ المودَّةِ والرَّحْمَةِ مِنْ أبْلَغ مَا يكُونُ لأنَّهُ إذا كانَ أحدُهما محُتاجًا إِلَى الرَّحمَةِ حلَّتِ الرَّحمَةُ وزادَتْ عَلَى المودَّةِ، والعَكْسُ بالعَكْسِ، وإذا اجْتَمع مودَّةٌ ورحْمَةٌ فإِنَّهُ يَنْشَأُ مِن هاتَيْنِ الصِّفتَيْنِ صفةٌ أقْوَى ممَّا لِو انْفردَتْ إحداهُما؛ وَلِهَذا تجدُ الإنْسانَ ينْظُر إِلَى الفقِيرِ نظْرَةَ رحْمَةٍ لَا مودَّةٍ، لكِنْ إِذا اجْتمعَتِ الرَّحمةُ مَع المودَّةِ تولَّدَ مِن هَذا صفَةٌ أعْلَى مِنَ انْفِرَادِ كُلِّ واحِدَةٍ بنَفْسِها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المَذْكُورِ ﴿لَآيَٰتٍ﴾]: (اللام) للتَّوْكيدِ، والآيَاتُ جَمْعُ آيَةٍ، وتأمَّل قوْلَه تعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾، ثمَّ قالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا هَذا التّنافُر، حيْثُ قالَ فِي أوّلِ الآيَة ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾؟

قُلْنَا: لا تنافُـرَ في الواقِعِ، أوّلًا لأنَّ قوْلَه تعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ للتَّبْعيـضِ، وبَعْضُ الآياتِ قدْ يكونُ آيَةً واحِدَةً، وقدْ يَكُونُ أكْثَر مِنْ آيَةٍ، ثمَّ إنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ هَذِهِ أرْبعُ آياتٍ، فيَكُونُ في أصْلِ الخلْقِ آيَةٌ واحِدَةٌ، لكِن فِي أوْصَافِ هَذا الخلْقِ المتطوِّر آياتٌ، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيّن أنَّ اسْم الإشارَةِ وإنْ كَان مُفْردًا لكِنَّهُ عائِدٌ إِلَى متعَدِّدٍ. فقولُه: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ هَذِهِ آيـةٌ، وكوْنُها مِن النَّفْسِ آيـةٌ أخْرَى، و ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ هاتَان آيَتانِ، فالجَمِيعُ أرْبعُ آياتٍ كَمـا تقدَّمَ، والتّعبيرُ بكَلِمَةِ (ذلك) بيّن المُفَسِّر أن السَّببَ فِيه أنَّ اسْمَ الإِشَارةِ يعُودُ إِلَى المذْكُورِ وإنْ كَان أكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ أي: متعدِّدًا، وَهَذا كثِيرٌ في اللُّغَةِ العربيَّةِ وَفِي القرْآنِ أيْضًا.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾: نصبت (آيات) لأنَّها اسْمُ (إنَّ) مؤخَّرًا.

واعْلَمْ أنَّ هَذِهِ الآياتِ تكُونُ مِن كُلِّ صفةٍ مِن هَذِهِ المذكورَاتِ الأَرْبَعِ، وتكُونُ فِي اجتماعِها، ولكنَّها تحْتاجُ إِلَى تأمُّلٍ وإِلى تفكُّرٍ؛ وَلِهَذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فِي صُنْعِ الله تعالَى]؛ أيْ فِي خَلْقِه، ولكِنَّ المَعْنى أعَمُّ مِن ذَلِك، أيْ: يتفكَّرونَ فِي صُنْعِه وهُوَ الخَلْقُ وفِي حِكْمَتِه وفِي رَحْمَتِه وفِي غَيْرِ ذَلِك مِمَّا يتعلَّق بِهَذا المَعْنى.

وهَلِ المودَّةُ في أوَّلِ الحياةِ الزَّوجِيَّةِ والرَّحمَةُ بعْدَ الأوْلادِ؟

هَذَا خِلافُ الظَّاهِرِ؛ لأنَّ الظّاهِرَ أنَّ المودَّةَ والرّحمَةَ مُقتَرِنَانِ.

وهَلْ يُتبادَلانِ بَعْد العَقْدِ أوْ بعْدَ الاتِّصالِ أوْ بعْدَ المعامَلَةِ؟

الجوابُ: هَذا يَرْجِعُ إِلَى ما يَجْرِي بيْنَ الزَّوْجَيْنِ، أمَّا المودَّةُ فالظَّاهِرُ أنَّها تكُونُ مِنْ قبْلُ، مِنْ حِينِ أنْ يَخْطُبَ المَرْأَةَ وتُوافِقَ، لا تنْشَأُ هَذِهِ الخطْبَةُ والموافَقَةُ إلَّا عنْ مودَّةٍ، لكنَّها تنْمُو وتَزِيدُ بحسَبِ الاتِّصالِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: رحْمَةُ الله تَبَارَكَوَتَعَالَى بِنا حيْثُ جعَل أزْوَاجَنا مِنْ أنْفُسِنا، أيْ مِنْ جِنْسِنا، فَفِيها نعْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ لكَوْنِ الأزْوَاجِ مِنَ الأنْفُسِ، أيْ مِنَ الجِنْس ليتَحقَّق بذَلِك أغراضُ النِّكاحِ ومقاصِدُه.

الفائِدَةُ الثّانِيَةُ: أنَّ مِن أهَمِّ أغْراضِ النِّكاح ومقاصِدِه السُّكُونَ إِلَى الزَّوجَةِ، والاطْمِئْنانَ إِلَيْها والحياةَ مَعها حياةً سَعِيدَةً، فالحِكْمَةُ مِن الزَّوجيَّةِ هِي السُّكونُ، أيْ سُكُونُ أحدِ الزَّوْجَيْنِ إِلَى الآخَرِ، ويتفرَّعُ عَلَى ذَلِك أنَّه لَوْ حَصَلَ التَّنافُرُ فإنَّ مِن الحِكْمَةِ التَّفريقَ بَيْنَهُما؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾، فإذا فاتَتْ هَذِهِ الحكْمَةُ فإنَّهُ لا زَواجَ؛ وَلِهَذا لما فاتَتِ الحكْمَةُ بيْنَ ثابتِ بْن قيْسٍ وزوجَتِه قالَ الرّسولُ ﷺ: «خُذِ الحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا»[1]، وكيْفَ يُمْكِنُ أنْ تسْتَمِرَّ الزَّوجِيَّةُ بينَ زوجَيْنِ يتباغَضَان ويتنَافرانِ وكُلُّ واحِدٍ منْهُما يُحِبُّ أنْ يَرى المَوْتَ ولَا يَرَى صاحِبَه؟! فالإنْسَانُ إذا رأَى عدَم السُّكونِ ولَمْ تلْتَئِمِ الحالُ يَنْبَغِي لهُ أنْ يُفارِقَ؛ وَلِهَذا قالَ أهْلُ العِلْمِ إنَّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الخلع وكيف الطلاق فيه، رقم (٥٢٧٣).

الطَّلاقَ يُستحَبُّ لتَضرُّر المرأةِ بالبَقاءِ مَع الزَّوجِ، فلَو كانَتْ تتضَرَّرُ ولا تسْتَأْنِسُ معَ الزَّوج لَا ينْبَغِي أنْ يُكرِهَها عَلَى أنْ تَبْقى مَعَهُ، فإنَّ بعْضَ النّاسِ -والعياذُ باللهِ- يُكْرِهُونَهنَّ عَلَى البقَاءِ أو يَعْضِلُونَهُنَّ لأجْلِ أنْ يفْتَدِينَ ويُسَلِّمْنَ مبالِغَ مِن المالِ مِنْ أجْلِ أنْ يُطلِّقَها، كُلُّ هَذا حرامٌ، والَّذي ينْبَغي إذا رَأَيتَ مِن الزَّوْجَةِ أنَّها لا تسْتَطِيعُ أنْ تعِيشَ معَك عِيشَةً سَعِيدَةً فيَنْبَغي لكَ أنْ تُطلِّقَها، والنّبيُّ ﷺ يقولُ: «**مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيا فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيامَةِ**»(١)، ويقولُ ﷺ: «**واللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**»(٢)، وَفِي القُرْآنِ ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النّساء:١٣٠]، فأَنْتَ إذا نَوَيْتَ الخيْرَ بالتّوْسِعَةِ عَلَى هَذِهِ المَرْأَةِ وفارَقْتها فلعَلَّ اللهَ تَعالَى أنْ يُيسِّرَ لكَ الأمْرَ بِحُصولِ زَوْجَةٍ تالفُها وتالفُك.

المُهِمُّ: أنَّ مِن أهَمِّ أغْراضِ النِّكاحِ السّكونَ والطُّمأنينَةَ إِلَى الزَّوجَةِ والحياةَ حياةً سعِيدةً.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: ما القَى اللهُ تَعالَى فِي قُلوبِ الزَّوجَيْنِ مِن المودَّةِ والرَّحمَةِ، هَذَا مِنَ الآياتِ العظِيمَةِ، امْرأةٌ لَا تعْرِفُها إلَّا بالذِّكر عنْدَ خِطْبَتِها وليْسَ بيْنَك وبيْنَها قَرابَةٌ ثمَّ يَجْعَلُ اللهُ بيْنَ قُلوبِكُما مِنَ المودَّةِ والرَّحْمةِ مَا يرْبُو أحْيانًا عَلَى مودَّةِ الأُمِّ والأَبِ، وَهَذا لا شَكَّ أنَّه مِنْ آياتِ اللهِ؛ وَلِهَذا قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان:٥٤]، جعَلَ اللهُ فِي هَذِهِ الآيَةِ الصِّهر قَسِيمًا لِلنَّسبِ، يَعْنِي كأنَّ البشَرِيَّةَ إمَّا مُصاهَرَةٌ وإمَّا قرابَةُ نَسَبٍ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم (٢٦٩٩).

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ المودَّةَ لا تُنالُ بالكَسْبِ، يعْنِي أنَّ الله قَدْ يجْعَلُها فِي قلْبِ الإنسانِ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، يعْني أنْتَ لوْ أرَدْتَ أن تُجْبِر نفسَكَ عَلَى محبَّةِ شَيْءٍ واللهُ عَزَّوَجَلَّ لم يجْعَلْ في قلبِكَ مودتَه فلَنْ تحبَّه؛ ولِهَذا مَنَّ الله عَلَى المؤْمِنينَ بقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الحجرات:٧]، وأنْتَ تقُولُ فِي الدُّعاءِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ العَمَلِ الَّذِي يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ**»[1].

إِذَنْ: فالمودَّةُ يُلقِيها الله عَزَّوَجَلَّ فِي القَلْبِ، فأنْتَ ينبَغِي لَك أن تَسْأَل الله دَائِمًا أنْ تَكُونَ محبَّتُك للهِ وفِي الله لِتكُونَ المحبَّةُ بِاللهِ.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أنَّ مُا ذُكِر ليْسَ آيَةً واحِدَةً؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾، ثمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾: أولًا: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ثانيًا: ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ فتكونُ آياتٍ متعدِّدَةً.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: وُجوبُ التّراحُمِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَرَحْمَةً﴾.

وهَلْ يُؤخَذُ منْهَا وُجوبُ معالَجَةِ الزَّوجَةِ إذا مَرِضَتْ لأنَّهَا مِنَ الرَّحمَةِ؟

الفقهاءُ يقُولونَ: لَا يَجِبُ أنْ تُعالِجَها، ولَا يَجِبُ أنْ تُعطِيها قِيمَةَ الدَّواءِ؛ لأَنَّ هَذا ليْسَ مِن النّفقَةِ، وكَوْنُ الله يجْعَلُ بينَكُم رحمَةً ليْسَ معْنَاهُ أنْ يُلْزِمَك بِشَيْءٍ لَا يلْزَمُكَ، إِنَّما هَذا بَيَانٌ للوَاقِعِ وَهَذا صَحِيحٌ، فالرَّحمَةُ تُوجَدُ لكِنْ هَل تلْزَمُه؟ هَذا محَلُّ نظَرٍ؛ وَلِهَذا قالَ الفُقهاءُ أنَّه لا يَلْزَمُ الدَّواءُ وأُجْرَةُ الطَّبيبِ، وبعْضُ العُلَماءِ يقُولُ: يَلْزَمُ إلَّا إذا كانَ الشّيْءُ كثِيرًا يجْحَفُ بِمالِه فإِنَّهُ لَا يلْزَمُه.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ﴿ص﴾، رقم (٣٢٣٥).

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: إثْبَاتُ حِكْمَةِ الله وقدْرَتِه ورحْمَتِه أيْضًا، حيْثُ جعَل بيْنَ الزَّوجَيْن مودَّةً ورحْمَةً.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: الرَّدُّ عَلَى الجهْمِيَّةِ وَكَذلِكَ الأشَاعِرَةِ الَّذِين ينْفُونَ حكْمَةَ الله عَزَّوَجَلَّ، وأمَّا المُعتزِلَةُ فإنَّهم يغْلُونَ فِي إثْبَاتِ الحكْمَةِ؛ وَلِهَذا يرَوْن أنَّه يجِبُ عَلَى الله فِعْلُ الأصْلَحِ أوِ الصَّلاحِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: المُبتَدِعَةُ في ردِّهم للصِّفاتِ هَلْ هُمْ يبْنُونَ عَلَى مقدِّماتٍ عقْلِيَّةٍ متَّفَقٍ عليْهَا بيْنَهُم، أمْ أنَّ كُلَّ واحِدٍ منْهُم يُعَلِّلُ بعقْلِه؟

قُلْنَا: بِعقْلِه، كُلُّ واحِدٍ منْهُم يُعَلِّلُ فيخْتلِفُونَ في تعْلِيلِ هَذا الرَّدِّ، أحْيَانًا يقُولُونَ أنَّه يستَلْزِمُ الجسْمِيَّةَ، ولكنَّ غالِبَ ما يدُورُونَ أنَّها مستَلْزِمَةٌ للتَّمْثِيلِ، فيَخْتَلِفُونَ فِي الطُّرُقِ الموَصِّلة إلَيْه.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: الثَّناءُ عَلَى التَّفْكِيرِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فإِنَّ هَذا واضِحٌ أنَّه محَلُّ ثناءٍ لَهُم.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: الحثُّ عَلَى التَّفكُّرِ؛ تُؤْخذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لأَنَّ التَّفكُّرَ مِفْتاحُ العِلْمِ، ولَا يُمْكِنُ عِلْمٌ بلا تفكُّرٍ أبدًا، تفكَّرْ أولًا لتَعْلَمَ، فالتَّفْكِيرُ ينْفتِحُ بِه أبوابٌ كثِيرةٌ يعْرِفُ الإنسانُ بِها مِنْ أحكَامِ الله وحِكَمِهِ ما لا يَحْصُل لَهُ لَوْ لم يُفكِّرْ؛ لأَنَّهُ خصَّ الآياتِ بالقَوْمِ الَّذِين يتفكَّرُون، فدَلَّ هَذا عَلَى أنَّه يحْصُل بالتّفكُّرِ مِن الاطِّلاعِ عَلَى أحكَامِ الله وحِكَمِه ما لا يَحْصُل بالغفْلَةِ.

التّفكُّر يكُونُ في آياتِ الله، أيْ مخلُوقاتِه ومشْرُوعاتِه؛ لأَنَّ الآياتِ كَما سبَق إمَّا كَونيَّةٌ، وإمَّا شرعِيَّةٌ، يحْصُل التّفكُّرُ فِي صفاتِ الله مِن وَجْه المَعْنى، أمَّا مِن حيْثُ

الكيْفِيَّةُ فَلا يَجُوزُ التّفكُّرُ في الصِّفاتِ؛ لأَنَّ ذَلِك محاوَلَةٌ لما لَا يُمْكِنُ الحصولُ علَيْهِ؛ وَلِهَذا قَال الإِمَامُ مالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «السُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ»، فَلا يَجُوزُ أَنْ نتفكّر في كيْفِيَّةِ صفةٍ مِن صفاتِ الله، بلْ نتفكَّرُ في المَعْنى دُونَ الصِّفَة.

ومثْله التّفكُّر في ذَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يَجُوزُ؛ لأَنَّهُ مُحاوَلةٌ لما لَا يُمْكِنُ الوُصولُ إِلَيْهِ، ثمَّ التّفْكيرُ في هَذِهِ الأمُورِ يجُرُّ إِلَى بَلايَا ومهَالِكَ، والَّذي ضَرَّ مَنْ ضُرَّ مِن أَهْلِ التّعْطِيل وأهْلِ التَّشبيهِ هُو محاوَلَتُهم الوصولَ إِلَى الكَيفيَّة؛ فلِهَذا آلَ بِهِمُ الأَمْرُ إِلَى التَّعْطِيلِ أو التَّمْثيلِ.

والمُهِمُّ: أَنَّ التّفَكُّرَ يكُونُ في مخلُوقاتِ الله وفِي مشْرُوعاتِهِ وفِي معَانِي أسمَائِه وصِفَاتِهِ، أمَّا في ذَاتِه وكيْفِيَّةِ صفَاتِه فإِنَّهُ لا تفكُّر، وَذَلِكَ لأَنَّهُ مهْما بلَغ الإنسانُ فإِنَّ الفِكْر سيَرْجِعُ خاسِئًا وهُو حَسيرٌ، والإعْراضُ عنْ هَذا هُو الوَاجِبُ، كَما قَال الإِمَامُ مالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ.

• ● ۞ ● •

الآية (٢٢)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم:٢٢].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ أَيْ لُغَاتكُمْ مِنْ عَرَبِيَّة وَعَجَمِيَّة وَغَيْرهَا ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ مِنْ بَيَاض وَسَوَاد وَغَيْرهمَا وَأَنْتُمْ أَوْلَاد رَجُل وَاحِد وَامْرَأَة وَاحِدَة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ دَلَالَات عَلَى قُدْرَته تَعَالَى ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ بِفَتْحِ اللَّام وَكَسْرهَا أَيْ ذَوِي العُقُول وأولي العلم] اهـ.

اعلَمْ أنني راجَعْتُ الكثير من التَّفاسِير فَمَا وجَدْتُ الحِكمَة في أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقُولُ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم ﴾، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم ﴾، يعْنِي ما رأَيْت أحدًا بَيَّن الحِكْمَة فِي كونِه يأْتِي مرَّةً بالمَصْدَرِ، ومرَّةً بِـ(أَنْ) الدَّاخلَةِ عَلَى الفِعْل، هِي تُؤَوَّلُ بمصْدرٍ، لكِنْ هَل نقُول إنَّ هَذا مِنْ بَابِ الاخْتِلاف في التَّعْبير المُراعَى بِه جانِبُ اللَّفْظ، أوْ أنَّه مِن بابِ التَّعبيرِ المُراعَى بِه جانِبُ المَعْنى؟ فَإِنْ قُلنا أنَّه مِن بَابِ التَّعبير المُراعَى بِه جَانِبُ اللَّفْظُ فالأَمْر بَسِيطٌ، ونَقُول إنَّ الله تَعالَى غايَرَ بَيْن العِباراتِ لأَجْلِ أنْ لَا يَمَلَّ السَّامِعُ إذا كَان الكَلامُ عَلَى وَتِيرَةٍ واحِدَةٍ؛ لأَنَّ الاخْتِلافَ في التَّعبيرِ ممَّا يَزِيدُ الإنسانَ نَشاطًا وتَجدُّدًا، أمَّا إِذا قُلْنا إنَّ هناكَ أمْرًا معنَوِيًّا فأَنَا إِلَى الآنَ مَا عرَفْتُه، ولا ذَكرَه الزَّمخشَرِيُّ ولَا أَبُو السُّعودِ، ولَا هؤُلاءِ الَّذِينَ يتكلَّمُونَ عَلَى مثْلِ هَذِهِ الأُمُورِ.

قوْله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ خبرٌ مقدَّمٌ، و﴿خَلْقُ﴾ مبْتَدأٌ مؤَخَّرٌ، وخلْقُ السَّمواتِ: أيْ إيجادُهَا بتَقْدِيرٍ ونظامٍ بدِيعٍ، وَهَذا يشْمَلُ خلْق هَذِهِ السّموات باعْتِبارِ كَوْنِها أجْرَامًا عَظِيمَةً وباعْتِبارِها مصْلَحةً للعْبَادِ، فهَذا مِن آيَاتِ الله، فمِنْ آيَاتِه العَظِيمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِه ورَحْمَتِه وحِكْمَتِه خَلْقُ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ، والسَّمواتُ جمْعٌ وجَمْعُها ظَاهِرٌ لأنَّهَا سبْعُ سمَواتٍ، والأرْضُ مُفْرَدٌ، ولكِنَّ المُرادَ بِه الجِنْس؛ لأنَّهُ لا شَكَّ أنَّ الأرَضِينَ سبْعٌ، والدَّلِيلُ قوْله تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، والمِثْلِيَّةُ هُنا لَا يُمْكِنُ أنْ تكُونَ فِي الصِّفَةِ أبدًا، إذْ لا يُمْكِنُ أنْ تكونَ الأرَضونَ مثْلَ السّموَاتِ فِي الصّفةِ لِظُهورِ الفَرْقِ التَّامِّ بيْنَهما، فإذا تعذَّرَتِ الصِّفَةُ رجَعْنا إلَى العَدَدِ، أيْ ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ فِي العَدَدِ، ثمَّ جاءَتِ السُّنَّةُ مُبيِّنَةً ذَلِك صَرِيحًا، مثْلَ قولِه ﷺ في الحديث الصَّحِيح المُتَّفَق عليْهِ: «**طَوَّقَهُ يَوْمَ القِيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»[١].

وقوْله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾: أيْ لُغَاتِكُمْ مِنْ عَرَبِيَّةٍ وَعَجَمِيَّةٍ وَغَيْرِهَا]: اختلاف معطُوفَةٌ عَلَى (خلْق) يعْنِي ومِنْ آيَاتِه أيْضًا اختِلافُ ألسِنَتِكُم، وصَحِيحٌ أنَّ اختِلافَ الألسِنَةِ مِن آيَاتِ الله بحسَبِ اللُّغاتِ عرَبِيَّةً وعجَمِيَّةً وغيْرَها، إنْ أرَدْنا بَالعَجَم اسْم القَوْمِ الخاصِّ، فكَلِمَةُ (غيْرَها) صحِيحَةٌ، وإذا أرَدْنا بالعَجَمِ مَنْ سِوى العَرَبِ فإنَّ قوْلَه: (وَغَيْرَهَا) ليْسَ بِصَحِيحٍ، وَهَذا هُو الأفْضَلُ أنَّه يُقَال: (عَرَبٌ وَعَجَمٌ) ويُراد بالعَجَم مَا سِوى العَرَبِ، فيَشْمَلُ جمِيعَ لُغاتِ العالَم، ثمَّ إنَّ اختِلافَ الألسِنَة أيْضًا قَدْ نُنْزِلُه عَلَى اختِلَافِ اللُّغَة نفسِها، واخْتِلافِ النُّطقِ نفْسِه، فأَنْتَ تَرى الإنْسَانَ ينطِقُ بخُروجِ الهَواءِ مِنَ الرِّئَتَيْنِ، ثمَّ مُرورِهِ عَلَى

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠).

مخارِجِ الحُروفِ، كُلَّما مَرَّ عَلَى مخرَجٍ تغيَّر والهَواءُ واحِدٌ، فإذَا مَرَّ عَلَى مخْرَجِ الصَّادِ صار صَادًا، وإذَا مرَّ عَلَى مخْرَجِ الجِيمِ صَار جِيمًا، وَإذا مَرَّ عَلَى مخْرَجِ الدَّالِ صارَ دالًا، مَع أنَّ الهواءَ واحِدٌ، ثمَّ إنَّه أيْضًا لَا يحْتَاجُ إلَى عملِيَّةٍ؟ فهَل نَجِدُ تَعبًا بنَقْلِ البَاء إلَى النُّونِ إلَى القَافِ إلَى اللَّام، فَهُو شَيْءٌ واحِدٌ ومَع ذَلِك تجِدُ الحُروفَ تتَنوَّعُ بمُرورِها عَلَى هَذِهِ المخَارِج، فَهذا أيْضًا مِنْ آيَاتِ الله العظيمَةِ، وهُوَ دَاخِلٌ في قوْلِه تَعالَى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾.

فاخْتِلافُ الألسِنَة أيْضًا مِن آيَاتِ الله ووجْهُ ذَلِك أنَّ هَذِهِ الألسُنَ مِن نوعٍ واحِدٍ، أوْ مِن جنْسٍ واحِدٍ، كلُّنا بشَرٌ، وكلُّنا مِن أَبٍ واحِدٍ، ومَع ذَلِك تختَلِفُ الألسُن اختِلافًا عظِيمًا، كَذَلِكَ أيْضًا هُوَ مِنْ آيَاتِ الله لأَنَّ كلَّ إنْسَانٍ يعرِفُ جنسَه بلُغَتِه، أنا أعْرِفُ مثَلًا أنَّ هَذا هنْدِيٌّ، وَهَذا تُرْكِيٌّ، وَهَذا إنجْلِيزِيٌّ، وَهَذا ألمانِيٌّ، وَهَذا رُوسِيٌّ، بسَبَب لُغَتِه، وَهَذا أيْضًا مِن آيَاتِ الله أنْ جعَلَها دَلِيلًا عَلَى جِنْسِ الإِنْسَانِ.

وقوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يشْمَلُ أصْلَ اللُّغَة، ويَشْمَلُ اللَّهَجاتِ، ويشْمَلُ السَّلامةَ مِن العُيوبِ، ويشْمَلُ العُيوبَ أيْضًا، ويشْمَلُ الفصاحَةَ، ويشْمَلُ العِيَّ؛ لأَنَّ بعضَ النَّاس يُعبِّر عنِ المَعْنى تعْبِيرًا يسْتَطِيعُ الإقْنَاع إذا أرَاد أنْ يُقْنِع، ويسْتَطِيعُ التَّنْفِيرَ إذا أرَادَ أنْ يُنفِّرَ، وبعْضُ النَّاس عنْدَه عِيٌّ بحيْثُ أنَّه لا يسْتَطِيعُ أنْ يُعبِّرَ حتَّى عنِ المَعْنى الصَّحيحِ حتَّى أنَّه إذَا عبَّر عن المعَانِي الَّتي يُريدُها، رُبما لا تُقبَلُ منْهُ لضعف تعْبيرِه، يعْنِي لا تَظُنَّ أنَّ اخْتِلافَ الألسِنَة فقَط في جِنْس اللُّغَةِ، لا بَلْ بِكُلِّ هذَا، فأجْنَاسُ اللُّغاتِ مِن آيَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ، وكوْنُ هَذا الإنسانِ ينطِقُ بالحُروفِ نُطْقًا تَامًّا، هَذا مِنْ آيَاتِ الله، والثَّاني بالعَكْس ينْطِقُ بها عَلَى وجْهِ اللَّثْغةِ أوْ يتثَاقَلُ أوْ مَا أشْبَه ذَلِك، كَذَلِكَ أيْضًا قدْ نَقُولُ: إنَّ مِن اخْتِلافِ اللِّسانِ اختلافَ

الأَصْوَاتِ، فهَذا صوْتُه جيِّدٌ، وَهَذا حسَنٌ، والآخَرُ بالعَكْسِ، كَذَلِكَ مِن اخْتِلافِ الألسُـن الفصاحَةَ وعدَمَها، فإنَّ مِن النَّاسِ مَن يُعطِيهُ الله تَعالَى بلَاغَةً فِي الكَـلامِ وحُسْنَ أداءٍ حتَّى أنَّه يؤدِّي إلَيْك المَعْنَى بعِبارةٍ واضحَةٍ تفْهَمُها مِن أوَّلِ مرَّةٍ ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ بالعَكْسِ فجَمِيعُ مَا يمْكِنُ أنْ يَرد عَلَى اخْتِلَافِ اللِّسانِ فإنَّهُ داخِلٌ فِي كوْنِه مِنْ آيَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوْلُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ مِنْ بَيَاضٍ وَسَـوَادٍ وغَيْرِهِمَا]: هَذا صحِيـحٌ، اخْتِلافُ الألوانِ مِن بَياضٍ وسَوَادٍ وغَيْرِهما، أيْ مَا بيْنَ السَّوادِ والبَياضِ يعْنِي أسْودُ خالصٌ، وأَبْيضُ خالصٌ، ومَا بيْنَهُمـا هُو غيْرُهما، وَهَذا أيْضًا مِن آيَاتِ الله؛ وَلِهَـذا لا تَكادُ تَجِدُ اثْنَيْنِ متَّفِقَيْنِ فِي اللَّوْنِ أبَدًا حتَّى لَوْ كَانا توْأَمَيْنِ لا بُدَّ أنْ يكُونَ هناكَ اختْلافٌ، لكِنْ منْهُ ما يكُونُ ظاهِرًا، ومنْهُ مَا يكُونُ غَيْرَ ظاهِرٍ، إمَّا بمَيْلِه إلَى الحُمْرَةِ أو إلَى السَّوادِ أوْ إلَى البَياضِ، أوْ يكُونُ الجِلْدُ ليْسَ عَلَى وتِيـرَةٍ واحَدَةٍ، وَهَذا شيْءٌ مُشاهَدٌ، فالرَّجُل الأبْيَضُ الأُوربِّي بيْنَه وبَيْن الرَّجُل الأسْوَد الَّذي عَلَى خطِّ الاسْتِواءِ فرْقٌ شاسِعٌ، ومَا بَيْن ذَلِك درَجاتٌ متفاوِتَةٌ، لكِنْ لَا تكَادُ تَجِدُ اثْنَيْن عَلَى لوْنٍ واحِدٍ، هَذا مِنَ الحِكْمَةِ؛ لأَنَّهُ لوْلَا هَذا لَكَانَ النَّاسُ يَخْتَلِفُ بعْضُهم عَلَى بعْضٍ، وربَّما طَالبُوا بحقُوقِهم مَنْ ليْسَ لَهُمْ عنْدَه حقٌّ لمجرَّدِ الشَّبَهِ.

ويُقالُ أنَّ الله جعَل لكُلِّ إنْسَانٍ أرْبَعِينَ شَبِيهًا، ولَكِنْ لَا أظُنُّ أنَّ هَذا يَصِحُّ، بَلْ إنَّهُم يقُولونَ إنَّ البَصماتِ الَّتي فِي الأنَامِل تَخْتَلِفُ، كُلُّ واحِدٍ لَهُ بصَماتٌ عَلَى شكْلٍ لَا يُوافِقُ الآخَرَ وَهَذا هُوَ الظَّاهِرُ، وَلِهَذا تُعْتَبَرُ البَصماتُ فِي التَّحْقِيقاتِ الجنَائِيَّةِ، ممَّا يدُلُّ عَلَى أنَّها تَخْتَلِفُ قطْعًا، وَهَذا ممَّا يدُلُّ عَلَى قدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هَذا الاخْتِلافَ العظِيمَ، ملَايِينُ المَلَايينِ مِنَ البَشَرِ، ومَع ذَلِك كُلُّ إنْسَانٍ لَا يُمْكِنُ أنْ يُطابِقَ الآخر

مِنْ كُلِّ وجْهٍ، لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ هُناكَ علامَةٌ فارِقَةٌ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَأَنْتُمْ أَوْلَادُ رَجُلٍ وَاحِدٍ وامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ]: صحِيحٌ، نحْنُ أَوَّل مَا نشَأْنا مِن آدَم وحواء، ومَع ذَلِك نخْتَلِفُ هَذا الاخْتِلافَ العظِيمَ في الألوانِ، ولَمْ يذْكُرِ الله عَزَّوَجَلَّ الاخْتِلافَ في الأَجْسامِ مَا بَيْنَ صَغيرٍ وكَبيرٍ ومتوسِّطٍ؛ لأَنَّ القُدْرَة عَلَى خَلْقِهم باخْتِلافِ ألوَانِهم أبْلَغ مِنَ القُدْرَة باخْتلَافِ خلْقِهم عَلَى كِبَرِ أَجْسَامِهِم وصِغَرِها؛ وَلِهَذا ذَكر الألسِنَةَ والألوانَ.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ دَلَالَاتٍ عَلَى قُدْرَتِه تَعالَى ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ بِفَتْحِ اللَّامِ وكَسْرِها، أَيْ ذَوِي العُقُولِ وأُولِي العِلْمِ]: بفَتْح اللَّام وكسْرِها، يعْنِي يجُوزُ أنْ تَكونَ (لِلْعَالَمِينَ) و(لِلْعالِمِينَ)، والقِراءتَانِ سبْعِيَّتانِ[1]؛ لأَنَّ قاعِدَةَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِذا ذَكَر الوَجْهَيْن فهُما قِراءتانِ سبْعِيَّتَانِ، أمَّا إِذا قَال: (وقُرِئ) فالقِراءةُ شاذَّةٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ أو «للعالَمين»، العالِمُون ذوو العِلْم، والعالَمون جمعُ عَالَمٍ، يعْنِي الخلْقَ، وهَلْ نأخُذُ مِنَ اخْتِلافِ القِراءَتَيْن أَنَّ المرادَ بالعالَمِين ذوي العلْم؛ لأَنَّ العالَمِين أعمُّ مِن العالِمين؛ لأَنَّ العالِمين تختَصُّ بذَوي العِلْم، والعالَمِين عامَّةٌ لَهُم ولغَيْرِهم، فهَل نقُولُ: إنَّ الآيَة تدُلُّ عَلَى أنَّ هَذا فِيه آياتٌ للعالِمين، أوْ نقُولُ إنَّ الآياتِ للعالَمِين كلِّهم العالِمِ وغيْرِ العالِمِ، ولكنَّ العالِمَ لَهُ مزيَّةٌ، فتكُونُ دالَّةً عَلَى أنَّ اخْتِلافَ الألسُنِ والألوانِ أمْرٌ معْلُومٌ لكُلِّ أحَدٍ، لكنَّ مَا وراء ذَلِك الظَّاهرِ أمرٌ لا يعْلَمُه إلَّا أهْلُ العِلْمِ، ويكُونُ فِي الآيَةِ إشَارَةٌ إِلَى أَنَّه ينْبَغي لنَا أن نتعَمَّقَ فِي هَذا الأمرِ حتَّى يتبَيَّنَ لنا بعلْمِنا ما ليْسَ بائِنًا لغيْرِنا، وَهَذا هُو الأحْسَنُ.

---

(١) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص:٦١٩).

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ خلْقَ السَّموَاتِ وَالأرْضِ مِن آيَاتِ الله، ووَجْهُ كَوْنِه مِن آيَاتِ الله عِظَمُهما واتِّساعُها ومَا فِيهما مِنَ الكَواكِبِ والنُّجومِ والأَشْجارِ والبِحارِ والأَنْهارِ وغَيْرِ ذَلِكَ، كُلُّه مِنْ آيَاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِه وقُدْرَتِه.

الفائِدَةُ الثّانِيَةُ: أنَّ السَّمواتِ جَمْعٌ والأرْضَ كَذَلِكَ، لكِنْ لَيْسَ فِي الآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى هَذَا، إنَّما يُسْتَفادُ كَوْنُ الأرْضِ جَمْعًا مِن أدِلَّةٍ أُخْرَى.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: أنَّ اختِلافَ الألسُنِ والألوانِ مِن آيَاتِ الله أيْضًا، وهلِ اختِلافُ الألسُنِ والألوانِ هُو بِطُولِ اللِّسَانِ وقِصَرِه، أوِ المُرادُ اختِلافُ اللُّغَة؟ المُرادُ اختِلافُ اللُّغاتِ واخْتِلافُ الفَصاحَةِ والبَيانِ؛ فإِنَّ النَّاسَ يَخْتَلِفُون فِي هَذا اختِلافًا عظِيمًا، تَجِدُ المَعْنى الوَاحِدَ يتكَلَّمُ بِه إِنْسَانٌ فيَقْتَنِعُ الحاضِرونَ لقُوَّةِ بَيانِه وفَصاحَتِه، ويتكَلَّمُ فِيه آخَرُ لَا يلْتَفِتُونَ إِلَيْهِ ولا يُقْنِعُهم، وتَجِدُ رَجُلَيْنِ يتكَلَّمانِ، أحَدُهُما يشُدُّ النَّاسَ إِلَى نفْسِه، والآخَرُ يتكلَّمُ ولَا يُسْتَمَعُ إِلَيْهِ، مَع أنَّ الكَلامَ واحِدٌ والمَوْضوعَ واحِدٌ، لكِنَّ اخْتِلافَ الإلقاءِ والفصَاحَةِ هُو الَّذي جعَلَ النَّاسَ يتأَثَّرُونَ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ الألوانَ لا تتَّفِقُ، نأْخُذه مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾، ولِهَذا يقُولُ العُلَماءُ أنَّه لَا يُمْكِنُ أن يُوجد شخصَانِ متَّفِقانِ مِنْ كُلِّ وجْهٍ أبَدًا عَلَى كثْرَة النَّاسِ، حتَّى التَّوْأمانِ لا يتَّفقانِ مِنْ كُلِّ وجْهٍ، صحيحٌ أنَّ بعْضَ النَّاسِ يتقارَبُونَ وَلا تعْرِفُ بعْضَهم مِن بعْضٍ، لا سِيَّما إذَا كُنْتَ لَا تَراهُما إلَّا نادِرًا، لكِنْ عنْدَ التَّأَمُّلِ لَا بُدَّ أنْ يكُونَ هُناكَ علامَةٌ فارِقَةٌ، ولا تأْخُذ بالمَلامِحِ الظَّاهِرَة، وَهَذا مِنْ آيَاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتَّى الأَعْضاء الآنَ لَا تظُنَّ أنَّ أعضاءكَ متَّفِقَةٌ، فأعْضاؤُك تَخْتَلِفُ، فَكِّرْ فِي العُروقِ: عُروقُ اليَدَيْنِ تَجِدُها مُختَلِفَةً، عروقُ الرِّجْلَيْنِ تَجِدُها مُخْتَلِفَةً، البَنانُ الَّتي

يُسمُّونَها بصَماتٍ تجِدُها مختَلِفَةً عَلَى كثْرَة النَّاسِ، لا يُمْكِنُ أنْ يتَّفِقُوا أبدا وَهَذا دليل واضح عَلَى عظِيمِ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وبَالِغْ حِكْمته.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: مدْحُ أُولي العِلْم؛ تُؤخَذُ مِن قَوْلِه: (العالمِين) بِكَسْر اللَّامِ، فإِنَّهُ يدُلُّ عَلَى فضِيلَةِ أهْلِ العِلْمِ، ولَا شَكَّ أنَّ أهْلَ العِلْمِ لَهُمْ فَضْلٌ. فالعالِمُون باللهِ وآيَاتِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لَهُم مِن الفَضائِلِ بِحَسَبِ عِلْمِهِمْ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٢٣)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الرّوم:٢٣].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بِإِرَادَتِهِ رَاحَةً لَكُمْ]؛ مِن آيَاتـه أيْضًا منامُكُم بِاللَّيْـلِ والنَّهارِ -وَ(الباءُ) هُنا بمَعْنى (فِي)- فَهِي للظَّرْفِيَّـةِ -و(الباءُ) تأتي للظَّرفِيَّةِ كَثِيرًا- ومِنْهُ قوْلُه تعالَى:﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصّافات:١٣٧-١٣٨]، أيْ وفِي اللَّيْلِ، فالباءُ فِي قَوْلِه ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ ظَرْفِيَّةٌ.

وقوْله تعالَى: ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ لَمْ يذْكُرِ الله وقتًا مُعَيَّنًا مِن اللَّيْلِ، ولا وَقْتًا مُعيَّنًا مِن النَّهارِ؛ لأنَّ النَّومَ فِي أيِّ ساعَةٍ مِن اللَّيْل أوِ النَّهارِ هُوَ مِن آياتِ الله، أمَّا كَوْنُك يُكْرَهُ لَك أنْ تَنامَ فِي هَذا الوَقْتِ أوْ لا تَنامُ فهذا موْكُولٌ إلَى الشَّرعِ، وهُو مِنَ الآياتِ الشَّرْعيَّةِ ولَيْس مِنَ الآياتِ الكَوْنِيَّةِ.

وقوْلهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [رَاحَةً] هَلْ هِي مفْعُولٌ مِن أجْلِه أوْ مفْعُولٌ لـ(إرادة)، أيْ أنَّه يُرِيدُ الرّاحةَ لكُمْ؟ يَحْتَملُ كلامُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجْهَيْن: إمَّا المَعْنى بإرَادتِه أنْ تَسْتَرِيحُوا، أو المَعْنى أنَّ نومَكُم بإرَادتِه راحةٌ لكُمْ، فيُفِيدُ أنَّ النَّوْمَ ليْسَ باخْتِيارِ الإنْسانِ، الإنْسَانُ غايَةُ مَا يفْعَلُ أنَّه يفْعَلُ الأسْبابَ الَّتِي يكُونُ بِها النَّوْمُ، أمَّا أنْ يُخْرِجَ رُوحَهُ مِنْ جَسَدِه

حتَّى ينامَ أوْ يرُدَّ رُوحَهُ إلَى جسَدِه حتَّى يسْتَيْقِظَ فهَذا ليْس إلَيْهِ، بَلْ هُو إلَى الله، ولِهَذا أحْيانًا الإنسانُ يُريدُ النّومَ ويكُون علَى الفِراشِ ويُحاوِلُ بقَدْرِ ما يَسْتطِيعُ أنْ ينامَ، ثمَّ لَا ينامُ، وأحْيانًا يغْلِبه النَّومُ ولَوْ لَمْ يتهَيَّأْ لَه.

إذَنْ: النّومُ بإرَادَةِ الله، وهُوَ وفَاةٌ صُغْرَى، فكَما أنَّ الوفَاةَ الكُبْرى إنَّما تَكُونُ بأَمْرِ الله وبإرَادَتِه فكَذَلِكَ الوَفاةُ الصُّغْرَى.

قالَ المُفسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم﴾ بِالنَّهارِ ﴿مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾ أيْ: تَصرُّفُكُمْ فِي طَلَبِ المَعِيشَةِ بِإرَادَتِهِ]: (ابتغاؤُكم) معْطُوفَةٌ علَى (منامِكم)، ومعْنَى (ابتغاؤُكم) أيْ طلبُكم ﴿مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾، (مِن) لِبَيان الجِنْس، أيْ مِن عطَائِه ورِزْقِه، والمُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ خصَّ الابْتِغاءَ بالنَّهارِ، ﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾، والأَحْسَنُ أنْ نجْعَلَها مُطْلَقَةً كَما أطلَقَها الله؛ لأَنَّ مِن النَّاس مَنْ يبْتَغِي مِنْ فَضْل الله بالنَّهارِ، ومِنْهُم مَن يبْتَغِي مِنْ فضْلِ الله بِاللَّيْل، فكَوْنُها تبْقَى عَلَى مَا هِي علَيْهِ بدُونِ تقْيِيدٍ هَذا هُوَ الأَوْلى؛ لأَنَّ التَّقْييدَ يُضَيِّقُ المَعْنى فيَجعلُ الابْتِغاءَ بالنَّهارِ مَع أنَّه يُوجَدُ أناسٌ لا يطْلُبونَ الرِّزْق إلا فِي اللَّيْل، مثْلُ الحرَّاس وأصْحَابِ الأَمْن، ومَا أشْبَه ذَلِك.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: تقْيِيدُ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ النَّوْمَ باللّيْلِ وابْتِغاءَ الفَضلِ بالنَّهارِ مع أن النَّومَ يَكُونُ بالنَّهار وابْتِغاءِ الفَضْل باللَّيْل، هلْ هَذا باعْتِبار الأَغْلَبِ؟

قُلْنَا: لَو قُيِّدَتْ لقُلْنا هَذا باعْتِبارِ الأَغْلب، يعْني لَوْ قَال: (مِنْ آيَاتِه منامُكُم باللَّيل وابْتِغَاؤُكم مِنْ فضْلِهِ بالنَّهار)، أمَّا أنْ تأْتِي عامَّةً ثمَّ نُقَيِّدُها فَلا وجْهَ لَهُ، وأيْضًا لا تُفسَّرُ بالآيَاتِ المقَيَّدَةِ؛ لأَنَّ الآيَاتِ المقيَّدة لا تُنافِي هَذِه.

قوْله تَعالَى: ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾: الفَضْل بمَعْنى العَطاءِ، وقوْلُ المُفسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أيْ تصـرُّفُكُمْ فِي طَلَبِ المَعِيشَـةِ بِإرَادتِهِ]، والإرادَةُ هُنا إرادَةُ الله عَزَّوَجَلَّ،

والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يُثْبِتَ مذْهَب الجبْرِيَّة، ولكِنْ يُرِيدُ أَنْ يُبيِّنَ أَنَّ تصرُّفَنا وإِنْ كُنَّا مستَقِلِّينَ بِه مِن وَجْهٍ، فإِنَّنا لسْنَا مستَقِلِّينَ بِه مِن وجْهٍ، وابْتِغاءُ الفضْلِ بإِرَادَةِ الله والمَنامُ بإِرادةِ الله، وبَيْنَهُما فرْقٌ لأَنَّ المنام ليْسَ لنا فِيه حُرِّيَّةٌ إطْلاقًا، ولَا إرادَةَ بِخلَافِ الابْتِغَاءِ مِن فضْلِه، فإِنَّ لنَا فِيه إرادَةً، ولكِنَّها تابِعَةٌ لإرادَةِ الله، ثمَّ قَال تَعالَى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩].

قوْلُه تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾: إنَّ في ذَلِك المَذْكُورِ، كَما قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أوَّلًا: [﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ سَماعَ تَدبُّرٍ واعْتِبَارٍ]: وأَتَى بقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾؛ لأَنَّهُ بدَأَ بالنَّومِ وبدَأَ باللَّيْلِ، واللَّيْلُ وَظِيفَةُ الإنْسَانِ فِيه السَّمْعُ؛ لأَنَّهُ لَا يَرى باللَّيْل، فالَّذِي يُناسِبُه السَّمعُ.

ولكِن مَا المُرادُ بالسَّمعِ هُنا، هَل المُرادُ مطْلَقُه؟

لَا، بَل المُرادُ سَماعُ التَّدبُّر والاعْتِبَارُ؛ لأَنَّ السَّمع كَما سبَق يُطْلَقُ عَلَى سمْعِ الإدْرَاكِ المُجَرَّدِ، وعلَى سمْعِ الإدْرَاك المُنْتَفَعِ بِه، ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١]، يعْنِي لا يسْمَعُون سَماعَ تدَبُّرٍ واتِّعاظٍ وانْقِيادٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أَنَّ النَّومَ مِن آيَاتِ الله؛ وجْهُ ذَلِك أَنَّ هَذا الإنْسانَ ذَا الشُّعورِ إِذا نَام فقَدَ شُعُورَه، والرُّوحُ متَّصِلَةٌ بالبَدن تمَامَ الاتِّصالِ، فإذا نامَ حصَل منْهَا نوْعُ انفِصَالٍ؛ وَلِهذا سَمَّى الله تَعالَى النَّوْمَ وفَاةً لكِنْ ليْسَتِ الوفاةَ الكامِلَةَ التي تُقْبَضُ فِيها الرُّوحُ مِن البَدنِ وتنْفَصِل عنْه انفصالًا كامِلًا، لكنَّها تنْفَصِلُ عنه انفِصالًا جُزْئِيًّا،

هَذا الانْفصَالُ الجزْئِيُّ الَّذِي تبْقَى معَهُ الحَياةُ دُونَ الوَعْيِ مِن آيَاتِ الله، فلا أحَدَ يسْتَطِيعُ أنْ يفْعَل هَذا إلا الله، وكَذلِكَ أيْضًا لَا أحَد يسْتَطِيعُ أنْ يرُدَّها إلا بإِذْنِ الله عَزَّوَجَلَّ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَاذا تقُولونَ فِي النَّوم بالتّنويم، الَّذي يسُمُّونه التّنويمَ المغناطِيسيَّ، حيث يُنوِّم شخْصٌ آخَرَ؟

قُلْنَا: هُو لا يُنوِّمُه، وإِذا ادَّعى مُدَّعٍ أنَّ النَّوْمَ المغناطِيسِيَّ تنْوِيمٌ بِغَيْر الله، فهُو كادِّعَاءِ الَّذي يقولُ: (أَنا أُحْيِي وَأُميتُ)، وهُو يُحْيِي ويُميتُ حيْثُ يَقْتُل ويُبْقِي، لكِنْ ليْسَ صحِيحًا أنَّه أحْيَا، بَلْ فَعلَ سببَ الحيَاةِ أوْ سببَ المَوْتِ فقَطْ، كَذَلِكَ المُنوِّم مَا جلَب النَّوْمَ، لكِنْ فعَل سببَه، والتّنْويمُ المغناطِيسيُّ معْنَاه اسْتِسْلامُ النَّفْس البَاطِنة لهَذا المنوِّم ثمَّ ينامُ، يسْتَرْخِي ويفْقِدُ الوَعْيَ إلَّا الذّاكِرةَ؛ وَلهَذا تجِدُ المنوِّمَ المَغناطِيسيَّ عَلَى مَا يقُولُونَ إِذا اسْتَجابَ لَه المنَوَّم بدَأَ يُخاطِبُه فِي العَقْل البَاطِن، وذَاك يتكَلَّمُ بِدُون شُعورٍ ويُخْبِرُه بِكُلِّ الَّذِي في دِماغِه، أيُّ شيْءٍ يسألُه عنْه يُعَلِّمُه به حتَّى الأُمورُ الَّتي لم يَطَّلِعْ عليْها أحَدٌ مِن النَّاسِ يُعلِّمُه بِها، لكِنْ بِشَرْط أنَّ المنَوَّم يسْتَسْلِمُ استِسْلامًا كامِلًا وعِنْدَهُم حرَكَاتٌ معيَّنَةٌ، يقُولُ لَك: لا تتعَدَّاها ويَبْدَأُ يتحَرَّكُ ويتحَرَّكُ ويَرْفَعُ ويَخْفِضُ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: عنْدَهُم طُرُقٌ فِي هَذا، وعنْدَهُم وسَائِلُ إِلَى أنْ يسْتَرْخِي الإنْسانُ وأعْظَمُ مِن هَذا القَتْلُ الَّذي يُسمِّيهُ الفُقهاءُ (القَتْل بالحال) أنَّه يسلط نفسه عَلَى نفس هَذا الرّجل ويخنق نفسه ويموت وَلهَذا ذَكَرُوا فِي بَابِ القصاصِ هَل القَتْلُ بالحالِ عَمْدٌ يُقتَلُ بِه القاتِلُ أَو خطأ أو شبْهَ عمْدٍ.

وإذا قُلنا أنَّه يُقْتَل فهَلْ يُقْتَلُ بالحالِ أو يُقْتَلُ بالسَّيف؟

والصَّوابُ: أنَّ القاتِل بالحَالِ يُقتَلُ، سَواءٌ قلْنَا أنَّه قصاصٌ أوْ قُلنا أنَّه مِنْ بَابِ دفْعِ الفَسادِ فِي الأرْض، لكِنَّ بعْضَ الفُقهاءِ يقُولُ: إذا أرَدْنا المُقاصَّةَ تمَامًا نأْتِي بوَاحِدٍ آخَر يَقْتُل بالحالِ ونَجْعَلُه يقْتُلُ هَذا الرَّجُلَ، فيُقْتَلُ بما قَتل بِه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤]، إنَّما لا شَكَّ أنَّ القَتْلَ بالحَالِ يَجِبُ فيه قتْلُ القاتِل بكُلِّ حالٍ، سواءً قُلنا أنَّه قصاصٌ، أو قُلْنا أنَّه مِن بَاب دفْعِ الفَسادِ؛ لأنَّ هَذا أشَدُّ مِن السَّيفِ -والعياذُ باللهِ-، فالَّذِي يقْتُل بالسَّيف يسْتَطِيعُ الإنسانُ أن يَهْربَ منْه، لكن هَذا مُشْكِلةٌ.

وقَد ذكروا هَذا وتكلَّمُوا علَيْه في باب القصاصِ، وَهَذَا غيْرُ العَيْن.

والعيَّانُ أيْضًا -الَّذِي يقْتُل بعَيْنِه- اختَلَفُوا فِيه: هَلْ هُو عمْدٌ أوْ شبْهُ عمْدٍ، وإذا قُلْنا أنَّه عمْدٌ فهَل نقْتُله بالسَّيْف، أوْ نقْتُلُه بعَائِنٍ نأْتِي بوَاحِدٍ يُعِينُه إلَى أنْ يقْتُلَه؟

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: ذِكْر المتقابِلَاتِ ﴿مَنَامُكُم﴾، ﴿وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾، وابْتِغَاءُ الفَضْل يكُون فِي اليَقَظةِ، فهَذا جمْعٌ بيْن الشَّيْءِ ومقابِلِه، فالمَنام آيَةٌ، وابْتِغَاءُ الإِنْسانِ مِن فضْلِ الله أيْضًا آيَةٌ.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: جوازُ النَّوْمِ ليْلًا ونهارًا؛ لأنَّ الله تَعالَى جعلَهُ مِنْ آيَاتِه الَّتي امتَنَّ بِها علَى العِبادِ، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، لكِنْ أصَحُّها نومُ اللَّيل بالاتِّفاقِ.

الفائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّه ينْبَغِي لِلإِنْسَانِ أنْ يطْلُب رِزْقَ الله؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: الرِّزْقُ مكْتُوبٌ كالأَجلِ، فهُو محتُومُ الوُجودِ.

قُلْنَا: ولكِنَّه مكْتُوبٌ بسببٍ، ولَا يُمْكِنُ لأيِّ إِنْسَانٍ أنْ يَقُول: المَكْتُوبُ لي سيأْتِي ولَنْ أتحَرَّكَ أبدًا، إلا رجُلًا جاهِلًا أحْمَق، وَلهذا لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا كانَ الله كتَبَ لِي ذُرِّيَّةً ستأْتِي بدُونِ زوَاجٍ، فهَذا لَا يُعْقَل أبدًا، فنَقُول: قوْله تَعالَى: ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ يدُلُّ عَلَى أنَّه ينبَغي لِلإِنْسَانِ أنْ يطْلُب الرِّزْقَ.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: كرَاهَةُ سُؤالِ النَّاسِ، أوْ أنَّه مِن الأُمُورِ الَّتي لا تنْبَغِي؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾، وأَنْت إِذا طلَبْت الرِّزْقَ مِن الله عَزَّوَجَلَّ فقَدْ طلبْتَه مِن أهْلِه، مِمَّنْ لَه المِنَّة عليْكَ.

• ● ❁ ● •

الآيــة (٢٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرّوم:٢٤].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ﴾ أيْ إِرَاءَتُكُمْ ﴿ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾].

قَوْله تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ جارٌّ ومجْرورٌ، ﴿يُرِيكُمُ﴾ فعْلٌ مضارِعٌ.

وهَل ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ متعلِّقَةٌ بـ﴿يُرِيكُمُ﴾، أوْ متعلِّقَةٌ بمحذُوفٍ ويكُونُ تأْوِيلُ قوْلِه تعالَى: ﴿يُرِيكُمُ﴾ مبْتَدأً مؤخَّرٌ؟

ظاهِرُ كلامِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيْ: إِرَاءَتُكُم] يقْتَضِي أنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ خبَرٌ مقَدَّمٌ، و﴿يُرِيكُمُ﴾ مبتَدأٌ مؤخَّرٌ؛ لأنَّهُ أوَّلَها إِلَى مصْدَرٍ، يعْنِي ولَيْس المَعْنى ويُرِيكُم مِن آيَاتِه كَذا وكَذا، ويُرِيكُم مِن آيَاتِه البَرْقَ خوْفًا وطَمَعًا، ففي إعْرَاب هَذِهِ الآيَة وجْهَانِ:

الوَجْهُ الأوَّلُ: مَا مشَى علَيْه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بَأن نجعَل ﴿يُرِيكُمُ﴾ فعلًا مضارِعًا مُؤوَّلًا بمَصْدَرٍ تقْدِيرُه (إِرَاءَتُكم)، مع أنَّه ليْسَ فيه حرْفٌ مصْدَرِيٌّ، وَهَذا موْجودٌ فِي اللُّغَةِ العربِيَّةِ، ومنْهُ قولُهم: (تَسْمَع بالمُعِيدِيِّ خيْرٌ مِنْ أنْ تَراهُ)، فـ(تَسْمَعُ)

هَذِهِ مبتَدأٌ بدَلِيل قولِه: (خَيْرٌ مِنْ أنْ تَراهُ)، معَ أنَّه ليْس فِيها حرْفٌ مصْدَرِيٌّ تنْسَبِكُ بِه.

والوَجْهُ الثَّاني: أنْ نقُولَ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ متعلِّقةٌ بـ﴿يُرِيكُمُ﴾، يعْنِي يُريكُم مِن آيَاتِه البَرْق خوْفًا وطمَعًا.

ويُرجِّحُ الوجْهَ الأوَّلَ سِياقُ الآياتِ، سِياقُ الآيَاتِ كُلِّها يدُلُّ عَلَى أنَّ هَذا الفعْلَ مُنْسَبِكٌ بمَصْدَرٍ، والتَّقدِيرِ: (ومِنْ آيَاتِه إراءَتُكم)، كالآيَات الَّتي قبْلَها، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ﴾، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ويُرجِّحُ الوجْهَ الثَّانِيَ أنَّنا نتَحاشَى انْسِبَاكَ المَصْدَرِ بدُونِ حرْفٍ مصْدَرِيٍّ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ لِلْمُسَافِرِ مِنَ الصَّواعِقِ، ﴿وَطَمَعًا﴾ لِلْمُقِيمِ فِي المَطَرِ].

قوْلُه تَعالَى: ﴿خَوْفًا﴾ مفعولٌ لأجْلِه، وهذا مُشْكِلٌ لأَنَّ ابنَ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ[1]:

وَهْــو بِمَــا يَعْـمَلُ فِيـهِ مُتَّحِــدْ   وَقْتــاً وَفَــاعِــلاً..............

وهُنا ﴿يُرِيكُمُ﴾ الفاعِل الله، والخائِف الطَّامِعُ: بَنُو آدَمَ، فاختَلَف الفَاعِلُ، فالوَقْت متَّحِدٌ ولكنَّ الفاعِلَ لم يتَّحِدْ، وعلَيْه فيَكُون ﴿خَوْفًا﴾ مصدَرًا في موْضِع الحَالِ، أي: يُريكُم البَرْق خائِفِينَ وطَامِعِينَ، أمَّا إذا أسْقَطْنا اشْتِراطَ ابْنِ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ اتِّحادَ الفاعِلِ فتكُون ﴿خَوْفًا﴾ مفعولًا لأجْلِه.

---

(١) البيت رقم (٢٩٩) من الألفية.

ولكِنْ عنـدِي أنَّ هُناكَ وجْهًا آخَـر، أنْ نجْعَل ﴿خَوْفًا﴾ بمَعْنى تَخْوِيفًا، فإذا جعَلْنا خوْفًا بمعْنَى تخْوِيفًا زَال الإشْكالُ؛ لأنَّ التّخْوِيفَ يكُونُ مِن الله وهُو المُرِي، والإطْماعُ أيْضًا مِن الله، وهُو المُرِي، وحِينَئِذٍ نسْلَمُ مِن مخالَفَةِ شرْطِ ابْنِ مالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، لكِنْ لا بُدَّ مِنْ تأوِيلٍ، حيْثُ حوَّلْنا ﴿خَوْفًا﴾ إلَى إخافَةٍ، ﴿وَطَمَعًا﴾ إلَى إطْماعٍ.

فالوُجُوهُ إذَنْ ثلاثَةٌ:

- إمَّا أنْ نجْعَل ﴿خَوْفًا﴾ ﴿وَطَمَعًا﴾ مصْدَرَيْنِ في موْضِع الحَالِ.

- أوْ نجْعَلَهُما مصْدَرَيْن عَلَى أنَّهُما مفْعُولٌ مِن أجْلِه، ولا نَعْتَبِر اشْتِراطَ اتِّحادِ الفاعِلِ.

- أوْ نجْعَلَهُما مصْدَرَيْن، لكِنْ بمَعْنى التّخويفِ والإطْماعِ، وحِينَئِذٍ نكُونُ قد اعتَبْرنا اتِّحادَ الفاعِلِ ولم نُؤَوِّلْهما إلَى الحالِ.

وقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿خَوْفًا﴾ لِلْمُسافِرِ مِنَ الصَّواعِقِ، ﴿وَطَمَعًا﴾ لِلْمُقِيمِ فِي المَطَرِ]: ظَاهِرُ كَلامِ المُفَسِّر أنَّ هَذا عَلَى سَبيلِ التَّوزِيعِ خوْفًا لأُناسٍ، وطمَعا لأُناسٍ، والصَّوابُ خِلافُ كلامِه رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنَّ البرْقَ خوْفٌ وطمَعٌ للجَميعِ، فالمُسافِرُ يخَافُ ويطْمَعُ، والمُقِيمُ أيْضًا يخَافُ ويطْمَعُ، ومَنْ ذَا الَّذي سَلِم مِن الصَّواعِق بسبَبِ كوْنِه فِي البِناءِ؟ فالصَّاعِقَة إذَا نزَلَتْ نزَلَتْ حتَّى عَلَى البناءِ وهدَمَتْه، وقتَلَتْ مَنْ فِيه، وَكَذلِكَ المُسَافِـرُ أيْضًا مَا أكْثَر المُسافِـرينَ الَّذين نَجَوْا مِن الصَّواعِـقِ وهِي تصْعَقُ حوْلَهم.

فالصّوابُ أنَّه عائِدٌ عَلَى الجَمِيعِ، لكِنَّ تقْدِيمَ الخَوْف عَلَى الطَّمَعِ يدُلُّ عَلَى أنَّ خوْفَ النَّاسِ بالبرِّ أكْثَرُ مِن طَمَعِهم، وَهَذا -واللهُ أعْلَمُ- بناءٌ عَلَى الغالِبِ؛ لأنَّ أكْثَر

النَّاسِ لَا سِيَّما فِي الرُّعودِ الثَّقِيلَةِ والبَرْقِ العَظِيم يخَافُونَ أكْثَر مِمَّا يطْمَعُون، ويُوجَدُ أُناسٌ لا يهْتَمُّونَ بِهَذا الأَمْر، مهْمَا قَوِي البَرْقُ ومهْمَا قَوِي الرَّعْدُ، لا يهْتَمُّون فَهُم دائِمًا فِي طَمَعٍ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أيْ شَيْئًا فَشَيْئًا، مَا ظنُّك لَوْ كَان هَذا المَطَرُ ينْزِلُ دُفعَةً واحِدةً مِن السَّماءِ فلَن يُبْقي مبانِيَ، بَل لا يُبْقِي الآدَمِيِّينَ ولا ينْفَعُ شيْئًا، يُتْلِفُ ولَا ينْفَعُ، ومِنْه أيْضًا -أيْ كونِه مِن آيَاتِ الله- أنَّ هَذا الماءَ ينْزِلُ مِن السَّماءِ، فلَو كانَ ينزِلُ مِن شيْءٍ طامن لكَان يُغرِقُ الأسْفَل قبْلَ أنْ يَصِلَ إِلَى الأَعْلَى، ولكِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ جعلَه مِن فَوْقَ؛ حتَّى يَسْقِي بِه الأعْلى والأسْفَل.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِۦ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: ﴿فَيُحْيِۦ﴾ أيْ الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿بِهِ﴾: البَاءُ للسَّببيَّةِ، وهِي تُفِيد -كَما سيأْتي إِنْ شَاء الله تَعالَى- إثْبَاتَ العِلَل في أفْعَالِ الله، فأفْعَالُ الله وشرْعُه كلُّه مقْرُونٌ بالحِكْمَةِ والتَّعْليلِ، ومنْهُ مَا سبَق فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾، مِن أنَّ اللامَ للتَّعْلِيل، فتُفِيدُ ثُبوتَ الحِكْمَةِ فِي أفْعَالِ الله، ومِن أهْل البِدَعِ مَن يُنْكِرُ الحِكْمَةَ، فَالجهمِيَّةُ يُنْكِرُونَ الحِكْمَة، أمَّا المُعتَزِلة فعَلَى العَكْس يُوجبونها؛ وَلِهَذا قالُوا: أنَّه يَجِبُ عَلَى الله فعْلُ الأصْلَحِ.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ هَل المرادُ بـ﴿الْأَرْضَ﴾ ذاتُ الأرْضِ تَحيا، أوِ المُرادُ النَّباتُ الَّذي في الأرْضِ يَحْيا؟ المُرادُ النَّباتُ الَّذي فِي الأرْضِ، وحِينَئِذٍ قدْ يعْتَرِضُ علَيْنا معتَرِضٌ ويقُولُ: إنَّكُم تقُولونَ أنَّه لَا مجازَ فِي القُرْآنِ، وهنَا إِذا حمَلْتُم الأرْضَ عَلَى نباتِها فقَدْ قُلْتُم بالمَجازِ؟

والجوابُ عَلَى هَذا: أنَّ الكلِمَةَ فِي حدِّ ذاتِها لا يُفْهَمُ معْنَاها إِلَّا بسِيَاقِها فقوْلُه تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا شكَّ أنَّ المُرادَ ذاتُ الأرْضِ، لكِنَّ

قوْلَه تَعالَى: ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يُخاطِبُ أُناسًا يعْرِفُون الَّذي يَحْيا، والَّذي يَمُوتُ، يعْرِفُونَ الَّذي يَحْيا بالمَطر والَّذي يمُوتُ بفَقْدِ المَطرِ، فهَلْ أحَدٌ ممَّن يُخاطَبُ بهذه الآيَةِ يقُولُ: إنَّ هَذا الطِّينَ وَهَذا الرَّمْلَ وَهَذا الحجَر يمُوتُ بفَقْدِ المَطَرِ، ويَحْيا بوُجودِه؟! الكلِمَةُ يُعيِّن معناها السّياقُ، وَبِهذَا نسْلَمُ مِنَ القَوْلِ بالمَجازِ؛ لأَنَّ مِنْ أبْرَزِ علامَاتِ المجَازِ أنَّه يصِحُّ نفْيُه، والقُرْآنُ لَا يُوجَدُ فِيه شيْءٌ يصِحُّ نفْيُه؛ لأنَّهُ لَوْ صَحَّ نفْيُ شيْءٍ في القُرآنِ لكَان معْنَاه التّكْذِيبَ، مِثَالُ ذَلِك قوْلُه تَعالَى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف:٧٧].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الجِدارُ لَا يُرِيدُ فَما معْنَى هَذا؟

قُلْنَا: معْنَى هَذا نفْيُ مَا أثْبَتَ الله عَزَّوَجَلَّ، وَهَذا هُو الَّذي جعَل بعْضَ أهْل العِلم يُنْكِرُ المَجازَ فِي القُرآنِ، وَيُثْبِتُه في غيْرِه مِنَ اللُّغَةِ العربِيَّة، يقُولُ: لأَنَّهُ ليْسَ في القُرآنِ شيْءٌ يصِحُّ نفْيُه، وأبْرزُ علاماتِ المَجازِ أنَّه يصِحُّ نفْيُه، ولكنَّ الصّوابَ مَا اختَارهُ شيْخُ الإسْلام ابْنُ تيْمِيةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه لا مجَازَ لَا في القُرآنِ ولَا فِي اللُّغَة العربِيَّة؛ لأنَّنا نقُول: إنَّ الَّذي يُعَيِّنُ المَعْنى هُو السِّياقُ، وعلَيْه فَإذا تعيَّنَ معْنَى الكلِمَةِ فهُو حقِيقَتُها فِي كُلِّ سِيَاقٍ.

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المَذْكُورِ]؛ المُشارُ إلَيْهم كُلُّ مَا سبَق ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ هَذِهِ ثلاثَةٌ، هَذا المذْكُور فِيه آياتٌ لقَوْمٍ يعْقِلُون.

يقُول المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ يتَدَبَّـرُون]، وهُنَـا قَال: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ أيْ لِذَوي عقْلٍ، والعَقْلُ ينْقَسِم إلَى قِسْمَيْنِ: عقلِ إدْراكٍ، وعقْلِ رَشَدٍ.

عقْلُ الإدْراكِ الَّذي هُو مناطُ التّكْلِيفِ، الَّذِي يقُولُ فِيه العلَماءُ: يُشْتَرطُ لوُجوبِ الصَّلاةِ أنْ يَكُونَ عاقلًا، فهَذا نُسمِّيه عقْلَ إدْراكٍ؛ لأَنَّ الإنْسانَ بِه يُدْرِكُ الأُمورَ، فيُمَيِّز بَيْن النّافعِ والضَّارِ وغَيْرِه.

العَقْل الثّاني: عقْلُ الرّشَدِ الَّذي هو مناطُ الثّناءِ والمَدْحِ، وعقْلُ الرّشَد هُو الَّذي يُوجَدُ فِي القرْآنِ كَثيرًا، مثَلًا نفَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العَقْل عَن الكُفّار مع أنَّهم أذْكِياءُ عنْدَهُم عقْلُ إدْراكٍ، لكِنّهم ليْسَ عنْدَهم عقْلُ رَشَدٍ يتصَرَّفُونَ فِيه تصرُّف العَاقِل.

وسُمِّي العقْلُ عقْلًا لأنَّهُ يعْقِلُ صاحِبَهُ عمَّا يضُرُّه، وَهَذا هُو الَّذي جعَله يُسمَّى عقْلًا، أو يُسمَّى حِجْرًا ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر:٥]، لأنَّهُ يَحْجر صاحِبَه ويحْجِزُه عمَّا لا ينْبَغِي.

وقوْلُه تعالَى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أَتَى بالعَقْل هُنا إشَارَةً لما سيُذْكَرُ فِيها بعْدُ؛ لأَنَّ الآياتِ -كَما نُشاهِدُ- كلُّها في تقْرِيرِ إعادَةِ المَوْتَى، وانتِقالُ العقْل مِن هَذِهِ الأَشْياءِ المحسُوسَةِ إِلَى أشياءَ منْظُورةٍ موعُودَةٍ، إنَّما يكُونُ عَنْ طَرِيقِ العَقْل؛ وَلِهَذا قَال هُنَا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ البَرْق مِن آيَاتِ الله؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾.

الفائِدَةُ الثّانِيَةُ: أنَّ البَرْق يشْتَمِلُ عَلَى الخَوْفِ وَالرَّجاءِ؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، والصَّحِيحُ أنَّها ليْسَتْ موزَّعَةً كَما ذَهب إِلَيْهِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بَلْ هِي صِفَةٌ مجْتَمِعَةٌ.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: عظِيمُ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِإنْزالِ المَاءِ مِنَ السَّماءِ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: رحْمَتُه بالخَلْق حيْثُ كانَ إنْزالُ هَذا المَطَر مِنَ السَّماءِ، هَذا واحِدٌ، وحيْثُ كانَ ينْزِلُ شيْئًا فشَيْئًا؛ لأَنَّهُ لَو كَان يَنْزِل دُفعةً واحِدةً لأَهْلَكَ النَّاسَ.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: بَيانُ قُدْرَةِ الله تَعالَى؛ حيْثُ يُحْيِي الأرْضَ بعْدَ موتِها، تَجِدُ الأرْضَ يابِسَةً ليْسَ فِيها عُودٌ أخْضَرُ، ثمَّ بعْدَ نُزولِ المَطَرِ تصْبِحُ مُخْضَرَّةً تهتَزُّ.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: رحمَتُه بالخَلْقِ أيْضًا؛ فإنَّ إحْياءَ الأرْضِ نافِعٌ لِلإِنْسَانِ والحيَوانِ.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنَّه لَا ينْتَفِعُ بالآيَاتِ إلَّا ذَوُو العُقولِ؛ تُؤخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: استِعْمالُ العَقْلِ فِي القِياسِ: في قِياسِ الأشْياءِ المتَشابِهَةِ، والنّظيرِ عَلَى نَظِيرِهِ.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أنَّ القِياسَ مِن الأدِلَّةِ العقْلِيَّةِ، وإنْ كَان ثابتًا بالشَّرْعِ لكِنَّ طَرِيقَهُ هُو العَقْل؛ لأَنَّ العَقْل يهْتَدِي بِهَذا عَلَى هَذا، وينْتَقِلُ مِن هَذا إِلَى هَذَا.

الآية (٢٥)

• • ○ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم:٢٥].

• • ○ • •

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ﴾ نقولُ فِيها كما قُلْنا فِيما سبَق: أيْ مِن آيَاتِه قِيامُ السَّمواتِ والأرْضِ بأَمْرِه.

وقوْلُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بإرادتِه مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ]: أفادَنا المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ المُرادَ بالأمْرِ هُنا هو الأَمْر الكَوْنِيُّ؛ لأنَّهُ قَالَ: [بإرَادتِه]، وإنْ كانَ في تفْسِيرِ الأمْرِ بالإرادةِ شيْءٌ مِنَ الشّكِّ إذْ إنَّني أخْشَى أنَّه فسَّر الأمْر بالإرَادةِ فِرارًا مِنْ إثْبَات الكلامِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الأمْرَ ولَوْ كانَ كوْنِيًّا يكُونُ بالكلامِ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فأخْشَى أنَّ المُفسِّر -غفَر الله له- أرادَ بتفْسِيرِ الأَمْرِ بالإرادةِ الفرارَ مِن إثْبَاتِ الكَلامِ، ومعرُوفٌ أنَّ الأشاعِرةَ لا يُثْبِتونَ الكلامَ بالحرْفِ والصَّوتِ، وإنما يُثْبِتونَ الكلامَ عَلَى أنَّه المَعْنى القائِمَ بالنَّفْسِ، أمَّا الحرفُ المكتوبُ والصَّوتُ المسْموعُ يقُولونَ أنَّه عِبارَةٌ عَنْ كَلامِ الله، ولَيْس هُو كلامَ الله.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَن تَقُومَ﴾: فسَّره رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقَوْله: [مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ]، وهَذا يدُلُّ عَلَى أنَّه ذَهب إِلَى أنَّ المُرادَ بالقِيامِ هُنا القِيامُ الحسِّيُّ، يعْنِي أنْ تَبْقَى غيْرَ واقِعةٍ علَى

الأَرْضِ، بَل هِي مُمْسَكَةٌ بأمْرِ الله عَزَّوَجَلَّ بِغَيْر عَمَدٍ، وهَذا تَفْسِيرٌ قاصِرٌ، والصّوابُ أنَّ قِيام السّمواتِ وَالأرضِ أعمُّ مِن كوْنِه قِيامًا حِسيًّا أو قِيامًا معنوِيًّا، بمَعْنى أنَّه يشْمَل القِيامَ الحِسِّي والقيامَ المَعنويَّ، فالسَّمواتُ قائِمةٌ بأمْر الله قِيامًا حِسِّيًّا بما فِيها من الانْتِظام فِيما خَلق الله عَزَّوَجَلَّ مِن الأَجرام، وبما فِيها مِن الأفْلاك المتضَمِّنة الشّمسَ والقَمرَ والنُّجومَ وغيْرَ ذَلِك، وكَذَلِكَ الأرْض قَائِمةٌ قِيامًا حِسِّيًّا بما أوْدَع الله تَعالَى فِيها مِنْ مصالِحِ الخَلْقِ مِنْ أشجارٍ وَنباتٍ وأنْهارٍ وبحارٍ وغَيْر ذَلِك، هَذا قيامٌ حِسِّيٌّ، ويُوجَد أيْضًا قِيامٌ معنَوِيٌّ وهُوَ قِيامُ هَذِهِ بطَاعَةِ الله، فإنَّ المعَاصِيَ إفْسَادٌ في الأرْضِ، كَما قَال الله تَعالَى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]، فالسَّمواتُ أيْضًا والأرْضُ تَقُومُ بأَمْرِ الله الشَّرعِيِّ كَما تقُومُ بأَمْره الكَوْنِيِّ، ولَا قِيامَ للأَرْض ولَا لِلسَّمواتِ إلَّا بالتِزامِ أمْرِ الله الشّرعِيِّ، فتَصلُحُ وتبْقَى بطَاعَةِ الله، فحِينَئِذٍ نُفسِّرُ القِيامَ بأَنَّه القِيامُ الحسِّيُّ والقِيامُ المعنوِيُّ، فالآية شامِلَةٌ للمَعْنَيينْ، وعَلى هَذا يكُونُ المُرادُ بالأَمْرِ الأمرَ الكوْنِيَّ والأَمْر الشّرعِيَّ.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾: أَتى بـ(ثُمَّ) بعْدَ ذِكر قِيامِ السَّمواتِ والأَرْضِ؛ لأَنَّ البعْثَ متأَخِّرٌ لا يَكُونُ إلا بعْدَ قِيامِ السّاعَةِ، يقُولُ: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾، الفاعِلُ هُو الله عَزَّوَجَلَّ ﴿دَعْوَةً﴾ أيْ واحِدَةً ﴿مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

قوْله تَعالَى: ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾، يقولُ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بأَنْ ينْفُخَ إسْرَافِيلُ فِي الصُّورِ، فيُبْعَثُ مَنْ فِي القُبُورِ، ﴿إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ مِنْهَا أحْياءً، فَخُروجُكُمْ مِنْها بِدَعْوَةٍ مِنْ آيَاتِهِ تعالَى].

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ﴾، قوْله تعالَى: ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾،

هَل تتعَلَّقُ بـ﴿ تَخۡرُجُونَ ﴾، يعْنِي إذَا دعاكُم دعْـوَةً تخرُجـونَ مِن الأرْضِ، أو متعَلِّقٌ بِـ(دعا)؟ نقُول هُو متعلِّقٌ بـ(دَعا) إِذا دعَاكُم دعْـوةً مِن الأَرْضِ، ولَيْس متعلِّقًا بـ﴿ تَخۡرُجُونَ ﴾؛ لأَنَّهُ لا يتعَلَّقُ مَا قبْلَ (إِذا) الفُجائِيَّةِ بما بعْدَها.

قوْله تعالَى: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ﴾: ﴿إِذَا ﴾ شرْطِيَّةٌ، وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَآ أَنتُمۡ﴾: ﴿إِذَآ ﴾ فُجائِيَّةٌ، فهِي نائِبَةٌ مناب الفاءِ الوَاقِعَةِ فِي جَوابِ الشَّرْط.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾: يعْنِي دعَاكُم منْهَا.

وهَلْ دَعوَةُ الله تكُونُ مِن الأرْضِ أم المرادُ أَنَّكُم أنْتُم فِي الأرْضِ؟

الجوابُ: المُرادَ (إِذا دَعاكُم مِن الأرْضِ)، مثْلَما تقُولُ دعَوْتُه مِن بيْتِه، فليْسَ المُراد: (أَنِّي في البَيْتِ)، لكنَّه هُو في البَيْت فدَعَوْتُه منْه ليحْضُر، وهذِه الآيَةُ كقوْله تَعالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النّازعات:١٣-١٤]، يعْنِي علَى وجْهِ الأرْضِ.

قوْله تَعالَى: ﴿إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴾: هَذا مِنْ آيَاتِ الله أيْضًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ قيامَ السَّمـواتِ والأرْضِ بأمْرِ الله ليْسَ للمَخْلُوقِيـن فِيه تعلُّقٌ إطْلاقًا، فاللهُ تَعالَى هُو الَّذي يُقِيم السَّمـواتِ والأرْضَ، سواءٌ القيامُ الحسِّيُّ أو المعنَوِيُّ.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: إثْباتُ الكلامِ لله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾، والمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [بإِرادَتِه]، وتقدَّم التَّنبيهُ علَى هَذَا، وأَنَّ المُرادَ بقوْلِه تَعالَى: ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ الكلامُ، فالأمْرُ الكَلامُ.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: تمامُ قدْرَة الله تَعالَى ببَعْث المَوْتى بكَلِمَةٍ واحِدَةٍ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، ولاحِظْ أنَّ المسألَةَ ليْسَتْ هِي بخلْقِ واحِدٍ أوِ اثْنَيْن أوْ ثلاثَةٍ أوْ عشَرَةٍ، بَلْ هِي مَا لا يُحصِيه إلّا الله عَزَّوَجَلَّ، دعْوَةٌ واحِدَةٌ يكُون بها جميعُ الخلْق خَارجِينَ، وهَذا لا شَكَّ أنَّ فِيه ما هُو مِنْ أبْلَغِ القدَرِ، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى كُلِّ شيْءٍ قدِيرٌ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ مقرَّ بَني آدَم الأرْضُ؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، ويُؤَيِّـدُ ذَلِك قوْلُه تَعالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥]، فالمَعْمُولُ فِي هَذِهِ الآيَةِ مُقَدَّمٌ (فِيها) و(مِنْها) وتقْدِيمُ المعمولِ يدُلُّ عَلَى الحصْرِ مِن هَذا الشّيْءِ لَا مِن غَيْـرِه إِذَنْ، فالحيَاةُ عَلَى الكَواكِـب متعذِّرَةٌ بالنِّسبة لبَنِي آدَم، فظَاهِرُ الآيَاتِ أنَّ بَني آدَم خُلِقوا مِن الأرْضِ ويَرْجِعونَ إِلَى الأرْضِ ويُدْعَوْن يَوْم القيامَةِ مِنَ الأرْضِ.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: إثْبَـاتُ الكـلامِ للهِ في قوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

• • ۞ • •

الآيـة (٢٦)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم:٢٦].

قَوْله تَعالَى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: الضَّمِيرُ في قولِه: (لَه) يَعودُ عَلَى الله، وهُو خبَرٌ مقدَّمٌ، وتقْدِيمُ الخبَرِ -كَما هُو معْروفٌ في عِلْمِ البَلاغةِ- يُفيدُ الحَصْرَ، يعْنِي: فاللهُ وحْدَه لَه مَنْ في السَّموَاتِ وَالأرْضِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جارٌّ ومجـرورٌ متعلِّقٌ بمحـذُوفٍ تقْدِيـرُه: (استَقرَّ)؛ لأَنَّ الجارَّ والمجْرورَ الواقِعَ صِلةً للمَوْصولِ يُقدَّرُ بِفِعْلٍ، بخِلَافِ الواقِع خبرًا لمبتَدَأٍ، فإِنَّهُ يُقدَّر باسْمٍ، ولْيُنْتبَهْ للْفَرْق بيْنَهُما، الجارُّ والمجْرورُ أوِ الظّرفُ إذا وقَع صِلَةً لمَوْصُولٍ فَقَدِّرْ متعلِّقَه فعلًا؛ لأَنَّ الأصْلَ في صِلَةِ المَوْصولِ أنْ يكُونَ جُمْلَةً، لكِنْ إذا وقَع الجارُّ والمجْرُورُ أوِ الظَّرْفُ خبرًا لمُبْتَدَأٍ فقَدِّرْه باسْمٍ؛ لأَنَّ الأصْلَ فِي الخَبَرِ أنْ يكُونَ مفْرَدًا لا جُمْلَةً، تقولُ: (زَيدٌ في البيْتِ) فقدِّرْه (كَائِنٌ في البيْتِ)؛ لأجْل أنْ يكُونَ (زَيْدٌ) مبتدَأً، و(كَائِنٌ) خَبَرٌ، لكِنْ لوْ قُلْتَ: (زَيْدٌ فِي البَيْتِ) أيْ زيْدٌ استقَرَّ في البيْتِ، صَار الخَبَرُ جملْةً والأصْلُ فِي الخبَرِ أنْ يكُونَ مُفرَدًا، أمَّا إذا قُلْت: (يُعْجِبُني الَّذِي فِي المَسْجِدِ)، لا تقُلِ: (الَّذي كائِنٌ في المسْجِد)؛ لأَنَّك إذَا قدَّرْت (الَّذِي كائِنٌ في المسْجِد) لَزِم أن تُقدِّر مبتدَأً أيْضًا، أيْ: (الَّذي هُو كَائِنٌ فِي المسْجِد)؛ لأَنَّ صلَةَ المُوصولِ لَا بُدَّ

أنْ تكُونَ جمْلَةً، بخِلافِ خَبَرِ المُبْتَدأ، فإِنَّهُ يكُونُ مُفْردًا.

إذَنْ: عنْدَما نُقدِّر المتعلَّقَ للجَارِّ والمَجْرورِ الوَاقِعِ صلَةً نُقدِّره فِعْلًا؛ ليَكُون ذَلِك جمْلَةً، وعنْدَما نُقدِّر متعلَّقَ الجارِّ والمجْرورِ أو الظّرفِ بالمُبتدَأِ نُقدِّره اسمًا.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أيْ مَنِ استَقرَّ فِي السّمواتِ وَالأرْضِ، مَن فِي السّمواتِ مِنَ الملائِكةِ، ومَن في الأرْض مِنَ البَشرِ والحيَوانِ، وهُنا قَال: ﴿مَن﴾ تغْلِيبًا للعاقِلِ، وَإِلَّا فإِنَّ الأرْضَ فِيها العاقِلُ وغيرُ العاقِلِ.

قوْله تَعالَى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُلْكًا وخَلْقًا وعَبِيدًا].

كَان الأَوْلى أنْ يُقدِّم الخَلْق ثمَّ المُلْك ثمَّ العَبِيدَ، فلَهُ مَن فِي السَّمواتِ هُو الَّذي يمْلِكُهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهُوَ الَّذي خلَقَهم، وهُوَ رَبُّهم وهُم عَبِيدُه، فلَهُ مَن فِي السَّمواتِ وَالأرْضِ وَلا أحدَ يُعارِضُ في ذَلِك، كُلُّ مَن فِي السَّموَاتِ وَالأرْضِ كَما قالَ الله تَعالَى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ مُطِيعُونَ]، ﴿كُلٌّ﴾ مبتَدأٌ، و﴿قَٰنِتُونَ﴾ خبَرُه، والجارُّ والمجْرورُ ﴿لَّهُۥ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿قَٰنِتُونَ﴾، لكِنَّهُ قُدِّم علَيْه للاخْتِصاصِ والحَصْر.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿كُلٌّ﴾ التَّنْوينُ عِوَضٌ عن مفردٍ، وكلَّما جاءَتْ ﴿كُلٌّ﴾ أوْ (بعْض) منوَّنَةً فإِنَّها عوَضٌ عنْ مُفْرَدٍ، والتَّقْدِيرُ: كُلُّ مَنْ فِي السَّموَاتِ وَالأرْضِ.

وقوْلُه تَعالَى: ﴿لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾، يقُولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُطِيعُون]، والطَّاعة هُنا طاعَةٌ وخُضوعٌ للأَمْرِ الكَوْنيِّ، وهَذا شامِلٌ للمُؤْمِن وغَيْرِ المُؤْمِن، والثّاني طاعَةٌ

وقُنوتٌ للأَمْر الشّرْعِيِّ، وهَذا خاصٌّ بالمُؤْمِن وعَلى هَذا يكونُ المرادُ بالقُنوتِ هُنا الكونيَّ، لأَنَّهُ قالَ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ﴾، ولَا يُتصوَّرُ هَذا إِلا فِي الكوْنِيِّ، فالكُلُّ خاضِعٌ لأَمْرِ الله، قانِتٌ باعْتِبَارِ أمْرِه الكوْنِيِّ، إِذا أرَاد شيْئًا عَلَى مَن فِي السَّموات وَالأرْضِ قَال لَهُ: (كُنْ) فيَكُونُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: عُمُـومُ مُلْكِ الله؛ يُؤْخَذُ العُمُـوم مِنْ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأَنَّ (مَنْ) اسْم موصُول، والمَوصولاتُ كلُّها تُفِيدُ العُمُومَ.

الفائِدَةُ الثّانيةُ: انْفِرادُ الله عَزَّوَجَلَّ بالمُلْك، واخْتِصاصُهُ بِه؛ يُؤخَذُ مِن تقْدِيم الخبَرِ، ﴿وَلَهُۥ مَن فِي﴾، يَعْني لَا لِغَيْرِه، وَهُنا يَرِد علَيْنا إِشْكَالٌ في قوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، هَذا العُمُوم نجِدُ أنَّ بَني آدَم يمْلِكُونَ أشْيَاءَ مِن هَذا، فمَـا الجوَابُ عَنْ ذَلِك؟

الجوابُ عَن هَذا: أنَّ مُلْك بَني آدَم مُلْكٌ مقيَّدٌ بتمْلِيكِ مَنْ لَه المُلْكُ؛ ولِذَلك أنْتَ لا تسْتَطِيعُ أن تتصَرَّفَ بمالِكَ كَما تشَاءُ، فأنْتَ لا تَمْلِكُ أن تُحرِقَ مَالَك، ولا أنْ تُتْلِفَه، صحيحٌ أنَّك تَمْلِكُه بالنِّسبةِ لغَيْرِك مِن الآدَمِيِّينَ، فَلا يقْدِرونَ أنْ يَمْنَعُوك، لكِنْ بالنِّسبَةِ للخالِق الَّذي لَهُ المُلك يمْنَعُك مِن هَذا، فصَار مُلْكُنا لما نَمْلِكُ لَيْس مُلْكًا تامًّا، دَلِيلُه أوْ وَجْهُه أنَّنا لَا نسْتَطِيعُ ولَا نملِكُ أنْ نتصَرَّف فِيما بَيْن أيْدِينا كَما نَشاءُ.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: خُضـوعُ الكائِنَاتِ لرَبِّها سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾، وأنَّ جَمِيعَ الكَائناتِ خاضِعَةٌ لله.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ القُنُوتَ لَا يَخْتَصُّ بالقُنوتِ الشَّرعيِّ، وَأكْثَرُ النَّاس يظُنُّون أنَّ القُنوتَ يَخْتَصُّ بالقُنوتِ الشَّرعِيِّ، ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]، هَذا قُنوتٌ شرْعِيٌّ لا شَكَّ، ولكِنَّ هذه الآيَةَ ومَا أشْبَهها تدُلُّ عَلَى أنَّ القُنوتَ هُو الخُضوعُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، سواءٌ كَان ذَلِك خُضوعًا شَرعيًّا أمْ كونيًّا.

• ● ۞ ● •

الآية (٢٧)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُا۟ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧].

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُا۟ ٱلۡخَلۡقَ﴾ للنَّاسِ ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ، ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ مِنَ البَدْءِ].

قوْله تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُا۟ ٱلۡخَلۡقَ﴾: أيْ يبْتدِئه، وأَتى بكَلِمةِ ﴿يَبۡدَؤُا۟﴾ لأَنَّ الخلْقَ مستَمِرٌّ، كلُّ يومٍ يكُونُ فِيه ابْتِداءُ خلْقٍ، الأجِنَّةُ فِي بُطونِ الأمَّهاتِ تنْشَأُ كلَّ يوْمٍ، وكَم في الدُّنيا فِي اليَوْم الواحِدِ مِن جَنينٍ يُكَوَّنُ؟ كَثيرًا جِدًّا وَلِهَذا أَتى بالفِعْلِ المُضارعِ الدَّالِّ عَلَى الاسْتِمرارِ ولَمْ يقُلْ (بَدَأَ).

وقوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: يَعْنـي ثمَّ هُو -أيْ الله عَزَّوَجَلَّ- يُعِيدُه، ومَعْنـى الإِعادَةِ ردُّه عَلَى مَا كانَ أوَّلًا، كَما فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، وأَخْبَرَ النَّبيُّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّ النَّاس يُحشَرُون يَوْم القِيامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا كَما بُدِئُوا[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾، رقم (٣٣٤٩)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٦٠).

قَوْله تَعالَى: ﴿وَهُوَ﴾: الضَّميرُ يعودُ عَلَى الإعادَةِ المَفْهومَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يُعِيدُهُۥ﴾، فمَرْجِعُ الضَّميرِ إِذَنْ المَصدرُ المَفْهومُ مِن الفِعْل، وَمرْجِعُ الضَّميرِ قَدْ لا يُذْكَرُ بلفْظِه، ولكِنْ يُذْكَرُ مَا يدُلُّ عليْه، انظُرْ إِلَى قوْلِهِ تَعالَى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، ومرْجِعُ الضَّميرِ في قوْلِه تَعالَى: ﴿هُوَ﴾ العدْلُ المفْهومُ مِن كلِمَةِ ﴿ٱعْدِلُوا۟﴾.

إِذَنْ: قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ﴾، أي الإِعادَةُ، والإِعادَةُ مصْدَرٌ، فَصَحَّ أن يعُودَ الضَّمِيرُ عليْها مُذَكَّرًا.

قوْله تَعالَى: ﴿أَهْوَنُ﴾: اسْمُ تفْضيلٍ مِنْ (هَانَ يَهُونُ)، واسْمُ التَّفْضيلِ يدُلُّ عَلَى أنَّ الهَوْنَ دَرجاتٌ، هَيِّنٌ وأَهْوَنُ، ودَرجاتُ الهَوْنِ قَد تُوحِي بأنَّ هُناك مشقَّةً لأَنَّهُ لَوْلا أنَّ فِي بعْضِها مشَقَّةً مَا صارَ بعضُها أهْوَنَ مِن بعْضٍ؛ ولِذَلِكَ اخْتلَفَ المُفسِّرُون فِي اسْمِ التّفضِيل هُنا، ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ﴾، فَقِيل أنّه بِمَعْنى هَيِّن، ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أيْ وهُو هَيِّنٌ عليْه، وقالَ بعْضُ المُفسِّرينَ مَا ذَهَب إِلَيْهِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهُو أنّه أهْوَنُ علَيْه مِن البَدْء بالنّظر إِلَى ما عِنْدَ المُخاطَبِينَ مِن أنَّ إعادَةَ الشّيْءِ أسْهَلُ مِن ابتدائه وإِلَّا فهُمَا عنْدَ الله تَعالَى سوَاءٌ فِي السُّهولَةِ.

وهلْ قولُه: ﴿أَهْوَنُ﴾ عَلَى بابِها؟

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشَى عَلَى أنّها عَلَى بابِها، لكِنّها باعْتِبارِ المُخاطَبِين؛ لأَنَّ المُخاطَب يعْرِف أنَّ إعادَةَ الشّيْءِ أهْوَنُ مِنَ ابْتِدائِه، وسبَبُ ذَلِك أن إِعادَتَهُ لا تَحْتَاجُ إِلَى تفْكِيرٍ جَديدٍ؛ لأَنَّهُ قَد سبَق فِيها التّفْكِيرُ، ثانيًا: لأَنَّ موادَّ التّكْوينِ موْجُودةٌ، افرِضْ مثَلًا أَنّني صنَعْتُ سيارةً، فعنْدما أُرِيدُ صُنْعها أوَّلًا تحتاجُ إِلَى تفْكِيرٍ وموادَّ، فإِذَا أَرَدْتُ أنْ أُعِيدَها مرَّةً ثانِيَةً مثْلَ أنْ تكُونَ قدْ تفَكَّكتْ هَذِهِ السّيارةُ، وَأَرَدْتُ أنْ أُعيدَها فستَكونُ الإِعادَةُ أهْونَ؛ لأَنَّ التَّفْكِيرَ قَدْ فرَغْتُ مِنه، والموادُّ موجُودةٌ مُحَضَّرةٌ فتكُونُ الإِعادَةُ

أهوَنَ باعْتِبارِ المُخاطَبِ، أمَّا بالنِّسبَةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ فَلا نَقُولُ: إنَّ فِي حقِّه مَا هُو أهْوَنُ، ومَا هُو هيِّنٌ، بَلِ الكلُّ عنْدَ الله تَعالَى هيِّنٌ سهْلٌ.

وقالَ بعْضُ المُفسِّرينَ: إنَّ (أهْون) بمَعْنى هَيِّن، فَعلى هَذا يكُونُ الهَوْن بالنِّسبَةِ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ، لَا بالنِّسبَةِ لما عنْدَنا نَحْن، وَفِي الحدِيثِ عَنِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّ الله تَعالَى قالَ: «كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ»[1]، فهُو مفسِّرٌ للآيَة، فهُو يُفسِّر أنَّ كُلَّ ذَلِك هيِّنٌ علَيْه، ولكِنْ لا شَكَّ أنَّ الإِعادَةَ أهْوَنُ باعْتِبارِ المَفْهومِ عنْدَ المُخاطَبِينَ، فَما مشَى علَيْه المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ هُنا جيِّدٌ.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أيِ الصِّفَةُ العُلْيا وَهِي أنَّه لَا إِلَه إِلَّا الله]: (له) خَبرٌ مقدَّمٌ، و(المَثَلُ) مُبتدأٌ مؤخَّرٌ، والمَثَل والمِثْل معناهُما واحِدٌ، ويُطْلَق عَلَى عدَّةِ معانٍ:

فيُطْلَقُ عَلَى الشَّبه؛ كقوْلِه تَعالَى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:١٧]، يعْنِي شَبَهُهم كشَبه الَّذي اسْتوْقَد نارًا.

ويُطْلق المَثَل عَلَى الصِّفة؛ كقوْلِه تَعالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد:١٥].

ويُطلَقُ المَثَل عَلَى الذَّاتِ؛ قالُوا كقوْلِه تَعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشّورى:١١]، يعْنِي ليْسَ كذَاتِه، وقالُوا مِنْه قولُ الشَّاعِرِ[2]:

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب يقال: لا ينون (أحد) أي واحد، رقم (٤٩٧٤).

(٢) البيت في البحر المحيط (٧/ ٤٨٨)، والدر المصون (٩/ ٥٤٥) منسوبًا لأوس بن حجر، لكن لم أقف على البيت في ديوانه المطبوع.

لَيْــسَ كَمِـثْـلِ الفَـتَـى زُهَـيْرٍ ....

والمُرادُ هُنا بالمَثَل فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الصِّفةُ، أيْ لَهُ الصِّفةُ العُلْيا فِي السَّموَاتِ وَالأرْضِ، كُلُّ صِفَةٍ كَاملَةٍ فَلِله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أكمَلُها، وكُلُّ صفَةِ نقْصٍ فإِنَّهُ مُنَزَّهٌ عنْهَا؛ لأنَّهُ مَا دَام قَد ثَبَت لَهُ الصِّفَةُ الكَامِلَةُ العُلْيا، فإِنَّهُ بالضَّرُورةِ العَقْلِيَّةِ ينْتَفِي عنْهُ النَّقْص؛ لأنَّهُ لَو اتَّصَف بنَقْصٍ ما اسْتَحقَّ أنْ يَكُونَ لَهُ المَثَلُ الأَعْلى.

إِذَنْ: هَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ تدُلُّ عَلَى صِفَاتِ الكَمال للهِ عَزَّوَجَلَّ، الكَمالُ المُطْلَقُ؛ لأنَّهُ قَال: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وعَلى انْتِفاء النَّقْـص مِن جَمِيع الوُجوهِ إِذْ أنَّه لوِ اتَّصـفَ بنَقْصٍ مَا اسْتَحَقَّ أنْ يكُونَ له المَثَلُ الأَعْلى، ونَأْخُذُ مِن هَذا أنَّ كُلَّ مَا وَصَفَ الله بِه نفسَهُ فهُو صفَةُ كَمالٍ، وَلَيْس فِيه نقْصٌ، وكُلُّ كَمالٍ فإِنَّ الله تَعالَى مستَحِقٌّ لَه، فهَذان شيْئَانِ:

الأولُ: أنْ نَعْلم عِلْمَ اليَقِينِ أنَّ كُلَّ مَا وَصَفَ الله بِه نفسَهُ فهُوَ صِفةُ كَمالٍ.

الثَّاني: أنْ نَعْلم أنَّ كُلَّ صِفَةِ كَمالٍ فاللهُ تَعالَى مستَحِقٌّ لَها، فَهُو أهْلٌ لَها، كَما قَالَ الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ**»(١)، وسيَأْتِي -إِنْ شاءَ الله- فِي الفوائِد مَا يُسْتَدلُّ بِه عَلَى الرّدِّ عَلَى الَّذِين يُنكِرونَ صِفاتِ الله بحُجَّةِ أنَّها تسْتَلْزِمُ النَّقصَ وهُو التَّشبِيهُ.

وقوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: معْنى المَثل الأَعْلى فِي السَّموَاتِ وَالأرْضِ يعْنِي عنْدَ أهْلِ السَّمواتِ مَن المَلائِكَةِ، وعِنْدَ أهْلِ الأرْضِ، فكُلُّ الفِطَر السَّليمة تعْتَرِفُ بأنَّ المَثل الأَعْلَى والصِّفةَ العُليا للهِ وحْدَه.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام، رقم (٤٧١).

وأمَّا قولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَهِيَ أنَّه لَا إلَهَ إلَّا الله]، فهَذا فرْدٌ مِن أفْرَادِ المَثل الأعْلَى، وليْسَ هُو المَثل الأعْلى كُلَّه، فإنَّ لَا إلَه إلَّا الله تدُلُّ عَلَى تفرُّدِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالأُلوهِيَّةِ، وَهَذا مِن المَثَلِ الأعْلى، لكِنَّ المَثلَ الأعْلى أعَمُّ مِن ذَلِك، فلَهُ مثلًا القُدْرَةُ الكامِلَةُ والعِلْم الكامِلُ والحيَاةُ الكاملَةُ والسَّمْعُ الكامِلُ والبَصر الكامِلُ والحكْمَةُ البالِغةُ، وَهكَذا فَهِي أعَمُّ مِن تفرُّدِه بالأُلوهِيَّةِ.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فِي خَلْقِه]: تفْسِيرُه هَذَا فِيه قُصورٌ، فـ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ يعْنِي: ذُو العِزَّة، وَهِي الغَلبَةُ والقَهْر والقَدْرُ، فلَه عزَّةُ القهْرِ والقَدْرِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والامتناعِ، فالعزة إِذَنْ ثلاثَةُ معَانٍ:

المَعْنى الأوَّلُ: عزَّةُ القَهْرِ، بمَعْنى أنَّه القاهِرُ لكُلِّ شيْءٍ، فلَا يغْلِبُه أحَدٌ، قالَ الله تَعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

المَعْنى الثَّاني: عِزَّةُ القَدْرِ، ومعْنى عِزَّة القَدْر أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا نظِير لَه، ولَا شبَه له؛ لكَمال قدْرِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعظَمَتِه، ومنْهُ قوْلُهم: (هَذا الشَّيْءُ عزِيزٌ)، أيْ نادِرُ الوُجودِ لَا نظِيرَ لَهُ.

المَعْنى الثَّالث: عِزَّةُ الامتِناعِ، بمَعْنى أنَّه يمتَنِع علَيْه النَّقْص لِكمَالِ قُوَّتِه، ومنْهُ قوْلُهم: هَذِهِ الأرْضَ عزازٌ[1]، يعْنِي شَديدَةٌ قويَّةٌ لا يُمْكِنُ أنْ ينْفذَ إليها شيْءٌ، والأرْضُ الرَّخوَةُ بالعَكْس، كُلُّ شيْءٍ يؤَثِّرُ فِيها حتَّى الرَّجُل إِذا مشَى علَيْها يُؤثِّرُ، بخلَافِ الأَرْض الصَّلْبة التي تُسمَّى العزَاز.

فصارَتِ العزَّةُ الآن عزَّة القدْرِ وعِزَّةَ القهْرِ وعِزَّةَ الامتَناع.

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس (١٥/ ٢٢٢)، و لسان العرب (٥/ ٣٧٤).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوْلُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم:٢٠]، مِن أَيِّ المَعاني؟

قُلْنَا: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ أيْ بِمُمْتنِعٍ، فهُو مِن عِزَّةِ الامْتِنَاعِ.

وأمَّا قولُه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فالمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: هو [الحَكِيمُ فِي خَلْقِهِ] وأحيانًا يقُول: (فِي صُنْعِه)، ومعْنَاهُما واحِدٌ، لكِنَّ هَذا قاصِرٌ أيْضًا؛ لأَنَّ الحكِيمَ مشْتَقٌّ مِن الحُكْم والحِكْمة، فعَلى قولِنا أنَّه مُشتَقٌّ مِن الحُكم يَكُون (حَكِيمٌ) بمَعْنى حَاكِم، مثْلُ رَحِيم بمَعْنى رَاحِم، وَعَلَى قوْلِنا أنَّه مِن الحكْمَة يكُونُ (حَكِيمٌ) بمَعْنى مُتْقِن، فَهُو مِن أَحْكَمَ يُحْكِمُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: وهل يَأْتي (فَعيل) بمعنى (مُفعِل) في اللُّغَة العربية؟

فالجوابُ: نَعم، وَمِنْه قوْلُه تعالَى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٠]، بمعْنى (مُؤْلِم)، ومِنْه قولُ الشّاعر[(١)]:

أَمِـنْ رَيْحَـانَةَ الدَّاعِـي السَّمِـيعُ ... يُؤَرِّقُـنِي وَأَصْحَـابِي هُـجُـوعُ

السَّميعُ أي: المُسْمِع؛ لأَنَّ الدّاعِي يُسْمِعُ غيرَه، ولَيْس هُو نفسُه سَمِيعًا.

إِذَنْ: نقُولُ: (حكِيم) مأخُوذَةٌ مِن الحُكم والحِكْمة، فعَلى أنَّه مأخُوذٌ مِن الحُكْم يكُونُ بمَعْنى (حَاكِم) مثْلُ (رَحيم) بمَعْنى (رَاحم)، و(سَمِيع) بمَعْنى (سَامِع)، وإِذا قُلنا أنَّها مِن الحكْمَة فهُو مِن أحْكَمَ فَهُو حَكِيمٌ، بمَعنى مُحْكِم، أيْ اسمُ فاعِلٍ مِنَ الرُّباعِيِّ.

---

(١) البيت لعمرو بنِ معدِ يكربَ الزبيديِّ في مطلع عَيْنِيَّتِهِ المشهورة، في الأصمعيات (ص:١٧٢)، الشعر والشعراء لابن قتيبة (ص:٢٤٠)، شرح الكافية الشافية لابن مالك (٢/ ١٠٣٤).

وحُكْمُ الله عَزَّوَجَلَّ ينقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: كَوْنِيٍّ وشرْعِيٍّ، فالكوْنِيُّ نافِذٌ في جميع الخلْق شاؤُوا أمْ أَبَوْا، والشَّرعِيُّ نافِذٌ فِيمَن أطَاعَ الله عَزَّوَجَلَّ، أمَّا مَنْ لَمْ يُطِعْه فإِنَّهُ لا يُنْفِذُ حُكْمُه.

وهَل هُناك أمْثِلَةٌ مِن القُرآنِ تدُلُّ عَلَى هَذا التّقسيمِ مِن أنَّ الحُكْم كوْنِيٌّ وشَرْعِيٌّ؟

الجوابُ: نعم، قالَ أحَدُ إخوَةِ يُوسُفَ: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠]، المُراد بالحُكم هُنا الحكمُ الكَوْنِيُّ القَدَرِيُّ، يَعْني: أوْ يُقَدِّرُ الله ذَلِك، أمَّا الحُكْم الشّرعِيُّ فإِنَّ الله لما ذَكر ما يَجِبُ فِي النِّساءِ المُهاجِراتِ فِي سُورةِ المُمْتَحِنة قَال: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:١٠]، والمُراد بالحُكْم هُنا الحُكْمُ الشّرْعِيُّ؛ لأَنَّ ما ذُكِرَ مِن الأُمُورِ كُلُّه أمُورٌ شرْعِيَّةٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما تقُولونَ فِي قوْلِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٧٠]، أيُّ الحُكْمَين؟

قُلْنَا: هذَا شَامِلٌ، وَكَذلِكَ قوْلُه تعالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، الظَّاهِر أنَّه شامِلٌ، وإِنْ كَان فِي الشَّرع فِي هَذِهِ الآيَةِ أظْهَرَ؛ لأَنَّ الله قال: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

إِذَن: الحكِيمُ مِن الحُكْم تنْقِسمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: حُكْمٌ شرْعِيٌّ، وحُكْمٌ كونِيٌّ، والحُكمُ الكونِيُّ هُو قَضاؤُه وقدَرُه، وكُلُّ أحَدٍ خاضِعٌ لَهُ، والحُكْمُ الشَّرْعِيُّ ما حَكَمَ بِه شرْعًا، ولا يَخْضَعُ لَهُ كل أحدٍ.

أمَّا إذا قُلنا أنَّه مِن (أحْكَمَ) فحَكِيمٌ مِن الحكمَة بمَعْنى مُحْكِم، فإِنَّ الحِكْمة تنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْن: حكْمَةٌ غائِيَّةٌ، وحِكْمةٌ صُورِيَّةٌ، يعْنِي صورةُ الشَّيْء كَذا وكَذا،

فكَوْن الشَّيْء عَلَى صُورَةٍ معيَّنَةٍ نَجِد أنَّ جَمِيعَ مَا خلَقَه الله فِي صِفَاتِه كُلُّه عَلَى صِفَةٍ مُوافِقَةٍ للحِكْمة، تدبَّرِ المخْلوقاتِ تَجِدْ أنَّ المخْلوقاتِ في ذَواتِها وحَركاتِها وهَيْئاتِها وصِفاتِها كُلُّها مُوافِقَةٌ للحِكْمة، الحِكْمَةُ الغائِيَّةُ هِي الغايَاتُ المحمُـودَةُ فِي أفْعَالِه وأحْكامِه الشّرْعِيَّة كُل مَا خَلق الله تَعالَى، فإنَّهُ لغايَةٍ محمُودَةٍ لَيْس عبثًا ولا سُدىً ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدّخان:٣٨-٣٩]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧]، حتَّى مَا يُقدِّرُه الله مِن الأُمورِ المُؤلِمَةِ فإنَّهُ حكْمَةٌ، فهَزِيمَةُ المُؤْمنينَ يومَ أُحُدٍ حكْمَةٌ لَا شكَّ، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ [آل عمران:١٦٦-١٦٧]، وقَال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١].

إِذَنْ: كُلُّ أفعالِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكْمَةٌ، ولَها غايَةٌ محمُودَةٌ، كَذَلِكَ أيضًا أحْكَامُه الشّرْعِيَّةُ مثْلُ الأحْكَام الكوْنِيَّة، هِي عَلَى وضْعِها عَلَى صِفَةٍ معيَّنَةٍ موافِقَةٍ للحِكْمَةِ، ثمَّ غايَاتُها الحمِيدَةُ التي بِها صَلاحُ القُلوبِ والبِلادِ والعِبادِ أيْضًا حِكْمَةٌ.

فصَارتِ الحكمَةُ نوْعَين: حكْمَةٌ فِي الشَّيْءِ عَلَى صِفَته المعيَّنَةِ، وحكْمَةٌ فِي غايَتِه الحمِيدَةِ، ثمَّ إنَّ هَذِهِ الحِكْمَةَ تكونُ فِي الشَّرع، وتَكُونُ في القَدَر أي: فِي الكَوْن، إنَّنا إذا عَلِمْنا أنَّ الله تَعالَى حكِيمٌ فإنَّنا نطْمَئِنُّ غايَةَ الاطْمِئْنان لما قَضاه وقدَّرَهُ ولما شَرَعَه وحَكَم بِه، نطْمَئِنُّ أنَّه موافِقٌ للحِكْمَةِ، وحِينَئِذٍ لا يُمْكِنُ أنْ نُورِد ولَا أنْ يَرِد عَلَى قُلوبِنا: لماذَا جَاء كَذا؟ ومِن أَيْن شَرَع كَذا؟ إلا عَلَى سبيل الاسْتِرشَادِ، فالإنسانُ الَّذِي يسْأَلُ عَن الحِكْمَةِ مُسترْشِدًا فَلا بَأْس، أمَّا الَّذِي يسْأَلُ عَن الحِكْمَةِ مُعتَرِضًا فإِنَّهُ قَاصِرٌ، ولَم يُقدِّرِ الله حقَّ قدْرِه.

ولنَنْتَبه إِلَى كلِمة ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، وَبِهذَا التَّفسيرِ الَّذي فسَّرناهَا بِه يتبيَّنُ أنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قدْ قصَّر فِي تفسِيرِه.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَتانِ الأُولَى والثّانيةُ: أنَّ الخَلْق حادِثٌ بعْدَ أنْ لم يَكُن يُؤْخَذُ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾، فيكُون فِي الآيَةِ ردٌّ لقولِ الفَلاسِفَةِ القَائِلينَ بقِدَمِ العالَمِ، والصَّوابُ أنَّ العالَمَ حادِثٌ بعْدَ أنْ لَم يكُنْ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثةُ: إثْبَاتُ إعادَةِ الخَلْقِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: استِعْمالُ قياسِ الأَوْلى، وقِياسَ الأَوْلى معرُوفٌ فِي أُصولِ الفِقْه، فالاسْتِدلال بالنَّظيرِ عَلَى نظيرِه يُسمَّى قِياس مساوَاةٍ، والاسْتِدلال عَلَى الشّيْءِ بِما هُو أوْلى -يَعْني نسْتَدِلُّ عَلَى الشّيءِ الَّذِي يكُونُ أوْلى مِن المَقِيس علَيْه- هَذا يُسمُّونَه قِياس الأَوْلى، فهُنَا في الآيَةِ استِعْمـالُ قياسِ الأَوْلى؛ يُؤْخذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، أيْ إعادَتُه، فإِنَّهُ إِذا كَان قادِرًا عَلَى الابْتِداءِ فَهُو عَلَى الإعادَةِ مِن بَابِ أَوْلى عَلَى ما مَشَى علَيْه المُفَسِّر.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: إثْبَاتُ كمالِ الصّفات لله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: الرّدُّ عَلَى أهْلِ التّعطيلِ الّذِين يُنكِرُون صِفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإِنَّ الَّذِين يُنْكِرونَ صِفاتِ الله مَا جعَلُوا لَهُ المَثَل الأَعْلى، بَلْ جَعلُوه موْصُوفًا بالنّقائِص -والعياذُ باللهِ-، سواء كَان هَذا التّعْطِيلُ كُلِيًّا أو جُزئيًّا؛ لأَنَّهُ إِنْ كانَ كُلِّيًّا كَمـا فَعل

الجهْمِيَّةُ وسلَبُوه جَمِيعَ الصِّفاتِ، وكَذلِكَ المعتزلِةُ قَالُوا: لَه أسْماءٌ بِدونِ صِفاتٍ، فظَاهِرٌ أنَّهم سلَبُوا الكَمال عَنِ الله، أمَّا إذا كانَ جُزئِيًّا كَما فعَل الأشَاعِرةُ والماتُرِيدِيَّةُ ونحْوُهم فإنَّ هَذا فِيه سلْبُ الكَمالِ عَنِ الله فِيما وَصفَ بِه نفْسَهُ، فقوْلُه تَعالَى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، الاسْتِواءُ صِفةُ كَمال وهُمْ يقُولونَ: (اسْتوى بمَعْنى اسْتَوْلَى)، فلَم يجْعَلُوا للْعَرش خَصِيصةً بالاسْتِواءِ علَيْه؛ لأنَّ الله تَعالَى مستولٍ عَلَى كُلِّ شيْءٍ، وَكَذلِكَ أيْضًا إذا قالُوا إنَّ المُرادَ بالآيَاتِ خِلافُ الظَّاهِر، فإنَّهم وصَفُوا الله تَعالَى بالنَّقْص؛ لأنَّ إرادَة المتكَلِّم بكَلامِه خِلافَ الظَّاهِر بدُونِ بيانٍ يُعتبَرُ تدْلِيسًا وتَمْويهًا، واللهُ عَزَّوَجَلَّ مَا أنْزَل القرآنَ إلَّا لِلْبيانِ، قَال تَعالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النّساء:٢٦]، وقَال تَعالَى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النّساء:١٧٦]، وقَال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ [النّحل:٤٤]، والآيَاتُ في هَذا كثِيرَةٌ.

فإذَا قُلْنا: إنَّ الله أرادَ بِهَذا خِلافَ الظَّاهِر، فهَذا وصْفٌ لَه بالتَّعْمِيةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنَّه لا يُرِيدُ البيانَ، وهَذا لا شَكَّ أنَّه نقْصٌ، ولِهَذا نقُولُ: إنَّ جَمِيعَ مَنْ أنْكَرُوا صِفَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ كُلِّيَّةً أوْ جُزْئِيَّةً فإنَّهم قدْ وَصفُوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالنَّقْص.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنَّ كُلَّ صِفَةٍ وُصَف الله بِها نفْسَهُ فَهِي صِفَةُ كَمالٍ؛ تُؤخَذ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ﴾، فإذا أثْبَتَ لنفْسِه صِفةً علِمْنا أنَّها صِفة كَمالٍ، الرَّحمَةُ أثْبَتها الله لنفْسِه صفَةَ كَمالٍ لا نقْصٍ، لكنَّها عنْد أهْل التَّعطِيل المُحَرِّفِينَ هِي صِفةُ نقْصٍ، يقُولونَ: إنَّ الرّحمَةَ تدُلُّ عَلَى الخَورِ والضَّعْفِ؛ فلِهَذا قالوا أنَّ رَحمَةَ الله لَا يُرادُ بِها الرَّحمَةُ، وإنَّما يُرادُ بِها الإحسَان، أوْ إرادَةُ الإحسَان، يُفسِّرونها إمَّا بالجَزاءِ المفْعُولِ المخْلُوقِ وإمَّا بإرَادَتِه.

وهَلْ يُستَفادُ مِن هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ اسْتِعْمالُ قِياسِ الأَوْلى فِي حَقِّ الله، فنَقولُ: كُلُّ صَفَةِ كَمالٍ فِي المخْلُوقِ فالخالِقُ أَوْلى بِهَا؟

نَعم، شيْخُ الإسْلام رَحِمَهُ اللَّهُ يُقرِّرُ هَذا، بأنَّ استِعْمالَ قِياسِ الأَوْلى فِي حَقِّ الله جَائِزٌ، أمَّا قِياسُ التَّمْثِيلِ وقِياسُ الشُّمولِ فهذَا مُمْتَنِعٌ؛ لأَنَّهُ هُو التَّشْبِيهُ، فإِذا قُلْنا: كُلُّ صفَةِ كَمالٍ فِي المخْلُوق فالخالِقُ أَوْلى بِها صَحَّ، لكِنْ يَجِبُ أنْ نعلَمَ أنَّ صِفَاتِ المخْلُوقِ الكامِلَةَ التي تُكَمِّلُ نقْصَهُ فَهِي كامِلَةٌ فِي حقِّه، لكِنْ لتَكْمِيلِ نقْصِه، فَهَذِهِ لا يُوصَفُ الله بِها، يَعْني هِي كامِلَةٌ فِي حقِّ المَخْلوقِ، لكِنْ لتَكْمِيلِ نقْصِه؛ فإِنَّ الخالِق لا يُوصَفُ بِها؛ لأنَّهَا وإِنْ كَانت كامِلَةً فَهِي فِي الوَاقِع نقْصٌ، مِثْلُ الأَكْل والنَّوم والنِّكَاحِ، ومَا أشْبَه ذَلِك، فهَذِهِ الصِّفاتُ فِي حقِّ المخلُوقِ صفَةُ كَمالٍ؛ لأَنَّ الَّذِي لا يأْكُل معْناه أنَّه مرِيضٌ، والَّذِي لا ينَامُ معْنَاه أنَّه مرِيضٌ، والَّذي لا يتزَوَّجُ معْنَاه أنَّه مرِيضٌ، ففَواتُ هَذِهِ الصِّفاتِ نقْصٌ فِي المخْلُوقِ، لكِنَّها لما كانَتْ تَكْمِيلًا لنقْصِه صارَتْ لا يُوصَفُ بِها الخالِقُ لحاجَةِ الإِنْسانِ إِلَى الأَكْل صَار يأْكُل، والَّذِي لَا يشْتَهِي ولَا يأْكُل آخِرُه المَوْت، وَكَذلِكَ لَّمَا كانَ الإنسانُ يتْعَبُ ويحْتَاجُ إِلَى صِفَةٍ تقْطَعُ هَذا التَّعبَ ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ:٩]، صَار النَّوْم فِي حقِّه كَمالًا، وَكَذلِكَ لَّمَا كانَ الإِنْسانُ مُحْتاجًا إِلَى بقَاءِ النَّسْل والنَّوْع صارَ النِّكَاحُ فِي حقِّه كَمالًا، فَهُو في الحَقِيقَةِ تكْمِيلٌ لنَقْصٍ، لكِنْ لَا يُوصَفُ الله بِه عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّ الله كامِلٌ مِن جَمِيع الصِّفاتِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ الصِّفاتِ توْقِيفيَّةٌ، ولوْ فتَحْنا هَذا البابَ -كَما قَالَ شيْخُ الإسْلام رَحِمَهُ اللَّهُ- باسْتِعمال قِياسِ الأَوْلى فِي حَقِّ الله لكَانَ كُلُّ إِنْسَانٍ يَقِيسُ بعقْلِه ويُخْطِئُ؛ لأَنَّهُ قدْ يظُنُّ أنَّ هَذا كمالٌ، وهُو ليْس بِكَمالٍ؟

قُلْنا: يَرِد علَيْنا هَذَا، لكِنْ نقُولُ: كُلُّ صفَةِ كَمالٍ مِن حيْثُ العُمُومُ والجِنْس

إِمَّا أنْ نقُولَ: كلُّ صفةٍ تَثْبُت للمَخْلوقِ نُثْبِتُها للخالِق، وهَذا لا يُمْكِنُ ولَا يسْتَقِيمُ، إنَّما مِن حيْثُ الجِنْس كُلُّ صفةٍ كَمالٍ فِي المَخْلُوقِ فاللهُ أَوْلى بِها، والسَّمع مُؤَيِّدٌ، قَالَ تعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فِيما ورَد مِنَ الصِّفاتِ؟

قُلْنَا: لَا، بَلْ مُطْلَقًا، حتَّى الأشْياءُ الَّتي قَدْ لَا تَكُونُ موْجُودةً فِي النَّصِّ وهِيَ مِن صِفَاتِ الله، قصْدِي أنَّها مِنَ الكَمالِ، فاللهُ تَعالَى مُتَّصِفٌ بِها، لكِنْ فِي الصِّفاتِ الخَبَرِيَّةِ قدْ نَقُولُ أَنَّه يَمْتَنِعُ أنْ يُقاسَ الله بِالخَلْقِ حتَّى قِياس الأَوْلى كَالعَيْن وَاليَدِ ومَا أَشْبَهَها، فهَذِه قَدْ نقُولُ: لَا يُمْكِنُ أنْ نَقِيسَ فِيها قِيَاس الأَوْلى، فالأُذُن فِي المَخْلُوقِ كَمالٌ لكِنَّها فِي الخالِق لا تثْبُتُ لَهُ؛ لأَنَّهَا لمْ يَرِدْ بِها الشّرْعُ.

الفوَائِدُ الثَّامِنَةُ والتَّاسِعةُ والعَاشِرَةُ: إِثْبَاتُ العِزَّةِ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ وإثْبَاتُ الحِكْمةِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، وإثْبَاتُ الحُكْمِ أيْضًا مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: يتفرَّع عَلَى إِثْبَاتِ الحِكْمَةِ قطْعُ الاعْتِـراضِ عَلَى الخَلْق والشَّرع، بمَعْنى أنَّك لا تعْتَرِضُ عَلَى خَلْقِ الله أوْ عَلَى شرْعِه، وإنَّما تُسَلِّم؛ لأنَّك إِذا آمَنْت بالحِكْمَةِ وأنَّ الله تَعالَى حَكِيمٌ فحِينَئِذٍ ينْقَطِعُ الاعْتِراضُ نِهائِيًّا، فلا تَقُلْ لمَ؟ ولَا مِن أيْنَ؟ إلا عَلَى سَبِيل الاسْتِرْشادِ.

الفائِدَةُ الثَّانِيةَ عَشْرَةَ: اطْمِئنانُ الإنْسانِ التَّامِّ بما قَدَّرَ الله تَعالَى وشَرَعَهُ، حيْثُ أنَّه صادِرٌ عَنِ الحِكْمَةِ.

• • ❁ • •

الآية (٢٨)

• • ● • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم:٢٨].

• • ● • •

قوْله تعالَى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا ﴾: المَثل بمَعْنى الشَّبَه والنَّظير، يعْنِي: ضَرب لكُمْ أمْرًا نَظِيرًا لما فعلْتُم أنْتم فِي جَانِب الله عَزَّوَجَلَّ، وهَذا المثل: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾.

يقُولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَهُوَ ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ ﴾]، (مِمَّا) أيْ مِنَ الَّذي ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم ﴾، يقُولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ مِن مَمَالِيكِكُم ﴿مِّن شُرَكَآءَ ﴾ لَكُمْ].

قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ ﴾: أيْ مِن الَّذِي ملكَتْ أيمانُكم ﴿مَلَكَتْ ﴾، هَذِهِ هِي صِلَةُ المَوْصولِ، والعَائِدُ محْذُوفٌ، والتَّقْديرُ ملكَتْه أيْمانُكم.

وقوْله تعالَى: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم ﴾: الإِيمان جَمْعُ يَمِينٍ، وهِي اليَدُ، وأُضِيفَ المُلْكُ إِلَى اليَدِ؛ لأَنَّ غالِب تصرُّفاتِ الإِنسانِ بِيدِه، وأُضِيف إِلَى اليَمِينِ لأَنَّهُ أشْرَفُ مِن اليَسَارِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم ﴾: المُرادُ مَا ملكَتِ الإِيمان مِن الإِنسانِ؛ وَلِهَذا قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ مِنْ مَمَالِيكِكُمْ].

وقولُه ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾: مبتَدأٌ، و﴿لَّكُم﴾ خبَرُها مُقدَّمٌ، ولكِنَّ المُبتدأ دخَلت علَيْهِ ﴿مِّن﴾ لأَجْلِ العُمُومِ أوْ للتَّنْصِيصِ عَلَى العُمُومِ؛ لأَنَّ ﴿مِّن﴾ الزَّائدة تُفيدُ التَّنصيصَ علَى العُمُومِ، ولكنَّه قدْ يشْكلُ علَيْنا أنَّ ﴿مِّن﴾ لا تُزاد إِلَّا بعدَ النَّفي، وابْنُ مالك رَحِمَهُ اللَّهُ يقُولُ في هَذِهِ المسأَلَةِ[1]:

وَزِيدَ فِي نَفْيٍ وَشِبْهِهِ فَجَرّ نَكِرَةً كَـ (مَا لِبَاغٍ مِنْ مَفَرّ)

فـ﴿مِّن﴾ زائِدةٌ إعْرابًا، ولكِنَّها فِي المَعْنى لهَا معْنًى، وهُوَ التَّنصِيصُ عَلَى العُمُومِ، وذَكر ابْنُ مالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّها لا تُزادُ إِلَّا بعْدَ نفْيٍ وشِبْهِه، وهُنا سُبقت بشِبْهِ نفْيٍ؛ لأنَّهُ اسْتِفْهامٌ بمَعْنى النَّفْي، يعْنِي: مَا لكُمْ مِمَّا ملكَتْ أَيْمانُكم مِن شُركاءَ فِيما رَزَقْناكُم.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾: أيْ مُشارِكِينَ لكُمْ.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ مِنَ الأَمْوالِ وغيْرِها فأَنْتم وهُمْ ﴿فِيهِ سَوَآءٌ﴾]، قوْله تَعالَى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ ليْسَتْ عائِدَةً عَلَى النَّفْي، لكِنَّها عائِدَةٌ عَلَى المنْفيِّ، يعْنِي: فهَلْ أنْتم سَواءٌ فِيما رَزَقْناكُمْ.

قوْلُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: أيْ أمثالِكُمْ مِنَ الأَحْرارِ]، فجَعل الأنْفُس هُنا بمَعْنى الجِنْس؛ لأَنَّ النَّفْس تأْتِي بمَعْنى الجِنْس، يعْنِي: هَل هَؤُلاءِ المَمالِيكُ شُركاءُ لكُمْ فِي رزْقِكُم مِن الأمْوالِ والأَولادِ ومُساوُونَ لَكُم وتَخافُونَهُمْ كَما تخافُونَ مِن أنْفسِكُمْ؟

والجوابُ: لَا، ليْسَ لَنا مِمَّا مَلكَتْ أَيمانُنا شُركاءُ فِيما رُزِقْنا، فالمَمْلوكُ لَا يُشارِكُك فِي مالِكَ، ولَا يُشارِكُك أيْضًا فِي وَلدِكَ، ولَا يُشارِكُكَ فِي أيِّ شيْءٍ تملِكُه، فإِذا كَان كَذلِكَ فلِماذَا تجْعلُون هَذِهِ الأَصْنامَ شُركاءَ مَع الله وهِي مخْلُوقةٌ لَهُ ممْلُوكةٌ مرْبُوبةٌ له؟!

---

(١) البيت رقم (٣٧٠) من ألفيته.

إِذَن: المثَل واضِحٌ جدًّا فِي أنَّ هَؤُلاءِ المُشْركِينَ يُفرِّقون بيْنَ المُتماثِلَيْن، فكما أنَّكُم الآنَ وبإقْرَارِكُم أنَّ عَبِيدَكُم لا يُساوُونكُم فِي المَنْزلةِ ولَا يُشارِكُونكُم فِي الرِّزقِ، فكَذَلِك أيْضًا مَا يمْلِكُه الله عَزَّوَجَلَّ مِن هَذِهِ الأصنامِ وغيْـرِها لَا يُساوُونَ الله تَعالَى فِي المَنْزلَةِ، ولَا يُشارِكُونَه فِي الحُقوقِ، وَهَذا مَثَلٌ ظاهِرٌ جدًّا.

ومثالُه مِن أنْفُسِنا نَحنُ: هَذا رجُـلٌ يُؤدِّبُ ولدَه إذا أخْطَأ، فقَال لَهُ بعْـضُ النَّاسِ: لماذَا تضْرِبُه؟ لماذَا تنْهَرُه؟ فإنَّه سيَقُولُ: ألَسْت تفعَلُ بِولَدِك مثْلَ هَذا؟!

والجوابُ: بَلى، إذَنْ كيْفَ تلُومُني عَلَى شيْءٍ تفْعلُه أنْتَ؟!

فيُقالُ لَهم: كيْف تَجْعلُون مَع الله شَرِيكًا فِيما يسْتَحِقُّه وحدَه، وأَنْتم لَا تَجْعَلُون لأنْفُسِكُم شرِيكًا مِن عَبيدِكُم فِيما تَختَصُّونَ بِه مِنَ الرِّزْقِ؟! هَذا الَّذِي ذَكر الله عنْهُم.

والعجِيبُ أن هَذِهِ الآيَةَ استدَلَّ بِها مَن يَرَوْن الاشْتِراكِيَّـةَ[1]، فأوَّل مَا ظهرَتْ الاشْتـراكِيَّةُ فِي العالَمِ العربيِّ بدَؤُوا يأْتُون بالنُّصوصِ المُتشابِهَـةِ، وقالُوا: هَذِهِ الآيَةُ صرِيحَةٌ فِي الاشْتراكِيَّةِ؛ لأنَّهُ يقولُ: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾، فانْظُرْ: كيف التَّلبيسُ؟ وهذِه ليْسَتْ عَلَى ما أرَادُوا، إذْ هِي داخلَةٌ في النَّفْي، يعْني لسْتُم فِيه سَواءً، لكِن دائِمًا أهْلُ الباطِلِ يُلَبِّسونَ لباطِلِهم بمُتَشابَهِ النُّصوصِ، وهَذِهِ مِنْ حكْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ، أنَّه جعَلَ فِي النُّصوصِ أشْياءَ متُشابِهَةً ليضِلَّ بِها مَن يضِلُّ.

وقولُ المُفَسِّـرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَنتُمْ﴾ وَهُمْ ﴿فِيهِ سَوَآءٌ﴾]، المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَتى بكَلِمـة (وَهُم) لأنَّ المُسـاواةَ لَا تكُونُ إلا بيْنَ شيْئَيْـنِ؛ فلِهَذا أتَى بقَوْله: (وَهُم)، ولَا حاجَة إلَيْها فِي الحقِيقَةِ، فالكلامُ تامٌّ بدُونِها إذْ مِن المُمْكنِ أنْ نقُولَ: ﴿فَأَنتُمْ﴾،

(١) انظر كتاب (بطلان الاشتراكية) لفضيلة الشّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الضَّميرُ يعُودُ عَلَى المالِك والمَمْلوكِ فأنْتُم أيُّها المالِكُون والمَمْلُوكونَ فِيه سواءٌ، وحِينَئِذٍ لا نحْتاجُ إِلَى تقْدِير (وَهُمْ).

وقوْله تَعالَى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾: هَذَا الَّذي تسلَّطَ عليْه النَّفْيُ، يعْنِي لسْتُم فِيه سواءً.

قوْله تَعالَى: ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾: الضَّمِيرُ يعُودُ عَلَى (مَا)، بِاعْتِبارِ المَعْنى؛ لأَنَّ (مَا) لَو عادَ إِلَيْها الضَّمِيرُ باعْتِبارِ اللَّفْظ لعَادَ إِلَيْها مُفْردًا، فلمَّا عادَ إِلَيْها جَمْعًا صَار باعْتِبَارِ المَعْنى.

وقوْله تَعالَى: ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ جعَل الأَنْفس بمَعْنى الجِنْس، يعْنِي كَما تخافُونَ مِن جِنْسِكُم، ولِهذَا قالَ: [أيْ أمثالُكم مِنَ الأَحْرارِ]، ويُمْكِن أنْ يُقال أنَّه يعُودُ عَلَى ذَاتِ الإنْسَانِ، ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، يعْنِي كَما أنَّ لكُم التّسلُّطَ عَلَى أموالِكُم، فأَنْتُم تخافُونَ أنْ يتسلَّطُوا عَلَى هَذِهِ الأموالِ كَما تتسلَّطُ أنْفُسُكُمْ.

وقوْله تَعالَى: ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: مصدْرٌ مضافٌ إِلَى الفاعِل، و(أَنْفُسَ) هِي المفْعولُ.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [والاسْتِفْهامُ بمَعْنى النَّفْي، أيْ لَيْس مماليكُكم شُركاءَ لكُمْ إِلَى آخِره عنْدَكُم، فكَيْف تجْعلُون بعْضَ ممَاليكِ الله شُركاءَ لَهُ]، وَهَذا مثَلٌ واضِحٌ، إذا كنْتَ أنْتَ الَّذي تمْلِكُ لَا يُشارِكُك فِي مالِك، وفِيما هُو مِنْ خَصائِصِك، فكَيْف تجْعَلُ لله تَعالَى شَرِيكًا فِيما هُو مِن خَصائِصِه، الكلامُ واضِحٌ جِدًّا فِي إلْزام هَؤُلاءِ بعَدم الشِّرْكِ، وَلهذَا قالَ الله تَعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ [الأعراف:٣٢]، قالَ المُفسِّر: [نُبيِّنُها مثْلَ ذَلِك التَّفْصِيلِ ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتدبَّرونَ].

قوْله تَعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكَافُ اسْمٌ بمَعْنى مثْلِ، فهُو إِذَنْ مفْعُولٌ مطْلَقٌ عامِلُه ﴿نُفَصِّلُ﴾، أيْ مثْلَ ذَلِك التَّفْصيلِ والتَّبْيينِ، نُفصِّلُ الآياتِ، ولكِن مَن الَّذي ينْتَفِعُ بِها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: إنَّ الله تَعالَى فصَّل الآيات للعَاقِلِينَ وغَيْرِ العاقِلِينَ، فلِمَاذا خصَّ ذَلِك بالعاقِلِينَ؟

فالجوابُ: لأنَّهم المُنْتَفعونَ بِهذا التَّفْصيلِ، مثْلَ مَا وصَفَ الله القُرآنَ بأَنَّه هُدًى للمُتَّقِيـنَ، وَفِي آياتٍ أُخْرى هُـدًى للنَّاسِ عامَّةً، فبِاعْتبارِ الهِدايَـةِ المُطْلَقةِ هُو عامٌّ، وبِاعْتبارِ الانْتِفاعِ هُو خاصٌّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: رحْمَةُ الله تَعالَى بخلْقِه بضَرْب الأمْثَالِ لَهُم؛ ليَصِلوا إِلَى الكمَال بالهِدَايَةِ.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: بَلاغَةُ القُرآنِ بضَرْب الأَمْثالِ، وهُو أسْلوبٌ مِن أسَالِيبِ اللُّغَة العرَبِيَّة فِي مُنْتهى البَلاغَةِ.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: المُناداةُ بجَهْل هَؤُلاءِ المُشْرِكينَ وعِنادِهم؛ لأَنَّهم جَعلُوا للهِ شُرَكاءَ مِن ممْلُوكِيهم، وأمَّا عِنادُهم؛ لأَنَّ الأمْـرَ واضِحٌ؛ وَلِهَذا قال: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ومَع هَذا عانَدُوا وأصَرُّوا عَلَى الشِّرْك، حتَّى إنَّهُم في تلْبيَتِهم يقُولونَ: لَبَّيْك لَا شَرِيكَ لكَ، إلا شَرِيكٌ هُو لَكَ، تَمْلِكُه وَما مَلَكَ[1] فانْظُرِ الجَهْلَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها، رقم (١١٨٥).

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ العَبِيدَ لا يَمْلِكُونَ؛ وجْهُ ذَلِك أنَّه إذا انْتَفَتْ مُشارَكَتُهم لأَسْيادِهِم فِي أموالِهِم فغَيْرُهم مِنْ بَاب أَوْلى، وانْفِرادُهم أيْضًا مِن باب أَوْلى إذا كَانُوا لَا يمْلِكُون المُشارَكَةَ مِع أسْيادِهِم، فَالغَير مِن بَاب أَوْلى، والَّذِي لَا يمْلِكُ المُشارَكَةَ لَا يمْلِكُ الانْفِرادَ، فالَّذِي لا يَمْلكُ المُشارَكَة مَع سيِّدِه وَهُو أقْرَبُ مِن غيْرِه فَلا يمْلِكُ مَع غيْرِه، هَذا مَع أنَّه جاءَ فِي الحدِيث الصَّحيح عَنْ رَسُول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّه قَال: «مَنْ بَاعَ عَبْدًا وَلَهُ مَالٌ فَمَالُه لِلَّذِي بَاعَهُ إِلَّا أَنْ يَشْتَرِطَ المُبْتَاعُ»[1]، قَالَ: «فَمَالُه لِلَّذِي بَاعَهُ».

ولَا تظُنَّ أنَّ هَذا مِن بَاب التَّنافُرِ حيْثُ أضَافَ المَالَ إِلَيْهِ ثمَّ قَال: «مالُه لِلَّذِي بَاعَهُ»؛ لأنَّ الإِضافَةَ ليْسَتْ لِلتَّمْليكِ ولكِنَّها للاخْتِصَاصِ كَما تَقُول: سَرْجُ الدَّابَّةِ، وزِمَامُ الدَّابَّةِ، وحُجرة الدَّابَّةِ، ومَا أشْبَه ذَلِك.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: الرَّدُّ عَلَى أهْلِ الاشْتراكِيَّةِ الَّذِين قالُوا: إنَّ الآيَةَ تدُلُّ عَلَى ثُبوتِ الاشْتراكِيَّةِ؛ لقَوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾، يعْنِي ليْس فِيها دَلِيلٌ عَلَى ثُبوت الاشْتَراكِيَّة خِلافًا لمَنْ قَال ذَلِك، بَلْ فِيها دَلِيل عَلَى نَفْي الاشْتِراكِيَّةِ؛ لأَنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ مِن مَدْخُولِ النَّفْي، ﴿هَل لَّكُم﴾ يعْنِي: لا يُمْكِنُ أنْ يكُونَ هكَذا، فالمَمْلوكُ لَا يكُونُ شَرِيكًا.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أنَّ هَذا القُرآنَ مُفَصِّلٌ للآيَاتِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ [الأعراف:٣٢].

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب البيوع، باب في العبد يباع وله مال، رقم (٣٤٣٣)، والترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء في ابتياع النخل بعد التأبير والعبد وله مال، رقم (١٢٤٤)، والنسائي: كتاب البيوع، باب العبد يباع ويستثنى المشتري ماله، رقم (٤٦٣٦).

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: أنَّه لَا يُدْرِكُ هَذا التَّفْصيلَ إلا أهْلُ العَقْلِ؛ والدَّليلُ قوْلُه تعالَى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: مدْحُ العَقْلِ؛ لأنَّ بِه يُدْرِكُ الإنْسانُ هَذا التَّفْصِيلَ الَّذي يُفصِّلُه الله عَزَّوَجَلَّ.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: إثْباتُ عظَمَةِ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿نُفَصِّلُ﴾؛ لأنَّ ﴿نُفَصِّلُ﴾ أيْ نحْنُ، وهَذِه لا تكُون إلا للْمُعَظِّم نفسَه، أوِ الَّذي معَه غيْرُه، وكوْنُه معَه غيْرُه ممْتَنِعٌ، فيكُونُ دالًّا عَلَى التَّعْظِيم.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أنَّ المعْبُودَ مِن دُونِ الله مِلْكٌ لله؛ لأنَّ الله قال: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، وَلَا شكَّ أنَّ كُلَّ مَا في السَّموَاتِ وَالأرْضِ فهُو مِلْكٌ لله.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: أنَّ الرِّزقَ لَا يُنالُ بالكَسْب، وَإِنَّما هُو فَضْلٌ مِن الله، لكِنْ لَه أسبابٌ لا شَكَّ، مثْل غيْرِه مِن الأُمورِ؛ لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ لكِنَّ هَذا الرِّزْقَ لَه أسبَابٌ شرعيَّةٌ، وأسبَابٌ كونِيَّةٌ، فمَثلًا مِن الأَسْبابِ الشَّرعيَّةِ انْتِقَالُ المَالِ بالإرْثِ، واسْتِحقاقُ الفَقيرِ مِن الزَّكاةِ، وَما أشْبَه ذَلِك، والأَسْبابُ الكونِيَّةُ أنَّ الإنْسانَ يسْعَى لِحِرَاثَةِ الأرْضِ وَالبَيْع والشِّراءِ وَما أشْبَه ذَلِك.

الفائِدَةُ الثّانية عَشْرَةَ: إثْبَاتُ القِيَاسِ؛ وجْهُ ذَلِك ضـرْبُ المَثَل، ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثة عَشْرَةَ: أنَّ كوْنَ القِيَاسِ دَليلًا هُو مِن طَرِيق العَقْلِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ ولأنَّ الحاقَ الفرعِ بالأَصْلِ وهُو القِيَاسُ يَحْتاجُ إِلَى علَّةٍ جَامِعَةٍ تُدْرَكُ بالعَقْل.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: إِذا قُلْتم إنَّ طَرِيقَ القِيَاسِ هُو العَقْل، فكَيْف يصِحُّ أنْ يكُونَ دَليلًا شرعيًّا؟

فالجوابُ: أنَّ الشّارِعَ اعتَبَره وجعَلَه دَلِيلًا شرْعِيًّا، بِدَليلِ ضَرْب الأَمْثالِ، وقوْله تَعالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١].

• • ❁ • •

الآية (٢٩)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الروم:٢٩].

•●୧୨●•

قَوْله تَعالَى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ﴾: للإضْرابِ، والإِضراب هُنا انْتِقالِيٌّ وليْسَ إِبْطالِيًّا؛ ووَجْه ذَلِك أَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بَيَّنَ هَذِهِ الآياتِ الدّالَّةَ عَلَى قُدْرَتِه عَلَى أَنَّه واحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ بضَرْب المَثل الأَخِيرِ، المثَلُ الَّذِي لا يُنَازِع فِيه إِلَّا مكابِرٌ، المَثل الأَخِيرُ هُو أَنَّه كيْفَ تجْعَلُون للهِ شرِيكًا هُو يمْلِكُه، أيْ الله يمْلِكُه فهَل لكُمْ أَنْتُم شركاءُ فِي أموالِكُم ومماليكِكُم؟

والجوابُ: لَا، إِذَنْ فإِنَّهُ يدُلُّ عَلَى أَنَّ الله لا شَرِيكَ لَهُ.

بعْدَ هَذا بَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ الَّذِين خرَجُوا عَن ذَلِك وَأَنْكَرُوا البَعْث وأَنْكَروا الوَحْدانِيَّةَ أَنَّهُم ليْسُوا عَلَى حَقٍّ، وَإِنَّما هُم ظَالِمُونَ؛ وَلِهذَا قَال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾.

قوْله تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾: قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالإِشْراكِ]، وَهَذا تخْصِيصٌ في غيْرِ محلِّه، وَالظّاهِرُ لي أنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ خصَّصه مُراعَاةً للمَثَل الَّذي قبْلَه؛ لأَنَّ المَثَل الَّذي قبْلَه واضِحٌ في أنَّ الغرَضَ مِنْهُ إبطَالُ الشِّركِ، ولكِنْ لَو قِيلَ: إِنَّه يشْمَلُ هَذا وغيْرَه مِن الظُّلمِ كإِنْكَارِ البَعْث مثَلًا، فَإِنْكَارُ البَعْثِ لا شَكَّ أَنَّه ظُلْمٌ؛

لأَنَّهُ يسْتَلْزِمُ تكْذِيبَ الله عَزَّوَجَلَّ، كَما ثَبَتَ فِي الحدِيثِ القُدسيِّ أَنَّ تَكْذِيبَ الله: أَنَّ الله تَعالَى لَنْ يُعِيدَه كَما بَدأَه[1]، وقَدْ سَبق ذِكْرُه فيكُون المُرادُ بالظُّلمِ هُنا الإشْراكُ وغيْرُه ممَّا ظلَمُوا فِيه أنْفُسَهُم.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَهْوَآءَهُم﴾: جَمْعُ هوًى، والهَوَى فِي الأَصْلِ المَيْلُ، ثمَّ أَنَّه لا يُطْلَقُ فِي الغالِب إِلَّا عَلَى الهَوى المَذْمُومِ، فيُقالُ: اتَّبع هَواهُ دُون هُدَاه، وقَدْ يأْتِي لِلْهَوى المحْمُودِ كَما فِي الحدِيث، وَإِن كَان فِيه ضعْفٌ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»[2]، فهُنا الهَوى التَّابع لما جاءَ بِه الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا شكَّ أَنَّه هوًى محْمُودٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: يعْنِي أَنَّ هَذا الاتِّباعَ ليْس مبْنِيًّا عَلَى علْمٍ، بَل هُو مبْنِيٌّ عَلَى الجَهْل والضَّلالِ فيمَنْ كَانُوا جاهِلِينَ، وعلى الاسْتِهتارِ والعِنادِ فيمَنْ كَانُوا مُعانِدِينَ، فالَّذِين اتَّبعُوا أهْواءَهم اتَّبعُوها بِغَيْر علْمٍ إِذا كانُوا جَاهِلِينَ، فالأَمْر ظَاهِرٌ أَنَّه لا علْمَ لهُمْ باتِّباعِ أَهْوَائِهم.

وإِذا كانُوا مُعانِدِينَ، فهَلْ نقُولُ: إِنَّهم اتَّبعُوا أهواءَهُم بِغَيْر علْمٍ؟

الجوابُ: نعَمْ، نقُولُ إِنَّهُم اتَّبعُوا أهواءَهُم بِغَيْـر علْمٍ؛ لأَنَّ مَن اسْتَكْبر وعَانَد الحقَّ فإِنَّهُ كالجَاهِل بِمـا يسْتَحِقُّ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ، فهُو في الحَقِيقَةِ غيْرُ عَالِمٍ، بَل الجَاهِلُ خيْرٌ منْهُ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيْفَ يصِحُّ نفْيُ العِلْم مَع وُجودِه؟

قُلْنَا: كَما يصِحُّ نفْيُ السَّمْع مَع وُجودِه، ونَفْيُ البَصر مَع وُجودِهِ لمَنْ لَمْ ينْتَفِعْ به،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب يقال: لا ينون (أحد) أي واحد، رقم (٤٩٧٤).

(٢) ذكره الحكيم (٤/ ١٦٤)، وأخرجه الخطيب (٤/ ٣٦٨).

أليس الله يقُولُ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١]، وقَالَ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨]، أَوْ ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧٠].

المُهِمُّ: أنَّ نفيَ العِلْم لمَنْ لم ينْتَفِعْ بِه صَحِيحٌ كنَفْي السَّمْع عمَّنْ لم ينْتَفِعْ بِه، والحَاصِلُ أنَّ المُتَّبِعِينَ لأهْوائِهم ينقَسِمونَ إِلَى قِسْمَيْنِ:

- قسْمٌ جاهِلٌ حقًّا، بَنى هَواهُ عَلَى الضَّلالِ، ويُمْكن أنْ نُمثِّل هؤُلاءِ بالنَّصارَى؛ فإِنَّ النَّصارَى ضالُّون.

- وقِسْمٌ آخر مُسْتكْبِرٌ مُعانِدٌ، فهَذا فِي الحقِيقَةِ لا عِلْم عنْدَهُ، وإِنْ كَان لَهُ علْمٌ فإِنَّهُ لَا ينْفَعُه، بلْ ضرَّه كاليَهُودِ.

قوْله تَعالَى: ﴿فَمَن يَهْدِى﴾: (مَن) اسمُ اسْتِفْهامٍ، والمُرادُ بالاسْتِفْهامِ هُنا النَّفْيُ، والقَاعِدَةُ أنَّ الاسْتِفْهامَ إِذا جاء بمَعْنى النَّفْي صارَ مُشرَّبًا بالتَّحدِّي؛ لأنَّك إِذا قُلْت: مَنْ يفْعَلُ كذَا، أعظَمُ مما إِذا قُلْت: لَا أحَدَ يفعَلُه، كأنَّك تقُولُ: هَذَا أمْرٌ لا يُمْكِنُ، فإِنْ كُنْت صادِقًا فأَرِني مَنْ يفْعَلُه، فإِذا جاء الاسْتِفْهامُ بمَعْنى النَّفي صَار أبْلَغ مِن النَّفْي المُجرَّدِ؛ لأنَّ الاسْتِفْهامَ بمَعْنى النَّفْي مُشرَّبٌ مَعْنى التَّحدِّي.

وقوْله تَعالَى: ﴿مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾: ﴿اللَّهُ﴾ فاعِلٌ، والمَفْعُول محذُوفٌ، والتَّقدِيرُ: مَنْ أضَلَّهُ الله، وَهَذا المفْعُول هو عائِدُ المَوصُولِ الَّذِي يعُودُ إِلَيْهِ.

قوْله تَعالَى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾: قال المُفسِّر: [أَيْ لَا هَادِيَ لَهُ]، فسَّر الاسْتِفْهامَ بالنَّفْي، وهُو حَقٌّ لكِنَّهُ أبْلَغُ مِن النَّفي المُجرَّدِ.

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ مَانِعِينَ مِنْ عَذَابِ الله]: الظَّاهِرُ أنَّ (الوَاو) هُنا للاسْتِئْنافِ؛ لأنَّ الجمْلَةَ خبَرِيَّةٌ، والتي قبْلَها إنْشائِيَّةٌ، لأنَّ الاسْتِفْهامَ

مِن قِسْم الإنْشاءِ فِي البَلاغَةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّصِرِينَ﴾: يعْنِي أنَّ هَؤُلاءِ الَّذِينَ اتَّبعُوا أهْواءَهُم بِغَيْر علْمٍ مُستَحِقُّونَ للعْذَابِ، ولَنْ يَجِدُوا أحَدًا ينْصُرهُمْ مِنْه، أيْ يمنَعُه مِنَ العَذابِ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّصِرِينَ﴾: النَّفْي هُنا مؤكَّدٌ بِـ(مِن) الزّائدَةِ الدَّاخلَةِ عَلَى قوْلِه تَعالَى: ﴿نَّصِرِينَ﴾، وأصْلُ الكَلامِ: ومَا لهُمْ نَاصِرُونَ.

وهَل (مَا) هُنا حِجازِيَّةٌ أوْ عرَبِيَّةٌ؟

الجوابُ: عرَبِيَّةٌ لاخْتِلافِ التَّرتيبِ؛ لأَنَّ خبَرها قُدِّمَ، ولَا تكُونُ حجازِيَّةً إلا إذا كانَتْ مُرتَّبةً، الاسمُ قبْلَ الخَبَرِ، والحجَازِيُّ معْناه الَّذي يخْتَصُّ بِه الحجَازِيُّونَ، والعَرَبِيُّ الَّذي يكُون للحِجَازِيِّن والتَّمِيمِيِّنَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ المشْركِينَ وغيْرَهُم مِن الَّذِين ظلَمُوا أنْفُسَهُم إنَّمَا اتَّبعُوا أهواءَهُم، أمَّا العَقْلُ مَا استَعْمَلُوه، ولكِن مجرَّدُ هَوًى، ولَوِ اتَّبعُوا العُقُولَ مَا خالَفُوا المنْقُول.

الفائِدَةُ الثّانيَةُ: جَوازُ نفْيِ الصِّفَةِ عمَّن لا ينْتَفِعُ بِها؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: أنَّ الأُمُورَ كلَّها -الهدايَةَ والضَّلالَ والصَّلاحَ والفَسادَ- بيَدِ الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾.

الفائِدَةُ الرّابعَةُ: لفْتُ انْتِباهِ الإنْسانِ إِلَى سُؤالِ الهدَايَةِ مِن ربِّه دائِمًا؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾، إذا علِمْت أنَّه لَا أحَدَ يهْدِي مَنْ أضَلَّ الله فَإِلَى مَنْ تلْجَأُ

فِي طلَبِ الهِدَايَةِ؟ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ، حتَّى نفسُك لا تعْتَمِدْ علَيْها، اعْتَمِدْ عَلَى الله عَزَّوَجَلَّ فِي الهِدَايَةِ واسأَلْه دَائِمًا الثّبات، وَلِهَذا يقُولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [النّساء:١٣٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، هُم آمَنُوا بِاللهِ ورَسُولِه، لكِنَّ المُرادَ اثْبُتُوا عَلَى هَذَا الشَّيْءِ، اثْبُتوا عَلَيْه وحقِّقُوه، وَهَذا كُلُّه لا يُنَال إِلَّا باللهِ.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أَنَّ هَؤُلاءِ الظَّالِمِينَ لَا يَجِدُونَ مَن يَنْصُرهم مِن عذَابِ الله؛ لقَوْلِه تَعالَى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يُضِلُّ أحدًا إِلَّا لظُلْمِه إِذْ هُو الَّذِي بَدَأَ وانْحَرفَ فِي إرادَةٍ سيِّئَةٍ، فظَلَم فأَضَلَّهُ الله؛ لقَوْلِه تَعالَى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، هَذا مُفرَّعٌ عَلَى الَّذِي قبْلَهُ؛ وَلِهَذا أُتِي بِـ(الفَاءِ)، ﴿فَمَن يَهْدِى﴾ إشارَةً إِلَى أَنَّ إِضْلالَهُم إِنَّما كانَ بِسَبَبِ ظُلْمِهم، هُمُ الَّذِين ظَلَمُوا فأُضِلُّوا والعِيَاذُ بِاللهِ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ هَل يُشْكِل علَيْه مَا وقَع مِن نصْرِ المُشْرِكِين فِي أُحُدٍ، حيثُ حصَلَتْ هَزِيمةٌ عَلَى المُسْلِمِينَ، ومعْلُومٌ أَنَّه انْتِصارٌ للكَافِرِينَ؛ لأَنَّ الهزِيمةَ لخَصْمٍ انْتِصارٌ للخَصْم الآخَرِ، وَلِهَذا قَالَ أَبُو سُفيانَ: «أُعْلُ هُبَل»[1] فِي ذَلِكَ اليَوْم، فهَلْ يُنافِي الآيَةَ الكَرِيمَةَ؟

قُلْنَا: كانَ نصْرَهم ليْسَ لأَجْلِ أنْ ينْتَصِروا، ولكِنْ لأَجْل ابْتِلاءِ الآخَرِينَ؛ وَلِهَذا كانَتِ العاقِبَةُ لِلْمُؤْمنينَ، بلْ قَال الله عَزَّوَجَلَّ مُشيرًا إِلَى الحِكْمَةِ مِنَ انْتِصارِهم:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، رقم (٣٠٣٩).

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [آل عمران:١٢٧]، قَالَ أَهْلُ العِلْم: إنَّ انْتِصارَهُم هَذَا يُؤدّي إِلَى أنْ يتشَجَّعُوا عَلَى مُحَارَبَةِ الرَّسُولِ ﷺ، حتَّى تكُونَ نهايَتُهم أنْ يُقْطَع طرَفٌ منْهُم.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: حقيقَةُ هَذا الظُّهورِ عَلَى المُسْلِمينَ ليْسَ نصْرًا لهَؤُلاءِ، ولكِنْ مِن أجْلِ الاسْتِدْراجِ بالنِّسبَةِ لَهُم، والابْتِلاءُ والامْتِحانُ بالنِّسبَةِ للمُؤْمنينِ لمخَالفَتِهم؛ لقَوْلِه تَعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، يعْنِي: بعْدَ مَا أَراكُم مَا تُحِبُّون حصَل مَا تكْرَهُونَ.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: الحثُّ عَلَى طلَبِ العِلْم والعَمَلِ بِه؛ لقَوْلِه تعالَى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وهَلْ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى ما ذَهبت إِلَيْهِ الجبريَّةُ؛ لقَوْلِه تعالَى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾؟

قُلْنا: ليْس فِيه دَلِيلٌ؛ لأَنَّ إضْلَالَ الله لَهُم كانَ بِسَبَبِهم، فيكُونونَ هُم السَّبب بدَلِيل أنّه قَال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾، فكَانُوا هُم الظَّالِمِينَ أَوَّلًا، فأُضِلُّوا والعِيَاذُ بِالله.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: الرّدُّ عَلَى القدَرِيَّةِ؛ لقَوْلِه تَعالَى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، فنَسَب الله تَعالَى الإِضْلالَ إِلَيْهِ، والَّذي يضِلُّ هُم هَؤُلاءِ الَّذِين حقَّتْ علَيْهم الضّلالَةُ، فدَلَّ هَذَا عَلَى أنَّ فِعْل العَبْد بتقْدِير الله وخَلْقه.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذا مُشْكِلٌ أنْ تَقُولوا أنّه هُو بِخَلْق الله وهُو فعْلُ الإِنْسَانِ، وهَل يُمْكِنُ أنْ يكُونَ الشّيءُ الواحِدُ مفعُولًا لفاعِلَيْن؟

قُلْنَا: الشَّيْءُ الواحِدُ لا يُمْكِنُ أنْ يكُونَ مفعولًا لِفاعِلَيْن إلَّا إذا اخْتلَفَتِ الجِهَةُ، وإلَّا فأَنا إذا قُمْتُ لا يُمكِنُ أنْ يكُونَ قِيامِي قِيامًا لشَخْصٍ آخَر، ولَا يُمكِنُ أنْ يكُونَ فِعْلِي فِعْلًا لفَاعِلٍ آخَر، هَذا مُستَحِيلٌ، لكِن إذا اختلَفَتِ الجِهَةُ صحَّ ذَلك، فأَقُولُ: إنَّ فعْلَ العَبْدِ بالنِّسبَةِ للعَبْدِ فِعْلٌ مباشِرٌ لَه.

فإذا جلسْتُ وأَنَا لا أُريدُ القِيامَ فأَنا جالِسٌ لأَنِّي ما أَرَدْتُ، لكِنِّي مرَّةً أردْتُ القِيام ولكِنِّي عاجِزٌ لَا أسْتَطِيعُ أنْ أقُومَ، أَيْضًا لا يَحْصُل القِيامُ الأَوَّلُ لانْتِفَاءِ الإِرادَةِ، والثَّاني لانْتِفاءِ القُدْرَة.

فمَن الَّذِي خَلق هَذِهِ الإِرادةَ والقُدْرَةَ؟

الله عَزَّوَجَلَّ هُو الَّذي خلَق هَذِهِ الإرادَةَ والقُدْرَةَ، فصَارَت نسبَةُ الفِعْلِ إلَى الله واضِحةً، نسبَةُ السَّببِ إلَى مُسبِّبِه، أمَّا المُباشِـرُ فهُو الإِنْسانُ نفْسُه، وَبهذَا نرُدُّ علَى القدَرِيَّةِ الَّذِين قالُوا: لا يُمْكِنُ أنْ يكُونَ الفِعلُ الواحِدُ مفعولًا لفاعِلَيْن، فنَقُول: هَذا حقٌّ، ولكنَّهُ يصِحُّ أنْ يكُونَ مفعولًا لفاعِلَيْن باعْتِبَارِ اختِلافِ الجِهَةِ، وَهَذا هُو الَّذي علَيْه أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ، أنَّ فِعْل الإنْسَانِ يُنسَب إلَيْهِ حقيقَةً.

أمَّا الأَشاعِرَةُ فَقَالوا قولًا غيْرَ معْقُولٍ فِي هَذا البابِ، قالُوا أنَّه لا يُنسَبُ لِلإِنْسَانِ حقيقةً، بل هُو كَسْـبٌ له، ولكنَّه ليْسَ له حقِيقَةً، حتى إنَّهُم يقُولونَ: إذَا قُمْت فإِنَّ القيامَ لم يَحْصُل بِك، لكِن حصَل عندَك، ويقُولونَ: الإِنسانُ إذا أخَذ السِّكِّينَ وذَبح الشَّاةَ فإنَّها لا تَموتُ بذَبْحِه، ولكِنْ عنْدَ ذَبْحِه، ويقُولونَ أيْضًا: إذا أخذْتَ الحَجر ورَمَيْت الزُّجاجَةَ وانْكَسَـرَتْ، مَا انكَسـرتْ بالحَجَر، بلِ انكسَـرتْ عنْدَه؛ لأَنَّهم يقُولونَ: لو أَنَّك أثبَتَّ أنَّ هَذِهِ الأشْيَاء تَحصُل بهَذه الأَشْياءِ أثبَتَّ خالِقَيْن، يعْنِي: هَذا الكَسْرُ إذا قُلْت أنَّه مِن الحَجر الَّذِي ضَرب الزُّجاجَةَ معْنَاه أنَّك أثبَتَّ خالِقًا،

وهُو هَذا الحَجَرُ الَّذِي خلَق الكَسْر، وهَذا ليْس معْقُولًا، ولِذلِك يقُولونَ: إنَّ مسألَةَ الكَسْر عنْدَ الأشَاعِرَةِ هِي مَن الأُمُور الَّتي لا تُعقَلُ، ولا حقِيقةَ لَها، وكُلُّ إِنْسَانٍ يعْرِفُ أن المسَبَّب يحْصُل بالسَّببِ مباشَرَةً.

ومَن الَّذِي جَعل هَذا السَّبب مُؤثِّرًا في المسَبَّب؟

الله عَزَّوَجَلَّ هُو الَّذِي جَعل النَّار مُحْرِقَةً، فيقولونَ: إذا أدخَلْتَ وَرَقةً في النَّار واحْتَرَقَتْ مَا احتَرَقَتْ بِالنَّارِ، لكِنْ عنْدَ النَّارِ، أمَّا المُحْرِقُ فهُو الله.

وهَذا لو تُحدِّثُ بِه الصّبيانَ قالُوا هَذا كَلامٌ غيْرُ معْقُولٍ.

• • ❁ • •

الآية (٣٠)

• ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الرّوم:٣٠].

• ● ● •

قوْله تعالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾: بعْدَ أنْ توعَّد هؤُلاءِ المُشرِكينَ بما توعَّدهم بِهِ، وبَيَّنَ أن لا أحدَ يهْدِيهم، قَال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مَائِلًا إِلَيْه: أَيْ أَخْلِصْ دِينَكَ لله أَنْتَ وَمَنْ تَبِعَكَ].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مائلًا إليه]، ونقُولُ: مَائلًا إِلَيْهِ وعمَّا سِواه أيْضًا؛ ولِهَذا حُذِف المتَعلِّق لِيَكُونَ شَامِلًا للْمَيْل إِلَى الدِّين، والمَيْل عَن الدِّين، وأصْلُ الحَنَف ميْلُ الرِّجْل، فالرِّجل المَائِلَةُ تُسمَّى حَنْفاء، فالحَنِيفُ معْنَاه المَائِل (عَنْ) و(إلى)؛ عَن الشِّركِ إِلَى التَّوحِيد، وعَنِ المَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ.

وقوْلهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أيْ أَخْلِص دِينَك لله أَنْتَ وَمَنْ تَبِعَك]: هَذا تفسِيرٌ معنَوِيٌّ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ ولَو جُعِل أعمَّ مِن ذَلِك لكَان أَوْلى؛ لأَنَّ إقامَةَ الوَجْه تشْمَلُ الإِخْلاص وتمام الاتِّباع؛ لأَنَّ إقامَة الوَجْه نحْوَ الشَّيْءِ يسْتَلْزِمُ متابَعَته، وعدَمَ المخالَفَةِ، فيكُونُ شامِلًا لإِخلاصِ النِّيَّةِ ولِلاتِّباعِ اللَّذَيْن هُما أَسَاسُ العَمَل، كُلُّ عملٍ لا ينْبَني عَلَى الإِخْلاص والمُتابَعَةِ فهُو بَاطِلٌ لأَنَّهُ إذا فُقِد الإِخْلاص صارَ شِـرْكًا،

وإنْ فُقِد الاتِّباعُ صَار بدْعَةً، وقَدْ قَال النّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»[1]، وَهَذا لِلْإخلاصِ، وقَال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنا فَهُو رَدٌّ»[2]، وَهَذا لِلاتِّبَاعِ.

وقوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَنْتَ وَمَنْ تَبعَكَ]: أَتَى الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بقَولِه: [وَمَنْ تَبعَكَ]؛ لأَنَّهُ سيأْتِينا وصْفٌ مجْمُوعٌ، وهو قوْلُه تَعالَى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾، آخِرَه، ولَا يُمْكِنُ أنْ تكُونَ الحَالُ المجْمُوعةُ لمُفْرَدٍ؛ لأَنَّ الحالَ وصْفٌ، فكَما لا يُخْبَر عَن الواحِد بالجَمْع لا تُجعَلُ الحالُ الجمْعُ لواحِدٍ، ومَا ذَهب إِلَيْهِ الْمُفَسِّر صحِيحٌ مِنْ وجْهَيْن:

أولًا: مُراعاة اللَّفْظ الآتِي.

ثانيًا: أنَّ الخطابَ للرَّسُولِ ﷺ خطابٌ لَهُ وللأُمَّـةِ؛ لأَنَّ زَعِيمَ القَوْم يُوَجَّه إِلَيْهِ الخطابُ الموجَّهُ للجَمِيعِ، مثَلًا الرّكن في الجيْشِ يقُولُ للقَائِد: اذْهَبْ إِلَى الجَبْهَةِ الفُلانِيَّة، فإنَّه يُرِيدُ القَائِدَ ومَنْ مَعَه لَا يُرِيدُه وحْدَه، فالخِطابُ لزَعِيم القَوْمِ خِطابٌ للجَمِيعِ، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ يُوجِّهُ الخِطابَ للرَّسُولِ ﷺ، والمُرادُ هُو والأُمَّةُ، والدّليلُ عَلَى هَذا قوْلُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطّلاق:١]، فالخِطابُ مُفردٌ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، وبَعْدَه ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ ليْسَ النّبيَّ ﷺ وحدَه، بلْ كُلّ الأمَّةِ، ويدُلُّ لِذَلِكَ أيْضًا قوْلُه تعالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١]، فنَحْنُ لَنا فِيه أُسوةٌ، ونحْنُ لَهُ تبعٌ.

إِذَنْ: وجْهُ كوْنِ الخِطابِ الخاصِّ بالرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للأُمَّةِ له وجْهانِ كَما تقدَّم:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية...»، رقم (١٩٠٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنَّ خِطابَ الزَّعِيمِ خِطابٌ لَهُ ولِمَنْ تَبِعه؛ بِدلِيلِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطّلاق:١].

الوَجْهُ الثّاني: أنّنا مأمُورُونَ باتِّباعِ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فكُلُّ خِطابٍ له يُؤْمَرُ بِه أوْ يُنْهى عنْهُ فإنَّنا تَبَعٌ لَه في ذَلِك، والفَرْق بيْنَ الوَجْهَيْن ظاهِرٌ؛ لأنَّهُ عَلَى الوَجه الأوَّلِ يكُونُ تناولَ الخِطابَ لنا أصْلًا معَ الرَّسولِ ﷺ، وعَلى الوَجْه الثَّاني يكُونُ تَوْجِيهُ الخِطابِ لَنا عَنْ طَرِيق التَّبعيَّةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿فِطْرَتَ﴾: البحثُ فِيها مِن وَجْهَيْن:

الوَجْهُ الأوَّلُ: مِن حيْثُ الرّسمُ، فالرَّسم غيْرُ جارٍ عَلَى القواعِدِ المعْرُوفَةِ، لَا فِي الرَّسْم العُثْمانِيِّ، ولَا فِي الرَّسم الحاضِر، وجْهُ ذَلِك أنَّ التّاء مُطلَقَةٌ ﴿فِطْرَتَ﴾، وهِي مربوطَةٌ؛ لأنَّهَا مُفرَدٌ، والمُفْرَدُ تكونُ التّاءُ فِيه مربُوطَةً وليْسَ فِي القُرآنِ ﴿فِطْرَتَ﴾ مطلقَةٌ إلَّا هَذه، ولا نقُولُ مفتوحَةٌ؛ لأَنَّ الفَتْح ضِدَّ الكَسْرِ، نحنُ نُسمِّيها مربُوطَةً ومُطلقَةً؛ لأَنَّ ضِد الرّبْط الإطْلاقِ.

وعَلَى كُلِّ حالٍ: فخَطُّ القُرآنِ يتْبَعُ فِيه الرَّسم العثمانيَّ.

استِطْرادًا في البحْثِ اختلَف العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: هَل يجُوزُ لِلإِنْسانِ أنْ يكْتُبَ المصْحَفَ عَلَى غيْرِ الرَّسم العُثْمانِيِّ أوْ لَا يجُوزُ؟

فمِنْهُم مَن قَال أنّه جائِزٌ؛ لأَنَّ الرَّسْم العُثْمانِيَّ عبارَةٌ عنْ شكلٍ وَصُورةٍ، ولَوْ كَان الرَّسم العُثْمانِيُّ فِي ذَلِك العهْدِ عَلَى غيْرِ هَذا الوَضْع لكُتِب القُرآنَ بِه.

إِذَنْ: فخضُوعه للرَّسم العُثْمانِيِّ فِي ذَلِك الوَقْت ليْس عَلَى سَبِيل أنّه نزَل عَلَى هَذا الوَجْه، لكِن عَلَى سَبيلِ أنَّ الرَّسْم في ذَلِك الوَقْت كانَ عَلَى هَذِهِ الصّورَةِ، ولا شَكَّ

أَنَّه لوْ كَان عَلَى الصُّورةِ المُوجودَةِ حاليًا لا شَكَّ أَنَّه سيُكْتَب علَيْها، مثلًا (الصَّلاةَ) الصّورةُ الحاليَةُ -يعْنِي القاعِدَةُ الحاضِرة- أن تكتب بعْدَ الصّادِ (لامَ ألف)، لكِن عَلَى الرَّسم العثْمانِي مكتوبٌ (لَام واوٌ)، الزّكاة مثلُها، والرِّبا أيضًا بالواوِ معَ أنَّها عَلَى الرّسمِ الموجُودِ بالألِف.

فالحاصِلُ: أنَّ بعضَ العُلَماءِ يقُول أنَّه يجُوزُ أنْ يُكتَب القُرآنُ عَلَى القَواعِد المعْرُوفةِ حَاليًا، وتعْلِيلُهم أَنَّ هَذا الرَّسْم شكلٌ صادَف أَنَّه فِي ذَلِك الوَقْتِ عَلَى هَذا النّحوِ فكَتَبُوه، وليْسَ القُرآنُ نازِلًا مكْتُوبًا بِهَذا، ولَو كَان نَازِلًا مكْتُوبًا بِهَذا لقُلْنا: رُبَّما لَا يجُوزُ لكِنَ هَذا اصْطِلاحٌ، وَإِذا كَان اصْطِلاحًا فكُلُّ مَا يتأَدَّى بِه الغَرضُ فإِنَّهُ يجُوزُ.

ومنْهُم مَن يقول أَنَّه لا يَجُوزُ مُطلَقًا أنْ يخالَف الرَّسْمُ العثْمانِيُّ، وأَنَّهُ يَجِبُ أنْ يَبْقى الرَّسْمُ حتَّى لو رُسِمَتْ لِلصِّبْيانِ عَلَى السّبورةِ يَجِبُ أنْ يكُونَ بالرَّسْم العُثْمانِيِّ احتِرامًا للقُرْآنِ.

ومنْهُم مَن فَصَّل وقَال إِن المُبْتدِئَ يجُوزُ أن نرْسُمَه لَهُ بحسَبِ القَواعِد المعْرُوفةِ عنْدَه، وغيْرُه لا يَجُوزُ، قالُوا: لأَنَّ المبتَدِئَ يحتَاجُ إِلَى تعْلِيم، ولَو أَنَّك كتبْتَه بالرَّسْم العُثْمانِيِّ للمُبتَدِئِ، وقلْت ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة:٢٧٦]، فإِنَّه سيقْرَؤُها: (يمحق الله الرِّبَوْ)، وفِي (الزّكاة) سيقُول: (الزّكَوة)، وفِي الصّلاة سيقولُ: (الصَّلَوة)، وما أشْبه ذَلِك، بخِلَافِ الإنْسان العالِمِ فإِنَّهُ يكتُبه بالرَّسْم العُثْمانِيِّ.

وأَيًّا كَان مِن هَذِهِ الأَقْوال صَحِيحًا فإِنَّ مَا يفْعَلُه بعْضَ النَّاس اليومَ مِن حيْثُ إِنَّهم يكْتُبونَ القُرآنَ عَلَى صورَةِ النُّقوشِ ويجْعَلُونها فِي بَراوِيزَ أيُّهم أحْسَنُ نقْشًا؟! فإِنَّ هَذا مُحَرَّمٌ عَلَى كلِّ الأَقْوالِ؛ لأَنَّنا إذا عمِلْنا هَذا العمَل كأَنَّنا جعلْنَا القُرآنَ وشْيًا وتطْرِيزًا، فتَضِيع قيمَتُه، وأقْبَحُ مِن ذَلِك أنْ يُجْعَل عَلَى صُورَةِ إِنْسَانٍ، فقَدْ شاهدْتُ فِي منشورٍ

صورةَ إِنْسَانٍ فِي آيَةٍ مِن القُرآنِ جُعِل الرَّأسُ والرِّجْلانُ كأَنَّه جالسٌ مفتَرِشٌ، أعوذُ باللهِ، مُضادَّةٌ ظاهِرَةٌ ومُحادَّةٌ للهِ ورسُولِهِ، الصّورةُ محرَّمَةٌ فكيْفَ تَكتُب بِها القُرآنَ، تجْعَلُها كِتابَةً لِلْقُرآنِ.

والحاصِلُ: أنَّ النّاسَ -نسْأَلُ الله لنَا ولهُم الهِدايَـةَ- صَارُوا يُبالِغُونَ فِي أشْياءَ تضرُّهُم، ولَا تنْفَعُهم بِالنِّسبَةِ للْقُرآنِ الكَرِيم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لَوْ كُتِب القُرآنُ الكَرِيمُ بالرَّسْم الحدِيثِ لضَاعتِ القِرَاءاتُ؟

قُلْنَا: صحيحٌ، لكِنَّ الَّذِين يقُولونَ بالجَوازِ يقُولونَ: نحْنُ نكْتُبهُ عَلَى قِـراءَةٍ واحِدَةٍ، والقِراءَاتُ الآنَ ضُبِطَتْ ليْسَ بِالرَّسْم، بَل ضُبِطَتْ الحرَكاتُ، وما سمعتُ بإِجْمَاعٍ في هَذِهِ المسأَلَةِ، فالخلافُ فِي هَذا مشهُورٌ، ولَا يُوجَدُ إجْمَاعٌ.

والبحثُ الثّاني: في قوْلِه تَعالَى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾، مَا الَّذي نصبَها؟

الَّذِي نصَبها فِعْلٌ محذُوفٌ قدَّره المُفَسِّر بقولِه: (الزموا)، أي: الزَموا فطْرَة الله، ومثْل هَذا يقُولونَ أنَّه منصُوبٌ عَلَى الإغْراءِ، فهُو إِذَنْ أبْلَغُ مِن ذِكْر العامِل الَّذِي هُو (الزَموا)، فحذْفُه أبْلَغُ لأنَّهُ إذا وُجِد العامِل تقيَّدَتِ الجُملَةُ بِه، لكِن إِذا حُذِف العامِلُ صارَتِ الجمْلَةُ صالحِةً لَهُ ولِسواهُ مِمَّا يُمكِنُ أن يتسلَّط عَلَى المعْمُولِ: (الزَمُوها)، (اعْتَنُوا بِها)، (تمَسَّكُوا بِها)، ومَا أشْبَه ذَلِك؛ فلِهَذا يقُولونَ أنَّه منْصُوبٌ عَلَى الإِغراءِ، وهُو المُبالَغَةُ فِي الحثِّ.

المبحث الثالث: كلمة ﴿فِطْرَتَ﴾ مشتقَّةٌ مِن (فطَرَ الشّيء) أي ابْتَدعَهُ عَلَى غيْرِ مِثالٍ سابِقٍ كَما في قوْله تَعالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:١]، أيْ: مبْدِعهُما عَلَى غيْر مِثالٍ سابِقٍ، هَذِهِ الفِطْرةُ أبْدَعها الله عَزَّوَجَلَّ في الإِنسانِ أوْ فِي النَّاس كَما فِي

لفظِ الآيَةِ عَلَى غيْرِ مثَالٍ سابِقٍ؛ وَلِهَذا قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ خِلْقَتَه ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، وَهِي دِينُه، أيْ: الزَمُـوهَا]. المُراد بالفِطْرة هُنا توْحِيدُ الله ودِينُ الله، وهذِه الآيَةُ شاهِدٌ للحدِيثِ الصَّحيح: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»(١). لو أنَّ المخلُوقَ تُرِكَ وفِطْرَته مَا عبَدَ إلَّا الله؛ ولِهَذا البهائِمُ العجمُ الَّتي ليْسَ لها مَا يُغرِيها أو يُصرِّفُها: هلْ يُمكِن أنْ تعبُدَ اللاتَ والعُزَّى والشَّمْس والقَمر؟

الجوابُ: لَا؛ لأنَّ الله تَعالَى يقُولُ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، فأصْلُ الخلْقِ مفْطُورٌ عَلَى توْحِيدِ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ: الخالِق، لكِنْ مَن أُعْطُوا العقولَ هُم الَّذِين رُبَّما ينْحَرِفُونَ لأَنَّ لهم إرادَاتٍ واتِّجاهاتٍ بخلافِ مَنْ ليْس لَهُ إلا العقْلُ المعِيشيُّ، فإِنَّهُ لا ينْصَرِفُ عَن هَذِهِ الفِطرَةِ، وَلِهذا البهائِمُ العُجْم -كَما قُلتُ- تعرِفُ خالِقَها وفاطِرَها ولَا تُسبِّحُ إلا الله.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ لدِينِهِ، أيْ لَا تُبدِّلُوهُ بِأَنْ تُشْرِكُوا].

وقوْله تَعالَى: ﴿لَا تَبْدِيلَ﴾ نفْيٌ؛ لأنَّ ﴿لَا﴾ نافِيةٌ للجِنْس، فهَلْ هُو باقٍ عَلَى كونِه نفْيًا، يعْنِي لفْظًا ومعْنًى، أوْ أنَّه نفْيٌ لفظًا، خبَرٌ معْنًى؟ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ مشَى عَلَى الأَخِيرِ، وأَنَّه نفْيٌ بمَعْنَى النَّهيِ، أيْ: لَا تُبدِّلُوا هَذِهِ الفطْرَةَ بالإشْراكِ، والنَّفْيُ يأْتِي بمعْنَى النَّهيِ كثِيرًا، مثْلُ قوْلِه تَعالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ﴾ [البقرة:١-٢]، فِيها تفْسِيرانِ كَما تقدَّم أحدُهُما أنَّها بمَعْنَى النَّفيِ، أيْ: ليْسَ فِيه رَيْبٌ ولا شَكٌّ، والثّانِي بمعْنَى النَّهيِ لا ترتابوا فيه، ومثل قوْله تَعالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج:٧]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم (١٣٨٥).

فقوْله تَعالَى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ أيْ لا تُبـدِّلُوا خلْقَ الله بالإشْـراكِ، بَلْ أَقِيمُوا وُجوهَكُم حُنَفاءَ، ويَجُوز أنْ يكُونَ نفْيًا عَلَى ظاهِرِه، وأنَّه لا أحَد يُبَدِّلُ خلْقَ الله كَما فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١١٥]، ويكُونُ المَعْنى أنَّ الأَمْر بيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ، فمَن شَاء هُداه بَقِي عَلَى فطْرَتِه، ومَنْ شَاء أنْ يُضلَّه أضلَّه، فلا أحَدَ يسْتَطِيعُ أن يبَدِّل خلْقَ الله، وإنَّما الَّذي بيَدِه الأَمْرُ هُو الله، وعَلى هَذا يكُونُ فِي الآيَةِ وجْهانِ:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنَّها خبَرٌ بمَعْنى النَّهْي.

الوَجْهُ الثَّاني: أنَّها خبَرٌ عَلَى بابِها.

وعَلى الأوَّلِ الأَمرُ ظاهِرٌ، يعْني: المَعْنى ظاهِرٌ أنَّكُم لا تُبدِّلُوا، فيكُونُ الله نَهانَا عَن الإِشْراكِ، وعَلى الثَّاني يكُونُ وجْهُه أنَّ هَذِهِ الفِطْرَةَ الَّتِي فطَر الله علَيْها الخلْقَ، لا أحَد يسْتَطيعُ أنْ يُبدِّلَها، بَلِ الَّذي يُبدِّلُها هُو الله، فمَنْ أَراد الله هِدايَتَه لَنْ يُضِلَّه أحَدٌ، وَمن أرَادَ الله إضْلالَه لَنْ يهْدِيَه أحَدٌ، لا سِيَّمـا أنَّه قالَ قبْلَ هَذا، ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، فَما قالَه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَه وجْهٌ؛ لوُرُودِ ذَلِك فِي اللُّغَةِ العرَبِيَّة، والوَجْهُ الثَّاني هُو الأَصْل؛ لأَنَّ الَّذي عنْدَنا نفْيٌ، فمَنْ صرَفَه عَنْ ظَاهِره يحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَذا التَّفْسيرُ أَلا يُوافِق قولَ الجَبرِيَّةِ؟

فالجوابُ: لَا، الرّسولُ ﷺ يقولُ فِي خُطْبَتِه: «مَنْ يَهْدِهِ الله فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ»(١)، لا أَحَدَ يسْتَطِيعُ هِدايَةَ إِنْسَانٍ أبدًا، أو انحرافَ إِنْسَانٍ إِلَّا بإِذْنِ الله، هَذا النَّبيُّ ﷺ حرِصَ غايَةَ الحِرْصِ وَبذَل ما يستَطِيعُ مِن جهْدٍ فِي هِدايَةِ عمِّه

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧).

أَبِي طالِبٍ، ولكِن لم يتمكَّنْ، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]، وليْسَ معْنَى ذَلِك أنَّنا إذا قُلْنا: إنَّ الأمْر بيدِ الله عَزَّوَجَلَّ وأنَّه هُو الَّذي يُضِلُّ ويَهْدِي، ليْسَ معْنَى ذَلِك ألَّا نفعلَ الأَسْبابَ كَما أنَّ الأمْر بيدِ الله فِي إيجادِ الأشْياء، إيجادِ الرِّزْقِ وإيجادِ الوَلَدِ، وَدَفْع الضَّرر، بل نفْعَلُ الأَسْباب، ونَقولُ: الهدايَةُ بيَدِ الله، والإضلالُ بيَدِ الله، لكِن لكُلٍّ منْهُما سببٌ مِن جُمْلَة أسْبابِ التَّبْديلِ.

ومِن جُملَةِ أسْبابِ التَّبديل ما ذكرَهُ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قولِه: «فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[1]، وذِكْرُ الأَبوَيْن ليْس علَى سبيلِ الحَصْر، وإنَّما هُو علَى سبيلِ التَّنْظيرِ والتَّمْثيلِ، يعْني أنَّ مَن يتَّصِلُ بِهذا الإنْسانِ يجْعَلُه يهودِيًّا أو نصْرَانِيًّا، وكَمْ مِن إنْسَانٍ تنصَّر لَا عَنْ طَرِيق الأَبوَيْن، ولكِن عَن طَرِيقِ الجُلَساءِ والرُّفقاءِ ومن ثَمَّ حذر النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِن جَليسِ السُّوءِ ورَغَّب فِي الجَليس الصَّالِح، وقَال: «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»[2].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما معْنَى النَّفْيِ فِي قوْلِه تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾؟ [النساء:٩٢]، (مَا كَان لمُؤْمِنٍ)، هَذِهِ بمَعْنى أنَّه ممتَنِعٌ غايَةَ الامْتِناعِ؛ لأنَّ (مَا كَانَ) (ومَا ينبَغِي) ومَا أشْبهَ ذَلِك فِي القُرآنِ، تأْتِي بمَعْنى امتنَع غايَةَ الامْتِناعِ، وأيْضًا مثْل قوْلِه تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ [التوبة:١١٥].

---

(١) تقدم قريبًا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، رقم (٢٦٢٨).

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المُسْتَقِيمُ تَوْحِيدُ الله]، ﴿ذَٰلِكَ﴾ المُشارُ إِلَيْهِ قوْلُه تعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أيْ: إقامَةُ وجْهِك لِلدِّين حنِيفًا هُو الدِّينُ القَيِّمُ، قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْقَيِّمُ﴾ المُسْتَقِيمُ]، لكِنَّ (القَيِّم) أبْلَغُ لأَنَّ القَيِّمَ علَى وزْنِ (فَيْعِل)، فهِي صفَةٌ مشبَّهَةٌ يَعْنِي هُو قيِّمٌ، أبلَغُ مِن قوْلِنا أنَّه مستَقيمٌ؛ لأَنَّ المستَقِيمَ ضِدَّ المعوَجِّ، لكِنَّ القيِّم الكامِلَ في قِيامِه فهُوَ أبْلَغُ، يعْنِي أنَّ هَذا الدِّينَ هُو الدِّينُ القَيِّمُ، أي الكامِلُ الَّذِي ليْسَ فِيه اعْوِجاجٌ، وَلَيْس فِيه نقْصٌ ولا شَكَّ أنَّه هُو القَيِّمُ، كَما قَال الله تَعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، فلَا أقْومُ لِلْعبادِ وَلا أنْفعُ لِلْعِبادِ مِنَ اتِّبَاعِ شَريعَةِ الله تعالَى.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أيْ كُفَّارُ مَكَّةَ، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ تَوْحِيدُ الله]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كُفَّار مكَّةَ]، وَهَذا لا شكَّ أنَّه تخْصِيصٌ بدُونِ دَلِيلٍ، بَل الدَّلِيلُ يُخالِفُه؛ لأَنَّ كُفَّار مكَّةَ ليْسُوا أكْثَر النَّاسِ، ثمَّ إنَّ الله يقُولُ: ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾، مَا قَال: أهْلُ مكَّةَ، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وصدَق الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّ أهْلَ النّارِ مِنْ بَنِي آدَم تسْعُمِئَةٍ وتِسعَةٌ وتِسعُونَ مِن الألفِ، فهُم الأَكْثَرُ، أكثَرُ النّاسِ لا يعْلَمُونَ، لَو علِمُوا ما كَانُوا مِنْ أصْحابِ الجَحِيم، فهُمْ لا يعْلَمُون.

ومَا معْنَى قوْلِه تَعالَى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، أيْ: لَا يعْلَمُونَ أنَّ هَذا هُو الدِّينُ القَيِّمُ، أوْ لا يعْلَمُون مَا ينْبَغِي لهُم أنْ يكُونُوا علَيْه، أمْ مَاذا؟

نقولُ: الآيَةُ مُطلَقَةٌ، فتشْمَل كُلَّ شيْءٍ يُنافِي هَذا الدِّينَ، فمَن خَرَج عَنْ هَذا الدِّين فإِنَّهُ لا يعْلَمُ أنَّ هَذا الدِّينَ قيِّمٌ، وإِنْ علِم بِه ولم يتْبَعه صَار علْمُه كالمعدُومِ، كَذَلِكَ لا يعْلَم حَقِيقةَ أمْرِه وحالِه، وأنَّه يجِبُ أنْ يكُونَ دائِنًا للهِ عَزَّوَجَلَّ بِما دَان بِه خلْقَه،

كَذَلِكَ لا يعْلَمُ مَا يترتَّبُ عَلَى هَذا مِنْ جَزاءٍ بالثَّوابِ الجزيل لمنْ قَام بِهِ، وبِالعُقوبَةِ والعَذابِ الأَلِيم لمَنْ خالَفه.

المُهِمُّ: أنَّ حذف المفعُولِ يقْتَضي العُمُومَ، وهذِه قاعِدَةٌ معروفَةٌ عنْد أهْل العِلْم، أنَّ حذْف المعْمُول يُفِيدُ العُمومَ، ولَهُ أمْثِلَةٌ كثِيرَةٌ في القُرآنِ، وفِي كَلامِ العَرَبِ، ومِنْه -بَلْ مِن أوْضَحِه- قوْلُه تعالَى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٦-٨]، قولُه تعالى: ﴿فَآوَىٰ﴾ الإيواءُ للرَّسولِ ﷺ ولِمَنْ تَبِعَه، وقولُه: ﴿ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ الهدايَةُ له ولِمَنِ اهْتَدى بسُنَّتِه، وقولُه: ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ الغِنَى لهُ ولأُمَّتِه، قَال ﷺ: «وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي»[1].

المُهِمُّ: أنَّ تخصِيصَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بقولِه: [كُفَّار مكَّةَ] لا وجْه لَهُ، والصَّوابُ أنَّ أكْثَر النَّاس مِن بَني آدم -مِن كُفَّارِ مكَّةَ وغيرِهم- لا يعْلَمُون.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كونُ السّورة مكيَّةً ألا يدُلُّ عَلَى أنَّ الخِطابَ خاصٌّ بأهْلِ مكَّةَ، كَما قَال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ؟

إذَا قُلنا بالعُمُومِ شَمِلَ كُفَّارَ مكَّةَ، فكَان فِيه التَّسلِيَةُ للرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأمَّا كوْنُ السُّورَةِ مكيَّةً فَلا يدُلُّ عَلَى أنَّ جَمِيعَ الخِطاباتِ الَّتي فِيها تُشِيرُ إِلَى أهْل مكَّةَ، بلْ هِي عامَّةٌ.

مسْألةٌ: هلْ يأْجُوجُ ومأْجُوجُ مِن بَني آدَم؟

نعَم، هُم مِن بَني آدَم؛ وَلِهَذا الصّحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما حدَّثَهم بأنَّ بعْثَ النَّارِ تِسعُمئَةٍ وتِسعةٌ وتِسعُونَ مِن الألْف فَزِعوا، قَالُوا: يا رَسُولَ الله أَيُّنا ذَلِك الواحِدُ؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾، رقم (٣٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢١).

فقال لهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَبْشِرُوا فإنَّكُم لَمع خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتَا فِي شَيْءٍ إِلَّا كَثَّرَتَاهُ، يَأْجُوجُ ومَأْجُوجُ»(١).

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأُولَى: وُجوبُ الإِخْلاص للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أن الإِخْلاص لا يتِمُّ إلا بسلْبٍ وإيجابٍ، وهُو مضمونُ قولِ الإِنسانِ: (لَا إِلَه إِلَّا الله)، فإِنَّ هَذِهِ الجملَة العَظِيمةَ مشْتَمِلَةٌ عَلَى النَّفْي والإِثْبَات، ولا إِخْلاصَ إلا بنَفْيٍ وإِثْبَاتٍ، فهَذِه الآيَةُ فِيها نفْيٌ وإِثْبَاتٌ، فقوْلُه تَعالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ إِثْبَاتٌ، وقوْلُه تَعالَى: ﴿حَنِيفًا﴾ نفْيٌ يعْنِي مَائِلًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوْلُه تَعالَى: ﴿حَنِيفًا﴾ هَل يُؤخَذُ منه سلبٌ وإِيجابٌ؟

فالجوابُ: يُمْكِنُ أنْ يُؤخَذ بطَرِيق اللُّزومِ، ولكِن ليْس لَهُ داعٍ، وعنْدَنا قوْلُه تَعالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾.

الفائِدَةُ الثالِثَةُ: أنَّ الإِخْلاص هُو الفِطْرة، نأْخُذه مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، فتكونُ الآيَةُ هَذِهِ شاهِدَةً لقَوْلِ الرّسولِ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ»(٢).

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: إِثْبَاتُ الخَلقِ للهِ، وأَنَّه الخالِقُ وحْـده؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحج، رقم (٣١٦٩).

(٢) تقدم قريبًا.

الفائِدَتانِ الخَامسَةُ والسَّادِسَةُ: أن ما يقدره الله عَزَّوَجَلَّ لا يمكن أن يُغير لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ عَلَى أَحدِ المَعْنيَيْن، أمَّا عَلَى مَا ذَهَب إِلَيْهِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيُسْتَفادُ منْه النَّهْيُ عَن الشِّرْكِ.

هل يمْكِنُ أن نقولَ: إنَّ الآية تدُلّ عَلَى المعْنَيَيْـن جمِيعًا، وأنَّها صالحِةٌ للمَعْنَيَيْن جَمِيعًا، يعْنِي صالحِةٌ كَي تكونَ للنَّفْي، وأنْ تكُونَ خبرِيَّةً أوْ أنْ تكُونَ للطَّلبِ فتكونَ إنشَائِيَّةً؟

في الحقيقةِ: أن الإِنشاءَ والخَبَر مُتعارِضَانِ، لكِن إذا جعَلْنا كُلَّ واحِدٍ عَلَى انْفِرادٍ بمعْنَى أنَّنا لَا ندْرِي هَلْ أرادَ الله هَذا أوْ هَذا، ومَا دامَتِ الآيَةُ صالحِةً لهَذَا ولهَذا، فإِنَّنا نقولُ: هِي لِلْمعْنَيَيْنِ جمِيعًا، يعني أنَّه لا أحَدَ يسْتَطِيعُ أن يُغيِّرَ مَا خلَقَ الله، ولَا يجُوزُ لَنا نحْنُ أنْ نغيِّرَ هَذِهِ الفِطْرَةَ الَّتي خُلِقْنا علَيْها مِن الإِخْلاص إِلَى الشِّرك.

الفائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ أقوَم الأَدْيانِ مَا بُنِي عَلَى الإِخْلاص؛ لقَوْلِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، المشارُ إِلَيْهِ هُو ما سَبق مِن الفِطْرة التّي فُطِر النّاسُ عليْها، والتّي أمَر الله بِها في قوْلِه تَعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ فالدِّينُ القيِّمُ هُو الَّذي أقَامَ الإِنسانُ فِيه وجْهَه للهِ حَنيفًا، وهِي الفِطْرةُ الَّتي فُطِر النّاسُ علَيْها.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: أنَّ هَذا الدِّين المَبْنِيَّ عَلَى الإِخْلاص اجْتَمع فِيه الشَّرْعُ والفِطْرَةُ، أمَّا الشَّرعُ فلأَنَّهُ أُمِر بِه، وأمَّا الفِطرة فلأَنَّ النَّاس خُلِقوا علَيْها وجُبلوا علَيْها، ولوْلا ما يحْصُل مِن المَوانِع والعوارِضِ لِبَنِي آدَم لكَانَ النَّاسُ كلُّهم مُؤْمِنِينَ عَلَى الفِطْرَةِ كَما جَاء فِي الحَدِيثِ: «أَبَواهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»(١).

---

(١) تقدم قريبًا.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أنَّ أكْثَر النَّاسِ فِي هَذا البَابِ عَلَى جهْلٍ وضَلالٍ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فهُمْ بَيْنَ أمْرَيْن، إمَّا عالِمٌ استكْبَر فعِلْمُه لَمْ ينْفَعْه، وإمَّا جَاهِلٌ، فالعامَّةُ المتَّبعونَ لرُؤَساءِ الكُفْر والضَّلالِ نَصِفُهم بالجَهل وعدَم العِلم، والزُّعماءُ منْهُم العارِفُون نَصِفُهم بالجَهْل لِعدَمِ انْتِفاعِهم بِما عَلِمُوا، لكنَّهم في الحقيقَةِ يستَحقُّونَ وصْفًا أعظَمَ، فهُم جَاهِلُونَ مُستكْبِرونَ، والمُخالَفَةُ عَن عِلْمٍ تُسمَّى (الجَهْل المُركَّب)، فهؤُلاءِ الزُّعماءُ -والعِياذُ باللهِ- يعْلَمُون أنَّهم عَلَى ضَلالٍ، قَال الله تَعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤]، وقَال مُوسَى لِفِرْعَـوْنَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء:١٠٢]، ولم يقُل فرْعَوْنُ: إنَّني مَا علِمْتُ، فسكُوتُه إقْرَارٌ، لكِنْ عنْدَهُم -والعياذُ باللهِ- العِنادُ.

الآيتان (٣١، ٣٢)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣١-٣٢].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مُنِيبِينَ﴾ راجِعِينَ]، مِن (أنابَ يُنِيب)، إذا رَجع، وقوْله تَعالَى: ﴿إِلَيْهِ﴾، يعْنِي إِلَى الله تَعالَى فِيما أمَر به، ونَهى عنه يعْنِي الرُّجوعَ مِن معْصِيةِ الله إِلَى طاعتِهِ، وقبْلَ ذَلِك مِن الشِّرْكِ إِلَى التَّوْحيدِ، هَذا معْنَى الإِنابَةِ.

وقد أَثْنى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى المُنِيبِينَ علَيْه، كَما فِي قوْلِه تَعالَى: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص:٢٤]، فالإِنابَةُ مِن أفْضَل الأَحْوالِ لِلْعابِدِينَ؛ لأَنَّ المُنِيبَ إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دائِمًا يذْكُر الله بقلْبِه؛ لأَنَّهُ يعْلَمُ أنَّه قدِ انْتَقل مِن معصِيَتِه إِلَى طاعَتِه، ومِنَ الإِشْراكِ بِه إِلَى توْحِيدِه؛ حتَّى يعْبُدَ الله كأَنَّهُ يراهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يراهُ فإِنَّ الله يَراهُ.

يقُولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [حَالٌ مِنْ فَاعِلِ (أَقِمْ)، وَمَا أُرِيدَ بِه: أَيْ أَقِيمُوا]، حالٌ مِن فاعلِ (أقم) فِي قولِه تَعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾، [وَما أُرِيدَ بِه] لأَنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ قالَ: [﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أنْتَ ومَنْ تَبِعَك]، فتكُون ﴿مُنِيبِينَ﴾ حالًا مِنَ الفَاعِلِ ومَا تَبِعه، وَهَذا مبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ الخطابَ في قوْلِه: (أَقِم) لِلرَّسولِ ﷺ شخصِيًّا، أمَّا إذا قُلْنا: إِنَّ المُرادَ بِه الأُمَّة خُوطِب بِها زَعِيمُها فَلا حاجَةَ إِلَى هَذا التَّقْدِير،

فنقول: ﴿مُنِيبِينَ﴾ حالٌ مِن فَاعِل (أَقِم)، ولَا مَانِعَ أنْ يكُونَ جمْعًا؛ لأَنَّ المُرادَ بالمُفْرَدِ في أوَّل الآيَةِ الجمْعُ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾؛ قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَاتَّقُوهُ﴾ خافُوهُ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾].

التَّقْوى مأخوذَةٌ مِن الوِقايَةِ، وأصْلُها (وَقْوَى)، والمُراد بالتَّقْوى اتِّخاذُ وِقايَةٍ مِن عذَابِ الله بِفِعْل أوَامِره واجْتِناب نواهِيه، وجَميعُ التَّفاسِير الَّتي فُسِّرت بِها التَّقوى ترْجِعُ إِلَى هَذا المَعْنى الجَامِع العَامِّ، وهِي اتِّخاذُ وِقايَةٍ مِن عَذابِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِفِعْل أوامِره واجْتِنابِ نَواهِيه، فمَنْ كَان يعْبُدُ الله بِفِعْل الأوامِر لكِنَّهُ يفْعَلُ النَّواهِيَ فلَيْسَ بمُتَّقٍ، عنْدَه تقْوى مِن وجْهٍ دُونَ وجْهٍ.

واعْلَم أنَّ التَّقوى عنْد الإطْلاقِ تشْمَلُ الدِّينَ كُلَّه كَما يقْتَضِيه هَذا التَّفْسيرُ، فإِنْ قُرِنَتْ بالبِرِّ كقَوْلِه تعالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢]، صَار المُرادُ بِها ترْكُ المحْظُوراتِ، وصارَ المُرادُ بالبِرِّ فِعْلُ المأْمُوراتِ، وَهَذا اللَّفْظ لهُ نَظِيرٌ كثِيرٌ في اللُّغَة العرَبِيَّةِ، يكُونُ اللَّفْظ لَهُ معْنًى عنْد الانْفِرادِ ومعْنًى آخَر عنْد الاجْتِماعِ، والَّذي يُعيِّن ذَلِك هُو سِياقُ الكَلامِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾: أي: ائْتُوا بها قويمةً، ولَيْسَ المُراد بِإقامَتِها لفْظُ (قَدْ قامَتِ الصَّلاةُ)، بَل أنْ تأْتِي بِها قَويمَةً، وإِقامَتُها علَى نوْعَيْن:

- إقامَةٌ واجِبَةٌ لا بُدَّ لصِحَّةِ الصَّلاةِ مِنْهَا، وذَلك: الإِتيانُ بِالشُّروطِ والأَرْكانِ والوَاجِبَاتِ.

- وإقامَةٌ مُكمِّلَةٌ، وهِي إضافَة المُستحبَّاتِ إِلَى ما ذُكِر، فإِنَّ هَذِهِ إقامَةٌ مُكمِّلَةٌ،

ومِن إقامَتِها المُكمِّلةِ أنْ يَأْتِي الإنسانُ بالنَّوافِلِ؛ لأَنَّ النَّوافِل -صلاةُ تطوُّعٍ- تُكَمِّلُ بِها الفَرائِضُ يوْمَ القِيامَةِ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: عَطْفُها عَلَى قوْله تَعالَى: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ مِن بَاب عطْفِ الخَاصِّ عَلَى العامِّ، وعطْفُ الخاصِّ عَلَى العامِّ يقْتَضِي زيادةَ الاعتناءِ به فهو دليلٌ عَلَى أهمِّيةِ الصّلاةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: الخِطابُ هنا يعودُ عَلَى الفاعلِ في ﴿مُنِيبِينَ﴾، يعني حالَ كَوْنِكُم مُنِيبينَ غيرَ مُشركِينَ أيضًا في إنابَتِكُم.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يُشرِكونَ باللهِ وهو شاملٌ للشركِ الأصغرِ، والشّركِ الأكبرِ، ولِهَذا يُنهى الإنسانُ أنْ يفعلَ الشّركَ أيًّا كان نوعُهُ، قَالَ شَيْخُ الإِسْلَام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّ الشِّرْكَ لَا يَغْفِرُهُ الله وَلَوْ كَانَ أَصْغَرَ، وَالكَبَائِرَ تَحْت المَشِيئَةِ»[1]، واستدلَّ لِذَلِكَ بقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النّساء:٤٨]، ووجهُ الدَّلالةِ من الآيَة أنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ مُؤَوَّلٌ بمصدرٍ، فيكونُ المَعنى (إنَّ الله لَا يَغْفِرُ إِشْرَاكًا بِهِ)، فهو إِذَنْ نكرةٌ في سياقِ النّفي، فيشملُ جميعَ أنواعِ الشّركِ، ولِهَذا قال ابنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا»[2]؛ لأَنَّ سيئةَ الشّركِ أعظمُ من سيئةِ الكَذِبِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل ما ذهبَ إِلَيْهِ شيخُ الإسْلامِ صحيحٌ؟

قُلْنَا: ظاهرُ الآيةِ أنه صحيحٌ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: فالشّركُ الأصغرُ لا يُخلّدُ صاحبُه في النّارِ، بل يُعذّبُ به ولا بُدَّ.

---

(١) جامع الرسائل لابن تيمية (٢/ ٢٥٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٨/ ٤٦٨، رقم ١٥٩٢٩).

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: إذا قِيلَ: إن هَذا خطابٌ للرسولِ ﷺ والشّركُ في حقّه ممتنعٌ.

قُلْنَا: لا يمتنعُ أنْ نُخَاطِبَ شخصًا بإثْبَاتِ ما هو علَيْه، أو بنفي ما هو مُنْتَفٍ عنه، ويكون المعنى الثُّبوت عَلَى ما ذُكِرَ، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النّساء:١٣٦]، هم مؤمنونَ، لكن المعنى: اثبتوا كَذَلِكَ، فأنتَ إذا قُلتَ لشخصٍ: (لَا تُشْرِكْ)، وهو لا يشركُ، صار المعنى: اثبت عَلَى نفي الشِّركِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مِنَ الَّذِينَ﴾ بَدَلٌ بِإِعَادَةِ الجَارِّ]، بدلٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وأفادَنا المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ البدلَ عَلَى نوعَيْنِ، تَارَة بإعادةِ العاملِ، وتَارَة يكونُ بعدمِ الإعادةِ، فإذا قلتَ: (مَرَرْتُ بِزَيْدٍ أَخِيكَ) فهَذَا بعدمِ إعادةِ العاملِ، وإذَا قُلْتَ: (مَرَرْتُ بزَيْدٍ بِأَخِيكَ) فهَذا بإعادةِ العاملِ، وهنا قَالَ: ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ﴾، بدلٌ بإعادةِ العاملِ الَّذي هو حرفُ الجَرِّ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ بِاخْتِلافِهِمْ فِيمَا يَعْبُدُونَهُ، ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ فِرَقًا فِي ذَلِكَ ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ مِنْهُمْ ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ عِنْدَهُمْ ﴿فَرِحُونَ﴾ مَسْرُورُونَ].

قوْله تَعالَى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾: هَذَا وَصْفٌ لهَؤُلاءِ المُشْرِكِينَ، وصفٌ مذمومٌ ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ حيْثُ كان لكلِّ واحدٍ منهم مِلَّةٌ ونِحْلَةٌ، فهَؤُلاءِ يعبدونَ حَجَرًا، وأولئكَ يعبدونَ شمسًا، والآخرونَ يعبدونَ قمرًا، والرّابعُ يعبدُ شجرًا... وهكَذا، ثمَّ إنَّ لهم نِحلًا مختلفةً فيما يَسْلُكونَهُ في مِنْهَاجِ عِبادتِهِم، فَهُمْ فرَّقوا دِينَهُم، وفي قوْله تَعالَى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ أي: شَتَّتُوهُ ووزَّعُوه، دليلٌ عَلَى أنّه لا ينبَغِي للأمَّةِ الإسْلامِيَّة أنْ تُفرِّقَ دِينَها؛ فاليهودُ والنّصارى فرَّقوا دِينَهُم، اليَهُودُ

افْتَرَقُوا عَلَى إحْدى وسبعينَ، والنَّصارى افْتَرَقُوا عَلَى اثنتَيْنِ وسبعينَ[1]، والمشركونَ الجاهليُّونَ حَدَثٌ ولا حَرَجَ في افتراقِهم، فهَؤُلاءِ فرَّقوا دِينَهم، ودِينُهم ما يَدِينُونَ به، سواء كانوا يَدِينُونَ لِمَخْلُوقٍ أو لِخَالِقٍ عَلَى زَعْمِهِمْ؛ لأَنَّ الْمُشْرِكِينَ يقُولونَ في آلهتِهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، أولئكَ أُناسٌ آخرون يَعْبُدُونَ ما يَعْبُدُونَ مِن الآلهةِ لا لِتُقَرِّبَهُمْ إِلَى الله، لكنْ لاعتقادِ أنَّها هي الآلهةُ وأنه لا إِلَهَ إلا هَذا المعبودُ عِنْدَهُمْ.

وقوْله تعالَى: ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾: شِيَعًا يعني فِرَقًا، وأَصْلُ التَّشَيُّعِ أو الشِّيعة أصلُها الانتصارُ للشيء، فيُقَالُ: (شِيعَةُ فُلانٍ) أي أنصارُه فهُم شِيَعٌ، كلُّ طائفةٍ منهم تَنْصُرُ ما هي علَيْه وتؤيِّدُهُ، يعني أنهم لم يقتصِرُوا عَلَى أن تَفَرَّقُوا فقط، بلْ كل واحدةٍ تدعو إِلَى ما هي علَيْه، ومعلومٌ أن من يدعو إِلَى ما هو علَيْه لا بُدَّ أن يحذرَ ممَّا يخالِفُه إذْ لا يتِمُّ الانتصارُ إلا بهذا.

قال الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿كُلُّ حِزْبِۭ﴾ مِنْهُمْ].

حِزْبٌ بمعنى طَائِفَة، وسُمِّيَتِ الطَّائِفَة الْمُتَّفِقة عَلَى رَأْيٍ أو هَدَفٍ أو دِينٍ سُمِّيَتْ حِزْبًا؛ لأَنَّ كلَّ واحدٍ منْهَا يَحْزِبُ الآخَرَ أي يُقَوِّيه.

وقوْله تعالَى: ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾: أي بالَّذي ﴿لَدَيْهِمْ﴾، بمعنى عندَهُم.

وهل ﴿لَدَيْهِمْ﴾ صِلةُ الموصولِ أو متعلقُها صلةُ الموصولِ؟

مُتَعَلَّقُها هو صِلة الموصولِ؛ لأَنَّ (لَدَى) ظرفٌ، بُنِيَ عَلَى السُّكونِ هنا لإضافَتِه

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب شرح السنة، رقم (٤٥٩٦)، والترمذي: أبواب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، رقم (٢٦٤٠).

إِلَى الهاء، وإِلَّا فأصلُها مبنيٌّ عَلَى فَتحٍ مُقَدَّرٍ عَلَى آخِرِه، تقولُ: (جَلَسْتُ لَدَى زَيْدٍ) أي عِنْدَهُ، لكنْ هنا أُضِيفَ إِلَى الهاء، مثل: (إلى) أُضِيفَتْ إِلَى الهاء، يُقال فيها: (إليه)، و(على) يُقال فيها: (عليه)، وتقدَّم أنَّ الصلةَ هي متعلقُ الظَّرف، والجارُّ والمجرورُ يُقَدَّرُ فِعْلًا، بخلافِ خبر المُبتدأ فإِنَّهُ يُقدَّرُ اسمًا، فإذَا قُلت: (زَيْدٌ عِنْدَكَ) فالتّقديرُ: (زَيْدٌ عِنْدَكَ كَائِنٌ، أَوْ مُسْتَقِرٌّ)، وإذَا قُلْت: (أَكْرَمْتُ الَّذِي عِنْدَكَ)، أقولُ: (الَّذِي اسْتَقَرَّ عِنْدَكَ)، والفرقُ بَيْنَهُما أنَّ الأصلَ في خبرِ المبتدأ أنْ يكُونَ مفردًا يعني لا جُمْلة، وأمَّا صلةُ الموصولِ فالأصلُ أنْ تكونَ جملةً، عَلَى أَنَّه يجوزُ أنْ تُقَدِّرَ (مُسْتَقِر) في صلةِ الموصولِ، لكنْ إذا قَدَّرْتَ المُسْتَقِرَّ في صلةِ الموصولِ فإِنَّهُ يجبُ أنْ تُقَدِّرَ مبتدأً لتكونَ جملةً، ومنْ أجلِ هَذا قلنَا: إنَّ الأَوْلى أنْ يقدِّرَ مِنَ الأصلِ فِعْلًا حتى لا يحتاجَ إِلَى تقديرِ مُبْتَدأ.

قوْله تَعالَى: ﴿فَرِحُونَ﴾: خَبَرُ ﴿كُلُّ﴾. وقالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [مَسْرُورُونَ]، لكن هَذا الفَرَحُ إنما وصفهم الله عَزَّوَجَلَّ به لأَنَّ مَنْ فَرِحَ بشيء لازَمَهُ، ولكنَّهُ فَرَحٌ مذمومٌ لأَنَّهُ فرحٌ بِباطلٍ، والفَرَحُ بالباطلِ لا شَكَّ أَنَّه باطلٌ، لكنْ لو فَرِحُوا بما عندهُم من الحقِّ لَكَان فرحًا مسرورًا؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]، فالفرحُ لا يُذَمُّ من حيْثُ هو فرحٌ، ولكنه يُذَمُّ من حيْثُ مُتَعَلِّقه فإن كان فرحًا بباطلٍ فهو مذمومٌ، وإن كان فرحًا بحقٍّ فهو محمودٌ، أمَّا الأَشَرُ والبَطَرُ الَّذي يَنتجُ عن الفرح فَهَذا مذمومٌ بكلِّ حَالٍ، حتى لو كان فرحُ الإنسانِ بحقٍّ وأدَّاهُ ذَلِك الفرحُ إِلَى الأَشَرِ والبَطَرِ، مثل أنْ يفرحَ بما أعطاهُ الله من المالِ والبنينَ لكنَّهُ -وَالعياذُ بِاللهِ- يتخذُ من هَذا وسيلةً إِلَى العُلُوِّ والاسْتِكْبارِ، فإنَّ ذَلِك فَرَحٌ مذمومٌ لِنتيجَتِه لا لِذَاتِه.

وقوْله تَعالَى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ إذا طَبَّقْناهُ الآن عَلَى الأحـزابِ الموجودةِ وأنَّ كلَّ حزبٍ فَرِحٌ بما هو علَيْه مُسْتَمْسِكٌ به مُدَافِعٌ عنه مُوهِنٌ لِغَيْرِهِ وَجَدْنَا أنَّ الآيَةَ تَنْطَبِقُ تمامًا عَلَى ما يوجدُ الآن مِنَ الأحزابِ وَلا سِيَّما في الأمةِ العربيةِ، الأمةُ العَرَبِيَّةُ الآنَ مُتَحَزِّبَةٌ، كلُّ حزبٍ فَرِحٌ بما عندهُ، لكنَّ الأمةَ الإسْلامِيَّةَ لا تَتَحَزَّبُ لأَنَّهَا حزبٌ واحدٌ هو الإسْلامُ حتى لو اختلفَتْ آراؤهُم، هَذا شافعيٌّ وَهَذا مالكيٌّ وَهَذا حنفيٌّ وَهَذا حنبليٌّ وَهَذا ظاهريٌّ وما أَشْبَهَ ذَلِكَ، فإنها في الحقيقةِ مُتَّفِقَةٌ؛ لأَنَّ كل واحدٍ من هَذِهِ الأحزابِ لا يُضَلِّلُ الآخرَ، بل إنَّه يمدحُه إذا خالَفه بمقتضَى الدَّليلِ عنده، الإنسانُ العاقلُ المؤمنُ حَقًّا هو الَّذي إذا خالَفه غيرُه بمقتضى الدّليلِ عنده لا يَكْرَهُه بل يَحْمَدُه عَلَى هَذِهِ المخالفةِ؛ لأَنَّهُ ما خالَفني لأني فُلان، خالَفني لأَنَّهُ يعتقدُ أنَّ الحقَّ معه، وَهَذا هو الواجبُ عليه، وواجبٌ عَلَى كلِّ مؤمنٍ أنْ يتبعَ الحقَّ إذا تبَيَّنَ له ولو خَالَفَ غيره.

إِذَنْ: فالطَّريقُ واحدٌ ولو اختلفَ المِنْهَاجُ؛ لأننا كلنا نُحَكِّمُ الكتابَ والسُّنةَ، وكلنا نعتقدُ أنَّ هَذا هو الحَق، فلماذا أَكْرَهُه لأَنَّهُ خالَفني؟ والله تَعالَى يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، نَعَمْ مَنْ تبَيَّنَ لهُ الحقُّ وأصرَّ وعاندَ وعَلِمْنَا أَنَّه مُجادِلٌ بالباطلِ فَهَذَا يَنزِلُ مَنزِلتَه، وَهَذا هو الميزانُ في قولهم: (لا إِنْكَارَ فِي مَسَائِلِ الاجْتِهَادِ)، فإن هَذِهِ العبارةَ اشتهرَتْ عَلَى الألسُنِ لكنها ليستْ عَلَى إطلاقِها؛ لأَنَّ مسائلَ الاجتهادِ نوعانِ:

أحدهُما: ما يَحْتَمِلُه الاجتهادُ، فَهَذَا لا إنكارَ فيه لأَنَّ كلَّ إِنْسَانٍ إذا اجتهدَ؛ إِنْ أصابَ فلهُ أَجْرانِ، وإِنْ أخطأَ فلهُ أَجْرٌ، ولا يمكِنُ أنْ نَزِنَ النَّاسَ بميزانٍ واحدٍ؛ لأَنَّ العِلْمَ بالأحكامِ الشّرعيةِ يَتَفَاوَتُ بحسبِ الإِيمان وحسب العلمِ وحسب الفَهْمِ،

فالعلمُ بالأحكامِ الشَّرعيةِ يَتفَاوَتُ بهذه الثَّلاثةِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يكونُ معه إيمـانٌ صافٍ حتى يرى الحقَّ عَلَى ما هو علَيْه ويُفتح له بابُ الهِدايةِ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ يكونُ في إيمانِه ضَعْفٌ فيُحْجَبُ عنه مِنَ الهِدايةِ بِقَدْرِ ما نقص من إيمانه، فالإِيمان له أثرٌ كبيرٌ حتى في العِلم، كما قال الشَّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ(١):

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي فَأَرْشَـدَنِي إِلَى تَـرْكِ المَعَـاصِي

وَقَـالَ اعْلَـمْ بِـأَنَّ العِلْـمَ نُـورٌ وَنُـورُ الله لَا يُؤْتَـاهُ عَـاصِ

واللهُ عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩]، ولا فُرقانَ إلا بعلمٍ، فالنَّاسُ يختلفونَ في هَذا اختلافًا عظيمًا بحسبِ ما معهم من الإِيمان والتَّقوى.

كذلك أيضًا يختلفُ النَّاس في العلمِ، مثلًا رجلانِ أحدُهما يعرفُ كُتُبَ السُّنة -البُخاري ومُسلم وغيـرها من كُتب السُّنة- والثاني لا يعـرفُ شيئًا، فلا شك أن الأولَّ أَعْلَمُ.

والثَّالثُ الفَهْم، فإنَّ النَّاسَ يختلفونَ فيه اختلافًا عظيمًا؛ وَلِهَذا قِيلَ لِعَلِيِّ بنِ أبي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَلْ عَهِـدَ إِلَيْكُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِشَيْءٍ؟ فَقَالَ: «مَا عَهِـدَ إِلَيْنَا بِشَيْءٍ إِلَّا مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، أَوْ فَهْمًـا يُؤْتِيهِ الله تَعالَى فِي القُرْآنِ»(٢)، ولا شك أن النَّاسَ يختلفونَ في الفهمِ، حتى إنَّ النَّصَّ الواحدَ تجدُ بعضَ النَّاسِ يَسْتَنْبِطُ منهُ عَشْرَ مَسَائِلَ، وآخَر لا يستنبطُ إلا مسألتينِ أو ثلاثة، وثالث يقول: أنَا أقرأُ لكم الحديثَ وعليكم الاسْتِنباط.

---

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٤/ ٨٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم (١١١).

فالحاصِلُ: أنَّ النّاسَ يَخْتلِفُونَ لِذَلِكَ، أهل السُّنةِ والجماعةِ، والمسلمونَ عُمُومًا يقُولونَ: إنَّ اختلافَنا في الآراءِ ليس اختلافًا في الدِّينِ؛ لأننا كلنا عَلَى هَدَفٍ واحد ولا يُضَلِّلُ بعضُنا بعضًا إلا مَنْ عَلِمَ الحقَّ وتبَيَّنَ لهُ وعَلِمْنَا أنَّه مُعانِدٌ.

قوْله تَعالَى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَفِي قِرَاءَةٍ: «فَارَقُوا» أي: تركوا دينَهُم الَّذي أُمِروا به].

قوْلهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [في قراءة]، أي: قراءة سَبْعِيَّة؛ لأَنَّ اصطلاحَ المُفَسِّر إذا قَالَ: (في قراءة) فهي سبعيَّة، وإذا قَالَ: (قُرِئَ) فهي شاذَّةٌ، هذا اصطلاحُ صاحبُ الجلالينِ، أمَّا غيرُه إذا قَالَ: (قُرِئَ) فقد تكونُ سبعيَّة أحيانًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدَةُ الأولَى: أنَّ الخِطابَ للرسولِ ﷺ خطابٌ له ولأمتهِ؛ تُؤخَذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿مُنِيبِينَ﴾.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: وُجوبُ التَّقوى؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: وُجوبُ إقامةِ الصَّلاةِ؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾.

الفائِدَةُ الرَّابِعةُ: شَرَفُ الصَّلاة وفضلُها؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ خَصَّهَا.

الفائدَةُ الخامِسَةُ: النَّهيُ عن الشِّرك صَغِيرِه وكبيرِه؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

الفائِدَةُ السَّادِسَةُ: شدةُ التَّنفيرِ من الشِّركِ؛ نأخُذها مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا

﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، بعدَ قوْلِهِ تعالَى: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ فإنَّهُ لا شك أنَّ تَرْكَ الشِّرْكِ من التَّقوى، لكن هَذا يكون عطفَ خَاصٍّ عَلَى عامٍّ.

الفائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ أهلَ الشِّركِ من شأنِهم ودَأْبِهم وعادتِهم التَّفَرُّقُ في الدِّين؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾.

الفائِدَةُ الثَّامِنَةُ: التَّنبيهُ عَلَى أنَّه لا ينبغِي للمؤمنينَ أنْ يَتفَرَّقوا في دينِهم؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾، والرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أخبرَ أنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ سَتَتَّبِعُ سَنَنَ مَنْ كان قبْلها، ومع ذَلِكَ فاتباعُ سَنَنِ مَنْ قبلها مُحَرَّمٌ فَهَذَا أيضًا مثلُه، هَذا التَّفرق وإن كان موجودًا قَدَرًا لكِنَّهُ غيرُ محبوبٍ إِلَى الله شرعًا، وكانت هَذِهِ الأمةُ أكثرَ تفرقًا وإن كانت ليست أكثرَ تفرقًا في الواقعِ، لكن لما كانت ستتبعُ سَنَنَ مَنْ كان قبلها صارَ لا بُدَّ أنْ يكُونَ لها اثنتانِ وسبعونَ فِرقةً، يبقى من لم يتَّبع الفِرَقَ السَّابقةَ وهي واحدةٌ وهي الثَّالثة والسَّبعونَ، هَذا السَّبب في أن هَذِهِ الأمة ستفترقُ عَلَى ثلاثةٍ وسبعينَ فرقةً لأَنَّ اليَهُودَ واحدٌ وسَبْعُونَ، والنَّصارى اثنتانِ وسبعونَ فرقةً، والرَّسول ﷺ لما قالوا: اليَهُود والنَّصارى؟ قَالَ: «فَمَنْ»(١)، فَهَذَا يدلُّ عَلَى أنهم هَؤُلاءِ.

ويحتملُ أنْ يكُونَ معنى (فَمَنْ) باعتبارِ الجِنْس، يعني: هَؤُلاءِ وغيرهم، لكن حديث: «افْتَرَقَتِ اليَهُودُ... وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى»(٢)، يدلُّ عَلَى أنهم يُشْبِهُونَ هَؤُلاءِ.

والحاصلُ: أنَّ هَذِهِ الأمةَ ثلاثةٌ وسبعونَ فرقةً، منْهَا اثنتان وسبعون مُتَّبِعَةٌ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»، رقم (٧٣٢٠)، ومسلم: كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم (٢٦٦٩).

(٢) سبق تخريجه.

لليهودِ والنَّصارَى، ومنها واحدةٌ سالمةٌ ناجيةٌ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: فقد حاولَ بعضُ العُلَماء أن يَعُدَّ الفِرَقَ، حاولوا أن يَعُدُّوها فقسموا بحسبِ أصولِ البِدَعِ إِلَى خمسةِ أقسامٍ، ثمَّ فرَّقوا هَذِهِ الأقسامَ حتى أوصلوها إِلَى اثنتينِ وسبعينَ فرقةً، ولكن المسألةَ فيها نظرٌ؛ لأننا لا ندري هَذِهِ الفِرَقَ. فإِلَى الآن لم تَقُم القيامةُ، وقد توجد فِرَقٌ لم توجد الآن تنتسبُ إِلَى الإِسْلام وهي بعيدةٌ منه.

الفائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ التَّفرق في الدِّين مُشابهةٌ للمُشْرِكِينَ، فأولئك الَّذِينَ يتفرقونَ في دِينِهم من أجْل مسائلَ بسيطةٍ من فروعِ الدِّين القليلة أيضا، هَؤُلاءِ فيهم شَبَهٌ من المُشْرِكِينَ تجد بعض النّاس يعادي صاحبَه أو أخاهُ من أجل أنَّه لا يطبِّق سُنَّةً يراها، وَهَذا التّارك لها لا يراها، هَذا خطأ؛ لأَنَّهُ تقدَّمَ أنَّه يجب عَلَى الإنسانِ ألا يجعلَ الخلافَ المبنيَّ عَلَى الاجتهادِ سببًا للنزاعِ والبغضاءِ والتَّفرُّقِ، بل العاقلُ يرى أن مَنْ خالَفه من أجلِ قيام الدَّليل عنده فهو في الحقيقةِ موافقٌ له؛ لأَنَّ السَّبيل والمِنْهاجَ واحدٌ، كلنا نمشي عَلَى الدَّليل.

إِذَنْ: فأَنْتَ مُوافِقٌ لي والمنتهى واحدٌ، وإِنِ اختلفَت الطُّرُقُ.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أنَّ أحزابَ المُشْرِكِينَ مستمسِكونَ بما هم علَيْه؛ لقَوْلِه تعالَى: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ أولئك الَّذِين أُوتوا شيئًا من العلوم العصريةِ وفَرِحوا ورَفَعوا رؤوسَهم فِيهِم شَبَهٌ من المُشْرِكِينَ؛ لأَنَّ هنا أناسًا -والعياذُ باللهِ- أُوتوا شيئًا من العلوم العصريةِ فاحتقروا الدِّين واحتقروا العلوم الشَّرعية، وصاروا فرحين بما أوتوا فضلُّوا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر:٨٣]، تجدُ الواحدَ منهم إذا أدركَ مسألةً من

مسائلِ الكونِ البسيطةِ رأى كأنه أدركَ تفاسيرَ القرآنِ وأمهاتِ السُّنة، وأنه هو العالِمُ الحَبْرُ الَّذي لا يوجد له نَظِيرٌ واحتقرَ مَنْ سِوَاهُ، وهذه مشكلةٌ وقَع فيها بعضُ النَّاس اليوم.

الفائِدَةُ الثَّانِيةَ عَشْرَةَ: أنَّه لا يجوز التَّحَزُّبُ في الدِّين والتَّشيع فَيَكون في هَذا ذَمٌّ لأولئك المتعصبينَ لمذاهبهم لأنهم يُشَيِّعُون النّاسَ في الواقعِ، حتى إنَّ بعض المُفْتينَ إذا استُفتي قال عَلَى أي مذهب تُريدُ أنْ أفتيَكَ، المذهب الشَّافعي، أم المالِكي، أم الحنبلي إِلَى آخره؟ وَهَذا لا شك تفريقٌ للأمةِ؛ وَلِهَذا ذكروا فيما سبق في التّاريخ أنَّه يحصلُ إِلَى حَدِّ القتالِ بين أصحابِ المذاهبِ المتبوعةِ، وأئمَّةُ هَذِهِ المذاهبِ لا يَرْضون هَذا أبدًا، ولا يرضون لأحدٍ أن يُقَدِّمَ أقوالَهم عَلَى قولِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أو أنْ يجعلَ أقوالَهم مَسارًا للنزاعِ والجَدَلِ والعداوةِ والبَغْضَاءِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الَّذِينَ يُقَلِّدُونَ الكُفَّارَ أَلا يَدْخُلُونُ في هَذِهِ الفِرَقِ؟

الجوابُ: لا، لا يَدخُلونَ؛ لأَنَّ هَذا خلافٌ في فرعٍ من الفروعِ لا بُدَّ أنْ يكُونَ هناك أصلٌ يشتركونَ فيه.

• • ۞ • •

الآيـة (٣٣)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [الروم:٣٣].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ أي كُفَّارَ مكَّةَ ﴿ضُرٌّ﴾ شدةٌ ﴿دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ﴾ راجعينَ ﴿إِلَيۡهِ﴾ دون غيره ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً﴾ بالمَطر ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾].

المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ خصَّ هَذِهِ الآيَة من وجهيْنِ:

- من جهة المراد بها.
- ومن جهة الضُّر.

فقَالَ: [﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾: أي كُفَّارَ مكةَ] وَهَذا ليس بصحيحٍ، بل النَّاس عُمُومًا.

وهل المرادُ بالنَّاس عُمُومهم؟

ننظر الحالة الَّتي تحدث الله عنها هل تنطبق عَلَى المؤْمنينَ أو خاصة بالكفار؟ فإنها خاصةٌ بالكفار.

إِذَن: النَّاس من حيْثُ هم ناس، أو نقول: المراد بالعُمُوم هنا الخصوص، وهم الكفَّار؟ فعندنا الآن وجهان:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أنْ نقولَ المراد بالنَّاس النَّاس من حيْثُ هم ناس بقطعِ النَّظر عما يتصفونَ به من الإيمان أو الكفرِ.

الوَجْهُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالنَّاس الكفَّارُ فيكون عامًّا أُريدَ به الخاصُّ، مثل قوْله تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣]، ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الأولى يراد بها واحد وهو نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ أو غيرُه. وقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟﴾ المرادُ بـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الثَّانية واحد وهو أَبُو سُفْيَانَ أو جنسُ أتباعِه.

المُهِمُّ: أن كلمة ﴿ٱلنَّاسَ﴾ في قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ المرادُ بها أحدُ أمرين:

- إِمَّا أن يراد بها الكافرون عينًا.
- أو المُؤْمِنُونَ والكَافِرُونَ، وهذا لا يصح؛ لأَنَّ الحال الَّتِي ذكر الله لا تنطبق عَلَى المُؤْمِنِينَ.

ثانيًا: يقولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ضُرٌّ﴾ شدة] ثمَّ قَالَ: «إِذَا أَصَابَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ؛ بِالمَطَرِ].

إذا قُلْنَا: الرَّحمة مطرٌ صارت الشّدةُ القحطَ، وهو عدمُ المطرِ، والأمر ليس كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بل هو أعم؛ لأَنَّ كلمةَ ﴿ضُرٌّ﴾ نكرةٌ في سياق الشَّرط، فتكونُ للعُمُومِ، أَيُّ ضر يكون سواء قَحْط أو مرض أو فَقْدُ مالٍ أو غيرُ ذَلِك، فإنهم عندما يُصابونَ بضرٍّ ﴿دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ﴾ راجعين إليه؛ كقوْله تعالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، فإذا أُصيبوا بالشِّدة عرفوا الله، خلاف ما أمر به النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في قوله: «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»[1]،

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧).

فالَّذي لا يعرفُ ربَّه إلا في الشَّدة لم يعبدْ ربَّه رغبةً، وَهَذا الَّذي تحدَّثَ الله عنه أخفُّ حالًا ممن إذا أصيبوا بالشِّدة دَعَوُا المخلوقَ، هَؤُلاءِ أقبحُ ممن تحدثَ الله عنهم.

وقوله: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ حالٌ من فاعل ﴿دَعَوُاْ﴾.

وعندنا إشكالٌ في ﴿دَعَوُاْ اللَّهَ﴾، لماذا ضمَّ الواوَ مع أن الواو ساكنةٌ؟

والجوابُ: حُرِّكت لالتقاءِ السَّاكنين.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: التّحريك لالتقاءِ السَّاكنين يكونُ بالكسرِ مثل ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البينة:١].

قُلْنَا: لكن الكسر لا يناسب الواوَ، ويناسبها الضَّم، فعلى هَذا نقول: حُركت بالضَّم لالتقاءِ السَّاكنين، فالواو والياء إذا تحرَّكا بالفتحة فإنها تظهر عليهما، لكن إن تحرَّكا بالضَّم والكسرة فإنهما تقدران حيث يمنع من ظهورها الثِّقل.

لكن لا ثقل في قوله تعالى: ﴿دَعَوُاْ اللَّهَ﴾، بل تُنطق بسهولة؛ والسَّبب أن هَذِهِ الضَّمة عارضة للتخلص من التقاءِ السَّاكنين، أما قوله تعالى: ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم﴾ فليس فيها إشكالٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم﴾: كلمةُ (رَب) بمعنى الخالِق المالِك المدبِّر، والرُّبُوبِيَّة تقتضي خَلْقًا، فالَّذي أوجد النَّاس هو الله، والمالكُ هو الله ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المائدة:١٢٠]، وهو مدبِّرٌ ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس:٣]، هَذا هو الرَّب قَالَ: ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم﴾ لما وقعوا في الشِّدة عَرَفوا أنَّ الأمورَ بيدِه فَدَعَوْهُ.

وقوْله تَعالَى: ﴿مُخْلِصِينَ﴾: حالٌ من الواو.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مُنِيبِينَ﴾ راجعين ﴿إِلَيْهِ﴾ دونَ غيرِه ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ بالمَطَرِ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾].

﴿أَذَاقَهُم﴾ يعني أصابتهم الرَّحمة حتى يتحقَّقوها كما يتحققُ الإنسانُ الطَّعامَ في فمِه، وَلِهَذا عبَّر بالإِذاقَةِ، وإن كان هَذا لا يُذاق لأَنَّهُ لا يدخل في الفم لكن لِتَحَقُّقِ إصابتِه صار كالشَّيء الَّذي يُؤكلُ فيُذاقُ.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِّنْهُ رَحْمَةً﴾: المراد بالرَّحمة ما يقابل الضُّر، ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ فمثلًا إذا كان الجدبُ فالمرادُ بالرَّحمة المطرُ والخِصْبُ، وإذا كان مرضًا فالمرادُ بها الشِّفاءُ، وإذا كان فقرًا فالمرادُ بها الغِنى، فالمُهِمُّ: أَنَّه يُقابل بالضُّرَّ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ﴿أَذَاقَهُم﴾ ألا يدل اللفظ عَلَى عدمِ الاستمرار، يعني مجرد وقت قليل، أذاقهم الرَّحمة فنكَصُوا؟ وهذا مفهومٌ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾، لأَنَّ ﴿إِذَا﴾ فُجَائية.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَا﴾: فُجَائية، وهي حرف مع أنَّ ﴿إِذَا﴾ الشَّرطية اسم؛ لأَنَّ ﴿إِذَا﴾ الشّرطية نابَت مَنابَ اسمِ الشَّرط، وأما ﴿إِذَا﴾ الفجائية فنابت مَناب الفاء، والفاءُ حرفٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَرِيقٌ﴾ مبتدأ، وقوْله تَعالَى: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ خبر جملة.

وهنا نسأل: لماذا جاء المبتدأ نكرةً وابن مالِكٍ يقول[1]:

وَلَا يَجُوزُ الِابْتِدَا بِالنَّكِرَة مَا لَمْ تُفِدْ ....

(١) ألفية ابن مالك (ص:١٧)، ط. دار التعاون.

الجوابُ: لأنَّهَا أفادتْ، وبالخصوص نقولُ: لأنَّهَا وقعتْ بعد ﴿إِذَا﴾ الفجائية، فإذا جاءَ المبتدأُ بعد ﴿إِذَا﴾ الفجائية فلا بأسَ أنْ يكُونَ نكرةً.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، وقال هنا: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ﴾ يعني وفريقٌ آخَرُ لا يشركُ، مع أنَّه في آيةٍ أخرى يقول: ﴿فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، وفي آية ثالثة ﴿فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان:٣٢]، فهل نقول: إن الآيات الَّتِي يقول الله فيها: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ تُحمل عَلَى المُشْرِكِينَ، والآيات الَّتِي فيها ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أو ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ تنزل عَلَى العُمُوم؟

والجوابُ: هَذا الإِشكالُ ما وَرَدَ عِنْدي إلَّا الآن لَمَّا وصلنا آخرَ الآية وإلَّا ففي الأول قرَّرنا أنَّها للمُشْرِكِينَ أو النَّاس من حيْثُ هم ناسٌ ولكن لما قَالَ: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ صَارَ عندي تَرَدُّدٌ، هل الآيَةُ عامة فنقول: إن المؤْمنِينَ إذا أُصيبوا بالضَّراء لا شك أنهم يلجؤونَ إِلَى الله أكثرَ كما هو مُشاهد؛ وَلِهَذا قال الرَّسول ﷺ: «تعرَّفْ إِلَى الله فِي الرَّخاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»(١)، فَهَذا دليلٌ عَلَى أنَّ الإنسانَ في حال الرَّخاءِ قد يحصُل منه غفلةٌ عن الله عَزَّوَجَلَّ وعَدَمُ تعرُّفٍ، لكن في حال الشِّدة يلجؤونَ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ، قال النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الخُسوف: «إِنَّ الله يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبادَهُ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِ الله»(٢)، فالآية تحتاج إِلَى تأمُّلٍ.

والَّذي يبدو لي الآن أن الآياتِ الَّتِي يقولُ الله فيها: ﴿فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ﴾ ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ تكون خاصَّةً بالمُشْرِكِينَ، أمَّا الآياتُ الَّتِي يقولُ الله فيها: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري: أبواب الكسوف، باب الذكر في الكسوف، رقم (١٠٥٩)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب ذكر النداء بصلاة الكسوف الصلاة جامعة، رقم (٩١٢).

و﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ فإنها تصلحُ للعُمُوم؛ لأَنَّ النَّاس -حتى المؤْمِنينَ- إذا أصابهم الضُّرُّ صار عندهم من الرُّجوع إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ واللجوء إِلَيْهِ أكثر. فصلاةُ الاستقساءُ رجوعٌ إِلَى الله وإنابةٌ أكثر، ومثلها صلاة الكُسوف، وحتى أنْتَ بنفسك إذا وقعتَ في شدةٍ تجد عندك من اللجوء إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ والافتقار أكثرَ مما إذا كنت في رخاء.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدتانِ الأولى والثَّانية: أنَّ طبيعةَ الإنسان عند الضَّراء اللجوءُ إِلَى ربِّه لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾، ويتفرعُ عَلَى هَذا أنَّ أولئك الَّذِين إذا مسَّهم الضُّر لجَؤوا إِلَى غير الله أنهم خالَفوا جميع فِطَرِ البشر لأَنَّهُ يوجد ناس الآن إذا وقع في ضر ما دعا الله، بل يدعو الولي الَّذي يتبعه، أو الَّذي يراه وليًّا، وإذا وقع في الأمر الهيِّن دعا الله فيجعلون الشَّدائد لمن لا يستطيع أن يدفع عنهم شيئًا أبدًا، بل ولا يستجيب له، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف:٥]، بخلافِ النَّاس -حتى غير المسلمين- إذا وقعوا في شِدَّةٍ لا يلجَؤُون إلا إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّ أولئك الَّذِين يلجؤون إِلَى ربهم في الشَّدائد إذا زالت عنهم الشَّدائد وأصيبوا بالرَّحمة انقسموا إِلَى قِسْمَيْنِ:

- منهم مَنْ يشركُ ويبقى عَلَى شركه.
- ومنهم مَنْ يبقى عَلَى إيمانه إذا كان من المُؤْمِنِينَ.

الفائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ أولئك المُشْرِكِينَ لا يتأنَّون في شركهم بعد أنْ ينجوا من الشِّدة، بل يستمرون علَيْه فورًا؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾؛ لأَنَّ ﴿إِذَا﴾ فجائية.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: الرَّد عَلَى أولئك الَّذِين يقدمـون أولياءهم أو أولئك الَّذِين لا يلجؤون إِلَى أحد.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: إِثْبَات الرّحمة لله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: التَّنديد بإشـراكِ هَؤُلاءِ؛ لأَنَّهُ قَالَ: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ﴾ فكيف يليقُ بهم أن يشركوا بربهم الَّذي خلقهم؟ لأَنَّ الخالِق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجب أن تكون العبادةُ له وحده.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: أن الشَّرَّ لا يُضاف إِلَى الله، ولكن يرد عَلَى هَذا بالنِّسبة للضرر والنَّفع؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾، إنما الشَّرُّ مطلقًا لا يضاف إِلَى الله، وإنما يضاف إِلَى المخلوقات المفعولات.

• • ۞ • •

الآيتان (٣٤، ٣٥)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:٣٤-٣٥].

قولُه تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا﴾: (اللام) هنا للعاقبةِ، يعني أنهم بإشراكِهم صارَ عاقبتُهم الكفرَ بما آتاهم الله عَزَّوَجَلَّ وقوله: (آتاهُم) أي أعطاهُم.

وهل الباء في ﴿بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ للسببيَّة، أو للتخصيص بمعنى أنهم يَكْفُرُونَ بِهَذا الشَّيء؟

الجوابُ: يحتملُ أنْ تكونَ للسببيةِ، أي بسببِ ما آتاهم الله تَعالَى من الرَّحمة والإنقاذ من الشّدة، صار ذَلِك سببًا لأشرهم وبطرهم وكفرهم، كما هي عادة الإنسان إلا من عصمه الله عَزَّوَجَلَّ أو يُقال: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾، أي: يكفروا بِهَذا الشَّيء الَّذي آتيناهم حيْثُ لا يؤدونَ شُكرَه، وكان الواجبُ عليهم أن يؤدوا الشُّكر للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾: هَذا يسمونَه في البلاغة التِفاتًا، يعني لم يقل: وليتمتعوا، كما قال في آية أخرى، ولكنه أمرهم أنْ يتمتعوا، والأمرُ هنا للتهديدِ كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ أُريدَ به التَّهديد ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾]؛ فالأمر هنا للتهديد وليس للإباحة، والدَّليل عَلَى ذَلِك قوْله تَعالَى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ثمَّ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَاقِبَةُ تَمَتُّعِكُمْ، فِيهِ التِفَاتٌ عَنِ الغَيْبَةِ].

الغَيْبَة ﴿ لِيَكۡفُرُواْ ﴾، والالتفاتُ له فائدتان:

الفائدةُ الأولى: فائدةٌ لازمة في كل التفاتٍ، وهي التَّنبيهُ؛ لأَنَّ الكلام إذا كان عَلَى نسق واحد استمر الإنسان فيه مُنساقًا معه، فإذا اختلفَ انتبَه: لماذا اختلف السِّياق؟ لماذا كانت الجملةُ للغائب ثمَّ صارتْ للمُخاطبِ أو بالعكس؟ فيقفُ ويحصل بذلك تَأَمُّلٌ.

أما الفائدةُ الثَّانية: فإنها تختلف بحسب السِّياقِ، وهي في هَـذِهِ الآيَـة: أنهم إذا قُوبِلوا بالأمـر ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ صار أشدَّ وأبلـغَ تهديدًا مما إذا قـال: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ [العنكبوت:٦٦].

وقوْله تَعالَى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾: قد قيل إنَّ (سوف) تفيدُ التَّحقيق، لكنها تفيد أيضًا التَّراخي بخلاف السِّين، فإنها تفيد التَّحقيق والفورية، وكل شيء بحسبه، وإنما كان كَذَلِكَ هنا لأَنَّ أشد العقابِ الَّذي يأتيهم سيكون يوم القيامة وهو متأخر.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ أَمۡ ﴾ بمعنى همزة الإنكار ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا﴾ حُجَّةً وَكِتَابًا ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ تَكَلُّمَ دَلالَةٍ ﴿بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ﴾ أيْ يَأْمُرُهُمْ بِالإِشْرَاكِ! لَا].

﴿ أَمۡ ﴾ هنا يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بمعنى همزة الإنكار]؛ وَهَذا أحدُ القولين فيها، والقول الثَّاني: أنَّها بمعنى (بَلْ) و(الهمزة)، فتكون مفيدةً للإضراب، وهنا الإضـراب الانتقالي يعني: بل أنزلنا عليهم سلطانًا، والاسْتِفْهام إذا كان للإنكار

فمعناه النَّفي، يعني: هل نحن أنزلنا عليهم سلطانًا يؤيد شركهم ويثبته ويقول إِنَّه حق؟ والجوابُ: لا، ما أنزلنا ذلك.

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿سُلْطَانًا﴾ حُجَّةً وَكِتَابًا]، والحجة تسمى سلطانًا لأَنَّ المحتَجَّ بها له سلطةٌ عَلَى المحجوج؛ فلِهَذا تُسمى سلطانًا، كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ﴾ [يونس:٦٨]، أي حجة، واعلم أن السُّلطان يُطلق عَلَى عدة معانٍ، فيجمعها كلها السُّلطة عَلَى الشّيء، فتارةً تأتي بمعنى الحاكم كما جاء في الحديث: «فَإِن تَشَاجَرُوا فَالسُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لَا وَلِيَّ لَهُ»[1]، وَكَذَلِكَ: «إِنَّ الله يَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالقُرْآنِ»[2]، وتأتي (السُّلطان) بمعنى الحُجة وهو كثير، وتأتي بمعنى القُدْرَة مثل قوْله تَعالَى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣]، أي بقدرة وليس لكم قدرة، وكلها يجمعها هَذا المعنى السُّلطة الَّتِي بها السَّيطرة والغَلَبَةُ.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾؛ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَكَلُّمَ دلَالَةٍ]؛ فهو يتكلم بلسان الحال وليس بلسان المقال، هَذا ما قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولكنه يحتمل أن تبقى عَلَى ظاهرها لأَنَّ الَّذي يَنزل من عند الله كلامُ الله، وكلامُ الله تَعالَى يصح أن ينسب الكلام إِلَيْهِ كما في قوْله تَعالَى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية:٢٩]، وكما في قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النّمل:٧٦].

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب النكاح، باب النكاح، باب في الولي، رقم (٢٠٨٣)، والترمذي: أبواب النكاح، رقم (١١٠٢)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، رقم (١٨٧٩).

(٢) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة من قول عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (٢/ ٩٨٨).

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾: (الباء) هنا للاختصاصِ أيضًا، أي يتكلم بِهَذا الشَّيء ويقول إنَّه حق.

والجوابُ: لا، إِذَنْ فليس عندهم حُجَّةٌ لا عقلية ولا فطرية، أمَّا العقلية فقد سبق أنَّ فطرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلها الإِخْلاص لله، وأما الشَّرعية فإِنَّهُ لم يأتِ في كتابٍ من الكتب المُنَزَّلة أن الشِّرك حق، فجميعُ الكتب المنزلة وجميع الرُّسل المرسلين كلهم يقُولونَ: اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره، وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أن الله تَعالَى قد يجعلُ النِّعم سببًا للكُفر ويكونُ كفرهم عَلَى هَذا النَّحو؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾؛ لأننا ذكرنا أن اللام هنا للعاقبة.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: إثْبَات الأسبابُ إذا جعلنا (الباء) في قوْله تعالَى: ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ سببية، أمَّا إن جعلناها للاختصاص فليس فيها دليل.

الفائِدَةُ الثَّالثَةُ: أن ما أصابنا من نِعَمٍ فإِنَّهُ من الله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾.

الفائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تهديدُ الكَافِرينَ، وأنَّ انبساطَهم بنِعَمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ضررٌ عليهم لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: بلاغةُ القرآن، وَذَلِكَ بالانتقال من الغَيْبَةِ إِلَى الخِطاب الَّذي يسمى في اصطلاح البلاغيين التِفاتًا.

الفائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثْبَات الجزاء؛ نأخذه مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

الفائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ أولئك المُشْرِكِينَ لَيْسَ لهم حجةٌ عَلَى شِركهم؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾.

الفائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ مَنْ صنع شيئًا بدليلٍ فلا لوم علَيْه؛ يُؤخذ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾، يعني لو كان لهم سلطانٌ لا نلومهم ولا نعذبهم.

الفائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ المجتهدَ المتأوِّلَ لا إِثْمَ علَيْه لاعتماده في اجتهادِه عَلَى دليلٍ، يعني أنَّه استند إِلَى دليل، وَلهَذا لم يُضمِّن النَّبيُّ ﷺ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ الرَّجلَ الَّذي قتلَه بعد أن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله[1]؛ لأَنَّهُ مُتَأَوِّلٌ، ولم يُلزِم عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ بقضاءِ الصَّلاة حين تيممَ عن الجنابة بالتَّقلب عَلَى الأَرْض والتَّمرُّغ فيها[2]؛لأَنَّهُ مُتَأَوِّلٌ، ولم يُلزمِ المرأةَ المُستحاضةَ بقضاءِ الصَّلاة وهي تتركها وقت الاستحاضة[3]؛ لأَنَّهَا مُتَأَوِّلَةٌ.

وعلى هَذا فكل مُتَأَوِّلٍ يظن أَنَّه عَلَى صواب فإِنَّهُ لا إثمَ علَيْه، لكن هل هَذا يشمل الأصولَ والفروعَ أو هو خاصٌّ بفروعِ الدِّين؟

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ: إنَّه يشمـلُ الأصولَ والفروعَ[4]، وأنكرَ شيخُ الإسْلام وتلميذُه ابنُ القَيِّمِ أنْ يكُونَ الدِّين منقسِمًا إِلَى أصول وفروع، وقال: إن هَذا التَّقسيمَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة، رقم (٤٢٦٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله، رقم (٩٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب التيمم ضربة، رقم (٣٤٧)، ومسلم: باب التيمم، رقم (٣٦٨).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب من قال إذا أقبلت الحيضة تدع الصلاة، رقم (٢٨٧)، والترمذي: أبواب الطهارة، باب في المستحاضة أنها تجمع بين الصلاتين بغسل واحد، رقم (١٢٨)، وابن ماجه: كتاب الطهارة، باب ما جاء في المستحاضة التي قد عدت أيام أقرائها، قبل أن يستمر بها الدم، رقم (٦٢٢).

(٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٢٥).

لا أصلَ له لا في الكتابِ ولا في السُّنة، فهذه الصَّلاة عند المقسمين من قسمِ الفروعِ وهي من آصلِ الأصولِ، هي الرُّكن الثَّاني من أركان الإسْلام، ومع ذَلِك هي عندهم من قسم الفروعِ، وأشياء يَخْتَلِفُونَ فيها وهي عِنْدَهُم من قسمِ الأصولِ، ويرونَ أنَّ للاختلافَ فيها مُساغًا كاختلافِهِم في رؤيةِ النَّبيِّ ﷺ ربَّه، واختلافهم في نَعِيمِ القبرِ وعذاب القبر في بعض الصُّور، وما أشبهَ ذَلِك مما هو من العقائد، ومع ذَلِك يرون أنَّ الاخْتِلافَ فيه سائغٌ.

فالشَّاهِدُ أنَّ المدارَ كلَّه عَلَى قاعدةٍ من قواعدِ الشَّرعِ، وَهِيَ قَوْله تَعالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، فمَنِ اجتهدَ في طلبِ الحقِّ وتحرَّاه ولكنه لم يوفقْ له مع حُسْنِ النِّيةِ وصحةِ المَسْلَكِ فلا يمكن أنْ نقولَ: هَذا آثم، مثلًا يوجد عُلَمَاءُ أجِلَّاء نشهدُ لهم بالدِّينِ والصَّلاحِ وحُبِّ الإسْلامِ والانتصار للإسلام، ومع ذَلِك هم مخالِفونَ للسلفِ في العقيدةِ، ونحبهم ولا نؤثمهم كابنِ حَجَرٍ، وابن الجَوْزِيِّ، وَكَذلِكَ النَّوَوِيُّ، وطوائف من العلَماء معروفينَ بالصَّلاحِ والإصلاحِ وحب الخيرِ، ونعلم أنهم مجتهدونَ، نَعَم الإنسانُ الَّذي تبيَّن له الحق ولكنه عانَد وأصرَّ فيُعامَل بما يقتضيهِ عنادُه وإصرارُه.

وهنا قوْله تَعالَى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَنًا﴾ هِيَ فِي مَسْأَلَة أُصُولِيَّة فِي الشِّرك، لو كَانَ لَهُم حُجَّةٌ يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهَا مَا استحقوا العذابَ ولا اللومَ ولكنْ لَيْسَ لَهُم حُجَّةٌ.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أنَّه لا بُدَّ أنْ يكُونَ السُّلطانُ أو الحُجة الَّتِي يحتجونَ بِهَا واضحةً؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾، والتّعبيرُ بالكلامِ هُوَ أوضحُ مَا يَكُونُ مِنَ الإظهارِ.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عَشْرَةَ: ظهورُ عدلِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإلَّا لكانَ عَزَّ وَجَلَّ يعذبُهم بدون أنْ يقيمَ عَلَيْهِمُ الحُجةَ، ولكنْ لإظهارِ عَدْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صارَ يطالبُ بحُجةِ هَؤُلاءِ مَعَ العِلْم بِأَنَّهُ لا حُجَّةَ لَهُم، ومن هَذَا النَّوع المَوازينُ يَوْمَ القِيامَةِ، والكُتُبُ يَوْمَ القِيامَةِ، فكل هَذَا لإظهارِ عدلِ الله، وإلَّا فإن الله تَعالَى له الحُكْمُ وَإلَيْهِ المُنتهى، قادرٌ عَلَى أنَّ يعذب بدونِ ميزانٍ وبدون كتابٍ، ولَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لكمالِ عدلهِ يُعطَى الإنسانُ كتابَه ويُقال له: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤]، قَالَ بعضُ السَّلفِ: «لَقَدْ أَنْصَفَكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبًا عَلَى نَفْسِكَ»[(١)]، لو كَانَ بينك وبينَ أحدٍ معاملةٌ من حسابٍ وصادرٍ ووارِدٍ، فقلتَ له: خُذِ الدَّفتر أنْتَ وحاسبْ، فلا شك أن هذا عدلٌ، بخلاف مَا لو أجملتَ الحساب وقلتَ: عليكَ كذا ولكَ كذا، وقد يَكُون فِي هَذَا شبهةٌ، لكن كونه يعطيكَ الدَّفتر ويقول: (أَنْتَ حَاسِبْ نَفْسَكَ)، فَهَذا غايةُ الإنصافِ.

• • ۞ • •

---

(١) إيجاز البيان عن معاني القرآن لأبي القاسم النيسابوري (٢/ ٤٩٧).

الآيـة (٣٦)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم:٣٦].

• ● ● •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ كُفَّار مكَّة وغيرَهم].

هَذَا أحسنُ حيثُ جعلها عامةً، وأفادنا المُفَسِّر بقوله: [كُفَّار مَكَّة وغيرهم] أنَّ المرادَ بالنَّاسِ هُنَا الكفَّار، فيكونُ من بابِ العامِّ المستعملِ فِي الخاصِّ، والعامُّ المرادُ به الخصوصُ غيرُ العامِّ المخصوصِ، وفي أصولِ الفقهِ أنَّ العامَّ المخصوصَ غير العامِّ الَّذي أُريدَ بِهِ الخصوصُ، فالعامُّ الَّذي أُريدَ بِهِ الخصوصُ لم يُرِدْ معنى العُمُوم فِيهِ من أولِ الأمرِ، وَإِنَّما أُريدَ بِهِ المَعْنَى الخَاص فقَطْ، كقَوْله تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ [آل عمران:١٧٣]، لم يُرِدْ بِهِ عُمُوم النَّاسِ من الأولِ، وأما العام الَّذي دخله التّخصيصُ يعني العامَّ المخصوصَ فهُوَ أُريدَ بِهِ العُمُومُ، وَهُوَ تناولُه لجميعِ الأفرادِ ثمَّ أُخرج بعضُ أفرادِه من هَذَا الحُكم، فيكونُ عامًّا مخصوصًا.

وَعَلَى هَذَا فلا يمكنُ أنْ يستدلَّ مستدِلٌ بالعامِّ المرادِ بِهِ الخصوصُ عَلَى عُمُوم الحُكمِ؛ لأنَّهُ لم يُرَدْ بِهِ العُمُومُ، بخلافِ الثَّاني: العام المخصوص، فإِنَّهُ يمكنُ أنْ يُستدلَّ بِهِ عَلَى عُمُومِ الحكمِ، ويقولُ لمَنْ أخرجَ شيئًا مِنْ أفرادِه: هاتِ الدَّليلَ عَلَى التّخصيصِ؟

إذَن: المُرادُ بالنَّاس فِي قولِه: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَا﴾ عامٌّ أُرِيدَ بِهِ الخصوصُ، يعني الكفَّارَ؛ لأَنَّ هَذَا الوصفَ لا ينطبقُ إلا عَلَيْهِم، أَمَّا المُؤْمِن فإِنَّهُ إِذا قَضَى الله له قضاءً لم يكنْ بِهَذا الوصفِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وغيرَهم] بالنَّصب؛ لأَنَّ [كفارَ] بالنّصب.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿رَحۡمَةٗ﴾ نِعْمَةً ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾ فَرَحَ بَطَرٍ ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾ شِدَّةٌ ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ يَيْأَسُونَ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَمِنْ شَأْنِ المُؤْمِنِ أَنْ يَشْكُرَ عِنْدَ النِّعْمَةِ وَيَرْجُو رَبَّهُ عِنْدَ الشِّدَّةِ].

قوْله تَعالَى: ﴿رَحۡمَةٗ﴾ تشملُ جميعَ النِّعم من مالٍ وأولادٍ وأمنٍ ورخاءٍ فِي العيشِ وغيرِ ذَلِك، فكلُّ مَا يَنْعَمُ بِهِ الإنسانُ فإِنَّهُ داخِلٌ فِي ذَلِك؛ وَلِهَذا قَالَ [نِعْمَةً].

وقوْله تَعالَى: ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾ قيَّدها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [فَرَحَ بَطَرٍ]، احترازًا من الفرحِ بنعمةِ الله فَرَحَ شُكْرٍ، فإن هَذَا لا يُذم كما قَالَ الله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس:٥٨]، فأمرَ الله تَعالَى أنْ نفرحَ بفضلِ الله ورحمتِه، وَعَلَى هَذَا فالفرحُ نوعان، فرحُ بطرٍ يؤدي إِلَى الأَشَرِ والاستكبارِ عنِ الحقِّ والتّعالي عَلَى الخَلْقِ، فَهَذَا هُوَ المذمومُ.

والثَّاني فرحُ شُكرٍ يَكُونُ الإنسانُ فَرِحًا بنعمةِ الله، لكنَّ هَذَا الفرحَ يحملهُ عَلَى شكرِ النِّعمةِ، فَهَذَا لَيْسَ بمذمومٍ، وَهُوَ من طبيعةِ الإنسانِ، فإِنَّ الإنسانَ إِذَا رُزِقَ ولدًا فَرِحَ، وَإِذَا رُزِقَ مالًا فَرِحَ، وَإِذَا كَانَ طالِبَ علمٍ فتوصَّلَ إِلَى مَسْأَلَةٍ من مسائلِ العِلْمِ فَرِحَ، فَهُوَ من الأمورِ الطّبيعيةِ، لكنْ إنْ أبدلَ فرحَه إِلَى الأَشَرِ فإِنَّهُ محرمٌ ومذمومٌ وإلا فلا.

وقوْله تَعالَى: ﴿سَيِّئَةٌ﴾ المرادُ بالسّيئةِ هُنَا مَا يَسُوؤُهُمْ، وَهُوَ ضدُّ الرَّحمةِ مثل فقرٍ وجَدْبٍ وخوفٍ وفقدانِ مالٍ وما أشبَه ذَلِك، وسُميت سيئةً لأنَّهَا تَسوؤهم.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: (البَاءُ) للسببيةِ أي بِسَبب، و(مَا) موصولةٌ، أي بالَّذي، وَعَلَى هَذَا فالعائدُ محذوفٌ والتّقديرُ بما قدمَتْه أيديهم إِذَا هم يَقْنَطُونَ، ولاحظْ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أطلقَ الرّحمةَ، ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾، أمَّا السّيئةُ فقيَّدها بقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وَذَلِكَ لأَنَّ السّيئاتِ سببُها أعمالُ العبادِ، كما قَالَ تَعالَى فِي الآيَة التّالية إنْ شاء الله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، وَلِهَذا قَالَ هنا: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ المرادُ بما قدَّموا، فعبَّرَ بالأيدي عن النَّفْسِ؛ لأَنَّ غالِبَ الأعمالِ بها، وَهَذا كثيرٌ فِي القرآن أنَّ الله تَعالَى يُضيفُ الشّيءَ إِلَى الأيدي، والمرادُ بِهَا نفسُ العاملِ بل إِنَّ الله أضافَ الأيدي إِلَى نفسِه، والمرادُ بِهَا نفسُه مثل قوْله تعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس:٧١]، فإِنَّ قوْلَه تَعالَى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ لَيْسَ كقوْلِه تَعالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥]، والفرقُ أنَّ المرادَ بقوْله تَعالَى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾، أي: مما عَمِلناه، وأما قوْله تَعالَى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾، فأضافَ الخَلْقَ إِلَى نفسِه مُعدى إِلَى اليدِ بـ(الباءِ) فصارتِ اليدُ حصلَ بِهَا الفعلُ، وأما الخلقُ فأضافَهُ إِلَى نفسِه المقدسةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعدَّاه إِلَى اليدِ بـ(الباء) وَلِهَذا يغلطُ مَنْ جعَلَ قوْله تَعالَى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ مثل قوْله تَعالَى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾.

إِذَنْ: قوْله تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بما كَسَبَتْ، وعبَّرَ بالأيدي عن النَّفسِ لأنَّهَا آلةُ الفِعْلِ غالبًا.

وقوْله تعالَى: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ إِذَا فُجائيةٌ واقعةٌ فِي جواب الشّرط وَهُوَ قوْله تَعالَى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾، وقوْله تَعالَى: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أتى بالجملةِ الاسميةِ للدَّلالةِ عَلَى أنهم اتصفُوا بِذَلِكَ عَلَى سبيلِ الدَّوامِ فهمْ دائِمًا فِي قنوطٍ مَا دامتِ السّيئةُ فيهم، والقنوطُ، يقولُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَيْأَسُونَ] ولكِنَّهُ تفسيرٌ فِيهِ شيءٌ من القصورِ؛ لأَنَّ القنوطَ لَيْسَ اليأسَ بل هُوَ أشدُّ اليأسِ لأَنَّ اليأسَ إِذَا كَانَ فِيهِ شيءٌ من الرَّجاء لا يُسمى قنوطًا وإن سميَّ يأسًا لكن إِذَا بلغَ اليأسُ غايتَه سُمِيَّ قنوطًا، وقد قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن إبراهيمَ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]، الجاهلونَ بما لله عَزَّوَجَلَّ من الحكمةِ فيما يَجري عَلَى عبادهِ من الضَّراءِ والسّراءِ، يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَمِنْ شَأْنِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَشْكُرَ عِنْدَ النِّعْمَةِ وَيَرْجُو رَبَّهُ عِنْدَ الشِّدَّةِ]، وَعَلَى هَذَا فتكونُ الآيَةُ فِي الكفارِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ الرّحمةَ من الله تَفضُّلٌ منهُ وامتنانٌ، أمَّا كَوْنُها مِنْهُ فلقوْلِه تَعالَى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا﴾، وأما كَوْنُها تَفضُّلًا فلأنه لم يذكرْ لها سببًا، فكانتْ تَفضُّلًا وامتنانًا.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: ذَمُّ الفرَحِ إِذَا كَانَ عَلَى سبيلِ الأَشَرِ والبَطَرِ، قد نقولُ من أين يُؤْخذُ من الآيَةِ تقييدُ الفرحِ بالأَشَرِ والبَطَرِ؟

والجوابُ: مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾، يمكنُ أنْ يُؤخذَ الفرحُ المذمومُ من الصِّفةِ الَّتِي بعده.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّ السَّيِّئَةَ لا تُضافُ إِلَى الله لأنَّهُ قَالَ: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ﴾ ولَمْ يَقُل وإنْ أَصَبْنَاهُمْ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ تَعالَى فِي سورةِ النِّساءِ: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النّساء:٧٨]، فما هُوَ الجَمْعُ وقد قلنا إنَّ السَّيِّئَةَ لا تُضافُ إِلَى الله؟

قُلْنَا: إيقاعُها لَيْسَ بسيئةٍ، هِيَ سيئةٌ لكنْ إيجادُها لَيْسَ سيئةً، بل هُوَ لحكمةٍ فالشَّيءُ بنفسِه قد يَكُونُ سوءًا لكنْ بالنِّسبةِ لفعلِ الفاعلِ لا يَكُونُ فعلُ الفاعلِ سوءًا، هَذَا رجلٌ مَرِضَ ابنُه واحتاجَ الابنُ إِلَى كَيٍّ فأَحْمى الحديدةَ فِي النَّارِ وكَوَاهُ فَصرخَ الابنُ أَلَمًا.

إِذَنْ: هَذِهِ سيئةٌ لكنْ كَيُّ وَالدِهِ إياهُ حَسَنَة، فحينئذٍ يجبُ أنْ نعرفَ الفرقَ بين الفعلِ والمفعولِ، فالسّوءُ والشّرُّ إنما هُوَ بالنِّسبةِ لمفعولِ الله له ذاتٌ منفصلةٌ عن الله، وأما بالنّسبةِ للفعلِ الَّذي هُوَ فِعْلُ نفسِه، فإِنَّهُ لا يمكنُ أنْ يكُونَ شرًّا أبدًا، بل هُوَ خيرٌ ويمكنُ أنْ نقولَ إنَّ الخيرَ نوعانِ: خيرٌ لذاتِه، وخيرٌ لغيرِه، فما كَانَ شرًّا فِي نفسِه وقَدَّره الله فَهُوَ خيرٌ لغيره، وما كَانَ خيرًا فِي نفسِه فَهُوَ خيرٌ.

إِذَنْ: لنا عن هَذَا جوابانِ:

الجوابُ الأولُ: أنْ يُقالَ إنَّ الشَّرَّ لَيْسَ فِي فعلِ الله بل هُوَ فِي مفعولِه، أَمَّا إيجادُ الله له فَهُوَ خيرٌ لما يتضمنُه من الحكمةِ البالغةِ، هَذَا واحدٌ، ونَظِيرُهُ كَيُّ الإنسانِ ابْنَهُ لِيَشْفَى مِنَ المَرَضِ؛ فالكَيُّ فِي ذاتِهِ شَرٌّ، لَكِنْ بالنِّسبةِ لِفِعْلِ الأَبِ لَهُ خَيْرٌ، هَذَا وَجْهٌ.

الجوابُ الثاني: أنْ يُقالَ إنَّ الخيرَ نوعانِ: خَيْرٌ لذاتِه وخيرٌ لغيرِه، فما كَانَ خيرًا مَحْضًا فَهُوَ خيرٌ لذاتِه كالمطرِ والنّباتِ والرّزقِ والأمنِ وما أشبهَ ذَلِكَ وما كَانَ شرًّا

بذاتِه فَهُوَ خيرٌ لغيرِه إِذَا كَانَ الشَّرُّ خيرًا لغيرِه صارَ بِهذا خيرًا، فالجَدْبُ والقَحْطُ والخَوْفُ وما أشبه ذَلِكَ خيرٌ لأَنَّهُ يؤدي إِلَى خيرٍ كما قالَ الله تَعالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ لماذا؟ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الرّوم:٤١].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا وَرَدَ من إضافةِ الإضلالِ إِلَى الله فِي مثلِ قوْله تَعالَى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ [الأنعام:١٣٩]، كيف نُجيبُ عليه؟

قُلْنَا: إضافةُ الإضلالِ إِلَيْهِ يعني لِكَمالِ تَصَرُّفِهِ وَلِهَذا قُرِنَ بالهدايةِ لبيانِ كمالِ التَّصرُّفِ، فالمقصودُ بَيانُ كمالِ التَّصرُّفِ وليسَ معناهُ إرادةَ الشَّرِّ المَحْضِ، ثُمَّ إِنَّ إضلالَ الله له فِي الغالبِ كما قَالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصّف:٥]، فيكونُ هَذَا من بابِ العدْلِ فِي حقِّ هَذَا الرَّجلِ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ السُّوءَ لا يَنالُ النَّاسَ إِلَّا بأعمالِهم؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

سؤالٌ: هل هَذَا يشملُ السُّوءَ فِي الأمورِ الدِّينيةِ والأمورِ الدُّنيويةِ أو فِي الأمورِ الدُّنيويةِ فقط؟

والجوابُ: فيهما جميعًا فالجَدْبُ والقَحْطُ بسببِ الأعمالِ السَّيِّئَةِ والمعاصي كَذَلِكَ: فَزَيْغُ القلبِ بسببِ المعاصي ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

إِذَن: المصائبُ الدِّينيةُ والدُّنيويةُ كلُّها بسببِ أعمالِنا نحنُ فلو اسْتَقَمْنا استقامَتْ لنا الأمورُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٢٩]، انظر ﴿فُرْقَانًا﴾.

إِذَن: التَّقوى سببٌ للعلمِ لأَنَّ الفُرْقانَ لا يَكُونُ إِلَّا بعلمٍ يُفَرِّقُ بِهِ الإنسانُ بَيْنَ النَّافعِ والضَّارِّ والحقِّ والباطلِ.

إِذَنْ: نقولُ هَذَا يشملُ أمورَ الدِّينِ وأمورَ الدُّنيا.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: تحريمُ القُنُوطِ من رحمةِ الله؛ لأَنَّ الله ساقَهُ عَلَى سبيلِ الذَّمِّ ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ هَذَا دليلٌ عَلَى تحريمِهِ، ودليلٌ عَلَى تحريمِهِ من النَّظرِ أنَّ القُنُوطَ يستلزمُ عدمَ الرُّجوعِ إِلَى الله تَعالَى لأَنَّهُ إِذَا قَنطَ من رحمةِ الله كَيْفَ يرجو رحمةَ الله؟ فيستحسِرُ وييأسُ -والعياذُ باللهِ- ولا يتعرضُ لما بِهِ الرّجاءِ والأملِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ نُفرِّقُ بَيْنَ البلاءِ والابتلاءِ؟

قُلْنا: البلاءُ بما يُؤْلِمُ هَذَا سوءٌ، والبلاءُ بما يَسُرُّ هَذَا ابتلاءٌ، والمُؤْمِنُ يُبتلى عَلَى قَدْرِ إيمانِه؛ لأَنَّ الابتلاءَ أحيانًا يَكُون بالمصائبِ لَيْسَ من أجلِ العقوبةِ لكن من أجل التَّمْحِيصِ والبيانِ، وَهَذا مَرَّ أنَّه قد يقعُ، قَالَ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد:٣١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة:٢١٤]، وقلنا: إنَّ الابتلاءَ مَعَ استقامةِ الحالِ لَيْسَ المرادُ بِهِ تكفيرَ سيئةٍ حصلتْ بل المرادُ بِهِ رفعُ الدّرجاتِ لأَنَّ الصَّبْرَ لا يَكُونُ إِلَّا عَلَى بلوى، والصَّبْرُ مرتبةٌ عالية لا يُنالُ إِلَّا بمشقةٍ.

الفائدتان السّادسة والسّابعة: إِثْبَاتُ الاخْتِيارِ للبشرِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، فيكونُ فِي ذَلِكَ رَدٌّ لقول الجبريَّةِ الَّذِين يقُولونَ إنَّ الإنسانَ لَيْسَ له اختيارٌ فِي العملِ.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: أنَّ الإنسانَ قد يُعاقبُ عَلَى أعمالِ القلوبِ أو قد يُذم عَلَى أعمال القلوب لأَنَّ القنوطَ من أعمالِ القلوبِ إِذْ إِنَّه أشدُّ اليأسِ ومحلُّه القلبُ.

الآية (٣٧)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم:٣٧].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعلموا]؛ وَعَلَى هَذَا فالرُّؤية علمية ويؤيد تفسيرَ المُفَسِّر أنَّها جاءت في آياتٍ أخرى ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا﴾، وَهِيَ فِي سورة الزُّمَر: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الزمر:٥٢].

إِذَنْ: فأحسنُ مَا يُفَسَّرُ بِهِ القرآن هُوَ القرآن، وَهُوَ أعلى أنواع التّفسير، ويمكن أن يقال إنَّ لكل آية معنى فنفسر الرُّؤيةَ هُنَا برؤية البصرِ لا برؤيةِ البصيرةِ الَّتِي هِيَ العِلْم، ونفسرها هناك بالعِلْم كما هُوَ لفظُ الآية ويكونُ البسطُ والتّضييق معلومًا بالقلب مرئيًّا بالعين، فإنَّ الإنسانَ أيضًا يرى توسيع الرِّزقِ بعينه كما يعلمه أيضًا بقلبه.

وأيها أعم، يعلمون أو يرون إِذَا لم يفسر ﴿يَرَوْا﴾ بـ﴿يَعْلَمُوا﴾؟

الجوابُ: العِلْم أعمُّ؛ لأَنَّ العِلْم قد يَكُون بالرُّؤية وقد يَكُون بالسَّماع، قد لا أرى أن الله بسَط الرِّزقَ لعباده وقدَّره لكنني أسمعُ أنَّه فِي البلاد الفلانية فَقْرٌ وفي البلاد الغنية غنى، وما أشبه ذَلِك، فالعِلْمُ أعم وَذَلِكَ لأَنَّ وسائلَ العِلْم متعددة بخلاف الرُّؤية فإن طريقها البصر، العِلْمُ كل الحواسِّ الخمسةِ المعروفة كلها توصل

إِلَيْهِ، فاللمسُ والشَّمُّ والذَّوقُ والرُّؤية والسَّماع كلها تفيد العِلْم، فَهُوَ أعم لأَنَّهُ إِذَا رأى عَلِمَ، لكنَّ العِلْمَ أعم لأَنَّ وسائلَه أكثرُ.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ البسطُ بمعنى التَّوسيعُ، كما قَالَ الله تعالى: ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الروم:٤٨]، يعني يوسعه، وقوْله تَعالَى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ سَبَقَ أنَّ كُلَّ شيء قيده الله بالمشيئة فإِنَّهُ مقرون بالحكمة وليست مشيئة الله تَعالَى مشيئةً مجردةً لأننا نعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ حكيمٌ لا يفعلُ شيئًا ولا يُشَرِّعُ شَيْئًا إِلَّا لحكمةٍ، فكلما مَرَّ عليك شيءٌ مُقيَّدٌ بالمشيئةِ فاعلمْ أَنّه مُقيَّدٌ بالحكمةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [امتحانًا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيِّقُ لِمَنْ يَشَاءُ ابْتِلَاءً]، ففرَّق المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بَيْنَ تضييقِ الرّزق وبين بَسْطِه وجعل البسطَ امتحانًا والتّضييق ابتلاءً، والصّواب أنهما سواءٌ كما قَالَ تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، فكلها ابتلاءٌ، وقال سُليمانُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠]، فالصَّوابُ أنَّ كلَّها ابتلاءٌ، والامتحانُ قريبٌ من معنى الابتلاءِ، لكنَّ الإصَابَةَ ببسطِ الرّزقِ لبسطِ الرّزقِ تقتضي شكرًا، وبتضييقِه تقتضي صبرًا، هَذَا الفرق بَيْنَهُما، والمُؤْمِن يقوم بالوظيفتيْنِ إن أصابَتْهُ سراءَ شكرَ فكانَ خيرًا له، وإن أصابته ضراءَ صَبَرَ فكان خيرًا له، وَهَذا لَيْسَ إِلَّا للمؤمنِ فقط.

وقوْله تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الاسْتِفْهامُ هُنا المُرادُ بِهِ التَّقرير، يعني أنهم يَرَوْنَ أنَّ الأمورَ بيدِ الله عَزَّوَجَلَّ وأنه يبسط الرّزق لمن يشاءُ ويَقْدِرُ، فكيف يقنَطُونَ إِذَا أصابتهم السَّيِّئَةُ وكيف يفرحونَ ويبطرونَ إِذَا أصابتهم الرَّحمةُ؟ بل الواجبُ عَلَيْهِم أن يعلموا أن ذَلِك بحكمةٍ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الواو هُنا حرفُ عطفٍ وَلَيسَتْ أداةَ الاسْتِفْهام،

وأداةُ الاسْتِفْهامِ لها الصّدارة، فإذا لم تسبق الواو بشيء يعطف علَيْه فما هُوَ الجواب؟

نَقُول: إنَّ لعُلَماءِ النّحو فِي مثل هَذَا التّركيب قولَيْن:

القولُ الأول: أن الواو عاطفة عَلَى مُقَدَّرٍ بعد الهمزةِ.

القولُ الثّاني: أنَّ الواو عاطفة عَلَى مَا سبق، وَعَلَى هَذَا فتكون الهمزةُ مقدمة قبل العاطف وذكرنا أن هَذَا الرّأي أولى لأَنَّ الأول وإن كَانَ جيدًا من حيْثُ الأسلوبُ لكِنَّهُ فِي بعض الأحيان يصعُبُ عَلَى الإنسان أن يقدِّرَ شَيْئًا يرى أنَّه مناسبٌ للسياقِ.

وعليه فيكونُ القولُ بأن الهمزةَ للاسْتِفْهام وأن الواو مُقَدَّرَةٌ قبلها يعني وَأَلَمْ يَرَوْا أَسْهَل.

قوْله تَعالَى: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ لا شك أن بَسْطَ الرِّزْقِ وتضييقهِ ابتلاءٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَذَلِكَ لأَنَّ العبدَ أحيانًا يناسبه أنْ يُبْسَطَ له الرِّزْقُ وأحيانًا بالعكس حسب مَا تقتضيه الحكمةُ.

قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي فِي بسطِ الرّزقِ وتضييقِه ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿لَآيَٰتٍ﴾ الّذي نصبَها ﴿إِنَّ﴾ فهي اسمُها مُؤَخَّرًا و﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ خبرُها مُقَدَّمًا.

وقوْله تَعالَى: ﴿لَآيَٰتٍ﴾ أي لَعَلَامَاتٍ دالةٍ عَلَى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له التّصرفُ المطلقُ فِي عباده، وأظنُّنا نرى أحيانًا مِن بعض النَّاس أنَّه يسعى بقدر مَا يستطيع فِي أسبابِ الرّزق ومع ذَلِك لا ينتجُ، تجدُه يبيع ويشتري ويسافر يضرب فِي الأرْض يبتغي من فضلِ الله ومع هَذَا لَيْسَ كثيرَ المالِ، مُضَيَّقٌ علَيْه، وتجد بعض النَّاس يسعى سعيًا بسيطًا ولكن الله تَعالَى يبارك له فِي سعيه حتى يَكُون عنده رزق كثير مما يدل

عَلَى أن الأمور لا تُنال بالكسب، فالكَسْبُ سَبَبٌ لكن فوق ذَلِك إرادةُ الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَالِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم هم الَّذِين ينتفعون بهذه الرّؤية وَهَذا التّفكر، أمَّا غير المُؤْمِن فإِنَّهُ لا ينتفع بِهَذا؛ ولذلك تجد هَـؤُلاءِ الَّذِين لا يؤمنون إِذَا حصلت مثل هَذِهِ الأمور يَنْسُبُونَهَا إِلَى الطّبيعةِ، إِذَا كثر المطر قالوا: هَذَا بسببِ كذا، وَإِذَا قَلَّ قالوا هَذَا بسبب كذا، ونحن لا ننكر أن الأمورَ لها أسبابٌ، ولكننا ننكر أن تكون الأسباب هِيَ الفاعلة، فإن الفاعلَ هُوَ الله عَزَّوَجَلَّ وما الأسبابُ إِلَّا وسائلُ يُستدلُّ بِهَا عَلَى حكمةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأنه حكيمٌ حيثُ ربط المسببات بأسبابها.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: تقريرُ مَا يحدث فِي الكون من بَسْطِ الرّزقِ وتضييقِه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ لأَنَّ الاسْتِفْهامَ للتقريرِ كما سبق.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أنَّ سَعَةَ الرّزقِ وتضييق الرّزقِ كله بيد الله عَزَّوَجَلَّ.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: إِثْبَات المشيئةِ؛ لقوْلِه تعالَى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾.

الفائِدَةُ الرّابعَةُ: أَنّه لا ينتفعُ بالآيات إِلَّا المُؤْمِنُونَ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَالِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الآية (٣٨)

• ● ⁂ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الرّوم:٣٨].

• ● ⁂ ● •

قوْله تَعالَى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ إِلَى آخره (آتِ) بمعنى أَعْطِ لأنَّهَا من الرُّباعي، لو كانت من الثُّلاثي لكانت بمعنى جِئْ، لكنها من الرّباعي الَّذي بمعنى أَعْطَى.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَـَٔاتِ﴾ الخطابُ مفردٌ، فهل هُوَ للرسول ﷺ شخصيًا أو لكل مَنْ يتوجَّهُ إِلَيْهِ الخطابُ؟ للعُلَمَـاء فِي هَذَا رأيانِ، إِلَّا مَا دل الدّليلُ عَلَى أَنَّه خاصٌّ بالرَّسول ﷺ فَهَذَا يختص بِهِ مثل قوْله تَعالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، هَذَا خاصٌّ بالرَّسول ﷺ، وقوْله تَعالَى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٨]، (وجدك) أي الرَّسول لكِنَّهُ أغنى بك جميعَ من انتفع بهذا، ومثل قوْله تَعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧].

وقوْله تَعالَى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي صاحِبَ القرابةِ، وَلِهَذا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القرابة]، فالقُرْبى بمعنى القرابةِ ﴿حَقَّهُۥ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنَ البرِّ والصِّلَةِ]، وأَحَقُّ النَّاسِ بِذَلِكَ الأمُّ والأَبُ وإِنْ عَلَوَا، وصلتُها تُسمى بِرًّا؛ لأَنَّهُ يجب أن تكونَ أعلى من صلة غيرهما، و(البِرُّ) كثرةُ الخير، وصلة غيرهما تسمى صلة؛ لأَنَّ المقصود

الوصل فقط بخلاف الأب والأم، فـ﴿حَقَّهُۥ﴾ هُنا مُجْمَلٌ ولَكِنَّهُ مُبَيَّنٌ بنصوصٍ أُخْرَى من القرآنِ، والسُّنةِ وَهُوَ أَنَّ حقَّ الأبوين البرُّ، وحقَّ غيرِهما الصِّلةُ فيمكنُ أَنْ يكُونَ قولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من البر والصّلةِ عَلَى سبيلِ التّوزيعِ من البر بالأبوين والصّلة بغيرهما من ذوي الأرحامِ.

وقوْله تعالَى: ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يَعُمُّ كلَّ قريبٍ ولو كَانَ كافرًا لأَنَّ العِلَّةَ القرابةُ ليست الإسْلامَ، لو قَالَ آتِ المُؤْمِنَ حقَّه قلنا العلةُ الإيمانُ فيختصُّ الحكمُ به.

قوْله تعالَى: ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ المِسْكِينُ هُوَ الفقيرُ وهنا أُطْلِقَ المِسْكِينُ والمُرَادُ بِهِ الفَقِيرُ والمِسْكِينُ فِي آيةِ الصَّدقةِ، وقد مر أَنَّ المِسْكِينَ إِذَا أُطْلِقَ يشملُ الفَقِيرَ، والفَقِيرَ إِذَا أُطْلِقَ يشملُ المِسْكِينَ، وَإِذَا قُرِنا جَمِيعًا افترقَا، المِسْكِينُ له حقٌّ، مَا حقُّه؟ حقُّه دَفْعُ حاجتِه لأَنَّهُ فقيرٌ، قَالَ أهل العِلْم: وإطعامُ الجائعِ وكِسْوَةُ العَاري فَرْضُ كفايةٍ إِذَا قَامَ بِهَا مَنْ يكفي سقطَ عَنِ الباقِينَ.

قوْله تعالَى: ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُسَافِرُ مِنَ الصَّدَقَةِ وَأُمَّةُ النَّبِيِّ ﷺ تبعٌ لَهُ فِي ذَلِكَ]، وسُمِّيَ ابن سَبِيلٍ لِمُلازمتِه لَهُ، والسّبيلُ الطّريقُ، وكل مَنْ لازمَ شَيْئًا يُسمى ابنًا لَهُ، قَالُوا كما يُقَال ابن الماءِ لطيره، طَيْرُ الماء يُسَمَّى ابنَ الماءِ، ويُقَال للرجل الَّذي يُكْثِرُ السَّفر فِي الليل ابن الليالي وما أشبهَ ذلك، فالابنُ لكل مَنْ لازمَ الشّيء، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من الصّدقة]، هَذَا تفسير لحق المِسْكِين وابن السّبيل، وقيل المُرَادُ بابن السّبيل الضّيفُ لأَنَّهُ عابرُ سبيلٍ، ولكن الصّحيح أَنَّه المسافر ويشمل الضّيف لأَنَّ الضّيف مسافر.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وأمة النَّبيِّ ﷺ تبعٌ لَهُ فِي ذلك] أفادنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الجملة أَنَّ الخطابَ فِي قوْله تعالَى: ﴿فَـَٔاتِ﴾ موجَّهٌ للرسول ﷺ شخصيًا والأمة

تَبعٌ لَهُ، وقد سبق أن وجه ذَلِك أن الرَّسول ﷺ هُوَ زعيمُ أمته فَوُجِّه الخطاب إِلَيْهِ وإن كَانَ شاملًا أو أَنَّه خاصٌّ بِهِ وتكون أمته تبع لَهُ عَلَى سبيل التَّأَسِّي به.

قوْله تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المُشارُ إِلَيْهِ إيتاء ذي القربى حقه والمِسْكِين وابن السَّبيل.

قوْله تَعالَى: ﴿خَيْرٌ﴾ كلمة خير هُنَا هل يراد بِهَا التَّفضيلُ أو أَنَّها اسم وليست بتفضيل؟ قلنا فيما سبق أن خيرًا وشرًّا تستعملان اسمَيْ تفضيل وتستعملان اسمًا مجردًا عن التَّفضيل كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، هُنَا لَيْسَ المُرادُ بِهَا التَّفضيل كَذَلِكَ هُنَا قَالَ ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ الظَّاهر أَنَّه لا يراد بِهَا التَّفضيل وأن المُراد أن هَذَا خير ضد الشّر، لكِنَّهُ قُيِّدَ بقوْله تَعالَى: ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ وَهَذا دليل عَلَى الإِخْلاص يعني خيرًا للمخلصين الَّذِين يريدون وجه الله، أَمَّا غيرُ المخلص فإِنَّهُ لَيْسَ خيرًا لَهُ لكن هل هُوَ خير للمخلص؟ قَالَ الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النّساء:١١٤]، فجعل الله تَعالَى ذَلِك خيرًا مطلقا ثمَّ قَالَ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النّساء:١١٤]، فجعل هَذَا الشّيء خيرًا مطلقًا لما فِيهِ من النّفع المتعدي ولَكِنَّهُ لا يَكُون خيرًا للفاعل إِلَّا بالنّية؛ بنيةِ الإِخْلاصِ وأظنُّ أن هَذَا ظاهرٌ، لو أَنَّك تصدقْتَ عَلَى شخصٍ بدراهمَ أو بثوب يلبَسُه انتفعَ، أما أنت فقد تنتفعُ وقد تنضرُّ وقد لا تنتفع ولا تنضر، فإن فعلتَ ذَلِك رياءً انضرَرْتَ، وإن فعلته إخلاصًا انتفعتَ وإن فعلته مجرد سجية وطبيعة فإنك لا تنتفع وَلِهَذا قَالَ هُنَا ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ فنقول: لا يَكُون خيرًا إِلَّا للذين يريدون وجه الله هَذَا بالنّسبة للمعطي، أَمَّا بالنّسبة للمُعطى فَهُوَ خير لَهُ حتى لو يعطي كافرٌ شخصًا مالًا

انتفع بِهِ وصار خيرًا لَهُ فلا يَكُون خيرًا للمعطي إِلَّا بالنّية، أمَّا بالنّسبة للمعطى فَهُوَ خيرٌ لَهُ عَلَى كل حَالٍ.

ولم يذكر الله فِي الآيَة هُنَا الخير للمعطي إِلَّا بهذه النّية أمَّا المعطى فلا شك أنَّه خير لَهُ عَلَى كل حَالٍ كما تفسره آياتٌ أُخْرَى، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي ثَوَابُهُ بِمَا يَعْمَلُونَ]، قول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي ثوابه] هَذَا تفسير لَيْسَ بصحيح وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى طريق أهل التّأويل الَّذِين لا يؤمنون بالصّفات الخبرية الَّتِي أخبر بِهَا الله عن نفسهِ كالوجهِ واليدين والقدم وما أشبهها، فتفسير الوجه بالثّواب خطأ وليس عَلَى طريق أهل السّنة والجماعة، بل هُوَ عَلَى طريق أهل البدع المُؤَوِّلِينَ الَّذِين يُسمونَ أنفسهم مُؤَوِّلِينَ وهم فِي الحقيقةِ مُحَرِّفُونَ.

والصّوابُ: أن المُرادَ بِهِ وجهُ الله: وجهُه الَّذي هُوَ صفتُه، وأنَّ فِي الآيَة إشارةً إِلَى أن من فعل مثل هَذِهِ الأمورِ لله فإِنَّهُ سَوْفَ يرى الله عَزَّوَجَلَّ ويلقاهُ كما ثَبَتَ ذَلِك فِي الكتابِ والسّنةِ وإجماعِ السّلفِ أَنَّ المُؤْمنينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ كَمَا يَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ(١)، قَالَ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القِيامَة:٢٢-٢٣]، الأولى ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ بالضَّادِ بمعنى حَسَنَةٍ وَبَهِيَّةٍ، والثّانية بالظّاء لأنَّهَا من النَّظَرِ بالعَيْنِ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: (أولاءِ) مبتدأٌ و(هم) ضميرُ فصلٍ والمفلحونَ خبرُه، المُفْلِحُ هُوَ الَّذي فازَ بالمطلوبِ وَنَجا مِنْ المرهوبِ مَنْ أَفْلَحَ إِذَا فَازَ، والفلاحُ أصلُه البقاءُ، كما قَالَ الشّاعر(٢):

.... وَالمُسْيُ وَالصُّبْحُ لَا فَلَاحَ مَعَه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم (٦٣٣).

(٢) البيت للأضبط بن قريع، البيان والتبيين (٣/ ٢٢٣).

يعني لا بقاءَ، ولَكِنَّهُ صار شاملًا لكل مَا حصلَ بِهِ المطلوبُ ونجا بِهِ من المرهوبِ، وقوْله تَعالَى: ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الجملة اسمية تدُلّ عَلَى أنَّ الفلاحَ لازمٌ له.

وضمير الفصل هل هُوَ اسمٌ أو حرفٌ؟

الصّحيح أنَّه حرفٌ لا محل لَهُ من الإعرابِ ولا يُعرب.

إِذَنْ: مَا الفائدة من ضمير الفصل؟

له ثلاثُ فوائدَ: الأولى الحصر، والثّانية التّوكيد، والثَّالثة الفرق بَيْنَ الصّفة والخبر، مثال ذَلِك إِذَا قُلْتَ: (زَيْدٌ العَاقِلُ)، فـ(زيد) مبتدأ و(العاقل) خبره، لكن يحتمل أن تكون (العاقل) صفة لـ(زيد)، وأن الخبر لم يأتِ بعد، مثل: (زَيْدٌ العَاقِلُ مَحْمُودٌ) مثلًا، لكن إِذَا قُلْتَ: (زيد هُوَ العاقل) تعيّن أن تكون (العاقل) خبرًا، وَلِهَذا قيل له: ضمير فصل؛ لأَنَّهُ يفصل ويميز بَيْنَ التّابع الَّذي هُوَ النّعت وبين الخبر، أمَّا إفادتُه للتوكيد فواضحةٌ، فإن قولك: (زيد هُوَ العاقل) أقوى فِي الدّلالة عَلَى الحصر من قولك: (زيد العاقل)، أمَّا كَونُه لا محل لَهُ من الإعراب فظاهر، فِي القرآن ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشّعراء:٤٠]، لو كَانَ لَهُ محلٌّ من الإعراب لَقَالَ: إن كانوا هم الغالبونَ، ونقول (هم) مبتدأ والغالِبونَ خبرٌ، والجملة خبر (كان)، فدل هَذَا عَلَى أَنَّه لا محل لَهُ من الإعراب، وَهُوَ -عَلَى المشهور عند النّحويين- حرف جِيء بِهِ للفَصلِ، فصورته صورة الضَّمير، لكن معناهُ لَيْسَ معنى الضّمير الَّذي يَكُون اسمًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أن هَؤُلاءِ الأصناف الثّلاثة حقَّ القريبِ والمِسْكِينِ وابنِ السّبيلِ.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: وجوب إيتاء هَؤُلاءِ حقهم؛ تؤخذ من الأمـرِ فِي قوْله تعالَى: ﴿فَـَٔاتِ﴾ والأصلُ فِي الأمرِ الوجوبُ.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّ الأقربَ فالأقربَ أحقُّ؛ تؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

لكن كَيْفَ الأخذ؟

الأخذ: هُـوَ أن لدينا قاعـدة سبق أنْ قَرَّرناها وَهِيَ أن الحكمَ إِذَا عُلِّقَ عَلَى وَصْفٍ فكلما كَانَ أكثر فِي هَذَا الوصف فَهُوَ أحقُّ إِذَا عُلِّقَ الحكمُ عَلَى وصف فكلما كَانَ هَذَا الوصفُ أشدَّ تمكُّنًا فِي شيءٍ فَهُوَ أَحَقُّ به، فمثلاً إِذَا قُلْتَ: (أَدِّبِ العَاصِي)، عُلِّقَ التّأديبُ بالعصيانِ، فيقتضي هذا أن كل من كَانَ أَشَدَّ معصيةً كَانَ أَشَدَّ تأديبًا، وَإِذَا قلنا: (أَكْرِمِ المُؤْمِنَ) صَارَ معنى ذَلِكَ: أنَّ كلَّ من كَانَ أقوى إيمانًا صَارَ أحقَّ بالإكرامِ، قوْله تَعالَى: ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ عُلِّقَ الحقُّ بالقرابةِ، فكلما كَانَ أقربَ كَانَ أحقَّ بالإيتاءِ، وهذهِ القاعدةُ مفيدةٌ لطالبِ العِلْمِ أنّه إِذَا عُلِّقَ الحُكْمُ عَلَى وصفٍ، قَوِيَ ذَلِك الحكم بقوة ذَلِك الوصف؛ نظرًا لأنَّ تعليقَه بالوصف يفيد علِّيته وهذه أيضًا قاعدة ثانية: (أَنَّ تَعلِيقَ الحُكمِ بِالوَصْفِ يُفِيدُ أَنَّ ذَلِكَ الوَصْفَ عِلَّةٌ)، فمثلًا تقول أكرمِ المُؤمِنَ لماذا؟ لإيمانِه، أدِّبِ الفاسقَ لفسقِه ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:٦٤]، معناه لإفسادِهم وهكذا.

فنَقُول: إن تعليقَ الحكمِ بالوصفِ يدلُّ عَلَى عِلِّية ذَلِك الوصف، وأنَّه عِلَّةُ الحُكْمِ، وبناء عَلَى هَذِهِ القاعدةِ تأتي القاعدةُ الأولى أيضًا.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ كل من كَانَ أحقَّ بالإحسَانِ فَهُوَ أولى به؛ لأَنَّ المِسْكِينَ أحقُّ بالإحسَانِ من الغني، وابنَ السّبيل المسافر المنقطع بِهِ سفره أحقُّ من غيره.

الفائدتان الخامسة والسّادسة: أن النَّفْعَ المتعدي خيرٌ فِي نفسه.

وهل هُوَ خير للفاعل؟

نعم، هُوَ خير للفاعل بشرط، فَهُوَ خير فِي نفسه وإن لم ينتفع بِهِ الفاعل.

ويتفرع عَلَى هَذَا أن مَا يبذله الكفَّار من منافع للمسلمين هِيَ خير للمسلمين، لا نقول هَذِهِ صدرت من كافرٍ فليست بخير وليس فيها خيرٌ.

مثلًا لو أن أحدًا من الكفَّار أصلحَ طريقًا من الطّرق، من هَذِهِ الشّركات الكافرة فيكونُ فِي هَذَا الإصلاح خيرٌ لا شك، لكن لَيْسَ خيرا لَهُم إنما هُوَ خير لغيرهم.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: التّنبيهُ عَلَى أهمية الإِخْلاصِ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: أنَّه كلما كَانَ العمل أَخْلَصَ للهِ كَانَ أكثَرَ خيرًا للفاعل نأخذ هَذَا الحكم من القاعدة الَّتِي مرت بأن هَذَا الحكم عُلِّق بعلة ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾؛ لأن اسم الموصول مَعَ صلته كاسم الفاعل تمامًا، فيكون خيرًا للذين يريدون.

إِذَنْ: فكلما كَانَ الإنسانُ أخلصَ فِي إرادة وجه الله كَانَ أكثَرَ خيرًا له.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: إِثْبَات الوجه لله؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ووجه الله عَزَّوَجَلَّ قَالَ أهل العِلْم: أنَّه من الصّفات الخبرية لأَنَّ عِنْدَهُم من الصّفاتِ مَا هِيَ خبريةٌ محضةٌ، فيعبرونَ عنها بالخبرية؛ لئلا يقعوا فِي المحذور فلا يقُولونَ إِنَّها بعضيَّة مثلًا أو جزئيَّة لأَنَّ التبعُّض والتّجزئة فِي ذات الله عَزَّوَجَلَّ محرمٌ إطلاقًا، فالوجهُ واليدُ والعين والسّاق والقدم كل هَذِهِ يُعَبَّرُ عنها بالصّفاتِ الخبريةِ، لكنَّ السّمعَ والعِلْمَ والقُدْرَةَ والحياة تُسمى صفاتٍ معنويةً: صفات معانٍ، والفرقُ بَيْنَ الصّفات المعنوية والخبرية

أن الصّفات المعنوية تدُلُّ عَلَى معانٍ كالسَّمعِ والبصر والعِلْم والقُدْرَة وما أشبهها، وأما الصّفات الخبرية فهي تدُلُّ عَلَى صفاتٍ هِيَ بالنّسبة لنا أبعاض، فَيَدُ الإنسانِ ووجه الإنسان وساق الإنسان وقدم الإنسان وعينُه مثلًا هَـٰذِهِ أبعاض لَهُ ولكن لا نسميها بالنّسبة لله أبعاضًا بل سماها أهل العِلْم الصّفات الخبرية.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: الإشارةُ إِلَى رؤية الله عَزَّوَجَلَّ لقوْلِه تَعالَى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ولا شك أن رؤية الله عَزَّوَجَلَّ ثابتة بالقرآن والسّنة وإجماع السّلف، ففي القرآنِ قَالَ الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، معنى ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ الأولى من النَّضارة وَهِيَ الحُسْنُ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ بالظّاءِ من النّظر وَهُوَ الرّؤية بالعين وهذه الآية من أَصْرَحِ مَا فِي القرآن وتوجد آية أُخْرَى وَهِيَ قوْله تعالَى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣]، وتوجد آية ثالِثة وَهِيَ قوْله تَعالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، فسرها النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأنها النّظر إِلَى وجه الله، وتوجد آية رابعة وَهِيَ قوْله تَعالَى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]، وتوجد آية خامسةٌ وَهِيَ قوله تَعالَى فِي الأنعام: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣]، لأَنَّ هَذِهِ الآيَةَ تدُلُّ عَلَى الرّؤية لأَنَّ الله تَعالَى قَالَ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ ونَفْيُ الإدراك يدل عَلَى ثبوتِ الأصل، ولو كَانَ لا يُرى لقَالَ: (لا تَراهُ الأَبْصارُ)، فنفي الأخصّ يقتضي وجود الأعمِّ؛ وَلِهَذا كانت هَذِهِ الآيَةُ الَّتِي يُستدل بِهَا أهل التّعطيل عَلَى نفي رؤية الله دليلًا عَلَيْهِم لا دليلًا لهم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ورد فِي الحديث أن يَوْمَ القِيامَة يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: من كَانَ يعبدُ الطّواغيتَ فليعبد الطّواغيتَ، ومن كَانَ يعبدُ الشَّمسَ فليعبدِ الشّمسَ فيأتيهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي صورة غير صورته الَّتِي يعرفونها فيقولُ أنا ربكم فيقولونَ نعوذُ

بالله منكَ هَذَا مكانُنا حتى يأتينا ربنا، قَالَ ثمَّ يأتيهِمْ فِي صورتِه الَّتِي يعرفونَ فيقولُ أنا ربُّكم، فيقولونَ أنْتَ ربُّنا، فينطلقُ ثمَّ يتبعونَه[1]، والإشكال هو: مَا معنى قوله: فينطلق ثمَّ يتبعونه؟

فالجوابُ: أن هذه اللفظةَ غيرُ ورادةٍ، فلا أدري معناها، ولا نبحثُ فيها حتى تؤكَّدَ، وَإِنَّمَا ورد أن الأممَ تتبعُ مَنْ كانتْ تعبدُ حتى تُلقى فِي النَّارِ[2].

وفي الحديث: «**فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ للهِ تَعالَى فِي الدُّنْيا**»[3].

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: أنَّ الفلاحَ يَكُونُ بأمرين: بالإِخْلاصِ وفعلِ المأمورِ بِهِ نأخذُها مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وهَؤُلاءِ المُشارُ إليهم أَتَوْا بالفعلِ والثّاني الإِخْلاصُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم (٦٥٧٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢). ولفظ: «فينطلق بهم ويتبعونه» أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، رقم (٤٥٨١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، رقم (٤٩١٩).

الآيــة (٣٩)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم:٣٩].

لَمَّا أمرَ الله تَعالَى بإيتاءِ ذي القربى حقه فِي قوْله تعالَى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ﴾ إِلَى آخره، حذَّر من هَذَا الأمر ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾، والرّبا فِي اللُّغة الزّيادةُ كقوْله تعالَى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج:٥]، أي علت، ومنه الرَّبْوَةُ للمكانِ المرتفعِ، أمَّا فِي الشّرع فالرِّبا المحرَّمُ هُوَ زيادةٌ فِي أَشْيَاءَ أو نَسِيءٌ فِي أَشْيَاءَ، فَهُوَ إمَّا أَشْيَاءُ يزيدُ فِيهَا كما لو باعَ صاعًا من البُرِّ بصاعين مِنْهُ ولو يَدًا بيَدٍ فَهُوَ ربًا: ربَا فَضْلٍ. أو باع دنانيرَ بدراهمَ مَعَ تأخيرِ القبْضِ فَهَذَا رِبَا نَسِيئَةٍ، وكلاهُما مُحَرَّمٌ.

وأما الرّبا هُنَا فِي الآيَة ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ فالمُرَادُ بِهِ الزّيادة فَهُوَ رِبًا لُغَوِيٌّ، هَذَا هُوَ الَّذي علَيْه جمهورُ المفسرين، فقوْله تعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾ أي وما أعطيتُم من ربًا ليربوا فِي أموالِ النَّاسِ فلا يَرْبُو عندَ الله، وقولنا: وما أعطيتُم من ربًا؟ فسره المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: [بِأَنْ يُعْطِيَ شَيْئًا هِبَةً أَوْ هَدِيَّةً لِيَطْلُبَ أَكْثَرَ مِنْهُ]، تُهدِي لشخصٍ لأجلِ أنْ يعطيَك أكثرَ أو تَهبُهُ من أجلِ أن يَرُدَّ عليكَ أكثرَ مما وهبتَ الآن آتيت شَيْئًا ليرد عليك أكثر منه، نقول آتيتَ ربًا.

لَكِنْ إِذَا قَالَ قَائِلٌ: أنا مَا أعطيتُ ربًا أنا أعطيتُ شَيْئًا حصل بِهِ الرِّبا؟

أجاب المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ عن هَذَا: [فَسُمِّيَ بِاسْمِ المَطْلُوبِ مِنَ الزِّيَادَةِ فِي المُعَامَلَةِ]، فيكونُ هَذَا الَّذي أعطى ليُعطى أكثرَ كأنَّه أعطى رِبًا لأَنَّهُ أُعطِيه، هَذَا مَا عليْه أكثر المفسرين.

وَعَلَى هَذَا فيكون الرِّبا هُنَا لُغَوِيًّا، وهنا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [هِبَةً أَوْ هَدِيَّةً] الفرقُ بَيْنَ الهبةِ والهديةِ أن الهبةَ يقصد بِهَا مجردَ الإحسَانِ إِلَى المُعطَى فَقَطْ، والهديةُ يُقصدُ بِهَا التَّوددُ والإكرام؛ وَلِهَذا قَالَ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «تَهَادُوا تَحَابُّوا»[1]، يوجدُ شيءٌ ثالثٌ يُسَمَّى صدقةً يُقْصَدُ بِهِ ثوابُ الآخرةِ فما يُقصدُ بِهِ ثوابُ الآخرةِ فَهُوَ صدقةٌ، وما يُقْصَدُ بِهِ التَّوددُ والإكرامُ فَهُوَ هديةٌ، وما يُقْصَدُ بِهِ نفعُ المعطَى فَهُوَ رِبًا.

قَوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ كأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ حذَّرَ مِنْ أن يؤتي الإنسانُ أحدًا من ذوي القربةِ أو المساكينِ أو ابنِ السّبيلِ لأجلِ أنْ يُعطى أكثرَ.

قَوْله تَعالَى: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي فلا يزيد عند الله عَزَّوَجَلَّ لأَنَّ هَذِهِ الحالة حالُ دُنْيَا نازلةٍ، وَلِهَذا نهى الله عنها رسوله ﷺ فِي قَوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر:٦]، يعني لا تُعطِ لأجلِ أنْ تعطَى أكثرَ، ولما كانتْ هَذِهِ الحالة نازلةً، قَالَ هُنَا ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ المُعطينَ أي يزيدُ]، ﴿فَلَا يَرْبُواْ﴾ يعني فلا يزيدُ، قَالَ المُفَسِّر: [فلا يَزْكُو ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي لا ثَوابَ فِيهِ للمُعطينَ]، وَذَلِكَ لأَنَّهَا حالٌ لا تنبغي فلا يَكُون فِيهَا أجرٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ هَذَا مَا ذكره المفسرون فِي تفسير هَذِهِ الآية وروَوْهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وغيرِه.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٢٠٨، رقم ٥٩٤).

وعندي أَنَّه يحتملُ فِي الآيَة معنًى آخر يَكُون قوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ الرِّبا الشَّرعي، ويخاطب الله عَزَّوَجَلَّ المعطين للرِّبَا يعني أن الرِّبا الَّذي تعطونه غيركم وإن كَانَ يزيد فِي أموالهم فإِنَّهُ لا يَرْبُو عند الله بل إِنَّه عَلَى العكس يحصُلُ بِهِ المَحْقُ والسُّحْتُ للمال الطَّيب، فلا خيرَ فِيهِ ويؤيد ذَلِك قوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ففرَّقَ بَيْنَ المُرابي وبين المُتصدِّقِ، كما أن الله عَزَّوَجَلَّ يقرن بَيْنَهُما فِي بعض الآيات مثل مَا ذكر فِي سورة البقرة ذكر الله الإنفاق وذكر بعده الرِّبا، وَكَذلِكَ أيضًا فِي سورة آل عمران ﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران:١٣٠-١٣٣]، وذكرَ من جملةِ أوصافهم أنهم يُنفِقونَ فِي السَّرَّاءِ والضَّراء، ولكنْ هَذَا الاحتمالُ حتى الآن مَا رأيتُ أحدًا قَالَ بِهِ، وَإِنَّمَا يقُولونَ بالمَعْنَى الأول وَهُوَ أن يُعطي الإنسان شَيْئًا هِبَةً أو هديةً ليُعطَى أكثرَ فإنَّ هَذَا وإن زاد فِي أموال المعطين فليس فِيهِ زيادة عند الله لأنَّهُ خُلُقٌ مذمومٌ.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا تَقُولُونَ فيما لو أهدينا إِلَى شخصٍ معروف بالمكافأة وأنا مَا قصدت فهل يجوز أم لا؟

قُلْنَا: مَا دام أَنَّك مَا قصدتَ فإِنَّهُ لا يضرُّ.

وهل الإهداءُ للأمراء والملوك والوزراء وما أشبههم يدخل فِي هَذَا النَّهي؟

غالِب الَّذِين يُهدون خصوصًا عَلَى الملوك والكبار من الأمراء إنما يريدون الزِّيادة، يريدون أكثر؛ وَلِهَذا إِذَا عُرِفَ الإنسانُ بِأَنَّهُ لا يعطي إِلَّا مثل القيمة أو دونها لا يُعطَى هدايا، فلا يعطى هدايا إِلَّا من عُرِفَ أَنَّه يبذل أكثرَ ويردُّ أكثرَ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾ يعني أعطيتم ﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾: (مِن) حرف جر وَهِيَ بيانية بَيان لـ(ما) فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾، و(ما) هُنَا إعرابها شرطية بدليل قوْله تَعالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ فارتبطت (الفاء) فِي الجواب يعني ومهما آتيتم من زكاة بِهَذا القيد تريدونَ وجهَ الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر: [صَدَقَة]، وفي هَذَا القيد نظر إن قصد بِهَا صدقة التّطوع أمَّا إن قصد بِهَا الصّدقة مطلقًا فنَعَمْ لأَنَّ الصّدقة تُطلق عَلَى الواجب والمستحب والدّليل عَلَى إطلاقها عَلَى الواجب قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة:٦٠]، فَهَذَا للواجبِ والمستحب.

إِذَنْ نَقُول: ﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾ المُراد بِهَا الزّكاة الواجبة.

فبالمَعْنَى الأول كَيْفَ نحوِّلها إِلَى صدقةٍ عَلَى أن المُراد بِهَا التَّطوعُ؟

والصّواب: أن المُراد بالزّكاة هِيَ الزّكاة الواجبة لأَنَّهَا مرادة عند الإطلاق، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣]، المُراد الواجب، إِذَنْ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ أي من صدقة واجبة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الزّكاةُ فُرِضَتْ بالمدينة وهذه السُّورة مكِّية؟

قُلْنَا: هَذِهِ لا تدُلُّ عَلَى الفرض، وَإِنَّمَا تدُلُّ عَلَى الأجر فقط، مَعَ أن الصّحيح أن الزّكاة مفروضةٌ بمكةَ لكن تقديرها وتقدير أَنْصِبَائِها هُوَ الَّذي كَانَ فِي المدينة هَذَا هُوَ الصّحيح.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ يعني تريدونَ بهذه الزّكاة الَّتِي آتيتم، تريدون وجهَ الله، هَذِهِ جملة شرط للثواب والأجر أن يريد الإنسان

وجه الله؛ لأَنَّ مَنْ لا يريدُ وجه الله إمَّا أن يريد وجه غيره أو أن لا يريد شَيْئًا، إِذَا أراد وجهَ غيرِه فليس لَهُ أجر بل علَيْه وِزْرٌ لأَنَّهُ مُراءٍ مشرِكٌ فلا تقبل مِنْهُ، وإن لم يُرِدْ وجه الله ولا غيره لكِنَّهُ أراد إبْراءَ ذِمته فقط كما هُوَ حال غالب من يؤدي الزّكاة بل -الله يعاملنا بعفوه- غالِب من يؤدي حتى الصّلاة، أكثر النَّاس عندما يأتي إِلَى الصّلاة تجده يريد إبراء ذمته لا يشعر بأن هَذِهِ الصّلاة تقربه إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ ويريد القرب بِهَا إِلَى الله هَذا، فغالب النَّاس -إلا من وفق وصار ينتبه عند فعل الطّاعات بإرادة وجه الله وَهُوَ الإِخْلاص واتباع الرَّسول ﷺ- فِي هَذِهِ العبادة لا يُراد وجهُ الله ولا يراد وجه غيره، وَإِنَّما أراد بِهَا إبراء ذمته تنفعه بلا شك وتبرأ بِهَا ذِمتُه وربما يُؤجر لقيامه بركن من أركان الإسْلام، بل يقينًا يُؤجر لكن ربما يُؤجر أيضًا بكونه يشعر أن هَذِهِ مما أوجب الله علَيْه فيؤديه؛ لأَنَّ هَذَا لا شك أَنَّه تَعَبُّدٌ لله يعني فَعَلَه تَعَبُّدًا لكنْ كونُه يريد بِذَلِكَ وجه الله والتّقرب إِلَيْهِ هَذِهِ حالة أعلى من كونِه يريد مجرَّد إبراء ذمته.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قوْله تَعالَى: ﴿تُرِيدُونَ﴾ بِهَا ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ثَوابَهُمْ بِمَا أَرَادُوهُ].

قوْله تَعالَى: ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ المُفَسِّر لم يفسِّرْها هنا، لكِنَّهُ فسرها فِي الآيَة الَّتِي قبلها بأنها ثوابه والصّواب أن المُرادَ بوجه الله ذات وجه الله لا ثوابه وفيه إشارة كما سبق إِلَى رؤية المؤْمنينَ ربهم.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ جوابُ الشَّرط، ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، ﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ خبر (أولئك) ومعنى ﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي الحاصلونَ عَلَى التَّضعيفِ لأَنَّ الفعلَ الثُّلاثي إِذَا دخلت علَيْه الهمزة فقد يراد بِهِ الدُّخول فِي الشّيء مثل قولهم: (أنجد) أي دخل نجدًا فمعنى (أضعف) هُنَا أي صَارَ من ذوي الأضعافِ، والأضعافُ

معناه الزِّيادةُ يعني أولئك هم المضعفون الَّذِين حصلوا عَلَى مضاعفة الأجر والثّواب بخلاف الأولين الَّذِين آتَوُا الرِّبَا ليربوا فِي أموالِ النَّاس، فهَؤُلاءِ لَيْسَ لَهُم زيادةٌ، فالزِّيادةُ للذين آتوا الزَّكاة يريدونَ وجهَ الله، هَؤُلاءِ هم المضعفون أي الدَّاخلونَ فِي المضاعفةِ.

قوْله تَعالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ قول المُفَسِّـر: [﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ثوابهم] يعني الَّذِين ضاعفوه وزادوه بما أرادوه.

ثمَّ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فيهِ التفاتٌ عن الخِطابِ إِلَى الغَيْبَةِ]، والخطاب هُوَ قوله تعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾، هَذَا خطاب، وكان مقتضى السّياق إِذَا كَانَ عَلَى نسق واحد أن يُقَال لَأَنْتُم المضعفون، لكن قَالَ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ وفائدة الالتِفات التّنبيه وفيه تَعْلِيَةٌ للشأن مثل التّعبير بقوْله تعالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾ [غافر:٦٠]، لم يقل وقلت لكم أو أقول لكم، تعظيمًا لشأنه تَعالَى فيكون المُراد بِذَلِكَ تعظيم شأن هَؤُلاءِ الَّذِين أردوا وجه الله عَزَّوَجَلَّ بكونهم حصلوا عَلَى مضاعفة الأجر والثّواب بخلاف الأولين.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أن من بذل مالَه من أجل الحصول عَلَى أمر الدّنيا فإِنَّهُ لا أجْرَ لَهُ فِي ذَلِك تؤخذ مِنْ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وَهَذا عكس الأولين الَّذِين سبقوا فِي الآيَة السّابقة، الَّذِين أعطوا فِي الآيَة السّابقة يريدون وجه الله هَؤُلاءِ بالعكس يريدون الازدياد بما أعطوا.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: التّنبيه عَلَى أهمية الإِخْلاص لقوْلِه تعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ تؤخذ من قوله: ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّ مضاعفةَ الأعمـال تكون بحسب الإِخْلاص لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ فقد رتب الله تَعالَى الأضعاف عَلَى إرادة وجه الله، وَعَلَى مَا قررنا فِي القاعدة قبل قليل يَكُون كل من كَانَ أخلص لله فعمله أكثرُ مضاعفةً، وَهَذا أمر لا شك فِيهِ، فإن مضاعفة الأعمال تكون بأسباب كثيرة منْهَا شرفُ الزَّمانِ، ومنها شرفُ المكانِ ومنها شرف الفاعل، ومنها شرف العمل، ومنها الإِخْلاص، ومنها الاتِّباع، كل هَذِهِ الأسباب السّتة من أسباب المضاعفة.

المضاعفة بسبب شرف الزّمان كرمضان والعشر الأُوَلِ من ذي الحجة هَذَا لشرف الزّمان.

ومنها: المكان كالحرمين والأقصى فإِنَّهُ العمل فِيهَا أشرف من غيرها فالصّلاة فِي المساجد الثّلاثة أشرف من غيرها.

المضاعفة أيضًا بحسبِ العملِ، أي بحسب جِنس العملِ وليس بكثرتها، فالصّلاة أفضل من غيرها، والفرض من كل عمل أفضل من نَفْلِهِ وأشرفُ، والجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله ذُرْوَةُ سَنَامِ الإِسْلَامِ[1]، وهكذا كما يتبين لنا كثيرًا.

ومنها: المضاعفَةُ بحسب الفاعل، كالصّحابة الَّذِين قَالَ فيهم الرَّسول ﷺ: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»[2]، ويلحق بِهَذا العاملون فِي آخر الزّمان فِي أيام الصّبر الَّذِين يتمسكون بسنة الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذًا خليلًا**»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٥٤١).

مَعَ تباعد النَّاس عنها، فإن هَؤُلاءِ يُضاعَف لَهُم الأجرُ وإن كانوا لا ينالون من مرتبة الصّحابة لكن يضاعف أجرهم بسبب مَا يجدونه من الغرابة ومخالَفة النَّاس لَهُم؛ لأَنَّهُ لا أحد يشك أن الإنسان الَّذي يعمل فِي محيط يعملون كما يعمل أن العمل يَكُون علَيْه هيِّن، بل مخالَفة النَّاس هِيَ الصّعبة، فعمل الإنسان فِي محيط لا يعملونه هَذَا هُوَ الصّعب والشّاق لا سِيَّما أن المعارضة ستكون عنيفة لأَنَّ هَذَا متمسك بطاعة الله والمخالَفون لَهُ عَلَى العكس، وأعنف صراع يَكُون بَيْنَ المتخالَفين هُوَ مَا يَكُون بَيْنَ المتمسكين بدين الله والمتحللين منه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا معنى قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**العَامِلُ فِي أَيَّامِ الصَّبْـرِ لَهُ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ**»[1]؟

قُلْنَا: المَعْنَى لَهُ أجر خمسين فِي هَذِهِ الخصلة الَّتِي عانى بِهَا وتعب، فأصل العمل مثلًا الصّدقة مضاعفة بعشر أمثالها، عشر الأمثال موجودة فِي الصّحابة وموجودة فِي هَذَا الزّمن المتأخر لكِنَّهُ يضاعف ذَلِك فيكون أجر هَذَا مثل أجر خمسين من الصّحابة لما يجده من المعاناة، لكن الكمية الَّتِي تحصل للصحابة التّي: لو أنفق أحدنا مثل أُحد ذهبًا مَا بلغ مد أحدهم ولا نصيفه[2]، هَذِهِ خاصة بهم، فعندنا ثواب عَلَى أصل العمل وثواب مضاعف بحسب العامل، فالَّذي فِي أصل العمل كالصّدقة مثلًا يَكُون لهَؤُلاءِ المتأخرين أجر خمسين من عمل الصّحابة باعتبار أصله لا باعتبار أَنَّه وقع من الصّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٤١)، والترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾، رقم (٤٠١٤).

(٢) سبق تخريجه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ألا يردُّ عَلَى هَذَا قولهم: منا أو منهم؟ قَالَ: «بَلْ مِنْكُمْ»؟

فالجوابُ: لا يردُّ عَلَى هَذَا لأننا نعتبر أصل العمل لا المضاعفة بحسب كونه صحابيًا بالنّسبة لأصل العمل، الصّحابي لولا الصّحبة لكان لَهُ أجر أصل العمل فَقَطْ، فبالصّحبة يزداد فيكون معنى قول الرّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أجر خمسين منكم»، يعني: باعتبار أصل العمل ويجب الرّجوع إِلَى هَذَا لأَنَّهُ لا يمكن الجمع بينه وبين هَذَا الحديث إِلَّا عَلَى هَذَا الوجه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لماذا قَالَ فِي الحديث أجر خمسين عاملًا ولم يقل أجر خمسين صحابيًا؟

قُلْنَا: لا نستطيع أن نقول لماذا لم يقل، والمَسْأَلَة الآن مَسْأَلَة جمع ولو كَانَ الأمر واضحًا مَا احتجنا أن نقول مَا وجه الجمع بَيْنَهُما، فما دامت المَسْأَلَة مَسْأَلَة جمع يحتاج أن ننظر أدنى دائرة يمكن أن تجمع بَيْنَ النّصين.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل الصّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتفاضلون؟

فالجوابُ: معلوم أن الصّحابة يتفاضلون، والرّسول ﷺ يخاطب الصّحابة: يخاطب خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ فِي مقابلة سبِّه لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوْفٍ من السّابقين الأولين، وخالد بن الوليد متأخر إسلامه، وكان بَيْنَهُما مَسَابَّةٌ فقال له: **«مَهْلًا يا خَالِدُ، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»**(١).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: وهل لَحِقَ خالدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِهذا الفضل؟

---

(١) سبق تخريجه.

قُلْنَا: بالنّسبة لمن دونه يلحق لا شك لكن بالنّسبة لمن فوقه ظاهر الحديث أنَّه لا يلحق وَلِهَذا قالَ الله تَعالَى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠].

والخامس: بحسب الإِخْلاص كما فِي هَذِهِ الآية فكلما كَانَ الإنسان أخلصَ ولو كَانَ العمل واحدًا كَانَ عملُه أشرفَ من الآخر؛ وَلِهَذا تجد رجلين ركبا سيارة واحدة وخرجا ودخلا جَمِيعًا فِي الحج أو فِي العمرة ورجعا جَمِيعًا عَلَى السّيارة وأفعالُهما واحدة وأقوالُهما واحدة، وبَيْنَهُما تفاوت أكثر مَا بَيْنَ المشرق والمغرب بحسب الإِخْلاص لله.

والسّادس: بحسب الاتِّباع وَلِهَذا أخبر النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أنَّ أَفْضَلَ الأَعْمالِ بَعْدَ الإِيمانِ بِاللهِ الصّلاةُ عَلَى وَقْتِها**»[1]؛ لأنَّها حصلت عَلَى وجه المتابعة للرسول ﷺ.

هَذِهِ الأسباب فِي الشّرف كلها مما يوجب للعبد العناية بأعماله وأن يتحقق بما يستطيع من هَذِهِ الأسباب.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم (٥٢٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم (٨٥).

الآيـة (٤٠)

• • ◌ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الرّوم:٤٠].

• • ◌ • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ ممن أشركتم بالله ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ لا؛ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به].

قوْله تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ يعني أوجدكم من العدم، لكنَّ الخلقَ لَيْسَ مجرد الإيجاد بل هُوَ الإيجاد بتقدير، بل إن بعضهم قَالَ إن الخلق فِي الأصل هُوَ التّقدير واستدلوا لِذَلِكَ بقول الشّاعر:

وَلأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْـ ـضُ النَّاس يَخْلُقُ ثمَّ لا يَفْرِي(١)

معنى: (ما خلقتَ) أي مَا قدرت ولكن الصّحيح أنَّه يطلق عَلَى الإيجاد المسبوق بالتّقدير فمعنى ﴿خَلَقَكُمْ﴾ أوجدكم إيجادًا مسبوقًا بالتّقدير والإحكام والإتقان وَهَذا مُسلَّم حتى عند المُشْرِكِينَ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزّخرف:٨٧]، ولا يمكن لأحد أبدًا إِلَّا المجنون أن يدعي أَنَّه خلق نفسه، أو يدعي أَنَّه خُلق بدون

(١) ذكره الجوهري في الصّحاح (٤/ ١٤٧١)، ونسبه إلى الشّاعر زهير بن أبي سلمى.

خالق ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطّور:٣٥]، فأنت مَا خلقك أبوك ولا خلقتك أمك ولا خلقك أحد من البشر ولا من غير البشر سوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَهَذَا أمر مُسَلَّمٌ، وأما أهل الطّبيعة فيقولون هَذَا شيء وجد فِي الأزل عَلَى هَذَا الصّفة وصار يتفاعل ويتوالدّ وما أشبه ذَلِك لكن يقرون بموجد فلا يقُولونَ إن هَذَا الإنسان مثلًا أو هَذَا الحيوان وجد هكذا صدفة يقرون بموجد وَهِيَ الطّبيعة، فنقول لَهُم هَذِهِ الطّبيعة من الَّذي أوجدها؟ لكن هَؤُلاءِ مكابرون ولا عبرة بقولهم.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي أعطاكم. والرّزق فِي اللُّغَة العطاء ومنه قوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النّساء:٨]، أعطوهم وهل أحد يدعي أن الرّازق سوى الله؟ قد يدعي أحد. قد يقول: الله قَالَ: ﴿فَٱرْزُقُوهُم﴾ فأنا رزقت هَذَا الإنسان أي أعطيته فيُقَال لكن مَن الَّذي خلق مَا أعطيت؟ الله، الَّذي رزقك هَذَا هُوَ الله، ومهما كَانَ من عمل بني آدم فإنما هُوَ تحويل لا إيجاد كل أعمال بني آدم حتى الصّنائع والبناء وغير ذَلِك لَيْسَ إِلَّا مجرد تحويل يعني تغيير من شيء إِلَى شيء وإلا فالأصل هُوَ الله عَزَّوَجَلَّ هُوَ الخالِق وَهُوَ الموجد، هَذَا الرّزق الَّذي أعطيت أو هَذَا الرّجل أعطيته كيسًا من الطّعام صحيح أَنَّك رزقته لكن من الَّذي أوجد هَذَا الكيس؟ الله عَزَّوَجَلَّ فإذًا الرّزق أصله من الله وإن كَانَ قد يوجد عَلَى أيدي بعض النَّاس لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾.

وقول الرّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَلهَنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ»[1]، لكن يُقَال من الَّذي خلق هَذَا الرّزق؟ ومن الَّذي جلبه إليك؟ ومن الَّذي قَدَّرَ أن تعطيه؟ والجوابُ على كل هذا: هُوَ الله.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

وقوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ يعني بعد هَذَا الخلق والإمداد، الخلق إعداد، والرّزق إمداد، الله عَزَّوَجَلَّ أوجدك وأعدك وهيأك ثمَّ أمدك بما بِهِ قوامك بعد ذَلِك.

﴿يُمِيتُكُمْ﴾ يعني بعد الحياة: حياة الدّنيا يَكُون الموت وَهُوَ مفارقة الرُّوح البدن مفارقة تامة لأَنَّ النّوم فِيهِ مفارقة تفارق الرّوح البدن ولكن ليست مفارقة تامة، أمَّا الموتُ الَّذي هُوَ الموت فهي مفارقة تامة ولكنها تُعاد إِلَيْهِ فِي قبره إعادة بَرْزَخِيَّةً لا كإعادتها فِي الدّنيا.

قوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ الحياة الآخرة الَّتِي لَيْسَ بعدها فناء.

قوْله تَعالَى: ﴿شُرَكَآيِكُم﴾ أي: من شركائكم الَّذِين أشركتموهم، فتكون مضافة إِلَى المفعول، يعني هل من هَؤُلاءِ الَّذِين أشركتموهم بالله؛ وَلِهَذا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ممن أشركتم بالله]، أي ممن أشركتموهم، والإنسان إِذَا أشرك فالمشْرَك بِهِ مفعول وليس معنى شركائكم هم الَّذِين شاركوكم أو أشركوكم، بل أنتم الَّذِين أشركتموهم مَعَ الله فَهُوَ مضاف إِلَى مفعوله.

قوْله تَعالَى: ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ إعراب ﴿مَّن يَفْعَلُ﴾ محلها من الإعراب يحتمل أن تكون نكرة موصوفة والتّقدير ﴿هَلْ مِن شُرَكَآيِكُم﴾ أحدٌ يفعل ذَلِك ويحتمل أن تكون موصولة عَلَى أنَّها مبتدأ مؤخر أي هل الَّذي يفعل ذَلِك من شركائكم، والأول أحسن أن تكون نكرة موصوفة يعني هل من شركائكم أحد يفعل شَيْئًا من ذلك.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ من زائدة وصحت زيادتها لأَنَّ الاسْتِفْهام هُنَا بمعنى النّفي و﴿مِّن﴾ تزاد فِي النّفي كما قَالَ ابن مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

---

(١) البيت رقم (٣٧٠) من ألفيته.

وَزِيـدَ في نَفْـيٍ وَشِـبْهِهِ فَجَـرّ نكِـرَةً كَــ (مَـا لِبَـاغٍ مِـنْ مَفَـرّ)

وقوْله تَعالَى: ﴿مِن ذَٰلِكُم﴾ المُشار إِلَيْهِ الخلق والرّزق والإحياء والإماتة، فعلى هَذَا يَكُون الجواب عن كونه مفردًا مذكرًا مَعَ أن السّابق أربعة أَشْيَاء: جمع، يُقَال لأَنَّهُ أُوِّلَ بالمذكور ﴿مَن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم﴾ أي من ذلكم المذكور، فصح أن يأتي اسم الإِشارة مفردًا مذكرًا لأَنَّهُ عائد إِلَى مذكور.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِّن شَيۡءٍ﴾ يعني لا يمكن أن يفعل هَـؤُلاءِ أي شيء من هَذِهِ الأمور لا الخلق ولا الرّزق والإحياء ولا الإماتة وَهَذا عَلَى سبيل التّحدي، فإذا كانت هَذِهِ الآلهةُ الَّتِي أُشْركت بالله لا تفعل شَيْئًا من هَذَا هل يصح أن تكون آلهة؟ لا بل تَأْلِيهُهَا باطلٌ؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠].

يبقى النّظر لو ادعى مدعٍ أَنَّه يحيي ويميت كالَّذي حَاجَّ إبراهيمَ فِي ربِّه، إبراهيم ﷺ قَالَ له: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]. فما هُوَ الجواب لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إن من المعبودين من يستطيع أن يحيي ويميت؟

نَقُول: هَذِهِ دعوى باطلة؛ لأَنَّ الإحياء والإماتة من الإنسان ليست إحياء وإماتة ولكنها فعل سبب.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: الاسْتِدلال بالأَجْلى والأَوْضح لأَنَّ الله استدل عَلَى بطلان آلهة المُشْرِكِينَ بأمر يقرونه هم، وآلهتهم لا تفعله وَهُوَ الخلق والرّزق والإماتة والإحياء.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: تمام قدرة الله عَزَّوَجَلَّ وَذَلِكَ بالأمور الأربعة الخلق والرّزق إِلَى آخره.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: إثْبَات أن مَا اكتسبه الإنسان فَهُوَ من الله لأَنَّ هَذِهِ الأربعة فِيهَا ثلاثة لا أحد يُماري فِيهَا وَهِيَ الخلق والإماتة والإحياء لكن الرّزق قد يماري فِيهِ ممارٍ، فَقَارُونُ قَالَ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨]، فقد فُسِّر: (عَلَى علم مني بوجوه المكاسب)، والمَعْنَى أني أنا ماهر فِي معرفة المكاسب وحصلت هَذَا المال، ولكننا نقول هَذَا التّحصيل الَّذي حصلته بمهارتك إنما جاءك من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّ هَذَا الَّذي حَصَل لك بسببٍ وخالِقُ الأسباب هُوَ الله.

الفائدة الرّابعة والخامسة: أنَّه ينبغي لنا استجلاب الرّزق من ربنا وحده لقوْله تعالَى: ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمۡ﴾، وَإِذَا كَانَ الأمر كَذَلِكَ فإِنَّهُ يترتب عَلَى هَذَا فائدة أُخْرَى وَهِيَ أن لا نطلب رزقه بمعاصيه، وجهه: إِذَا كنت تطلب الرّزق من الله هل من اللائق عقلًا أنْ تُقَدِّمَ لَهُ معصيةً ليرزقك، الَّذي يستدر الرّزق من غيره يُقَدِّمُ طاعته والخضوع لَهُ، وَلِهَذا قَالَ الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطّلاق:٢-٣].

إِذَنْ: مَنِ استجلبَ رزق الله بمعاصيه فقد خالَف الحكمة والصّواب. فهَؤُلاءِ الَّذِين يطلبون الرّزق بالرّبا ويطلبون الرّزق بالغش ويطلبونه بالكذب وغير ذَلِك من الوسائل المحرمة هم فِي الحقيقة أشبه مَا يَكُونُونَ بالمستهزئين بالله عَزَّوَجَلَّ السّاخرين بِهِ كأنهم يقُولونَ يا ربنا إننا نعصيك لترزقنا! وَهَذا من أعظم مَا يَكُون؛ وَلِهَذا جعل الله الَّذِين يطلبون زيادة المال بالرّبا جعلهم محاربين لَهُ، كما فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩]، والرّبا كما قَالَ شيخ الإِسْلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما ورد فِي ذنب من الذّنوب دون الشّرك أعظم مما ورد فِي الرّبا»، الَّذي أصبح عند

النَّاس الآن من أسهل الأشْيَاء وأبسطها حتى كانوا يتعاطونه بالصّراحة، ويتعاطونه بالتّحيل، وتعاطيه بالتّحيل أخبث من تعاطيه بالصّراحة، مثلما أنَّ تعاطيَ الكفر بالنّفاق أخبثُ من تعاطيه بالكفر الصّريح؛ لأَنَّ هَذَا المتحيل مخادع لله عَزَّوَجَلَّ جمَعَ -والعياذُ باللهِ- بَيْنَ مَفْسَدَةِ الرِّبا ومفسدة الخداع والتّحيل، فالرّب عَزَّوَجَلَّ إِذَا حرم شَيْئًا لَيْسَ كغيره تخفى علَيْه الأشْيَاء فَهُوَ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩]، ونبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وضَّح أنَّ: «**الأَعْمَال بِالنِّيَّاتِ**»(١)، فما دُمْتَ نويتَ الرّبا الآن لكن تحايلت علَيْه بإدخال سلعة غير مقصودة هَذَا تلاعب واستهزاء بآيات الله عَزَّوَجَلَّ يأتي إِلَيْهِ يقول أنا أريد منك مئة ألف عَلَى أن تكون بمئة وعشرين ألفًا إِلَى سنة كَيْفَ الوصول إِلَى هذا، يقول والله نحن مسلمون لا أستطيع أن أعطيك مئة ألف نقدًا وأكتبها عليك بمئة وعشرين لأننا نخشى الله ولكن نلوذ من جهة أُخْرَى ونجعل حاجزًا بيننا وبين الله بأي سلعة تتَّفق، فيذْهَبون ينظرون الَّذي عند النَّاس، فإن وجدوا سكرًا قَالُوا: نشتري سكرًا، وإن وجدوا هيلًا قَالُوا: نشتري هيلًا، وإن وجدوا سيارات اشتروا سيارات، حتى لو وجدوا أكياسًا لا يدرون مَا فِيهَا لعله أنْ يكُونَ رملًا قَالُوا نشتري هَذِهِ الأكياس، وهَذا هُوَ الواقع؛ وَلِهَذا لا ينظرون إِلَى هَذِهِ الأكياس ولا يدرون مَا فيها، وأكثر مَا يَكُون فِي القبض أَنَّه يمرر يده عَلَيْهَا أو يعدها، ويقولون إن هَذَا هُوَ القبض، وليس هَذَا هُوَ القبض لغةً أو عرفًا أو شرعًا، ولا يعد هَذَا قبضًا؛ لأَنَّ القبض معناه أنْ يكُونَ الشّيء فِي قبضتك وَهَذا الشّيء مركون فِي مكانه ترد علَيْه عدة مبايعات فِي خلال ساعة أو ساعتين، وهذه البَلِيَّةُ الَّتِي ابْتُلِيَ بِهَا

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية»، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال، رقم (١٩٠٧).

النَّاس الآن نسأل الله أن ينقذهم منْهَا بلية عظيمة، ويقبحها أنهم يعتقدون أنَّها حلال وأن عمل البنوك حرام، حتى إن بعضهم يأتي يتغيظ ويتضجر، أعوذ بالله انظروا الحرام الرّبا يعلن صريحًا فِي البنوك وَهُوَ ممن يتعاملون بهذه المعاملة يبكي غيره ولا يبكي نفسه، وَهُوَ أحق بأن يبكي نفسه.

فالمُهِمُّ: أن الرّزق إِذَا كَانَ من الله عَزَّوَجَلَّ فإِنَّهُ يجب عليك شرعًا وعقلًا أن تستمد هَذَا الرّزق بطاعة الله لا بمعصيته.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل التَّوَرُّقُ داخل فِي هذا؟

التَّوَرُّق يقول شيخ الإِسْلام إِنَّه داخل فِي هَذَا، ويقول عنه تلميذه ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن شيخنا يُسأل عن هَذَا مرارًا فيصر عَلَى أَنَّه حرام». وقد كَانَ التَّوَرُّق غير التَّوَرُّق المتعامل بِهِ بَيْنَ الناس اليوم، قَالَ العلَمـاء وعبارتهم: «ومَنِ احْتَاجَ إِلَى نَقْدٍ فَاشْتَرَى مَا يُسَاوِي مِئَةً بِمِئَةٍ وعِشْرِينَ فَلَا بَأْسَ بِهِ وَهِيَ مَسْأَلَةُ التَّوَرُّقِ»[1]، هَذِهِ عبارة (الرّوض المربع) شرح الزّاد.

أولًا: قَالَ: «ومن احتاج» فعلمنا أنَّها لا تكون إِلَّا للحاجة.

ثانيًا: قَالَ: «فاشترى مَا يساوى مئة بمئة وعشرين»، وقع العقد عَلَى عين المبيع ولم يقولوا العشر أحد عشر ولا اثنا عشر.

وكلمة: «اشترى» تحمل عَلَى الشّراء الشّرعي الَّذي يجمع الشّروط ومن جملتها، العِلْم بالمبيع ونوعه وجنسه إِلَى آخره، وهَذا غير موجود فِي عمل النَّاس الآن.

---

(١) الروض المربع شرح زاد المستقنع (ص:٣١٨)، ط. دار المؤيد - مؤسسة الرسالة، ونصها: «ومن احتاج إلى نقد فاشترى ما يساوي مائة بأكثر ليتوسع بثمنه فلا بأس، وتسمى: مسألة التورق».

كَذَلِكَ قوله: «اشترى بما يساوي مئة بمئة وعشرين إِلَى أجل» ينطبق لأنهم يقُولونَ لكل عشرة اثنا عشر وثلاثة عشر وأحد عشر حسب الاتفاق، ثمَّ نفس الفقهاء الَّذِين أباحوا ذَلِك قَالُوا يُكره أن يقول فِي المرابحة أي فِي بيع المرابحة المعروف أن يقول العشر أحد عشر وذكروا عن الإِمَام أحمد نصًّا بِأَنَّهُ يحرم أن يقول العشر أحد عشر حتى فِي غير مَسْأَلَة التّورُّق، ففي بيع المرابحة المعروف يحرم فِيهِ عَلَى إحدى الرّوايات عن أحمد أن يقول العشرة أحد عشر وَهُوَ يريد السّلعة نفسها لا يريد النّقد.

والمذهب: أنّه يكره والرّواية الثّانية عن أحمد أنّه يحرم، مثلًا لو اشتريت هَذَا الكتاب وأنت تريد هَذَا الكتاب نفسه لا تريد دراهمه فقلتَ لي سأشتريه منك مرابحة، قلت لا بأس أنا شاريه بمئة وسأبيعه عليك عَلَى أن أربح بكل عشرة دراهم درهمًا، أي تكون المئةُ مئةً وعشرة، هَذَا جائز لكن لو قلتَ سأشتريه منك العشرة أحد عشر، قَالُوا إِنَّه يكره عَلَى المذهب ويحرم عَلَى الرّواية الثّانية مَعَ أنّها ليست هِيَ مَسْأَلَة التَّورُّق فهَؤُلاءِ النَّاس الآن جمعوا بَيْنَ الأمرين بَيْنَ العشرة أحد عشر أو اثنا عشر وبين التَّوَرُّق.

أمَّا عمل الناس الآن فَهُوَ لا ينطبق علَيْه، حتى عَلَى قول من يقول بجواز التَّوَرُّق؛ ولاحظ أن الإِمَام أحمد عنه رواية بأنها جائزة والرّواية الثّانية بأنها من مسائل العِينَةِ، ذكرها عنه شيخ الإسْلام ابن تَيْمِيَةَ[1]، وذكرها ابن القَيِّمِ فِي تهذيب السُّنن[2]، أن مَسْأَلَة التَّوَرُّق من مسائل العِينَةِ والعِينَةُ معروف أنّها حرام.

فالحاصِلُ: أننا فِي عصرنا الحاضر لما كَانَ النَّاس لا يبالون إِلَّا أن يكتسبوا المال

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٩/ ٣٠).

(٢) تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته (٢/ ١٥٦)، وإعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ٢٠١).

فقد جعلوا المال مقصودًا مخدومًا بعد أن كَانَ وسيلة خادمًا، وحَقِيقَةُ المالِ أَنَّه وسيلة خادم ولكن جعلناه الآن مقصودًا مخدومًا، وَهَذا من سفه الإنسان أن يستخدمه مالُه الَّذي خلق لَهُ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٩].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل الإيداع فِي البنوك يعتبر إيداعًا شرعًا؟

قُلْنَا: إن قولنا فِي البنوك أني وضعت مالي وديعة عِنْدَهُم هَذَا غير صحيح لا ينطبق علَيْه شرعًا. فمعنى الوديعة شرعًا هُوَ أن تعطيه المال ليحفظه بعينه لا أن تعطيه مالَك يضعه فِي صندوق وينتفع به، حتى إنَّ العلَماءَ قَالُوا لو أن المودِع أذن للمودَع بالانتفاع بالوديعة صارت قرضًا يثبت فِي ذمته.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَا حكم السَّلَمِ؟

السَّلَمُ معروفٌ، وَهُوَ أن أعطي شخصًا دراهمَ نقدًا بسلعةٍ مؤجَلة، عكس الشّراء، فأعطيك مثلا عشرة آلاف ريال عَلَى أن تعطيني بعد سنة مئة كيس سكر أو سيارة وصفها كذا وكذا هَذَا لَيسَ فِيهِ شيء؛ لأَنَّ الصّحابة كانوا يفعلونه فِي عهد الرَّسول ﷺ كانوا يسلفون فِي الثّمار السّنة والسّنتين[1]، فقال النَّبيّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ أَسْلَفَ فِي شَيْءٍ فَلْيُسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ»[2]، ووجه أَنَّه لَيسَ فِيهِ شيء هُوَ أَنَّهُ لَيسَ هناك ربحٌ مضمون لأحد الطّرفين، فأنا إِذًا أعطيتك مثلًا عشرة آلاف ريال فِي سيارة إِلَى أجل لا أدري، هل أنا الَّذي أربح أو أنت؟ لأَنَّهُ عند انتهاء الأجل يمكن أن أجد السّيارة بستة آلاف ريال ويمكن لا أجدها

(١) أخرجه البخاري: كتاب السلم، باب السلم إلى أجل معلوم، رقم (٢٢٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب السلم، رقم (١٦٠٤).

(٢) التخريج السابق.

إِلَّا بخمسة عشر ألف ريال، وَهَذا لا بُدَّ أن يقع، ونادرًا أن تكون الأسعار إِلَى سنة لا تقل، فإذا كَانَ فِي الذّمة فليس فِيهِ شيء، وَلِهَذا قَالَ الفقهاء: لو أَسْلَمَ فِي ثَمَرِ بستان معين مَا صح لأَنَّهُ صَارَ محله الآن البستان ولم يعد فِي الذّمة فلا بد من تمام الشّروط.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الَّذي يحتاج فلوسًا ماذا يفعل؟

قُلْنَا: إِذَا احتاج فلوسًا يأتي للواحد يقول تعال أعطنا فلوسًا بشيء مؤجل أو يشتري المواد الَّتِي يحتاج بثمن مؤجل أكثر من النّقد، وليس هذا من التَّورُّق، إِذَا اشترى السّلعة يريدها بعينها لَيْسَ تورقًا، ففي التَّوَرُّق هُوَ لا يريد السّلعة وَلِهَذا سمي تورقًا، مأخوذ من الوَرِق لأَنَّهُ لا يريد إِلَّا الفضة.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: عجز هَذِهِ الآلهة عن فعل شيء يختص بالرُّبُوبِيَّة لقَوْله تَعالَى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾؛ لأَنَّ هَذَا الاسْتِفْهام كما قررنا بمعنى النّفي.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: ثبوت التّلازم بَيْنَ التّوحيدين: توحيد الرُّبُوبِيَّة وتوحيد الألوهية وأن من أقر بتوحيد الرُّبُوبِيَّة لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية وَهَذا المَعْنَى قرره الله تَعالَى فِي عدة آيات.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: تنزيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن كل نقص يؤخذ مِنْ قَوْلِه تَعالَى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أن المُشْرِكِينَ بالله عَزَّوَجَلَّ قد وقعوا فِي تَنَقُّصِ الله لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أن الله تَعالَى يجمع فيما وصف وسمى بِهِ نفسه بَيْنَ النّفي

والإِثْبَات، فالنّفي فِي قوْله تَعالَى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، والإِثْبَات فِي قوْله تعالَى: ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: قوة الإقناع فِي أسلوب القرآن لأَنَّ مثل هَذَا التّحدي ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ هَذَا أقوى مَا يَكُون فِي الإقناع كل منهم سيكون جوابه لا.

إِذَنْ: لماذا تعبدونها مَعَ الله هل يستفاد من هَذِهِ الآيَة استنباط أقسام التّوحيد الثّلاثة؟ الرّبُوبِيَّة موجودة، والألوهية موجودة لالتزام الإقرار بالرّبُوبِيَّة الإقرارَ بالألوهية ثمَّ إن قوْله تَعالَى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ المقصود بِهِ إبطال أُلوهيَّتهم، والأسماء والصّفات موجودة فِي قوْله تعالَى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الآية (٤١)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

قوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ﴾ بمعنى بان واتضح، وقوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْفَسَادُ﴾ ضد الصّلاح وَهُوَ من كل شيء بحسبه ففساد الزّروع بيبسها وتلفها بالعواصف والأمطار المغرقة والبرق المتلف وَكَذلِكَ فساد المواشي بهلاكها ومرضها، وفساد الثّمار بنقصها وما أشبه ذلك، المهم الفساد فِي كل شيء بحسبه وهل الفسادُ هُنَا يراد بِهِ الفسادُ الحسي أو يشمل الفساد الحسي والمعنوي؟ الصّحيح أنّه يشمل الفساد الحسي والمعنوي، فالحسي مَا ذكرنا أمثلته قبل، والمعنوي هُوَ كثرة المعاصي والفسوق وانتشارها بَيْنَ النَّاس وعدم المبالاة بِهَا حتى يصبح المنكر معروفًا والمعروف منكرًا، فإن هَذَا من أعظم الفساد قَالَ الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]، قَالَ العلماء لا تفسدوها بالمعاصي.

وقوْله تَعالَى: ﴿فِى ٱلْبَرِّ﴾؛ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي القفار بِقَحْطِ المَطَرِ وَقِلَّةِ النَّبَاتِ].

البَرُّ القفارُ، يعني الفَيافِي الخارجة عن المدن والسُّكان، وقيل المُراد بالبَرِّ مَا لَيْس ببحر فيشمل المدن والأمصار والقفار وغيرها.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: البلادُ الَّتِي عَلَى الأنهارِ بِقِلَّةِ مَائِهَا]، فمشى المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى أن المُرَاد بالبَرِّ مَا سوى العمران، والمُرَاد بالبحر العمران الَّذي عَلَى شواطئ البحار، وَبِهذَا قَالَ كثير من المفسرين ولكن الصّواب أن المُرَاد بالبر مَا سوى البحر، والمُرَاد بالبحر الماء؛ لأَنَّ مَا ذكرناه هُنَا أعم مما ذكره المُفَسِّر وغيره وَهُوَ الأظهر أيضًا، فإن البحر إِذَا أُطلقَ فِي القرآن يُراد بِهِ الماء، ففساد البر كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالقحط وقلة النّبات]، وفساد النّبات أيضًا بعد وجوده؛ وَلِهَذا أرسل الله عَلَى آل فِرْعَوْنَ الجَرادَ والقُمَّلَ والضَّفادع والدَّمَ، أربع آفات، الجراد يفسد الزّروع بعد خروجها ويأكلها، القمل يفسد القوت، إِذَا حصد وأُدْخِلَ جاءه القمل وَهُوَ السّوس الَّذي يتلفه فَهُوَ مَا يدخل من السّوس فِي القوت يسمونه عندنا (النّخشية) وَهِيَ عبارة عن دودة تكون فِي الحبوب فتفسده وتأكله فيكون قشورًا فقط. والضّفادع بالماء، امتلأت مياههم ضفادع حتى إن الإنسان لا يستطيع أن يشرب الماء بسبب الضّفادع -والعياذُ باللهِ-. والدّم: الصّحيح أن المُرَاد بِهِ النّزيف وإن كَانَ بعض العلماء يقول إن المُرَاد بالدّم أنْ يَكُونَ الماء عند آل فرعون كالدّم والصّواب أَنَّه النّزيف لأَنَّ الله ذكر إفساد الماء بالضّفادع فكان القوت من أوله إِلَى آخره وغايته وَهُوَ الدّم لأَنَّ الدّم يَكُون من القوت فصارت الأقوات -والعياذُ باللهِ- لا تنفعهم لا قبل دخولها أجوافهم ولا بعد الدّخول، وهذا من فساد البر.

فكيف كَانَ الفسادُ فِي البحر؟

قال العلماء يَكُون بموتِ الحيتان وفسادها، وَكَذلِكَ تَغَيُّرُ المياه وعدم اطرادها كالعادة.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾: (الباء) للسببية و(ما) يحتمل أن تكون مصدرية

ويحتمل أن تكون موصولة، إِذَا كانت موصولة فلا بد لها من عائد محذوف فالتّقدير بما كسبته أيدي النَّاس، وإن كانت مصدرية لا تحتاج إِلَى عائد ويكون المَعْنَى بكسب أيدي النَّاس.

وقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من المعاصي].

وقوْله تَعالَى: ﴿أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ جمع يد والمُرَاد مَا كسبوا وَهَذا من أساليب اللُّغَة العرَبِيَّة أن يعبر باليد عن صاحب اليد وليس المُرَاد مَا كسبت اليد فقط؛ لأَنَّ المعاصي لا تكون بالأيدي فَقَطْ، بل تكون باليد وبالرّجل وبالعين وباللسان وبالأذن وكل الحواس يمكن لِلإِنْسَانِ أن يعمل بِهَا المعصية فيكون المُرَاد بالأيدي هُنَا الأنفس لا اليد الَّتِي هِيَ عضو من أعضاء البدن، وليست مجازًا لأَنَّهَا بسياقها دالة عَلَى أن المُرَاد مَا كسبوه فلا تكون مجازا، أمَّا قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة:٣٣]، فالمُرَاد بـ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ الأعضاء فالكلمة فِي سياقها حقيقة فِي معناها وَلِهَذا لو أراد أن يصرف قوْله تَعالَى: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ﴾ إِلَى أن المَعْنَى أو تقطع أبدانهم مَا استطاع، كما أَنَّه لو أراد أن يجعل بما كسبت أيدي النَّاس أي بما كسبت اليد نفسها فقط دون بقية الأعضاء مَا استطاع وَهَذا هُوَ وجه قول شيخ الإسْلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّه لا مجاز فِي القرآن ولا فِي اللُّغَة العرَبِيَّة؛ لأَنَّهُ إِذَا كانت الكلمة قد تعين معناها بسياقها صارت بمقتضى هَذَا السّياق حقيقة فِي هَذَا المَعْنَى وحِينَئِذٍ لا نحتاج إِلَى تأويل.

وقوْله تَعالَى: ﴿ٱلنَّاسِ﴾ أصلها أناس لكن حذفت الهمزة للتخفيف كما هِيَ فِي قَوْلِهِ فِي شر وخير وأصلها أشر وأخير وكما هِيَ فِي قوْله تَعالَى: ﴿ٱللَّهَ﴾ فإِنَّ أَصْلَهُ

الألاه، هكذا قيل فِي الله وفي النّفس من هَذَا شيء.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لِيُذِيقَهُم﴾ بـ(الياء) و(النّون) بعض الَّذي عَمِلُوا].

﴿لِيُذِيقَهُم﴾: (اللام) هُنَا للتعليل والمعلل مُتَعلَّقُ هَذِهِ اللام واللام متعلقة بـ(ظهر) هَذَا هُوَ المعلل ظهر لأجل أن يذيقهم، وفيها قراءتان سبعيتان وَهِيَ (لِنُذِيقَهُمْ)[1]، مضاف فِيهَا الفعل إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ أو ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ مضاف فِيهَا الفعل إِلَى ضمير الغائب، ومع ذَلِك فإن هَذَا الغائب يعود إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوْله تَعالَى: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ يُعبر دَائِمًا بالإِذَاقَة عن الإِصَابَة لأَنَّ الذّوق هُوَ أعلى أنواع الإدراك الحسي، فإن الإنسان يسمع بالشّيء ثمَّ يراه ثمَّ يذوقه، أقول لك عندي تفاحة إدراكك للتفاحة الآن بالسّماع ثمَّ أُخرجها وأريك إياها يَكُون بالرّؤية، والرّؤية أقوى من السّماع ثمَّ أُعطِيكها فتأكلها فيكون هَذَا بالذّوق وَهَذا أعلى مَا يكون؛ لأني إِذَا قلت عندي تفاحة ولم ترها أنْتَ يحتمل أن قولي هَذَا كذب، وَإِذَا أريتك إياها ولكنك مَا ذقتها يحتمل أن تكون نباتًا آخر يشبه التّفاحة ويحتمل أن تكون من التّفاح الصّناعي الَّذي يصنعونه من البلاستيك تشاهده كأنه تفاح حقيقي، فإذا ذقتها صارت حق اليقين؛ وَلِهَذا يعبر الله عَزَّوَجَلَّ دَائِمًا عن الإِصَابَة بالإِذَاقَة لأَنَّهَا أعلى أنواع الإدراك.

وقوْله تَعالَى: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾؛ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي عقوبته]، لأَنَّ الَّذي عملوا غير الفساد الظّاهر فِي البر والبحر ولكن الفساد هُوَ عقوبته.

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: لماذا عبر عن العقوبة بالفعل؟

---

(١) الحجة في القراءات السبع (٥/ ٤٥١)، وهي قراءة ابن كثير.

فنقُول: عبَّر عن العقوبة بالفعل فِي قوْله تَعالَى: ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِی عَمِلُوا۟﴾ لوجهين:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: بَيان سبب هَذِهِ العقوبة وأن سبب العقوبة هَذَا العمل.

الوَجْهُ الثَّاني: أن هَذِهِ العقوبة بقدر العمل تمامًا ولذلك عُبِّرَ عنها بالعمل إشارة إِلَى أنَّها بقَدْرِه لَيْسَ فِيهَا ظلم، وَهَذا كثير فِي القرآن، يعبر الله تَعالَى عن العقوبة بالفعل من أجل هذين الوجهين.

وقوْله تَعالَى: ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِی عَمِلُوا۟﴾ يعني لا كله لأَنَّ الله يقول: ﴿وَلَوۡ یُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَاۤبَّةࣲ﴾ [فاطر:٤٥]، وقَالَ: ﴿وَمَاۤ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِیبَةࣲ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَیۡدِیكُمۡ وَیَعۡفُوا۟ عَن كَثِیرࣲ﴾ [الشورى:٣٠]، وَهَذا حق لو أن الله تَعالَى عاقب النَّاس بقدر ذنوبهم مَا ترك عَلَيْهَا من دابة، كَانَ كل النَّاس يموتون ولا يبقون ولَكِنَّهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يصيبهم ببعض ذنوبهم فقط. الحكمة قَالَ: ﴿لَعَلَّهُمۡ یَرۡجِعُونَ﴾؛ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يتوبون]، (ولعل) هُنَا للتعليل، وكلما جاءت (لعل) فِي كلام الله فإنها للتعليل أو توقع الشّيء إِذَا كَانَ من المتوقع أي لأجل أن يرجعوا إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ وهذه من حِكم الله، أن الله تَعالَى يبتلي العباد بالضّراء لأجل أن يرجعوا إِلَى الله، وكم من إِنْسَان صارت عقوبته بالضّراء سببًا لرجوعه إِلَى ربه، بل إنَّها أحيانًا تكون سببًا مباشرًا ﴿وَإِذَا غَشِیَهُم مَّوۡجࣱ كَٱلظُّلَلِ﴾ [لقمان:٣٢]، أين يذهبون؟ ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخۡلِصِینَ لَهُ ٱلدِّینَ﴾ [لقمان:٣٢]، هَذَا رجوع لكنهم -والعياذُ باللهِ- إِذَا نجوا عادوا إِلَى كفرهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أنَّ الفسادَ سببه أعمال بني آدم لقوْله تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَیۡدِی

ٱلنَّاسِ﴾ ويدل لهذا أيضًا قوْله تَعالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

الفائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثْبات العلل والأسباب وأن أفعال الله عَزَّوَجَلَّ مُعَلَّلَةٌ لا بُدَّ لها من علة تؤخذ مِنْ قوْلِه تعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ ولا شك أن أفعال الله تَعالَى وأحكامه مُعَلَّلَةٌ لأَنَّ من أسمائه الحكيم.

الفائدتان الثَّالثَة والرّابعة: أن النَّاس لا يعاقبون إِلَّا بأسبابهم لقوْلِه تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ فيتفرع عن ذَلِك أن من أراد أن ترفع عنه العقوبة فَلْيَتُبْ إِلَى الله؛ فإن التّوبة من أسباب رفع العقوبة وجلب المثوبة وَلِهَذا قَالَ هود لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾[هود:٣]، ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود:٥٢]، وقال نوح لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح:١٠-١٢].

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أن الجزاء من جنس العمل وبقدر العمل؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: بطلان مذهب الجبرية، فالجبرية يقُولونَ إن الإنسان مُجبَر عَلَى عمله لا يفعل باختياره ولا يُضاف الفعل إِلَيْهِ إِلَّا عَلَى سبيل المجاز، فيُقَال صام، زكَّى مجازًا لا حقيقة، الآية الكريمة تَرُدُّ عَلَيْهِم من وجهين:

الوَجْهُ الأوَّلُ: قوْله تَعالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ فأضاف الكسب إِلَى أيدي النَّاس.

الوَجْهُ الثَّاني: أن الله تَعالَى عاقبهم عَلَى هَذَا الفعل ولو كانوا مجبرين علَيْه لكانت عقوبتهم ظلما لَهُم، إذ كَيْفَ يعاقبون عَلَى مَا لَيْسَ باختيارهم.

ففيها رد من وجهين؛ وجه لفظي وَهُوَ إضافة الكسب إِلَى أيديهم، ووجه معنوي وَهُوَ أنَّه يلزم من عقوبتهم عَلَى ذَلِكَ لو كانوا مجبرين أنْ يكُونَ الله تَعالَى ظالِمًا لَهُم، والله تَعالَى لَيْسَ بظلام للعبيد وَكَذلِكَ أيضًا يؤخذ مِنْ قوْلِه تعالَى: ﴿عَمِلُواْ﴾ حيث أضاف العمل إليهم.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: بيان سَعَةِ رحمة الله وأن رحمته سبقت غضبه؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾، ولو أن الغضب كَانَ بقدر الرّحمة لكان الله يذيقنا كل الَّذي عملنا، ولو كَانَ غالبا للرحمة لكان يذيقنا أكثر مما عملنا، فالأمور ثلاثة: إذاقة البعض أو المثل أو الأكثر، والمثل أو الأكثر ممتنع، وَإِنَّما يذيق الله تَعالَى البعض لأَنَّهُ ثبت فِي الحديث الصّحيح: «أَنَّ الله تَعالَى كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[1]، ولولا هَذَا لكان الله تَعالَى يؤاخذ النَّاس بما عملوا.

الفائدتان الثّامنة والتّاسعة: أن العقوبات قد تَكُون سَبَبًا للرجوع إِلَى الله لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ كما أنّها قد تكون بالعكس، أي: قد تَكُون سَبَبًا للازدياد فِي العتو والنّفور -والعياذُ بالله- يدل عَلَى ذَلِكَ قوْله تَعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الحج:١١]، والجمع بَيْنَ هَذِهِ الآيَة والآية الَّتِي نفسرها أن العقوبات عَلَى سبيل العُمُوم مفيدة لكن عَلَى سبيل الخصوص قد لا تفيد؛ لأَنَّ الله تَعالَى قَالَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ عَلَى أن قوْله تَعالَى: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ يحتمل أن يراد بِهَا فتنة الدِّين بحيث

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، رقم (٧٤٢٢).

لا يَكُون عنده مقاومـة فيقع فِي الهاويـة -والعياذُ باللهِ- لكن الأظهـر أنَّها عامـة ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

الآيــة (٤٢)

• • ● • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الرّوم:٤٢].

• • ● • •

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قُلْ﴾ لكفار مكَّة ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾].

الخطاب فِي قوْله تَعالَى: ﴿قُلْ﴾ للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويحتمل أنْ يكُونَ لَهُ ولكلِّ من دعا إِلَى شريعته ودعا النَّاس إِلَى الاتعاظِ والاعْتِبار.

وقوْله تَعالَى: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ السَّير معناه المشي و﴿فِي﴾ بمعنى (على) يعني عَلَى الأرْض وليس المُرَاد فِي داخلها وقِيلَ: إن ﴿فِي﴾ للظرفية، وإن الظّرف يختلف بحسب المظروف وبحسب الظّرف أيضًا يعني مثلًا إِذَا قلنا الماء فِي الكوز صَارَ فِي جوف الكوز، هُوَ والكأس أو الطّاسة أو القدر فهنا صَارَ الماء فِي جوفه، وَإِذَا قلنا الكتابة فِي الورق اختلف، وَإِذَا قلنا الوجه فِي المرآة اختلف، فيرى بعض العلَماء أن ﴿فِي﴾ هُنَا للظرفية ولكن ظرف كل شيء بحسبه، والسّيـر المأمور بِهِ هُنَا لا أحد يتصور أن المُرَاد احفروا لكم خندقًا فِي الأرْض وادخلوا فِيهِ لا أحد يتصور هَذَا فهنا وجهان فِي كلمة ﴿فِي﴾:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أن تُجعل بمعنى (على) سيروا عَلَى الأرْض أي عَلَى ظاهرها.

الوَجْهُ الثَّاني: أن تُجعل ﴿فِي﴾ للظرفية ويُقَال إن الظّرفية فِي كل مكان بحسبه هَذَا تفسير ﴿سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وهل المُرَاد السّير بالأقدام أو السّير بالعقول والتّفكير؟

يشمل السّير بالأبدان بأن يذهب الإنسان إِلَى مساكن القوم ليتعظ ويعتبر أو السّير بالقلوب بأن يقرأ تواريخهم وأحداثهم حتى يعتبر بها، وكم من سير بالقلب صَارَ أعظم من السّير بالقدم ولكن السّير بالقدم لأجل التّفرج والنّزهة هَذَا محرم كما يفعله بعض النَّاس الآن، يذهبون إِلَى ديار ثمود من أجل التّفرج والنّزهة والاطّلاع عَلَى مَا لَهُم من قوة سابقة مَعَ أن الرّسول ﷺ يقول: «لا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلاءِ القَوْمِ إِلَّا وَأَنْتُمْ بَاكُونَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلا تَدْخُلُوهَا»[1]، أين الَّذِين يذهبون إِلَى ديار ثمود وهم يبكون والرّسول ﷺ لما مر بِهَا فِي ذهابه إِلَى تبوكَ مشى مسرعًا وقَنَّعَ رأسه: نَزَّلها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأسرع وَعَلَى هَذَا فنقول إِذَا سرت فِي أرض هَؤُلاءِ المعاقبين فسر سير متعظ معتبر كما أمر النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قَوْله تَعالَى: ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ نظر اعتبار وتفكر أو نظر عين؟

عَلَى حسب مَا قلنا فِي السّير إن كَانَ سيرًا بالقدم فَهُوَ نظرٌ بالعين، وإن كَانَ سيرًا بالقلب فَهُوَ نظر بعين البصيرة: التّفكر والتّأمل، ويمكن أن نقول أيضًا حتى إِذَا فسرنا السّير هُنَا بالسّير الحسي عَلَى الأقدام فإِنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يكُونَ مقرونًا بالنّظر بعين البصيرة والاعْتِبار إذ النّظر بالعين المجردة لا يفيد شيئًا.

---

(١) في قوله ﷺ: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ المعَذَّبِينَ إلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ لَا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ»، أخرجه البخاري: كتاب الصّلاة، باب الصّلاة في مواضع الخسف والعذاب رقم (٤٣٣)، ومسلم: كتاب الزّهد والرّقائق، باب لا تدخلوا مساكن الّذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، رقم (٢٩٨٠).

قَوْله تَعالَى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾: ﴿كَيْفَ﴾ محلها النّصب خبرًا لـ﴿كَانَ﴾ مقدمًا، و﴿عَاقِبَةُ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾ والجملة مُعَلِّقَةٌ عن العمل مُعَلَّقة لكلمة (انظروا) الجملة المعَلِّقة فِي تأويل الاسم المفرد والتّقدير فانظروا حالهم كَيْفَ كان.

وقَوْله تَعالَى: ﴿عَاقِبَةُ﴾ هُنَا مصدر وَلِهَذا ذُكِّرَ الفعل أي بمعنى عقبى.

قَوْله تَعالَى: ﴿مِن﴾ حرف جر ﴿قَبْلُ﴾ مبنية عَلَى الضّم لقطعها عن الإضافة حُذِف المضاف ونوي معناه فتبنى عَلَى الضّم لأنهم يقُولونَ فِي (قبل) و(بعدُ) إن وجد المضاف لفظا فهي معربة غير منونة، وإن حذف لفظًا ومعنى فهي معربة منونة، هذان حالان متقابلان إِذَا وجد المضاف إِلَيْهِ فهي معربة غير منونة، تقول أتيت من قَبْلِ زيد ومن بَعْدِه، وَإِذَا حُذِفَ المضاف لفظًا ومعنى فهي معربةٌ منونةٌ، وَإِذَا حُذِفَ المضافُ إِلَيْهِ ونوي لفظه فهي معربة غير منونة كما لو وجد لفظه، وَإِذَا حذف المضاف إِلَيْهِ ونوي معناه فهي مبنية عَلَى الضّم ولها أربع حالات.

قَوْله تَعالَى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ كأن الإنسان يتوقع ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ أهلكوا وأتلفوا وما أشبه ذَلِك ولكن البيان جاء عَلَى غير المتوقع ماذا تتوقع أنْتَ لما قالَ الله تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [فاطر:٤٤]؟ تتوقع أهلكناهم ودمرناهم وما أشبه ذَلِك؛ لأَنَّ هَذِهِ عاقبتهم لكن جاء الأمر عَلَى خلاف المتوقع ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ جاء مبيِّنًا لسبب هَذِهِ العاقبة لأَنَّهَا هِيَ الحال الَّتِي عَلَيْهَا هَؤُلاءِ المكذبون وَهُوَ الشّرك يعني فأنتم الآن مشركون وهم كانوا مُشْرِكِينَ فدمروا، فمعنى ذَلِك أن عاقبتكم أنتم ستكون مثلهم مآلها التّدمير والهلاك، وَهَذا من بلاغة القرآن أن الله تَعالَى ذكر سبب هلاك أولئك القوم.

الَّذي كَانَ علَيْه الآن هَؤُلاءِ المخاطبون، هَؤُلاءِ المخاطبون الآن مشركون كانوا عَلَى الشّرك إِذَنْ إِلَى الآن مَا وجدوا العاقبة، لكن إِذَا علموا أن سبب عاقبة هَؤُلاءِ هُوَ الشّرك فلا شك إِذَا كَانَ لَهُم عقول أن ينتهوا عن الشّرك.

قوْله تَعالَى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾؛ يقول المُفَسّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فأُهْلِكُوا بِإِشْرَاكِهِمْ، ومَسَاكِنُهُمْ وَمَنَازِلُهُمْ خَاوِيَةٌ].

قوْله تَعالَى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ ظاهر الآية الكريمة أن البعض الآخر وَهُوَ الأقل لم يكن مشركا، وهاهنا إشكال هل أُهلك الموحدون مَعَ المُشْرِكِينَ مَعَ أن الله تَعالَى ذكر فِي آيات كثيرة فِي الأمم السّابقة، قَالَ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الأعراف:٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ [الزمر:٦١]، فظاهره أن المؤْمِنِينَ لم يُهْلَكوا أو نقول: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ باعتبار القادة والرّؤساء الَّذِين يعرفون أنهم عَلَى شرك، أمّا العامة الَّذِين لا يدرون فهم تابعون وراضون وإن لم يكن عِنْدَهُم شرك لكن هم يظنون أن هَذَا هُوَ الحق، فأي الاحتمالين أولى، أو احتمال ثالث أن يُقَال إن الله تَعالَى أمرنا أن ننظر كَيْفَ كانت عاقبة السّابقين، وَإِذَا نظرنا وجدنا أن أكثرهم مشرك فأُهلك، وأن المُؤْمِن نجا فيكون فِي هَذَا تحذيرٌ من الشّرك وترغيب فِي الإيمان والتّوحيد فها هُنَا ثلاثة احتمالات:

الاحتِمال الأول: أن الجميع أُهلك، وَهَذا يشكل علَيْه آيات كثيرة بأن الله تَعالَى أنجى المُؤْمِنِينَ.

الاحتِمال الثّاني: أن المُرَاد بقوْله تَعالَى: ﴿أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ الَّذِين يعرفون أنهم عَلَى شرك دون الغوغاء والعامة الَّذِين لا يدرون مَا هم علَيْه وَإِنَّمَا هم أتباع كل ناعق.

الاحْتِمال الثّالث: أن يُقَال العاقبة حميدة وذميمة، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقول: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ ونحن نعلم أن من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ أن يجازي المشركَ عَلَى شركه والمُؤْمِنَ عَلَى إيمانه، وحِينَئِذٍ يَكُون فِي الآيَة ترغيب فِي الإيمان والتّوحيد وترهيب عن الشّركِ والكفر، فأي الاحْتِمالات أولى؟ الظّاهر أن الأخير أولى يعني أن ينظروا كَيْفَ كانت عاقبة السّابقين، وأن من كَانَ مشركًا منهم أُخذ بشركه، ومَنْ كَانَ مؤمنًا نُجِّيَ بإيمانه من أجل أن يؤمنوا هم ومن أجل أن يثبت المُؤْمِنُونَ من هَذِهِ الأمة عَلَى إيمانهم.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَأُهْلِكُوا بِإِشْرَاكِهِمْ وَمَسَاكِنُهُمْ وَمَنَازِلُهُمْ خَاوِيَةٌ] هَذَا هُوَ الواقعُ فمثلًا قوم صالح، صالح والَّذِين معه نجوا، وقومهم أخذتهم الرَّجْفَةُ والصَّيْحَةُ ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف:٧٨]، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النّمل:٥٢]، تجدها الآن خاوية ولم تُسكن فيها نعلم بعدهم، مَا سُكنت إِلَى الآن.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: الأمر بالاعْتِبار بما جرى للسابقين لقوْلِه تَعالَى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

الفائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه ينبغي لِلإنْسَانِ أنْ يقرأ كُتُبَ التّاريخ الماضية للاعتبار، ولكن كما نعلم جميعًا كتب التّاريخ بعضها مزيف لَيْسَ عَلَى حقيقته فمصدر التّاريخ فِي الأمم السّابقة مَا أخبر الله بِهِ ورسوله، قَالَ الله تَعالَى فِي سورة إبراهيم: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [التّوبة:٧٠]، ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]، فنفى أنْ يكُونَ لأحدٍ علمٌ بِهِ إِلَّا الله.

إِذَنْ: من أين نأخـذ أخبارهم مَا دام أنَّه لا يعلمهم إِلَّا الله؟ نأخـذها من الله إمَّا من الكتاب أو من السّنة.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أن أسباب هلاك الأمم السّابقين كانت إشراك أكثرهم لقوْلِه تَعالَى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أن العقوبة إِذَا حلت قد تصيب الصّالح وغيره لأَنَّهُ قَالَ: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ يعني والبعض لم يشرك ومن ذَلِك قوْله تَعالَى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٥]، وقد ينجي الله المؤْمنِينَ كما أنجى الله تَعالَى الرّسل ومن آمن معهم.

• ● ۞ ● •

الآية (٤٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم:٤٣].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾ دِين الإِسْلامِ].

أقم الخطاب للرسول ﷺ أو لكل من يتوجه إِلَيْهِ الخطاب، وقد سبق توجيه القول الأول إِذَا جعلنا الخطاب للرسول ﷺ فإما أنْ يكُونَ المُراد بِهِ الرَّسول نفسه وتكون أمته تبعًا لَهُ، وإما أن يُراد بِهِ الرَّسول والأمة، لكن خوطب بِهِ الرَّسول لأَنَّهُ زعيمُهم وإمامهم.

وقوْله تَعالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾ هل المُراد بالوجه الاتجاه أو المُراد الوجه الحسي الَّذي فِي الرّأس؟

الظّاهر أن المُراد الاتجاه؛ لأَنَّ الوجه يراد بِهِ الجهة كما قَالَ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١١٥]، لأَنَّهُ سبق أن فِيهَا قولَيْن للمفسرين:

- قولٌ أنَّ المُراد بِهِ وجه الله الحقيقي.
- وقول أن المُراد بِهِ الجهة.

ولا شك أن الوجه يراد بِهِ الجهة، وَإِذَا قلنا إن المُراد بالوجه الجهة، اتجاهك للدين شمل مَا إِذَا كَانَ الوجه الحسي فيما يطلب مِنْهُ الاتِّجاه للقبلة مثلًا.

وقوْله تَعالَى: ﴿لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ المُراد بالدِّين هُنَا العمل وقد سبق أن الدِّين فِي القرآن يراد بِهِ العمل والجزاء فقوْله تَعالَى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]، وقوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٧]، المُراد بالدِّين الجزاء وأما قوْله تَعالَى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وقوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، فالمُراد بِهِ العمل كما فِي هَذِهِ الآية.

وقوْله تَعالَى: ﴿ٱلْقَيِّمِ﴾ القيم ضد المعوج كما قَالَ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام:١٦١]، يعني قَيِّمًا، فدينُ الإسْلام دين مستقيم لَيْسَ فِيهِ اعوجاج لا بالنِّسبة لمعاملة الله عَزَّوَجَلَّ وَهِيَ العبادة ولا بالنِّسبة لمعاملة المخلوق؛ وَلِهَذا تجد فِي المعاملات حرم الكذب والغش والخديعة وما أشبه ذَلِك، وحرم الجور والظّلم، وتحريم تفضيل الأولاد وما أشبه ذَلِك؛ لأَنَّ كل هَذَا خلاف الاستقامة، وفِي العبادات حرم الشّرك والابْتداع لما فِي ذَلِك من الانحراف عن الصّراط المستقيم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، هل يشمل الأَعمال الظّاهرة والباطنة؟

قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، هَذَا يشمل العقيدة ويشمل الأَعمال الظّاهرة، مثل الإسْلام إِذَا قرن بالإيمان كَانَ الإسْلام للأعمال الظّاهرة والإيمان للأعمال الباطنة، وَإِذَا أفرد أحدهما شمل الآخر.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ وَهُوَ يَوْمُ القِيامَةِ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾]، قوْله تَعالَى: ﴿مِن قَبْلِ﴾ متعلق بـ(أَقِمْ) يعني أقمه من قبل هَذَا اليوم.

وقوْله تَعالَى: ﴿يَوۡمٌ﴾ نُكر للتعظيم لأَنَّ هَذَا اليوم كما وصفه الله تعالَى فِي قوْله تَعالَى: ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٥٥].

وقوْله تعالَى: ﴿مَرَدَّ﴾ هَذَا مصدر ميمي أي لا رد لَهُ، يعني لا يمكن أن يرد هَذَا اليوم لأَنَّ الله تَعالَى قضى به.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلقٌ بصفة لـ(يوم) يعني من قبل أن يأتي يَوْم من الله، يعني هَذَا اليوم من الله لا من غيره، ويحتملُ أنْ يكُونَ متعلقًا بـ﴿يَأۡتِيَ﴾ أن يأتي من الله يَوْم، والأَول أبلغ أنْ يكُونَ صفة لـ(يوم) لأَنَّ كونه من الله يدل عَلَى عظمته وأنه لا يمكن أن يرد هَذَا اليوم.

وقوْله تعالَى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٌ﴾، إذا قَالَ قَائِلٌ: هَذِهِ الآية خوطب بِهَا النَّاس فِي عهد الرَّسول ﷺ ومعلوم أن القِيامَة لا تكون فِي عهد الرَّسول ﷺ فكيف قَالَ: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾؟

فالجوابُ: أنَّ الموتَ واقعٌ حتى فِي عهد الرَّسول ﷺ ومن مات قامت قيامته وانقطع عمله ولا فرق بَيْنَ من يموت فِي ذَلِك الوقت وبين من يموت وَهُوَ آخر النَّاس موتًا بالنّسبة لانقطاع العمل كل منهم انقطع عمله، فكأن من يموت فِي عهد الرَّسول ﷺ كأنه بلغ يَوْم القِيامَة؛ وَلِهَذا يقول العلَماء: إن موت الإنسان قيامة بالنّسبة إِلَيْهِ وَهُوَ قيامة صغرى بالنّسبة إِلَى عُمُوم النَّاس لأَنَّ العمل انقطع وانتهى.

وقوْله تَعالَى: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يفيد بأن هَذَا أمر لا بُدَّ أن يقع وَهُوَ كَذَلِكَ فإن يَوْم القِيَامَة هُوَ الَّذي من أجله خُلق النَّاس، خلق النَّاس لعبادة الله، وجزاؤها يَكُون يَوْم القِيامَة.

قوْله تَعالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فيه إدغام التّاء فِي الأَصل فِي الصّاد ومعناه يتفرقون بعد الحساب إِلَى الجنة والنّار].

قوْله تَعالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: (إذ) منونة والتّنوين هُنَا عِوَضٌ عن جملة يعني يَوْم إذ يأتي يَصَّدَّعُونَ، ويقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فيه إدغام التّاء فِي الأَصل فِي الصّاد]، أي أن أصلها يتصدعون، فقوله: [إدغام التّاء فِي الأصل] أي باعتبار الأصل يعني أن الصّاد الَّتِي أدغمت فِي أختها أصلها تاء فأدغمت فِيهَا بعد قلبها صادًا ومعنى يَصَّدَّعُونَ يتفرقون، فالتَّصَدُّعُ التّفرق ومنه تَصَدُّعُ الأَرْضِ لأَنَّ تَصَدُّعَهَا تَفَرُّقٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: وجوب الاتِّجاه إِلَى الدّين؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ ويلزم من وجوب الاتِّجاه إِلَيْهِ وجوبُ الإعراضِ عما سواه؛ لأَنَّ الوجهة واحدة، إمَّا إِلَى هُنَا وإما إِلَى هُنَا، فإذا لزم أن تتجه إِلَى الدّين لزم أن تنحرف عن غيره.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: تحريم الحكم بِغَيْر مَا أنزل الله لأَنَّهُ مخالَف للاتجاه للدين القيم والحكم بِغَيْر مَا أنزل الله مِنْهُ مَا يَكُون كفرًا ومنه مَا يَكُون فسقًا ومنه مَا يَكُون ظلمًا كما ذكر الله تَعالَى ذَلِك فِي سورة المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، وفِي الآية الثّانية ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥]، وفِي الآيَة الثَّالثة ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧]، وهذه الأوصاف تتنزل عَلَى حال الحاكم فقد يَكُون كافرًا أو ظالمًا أو فاسقًا.

الفائِدَةُ الثَّالثَةُ: أنَّ هَذَا الدِّينَ قَيِّمٌ، ومعنى قيم: معتدل لا اعوجاج فِيهِ فِي جانب العبادة ولا فِي جانب المعاملة.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أَنّك إِذَا ظننت أن فِي الدِّين مَا يخالِف الاستقامة فاعلم أَنّك قاصر إِمَّا فِي علمك وإما فِي فهمك وجه ذَلِك أن الله وصف هَذَا الدّين بِأَنَّهُ قيم، كل شيء تستعرضه فِي دين الله فيبدو لك أَنّه لَيْسَ عَلَى الاستقامة فاعلم أَنّك مخطئ لقصور علمك أو لقصور فهمك، والإنسان يؤتى من هاتين النّاحيتين إمَّا لقصور علمه يعني لَيْسَ عنده علم، وإما لقصور فهمه عنده علم لكن لا يفهم.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أَنّه ينبغي لمن أَمَرَ بشيء أن يذكر مَا يُغْرِي بِهِ ويُرَغِّبُ فِيهِ، يؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿ٱلْقَيِّمِ﴾ فالإنسان إِذَا عرف أنَّ الدِّين قيم لا شك أَنّه يتجه إِلَيْهِ، فأنت إِذَا أردت أن تأمر بشيء فاذكر الأسباب الَّتِي توجب للناس الإقبال عليْه بأوصافه المحبوبة وثمراته الحميدة.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: الجمع بَيْنَ التّرغيب والتّرهيب: التّرغيب فِي قوْله تَعالَى: ﴿ٱلْقَيِّمِ﴾ والتّرهيب فِي قوْله تَعالَى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: إثْبَات يَوْم القِيامَة وأنه آتٍ لا محالة لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: أن يَوْم القِيامَة يَوْم عظيم يؤخذ من تنكير ﴿يَوْمٌ﴾ فِي قوْله تَعالَى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ والتّنكير يفيد التّعظيم، ويدل لعظم هَذَا اليوم قوْله تَعالَى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٦].

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أن الحكم لله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ فلا أحد يستطيع أن يمنع مَا أراد الله ولا أن يجلب مَا لم يُرِدِ الله أبدًا «اللهم لا مانِعَ

لما أعطيتَ ولا مُعْطِيَ لما مَنَعْتَ ولا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»[١].

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أن النَّاس يَوْم القِيَامَة ينقسمون ويتفرقون؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾.

• ● ۞ ● •

(١) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب لا مانع لما أعطى الله، رقم (٦٦١٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (٥٩٣).

الآية (٤٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الرّوم:٤٤].

قوْله تَعالَى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [وَبَالُ كُفْرِهِ وَهُوَ النَّارُ]، هَذَا كالتّفسير لقوْلِه تَعالَى: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ لأنَّ معنى ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ يتفرقون بحسب أعمالهم.

قوْله تَعالَى: ﴿مَن﴾ شرطية، وفعل الشّرط ﴿كَفَرَ﴾، وجوابه جملة ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ وقوْله تَعالَى: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ جملة خبرية مكونة من مبتدأ وخبر، المبتدأ قوْله تعالَى: ﴿كُفْرُهُۥ﴾ والخبر قوْله تَعالَى: ﴿فَعَلَيْهِ﴾ مقدم، وفائدة التّقديم الحَصْرُ.

قوْله تَعالَى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ مثلها شرطية وجواب الشّرط قوْله تعالَى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ وقُدِّم المعمولُ ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ للحَصْرِ وَهِيَ فائدة معنويةٌ ولمراعاة الفواصل وَهِيَ فائدة لفظية؛ لأَنَّهُ لو قَالَ فيمهدون لأنفسهم استقام الكلام لكِنَّهُ قُدِّم لهاتين الفائدتين.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ يعني أَيَّ إِنْسَان يكفر فإنَّ وَبَالَ كفره علَيْه لا يضر إِلَّا نفسه، وهل يَكُون عَلَى غيره؟ لا يَكُون عَلَى غيره إِلَّا أنْ يكُونَ ذَلِك الغير سببًا فيه، فإن كَانَ سببًا فِيهِ صَارَ علَيْه مثل وزره قَالَ الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا

أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النّحل:٢٥]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣]، وثبت عن النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»(١).

فإذا قِيلَ: هل هَذَا يناقض الآيَة ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾؟

فالجوابُ: لا يناقضها لأَنَّهُ إِذَا كَانَ هُوَ السّبب فإن ذَلِك من عمله لكن صورة المَسْأَلَة مختلفة أَنّه عمل غيره وعمل نفسه، إنما حقيقة الأمر أن الدّال عَلَى الكفر فاعل لما يؤزر عليه.

قوْله تَعالَى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ الكفر فِي اللُّغَة العَرَبِيَّة هُوَ السّتر ومنه الكُفُرَّى الَّذي هُوَ غلاف طَلْعِ النّخل، فالكفر فِي الأصل هُوَ هَذَا والمُراد بِهِ الخروج عن طاعة الله؛ لأَنَّ الخارج عن طاعة الله قد ستر مَا أنعم الله بِهِ علَيْه من العقل والعِلْم وما أشبه ذلك.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ قَالَ أهل العلم: العمل الصّالِح هُوَ مَا جمع شرطين أساسيين أحدهما الإِخْلاص والثّاني المتابعة للرسول ﷺ، والإِخْلاص ضده الشّرك، والمتابعة ضدها الابتداع فمثلًا إِذَا وجدنا رجلًا يصلي الصّلاة المعتادة لكِنَّهُ يرائي النَّاس بهَا فعمله لَيْسَ بصالح لأنه فقد الإِخْلاص، وَإِذَا وجدنا رجلًا قد أحدث نوعًا من العبادات لم يُرِدْ بِهِ الشّرع لكِنَّهُ مخلص يريد بذَلِكَ وجه الله وتجده خاشعًا يبكي ويتأثر بهذه العبادة لكنها عَلَى غير شريعة الله فَهَذَا عبادته باطلة؛

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، رقم (١٠١٧).

لفقد المتابعة للرسول ﷺ.

ومن ذَلِك مَا إِذَا أخرج العبادات المشروعة عما شرعت عليه، وَهِيَ عبادة مشروعة فِي الأصل لكن أخرجها عما كانت علَيْه، فإِنَّهُ لا يُقبل عمله كما لو صلى الصّلاة بعد خروج وقتها متعمدًا بدون عذر فَهَذَا لا يقبل مِنْهُ لأَنَّهُ لا توجد متابعة هُوَ مخلص لكِنَّهُ غير متابع، وَكَذلِكَ لو صلى صلاة لا يطمئن فِيهَا إِذَا قَالَ: (سمع الله لمن حمده) سجد بسرعة إِذَا قَامَ من السّجود سجد الثّانية بسرعة فصلاته باطلة، لو صلى إِلَى يَوْم الدِّين مَا قَبِلَ الله مِنْهُ لعدم المتابعة؛ وَلِهَذا لما صلى رجل صلاة لا يطمئن فِيهَا قَالَ لَهُ الرَّسول ﷺ: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكِ لَمْ تُصَلِّ»(١)، فنفى عنه الفعل لانتفاع صحته وإلا فإِنَّهُ قد صلى لكنها ليست صلاةً، ولو سألتَهُ لماذا صليتَ؟ قَالَ: مَا صليتُ إِلَّا لله، لكِنَّهُ خَالَفَ أمْرَ الله.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل هَذَا يُنافي الإِخْلاص؟

قُلْنَا: لا ينافي الإِخْلاصَ، فالإِخْلاصُ فِي القلب، وَهُوَ مَا قَامَ يصلي من أجل النَّاس، ولا همُّه النَّاس، فَهُوَ صلى لله، لَكِنَّهُ خالَف أمر الله.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يلزم المصلي أن يفقَه مَا يقولُ؟

قُلْنَا: لَيْسَ بلازم لكِنَّهُ أفضل إِذَا فقه مَا يقول، فإذا كَانَ قلبه حاضرًا يعني خاشعًا فِي صلاته وحاضر القلب فَهُوَ أفضل.

وهل المصلي يَكُون خشوعه فِي أمور داخلَ الصَّلاة أم خارجَها؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب أمر النبي ﷺ الذي لا يتم ركوعه بالإعادة، رقم (٧٩٣)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٧).

الجوابُ: يخشع فِي أمور داخل الصّلاة يعني يستحضر مَا يقول فِي صلاته وما يفعل فِي صلاته، فمثلًا لا يذهب يتذكر جلسة كَانَ خاشعًا فِيهَا فيما سبق.

لو قِيلَ: المصلي قد يتذكر القبور والجنة والنّار، فهل يصح؟

الجوابُ: لا يصح إِلَّا إِذَا مرَّتْ بِهِ أثناء قراءته.

قوْله تَعالَى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ المهد والتَّمهيد بمعنى التّوطئة، ومنه قولهم هَذَا طريق مُمَهَّدٌ يعني موطأ مُحَسَّن لأجل أن تطأه الأقدام فمعنى ﴿يَمْهَدُونَ﴾ أي يحسنون الشَّيْءَ حتى يَكُون موطئًا لَهُم، وَذَلِكَ لأَنَّ الَّذِين يعملون صالحًا يتوصلون بعملهم الصّالِح إِلَى دخول الجنة فيسهل لَهُم الطّريق الَّذي يوصلهم إليها.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ تقديم المعمول يفيد الحَصْرَ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هل هَذَا ينافي مَا ثبت فِيهِ الحديث من أن «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فِي الإِسْلامِ فلَهُ أَجْرُها وأَجْرُ مَنِ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْم القِيَامَةِ»[1]؟

قُلْنَا: لا ينافيه؛ لأَنَّ الَّذِين يسنونَ الحسناتِ عملوا فتُوبِعُوا عَلَى ذَلِك، فالأجر الَّذي حصل لَهُم من أجل اتباع غيرهم لَهُم هُوَ فِي الحقيقة من فعلهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: الجمعُ بَيْنَ التّرغيب والتّرهيب، فالتّرهيب فِي قوْله تَعالَى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ والتّرغيب فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾.

الفائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن شؤم الكافر لا يتعداه إِلَى غيره؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿مَن كَفَرَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، رقم (١٠١٧).

فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ وتقديم الخبر يدل عَلَى الحصْرِ.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أنَّه لا يتم الثّـواب إِلَّا بالعمل الصّالِح المبني عَلَى أمـرين وهما الإِخْلاص لله تَعالَى والمتابعة لرسوله ﷺ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أن الحَزْمَ والكِيَاسَةَ فِي العمل الصّالح لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾؛ لأنهم إِذَا فعلوا ذَلِك استراحوا فِي المستقبلِ إذ إنهم وطئوا لأنفسهم منزلًا هُوَ خير المنازل، وقد ذكرنا الجمع بَيْنَ قوْله تَعالَى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ وبين قوله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»، وقوْله تَعالَى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣]، وقوْله تَعالَى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النّحل:٢٥]، وذكرنا فِي الجمع أنهم هم السَّببُ.

الآيــة (٤٥)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الروم:٤٥].

قوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِىَ﴾؛ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُتَعَلِّقٌ بـ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾]، دائِمًا نرى العلَماء إِذَا جاء ظرف أو جار ومجرور يقُولونَ متعلِّق بكذا.

فما معنى قولهم مُتعلِّق؟

يعني أن هَذَا هُوَ الَّذي عمل فِيهِ لأَنَّ الجَارَّ والمجرورَ والظَّرْفَ بمنزلة المفعول به، والمفعول بِهِ لا بُدَّ لَهُ من عامل يعمل به، فإذا قِيلَ: (متعلق بكذا) يعني أن هَذَا هُوَ الَّذي عمل فيه، ولا بد لكل جار أو ظرف لا بُدَّ لَهُ من متعلق، قَالَ الناظمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

لابُــدَّ للجَــارِّ مِــنَ التَّعَلُّــقِ ... بِفِعِــلٍ أَوْ مَعْنَــاهُ نَحْــوَ مُرْتَقِــي

فيكون معنى قوله: [متعلق بـ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾] أن العامل فِي كلمة ﴿لِيَجْزِىَ﴾ قوْله تَعالَى: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ وَهَذا رأي المُفَسِّر، ويحتمل أنْ يكُونَ مُتَعَلِّقًا بقوله ﴿يَأْتِىَ﴾ في: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لأَنَّ التَّصدُّعَ فِي الحقيقة هُوَ

---

(١) نظم قواعد الإعراب للجواد بن شبيب بن حية.

نفس الجزاء، فكيف يَكُون الشّيء علة لنفسه؟! هَذَا مَا يبعد كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكن إِذَا قيل يأتي هَذَا اليوم لأجل المجازاة صَارَ المَعْنَى مستقيمًا وواضحًا.

فإذا قُلْنَا: إن هَذِهِ اللام فِي قوْله تعالَى: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ -لأَنَّ اللام حرف جر- متعلقة بـ﴿يَأْتِىَ﴾ فَهُوَ أوضح من قولنا أنّها متعلقة بـ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾؛ لأَنَّ نفس التَّصَدُّعَ والتّفريق إِلَى الجنة وإلى النّار هُوَ نفس الجزاء.

وقال بعض المعربين إنّه خبر لمبتدأ محذوف، فَهُوَ متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوفٍ، والتّقدير ذَلِك ليجزي والمشار إِلَيْهِ مَا سبق، وَهَذا أيضًا وجيه جدًّا أن يُجعل متعلقًا بمحذوفٍ خبرًا لمبتدأ محذوفٍ.

قُلْنَا: إن اللام فِي قوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ حرف جر، والمعلوم أن حروف الجر لا تدخل إِلَّا عَلَى الأسماء، ومن علامات الاسم الجر، ومن أسبابه دخول حرف الجر علَيْه، صاحب الأجروميّة يقولُ[1]: (الاسْمُ يُعْرَفُ بِالخَفْضِ، وَالتَّنوِينِ، وَدُخُولِ الأَلِفِ وَاللَّامِ، وَحُرُوف الخَفْضِ...)، فكيف صحَّ أن نقول إن اللام فِي قوْله تعالَى: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ حرف جر مَعَ أنّها داخلة عَلَى فعل؟

فنقُول: لأَنَّ هَذَا الفعل بمنزلة الاسم، إذ إِنَّه فعلٌ مُقَدَّرٌ فِيهِ (أَنْ) لأَنَّ التّقدير لأَنْ يجزيَ، و(أَنْ) مصدرية تحول الفعل إِلَى مصدر، والمصدر اسم، وعليه فيكون المَعْنَى لجزاء الَّذِين آمنوا وعملوا الصّالحات إِلَى آخره، فإذا دخلت اللام: لام التّعليل عَلَى الفعل، فإِنَّهُ يقدر بينها وبين الفعل أن المصدرية، والتّقدير: لأَنَّ يجزي فالفعل منصوب بـ(أن) مضمرة بعد اللام، واللام جارة لما بعدها باعتبار أن الفعل سيكون مصدرًا، فهي نفسها حرف جر وَهِيَ نفسها لام التّعليل الَّتِي يُنْصَب الفعل المضارع

---

(١) متن الآجرومية لابن آجروم الصنهاجي (ص:٥)، ط. دار الصميعي.

بـ(أن) بعدها عَلَى رأي البصريين، فاللام واحدة ولام التّعليل كما تدخل عَلَى الأفعال تدخل عَلَى الأسماء، فلو قلت: (جئت لإكْرَامِكَ) فهي لام التّعليل، وتقول: (جئت لأُكْرِمَكَ) هِيَ لام التّعليل.

وقوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الفاعل: فاعل الجزاء هُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَهُوَ ضمير مستتر يعود عليه.

وقوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الجـزاء بمعنى المكافـأة يعني ليكافـئهم ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾؛ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يُثِيبَهُمْ]، هَذَا تفسيرٌ للجزاء بمعنى الإثابة والثّواب هُوَ المكافأة وسمي ثوابًا لأَنَّهُ من ثاب يثوب إِذَا رجع لأَنَّهُ يرجع إِلَى الإنسان جزاء عمله.

وقوْله تَعالَى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ انتبه لهذين الشّرطين؛ إيمان، وعمل صالح، فالإيمان وحده لا يكفي، والعمل الصّالِح وحده لا يكفي، هَذَا إِذَا قُرن الإيمانُ بالعمل، أَمَّا إِذَا قِيلَ: عمل صالِح يكفي، أو إيمان يدخل فِيهِ العمل، والإيمان يَكُون بالقلب، فمن لا إيمـان فِي قلبه لو عمل من الصّالِحات مهما عمل لم ينفعه، والمنافق يذكر الله ويصلي وينفق وربما يخرج فِي الجهاد ولا ينفعه عمله؛ لأَنَّهُ لا إيمان فِي قلبه، الإنسان الَّذي عنده إيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لكِنَّهُ لم يعمل عملًا صالحًا يمكن أن يُجزى إِلَّا فِي واحدة فقط وَهِيَ الصّلاة، فإِنَّهُ إِذَا لم يعملْها لا ينفعه إيمان لأَنَّهُ قد دلت الأدلة عَلَى أن هَذَا العمل وإن كَانَ عملًا بدنيا لكِنَّهُ يَكْفُرُ الإنسان بتركه كفرًا مخرجًا عن الملة، أَمَّا غير الصّلاة من الأعمال فقد قَالَ عَبْدُ الله بْنُ شَقِيقٍ: «كَانَ أصحاب النَّبيّ ﷺ لا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ إِلَّا الصّلاةَ»[1]، يعني لو لم يُزكِّ

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم (٢٦٢٢).

فإِنَّهُ لا يخرج من الإِيمان، لو لم يَصُمْ فإِنَّهُ لا يخرج من الإِيمان، لو لم يَحُجَّ فإِنَّهُ لا يخرج من الإِيمان، هَذَا هُوَ الصّحيح، وعن الإِمَام أحمد رواية أن جميع أركان الإِسْلام إِذَا تركها الإنسان متهاونًا فَهُوَ كافر، فإذا لم يُزَكِّ فَهُوَ كافر، إِذَا لم يَصُمْ فَهُوَ كافر، إِذَا لم يَحُجَّ فَهُوَ كافر، يقول: لأَنَّ الرُّكنَ علَيْه الاعتماد، ركن الشّيء علَيْه اعتماد الشّيء، فإذا لم يوجد الرّكن مَا قَامَ الشّيء، وَهَذا لا شك أن لَهُ وجهًا لكن الأدلة تمنع من القول بِهَذا، فإن حديث أبي هريرة الصّحيح فيمن لا يؤدي زكاته، ذكر النَّبيّ ﷺ عقوبته ثمَّ قَالَ: «ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»[1]، فَهَذَا يدلُّ عَلَى أنّه لا يكفر بمنع الزّكاة، وجهه لأَنَّهُ لو كفر بِذَلِكَ مَا كَانَ لَهُ سبيل إِلَى الجنة، وَهَذا واضح، فإذا لم يكفر بترك الزّكاة فما دونها من باب أولى، ولا شك أن أركان الإِسْلام الَّتِي دون الزّكاة أَنَّها دونها فالصِّيام دون الزّكاة والحج دون الزَّكاة.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا تَقُولُونَ فِي قوْله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧]، فإن ظاهره من كفر فلم يحج فإن الله غنيٌّ عن العالمين؟

فالجوابُ: إن المُرَاد بالكفر هُنَا سوى الكفر الأكبر يعني كفر دون كفر، وَلِهَذا لم يقل ومن لم يحج فَهُوَ الكافر، أو وتَرْكُ الحج هُوَ الكفر كما قَالَ فِي الصّلاة، و(كَفَرَ) فِعْلٌ، والفعل يدل عَلَى الإطلاق ولا يدل عن العُمُوم، فَهَذَا الجواب عن هَذِهِ الآيَة، والَّذِين قَالُوا إِنَّه يكفر بترك الحج احتجوا بهذه الآية، وأما قول عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ فَلْيَمُتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيًّا»[2]، هَذَا يُقَال من باب

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم (٩٨٧).

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الحج، باب ما جاء في التغليظ في ترك الحج، رقم (٨١٢).

التّهديد أو أن هَذَا رأي لَهُ، وَهَذا أيضًا إن صح الحديث؛ لأَنَّ فِي الحديث مقالًا، لكن إن صح فَهُوَ يُحمل عَلَى أن المُراد أن هَذَا من باب التّحذير أو أنّه رأي لَهُ كما رآه غيره من أهل العلم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: حديثُ مَنْ لَمْ يَغْزُ ولَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالغَزْوِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً[1]. كَيْفَ نُجِيبُ عَلَى هَذَا الحديث؟

قُلْنَا: لا يمنع أن الإنسان يموت ميتة جاهلية لأَنَّهُ فعل فعلًا من أفعال الجاهلية حيْثُ لم يَقُمْ بواجب الجهاد.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: إثْبَاتُ العِلَلِ فِي أفعال الله لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وقد انقسم النَّاس فِي هَذَا إِلَى ثلاثة أقسام:

- قسم: أنكروا العلل فِي أفعال الله وفي شرعه وقَالُوا إِنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يفعل مَا يشاء ويحكم بما شاء بدون أي علة أو حكمة كالجبرية.

- وقسم آخر: أثبتوا العلل فِي أفعال الله وقَالُوا إن الله تَعالَى لا يفعل إِلَّا لحكمة ولا يشرع إِلَّا لحكمة، لكنهم جعلوا تلك العلل موجبة وقَالُوا يجب عليْه أن يفعل كذا لكذا، وهَؤُلاءِ المعتزلة.

- وقسم ثالِث: توسطوا وقَالُوا أفعال الله تَعالَى لحكمة وشرائعه لحكمة لكن ليست هَذِهِ الحكمة موجبة بل الَّذي أوجب عَلَى نفسه الحكمة هُوَ الله، والحكمة من

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب ذم من مات، ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، رقم (١٩١٠)، ولفظه: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ».

مقتضى اسمه الحكيم فتكون واجبة ليست بإيجاب أحد ولكنها بمقتضى كونه حكيمًا هُوَ الَّذي أوجبها عَلَى نفسه وَهَذا القول هُوَ الصّحيح وَإِذَا قلنا بِهِ فإننا لا يمكن أن نعترض عَلَى أي حكم من أحكام الله كونيا كَانَ أم قدريا لأننا نعلم أن الَّذي أوجب أن تقترن أفعاله وشرائعه بالحكم هُوَ الله لا نحن فلا نقول: إن الله يجب علَيْه فعل الأصلح ولا فعل الصّلاح إيجابًا مستقلًّا عن إرادته وَهَذا القول هُوَ الحق.

إِذَنْ: نأخذ مِنْهُ أن جميع أفعال الله وأحكام الله كلها معللة بالحكمة بمقتضى اسمه الحكيم.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أن الجزاءَ لَيْسَ واجبًا عَلَى الله لقوْلِه تَعالَى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ لكِنَّهُ أوجبه عَلَى نفسه لقوْلِه تَعالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤]، أوجبه هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى نفسه وَلِهَذا قَالَ الشّاعر[1]:

مَـا لِلْعِبَـادِ علَيْـهِ حَـقٌّ وَاجِـب ... كَـلَّا وَلا عَمَـلٌ لَدَيْـهِ ضَـائِعُ
إِنْ عُـذِّبُوا فَبِعَدْلِـهِ أَوْ نُعِّمُـوا ... فَبِفَضْلِهِ وَهُـوَ الكَـرِيمُ الوَاسِـعُ

وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ نظم معنى هذين البيتين لكِنَّهُ علل فقال[2]:

مَـا لِلْعِبَـادِ علَيْـهِ حَـقٌّ وَاجِـب ... هُوَ أَوْجَبَ الأَجْرَ العَظِيمَ الشَّانِ
إِنْ عُـذِّبُوا فَبِعَدْلِـهِ أَوْ نُعِّمُـوا ... فَبِفَضْـلِهِ وَالفَضْـلُ لِلْمَنَّـانِ

فقيد المطلق فِي البيتين السّابقين أنّه هُوَ الَّذي أوجب ذَلِك تَفَضُّلًا مِنْهُ عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٦٢).

(٢) الكافية الشافية لابن القيم (ص:٢٠٨، ٢٠٩)، ط. مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: إثْبَات المحبة لله تؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ لكن هَذَا نفي كَيْفَ نأخذ مِنْهُ الإثْبَات؟

لأَنَّهُ إِذَا انتفى محبته عن الكَافِرِينَ لزم محبته للمؤمنين، فإن لم يكن، لم يكن فرق بَيْنَ المؤْمِنينَ وبين الكَافِرِينَ، لو كانت المحبة منتفية فِي هَؤُلاءِ وهَؤُلاءِ مَا كَانَ بينهم فرق، وَلهَذا استدل أهل العِلْم عَلَى إثْبَات رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقوْله تَعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، قَالُوا: فلما حجب هَؤُلاءِ فِي حال السّخط دل عَلَى أنَّه لا يحجب الآخرون فِي مقام الرّضا.

إِذَنْ: نأخذ من هَذِهِ الآيَة إثْبَات المحبة وَهِيَ كما سبق الكلام علَيْه صفة ثابتة لله عَلَى وجه الحقيقة وليست بمعنى الثّواب ولا إرادة الثّواب، وَإِنَّما ذَلِك من لازمها ومقتضاها إِذَا أحب قومًا أثابهم ولا يثيبهم إِلَّا بإرادة ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: الحث عَلَى الإِيمان والعمل الصّالِح، الله جَلَّوَعَلَا مَا قَالَ آمِنُوا واعْمَلُوا، لكنْ ذِكْرُ الجزاءِ يستلزم الحث عَلَى الفعل، وَهَذا أحد الطّرق الَّتِي يُستدل بِهَا عَلَى أن الشّيء مأمور بِهِ، لا تظن أن الشّيء المأمور بِهِ هُوَ مَا جاء بصيغة الشّيء افعل، بل الأمر يستفاد من عدة أمور، فإذا ورد التّرغيب فِي شيء فَهُوَ مأمور به.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: ذم الكفر يؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ فإذا نفى الله المحبة عن هَؤُلاءِ فإِنَّهُ يقتضي ذم عملهم.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أن الحكم إِذَا علق بمشتق -وهذه فائدة أُصُولِيَّة- فَهُوَ دليل عَلَى أن ذَلِك المشتق هُوَ علة فِي الحكم، مثلًا قوْله تعالَى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ فالعلة هُنَا كفرهم، أي أن الحكم بعدم حبهم عُلق عَلَى وصفٍ هُوَ كفرهم.

إِذَنْ: فالكفر علة انتفاء المحبة.

وكما لو قَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصّف:٤]، فالعلة فِي المحبة هِيَ القتال فِي سبيله صفًا.

وهكذا كُلُّ حُكْمٍ معلَّق بمشتق فإِنَّهُ يدل عَلَى عِلِّية ذَلِك الشّيء.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: اعتبار اللازم بمعنى أَنَّه إِذَا لزم من الشّيء كذا وكذا فإِنَّهُ يثبت هَذَا اللازم تبعًا لثبوت الملزوم، فمثلًا لاحِظ فِي المؤْمِنينَ قَالَ: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ما قَالَ إِنَّه يحب أو لا يحب الكَافِرينَ قَالَ: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فالمقابل: أَنَّه لا يحب الكَافِرِينَ، فالَّذي يلزم مِنْهُ أَلَّا يجزيَهم من فضله وَإِنَّما يعاملهم بعدله، فعقاب الكَافِرِينَ مأخوذ من لازم انتفاء المحبة.

ودلالة التّلازم هَذِهِ مفيدة جدًّا لطالب العلم، ومعناها أَنَّه يلزم من كذا وكذا، كذا وكذا، لكن لا بُدَّ من شرطين:

الشّرط الأول: أَنْ يكُونَ اللازم صحيحًا، فإن كَانَ اللازم فاسدًا فإِنَّهُ لَيْسَ بلازم حتى لو ادعى الإنسان أَنَّه لازم فليس بلازم.

الشّرط الثّاني: أَنْ يكُونَ ذَلِك فِي كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

أما الشّرط الأول -أَنْ يكُونَ التّلازم صحيحًا- فإننا نحترز بِهِ عما إِذَا كَانَ التّلازم غير صحيح، مثلًا أهل التّعطيل الَّذِين أنكروا الصّفات أو بعضها، شُبْهَتُهُمْ فِي الإنكار قَالُوا إِنَّه يلزم التّمثيل، لكن هَذَا اللازم لَيْسَ بصحيح؛ ولذلك لا نقول إِنَّه يلزم من إِثْبَات الصّفات التّمثيل لأَنَّهُ لَيْسَ بلازم.

في كلام الله وكلام رسوله إِذَا كَانَ اللازم صحيحًا فَهُوَ حق ويكون النّص دالًّا

عليْه، لكن فِي كلام غيره لا يَكُون اللازم قولا لصاحب القول الملزوم، وَلِهَذا العلَماء عِنْدَهُم ترجمة فِي هَذِهِ المسألة: (هلْ لازِمُ القَوْلِ قَوْلٌ أَوْ لَيْس بِقَوْلٍ؟) فمنهم من قَالَ إن لازم القول لَيْسَ بقول، ومنهم من قَالَ إن لازم القول قول.

والصّحيح أن لازم القول فِي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قول لكن بشرط أنْ يكُونَ اللازمُ صحيحًا، ويكون قولًا لأَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يعلم مَا يترتب عَلَى كلامه من اللوازم وَإِذَا لم ينفها الله دل ذَلِك عَلَى ثبوتها، لكن الإنسان البشر لا يعلم دوما مَا يلزم عَلَى قوله، فأحيانًا يقول الإنسان قولا يظنه صوابًا ويكون هَذَا القول يلزم مِنْهُ لزوما صحيحًا حقيقيًّا أمور فاسدة لو نُبِّهَ القائل لها لرجع عن قوله؛ فلذلك نقول إن لازم القول فِي غير كتاب الله وسنة رسوله لَيْسَ بقول، صحيح أَنَّه يستدل بِهِ عَلَى بطلان القول لكن مَا يُقَال إنَّه قول فلان.

فالحاصِلُ فِي هَذِهِ المسألة: أنه ينبغي التّنبه لها، وَإِنَّمَا نقول بِذَلِكَ لأَنَّ الإنسانَ بشرٌ لا يحيط بما يستلزمه كلامه من اللوازم الصّحيحة أو اللوازم الباطلة، الآن نرى كثيرًا مَا يـأمر الإنسان بشيء أو ينهى عن شيء فِي أولاده ثمَّ إِذَا فعلوه علم أَنَّه يستلزم مفسدة فيرجع عنه، هَذَا اللازم هل كَانَ عالِمًا بِهِ من قبل؟ لو كَانَ عالِمًا مَا أمرهم، وكثيرًا مَا ينهاهم عن شيء ثمَّ إِذَا تركوه رأى فِي ذَلِك مفسدة يعني استلزم مفسدة مَا كَانَ يعلم بِهَا حين النّهي فتجده يرجع، فلازم القول فِي كتاب الله وسنة رسوله قول لكن بشرط أنْ يكُونَ التّلازم صحيحًا، أمَّا فِي غيره فليس كَذَلِكَ، لَيْسَ بقول.

الآية (٤٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم:٤٦].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾: ﴿مِنْ﴾ للتبعيض و﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ مجرور بـ(من) و﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ فعلٌ مُؤَوَّلٌ بالمصدر هُوَ المبتدأ، أي من آياته إرسال الرّياح ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ حال من الرّياح].

يقول الله عَزَّوَجَلَّ فِي هَذِهِ الآية: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي بعض آياته لأَنَّ ﴿مِنْ﴾ هُنَا للتبعيض؛ وَذَلِكَ لأَنَّ آيات الله عَزَّوَجَلَّ لا يمكن إحصاؤها ولا حصرها.

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ[1]

لو أراد الإنسان أن يحصي آيات الله عَزَّوَجَلَّ الَّتِي فِي جسمه هُوَ فقط مَا استطاع إِلَى ذَلِك سبيلًا، فكيف بآيات الله تَعالَى الَّتِي ملأت الكون؛ وَلِهَذا تأتي ﴿مِنْ﴾ الدّالة عَلَى التّبعيض.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي علاماته واعلم أن كل آية فإنها تدُلّ عَلَى العِلْم وتدل عَلَى القُدْرَة وتدل عَلَى الحكمة، لا بُدَّ من ذَلِك فِي كل آية أَنَّها تكون آية وعلامة عَلَى هَذِهِ الأمور الثّلاثة: العِلْم والقُدْرَة والحكمة، ثمَّ تختص بعض الآيات

(١) البيت لأبي العتاهية، ديوان (ص:١٠٤).

بما تختص به، إمَّا أن تكون الآيَة الَّتِي بعدها آية رحمة أو بعدها شيء يدل عَلَى السّلطان والعظمة.

والمُهِمُّ: أن لكل آية معنى خاصًا ومعنى عامًّا، فالمعنى العام هُوَ هَذِهِ الثّلاثة: العِلْم والقُدْرَة والحكمة، فقوْله تَعالَى: ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ يضاف إِلَى هَذِهِ الثّلاث الرّحمة لأَنَّ هَذِهِ الرّياح تبشر بالمطر وقوْله تَعالَى: ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ الإرسال بمعنى الإطلاق ومنه قول الشّاعر(١):

فَأَرْسَلَهَا العِـرَاكُ............... ....

يعني أطلقها، ومنه قول الفرضيين: (دَيْنٌ مُرْسَلٌ) يعني مطلقا لَيْسَ بِهِ رهن فقوْله تعالَى: ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ أي يطلقها عَزَّوَجَلَّ، والرّياح جمع ريح وَهِيَ الأهوية، واعلم أن الرّيح تُذْكَرُ مفردةً وتذكر مجموعةً، فإذا ذكرت مجموعة فإنها تكون غالبًا للرحمة، وَإِذَا ذُكرت مفردةً فإنها تكون غالبًا للعقاب كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦]، قَالَ (ريح)، وقوْله تعالَى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذّاريات:٤١]، وقوْله تَعالَى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف:٢٤]، وما أشبه ذَلِك، ولكنها أعني الرّيح قد تُفرد وتكون فِي مقام النّعمة لا سِيَّما إِذَا وصفت بما يدل عَلَى ذَلِك.

كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢]، فالرّيـح هُنَا عقوبـة نعمة، وَإِنَّمـا كانت نعمة لأَنَّهَا وصفت بقوْله تَعالَى: ﴿طَيِّبَةٍ﴾، أما بالنّسبة للسفن فالأَوْلَى اتحاد الرّيح لا اختلافها؛ لأَنَّهَا إِذَا اختلفت اختلف سير السّفينة، وفي الماضي

---

(١) البيت للبيد، وتمامه:

فأرسلها العراك وَلم يذدها ... وَلم يشفق على نغص الدّخال

لما كانت السّفن شراعية كانت الرّياح فِي مقام النّعمة وَلهَذا جمعت.

قوْله تَعالَى: ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ مبشرات حال من الرّياح أي تبشر بالخير وَلهَذا بعض الرّياح إِذَا هبت استبشر النّاس لأَنَّ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أجرى العادة أن هَذِهِ الرّيح المعينة يتكون منْهَا السّحاب ثمَّ المطر، وأحيانًا يستبشرون بالرّيح إِذَا رأوها تجمع السّحاب، تجمعه وتكثفه، استبشروا بها.

وقوْله تَعالَى: ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ البشارة هِيَ الإخبار بما يسر غالبًا، وسميت بشارة لأَنَّهَا تؤثر عَلَى البشرة، فالإنسان إِذَا استبشر ينيرُ وجهُه ويُسْفرُ وتجدُ علَيْه علامة البشرى، وقد تطلق البشارة بما يسوء كقوْله تَعالَى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بمعنى لِتُبَشِّرَكُمْ بِالمَطَرِ].

فسر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ اسم الفاعل بالفعل المعلل، وقَالَ: [بمعنى لِتُبَشِّرَكُمْ] لأجل أن يسهل العطف فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ لأَنَّ ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ يجد الإنسان بَيْنَهُما فجوة، هَذِهِ الفجوة أراد المُفَسِّر أن يقربها بقوله: [بمعنى لِيُبَشِّرَكُمْ بها]، ولكن الصّحيح عندي أن المبشرات عَلَى حالها تعتبر اسمًا ولكننا نقدر فعلًا يناسب مَا بعده لأجل أن يصح عطف الفعل علَيْه، والَّذي أرى أن يقدر: [﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ لتستبشروا بِهَا ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾]، أو نجعل لتبشركم كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا نجعلها بمعنى مبشرات بل نجعلها فعلًا مستقلًّا قدرناه ليصح العطف فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ بِهَا ﴿مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ المَطَر والخِصْب].

تقدم أن الله تَعالَى يعبر عن الإصَابَة بالإِذَاقَة لأنَّهَا أعلى أنواع الإصَابَة وأبلغها ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ بِهَا ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾.

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [المطر والخصب] ففسر الرّحمة بأثرها، وَعَلَى هَذَا فلا تكون الرّحمة مخلوقة وليست صفة من صفات الله، وَهَذا الَّذي فسرها بِهِ محتمل لأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يطلق الرّحمة عَلَى الشّيء المخلوق الَّذي يَكُون من آثار رحمته كما ثبت فِي الحديث الصّحيح أن الله قَالَ للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[1]، ومن المعلوم أَنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يُرِدْ أنَّها رحمته الَّتِي هِيَ صفته؛ لأَنَّ الجنة مخلوق بائن دائم ولكن أراد أنَّها من أثر رحمتـه أو مقتضى رحمته، فهنا يصح أن نقول: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي من هَذَا المطر والخصب وتكون الرّحمة هُنَا مخلوقة من المخلوقات.

وإن جعلناها الصّفة فهي للابتداء يعني ليذيقكم نعمة صادرة من هَذِهِ الرّحمة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ السُّفُنُ بِهَا ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بإرادته ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ تطلبوا ﴿من فضله﴾ الرِّزق بالتِّجارة فِي البحر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾].

قوْله تَعالَى: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [السُّفُنُ بها] الضّمير يعود عَلَى الرّياح، فالله تَعالَى يرسل الرّياح لتسير بِهَا المياه فِي أجواء السّماء وَهُوَ السّحاب ويرسل الرّياح لتسير بِهَا السّفن فِي البحار، وكُلٌّ من السّحاب ومن السّفن يحمل نعمًا كثيرة، السّفن تحمل الأرزاقَ والأَنَاسِيَّ والحيوانَ وغيرَها، والسُّحـب تحمل الماء الَّذي هُوَ مادة الحياة، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة:٦٨-٦٩]، ففي الرّياح إِذْنْ فائدتان:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٤٦).

- تسيير السُّحب فِي أجواء السَّماء.

- وتسيير السُّفن فِي أجواء البحار.

وقوْله تَعالَى: ﴿ٱلْفُلْكُ﴾ تصلح للجمع وللمفرد، وَهَذا فِي القرآن موجود، مثالُها للجماعة قوْله تَعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢]، هَذَا جمع؛ لأَنَّهُ قَالَ: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ﴾ لم يقل فِي الفلك وجرى، وقوْله تَعالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر:٢٢]، أيضًا جمع، ومثالها للمفرد قوْله تَعالَى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [البقرة:١٦٤]، قَالَ: ﴿ٱلَّتِى﴾ ولم يقل اللاتي، وقد ذكر الفقهاء أن الأحدب ينوي الرّكوع بقلبه، فالأحدب لَيْسَ بقائمٍ حتى يركع، بل ينويه بقلبه، قَالَ بعض الفقهاء: فَهُوَ شبيه للفُلْكِ فِي اللُّغَة العربِيَّة يعني انحناء هَذَا الأحدب شبيه بالفلك فِي اللُّغَة العربِيَّة، مَا يُعرف إِلَّا بالنِّية، فالفلك صالِح للمفرد وللجماعة ولا يعرف إِلَّا بالنّية أو القرينة، وكَذَلِكَ الأحدب فِي حال الرّكوع، فما الَّذي يُعلمنا أَنَّه راكع أو غير راكع فركوعه وقيامه سواء.

ويمكن أن يستدل بمَسْأَلَة الأحدب عَلَى مَا ذُكر عن الكسائي أنه قَالَ: إن الإنسان إِذَا أتقن شَيْئًا من العِلْم أمكنه أن يفهم غيرَه من العلوم[1]، وذكروا قصة أَنَّه كَانَ هُوَ وأبو يوسفَ عند الرَّشِيدِ -أحد خلفاء بني العباس- وأنهم تناظروا فِي مَسْأَلَة فقال أبو يوسف للكِسَائِيِّ: مَا رأيك لو سها الإنسان فِي سجود السَّهْوِ، هل نَحْوُكَ يعلمك بحكم هَذِهِ المسألة؟ قَالَ: نعم إِذَا سها فِي سجود السّهو فإِنَّهُ لا يسجد، قَالَ: أين تجد هذا فِي نحوك؟ قَالَ: عندنا قاعدة فِي النّحو أن المصغر لا يصغر، فاستدل بأن سجود السّهو صلاة مصغرة فإذا سها فِيهِ فإِنَّهُ لا يصغر مرة ثانية، وهل هَذَا

(١) الوافي بالوفيات (٢١/ ٤٨).

واقع أو غير واقع؟ الله أعلم لكنهم ذكروه.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بإرادته]، والصّحيح ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ من الأمر الَّذي هُوَ بالقول وليس المُرَاد بالإرادة فقط لأَنَّ الفلك مَا تَعْلَمُ عما يريد الله عَزَّوَجَلَّ لكنها إنها تأتمر بأمره القولي وقد قَالَ الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فكلُّ مرادِ الله إن لم يقترن بالقول فإِنَّهُ لا يقع، وكيف تحدث الكائنات بمجرد إرادةٍ لا يعلم بِهَا إِلَّا الله؟ فلا بد من قول، فالصّواب أن المُرَاد بأمره: أمره القولي لقوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، ولا يمنعُ ذَلِك أنْ يكُونَ هَذَا الجريانُ بأمره بأسباب محسوسة معلومة لنا؛ لأَنَّ المُقَدِّر للأسباب هُوَ الله عَزَّوَجَلَّ فهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخلق ويُسَخِّرُ ولكن بأسباب.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ كل هَذَا مما خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهذه الحِكَمِ العظيمة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلِتَبْتَغُواْ﴾ تطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ الرِّزق بالتِّجارة فِي البحر]، وَهُوَ كَذَلِكَ، وكم من أناس كانت تجارتهم فِي البحار ينقلون الأرزاق من جهة إِلَى جهة بواسطة هَذِهِ السّفن، لولا هَذِهِ السّفن لكان من المتعذر أن تنتقل الأرزاق من الجهة الَّتِي خلف البحر إِلَى الجهة الأُخْرَى، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ جعل هَذِهِ السّفن لأجل أن تنقل هَذِهِ الأرزاق والنّعم.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: (لعل) هَذِهِ معناها التّعليل، تشكرون؛ الشّكر هُوَ القيام بطاعة المنعم ويكون باللسان وبالقلب وبالجوارح، فأما الشّكر بالقلب فأن يؤمن الإنسان بأن هَذِهِ النّعمة من الله عَزَّوَجَلَّ هُوَ الَّذي أمده بِهَا وَهُوَ الَّذي يسرها

لَهُ وَهُوَ الَّذي جلبها إِلَيْهِ هَذَا بالقلب، والشّكر باللسان أن يحمد الله عَلَيْهَا فإن هَذَا من شكر النّعمة وأن يتحدث بِهَا اعتـرافًا لله بالفضل لا افتخارًا بِهَا عَلَى غيره، وأما الشّكر بالجوارح فأن يقوم لله تَعالَى بالعمل البدني من صلاة وزكاة وحج وغيره، وَلِهَذا يقول الشّاعر[1]:

أَفَـادَتْكُمُ الـنَّعْمَاءُ مِنِّـي ثَلَاثَـةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

فيدي الجوارح، واللسان القول، والضّمير المحجب القلب.

ما الواسطة بَيْنَ الحمد والشّكر، أو النّسبة بَيْنَ الحمد والشّكر؟

الحمد أعم من حيْثُ السَّببُ، والشّكر أعم من حيْثُ التَّعَلُّق؛ لأَنَّ الحمد يَكُون باللسان ويكون عَلَى النّعم وَعَلَى كمال صفات المحمود، يعني أَنَّه يحمد المحمود عَلَى نعمه وإحسانه عَلَى الحامد وَعَلَى كمال صفاته، وأما فِي المُتعَلّق فإِنَّهُ يتعلقُ باللسان خاصة الحمد يَكُون باللسان فَقَطْ، وربما يَكُون بالقلب أيضًا بأن يعتقد الإنسان كمال هَذَا المحمود لكِنَّهُ لا يُسَمَّى حمدًا لغة إِلَّا باللسان، وأما الشُّكرُ فَهُوَ أخص من الحمد باعتبار سببه وأعم باعتبار متعلّقه، أخص باعتبار سببه لأَنَّ سببه الإنعام عَلَى الشّاكر، ولو كَانَ الإنسان المحمود من أكمـل النَّاس ولم يعطِك شَيْئًا لا تشكره، فالشّكر يَكُون عَلَى النّعم فَهُوَ أخـص من حيْثُ السّبب ويكون بالقلب واللسـان والجوارح فَهُوَ من حيْثُ المُتعَلّق أعم.

إِذَن: النّسبة بَيْنَهُما العُمُوم والخصوص الوجهي.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الشّكر هُوَ القيام بطاعة المنعم هَذَا بالمَعْنَى العام،

---

(١) نهاية الأرب في فنون العرب للنويري (٣/ ٢٤٨).

لكن شكر النّعمة الخاصة يَكُون بالقيام بوظيفتها من الطّاعة، يَكُون بالقيام بوظيفتها الخاصة، مثلًا شكر الإنسان ربه عَلَى العِلْم يَكُون بالعمل بِهِ وتعليمه، هَذَا شكر خاص لنعمة خاصة، شكرُ الإنسانِ ربَّه عَلَى المسكن مثلًا يَكُون بطاعته فِي هَذَا المسكن بأن لا يَكُون فِيهِ مثلًا إسراف ولا تبذير وما أشبه ذَلِك فالشّكر هُنَا لَهُ معنيان:

- المَعْنَى العام هُوَ القيام بطاعة المنعم.

- والشّكر الخاص هُوَ القيام بطاعة الله تَعالَى لما يتعلق بهذه النّعمة الخاصة، وكل نعمة لها شكر خاص.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: أن هناك علاماتٍ ودلالاتٍ عَلَى وجود الخالِق وَعَلَى علمه وقدرته وحكمته هَذِهِ الآيات. هَذِهِ الآيات الَّتِي تَعَرَّضَ الله بِهَا لعباده من نعمة الله عَلَيْهِم أن الله تَعالَى يريهم آياتِه ليقوموا بشكره ويعترفوا بفضله.

الفائِدَةُ الثَّانِيَةُ: من آياته أيضًا -زيادة عَلَى الآيات الثّلاثة الَّتِي ذكرنا- ثبوتُ الرَّحمة لقوْلِه تعالَى: ﴿أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾ هَذِهِ الرّياح لو اجتمع الخلق كلهم عَلَى أن ينفخوا بجميع وسائل النّفخ فإنهم لا يستطيعون أن يغطوا بِهَذا النّفخ بلدًا واحدًا، والرّب جلت قدرته يغمر مَا شاء أن يغمر بهذه الرّيح الَّتِي قد تقلع الأشجار وتهدم الدّيار، أليس هَذَا دليلًا عَلَى قدرة الله العظيمة؟ وكونها مبشرات فِيهِ إثْبَات الرّحمة.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: نعمة الله تَعالَى بالفلك الَّتِي تجري بأمره لولا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يسر من الأسباب مَا يَكُون بِهِ ذَلِك مَا عرف النَّاس كَيْفَ يتعدون من بر إِلَى بر بواسطة البحر.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أنَّ ظهورَ الآيَاتِ لِلإِنْسَانِ سببٌ لشكر نعمة الله علَيْه، نأخذُه مِنْ قوْلِه تعالَى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: إثْبَاتُ العِلَلِ والحِكَمِ فِي أفعال الله تَعالَى؛ لقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ لأنَّهَا للتعليل.

• ● ۞ ● •

الآية (٤٧)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرّوم:٤٧].

قَوْله تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ اللام فِي قَوْله تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ﴾ مُوطِّئَةٌ للقَسَمِ يعني أنّها جواب لقسم محذوف، التّقدير والله لقد، وَبِهذَا نعرف أن الجملة هُنَا مُؤكدة بثلاثة أمور وَهِيَ القسم واللام وقد.

قَوْله تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ من المشهور المعروف عند أهل العِلْم أنَّ الرَّسولَ مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بشرع وأُمِر بتبليغه لأَنَّهُ مرسل، وَهَذا الصّنف من النَّاس هُوَ أعلى أنواع الأصناف من بني آدم ويليهم الأنبياء ثمَّ الصّديقون ثمَّ الشّهداء ثمَّ الصّالحون، فأعلى أجناس البشر الرّسل -عليْهِمُ الصّلاةُ والسّلامُ- لأنهم جمعوا بَيْنَ الاختصاص بالرّسالة والعبادة، والله أعلم حيْثُ يجعل رسالته، لا يعطي الرّسالة إِلّا لمن هُوَ أهل لها، فأحق النَّاس بالرّسالة بلا شك هم هَؤُلاءِ الأعيان الَّذِين أرسلهم الله عَزَّوَجَلَّ ولا يمكن أنْ يكُونَ أحد من النَّاس أحق منهم بِهَا، وَبِهذَا نعرف ضلالَ بل وكُفْرَ من قَالُوا إن عَلِيَّ بنَ أبي طَالِبٍ أَحَقُّ بالرِّسالة من مُحَمَّدٍ ﷺ لأنهم بِذَلِكَ طعنوا فِي الله عَزَّوَجَلَّ ونسبوه إِلَى مَا لا يليق بِهِ، لأَنَّهُ إِذَا كَانَ أعطى الرّسالة محمدًا وعليٌّ أولى بِهَا فَهُوَ إِمَّا جاهل بالأحقية وإما غير مريد لإعطاء الحق أهله هَذَا

الصّواب، وكلا الأمرين بالنّسبة إِلَى الله مُحالٌ وممتنِعٌ، وأي أحد يصف الله بِهَذا أو بما يستلزم هَذَا فإِنَّهُ كافر بلا شك.

إِذَن: الرّسل -عليْهِمُ الصّلاةُ والسّلامُ- هم أشرفُ أصنافِ الخلقِ وهم أحق النَّاس بالرّسالة بلا شك ولا أحد أحق منهم، ويوجد -والعياذُ باللهِ- بعض النَّاس -الفلاسفة- يرون أن الرّسل من آخر مراتب الخلق ويقولون إن الولي أفضل من النّبي، والنّبي أفضل من الرَّسول لأَنَّ الولي خاص الخاصة، وليٌّ عَلَى اسمه، والنّبي لَهُ مَزِيَّةُ الوحي، والرَّسول بمنزلة الخادم الَّذي فِي البيت يُرْسَلُ ليشتريَ الحوائج، انظر كَيْفَ -والعياذُ باللهِ- الضّلالَ ويقولون فيما يقولون[1]:

مَقَـــامُ النُّبُـــوَّةِ فِي بَـــرْزَخٍ فُوَيْـــقَ الرَّسُـــولِ وَدُونَ الـــوَلِي

أعوذ بالله، مقام النّبوة برزخ فويق الرَّسول، يعني فوق الرَّسول بقليل وبالنّسبة للولي دون منحط بعيد عن الولي، وَعَلَى هَذَا فتكون رتبة الولاية عِنْدَهُم أعلى شيء، وَهَذا لا شك أَنَّه كُفْرٌ، بل نقول إن مقامَ الرِّسالة فوق كل شيء ثمَّ النّبوة ثمَّ الولاية؛ لأَنَّ الرَّسول جامعٌ بَيْنَ الرّسالة والنّبوة والولاية والنّبي لَهُ النّبوة والولاية والولي لَهُ الولاية دون النّبوة والرّسالة، ومعلوم أَنَّه كلما ازدادت صفة الكمال فِي شخص كَانَ أكمل من غيره.

قوْله تَعالَى: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ القوم هم الطّائفة الَّذِين ينتسب إِليهم الإنسان لأَنَّ

---

(١) نقله شيخ الإسلام ابن تيمية عن ابن عربي في منهاج السنة (٥/ ٣٣٦)، وفي كتاب لطائف الأسرار لابن عربي، ط. دار الفكر العربي (ص:٤٩):

سـمـاء النـبـوة في بـرزخ دوين الولي وفوق الرسول

وفي الفتوحات المكية (٢/ ٢٥٢) يقول:

بين الولاية والرسالة برزخ فيه النبـوة حكمهـا لا يجهل

بهم قوامه فَهُوَ يقوم بهم، وهم بِهِ يقومون.

وقوْله تَعالَى: ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾ لأَنَّهُ مَا من رسول أُرسل سوى رسول الله ﷺ إِلَّا ورسالته خاصة كما ثبت فِي الحديث الصّحيح: حديث جَابِرٍ «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[1].

قوْله تَعالَى: ﴿فَجَآءُوهُم﴾ الفاعل للرسل والمفعول للقوم.

قوْله تَعالَى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالحُجَجِ الوَاضِحَاتِ عَلَى صِدْقِهِمْ فِي رِسَالَتِهِمْ إِلَيْهِمْ فَكَذَّبُوهُمْ].

قوْله تَعالَى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ معلوم أَنَّ البينات تعني الواضحات لكن هل المُرَاد بالبينات هُنَا مَا يبين صدق رسالتهم فيكون المُرَاد بِهَا المعجزات الَّتِي أُيِّدوا بِهَا، أو المُرَاد بالبينات أي بالشّرائع البينات الظّاهرة الَّتِي كل من استَقْرَأَها عَرَفَ أنَّها من عند الله، أو المُرَاد الأمران؟ المُرَاد الأمران فالرُّسل أتوا بالآيات البينات الَّتِي تؤيدهم وتدل عَلَى صدقهم وأتوا أيضًا ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالشّرائع البينة الظّاهرة الَّتِي يعلم أنَّها من عند الله عَزَّوَجَلَّ فالباء فِي قَوْلِهِ ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ تكون للمصاحبة، يعني أُرسلوا رسالةً مصحوبة بالبينات، أو للاختصاص عَلَى القول بأن المُرَاد بالبينات الشّرائع، وَهَذا من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته أن الله مَا أرسل رسولًا إِلَّا أيده بآية من حكمته ورحمته؛ لأَنَّهُ لو جاء الرَّسولُ بدون آية إِلَى النَّاس وقال أنا رسول الله بدون آية هل يقبلونه؟ من طبيعة البشر أن لا يقبلوا حتى يعرفوا، كما أَنّه لو جاء واحد من النَّاس وقَالَ: أنا عالِمٌ عندي علم بالشّرع استفتوني فِي أي شيء أفتكم، فلا يطيعونه حتى يمتحنوه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، رقم (٣٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، رقم (٥٢١).

ويسألوه، فكيف إِذَنْ بالَّذي يدعي أَنَّه يُوحَى إِلَيْهِ، لا يقبل إِلَّا إِذَا جاء بآية فَهَذَا من حكمة الله.

من رحمته أيضًا أَلَّا يعاقب أحدًا بذنب بدون حجة لأَنَّهُ لو أرسل الرّسل بدون آيات وكذبهم الأمم لكانوا معذورين بالتّكذيب لعدم وجود الآية، وقد لا يُعذرون لأنهم يجب عَلَيْهِم أن يستسلموا، لكن من رحمته أن جعل معهم آيات بينات ليطمئن النَّاس إليهم ويؤمنوا بهم عن اقتناعٍ.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ ربما يُستفاد من كلمة ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ لا رسول بعده كما سنذكره إن شاء الله تَعالَى فِي الفوائد ونناقش هَذِهِ الفائدة.

قوْله تَعالَى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ الانْتِقام هُوَ الأخذ بالعقوبة، وَهَذا من فعل الله وليس من أسمائه؛ وَلِهَذا الحديث الَّذي فِيهِ سياق الأسماء الحسنى وَهِيَ مدرجة مَا صحت عن الرَّسول ﷺ فِيهَا أن من أسمائه المنتقم وليس كَذَلِكَ، لَيْسَ من أسمائه بل هُوَ من أوصافه وأفعالِه وَلِهَذا مَا جاء مطلقا قَالَ: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السّجدة:٢٢]، ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فَهُوَ فِعْلٌ.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ الإجرام فعل الجرم، وكل مَا يَكُون سببًا فِي الإثم فَهُوَ جُرْمٌ، والمُراد بالإجرام هُنَا الكفر، وفُهِمَ من الآية الكريمة ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ أن من لم يجرم لم يُنتقم منه؛ وَلِهَذا قَالَ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الله أكبر، ﴿نَصْرُ﴾ إعرابها اسم (كان)، وخبرها ﴿حَقًّا﴾، هَذَا أحسن مَا يَكُون فِي إعراب الآية، وأوجه مَا يَكُون وأسهل مَا يكون، وإلا ففيها أوجهٌ أُخْرَى.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ الحق بمعنى الشّيء الثّابت اللازم ﴿نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: المؤْمنينَ بما يجب الإيمان بِهِ من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم

الآخر والقدر خيره وشره، فأوجب الله عَزَّوَجَلَّ عَلَى نفسه أن ينصرَ المُؤْمِنِينَ، أوجب ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ التِـزامٌ من الله عَزَّوَجَلَّ ﴿نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ نَصْرُهم أي منعُهم من أعدائهم، وَذَلِكَ بأن يجعل لَهُم من النّصر الحسي والمعنوي مَا تكون العاقبة لَهُم، وَهَذا كقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَذَا الحق الَّذي التَزم الله بِهِ قد يشكل علينا أن الله تَعالَى يخذل المؤْمِنينَ أحيانًا كما فِي أُحُدٍ مثلًا، فإن النّصر فِي أُحُدٍ كَانَ لقريش وأتباعها فمـا هُوَ الجواب عن هَذِهِ الآية؟

نَقُول: إن الجواب إن نصر قريش عَلَى الرّسول ﷺ لَيْسَ نصرًا دائِمًـا كانت العاقبة فِيهِ لَهُم، بل إن هَذَا فِي الحقيقة من نصر المؤْمِنينَ عَلَيْهم، وَإِذَا شئت أن يتبين لك ذَلِك فاقرأ مَا عَلَّلَ الله بِهِ هَذِهِ الغزوة فِي سورة آل عمران من جملة مَا ذكر من الحكم ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١].

إِذَنْ: فَهُوَ نصر لجلبهم لأنهم لو هُزِموا فِي كل مقام مَا قاموا ولا حاربوا، لكن إِذَا صَارَ لَهُم شيء من النّصر فإن ذَلِك يُغرِيهم بالقتال حتى تكون العاقبةُ للمؤمنين، ويبيدهم الله عَزَّوَجَلَّ ومنها أيضًا نصر المؤْمِنينَ عَلَى أنفسهم لأنهم مَا أتاهم مَا أتاهم فِي أحد إِلَّا بسببِ مخالَفتهم كما قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، فهنا يعرفون قدر المعصية وأنه يفوت بِهَا من المحبوب مَا لا يخطر عَلَى بالٍ.

فالحاصِلُ: أن هَذِهِ الآيَة عَلَى بابها أن الله تَعالَى ينصر المؤْمِنينَ حقًّا عليْه أوجبه

هُوَ بنفسه عَلَى نفسه كما فِي قوْله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأولَى: تسليةُ الرَّسولِ ﷺ وتحذيرُ المخالِفين لَهُ، تسليته بمن سبقه من الرّسل فقد كُذِّبوا وأُوذوا، فإذا علم أن أَحَدًا شاركه فِي ذَلِك هان علَيْه الأمر لأَنَّ كل إِنْسَان يتسلى بما أُصيب بِهِ غيره بمثله؛ وَلِهَذا قالَ الله تَعالَى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزّخرف:٣٩].

الفائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تحذيرُ المخالِفين لَهُ لقوْلِه تعالَى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: رحمةُ الله عبادَه بإرسال الرّسل إذ لولا هَذِهِ الرّسالة مَا عرف النَّاس كَيْفَ يَعْبُدُونَ الله عَزَّوَجَلَّ بل ولا عرفوا مَا عرفوا من تفاصيل أسمائه وصفاته كما سبق فِي درس التّوحيد، فالرّسل رحمة عظيمة للخلق كما قَالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: أَنَّ الانْتِقامَ من المكذبين كَانَ بسبب فعلهم لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ أي لإجرامهم.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: أن الرِّسالاتِ السَّابقةَ خاصةٌ لقوْله تَعالَى: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ ويبيِّنه الحديث الثّابت فِي الصّحيحين: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(١).

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أن الله تَعالَى مَا أرسل الرّسل إِلَّا ببينات تشهد بصدقهم

---

(١) التخريج السابق.

وبشرائع بينة لا توجب لَبْسًا عَلَى المتبعين تؤخذ مِنْ قوْلِه تَعالَى: ﴿فَجَاءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالآيات البينات الدّالة عَلَى صدقهم وبالشّرائع البينات الواضحة الَّتِي لا تقتضي لَبْسًا عَلَى المتبع، قَالَ أهل العِلْم: وآياتُ الأنبياء عَلَى حسب عصرهم ففي عهد موسى انتشر السّحر وكثر فأعطاه الله تَعالَى من الآيات مَا تبطل السّحر وليست بسحر، أعطاه الله تَعالَى اليد، وأعطاه العصا.

قَالُوا وفي عهد عيسى تقدم الطِّبُّ فأعطاه الله من الآيات مَا لا يمكن للطب أن يقوم بِهِ وَهُوَ إبراءُ الأَكْمَهِ والأَبْرَصِ وإحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم، هَذَا لا يمكن أن يقوم بِهِ الطِّبُّ أبدًا، فالميت لا يمكن أن يحيا بالطّب، وقَالُوا أيضًا إن الأبرص لا يمكن شفاؤه بالطّب، والأكمه قَالُوا أنَّه الَّذي خُلق بلا عين، هَذَا فيما سبق من العصور لا يمكن أن يوضع لَهُ عين لكن الآن إِذَا وجد مكان العين يمكن أن يوضع لَهُ عين فِي الطّب، لكن إِذَا لم يوجد مثلا خلقه الله عَزَّوَجَلَّ بدون أن يخلق لَهُ مكانًا للعين لا يمكن أن يوضع لَهُ عين.

فِي عهد الرَّسول ﷺ قَالُوا: إن البلاغة بلغت أعلى ذروتها فكان من أعظم آيات الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هَذَا القرآن الَّذي أعجز البُلَغاءَ والفُصحاءَ بل تحدى الله بِهِ كل الجن والإنس ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٨]، لا انفرادًا ولا تعاونًا، وَلِهَذا قَالَ: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الَّذين يقُولونَ بالإعجاز العلمي فِي القرآن يقولون: الآن زالتِ البلاغة فالنَّاس لا يستطيعون أن يميزوا أوجه البلاغة والفصاحة ولكن الإعجاز العلمي فِيهِ إشارات علمية لكي يصدق أهل هَذَا العصر؟

فأقولُ: هَذَا لَيْسَ ببعيد، يمكن أنْ يكُونَ صحيحًا يعني أن القرآن فِي كل عصر يَكُون معجزةً بها تناسب العصر لأَنَّهُ نزل إِلَى جميع الخلق إِلَى يَوْم القِيَامَة فلا يبعد هذا، القرآن لكل معنى لكِنَّهُ فِي ذَلِك الوقت أشد مَا فِيهِ البلاغة.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: إثْبَات فعل الانْتِقام لله عَزَّوَجَلَّ لقوْلِه تعالَى: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: إثْبَات العظمة لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾ و﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ فإن هَذَا للتعظيم وليس للتعدد بإجماع المسلمين إنها هُوَ للتعظيم.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أن عَلَى الله حقًّا أوجبه عَلَى نفسه لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا﴾.

فإذا سُئلنا: هل يجب عَلَى الله شيء؟

قُلْنَا: أمَّا بعقولنا فلا يجب عَلَى الله شيء، وأما أن يوجب عَلَى نفسه شَيْئًا فَهَذَا أمر واقع.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: أن الله أوجب عَلَى نفسه نصر المؤْمِنينَ لقوْلِه تعالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

الفائِدَةُ الحادِيَةَ عشْرَةَ: أن هَذَا النَّصر لا بُدَّ أن يكون؛ لأَنَّهُ أتى بصيغة التَّعظيم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا﴾، ولم يقل عليَّ بل قَالَ: ﴿عَلَيۡنَا﴾ إشارة إِلَى أن هَذَا الحق لا بُدَّ أنْ يكُونَ لأَنَّ الله تَعالَى أعظم من كل شيء.

الفائِدَةُ الثّانِيَةَ عشْرَةَ: فضيلة الإيمان وأنه سبب للنصر لقوْلِه تعالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

الفائِدَةُ الثَّالثة عَشْرَةَ: أن غير المؤْمنيـنَ لا ينصرون؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فإذا أورد إِنْسَان علينا مَا حصـل من الانتصارات الخاطفة للكفار فمـا هُوَ الجواب؟

الجوابُ: أن هَذَا استدراجٌ من الله عَزَّوَجَلَّ حتى يتم النّصر للمؤمنين فِي النّهاية، وقد يَكُون من مصلحة المؤْمِنينَ لأَنَّهُ نصر لأنفسهم عَلَى أنفسهم ثمَّ أَنَّه لا يدوم هَذَا النّصر أبدًا، فالعاقبة لا بُدَّ أن تكون للمؤمنين، وقال بعض أهل العِلْم إن النّصر نوعان:

- نصرٌ بالحُجَّةِ والبُرهان.

- ونصرٌ بالسَّيف والسِّنان.

فأما النّصر بالحجة والبرهان فَهُوَ مضمون وثابت وليس فِيهِ استثناء لأَنَّ الحجة والبرهان مَعَ المؤْمِنينَ عَلَى كل حَالٍ حتى لو هُزِموا عسكريًّا فإن الحجة والبرهان معهم، غالِبون بحجتهم وبرهانهم وَهَذا لا استثناء فيه.

الثّاني: النّصر العسكري يعني بالسّيف والسِّنان ونحن نقول الآن بالطّائرة والقنابل وما أشبهها، فقد يحصل نصر لغير المؤْمِنينَ امتحانًا للمؤمنين واستدراجًا للكافرين.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل هَذِهِ الآيَة تدُلّ عَلَى ختم الرّسالة بالرَّسول ﷺ لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أو لا تدل؟

فالجوابُ: قد تدُلُّ من حيْثُ إن الرَّسول مرسل إِلَى النَّاس عامة، والعُمُوم هَذَا يشمل العُمُوم فِي الوقت والمكان والأمم وَهَذا يستلـزم أن لا يوجد رسول بعـد،

لو وجد رسول بعد انتفى العُمُومُ إِلَى النَّاس كافة، وصار معناه أن الرَّسول الَّذي بعده يَكُون رسولا إِلَى هَؤُلاءِ النَّاس دون محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كون الرَّسول أرسل إِلَى النَّاس كافة، لَيْسَ فِيهِ دليل عَلَى أَنَّه آخر الرّسل؟

قُلْنَا: لأَنَّهُ إِذَا لم يكن آخرهم فالَّذي يأتي من بعده يَكُون أرسل إِلَى بعض النَّاس وهم الَّذِين تأخروا.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: أخذها فِيهِ شيء من الغموض والأمر فِي هَذَا واضح.

والغريب أن بعض النَّاس -على سبيل الاستطراد- أنكر نزول عيسى بن مريم ﷺ وقَالَ: إننا لو قلنا بنزوله لكان ذَلِك تكذيبًا للقرآن ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وهل استدلالهم بالآية صحيح أو لا؟

الجوابُ: غير صحيح؛ لأَنَّ عيسى لا ينزل مشرعًا وَإِنَّمَا ينزل تابعًا للرسول ﷺ ولا ينشئ شَيْئًا من الشَّريعة حتى كسر الصَّليب وقتل الخِنزير[1]، هَذَا أخبر بِهِ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فأقره يعني يُقَال أَنَّه يأتي ويحكم بِذَلِكَ ولا يقبل إِلَّا الإِسْلام لا توجد جزية بعد نزول عيسى، لا يوجد أخذ جزية ولا عهد، لا يوجد إِلَّا الإِسْلام فيُقَال إن هَذَا لَيْسَ شرعًا جديدًا ناسخًا لشرع الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بل هُوَ شرع مُقَرَّرٌ من الرَّسول ﷺ، الرَّسولُ أخبرَ بِأَنَّهُ سيفعل هَذَا مقررا لَهُ، فَهُوَ لم ينزل عَلَى أَنَّه رسول

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، رقم (٢٢٢٢)، ومسلم: كتاب الإِيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٥).

بشرع جديد، بل عَلَى أَنَّه تابع للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولعل هَذَا والله أعلم ليتحقق مَا أخبر الله بِهِ بالفعل، ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١]، هَذَا خبر من الله عَزَّوَجَلَّ.

وهل نحن علِمْنا بأن نبيًّا من الأنبياء تَابَعَ الرَّسول فعلًا؟

الجوابُ: لا، لكن نزول عيسى ومتابعته ولرسالة الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تكون هَذِهِ حق اليقين لأَنَّ آية آل عمران فِيهَا علم اليَقِينِ، فإذا وجد ذَلِك بالفعل صَارَ حَقَّ اليقين، فَهَذَا من الحكمة فِي نزوله ﷺ فِي آخر الزّمان، وأيضًا عندنا أحاديث واضحة صحيحة صريحة متلقاة بالقبول عند أهل العِلْم فكيف ينكر ذَلِك؟ لكن -والعياذُ باللهِ- بعض النَّاس يأتي بقاعدة من أفسدِ القواعد وأبطلِ القواعد، وَهِيَ أن العقيدة لا تثبت بأخبار الآحاد ولو كَانَ الخبر صحيحًا، وَهَذا فِي الحقيقة مزلة ممن قاله لأننا نقول لَهُ أَنْتَ تثبت من الأحكام العملية: تثبت الحكم العملي بدليل لا يصل إِلَى درجة الصّحة تثبته بدليل يصل إِلَى درجة الحسن وربما يَكُون إِلَى درجة الحسن عندك أَنْتَ وعند غيرك لا يصل إِلَى درجة الحسن، وإثْبَات الحكم العملي مستلزم للعقيدة؛ لأَنَّ تنفيذه مقتضى الإِيمَان ولأن الإنسان لا يعمل بِهَذا إِلَّا بعد أن يعتقد أَنَّه من شريعة الله وإلا لما عمل بِهِ فهناك عقيدة سابقة أن هَذَا من حكم الله ومن شريعة الله وأنه مقرب إِلَى الله وأنه عبادة لله ثمَّ العمل به، ثمَّ إِذَا أخذنا بِذَلِكَ لزم أن ننكر أَشْيَاء كثيرة مما يتعلق بالأمور العلمية لأَنَّ الشّرع كما هُوَ معلوم إِمَّا أمور علمية أو أمور عملية، والصّواب بلا شك أَنَّه لا فرق بَيْنَهُما وأن مَا صح عن رسول الله ﷺ

فإِنَّهُ يجب الإِيمان بِهِ عقيدةً وعملًا وَإِذَا شئت مزيد إيضاح فاقرأ مَا كتبه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي آخر الصّواعق المرسلة فإِنَّهُ تكلم عَلَى هَذِهِ المَسْأَلَة كلامًا شافيًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: عند نزول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يلهمه الصّواب فِي مسائل الشّريعة أم ماذا؟

قُلْنَا: الظّاهر -والله أعلم- أن القـرآن والسّنة محفـوظان إِلَى ذَلِك الوقـت، والعجيب أن بعضهم ذكر من شُبَهِ إنكار نزوله أن لغة عيسى سريانية ولغة الرَّسول ﷺ عربية، قَالَ: كَيْفَ ينزل ويحكم بالشّريعة وَهُوَ سرياني؟!

نَقُول: نعم الجواب بالتّسليم وبالمنع:

أولًا: الآن يوجد أناس يتكلمون بِغَيْر اللُّغَة العَرَبِيَّة وهم مسلمون ملتزمون بأحكام الإِسْلام قائمون بِهِ عَلَى أتم وجه ولغتهم غير عربية.

الثَّاني: أن الله جَلَّ وَعَلَا عَلَى كل شيء قدير يمكن أَنْ يكُونَ لسانه عربيًّا إِذَا كَانَ بالممارسة والمخالطة ينقلب لسان الإنسان من سرياني إِلَى عربي فكيف بقدرة الله، لكن سبحان الله العظيم الإنسان إِذَا اشتهى شَيْئًا أتى بشبهٍ لا تنطلي عَلَى أحد.

الآيتان (٤٨، ٤٩)

• • • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم:٤٨-٤٩].

• • • •

قوْله تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تُزْعِجُهُ]، لأَنَّهُ مأخوذ من (أثار الصَّيد) إِذَا أزعجه ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾، يعني يبعثها كَيْفَ شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تُزْعِجُهُ] كإثارة الصّيد، فإن إثارة الصّيد من مكانه يعني إزعاجه حتى يقوم وقوْله تَعالَى: ﴿سَحَابًا﴾ السّحاب معروف هُوَ الغيم ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ قِلَّةٍ وَكَثْرَةٍ]، يبسطه البسط معناه النّشر ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ تعود إِلَى كيفية هَذَا النّشر قد يَكُون واسعًا وقد يَكُون قليلًا وقد يَكُون كثيفًا وقد يَكُون خفيفًا، وَلِهَذا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ بفتحِ السِّين وسُكُونها: قِطَعًا مُتفرِّقَةً]، بفتح السّين يعني ﴿كِسَفًا﴾ وسكونها يعني (كِسْفًا) وقد الله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطّور:٤٤]، كِسْفًا؛ الكسَف معناه القطع، وكأن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يريد أن يبين أن السّحاب قد يَكُون واسعًا منتشرًا مبسوطًا وقد يَكُون قليلًا قطعًا متفرقة، وقال بعض المفسرين معنى كونه كسفًا أَنَّه قِطَعٌ متراكبة بعضها فوق بعض حتى يَسْوَدَّ ويَدْلَهِمَّ ويحصل فِيهِ الرّعد والبرق وهَذا أولى، وَهو فِي الغالب أكثر مطرًا.

قوْله تَعالَى: ﴿فَتَرَى﴾ الخطاب لكل من يتأتى خطابه لأَنَّ هَذِهِ الرّؤية ليست خاصةً بالرّسول ﷺ، وقوْله تَعالَى: ﴿ٱلْوَدْقَ﴾ يعني المطر يعني حبات المطر تسمى وَدْقًا.

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾؛ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي وَسطِه]، وقيل من بينه: من بَيْنَ هَذَا السّحاب.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾؛ إِذَا قَالَ قَائِلٌ: نحن لا نـراها بأعينـنا المجـردة لا نرى أن المطر يتخلل هَذَا السّحاب وينزل فيُقَال أنّه خبر صدق فيكون كالمشاهدة مَا دام أن الله تَعالَى أخبر بِهِ فإننا كأنها نشاهده بأعيننا ثمَّ أَنّه فِي الوقت الحاضر وجدت الآلات القوية الَّتِي يستطيع الإنسان بِهَا أن يرى كَيْفَ يخرج هَذَا المطر: هَذِهِ النّقط من خلال السّحاب.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ قَالَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالوَدْقِ ﴿مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾]، هَذِهِ جملة شرطية ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾ ﴿إِذَا هُمْ﴾ تدُلّ عَلَى أن هَؤُلاءِ الَّذِين أُصيبوا بالمطر أنهم فِي غاية الاشتياق إِلَيْهِ وَلِهَذا بمجرد مَا يصيبهم يحصل الاسْتِبْشَار، وقولنا بمجرد لَيْسَ نتيـجة عن ترتب جواب الشّرط عَلَى فعل الشّرط ولَكِنَّـهُ نتيجة لِذَلِـكَ وزيادة أمر آخر وَهُوَ الإتيان بـ(إذا) الفجائية الَّتِي تدُلّ عَلَى المفاجئة والسُّرعة.

إِذَنْ: (إِذَا) تفيد الشّرط وفعل الشّرط (أصاب) وجواب الشّرط جملة ﴿هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ المصدرة بـ(إذا) الفُجائية.

قُلْنَا: إن هَذَا التّعبير يدل عَلَى أن هَؤُلاءِ فِي غاية مَا يَكُون من الاشتياق إِلَى نزول الغيث وجه ذَلِك استبشارهم بمجرد الإصَابَة وليس استبشارا عاديا كترتب

الجواب عَلَى فعل الشّرط ولَكِنَّهُ أبلغ لأَنَّهُ أتى بـ(إِذَا) الفُجائية الدّالة عَلَى المبادرة لوجود ذَلِك الشّيء.

وقوْله تَعالَى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَفْرَحُونَ بالمَطَرِ]، الاسْتِبْشَار أشد من مجرد الفرح بل هُوَ يستبشر بنفسه وربما يهنئ غيره ويبشره وَلِهَذا ففي أول مَا يأتي المطر فِي أيام موسم المطر تجد النَّاس إِذَا رأى بعضهم بعضا لا سِيَّما الَّذِين يأتون من البراري يقول أبشرك أَنَّه قد نزل مطر وأنه كثير أو حسب مَا يكون، فالاسْتِبْشَار هُنَا أبلغ من مجرد الفرح لكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ربما يفسره بالتّقريب.

وقوْله تَعالَى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ لا: «ما يشاء النَّاس» فالَّذي ينزل الغيثَ هُوَ الله عَزَّوَجَلَّ وليس أحد يستطيع أن ينزله، وأما مَا ذُكِرَ من أنهم الآن يُسلِّطون مَوَادَّ كيماوية عَلَى السّحاب فينزل المطر فإن صح هَذَا الأمر فنقول: من الَّذي خلق هَذَا المطر؟ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والَّذي أوجد هَذَا السّحاب هُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكونهم يتوصلون إِلَى أسباب يتبخر بِهَا هَذَا السّحاب حتى ينزل مطرًا هَذَا لا ينافي أنْ يكُونَ الله عَزَّوَجَلَّ هُوَ الَّذي ينزل الغيث، ثمَّ إن قوله فِي الآيَة ﴿يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ أبلغ من ينزل المطر إذ إن المطر قد ينزل ولا يَكُون غيثًا كما ثبت فِي صحيح مسلم: «لَيْسَ السَّنَةُ أَنْ لَا تُمْطَرُوا إِنَّمَا السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَلَا تُنْبِتُ الأَرْضُ»(١)، السّنة معناها الجَدْبُ والقَحْطُ يعني لَيْسَ السّنة أَنَّه لا يأتي المطر، السّنة الحقيقية أن يأتي ولا يحصل نبات.

وقوْله تَعالَى: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ المُرَادُ بالعباد هُنَا جمع عبد وَهِيَ العبودية العامة لأَنَّ المطر ينزل عَلَى المؤْمِنينَ وَعَلَى الكَافِرِينَ، بل ربما يَكُون

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في سكنى المدينة وعمارتها قبل الساعة، رقم (٢٩٠٤).

نزوله عَلَى الكَافِرِينَ أكثر وأغدق وأشد استمرارًا، امتحانًا لَهُم لتُعَجَّل لَهُم طيباتهم فِي حياتهم الدّنيا كما قَالَ الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف:٢٠]، أي بهذه الطّيبات ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأحقاف:٢٠]، إِلَى آخره.

قوْله تَعالَى: ﴿وَإِن كَانُوا۟﴾ قَالَ المُفَسِّر: [وقد كانوا]، قدر (إنْ) بـ(قد) وتَبعَ فِي ذَلِك البَغَوِيَّ لأَنَّ الجلاليْنِ مأخوذ من البغوي يعني كأنه مختصر لَهُ لأنك إِذَا تأملت تفسيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجدت أَنَّه هُوَ تفسير البغوي بعينه لكن البغوي مبسوط وَهَذا مختصر؛ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِن﴾ قد]، ولا أحد من أهل النّحو قَالَ بِهَذا القول إِلَّا أن يقوله عَلَى سبيل التّفسير فقط، والصّواب الَّذي لا شك فِيهِ هُوَ أن (إنْ) مخففة من الثّقيلة كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وَعلَى هَذَا فنقول (إنْ) أصلها (إنَّ) فخففت واسمها ضمير الشَّأْنِ محذوف والتّقدير وإنهم، وقد سبق أن القول الصّحيح من أقوال النّحويين أن ضمير الشّأن لا يقدر مفردًا مذكرًا وَإِنَّما يقدر بحسب السّياق إن كَانَ السّياق يقتضي التّأنيث فَهُوَ مؤنث وإن كَانَ السّياق يقتضي التّذكير فَهُوَ مذكر وإن كَانَ يقتضي الجمع فَهُوَ مجموع وإن كَانَ يقتضي التّثنية فَهُوَ مثنى.

إِذَنْ: أصله وإنهم كانوا لكن خففت (إنَّ) فحذف اسمها عَلَى أَنَّه ضمير الشّأن ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ أي: من قبل أن يُنَزَّل عَلَيْهِم المطر، وعرفنا أَنَّ المراد بِهِ المطر من قوْله تَعالَى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ فإن الوَدْقَ إِذَا خرج من خلال السَّحاب ينزل إِلَى الأرْض.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ يعبر الله عَزَّوَجَلَّ عن نزول المطر بالإنزال

والتّنزيل وَذَلِكَ لأَنَّ المطر أحيانًا يأتي دفعةً واحدة بكثـرة وغزارة فيكون إنزالًا، وأحيانًا يأتي بالتّدريج ضعيفًا متقطعًا فيُسَمَّى تنزيلًا لأَنَّ التّنزيل معناه إنزال الشّيء شَيْئًا فشيئًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بالنّسبة لتغاير الإنزال والتّنزيل هل نقول أَنْزَلَ باعتبار المطر ككل وباعتبار أفراده نقول نَزَّلَ؟

فالجوابُ: لا، بل هُوَ باعتبار الكثرة والتّفريق، يعني بعد أيام يأتي، ثمَّ يأتي أيضًا قليلًا أحيانًا، مثلا يَكُون المطر يومين أو ثلاثة ولَكِنَّهُ قليل وأحيانًا يأتي كما هُوَ مُشاهَد سُحبًا عظمية كأنها أفواه القرب.

وقوْله تَعالَى: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ اختلف فِيهَا أهل العِلْم فقال بعضهم كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنّها تأكيدٌ كقوْله تعالَى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [آل عمران:١٨٨]، كرَّر الفعل توكيدًا، هَذَا قول وَهُوَ الَّذي مشى علَيْه المُفَسِّر وعليه أكثر المفسرين أن قوله ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل أن يُنزَّل عَلَيْهِم قَالَ: وإن كانوا من قبل أن ينزل عَلَيْهِم، من قبل أن ينزل عَلَيْهِم لَـمُبْلِسِينَ، فيكون تكرارها للتوكيد.

وقال بعض المفسـرين إنّها كُررت للتأسيـس لا للتوكيد، ومعلوم أنّه إِذَا دار الكلام بَيْنَ أنْ يكُونَ توكيدا وأن يَكُون تأسيسًا فالأصل التّأسيس لأَنَّ الأصل عدم التّوكيد لأَنَّ التّوكيد تكرار والأصل عدم التّكرار، ولينتبه للفرق فِي تعبير العلَمـاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، فالفرق بَيْنَ التّوكيد والتّأسيس أن التّوكيد معناه أن هَذَا هُوَ الأول، والتّأسيس معناه أن هَذَا غير الأول وأنه كلام مستقل.

وعَلَى القول بِأَنَّهُ تأسيسٌ فما معناه؟

قال بعضهم ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ أي: من قبل الاسْتِبْشَار ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ﴾ من قبل الاسْتِبْشَار ﴿لَمُبۡلِسِينَ﴾ فذكر الله لَهُم حالين: قبل الاسْتِبْشَار وبعده، وَهَذا مَا مشى علَيْه أبو السّعود وَهُوَ جيد وليس فِيهِ إشكال من حيْثُ التّصور والمَعْنَى، ويكون المَعْنَى وإن كانوا من قبل إنزال المطر من قبل ذَلِك الاسْتِبْشَار لمبلسين فنبههم الله عَلَى حالهم قبل الاسْتِبْشَار وَهُوَ الإبلاس وَعَلَى حالهم بعد ذلك.

وقال بعضهم ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ أي من قبل قبل أن ينزل عَلَيْهِم ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ أي من قبل ذَلِك القبل فيجعلون الضّمير فِي قوْله تَعالَى: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ لَيْسَ عائدًا إِلَى المطر ولا عائدًا إِلَى الاسْتِبْشَار وَإِنَّمَا يجعلونه عائدا إِلَى القبل فالمَعْنَى عَلَى هَذا: (وإن كانوا من قبل أن ينزل عَلَيْهِم من قبل ذَلِك القبل لمبلسين)، فيكون فائدتها أن الإِبْلاس مستمر معهم من قديم الزّمان فيأتي موسم لا يأتي فِيهِ مطر فيبلسون ثمَّ يأتي موسم آخر فيبلسون ثمَّ يأتي موسم آخر فيبلسون وهكذا، ومعلوم أَنَّه إِذَا تكررت مواسم ولم ينزل مطر كَانَ أشد فِي الإِبْلاس ويكون المَعْنَى أن هَذَا الاسْتِبْشَار أتى بعد يأس مرتين فأكثر وَهَذا أيضًا ذكره ابن كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي تفسيره.

فصار لدينا فِي قوله: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ ثلاثة أقوال:

القول الأول: أَنَّه توكيدٌ.

القول الثّاني: أن الضّمير يعود عَلَى الاسْتِبْشَار.

القول الثّالثُ: أن الضّمير يعود عَلَى القَبْل.

أَمَّا قوْله تَعالَى: ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ فهي بالنّصب خبر لـ(كان) فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَإِن كَانُوا﴾ واقترنت (اللام) بِهَا من أجل (إنْ).

والاقتران هُنَا هل هُوَ واجب أو جائز؟

والجوابُ: إننا لو أسقطناها فسوف تشتبه (إنْ) المخففة بـ(إنْ) النّافية، فيفهمها البعض: لو كانت (وما كانوا من قبل أن ينزل عَلَيْهِم مبلسين)، يعني يستبشرون أنهم مَا أبلسوا ولا يئسوا، يعني: يستبشرون وإن كَانَ لَيْسَ عِنْدَهُم يأس من قبل، لذا فالظّاهر وجوب هذا الاقتران، لأَنَّهَا قد تشتبه بـ(إن) النّافية، أَمَّا إِذَا لم تشتبه فلا يجب الاقتران هل هناك شاهد فِي كلام العرب لذلك؟ نعم قول الشّاعر[1]:

.... وإن مالِك كانت كِرامَ المَعادِنِ

يفتخر بِأَنَّهُ من بني مالِك ثُمَّ يقول: (وإن مالِك كانت كرام المعادن) هُنَا لا يمكن أن تشتبه (إنْ) بـ(ما) لأَنَّهُ لا يمكن أن يفتخر بقوم يسلب عنهم كرم المعدن لو تقول مثلا أنا من قبيلة هَذِهِ القبيلة مَا كانت كرام المعادن لا يستقيم.

فالحاصِلُ: أن اللام هُنَا للتوكيد ويسميها بعض العلماء (اللام الفارقة)، وَهَذا أدق فِي التّعبير وَهِيَ مَعَ كونها فارقة تفيد التّوكيد وَإِنَّمَا سموها اللام الفارقة لأَنَّهَا تفرق بَيْنَ (إنْ) النّافية وبين (إنْ) المخففة.

إِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل يمكن أن تقترن باللام مَعَ كون (إنْ) بمعنى النّفي؟

فالجوابُ: لا، وَهَذا هُوَ السّر فِي أَنَّهَا فارقة لا يمكن أن تقترن بِهَا اللام لأَنَّ اللام تفيد توكيد الإِثْبَات، والنّفي بخلاف ذَلِك، فالنّفي يفيد النّفي.

---

(١) البيت للطرماح، في ديوانه (ص:١٧٣)، وشطره الأول:

أنا ابن أُباة الضَّيم من آل مالك ....

قوْله تَعالَى: ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [آيِسينَ مِنْ إِنْزَالِهِ]، والإِبْلاس مثل القُنُوطِ أَشَدُّ اليَأْسِ ومنه سمي إبليس نعوذ بالله مِنْهُ لأَنَّهُ مُبْلِسٌ آيس من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائِدَةُ الأُولَى: كمال قدرة الله من خمسة أوجه:

أولًا: إرسال الرّياح.

ثانيًا: إثارتها السّحاب.

ثالثًا: بسطه فِي السّماء.

رابعًا: جعله كِسَفًا.

خامسًا: نزول المطر منه.

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أن السّماء يُطلَق عَلَى كل مَا علا لقوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، فإِنَّهُ لا يُبسط فِي السّماء الَّتِي هِيَ السّقف المحفوظ وَإِنَّما يُبسط فِي الجو العالي.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: حكمةُ الله عَزَّوَجَلَّ فِي نزول المطر من أعلى لأَنَّهُ إِذَا نزل من أعلى عم النّازل والمرتفع بخلاف مَا لو كَانَ يجري فِي الأرْض، لو كَانَ يجري فِي الأرْض فإِنَّهُ يغرق النّازل قبل أن يصل إِلَى العالي.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: بَيان شدة افتقار الخلق إِلَى رحمة الله لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: إثْبَات المشيئة لقوْلِه تَعالَى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: إثْبَات العبودية العامة لقوْلِه تَعالَى: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾.

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: جواز الاسْتِبْشَار بالمطر وأن يبشر النَّاس بعضهم بعضًا به.

ولننظر هل تصح هَذِهِ الفائدة أم لا؟ يعني: هل يمكن أن يؤخذ منْهَا جواز الاسْتِبْشَار بالمطر أو يُقَال إن هَذَا خبر عن واقع فلا يتأتى مِنْهُ حكم؟

فيه احتمال أن يؤخذ منْهَا الاسْتِبْشَار بالمطر وفيه احتمال أنْ يكُونَ هَذَا بيانًا للواقع فلا يؤخذ مِنْهُ حكم، وغاية مَا فِيهِ أن يُقَال إنَّه مباح لأَنَّ الله تَعالَى ذكره ولم ينكره.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: بَيان رحمة الله عَزَّوَجَلَّ لكون المطر ينزل نقطًا لا أنَّه ينزل دفعة واحدة؛ لقوْلِه تَعالَى: ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ لأنَّهُ لو نزل كأفواه القرب أو كالأودية الَّتِي تمشي لكان مدمرًا للمنازل مدمرًا للأشجار مؤثرًا عَلَى مَنْ ينزل علَيْه من حيوان ولكن الله عَزَّوَجَلَّ جعله بِهَذا الرَّذاذ.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: بَيان حال العبد قبل نزول المطر وأن العبد ضعيف لقوْلِه تَعالَى: ﴿لَمُبۡلِسِينَ﴾ فإنَّهُ ضعيف إِذَا أصيب بشيء أَيِسَ واستبعد الفرج، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ يزيل عنه هَذَا الأمر، تؤخذ مِنْ قوْلِه تعالَى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ﴾.

الآية (٥٠)

• ● ◌ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم:٥٠].

• ● ◌ ● •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [«فَانْظُرْ إِلَى أَثَرِ» وفي قراءة ﴿ءَاثَٰرِ﴾].

قوْله تَعالَى: ﴿ فَانظُرْ ﴾ الخطاب لِلإِنْسَانِ لَيْسَ للرسول أي الخطاب لمن يتأتى خطابه، الرَّسول ﷺ وغيره لأَنَّهُ قَالَ فِي الآيَة الَّتِي قبلها ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ ثمَّ قَالَ هُنَا ﴿ فَانظُرْ ﴾ أي انظر أيها الإنسان (إلى أثرِ رحمةِ الله) وفي قراءة يقول المُفَسِّر: ﴿ءَاثَٰرِ﴾، والرّسم العثماني من فوائد التِزامه أَنّه لا يتغير بتغير القراءات ﴿ءَاثَٰرِ﴾ عَلَى مقتضى قواعد الرّسم العصرية تكتب بألف بَيْنَ الثّاء والرّاء، لكنها عَلَى قواعد المصحف العثماني لا يكتب فِيهَا ألف (أثر) ثاء وراء فتصلح (آثار) وتصلح (أثر).

وقوْله تَعالَى: ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ﴾ و(إلى أثر) لا فرق بَيْنَهُما فِي الجملة من حيْثُ المَعْنَى لأَنَّ (آثار) مضاف فيفيد العُمُوم و(أثر) مضاف فيفيد العُمُوم أيضًا؛ لأَنَّ المفرد إِذَا أضيف أفاد العُمُوم فأثر وآثار من حيْثُ الجملة لا فرق بَيْنَهُما لأَنَّ قوله: (أثر رحمة الله) بمعنى آثار لكن الفرق بَيْنَهُما من حيْثُ المَعْنَى الخاص أن أثر يشمل الجنس باعتباره شَيْئًا واحدًا، وأما آثار فتشمل الجنس باعتباره أنواعًا.

كيف باعتباره أنواعًا؟

مثلًا أثر المطر يخرج بِهِ الزّرع ويخرج بِهِ الشّجر ويخرج بِهِ شيء صغير وشيء كبير وشيء لَهُ أشجار مُفَطَّحَةٌ[1]، وشيء لَهُ أشجار دَقِيقَةٌ كالعيدان، فلِهَذا تعتبر هَذِهِ آثارًا باعتبار أنواعها، ثمَّ أيضًا الآثار تختلف من أرض إِلَى أرض، هَذِهِ الأرْض تُنْبِتُ كذا وهذه الأرْض تنبت كذا هَذِهِ ينبت فِيهَا الكلأ وهذه لا ينبت وهكذا فهي آثار باعتبار الأنواع، أمَّا باعتبار الجنس وأن كله حصل بسبب المطر فَهُوَ شيء واحد وَهَذا هُوَ الفرق الخاص بَيْنَ أثر وآثار.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي نعمته بالمطر].

وقد سبق أن الرّحمة فِي مثل هَذَا يصح أن تكون اسمًا للمخلوق ويصح أن تكون من صفات الله، فإن كَانَ المُراد الأثر المباشر فالمُراد بالرّحمة المطر لأَنَّ هَذَا النّبات نبت بالمطر، وإن كَانَ المُراد السّبب غير المباشر فالمُراد بالرّحمة صفة الله يعني لكون الله جَلَّ وَعَلَا رحيمًا، فهذه من آثار الرّحمة أنّه ينزل المطر وتنبت بِهِ الأرْض ويزول بِهِ القحط، فالآية صالحة لهذا ولِهَذا.

قوْله تعالَى: ﴿كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ هَذَا مما يرجِّح أن المُراد بالرّحمة: رحمة الله: الصّفة ﴿كَيۡفَ يُحۡيِ﴾ هُوَ أي بالرّحمة سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ يجعلها حيَّة ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيْ يُبْسِهَا]، وحياة كل شيء بحسبه فالأرْض اليابسة الَّتِي لَيْسَ فِيهَا خضار تسمى ميتة لَيْسَ فِيهَا شيء حي، فإذا نزل علَيْه المطر وحيي النّبات سميت حية ﴿يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ وَهَذا دليل عَلَى قدرة الرّب عَزَّوَجَلَّ وَعَلَى رحمته؛ لأَنَّ من يقدر عَلَى أن يفلقَ النَّوَى فِي باطن الأرْض حتى يخرج مِنْهُ

(١) مُفَطَّحٌ: عَريض، لسان العرب (٢/ ٥٤٥).

هَذَا النّبات النّامي هل أحد يقدر عَلَى هذا؟ لا أحد يقدر؛ وَلِهَذا قد جاء فِي الحديث الصّحيح القدسي: «فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً»[1]، ولا يستطيع أحد منهم ولا من غيرهم أن يخلق هَذا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام:٩٥].

قوْله تَعالَى: ﴿كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يعني انظر إِلَى الكيفية والقُدْرَة كَيْفَ هَذِهِ الأرْض الَّتِي كانت غبراء كأنها محترقة أصبحت الآن روضة خضراء.

قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي يبسها بأن تنبت ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾].

قوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ هَذَا الكون العظيم لا يمكن أنْ يكُونَ عبثًا، يُخْلَقُ بشر عاقل، يعرف، ويعقل ويتصرف ويقتل بعضه بعضًا وينهب بعضه بعضًا ويسالِمِ بعضه بعضًا والنّتيجة أن يكونوا ترابًا، هَذَا لا يمكن أبدًا، يعني لو تصوره الإنسان أدنى تصور لوجد أن العقل يدل دلالة قطعية عَلَى أنّه لا بُدَّ من بعث ومجازاة وإلا لكانت الدّنيا كلها عبثًا، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

أَلَسْنا نشاهد مَنْ يخالِفُنا فِي العمل، ومن يخالِفنا فِي الأخلاق، ومن يخالِفنا فِي العقيدة ونتألّم من ذَلِك، لو لا أن الله يسلي الرّسول ﷺ ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشّعراء:٣]، وما أشبه ذَلِك مما يسليه بِهِ لتقطع قلبه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نحن الآن نتألّم لمن يخالِفنا فِي العقيدة ومن يخالِفنا فِي الأخلاق ومن يخالِفنا فِي الأعمال، هَذَا الألم

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، رقم (٧٥٥٩)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة، رقم (٢١١١).

يؤثر علينا ولكن يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [النّساء:١٠٤]، لكن هناك فارق ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النّساء:١٠٤].

فالحاصِلُ: أن هَذَا الكونَ العظيم لا يمكن أنْ يكُونَ عَبَثًا هكذا يحيا ثمَّ يَكُون ترابًا، والله عَزَّوَجَلَّ يحيي الموتى لَيْسَ بني آدم فقط ولكن بنو آدم وغيرهم ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]، ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التّكوير:٥]، وأخبر النَّبِيّ ﷺ أن البهائم يُقْتَصُّ من القَرْنَاءِ لِلْجَلْحَاءِ[1]، حتى البهائم يقضى بينها وَلِهَذا نقول قوْله تَعالَى: ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لا يختص بالإنسان فقط بل بالإنسان وغير الإنسان.

ثم أكد إحياء الموتى بمؤكَّدٍ آخر فِي الجملة الَّتِي بعدها وَهُوَ قوْله تَعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

إِذَنْ: فقد أُكِّد أحياء الموتى بمؤكديْن لفظييْن ومؤكديْن معنوييْن.

وقوْله تَعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ كل شيء الله قادر علَيْه بدون استثناء كل مَا تتعلق بِهِ القُدْرَة ويمكن أنْ يكُونَ قادرًا علَيْه، فإن الله تَعالَى قادر، عَلَى كل شيء قدير، لَيْسَ عَلَى مَا يشاء فقط بل عَلَى مَا يشاء وما لا يشاء، فهداية الكافر الَّذي مات عَلَى كفره الله قادر عَلَيْهَا، مَا شاءها وَهُوَ قادر عَلَيْهَا، فلا تختص قدرته بما شاءه، وَبِهذَا نعرف أن تعبير بعض النَّاس: (أنَّه عَلَى مَا يشاء قدير) أنَّه لا ينبغي، بل قل كما قَالَ الله عن نفسه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]، وأما حديث الرّجل الَّذي يبعثه الله يَوْم القِيامَة، ذكر القصة وفيها أن الله قَالَ لَهُ: «إِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»[2]،

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٢).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجا، رقم (١٨٧).

فهذه لَيْسَ المُرَاد بِهَا وصف الله بالقُدْرَة مطلقًا بل وصف الله بالقُدْرَة عَلَى هَذَا الشّيء المعين الَّذي استبعده المخاطَب، فالله يقول قد شئته فأنا قادر علَيْه وَكَذلِكَ قوْله تَعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ فالقيد بالمشيئة هُنَا لَيْسَ عائدًا عَلَى القُدْرَة لكِنَّهُ عائد عَلَى الجمع، الشّيء المعين يمكن أن تقيده بالقُدْرَة، أمَّا إِذَا أردتَ وصف الله بالقُدْرَة فلا تقيدها بالمشيئة، ففرق بَيْنَ أن تُعَلَّق القُدْرَة بشيء معين خاص وبين أن تُذْكَرَ عَلَى سبيل الوصف العام لله، إِذَا كانت وصفًا عامًّا لله، فالله تَعالَى مَا ذكر قَيْدَ المشيئة أبدًا ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان:٥٤]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب:٢٧]، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤]، وما أشبه ذلك.

والقُدْرَة ضد العجز انظر إِلَى قوْله تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، وأتى بالعِلْم هُنَا لأَنَّ العاجز قد يعجز لعدم علمه بالشّيء، مهندس لكن فِيهِ روماتيزم لا يقدر أن يتحرك، قلنا لَهُ اصنع هَذِهِ السّيارة لا يقدر لأَنَّهُ لَيْسَ عنده القُدْرَة؛ لأَنَّهُ عاجز لا يقدر أن يتحرك، وآخرُ نشيط يحمل الحجر الَّذي أكبر مِنْهُ لكِنَّهُ لا يعرف الصّناعة أبدًا قلنا لَهُ اصنع سيارة قَالَ لا أقدر؛ لعدم العلم، فانتفاء القُدْرَة قد يَكُون لعدم العِلْم وقد يَكُون لعدم القُدْرَة الحسية لَيْسَ عنده علم لَيْسَ عنده شيء يعني عاجزًا.

ذكر صاحب هَذَا التّفسير هَذَا فِي قوْله تَعالَى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٢٠]، آخر سورة المائدة، ذكر عبارة منكرة -والله أعلم- مَا أراد بِهَا سوءًا فقَالَ: [وخص العقلُ ذاتَه فليس عَلَيْهَا بقادرٍ]، يعني أن العقل يقتضي تخصيص ذات الله فالله لا يقدر عَلَيْهَا هَذَا لَيْسَ بصحيح بل الله عَلَى كل شيء قدير وَلِهَذَا الله تَعالَى استوى عَلَى العرش بفعله وقدرته، ينزل إِلَى السّماء الدّنيا، يأتي

للفصل بَيْنَ عباده، يتكلم بما أراد، كل هَذَا مما يتعلق بذاته وَهُوَ قادر علَيْه.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الله يقـدر عَلَى إماتة فلان هل يقـدر عَلَى أن يميت نفسه، هَذَا لا يمكن لا لانتفاء القُدْرَة لكن لأَنَّ هَذَا أمر لا يليق بِهِ وَهُوَ أشد من العجز.

فنَقُول: امتناع هَذَا لأَنَّهُ مستحيل عَلَى الله عَزَّوَجَلَّ وَلِهَذا السّفاريني رَحِمَهُ اللَّهُ فِي العقيدة لما ذكر صفة القُدْرَة قال[1]:

بِقُــدْرَةٍ تَعَلَّقَــتْ بِمُمْكِــن ....

أما المستحيل فَهُوَ مستحيل، لا يمكن، المستحيل أصله مستحيل لا تتعلق بِهِ القُدْرَة.

يُقَال إن الشَّيطان يفرح إِذَا مات العالِم، يفرح فرحًا عظيمًا وَإِذَا مات العابد لا يهمه، قَالَ جنوده لَهُ كَيْفَ تفرح لموت العالم هَذَا الفرح ولا تفرح لموت العابد الَّذِي طول نهاره فِي المحراب؟ قَالَ نعم لأَنَّ العالم أشد علينا من العابد وَإِذَا شئتم أن أضرب لكم مثلًا الآن، فذهب إِلَى العابد وقال لَهُ هل يقدر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يجعل السّموَات وَالأَرْض فِي جوف بيضة؟ قَالَ العابد لا يقدر، قَالَ هل يقدر الله أن يخلق مثله؟ قَالَ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، يمكن أن يقدر أن يخلق مثله هَذَا غير صحيح وغير ممكن فذهب إِلَى العالم فقال لَهُ مثل هَذَا القول، قَالَ أَمَّا خلق مثله فَهَذَا شيء مستحيل ولا يمكن للمخلوق أَنْ يكُونَ مثل الخالِق أبدًا مهما كان، وأما كونه يجعل السّموَات وَالأَرْض فِي جوف بيضة فَهُوَ عَلَى كل شيء قدير، قَالَ الشّيطان: انظروا المِسْكِين العابد كَفَرَ من وجهين أثبت مَا لا يمكن

(١) العقيدة السفارينية (ص:٥٢)، ط. مكتبة أضواء السلف.

ونفى مَا يمكن، وَهَذا حقيقة يعني: أن العباد مثل مَا قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: «مَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَى، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ اليَهُودِ، واليَهُودُ أَخْبَثُ مِنَ النَّصَارَى»[1]، لا شك لأَنَّ العالمَ فساده -والعياذُ باللهِ- عن عِلم، والعابدَ فسادُه عن جهلٍ، وما كَانَ عن جهل فَهُوَ أَهْوَنُ مما كَانَ عن علم.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بالنّسبة لقول من قَالَ إِنَّه عَلَى مَا يشاء قدير، يمكن نستخلص قاعدة وَهِيَ أن الصّفات الذّاتية لا تناقض المشيئة والصّفات الفعلية تناقض المشيئة؟

قُلْنَا: صحيح، هَذِهِ القاعدة، فالقاعدة عِنْدَهُم أن الصّفات الذّاتية هِيَ اللازمة للذات والفعلية مَا تتعلق بالمشيئة هَذِهِ قاعدتهم.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ تعبير القرآن مرة بالإنزال، ومرة بالتَّنزيل؟

قُلْنَا: إِذَا وَرَدَ أَنَّه منزل مثل ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، يَكُون المُرَاد كإنزالنا يعني أنزلنا جملةً مِنْهُ لَيْسَ كله، فأما التَّنزيل فإِنَّهُ يَكُون نازلًا شَيْئًا فشيئًا كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦]، مَعَ أَنَّه قد يأتي التّنزيل لشيء وقع جملةً واحدة مثل قوْله تَعالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ﴾ [النساء:١٤٠]، فعلى هَذَا تكون القاعدة الَّتِي ذكرها أهل العِلْم فِي هَذِهِ المَسْأَلَة قاعدة أغلبية ليست لازمة.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدَةُ الأُولَى: الأمرُ بالنَّظر ويكون بالعين الباصرة وبعين البصيرة أيضًا فالأمر هُنَا بالنّظر للوجهين جَمِيعًا الإنسان ينظر بعينه الباصرة وبعين البصيرة.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٧٩).

الفائِدَةُ الثَّانيَةُ: أن النّظر كمـا يَكُون نافعًا لِلإنْسَانِ فَهُوَ مأمور بِهِ شرعًا أي بمعنى ثواب الإنسان أو إثابة الإنسان عَلَى النَّظر فِي آيات الله لأَنَّهُ مأمور به.

الفائِدَةُ الثَّالثةُ: أن الآثار الَّتِي تنتج عن المطر كلها من رحمة الله إحياء الأرْض بالنّبات وكثرة المياه فِيهَا كله من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

الفائِدَةُ الرّابِعَةُ: إثْبَات قدرة الله تَعالَى عَلَى إحياء الموتى لقوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾.

الفائِدَةُ الخامِسَةُ: الاسْتِـدلالُ بالمحسـوس المنظور عَلَى المحسـوسِ المنتظر، المحسـوسُ المنظور مَا يحصل من حياة الأرْض، والمحسـوس المنتظر مَا يحصل من إحياء الموتى.

الفائِدَةُ السّادِسَةُ: أنَّه لا بُـدَّ أنْ يكُونَ الدّليل أجلى وأظهر من المدلـول علَيْه بمعنى أنَّه لا يمكن أن نستدل بالأخفى عَلَى الأظهر والأوضح؛ لأَنَّ الدَّليلَ مُعَرِّفٌ للمدلولِ ومُبَيِّنٌ لَهُ فكيف يمكن أن تستدلَّ بشيء خفي عَلَى شيء واضح؟

الفائِدَةُ السّابِعَةُ: رحمة الله تَعالَى بعباده حيْثُ يضـرب لَهُم الأمثالَ ويبيِّن لَهُم الأدلةَ ليتوصلوا إِلَى اليقين فيما يجب الإيمان بِهِ؛ لأَنَّهُ يكفي أن يقول الله عَزَّوَجَلَّ آمنوا بأني أحيي الموتى، يكفي فِي إقامة الحجة علَيْهِم، لكن من رحمته أنَّه يُبيِّنُ لنا ويضربُ لنَا الأمثالَ لنصل إِلَى درجة اليقين فيما أخبرنا بِهِ، نأخذه مِنْ قوْله تَعالَى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾.

الفائِدَةُ الثّامِنَةُ: نعمةُ الله عَلَى العباد بإحياءِ الأرْض لقوْله تعالَى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾.

الفائِدَةُ التّاسِعَةُ: أنَّ الجمادَ يوصف بالحياةِ والموتِ، ففيه رَدٌّ عَلَى الفلاسفة الَّذِين يقُولونَ إن الجماد لا يمكن أن يوصف بالحياة والموت؛ لأَنَّهُ غير قابل لها؛ فنقول إن الله تَعالَى وصف الجماد بِأَنَّهُ حي وميت كما فِي هَذِهِ الآية وكما فِي قوْله تَعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ [النّحل:٢٠-٢١]، مَعَ أَنَّها أصنامٌ من الأحجار والأشجار وما أشبهها.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: ثبوتُ صفة القُدْرَة وعُمُومِها لقوْلِه تَعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ لا يُعْجِزُهُ شيء فِي السّماوات ولا فِي الأرْض.

• ● ❁ ● •

الآيــة (٥١)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ [الرّوم:٥١].

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَئِنْ﴾ اللام هُنَا لام قسم دخلت عَلَى (إن) الشّرطية، وقوْله تَعالَى: ﴿لَّظَلُّوا﴾ هَذَا هُوَ الجواب، لَكِنَّهُ جواب لأيها: للشرط أو للقسم؟ هُوَ جوابٌ للقسم؛ لأَنَّهُ لو كَانَ جوابًا للشرط مَا احتاج إِلَى اللام، الفعل الماضي يُجاب بِهِ الشَّرط بدون واسطة، وأيضًا فإن القاعدةَ عند أهل العِلْم بالعربية أنَّه إِذَا اجتمع شرط وقسم يحذف جواب المتأخر منْهُما، قَالَ ابن مالِك رَحِمَهُ اللَّهُ(١):

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَم ... جَـوَابَ مَـا أَخَّـرْتَ فَهْـوَ مُلْتَـزَم

فالقَسَمُ دَلَّ علَيْه اللام الموطئة للقسم، ويوجد شرط (إنْ) والجوابُ الآن للقَسَمِ ﴿لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ وجوابُ الشَّرط محذوف دل علَيْه جواب القسم ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ انظر الفرق فِي الأول يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ وهنا قَالَ: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ مفرد، وقد ذكرنا سابقًا أن الجمع يَكُون رحمةً، والإفرادَ يَكُون عذابًا هَذَا الغالب.

قوْله تَعالَى: ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾: (رأوه) الضّمير لا يعود عَلَى الرّيح لكِنَّهُ يعود

---

(١) ألفية ابن مالك (ص:٥٩).

عَلَى مَا حَيِيَ بالماء الَّذي نزل من السَّماء، لأَنَّهُ تقدم قوْله تَعالَى: ﴿كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾، يعنى: ولئن أرسلنا رِيحًا فرأوا هَذَا الَّذي حَيِيَ مُصْفَرًّا يعني يابسًا حطيمًا بهذه الرّياح ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾.

نقرأ كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَئِنْ﴾ يقول لام قسم ﴿أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ مُضِرَّةً عَلَى نَباتٍ ﴿فَرَأَوْهُ﴾]، الضّمير يعود عَلَى النّبات ثمَّ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ﴾ صاروا جوابُ القسم ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد أي بعد اصفراره ﴿يَكْفُرُونَ﴾ يَجْحَدُونَ النِّعْمَةَ بِالمَطَرِ]، يعني أن الله عَزَّوَجَلَّ إِذَا أحيا الأرْض بعد موتها وأرسل عَلَيْهَا رِيحًا فاصفر النّبات وبعد اصفراره سيتلف امتحانًا مِنْهُ جَلَّوَعَلَا لكانوا من بعد هَذَا الاسْتِبْشَار وبعد أن رأوا آثار الرّحمة صاروا يَكْفُرُونَ ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ يقُولونَ: كَيْفَ هَذَا يأتي المطر وينزل وتحيا الأرْض ثمَّ تأتي هَذِهِ الرّيح فتهلكه فيَكْفُرُونَ -والعياذُ باللهِ- وينسون نعمة الله السّابقة، وَهَذا من الامتحان وَهُوَ داخل فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ﴾ [الحج:١١]، وكان عَلَيْهِم إِذَا أرسل الله هَذِهِ الرّيح واصفر النّبات بِهَا كَانَ عَلَيْهِم أن يقابلوا ذَلِك بالصّبر لا بالكفر، بالصّبر عَلَى هَذِهِ البلية فإن الصّابر يوفى أجره بِغَيْر حساب، وربما تزولُ هَذِهِ المحنة إِلَى نعمة أُخْرَى لأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النّحل:١٢٦]، ويقول: ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ [محمد:٣٦]، ويقول: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦]، فالمُؤْمِنُ يصبر عند البلاء ويشكرُ عند الرَّخاء.

• • ۞ • •

الآيــة (٥٢)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الرّوم:٥٢].

• ● ● •

قوْله تَعالَى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ويجوز أنْ يكُونَ الخطابُ عامًّا لكل من يَتَأَتَّى خِطَابه ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، يعني لا تُسْمِعُهم سماعًا ينتفعون بِهِ أو لا تسمعهم حين الدّعوة، والأقرب الأول لأَنَّهُ لَيْسَ من المعقول أن أحدًا يقف عَلَى الأموات ويقول يا أيها النَّاس اعبدوا الله واتقوه، هَذَا لَيْسَ بمعقول لكن لو فرض أنّه دعا فهل يسمعون سماعًا ينتفعون به؟

الجوابُ: لا يسمعون سماعًا ينتفعون به.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذَا تقييدٌ للآية، الآيَة مطلقةٌ ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فكيف ساغ لكم أن تقيدوها بقولكم: (سماعًا) ينتفعون به؟

قُلْنَا: إن نفي السَّماع يطلق عَلَى نفي السَّماع النَّافع كما فِي قوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١]، هم يسمعون بآذانهم لكن لا يسمعون سماعًا ينتفعون به، ولا نحمله عَلَى الإطلاق لأَنَّ سماع الموتى قد وردت بِهِ الآثَار، فإن رسول الله ﷺ ثبت عنه أنَّه وقف عَلَى أصحاب قَلِيبِ بَدْرٍ من المُشْرِكِينَ وجعل يدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فُلان بن فُلان، يا فلان بن فلان،

هل **وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا**» فقال عمر: يا رسول الله مَا تخاطب من قوم قد جَيَّفُوا يعني كَيْفَ تخاطب الجِيَفَ، موتى، فقَالَ: «**مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ**»[1]، يعني هم يسمعون أشد من سماعكم، فإذَا ثبت أن الموتى يسمعون، وَكَذلِكَ صحح ابن عبد البَرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديثًا ورد عن الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «**أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَى مَيِّتٍ كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا رَدَّ الله عَلَيْهِ رُوحَهُ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ**»[2]، وَهَذا ذَكَرَهُ ابْنُ القَيِّمِ فِي كتاب الرُّوح[3]، وذكر تصحيح ابن عبد البَرِّ لَهُ ولم يتعقبْه، وَعَلَى هَذَا فهم يسمعون لكنهم لا ينتفعون بِهَذا السّماع، ووردت آثار أيضًا عن الصّحابة فِي هَذَا الأمر ذكرها ابن كَثِيرٍ عند هَذَا الآيَة، وثبت أيضًا فِي الصّحيح: «**أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا انْصَرَفَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ بَعْدَ الدَّفْنِ حَتَّى إِنَّه لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ يَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ**»[4]، عَلَى الأَرْض كما يمشي الإنسان عَلَى السّقف فيسمع مشيه عَلَى السّقف وَهَذا أيضًا يقول يسمع قرع النّعال، ولكن الله تَعالَى يجعلهم يسمعون ذَلِك.

فالحاصِلُ: أننا نقول كل هَذَا يؤيد أن المَعْنَى ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني سماعًا ينتفعون بِهِ ومعلوم أن الرَّسول ﷺ مَا دعا الموتى، مَا ذهب إِلَى القبور يدعوهم،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، رقم (٣٩٧٦)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، رقم (٢٨٧٥).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠/ ٣٨٠، رقم ٢٥٩٢).

(٣) كتاب الروح لابن القيم (ص:٥)، ط. دار الكتب العلمية.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم (١٣٧٤)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، رقم (٢٨٧٠).

ولكن الَّذِين يدعوهم من الأحياء كالموتى لا يستجيبون ولا ينتفعون بالدّعوة.

قوْله تَعالَى: ﴿ٱلصُّمَّ﴾ مفعولٌ أول، و﴿ٱلدُّعَآءَ﴾ مفعولٌ ثانٍ أمَّا ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، الأولى فقد حذف المفعول الثّاني لأَنَّ هَذَا فَضْلَةٌ وقد سبق أنَّه يجوز حذف الفَضْلَةِ ولو بلا دليل.

قوْله تَعالَى: ﴿ٱلصُّمَّ﴾ جمع أصم وَهُوَ الَّذي لا يسمع، الَّذي لا يسمع لا تستطيع أن تسمعه لا سِيَّما إِذَا اقترن بِهِ الإدبار ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ وَهَذا أشد مَا يَكُون انتفاء السّماع عن الأصم، فَهُوَ لا يسمع ولو كَانَ مقابلًا لك، فيكف إِذَا أدبر؟! يَكُون أعظم وأعظم، وَلِهَذا فالأصم إِذَا كَانَ أمامك ودعوته بصوتٍ ربما يسمع لكن إِذَا ولى مهما دعوته لا يسمع إِلَّا إِذَا أدركته فمسكته، فالصّم إِذَا ولوا مدبرين لا يسمعون وَإِنَّمَا قَيَّدَ الله عَزَّوَجَلَّ الصّم بهذه الحال لأَنَّهَا هِيَ الحال الَّتِي لا يسمعون بِهَا مطلقًا بخلاف مَا إِذَا كانوا أمامك فإنهم قد يسمعون ويستدلون عَلَى مَا تقول بحركات شفتيك.

قوْله تَعالَى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِتَحْقِيقِ الهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اليَاءِ]، ﴿ٱلدُّعَآءَ إِذَا﴾ هَذَا تحقيقٌ. وتسهيلُ الثَّانية بينها أي بَيْنَ الهمزة المحققة وبين الياء، أي: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا﴾ تجعلها بَيْنَ الهمزة وبين الياء والقراءتان سَبْعِيَّتَانِ[1].

• • ❁ • •

---

(١) النشر في القراءات العشر (١/ ٣٨٦).

الآية (٥٣)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الروم:٥٣].

• ● ● •

قَوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ انظر الآن انتقال الموتى، الصُّم، العُمْي ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾: (ما) حجازية و(أنت) اسمها و(الباء) حرف زائد و(هادِ) خبرها.

قَوْله تَعالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ﴾ اسم فاعل ﴿بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ﴾ العُمْيُ جمع أعمى لأَنَّ أَفْعَلَ جمعُه فُعْلٌ قَالَ ابن مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

فُعْـــلٌ لِنَحْـــوِ أَحْمَـــر وحَمْـــرا ....

أَحْمَر مثل أعمى، وحَمْرَاء مثل عَمْياء، فَعُمْيٌ جمع للذكور والإناث.

قَوْله تَعالَى: ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ ضلالتّهم يعني متاهتهم إِذَا تاهـوا فِي الطّريق، فمـا أَنْتَ بهادي العمي عنه، فكَذَٰلِكَ هَؤُلاءِ الَّذِين عموا عن الحق -والعياذُ باللهِ- فلا يرونه وصموا عنه فلا يسمعونه وماتوا عنه فلا يفقهونه هَؤُلاءِ أيضًا لا تستطيع أن تهديهم، فتأمل الآنَ فِي مَسْأَلَة الموت ومَسْأَلَة الصَّمَم، قَالَ إِنَّك لا تُسمِعُ الموتى ولا تسمع الصّم، وفي باب العمى قَالَ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ﴾ مَا قَالَ مَا أَنْتَ بمبصر؛

---

(١) ألفية ابن مالك (ص:٦٦).

السّبب لأَنَّ البصر تتعلق بِهِ الدّلالة وَهِيَ الهداية بخلاف الصَّمَمِ فيتعلق بِهِ السّمع.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِن﴾ مَا ﴿تُسۡمِعُ﴾ سماعَ إفهام وقبول ﴿إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآن ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾].

فسر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنْ) بـ(ما) التفسيرية؛ وَلِهَذا لا تدغم بـ(إن) لا يُقَال (إمَّا) بل يُقَال (إن) ثمَّ يُقَال (ما) عَلَى سبيل الإظهار لأَنَّ (ما) تفسير لها فهي هي.

قوْله تَعالَى: ﴿تُسۡمِعُ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سماع إفهام وقبول، مَا تسمع ﴿إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآن ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾]، أي فبناءً عَلَى إيمانهم هم مسلمون منقادون؛ لأَنَّهُ كلما تم الإيمان تم الانقياد، فكلما كَانَ الإنسانُ أقوى إيمانًا فإِنَّهُ يَكُون أعظم انقيادًا؛ وَلِهَذا فإن الإيمان يستلزم الإسْلامَ، كل مؤمنٍ مسلمٌ ولا عَكْسَ، فليس كل مسلم مؤمنًا، قد يستسلم الإنسان ظاهرًا وقلبه مُنْطَوٍ عَلَى الكفر -وَالعياذُ بِاللهِ- بخلاف الإِيمان، وَلِهَذا رتَّب عَلَى الإِيمان، الإسْلام بالفاء ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ فهم من أجل إيمانهم مسلمون منقادون.

قوْله تَعالَى: ﴿إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قَالَ المُفَسِّر: إنَّها القرآن، مَعَ أن آيات جمع وليست مفردًا، فما هُوَ الجواب عن قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟

الجوابُ: أن فِي قَوْلِهِ قُصورا، والحق أن المُراد بالآيات مَا هُوَ أعم من القرآن فيشمل جميع الكتب المنزلة ويشمل كَذَلِكَ الآيات الكونية بأن يؤمن بأن هَذَا الكون خلقه الله عَزَّوَجَلَّ لأَنَّ من النَّاس من لا يؤمن بالآيات الكونية انظر ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا﴾ [الطّور:٤٤]، ماذا يقولون؟ ﴿يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾ شيء طبيعي، يقُولونَ: الكون مادة وطبيعة تتفاعل ويَنْتُجُ بعضها من بعض وما أشبه ذَلِك مَا آمنوا بالآيات.

والآيَات الشّرعية كَذَلِكَ، فمن النَّاس من لا يؤمن بها، ويكذبُ بأخبارها ويستكبرُ عن أحكامها، وَهَذا كثيرٌ.

إِذَن: الصّواب أن المُراد بقوْله تَعالَى: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ لا يشمل الآيَات الشّرعية كلها لكل الكتب النّازلة والآيَات الكونية كلها؛ لأَنَّ من النَّاس من ينكر الآيَات الكونية كما هُوَ معلوم.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ معلومٌ أن المُؤْمِنَ سامعٌ فكيف يقول: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ﴾ والمُؤْمِنُ سامعٌ فكيف نُجِيبُ عن هذا؟

فالجوابُ: عن هَذَا من أحد وجهيْن:

- **إِمَّا أن يُقَالَ:** ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ﴾ أي إِلَّا من كَانَ مستعدًا للإيمان بما تقول ومكتوب عند الله عَزَّوَجَلَّ أَنَّه مؤمن بحيث إن الله قدر لَهُ ذَلِك فَهَذَا يسمع وينتفع، وَهَذا أمر غير معلوم للرسول ﷺ لكن يجب علَيْه أن يبذلَ الدَّعوة فيُسمِعُها من كَانَ فِي عِلْمِ الله أَنَّه مؤمنٌ وكان مستعدًا للإيمان هَذَا وجه.

- **أو يُقَال:** إن الدّين شرائعُ لَيْسَ شَيْئًا واحدًا بل هُوَ شرائعُ وشعائرُ متعددة، فالَّذي ينتفع بهذه الشّعائر ويطبقها هُوَ المُؤْمِن بِهَا يعني الَّذي يسمع مَا يتلقى بعد ذَلِك من شعائر الإسْلام وشرائعه، هَذَا المُؤْمِن الَّذي وقع الإِيمَان مِنْهُ فعلًا هُوَ الَّذي يسمع كل مَا دعا إِلَيْهِ الرَّسول ﷺ من جميع شرائع الدّين وَعَلَى قول من يثبتون للدين أصولًا وفروعًا نقول أصول الدّين وفروعه.

لكن شيخ الإسْلام ابن تيمية يقول: «إن تقسيم الدّين إِلَى أصول وفروع قولٌ مُبْتَدَعٌ لا دليل علَيْه»، وَهُوَ صحيح لا تجد فِي القرآن والسّنة أصولًا وفروعًا فِيهَا

مَا يدل عَلَى الرّكنية يعني عَلَى أن هَذَا ركن كما فِي قوله: «بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ»[١]، أَمَّا أنْ نقولَ أصولٌ وفروعٌ؛ فشيخ الإسْلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنكرَ هَذَا لا لأَنَّهُ مُجَرَّدُ اصطلاحٍ، فلا مُشَاحَّةَ فِي الاصطلاحِ، لكِنَّهُ توصل بِهِ إِلَى أمورٍ منكَرةٍ، فقَالُوا مثلًا لا نَحْتَجُّ بأخبار الآحَادِ فِي أصول الدِّين وجعلوا هَذَا بابًا يَلِجُونَ بِهِ إِلَى إنكارِ الصِّفات وإلى إنكار مَا ورد فِي أخبار اليوم الآخر وما أشبه ذلك.

قوْله تَعالَى: ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ المُؤْمِنُ مسلمٌ ظاهرًا وباطنًا، والمنافق مسلم ظاهرًا لا باطنًا، والمعلِنُ بكفره لَيْسَ مؤمنًا لا ظاهرًا ولا باطنًا، والنَّاس لا يخرجون عن هَذِهِ الأحوال الثّلاثة:

- مَنْ كَفَرَ ظاهرًا وباطنًا.
- ومَنْ آمن ظاهرًا وباطنًا.
- ومَنْ آمن ظاهرًا لا باطنًا.

- توجدُ قسمةٌ رابعةٌ وهي: مَنْ آمن باطنًا لا ظاهرًا، وَهَذا لا يمكن، صحيح أَنَّه قد يَكُون ضعيف الإِيمان فتجد فِيهِ مخالَفاتٍ فِي ظاهره كالمُؤْمِن الفاسق، أَمَّا أَنَّه يَكُون لَيْسَ عنده إسلام أبدا فَهَذَا لا يمكن.

• • ❁ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإِيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، رقم (٨)، ومسلم: كتاب الإِيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، رقم (١٦).

الآية (٥٤)

• • ● • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم:٥٤].

• • ● • •

قَوْله تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ هَـذِهِ الآيَة سِيقَـتْ لِبيانِ حـالِ الإنسانِ وكمالِ قدرةِ الله عَزَّوَجَلَّ قَالَ: ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأٌ و﴿ٱلَّذِى﴾ خبرُه.

قَوْله تَعالَى: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ يُقَال بفتـح الضَّاد وبضمها، ضمها لغـة الحجازيين، وفتحها لغة بني تميم، وَلِهَذا يروى عن ابن عُمَرَ رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّه قَالَ: أَقْرَأَنِي رسولُ الله ﷺ مِنْ ضُعْـفٍ بِضَمِّ الضَّادِ[1]، «خَلَقَكُمْ مِنْ ضُعْـفٍ» لكنَّ الحديثَ ضعيفٌ، إنما ذكروا أن الضّاد مفتوحة ومضمومة قِراءَتَانِ سبعيتان[2]، فقراءة الضَّم صحيحة وأي إِنْسَان يقرأ بكل قراءة ثابتة فَهُوَ صحيح.

قَوْله تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ مَا هُوَ الضَّعف؟

يقول المُفَسِّـر رَحِمَهُٱللَّهُ: [ماء مَهِين]، فجعل الضَّعف هُوَ النُّطفة لأَنَّهُ كمـا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ و(مِنْ) هُنَا للابتـداء كقَوْله تَعالَى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾

(١) أخرجه أبو داود: أبواب قراءة القرآن وتحزيبه، كتاب الحروف والقراءات، رقم (٣٩٧٨)، والترمذي: أبواب القراءات، باب ومن سورة الروم، رقم (٢٩٣٦).

(٢) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٨٤).

[الأنبياء:٣٧]، وقِيلَ: المُرَادُ بالضَّعف ضعفُه بعد نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ، إِذْ إِنَّه حال النُّطفة جَمَاد لا يوصف بِأَنَّهُ ضعيف ولا أَنَّه قوي، ولكن المُرَاد بالضَّعف بعد نفخ الرُّوح فِيهِ وَهَذا هُوَ الصّحيح، فإن الإنسان لا يَكُون خلقًا تامًّا إِلَّا بعد نَفْخِ الرُّوح، وَلهَذا قالَ الله تَعالَى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المُؤْمِنُونَ:١٤]، هَذَا الإنشاءُ هُوَ أولُ مَا يَكُون بِهِ الإنسان إنسانًا؛ لأَنَّ الإنسانَ إِنْسَانٌ ببدنِه وروحِه، وَعَلَى هَذَا فنقولُ المُرَادُ بالضَّعف بعد نفخ الرُّوح فيه: ضعف الطُّفولة، ويبتدأ من كونه حيًّا فِي بطن أمه، وَهَذا ظاهر لا يحتاج إِلَى دليل، فالإنسانُ الصّغير ضعيف والضّعف أيضًا بقواه الحسيةِ وقواه المَعْنَوِيَّةِ، فَهُوَ ضعيفٌ بالتّفكير وَهِيَ القوى المَعْنَوِيَّةُ.

• ● ۞ ● •

الآيات (٥٥- ٥٩)

• • ● • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٥-٥٩].

• • ● • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ﴾ يَحْلِفُ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الْكَافِرُونَ ﴿مَا لَبِثُواْ﴾ فِي الْقُبُورِ ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ يُصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ: الْبَعْثِ كَمَا صُرِفُوا عَنِ الْحَقِّ الصِّدْقِ فِي مُدَّةِ اللَّبْثِ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فِيمَا كَتَبَهُ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الَّذِي أَنْكَرْتُمُوهُ ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وُقُوعَهُ.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ فِي إِنْكَارِهِمْ لَهُ ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لَا يُطْلَبُ مِنْهُمُ الْعُتْبَى: أَيِ الرُّجُوعُ إِلَى مَا يُرْضِي اللهَ.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ جَعَلْنَا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ تَنْبِيهًا لَهُمْ

﴿وَلَبِن﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿جِئْتَهُم﴾ يا مُحَمَّدُ ﴿بِئَايَةٍ﴾ مِثْلِ الْعَصَا وَالْيَدِ لِمُوسَى ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ حُذِفَ مِنْهُ نُونُ الرَّفْعِ لِتَوَالِي النُّونَاتِ وَالْوَاوُ ضَمِيرُ الْجَمْعِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ مِنْهُمْ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أَنتُمْ﴾ أَيْ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أَصْحَابُ أَبَاطِيلَ.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ التَّوْحِيدَ كَمَا طَبَعَ عَلَى قُلُوبِ هَؤُلَاءِ]اهـ[1].

• ● ❁ ● •

(١) لم يوجد تسجيل صوتي لتفسير هذه الآيات، ولهذا نُقل تفسيرها من تفسير الجلالين رحمهما الله تعالى.

الآيــة (٦٠)

• • ◆ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الرّوم:٦٠].

• • ◆ • •

هذا تَأْدِيبٌ مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولغيـرِه أيضًا، بأَنَّ الإنسانَ يصبِرُ ولا يَسْتَخِفَّنَّهُ الذين لا يؤمنونَ بما وعدَ الله الصابرينَ، وهذا يقعُ لكثيـرٍ من الناس، تجد بعضَ الناسِ مثلًا يحصُلُ لَهُ مَا يحصلُ من الأمور، فمثلًا لو كَانَ لَهُ جارٌ يؤذيهِ، يأتيهِ بعضُ الناس يقولون: كَيْفَ تتحمَّلُ من جارك هذه الأذِيَّةَ، أو كَيْفَ تتحمَّـلُ من صاحِبكَ هذه الأذِيَّـةَ، أو من أهلِكَ أو مَا أشبـه ذلك، فيستخِفُّـونه فلا يصبر.

ولكن الذي يَنبغِـي للإنسانِ العاقـلِ أنْ لا يَسْتَخِفَّـهُ أولئكَ القـومُ الذين لا يؤمنونَ بما وَعَدَ الله بِهِ الصابرينَ، بل يصبرُ ولا يهمهُ كلامُ الناسِ حتى يحقِّقَ الله لَهُ مَا وَعَدَهُ.

وبهذا انتهت سورة الروم.

• • ۞ • •

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث | الصفحة

«مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إلا رَفَعَهُ الله» ١١
«إِنَّ الله مُحْسِنٌ، كَتَبَ الإحسَان عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القتْلَةَ» ٢٩
«إِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا» .... ٥٠، ٢٦٢
«إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حقًّا» ٦١
«يَا عِبَادِيَ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا» ٦٢
«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخرِ وَتُؤْمِنَ بِالقدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»..... ٧٨
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُه وَشِرْكَهُ» ٨٤
«أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجنَّةَ قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ الله، وَالحمْدُ لله، وَلَا اله إلا الله، وَاللهُ أَكْبَرُ» ٨٥
«هُمْ مِنْهُمْ» ٨٦
«الله أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ» ٨٦
«اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ» ٨٩
«اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ» ٨٩
«الحمْدُ للهِ الَّذي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالحاتُ» ٩٠
«وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيْكَ» ٩٠
«وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ» ٩١

«صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله ﷺ إِحْدَى صَلَاتَي العشِيِّ» ٩٢
«هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟ فَمَا لَوْنُهَا» ٩٩
«أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ» ٩٩
«تَفَكَّرُوا فِي آيَاتِ الله، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ الله» ١٠١
«أَصْدَقُ الأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّامٌ» ١٠٦
«خُذِ الحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا» ١١٢
«مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا فَرَّجَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ» . ١١٣
«وَالله فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ» ١١٣
«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ العَمَلِ الَّذِي يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ» ١١٤
«السُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ» ١١٦
«طَوَّقَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ» ١١٨
«كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ» ١٤٧
«أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ» ١٤٨
«مَنْ بَاعَ عَبْدًا وَلَهُ مَالٌ فَمَالُه لِلَّذِي بَاعَهُ إِلَّا أَنْ يَشْتَرِطَ المُبْتَاعُ» ١٦٢
«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ» ١٦٦
«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» .... ١٧٤، ٢٤٧
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ١٧٤
«مَنْ يَهْدِهِ الله فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ» ١٧٩
«مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ

إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً» ١٨٠
«وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي» ١٨٢
«أَبْشِرُوا فإنَّكُم لَمَع خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتَا فِي شَيْءٍ إِلَّا كَثَّرَتَاهُ، يَأْجُوجُ ومَأْجُوجُ» ١٨٣
«كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» ..١٧٨، ١٨٠، ١٨٤
«لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا» ١٨٨
«افْتَرَقَتِ اليَهُودُ... وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى» ١٩٥
«تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ» .... ١٩٩، ٢٠٢
«إِنَّ اللهَ يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ» ٢٠٢
«فَإِنْ تَشَاجَرُوا فَالسُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لَا وَلِيَّ لَهُ» ٢٠٧
«إِنَّ اللهَ يَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالقُرْآنِ» ٢٠٧
«أَنَّ المُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ كَمَا يَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ» ٢٢٦
«فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ للهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا» ٢٣١
«الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ ذُرْوَةُ سَنَامِ الإِسْلَامِ» ٢٣٨
«لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» ٢٣٨
«العَامِلُ فِي أَيَّامِ الصَّبْرِ لَهُ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ» ٢٣٩
«مَهْلًا يَا خَالِدُ، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» ٢٤٠
«أَنَّ أَفْضَلَ الأَعْمَالِ بَعْدَ الإِيمَانِ بِاللهِ الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا» ٢٤١
«وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ» ٢٤٣

«مَنْ أَسْلَفَ فِي شَيْءٍ فَلْيُسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ» ٢٥٠

«أنَّ الله تعالَى كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي» ٢٥٩

«اللهم لا مانِعَ لما أعطيتَ ولا مُعْطِيَ لما مَنَعْتَ ولا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ» ٢٧١

«ارْجِعْ فَصَلِّ فإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» ٢٧٥

«مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»
.... ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٧

«لا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ إِلَّا الصَّلاةَ» ٢٨٠

«ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ» ٢٨١

«مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ فَلْيَمُتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيًّا» ٢٨١

«أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ» ٢٩٠

«وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» .... ٢٩٨، ٣٠١

«لَيْسَ السَّنَةُ أَنْ لَا تُمْطَرُوا إِنَّمَا السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَلَا تُنْبِتُ الأَرْضُ» ٣١٠

«فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً» ٣١٩

«إِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ» ٣٢٠

«مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ» ٣٢٩

«أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَى مَيِّتٍ كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ فَرَدَّ عَلَيْهِ
السَّلَامَ» ٣٢٩

«أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا انْصَرَفَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ بَعْدَ الدَّفْنِ حَتَّى إِنَّه لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ أَتَاهُ
مَلَكَانِ يَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ» ٣٢٩

«بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ» ٣٣٤

فهرس الفوائد

الفوائد	الصفحة
تعريف المكي والمدني	٧
الكلام عن البسملة	٩
فضل قول: (لا أَدْري)	٩
أقوال العلماء في الحروف المقطعة	١٢
تعريف البِضْع	١٨
كلام عن (أل) الاسْتِغراق	١٩
أحوال ضبط «قبل»	٢٠
متى حصلت الواقِعَة الثانية بَيْن فارِسَ والرّومِ	٢٣
أقسام صفة العزَّة	٢٣
كَلامُ الله عَزَّوَجَلَّ بالحروفِ	٢٤
كُلُّ الأشْيَاء لَا تَكونُ إلا بِأَمْرِ الله	٢٥
جَوازُ فَرَحِ المؤْمِنينَ بانْتِصَارِ بعْضِ الكفَّار بعضِهم عَلَى بعْضٍ	٢٦
النّصر نَصْرٌ مُطْلَقٌ دَائِمٌ، أو نَصْرٌ عارِضٌ مؤقَّتٌ	٢٧
هَلْ كُلُّ صِفَةٍ يُشتَقُّ منْهَا اسْمٌ؟	٢٨
هل (المنْعِم) مِنْ أسماءِ الله عَزَّوَجَلَّ؟	٢٨
هَل يجُوز التّسمِّي بعبْدِ المنْعِم؟	٢٩

هَل يجُوز التّسمّي بـ(حَميد) و(مُحْسِن)؟ ٢٩
كلام عن الوقف والوصل ٣١
هَلْ يجُوزُ إذا أجْمَع العلَماء عَلَى قوْلَيْنِ إحْداثُ قولٍ ثالِث؟ ٣١
أسباب إخْلَاف الوَعْدِ وتنزه الله عنه ٣٢
العلْم الحقيقِيّ هُو العلْمُ باللهِ تَعالَى وأسمائِهِ وصِفاتِهِ ٣٤
قصور علم الكفار ٣٦
هَل الكفَّارُ يُؤمِنُون بوجُودِ الله أمْ يُنْكِرونَ وُجودَه؟ ٣٨
التراكيب مثل: (أولم يتفكَّرُوا) في النحو ٣٩
كُلُّ شيءٍ عنْدَ الله عَزَّوَجَلَّ مُقَدَّرٌ ٤٢
تعريف الكفْر وأنواعه ٤٣
محلُّ التّفْكِيرِ هُو العقْلُ ٤٤
ينبَغِي لِلإنْسَانِ أنْ لا يُضيِّعَ وقتَهُ سبَهْلَلًا وسُدًى ٤٥
الخلْق عَلَى عِظَمِه لَه أَجَلٌ محدُودٌ ٤٦
المُؤمِن والكافِر سيلقيان الله لكِنْ هُناكَ فَرْقٌ بيْنَ اللِّقائَيْنِ ٤٧
هَلِ المرادُ باللِّقاءِ هُنا اللِّقاءُ المجَرَّدُ أم المرادُ بِه الرّؤْيَةُ؟ ٤٨
الرّبُوبيّةُ تنْقَسِمُ إلَى قِسْمَيْنِ ٤٨
كيْفَ يُطْلب مِنَ الإنسان أنْ يسيرَ بقَدَمِه إلَى مَواقِعِ العذابِ ٥٠
هلْ النّظَرُ بالعيْن يُفيدُ أوْ لا يُفيدُ؟ ٥٢
تعريف الظّلم ٥٥
نَفي الظّلم صِفَةٌ سلبيّةٌ ٥٥

السّيْر في الأرْضِ -بمعْنَى مُراجَعةِ الحوادِثِ والتّوارِيخِ- يُفِيدُ المرْءَ............. ٥٧
أنَّ الإنسان مهْمَا قَوِيَ فهُو ضعِيفٌ بالنّسْبَةِ لِقُوَّةِ الله ٥٧
نفسُ الإنسان عنْدَه أمانَةٌ ٦١
الإنسان بمعصِيَتِه لا يضُرُّ إلا نفسَهُ ٦٢
الفرْقُ بيْنَ التّكذِيبِ والاستِهْزَاءِ... ٦٧
هلِ إعادَةُ الإنسان هي إعادة نفْسِ الأجْسَام أمْ تنْبُتُ نَباتًا جديدًا؟ ٧٠
قِيامُ السّاعَة كائِنٌ لَا محالَةَ.. ٧٥
التنوين في: (حينئِذٍ، ويومئِذٍ)... ٧٧
مآل ذراري الكفار ٨٢
هَل يُفرَّقُ بيْنَ الاسْتمرارِ عَلَى الشّرْك الأصْغَرِ وعَدمِ الاسْتمرارِ؟.................. ٨٤
الرّياءُ إذا طرَأَ فِي أثْنَاءِ العبادَةِ، هلْ يَكُون مُبْطِلًا للعِبادَةِ؟..................... ٨٤
مَا الصّحِيحُ فيمَنْ تُوفِّيَ قبْلَ البلُوغِ؟ ٨٦
حدِيثَانِ فِي أوْلادِ المشْرِكينَ... ٨٦
الشّرّ بالنّسبةِ لِفعْلِ الله وإيجادِه لَه ليْسَ بِشَرٍّ ٩٠
هلِ الكافِرُ يحْمَدُ الله؟ ٩٢
أمثلة لإخراج الحي من الميت ٩٦
قِيام الأفْعَالِ الاخْتِيارِيَّةِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ.. ٩٧
رأي أهْلِ البدَعِ في الأفعالِ الاخْتِيارِيَّةِ ٩٨
كيْفَ تَكُونُ الأشْيَاءُ عَلامَةً عَلَى الله عَزَّوَجَلَّ وهُوَ أبْيَنُ وأظْهَرُ؟ ١٠١
لِمَ سُمِيَّ الإنْسانُ بَشرًا ١٠٣

مَا ساقَهُ القُرطُبِيُّ في تفسِيرِ آيَةِ الحَجِّ مَن أنَّ المَنِيَّ فِيه تُرابٌ؟ ١٠٣
الكلام عن نظرية النشوء والارتقاء (الداروينية) ١٠٤
هل المودة والرحمة موزعان بين الزوجين أم مشتركان ١٠٩
هَلِ المودَّةُ في أوَّلِ الحياةِ الزَّوجِيَّةِ والرَّحمَةُ بعْدَ الأَوْلادِ؟ ١١٢
مِن أهَمِّ أغْرَاضِ النِّكاح ومقاصِدِه السُّكُون بين الزوجين ١١٢
المودَّةُ لا تُنالُ بالكَسْبِ ١١٤
فضل التّفكُّر ١١٥
صفة اخْتِلاف الألسِنَة ١١٨
قول البعض: لكُلِّ إنْسَانٍ أرْبَعِونَ شَبِيهًا ١٢٠
مدْحُ أُولِي العِلْم ١٢١
مَا المُرادُ بالسّمْعِ ١٢٦
النَّوم مِن آيَاتِ الله ١٢٦
التّنويم المغناطِيسيّ ١٢٧
جواز الابتداء بالمضارع المؤول مصدرا ١٣٠
الإرادة في اللغة والشرع ١٣٣
القِياس مِن الأدِلَّةِ العقْلِيَّةِ ١٣٦
هَلْ دَعوَةُ الله تكُونُ مِن الأرْضِ أمِ المرادُ أنَّكُم أنتُم فِي الأرْضِ؟ ١٣٩
مقَرّ بَني آدم الأرْض ١٤٠
انْفِرادُ الله عَزَّوَجَلَّ بالمُلْك ١٤٣
وجه تأويل صاحب الجلالين لقوله تعالى: ﴿أَهْوَنُ﴾ ١٤٦

هل يأتي (فَعيل) بمعنى (مُفْعِل) في اللُّغَة العربية؟ ١٥٠
صفة الحكمة ١٥٠
قياس الأَوْلى ١٥٣
الرَّدُّ عَلَى أَهْلِ التَّعطيلِ ١٥٣
كُلّ صِفَةٍ وُصَف الله بِها نفْسَهُ فَهِي صِفَةُ كَمالٍ ١٥٤
لي الاشتراكيين أعناق النصوص بدعوى موافقتهم للإسلام ١٥٩
العَبِيد لا يَمْلِكُونَ ١٦٢
لفْتُ انْتِبَاهِ الإِنْسانِ إِلَى سُؤالِ الهدَايَةِ مِن رَبِّه دَائِمًا ١٦٨
الحثُّ عَلَى طلَبِ العِلْم والعَمَلِ بِه ١٧٠
الرَّسم العُثْمانِيّ للمصحف ١٧٥
لَوْ كُتِب القُرآنُ الكَرِيمُ بالرَّسْم الحدِيثِ لضَاعتِ القِرَاءاتُ ١٧٧
تعليق الهداية والإضلال بمشيئة الله لا يعني صواب نهج الجبرية ١٧٩
هلْ يأْجُوجُ ومأْجُوجُ مِن بَنِي آدَم؟ ١٨٢
الإِخْلاص لا يتِمُّ إلا بسلْبٍ وإيجابٍ ١٨٣
تعريف التَّقْوَى ١٨٧
الفرحُ لا يُذَمُّ من حيْثُ هو فرحٌ ١٩١
اختلاف المسلمين في الآراءِ لا يلزمه الاختلاف في الدِّينِ ١٩٤
كلام عن حديث افتراق الأمة ١٩٥
لا يجوز التَّحَزُّبُ في الدِّين ١٩٧
هل الَّذِينَ يُقَلِّدُونَ الكُفَّارَ يَدْخُلُونُ في الفِرَقِ؟ ١٩٧

الشَّرّ لا يُضاف إِلَى الله ٢٠٤

كل مُتَأوِّلٍ يظن أنّه عَلَى صواب فإِنَّهُ لا إثمَ علَيْه ٢٠٩

تحريمُ القُنُوطِ من رحمةِ الله........................ ٢١٨

كَيْفَ نُفرِّقُ بَيْنَ البلاءِ والابتلاءِ؟ ٢١٨

إِذَا عُلِّقَ الحكمُ عَلَى وصف فكلما كَانَ هَذَا الوصفُ أشدَّ تمَكُّنًا فِي شيءٍ فَهُوَ أَحَقُّ .. ٢٢٨

تفضيل النَّفْعَ المتعدي ٢٢٩

تحريم الربا والتحيل عليه........................ ٢٣٢

أسباب مضاعفة الأجر........................ ٢٣٧

هل الصّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتفاضلون؟ ٢٤٠

مَنِ استجلبَ رزق الله بمعاصيه فقد خالَف الحكمة والصّواب ٢٤٦

تحريم الرِّبا........................ ٢٤٦

هل التَّوَرُّقُ داخل فِي التحيل على الكسب؟ ٢٤٨

هل الإيداع فِي البنوك يعتبر إيداعًا شرعًا؟ ٢٥٠

مَا حكم السَّلَمِ؟ ٢٥٠

كيف كَانَ الفسادُ فِي البحر؟ ٢٥٤

من عقوبات قوم فرعون ٢٥٤

وجه التعبير بالإِذَاقَة عن الإصَابَة........................ ٢٥٦

بطلان مذهب الجبرية........................ ٢٥٨

هل المُراد السّير بالأقدام أو السّير بالعقول والتّفكير؟........................ ٢٦٢

تحريم الحكم بِغَيْر مَا أنزل الله ٢٧٠

ينبغي لمن أَمَرَ بشيء أن يذكر مَا يُرَغِّبُ فِيهِ ٢٧١
هل يلزم المصلي أن يفقَه مَا يقولُ؟ ٢٧٥
ما معنى قول النحاة: مُتَعلِّق؟ ٢٧٨
اعتبار اللازم ٢٨٥
اصطفاء الرسل ٢٩٦
كيف نوجه انتصارات الكفار الحربية؟ ٣٠٤
عندما ينزل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في نهاية الزمان سيكون من أتباع النبي ﷺ. ٣٠٥
فرح الناس بالغيث ٣٠٩
فضل الرسم العثماني للمصحف الكريم ٣١٧
قول صاحب الجلالين: «وخص العقلُ ذاتَه فليس عَلَيْهَا بقادرٍ» ٣٢١
الحكمة من تعبير القرآن مرة بالإنزال، ومرة بالتَّنزيل؟ ٣٢٣
الدِّين شرائعُ وشعائرُ ٣٣٣

فهرس آيات السورة

الآية **الصفحة**

تقديم ٥

سورة الروم ٧

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ ١١

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ ١٤

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾ ١٦

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ ١٨

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾ ١١

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ ٣٥

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ ٣٩

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٩﴾ ٤٩

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ

وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٦٣

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ٦٨

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ٧٢

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ ٧٤

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ٧٧

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ٨١

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ٨٨

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ٩٥

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ١٠٠

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ١٠٧

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ١١٧

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ١٢٤

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ

ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ١٣٠

" قال اللهُ عزَّوجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ١٣٧

" قال اللهُ عزَّوجَلَّ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ ١٤١

" قال اللهُ عزَّوجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ ١٤٥

" قال اللهُ عزَّوجَلَّ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ١٥٧

" قال اللهُ عزَّوجَلَّ: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ١٦٥

" قال اللهُ عزَّوجَلَّ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ١٧٣

" قال اللهُ عزَّوجَلَّ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ ١٨٦

" قال اللهُ عزَّوجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ١٩٨

" قال اللهُ عزَّوجَلَّ: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ٢٠٥

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ٢١٢

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ٢١٩

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ٢٢٣

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ٢٣٢

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ٢٤٢

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ٢٥٣

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ٢٦١

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ٢٦٧

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .. ٢٧٣

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ٢٧٨

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ٢٨٧

" قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ ٢٩٦

" قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) ﴾ ٣٠٨

" قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ ٣١٧

" قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) ﴾ ٣٢٦

" قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) ﴾ ٣٢٨

" قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣) ﴾ ٣٣١

" قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) ﴾ ٣٣٥

" قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) ﴾ ٣٣٧

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)﴾ ٣٣٩

فهرس الأحاديث والآثار ٣٤١

فهرس الفوائد ٣٤٥

فهرس آيات السورة ٣٥٣

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٩)

تفسير القرآن الكريم

سورة لقمان

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٩)

تفسير القرآن الكريم

سورة لقمان

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ⓒ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة لقمان. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ
٢٢٦ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٣٩)
ردمك: ٦ ـ ٤٣ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة لقمان ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٢٥

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٢٥
ردمك: ٦ ـ ٤٣ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يوم الدِّين، أمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحِ العُثَيْمين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أثْناءَ الإِجازاتِ الصَّيفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتمَدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لِتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمَدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[1]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤَسَّسةِ الشَّيخ مُحمَّد بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراج ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالِصًا لِوجهِه الكَريمِ؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لَهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ
فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ
٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

سورة لقمان

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إلَى يومِ الدِّينِ. وبَعد:

يَقول المُفَسِّر[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: [وهي مَكِّيَّة] المَكِّيُّ أَرجَحُ الأقوال -والذي عليه الجُمهور-: أن ما نزَل بعد وصول الرسول ﷺ إلى المدينةَ فهو مدَنيٌّ، ولو نزَل بمَكَّةَ، وما نزَل قبل وصوله إلى المدينة فهو مَكِّيٌّ، هذا هو القول الراجِح، فعلى هذا المُعتبَرُ هو الزمَن لا المكان، وهذا أَريَحُ أيضًا للإنسان.

يَقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [مكِّيَّة، إلَّا: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ [لقمان:٢٧]]، وفي نُسخة [أو إلَّا] وبينهما فَرْق؛ لأن قول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [إلَّا ﴿وَلَوْ﴾] أن هذا اقتِصار على قول واحِد وجزَم به، أمَّا على النُّسخة الثانية [أو إلَّا] فهو إشارة إلى أن في المَسأَلة قولين، وأنه لم يُجزَم بأحَدِهما.

والصحيح ما سبَقَ لنا أن السورة إذا كانت مَكِّيَّة فإننا لا نَستَثْنِي منها شيئًا إلَّا بنَصٍّ صريح واضِح، وإذا كانت مدَنية فإننا لا نَستَثنِي منها شيئًا إلَّا بنَصٍّ صريح واضِح؛ لأن الأصل أنَّ السورة تَكون مُتَتالِيةً، وأن الرسول عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَضَع كل آية في مكانها، أو يَأمُر بوَضْعها.

---

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

وعلى هذا فنقول: إن جاء مَن أثبتَ أن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾، نزَلَت بعد الهِجرة، وأثبَت ذلك بنَصٍّ فعَلَى العَيْن والرأس، وإلَّا فالأَصْل أن السورة كامِلة مكِّيَّة.

• ● ❁ ● •

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

• • • •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

• • • •

[بسم الله الرحمن الرحيم] تَقدَّم الكلام على البَسمَلة إعرابًا ومَعنًى وحُكمًا:

أما إعرابها فإنها جارٌّ ومَجرور مُتعَلِّق بمَحذوف، فِعْل مُؤَخَّر مُناسِب للمَقام، الآنَ نُريد أن نَقرَأ هذه السورةَ فنَقول: بسم الله الرحمن الرحيم أَقرَأُ. أو نُريد أن نُفسِّر نَقول: بسم الله الرحمن الرحيم أُفسِّرُ. ويُريد الإنسان أن يَتوَضَّأ يَقول: بسم الله أَتوضَّأ، وقدَّرناه فِعْلًا؛ لأن الأَصْل في العامِل أن يَكون فِعْلًا، لا سيَّما وأنه مَحذوف.

وقدَّرْناه خاصًّا، لم نَقُلْ مثَلًا: بسم الله الرحمن الرحيم أَبتَدِئ. بل قُلْنا: كُنَّا إن كنت تُريد أن تَقرَأ قَدِّر: أَقرَأُ، تُريد أن تَأكُل قَدِّر: آكُلُ، تُريد أن تَشرَب قَدِّر: أَشرَبُ، فاختَرْنا أن يَكون تقديرُه خاصًّا لأَجْل أن يُناسِب كل حال بعَيْنه؛ ولأن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «مَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ بِسْمِ اللهِ»(١) فهو إشارة إلى أنه يُقدَّر الفعل المَحذوف بما يُناسِب الفِعْل المُبتَدَأ به.

واختَرْنا أن يَكون تَقديرُه مُتأخِّرًا؛ لأَجْل البَداءة بـ(بسم الله)، ولإفادة الحَصْر والاختِصاص؛ لأن تَقديم المَعمول يُفيد الحَصْر والاختِصاص، فكأنك تَقول:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العيدين، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد، رقم (٩٨٥)، ومسلم: كتاب الأضاحي، باب وقتها، رقم (١٩٦٠)، من حديث جندب بن سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لا أَبتَدِئ إلَّا بسم الله، هذا هو السبَب في أن نُقدِّره مُتأخِّرًا.

فهي (اسم) مُضاف، ولفظ الجَلالة مُضاف إليه، و(الرحمن) صِفة لله تعالى، و(الرحيم) صِفة لله تعالى أيضًا.

وأمَّا حُكْمها: فإنها آية من كِتاب الله تعالى تَكلَّم الله تعالى بها، وأَنزَلها على الرسول ﷺ، لكنها ليسَتْ آيةً من السورة، إنها جُعِلت علامةً على ابتِداء السورة فقَطْ، وليسَتْ منها، وتَجِد في المَصاحِف أنه لم يُكتَب عليها رقمٌ إلَّا في الفاتِحة، فإنها رُقِّمت، والسبَب أنَّ الفاتِحة ذهَب كثير من أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ إلى أن البَسمَلة منها، والصواب أنَّها ليسَتْ منها، بل كغيرها، وأن أوَّل آية في سورة الفاتِحة هي قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٢-٦]، هؤلاء خمسُ آيات والفاتِحة سبعُ آياتٍ، إذن السابِعة: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، هذه السابِعة، هذا هو الصحيح، مع أنك تَجِد في المَصاحِف ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آية واحِدة بِناءً على أن البَسمَلة هي الآية الأُولى. أي: أن حُكْمها باعتِبار تِلاوتها في الصلاة.

فإن قُلنا: إنها من الفاتِحة فهي آية منها، ولا بُدَّ من قِراءتها، وتُقرَأُ جَهْرًا كما يُجهَر بالفاتِحة، وإذا قُلْنا: ليسَت منها فإنه لا تَجِب قِراءَتُها ولا يُجهَر بها.

• ● ۞ ● •

الآيــة (١)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓمٓ﴾ [لقمان:١].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿الٓمٓ﴾ اللهُ أَعلَمُ بمُراده به] قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ ثلاثة حُروف هِجائية، يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [اللهُ أَعلَمُ بمُراده به]، وفي هذا إثباتٌ؛ لأن الله تعالى أَراد به شيئًا، لكنه لا يُعلَم، فنَأخُذ من كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه يَرَى أن لهذه الحُروفِ مَعنًى، ولكن الله أَعلَمُ به، وقال بعضُ أهلِ العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إن لها مَعنًى، وجعَلوا يَتَخبَّطون بهذا المَعنَى، ويَجعَلونها رُموزًا لَمَّا جعَلوها له، وقال مُجاهِد: إنه لا مَعنَى لها(١)، فنَقول: لا مَعنَى لها.

ولا نَقول: اللهُ أَعلَمُ بما أَراد؛ وذلك لأن القُرآن نزَل باللغة العربية كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف:٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣]، واللغة العرَبية ليس لهذه الحُروفِ فيها مَعنًى، وعلى هذا فنَقول: إنه لا مَعنَى لها، ونَقول ذلك لأن هذا هو مُقتَضى اللُّغة العرَبية التي نزَل بها القُرآن.

فإذا قال قائِل: إذا قلت: لا مَعنَى لها. كيف يَسوغ لك أن تَجزِم بنَفيِ المَعنَى؟

فالجَوابُ: نعَمْ، يَسوغ لنا ذلك؛ لأن القُرآن باللغة العربية، وهذه الحُروفُ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٠٩)، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧٠).

الهِجائيـة بمُقتَضى اللغة العربية ليس لهـا مَعنًى، فأَجزِم بذلك؛ لأن القُرآن باللغـة العربية.

وإذا كان الأَمْر هكذا؛ فما الفائِدة من وُجودها في القُرآن؟

الجَوابُ: هـذه هي التي قد نَقول: اللهُ أَعلَمُ بذلك، ولكن بعـض أهل العِلْم التَمَس لهذا حِكْمة، بأنه إشارةٌ إلى أن هذا القُرآنَ الذي أَعجَزَكم ما أَتى بحُروف جديدة حتى تَقول: واللهِ هذه ليسَتْ من حُروفنا، وإنها هو من الحُروف التي يَتَركَّب منها الكلام العرَبيُّ، ومع ذلك أَعجَزَكم.

قالوا: ولهـذا لا يَأتي الابتِداء بهـذه الحُروفِ الهِجائية إلَّا وبعـده ذِكْر القُرآن، أو ما هو من خَصائِص القرآن: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، وهناك بعضُ السُّوَر مِثْل: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾، ليس فيها ذِكْر القرآن، لكن فيها ذِكْر ما هو من خَصائِصه، فـ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ هذا من أمور الغَيْب، ولا يُعـلَم إلَّا بالوَحْي، كذلـك ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ هذا فيه إخبار عمَّن سبَق، وهو من أُمور الغَيْب أيضًا، ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٣].

وعلى كل حال: هذا الذي ذكَرْناه أخيرًا هو ما ذهَبَ إليه شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ وسبَقه إليه الزَّمخشَريُّ في كِتابه (الكَشَّاف)[٢].

• ● ۞ ● •

(١) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٧١).

(٢) الكشاف (١/ ٢٦).

الآيــة (٢)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [لقمان:٢].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ تِلْكَ ﴾ أي: هذه الآياتُ ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ القُرآن ﴿ٱلْحَكِيمِ ﴾ ذي الحِكْمة، والإضافة بمَعنَى مِن] قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ﴾: المُشار إليه آيات القُرآن، وتَجِد أن الإشارة هنا بصيغة البَعيد، والقرآن ليس بَعيدًا؛ لأنه بين أَيدينا، ولكنه عالِي المَرتَبة؛ فلهذا أُشير إليه بإشارة البعيد.

وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: المَكتوب وهو القُرآن، وذكَرْنا فيما سبَق أنه مَكتوب في ثلاثة مَواضِع: في اللوح المَحفوظ، وفي الصُّحُف التي بين يدَيِ المَلائِكة، وفي الصُّحُف التي بين أَيْدينا.

وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الإضافة هنا يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنها على تَقدير (مِن) يَعنِي: آيات مِن الكِتاب، والآياتُ كما تَقدَّم كونيةٌ وشرعيةٌ، وآيات الكِتاب من الشَّرْعية.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ذي الحِكْمة]، ولكن يُمكِن أن يُقال: ذي الحِكْمة والحُكْم أيضًا؛ لأنه مَرجِع الناس في الحُكْم؛ ولأنه يَشتَمِل على الحِكْمة، وهو أيضًا صالِح لأَنْ يُجعَل بمَعنَى المُحكِم، فيَكون فَعيل بمعنى مُفعِل.

فالقُرآن إذَنْ: حَكيم لاشتِمالِه على الحِكْمة وعلى الحُكْم بين الناس؛ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء:١٠٥].

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: حِكْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في إنزال هذه الحُروفِ الهِجائية، وهي ﴿الٓمٓر﴾ وما أَشبَهها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ يَتكَلَّم بحَرْف، وكذلك بصَوْت؛ لأن ﴿الٓمٓر﴾ من كَلام الله تعالى، وهي حُروف، وهذا هو مَذهَب أهل السُّنَّة والجَماعة، وقد تَقدَّم لنا البحث فيه مِرارًا، وأن أهل السُّنَّة والجماعة يَقولون: إن كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حَرْف وصَوْت.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عُلوُّ شَأْن هذا القُرآنِ؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن القُرآن آية وعلامة على مُنزِله؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، والإضافة على تَقدير (مِن) فهي إضافة جِنْسية، وهو آية على مُنزِله جَلَّوَعَلَا:

من حيث صِدْق أَخباره ومُطابَقَتها لهذا الواقِع، ومن حُسْن قِصصه وحُبِّها للنُّفوس، وعدَم مَلَلها منها؛ لأن ما من كلام يُردَّد إلَّا ويُمَلُّ إلَّا القرآن.

وكذلك من حيث الأحكام: حيث إنها أَحكام عادِلة نافِعة للعِباد في مَعاشِهم ومَعادِهم؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن القُرآن مَكتوب كما هو مَقروء؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الثَّناء على هذا القُرآنِ بهذا الوَصْفِ العَظيم وهو: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنه لا يُوجَد في القُرآن خبَر سِيق عبَثًا، ولا حُكمٌ أُثبِتَ عبَثًا، يُؤخَذ ذلك من قوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾؛ لأن العبَث يُنافِي الحِكْمة، ولا يُمكِن أن يَكون في القُرآن شيءٌ عبَثًا، لا خبَرًا ولا حُكْمًا.

• ● ۞ ● •

الآيـة (٣)

• ● ● •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ [لقمان:٣].

• ● ● •

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(هُدًى وَرَحْمَةٌ) بالرَّفْع] هذه مَحَلُّـها من الإعراب خبَر لمُبتَـدَأ مَحـذوف، قدَّره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [هو (هُدًى وَرَحْمَةٌ)] هُدى: بمَعـنَى: دَلالة، ورحمةٌ: بمَعنَى: أن الله رحِم به الخَلْق حيث أنزَله عليهم، فالقُرآن هِداية ورحمة، مَن تَمسَّك به نجـا واهتَدَى، فلا يَضِلُّ مَن تمَسَّك بهذا القُرآنِ ولا يَشـقَى؛ لأنه هُدًى ورَحمة.

وعلى هذا فنَقول لكل إنسان أَراد العِلْم: عليك بالقرآن؛ لأنه هُدًى، ولكل إنســان أَراد الرحمة: عليـك بالقُرآن؛ لأنه هُدًى؛ فهـو (هُدًى وَرَحْمَةٌ)، ولـكن ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أَحسَنوا في عِبـادة الله تعالى وأَحسَنـوا إلى عِباد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والإحسان ضِدُّ الإساءة، والإساءة إمَّا أن تكون بتَرْك الواجِب أو بفِعْـل المُحرَّم، فمَن ترَكَ ما أَوْجَب الله تعالى عليه لنفْـسه من الصلاة وغيرها فليس بمُحسِن، ومَن فعَلَ ما حرَّمَ الله تعالى عليه فليس بمُحسِن، ومَن ترَكَ ما يَجب للناس من صِلة الرَّحِم وبِرِّ الوالِدين والإحسان إليهم فليس بمُحسِن، ومَنِ اعتَدَى عليهم فليس بمُحسِن.

وقوله تعالى: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ يُستَفاد منه أنه كلَّما ازداد الإنسان إحسانًا ازداد انتِفاعًا بالقُرآن بالهِداية والرحمة، بِناءً على القاعِدة: أنَّ الحُكْم إذا عُلِّق بوَصْف كان يَقوَى بحسَب وجود ذلك الوَصْفِ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ فهل غير المُحسِنين لا يَهتَدون به ولا يُرحَمون؟

الجَوابُ: نعَمْ؛ لأن المُحسِنين هم الذين يَنتَفِعون بذلك، وإلَّا فهو هُدًى للناس كلِّهم مَصدَر هِداية للجَميع، لكن لا يَنتَفِع به إلَّا الذين أَحسَنوا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قِراءة العامة بالنَّصْب حالًا من الآيات] غَريبٌ هذا التَّعبيرُ من المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقوله: [وفي قِراءة العامَّة] يَفهَم منه مَن لا يَعرِف الاصطِلاح أن المُراد بالعامَّة عامَّة الناس، ما سِوى العُلَماء، وهذا ليس كذلك، إنما المُراد بالعامَّة عامَّة القُرَّاء ما عدا قارِئًا واحِدًا الذي قرَأ بالرَّفْع؛ فقال: [بالنَّصْب حالًا من الآيات، العامِل فيها ما في ﴿تِلْكَ﴾ مِن مَعنَى الإشارة].

فقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ حالَ كونها ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾، فإذا قال قائِل: الحال تَحتاج إلى عامِل مثل: الظَّرْف والجارِّ والمَجرور والمَفعول به، فما هو العامِل؟

فالجَوابُ: العامِل فيها ما في ﴿تِلْكَ﴾ من مَعنَى الإشارة؛ فـ﴿تِلْكَ﴾ اسمٌ جامِد غير مُشترَط، لكنه بمَعنَى: أُشير، فإذا قلت: هذا زيدٌ. المَعنَى: أُشيرُ إليه، فـ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ بمَعنَى: أُشير إلى هذه الآياتِ، فلمَّا كانت مُتضَمِّنة لمَعنَى الفِعْل صارت صالِحة لأَنْ تَكون عامِلًا في الحال.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: التَّرْغيب في هذا القُرآنِ؛ لقوله تعالى: ﴿هُدَى وَرَحْمَةً﴾، وكل أحَدٍ منَّا يَطلُب الهُدى والرحمة، فهو هُدًى في العِلْم ورحمة في العمَل، إذ إن العامِل به يَنال رحمة الله تعالى، والمُهتَدِي به على هُدًى وبصيرة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن القُرآن الكريم جمَع الخيرَ كلَّه، فهو عِلْم نافِع؛ لقوله تعالى: ﴿هُدَى﴾، وعمَل صالِح؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً﴾؛ لأن الرحمة لا تُنال إلَّا بالعمَل الصالِح.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الحثُّ على الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الإحسان سبَب لنَيْل العِلْم والعمَل الصالِح، لما جعَله هُدًى ورحمةً للمُحسِنين.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه كلَّما ازداد إحسان العبد ازداد عِلْمه وعمَله الصالِح؛ لأن الحُكْم إذا عُلِّق على وَصْف ازداد بزيادته ونقَص بنَقْصه كما تَقدَّم.

الآيــة (٤)

• ● ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان:٤].

• ● ● •

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بيان للمُحسِنين] وعلى هذا فلا تكون نعتًا، بل تكون بيانًا أي: عَطْفَ بيان؛ والمُحسِنون هم: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَعنِي: يَأتـون بها قويمة تامَّة، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَشـمَل الفريضة والتَّـطوُّع، فإقامتها بفِعْل الواجِبات، وتَرْك المُفسِدات، وكذلك تَتِمُّ الإقامة بفِعْل المُكمِّلات والمُستَحبَّات.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: يُعطونها، والزكاة هي جُزْء مُقدَّر شرعًا في مال خاصٍّ لطائِفة مَخصوصة، ومَفعول ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ الثاني مَحذوف تَقديرُه: ويُؤتون الزكاة أهلَها. وإنها جاز حَذْفه؛ لأنه فَضْلة، وقد سبَق أن جميع المَفاعيل الفَضْلة يَجوز حَذْفها.

وقوله تعـالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ سُمِّيَ هذا المالُ المُؤدَّى زكاةً؛ لأنها تَزكـو بها أخلاق المُزكِّي، ويَزكو بها المال أيضًا ويَزيدُ؛ لأن الزكاة في اللغة النَّماء والزِّيادة.

ولم يَذكُرِ الله من الأفعال إلَّا الصلاة والزكاة، وقرَن بينـهما في القرآن كثيرًا؛ وذلك لأنهما آكَـدُ أركان الإسلام بعـد الشَّهادتين، وتَرْكهما جميـعًا مُوجِب للكُفْر،

وأمَّا تَرْك واحِدة منهما؛ فالصلاةُ: الصحيح أنه يَكفُر، والزكاةُ: الصحيح أنه لا يَكفُر.

قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾: ﴿هُمْ﴾ مُبتَدأ و﴿بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ جارٌّ ومجرور مُتعلِّق بـ﴿يُوقِنُونَ﴾، و﴿هُمْ﴾ الثانية يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿هُمْ﴾ الثانية تأكيد] تأكيد لفظيٌّ لـ﴿هُمْ﴾ الأُولى.

قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَمَا مِنَ التَّوْكِيدِ لَفْظِيٌّ يَجِي مُكَرَّرًا كَقَوْلِكَ: ادْرُجِي ادْرُجِي[1]

قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ المُراد بالآخِرة يوم القِيامة، وسُمِّيَ آخِرة؛ لأنه آخِرُ ما يَكون، فالإنسان له أَربَع مَراحِلَ:

المَرحَلة الأُولى: في بَطْن أُمِّه.

والمَرحَلة الثانِية: في الدنيا.

والمَرحَلة الثالِثة: في البَرزَخ.

والمَرحَلة الرابِعة والأخيرة: يَوم القِيامة.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ الإيمان بالآخِرة ليس مَعناه أن تُؤمِن بأن القيامة ستَقوم فقَطْ، قال شيخ الإسلام ابن تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ في العَقيدة الواسِطية[2]: «وقد دَخَل في الإيمان باليوم الآخِر: الإيمان بكلِّ ما أَخبَر به النبيُّ ﷺ ممَّا يَكون بعد الموت»، فيَشمَل فِتْنة القَبْر، وعذاب القَبْر، ونعيم القَبْر، والصِّراط، والحِساب، والميزان، والكُتُب التي تُنشَر يوم القيامة، وغير ذلك.

---

(١) الألفية (ص٤٦).

(٢) العقيدة الواسطية (ص٩٥).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن إقامة الصلاة من الإحسان؛ لأن ما بعدَها بيانٌ لها: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الصلاة أَحبُّ الأعمال إلى الله تعالى؛ لأن الله تعالى قدَّمها على إيتاء الزكاة مع أن إيتاء الزكاة فيه نَفْع مُتَعدٍّ للغير، ولكن الصلاة أَحَبُّ إلى الله تعالى منها وأفضَلُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الحثُّ على إقامة الصلاة، يُؤخَذ ذلك من: ثَناء الله تعالى على المُقيمين لها، والثَّناء لا يَكون إلَّا على فِعْل شيء مَحبوب مَرغوب من الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فَضْل إيتاء الزكاة، وأنها تَلِي الصلاةَ في الفضيلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الثناء على مَن أَيْقَن بالآخِرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات البَعْث.

الآيـة (٥)

• • • •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان:٥].

• • • •

القرآن الكريم أحيانًا يُكرِّر الآياتِ بعيْنها، فهذه الآيةُ مُكرَّرة في سورة البـقَرة، وإن كان فيها اختِـلاف يَسيرٌ في الآية الأُولى التي قبـلها، أمَّا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فهي آية واحِدة.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أَتَى بـ﴿عَلَىٰ﴾ الدالَّة على الاستِعْلاء، يَعنِي: أنهم على هُدًى يَسيرون عليه، وهم به عالون مُرتَفِعون؛ لارتِفاع مَرتَبتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ هذه الجُملةُ جُملة اسمِيَّة مُؤكَّد خبَرها بضمير الفصل، وهو قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، فإنَّ ﴿هُمُ﴾ ضمير فَصْل، وضَمير الفَصْل يُفيد ثلاث فوائِدَ:

الفائِدةُ الأُولى: الفَصْل بين الصِّفة والخبَر.

والفائِدةُ الثانِية: الحَصْر.

الفائِدةُ الثالِثة: التوكيدُ.

فإذا قلت: (زَيْدٌ القائِمُ)، هذا: مُبتَدَأ وخبَر، لكن يُحتَمَل أن تكون (القائِمُ) صِفةً لـ(زَيدٌ) وأن الخبَر مُنتَـظَر: (زَيدٌ القائِمُ فاضِلٌ) مثلًا، فإذا قلت: (زيدٌ هو القائِمُ)،

تَعـيَّن أن تَكون (القائِمُ) خبَرًا، ففَصَلت الآن بين الصِّفـة والخبَر، كذلك إذا قلت: (زَيدٌ هو القائِمُ)، فإنه يُفيد الحَصْر، (زَيْدٌ هو) يَعنِي: لا غيره هو (القائِمُ)، كذلك إذا قلت: (زَيْدٌ هو القائِمُ)، أَبلَغُ في التوكيد من قولك: (زيدٌ القائِمُ).

فهنا قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ يَعنِي: لا غيرهم، والمُفلِح يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو الفائِزُ] والفائِزُ هو السَّعيـد، والمُفلِح يَقولون: إنه مَن أَدرَك المَطـلوب ونجا من المَرغوب، فحصَل له ما يُريد وسلِم ممَّا لا يُريد.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن المُتَّصِفين بما تَقدَّم همُ الذين على الهُدَى، فيَتَفرَّع على ذلك: أن مَن خالَف فيما تَقـدَّم فليس على هُدًى، وأنه فاتـه من الهُدى بقَدْر ما فاته من العمَل واليَقين.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إظهار فَضْل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هَؤلاءِ الفُضَلاءِ؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الإشارة إلى أن رُبوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نوعان: عامَّة، وخاصَّة؛ فالعامة: لجميع الخَلْق ﴿رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، والخاصَّة: للمُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن بهذه الأَعمالِ الفاضِلةِ الجَليلة والاعتِقادات النافِعة يَحصُل الفَلاح؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنـه لا سَبيلَ إلى الفَلاح إلَّا بذلك؛ وجهُه: الحَصْر في قـوله تعالى: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

الآيــة (٦)

• ● ◌ ● •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ [لقمان:٦].

• ● ◌ ● •

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾: (مِن) للتَّبعيض، والجارُّ والمَجرور خبَر مُقدَّم، و﴿مَن يَشۡتَرِي﴾ مُبتَدأ مُؤخَّر.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن يَشۡتَرِي﴾ مَعنَى الاشتِراء: الاختِيار، يَعني: مَن يَختار، وعبَّر عن الاختِيار بالاشتِراء إشارةً إلى حِرْصهم على هذا الأمرِ؛ لأن الاشتِراء إنها يَكون بالمُعاوَضة، فكأنهم لقُوَّة اختِيارهم هذا الشيءَ بذَلوا فيه أموالهم ليَنالوه.

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾ الفَرْق بين (يَشتَري) و(يَشْري) أن (يَشرِي) بمَعنَى: يَبيع، و(يَشتَرِي) بمَعنَى: يَبتاع، وعند الناس أن الشِّرَى هو الاشتِراء، وليس كذلك، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ يَشرِي نفسه يَعنِي: يَبيعُها، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ ﴾ [التوبة:١١١]، اشتَرَى أَنفُسهم فهم بائِعون.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي: ما يُلهِي منه عمَّا يَعنِي] ﴿لَهۡوَ﴾ مُضافة إلى ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾ من باب إضافة الشيء إلى نَوْعه، فالإضافة على تَقدير (مِنْ) كما يُقال: ثُوبُ خَزٍّ، ثوبُ صُوفٍ، خاتَمُ حَديدٍ، خاتَمُ فِضةٍ، وما أَشبَه ذلك؛ فهي على

تَقدير (مِنْ) وهكذا كلَّما أُضيف الشيء إلى نَوْعه فالإضافة فيه على تَقدير (مِنْ).

إِذَنْ: ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: لَهْوًا من الحديث، واللَّهْو كل ما يُلهَى به، والذي يُلهَى به أَغلَبُ ما يَكون في الشيء الباطِل، وقد يُلهَى بالخير عن الشَّرِّ، لكن أكثَر ما يُطلَق اللهو في مَقام الذَّمِّ، وكل لَهْوٍ يَلهو به ابنُ آدَمَ فهو باطِل، إلَّا مُداعَبة أهله، وتَرويض فرَسه، وما أَشبَه ذلك ممَّا يَكون فيه مَصلَحة، وإلَّا فإن الأصل أن ما يُلهَى به باطِل.

والذي يُلهَى به نوعان: حديثٌ وهو القول، والثاني: فِعْل. أي: حرَكات، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكَرَ هنا لهوَ الحديث فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: ما يُلهَى به عمَّا يَعنِي] كل ما يُلهَى به عمَّا يَعنِي فهو مِن لَهْو الحديث، وأمَّا ما يَعنِي الإنسانَ ولكن يَلهو بالمَفضول عن الفاضِل، فليس هذا من لَهْو الحديث؛ لأن له فائِدةً في اللَّهْو في المَفضول، لكنها فائِدة ناقِصة، ولا شكَّ أن الأقوال مَراتِبُ كما أن الأفعال مَراحِلُ، فلو تَلهَّى الإنسان بحديث فيه فائدة عن حديثٍ أَفيَدَ منه، فليس هذا من لَهْو الحديث؛ لأن فيه فائِدةً، ليس مُجرَّد لَهْوٍ يَلهو به الإنسان، وإذا كان فيه فائِدة فإننا نَقول لهذا الرجُلِ: إن اختيارك للمَفضول عن الفاضِل يُعتبَر سُوء تَصرُّف منك، والذي يَنبَغي أن تَلهو بالأفضل عن المَفْضول.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(لِيَضِلَّ) بفَتْح الياء وضَمِّها] وأمَّا الضادُ فهي مَكسورة على القِراءَتَيْن: (لِيَضِلَّ) أي: هو، و﴿لِيُضِلَّ﴾، أي: يُضِلُّ غيره. وفائِدة القِراءَتين هنا اشتِمال هذا الكلِمةِ على المَعنيَيْن، وهُما: الضلال بنَفْسه وإضلال غيرِه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طريق الإسلام] والصَّواب أن يُقال:

(طريق الله وهو الإِسْلام)؛ فسَبيل الله تعالى طريقه المُوصِّل إليه، والذي وضَعه هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو الإسلام، فسُمِّيَ سبيل الله أو طريق الله؛ لأنه مُوصِّل إليه، ولأنه سبحانه هو الذي وضَعَه وشرَعه لعِباده؛ ويُطلَق على سبيل المُؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النساء:١١٥].

ولا تَنافيَ بين الإضافَتين فهو مُضاف إلى الله تعالى؛ لأنه مُوصِّل إليه، وهو الذي وضَعه وشرَعه، ومُضاف إلى المُؤمنين؛ لأنهم هـمُ الذين يَسلُكونه، ومثله: الصِّراط، أُضيف إلى السالِكين في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، وأُضيف إلى الله؛ لأنـه الذي شرَعه ووضَعَـه لعِباده: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣].

قوله تعـالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ هذا لا يَعني أن هناك لَهْوًا يَضِلُّ به الإنسان بعِلْم، فهي إِذَنْ: صِفة كاشِفة مُبيِّنة لحقيقة الأَمْر، أي: أن فِعْله هذا ناشِئٌ عن الجَهْل بالله عَزَّوَجَلَّ، وعن الجَهْـل بشَرْعه، وعن الجَهْل بحقيقة ما خُلِق له، إذ كيـف تَتلَهَّى بأَمْر لا تَستفيد منه؟! هذا جَهْل بما يَنبَغي أن تَعلَمه؛ لتَعتَبِر به.

ولم يُمثِّل المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكن كثيرًا من المُفسِّرين قال: إن المُراد بلَهْو الحديث هو الغِناء، ومِمَّن قال بذلك ابنُ مَسعود[1] رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكذلك ابنُ عبَّاس[2] رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وجمـاعة، حتى إن ابنَ مَسعـود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَحلِف فيَقـول: واللهِ الذي لا إلهَ إلَّا هـو

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ١٠١)، والطبري في تفسيره (١٨/ ٥٣٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤١١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ١٠١)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٧٨٦)، والطبري في تفسيره (١٨/ ٥٣٥).

إنه الغِناءُ، والغِناء يُنبِت النِّفاق في القَلْب.

وتفسير الصَّحابيِّ حُجَّة، حتى ذهَب الحاكِم[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجماعة من أهل العِلْم إلى أن تفسير الصحابيِّ له حُكْم الرَّفْع، يَعنِي: يَكون كالحديث المَرفوع، والصحيح أنه ليس له حُكْم الرفع، إلَّا أن يَكون ممَّا لا مَجالَ للاجتِهاد فيه، فأمَّا مُجرَّد تفسير آية بمُقتَضى اللغة العربية فإنَّ الصحيح أن تَفسير الصحابيِّ ليس في حُكْم الرَّفْع، لكنه مُقدَّم على غيره.

ثُمَّ اعلَمْ أنَّ المُفسِّرين من الصحابة والتابِعين ومَن بعدَهم قد يَذكُرون تفسير الآية على سبيل المِثال، لا على سبيل الحَصْر، فإذا قال ابنُ مَسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إن المُراد بلَهْو الحديث الغِنـاءُ، لا يَعنِي أنه لا يَتناوَل غيره، قد يَكون هذا على سبيل التَّمثيل فقَطْ.

ويَدُلُّك لهذا قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢]، قال بعضُ العُلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في التَّفسير: الظالِم لنَفْسه هو الذي يُؤخِّر الصلاة عن وقتها. وقال آخَرون: هو الذي لا يُزكِّي، ثُمَّ قال: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾: إِذَنِ المُقتَصِد هو الذي يَأتِي بالصلاة في آخِر وقتها، وقال آخَرون: هو الذي يُؤدِّي الزكاة المَطلوبةَ فقَطْ، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ قال بعضهم: هو الذي يُصلِّي الصلاة في أوَّل وَقْتها. وقال آخَرون: هو الذي يُؤدِّي الزكاةَ والصدَقاتِ.

وهذا يَدُلُّ على أن العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ قد يُفسِّرون الآية ببعض الأمثِلة، فلا يُنافِي أن تَكون الآية مُتناوِلة لغيرها، فتَفسير ابنِ مَسعود وابنِ عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهما

---

(١) معرفة علوم الحديث (ص٢٠).

لِلَهْو الحديث بأنه الغِناء، لا يَعنِي أنه يَمتَنِع أن يُراد بالآية ما هو أعمُّ.

وعلى هذا فنَقول: الآية تَشمَل كل لهـوِ حديثٍ لا نَفْعَ فيه من الغِناء، ومنه أيضًا مُطالَعة ما يُكتَب في الصحُف والمَجلَّات من الكلام الهُراء الذي لا فائِدةَ منه فإنه في الحقيقة مَضيَعة للوَقْت، وإذا كان يَشُدُّ الإنسانَ إلى ما هو أبطَلُ، صار أشدَّ.

فعلى كل حال نَقول: لهوُ الحديث كل حديث لا فائِدةَ منه، سواء كان ذلك يَجُرُّ إلى مُحُرَّم، أو لا يَجُرُّ إلى مُحرَّم، لكن إن جَرَّ إلى مُحُرَّم صار أعظَمَ.

فإذا قال قائِل: الآية يَقول الله تعالى فيها: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أو (لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) وأنت قلـت: إن لَهْو الحَديث كل ما لا نَفعَ فيه، وما لا نَفْعَ فيه قد يُضِلُّ وقد لا يُضِلُّ.

فإننا نَقول: إن الإنسان إذا عوَّد نَفْسه على أن يَشتَغِل بهذا اللهوِ الذي لا نَفعَ فيه جرَّته إلى ما فيه مَضرَّة؛ لأن النفس إمَّا أن تَشغَلها بالحَقِّ أو تَشغَلك بالباطِل؛ واللَّام في قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) أو ﴿لِيُضِلَّ﴾ هل هي للتعليل أو للعاقِبة؟

الجَوابُ: هي صالحِة للأَمْرين، فإن كان الإنسان يَقصِد بلَهْو الحديث أن يُضِلَّ غيره به، فاللَّام للتَّعليل، وإن كان لا يَقصِد ذلك فاللَّام للعاقِبة، مثال التي للعاقِبة: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، فاللَّام هنا لا شَكَّ أنها للعاقِبة؛ لأنهم ما أَرادوا أن يَكون لهم عَدُوًّا وحزَنًا، إنها أَرادوا العَكْس، إنها العاقِبة صارت كذلك.

فإن قال قائِل: تَفسير اللهوِ بالغِناء، هل هو الغِناء المُحرَّم أم كل الغِناء؟

فالجَوابُ: الغِناء المُحرَّم، أمَّا الغِناء الذي ليس مُحُرَّمًا فلا يَدُلُّ في الآية إلَّا إن شغَل عن ما هو أهمُّ منه صار داخِلًا فيه.

فإن قيل: ما ليس فيه فائِدة مِثْل بعض الأشعار التي لا يُستَفاد منها اللغة العربية، ولا يُستَفاد منها مَوْعِظة أو ترقيق قَلْب، هل يَدخُل في لَهْو الحديث؟

فالجَوابُ: الظاهِر أنها تَدخُل في لَهْو الحديث الذي لا يَنفَع ولا يَضُرُّ، لكنه قد يَجُرُّ إلى ما يَضُرُّ، وإن لم يَكُن من ضرَره إلَّا أنه يُلهِي عمَّا هو أهَمُّ.

ومن لَهْو الحَديث أيضًا: الذي قد يُضِلُّ عن سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما يُوجَد في قصائِد الصُّوفية البَريئة من الشِّرْك، وإلَّا بعضها شِرْك -والعِياذُ بالله- بعضها يُفضِي إلى الحُلول، وأن الله عَزَّوَجَلَّ حالٌّ في المخلوقات، وهذا مَعروف شأنه حتى لو كان نَثْرًا، فإنه مُحرَّم.

ولكن بعضها ليس كذلك إلَّا أن بعض الناس يَتَلهَّى به عن مَواعِظ القُرآن والسُّنَّة حتى يَكون ذلك دَيدَنه، وهذا لا يَجوز.

ويُوجَد الآنَ ما يُسمَّى بالأناشيد الإسلامية التي استَوْلت على عُقول كثير من الناس حتى صار كأنها يَقرَأ القرآن، فهي دائِمًا على لِسانه وعلى قَلْبه، وهذا ذَكَر شيخ الإسلام في الفَتاوى(١): أن ذلك ممَّا يُلهِي عن الكِتاب والسُّنَّة وحذَّر منه تَحذيرًا كثيرًا.

ولكن عندما يَكون عندك مثَلًا ضَعْف وخوَر وكسَل وتُريد أن تَسمَع هذه الأشياءَ؛ لتُرقِّق قلبك هذا لا بَأسَ به، ولكن قَصْدي بأُولئك الذين اتَّخذوها دَيْدنًا لهم؛ فالإكثار منها والاشتِغال بها عن مَواعِظ القُرآن والسُّنَّة هو المَحظور.

فإن قال قائِل: إذا كان إنسان قد تَعوَّد على الغِناء فترة، ثُمَّ لمدَّة شَهْر أو شهرين أَراد سَماع الأناشيد للمُعالجة؟

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٩٤).

فالجَوابُ: أمَّا إذا كانت للمُعالجَة، فالإنسان قد يُعالَج بالسَّمِّ القَتَّال، يُمكِن أن يُعالَج بالسَّمِّ، وهذا نحن الآنَ نَراهم يُعطون الناس حُبوبًا وجُرعاتٍ تَكون قاتِلة، لكن يَتَّخِذونها للعِلاج، فإذا لم يَكُن طريق إلَّا هذا فلا حرَج، لكن أيضًا تَكون مع الحذَر الشديد.

وإن قيل: قد يَكون صوت الغُلام المُنشِد جميلًا، وقد يَكون أشَدَّ تأثيرًا من صوت النِّساء؟

فالجَوابُ: أنَّ مَسأَلة حُسْن الصوت إن كان يُؤدِّي إلى فَساد وثَوران شَهْوة فهذا مُحرَّم، وإن كان لا يُؤدِّي ولكنه يَزيد الإنسان استِماعًا، هذا فلا بأسَ منه.

ثُمَّ إن بعض الناس يَجعَل أيضًا مع هذه القَصائِدِ دُفًّا، فيَكون إلى اللَّهْو أقرَبَ منه إلى الذِّكْر.

وبعض الناس يَقول: هذِه أَهْونُ من الأغاني! فنَقول: لست مجبرًا على فعل أحَد الأمرَيْن حتى تقول: أنا مُخيَّر بينَهما فأختارُ أَيْسَرُهما؛ فقد يَفعَلها الإنسان وهو يَشعُر أنه مُذنِب فيُحاوِل الإقلاع، لكن هذا يَفعَله على أنه مُتقَرِّب إلى الله تعالى بذلك فيَستَمِرُّ عليه.

وما هذا إلَّا نَظير هؤلاء الذين يَتَحيَّلون على الرِّبا بالخِداع وبيع القماش والهيل وما أشبَهَها، يَقولون: هل هذا أَحسَنُ أمِ الرِّبا الذي في البُنوك؟!

فنَقول: ليس الإنسان مُخيَّرًا بين هذا أو هذا، والحمد لله فهناك أشياءُ مُباحة يَتمَكَّن من فِعْلها دون أن يَفعَل هذه الأشياءَ التي تَصُدُّه عن القُرآن وعن السُّنَّة.

إِذَنِ: الضابِط في لَهْو الحديث هو: كل كلام لا فائِدةَ منه، وأمَّا ما فيه فائِدة

ولكن اشتَغَل به عمَّا هو أَفْيَدُ فليس لَهْوًا، لكنه خِلاف الحِكْمة، إذ إن الحِكْمة أن يَشتَغِل الإنسان بالأفضَل عن المَفضول.

إِذَنْ: لَهْو الحديث هو كل كلام لا فائِدةَ منه، وعاقِبته ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ بالنَّصْب عَطْفًا على (يَضِل)، وبالرفع عَطْفًا على ﴿يَشْتَرِى﴾] قِراءتان (لِيَضل عن سبيل الله) ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ يَكون عَطْفًا على (يَضل)، أو ﴿وَيَتَّخِذُهَا﴾ عَطفًا على ﴿يَشْتَرِى﴾ يَعنِي: ومن الناس مَن يَتَّخِذها هُزوًا، وبينهما فَرْق؛ لأن قِراءة النصِّ تَجعَل الحامِل على مَن يَشتَرِي لهوَ الحديث أمرين: الضلال، واتِّخاذه هُزوًا، وأمَّا على قِراءة الرفع: فإن الحامِل على شِراء لَهْو الحديث شيء واحِد، لكن من الناس أيضًا مَن يَتَّخِذ آياتِ الله تعالى هُزوًا، أي: مَكانًا للاستِهْزاء.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ مَهزوءًا بها] أَشار المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [مَهزوءًا] إلى أن المَصدَر هنا بمَعنَى اسم المَفعول، وهو كثيرًا ما يَأتي في اللغة العربية، يَعنِي: مَهزوءًا بها.

واتِّخاذ آيات الله تعالى هُزوًا له أنواعٌ كثيرة:

١ - منها: أن يَستَهزِئ بالقرآن في نَظْمه وتَرْكيبه.

٢ - ومنها: أن يَستَهزِئ بالقرآن في أَخباره، ويَقول: أساطيرُ الأوَّلين.

٣ - ومنها: أن يَستَهزِئ بالقُرآن في أَحْكامه.

٤ - ومنها: أن يَستَهزِئ بالسُّنَّة.

٥ - ومنها: أن يَستَهزِئ بالرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

٦- ومنها: أن يَستَهزِئ بمَن تمَسَّك بالسُّنَّة، لا لشَخْصه ولكن لعمَله، وهي كثيرة حتى إنَّ بعض أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يقول: إنَّ الإنسان إذا صلَّى وهو مُحدِث، فهذا استِهْزاء بآيات الله تعالى؛ ويَقول: إنه إذا عمِل مُبطِلًا من مُبطِلات العِبادة فهو مُستَهزِئ بآيات الله تعالى.

وعلى كل حال: كل مَن حوَّل آياتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى هُزءٍ بالقَوْل أو بالفِعْل أو بالهَيْئة، فإنه يُعتبَر مُتَّخِذًا لها هُزؤًا.

والاستِهْزاء بآيات الله عَزَّ وَجَلَّ ليس بالأمر الهَيِّن، حتى إنَّ أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يَقولون: مَن قال كُفْرًا أو فعَل كُفْرًا ولو هازِلًا فإنه يَكفُر، واستَدلُّوا لذلك بقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: (أُولاءِ) اسمُ إشارة للجَمْع، مع أن الضمائِر التي قَبلها للمُفرَد ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى﴾ ﴿لِيُضِلَّ﴾ ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ فهي للمُفرَد، وهنا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ﴾ جمع؛ لأن ﴿مَن﴾ اسمٌ مَوْصول تَصلُح للمُفرَد والجماعة، فإن أَفرَدت ما يَعود عليها صِرْت مُتَّبِعًا للَفْظها، وإن جمَعْته فأنت مُتَّبِع لمَعناه.

ويَجوز أن تُراعِيَ لفظها أو معَناها في كل الكلام ويَجوز أن تُغيِّر، انظُرْ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ كل هذا على سبيل الإفراد التابع للَّفْظ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ هذا باعتِبار المَعنَى، ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق:١١] باعتِبار اللَّفْظ، فهي آية واحِدة ومع ذلك غُيِّرت فيها الضمائِر من مُراعاة اللَّفْظ إلى مُراعاة المَعنَى إلى مُراعاة اللَّفْظ.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين يفعَلون هذا الفِعْلَ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أَتى بـ﴿لَهُمْ﴾ -وهو الخبَر- قبل المُبتَدَأ لإفادة الحَصْر، وأَتى بالجُمْلة الاسْمِية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ﴾ لإفادة الثُّبوت والدوام والاستِحْقاق لهذا العَذابِ.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ العَذاب بمَعنَى: العُقوبة، و﴿مُّهِينٌ﴾ أي: ذو إهانة. يَعني: يُهينهم -والعِياذ بالله- فلمَّا كانوا يَستَعِزُّون بأنفُسهم، ويَسخَرون بآيات الله تعالى حتى يَضَعوها عن مَكانها اللائِق بها عُوقبوا بمِثْل جِنايتهم، ودائِمًا: الجزاء من جِنْس العمَل في الدُّنيا والآخِرة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ وزِيادة بعدها: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧] قال ﷺ: «ارْحَموا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّماءِ»[1] مِثْلًا بمِثْل، وعلى هذا فقِسْ.

فالجزاءُ من جِنْس العمَل، فهذا الرجُلُ الذي اتَّخَذ آياتِ الله تعالى هُزوًا غرَضُه من ذلك أن يَضَعها بين الناس، وأن يَجعَلها مَحَلَّ سُخرية، غير مَعبوءٍ بها، ولا مُهتَمٍّ بها، فصار جَزاؤُه- والعِياذ بالله- أن الله تعالى يَجزيه بالعَذاب المُهين الذي يُهينه ويُذِلُّه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: ذَمُّ مَن يَركَن إلى لَهْو الحَديث، وهو ما لا خَيرَ فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى...﴾ إلى آخِره.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَحريم الغِناء؛ لِأَنَّ ابنَ مَسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَقسَم بالذي لا إلهَ إلَّا هو

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٦٠)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في الرحمة، رقم (٤٩٤١)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الناس، رقم (١٩٢٤)، من حديث عبد الله ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أَنَّه الغِنـاء، وتَفسيرُ الصحابيِّ حُجَّـة، حتى ذهَب الحاكِم وجماعة مِن أهـل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ إلى أنَّ تَفسيرَه في حُكْم المَرفوع، ولا شَـكَّ أنَّ الغِناء المُشْتَمِل على آلَةِ اللَّهْو لا شَكَّ أنَّه حرام؛ لأن نَفْس آلة اللَّهْو حرام، قرَنها رسول الله ﷺ بالزِّنا والخَمْر والحَرير، فقال -كما في صحيح البخاري مِن حديث أبي مالِك الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَيَكُونَنَّ أَقْوَامٌ مِنْ أُمَّتِي يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ وَالحَرِيرَ وَالخَمْرَ وَالمَعَازِفَ»(١) فكلِمة «يَسْتَحِلُّونَ»، دليل على أنَّها حرام، واستِحْلالهم لها إمَّا باعتِقادِهم أنَّها حلال، وإمَّا بفِعـلِهم إيَّاها فِعلَ المُسْتَحِلِّ لهـا الذي لا يُبـالي، والمَوجود الآنَ الأمران، فـإنَّ مِن الناس مَنِ استَحَلَّ هذه المَعازِفَ -والعِياذ بالله- وقال: إنها حلال، ومِنهم مَن يَعتَقِدُ تَحريمها، لكنه يَفعَلها فِعْل المُستَحِلِّ لها بدون مُبالاة.

ولا يَغُرَّنَّكُم ما وقَـع فيه الناس اليـومَ مِن الانهماك بِها، فإنَّه أَصبَـحَ لها تأثيرٌ عظيم على قُلوبِهم ودِينِهم وسُلوكِهم، وانظُرْ إلى المُبْتَلَيْنَ بهذا الأمرِ -والعِياذُ بالله- يَكون ما هَمُّهُم إلَّا هذا الأمرُ، وهُم أَبْعَدُ الناس عن مَعرِفة القُرآن والسُّنَّة ومَواعِظ القُرآن والسُّنَّة.

ولهذا ذَكَر بعضُ أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ أنَّه لا يَجتَمِع حُبُّ الغِناء، وحُبُّ كِتابِ الله عَزَّ وَجَلَّ، قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

حُبُّ الْكِتَابِ وَحُبُّ أَلحَانِ الْغِنَـا فِي قَلْبِ عَبْـدٍ لَـيْسَ يَجْتَمِعَـانِ(٢)

ولهذا قال هنا: ﴿يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه معلقًا البخاري: كتاب الأشربة، باب فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه، رقم (٥٥٩٠)، من حديث أبي عامر أو أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) النونية (ص٣٢٦).

والغِناء بدون آلَةٍ إن اشتَمَل على مُحرَّم فهو حرام، وقد يَصِل إلى حَدِّ الشِّرْك، كما لو اشتَمَل على الغُلُوِّ في مَدْح أحدٍ غُلُوًّا يَصِل بـه إلى درجة الخالِق، وقد يَكون مُحَرَّمًا وفِسْقًا كما لو اشتَمَل على تحقيق الفِسْق والمُجُون وما أَشبَهَ ذلك، وقد يَكون مُحَرَّمًا تَحريمَ الغِيبَة كما لو كان يَسُبُّ شَخْصًا مُعَيَّنًا، المُهِمُّ أنَّه درجات.

أَمَّا إذا كان مُباحًا فإنَّه لا شَكَّ أنه مِن اللَّهْوِ، لكنَّه إذا اسْتُعِين به على شيء مُباح فلا حرَجَ فيه، مِثْل: غِناء العُمَّال الذين يُغَنُّون لِأَجْل أن يَتَقَوَّوْا على ذلك، وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في حَفْرِ الخَندق يرتَجِزون، والرسول ﷺ يُجيبُهم، يَقولون:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا ... عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

والرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُجيبُهم ويَقول:

اللَّهُمَّ لا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَهْ ... فَارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ[1]

الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَنقُل التُّراب ويَرْتَجِزُ بقول عبد الله بنِ رواحةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

قال البَراءُ بنُ عازِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ راوِي الحديث: «يَمُدُّ صوتَه بِآخِرِها»[2].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب حفر الخندق، رقم (٢٨٣٥)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٨٠٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم (٤١٠٦)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٨٠٣).

فهذا لا بأسَ به لِما فيه مِن الإعانَة على العمَل.

ومِنه حُداءُ الإبل فَإِنَّه كان يُحْدَى بين يَدَي الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الإِبِل؛ لأنَّ حُدَاءَ الإبِل يَزيدُها مَشْيًا فتُسرِع، فإنهم يَذكُرون مِن أحوالها أَشياءَ عَجيبة عندما يَحدو الحادِي إذا كان حَسَن الصوت تَمشِي مِن غير شُرُود؛ ولهذا كان الرسول ﷺ يَقول: «**يَا أَنْجَشَةُ رِفْقًا بِالْقَوَارِيرِ**»(١) يَعنِي: بِالنساء، وشَبَّهَهَا بالقوارير لِأَجْل أن يَرْفُقَ بِها أكثَرَ؛ لأنَّ القوارِير مَع الحرَكة تَتكَسَّر.

فالحاصِلُ: أن نَقول: إن الغِناء له الأحوال له التي ذُكِرت، إنِ اقترَن بآلة لَهْو كما هـو المَوجود الآنَ فهو حرام ولا شَكَّ فِيـه؛ لأنَّه داخِل في حديث أبي مالـك الأشعريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي رواه البخاري(٢) رَحِمَهُٱللَّهُ فهو حَرام لا رَيبَ فيه، وإذا خَلا فهو على حَسَب الحال.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ لَهْو الفِعْل أيضًا لا يَجوز التَّساهُل فيه، ويُؤْخَذ ذلك مِن قوله تعالى: ﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ فإنَّ القِياس أنَّ لَهْو الفِعْل كذلك؛ لأنَّ الكُلَّ لَهْوٌ وضَياعُ وَقْتٍ.

وعلى هذا فالألعاب التي لا تَزِيد الإنسان نَشاطًا ولا قُوَّةً، ويَضيع بها الوقت تَدْخُلُ في هَذا.

مسألة: الشِّطْرَنْج فيه خِلاف بين أهل العِلْم رَحِمَهُمُٱللَّهُ، والصَّحِيح أنَّه حرام.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز، رقم (٦١٤٩)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب في رحمة النبي ﷺ للنساء، رقم (٢٣٢٣)، من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه معلقًا البخاري: كتاب الأشربة، باب فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه، رقم (٥٥٩٠)، من حديث أبي عامر أو أبي مالك الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقد ادَّعى بعضُهم: أنَّ الشطرنج تَشْحَذُ الأَذْهان، واعتَرَض عليه آخَرُ، فقال: إنَّ الذين يَلعَبونها مِن أبلَدِ الناسِ أَذْهانًا؛ لأنَّهم لا يَعرِفون أشياءَ زائِدةً عمَّا يَتعلَّق بهذه اللُّعبةِ، فهم بُلَداءُ فيما سِواها؛ ولهذا لو نَاقَشْتَهم في أمور لا تَتعَلَّق بهذه اللُّعبةِ لوجَدْتَهم من أبلَدِ الناس؛ لأن أفكارَهم انحصَرَت في هذه اللُّعبةِ؛ فأينَ ما يُقال: إنه شَحْذ لِلذِّهْن؟!.

فالمُهِمُّ: أنَّه يُؤخَذ مِن فَحوى الآية الكريمة: أنَّ لهْو الفِعْل كَلَهْوِ الحَديث.

فإن قال قائِل: هل الكُرَةُ تَدخُل في هذا أو لا؟

فالجَوابُ: أنَّ الكُرَة لا تَدخُل هنا؛ لأنَّ الكُرَة فيها رِياضة بدَنِيَّة إلَّا إذا ترتَّب عليـها محذُور شَرعي مِن تَرك واجبٍ أو فِعل محرَّم، أو كانَت تَشتَـمِل على كَشْفِ العَورة، كما لو كـانوا مثَلًا يُبْدُون أفْخَاذَهم، فإنَّ تكون محـرَّمة؛ كالبَيـع والشِّراء -الذِي هو جائِز بالإِجْماع- إذا أَلْهى عَن واجِب صارَ حـرامًا، لكن إذا انتَـفَت عن المَحظُور فلا أَرَى بِها بأسًا؛ لأنَّها تُفِيد البَدَن.

لكن في بعضِ الأحيان تَكون الكُرَة مُغالَبة بين فريقَيْن يَنتَميان إلى نادِيَيْن، ثُمَّ إذا غُلِبَ أحدُهما بدَأَ الآخَرون يَحذِفون بالحِجارة أحيانًا ويُكسِّرُون السيَّاراتِ، فهذه رُبَّما نَقـول: مِن هذه الناحيةِ قد تَكون مُحرَّمَة؛ فيَحـدُث هذا ممَّن يَنْتَمون إلى النَّوادِي حسبَ ما سَمِعت، وبعضهم قد يَكون مُعْتَدِلًا ولا يَحصُل مِنه هذا الشيءُ.

لكن افرِضْ أنَّ جماعة مِن الناس خرَجوا إلى نُزْهة، وكان عندهم فَراغ مَثَلًا، وأَرادوا أن يَفعَلوا هذه، فلا نَقول: هذا حرام.

المُهِمُّ: أنَّها في الأصل هي مُباحة، فإنِ اقترَن بها ما يَقتَضِي التَحْرِيم حُرِّمت،

فكل المُباحات إذا اقترَن بها ما يَقتَضي التحريم تَكون حرامًا، وإذا اقتَرَن بها ما يَقتَضي الوجوب صارت واجِبًا؛ لأن المُباح لِذَاته قد تَتَعلَّق به الأحكام الخَمْسة كما هو مَعروف.

وأنا أُحِبُّ أن نَفهَم القواعد، فـ(تَحرِيم الحلال أشَدُّ من تَحليل الحرام)؛ لأن الله تعالى يُحِبُّ أن يُيَسِّر على عِباده ويُوسِّع لهم، فلا يُمكِن أن نُقدِم على شيء ونَقول: هو حرام إلَّا بالدليل؛ لأننا مَسؤُولون عن هذا يوم القِيامة، مَسؤُولون عن نِسبته إلى الله تعالى أنَّ الله تعالى حرَّمه، ومَسؤُولون عن التَّضييق على عِباد الله تعالى فيما أَباحَه الله تعالى لهم، فالمَسأَلة ليست هَيِّنةً.

ولْكُن مُعتَدِلين لا نَميل إلى قول مَن يَقول: إن الكُرَة تَصِل إلى درجة الاستِحْباب أو الوُجوب. ولا إلى قول مَن يَقول بالتَّحريم مُطلَقًا، نَقول: هي في الأصل مُباحة. هذا رَأْيي، وإنِ اقترَن بها ما يَقتَضي التحريم صارت حَرامًا وإلَّا فَلا.

فإذا تَضَمَّنت إشغال الإنسان عمَّا هو أَهَمُّ، أو عن واجِب لا شَكَّ أنَّها حرام، عمَّا هو أهمُّ خِلَاف العِقْل فيها نوع مِن السَّفَه، ولكن لا نَقول: حرام؛ لأنَّ الإنسان يَجُوز أن يَشتَغِل بما ليس بأَهَمَّ عن الأهَمِّ إذا لم يَكُن واجِبًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ذَمُّ كُلِّ ما يَصُدُّ عن سبيل الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ثُمَّ إن كان يُضِلُّ عن واجِب صار حرامًا، وإن كان يُضِلُّ عن مُسْتَحَبٍّ لم يَكُن حرامًا، لكنَّه يُذَمُّ بلا شكٍّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَحريم الهُزْء بآيات الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾، والاستِهْزاء بآيات الله تعالى حُكْمُه الكُفْر، فمَنِ استَهْزَأ بآيات الله تعالى فهو كافِر

بِنَصِّ القُرآن: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة:٦٤-٦٥] وماذا قال؟ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، فهو صَريح في الكُفْر؛ ولهذا قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنَّ مَن قالَ قَوْلَ الكُفْر ولو كان هازِلًا أو مازِحًا فهو كافِر، فمَن سبَّ الله تعالى أو رسولَه أو دِينَه ولو كان هازِلًا فهو كافِر، يَعنِي أن هذا -والعِياذ بالله- أَعظَمُ مِن أن يَسُبَّهُ جادًّا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الوعيدُ الشديد على مَن هذه حالُه؛ لِقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

الآيــة (٧)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان:٧].

•●◦●•

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا ﴾ أي: القرآن ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾ مُتكبِّرًا ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾].

قوله تعـالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي: تُقرَأ عليه آياتُنا من أيِّ إنسان: الرسول ﷺ أو الصحابة أو التابِعين أو أيِّ إنسان.

فإذا قُرِئت عليه آياتُ الله تعـالى فإنه يُولِّي مُستكْبِرًا ويُعرِض، وليس إعراضًا على وجه المُماثَلة، أو إعراضًا لشُغل آخَرَ، ولكنه يُعرِض مُستكبِرًا، والعِياذ بالله.

والاستِكْبار هنا استِفعـال من الكِبْر، والسين والتاء فيه للمُبـالَغة، وليسَت للطلَـب؛ لأنَّ السين والتـاء تارةً تكون للطلَب كقولك: أَستَـغفِر الله. أي: أَطلُب مَغفِرته، وتارةً تَكون للمُبالَغة مثل: استكبَر، فهنا ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾ أي: مُبالِغًا في كِبريائه -والعِياذ بالله- وإعراضه عن آيات الله تعالى.

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ هذا تَشبيه في مَوضِع الحال، يَعنِي: كحـال الذي لم يَسمَعها في عـدَم الانتِفاع بها، لكنه أَخبَثُ منه؛ لكونه ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾ فالذي لم يَسمَعها قد يَكون مَعذورًا، لكن مَن سمِعها وولَّى مُستكبِرًا فهو كالذي لم يَسمَعها

باعتِبار عدَم الانتِفاع، لكنه أشَدّ باعتِبار تَولِّيه مُستكبِرًا.

ثُمَّ قال: [﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ صَمَمًا] الوَقْر: الصمَم، كأن الصمَم يَسُدُّ الأذُن، فليس المعنى أنه -والعِياذُ بالله- لم يَسمَع الآياتِ، بل كأن أذُنه التي هي مَحلُّ السَّمْع غير مُستَعِدَّة للسَّمْع فهو لم يَسمَع، وليس عنده آلة سَمْع، كأن في أُذُنيه وَقْرًا.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وجُمْلَتا التَّشبيه حالان من ضمير ﴿وَلَّىٰ﴾، أو الثانية بَيانٌ للأُولى] إنما هُما في مَحلِّ نَصْب على الحال من فاعِل ﴿وَلَّىٰ﴾، يَعنِي: ولَّى مُستكبِرًا، مُشابِهًا لَمِن لا يَسمَع، ومُشابِهًا لَمِن في أذُنَيْه وَقْر.

وهذا في غاية ما يَكون من بيان حال هذا الرجُلِ في إعراضه، وعدَم انتِفاعه بآيات الله تعالى.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾ البُشرى إذا أُطلِقت فهي بخير، وإن قُيِّدت بالخَيْر صار ذلك تَأكيدًا، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [البقرة:٢٥]، وإن قُيِّدت بالشَّرِّ فهي للشَّرِّ.

فالبُشرَى إمَّا أن تُطلَق أو تُقيَّد:

فإذا أُطلِقت فهي بالخير، مثالُه: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [يونس:٦٣]، ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ [الزُّمَر:١٧].

وإن قُيِّدت بالخير فهي خير، ويَكون ذلك تَأكيدًا مثل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾.

وإن قُيِّدت بالشَّرِّ فهي للشَّرِّ، لكن هل قيلت فيه على سبيل الحَقيقة، أو على سبيل التَّهكُّم؟

الجَوابُ: المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجماعة يَرَوْن أنه قيلت على سَبيل التَّهكُّم؛ لأن الأصل فيها الخير، فإذا قُيِّدت بالشَّرِّ فهو من باب التَّهكُّم به كما في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] على القـول بأن المُراد: العزيز الكريم في تِلكَ الحالِ، لا أنك أنت العَزيز الكَريم في الدنيا من قَبلُ.

ولكن قد يَقـول قائِل: إنَ البُشرى إذا قُيِّدت بالشَّرِّ فهي على حَقيـقتها، وأن أصل البُشرى من البـشَرة، وهي: الإعـلام بما يَتغَيَّر به الوجـهُ، فإن تَغيَّر بالسرور والانشِراح فهي بالخير، وإن تَغيَّر بالانقِباض والعُبوس فهي في الشَّرِّ، فكل ما كان مُؤَثِّرًا على بشَرة الإنسان فهو بُشرى، لكن هي في الأصل في الخَيْر.

ثُمَّ قال تعـالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: ﴿أَلِيمٍ﴾ بمَعـنَى: مُؤلِم، ففي الأوَّل عَذاب مُهين، ذو إهانة، وفي الثاني عذاب أَليم ذو إيلامٍ؛ لأنه فعَل أفعالًا أعظَمَ من الأوَّل، هذا الأخيرُ إذا تُتلَى عليه آياتُ الله تعالى ولَّى مُستكبِرًا، فهو أَعظَمُ من الذي يَشتَرِي لَهْوَ الحديث، فالأوَّل يُصاب بعـذاب مُهين، والثاني يُصاب بعَـذاب أليم، والمَوْصوف واحِد في الحقيقة، لكن أحواله مُتغَيِّرة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهو النَّضر بن الحارِث[1] كان يَأتِي الحِيرة يَتَّجِر فيَشتَري كتُب أخبار الأعاجِم ويُحدِّث بها أهل مَكَّةَ، ويَقول: إن مُحَمَّدًا يُحدِّثكم أحاديثَ عادٍ وثمودَ، وأنا أُحدِّثكم أحاديث فارِسَ والرومِ، فيَستَحِلُّون حديثه ويَترُكون استماع القرآن].

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول: [وهو النَّضْر]، وتَعيينها بالنَّضْر فقَطْ، لا شكَّ أنه قُصور، **والصواب**: أنها عامَّة له ولغَيْره، وسواءٌ بهذه الطَّريقةِ التي كان يَتَّخِذها هو أو بغيرها

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم (٤٨٣٠)، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

كما سبَقَ لنا في الأمثِلة، فالصواب العُموم، لكن المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ دائِمًا يَخُصُّ القرآن بالعموم، كما تَقدَّم كثيرًا يَحمِل الآياتِ التي تَتَحدَّث بالكُفر والشِّرْك على أهل مكَّةَ دائِمًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ مِن علامات هذا الصِّنْفِ مِن النَّاس إعراضَهم عن سَماعِ آياتِ الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هذا الذي تُتْلى عليه آياتُ الله تعالى وهو قدِ اشتَرَى لَهْوَ الحديث يَكون -والعِياذُ بالله- كالإنسان الذي به صمَمٌ لا يُمكِن أن يَصِل إلَيْه سماعُ الحقِّ؛ لقولِه تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الوعيدُ الشديدُ على مَن إذا تُلِيَت عليه آياتُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَلَّى مُستكْبِرًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ثُبوتُ المَدْح والثَّناء لِمَن كان على العكس مِن ذلك؛ لأنَّ الذمَّ على صِفَة يَقتَضي مَدْح مَن اتَّصَف بِضِدِّها، وهذه قاعِدة مُفيدة، فيُؤْخَذ مِنه: مَدْح مَن إذا تُلِيَت عليه آيات الرحمن أَقْبَل إليها واستَمَع إليها؛ ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان:٧٣] لم يَخِرُّوا صُمًّا؛ يَعنِي: ولا عُمْيانًا، وإنما يُقبِلُون إليها بآذان سامِعة، وأَعيُنٍ مُبصِرة.

فإذا قال قائِل: هل مِن الإعراض عن آيات الله تعالى مَن يَقُول للقارِئ: انْتَهِ مِن القِراءة؟

فالجَوابُ: لا، بمَعنَى أنك إذا جعَلْت واحِدًا يَقرَأ عليك، ثُم قُلْت: يَكفِي،

ليس مِن هذا؛ لأنَّه قد ثبَت عن النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّه قال لابن مَسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، فقال: يا رسول الله أَقرَأُ عليك القرآنَ وعليك أُنزِلَ! قال: «نَعَمْ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، فتَلا عليه سورة النساء، فلما بلَغ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١] قال: «حَسْبُكَ» يَعنِي: قِفْ، يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فرَأَيْتُ النبيَّ ﷺ عيناهُ تَذْرِفانِ[1].

وعلى هذا فيَجوز للإنسان أن يَقول للقارِئ: أَوْقِفِ القِراءةَ، كما يَدُلُّ أيضًا على جواز غَلْق (الراديو) إذا كان يَقرَأ القرآن، ولا حرَجَ عليه، وكذلك أيضًا في المُسَجِّل، حتى وإن كان يَتْلو في وسَط القِراءة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ البِشَارة تُطلَق على ما يَسُوء؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

• • ❁ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾، رقم (٤٥٨٢)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل استماع القرآن، رقم (٨٠٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيتان (٨، ٩)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [لقمان:٨-٩].

وهذه طريقة القرآن إذا ذَكَر آياتِ الوَعيد وصِفات مَن يَستَحِقُّون ذلك الوعيدَ، ذكَرَ بعدها آياتِ الوَعْد وصِفاتِ مَن يَستَحِقُّ ذلك الوَعدَ.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والإيمان مَحلُّه القَلْب، يَعني: آمَنوا بما يَجِب الإيمان به، وهو كما قال الرسول ﷺ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يَعنِي: الأعمالَ الصالحاتِ، والعمل الصالِح هو كل ما جَمَع بين شَرْطين: الإخلاص لله تعالى، والمُتابَعة للرسول ﷺ، ولا يَدخُل في ذلك التَّرْكُ، فالذي لا يَزنِي لا نَقول: إنه عمِل.

إذَنْ: مُجرَّد التَّرْك في الحقيقة ليس بعمَل، لكن إذا اقترَن به نية صار عملًا؛ لأنه إذا اقترَنَت به النية صار كفًّا للنَّفْس، والكفُّ عمَل؛ ولهذا جاء في الحديث: «**مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ حَسَنَةً كَامِلَةً**»(٢)، لكنه ذكَر عِلَّتها، فقال: «**إِنَّهُ تَرَكَهَا**

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن منده في الإيمان رقم (٣٧٦)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (٦٦٤٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

مِنْ جَرَّائِي»، أي: من أَجْلي.

فهذا هو الفَصْل في الخِلاف: هل التَّرْك فِعْل وعمَل أم لا؟ نَقول: التَّرْك ليس بفِعْل ولا عمَل إلَّا إذا اقترَن به نِيَّة، فإنه إذا اقترَن به نِيَّة صار فيه كفٌّ للنَّفْس، وحينئذ يَكون بهذا الاعتِبار عمَلًا.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّتُ ٱلنَّعِيمِ﴾: ﴿لَهُمْ﴾ خبَر مُقدَّم، و﴿جَنَّتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ مُبتَدَأ مُؤَخَّر، والجُملة من المُبتَدَأ والخبَر في محَلِّ رَفْع خبَر (إنَّ).

وقوله تعالى: ﴿جَنَّتُ﴾ جَمْع جَنَّة، وجُمِعت باعتِبار أنواعها، وكذلك تُجمَع باعتِبار مَراتبها، والجَنَّة في اللغة هي: البُستان كثير الأشجار، سُمِّيَت بذلك؛ لأنها تَجِنُّ مَن كان فيها. أي: تَستُرُه وتُغطِّيه؛ ولهذا سُمِّيَت جَنَّة.

أمَّا الجَنَّة التي وُعِد المُتَّقون، فإنها: (الدار التي أَعدَّها الله لأَوْليائه، فيها ما لا عَيْنٌ رأَتْ، ولا أُذُن سمِعَت، ولا خطَرَ على قَلْب بشَر).

فيَنبَغي أن تُعرَّف الجَنَّة التي وُعِد المُتَّقون بهذا، لا يُقال: إن الجَنَّة هي الحائِط الكثير البُستان؛ لأنك إذا قلت هذا في تَعريف الجَنَّة التي وُعِد المُتَّقون لا تَشعُر بأن لها من المَقام والعظَمة ما كنت تَتخَيَّله من قبلُ، ولكنك تَقول: (هي دار النَّعيم التي أَعَدَّها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للمُتَّقين، فيها ما لا عَينٌ رأَتْ، ولا أُذُن سمِعَت، ولا خطَرَ على قَلْب بشَرٍ).

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿جَنَّتُ ٱلنَّعِيمِ﴾، النَّعيم كلِمة جامِعة، تَشمَل سُرور القَلْب، وتَرَف البدَن، فالإنسان مُنعَّم فيها، في ظاهِره وباطِنه، أمَّا في الدنيا فلا يُمكِن أن يَجتَمِع الأمران، فالغالِب أن مَن تَنَعَّم بدنُه فإن قلبه يَغتَمُّ بحُزْن وعَذاب، ومن الناس مَن يُجمَع له بين الأمرين -والعِياذ بالله- أمَّا أهل الجَنَّة فإنهم جمَع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم

بين سُرور القَلْب وبين وترَف البدَن.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مُقدَّرة] اعلَمْ أن الحال تَنقَسِم إلى قِسْمين: حال مُقرَّرة، بمَعنَى أن صاحِبها مُتلبِّس بها الآنَ، وحال مُقدَّرة بمَعنى أنها ستكون لصاحِبها، فهنا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ فهذا وَعْد، وليس خبَرًا، فلم يَقُل: يَدخُلون جَنات النَّعيم، بل وعَدَهم بأن لهم جناتِ النعيم؛ ثُم قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، فهل هم خالِدون فيها حال وَعْدهم بها، أو بعد أن يُبعَثوا؟

الجَوابُ: بعد أن يُبعَثوا؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حالٌ مُقدَّرة؛ أي: مُقدَّرًا خُلودهم فيها إذا دخَلوها] أمَّا الآنَ فليسوا خالِدين فيها؛ لأنهم إلى الآنَ لم يَبعَثوا، ولا وصَلوا إليها، وعليه فنَقول: إنها حال مُقدَّرة، يَعنِي أن صاحِبها لا يَتلبَّس بها الآنَ.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ الخلود هو: المُكْث، إمَّا الدائِم، وإمَّا الطويل، يَعنِي: أنه قد يَكون مُكْثًا دائِمًا، وقد يَكون مُكْثًا طويلًا، فإذا أُكِّد بالتأبيد وقيل: أبَدًا، فهو قَطْعًا للمُكْث الدائِم؛ لأنه أُكِّد به.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، والوعد هو: مثل العَهْد، أي: أن الواعِد يَتعهَّد بالموعود بما وعَده به، ويُقال: وَعْد ووَعيد، فالوَعْد فيما يَسُرُّ، والوعيد فيما يَسوء.

وقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ عِندنا مَصدَران؛ فقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مَصدَر عامِله مَحذوف، أي: وُعِدوا وَعْدَ الله، أو وعَدَهم الله وعدَ الله، وأمَّا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَقًّا﴾ فهي أيضًا مَصدَر، ولكن عامِلها أيضًا مَحذوف، التَّقدير: أحقَّه حقًّا، أو حقُّه حقٌّ.

فعليه يَكون الله تعالى أكَّد هذه الجُمْلة الخبَرية بمُؤكِّدين معنَويَّين:

أحدُهما: أنها وَعْد الله، ووَعْد الله عَزَّوَجَلَّ لا يُخلِف، لأنه لا يُخلِف الميعاد؛ لتَمام صِدْقه وقُدْرته، والإخلاف للوَعْد إنما يَأتي من أَمْرين:

١- إمَّا أن يَكون الواعِد كاذِبًا فليس محَلًّا للصِّدْق.

٢- وإمَّا أن يَكون صادِقًا لكن يَعجِز عن الوفاء بما وعَدَ.

والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى قد انتـفَى بحَقِّه الأمران، فهو مُنزَّهٌ عن الكذِب، ومُنزَّهٌ عن العَجْز، فإذا كان مُنزَّهًا عن الكذِب وعن العَجْز لزِم أن يَكون كامِل الصِّدْق والقُدْرة، وحينئذ يَتحَقَّق ما وعَدَ به.

وأمَّا المُؤكِّد الثاني فهو قوله تعالى: ﴿حَقًّا﴾، يَعنِي: أُؤكِّده تأكيدًا وأَحقُّه حقًّا، وهذا من زيادة التَّوْكيد في الوَعْد.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [إنه الغالِب الذي لا يَمنَعه شيء من تَنفيذ وَعْده ووَعيده] ولكن سبَق لنا أن العِزَّة التي وصَف الله بها نَفْسه لها ثلاثة مَعانٍ: عِزَّة القَهْر، وعِزَّة القَدْر، وعِزَّة الامتِناع.

أمَّا عِزَّة القَهْر: فمَعناها أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى هو الغالِب الذي لا يُغلَب؛ ولهذا يُقال: فُلان عزيز. يَعنِي: غالِب في الجِهاد والقِتال، قال الله تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:٣].

الثانِي: **عِزَّة القَدْر**: بمَعنى أنه ذو قَدْر عظيم.

والثالِث: **عِزَّة الامتِناع**: بمَعنَى أنه يَمتَنِع عليه النَّقْص، ومنهم قولهم: أرض عِزاز. للأرض القَويَّة الشديدة الصُّلْبة. نحن نُسمِّيـها باللغة العامية: (عَزَا) يَعنِي: قوِيَّة صُلْبة.

إِذَنْ: فـ(العزيز): هو المُتَّصِف بالعِزَّة، وعِزَّته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ثلاثة أنواع: عِزَّة قَدْر، وعِزَّة قَهْر، وعِزَّة امتِناع.

فأمَّا عِزَّة القَهْر: فمَعناها أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قاهِر لكل شيء لا يَغلِبه شيء.

وأمَّا عِزَّة القَدْر: فهو كماله في ذاته أنه ذو قَدْر عظيم.

وأمَّا عِزَّة الامتِناع: فهو امتِناعه عن كل نَقْص وعِلَّة.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يَضَع شيئًا إلَّا في محَلِّه] قوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ تَقدَّم لنا أنه مُشتَقٌّ من الحُكْم والحِكْمة، وأن الحُكْم نوعان: حُكم كونيٌّ قدَريٌّ، وحُكْم شَرْعيٌّ دِينيٌّ، فما جاءت به الرُّسُل من الأوامِر والنَّواهِي: هذه أحكام شرعية دِينية، وما يَتعَلَّق بالخَلْق والتَّكوين؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فهذا حُكْم كونيٌّ.

ثُمَّ إن هذين الحُكْمين مَقرونان بالحِكْمة، وهي مُوافِقة الصواب، ومُوافَقة الصواب: مَعناها أن يَضَع كل شيء في مَوضِعه، فكل شيء من أَحكام الله تعالى الكونية وأحكامه الشَّرْعية، فإنه في غاية ما يَكون من الصواب وفي غاية ما يَكون من المُطابَقة لمَحَلِّه، فلم يَخلُقِ الله تعالى شيئًا سفَهًا ولا شرَعَ شيئًا سفَهًا، بل كل مَشروعاته فإنها حِكْمة، وكل مَخلوقاته حِكْمة.

وتَقدَّم لنا أن الحِكْمة أيضًا نَوْعان: حِكْمة غائِية، وحِكْمة صورية، والصورية مَعناها: أنَّ الشيء على هذه الصُّورةِ المُعيَّنة مُوافِق للحِكْمة، والغائِية مَعناها: أن إيجاد هذا الشيءِ له حِكْمة وغاية محَمودة.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ هـذا القُرآنَ مِن طريقته أنه إذا ذَكَر العـذاب ذَكَر النعيم، وإذا ذَكَر المُؤمِنين ذَكَر الكافِرين، وهكذا؛ لأنَّه لو ذُكِر الإيمان أو المُؤمِنون ولم يُذْكَر ما يُضادُّه غَلَبَ على الإنسـان جَانِبُ الرجاء، ولو ذُكِرَ التخويف وأهل النار غَلَب عليه جانِبُ الخوف، وهذا يَضُرُّ المرء، وإنَّما يكون المَرْء أَتَمَّ إذا صار يَسير إلى الله عَزَّوَجَلَّ بَيْن الخوف والرجاء.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضيلةُ الإيمان والعمَل الصالِح، ويُؤْخَذُ ذلك من قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّتُ﴾؛ ووجهُه: أنَّ الثواب بِالحُسنى على العَمَل يَدُلُّ على مَدحِه والثَّناءِ على فاعِلِه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الإيمان لا يَكفِي، بل لا بُدَّ مِن عَمَلٍ صالِح، فمُجَرَّد العقيدة لا تَكفِي إذا لم يَكُن عمـلٌ صالِح، بل ربما نَقول: إنَّه إذا لم يَكُن عمَل صالِح فهو دليل على أنَّه لا عَقيدةَ؛ لأنَّ النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ**»[1].

لكن مِن الأعمال مَا لا يُخْرِج مِن الإيمان، لا فِعْلُه ولا تَرْكُه، فيَكون من الكبائر لكن لا يُخْرِج مِن الإيمان، وإنَّما يَدُلُّ على ضَعْف العَقيدة والإيمان، ومِن الأعمال ما يَكون فِعْلُه أو تَرْكُه كُفْرًا، فلو أنَّ أحـدًا غلا بِشخصٍ حتى رفَعه إلى مَنـزِلة الرَبِّ، كان بذلك كافِرًا، وإن كان يَعتَقِد أن الله تعالى مَوْجود، وأن الله لَه الأسباب الكامِلة، ولو أن أحَدًا لم يُصَلِّ كان كافِرًا، ولو كان يَقول: أَشهَدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ الله.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال ابنُ القيِّم[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا تَغتَرَّ بِمَن قال: إنَّ رجُلًا يُحافِظ على تَرْك الصلاة، ثُمَّ يَقول: إنه مُؤمِن فإنَّ هذا لا يَدرِي عن أعمال القلوب وشُؤُونِها وأحوالِها، ولا يُمكِن لإنسان يُحافِظ على تَرْك الصلاة ثمَّ يَقول: إنَّه مُؤمِـن، لو قال ذلك فهو كافِر، إِذْ إنَّ الإيمان حقًّا لا يَدَعُه يَترُك الصلاة مع عِلْمِه بِفضلِها والوعيد على تَرْكِها.

فكيف تُؤمِن بأنَّ الرسول ﷺ قال: «مَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ» ثُمَّ لا تُصَلِّي؟ وكيف تُؤمِن بأنَّ الرسول ﷺ يَقول: «**الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ**»[2] ثُمَّ لا تُصلِّي! فأين الإيمانُ؟ وكيف تُؤمِن بأنَّ هذه الصلاةَ ما فُرِضَت على الرسول ﷺ إلَّا وهو في أعلى مَكان وفي أَشرَفِ ليلة، وبدُونِ واسِطة، وعلى أنَّها خَمسون صلاةً[3]، وكلُّ هذا يَدُلُّ على عِناية عظيمة بهذه الصلاةِ، ثُمَّ لا تُحافِظ عليها، وتَقول: إنَّك مُؤمِن!!.

أَعتَـقِد لو أنَّ أحدًا مِن النـاس قال له مِلِـك من المُلوك: إذا زُرْتَني في بيـتي أَعطَيْتُك كذا، وإذا لم تَزُرْني عاقَبْتك بِكَذا. ثُم لَمْ يزُرْه هل يَكون عندَه الثِّقة بِما قال هذا المَلِكُ؟ لا يَكون عِنده ثِقَة، لو كان عنـده ثِقَة لذهَب بلا شَكٍّ على رأسه لا على رِجْلَيـه! فكيف بوَعْدِ الله عَزَّوَجَلَّ ووعيدِه!!.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ الجَنَّة؛ لِقوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾، وهي مَوْجودة الآنَ، وقد دخَلها النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ورأَى فيها قَصْرًا لِعُمَرَ بنِ الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

---

(١) انظر: الصلاة وأحكام تاركها (ص٦٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٤٦)، والترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم (٢٦٢١)، والنسائي: كتاب الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة، رقم (٤٦٣)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة، رقم (١٠٧٩)، من حديث بريدة بن المحصب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، رقم (١٦٤)، من حديث مالك بن صعصعة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هذه الجَنَّاتِ مُشْتَمِلَة على النعيم الذي هو سُرُورُ القَلْب، وتَرَفُ البدَن، فأبدانُهم في غاية ما يَكون مِن التَّرَف، وقلوبهم في غايةِ ما يَكون مِن السرور؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان:١١] ﴿نَضْرَةً﴾ في أبدانِهم، ﴿وَسُرُورًا﴾ في قلوبِهم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ هذه الجَنَّاتِ جَنَّاتُ خُلْد لا مَوتَ فيها؛ لِقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، وقد ورَدَ في عِدَّة آيات مِن القرآن ذِكْر التَّأْبيد لِهذا النعيمِ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الآية تَدُلُّ على أنَّه لا مرَض في الجَنَّة، ووجهه قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ لأنَّ المَرض يُنافي النعيم، وعلى أنَّه ليس فيها شَيْخوخة؛ لأنَّ الشَّيْخُوخَة تُنافِي ذلك أيضًا، وعلى أنَّه ليس فيها هَمٌّ أو كَدَر أو تَنغِيص أبدًا، كُلُّ هذا يُنافِي النعيم، اللهُمَّ اجعَلْنا من أهلها خالِدين فيها.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ هذا الوعدَ حَقٌّ لا يُمكِن أن يُخْلَف؛ لِقولِه تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾؛ ويُمكِن أن يُستَفاد مِنه: أنَّه لا حُجَّةَ لهم بعد أن أَكَّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا الوَعْدَ بهذا التَّأكيدِ، وبعد أَنْ ذكَر أيضًا الوعيد على مَن خالَف.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: فضلُ الله تعالى عَلى عِباده بِكونِه يُؤكِّد لهم هذه الأمورَ هذه التأكيداتِ، مَع أنَّه جَلَّ وَعَلَا يَكفِي خبَرُه، لكنَّه يُؤكِّد هذا الخبَرَ وهذا الوعدَ مِن أَجْل أن يَقْوَى الناسُ على الحُصول على هذا النَّعيمِ، وذلك بالإيمان والعمَل الصالِح.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثبات العِزَّة والحِكْمة لله تعالى؛ لِقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وإثباتُ هذين الاسمَيْن مِن أسماء الله تعالى، وهما: العزيز والحكيم.

الآية (١٠)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي: العَمَد جمع عِماد، وهو الأُسطوانة، وهو صادِق بأن لا عَمَدَ أصلًا] قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جَمْع سَماء، ويُطلَق السماء على كل ما علا، ويُطلَق على السموات ذات الأَجْرام المَحسوسة، والمُراد هنا ذات الأجرام المَحسوسة، خلَقها الله عَزَّوَجَلَّ بغَيْر عمَد.

وقوله: [والعَمَد جَمْع عِماد كالأُسطوانة]، فالعَمود المَعروف، يَعنِي: ليس لها أَعمِدة تَحمِلها؛ وهل المَعنَى أن لها عمَدًا لا تُرى، أو أن المَعنَى أنه لا عمَدَ لها؟

الجَوابُ: فيه اختِلاف؛ فقيل: إنه لا عمَدَ لها، وهو ما جرَى عليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [وهو صادِق بأن لا عَمَدَ أصلًا] بمَعنَى أنه يَصلُح أن تَقول: هذا ليس له عمَد تُرى، يَعنِي: إذا انتَفَت رُؤْيتها انتَفَتْ هي؛ لأنه لو كانت لرأَيْناها كما نَرى السماء، فلمَّا لم نَرَها فمَعناه: أنه لا وُجودَ لها.

وقال بعضُهم: نعَمْ، هي ليس لها عمَدٌ، لكن الضمير في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ لا يَعود على العَمَد، إنما يَعود على السماء؛ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي: السموات كذلك لا عمَدَ لها.

وقال بعضُ المُفسِّرين: إن مَعنَى قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أن لها عمَدًا، لكن لا تُرَى.

والصواب: أنه لا عمَدَ لها، وأن الله عَزَّوَجَلَّ أمسَكها بقُدْرته، كما قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج:٦٥]، فكونها لا يَكون لها عمَدٌ أبلَغُ في قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ.

فالآيةُ لها مَعنَيان: الأوَّل: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾؛ أي: لا عمَدَ لها، والثاني: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾، أي: لها عمَدٌ، لكن لا تُرَى، والمَعنَى الأوَّل هو الصحيح، ولكن المَعنى الأوَّل له تَخريجان:

أحَدُهما: أن يَكون قوله تعالى: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ الهاء تَعود على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ يَعنِي: أنكم تَرَوْنها كذلك لا عمَدَ لها، فهي لا عمَدَ لها.

والثاني: يَعود على العمَد، أي: بغَيْر عمَد تَرَوْنها، وهو صادِق بأنه ليس لها عمَد أَصْلًا كما تَقول: ليس في هذا المكانِ عَمود أَراه. المَعنى: ليس فيه عَمود.

وهذا -أَعنِي: كونَه لا عَمدَ لها- أصَحُّ وأبلَغُ في قُدْرة الله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جِبالًا مُرتَفِعة] ﴿وَأَلْقَى﴾ بمَعنَى: وضَع ﴿فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جَمْع راسِية، وهذه الرَّواسِي هي: الجِبال.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات:٣٢]، فهي رَواسٍ لنَفْسها، وهي أيضًا مُرْسِية للأرض مُثبِّتة لها.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَن﴾ لا ﴿تَمِيدَ﴾ تَتَحرَّك ﴿بِكُمْ﴾] فقَدَّر (لا) النافية بعد (أَنْ)، وهذا مَوْجود، فإنَّ (لا) النافية قد تُقدَّر بعد (أَنْ) مع حَذْفها؛ وقد تُوجَد بعد (أَنْ) وهي زائِدة مثل قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾، فهنا (لا) زائِدة بعد (أَنْ)، والتقدير: لأَنْ يَعلَم أهل الكتاب أَنْ لا يَقدِرون.

وقد تُحذَف وتَكون مُقدَّرة كما في هذه الآيةِ: أن لا تَميد بكم؛ لأنَّهُ مِن المعلوم أنَّ الله تعالى ما أَلقَى هذه الرواسِيَ لِأَجْل أن تَميدَ بنا، وإنما أَلقاها لئَلَّا تَميد، فتكون (لا) هنا عَيَّنَها السِّياق.

وقال بعض المُعْرِبين: أنه لا تُقدَّر (لا)، بل يُقدَّر اسمٌ مُناسِب، أي: كراهةَ أن تَميدَ بكُمْ، نعَمْ، وقالوا: إنَّ هذا أَوْلى؛ لئلا نُفسِّرَ الإثباتَ بالنفيِ؛ لأننا إذا قلنا: التقدير: أن لا تَميد بكم. فسَّرنا الإثباتَ بالنفيِ، فإذا قُلْنا: كراهةَ أن تَميد بكم. فإننا نُفسِّر الإثباتَ بإثباتٍ، لكن على تَقدير المُضاف.

وهذا له نظير مِثْل قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء:١٧٦]، فالبَيان هنا سببٌ لِعـدَم الضلال، إِذَنِ المَعنَى: يُبيِّن الله تعالى لكم كراهةَ أن تَضِلُّوا، على قول، أو أَنْ لا تَضِلُّوا، على قولٍ آخَرَ.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾: ﴿تَمِيدَ﴾، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [تَتحرَّك بِكُمْ]، فَسَّر المُفَسِّر المَيَدان بِالحرَكة.

والصواب: أنَّ المَيَدان حرَكة خاصة، وهو الاضطِراب، وليس مُجرَّد الحرَكة، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَلقَى في الأرض رَواسِيَ حتى لا تَميـدَ؛ أي: لا تَضطَرِب، وذلك لأنَّ الأرض مَوْضوعـة على الماء، فإنَّ جميـع جوانب الأرض من كل ناحيـة ماء،

والجِسْم إذا وُضِع في الماء يَتَحرَّك ويَضطَرِب لا شَكَّ، فإذا كان كذلك فلا بُدَّ مِن شيء يَحفَظُ تَوازُنه، وذلك الشيء هو الجِبال، فجعَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الجِبال فيها على الأرض حتى لا تَضطَرِب بالناس.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾، يَعنِي: أن تَضطَرِب، وعند عُلَماء الجُيُولُوجيا مِن هذه الحِكَم والعِلَل شيءٌ كثير؛ لأنه في بعض الأماكن تَكثُرُ الجبال العظيمة الطويلةُ الكبيرة، وفي بعض الأماكِن تَقِلُّ، وهذا يَرجِع إلى الحِكْمة التي خلَقها الله عَزَّوَجَلَّ، وقد تَخْفَى علينا، لكنها عند العُلَماء مَعروفة.

قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ﴾ بمَعنَى: نَشَرَ ووَزَّع ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ الدَّابَّة: اسم فاعِل؛ أي: مِن كُلِّ نفسٍ دابَّةٍ، فهي اسم فاعِل من دَبَّ يَدُبُّ، إذا ضَرَبَ ونَشَر، والدابَّة يُطلَق عُرْفًا على ذاتِ الأربَع، ويُطلَق أيضًا في عُرفٍ أخصَّ على الحِمار فقَطْ.

أمَّا مَعناها في اللغة العربية فهي: كل ما دَبَّ على الأرض، سواءٌ يَمشِي على أربع، أو على اثنَيْن، أو على أكثَرَ، أو على بطنِه أو على رِجْلَيْن، كُل ذلك يُسَمَّى دابَّةً.

ونَشَرَ الله عَزَّوَجَلَّ في الأرض هذه الدوابَّ لحِكمةٍ عظيمة؛ لأنَّ مِن هذه الدوابِّ ما هو نافِع ويَنتَفِعُ الناس به، ومنها ما هو ضارٌّ، فيَحتَرِز الناس عنه، ومنها ما لا نَفعَ فيه ولا ضرَرَ، فيَعرِفُه الناس بما جعَل الله عَزَّوَجَلَّ فيه مِن الآيات، فيَعرفون به كمالَ قُدرةِ الله تعالى وحِكْمتِه.

فالأشياءُ النافِعة ظاهِرةٌ حِكمتُها مثل نَفْع العِباد، وقيام مَصالِح دِينِهم ودُنياهُم بها، مِثْل قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا

مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَـٰرِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٧١-٧٣] هذا نَفْع.

ومِنها ما هو ضارٌّ، والحِكْمة مِن خَلْق الضارِّ كثيرة مِنها:

١- بيانُ كَمالِ قُدرةِ الله عَزَّوَجَلَّ حيث كان قادِرًا على أن يَخلُقَ ما فيه مَنفَعة ومَصلَحَة، وما فيه مَضرَّة، فالكلُّ خَلْقُ الله تعالى، والكُلُّ دابَّة، والكلُّ مِن مَاء، ومع ذلك هذا نافِع وهـذا ضارٌّ، هل العَقْرب أكبَرُ أمِ البَعـير؛ ولا يَحتاج أن أَقـول: إن البعير أكبَرُ. لكن مع ذلك العَقربُ مؤذِيَة ضارَّة والبعِير بالعَكْس، تَجِد البعير يَأتي الطِّفْل الصغير يَقوده لِمَا يُريد، فتَمشِي معه، وهذه حِكْمة.

٢- أنَّ الإنسان يَعرِفُ بذلك قَدْرَ نفسِه؛ فهذا الإنسانُ المُتَمرِّد المُستكبِر يَعرِف قَدْر نَفْسه في هذه المَخلوقاتِ المُؤذِية؛ ولهذا يُقال: إن مَلِكًا جبَّارًا كان جالِسًا وحولَه مِن أهل العِلْم مَن حَولَه، فكان يَقول: ما الحِكْمة مِن خلْق هذه الذُّبابةِ؟ فقال له رجُل: الحِكْمة مِن ذلك أن يُرغِـمَ الله تعالى بها أُنوف الجبابِرة مِثلك، فهذه الذُّبابةُ تَقَع على أَنْـف أيِّ إنسان وتَذْرِق عليه، فهذا من الحِكْمة: أن يَعرِف الإنسـان قَدْر نفسِه، وأنَّه ضعيـف بالنِّسبة إلى قُـوَّةِ الله عَزَّوَجَلَّ، فالبَعوضة ليست بشيء، ضَعيـفة مَهِينَة، ومع ذلك تُقِضُّ مَضْجع الإنسان حتى لا يَنام، فهذا مِن الحِكْمة.

٣- أنَّ الإنسان يَذوق الألَمَ بها والعَذاب حتى يَعرِف أنَّ العذاب غير مُلائِم له، فيُوجِبُ له ذلك النُّفورَ مِن مَعصية الله إلى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

٤- أنَّ الإنسان ربما يَحمِله الخوف منها على أن يَقومَ بما يَنبَغي أن يَقومَ به مِن الأوراد والأذكار، فكثيرٌ مِن الناس قد يُورِد ويَقرَأ ما يَعصِمه مِن الأذى ليس بسبَب شَياطين الجِنِّ، ولكن خوفًا ممَّا يُؤذيه حِسًّا، وهذا شيء مُجرَّب ومُشاهَد.

وقد حكَى لي بعض الناس الثِّقات أَنَّه كان مِن عادتِه أن يَقرَأ آية الكُرسيِّ كلَّ ليلة يَقول: فنَسِيتها ذات ليلة فلُدِغْتُ بعد النوم. لُدِغ لأَنَّه ليس عنده مِن الله تعالى شيءٌ حافِظ، وقد قال ﷺ: «وَمَنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ»(١).

هذه مِن الحِكَم: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَثَّ في الأرض مِن هذه الدوابِّ المُؤذِية.

أَمَّا ما لا نَفعَ فيه ولا ضرَرَ من الدواب فإنَّ الإنسان يَستَدِلُّ به على حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ وأنه مُحيطٌ بكل شيء، تَجِد هذه الدوابَّ على كَثْرة أنواعها لا تَستَطيع أن تُحصِي أنواعَها فَضْلًا عن أفرادِها، فما بالُك وقد أَعطاها الله تعالى الهِداية لما هو مِن مَصالِحها؟! قال موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا قال له فِرعونُ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

وأنت إذا رأَيْت هذه النَّملةَ الصغيرة كيف هَداها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى مَصلَحتِها ومَنفَعتِها؟ كيف تَدَّخِر القُوتَ لها؟ وكيف تَجْلُبُه مِن بعيد؟ وكيف تُكسِّر أطراف الحُبوب؟ السِّرُّ الذي مِنه تَنبُت تُكسِّرُه قبل أن تَختَزِنه، حتى لا يَنبُت؛ لأَنَّه إذا جاءَه المَطَر والنَّدى فإنه يَنبُت، لكن إذا كُسِر أعلاه الذي هو سِرُّه الذي يَنبُت مِنه فإنَّه لا يَنبُت، مَن الذي أَلهَمَها ذلك؟ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هي ما درَسَت في مَدارِس، ولا تَخرَّجت في الثانوية، ولا قرَأَت في كُلِّيَّة العُلوم، لكنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي عَلَّمها ذلك.

وقد شاهَدْتُ أنا عندما تَسقِي النَّخلة وحولها ذَرٌّ ويَأتِي النَّدى إلى أولادها؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا، رقم (٢٣١١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَخرُج بأولادها حامِلةً لهم -وأولادها بَيْض لم يَجِي بعدُ إلى الآنَ- تَجِد كل واحدة مِنهم حامِلة ولَدها تَخرُج به عن هذا الماءِ؛ حتى لا يُصيبه أو يُهلِكه، وهذا مِن آيات الله عَزَّوَجَلَّ، يَتبيَّن بِه الإنسان حِكْمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وأنَّه واسِع عليم، وأنه بكل شيء مُحِيط، وأنه لا يَخفَى عليه شيء في الأرض ولا في السَّماء.

وقد ذكَر ابنُ القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ في (مِفتاح دار السعادة)(١) مِن هذه الأمورِ أشياءَ عَجيبةً، وذكَرَ أنه ذُكِر لِشيخِ الإسلام ابنِ تيميَّةَ رَحِمَهُٱللَّهُ أنَّ رجلًا وَضَعَ شيئًا من الطُّعْم لِذَرَّة مِن الذرَّات، فلما رأَتِ الطُّعْم هـذا لم تَستَطِع أن تَحمِلَه فهو كبير، فذهَبَت إلى أخواتها، فاستَصْرَختْهم، فجاؤُوا إلى هذا المكانِ، يَقول: فلما أَقبَلوا نَزَعَ الطُّعْم، فجعَلوا يَبحَثون في مَكان فلم يَجِدوا شيئًا فرَجَعوا، فوضَعه ثانِيةً، فلَمَّا وجَدَتْه الذَّرَّة ذهَبَت إلى أخواتها فاستَصْرَخَتْهم فجاؤُوا، ولكن لَمَّا أَقبَلوا رفَعَه، فلَمَّا لم يَجِدوا شيئًا رجَعوا، في المرة الثالثة فعَل بهم كذلك، يَقول: فاجتَمَع الذَّرُّ عليها فقتَلوها.

وقال شيخُ الإسلام: هذا لأن جميع النُّفوس مَجبولة على بُغْض الكذَّاب الظالِم، وهذه لَمَّا كذَبَتْ عليهم ظلَمَتْهم، فأَخَذَتْهم من بُيوتهم وهم في تعَب وعَناء، والنتيجة لا شيءَ، وهذا شيءٌ عظيم؛ فإذا تَأمَّل الإنسان هذه الأُمورَ يَجِد العجَب العُجاب! سبحان الله!

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿أنزلنا﴾ يَقول رَحِمَهُٱللَّهُ: [فيه التِفات من الغَيْبة] إلى المُتكلِّم؛ وقد سبَقَ لنا أنَّ الفائِدة في الالتِفات: تَنبيهُ المُخاطَب أو القارِئ؛

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٤٣).

لأنَّه إذا تَغيَّر أُسلوب الكلام لا بُدَّ أن يَنتَبِه، وهنا الفائِدة الثانية في هذا: بَيان القُدرَة أنَّ الأرض مُفْتَقِرَة إلى السماء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً﴾ وهو المَطَر، والمُراد بالسماء هنا العُلُوُّ؛ لأن المطَر ليس يَنزِل مِن السماء التي هي السَّقْف المحفُوظ، وإنما يَنزِل مِن العُلُوِّ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾، يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ صِنْف حَسَن] (صِنْف) تفسير لـ﴿زَوْجٍ﴾، و(حَسَن) تَفسير لـ﴿كَرِيمٍ﴾، وعِندي أن الكريم هو الحَسَن وزِيادة، وهو ما يَنتَفِع الناس به مِن هذا النباتِ، كأنَّه رجُل مِعْطَاءٌ يُعطِي ويُغدِق هذا الخيرَ فهو نَباتٌ حَسَن، ومع ذلك نافِع بسبَب ما فيه، والزوج يَأتي بمَعنَى: الصِّنْف، ومنْه قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص:٥٨] ومِنه قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢]، أي: أَصنافَهم وأَشكالَهم. والله أَعلَمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثباتُ خلقِ الله تعالى لِلسَّموات.

ويَتَفرَّع على هذه الفائِدةِ: إبطالُ قولِ الفلاسِفة في قِدَم الأفلاك، فالفلاسِفة يَقولون: إنَّ الأفلاكَ قَديمة، وأنها لا تَتغيَّر؛ لأنَّ القديم عندهم الذي لا ابتِداءَ له، ومَا لا ابتِداءَ له لا انتِهاءَ له، فيَكون في هذا إبطالٌ لِقولِ الفلاسِفة: إن الأفلاكَ قديمة وإنَّها لا تَتغيَّر. ومِن ثَمَّ أَنكَرُوا انشِقاقَ القمر إنكارًا شديدًا، وقالوا: القمَرُ لا يُمكِن أن يَنشَقَّ؛ لأنَّه مِن الأفلاك، وإنَّما مَعنَى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١]؛ أي: بَانَ صِدْقُ الرِّسالة، وأَنكَرُوا الأحاديث الوارِدة في ذلك والتي تَلَقَّتْها الأُمَّة بالقَبُول.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ قُدْرةِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في خَلْقِ هذه السمَواتِ العَظيمة؛ قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيانُ القُـدرة مِن وجهٍ آخَرَ، وهي أنَّ هذه السمَـواتِ العَظيمة والسَّقْـف الواسِع بغير عَمَد؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾، وأَظُنُّنا لو رأَيْنا بِنـاءً واسِعًا ليس فيه أَعمِدة لَكُنَّا نَتَعَـجَّب مِن هذا البِناءِ، كيف هذا البِنـاءُ الواسِع ليس فيه عَمَد؟! معَ أنَّ بِناء السَّماء أَوْسَع وأَعظَمُ، ومعَ ذلك بغير عَمَد.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيانُ حِكْمَة اللهِ ورحمتِه في إلقاء الرَّواسِي؛ لئَلَّا تَميدَ بالخَلْق.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الأرض تَدور، يَقولون: لِأن قولَه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ يَدُلُّ على وجود أَصْل الحرَكة؛ لأنَّ نَفْيَ الأخصِّ يَدُلُّ على وُجُودِ الأَعَمِّ، أَلَمْ تَرَوْا إلى قـولِه تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ حيث كان دليـلًا على وُجود أَصلِ الرُّؤْيَة! فقولُه تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أَلَيْس دَليلًا على أنَّ الرؤية مَوْجودة! وهذه الآيَةُ استَدَلَّ بها أهلُ السُّنَّة على إثباتِ رُؤْيَة الله تعالى، وأهلُ البِدْعة على نَفيِ رُؤيةِ الله تعـالى، ولكن الصواب مع أهل السُّنَّة؛ لأنَّ نَفْيَ الأخص يَقتَضِي وُجودَ الأعمِّ، إذ ليس مِن المَعقول أن يُنفَى الأخـصُّ مع انتِفَاءِ الأعمِّ، ثُم لا يُتَـطرَّقُ لَهُ؛ ولو كان الأخصُّ مُنتَفِيًا لوَجَب أن يُنفَى الأعمُّ لِأَجل أن يَدْخُل فيه الأخصُّ، لو كان الله تعالى لا يُرَى لقال الله عَزَّوَجَلَّ: لا تَراه الأبصار. حتى تَنْتَفي الرُّؤية ويَنتَفِيَ الإدراك مِن بابِ أَوْلى، فلَمَّا قال تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ﴾ عُلِمَ أنَّ أصل الرؤية مَوجُود، لكنَّه لا يُدْرَك عَزَّوَجَلَّ؛ وهنا لَمَّا قال تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ والمَيَدان الاضطِراب عُلِم أنَّ أصلَ الحرَكة مَوْجود، لكن هذه الرَّواسيَ لأَجْل اتِّزان الحرَكة حتى لا تَضطَرِب. هذا هو تَقدير مَن يَرَى أنَّ في الآية دَليلًا على أنَّ الأرض تَدور.

أمَّا الذين يَقولون: فيها دليل على أن الأَرْض لا تَدُور. فيَقولون: إننا لا نُسَلِّم أن المَيَدَان مَعناه: الاضطِراب، بل نَقول: إن المَيَدَان هُو الحرَكة، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ أن تَرسوَ ولا تَتحَرَّك، فيُفسِّرون المَيَدَان بِمُطْلَق الحرَكة.

وإذا كان الأمرُ كذلك، فإنَّ الواجِب أن نَرجِع إلى اللغة العربية، فإذا كانت اللغةُ العربية تَدُلُّ على أنَّ المَيَدَان هو الاضطِراب، فنحن نَقول: إنَّ فيها دليلًا على وُجُود أصلِ الحرَكة. وإذا كانت اللغة العربية تَقول: إنَّ المَيَدَان هو الحرَكة. فإننا نَقول: فيه دليل على أنَّها لا تَدُور. ونحن إذا قُلْنا: إنَّها تَدور لا يَنقُصُ الله تعالى شيئًا، بل هو في الواقِع زِيادة في قُدْرَتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ حيث تَدور هذِه الأرضُ بجَميع ما فيها مِن بِحَار وأنهار وأَشْجار ومَدَر وحَجَر وكُلِّ شيء تَدُور، ومَع ذلك بهذا الاتِّزانِ البَدِيع الذي لا يَتغَيَّر، هذا دليل على قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ، كما أنَّ سكونَها وهي على الماء دليل على قُدْرَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لكن الشَّيْء الذي يَجِب أن يُنْكَر -حتى يَتبيَّن لنا كالشمس- هو القول بأنَّ اخْتِلاف اللَّيل والنَّهار بسبب دَوَران الأرض، فهذا لا نُسَلِّم به، بل نَقول: إنَّ الليل والنهار بسبَب دَوَران الشَّمس على الأَرْض؛ لأنَّ هذا هو ظَاهِرُ القُرآن، ولا يُمكِن أن نَتزَحْزَح عَنْه إلَّا بدليل فيه مِثل الشمس.

فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَثبَت الفِعْل لِلشَّمْس: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف:١٧]، ولم يَقُل: إذا طَلَع الكهفُ عليهم يَتزَاوَر، وأَثبَت ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ ولو كانت الحرَكة للأرض لكانَت الأرض هي التي تَزاوَر، ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾ هذا الفِعلُ الثالِث، ولو كانت الأرض هي التي يَكون بدورانها اختِلاف الليل والنهار لقال: وإذا غربَتِ الأرض، أو خَفِيَ جُزءُ الأرض. أو ما أَشبَه ذلك؛ و﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾

نَفْس الشيء: فِعْل، والنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا غربَتِ الشمس قال لأبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟»(١) فأَخبَر أنها تَذهَب هي بنفسِها.

وهذا هو الصواب بلا شكٍّ، إلَّا إذا ظهَر لنا دَليل مِثْل الشمس، فإنَّه يُمكِن أَنْ تُؤَوَّل هذه الآياتُ إلى أن المَعنَى: غَربَت وطَلَعَت باعتِبارِ رُؤْيَة الرَّائِي، وإن كان الرائِي هو الطالِع، فأنت تَسِير في سيارة، وفي سَيْرك طلَع عليك مثلًا ناقةٌ تَقول: بينما أَسير إذ طلَعَت عليَّ ناقة؛ فتَقول: طلعَت علينا. مع أنَّك أنت الطالِع عليها، هذا مُمكِن لُغةً، لكنَّا ما دُمْنا لم نَتيقَّن هذا الأمرَ، وإنما هي نظريَّاتٌ مِن قوم لا يُؤْمِنون بالقرآن، ولا يُؤمِنون بالشرائِع، فإننا لا نَقْبَلُ ذلك مِنْهم، بل نَأخُذ بظاهر كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فإِن قال قائِل: إن قولَكم هذا يُناقِض قولَكم بإمكانِ دَوَرانِ الأَرْض، يَعنِي: إذا أَمكَن دوَران الأرض لزِم أن يَكُون تَعاقُب الليل والنهار بِسبَب دَوَرانها.

فالجَوابُ: إن هذا لا يَلزَمُنا؛ لأنَّه مِن المُمْكِن أن يَدُور هذا وهذا، وتكون حَركَةُ الشمس ودورانُها أسرَعَ، وإذا كان أسرَعَ لَزِم مِن ذلك أن تَطُوفَ بِالأَرْض ولَو مَعَ دَوَرانِ الأَرْض، يَعنِي: يُمكِن أن تَكون الأرض تَدور قليلًا وهذه تَكون أكثَرَ، فيُمكِنُها أن تَلُفَّ علَى الأرض.

فالحاصِلُ: أنَّ هذه المَسائِلَ لا شَكَّ أنَّ الواجِب على المُؤْمِن أن يَأخُذ بِظاهِر القُرآن والسُّنَّة، فإن هذا الواجِبَ في الأمور الغَيْبية وفي الأمور التي لا يُمكِن إدراكُها حِسًّا، ثُمَّ إذا تَبيَّن له بعد ذلك بِالحِسِّ أنَّ ظَاهِر القُرآن غَيْرُ مُراد، فإنَّنا يَجِب علينا

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم (٣١٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٩/ ٢٥٠).

أن نُؤَوِّل ظاهِرَ القرآن؛ لأنه لا يُمكِن أن يَتَعارَض القرآن مَع الوَاقِع، فمُستَحِيل هذا، ولو أننا جَوَّزْنا ذلك عَقْلًا لَلَزِم أن يَكُونَ في القرآن ما هو كَذِب؛ لأنَّ الكَذِب هو خِلاف الواقِع، وهذا أَمْر مُستحيل.

ولذلك يَجِب علينا أمام هذه النَّظَرياتِ أن نَجعلَها كأحاديث بَنِي إسرائيلَ:

أوَّلًا: ما وافَقَ القُرآن فهو حَقٌّ وأَخَذْنا بِه، ولكِنَّنا لا نَأخُذ به على أنَّه هو الذي أَثْبَتَـه، بل على أنَّ القرآن هو الذي أَثْبَتَه، وإنما نَقول ذلك: لِئَلَّا يَكُون لَهُـم الفَضْلُ علَيْنَا.

ثانيًا: مَا خَالَفَ القُرآن وَجَبَ علَيْنَا رَدُّه.

ثالثًا: ما لا نَعـلَمُ مُوافَقَتَه لِلقرآن ولا مُخالفتَـه فهذا العَقلُ والشَّرْع يَقتَضِي أن نَتَوَقَّف، ونَقُول: إننَا لا نُصَدِّق ولَا نُكَذِّب. وحينئذٍ يَحتاجُ الإنسان طَالِب العِلْم إلى أن يَتعَمَّق ويَتَأَمَّل ويَنْظُر نَظَرًا عَمِيقًا جِدًّا في نُصُوص الكِتاب والسُّنَّة؛ حتى لا يَحْكُمَ بِأَنَّ الوَاقعَ يُخالِفُها، فيَكونُ في ذلك رَدُّ فِعْلٍ لِمَن لا يُؤْمِنُ بالإسلام.

فمثَلًا لو أنَّ أحـدًا أَنْكَر مِثْل هذه النَظَرِّياتِ بِدون تَأَمُّلٍ في دَلالة الكِتـاب والسُّنَّة، كما يَفـعَل بعض العامَّة فهذا -للحقيقة- ليس مِن خِـدْمَةِ الإِسْلام، هذا كأَخْـذ الإنسان خِنْجَرًا بيدِه وطَعَـنَ بِه صَدْرَه وهو لا يَشْعُر، فالواجِـب تُجاه هذه الأُمورِ كما قُلْت لَكُم: أن نَعرِضَها على الكِتَـاب والسُّنَّة، فَما وافقَ الكِتَاب والسُّنَّـة فهو حَقٌّ؛ لِكونه وافقَ الكِتَاب والسُّنَّة، وما خالَفَهما فهو بَاطِل، وما لا تُعْلَم مُوافَقَتُه ولا مُخالَفَته فالواجِب فيه التَّـوَقُّف وأن يَقول الإنسان: إن تَبيَّن لي بِحَـسَب إدراكِي -وإن كان عِلْمي قاصِرًا في هذه الأُمورِ- فأنا أُصَدِّقُ به، وإذا لم يَظهَر لي فأنا لَسْتُ مُلْزَمًا بأن أُصَدِّق أو أُكَذِّب، أَقِف مِن هذا مَوْقِف المُحَايِد، وهذا هو العَقْل.

فإن قال قائِل هذه النَّظرِيةِ: هذه تُخالِف القرآن. يَعنِي: هناك مَن يَقول: الشمس طالِعة والأرض هي التي تَدور عليها.

فالجَوابُ: نحن قُلنا: مَسأَلة الشمس ثابِتة أَبطَلناها؛ وقُلْنا: هذا لا يَجُوز؛ مع أنهم يَقولون: إن الشمس ليسَتْ بثابِتة، وإنها تَدور في الأَوجِ العالي تَسير سيرًا عظيمًا، وفي كُتَيِّب صغير اسمُه عِلْم الفلَك القَديم يَقول: تَنطَلِق في الثانية آلاف الأميال.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيانُ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ببَثِّ هذِه الدوابِّ في الأرض؛ لِقوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾؛ أَي: نَشَر؛ وَجْه دَلالتها على القُدرة: اختِلاف هذه الدوابِّ في أجناسِها وأنواعِها وأشكالِها وأحوالِها، وقد سَبَق لنا بَيانُ بعضِ الحِكَم في خَلْق ما هو ضارٌّ منها، وذكَرْنا عِدَّة حِكَم في خَلْق هذا الضَّارِّ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بيان قُدْرَة اللهِ أيضًا وحِكْمَتِه ورَحْمَتِه في إنزالِ الماء مِن السَّماء، فالقُدْرة أنَّنا نَجِد هذا الماءَ يَنزِل مِن فوقُ، فمَعنَى ذلك أن هناك بِحارًا عَظيمةً تَطوف بالأرْض -بَيْن السَّماء والأَرض-، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في آية أخرى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ سبحان الله! جِبَال بين السماء والأرض مِن البَرَد يَنْطَلِق مِنْها هذه الأَجزاءُ حتى يَنْزِل الأرض، ولو شاء الله تعالى لَأَنْزَل الجبَلَ جميعًا على الأرض.

وقُلْنا: فيه أيضًا دليل على الرحمة حيثُ كان نُزولُه مِن العُلُوِّ لأَجْل أن يَشمَل المُرتَفِع والمُنْخَفِض.

وفيه أيضًا دليل على الرحمة: أنَّ هذا الماءَ لنا فيه فائدتان عَظيمتان: إنبات ما يَنبُت مِنْه، والثاني: خَزْنُه في الأرض، قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر:٢٢]، وقال في آية أُخرى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٢١]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ

أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة:٦٨-٦٩]، ففيه أيضًا مَادَّةُ حَيَاةِ الإنسان: في طعامِه وفي شَرابِه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثباتُ الأَسْباب؛ لِقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا﴾، ويُؤخَذ إثبات الأسباب مِن فاءِ السبَبِيَّة ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾، وإثباتُ الأسباب مِن حِكْمَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالمُنْكِر للأسباب طاعنٌ في حِكمةِ الله تعالى لا شَكَّ؛ لأنَّ الله حَكِيم جَلَّ وَعَلَا؛ وكلُّ شيء عِنده بِسبب؛ لِتقُومَ الأشياء وتَمشِيَ على نِظَام.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بَيان قُدْرَة الله عَزَّ وَجَلَّ على تَصْنِيف هذا النَّباتِ مَع أنَّ أَرْضَه واحِدة ومَاءَه وَاحِد؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: مِن كل صِنْف، فتَرَى هذه الشجرةَ كَبيرة وهذه صَغيرة، وهذه خَضْراءَ وهذه بُنِّيَّةً، هذه زهرتُها بَيضاءُ وهذه صَفراءُ، وهذه بِلَوْنٍ آخَرَ، ألوان مُختَلِفة، مع أنَّ الماءَ واحدٌ والأرضَ وَاحِدَة، وهذا دليل على كمالِ قُدرَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن هذا النَّابِتِ فيه مَنفَعتان وهما النَظَر إليه، والبَهْجَة والسرور به؛ ولهذا إذا وقَف الإنسان على رَوضَةٍ مُعْشِبَة تَتكفَّأُ الرياحُ أَزْهَارَها يَجِد سُرورًا وأُنْسًا، ثانيًا: ما يَحصُل مِن هذا النباتِ مِن المَنافِع لنا ولبَهائِمنا، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن السمواتِ أَجْرامٌ محسُوسة، ومَن أنكَرَها فهو مُكذِّبٌ للقرآن، والمُكَذِّبُ بالقُرآن يَكُون كافرًا، وهذه مَسْأَلَة خَطِيرَة؛ لأنَّ الآن مَن لا يُؤمنون بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واليوم الآخر لا يُقِرُّون بأنَّ هناك أجرامًا سماوِيَّة، يَقولون: أَفلاك ومَجرَّات ونجوم. وما أَشبَه ذلك، ولا يُقِرُّون بالسَّماء، والذي يُصدِّقُهم في ذلك مُكذِّبٌ لِلقُرآن، فيَكون كافِرًا به، والعِياذُ بالله.

الآية (١١)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان:١١].

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ المُشار إليه ما سبَق، وهي خَلْقُ السمَواتِ بغيرِ عَمَد، وإلقاء الرواسِي في الأرض، وبثُّ الدابَّة، والإنزال الماء مِن السَّماء، والإنبات فيها مِن كُلِّ زَوْج كَريم.

فهذه خمسة أَشياءَ مُشاهَدَةٌ محَسوسة؛ ولهذا أَشار إليها بالإشارة الحِسِّية فقال: [﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ أي: مَخْلُوقُه] فهو مِن باب إطلاق المَصدَر وإرادة اسم المَفعول، وليس المُرادُ به خَلْقَ الله الذي هو فِعْلُه؛ فإنَ فعلَه لا يُشاهَد وأنَّ المُشاهَد مَفعولُه.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَرُونِي﴾ أَخبِروني يا أهلَ مَكَّةَ ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾] قوله تعالى: ﴿فَأَرُونِي﴾ فسَّر الإراءة هنا بالإخبار، ولكن الأَوْلَى إبقاؤُها على ظاهِرها أنَّ المُراد بالإِرَاءَة يَعني: أَبصِروني، أَروني شيئًا خَلَقه أحدٌ سِوى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فقوله تعالى: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أبلغُ مِن تَفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [أَخبِروني]؛ لأنَّ التَّحدِّيَ فيها ظاهِر، إِذْ مِن المُمْكِن أن يُخْبِرُوه بأمرٍ وهُمْ كاذِبون، فيَقولون: نعَمْ، إنه يُوجَد كذا وكذا خلَقَهُ كذا وكذا. لكن إذا قال: (أَروني) بِالتَّحدِّي بما يُرَى فحِينَئذٍ يُبْهَتُون.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَرُونِي﴾ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [يا أهلَ مَكَّةَ] بناءً على أنَّ كُلَّ خِطاب في سُورةٍ مَكِّيَّة يَتعلَّق بالكُفَّار فالمُراد به أهلُ مكَّةَ، والصواب: أنَّه عامٌّ؛ ويُمكِن حتى الآنَ أن نَقول بهذا التَّحدِّي في عصرِنا الحاضِر، والأَمْر هنا في قوله تعالى: ﴿فَأَرُونِي﴾ لِلتَّعجيز والتَّهديد.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ غيره؛ أي: آلهتكم حتى أَشرَكْتُموها به تعالى] يَعني: أَروني ماذا خَلَقوا، فإذا أَرَيْتُموني أنَّها خَلقَت شيئًا، فإنَّه قد يَكون عُذْرًا لكم في تَشْرِيكِها مع الله تعالى في العِبادة، أَمَا والأمر ليس كذلك ولا يُمكِن أن يُوجَد خالِقٌ سِوى الربِّ عَزَّ وَجَلَّ، فإنه لا يَجوز أن يُعْبَد معه غيرُه؛ لأنَّه إذا أَقرَرْتم بأنه لا خالِقَ إلَّا الله تعالى يَجب أن تُقِرُّوا بأنَّه لا مَعبودَ إلَّا الله تعالى، وأنه كما أَقرَرْتم بالربوبية يَجب أن تُقِرُّوا بِالأُلُوهِيَّة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَاذَا خَلَقَ﴾ يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [(ما) استِفْهامُ إنْكار مُبتَدأٌ، و(ذا) بمَعنَى (الذي) بِصِلتِه خبَرُه، و(أَروني) مُعَلَّقٌ عَنِ العَمَل، وما بعده سَدَّ مَسَدَّ المَفعولَيْن].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أَعربَه المُفسِّر إعرابًا صحيحًا، ونَقول: (ما) اسمُ استِفْهام و(ذا) اسمٌ مَوْصول مَبنيٌّ على السكون في محَلِّ رَفْع، و﴿خَلَقَ﴾ فِعْلٌ ماضٍ، والجملة صِلة المَوْصول لا محَلَّ لها مِن الإعراب، والعائِد محذوف، والتقدير: ماذا خلقَهُ الذين مِن دونِه، والجُملة ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ جُملة استِفْهام مُعلَّقَة عَن عمَل ﴿فَأَرُونِي﴾.

وقوله: [وما بعدَه سَدَّ مَسَدَّ المَفعولين] هذا إذا قُلْنا: إنَّ الرؤيا بمَعنَى العِلْم، أمَّا إذا قُلْنا: إنَّ الرُّؤيا بمَعنَى: رُؤيَة البصَر، فإنَّ ما بعده سَدَّ مَسَدَّ مَفعولٍ واحِد فقَط.

وقوله تعالى: ﴿مَاذَا﴾: (ما) أَعْرَبَها على أنَّها غير مُلغَاة، ويَجوز إلغاؤُها، بل قد يُقَال: إن إلغاءَها أَوْلى؛ لأنك إذا أَلْغيتَها جعَلْت ﴿مَاذَا﴾ مَفعول مُقدَّم لِـ﴿خَلَقَ﴾ وحِينئذ لا نَحتاج إلى هذا، والأصل عدمُ الحَذْف، وإلغاؤُها لَه وجهان: إمَّا أن تَكون (ما) اسمَ استِفهام و(ذا) زائِدة، أو تَقول: (ماذا) جميعًا اسمُ استِفْهام.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ أي: مَن سِوى الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا التَّحدِّي وكلُّ تحدٍّ في القرآن لا يُمكِن أن يَكون مَوجودًا؛ لأنَّه لو كان الشيء مُمكِنًا لكان التَّحدِّي لَغوًا لا فائِدةَ فِيه.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بَلِ﴾ للانتِقال ﴿الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ بَيِّن بإِشْراكِهم وأنتم مِنْهم] يَعنِي: أنَّ الأمرَ واضِحٌ، وأنَّه لا خالِقَ إلَّا الله تعالى، وأنه لا يُمكِن أن يُوجَد أحَد يَخلُق، ولكن استِمْرار المُشرِكين في شِرْكهم يُعتبَرُ ظُلمًا وضلالًا مُبينًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ﴾ أي: المُشرِكون الذين أشرَكوا مع الله تعالى في العِبادة مع أنَّهم مُؤمِنون بأنَّه لا شريكَ له في الخَلْق.

وقوله تعالى: ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بَيِّن] وكلِمة (مُبين) تَأتِي بمَعنى: بَيِّن، أي: ظاهِر، وبمَعنَى: مُظهِر؛ لأنها مُشتَقَّة من (أَبانَ) الرُّباعِيِّ، و(أَبان) الرُّباعِيُّ يَأتي مُتعَدِّيًا، ويَأتي لازِمًا، فيَأتي (أَبانَ) بمَعنَى: (بان)، أي: ظَهَر، وحينئذٍ يَكون لازِمًا، ويَأتي بمَعنَى: (أَظهَر) أَبان الشيءَ: أَظهَرَه، وحينَئِذٍ يَكون مُتعدِّيًا، وفي هـذه الآيةِ: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ مِن اللازِم؛ ولهذا فسَّرها بقوله: [بَيِّن].

ومثاله من المُتعَدِّي في القرآن الكريم؛ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ يَعنِي: البَيِّن بنَفْسه المُبين لِلحقِّ، وكذلك: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾؛ أي: مُظْهِر.

فالحاصِلُ: أنَّ (مُبين) لا يُظَنُّ أنها دائِمًا مُتعدِّيَة، فقد تَكون لازِمةً بمَعنَى: بَيِّن،

وقد تكون مُتعدِّية بمَعنَى: مُظْهِر.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الاستِدلال بِتوحيد الرُّبوبية على توحيد الأُلوهية؛ لِقولِه تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾، يَعنِي: مَخْلُوقه، وهم يُقِرُّون بأنه خَلْقُ الله تعالى، فإذا أَقَرُّوا به يَلزَمُهم الإقرار بِتوحيد الأُلوهية، وعلى هذا فنَقول: يُؤخَذ مِن هذه الآية الاستِدلالُ بتوحيدِ الربوبية على تَوحيد الأُلُوهية، ولهذا نَظَائِرُ في القرآن؛ مِنها قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١]، فقال تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ كأَنَّه يَسْتَدِلُّ بكَونِه ربًّا خالِقًا على أَنَّه يَجِب أن تَكُون العِبَادَةُ له وَحْدَه، وهذا دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ مُلْزِم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الاسْتِـدْلَال بالأظْهَر على ما يُنْكِره الخَصْم، فإنَّ هَذَا اسْتِدْلال بأَمْر ظاهِر وَاضِح على أمرٍ يُنكِرُه الخَصم، وهو إنكار انفِراد الله تعالى بالأُلُوهِيَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: استعمالُ التَّحدِّي في المناظرة، لِقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ أولَئِكَ المُنْكِرين لِتوحِيد الأُلُوهية في ضَلال، أَنَّهم ظَالِمون وفي ضَلَالٍ مُبِين؛ لِقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: عَجزُ جَمِيعِ الأَصْنامِ المعْبُـودة أن يَخْلُقُوا مِثْل خَلقِ الله تعالى؛ لِقوله تعالى: ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾، وإذا كانت عاجِزةً عنِ الخَلْق كانت غيرَ مُستَحِقَّةٍ لِلعبَادة، قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ زِدْ على ذلك: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].

الآية (١٢)

قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان:١٢].

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾؛ منها: العِلْم والدِّيانة والإِصابة في القول، وحِكَمُهُ كثيرةٌ مَأْثُورة].

قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ الجُمْلة هذه مُؤَكَّدة بثلاث مُؤكِّدات هي اللَّام و(قَدْ) والقسَم.

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَا﴾ أي: أَعطَيْنا، وهذا الإعطاءُ إعطاءٌ كَوْنِيٌّ، أي: آتاه الله تعالى الشيءَ إيتاءً كونِيًّا.

وقوله تعالى: ﴿لُقْمَٰنَ﴾ هو اسمُ رجُل، وأكثرُ أهلِ العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ على أنه رجُلٌ أَعطاه الله تعالى حِكْمةً ودِرايةً في الأمور وليس نَبيًّا.

قال ابنُ كَثير[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أكثرُ الناس على أَنَّه ليس بِنَبيٍّ، ويُروى عن عِكْرمةَ[(٢)] -إن صَحَّ عنه- هكذا قال: إنه نَبيٌّ. ولكن الصحيح أَنَّه ليس بِنَبيٍّ، وإنما هو رجل حَكيم ذُو أَمْرٍ رَشيد، أَعطاهُ اللهُ تعالى هذه الحِكْمةَ، كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٩٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ٥٤٩).

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ الحِكْمة في الأصل هي مُوافقَةُ الصواب.

وبمَعنَى هذا قولُهم: إنَّها وَضْعُ الأشياء في مَواضِعِها، فصَاحِبُ الرأيِ الرشِيد والتَّصرُّفِ السَّدِيد هذا يُعْتَبَرُ حَكِيمًا؛ لأَنَّه يَضَع الأشياءَ في مَواضِعها؛ وهما بمَعنًى واحِد؛ لأن مُوافقَة الصواب هو وَضْع الشيء في مَواضِعه.

يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [منها العِلْم والدِّيانة والإِصابة في القول] الأوَّل: العِلْم تُنال به الحِكْمة، والثاني: الدِّيانة حِكْمة، والثالِث: الإصابة في القول أيضًا حِكْمة، وكذلك الإصابة في الفِعْل حِكْمة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وحِكَمُه كثيرةٌ مَأْثورة، كان يُفتِي قبلَ بِعْثَة داودَ، وأَدرَك بِعثَه، وأَخَذَ عنه العِلْم، وترَكَ الفُتْيا، وقال في ذلك: أَلَا أَكتَفي إذا كُفِيت. وقيلَ له: أيُّ الناس شَرٌّ؟ قال: الذي لا يُبالي إن رآه الناس مُسِيئًا] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كُفِيت] هذه مِن الحِكْمة، فإنَّ الإنسان إذا كُفِيَ يَكتَفي؛ لأنه إذا كُفِيَ ثم عَمِل بما كُفِيَ فيه لم يَكُن مِنه إلَّا إضاعة الوَقْت والتعَب.

وأمَّا قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيُّ الناس شَرٌّ؟ فقال: الذي لا يُبالي إن رآه الناس مُسيئًا] هذا قد يُنازَع فيه؛ لأن هذا الذي لا يُبالي إن رآه الناس مُسِيئًا يُعتبَر فاقِدَ الحَياءِ فقَطْ، ولا يُعتبَر شرَّ الناس، بل شرُّ الناس -في الواقِع- هو الذي يُشرِك بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ هذا أَظلَم الناس فيَكونُ شرَّ الناس.

ثُمَّ إن هاتين الجُمْلتين قد تكون صحيحة إلى لُقمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد تكون غير صحيحة، يَعنِي: لا يُجزَم بها؛ لأنه ليس هناك سَنَد صَحيح إلى لُقمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مُتَّصِل، ولم يُخْبِر النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بذلك عنه، ومِثْلها جميع الأخبار السابِقة إذا لم تَكن

عن طريق الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنَّه يُنْظَر فيها؛ لأنَّها تأتينا بِغير إسناد إِذْ تُؤْخَذ عَن أهلِ الكِتاب، وأهلُ الكِتاب غَيرُ مَأْمُونِين.

مَسأَلة: ما تَوجيهُ قوله ﷺ: «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ»[1]، ومَن كان خارِج بني إسرائيلَ فما حُكْمه؟

الجَوابُ: إن بني إسرائيلَ عِندهم كِتاب، وأَثارةٌ مِن عِلْم، وإلَّا غيرهم قد لا تَجِد عنده شيئًا، ولكن كل الأحاديث عمَّن سبَقَ لا تَخلو مِن ثلاثة أحوال كما هو مَعروف: إمَّا أن تُوافِق الشَّرْع، أو تُخالِفه، أو لا يَكون فيها مُوافَقة ولا مُخالَفة؛ فما وافَق الشَّرْع فهو مَقبول، وما خالَفَه فهو مَردود، وما لم تَكُن فيه مُوافَقة ولا مُخالَفة فإنه لا يُصَدَّق ولا يُكَذَّب.

قال: [﴿أَنِ﴾ أي: وقُلنا له: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ على ما أَعطاك مِن الحِكْمة].

فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ ثُمَّ قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾؛ ولو أنَّ أحَدًا قال: إنَّ قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ تفسير للحِكْمة يَعنِي ﴿أَنِ﴾ هُنا تَفسير الحِكْمة لم يَكُن بعيدًا.

أمَّا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيَرى أنها مَفْعُولٌ لِقَولٍ مَحذوف تَقديره: وقُلْنا له: أنِ اشْكُرْ لله. يَعنِي: على ما آتاك مِن الحِكْمة.

أمَّا على الاحتِمال الأوَّل الذي هو ظاهِر القرآن ولا يَحتاج إلى تَقدير، فالأَمْر ظاهِر أنَّ شُكْرَ نعمةِ الله تعالى مِن الحِكْمة، بل هو رأسُ الحِكْمة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٦١)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وقوله تعالى: ﴿ٱشۡكُرۡ لِلَّهِ﴾ اللَّام هنا لِلاختِصاص والاستِحقاق؛ لأنَّه لا يَختَصُّ بالشُّكْر المُطْلَق، ولا يَستَحِقُّ الشُّكر المُطلَق إلَّا الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

والشُّكْر: هو القيام بطاعة المُنعِم اعتِرافًا بالقَلْب، وثَناءً باللسان، وطاعةً بالأركان.

فمُتَعَلَّقُ الشُّكْر ثلاثة: اللسان، والقَلْب، والجَوارِح، وسببُه واحِد: وهو النِّعْمة؛ ولهذا كان بينه وبين الحَمْد عُمُوم وخُصوص:

فمِن جِهَة السَّبَب الحَمْدُ أعَمُّ، ومِن جِهَة المُتعلَّق الشُّكْرُ أعَمُّ، وذلك لأن الحَمْد سببُه أمران: كَمالُ المَحْمُود وإنْعام المحْمُود؛ ولهذا تَحْمَدُ الله عَزَّوَجَلَّ على كَمالِه، وتَحْمَدُهُ على إنْعامِه.

ولكنَّ الحَمْدَ مِن حَيْث المُتعلَّق يَختَصُّ باللسان فقط، أمَّا الشُّكْر فإنَّه من حيث السبَب أَخصُّ؛ لأنَّه لا يَكون إلَّا في مُقابَلَةِ نِعْمة، لكن مِن حيث المُتعَلَّق أعَمُّ يَكُون بِالقلْب واللِّسان والجوارِح، وعليه قولُ الشاعِر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا[1]

وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِ﴾ قُلْنا: إنَّ اللام هنا للاختِصاص والاستِحقاق، فيَجِب على العَبْد أن يُخْلِص الشُّكرَ له، وأن يَعتَقِد بقلبِه أنَّه لا يَستَحِقُّ الشُّكْرَ المُطلَقَ إلَّا اللهُ تعالى.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ﴾؛ لأنَّ ثواب شُكْرِه لَه ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بالنِّعمة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن خَلْقِه ﴿حَمِيدٌ﴾ مَحْمُودٌ في صُنْعِه].

---

(١) غير منسوب، وانظره في غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦)، والفائق للزمخشري (١/ ٣١٤).

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ الجُملةُ هذِه شَرْطِيَّة، فِعْل الشرط فيها مَجزوم بـ(مَن)، وجواب الشرط: جُملةُ قولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، و(إنَّما) أداة حَصْر، و﴿يَشْكُرُ﴾ فِعْل مُضارع؛ وجواب الشَّرْط هو الجُملة: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، لا قوله تعالى: ﴿يَشْكُرُ﴾ فقط.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ كيف قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ ثُمَّ قال: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؟ قد يُقال: إن المُتوقَّع أن يَقول: ومَن يَشكُر فإنما يَشكُرُ اللهَ؟

ولكن نَقول مَثلَما قال المُفسِّر: إن مَعنَى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: أنه يَعُودُ ثَوابُ الشُّكرِ إليه، فهو لَمِصلحتِه، وليس الشُّكْر يَعود إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيَنتَفِعُ به؛ لأَنَّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يَنتَفِع بالطاعة، ولا يَتَضَرَّرُ بالمَعصية، وإنما يَعود إليك أنت نَفْسك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ وهو ضِدُّ الشُّكْر.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ غَنِيٌّ عنه إذا كفَرَ نِعمَة الله تعالى، و﴿حَمِيدٌ﴾ فَعِيل بمَعنَى: مَفْعُول، ويَجوز أن يَكون ﴿حَمِيدٌ﴾ بمَعنَى: فَاعِل حَامِد، فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مَحْمُودٌ وحَامِدٌ؛ لأَنَّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَصِفُ مَن يَستَحِقُّ الصِّفاتِ الكَامِلَةَ بِما يَسْتَحِقُّه؛ ولهذا أَثنَى على أنبيائِه وعلى أَوْليائِه، وهذا حَمْدٌ لهم، وهو أيضًا مَحْمُود مِن عِبادِه، فهو فَعِيل بمَعنَى: فَاعِل، وبمعنى: مَفعول.

ووجهُ ارتِباط جملة جواب الشرط: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ بالشرط ظاهِر، يَعنِي: مَن كفَر فإنَّه لن يَضُرَّ الله تعالى، ولن يَنقُص مِن مُلكِه؛ لأَنَّه غَنِيٌّ، وكذلك لن يَكون في ذلك قُصُورٌ مِن حِكْمته؛ لأنه جَلَّوَعَلَا حَمِيد، فإيجادُ الشاكِرين مِمَّا يُحْمَدُ الله عليه، وإيجاد الكافِرين مِمَّا يُحمَد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليه، ولولا هذا ما عُرِف

قَدْرُ الشُّكْر، ولا عُرِف أيضًا مَضَرَّةُ الكُفْر، فلولا هذا لكان النَّاس على حَدٍّ سواءٍ لا يَتميَّز فيهِم الطَّيِّب مِن الخَبيث.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ الغَنِيُّ مِن أسماء الله تعالى، والحَميد مِن أسمائِه أيضًا.

وقول المُفَسِّر: [﴿حَمِيدٌ﴾ مَحمود في صُنْعه] هذا قُصُور، فـ﴿حَمِيدٌ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها: [مَحمود في صُنْعه]، والصواب أنَّه مَحْمُود في صُنْعِه وشَرْعِه، وفي جميع صِفاتِه فهو مَحمود على صِفاتِه الكامِلة، وعلى أفعالِه وعلى شرْعِه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ مِنَّةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على لُقْمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بإعطائِه الحِكْمة؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الحِكْمة قد يَنالُها مَن ليس بِنَبِيٍّ؛ لأنَّ لقمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على قول الجمهور ليس نَبِيًّا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وجوبُ الشُّكْرِ لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ شُكْرَ الله تعالى مِن الحِكْمَة؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾، هذا مِن تفسير الحِكمة، والشُّكْر لله لا شكَّ أنَّه مِن الحِكمة؛ لأنَّ الحِكمة هي مُوافَقة الصَّواب أو وَضْعُ الشَّيْءِ في مَوضِعِه، ولا شَكَّ أنَّ شُكْرَ الله تعالى مُوافِقٌ للصَّواب، وأنَّهُ وَضْع لِلشَّيْء في مَوْضِعِه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الشَّاكِرَ ثوابُه لِنَفْسِه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ كُل مَن مَنَّ الله تعالى عَلِيه بالحِكمة فعليه أن يَشْكُرَ الله تعالى أكثرَ مِن غيرِه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الله تعالى لا يَنْتَفِعُ بطاعةِ الطائِعين، بل طاعَةُ الطائِعين لِأنْفُسِهِم.

ويَتفرَّعُ على هذِه الفَائِدةِ: أنَّ أمر الله عَزَّوَجَلَّ عبادَه بِطاعتِه أو بِعبادتِه أنَّه مُجَرَّدُ إحسانٍ إليهم؛ لأنَّ هذا النَّفْعَ لهم كَما لو كُنتَ تُربِّي الصغير، وتَقول: كُلْ مِن هذا الطعامِ، والبَسْ هذا الثوبَ، واشرَبْ هذا الماءَ. فأنت تَأمُرُه، لكن الأَمْر لِمصلحَتِه هُو.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الكافِر لا يَضُرُّ الله تعالى شيئًا؛ لقَوْلِه تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، وفي الحديث القُدسيِّ: «**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا**»(١).

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ هذين الاسْمَين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهما: الغَنِيُّ والحَميد، وإثبات ما تَضمَّناه مِن صِفَة وهي: الغِنَى والحَمْد، سواء كان حامِدًا أو مَحْمُودًا.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: اتِّصافُ الله تعالى بالصِّفَة المُركَّبَة مِن الوَصْفَيْن وهُما: الغِنَى والحَمْد، فليس كل غنيٍّ يُحْمَد، وليس كُل مَحْمُودٍ غنِيًّا، أمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فقد اجْتَمَع في حَقِّه الغِنَى معَ الحَمْد؛ وذلك لِكَمال جُودِه وكرَمِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (١٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿و﴾ اذْكُرْ إِذْ ﴿قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ﴾ تَصْغِيرُ إِشْفَاق ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ﴾ بالله ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فرجَع إليه وأَسْلَم].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿و﴾ اذكُرْ إِذْ ﴿قَالَ﴾] أفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ (إِذْ) مَفعولٌ لِفِعْل محذوف، أو ظَرْف مُتعَلِّق بفِعْل محذوف، يَعنِي: اذكُرْ هذا الوقتَ الذي قالَ فيه لُقمانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابنِه.. إلى آخِرِه.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ جُمْلة: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ حاليَّة، حالٌ مِن فاعِل ﴿قَالَ﴾ وهو لُقمانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يَعنِي: والحال أنه يَعِظُ فيه ابنَه، والمَوْعِظة هي التَّذْكير المَقرُون بالتَّخويفِ أو التَّرْغيب.

قال له: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إنه تَصْغِير إشفَاق] وهو كذلك، وليس تصغِيرَ احْتِقَار؛ لأنَّ المَقام لا يَقتَضيه، ولكنَّه تَصغِير إشفاقٍ عليه.

وقوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ هذا مَقولُ القول في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أي: لا تَجعَلْ معه شَريكًا في العِبادة، وفي الخَلْق والتقْدِير، وفي أسمائِه وصِفاتِه؛ لأن التَّوْحيد -كما هو مَعروف عند أهل العِلْم- يَنقسِم إلى ثلاثةِ أقسام: تَوحيدُ الرُّبُوبِيَّة، وتَوحيدُ الأُلُوهِيَّة، وتَوْحِيدُ الأَسْماءِ والصِّفَات.

فالشِّرْك بالله تعالى: أن يُشرِكَ بالله تعالى في أَحَدِ هذه الأقسام، فمَنِ اعتَقَد أنَّ معَ الله تعالى خالِقًا فهو مُشْرِك في الربوبية، ومَنِ اعتقدَ أنَّ معَ الله تعالى مَن يَسْتَحِقُّ أن يُعْبَد فهو شِرك أُلوهية، ومَن اعتَقَد أن لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُنازِعًا في أسمائِه وصِفاتِه فهو مِن باب الشِّرْك في الأسماءِ والصفات.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ﴾ بالله ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾] أكَّد لُقمانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كون الشِّرْك ظُلْمًا بِمُؤكِّدَيْن وهما: (إنَّ)، واللَّامُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ الجُملة تَعليلٌ لِما قبلَها، وهو قوله تعالى: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾، فجمَعَ له لُقمانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بَيْن الحُكْم والحِكْمَة، فنَهاه عن الشِّرْك، وبيَّنَ أنه ظُلْم عَظيم، والظُّلْم في الأصْل النَّقْص، ومِنه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣] أي: لم تَنْقُص.

وأمَّا في الشَّرْع فإنَّ الظُّلم: هو نَقْص كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وعلى هذا فالشِّرْك نَقْصٌ في حقِّ الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ هذا مِن باب تَعظِيم الشِّرْك والحَذَرِ منه، وَلا يُوجَد أَعْظَمُ ظُلْمًا مِن الشِرك؛ لأنه مهما كان فإنَّ ظُلْمَ الشِّرْك أعْظَمُ مِن كُلِّ شيء، فالذي خلَقَك أَوْجدَك مِن العدَم، والذي أَمدَّكَ بما تَقومُ به حياتُك هو الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والذي أَعدَّكَ وجعَلَك مُستعِدًّا لِمَا تَنتفِعُ به هو الله عَزَّوَجَلَّ، فهو المُوجِد المُعِدُّ المُمِدُّ، وإذا كان كذلك فلا يُوجَد أحَدٌ أعْظَمُ حَقًّا عليك مِن الله تعالى، فإذا نَقصْتَ اللهَ تعالى حقَّه كان ذلك أَعظمَ الظُّلْم؛ ولهذا مَن كان إليك أكثرَ إحسانًا فإن إساءَتَك إليه تَكونُ أعظَمَ مِن غيرِه، فإنَّ الذي يُحسِن إليك ويُعطِيك ويُرْبِيك ثُم تُسيءُ إليه أعظَمُ مِمَّا لو أَسأْتَ إلى أحَدٍ لم يَكُنْ مِنْه ذلك.

قال: [﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فرَجعَ إليه وأَسْلَم] الذي رجَع الابن.

وعلى كُلِّ حال: لا نَعرِف هل هذه المَسأَلةُ كَما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ أنَّ الابن كان مُشْرِكًا، فلَمَّا وعَظَه أبُوه رجَع فأَسلَم، أو أنَّه -أي: الابن- خافَ عليه أبوه مِن الشِّرْك فنَهاه عنْه، وبَيَّنَ لَه أن الشِّرك لَظُلم عظيم.

ولا يَلزمُ مِن النَّهيِ عنِ الشِّرْك أن يَكونَ الإنسان قد أَشرَك؛ لأنَّه قد يُنْهَى عن الشيء خوفًا مِن وقوعِه لا رَفْعًا لما وقعَ مِنْه، وهذا أمرٌ مَوْجود مُطَّرِد في القرآن، وفي السُّنَّة، وفي كلامِ الناس، فتَقول لِلرَّجُل مثلًا: لا تُصاحِبِ الأشرار. فلا يَلزَم مِن هذا النهيِ أن يَكون مُصاحِبًا لهم، فقد يَكون نهيًا لِما يُخاف أن يَحصُل مِنه.

فكلِمة ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ ليسَت صريحةً في أنَّ الابن قد وقَع في الشِّرْك حتى يُقال: إنَّه رجَع وأَسلَمَ، بل قد يَكونُ أبوهُ نهاهُ عن الشِّرْك خوفًا مِن أن يَقعَ فِيه، والعِلْمُ عِنْد الله تعالى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: مُلاطَفَة المُخاطَب لاستِدْعاء قَبُولِه لما يُوَجَّه إليه؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾، فإنَّ هذا مِن بابِ المُلاطَفَة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَهَمِّيَّـةُ هذه النَّصِيحةِ؛ لأنَّها صدَرَت مِن أبٍ مُشْفِـق إلى ابنِه، فإذن: هي مِن أهَمِّ ما يَكُون مِن الوصَايَا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تحريمُ الشِّرْكِ بالله تعالى؛ لِقولِه تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾، ويَكفي أن نَقول: تَحريم الشِّرْك؛ لأنَّ الله تعالى يَقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الأعراف:٣٣]، وقد يَقول قائِل إذا سَمِعَني أَقول: إنَّ الشِّرك حَرام. قال: لا يَكفِي أن يَكون حرامًا؛ ونَقول: بل يَكفِي؛ لأنَّ الله تعالى قال هذا، لكن هُو أشدُّ المُحرَّمَات إثمًا وظُلْمًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وُجوبُ توحيدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأنَّ النهيَ عن الشِّرْك يَقْتَضي وُجُوب التوحيد.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الشِّرْك ظُلْمٌ عَظِيم؛ لِقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّه ينبَغي قَرْنُ الأحْكَام بِعِلَلِهَا لِلفوائد التي سَبقَتْ، ويُؤْخَذ ذلك من قَولُه تعالى: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ مِن أهمِّ ما تَنْبَغِي العِنَايَةُ به التَّرْكِيزُ على التَّوحيد وعَدَم الشِّرْك؛ لأنَّه ذَكَر: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ فبَدَأ به قَبْل كُلِّ شَيْء، وكان الرسول ﷺ إذا بَعَثَ أحَدًا يَدْعُو إلى الإسْلَام يَأمُره أوَّلَ ما يَبدَأُ بِه الدَّعْوَة إلى التوحيد[1]؛ لأنَّها هي الأَصْل، وإذا لم يَكُن عِنْد الإنسان تَوحِيد فَمَنْ يَعْبُد؟!

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فلا بُدَّ أن يُركَّز على التوحيـد، ولكن لِكُلِّ مَقام مَقال، فإذا كُنَّا في بلـدٍ يَكْثُر فيها الشِّرك فإنه يَنبَـغي أن يَكُونَ كَلامُنَا في التوحيد أَكْثَرَ، وإذا كُنَّا في بَلدٍ بالعكس لكن عِنْدَهُم مُخالَفَات في أمورٍ أخرى يَنبَغي أن نُركِّز عليها أكثَرَ، وذلك مَأخوذٌ مِن طريقةِ القرآن، فَفِي مكَّةَ كانَ التَّرْكيز على التوحيد في آياتِ القرآن أكثَرَ، وفي المدينة كان التركِيز على المُعَامَلات وفُرُوع العِبادات أكثَرَ، فَلِكُلِّ مَقامٍ مَقال.

ولذلك قد يَعْتَرِض بعض الناس، ويَقول: لِمَاذا لا تُكثِرُون الكلام في التوحيد في المَمْلكة السُّعُودية مثَلًا، ولاسِيَّما في نَجْدٍ؟!

نَقول: إنَّ الكلامَ في التوحيد لا شَكَّ أنَّه مُهِمٌّ؛ لأنَّه أهَمُّ الأشياء، لكِن إذا كُنَّا في قَومٍ قد وَحَّدُوا -ولله الحَمْد- وعرَفوا الأمر وهم بَعِيدُونَ عن الشِّرْك، وإنَّما يُخالِفُون في الأمورِ الأخرى دُونَ الشِّرْك، فَنَحْنُ نُركِّز على ما فِيه هذه المُخَالَفَةُ، على أنه لَو طَرَأَ مَا يَكْلُمُ التوحيد يَجِب أن يُرَكَّزَ عليه، كما يُوجَد في الآوِنَة الأخِيرَة مِن ظُهُور بَعض الأشياء الشِّرْكِيَّة والبِدْعِية مِن هـذه الكُتَيِّبَاتِ الصِّغَار التي فيها أذْكَار وأَوْرَاد كُلُّهَا كَذِب أو غالبُها كَذِب، فيَجِب أن يُرَكَّز عليه، كذلك أيضًا وُجِد تَمائِمُ تُعلَّق، تَمائِمُ مِن النُّحَاس يُقَال: إنَّها تَنْفَع مِن الرُّومَاتِزْم، هذا أيضًا نوع مِن الشِّرْك، وكذلك أيضًا ما وُجِد مِن قَضِيَّة الدِّبْلَة وما يَتعَلَّق بها، فالرجُل يَكتُب اسمَهُ على خَاتَم امْرَأَتِه، وهي تَكتُب اسمَها على خَاتِم زَوجِها، ويَعتَقِدون أنَّ هذا يُوجِب المَحبَّة والاحْتِرام، كأنَّه رِباط، هذا أيضًا مِن الشِّرْك، وهو مِن التِّوَلَة، فإذا طَرَأَت مِثْل هذه الأمورِ يَجِب أن تُحـارَب، وأن يُركَّز عليها، وأن يُكْثَرَ القولُ فيها حتى لا تَنْتَشِر، فالمُهِمُّ أنه لِكُلِّ مَقامٍ مَقَالٌ كما قيل.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: توجِيـهُ المَواعِظ مِن الآباء إلى أَبْنَائِهم؛ لأنَّ هـذا مِن الحِكْمة؛

لِقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّه يَنبَغِي لِلإنسان الْمُوَجِّه أن يَقْرِن توجيهَه بالموعظة؛ لِقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾.

وهل يَكفِي مَثَلًا أن تَقُول لإنسان: هذا حرام، وهذا واجِب. أو يُنْظَر في حالِ الشخص؟

الجَوابُ: يُنْظَر في حالِ الشَّخْص، فمِن الناس مَن يَكْفِي أن تَقُول لَه: إنَّه حرام أو واجِب، وَيَمْتَثِل، ومِن الناس مَن لا يَكفِي أن تَقول: هذا حرام أو وَاجِب، حَتَّى تَقْرُنَ ذلِك لَه بِالمَوْعِظَة، فتَقول: اتَّقِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، اخشَ الله تعالى. مثلًا، كيف تُصِرُّ على هذا وهو مَعْصِية لله تعالى ورسولِه ﷺ. وما أَشْبَه ذلك.

فالمُهِمُّ: أنَّه لِكُلِّ مَقَام مَقَال، وكذلك أيضًا تَذْكُر ما وَرَد فِيه مِن الوعيد في القرآن والسُّنَّة، كما لو تَوَدُّ أن تُوَجِّه نصِيحة إلى رَجُلٍ مَغْمُور بالمعامَلة بالرِّبا هذا لا يَكفي أن تَقول: الرِّبا حرام؛ لأنَّه عارِف، فلا أحدَ يُشْكِل عليه أنَّ الرِّبا حَرَام لكِن يَحْتَاج إلى مَوْعِظة تُلَيِّنُ قَلْبَه لِلحَقِّ والتَّوبَة مِن البَاطِل.

• • ❁ • •

الآيــة (١٤)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان:١٤].

• • ◦ • •

ثُمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾، هذه الجُملةُ ليسَتْ مِن كلام لُقمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل هي مِن كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فهي مُعتَرِضَة بين كلام لُقمانَ الأوَّلِ، وكلام لقمان الثاني؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دائِمًا يقرُن حقَّ الوالِدين بحَقِّه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام:١٥١].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أَمَرْناه أن يَبَرَّهما] ففسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ الوَصِيَّةَ بالأَمْر، ولكنها أَخصُّ مِن الأمر المُطْلَق، فالوَصيةُ عهْدٌ بما ينبغي الاعتِناءُ به، ليسَت مُجرَّد أَمْر، بل هي عَهدٌ بما ينبَغي الاعتِناءُ به، ولا شكَّ أنَّ بِرَّ الوالدَين مما ينبغي الاعتناء به.

وقوله: [أن يبرَّهما] لو قال: (أن يُحسِن إليهما) لكان أَوْلى؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول في آية أخرى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف:١٥] ولكن المُفَسِّر فسَّره بالبِر؛ لأنَّ البرَّ من الإحسان.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ كُلَّما كَبُر الجَنِين كَانَ ذَلك أشدَّ وأعظَم،

فإنَّ الإنسان يجِد مِن نفسه أنَّه لو شَبِع وامتلأ بطنُه يتعب معَ أنَّ هذا الغـذاء يُمِدُّهُ بِالطَّاقَـة، فَكَيف بالجنـينِ الذي يملأُ بطنَـها ويأكُل مِن طاقتِها -لأنَّه يتغـذَّى مِن غِذائِها-؛ فيكون هذا أشدّ وأعظَم؛ لأنه جامعٌ بيْن الإثْقال وبيْنَ المُشاركة في الغِذاء؛ ولهذا تَحتاجُ المرأة الحامِل إلى غِذاءٍ أكثَرَ، ومِن ثَمَّ أَباحَ الشرعُ لها أن تُفْطِر في رمضانَ؛ مِن أَجْل ألَّا يَنْقُصَ الغِذاءُ عليها فتَتَعَب هِي ويَتَضرَّر الجَنين، وهذه مِن حِكمةِ الله عَزَّوَجَلَّ، كذلك أيضًا يَلحَـقها وَهَنٌ عِنْد الطَّلْق، فالطَّلْق يُؤْلِم ويُوجِع فليس بالأمرِ الهَيِّن؛ لأنَّ الطَّلْق -بإذنِ الله- يَأتي مِن أَجْلِ أن يَنْقِلَب الجَنين حتى يَسْتَعِدَّ للخُرُوج.

فإن وَضْعَ الجَنين في بَطْنِ أُمِّه: أنَّ رأسَه إلى جِهَة رأسِ الأُمِّ، ووجهُه إلى جِهَة ظهْرِ الأُمِّ، وظَهرُه إلى جِهَة بَطنِـها، فهو مُعَاكِسٌ لأُمِّه في الاستِقْبَال، وهذه حِكْمة؛ لأنَّه إذا كان وجهُـه إلى الظَّهْر صارَ الظَّهْرُ حاميًا لَه؛ لأنَّه عِظَام يَحْمِي وجهَ الجَنين، لو كان وجهُ الجنين إلى وجهِ أمِّه فليس هناك شيءٌ يَحمِيه، وكان أدْنَى ضَرْبة -مثلًا- أو شَيء تُصِيب وجهَه، لكن مِن حِكْمةِ الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه جعلَهُ هكذا.

ولذلك قال العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: لو ماتَتِ امرأةٌ كافِرة كِتابيَّة حامِلٌ بولدٍ مِن مُسْلِم تُدْفَن على جَنْـبها الأيسَر، إن أَمكَن أن تُدْفن وحدَها لا في مَقـابِرِ المُسلمين، ولا في مَقابرِ الكُفَّار فهو أَوْلى، فإنْ تَعذَّر، فإنَّها تُدفَن في مَقابرِ المُسْلِمين على جنبِها الأيسَرِ؛ لِيكُون الولَد على الجَنْب الأيْمن مُستَقبِل القِبْلَة.

فالطَّلْق يَحصُل عند انطِلاق هذا الولَدِ، هذا الولَدُ سيَنْقلِب عِند الوضْع لِأجْل أن يَكون رأسُه هو الأسْفَل حتى يَخرُج، وأوَّل ما يَخرُج مِن الجنين هو الرأسُ، وتَتألَّم مِن هذا الطَّلْقِ بِلا شَكٍّ، ثُمَّ عند الوَلَادة أيضًا تتألَّم ويَلحَقُها ضَعْف، ورُبَّما يَلحَقُها إغماء وتَعَب، وربما تَموت، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُذَكِّرُ الإنسان حالَ الأُمِّ في هذه الأحوالِ

التي كُلُّها أحوال ضَعْف على ضَعْف.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾؛ أي: ضعُفَت لِلحَمْل، وضعُفَت لِلطَّلْق، وضَعُفَت لِلولادة، ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾؛ أي: فِطامُه ﴿فِى عَامَيْنِ﴾].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِطامه]، لكن مُخرَجٌ مِنها مُدَّةُ الحَمْل؛ لأن الله تعالى قال في آية أُخرى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ فإذا أَسقَطْنَا أقلَّ مُدَّة الحَمْل سِتَّةَ أَشهُر بَقِي أربعة وعِشرون شهرًا، وهي عامَان.

و﴿عَلَىٰ﴾ هنا للاستِعلاء يَعنِي: وهنٌ مُضافٌ على وَهْن. مِثلما تَقول مثَلًا: وضَعْتُ كِيسًا على كِيس، ولَبِنَةً على لَبِنَة، وما أَشبَه ذلك.

الوهَن كلُّه بسبَب الحَمْل، ولكن ذاك عند نَشْئِه، والثاني عِند الطَّلْق، والثالث عند الولادة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، وقُلْنا له: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾] قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ يَعنِي: أنَّه لا يَنفصِل مِن أُمِّه إلَّا بعد عامَيْن، فيُضَاف إلى الحَمْل مُدَّة الفِصال، ففيها تعَب لا شَكَّ، فإنها تُرضِعُه وتَسْهَرُ لسَهَرِه، ويَتأَلَّم قلبُها لأَلَمِه، وتُصلِحُ شأنَه مِن تَنظيفِه، وتَنظيفِ ثيابِه، وحملِه عِند البُكَاء، وغيرِ ذلك، إذن فهي في تعَبٍ مِن حين يُحمَل إلى أن يُفصَل بعدَ ولادتِه في عامين.

ولم يَذكُرِ الله عَزَّوَجَلَّ في حقِّ الأبِ شيئًا؛ لِأَنَّ الأبَ فِي الغالِب يُتَّقَى ويُخْشَى، فلا حَاجَةَ إلى أن يُبيَّنَ ما يَنالُه مِن ابنِه حتَّى يَكُونَ حَافِزًا للابْن على القِيام بحقِّه،

لكنِ الأمُّ لَمَّا كانت ضَعيفَةً، ورُبما يَتهاوَن الإنسانُ بِحقِّها ذَكَرَ الله عَزَّوَجَلَّ مِن أحوالها ما يَكونُ سببًا لِقيام الابْنِ بِواجبِه.

وهذا تَرَوْنَه كثيرًا في القرآن، فالشيءُ الذي يُخشَى فيه التَّهاوُن يُؤَكَّد؛ مثال ذلك: الوصِيَّة والدَّيْن في التَّرِكَة، فالدَّينُ يُقَدَّم عَلى الوَصِيَّة بالإجماع، ومع ذلك ذَكَر اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الوصِية في آياتِ المَوارِيث قَبل الدَّيْن، وقدَّمها في الذِّكْرِ على الدَّيْن؛ لأنَّ الوَصِيَّـة حقٌّ قَد يَتَهاوَن بِه الوَرَثَة، والدَّيْن لا يَتَـهاوَن بِه الوَرَثَة، فوراءَه مَن يُطالِب بِه، وهو صاحِبُه، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يَدْعَم الأشياء التي يُخشَى فيها التَّهاوُن بِأوصافٍ تَحمِل على القِيام بما يَنبَغي أن يَقومَ به.

فهنا لَمَّا كانتِ الأُمُّ ضعيفةً، وكان الإنسان قد يَعتَدِي عليها وعلى حقِّها أكثَرَ ذَكَرَ الله تعالى مِن أسباب بِرِّهَا الموجِبَة ما لم يَذكُرْه في حقِّ الأبِ، وأَظُنُّنا كُلنا يَعلَم أنَّ الابن قَد يَعتَدِي على أُمِّه بالسَّبِّ والشَّتْم، وربَّما بالضَّرب، لكن على أبيه لا يَستَطِيع، ولا يَعتَدي عليه بِمِثْل اعتِدائِه على أُمِّه، وإذا لم يَقُم بحَقِّه فإنَّ أباه يَفرِضُ ذلك عليه؛ فلهذا ذَكَرَ الله تعالى هذه الصِّفاتِ في الأُمِ؛ لِيَكونَ حَثًّا لنا على القيام بحَقِّها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: عِنَاية الله عَزَّوَجَلَّ بمُعامَلةِ الوالِدين؛ ولهذا أَوْصَى بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَصِيَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه سبحانه أَرْحَمُ بالوالدين مِن أولادهما؛ لأَنَّ الله تعالى أَوْصى الأولاد بالوالِدين.

إِذَنْ: فهو أرحَمُ بالوالدين مِن الأولاد، كما قلنا في قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ

فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ [النساء:١١]: أنَّ في الآية دليلًا على أنَّ الله تعالى أرحمُ بالولَد مِن وَالِدَيْه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيانُ عِظَمُ حُقُوقِ الوالِدين؛ ولهذا جعلَها الله وَصِية، والوصية كما سبَقَ هي أن يُعْهَدَ إلى شَخْصٍ بأمْرٍ هَامٍّ، فهذا دليل على عِظَم حُقُوقُ الوالِدَيْن.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن يُذْكَر لِلمُخاطَب ما يَحْمِلُه على امتِثَال ما وُجِّهَ إليه؛ لقوله تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّه يَنبَغي تَقْوِيَةُ الجانِبِ الضعيف بما يُقَوِّيه، ويُؤْخَذ ذلك من قوله تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾، فإنَّ الله تعالى ذَكَر ما يَحْسُن للأُمِّ إغراءً لِلقِيامِ بِحقِّها، ولم يَذْكُر ما يَحْسُن للْأَب؛ لأن -كما قُلنا في التَّفسير- الأمَّ ضَعيفة تَحتاج إلى مَن يُقَوِّي جَانِبَها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ حَقَّ الأُمِّ أوجَبُ مِن حَقِّ الأَبِ، فالله تعالى ذَكَر ما تُعانيه الأُمُّ مِن المَشَاقِّ إشارةً إلى أنها أحَقُّ؛ لأنَّه بالنسبة للأبِ لا يَجِد كثيرًا من هذه المَشاقِّ، ولكن الأُمَّ هي التي تَجِد تِلك المَشاقَّ، صحيحٌ أنَّ الأبَ قد يَتحَمَّلُ مَشَاقًّا أُخرى مثل حُصُول النَّفَقَة، وما أَشبَه ذلك، لكن الألَمَ البدَنيَّ للأُمِّ لا يَكُون لِلأبِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه يَنبَغي للأُمِّ أن تَصْبِر على ما يَنالُها مِن مَشَقَّة الحَمْل؛ لأنَّه أمْرٌ طَبِيعِيٌّ؛ لِقوله تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾.

يَتفَرَّع مِن هذه الفائِدةِ: بيان خَطَأ بعضِ النِّسَاء اليوم اللاتي لا يَصْبِرْنَ على وَهْن الحَمْل، فتَجِد المرأة تَستَعمِل حُبُوبًا لِمَنْع الحَمْل، تَقول: لأنه يَلحَقهن مَشَقَّة. وما أَشْبَه ذلك، وبعض النساء يُحاوِلْن أن يَلِدْن عن طَرِيق العَمَلِيَّة، تَقول بأنَّه أهْوَنُ.

كل هـذا فِرَارًا مِمَّا جُبِلَت عليه المَرأة مِن الضَّعْف عند الحَمْـل، وعِند الطَّلْق، وعند الوِلَادة، نعَمْ إِنِ احتاج الأمر إلى عَمَلِيَّة هذا لا بأسَ بِه لِلضرورة، وإِلَّا فإِنَّه لا يَنبَغي ذلك؛ لأن هذا خِلاف ما فَطَرَ اللهُ تعالى عليه المرأة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ أقلَّ الحَمْل سِتَّةُ أَشْهُر، مِن قَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، وقد قال تعـالى في سورة الأحقـاف: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥]، فإذا أَسقَطْت عامين مِن ثلاثِين شَهرًا بَقِي سِتَّة أشهُرٍ.

وذَكَر ابنُ قتيبةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المعارِف): أنَّ عبد الملِك بن مَرْوانَ وُلِد لِستَّة أَشْهُر. وهو الخَليـفة المُحنَّك كما هو مَعْرُوف، ويَقول الخُبَرَاءُ في هذه الأُمـورِ: إنه إذا وُلِد لِستَّة أشهر يُمكِن أن يَعِيـش لكن لِسبعة أَشهُر قَد لا يَعِيش؛ وهذا حِكْمة لا نَعلَم عنها شيئًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: وُجـوب الشُّكْر لِلوالِدين كما يَجِـبُ الشُّكْر لله تعالى؛ لِقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ شُكْرَ الله تعالى مُقَدَّم على غيره؛ لأنَّه قَدَّمه في قولِه تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾، فقَدَّم الشُّكْرَ له على شُكْر الوالِدين مع عِظَمِ حَقِّهِما.

الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ مَرْجِـع الأمُورِ إلى الله تعـالى؛ لِقوله تعالى: ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾، وتقدِيمُ الخَبَر يَدُلُّ على الحَصْر؛ أي: أنَّه إلى اللهِ وَحْدَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: التحْـذِيرُ والتخْـوِيفُ مِن المُخالَفة؛ لأنَّ قوله تعـالى: ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ يَعـنِي: وسَأُحَاسِبُك أيها الإنسانُ، فَصِلَةُ هذه الجُملةِ بما قَبْلها أنَّها تُفِيدُ التهدِيد والتحذِير لِلمُخَالِف.

الآيــة (١٥)

• ● ◌ ● •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان:١٥].

• ● ◌ ● •

الضمير في قولِه تعالى: ﴿جَٰهَدَاكَ﴾ ضمير فاعِل يَعُود على الوالِدَين، ومَعنَى ﴿جَٰهَدَاكَ﴾ نَقول: لم يَذكُر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مَعناها، لكن مَعناها: بَذَلَا الجُهْد مَعك.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يَعنِي: على أن تَجْعَل مَعِي شَرِيكًا لا عِلْمَ لَك بِه.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ هو قَيْدٌ لِبَيَان الواقِع، وليس قَيْدًا احْتِرَازِيًّا؛ لأَنَّه لا يُمْكِن أن يُوجَدَ عِلْمٌ بأنَّ لله تعالى شَرِيكًا، وهذا كقولِه تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ [المؤمنون:١١٧].

فإن قال قائِل: ما فَائِدةُ هذا القَيْدِ، وقد عُلِم أنَّه لن يُوجَد؟

قلنا: الفائِدةُ فيه تَحْقِيق هذا الأَمرِ، حتى لا يُحَاوِل أَحَدٌ أن يَبحَث ويَطْلُب عِلْمًا أو بُرْهَانًا بأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له شَرِيك، فكأنَّه يَقول: هذا هو حقيقةُ الواقِع، وما كانَ حقيقةَ الواقعِ فلا يُمكِن أن يَتَخَلَّف، وهذا هو فائِدة قولِه تعالى: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَيْسَ﴾: ﴿مَا﴾ هذه يُحتَمَل أن تَكُونَ اسْمًا مَوْصُولًا، أي: الذي ليس لك به عِلْم، ويُحتَمَل أن تَكُونَ نَكِرَةً مَنصوبةً، أي: أن تُشْرِك بِي شَرِيكًا ليس لك بِه عِلْم.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ جوابُ الشَّرْط، وهو: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ إن جاهَداك فلا تُطِعْهما، وتَأَمَّلْ قولَه تعالى: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، ولم يَقُل: فلا تَبَرَّهُما، ولم يَقُل أيضًا: فاعْصِهِما؛ لِأَنَّ كَلِمة ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أهـوَنُ في النَّفْس مِن كلِمة: فاعْصِهما؛ ولهذا كان قولُ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم:٤٣] أهونَ مِن قوله: يا أَبتِ إنك جاهِل بما عندي؛ لذا قال تعالى: ﴿إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾؛ لأنَّ نفيَ الكَمال أهونُ مِن إثْبات النَّقْص على النُّفوس.

ويُذْكَر أنَّ أحـدَ الملوك رأَى في المَنام أنَّ أسنـانَه قد سَقَطَت، فقال: ادعوا لي مُعَبِّرًا يُعَبِّر هـذه الرؤيا. فجاؤُوا برجُل لِيَعْبُرَها، فقَـصَّ عليه الرؤيا، فقال: يَموتُ أهلُك. فلَمَّا قال: يَموتُ أهلُكَ. فَزِع المَلِك وهَلَع وقال: اجلِدُوه، فَجَلَدُوه وانصرَف. قال: أَعطوني غيرَه فجاؤُوا برجُلٍ آخَرَ، فقَصَّ عليه الرؤيا، فقال: المَلِك يَكون أَطولَ أهلِه عُمُرًا. فأَكْرَمَه وأَسْبَغ عَليه النِّعَم، ومعنى ذلك مُتقارِب، فإذا كان أطولَهم عُمُرًا فمَعناه: أنهم يَموتون قبله.

والحاصِلُ: أنَّ التعْـبِير له أثَرٌ على النَّفْس، فكلمة: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أهوَنُ مِن كَلِمة: اعْصِهما. ثُمَّ قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ لم يَقُل: لا تَبَرَّهما، أو: لا تَقُمْ بحَقِّهما، فحَقُّهما واجِب، ولو أَمَرَاك بالشِّرْك فإذا كان الوالِـدان لهما حقٌّ واجِب ولو أمَراك بالشِّرْك، فكيف إذا أمَراك بما دُونَ الشِّرْك؟! ولهذا حقُّ الوالدين ليس بالأَمْر الهَيِّن.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾؛ لأنَّه لا طاعةَ لِمَخْلوقٍ في معصِيةِ الخالِق، فإنَّ حقَّ اللهِ أوجَبُ مِن حقِّ الوالِدين، هو الذي أَوْجَبَ لهما الحَقَّ فكيف نُضيع حقَّه مِن أجْلِ حقِّهما؟!

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ مُوافَقَةً للواقِع] هذا تَفسيرٌ لِقولِه: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: أن هذا هو الأمرُ الواقِعُ ليس لك به عِلْم.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾؛ أي: بالمَعروف: البِرِّ والصِّلَة]، قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾، كلِمة ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ ظَرْفِية لا شَكَّ فيها، ويُحتَمَل أن يَكون المُراد بالدنيا شُؤُونها؛ يَعني: في أُمُورِ الدنيا صاحِبْهما مَعْرُوفًا، أمَّا في أمُورِ الدِّين فلا تَتَعدَّى ما أمَرَكَ اللهُ بِه، ويُحتَمَل أن يكون في الدنيا؛ أَيْ: في هذه الدُّنيا، لكن المعنى الأوَّل أبلَغُ؛ لأنَّه مِن المَعلوم أنَّ المُصاحَبة بَيْن الوالِدين والوَلَد إنما تكونُ في الدنيا، فلا حاجَةَ إلى التقدِير، فالظاهِر أنَّ المَعنَى ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: فيما يَتعلَّق بأمُورِ الدُّنْيا صاحِبْهما مَعروفًا.

قال المُفَسِّر: [بالمعرُوف] ومعنى هذا التَّفسيرِ أنَّ ﴿مَعْرُوفًا﴾ مَنْصُوبٌ بِنَزْعِ الخافِض، والنصبُ بِنَزْعِ الخافِض مع غَيْر (أنَّ) و(أَنْ) ليس بِمُطَّرِد، بل هو شاذٌّ، وإذا كان كذلك فإنَّه لا يَنبَغي أن يُحال القرآن عليه، ولو قيل: إنَّ ﴿مَعْرُوفًا﴾ صِفَة لِمَصدرٍ محذُوف، التقدير: صَاحِبْهما صِحَابًا مَعْرُوفًا، يَعنِي: صُحْبَةً مَعْرُوفَة، ليس فيها عُنْف، وليس فيها تَوبِيخ، ولا لَوْم، وليس فيها نَقْصٌ مِمَّا يَجِبُ لهما لكان هذا أَوْلى.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالبِرِّ والصِّلَة] البِرُّ: كثرة الخَيْر، والصِّلَة: عَدَم القَطِيعَة، فالمَعنَى: صِلْهما وبِرَّهما بما يَستَحِقَّان مِنك، لكن في أُمُورِ الدُّنيا فَقَطْ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ﴾ طَرِيق ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ رجعَ ﴿إِلَيَّ﴾ بالطَّاعَة] قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾: ﴿مَنْ﴾ هذه اسمٌ مَوْصول، والاسمُ المَوْصول يُفيدُ العُموم، فهل هو على عُمومِه أي: اتَّبِع سبيل مَن أناب إليَّ مِنْهما أو مِن غيرِهما، أو هُو عامٌّ أُرِيدَ به الخُصُوص؛ أي: مَن أناب إليَّ مَنهما؟

الجَوابُ: الأَوْلَى أن نَقُول بالعموم ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ مِن كُلِّ النَّاس، وعلَيْه فمَن أَنابَ مِن الوالِدَين إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَكونُ اتِّباعُ سبيلِه مِن بابِ أَوْلى.

وقوله تعالى: ﴿أَنَابَ﴾ بمَعنَى: رَجَع مِن المَعصِية إلى الطاعة، ومِن الشِّرْك إلى التوحيد، ومِن الفُسُوق إلى الاستِقامة والتَّقْوى.

ويُقال: إن سعدَ بنَ أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أَسلَم قالت له أُمُّه: ما هذا الدِّينُ الذي أَتَيْت به؟ فقال: هذا هو الحقُّ. فقالت له: لَتَترُكَنَّه أو لَأَدَعَنَّ الطعامَ والشَّرابَ حتَّى أمُوت، فتُعَيَّرَ بي. فقال: هذا حقٌّ لا أَدَعُه. فأَمْسَكَت عن الطَّعام والشراب يومًا كامِلًا، فلمَّا أَصبحَت إذا هي مُجْهَدَة -يَعنِي: مُتعَبة مِن الجُوع والعَطَش- فطلَب منها ولَدُها أن تَأكُل وتَشْرَب، وقال: أنا لَن أَرْجِع عن هذا الدِّينِ. ولكنَّها أَبَتْ، وفي اليوم الثاني: أَصبَحت أكثَرَ جُهْدًا، فقال لها: كما قال في الأوَّل: إنِّي لن أَدَع هذا الدِّينَ. فبَقِيت على عِنادِها، فلمَّا كان في اليَوْم الثَّالِث، وإذا هِي قَد أَصْبَحَت مُجْهَدَة جُهْدًا شَدِيدًا، فقال لها: يا أُمِّي تَعلَمِين أنَّ هذا هُو الحَقُّ، واللهِ لو كانت نَفسُكِ مِئَة نَفْس وماتَت كُلُّ نَفس -يَعنِي: وحدَها- واللهِ ما أَدَع هذا الدِّينَ. فلمَّا رأَت أنَّ الرَّجُل عَازِم أَكَلَتْ[1].

(١) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب في فضل سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (١٧٤٨)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنحوه.

فمِثْل هذه الحالِ لا يَجُوز للإنسان إذا رأَى أن أُمَّه سوف تَموت أو أبوه سوف يَموت لا يَجوز له أن يُشرِك.

فإن قال قائِل: لو أَراد أن يَقول: إنَّه مُشْرِك بِلسَانِه مُتَأَوِّلًا هل يَجوز ذلك؟

فالجَوابُ: لا يَجوز أن يُوافِق ولو بِالتَّأْوِيل، فلْيَصْبِر، ويَقول: أنا ما ضرَرْتُكِ شيئًا، أيَّ شيء تُريدين مِن أمور الدُّنيا فأنا مُسْتَعِدٌّ له. يَعنِي: ما ضرَرْتُك، فإن شِئْتِ فكُلِي، وإن شِئْتِ فلا تَأكُلِي.

المُهِمُّ: أنه لا يَجوز أن يَقول ولو مُتَأَوِّلًا، إلَّا إذا لو خَافَ على نفسِه هو، وهذا فَرْق بين مَن يَخاف على نَفْس غيرِه أو على نَفْسِه، فلو خافَ على نَفْسِه هو أن يُقْتَل فلَه أن يَقُولَ ذلك مُتَأَوِّلًا؛ لقولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل:١٠٦] على أَنَّه -أي: المَسألة الأخيرة- لا يَجوز فيما إذا كان فيه نُصْرةٌ للإسلام، فإنَّه إذا كان في ثُبُوتِه نُصْرة للإسلام وفي مُوافقَتِه ظاهِرًا خُذْلانٌ لِلإسلام حَرُم عليه ذلك؛ لأَنَّه حينئذٍ يَدخُل في باب الجِهاد مِثْل ما حصَل للإمامِ أحمَدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، دُعِيَ إلى القَوْل بخَلْقِ القرآن، ودُعِيَ غيرُه أيضًا إلى القولِ بخَلْق القرآن، فَمِن العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ مَن تَأَوَّل وأَجابَ ظاهِرًا بما يُدْعَى إليه، ومِنهم مَن أَصَرَّ فقُتِل، ومِنْهم مَن أَصَرَّ فحماهُ الله تعالى مِن القتل كالإمامِ أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالإمام أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يُجِبْهم ولو بالتأويلِ؛ لأنَّ الناس يَنظُرُون ماذا يَقولُ الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فلو قال: إنَّ القُرْآن مَخلوق. ولو بالتَّأوِيل، سيَقول العامةُ: إنه مَخْلُوق. وتَنطَلِي هذه البِدْعةُ على عُمُوم المُسلِمين، فرأَى رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا يَجوز أن يَتأَوَّل في هذه الحالِ؛ لِما في ذلك مِن خُذْلان الحقِّ وإثباتِ الباطِل.

وقوله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ هذا التَّعقيبُ لَمَّا ذكَر سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ

أنهما إذا أَمَرا بالشِّرْك فلا تُطِعْهما، وأنَّ الواجِبَ عليك اتِّباع سبيل مَن أَناب إلى الله تعالى، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ﴾ أي: بعد هذه المُحاولاتِ مِنهما بأن تُشْرِك بالله تعالى، وبعد أن تُطِيع فالمَرجع إلى الله تعالى.

وقولُه تعالى: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ جُملة اسمِيَّة خَبَرية قُدِّم فيها الخبر لإفادة الحَصْر، ﴿إِلَيَّ﴾ لا إلى غَيْرِي، ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ يَعنِي: مَردُّكم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [فاطر:٤].

وقوله تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ بمَعنَى: أُخبِرُكم، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، والإنباءُ هذا يَستَلْزِم المُجَازَاة، وقد لا يَكون هناك مُجازَاة؛ ولهذا دائِمًا يُعبِّر الله عَزَّوَجَلَّ بالإنباء -أي: الإخبار- لأَنَّه قد يُجازِي وقد لا يُجازِي، فإنَّه يَخلو بعَبْدِه المُؤمِن ويُخبِرُه بذنوبِه ويُقرِّرُه بها، ثم بَعْد ذلك يَقول: «سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(١).

وقولُه تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بالذي كُنْتم تَعمَلون، وهو شامِل لكل ما يَعمَله الإنسان مِن صَغِير وكبِير دون ما لم يَعمَله، فلو هَمَّ بالشيء فلم يَعمَلْه فإنه لا يُجازَى عليه، لكن قد يُثَاب عليه إذا كان مَعصيةً ترَكَها مِن أَجْل الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يُثَاب على هذا التَّرْكِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فأُجازِيكم عليه، وجُملة الوَصِيَّة وما بعدَها اعْتِراض] فقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فأُجازيكم عليه] كأنَّه جعَل مِن لازِم الإنباء المُجَازاة، ولكن كما قُلْت: ليس لازِمًا؛ ولهذا عبَّر الله عَزَّوَجَلَّ بالإِنباءِ؛ ليَكونَ الأمرُ جائِزًا أو دائِرًا بين

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

أن يُجازَى عليه وبَيْن أن لا يُجازَى عليه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وجُملةُ الوَصية وما بعدَها اعتِراض] الوصية مُبتَدأَة مِن قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ اعتِراضٌ مِن قولِ الله عَزَّوَجَلَّ، وليس ذلك مِن قول لُقمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابنِه؛ لأنَّ الذي وصَّى الوالدين إحسانًا ووجَّه الإحسان هو الله عَزَّوَجَلَّ، وإنَّما جاءَتْ هـذه الوصيةُ بعد ذِكْر الشِّرْك؛ لأنَّ عُقُـوق الوالِدين يَرِد بَعْد حَقِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي الوصية أيضًا جُمْلَة اعتِراضية، هي قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾؛ لأنَّ قـولَه تعـالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ هـو المُوصَى به: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾.

إِذَنْ نَقول في هذا: الوَصِيَّةُ اعتِراضِية بين كَلامَيْ لُقْمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابْنِه؛ وقولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ اعتِراض أيضًا بَين فِعْل الوصية والمُوصَى به.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَحـريمُ طاعَةِ الوالدين إذا أَمَرَا بالشِّرْك؛ لِقَولِه تعـالى: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، ويُقـاس على ذلك كل مَعْصِيَة أمَرَا بها فإنهما لا يُطَاعَان؛ لِقَوْلِ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ**»(١).

---

(١) أخرجه بلفظه الطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ١٧٠، رقم ٣٨١) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ويشهد له ما أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب السمع والطاعة للإمام، رقم (٢٩٥٥)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، رقم (١٨٣٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بلفظ: «**السمع والطاعة حق ما لم يؤمر بالمعصية، فإذا أمر بمعصية، فلا سمع ولا طاعة**».

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ فُسُوقَ الوالدَيْن وكُفْرَهُما لا يُسْقِطُ حَقَّهُما مِنَ البِرِّ، يُؤْخَذ ذلك مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، فإنَّه أَمَر بِمُصَاحَبَتِهِما مَعْرُوفًا مَع أَنَّهُما كَافِرَيْن ويَأْمُرَان بالكُفْر.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وُجُوب اتِّبَاع سَبِيل الْمُؤْمِنِين؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾، ويُؤَيِّدهُ قَولُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ جَمِيعَ الخَلَائِق مُؤْمِنِـهِم وكَافِرِهِم مَرْجِعُهُم إِلَى الله تعالى؛ لِقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ الحُكْمَ بَيْنَ الخَلْقِ إِلَى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ فإنَّ تَقْدِيم الخبَر يَدُلُّ على الحَصْر.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إحاطَةُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فإنَّ الإِنْبَاءَ بما نَعْمَل لا يَكُون إلَّا عن عِلْم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إِثْبَاتُ الكلامِ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لقولِه تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ والإنباءُ إِخْبَار.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: تَحْذِير الإِنسان مِن الأعمال السَّيِّئَة فإنَّ قولَه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ يُفِيدُ التَّحْذِير، حتى لا نَقَعَ في أَمْرٍ حَرَّمَهُ اللهُ تعالى علينا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بُلُوغُ الغَايَةِ في البَلاغَة في القرآنِ الكَرِيم؛ لِقولِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ ولم يَقُل: فأُجازِيكم؛ وذلك أَنَّه قد يُنَبَّأُ الإنسان يومَ القيامة بِما عَمِل،

ثُم يُغْفَر له، فذَكَرَ الله تعـالى الإِنباء؛ لأَنَّه مُؤَكَّد، أَمَّا المُجَازَاة فإن الله تعالى قد يَغفِر عن المُذنِب ذُنوبه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إن قال قائِل: هل يُؤْخَـذ مِن الآيةِ الكريمة: وُجُوبُ طَاعةِ الوالِدَين في غير مَعصِية الله تعالى؟

فالجَوابُ: إذا أَمَرَا بغير المَعصية فالآيةُ سكَتَتْ عن ذلك، فحَرَّمَت الطاعَة في المعصية وسكَتَتْ عمَّا عَدَا ذلك، لكن قد يُقال: إنَّ قولَه تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ يَدُلُّ على وُجُوبِ طاعتِهما في غَيْر المَعْصِيَة؛ لأَنَّه لا شَكَّ أن مُصاحَبتَهما في المَعروف بِامتِثَال أمرِهما، وعلى هذا فقَدْ يُسْتَدَلُّ بعُمومِ قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ على وجوبِ طاعتِهما في غير المَعْصِيَة، ولكنَّه سَبَق لنا أثناء التَّفسير أنَّ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: تَجِبُ طاعتُهما فيما فيه نَفْعٌ لهما ولا ضرَرَ عليه فيه، أمَّا ما فيـه ضرَرٌ عليه فلا يَجِبُ عليه الطاعة؛ ولهذا لَمَّا ذَكَرَ أهـلُ العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أن لِلأَبِ أن يَتمَلَّكَ مِن مَالِ ولَدِه ما شاء قالوا: بشَرْط أَلَّا يَضُرَّ الولَد، فإِنْ ضَرَّ الولَد فإنه ليس له أن يَتَمَلَّك، بل قالوا: بشَرْط أَلَّا يَضُرَّه وأَلَّا تَتَعَلَّقَ بِه حاجتُه، فإن تَعلَّقَت به حاجتُهُ فليس له أن يَتملَّكَه.

والمَقصود بالحاجة هنـا حاجتُه الخاصَّة بمَـعنَى أنه مثَلًا لا يَجِـد غيره، أو كل شيء يَحتاجه، لكن مثلًا إناء يَحتاجه فيَشترِي بدَله، أمَّا (زُهْرِيَّة) يَحتاجُها فلا نَقول للأَبِ: أن تَتَمَلَّكَها؛ لأن هذا يُفَوِّت على الابنِ حاجتَه واستِمْتاعَه بها.

فإن قال قائِل: قد قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ

(١) انظر: الاختيارات العلمية (٥/ ٣٨١).

ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤] ألَا يُنافِي ذلك أمرَه بمُصاحَبَتِها بالمَعروف؟

فالجَوابُ: لا مُنافاةَ بينهما؛ لأنه ليس مَعنَى مُصاحَبَتِهما بالمَعروف أن تُبْدِيَ لهما المَحَبَّة والوِلاية، بل أنت تُبغِض ما هُما عليه مِن الكُفْر والشِّرْك، وتُبغِضُهما على هذه الصِّفاتِ التي اتَّصَفا بها، ولكن تُعْطِيهما ما يَجِبُ لهما.

فإن قال قائِل: هل يَجوز إظهار البَشَاشَة لهما؟

فالجَوابُ: لا يَمنَع ذلك إذا لم يَكُن هذا سَببه الدِّين، فهذا أَمْر تَقتَضيه الطبيعة، والعَداوة والبَغضاء في القَلْب؛ لأن العَداوة ضِدُّ الولاية، ولكن لا نُؤذِيهم.

ثُمَّ يُقال أيضًا: قد نَقول: لكلِّ مَقَامٍ مَقال. فمثَلًا إذا كان الوالِدان أو غيرهم يَتبَجَّحَان بالكُفْر ويَفتَخِران به، فلنا أن نُعْلِن هذه البَرَاءَةَ والعَدَاوَةَ والبَغْضَاء، وإذا كانا سَاكِتَيْن مُسَالِمَيْن فنحن لا نَتَعرَّض لهما، ولكننا نَتَبَرَّأ -على صِفَةِ العُمُوم- مما هُمْ عليه مِن الدِّين.

والمُهِمُّ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقول: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أمَّا فيما يَتعلَّق بالدِّين فلا تُصاحِبْهما بمعروف أبدًا فيما يَتعلَّق بالدِّين يَجِب أن تَكْرَهَهما وتَبتَعِد عنهما وتُعَادِيهما.

• • ❁ • •

الآية (١٦)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ [لقمان:١٦].

ثُمَّ قال الله عَزَّوَجَلَّ عَوْدًا على وصَايا لُقْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ [لقمان:١٦].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّهَآ﴾ أي: الخَصْلةَ السَّيِّئَةَ] فيه قُصور؛ لأنَّ الصواب المُراد ﴿إِنَّهَآ﴾ أي: الخَصْلة السَّيِّئة أو الحَسَنة كلُّ شَيء مِن حَسَن أو سَيِّئٍ.

وقوله تعالى: ﴿إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾: ﴿مِثۡقَالَ﴾؛ أي: وَزْن، وسُمِّيَ الوَزْنُ مِثقَالًا؛ لأنه يُعتبَر بِثِقَلِه، فإنَّ الشيء يُوزَن لِيُعْلَم ثِقلُه مِن خِفَّتِهِ.

وقوله تعالى: ﴿حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾ هذه حُبُوب معروفَة صَغِيرة.

وقوله تعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ﴾ في صَخْرة في أيِّ مكان مِن الأَرْض؛ لأننا لا نَعرِف صُخُورًا إلَّا في الأَرْض، لكن الذين خرَجوا إلى القَمَر جاؤُوا لَنا مِنْه بِصُخُورٍ، فلا نَدرِي هل هذا صَحِيح أو ليس بِصحِيح، والمَعروف أنَّ الصُّخُور في الأرض، وقوله تعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ﴾ إمَّا أن تكون على سبيل المُبالَغة، أو يَكون مثلًا في هذه الصَّخرةِ شيءٌ من جِنْس هذا بقَدْر حَبَّة الخَرْدل فيُعْتَبَر فيها، أو يُقال:

إنَّ المُراد أنَّ حَبَّةَ الخَرْدل قد تكون في شَقٍّ مِن هذِه الصَّخرةِ.

وأنا شاهَدْتُ في الغضَا[1] يَخرُج فيه حُبَيْبَات بقـدر الأُنمُلة خُضر مَخْتُومَة تمامًا، إذا فتَحْتَها وجَدْتَ فيها دَابَّة، تَدُبُّ على بَطنِها، وهي مَختُومة، وفي نَفْس الغُصْن، ليس فيها فتحة، يَعنِي: مَخلوقٌ مِنْها هذا الشَّيْءُ.

قوله تعـالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أو في أعلى السَّموَات أو أَنزَلِها، أو في الأرض في أعلاها أو أَنزَلِها. قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في أَخفَى مَكان مِن ذلك].

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾: ﴿يَأْتِ﴾ بحَذْف الياء؛ لأنَّها جواب الشرط في قوله تعـالى: ﴿إِن تَكُ﴾ فإنَّ ﴿إِن﴾ شَرطِيَّة و﴿تَكُ﴾ فِعْـلٌ مُضارِع مجزُوم بـ(إِنْ) الشَّرْطِيَّة، وعلامَةُ جَزْمِه السُّكون على النون المحْذُوفة لِلتَّخْفِيف، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَأْتِ﴾ جوابُ الشَّرْط مَجزومٌ بـ(إِنْ) وعلامَةُ جزمِه حَذْفُ الياء.

قال المُفَـسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ فيُحَـاسِبُ عليها] هذا مِن أَخـفَى ما يَكُون، ومع ذلك قال تعـالى: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾، ولم يَقُل: يَعلَمْـها الله؛ لأنه مِن لازِمِ الإتيـانِ بها العِلْم بها، لكن الإتْيَـان أبلَغُ، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَأْتِي بها ويُجازِي عليْـها، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَأْتِ بِهَا﴾ بمَعنَى أنها لا تَفوت ولا تَهْرَبُ منه، ولا بُدَّ أن يَأْتِيَ بها ويُحاسِب عليها، أو يَأْتِي بها لِيُظهِرَ قُدرَته عليها.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بِاسْتِخْرَاجِهَا ﴿خَبِيرٌ﴾ بِمَكَانِهَا] المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ دائِمًا يُخَصِّص العُموم بِمُقْتَضَى السِّيَاق، والمعروف عند أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ

---

(١) الغضا: شجر معروف. انظر تاج العروس (غضي).

أنَّ العِبْرَة بعُمُوم اللَّفْظ، فهنا قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ جعَل اللُّطْف بالاستِخْراج، والخِبْرة بالمَكَان، والصَّواب أنها أعمُّ مِن ذلك، فإنَّ اللطيف مِن أسماءِ الله تعالى، قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ:

وَهْـوَ اللَّطِيـفُ بِعَبْـدِهِ وَلِعَبْـدِهِ وَاللُّطْـفُ فِي أَوْصَـافِهِ نَوْعَـانِ[1]

فالله تعالى لَطيفٌ بعَبْده ولطيفٌ لعَبْدِه:

اللُّطفُ الأوَّل: إدرَاك أسرَارِ الأمُور وخَفَايا الأمور.

والثاني: اللُّطْفُ عند مَواقِعِ الإحسان -الذي هو الإحْسَان إلى العَبْد- يَلْطُف له بمَعنَى: يُقَـدِّم له مِن الإحسان ودَفْـع السُّوء ما لا يَعلَمُ به، فيَكون قـوله تعالى: ﴿لَطِيفٌ﴾ يتعدَّى بالباء، ويَتعدَّى باللَّام، فإنْ تَعدَّى بالباء فهو بمَعنَى: العِلْم بِخفَايا الأمُور، وإن تَعدَّى باللَّام لَطِيفٌ لَهم فهو بمَعنَى الإحسان بِجَلْب المَطْلُوب، ودَفْع المكرُوه أو المَخُوف، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف:١٠٠]، هذا قول يُوسُفَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، يَعنِي: ومِن لُطْفِه أن يَسَّر الاجْتِماع بِكُم بعد الفِرَاق ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠].

فالحاصِلُ: أنَّ اللطيفَ مِن أسْمائِه تعالى، ولَه مَعْنيَان حسَب ما يُتعَدَّى به: إنْ تَعَدَّى باللَّام ﴿لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ فمَعْناه: الإحسان، وإن تَعدَّى بالبَاء فمَعناه: العِلْم بالخَفَايا، فهو لِكمالِ عِلمِه لَطِيف، كُلُّ شيءٍ يَعلَمُ به.

هناك مَعنًى ثالِثٌ -لكن ما لا نَدرِي هل يَنطَبِق على أوصَاف الله تعالى أم لا؟- اللطيـف هو الرَّقيق عند الناس يَقولون: فُلان لطيـف، يَعنِي: رقيق حَسَنُ الخُلُق،

---

(١) النونية (ص٢٠٧).

وعندي أنَّ هذا داخِلٌ في قوله تعـالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ لأنه تَعـدَّى باللَّام يَعنِي: مَعنـاه الإحسان، فإن الإحسان أخصُّ أيضًا مِن حُسْن الخُلُق؛ لأنه يَتضَمَّن الإنعام على مَن لَطَفَ له.

وأمَّا قـولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خَبِيرٌ﴾ الخَبير هو العلِيم ببواطِنِ الأمور، وهو مع اللطيـف كالمُؤَكِّدِ له، وقُلْنا: العِلْم ببواطن الأمور خِبْرَة، مَأخـوذٌ من الخُبَار يَعنِي: الأرض الرِّخْوة التي تُبـذَرُ فيها البُذُور وتُدَسُّ فيها، فهو خَبِـيرٌ عَزَّوَجَلَّ عالِمٌ ببواطِنِ الأمور، ومِنها هـذه الحَبَّةُ التي مِن خَردَل تكونُ في صَخْرة أو في السَّمَـوات أو في الأرض.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: في هـذه الوَصيةِ فائِدَة: وهي تَحذِيرُ الابْنِ مِن المُخَالَفة؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ فلا تَخفَى عليه ولا تَفُوتُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عُمُوم عِلْمِ الله عَزَّوَجَلَّ، وتَمَامُ قُدْرتِه، ويُؤخَذ العُمُوم مِن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ والذي يَكـون بادِيًا على الأرض، وليس في الصحراء مِن باب أَوْلى، فيُستَفاد مِنه: عُمُوم عِلْم الله تعالى وإِحَاطَتِه وتَمامُ قدرته أيضًا، وذلك بالإتيانِ بِها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثْبـاتُ هَذَيْن الاسمَـيْن مِن أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ وإثباتُ ما تَضَمَّناه مِن الصِّفَة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ السمَواتِ مُتَعَدِّدةٌ؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وعدَدُها مَعرُوف، وهو سَبْع، وأمَّا الأرض فلم تُذْكَر مَجْمُوعَةً في القرآن، فكلُّ ما في القُرآن

مِن ذِكْرِ الأرض فإنَّـه بالإفراد، ولكنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَشار إلى أنَّها جَمْع في قولِـه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ يُراد المِثْلِيَّـة في العدَد، إذْ إنَّ المِثْلية في الكَيْفِيَّة مُسْتَحِيـلة، فَلَزِمَ أن تكون مِثْلِيَّة في العَدَد فقَطْ.

• ● ❁ ● •

الآيــة (١٧)

• ● ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧].

• ● ● •

هذه أربعةُ أَوامِر: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وانظُرْ إلى الأوَّل فهـو نَهيٌ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان:١٣]، ثُمَّ تَحذير بقوله تعالى: ﴿إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾، ثُمَّ بعـد ذلك أَمْرٌ: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ ولهذا يُقـال: (التَّخْلِيَةُ قبل التَّحْلِيَة)، يَعنِي: مَعناها: أَزِلِ الشَّوائِب، ثُمَّ ائْتِ بالمُكَمِّلَات.

فقوله تعـالى هنا: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أَمْر بإقَامَة الصَّلَاة، ومَعنَى إقامَتِها: أن يَأتِيَ بها الإنسَـان تامَّةً بأركانِها وشُروطِها وواجِباتِها ومُكَمِّلاتِها، وقوله تعـالى: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ شامِل للمَفْرُوضَات والنَّوافِل.

وقوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ مَفـعول ﴿وَأۡمُرۡ﴾ مَحـذُوف التقـدير: النَّاس أو غيرَهم، وَاؤْمُر غيرَكَ بالمعروف؛ أي: بالقولِ المَعروف والفِعْلِ المَعروف، والمَعْـرُوف ما أَمَرَ به الشَّرْع، لأنَّ ما أَمَـرَ به الشَّرْع قد أَقَرَّهُ الشرع، وأَقَرَّتْه الفِـطَرُ السَّلِيمَة.

فالمَعروفُ إِذَنْ: كل ما أُمِرَ به شَرْعًا، سَـواءٌ ما يَتَعلَّق بحقِّ الله عَزَّوَجَلَّ أو بحَقِّ العِباد.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ المُنْكَر: كُلُّ ما أَنْكرهُ الشَّرْع، أي: نَهَى عنه سواءٌ ما يَتعلَّق بحقِّ الله تعالى، أو بحُقوق العِباد، الأَمْر بالمَعروف والنَّهْي عن المُنكَر واجِبٌ على الكِفَاية؛ لِقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤]، إذا جعَلْنا (مِن) للتَّبعيض، أمَّا إن جعَلْنا (مِن) لِبيَـان الجِنْس والمَعنَى: ولتكونـوا أُمَّةً تَأمُرُ بالمعروف وتَنـهَى عن المُنكَر، فإنَّه يَكونُ فَرْضَ عَيْن، ولكن الصَّواب أنه فَرْض كِفَايَة؛ لأنَّ المَقصودَ به إصلاحُ الغَيْر، فإذا حَصَل إصلاحُ الغَيْرِ بغَيرِك حَصَل المَقْصُود، أمَّا إذا لم يَحصُل فإنه يَجِب أن تَأمُر، فإذَا وجَدْنَا مِن الناس تَهاوُنًا في هذا الأَمْرِ وتَكَاسُلًا صار فرضًا علينا، أمَّا إذا رأَيْنا أنَّ الناس قد استَقامُوا على هذا وصاروا يَأمُرُون بالمعروف ويَنهَوْن عَن المُنكَر، فإنه يَكون في حَقِّنا فَرْضَ كِفَاية.

وقوله تعـالى: ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ حتى والِدَيك تَأمُرُهما بالمَعروف وتَنهاهُما عن المُنكَر، بل إنَّ حقَّ الوالِدين أَعظَمُ مِن حقِّ غيرِهما؛ لأنَّ الأَمْر بالمَعروف والنَّهيِ عن المُنـكَر إحسانٌ للمَأْمُور والمَنْهِيِّ، وليـس إساءةً، فإذا كان كذلك فأَحَقُّ مَنْ تُحسِنُ إِلَيْه وَالِدَاك.

فإن قال قائِل: الأَمْر بالمَعـروف والنـهيُ عن المُنكَر هل هو المَوْعِظَة فقَـطْ أم غيرها؟

فالجَوابُ: لا، نحن ذَكَرْنا فيما سَبَق، أنَّ المُراد: الثَّلَاثَة؛ بَيَانٌ ودَعْوَة، وأَمْر ونَهْي، وتَغْيير، فالبَيَـانُ والدَّعوة واجِبان على كل أَحَد، فإنه يَجِب عليـه أَنْ يُبيِّن إذا دَعَتِ الحَاجَةُ إلى البيَان أو سُئِلَ عن عِلْم، وكل أَحَد عليه أن يُبلِّغ إذا اقتَضَتِ الحالُ ذلك، وأَمَّا الأَمْر فهو أَخَصُّ مِن الدعوة؛ لأن الأمر أن تُوَجِّهَ أمرًا إلى شَخْص مُعيَّن ما هو

بأن تُبيِّن أن تَقُوم في الناس، وتَقُول: هذا حَلَال، وهذا حَرَام، هذا يُعْتَبَر مَوْعِظَة، وأمَّا التغْيِير: فَأَن تُغيِّرَ بيدك تأخُذ هذا المُنكر تُكَسِّره مثلًا، نعَمْ، أو تَقول بِلِسانك، إذا عَجَزْت عَن الفِعْل تُغَيِّر باللسان، إمَّا بِرَفْع الأَمْر إلى مَن يَسْتَطِيع التغيير، وإمَّا بالانتِهار والتوبِيخ والزَّجْر، فإن لَم تَسْتَطِع هذا ولا هذَا فيَكُون التَّغْيِير بالقَلْب وهو الكراهَة والبَغْضاء؛ وهذا في الحقيقة لا يَحْصُل التغيير المُطْلَق يَعنِي: أنَّ المُنكَر لو تُنكِره بقَلْبك لا يَزُول، لكن هذا أَدْنى دَرَجاتِ التَّغْيِير؛ ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في ذلك: «وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»(١).

ومن شروط ذلك: الاستِطاعة، وهذا شَرْطٌ في كل واجِب؛ لقَولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦].

ومِن الشُّرُوط أيضًا: أن لا يَخْشَى ضرَرًا مُحقَّقًا، فإن خَشِيَ الضرَر في مالِه أو بدَنِه لم يَلْزَمْهُ، فإن خَشِيَ الأذِيَّة لَزِمَه؛ لأنَّه لا بُدَّ مِن أذًى، لكن أذِيَّة ما فيها ضَرَر؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ هَذَا تَوْطِئَة وتمْهِيد كأنَّه يَقُول له: إذا أَمَرْت بالمَعروف ونَهيْت عن المُنكَر فلا بُدَّ أن يَحْصُل لك أَذِيَّةٌ فاصبِرْ على هذا.

وهذا هو الواقِع، فإنَّ الآمِرَ بالمعروف والنَّاهِيَ عن المُنكَر غالبًا يُؤْذَى، يُؤْذِيه المَأمُور والمنْهِيُّ، إمَّا بالقول وإمَّا بالسُّخْرِيَة، ورُبَّما تَصِل الحال إلى أنه يَرْمِيه بالحِجارة أحيانًا، وربما تَصِل الحال إلى أنَّه يُخَرِّبُ سَيَّارَته، أو يَكْسِر بابَه، أو ما أَشْبَهَ ذلك، لكن الأخير هذا ضرَرٌ في المال، ولكن لا بُدَّ أن يَكون أمرًا مُحقَّقًا، أمَّا إذا كان وَهْمًا عن الضَّرَر فلَيْسَ بِشَيْء.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم (٤٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ المُشار إليه ما سَبَق مِن الأمُورِ الأرْبَعَة ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ قَال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: مَعْزُومَاتِهَا التي يُعْزَم عليها لِوُجُوبِها].

قوله تعالى: ﴿ٱلْأُمُورِ﴾ بمَعنَى: الشُّؤُون والأَحْوال، والعَزْم هنا مَصدَر بمَعنى اسْمِ المَفْعُول، أي: مَعْزُومَاتِهَا التي يُعْزَمُ عليها؛ لِأَنَّها وَاجِبَة، والله أَعلَمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّه يَنْبَغِي للآبَاء أن يُوصوا أبناءَهم بهذه الخِصَالِ الأربَعِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّه يَنبَغي لِلأَبِ أن يَقْرُنَ مَوْعِظَتَه لِابنِه بالتَّرْغِيب والتَّرْهِيب، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ تَأْكِيدٌ وحَثٌّ على الابنِ أن يَقومَ بهذه الوَصَايا الأَرْبَعِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: مِن كُلِّ هذه الوصايا، قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ يُؤْخَذُ مِنه تَلَطُّف الإنسان بِمُخَاطَبَة ابنِه، لا سِيَّما في مَقَام المَوْعِظَة.

ويَتَفَرَّع على هذا أيضًا: بَيانُ سُوءِ مُعَاملةِ بعض الآباء إذا أَراد أن يَعِظَ ابنَه عامَلَه بالعُنْف والشِّدَّة، وهذا خَطَأٌ وقد قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنَّ اللهَ يُعْطِي بِالرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ»[1]، وأنتَ إذا عمِلْتَ بهذا الشَّيْءِ فإنَّك سوف تَتعامَل بالرِّفْق؛ لأنَّ الرَّسُول ﷺ أَخبَر بأن الله تعالى يُعْطِي بالرِّفْق ما لا يُعْطِي على العُنْف، فإذا كان يَحصُل لك مَقْصُودُك بالعُنْف فإنَّ حصُولَه بالرِّفق مِن بَابِ أَوْلَى.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، رقم (٦٠٢٤)، دون الجملة الأخيرة، وأخرجها مسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، رقم (٢٥٩٣)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

وعلى هذا فيَنبَغِي الرِّفْق في الأُمُور لا سِيَّما في مَقَامِ الوَعْظ لِهَؤُلَاءِ الأَبْنَاءِ الذين لا يُحِيطُون عِلْمًا بما هم عليه، أَمَّا المُعَانِدُ والمُسْتَكْبِرُ فهذا له حَالٌ أُخْرى، لكِنْ كلامُنا في مَقَامِ الدَّعْوة، وفي مَقَامِ التَّوْجِيه والإِرْشَاد، فإنه يَنْبَغي التَّلَطُّف وعَدَم العُنْف.

الآيـة (١٨)

• • • • •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:١٨].

• • • • •

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ هذه مَعطُوفة على قولِه تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ﴾، فهو إذَنْ مِن وصايا لُقمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنِه، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ وفي قِراءة: (وَلَا تُصاعِرْ) ﴿خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لا تُمِل وَجْهَك عنهم تكبُّرًا] التَّصْعِيرُ هُو الإمالَة، ومِنه: الصَّعَرُ فِي الوَجْه، وهو المَيَال بحيث تكُون العُنُق مُلْتَوِية، تَميلُ إمَّا يَمِينًا وإمَّا شِمالًا.

وقوله تعالى: ﴿خَدَّكَ﴾ أي: وجهَك، فهو مِن إطْلاقِ البَعْضِ وإرادَةِ الكُلِّ، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [تَكَبُّرًا] نعَم؛ هذا مَحَطُّ النهيِ، أن يَفعَلَ ذلك على سَبيلِ التكبُّر، أمَّا لو فعَلَه على سبيل الإعْراض عمَّا لا يَجوز النظَر إليه، كما لو قابَلَتْه امرأة فَصَدَّ وأَعْرَض فإنَّه لا يَدخُل في الآية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ وأمَّا إذا صَعَّرْت وجْهِي أو خَدِّي لأَجْل ألَّا أَرَى أيَّ شيءٍ مُحَرَّم فإنَّه لا يَدخُل في هذه الآيةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: عنْهُم فتُمِله تَكَبُّرًا. وقوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ عامٌّ، يَشْمَل المُؤْمِن والكَافِر، ولكن الكَافِرَ لا يُعامَل كما يُعامَل المُؤمِن في مِثْل هذه الأُمُورِ، وقد يُقالُ: إنَّ شَرْعَنا وَرَدَ بخِلافِه، وأنَّ الكافِر يُصَعَّرُ له الخَدُّ

ويُعرَض عَنه، وقد يُقال: إنَّ الكافِر إذا جاءَك مُقبِلًا فأَقْبِل عليه، فإنَّ هذا مِن باب التَّأليف على الإسلام، وأمَّا إذا أَعرَض فأَعرِض.

قوله تعـالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾: ﴿وَلَا تَمْشِ﴾ هذا مجزُوم بحَذفِ الياء ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: على الأرض ﴿مَرَحًا﴾ قَال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: خُيلَاءَ]، فالمَرح بمَعنَى: البَطَرِ والأَشَرِ والخُيلَاءِ مِن ذلك، فلا تَكون مُتبَختِرًا في مِشْيَتِك مُتَعالِيًا في نفسِك، ولكنِ امْشِ مِشْيَةَ المُتَذَلِّل الخَاضِع لله عَزَّوَجَلَّ، غيْرُ المُتعَلِّي على عِبادِ الله تعالى.

وقولُه تعـالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ذَكَر هنا: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾، فالأوَّل: في مُعَامَلَة النَّـاس ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، والثاني: في هَيْئَته بِنَفْسِهِ ألَّا يَمْشِيَ في الأرضِ مَرَحًا، وإنَّما يَمشِي كما يَمشِي عِبادُ الرحْمن: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ مُتبَخْـترٍ في مَشْيِـه ﴿فَخُورٍ﴾ عَلَى النَّاسِ].

قوله تعـالى: ﴿مُخْتَالٍ﴾ أي: فَاعِل لِلخُيَلَاء، و﴿فَخُورٍ﴾ أي: مُفْتَخِرٍ بِنَفْسِه، والفرْقُ بينهما أنَّ الاخْتِيَالَ يَكونُ بالنَّـفس، والفَخْر يَكون بالقَـوْل، فهذا الرَّجُـلُ عِندَه خُيَلَاءُ في نفسِه، واخْتِيالٌ على عِبادِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعنده فَخْرٌ بلسَانِه يَفْخَرُ بنفسِه، ويَقول: أنا فُلَانُ بنُ فُلَان، ويَمْتَدِحُ نفسَه، ولكن هذا ما لم يَكُنْ في الحَرْب، فإن كَان في الحَرْب فلا بأسَ أن يَفْخَرَ الإنْسَان، كما قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:

«أَنَـا النَبِـيُّ لَا كَـذِبْ أَنَـا ابْـنُ عَبْـدِ المُطَّلِـبْ»[(١)]

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب، رقم (٢٨٦٤)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، رقم (١٧٧٦)، من حديث البراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ورأى بعضَ أصحابِه يَمْشِي مِشْيَةَ المُتبَخْتِرِ فقال ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ لَمِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللهُ إِلَّا فِي هَذَا المَوْقِفِ»(١)، ففي بَابِ الحَرْب يَجُوزُ للإِنْسَان أن يَفْتَخِر، ويَجُوزُ أن يَتَعَاظَمَ في نفسِه؛ لأَنَّه أَمَامَ أعداءِ الله تعالى الذِين يَنْبَغِي إِذْلَالُهُم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: ذَمُّ هاتَيْن الخَصْلَتَيْن؛ تَصْعِيرِ الخَدِّ للنَّاس تكَبُّرًا وتَعاظُمًا، والمَشْيِ في الأَرْضِ مَرَحًا، وقد دَلَّتِ الآيَاتُ الأُخْرَى على أَنَّهُما مِن المُحَرَّمَات؛ كما في سُورَة الإِسْرَاء.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّه يَنْبَغِي لِلإِنْسَان عِنْد مُحادَثَةِ غيْرِه أن يَكُونَ مُقْبِلًا إِلَيْه بِوَجْهِه؛ لِأَنَّ النَّهيَ عن تَصْعِيرِ الخَدِّ يَدُلُّ على الأَمْر بِضِدِّه، وهو أن يَكُون مُقْبِلًا إِلَيْه بوجْهِه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إِثْبَاتُ أَنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ؛ مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ وَوَجْهُ الدَّلَالَة أَنَّ نَفْيَ مَحَبَّةِ اللهِ تعالى لِهَؤلَاء يَدُلُّ على ثُبُوتِها لِغَيْرِهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَحْرِيمُ الاخْتِيَال والفَخْر؛ لأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَفَى مَحَبَّتَه له، وقَد سَبَقَ الفَرْق بَين الاخْتِيَال والفَخْر، الفَخْر بالقَوْل، والِاخْتِيَال بالفِعْل.

• • ۞ • •

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧/ ١٠٤ رقم ٦٥٠٨).

الآية (١٩)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٩].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ تَوَسَّطْ فِيه بَيْنَ الدَّبِيبِ والإِسْرَاعِ، وعَلَيكَ السَّكِينَة ﴿وَٱغۡضُضۡ﴾ اخْفِضْ ﴿مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾ أَقْبَحَهَا ﴿لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ أَوَّلُهُ زَفِير وَآخِرُهُ شَهِيق].

قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ القَصْد مَعنَاهُ الوَسَط في الأُمُور، فالوَسَطُ في الأمور مَعناه: أنَّ الإنسان يَكُونُ وَسَطًا في مَشْيِه بين الذي يَمْشِي مُسْرِعًا والذي يَمْشِي مُتَباطِئًا، والقَصْدُ في كُلِّ شيْءٍ هو الوَسَط؛ ولهذا وَرَدَ في الدُّعَاء المَأْثُور: «وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى»[1]، فمَعنَى (القَصْد) يَعنِي: التَوسُّط في الأُمُور، قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾[الفرقان:٦٧].

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾، تَوَسَّطْ فيه بين الدَّبِيبِ والإِسْرَاع وعليك السَّكِينَةُ والوَقَار] يَعنِي: لا تَدُبَّ دَبِيبًا وأنت تَمْشِي، ولا تُسْرِعْ سُرعَةً تُخِلُّ بالمُرُوءَة،

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٦٤)، والنسائي: كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء (أي بعد الذكر)، رقم (١٣٠٥)، من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ولكِنْ لِيَكُنْ مَشْيُـك وَسَطًا بيْنَ هذا وهذا، دَالًّا على القُـوَّة وعلى النَّشَاط كما كان الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَفْعَلُ في مَشْيِه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾: ﴿مِن﴾ هذه لِلتَّبعيض، فلَمْ يَقُلِ: اغْضُضْ صَوتَك. بل قال: مِنْهُ. وذلك لأنَّ الإنسان لا يُحْمَد على رَفْعِ الصَّوْتِ جِدًّا، ولا على خَفْضِهِ جِدًّا، والنَّاس مِنـهم مَن يَكُون عَالِيَ الصَّوْت إِذَا قَام يَتكَلَّم وإذَا هـو كأَنَّما يَتكَلَّمُ على جَمَاعَةٍ بَعِيدِين، ومِن الناس مَن يَكُون بالعَكْس، يُكَلِّمُك رُبَّما لا تَفْهَمُ مِنْه إلَّا الكَلِمَـة بَعْد الكَلِمة، كُلُّ هذا لَيْس بِجَيِّد؛ ولهذا قَال تعـالى: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾، ولم يَقُـلِ: اغْضُضْه كُلَّه. فلا ينبَـغِي هذا ولا هذا، بل يَكُـون أيضًا قَصْدًا بين رَفْعِ الصَّوْت والإِخْفَاء.

فقولُه تعالى: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾ المُرَاد به: عند المُخَاطَبَة، ثُمَّ إنَّ ﴿مِن﴾ هنا تُفِيـدُ التَّبعيض في الكَيْفِيَّة، وكذلك في الكَمِّيَّة، في بعض أحيـان يَكون الأفضَل أن تَرْفَع صَوتَك، افْرِضْ أَنَّك تُنَادِي قومًا بعيدِين مُتَرَامِي الأطْرَاف تُرِيد أن تَحُثَّهم على قِتَـال أو ما أَشْبَهَ ذلك؛ فيَجُـوز رَفْعُ الصَّوْت؛ ولهذا العَبَّـاسُ بنُ عَبْد المُطَّلِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الحديث الصَّحيح لَمَّا انصرَفَ الناس أمَرَه النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يُنَادِيَ فقال -بأَعلَى صوتِه-: يَا أَهْلَ الشَّجَرَة، يَا أَصْحَابَ سُورَةِ البَقَرَة[1]. بأَعلَى صوتِه، وهذا لا شَكَّ أنَّه ليس غَضًّا مِن الصَّوْت؛ لأنَّ الله تعالى يَقُول: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾.

فصارَ الغَضُّ مِن الصَّوْت باعتِبَار الكَمِّيَّة وباعْتِبَارِ الكَيْفِيَّة؛ نَقُول مثلًا: إذا كُنت تُخَاطِبُ مَن إِلى جَانِبك لا تَرْفَعِ الصَّوْت ولا تَخْفِضْهُ بِحَيْـثُ لا يَسْمَع، هذا باعتِبَار

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد، باب في غزوة حنين، رقم (١٧٧٥)، من حديث العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، دون قوله: «يا أصحاب البقرة»، وهي في رواية الإمام أحمد (١/ ٢٠٧).

الكَيفِيَّة، أمَّا باعتِبار الكَمِّيَّة فأحيانًا رُبَّما تُضْطَرُّ إلى رَفْعِ الصوت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾ يَعنِي: أحيانًا، لكِنْ في بعضِ الأحيان تَسْتَدْعي الحالُ أن تَرْفَعَ صَوْتَك بِقَدْرِ ما تُسْمِع.

ثُمَّ علَّلَ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ﴾ يُحتَمَل أن يَكُون مِن كلام لُقمانَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأنه الأصْل، ويُحتَمَل أن يَكُونَ مِن كلامِ الله تعالى خَتَمَ اللهُ به الآيَةَ.

وقولُه: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾ تَعْلِيلٌ لقولِه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾، ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾ يَعنِي: أقبحَها وأبْشَعَهَا، ولَيْسَ أعْلَاها، لكِنْ أنْكَرَهَا؛ لأنَّ في الحَيْوَان مَن هو أعلَى صوْتًا مِن الحِمَار، لَكنْ في القُبْح ليس هناك أَقْبَحُ مِن صَوتِ الحَمِير.

وقولُه تعالى: ﴿أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ الجُمْلة هذه مُؤَكَّدَة بِمُؤَكِّدَين وهي (إنَّ) واللَّام، ووَجْهُ ذلك ما ذكَره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ أوَّلَه زَفِير وآخِرَه شَهِيق.

والفَرْق بين الزَّفِير والشَّهِيق أن الشَّهِيق يَكونُ باطِنًا في الصَّدْر، والزَّفِير يَكُون خارِجًا؛ ولهذا قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ [الفرقان:١٢].

وكذلك الآيةُ الثانيةُ: ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ﴾ [هود:١٠٦]، هذا باعتِبار السَّاكِنِين، وقال في آيَةٍ أُخرَى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ﴾ [المُلك:٧] فذكَرَ الله تعالى لِلنار زَفِيرًا وشَهِيقًا كما أنَّ لِساكِنِيها -أيضًا- زَفِيرًا وشَهِيقًا، نَعُوذُ باللهِ تعالى مِنه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ انْتَهتِ الوِصَايَة النَّافِعَة التي هِي مِن الحِكْمَة التي أَعطَاهَا اللهُ تعالى لُقمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّه يَنبَـغي لِلإنسَان أن يَكونَ مَشْيُـه قَصدًا لا إِسْراعًا مُخِـلًّا، ولا دَبِيبًا مُتبَاطِئًا، فالإِسْرَاع الذي فِيه التَّهوُّر والعَجَـلَة والطَّيْش مَذْمُوم، والتَّبَاطُؤ والدَّبِيب أيضًا مَذْمُوم.

فإن قال قائِل: إذا احتاج إلى السرعة في المَشْيِ في بعض الأوقات، فهل له ذلك؟ أو أنه أَراد أن يَذهَب إلى عمَله؛ ليَصِل في وَقْته فهل له أن يَمشِيَ كلَّ يوم هكذا؟

فالجَوابُ: ليـس فيه بأسٌ، بل قد يَجِب أحيانًا كما لوِ احتـاج لإنقاذ نَفْـسه، أو إِنْقـاذ غيره من هَلاكه، فكل مَقام له مَقال، فالمَقصود هنا في المَشْيِ العادي؛ أمَّا في شُغْله فالأَوْلى أن يُرتِّب وقته، حتى يَخرُج إلى شُغْله بالمَشْيِ المُعتاد؛ لكن لو فُرِض أنه تَأَخَّر في يوم من الأيام فله أن يَفعَل.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن يُقال: إذا كان هذا في المَشْيِ الحِسِّيِّ؛ فلْيَكُن كذلك في المَشْيِ المَعنَويِّ إلى الآداب والأخلاق، لا يَنبَغي للإنسان أن يُسرِع سُرعة مُخِلَّة، ولا أن يَتباطَأَ تَباطُؤًا مُفوِّتًا للمَقصود، أمَّا الإسراع إلى الخَيْر فقَدْ أَمَر الله تعالى به، ولكنه لا يَتجاوَز الحَدَّ؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، وَلَا تُسْرِعُوا**»(١).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه يَنبَـغي للإنسان أن يَغُـضَّ من صوته؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾، وذكَرْنا أنه يَشمَل الكِمِّيَّة والكيفية، فإنه في بعض الأحيان

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب لا يسعى إلى الصلاة، رقم (٦٣٦)، ومسلم: كتاب المساجد، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، رقم (٦٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَنبَغي رَفْع الصوت؛ كما في الأذان والخُطبة وما أشبَهَه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن رَفْع الصوت في غير محلِّه مُحرَّم؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٩]، فإنَّ هذا التَّشبيهَ يَقتَضي التَّنفير منه، وقد قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ**»(١).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: ذَمُّ أصوات الحَمير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.

ويُؤخَذ منها أنَّ للجارِ أن يُطالِب جاره إذا كان عنده حِمارًا نَهَّاقًا ببَيْعه وإزالته وكان نَهيقه غيرَ مُعتاد؛ لأن بعض الحَمير كثيرة النَّهيق؛ فعلى هذا له أن يُطالِب مِثلَما قال الفُقَهاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنَّ لَهُ أَنْ يَمنَعه من الرَّحى التي يُطحَن بها دائِمًا، وكذلك من تَغسيل الثِّياب ودَقِّها دائِمًا، كل ما يُؤذِي الجار فلِجاره أن يَمنَعه منه؛ فإذا كان الله سبحانه قد وَصَف النَّهيق بأنه أَنكَرُ الأصوات، فإن له أن يُطالِب، فيَقول: بِعْ هذا الحِمارَ، وإلَّا اجعَلْه في مَكان آخَرَ، حتى لا أَتأَذَّى به.

فإن قال قائِل: هل له أن يُطالِبه بإزالة آلات اللَّهْو التي هي أعظَمُ من النَّهيق؟

فالجَوابُ: نعَمْ، له أن يُطالِب جارَه بذلك، يَعنِي: لو أنه صار يَرفَع أصوات المَزامير -والعِياذُ بالله- والغِناء، فله الحَقُّ أن يُطالِب، حتى وإِنْ لم تُزعِجْهم؛ لأنَّ هذا مُنكَر.

ولو كان له جار، يَصعَد إلى السَّطْح في أيام الصيف، وعنده مُسجِّل فيه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب لا يحل لأحد أن يرجع في هبته وصدقته، رقم (٢٦٢٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أَشرِطة من القرآن، ثُم يَفتَحها بآخِر صوت، فلجاره أن يُطالِب بالمَنْع، فلو قال: كيف تمنَعُني أن أَسمَع القرآن؟ يَقول له: لَسْتُ أَمنَعك، ولكن أَقول: استَمِعْ، لكن اخفِضِ الصوت؛ لأنَّ هذا يُؤذِيني، وليس يُؤذِيني لأني أَكرَه القرآن، ولكن لأني أُريد النَّوْم، وأولادي يُريدون النَّوْم، وأهلي يُريدون النَّوْم، والنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقول: «لَا يَجْهَرْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْقُرْآنِ»(١)، فله أن يَمنَعه، رَغْم أنَّ هذه عند العامة أَمْرها كبير، فلو أن أَحَدًا طالَب مَنْع جاره أن يَرفَع صوته بِقِراءة القرآن؛ لحَمْل الناس عليه راية الإنكار، لكن إنكار العامة أو إقرارهم ليس له تَأثير.

• • ۞ • •

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٣٤٤)، ومالك في الموطأ (١/ ٨٠ رقم ٢٩)، والنسائي في الكبرى رقم (٣٣٤٧)، من حديث البياضي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٢٠)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان:٢٠].

ثُمَّ قال اللهُ تعالى مُقَرِّرًا ما أَنعَمَ اللهُ تعالى به على عِبادِه: [﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ تَعلَمُوا يا مُخاطَبِين ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ مِن الشَّمْس والقمَر والنُّجوم؛ لِتَنْتَفِعُوا بها ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مِن الثِّمار والأنهار والدوابِّ ﴿وَأَسْبَغَ﴾ أَوْسعَ وأَتَمَّ ﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً﴾ وهي حُسْنُ الصورة وتَسْوِيَةُ الأعْضاء وغير ذلك، ﴿وَبَاطِنَةً﴾ وهي المعْرِفَةُ وغيرُها].

يُقرِّرُ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ ما أَنْعَمَ اللهُ تعالى به على العِبادِ فيقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ وإنما قُلتُ: (يُقرِّر)؛ لأنَّ همزةَ الاستِفْهام إذا دَخلَتْ على (لَمْ) أفادت التَّقرير، فينْقَلِبُ الفِعْل المُضارع إلى مُؤوَّلٍ بماضٍ مُؤَكَّدٍ بـ(قَدْ)، فمثلًا ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أي: قد رَأَيْتم، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، أي: قَدْ شَرَحْنا لَك صَدْرَك.

إذَن: الاستِفْهام للتقرير؛ لأنّه إذا دخلَت همزَةُ الاستِفْهام على (لَمْ) أفادَت التقرِير، فينقَلِبُ الفِعْلُ المُضارع فِي المعْنَى إلى فِعْلٍ ماضٍ مُؤَكَّدٍ بـ(قَدْ)، فيكون

مَعنَى ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أي: قد رَأَيْتُم؛ ولهذا في سُورَةِ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ قال الله تعالى بعدَه: ﴿وَوَضَعْنَا﴾ فَعطَفَ فِعْلًا ماضِيًا على ما سَبَق؛ لأنَّ ما قبْلَه بمَعنى الفِعْلِ المَاضِي.

وقولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾: ﴿سَخَّرَ﴾ بمَعنَى: ذَلَّل، ذَلَّلها لكم، أو لِمَصالِحكُم، ومَنافِعِكُم ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِن الشَّمس والقمَر والنُّجُوم]، وهذا على سبيل التَّمْثِيل، وإلَّا فَإِنَّه قد سَخَّرَ لَنَا أَيْضًا الرِّيَاح، وهي بَينَ السَّماء والأَرْض، وسَخَّر لَنا السَّحاب؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤] وهو لنـا، فهو عامٌّ لِكُلِّ مَا سَخَّرَهُ اللهُ تعالى من مَصالِحنا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مِن الثِّمار والأنهار والدوَابِّ، وغيرها أيضًا، حتَّى المَعادِن وغيرها سَخَّرَها الله تعالى لنا وذَلَّلَها لَنا، فكُلُّ ما في الأرض مُسَخَّرٌ مُذَلَّل، لكنَّ بَعضَه مُسَخَّرٌ بِطَبِيعَتِه، وبعضُه مُسَخَّرٌ بِوَاسِطَة، فالحدِيد والمعادِن وما أَشبَهَها مُسَخَّرَة، لكنَّها بواسِطَة، والدوَابُّ والأنهار والأشْجَار مُسَخَّرَة بِدُونِ وَاسِطَة، يَجِدُها الإنْسَان مُهَيَّأَةً كَامِلَةً.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ﴾ فَسَّرَها المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بأَمْرَيْن بالسَّعَة والإتْمام؛ أي: [أَوْسَعَ وَأَتَمَّ] ومنه قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ»[1] يَعنِي: إتْمامُ الوُضُوء، ومَعنَى ﴿وَأَسْبَغَ﴾ يَعنِي: أَوْسَعَ وأَتَمَّ، أمَّا (أَتَمَّ) فمِثالُه ما ذَكَرْت: إسْبَاغُ الوُضُوءِ على المَكارِه، وأمَّا (أَوْسَع) فَمِنهُ قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ [سبأ:١١]؛ أي: دُرُوعًا سَابِغَاتٍ: وَاسِعَةً، ومنها أيضًا قولُهم: ثَوْبٌ سَابِغ. يَعنِي: وَاسِع،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، رقم (٢٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويَدْخُل فيه الإِتْمَام أيضًا.

فالمُهِمُّ: أنَّ الإسْبَاغ يَتَنَاوَل شَيْئَيْن: الأَوَّل: إِتْمَام الشَّيْء، والثاني: تَوْفِيره، والنِّعَم التي أَنعَمَ اللهُ تعالى بها علَينَا شَامِلَةٌ لِلأَمْرَيْن، فَهِي وَاسِعَة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وهي أيضًا تامَّة، ليس فيها نَقْص، كُلُّ ما يَحتاجُه الإنسان في حياتِه، بل وكُلُّ ما يَحتاجُه في دِينِه فإنَّ اللهَ تعالى قد أَتَمَّه، والحَمْدُ لله تعالى.

وقولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ فسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿ظَٰهِرَةً﴾ بأنها الحِسِّيَّة الظَّاهِرة، والبَاطِنَة هي المَعرِفَة وغيرُها، فالنِّعَم جعَلَها اللهُ تعالى ظَاهِرَةً وَبَاطِنَة: ظَاهِرَة للعَيَان، وذكَرَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِن أَمْثِلَتِها حُسْنَ الصُّورَة واسْتِقَامَةَ الخَلْق وما أَشبَه ذلك، والباطِنَة يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هي المَعْرِفة]؛ لأنَّها في القَلْب غيرُ مَعْلُومة، وهذا لا شَكَّ أنَّه تَفْسِير نَاقِصٌ جِدًّا.

وأمَّا الظاهِرَة فالصَّوَاب أنَّها أَعَمُّ مِن ذلك فالنِّعَم إمَّا ظَاهِرَةٌ لِكُلِّ أَحَد، وإمَّا باطِنَة لا يَعلَمُهَا إلَّا الإِنْسَان، هذا واحِد.

وإمَّا ظَاهِرَة أيضًا بحيث كُلُّ يَعْرَف أنها نِعْمَة، وباطِنَة بحيث لا يُرَى أَنَّها نِعْمَة إلَّا مِن آثارِها؛ لأن بَعْض الأَشيَاء حين وُجُودِها لا تَظُنُّ أَنَّها نِعْمَة، لكن إذا عَرَفْتَ آثَارَها وجَدْتَ أنَّها نِعْمَة، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦]، فإنَّ الإنسان أحيانًا يُصيبُه ما يُصِيبُه مِن قَضَاءِ الله تعالى وقَدَرِه فلا يَرَى أنَّه نِعْمَة حتَّى يَعْرِف آثَارَهَا فِيما بَعْدُ.

والمُهِمُّ: أنَّ النِّعَم -والحمدُ لله- ظَاهِرة بَيِّنَة لِلعِيَان، وعَامَّة شَامِلَة لِلخَلْق، وشيءٌ باطِنٌ لا يَعرِفُه إلَّا مَن أَنعَمَ اللهُ تعالى به علَيه، وأيضًا هناك شيءٌ ظَاهِر وَاضِح

أَنَّه نِعْمَة، وشيءٌ باطِن لا يَتبَيَّن أَنَّه نِعْمَة إلَّا فِيها بَعْدُ.

ثُمَّ قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: (مِن) للتَّبعيض، وقدِ اختلَف المُعرِبون في (مِن) التَّبعيضية، هل هي اسمٌ؛ لأنها في مَعنَى (بَعْض)، أو أَنَّها حَرْفٌ دَالٌّ على هذا المَعنَى.

وعلى هـذا الاختِلافِ يَنبَغي الاختِلافُ في الإِعْراب: فإذا قُلْنـا (مِن) اسمٌ بمَعنَى (بَعْض)، فإننا نَقـول: (مَن) مُبتَدَأ، و﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾ خبَرُه؛ وإذا قُلْنـا: إنها حَرْف، فإنها تكـون حرفَ جَرٍّ، والجـارُّ والمَجرور مُتعَلِّق بمَحـذوف خبَر مُقدَّم، و﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾ مُبتَدَأ مُؤخَّر.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أهل مَكَّةَ] بِناءً على قاعِدته رَحِمَهُٱللَّهُ أن كل السُّوَر المَكِّية يُحمَل فيها العُموم بمِثْل هذا السِّياقِ على الخُصوص: وهم أهل مَكَّةَ، والصواب أنَّ ذلك عامٌّ، يَعنِي: من الناس من أهل مَكَّةَ وغيرهم.

وقوله تعـالى: ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ المُجادَلة مَأخوذة من الجَدْل، وهو فَتْـل الحَبْل لإِحْكامه، ومنه ما يُسمَّى الجَدائِل، جَدائِل المرأة أي: فَتْـل رأسها وإحكامها، هذا مَعناها في اللغة.

لكن في الاصطِلاح المُجادَلة: هي المُمانَعة، بمَعنَى: أن كل واحِد من المُتناظِرين يُحكِم الحُجَّة من أَجْـل إفحام خَصْمـه، فهي إِذَن إحكام الحُجَّـة لإِفْحام الخَصْم وتَعجيزه.

والمُجادَلة إن كانت بعِلْم وحِكْمة فهي مَمدوحة بلا شَكٍّ، وقد تكون واجِبة

أحيانًا كما في قوله تعالى: ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، وإن كانت بغَيْر عِلْم فإنها مَذمومة، فمَن يُجادِل بإيراد الحُجَج والعِلَل الواهية؛ لإفْحام خَصْمه ونَقْض قـوله ولو بالباطِل؛ فهذا من المُنكَر المُحرَّم، قال تعـالى: ﴿وَجَـٰدَلُواْ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ﴾ [غافر:٥].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾: ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ هل المُراد في ذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أوِ المُراد في رُبوبيته أو أُلوهيته، أو أَسمائه وصِفاته، أو أَحكامه وأَفعاله؟

الجَوابُ: تَشمَل كل هذا، فمِن الناس مَن يُجادِل في ذات الله تعالى، فهو يُنكِر وجود الله تعالى أَصْلًا، ويُجادِل في ذاته، ومن الناس مَن يُجادِل في وَحْدانيته، يُقِرُّ به، لكن يُنكِر الأُلوهية، ومِنَ الناس مَن يُجادِل في أُلوهيته، أي: في تَفرُّده في الأُلوهية، ومن الناس مَن يُجادِل في أَسْمائه وصِفاته، وأكثَرُ ما وقَع فيه الجَدَل بين المسلمين في باب الأسماء والصِّفات، وهذا بين المُسلِمين! وليس بين المُسلِمين والكافِرين، لكنِ المُسلِمون الذين يَنتَسِبون إلى الإسلام ويُسمَّوْن أهلَ القِبْلة، هؤلاءِ كثُر الجَدَل بينهم في باب أسماء الله تعالى وصِفاته.

كذلك من الناس مَن يُجادِل في أحكام الله تعالى، وما أكثَرَ المُجادِلين في أحكام الله تعالى! تَجِده يُجادِل؛ تَقول: هذا الشيءُ حرامٌ. ثُمَّ يَأتِي ويُجادِلك: ما الذي حرَّمَه؟ وما الفَرْق بين كذا وكذا؟ وهاتِ الدليـلَ، وهذا الدليلُ مَنقوض، وهاتِ التَّعليلَ، وهذا التَّعليلُ باطِل، وهكذا.

قوله تعـالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أمَّا إذا كان بعِلْم فليس فيه ذَنْب، لكن بغير عِلْم ففيه ذنب.

كذلك من الناس مَن يُجادِل في أفعال الله، فيَقول: لماذا أَنعَم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

على هؤلاء الكافِرين بالنِّعَم الكثيرة، ومن المُسلِمين مَن هو في جَهْد شَديد ومَرَض وفَقْر وجَهْل، وما أَشبَهَ ذلك؛ كذلك يُجادِل في أفعال الله تعالى في مَسأَلة القَدَر، فيَقول مثَلًا: إمَّا أن يَكون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد قـدَّر على الإنسان عمَله أو لا، فإن كان قـدَّر عليه عمَله؛ فكيف يُعاقِبه؟ وإن لم يُقدِّر عليه عمَله، فمَعنَى ذلك أن الإنسان مُستَقِلٌّ به، فيَكون مُنفَرِدًا بالحوادِث ومُشارِكًا لله تعالى فيها، وما أَشبَه هذا من الجَدَل الذي يَكون بغير عِلْم.

ولهذا يَنبَغي للإنسان في مَسائِل الشرع وفي مَسائِل القدَر؛ أنَّ يَستَسلِم لما دلَّ عليه الكِتاب والسُّنَّة، وأن لا يُجادِل؛ لأنه إن فتَح على نَفْسه باب الجدَل فلن يَستَقِرَّ له قدَم أبَدًا، ولهذا قال ابن حجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إن المَسائِل العَقْلية ليس لها دَخْل في الأمور الخبَرية»؛ لأننا لو أَرَدْنا أن نُحيل هذه الأمورَ على العَقْل، فإن العاقِل قد يُجوِّز ما كان مُمتَنِعًا شرعًا غايةَ الامتِناع، كما أنه قد يَمنَع ما هو جائِز، والمُراد بالعَقْل ما ادعَّى صاحبه أنه عَقْل، أمَّا العَقْـل الصحيح الصريح فإنه لا بُدَّ أن يُوافِـق النَّقْل الصحيـح؛ وإذا شِئْتم أن يَتبَيَّن لكم هذا فاقرَؤُوا كتاب شيـخ الإسلام ابنِ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ -إن أَطَقْتُـموه- المُسمَّى بكتاب العَـقْل والنَّقْل أو مُوافَقة صريح المَعـقول لصحيح المَنقول.

المُهِمُّ: أنَّ الجدَل بابُه واسِع، والكلام هنا في المُجادَلة المَذمومة، وهي المُجادَلة بغير عِلْم.

إذَنْ: ﴿فِى اللَّهِ﴾: في ذاتِه، وفي رُبوبيته، وأُلوهيته، وأَسمائه وصِفاته، وأَحْكامه، وأَفعاله.

---

(١) فتح الباري (١/ ١٩٣).

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يَعنِي: ما عِنده عِلْمٌ ذاتُه، ولكنه مُكابَرة ومُعانَدة.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَا هُدًى﴾ مِن رَسول] فهو ليس عِنده عِلم في نَفْسه يَهتَدِي به، وليس عنده عِلْم من غيره يَهتَدِي به.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أَنزَله الله تعالى؛ بل بالتَّقليد]، فهو ليس عِنده عِلْم، ولا اهتِداء بهَدْيِ رَسول، ولا كِتاب أَنزَله الله تعالى فيَهتَدِي به، إِذَنْ فهو يُجادِل بالباطِل، وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالتَّقليد]؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢١]، فهذا الذي أَوجَب للمُؤلِّف أن يَقول: [بَلْ بالتَّقليد]؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيان نِعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عِباده، بهذه النِّعمِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا يُحِبُّ أن يُتمَدَّح بما أَسْدى إلى عِباده من النِّعَم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الله تعالى سخر لنا ما في السموات وما في الأرض، وهو ظاهِر، وقد قال الله تعالى في آية أُخرى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جَواز استِخدام ما في هذا الكَوْنِ في السموات والأرض لَمصالِحنا؛ لأنه مُسخَّر لنا، فإذا كان مُسخَّرًا لنا، فلنا أن نَنتَفِع به، فيما أَحَلَّ الله تعالى لنا.

فلو قال قائِل مثَلًا: هل لنا أن نَأخُذ المعادِن الجارية والجامِدة؟

نَقول: نعَمْ. هل لنا أن نُحاوِل الصعود إلى الكواكِب والنُّجوم لنَرَى ما فيها من الآيات؟ وكيف تَظهَر لنا؟

الجَوابُ: نعَمْ.

ولكن إذا كان هذا يُكلِّف نَفَقاتٍ باهِظةً، أكثَرَ ممَّا نَستَفيد منه؛ فإن الحِكْمة تَقتَضي أن لا نَفعَل؛ لأن هذه المُحاولاتِ يَكون فيها من نَفاد الأموال شيء كثير؛ فإذا قُدِّر أنَّ ما فيها من نَفاد الأموال أكثَرُ بأضعاف وأضعاف ممَّا نَستَفيد منها؛ فإنَّ العقل يَقتَضي أن لا نَفعَل؛ لأن هذا من السفَه والتَّبذير، والإنسان العاقِل لا يَبذُل المال إلَّا وهو يَرَى أنه يَنتَفِع بأكثَرَ ممَّا يَبذُل.

فلو فُرِض أنك بذَلْت مالًا قَدْره أَلْف ريال؛ لتَحصُل على مَنفَعة تُساوِي أَلفَيْ ريال؛ فهذا محمود، وبالعَكْس، فلو بذَلْت مالًا يَبلُغ ألفي ريال؛ لتَحصيل مَنفَعة بقَدْر أَلْف ريال، هذا مَذموم؛ لأنك أَضَعْت ألف ريال بدون فائِدة، فيَكون هذا من إضاعة المال والإسراف.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ نِعَم الله عَزَّوَجَلَّ وافِرة، يَعني: كثيرة كامِلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ نِعَم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نوعان: ظاهِرة وباطِنة؛ سَواءٌ فَسَّرنا الظَّاهِرة بالأُمور المَحسوسة والباطِنة بالأمور المَعنوية، أو فسَّرْناها بالظاهِرة التي يَعرِفها كل أحَد، والباطِنة ما لا يَعرِفها إلَّا صاحِبها، أو فسَّرْنا الظاهِر بما هو عامٌّ يَعُمُّ جميع الناس، كالمطَر والخَصْب. والباطن بما هو دونَ ذلك، فالنِّعَم وافِرة وسابِغة من كل وَجْه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: ما أَعطاه الله تعالى للُقْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ من الحِكَم؛ فإن كل ما أَوْصَى به ابنَه، كلُّه حِكَم مُوافِق للعَقْل، والشَّرْع أيضًا يُؤيِّده.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ إذا قصَّ علينا نبأَ أَحد؛ فإن كان ذلك خيرًا فإنه يُريد مِنَّا أن نَفعَله، وإن كان غير ذلك فإنه يُريد مِنَّا أن نَتجنَّبه، فلمَّا قصَّ علينا قِصَّة قارونَ قال تَعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٦-٧٨]، فقَصَّ علينا ذلك؛ لنَحذَر ونَخاف؛ ولأَجل أن لا نَسكُت على مَن رَأَيْناه يُبذِّر ويُسرِف في الأرض؛ وهنا قَصَّ علينا قصص لُقمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ من أَجْل أن نَعتبِر بها في الحِكَم، وأن نَقتَدِيَ به في نصيحة أَبنائنا وأَهْلنا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: ذمُّ الجدَل بغير بُرْهانٍ؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن الجدَل بالعِلْم والهُدَى والدليلِ من القُرآن لا يُذَمُّ صاحِبه؛ لأنه حَقٌّ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنه يَنبَغي للمُجادِل أن يَكون له دليل من العَقْل أو من النَّقْل؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فهذا العِلْمُ الذاتيُّ الذي يَكون بطريق العَقْل، وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ هذا العِلمُ المُكتَسَب؛ فالهُدَى مِن الرَّسول ﷺ، والكِتاب المُنير القُرآن.

• • ۞ • •

الآيـة (٢١)

• ● ◌ ● •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان:٢١].

• ● ◌ ● •

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ﴾ هذه مَبنيٌّ للمَجهول، فالقائِل: الله تعالى، أو الرَّسولُ ﷺ، أو المُؤمِنون، كل هذا يُمكِن أن يَكون؛ قال الله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف:٣]، والنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَحُثُّ الأُمَّةَ على اتِّباعه، والمُؤمِنون كذلك يَدْعون الناس إلى اتِّباع ما أَنزَل الله تعالى، فيَكون هنا حُذِف الفاعِل لإرادة العُموم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾، فهذا أَعَمُّ ممَّا لو قال: (وإذا قال الله لهم، أو: وإذا قال لهم الرسول، أو: وإذا قال لَهُمُ المُؤمِنون)؛ فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ يَكون أَشمَلَ.

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: ﴿مَآ﴾ مَفعول ﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾، و﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ المُراد به القُرآن لا شَكَّ؛ لأنَّ الله تعالى أَنزَله؛ وأمَّا السُّنَّة فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣]، قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: الحِكْمة هي: السُّنَّة، إِذَنْ ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القُرآن ومن السُّنَّة؛ لأنَّ السُّنَّة وَحْي إن كان الله تعالى أَوْحاها إلى رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وإلَّا فإِقْراره سبحانه إيَّاها بمَنزِلة الوَحْيِ؛ ولهذا قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنَّ إقرار النبيِّ ﷺ بمَنزِلة قوله.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ﴾: ﴿بَلْ﴾ للإِضْراب الإبْطاليِّ، يَعنِي: بل لا نَتَّبع ما أَنزَل الله تعالى، وإنما نَتَّبع ما وجَدْنا عليه آباءَنا، والله! هذا مُعارَضة حَقٍّ بباطِل؛ لأنهم الآنَ عدَلوا عمَّا أَنزَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى الآراء فقَطْ والأهواء: ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ ولو كان شِرْكًا، وأيضًا لو كان طاعة، فلو كان طاعةً يَكون اتِّباعُهم لما عليه آباؤُهم؛ لا لأنه شَرْع، ولكن لأنَّ عليه آباءَهم؛ فحينئذ لا يَكون اتِّباع آبائِهم في هذه الحالِ اتِّباعًا للشَّرْع، ولا اتِّباعًا محمودًا.

وعلى هذا فنَقول فيمَن دُعِيَ إلى الكِتاب والسُّنَّة، وقال: أنا أُريد أن أَتَّبع فلانًا -الإمامَ الفُلانِيَّ أو العالِمَ الفُلانيَّ- مع بيان السُّنَّة ووُضوحها: إنه يَكون مُشابِهًا لهؤلاء المُشرِكين.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾: ﴿أَوَلَوْ كَانَ﴾ هذا استِفْهام يَتْلوه حَرْف عَطْف، وقد تَقدَّم لنا مِرارًا وتكرارًا أَنَّ حرف العَطْف إذا وَلِيَ استِفْهامًا ففي إعرابه قَوْلان:

أحدُهما: أنَّ همزة الاستِفْهام دخَلتَ على محذوف عُطِف عليه ما بعد حَرْف العَطْف، ويُقَدَّر هذا المَحذوفُ بحسَب السِّياق، وعلى هذا؛ فهَمْزة الاستِفْهام في مَكانها، والمُستفهَم عنه -يَعنِي: مَسؤول الاستِفْهام- محذوف.

والقول الثاني: أن الواو حَرْف عَطْف، والمعطوف عليه ما سبَق، ومَحلُّ الهمزة بعد حَرْف العطف، وقلنا: إنَّ هذا أهوَنُ من الأوَّل، فالأوَّلُ: أبلَغُ في التَّقعيد وهذا أَسهَلُ، ووجه سُهولته: أنَّ الأوَّل قد يَخفَى على الإنسان ماذا يُقدِّره، وربما يَصعُب أحيانًا تَقدير شيء مُناسِب، وأمَّا هذه فلا تَحتاج إلى شيء فتكُون مَعطوفة على ما سبَق.

أمَّا المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فمَشَى على القـول الأوَّل، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيَتَّبِعونه ولو كان الشَّيْطانَ]، فحَرْف الاستِفْهام دخَل على شيء محـذوف، وحَرْف العَطْف عاطِف على ذلك الشيء المَحذوف.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: مُوجِباته؟ لا]، يَقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: أَيَتَّبِعون آباءَهم دون ما أَنزَل الله تعالى حتى في هذه الحالِ، وهو أن الشيطان يَدْعوهم، و﴿يَدْعُوهُمْ﴾ أَظُنُّها تَشمَل أن يَدعوَ الآباء ويَدعوَ هَؤلاءِ.

وقوله تعـالى: ﴿إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ يَعنِي: إلى ما يُوجِب عذاب السَّعير من أعمال الشِّرْك والكُفْر وغيرها.

وظاهِر كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أن الاستِفـهام للإنكار والنَّـفيِ؛ لقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [لا]، ولكنه للنَّفْيِ فيه إشكال؛ لأنه لا شَكَّ أنهم يَتَّبِعونه، أمَّا للإنكار فنَعَمْ، يَقول الله عَزَّوَجَلَّ أنكَر عليهم أن يَتَّبِعوا آباءَهم والشيطانُ يَدعوهم إلى عَذاب السَّعير.

وقوله تعالى: ﴿عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ هو عَذاب النار، وأُضيف إلى السعير باعتِبار اللَّفْظ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ أن هـؤلاءِ المُجادِلين ليس عنـدهم سِوَى التَّقليد؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ذَمُّ مَن خَالَفَ الحـقَّ؛ لاتِّباع الآباء؛ لقـوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ هذا الحقَّ، قالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَحريم التَّقليد مع ظُهور الحُجَّة، ويُؤخَذ ذلك من قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أيًّا كان المُقلَّد إذا بانت الحُجَّة فإنه لا تَقليدَ، ولكن تُتْبع الحُجَّة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن التَّقليد قد يُسمَّى اتِّباعًا؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ والمَعروف المَشهور بين أهل العِلْم أنَّ الاتِّباع يَكون عن دليلٍ؛ فيُقال للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: اتَّبَعْنا الرسولَ ﷺ. والتقليد هو الذي يَكون عن غير دَليل، لكن هذه الآيَة تَدُلُّ على أن كل مَن تابَعَ أحَدًا فهو مُتَّبع له.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيان أنَّ هؤلاءِ المُخالِفين كان عندهم عِلْم بالحَقِّ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، فيَكون هذا أشَدَّ في ذَمِّهم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ظُهور العَصَبية في هؤلاء؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾، وهذا تَعصُّب للآباء، والتَّعصُّب للآباء والقبائِل من شَأْن أهل الجاهِلية.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن مُخالَفةَ الدَّليل للتَّقليد من إجابة الشَّيْطان؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن مُخالَفةَ ما أَنزَل اللهُ تعالى سبَب لدُخول النَّار؛ لقوله تعالى: ﴿يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن وَسْوسة الشَّيْطان التي يُلْقيها في قَلْب بني آدَمَ من الدَّعْوة؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَدْعُوهُمْ﴾ إِذْ إن الشَّيْطان ليس يَمْثُل أَمامهم، ويَقول: اتَّبِعوا كذا. ولكنه يُوَسْوِس في صُدورهم حتى يَتَّبِعوه، وهكذا الشيطانُ يَأمُر بالشَّرِّ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الحذَر من وَساوِس الشَّيْطان؛ لأنَّ قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، هذا للتَّوبيخِ والإنكار.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن كل شيءٍ يُوجِب العُقوبة فهو من تَلْبية طلَب الشَّيْطان والإثْم، واعلَمْ أنه من تَلْبية طلَب الشَّيْطان؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فمثَلًا لو أَراد الإنسان أن يَسرِق، أو أن يَزنِيَ، أو أن يَشرَبَ الخَمْر، أو أن يَقتُل نَفْسًا مُحرَّمة، قُلْنا: هذا من الشَّيْطان، وتَلْبية لطلَبِه؛ لأنَّ الشَّيْطان هو الذي يَدْعو إلى عَذاب السَّعير.

ويُؤخَذ من ذلك أن الشَّيْطان له عَقْل وإرادة، وقد قال الله تعالى في سُورة النِّساء: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠]، فالشَّيْطان له إرادة وله تَزْيين، و له تَلْبيس؛ ولهذا يَجِب الحذَرُ منه غاية الحذَر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن مَن دعا إلى ما يُوجِب العِقاب فهو شَبيهٌ بالشَّياطين، بل لنا أن نَقول: إنه شَيْطان، ولهذا قال النبيُّ عليه الصلاة و السلام في الذي يُمانِع إذا مُنِع من المُرور بين يدَيِ المُصلِّي قال: «فَإِنْ أَبَى فَلْيُقَاتِلْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ»(١)، وقال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

•●۞●•

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، يرد المصلي من مر بين يديه، رقم (٥٠٩)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب منع المار بين يدي المصلي، رقم (٥٠٥)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَالِلَّهُعَنْهُ.

الآية (٢٢)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان:٢٢].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يُقبِل على طاعته ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ مُوحِّد ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾] (مَن) هذه شَرْطية جوابها قَولُه تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾ وقُرِن الجَواب بالفاء؛ لأنَّه اقترَن بـ(قَدْ)، والجوابُ يقترِن بالفاء إذا كان أحَدَ أمور سَبْعة:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدِ ... وَبِـ(مَا) وَ(قَدْ) وبـ(لنْ) وَبِالتَّنْفِيسِ

وهنا اقترَن بالجواب (قَدْ)، فوجَب أن يُقرَن بالفاء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مَعناه: يَنقاد له تَمام الانقِياد، بحيثُ يُسلِمه إليه، وهذا غاية ما يَكون من التَّذلُّل والتَّوكُّل فقال تعالى: ﴿يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ولم يَقُل: لله؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أَبلَغُ، كأنه أَعْطاه الله عَزَّوَجَلَّ وبلَغ غايته بالوصول إلى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَجْهَهُۥٓ﴾ المُراد: وجهُ قَلْبه، وليس وجهَ بدَنِه، يَعنِي: اتِّجاهَه، فهو من الوجهة أي: مَن يَتَّجِه إلى الله قَصْدًا وتَوكُّلًا واعتِمادًا.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ الجُمْلة هذه حالية، حال من فاعِل ﴿يُسْلِمْ﴾،

يَعنِي: والحـال أنه مُحسِـن. والمُراد بالإحسان؛ يَقـول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُوحِّد] أي: التوحيد، ولكن الصواب خِلاف كلامه، لأنَّ التَّوْحيد مَفهوم من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، لكن قوله تعـالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: مُحسِن باتِّباع شريعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيَكون في الآية إشـارة إلى الحُكمين الأَساسِيَّين في العِبادة، وهما: الإخلاص والمُتابَعة؛ فقـوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ يَعنِي: في اتِّبـاع الشريعة، يَعنِي: مُتَّبِع لشريعته على وجهِ الإحسان.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ﴾ استَمْسَك بمَعنَى: تَمَسَّك، لكنها أَتَتْ بهذه الصِّيغةِ (استَفعَل) للمُبالَغة، أي: للمُبالَغة في التَّمسُّك؛ لأن (استَمْسَك بكذا) أَقوَى من قولك: تَمَسَّك به؛ لأنهم يَقـولون: إن زيادة المَبنى تَدُلُّ على زِيادة المَعنَى؛ فلَمَّا كثُرَت حروف (استَمْسَك) صارت أَقوى في مَعناها من: (تَمَسَّكَ).

وقـوله تعالى: ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ يَقـول المُفَـسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ بالطرف الأَوْثَق، الذي لا يَخاف انقِطاعه] الإنسـان عندما يَتمَسَّك بالحَبْـل؛ فتارةً يَتمسَّك به بطرَفه وليس له عُروة، وتارة يَتمَسَّك به بطرَفه وهو مَعقود، وتارةً يَتمسَّك به بطرَفه وهو مَثـنِيٌّ كالعُروة؛ فالأَبلَغُ العُـروة؛ لأنَّ الإنسـان لو تَمَسَّك بطرَفه ربما يُزلَق فيَسقُط، وكذلك بطرَفه مَعقودًا لا يَتمَكَّن مثلما يَتمكَّن بطرَفه إذا كان عُروة.

و﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾ مُؤنَّث (أَوثَق)؛ لأنَّ العروة التي هي أَوْثَق شيء، ولا ريبَ أن مَن أَسلَم وجهه لله تعالى وهو مُحسِن فإنه سيَنجو من كل مَكروهٍ، ويَفوز بكُلِّ مَطلوب؛ لأنَّ هذا هو الطريق الأمثل الذي يُوصِل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: أن تُسلِم وجهَك إليه وأنت مُحسِن.

وورد مِثـلُها في القُرآن قال تعـالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ

فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ لَمَّا بيَّن أنَّ الذي يُسلِم وجهَه إلى الله تعالى وهو مُحسِن أنه مُستَمْسِك بالعُروة الوُثْقى، وأن الإنسان في حال الإسلام إلى الله تعالى والإحسان قد يَعتَريه أمورٌ يَشُكُّ هل هو مُستَمْسِك بالعُروة الوثقى أم لا؟ مثل أن يَتخلَّف عنه النَّصر في يوم من الأيام وما أَشبَه ذلك، فيَخشَى أن يَكون على غير حَقٍّ، فبيَّن الله تعالى أنَّ عاقِبة الأمور إلى الله تعالى.

وهذا كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج:٤٠-٤١]؛ لأنَّ الإنسان قد يَقول: ما قيمة هذه الأشياء بالنِّسبة للقَنابل والصواريخ، وما أَشبَه ذلك؟ فبيَّن الله تعالى أن عاقِبة الأمور لله تعالى؛ فأنت ما دُمْت قُمْت بأسباب النَّصْر التي بيَّنها الله تعالى لك؛ فلا يَخْدَعنَّك ما أُعطِيَ أعداءُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من القُوَّة المادِّية؛ لأنَّ هذه القُوَّة المادِّية تَتَضاءَل بكلِمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا أَراد عَزَّوَجَلَّ أن يَخسِف بهم جميعًا الأرض، أو يُفسِد عليهم مُعدَّاتهم قال: (كُنْ فيكون)؛ ولهذا أَعقَبها بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾، حتى لا يَستَبعِد الإنسان نَصر الله عَزَّوَجَلَّ بسبب ما أُوتِيَ أعداؤُه من القُوَّة؛ لأنَّ العاقِبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وهذه مِثلُها أيضًا، فيُسلِم الإنسان وجهَه لله تعالى وهو مُحسِن، ويَنتابُه بعضَ الأحيان شُكوك، وهل هو على حَقٍّ أم على غير حَقٍّ، وهل هذا الاستِمْساك حقيقيٌّ أم لا؟ فبيَّن الله تعالى أن عاقِبة الأمور إلى الله تعالى، وأنك متى أَسلَمْت وجهَك إلى الله تعالى وأنت مُحسِن فلا بُدَّ أن تَنجوَ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾: (إلى) تُفيد الغاية؛ يَعني:

غاية عاقِبة الأمور إلى الله تعالى لا إلى غيره، فهو الذي يُدبِّر الأمور كيف يَشاء حتى تَصِل إلى ما يُريده سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿ٱلْأُمُورِ﴾ جَمْع أَمْر، واحِد الأمور، يَعنِي: الشُّؤون، كل الشُّؤون الدِّينية والدُّنيوية العامة والخاصة، كلُّها عاقِبَتها إلى الله تعالى.

هذا قِسْم من الناس: الذي أَسلَم وجهَه إلى الله تعالى وهو مُحسِن؛ والثاني: الكافِر؛ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ﴾ يا مُحَمَّدُ ﴿كُفْرُهُۥٓ﴾ لا تَهتَمّ بكُفْره ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾...] إلخ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الفائِدةُ العَظِيمة في الإخلاص والمُتابَعة؛ الإخلاص من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، والمُتابَعة من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ مَن لم يَكُن كذلك فهو هالِكٌ لا مُتمَسَّكَ له؛ لأنه رَتَّب الاستِمْساك على هَذَيْن: إسلام الوجهِ لله تعالى مع الإحسان؛ وعلى هذا فمَنْ لم يَأتِ بهما فلَيْس له نَجاةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ أَوْثَق ما يَستَمْسِكُ به الإنسان من نَجاة هو الإخلاصُ والمُتابَعة؛ لأنَّ كلِمة (الوُثْقَى) اسمُ تَفضيل، فهي مِثْل (أَوثَق) في المُذكَّر.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فضيلة الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، وقد سبَقَ لنا أنَّ الإِحْسان يَكون في عِبادة الله تعالى، ويَكون في مُعامَلة عباد الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ عواقِبَ الأُمور إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فهو الذي بيَدِه مَلكوت السمَواتِ والأَرْض، وكَمْ مِن إنسان يُقدِّر، ولكن أَمْر الله تعالى يَأْتي على خِلاف

تَقديره؛ والدَّليلُ قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الإشارة إلى أنَّه يَنبَغي لِمَن أَسلَم وجهَهُ لله تعالى وهو مُحسِن أن يَصبِر؛ لأن العاقِبة له، فلا يَتعَجَّل أو يَستبعِد الفرَجَ، أو يَستَبْعِد النَّصْر؛ لأنَّ الأمورَ كلَّها تَرجِع إلى ربِّ العِزَّة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه لا أحَدَ يَستَطيع أن يُدَبِّر في الكون، ويُؤخَذ ذلك من تَقديم الخبَرَ الدالِّ على الحَصْر.

الآيــة (٢٣)

• • ● ● •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [لقمان:٢٣].

• • ● ● •

قوله تعـالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ ﴾: (مَن) هذه شَرْطية، وفِعْل الشَّرْط ﴿كَفَرَ ﴾، وجوابه قوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ ﴾، وقُرِن بالفاء؛ لأنَّ (لا) ناهِية.

وقوله تعـالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ هذا عامٌّ من الأقارِب والآباء، لأنَّ الرسول ﷺ يَحزَن لكُفْر الكافِرين سواء كانوا أقارِبَ له أم أباعِدَ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَا يَحْزُنكَ ﴾ يا مُحَمَّدُ] أَبانَ المُفَسِّر أنَّ الخِطاب في قوله تعـالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ ﴾ للرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويُحتَـمَل أن يَكون مُوجَّهًا للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولكل مَن يَصِحُّ خِطابـه ممَّن شأنه أن يَحزَن إذا كفَر عِباد الله تعالى؛ فيَكون على هذا المَعنَى أعمَّ ممَّا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله تعـالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾ الحُزْن هو ضِدُّ السرور، وإذا قيل: حُزْن وخَوْف؛ صار الحُزْن على الماضي، والخَوْف للمُستقبَل. وقد يُطلَق الحُزْن على الخَوْف، كما في قوله تعـالى: ﴿إِذْ يَـقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة:٤٠]، يَعـنِي: لا تَحزَن، أي: لا تَخَفْ، فإنَّ الله تعـالى معَنا، على أنه يُحتَمَل أن يَكون المَعنَى: لا تَحزَن على ما فعَلْنا من اللُّجوء إلى هذا الغارِ، فيَكون على الأصل.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [لا تهتَمَّ بكُفْرِهم] وظاهِر كلامه: أنَّ الحُزْن هنا بمَعنَى الاهتِمام بالشيء، يَعنِي: لا يُهِمَّنَّك أَمرُهم، ولكن الحزن أَخَصُّ من الاهتِمام، فإبقاء الآية على ظاهِرها وهو أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَحزَن إذا كفَر الناس، وكذلك مَن كان ناصِحًا لله تعالى ولرسوله ﷺ يَحزَن إذا كفَر الناس؛ أَقول: إن حَمْلها على ظاهِرها أَوْلى.

وفِعْلًا فإن الإنسان الناصِح يَحزَن إذا كفَر الناس، يَحزَن لأَمْرين:

أوَّلًا: رحمةً بهؤلاء الذين كفَروا.

وثانيًا: حُزْنًا على ما فات الإسلامَ من كثرة المُتَّبِعين؛ لأن كَثْرة مُتَّبِعي الإسلام عِزٌّ للإسلام.

والدليل آيتان تَدُلَّان على أن الكَثْرة عِزَّة: قال شُعَيْبٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف:٨٦]، وقال تعالى مُمتَنًّا على بني إسرائيلَ: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء:٦].

فالكثرةُ عِزٌّ في الدليل الشَّرْعيِّ والواقِعيِّ.

أمَّا أعداء المُسلِمين الآنَ فيُحبِّذون المُسلِمين أن يُقلِّلوا النَّسْل، فتارةً يَقولون: إذا كثَّرتمُ النَّسْل ضاق الرِّزْق؛ كقَوْل الكُفَّار الذين يَقتُلون أولادهم خَشْية الإملاق، وتارة يَقولون: إذا كثُر الأولاد عجَزْتم عن تَرْبيتهم، إساءةَ ظَنٍّ بالله عَزَّوَجَلَّ، وتارة يَقولون: إذا كبُر السِّنُّ ضعُفَتِ المرأةُ، ولَحِقها الضَّعْفُ. وهكذا؛ وهذا لا بُدَّ منه، فلا بُدَّ أن تَضعُف المرأة، كما قال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان:١٤].

والحاصِلُ: أنَّ كثرة الأُمَم عِزٌّ لها.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جُمْلة خَبْرية قُدِّم فيها الخبَر لإفادة الحَصْر.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْنَا﴾ يَعنِي: نحن الله عَزَّوَجَلَّ، لا إلى غَيْره.

وقوله: ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ مَصدَر مِيميٌّ؛ أي: رُجوعهم؛ فرُجوعهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ لا إلى غيره، وهو الذي يُحاسِبهم على أعمالهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ نُخبِرهم، وإذا أُخبِروا بذلك يُجازَوْن عليه، فإن الكافِر لا بُدَّ أن يُجازَى على ذَنْبه، ولكنه يُجازَى بالعَدْل؛ ولهذا كانت النار دركاتٍ بحسَب جُرْم الكافِرين، والمُنافِقون في الدَّرْك الأسفَل من النار؛ فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ أي: نُخبِرهم على سبيل التَّوْبيخ والإهانة، ثُمَّ نُجازيهم بما يَستَحِقُّون.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْنَا﴾ و﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ هنا ضَمير جَمْع، لكن المُراد به التَّعْظيم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ هذا تَكميل للتَّهديد، يَعنِي: أنَّ الله عليم بذات الصُّدور، وذات الصُّدور هي القلوب؛ لأنها فيها، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، فمَعنَى ذاتِ الصُّدور أي: صاحِبة الصُّدور، وهي القُلوب؛ وقال تعالى: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ دون القُلوب؛ لأنَّ ما كان داخِلَ الصَّدْر مَحجوب عن الخَلْق، لا يَعلَمه إلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ دليلٌ على أنَّ الكافِر يُحاسَب على عمَل القَلْب، وهو كذلك؛ لأنه لولا أنه يُحاسَب لم يَكُن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كبيرُ فائِدةٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يَحزَن لكُفْر مَن يَكْفُر؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾.

فإن قال قائِل: هذا ليس بصريحٍ على ذلك!

قلنا: إذا لم يَكُن صَريحًا فإنه يَـدُلُّ على أنَّ ذلك مُتَـوقَّع من الرسـول ﷺ، إذ لو لم يَكُن مَوْجودًا أو مُتَوقَّعًا، لكان النَّهيُ عنه لا فائِدةَ منه، وقد قـال الله عَزَّوَجَلَّ في آية أُخرَى ما يَدُلُّ على أنه كان يَحزَن كما في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود:١٢]، وما أَشبَهَ ذلك مِمَّا يَدُلُّ على أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يَحزَن.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ كلامه عَزَّوَجَلَّ بصَـوْت مَسموع؛ لقوله تعـالى: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾؛ لأنَّ ما لا يُسمَـع لا يَكون فيه إنباءٌ؛ فلا إنباءَ إلَّا بصَوْت مَسمـوع، وهذا الصوتُ ليـس كأصواتِ المَخلوقين، بل هو أَعظَـمُ وأجَلُّ؛ ولهذا إذا تَكلَّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالوَحْيِ صَعِـق أهلُ السَّمواتِ وارْتَجفَتِ السموات، ومَعلوم أنَّ صَوْت أَحَـدٍ منَ الخَلْق لا يَحدُث منه هذا الشيءُ، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ أَعظَمُ وأَجَلُّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ عِـلْمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقوله تعـالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: التَّخويفُ من مُخالَفة الإنسان باطِنًا؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فإيَّاكَ والمُخالَفةَ في الباطِن، لا تَقُـلْ: إنني لم أُظهِر، ولا أَحَـدَ يَعلَم،

فإنه وإن لم يَعلَمِ الخَلْقُ؛ فالله تعالى يَعلَم مَهما تكتُمِ الشيءَ، فإن الله تعالى يَعلَمه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه يَنبَغي للإنسان مُراقَبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دائمًا؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ ولهذا جاء في الحديث: «**أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ**»[1]؛ لأنك إذا علِمْت بذلك، وأَيْقَنْت به، أَوْجَب لك ذلكَ مُراقَبةَ الله عَزَّوَجَلَّ والرَّغْبة إليه، وأن تكون هِمَّتُك دائمًا في طلَب ما يُرضِي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فإذا كان الإنسانُ يُؤمِن بهذا الأمرِ، وبمُراقَبة الله عَزَّوَجَلَّ لِمَا في قَلْبه؛ فإنه لو هَمَّ بمَعصية في أَخفَى ما يَكون في الأرض، فسيَردَعه ذلك الإيمانُ عن هذه المَعصيةِ؛ ولهذا حِماية الإيمانِ لِمُعتَنِقيه أعظَمُ بكَثير من حِماية السُّلُطات لِما تُوجِّهُ إليه؛ فالشَّعْب المُؤمِن لا يَحتاج إلى مُراقَبة السُّلُطاتِ؛ لأنه يَعلَم أنه مُراقَب من قِبَل مَن يَعلَم خائِنة الأَعْيُن وما تُخفِي الصُّدور؛ لكن إذا ضعُف الإيمان احتاج إلى قُوَّة السُّلْطان، فإنْ ضَعُف الإيمان والسُّلْطان فسَدَتِ الأَدْيانُ والبُلْدان؛ فإذا اجتَمَعَتِ القُوَّتان: قوَّةُ الإيمان وقُوَّةُ السُّلْطان؛ فهذا هو الكَمال، وإن ضَعُفا جميعًا فهذا هو الهَلاك، وإن ضعُف أَحَدُهما دون الآخَر ففيه حَياة ومَوْت.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط رقم (٨٧٩٦)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة رقم (١٦٨٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٢٧)، من حديث عبادة ين الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٢٤)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان:٢٤].

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ يعني: نَجعَلهم يَتَمتَّعون؛ يَأكُلون ما شاؤُوا، ويَلبَسون ما شاؤُوا، ويَركَبون ما شاؤُوا، ويَسكُنون ما شاؤُوا، ويَتنَعَّمون بكل نعيم الدنيا، ولكنَّ هذا قليل وقليل وقليل، يَقول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1]، فمَوضِع السَّوْط خير من الدُّنْيا، وليسَت هي دُنياك التي أنت فيها فقط، بل من أوَّلِها إلى آخِرها: «مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا».

فهؤلاء -والعِياذُ بالله- يُمتَّعون قليلًا، وما أقلَّ الدنيا ومَتاعَها! كلُّ ما مضَى من الدنيا إلى ساعَتِك الحاضِرة كأنه لم يَكُن، كأنه أضغاث أحلام؛ يُعَمَّر الإنسان فيها ما يُعمَّر، ومع ذلك يوم يَرَوْن ما يُوعَدون؛ قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس:٤٥]، فيُمَتَّعون قليلًا.

والقِلَّة هنا باعتِبار نَوْع المَتاع، وباعتِبار زمَنه؛ فنَوْع المَتاع بالنِّسْبة لمَتاع الآخِرة قليل جِدًّا، وليس يُنسَب، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَيسَ في الدُّنيا مِمَّا في الآخِرة

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِلَّا الأَسْماءُ»[1]؛ كذلك بالنسبة للزمَن، فالزمَن قليل جِدًّا، ولا يُنسَب أيضًا، يَعنِي: لا يُنسَب إلى زمَن الآخِرة الأَبَديِّ.

وقد بيَّنَ الله تعالى في آية أُخرى صِفة هذا التَّمتيع، وقال جلَّ ذِكْرُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [محمد:١٢]، ثُمَّ النَّارُ مَثْوًى لهم، هذا صِفة هذا التَّمتُّعِ، فهم شَهْوانيُّون ليس لهم إلَّا شَهْوة البَطْن وشَهْوة الفَرْج، كما تَفعَل الأنعام تمامًا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾: ﴿ثُمَّ﴾ يَعنِي: بعد هذا التَّمتيعِ القليل نَضطَرُّهم في الآخِرة إلى عَذاب غَليظ، وهو عذاب النار، ولا يَجِدون عنه مَحيصًا؛ فقوله تعالى: ﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾ يَعنِي: نُلجِئُهم، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ [النحل:١١٥] يَعنِي: فمَنْ أُلجِئَ، وأَصلُه مَأخوذ من الإِلْجاء إلى الضرَر؛ لأنَّ (نَضْطَرُّ) أصلها (نَضْتَرُّ)؛ ولهذا كل شيء يُلجِئ الإنسانَ يُسمَّى ضَرورة؛ لأنه يُلجِئه إلى هذا الشيءِ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ لأنهم هم لا يُريدونه، فلا يُريدون النار، ولا يُريدون هذا العذابَ، لكنهم يُجبَرون عليه -والعِياذُ بالله-؛ لأنهم عمِلوا أَسبابه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾ في الآخِرة] المُراد بالآخِرة يوم القِيامة، ويَدخُل فيه القبر؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابنُ تيميَّةَ[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العَقيدة الواسِطية:

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦٦)، وأبو نعيم في صفة الجنة رقم (١٢٤).

(٢) العقيدة الواسطية (ص٩٥).

«ومِمَّا يَدخُل في الإيمان باليوم الآخِر كلُّ ما أَخبَرَ به النبيُّ ﷺ مِمَّا يكون بعد الموت»، كلُّه من اليوم الآخِر، فهم بعد هذا المَتاعِ يُلجَؤُون إلى العَذاب -والعِياذ بالله-.

وقوله تعالى: ﴿نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ﴾ العَذاب: العُقوبة، و﴿غَلِيظٍ﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه [عَذاب النار] وضِدُّ غَليظ: رقيق.

وغِلَظ عذاب النار في كَيْفيته وفي نَوْعه -والعِياذُ بالله-:

أمَّا الكيفيةُ؛ فإنَّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]، ويقول فيما يُعذَّبون فيه: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ [الإسراء:٩٧] -والعِياذُ بالله تعالى-.

أمَّا نَوْعه: فإنه لا يَخطُر بالبال ولا بالخَيال؛ فيُسْقَوْن ماءً حميمًا، فإذا ماتوا من العطَش واستَغاثوا وطلَبوا الغَوْث فإنهم يُغاثون: ﴿بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ [الكهف:٢٩]، وهو الرَّصاص المُذاب -والعِياذُ بالله- ﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَ﴾ [الكهف:٢٩]، فإذا أَقبَل على الوجه شَوَى الوَجْه؛ وإذا نَزَل إلى الأمعاء: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد:١٥] وأحيانًا يُسقَوْن من ماء صديد: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾ [إبراهيم:١٧].

فهذا العَذابُ -والعِياذ بالله- بأنواعه الشديدة العَظيمة، يَستَحِقُّ أن يُوصَف بأنه عَذاب غَليظ، ليس فيه رِقَّة ولا دِقَّة، بل هو غَليظ شديد.

وقول المُفسِّر: [وهو عَذاب النار ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا﴾ [النساء:١٢١]] قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا﴾ هكذا في القُرآن، يَعنِي: لا يَجِدون مَفرًّا

﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف:٥٣]، بل إنهم -والعِياذُ بالله- يأْتون إليها وِرْدًا عِطاشًا، وتُمَثَّل لهم كأنها سَراب ماء، والعَطْشان إذا رأى الماء ولو كان سَرابًا يَظُنُّه ماءً لشِدَّة التِفاتِه إلى الماء، فيَرِدونها على هذا الوجهِ -والعياذُ بالله- ويَتَساقَطون فيها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن الكافِر قد يُمتَّع في الدنيا أَكثَرَ مِمَّا يُمتَّع المُؤمِن؛ لأنه تعالى قال: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ ﴾ وهذا هو الواقِعُ؛ فإنَّ بعضَ الكُفَّار يَكون أَشَدَّ تَمتُّعًا في الدنيا من المُؤمِنين، ولكنه كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَلِيلًا ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن التَّمتيع في الدُّنْيا قليل في زمَنه ونَوْعه، أمَّا زمَنه فظاهِر؛ قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦]، وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف:٣٥]، وأمَّا نوعُه فقد قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(١).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ عَذاب الكُفَّار عَذاب غَليظ، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الكُفَّار يُضطَرُّون ويَلْجؤون إلى دُخول هذا العذابِ؛ لقوله تعالى: ﴿نَضْطَرُّهُمْ ﴾.

واعلَمْ أنَّ هذا الاضطِرارَ يَكون عند خُروج الرُّوح، ويَكون كذلك في الآخِرة:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أمَّا عند خُروج الرُّوح فإنه قد ورَد في حَديث البَراء الطويل: «أَنَّهُ إِذَا حَضَرَ المَوْتُ إِلَى هَـؤُلَاءِ الْكُفَّارِ وَبُشِّرَتْ رُوحُهُ بِالْغَضَبِ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَإِنَّهَا تَتَفَرَّقُ فِي بَدَنِهِ؛ تَتَشَبَّثُ فِيهِ، حَتَّى يَنْتَزِعُوهَا مِنَ الْبَدَنِ، كَمَا يُنْزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المَبْلُولِ»[1] يَعنِي: بشِدَّة.

ويَدُلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام:٩٣]، فقوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓا۟﴾ يَدُلُّ هذا الأمرُ على أنهم كانوا أَشِحَّاءَ في إِخْراجها؛ ثُمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ...﴾ إلى آخِرِه؛ هذا مَعنَى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي: لا يأْتون مُختارِين مُنقادِين، وهذا واضِح.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآخِرة: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣] يُدفَعون بعُنْف، حتى يَدخُلوها والعِياذُ بالله تعالى.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨).

الآيـة (٢٥)

• ● ● •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان:٢٥].

• ● ● •

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَئِن﴾ لام قسم ﴿سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾]، قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يقول: [لام قَسم]، مَقرون بـ(إنِ) الشَّرْطية، حُذِف جَواب الشرط، وبَقِيَ جواب القَسَم؛ وهو ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وقد قال ابنُ مالِك:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ جَـوَابَ مَـا أَخَّـرْتَ فَهْـوَ مُلْتَـزَمْ[1]

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يُحتَمَل أنه الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أو مَن يَتأتَّى خِطابه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ هذا هو صِيغة السُّؤال: مَن خلَق السمواتِ والأرضَ؟ خلَقها اللَّات أو العُزَّى أو مَناة أو هُبَل أَمْ مَنْ؟

الجَوابُ: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فهم يَعترِفون بأنَّ خالِق السمواتِ والأرضِ هو الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) الألفية (ص٥٩).

وقوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ جواب القسَم، قال المُفسِّر: [حُذِف منه نون الرَّفع؛ لتَوالِي الأمثال، وهو الضمير لالتِقاء الساكِنَيْن] أصله: (لَيَقولُونَنَّ)، هذا أصلُه؛ لأن هذا فِعْل مُضارِع من الأفعال الخمسة، لا بُدَّ فيه من الواو والنون، فنَقول: ليَقولون. وإذا أَرَدْت أن تُؤكِّد المَعنَى: (ليَقولُونَنَّ)، فاجتَمَع عِندنا ثلاثُ نونات كلُّهن زائِدات، ونَفصِل بينهن بحُكْم، يَقول: إن حذَفْنا نون الرَّفْع بَقِيَت نونُ التوكيد، وإن حذَفْنا نون التوكيد بقِيَت نون الرَّفْع؛ فنَحذِف نون الرَّفْع لسببَيْن:

السبَب الأوَّل: أنَّ نون الرفع اعتِيدَ حَذْفُها، فيما إذا كان الفِعْل مَنصوبًا أو مجزومًا، بل إنها قد تُحذَف في غير حالَي النَّصب والجَزْم، فتُحذَف للتَّخفيف، كما في قول الرسول ﷺ: «وَاللهِ لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا»[1] «لَا تَدْخُلُوا» هذه ليس فيها لا ناصِبٌ ولا جازِمٌ، حُذِفَت للتخفيف، وأصله: (لا تَدْخُلونَ) حُذِفَت النون للتخفيف.

السبَب الثاني: أن النون تُحذَف مع الوِقاية كثيرًا؛ إِذَنْ فهي أحقُّ بالحذف، فتَبقَى نون التَّوْكيد؛ لأننا لو حذَفْنا نون التوكيد فات المَقصود، ونحن نُريد أن نُؤكِّد الفِعْل، وتوكيد الفِعْل هنا واجِب؛ لأنه مُثبَت، في قَسَم، مُستَقبَل، لم يُفصَل بين لامه وبين فِعْله؛ فيَكون تَوكيدُه واجِبًا.

أمَّا الواو مع نون التَّوْكيد، الواو ساكِنة ونون التوكيد مُشدَّدَة، فالحَرْف الأوَّل منها ساكِن، فاجتَمَع ساكِنان، ولا يُمكِن اجتِماع ساكِنَيْن؛ لأن السُّكون والحرَكة نَقيضان، فلا يُمكِن أن يَجتَمِع الشيء ساكِن وساكِن، فإذًا لا بُدَّ من أن نَعمَل عمَلًا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم (٥٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُخرِجنا من اجتِماع الساكِنَيْن؛ فإن كان الحرف الذي قبل الساكِن صحيحًا كسَرْناه، إذا كان الحرف الصحيح الذي قبل الساكِن صحيحًا كسَرْناه، وإن كان الحرف غيرَ صحيح -حرف لين- فإننا نَحذِفه.

قال ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إنْ سَاكِنَان الْتَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ وَإنْ يَكُنْ لَيْنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقْ[1]

فهنا الساكِنُ الأوَّل الواو حَرْف لين؛ إذن نَحذِفه، فتَلتَقي اللامُ مع النون، (ليَقُولُنَّ).

فصار عندنا في هذا الفِعْلِ حَذْفان: حَذْف النون؛ لتَوالي الأمثال، وحَذْف واو الرَّفْع؛ لالتِقاء الساكِنَيْن، وعلى هذا يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حُذِف منه نونُ الرَّفْع؛ لتَوالِي الأمثال، وواوُ الضَّمير؛ لالتِقاء الساكِنَيْن].

إعراب قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾ في ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فاعِل لِفِعْل محذوف، والتَّقدير: (خلَقَهُنَّ الله)، ويَدُلُّ لذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزُّخرُف:٩] ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ﴾ فذكَر الله تعالى الفِعْل، أمَّا هنا فالمَحذوف الفِعْل، ويَصِحُّ أن نَقول: إن المَحذوف اسمٌ، التَّقدير (هو الله)، لكِنْ خِلاف الأَوْلى؛ لأن السؤال مُعاد في الجَواب، والسُّؤال بلَفْظ الفِعْل: مَنْ خلَق؟ فيَقتَضِي أن يَكون الجَواب كالسُّؤال؛ بالفِعْل: خلَقَهن.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: ﴿قُلِ﴾ يَعنِي: إذا أَقرُّوا واعتَرَفوا.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ مُبتَدأ، و﴿لِلَّهِ﴾ خبَره، فالحمد لله تعالى

---

(١) ذكره الصبان في حاشيته على شرح الأشموني (١/ ١٣٤).

على بيان الحُجَّة، وظُهور المَحجَّة، فالآنَ هُمُ اعترَفوا بأنهم على ضَلال في شِرْكهم، فالحَمْد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هنا على بَيان الحُجَّة وإظهارها؛ لأنهم خُصِموا في ذلك؛ فإنهم إذا أَقَرُّوا واعترَفوا أن خالِق السموات والأرض هو الله تعالى، وأن هذه الأَصنامَ لا تَخلُق؛ فقَدْ أَقَرُّوا على أنفسهم بأنَّ هـذه الأصنامَ لا تَستَحِقُّ العِبادة؛ ولهذا: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

كما يُمكِن أن نَقول مع ذلك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على خَلْق السَّموات والأرض، أي: أنه يُحمَد على أنه الخالِقُ عَزَّوَجَلَّ دون غيره؛ فيُحمَد على ما له من صِفات الكَمال، ومن جميل الأفعال.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ظُهور الحُجَّة عليهم]، الحَمْد تَقدَّم لنا مِرارًا وتكرارًا بأنه وَصْف المَحمود بالكَمال، مع المَحبَّة والتَّعظيم، واللَّام في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ للاستِحْقاق والاختِصاص، للاستِحْقاق؛ لأنه هو المُستَحِقُّ للحَمْد، كما قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ**»[1]، وللاختِصاص؛ لأن الذي يَستَحِقُّ الحمد المُطلَق هو الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بل هنا للإِضْراب الانتِقاليِّ، فهو انتِقال مِمَّا سبَق للتَّسجيل عليهم بالجَهْل التامِّ؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وجوبَه عليهم]؛ يَعنِي: التَّوْحيد، وإنما نَفَى العِلْم عنهم؛ لانتِفاء فائِدته، والشيء قد يُنفَى لانتِفاء فائِدَته؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ يَسمَعون بآذانهم، ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١] نفَى السَّمْع عنهم؛

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، رقم (٤٧٨)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

لانتِفاء فائِدتـه بالنِّسبة إليهم، ففي قـوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ نفَى العِلْم عنـهم، وإن كانوا يُقِرُّون بأن الله تعالى هو الخالِق، لكنهم لم يَنتَفِعوا بهذا العِلْم، وعالِم لم يَنتَفِع أشَدُّ قُبْحًا من جاهِل لا يَدرِي؛ لأنه جاهِل مُركَّب، وذاك جاهِل بسيط؛ ولأنه مُعانِدٌ مُستكبِر، والآخرُ غير مُعانِد، فالجَهْل المُركَّب أَشَدُّ قبحًا، والعِناد عن عِلْم أشَدُّ من العِناد عن جَهْل، يَقول الشاعِرُ بيتين:

وَمَــنْ رَامَ الْعُلُــومَ بِغَـيْرِ شَـيْخٍ ... يَضِـلُّ عَــنِ الصِّــرَاطِ الْمُسْـتَقِيمِ

وَتَلْتَـبِسُ الْعُلُـومُ عَلَيْـهِ حَتَّـى ... يَكُونَ أَضَلَّ مِنْ تَوْمَـا الحَكِـيمِ[1]

(تُومَا) جاهِل مُركَّب يُسمُّونه الحَكيمَ، لكنه غرَّه أنهم سمَّوْه الحكيمَ، وبدَأَ يُفتِي في كل شيء، حتى أَفتَى بأنه مَن تَصدَّق على إنسان بابنَتِه فإنه يَدخُل الجَنَّة، فقيل:

تَصَـدَّقَ بِالْبَنَـاتِ عَـلَى رِجَـالٍ ... يُرِيــدُ بِــذَاكَ جَنَّــاتِ النَّعِــيمِ!

فلو قال قائِل: ما الفَرْقُ بين الجَهْل المُركَّب والجَهْل البَسيط؟

فالجَوابُ: الجَهْل المُركَّب والبَسيط نَظْمُه في البَيْتَيْن الآتِيَيْن:

قَــالَ حِمَــارُ الحَكِــيمِ تُومَــا ... لَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ كُنْـتُ أَرْكَـبْ

لِأَنَّنِــــي جَاهِــــلٌ بَسِــــيطٌ ... وَصَــاحِبِي جَاهِــلٌ مُرَكَّــبْ[2]

---

(١) ذكرهما ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/ ١٢٥)، وعزاهما لأبي حيان النحوي، وانظر: نفح الطيب للتلمساني (٢/ ٥٦٤).

(٢) غير منسوب، وانظره في: نهاية الأرب للنويري (١٠/ ١٠٠)، والآداب الشرعية (٢/ ١٢٦)، وزهر الأكم للحسن اليوسي (١/ ١٩٨).

فالحِمار يَقول: إني جاهِل بَسيط، وصاحِبه الذي هو تُوما جاهِل مُركَّب، فالجاهِل هو الذي لا يَدرِي أنه جاهِل، هذا مُركَّب، والبَسيط هو الجاهِل الذي يَعلَم أنه جاهِل.

ويَتَّضِح بالمِثال: إذا قال لك قائِل: متى كانت غَزوةُ بَدْر؟ فقلتَ: لا أَدرِي، نُسمِّي هذا جاهِلًا بَسيطًا، فإنسانٌ لا يَعرِف وعرِف أنه لا يَعرِف، وقال: لا أَعرِف. وقال رجُلٌ لآخَرَ: متى كانت غَزوةُ بَدْر؟ قال: الحمد لله الذي فتَحَ على الجاهِلين، كانت غَزوةُ بَدْر في جُمادَى الآخِرة سَنَةَ تِسْع من الهِجْرة؛ فالآنَ هو جاهِل وهو لا يَدرِي أنه جاهِل؛ ولهذا استَفْتَح بقوله: الحمدُ لله الذي فتَحَ على الجاهِلين، فيُقال: أنت لم يَفتَحِ الله عليك! لأنك جاهِل.

ومعنى مُركَّب أنه مُركَّب من جَهْلَيْن؛ جهلِه بالواقِع، وجهلِه بحاله.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن فيها دَليلًا على أنَّ المُشرِكين في عهد الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُقِرُّون برُبوبية الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هذا التَّوْحيدَ -تَوحيدَ الربوبية- لا يَنفَع مَن أَقَرَّ به فقَطْ؛ لأن هؤلاءِ المُشرِكين لم يَنتَفِعوا بهذا الإقرارِ، بَلْ لا بُدَّ من أن يُضاف إليه تَوْحيد الأُلوهية والأسماء والصِّفات.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات أن خالِق السموات والأرضِ هو الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائِل: هل المَخلوق يَخلُق؟

قُلْنا: لا، المَخلوق لا يُمكِن أن يَخلُق، وخَلْق المَخلوق إنما هو تَحويل شيءٍ إلى

شيءٍ، فيَجعَل الخشَبَ بابًا، ويَجعَل المَدَر بيتًا، وما أَشبَهَ ذلك، ولكن لا يَخلُق خشَبةً ليَجعَلها بابًا، ولا يَخلُق مَدَرًا كي يَجعَله بيتًا؛ فكُلُّ ما في الإنسان من مَصنوعات ومُبتَكَرات ومُبتَدَعات إنما هو تَغيير وتَحويل من شيء إلى شيء، أَمَّا إيجاد ذواتِ الأشياء فهو إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا يَتبَيَّن مَعنَى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وإلَّا فالإنسان يَخلُق، لكن خَلْقه ليس مَعناهُ: إبداعًا وإيجادًا بعد عدَم، ولكن -كما أَقولُه وأُكرِّره حتى يَتبَيَّن لكم- مَعنَى قولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، فأَثبَت أنَّ مع الله تعالى خَلْقًا، لكنَّ هذا الخَلْقَ ليس خَلْقَ إيجاد، ولكنه خَلْق تَحويل وتَغيير لبعض الأَشْياء، حسَب ما أَعطاه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من قُدْرة عِلْمية وبدَنية.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات أنَّ السماءَ مُتعدِّدة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وقد بُيِّن في آية أُخرى أنَّ عددها سَبْع: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون:٨٦-٨٧].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن اعتِراف الإنسان بالحَقِّ ممَّا يُحمَد الله تعالى عليه؛ لقوله للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لأنه لا شَكَّ أنَّ إقرار الإنسان واعتِرافه بالحَقِّ إظهار للحُجَّة، وإذا ظَهَرتِ الحُجَّة كان في ذلك من الثَّناء على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما هو أَهْل له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ أكثَرَ هَؤلاء المُعانِدين والمُشرِكين كانوا لا يَعلَمون: إمَّا للجَهْل، وإمَّا لعَدَم الانتِفاع بعِلْمهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه يَنبَغي تَأكيد الكلام في مَوْضِع التأكيد؛ لأنه قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾، ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ فأَكَّد الله عَزَّوَجَلَّ أنهم سيَقولون ذلك؛ لئَلَّا يَقول قائِل:

هل هَؤلاء يُقِرُّون بتَوْحيد الرُّبوبية أو لا يُقِرُّون، فبَيَّن الله تعالى أنهم يُقِرُّون به وأَكَّد ذلك، حتى لا يُقال: كيف يُقِرُّون بتَوْحيد الرُّبوبية ثُمَّ يُنكِرون تَوْحيد الأُلوهية؟!

• ● ۞ ● •

الآيــة (٢٦)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان:٢٦].

قوله تعـالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الجُمْلة هنـا خبَرِيَّة وفيـها حَصْر، وطريقه تَقديمُ الخَبَر؛ لأنَّ تَقديمَ ما حقُّه التَّأخير يُفيد الحَصْر، فـ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يَعنِي: لا لغيرِه، بل هو له وحدَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله تعـالى: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: ما كان فيـها، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ كذلك، وأَتَى بـ(ما) التي لغير العاقِل؛ لأنه يُراد بها مِلْك الذَّوات والصِّفات، وإذا أُريد بها مِلْك الذوات والصِّفات أُتِيَ بـ(ما)؛ لأنَّها أَكثَرُ؛ فإن كلَّ ذاتٍ لها صِفة، وأيضًا ليس كلُّ الذوات عاقِلة، بل الدوابُّ والبَهائِمُ وشَبَهها من قَسْم غير العاقِل.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِلْكًا وخَلْقًا وعَبِيدًا] والمِلْك يَشمَل مِلْـك الذوات، والتَّصرُّف في هذه الذواتِ؛ ولهـذا قال: [وعَبيدًا] والمُراد بالعُبودية هنـا العُبُودِية العامَّة دون الخاصَّة؛ لأنَّ العُبـودية الخاصَّة تختصُّ بالطائِعين الذين تَذلَّلوا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى طاعة بالمَعنَى الشَّرْعي، وأمَّا العِبادة العامَّة فهي تَشمَل كل الخَلْق؛ لأنَّ جميع الخَلْق مُتذلِّل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى باعتِبار الكَوْن.

والتَّقـديرُ: لا أحَدَ يَستَطيع أن يُعارِض قَضاء الله تعالى وقَـدْره؛ لكن الكُفَّار يَستَطيعون أن يُعارِضوا شَرْع الله تعالى؛ ولهذا عارَضوا وأَنكَروا الشَّرْع واستكْبَروا عن الحقِّ.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فلا يَستَحِقُّ العِبادة فيهما غيرُه] في السَّموات والأرض لا يَستَحِقُّ العِبادة إلَّا الله تعالى؛ لأنه بمُقتَضى العَقْـل والفِطْرة: أنَّ المالِك الخالِق المُدبِّر يَجِب أن يَكون هـو المَعبودَ؛ ولهذا يَستَدِلُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على وُجوب العِبادة بالرُّبوبية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة:٢١]، وتَقدَّم قوله تعـالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، وهـذا ظاهِر أنَّ مَن له الخَلْق يَجِب أن تَكون له العِبادة وحدَه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ عن خَلْقه ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ المَحمود في صُنْعه] الجُمْلة هنا استِئْنافية؛ لبيان ما لله عَزَّوَجَلَّ من هَذَيْن الاسمَيْن، وما تَضمَّناه من الصِّفة؛ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ﴾ الضَّمير ضَمير فَصْل، ولِضَمير الفَصْل ثلاثُ فَوائِدَ:

الفائِدةُ الأُولى: التَّوكيدُ.

والثانيةُ: الحَصْر.

والثالِثة: التَّمييز بين الخبَر والصِّفة.

فإذا قُلْت: زيدٌ الفـاضِل. فـ(زَيْد) مُبتَدَأ، و(الفاضِل) يُحتَمَل أن تكون صِفة لـ(زَيْد)، وأنَّ الخبَر لم يَأتِ بعدُ، وأن التَّقدير: زَيْدٌ الفاضِل محبوبٌ مثلًا، فإذا قلت: زَيْـد هو الفاضِل. لا يُحتَمَل أن يَكون صِفـة، بل يَكون خبَرًا؛ ولهذا سُمِّيَ ضَميرَ فَصْل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عن خَلْقه] وهو كذلِكَ: غَنِيٌّ في نَفْسه غَنِيٌّ عن غيره؛ فهو غَنِيٌّ في نَفْسه؛ لكَثْرة ما عِنده؛ لأن كل شيء فهو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا تَمام الغِنى، وهو غَنيٌّ عن خَلْقه؛ فلا يَحتاج إلى أحَد؛ والدليل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

أمَّا مَن سِواه فإنه مُفتَقِر إلى الله عَزَّوَجَلَّ قبل كلِّ شَيْء، ثُمَّ إن الناسَ بعضهم مُفتَقِر إلى بعض، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزُّخرُف:٣٢]؛ فالناس بعضُهم إلى بَعضٍ في حاجة، بل في ضَرورة أحيانًا، والجميع إلى الله تعالى في حاجة وضَرورة.

أمَّا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ فإنه في غِنًى عن غيره، كما أنه غَنِيٌّ بنَفْسه أيضًا.

إذَن: غِناه يَتَضمَّن شَيْئين: الغِنَى الذاتي، بمَعنى: كَثْرة ما يَملِكه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذ كلُّ شيء فهو مِلْكه، الثاني: الغِنَى عن الغير؛ بحيثُ لا يَحتاج إلى أحَد، وغيره مُحتاج إليه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المَحمود في صُنْعه] فقَصَّر في التَّقْدير من وَجْهين:

الأوَّل: قال الحَميد بمَعنَى: المَحمود، والصحيح: أنها بمَعنَى: المَحمود والحامِد؛ فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حامِدٌ مَن يَستَحِقُّ الحمد، وما أَكثَرَ الثَّناء على مَن يَستَحِقُّون الثَّناء في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو كذلك مَحمود على كَمال صِفاته وتَمام إنعامه، فيُحمَد على أمرين: على كَمال صِفاته، وعلى تَمام إنْعامه.

الوجهُ الثاني ممَّا قصَّر فيه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه قال: [المَحمود في صُنْعه].

والصوابُ: أنه محمود في صُنْعه وفي شَرْعه أيضًا؛ فإن شَرْعه عَزَّوَجَلَّ أكمَلُ الشَّرائع وأَنفَعُها للعِباد، ومَن سنَّ للخَلْق طريقًا تَستَقيم به أُمورهم فهو أهلٌ للحَمْد؛ فالآنَ لو أنَّ أحَدًا دلَّك على طريق بلد في سَفْرة واحِدة من سفراتك فإنك تَحمَده؛ فكيف بمَن دلَّكَ على طريق الآخِرة في كلِّ ما تَحتاج إليه؟!

فالصَّوابُ: أنَّ حَميد بمَعنَى حامِد ومَحمود، وحَميد في صُنْعه وفي شَرْعِهِ؛ فصُنْعه الذي هو الخَلْق يُحمَد عليه عَزَّوَجَلَّ على إيجاده، وعلى إعداده وعلى إِمْداده، وهو أيضًا حَميد في شَرْعه، يُحمَد عليه؛ لِمَا في شَرْعه من العَدْل والحِكْمة والرحمة التي لا نَظيرَ لها.

وما أعظَمَ الفائِدةَ في اقتِران الحَميد بالغَنيِّ! لأنه -كما تَقدَّم- أسماء اللهِ تعالى كلُّها حُسنَى، وتَدُلُّ على مَعنًى أَحسَنَ؛ لكن قد يَدُلُّ الاسْمان على صِفة ثالِثة حصَلَت باقتِرانهما؛ فالغِنَى مع الحَمْد يَزداد كَمالًا، لأنه قد يَكون الغَنيُّ غنيًّا، ولكن غِنًى لا يُحمَد عليه، مِثل البَخيل الغَنيِّ، فإنه غَنيٌّ لكن لا يُحمَد على غِناه؛ لأنه لا يُستَفاد من ماله، وقد حرَم نَفْسه من مَصلحة ماله، لكن الله عَزَّوَجَلَّ له الغِنَى المُقتَرِن بالحَمْد؛ لكمال إِحْسانه على خَلْقه من هذا الغِنَى؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن مُلْك السَّمَوات لله تعالى، وأنه خاصٌّ به، يُؤخَذ من تَقديم الخبَر؛ لأنَّ تَقديم ما حَقُّه التَّأخيرُ يُفيد الحَصْر والاختِصاص.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الناس لا يَملِكُون أموالهم مِلْكًا مُطلَقًا؛ فمثَلًا: أنا أَملِك بَيْتي وسيَّارتي. وما أَشبَه ذلك، لكن مِلْكي لها ليس مُطلَقًا؛ لأنَّ المِلْك المُطلَق لله عَزَّوَجَلَّ؛

ولهذا تَصرُّفي فيـها على حسَب ما أَذِن الله تعـالى به، ما هو على حسَـب ما أُريدُ أنا، وبهـذا يَزول الإشكالُ الَّذي يُورَد فيُقال: إذا قُلْتـم: إن مِلْك السمَوات والأرض خاصٌّ بالله تعالى، أَلَيْس الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أَضاف المِلْك إلى الإنسان: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٣].

إِذَنْ: فهذا المِلْكُ ليس مِلْكًا مُطلَقًا بدليل أنه مُقيَّد بإِذْنِ الله تعالى بما أَذِن اللهُ تعالى فيه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات اسمَيْن من أسماء الله تعـالى، وهُما: الغَنيُّ والحَميد. وما دلَّا عليه من الصِّفة، وهي: الغَناء والحَمْد. وما دلَّ عليه اجتِماعُهما من الصِّفة أيضًا، وهو أنَّ غِنَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَقـرون بكَوْنه محمودًا، فيَـدُلُّ على أنه غِنًى ذاتِيٌّ، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع كونه غَنيًّا جَوادٌ يجود بما عِندَه، إذ ليس كل غَنيٍّ حَميدًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيـان أنَّ مِلْك الله للسمَـوات والأرض مِلْكٌ مُشتَـمِل على الفَضْل والحَمْد؛ لأنه ذكَره بعد قولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾، فكونه غَنيًّا يُتمَدَّح سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بغِناه بعد ذِكْر مِلْك السمَوات والأرض؛ يَدُلُّ على فَضْله بهذا الغِنَى، وعلى حَمْده على هذا المِلْكِ، أنه مِلْك مَبنيٌّ على الحَمْد، وهذا كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] حَمِد نَفْسه لكونه ربًّا للعالَمين؛ لأن رُبوبيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رُبوبية يُحمَـد عليها، لما فيها من كَمال الفَضْل والإحسان والعَدْل إلى غير ذلك.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: افتِـقار ما في السمَوات والأرض إلى الله؛ لأنَّ قوله تعـالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ دليل على أن ما في السمَوات والأرض مُحتاجون إليه فُقراءُ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات أنَّ السمَـواتِ جَمْع، وعدَدُها سَبْع، تُؤخَـذ من قوله تعالى: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أمَّا تَعيين العَدَد بالسَّبْع؛ فمِن آياتٍ أُخرى.

• ● ❁ ● •

الآيــة (٢٧)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان:٢٧].

﴿ وَلَوْ ﴾ هذه شَرْطية، وفِعْل الشَّرْط مَحذوف؛ أي: ولو ثبَت أن ما في الأَرْض من شجَرة.. إلى آخِره، و(ما) اسمٌ مَوْصول بمَعنَى: الذي، و﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جارٌّ ومَجرور مُتعَلِّق بمَحذوف صِلة المَوْصول، يَعنِي: ولو أنَّ الذي استَقَرَّ في الأرض، و﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ جارٌّ ومَجرور بيانٌ لـ(ما) الاسْمِ المَوْصول؛ لأن الاسمَ المَوْصول مُبهَم يَحتاج إلى بيانٍ؛ فـ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ بيانٌ له؛ يَعنِي: لو أن الذي في الأَرْض من الشجَر.

وقوله تعالى: ﴿أَقْلَٰمٌ﴾ خبَر (أن)، يَعنِي: ولو أنَّ الذي في الأرض من الأشجار كان أقلامًا هذا المَعنَى، كان أقلامًا يُكتَب بها، (والبَحْرَ) يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عطف على اسم (أنَّ)]، وفي قِراءة: ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾ وهي المَوْجودة في المُصحَف، لكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا قال: مَنْصوبة. قال: [عطف على اسْمِ (أنَّ)]، ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾ إذا كانت بالرَّفْع فهي مُبتَدَأ، قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَجَـائِزٌ رَفْعُـكَ مَعطُوْفًـا عَـلَى ... مَنْصُـوبِ إِنَّ بَعْـدَ أَنْ تَسْـتَكمِلَا

وَأُلْحِقَــتْ بِـــإِنَّ لكِـــنَّ وَأَنْ ... .

(١) الألفية (ص:٢٢).

وهذه (أن).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(والبَحْرَ) عطف على اسم (أنَّ)]، فتكون بالنَّصب.

وقوله تعـالى: ﴿يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٍ﴾ الخبَر محـذوف قدَّره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [مِدادًا] يَعني: لو أن ما في الأرض من الأشجار أقلامٌ، وما فيها من البِحار مِدادٌ، يَعنِي: حِبرًا يُكتَب به، وجوابُ الشَّرْط قوله تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ المُعبَّر بها عن مَعلومات... إلى آخِره.

قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾: (نفِد) مَعناه: انتَهى، و﴿كَلِمَٰتُ﴾ فاعِـل؛ فـ﴿نَفِدَتۡ﴾ الكَوْنية، وأمَّا الشَّرْعية فلا تَنـفَد؛ لأنه عَزَّوَجَلَّ لم يَزَل ولا يَزال مُتكلِّمًا، والخَلْـق لا نِهايةَ له؛ لأنَّه إذا دخَل النـاس الجَنَّة أو النار يَكون خُلـودًا دائِمًا سَرْمَديًّا أبدِيًّا.

فإِذَن: كل شيء يَخلُقه الله تعالى فإنما يَخلُقه بالكلِمة: (كُنْ فيكون).

فإذا كانَتِ المَخلوقاتِ لا تَنتَهي، وكذلك أيضًا أفعال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في الأزَل لا نِهايةَ لها، فإنها لا يُمكِن أن تَنـفَد أبدًا، حتى لو فُرِض أنَّ البَحْر ومِن بعـده سَبْعةُ أَبحُرٍ تَمُـدُّه، والشجَر -كل الشجَر الذي في الأرض- أَقْـلام وصار يُكتَب بها، فإن كلِماتِ الله تعالى لا تَنفَد.

ووجهُ ذلك واضِح؛ لأن المَخلوقاتِ لا تَنفَد، وكلُّ مَخلوق فإنه يَكون بالكلِمة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

إِذَنْ: يَتبيَّن لنا وَجْه كَوْن هذه الجُمْلةِ الخبَرية صِدْقًا محَضًا، وهي صِدْق لا شَكَّ، فخبَرُ الله تعالى صِدْق.

لكن قد يَقول قائِل: كيف؟ وما وجهُ هذا؟

فنَقول: هذا وجهُه؛ إذ إن الإنسان قد يَستَعظِم أن تَكون البِحار -البحر المُحيط ومِن ورائِه سَبْعة أبحُر- مِدادًا، وما في الأرض من الشجَر أقلامًا يُكتَب بها ثُمَّ لا تَنفَد الكلماتُ، قد يَستَعظِم هذا الشيءَ، ولكنه إذا عرَف كَمال قُدْرة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وعظَمته لم يَستَعظِم هذا.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [المُعبَّر بها عن مَعلوماته بكَتْبها بتِلْك الأَقْلام بذلك المِدادِ، ولا بأَكثَرَ من ذلك، لأنَّ مَعلوماتِه تعالى غير مُتَناهِية]، عفا الله عن المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ، هذا تَحريف! فقد عَبَّر بقوله: إن المُراد بالكَلِمات المعلوماتُ، مَعلوماتُ الله تعالى. يَعنِي: ما نَفِد لا يَعلِمه.

لكن هذا تَحريف ظاهِر للقُرآن، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يَقول: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ﴾ والكلِمات هي التي تُكتَب، أمَّا المَعلوماتُ فقَدْ تُكتَب وقد لا تُكتَب، فهل كل المَعلومات تَكتُبها؟! لكِنَّ كلِماتِك إذا أَرَدْتَ أن تُعبِّر عنها للغَيْر تَنطِق بها وتَكتُبها.

فالمَعنَى: ما نفِدَت كلماتُ الله تعالى، أي: كلِماته بالحَقِّ حقيقة، يَعنِي: الكلِمات الحقيقية لو أُمِليت على أحَدٍ، وصارت البِحَارُ مِدَادًا لها، والأشجار أقلامًا لها، ما نفِدَتْ. ووجهُ ذلك ظاهِرٌ، وهذا يَدُلُّ على عظَمة الله عَزَّوَجَلَّ وكَمال قُدْرته.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُعجِزه شيء، ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يَخرُج شيءٌ عن عِلْمه وحِكْمته].

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿عَزِيزٌ﴾ يَقول: [لا يُعجِزه شيء] وأحيانا يُعبِّر المُفَسِّر نَفْسه، يَقول: عزيزٌ لا يَغلِبه شيءٌ. وذلك لأنَّ العِزَّة -كما سبَق- تَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام:

عِزَّة القدَر، والثاني: عِزَّة القَهْر وهي الغلَبة، والثالِث: عِزَّة الامتِناع، وهي: أنه عَزَّوَجَلَّ لا يَناله شيء بسُوء أبَدًا، فهو مُمتَنِع عن كل سُوء لِقُوَّته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾ فهو هنا قال: [لا يَخرُج شيء عن عِلْمه وحِكْمته] ففَسَّر الحِكْمة بالعِلْم، وقد سبَقَ لنا أن الحكيم مُشتَقَّة من الحُكْم والحِكْمة؛ فهو حَكيم لا يَخرُج عن مُلكِه شيء وحُكْمِه، وحَكيم لا يَخرُج عن حِكْمته شيء، إذَنْ هو حاكِم مُحكَم، كلها تُؤخَذ من كلِمة حَكيم.

وفي قَرْن العَزيز بالحَكيم إثباتُ صِفة ثالِثة غير العِزَّة والحِكْمة، وهي: أن عِزَّته عَزَّوَجَلَّ مَقرونة بحِكْمة، فتكون عِزَّةً أكمَلَ، وتكون حِكْمةً أكمَلَ، وذلك أن العزيزَ من الخَلْق قد تَأخُذه العِزَّة بالإِثْم، فلا يَكون حَكيمًا في تَصرُّفه، لكن الله عَزَّوَجَلَّ عِزَّته مَقرونة بالحِكْمة، لا يُمكِن أن تَخْرُج أفعاله عن الحِكْمة التي هي مُوافَقة الصَّواب.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يتكلَّم؛ لقوله تعالى: ﴿كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قال بعضُهم: إنَّ كلِماتِه تعالى مَسموعة؛ لأنها تُكتَب، ولا يُكتَب إلَّا ما كان مَسموعًا.

وهذه الفائِدةُ فيها نظَر؛ لأنه يُمكِن أن تكتُب الشيءَ مُجرَّد كِتابة؛ يَعنِي: أن الإنسان يُمكِن أن يَكتُب كلِماتِه هو دون أن يُسمِع غيرَه.

إذَنْ: هذه الفائِدةُ فيها نظَرٌ، لكن يُؤخَذ من إثبات أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يَتكلَّم بصَوْت: أنَّ الكَلام لا يُسمَّى كلامًا إلَّا حيث يَكون صوتًا، أمَّا مُجرَّد ما في النَّفْس فليس بكَلام.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيان أنَّ كلِماتِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا نَفادَ لها، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ ووجهُ ذلك ما تَقدَّم في التَّفسير: أنَّ الله تعالى لم يَزَل ولا يَزال خَلَّاقًا، فعَّالًا لما يُريد، ومن لازِم ذلك أن يَكون مُتكَلِّمًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَمامُ قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ حيثُ كان قادِرًا على كلام لا يَنفَد.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ العِزَّة والحِكْمة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وإثبـاتُ الحُكْم أيضًا من قوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾، وإثبـات هَذَيْن الاسمَيْن عَزيز وحَكيم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ما دَلَّ عليه اجتِماع العِزَّة والحِكْمة من صِفة الكَمال، قُلْنا: إن الاسم قد يَكون له مَعنًى في ذاتِه، ومَعنًى باجتِماعه إلى غيره؛ فاجتِماع العِزَّة مع الحِكْمة يُفيد كَمالًا أكثَرَ ممَّا لوِ انفرَدَتِ العِزَّة أو الحِكْمة، وهو أنَّ عِزَّة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مَربوطة بالحِكْمة.

• • ۞ • •

الآية (٢٨)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان:٢٨].

•••

ثُمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُبيِّنًا كَمال قُدْرته بعد أن بَيَّن عُموم مِلْكه، وكمال كلماته قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ خَلْقًا وبَعْثًا؛ لأنه بكلِمة (كُنْ) فيَكون؛ لأنه يَعلَم الخَلْق والبَعْث؛ فما خَلْقكم جميعًا إلَّا كنَفْسٍ واحِدة، وما بَعثُكم جميعًا إلَّا كنَفْسٍ واحِدة.

إِذَنِ: الكَثْرة لا تُعجِز الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنَّ الكَثْرة عِنده والقِلَّة على حَدٍّ سَواءٍ، إذِ الكُلُّ تَتعلَّق به القُدرةُ، وهذا كلُّه سَهْل عليه؛ لأنه يَكون بكلِمة (كُنْ) فالله عَزَّوَجَلَّ لَمَّا خلَق السمواتِ والأرضَ لم يَحتَجْ إلى عمال وعوامِلَ؛ ولهذا يُقال: إذا كان البِناء واسِعًا كان أَشَقَّ، وإذا كان ضَيِّقًا كان أهوَنَ؛ لكن عند الله تعالى فلا؛ إنما هو بكلِمة (كُنْ)، وما كان بكلِمة (كُنْ)، فلا فَرْقَ بين أن يَكون كثيرًا، أو قليلًا؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ في آية أُخرَى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل:٧٧]، يَعنِي: بل هو أَقرَبُ من لَمحِ البصَر، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]، وهذا غاية ما يَكون من السُّرْعة والإنجاز. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤]، فكُلُّ هذا يَدُلُّ على

كَمال قُدْرته عَزَّوَجَلَّ.

والجَوابُ عمّا يُورَد على المَرءِ: لماذا خلَقَ الله تعالى السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّة أيام؟ ولماذا يَخلُق الجَنين في بَطْن أُمِّه لمُدَّة تِسْعة أشهُرٍ؟ وما أَشبَهَ ذلك؟

والجَوابُ: أنَّ أفعاله مَقرونة بحِكْمة، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعَل الأسباب مَربوطةً بمُسبَّباتها؛ فلا بُدَّ من أن يَكون هناك سبَب ويَنتُجُ عنه مُسبَّب، ولا بُدَّ من أن يَكون هذا السبَبُ مُطابِقًا مُوافِقًا؛ حتى يَتِمَّ الخَلْق على كَماله.

فهذا الخَلْق يَحتاج إلى أشياءَ، مُقدِّمات وأَسْباب يَحصُل بها كَمال الخَلْق، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قادِر على أن يَخلُق الجَنين في بَطْن أُمِّه بدون أن يَتناوَلها الرَّجُل كما حصَل في عيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومع هذا فإن الله تعالى قد جعَل لهذا أسبابًا: اتِّصال ماء الرَّجُل بالمرأة، ثُمَّ بعد ذلك الجَنينُ يَتطوَّر شيئًا فشيئًا حتى يَصِل إلى الغاية، ثُمَّ إذا كان قابِلًا لأَنْ يَخرُج إلى الدنيا خرَج، ثُمَّ مع ذلك يَنمو شيئًا فشيئًا، لا يَأتيه العَقْل كامِلًا دفعة واحِدة، ولا يَأتيه النُّموُّ دفعة واحِدة، ولكنه على وَفْق الحِكْمة.

وقوله تعالى: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يَسمَع كلَّ مَسموع، ﴿بَصِيرٌ﴾ يُبصِر كل مُبصَر، لا يَشغَله شيء عن شيءٍ]؛ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يَبصُر كلَّ مُبصَر] وكلُّ مُبصَر فهو خَلْق مَخلوق، فما ثَمَّ إلَّا خالِق أو مَخلوق، فكل مُبصَر يَعنِي: كل ما مِن شَأْنه أن يَتعَلَّق به البصَر، ولو أني أنا ما أُبصِره، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُبصِره، فنَتَفاوَت؛ فهناك شيء يُبصِره زَيْد ولا يُبصِره عَمرٌو.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ تَقدَّم أنَّ السميع يَنقَسِم إلى قِسْمين: قِسْم: بمَعنَى مُجيب، وقِسْم: بمَعنَى سامِع، يَعنِي مُدرِك للأصوات؛ فالسَّميع الذي بمَعنَى مُجيب.

مثل قول إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، أي: مُجيبُه، ومن المعلوم أيضًا أنه لا يُجيبه إلَّا بعدَ أن يَسمَعه سَمْعَ إدراكٍ، ولكن الفائِدة من الدُّعاء هي إجابة الداعِي، أمَّا مُجرَّد أن يُسمَع دُعاؤُه؛ فلا فائِدةَ له من ذلك حتى يُجاب.

وتَقدَّم أنَّ سَمْع الإدراك يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام:

ما يُفيد التهديد.

وما يُفيد التَّأْييد.

وما يُفيد سَعةَ سَمْع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإدراكُه لكل مَسموع.

فمِما يُفيد التَّهديد: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزُّخرُف:٨٠].

ومِمَّا يُفيد التأييد قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لموسى وهارونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

ومِمَّا يُفيد الشُّمول؛ أي: شُمول سَمْع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لكل ما يُسمَع مثل قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة:١]؛ ولهذا قالَتْ عائِشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: تَبارَك الَّذي وَسِعَ سَمْعُه الأصواتَ، إني في طرَفِ الحُجْرة وإنه ليَخفَى عليَّ بعضُ حَديثِها(١)، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِن فَوْقِ سَبْع سَمواتٍ يَسْمَعُ هَذا الحَديثَ والتَّحاوُرَ كُلَّهُ، ولَمْ يَفُتْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شَيْءٌ.

---

(١) علقه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، (٩/ ١١٧)، ووصله الإمام أحمد (٦/ ٤٦)، والنسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه: في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨).

أمَّا قوله تعـالى: ﴿بَصِيرٌ﴾ فالبَصير بمَعنَى: مُبصِر، أَيْ: مُدرِك ببَصَره عَزَّوَجَلَّ فلله تعالى بصَرٌ يُبـصِر به المُبصَرات، كما جاء في الحديثِ الصحيـح: «**حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»(١).

وقد يَكون البَصير أيضًا دالًّا على العِلْم، مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:٢٦٥]، أي: عَليم به، وعند الناس الآنَ إذا قالوا: فُلان بَصير بالأشياء، يَعنِي: عنده عِلْم بها وخِبْرة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات الخَلْق والبَعْث؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: كَمال قُدْرة الله تعالى حيث جعَل جَلَّجَلَالُهُ الخَلْقَ والبَعْث لجميع الخَلْق كنَفْس واحِدة، وهذا في غاية ما يَكون من القُدْرة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات البَعْث؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا بَعْثُكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الاستِدْلال بالمَشهود على المَوْعود، فالمَشهود الخَلْق، والمَوْعود البَعْث، وقد قرَنَهما الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى جَميعًا؛ لإثباتِ كلِّ واحِد منهما، وأنه كما قَدَر على الخَلْق أوَّلًا فهو قادِر على البَعْث ثانيًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات اسمَي (السَّميع) و(البَصير) لله تعالى، وإثبات ما دَلَّا عليه من صِفـات، وإثبات الكَمال باجتِماعهما السَّمع والبَصْر، إِذْ ليـس كلُّ سَميع بَصيرًا، وليس كلُّ بَصير سميعًا، وقد سَبَق لنا مَعنَى السَّميع ومَعنَى البَصير.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «إن الله لا ينام»، رقم (١٧٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الآية (٢٩)

• • ⁂ • •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٢٩].

• • ⁂ • •

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الهَمْزة هنا للاستِفْهام التَّقريريِّ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمَعنَى: قد رأَيْت، فهو يُقرِّر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه القَضيةَ الْمُشاهَدةَ المَعلومة لكل أحَدٍ.

والخِطاب في قوله: ﴿تَرَ﴾ إمَّا للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أو لكُلِّ مَن يَصلُح للخِطاب. والمَعنَى الثاني أَشمَلُ وأعَمُّ؛ فتكون شامِلة لكُلِّ مَن يَصلُح له الخِطاب.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرَّائي المُخاطَب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ﴾ يُدخِل ﴿ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ﴾ يُدخِله ﴿فِى ٱلَّيْلِ﴾، وهذا الإيلاجُ والإِدْخال لا يَكون إلَّا بقُدْرة عَظيمة، يُولِج الليل في النهار، ويُولِج النهار في الليل، فهل المُراد إقبال الليل وإقبال النَّهار؛ لأنك تَرَى الليل إذا أَقبَل يَدخُل سوادُه في النهار، فيَدخُل على النهار ويَطرُده، وتَرَى النهار أيضًا إذا أَقبَل يَلِج في الليل فيَطرُده؛ فيَكون هذا عِبارة عن تَقرير طُلوع الفجر وإقبال اللَّيْل.

وقد أَقسَم الله تعالى بذلك في القُرآن الكَريم ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ [المدَّثر:٣٣-٣٤]، ولا يُقسِم بشَيْء من المَخلوقات إلَّا لعِظَمه، فيَكون مَعنَى الإيلاج الإِدْخال به؛ أي: إدخال الليل بالنهار أو العَكْس عند كل صَباح وعند كل مَساء.

هذا وَجْه.

أو أنَّ المَعنَى: يُولِج الليل في النَّهار، بمَعنَى أنه يَزدادُ النَّهار مُدَّةً حتى يَدخُل في الليل، ويَزداد الليل مُدَّة حتى يَدخُل في النهار، يَعنِي: يَطول النهار؛ فإذا طال أَخَذ من الليـل، فمَعنَى ذلك أنه دخَل عليـه، ويَطول الليـل فإذا طال أَخَذ من النَّهار، فيَكون قد دخَل عليه واختَلَس منه، هذا أيضًا مَعنَى لكلِمة الإيلاج.

وكلاهما مَعـنًى صَحيحٌ، ففي إقبـال الليل وإدباره آية عَظيـمة من آيات الله تعالى، وفي كون هذا يَزيد وهذا يَنقُص أيضًا آيةٌ من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الخَلْق لوِ اجتَمَعوا كلُّهم على أن يَأْتوا بالليل في النهار، أو بالنهار في الليـل لا يَستَطيعون، لوِ اجتَمَعوا كلُّهم على أن يَزيدوا في النهار دَقيـقةً واحِدةً، أو في الليل دَقيقة واحِدة لا يَستَطيعون، مَهما أُوتوا من قُوَّة.

إذَنْ: فهذا دليل على كَمال قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ إنَّ في إيلاج الليل بالنَّهار على المَعنى الثاني والعكس فيه دَليل على رحمة اللهِ تعـالى؛ لأن تَناوُب الليل والنهار بالزيادة والنَّقْص فيه مَصلَحة عَظيـمة جِدًّا؛ لأن الليل إذا طال حصَل البَرْد والشِّتاء وظهَرَت أَشجار الشِّتاء، وماتَت الحشَرات التي قد يَكون بَقاؤُها ضارًّا بالإنسان والنَّبات.

وكذلك إذا ازداد النَّهار ازداد الحَرُّ فنَضِجت الثِّمار وزال البُخار من الأرض، وماتَتْ بذلك حشَراتٌ كثيرةٌ من أَجْل الحَرِّ، لو أنها بقِيَت وتَنامَت لأَضَرَّت بالناس، فيَكون هذا أيضًا فيه دَليل على كَمال الحِكْمة والرَّحْمة مع القُدْرة.

قوله تعـالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: ذلَّلَهما لمَصالِح العِبـاد، والدليل

على ذلك قوله تعالى في الآية العامة الشامِلة: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم﴾ كلِمة ﴿لَكُم﴾ إِذَن كل ما ذُكِر من التَّسخير في الكون فهو لبني آدمَ؛ ولهذا يُقال في بعض الآثار: «يَا ابْنَ آدَمَ خَلَقْتُكَ مِنْ أَجْلِي، وَخَلَقْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَجْلِكَ»، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، ويقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣]، أي: لكم أنتُم.

وذكَر الشمسَ والقمَرَ بعد ذِكْر الليل والنهار؛ لأن الشَّمْس آيةُ النَّهار، والقمَر آيةُ الليـل؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ وهو القمَر ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:١٢]؛ ولذلك القمَرُ لا نُورَ فيه، إنما يَستَفيد نُورَه من الشَّمْس، كلَّما قابَلـها ازداد نُورُه، فإذا تمَّتِ المُقابَلة بيـنه وبين الشَّمْس في ليلة من ليال الإِدْبار كمَلَ نُوره، ثُمَّ كُلَّما ضعُفَتِ المُقابَلة ضعُف نُورُه.

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ﴾ مِنهما ﴿يَجْرِيٓ﴾ في فَلَكه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم القِيامة] ﴿كُلٌّ يَجْرِيٓ﴾: ﴿كُلٌّ﴾ هذا التَّنوينُ؛ يَقول النَّحويون: إنه عِوَض عن محَذوف، عن كلِمة، يَعنِي: كل واحِد من الشَّمْس والقمَر يَجرِي إلى أَجَل مُسمًّى، العَجيب أنه رُوِيَ عن ابن عبَّـاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: إن الشَّمْس والقمَر يَجريان في فلَكهما في النهار، ويَجرِيان في فلَكهما تَحتَ الأرض في اللَّيْل[1]. وهذا يَدُلُّ على أنَّ ابن عبَّـاس يَرَى الأرض كُروية؛ لأنَّ إذا كان يَجرِي تَحت الأرض فمَعنـاه

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٤/ ١١٥٠-١١٥١)، وعزاه ابن كثير في تفسيره (٦/ ٣١٣) لابن أبي حاتم، وانظر: الدر المنثور (٥/ ٤٣).

أنها كُروية، وهو كذلك؛ لأن الشمس والقمَر بالليل يَجريان تَحتَ الأَرْض، كما قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والأرضُ هي أرضُنا هذه، والأَرَضون السِّتُّ الباقية تَحتَها، يَعنِي: الأرض طبَقات مثل السماء طبَقات بعضُها فوق بَعْض، أَلَمْ تَرَ إلى البَيْضة فيها القِشْرة الأعلى، ثُمَّ القِشْرة الثانية والتي يَليها البَياض، ثُمَّ البَياض، ثُمَّ قِشْرة رقيقة، ثُمَّ الأَصْفر؛ فطبَقات الأرض مثل البَيْضة هكذا، كذلك أيضًا السموات نَفْس الشيء طبَقات مُكوَّرَة.

فإن قال قائِل: هل هي مُنفَصِلة؟

فالجَوابُ: فيه خِلافٌ؛ بعض العُلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقول: إن بَينَهُنَّ فَصْلًا وهَواءً، يَعنِي: مثل ما أنَّ السمَواتِ بينها هَواءٌ وفَصْل. وبعضُهم يَقول: لا فَصْلَ بينها.

فإن قيل: إذا قُلْنا: إنه تَدور الشمس والقمَر من تَحت الأَرَضين السَّبْع كلِّها؛ فكيف ذلك؟

فالجَوابُ: الأَرَضون السبعُ هي الكُتْلة، فكُتْلة الأرض هذه التي يُسمُّونها الكُرةَ الأَرْضية، هذه مُتَضمِّنة للسَّبْع، فالسَّبْع في جَوْفها، والدليلُ على هذا قولُه ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(١)؛ لأنه إذا ظلَم الأرض العُليا التي نحن عليها الآنَ، فيَكون قدِ اعتَدى على التي تَحتَها، والتي تَحتَها، والتي تَحتَها إلى السَّبْع.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئا من الأرض، رقم (٢٤٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض، رقم (١٦١٢/ ١٤٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ هنا: الرُّؤْية بمَعنَى العِلْم في المَوْضِعين، كما قدَّرها المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يَعنِي: أَوَلَمْ تَعلَم أنَّ الله تعالى بما تعملون خَبير.

فإن قال قائِل: عِلْمي بأنَّ الله تعالى يُولِج الليل في النهار، وأنه سخَّر الشمس والقمَر، عِلْمٌ طريقُه الحِسُّ، فأنا أُشاهِد ذلك، لكن: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ما طريق هذا العِلْمِ، هل هو الحِسُّ الشاهِدُ أو الخبَرُ الصادِقُ؟

فالجَوابُ: الخبَر الصادِق لا شَكَّ، نحن نَعلَم أن الله تعالى بما نَعمَل خَبير؛ لأنه أَعلَمنا بذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو أَصدَق القائِلين، ونحن نَعلَم ذلك أيضًا عن طريق الحِسِّ الشاهِدِ؛ لِما نُشاهِد من عُقوبات المَعاصِي مثَلًا، ومن ثواب الطائِعين، ومِمَّا يَحدُث للإنسان نَفْسِه من أَثَر الطاعة، ومِن أَثَر المَعصية، فالإنسان المُؤمِن يَحصُل له من المَعصية أثرٌ سَيِّئ في نَفْسه، حتى إن بعض الناس يَضيق صَدْره، ولا يَدرِي ما السبَبُ، لكن سببَه مَعصية خَفِيَت عليه كما قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ»[1] أو كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فالإنسانُ يُحِسُّ بعِلْم الله عَزَّ وَجَلَّ وخِبْرته بما يَعمَل من الآثار.

والحاصِلُ: في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أن نَقول: نحن نَعلَم ذلك عن طَريقين هُما: الخبَرُ الصادِق والحِسُّ الشاهِد؛ فنُحِسُّ بذلك بما نَرى من آثار أعمالنا الصالِحة، أو آثار أعمالنا السَّيِّئة، ومن الفرَج عند الكَرْب، فهذا أيضًا من العَلامات، فالحاصِلُ من هذا: أن يَكون هذا التَّقديرُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعلَم، وقيل: للأَمْر الواقِع المُشاهَد المَحسوس، والأَمْر المَعلوم عن طريق الخبَر الصادِق.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم (٢٧٠٢)، من حديث الأغر المزني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبـاتُ قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ بإيلاج اللَّيْـل في النَّهار وإيلاج النَّهار في اللَّيل.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيان رَحْمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ هذا الإيلاجَ فيه من المَصالِح الكثيرة، ما هو مُشاهَد مَعلوم، وما ليس بمَعلوم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيان نِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ على عِباده، بتَسخير الشَّمْس والقمَر؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الشَّمْس والقمَر يَجريان؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيانُ كَمال النِّظام في أفعـال الله تعالى؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مُعيَّن لا يَختَلِف لا تَقدُّمًا ولا تَأَخُّرًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الرَّدُّ على مَن قال: إنَّ الشمسَ والقمَر ثابِتـان؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ﴾ وهذا خبَر مِن خالِقهما سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو أَعلَمُ بما خلَق، قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [المُلك:١٤]، فيَكون فيـه رَدٌّ واضِح على الذيـن يَقولون: إنهما ثابِتان لا يَجريان.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن لكُلِّ مَوْجود مِن الخَلْق غايةً؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلَّا الجَنَّة والنار؛ فإنهما باقِيان أَبَدَ الآبِدِينَ؛ لإبقـاء الله تعالى لَهُما، وليس بَقاؤُهُما ذاتِيًّا؛ لأن (ما جازَ حُدوثه جازَ عدَمُه)، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ قضَى بأَبَدية الجَنَّة والنار، كما تَدُلُّ على ذلك الأدِلَّة الصريحة الصَّحيحة.

إِذَنْ: فكُلُّ مَوْجود له غاية، نَأخُذه بالقِياس على هذا: جَرَيان الشَّمس والقَمَر مع أنهما دائِمًا وأبَدًا كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ [إبراهيم:٣٣]؛ فمَعَ كونهما دائِبَيْن لهما غايةٌ؛ فما سِواهُما مِثْلهما.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثباتُ اسمِ الخَبير من أسماءِ الله تعالى؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تَحذير المَرْء من المُخالَفة؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ يَعنِي: فاحْذَرْ أن تُخالِف في عمَلِك، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَليم به، وقوله تعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ لا يُستَفاد منه الحَصْر؛ لأنه قدَّم المَعمول: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لأن أَصلَه: وأن الله خَبير بما تعمَلون. فنَقول: هذا الحَصْرُ إضافيٌّ، والغَرَض منه التَّحذير، فكأنه يُقال: لو لم يَكُن خَبيرًا بالشيء لكان خَبيرًا بأعمالكم، فإفادةُ الحَصْر هنا: لتَمام التَّحذير، يَعنِي: كأَنْ يُقال: لو لم يَكُن خَبيرًا بشيء لكان خَبيرًا بأعمالكم فاحْذَرُوا المُخالَفةَ.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٠)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان:٣٠].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المُشار إليه ما ذُكِر من تَسخير الشَّمْس والقمَر، والقُدْرة على البَعْث والخَلْق، أي: ذلك المَذكورِ السابِقِ.

وقوله تعـالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الباء للسَّببية، أي: بسبَب أنَّ الله تعالى هو الحقُّ؛ ولكونه جعَله هو الحقَّ صارَت هذه الأُمورُ وتَنظَّمَت هذه النُّظُمُ؛ لأنه جَلَّوَعَلَا حَقٌّ في ذاته، وحَقٌّ في أفعاله، وحَقٌّ في أحكامه، وحَقٌّ في أسمائه وصِفاته؛ فرُسُله حَقٌّ، وكِتابه حَقٌّ، ووَعْده حَقٌّ، وثوابه حَقٌّ، وعِقابه حَقٌّ، وكل ما صدَر عنه فهو حَقٌّ.

والحَقُّ هو ضِدُّ الباطِل، والباطِل هو اللغوُ والعبَث الذي لا خَيْرَ فيه؛ فيَكون المَعنى: أن كل ما صدَر عن الله عَزَّوَجَلَّ فإنه حَقٌّ وخَيْر ثابِت.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾: ﴿وَأَنَّ﴾ معطوفة على (أَنَّ) المَفتوحة.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَا يَدْعُونَ﴾: ﴿مَا﴾ هذه اسمٌ مَوْصول، يَعنِي: وأن الذي يَدْعون، وقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ﴾ يَشمَل دُعاء العِبادة، ودُعاء المَسألة؛ لأنَّ الأصنام التي تُعبَد من دون الله تعالى تُدْعى بمَعنَى: تُعبَد، وتُدْعَى بمَعنى: تُسْأَل.

والدُّعاء له مَعنَيان: دُعاء عِبادة، ودُعاء مَسألة؛ فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦] دُعاءَ مَسْألة، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، هذا دُعاءُ عِبادة، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ [غافر:٥٠]. أَيْ: ما عِبادتُهم إلَّا في ضَلال.

فالدُّعاء إِذَنْ: يَكون بمَعنَى دُعاء المَسأَلة، ودُعاء العِبادة؛ فقوله تعالى: ﴿مَا يَدْعُونَ﴾ يَشمَل المَعنَيَيْن؛ يَعنِي: ما يَعبُدون، وما يَطلُبون منه الحوائِج.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ بالياء والتاء] يَعنِي قِراءَتانِ سَبْعِيَّتان: (وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ)، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ وكِلاهما صحيح، لكن في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ خِطاب، ولا يَكون إلَّا للكافِرين؛ لأنَّ الخِطاب في مِثْل هذا لا يُمكِن أن يَكون للرسول ﷺ ولا للمُؤمِنين من أصحابه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: مِن سِواهُ، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَعبُدون] هذا فيه قُصور، والصواب: يَعبُدون ويَسأَلون، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يَدعو يَعنِي: يَسأَل؛ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأحقاف:٥].

فهنا يَنبَغي أن يُضاف: يَعبُدون ويَسأَلون.

وقوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: مِن سِواهُ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْبَـٰطِلُ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الزائِل] وهذا فيه نظَر؛ لأنَّ المُراد الباطِل يَعنِي: الذي لا خَيرَ فيه، ومنه حَديثُ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ

كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ»[1] «بَاطِل» يَعنِي: لا خَيرَ فيه.

وهلِ المُرادُ الباطِل في عِبادتهم إيَّاه، أو الباطِل حتى في نَفْسه؛ فليس مُستَحِقًّا للعِبادة؟

الجَوابُ: كِلَا الأَمْرين؛ فهو باطِل بالنِّسبة لعِبادتهم إيَّاه، وهو باطِل في نَفْسه لا يَستَحِقُّ من الأُلوهية شَيْئًا.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ على خَلْقه بالقَهْر ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ العَظيم]، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ هذه الجُملةُ جُملةٌ خبَرية مُؤكَّدة بضَمير الفَصْل.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ يَعنِي: لا غيرُه، والعَلِيُّ صِفة مُشبَّهة؛ لأنها على وَزْن فَعيل، والصِّفة المُشبَّهة يَقول أهلُ العِلْم باللُّغة العَربية: إنها تُفيد الثُّبوت والاستِمْرار.

ومَعناهُ: العَلِيُّ بذاته والعَلِيُّ بصِفاته، فعُلُوُّه ذاتِيٌّ لازِمٌ أبدًا سواءٌ كان علِيًّا بذاته أو علِيًّا بصِفاته؛ وتَقدَّم لنا من أهل البِدَع مَن يُنكِر العُلوَّ الذاتِيَّ، وأمَّا عُلوُّ المَعنَى فهو مُتَّفق عليه بين المُسلِمين.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ على خَلْقه بالقَهْر] هذا فيه قُصور؛ لأن الصواب أنه علِيٌّ بذاته وصِفاته.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [العَظيم] فهو كبير بمَعنَى: عظيم في ذاته وفي صِفاته؛ قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب أيام الجاهلية، رقم (٣٨٤١)، ومسلم: كتاب الشعر، رقم (٢٢٥٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخبَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن السمواتِ: ﴿مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]، وأن الأرضَ: ﴿جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر:٦٧]، وأنه يَطوِي ﴿ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، فكُلُّ هذا يَدُلُّ على عِظَم ذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما أنه عَظيم في صِفاته.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ﴾: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هنا لَمَّا ذكَر أن له الحَقَّ، وأن ما دونَه دونَ الباطِلِ قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، فلِعُلُوِّه وكِبْرِيائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَتبيَّن أن هـذه الأصنامَ على الضِّدِّ من ذلـك، فهي سافِلة لا عُلوَّ فيـها، وهي ذَليلة وصغيرة ليس فيها شيء من الكِبْرِياء.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الله هو الحَقُّ، والحَقُّ ضِدُّ الباطِلِ، والباطِلِ كل شيء لا فائِدةَ منه، ولا خَيرَ فيه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن كل ما يَصدُر عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهُوَ حَقٌّ؛ لأنه لا يَصدُر عن الحَقِّ إلَّا حَقٌّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن عِبادة غيرِ الله تعالى باطِلة.

• • ۞ • •

الآيــة (٣١)

•●ꕥ●•

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان:٣١].

•●ꕥ●•

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾ السُّفُن ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم﴾ يا مُخاطَبِين بذلك ﴿مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ﴾ عِبَرًا ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن مَعاصِي الله تعالى ﴿شَكُورٍ﴾ لنِعْمَته].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾ هذا الاستِفْهامُ للتَّقرير؛ لأن هذا أَمْرٌ مَرئِيٌّ، فلا يَسأَل عن ثُبوته، ولكن يُقرِّر ثُبوتَه، والخِطاب في قوله تعالى: ﴿تَرَ﴾ يَعود إمَّا للرسولِ ﷺ، وإمَّا لكُلِّ مَن يَصِحُّ منه الخِطاب، وهذا أَعَمُّ.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [السُّفُن]، فكأنه حمَلَه على الجَمْع مع أنه يُحتَمَل أن يُراد به المُفرَد؛ لقوله تعالى: ﴿تَجْرِى﴾ والفُلْك كما سبَق كلِمة تُطلَق على الجَمْع وعلى الواحِد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢]، فالفُلْك هنا للجَمْع، فقوله: ﴿وَجَرَيْنَ﴾ نونُ النِّسوة جَمْع، ولم يَقُل: وجرَتْ، وأمَّا هنا أن (الفُلْك تَجرِي) فظاهِر الآية الكَريمة أن المُرادَ بها المُفرَد، إذ لم يَقُلْ: (أَلَمْ تَرَى أن الفُلْك يَجرِينَ)، ومع ذلك فالمُفرَد يُراد به الجَمْع من حيثُ المَعنَى؛ لأن الفُلْك ليس واحِدًا بالعَيْن، لكنه واحِدٌ بالجِنْس.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾: ﴿فِي﴾ للظَّرْفية، وهل هي على بابها أو بمَعنَى (على)؟

الجَوابُ: أن الفُلْك التي تُحمَل الأنعام هذه على سَطْحه، لكنها في الحَقيقة في وسَطه في الواقِع لا يُغطِّيها، لكن أَسفَلها مُغطًّى بالماء.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ الباء مُتعَلِّقة بـ﴿تَجْرِي﴾ يَعنِي: تَجرِي بالنِّعَم أي: حامِلةً النِّعَم، ويُحتَمَل أن تكون الباء للسبَبِيَّة، أي: تَجرِي بسبَب نِعْمة الله تعالى، أي: أن الله تعالى أَنعَمَ على عِباده بجرَيانها، وبين المَعنيَيْن فَرْق؛ لأنها على المَعنَى الأوَّلِ تُفيد أن هذه السُّفُنَ تَحمِل النِّعَم، وأمَّا المَعنَى الثاني تُفيد أن السُّفُن تَجرِي بنِعْمة الله تعالى، يَعنِي: أن جَريانها من إنعام الله تعالى علَيْنا.

والآية تَحتَمِل المَعنيَيْن بدون مُناقَضة، وقد ذكَرْنا مِرارًا وتَكرارًا: أن الآيَةَ إذا كانَتْ تَحتَمِل المَعنيَيْن بدون مُناقَضة حُمِلَت على المَعنيَيْن.

فإنها قد تَجرِي فارِغةً ليس فيها شيء، ومُجرَّد تَمكين الله عَزَّوَجَلَّ لهذه السُّفُن من أن تَجرِي في الماء والماء ليس جِرْمًا صُلْبًا يَحمِل، بل هو جِرْم لَيِّن، لولا أن الله تعالى أن يَسير عليه هذه السُّفُنِ تَمشِي عليه ما مشَتْ، وإذا كانت رُكَّابًا فقط فهي تكون في المَعنَى الأوَّلِ بإنعام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والغالِب أنه يَكون فيها من نِعَمِ الله تعالى مِن الأرزاق ما هو شيء كثير؛ لكن -واللهُ أَعلَمُ- أنها المَعنَى الثاني.

قوله تعالى: ﴿تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ اللَّامُ مُتعلِّقة بـ﴿تَجْرِي﴾ وهي لامُ التَّعليل، أي: لأَجْل أن يُرِيكم، ومَعنَى ﴿لِيُرِيَكُم﴾ يُظهِرَه حتى ترَوْه؛ يَعنِي: لأَجْل أن ترَوْا من آيات الله تعالى ما يُبهِر عُقولكم.

وقوله تعالى: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾: ﴿مِّنْ﴾ هنا للتَّبْعيض؛ إِذْ إن السُّفُن والراكِبَ عليها لا يَرَى كلَّ آيات الله تعالى، ولكنه يَرَى بعضًا منها.

وقوله تعالى: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: ممَّا يَدُلُّ على كَماله في القُدرة والإنعام وغيرِ ذلك، والآياتُ جَمْع آيةٍ وهي في اللُّغة: العَلامة، والمُراد بها كلُّ ما يُستَدَلُّ به على كَمال الله عَزَّوَجَلَّ في ذاته وصِفاته.

والآياتُ التي تُرَى: ما في البَحْر من الأسماك والحِيتان العَظيمة المُتنوِّعة، وكذلك أيضًا من آياته ما يُشاهَد في البَحْر في أَمواجه وشِدَّتها وخِفَّتها، وكذلك أيضًا ما يُشاهَد من البحر من الأبخِرة التي تَتَصاعَد وتَتكوَّن سَحابًا بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

المُهِمُّ: أن هذه الآياتِ العَظيمةَ أيضًا هي ليسَتْ كلَّ الآيات، ولكنها من آيات الله تعالى بعض آياتِه.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المُشار إليه: ما ذُكِر في البَحْر من جرَيان السُّفُن بنِعَم الله، وما يُشاهَد في البَحْر من آيات الله تعالى.

وقولُه تعالى: ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي: لعَلاماتٍ كَثيرة و﴿آياتٍ﴾ هذه اسمُ (إنَّ) مُؤخَّر و﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ جارٌّ ومجَرور خبَرها مُقدَّمٌ.

يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عِبَرًا] يَعتَبِر بها الإنسانُ، ويَستَدِلُّ بها على كَمال قُدْرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ [﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن مَعاصِي الله ﴿شَكُورٍ﴾ لنِعَمِه].

وقوله تعالى: ﴿صَبَّارٍ﴾ صِيغة مُبالَغة، يَعنِي: كثير الصَّبْر.

وقوله تعالى: ﴿شَكُورٍ﴾ صِيغة مُبالَغة أيضًا، أي: كثير الشُّكْر.

والمُناسَبة لذِكْر (الصَّبَّار الشَّكور) بعد ذِكْر أن (الفُلْك تَجرِي في البَحْر بنِعْمة الله)

ظاهِرة جِدًّا؛ لأن هذه الفُلْكَ التي تَجري في البَحْر تارةً تَعصِف بها الأمواجُ ويَتأَذَّى الإنسان بذلك وربما يَتضرَّر فيُقابِل ذلك بالصَّبْر، وقد يَكون الأمر بالعَكْس فيَشْمَل العبورَ على البَحْر، ويَحصُل بذلك خير كثير، فيُقابِل ذلك بالشُّكْر؛ فلمَّا كانت هذه السُّفُنُ بها سرَّاءُ وضرَّاءُ ختَمَ الله تعالى الآية بقوله: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

وعلى هذا فنَقول في قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن مَعاصِي الله] فيه شيء من القُصور، بل نَقول: لكل صبَّار عن مَعاصيه وعلى أقدارِه المُؤلِمة.

وفي قوله: ﴿شَكُورٍ﴾ أي: [لنِعَمِه]؛ كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَقريرُ المُخاطَب بهذه النِّعْمةِ وهي جرَيانُ الفُلْك في البَحْر بنِعْمة الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن جرَيانَ الفُلْك على هذا الماءِ السَّيَّال مع أنها تَحمِل الأثقال الثَّقيلة، من نِعْمة الله؛ بِناءً على أن الباء للسَّببية.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حِماية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للخَلْق في إظهار آياته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الآياتِ إنما يَنتَفِع مَن جَمَع بَيْن الصَّبْر والشُّكْر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ صبَّار عند الضَّرَّاء وشَكور عند السَّرَّاء.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن آياتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خَلْقه: حِسِّيَّة ومَعْنوية؛ فالفُلْك الذي في البَحْر حِسِّيٌّ، وقد جعلَه الله تعالى مِن آياته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾.

الآيـة (٣٢)

• ● ● •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان:٣٢].

• ● ● •

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم ﴾ أي: علَا الكُفَّار ﴿مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ أي: كالجِبال التي تُظلِّل مَن تحتَها]؛ قوله تعالى: ﴿غَشِيَهُم﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: علَا الكُفَّار] وأَصْل التَّغْشية أي: التَّغْطية، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ [الرعد:٣] أي: يُغطِّيه، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل:١] أي: يُغطِّي ويَستُر؛ فأمثِلة ذلك كثيرة، فمَعنَى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ أي: غطَّاهم، ولا يُغطِّيهم إلَّا بعد عُلُوِّه عليهم.

و(المَوْجُ): ما يَحصُل من الماء المُتجمِّع الذي يَعلُو حتى يُغطِّيَ السُّفُن ويُغرِقها.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَالظُّلَلِ﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كالجِبال التي تُظلِّل مَن تَحتَها]، وهذا مُشاهَد، فإذا رأَيْت البَحْر في شِدَّة الأمواج تَجِد المِياه تَأتِي كأنها جِبال، وأحيانًا تَتلاطَم ثُمَّ يَعْلو منها زُمْرَةٌ كبيرة عالية جِدًّا في البَحْر.

وهـذه الأَمْواجُ إذا غشِيَتْـهم: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ وهـمُ الكُفَّار؛ فيَدْعون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يسأَلونه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لا يَسأَلون غيرَه؛ ففي هذه الحالِ لا يَقول عابِدو اللاتِ: يا لاتُ أَنقِذِينا؛ لأنه يَعرِف أنها لا تُنقِذ، ولا عابِدُ العُزَّى ومَناة،

ولا عابِدُ هُبَل ولا غيرها من الأصنام؛ فلا يُمكِن أن يَدْعوَ الأصنام في هذه الحالِ؛ لأنه يَعرِف أنها لا تُنقِذُه، وإنما يَدعو الله تعالى مُخلِصًا له الدِّينَ.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾ المَقصود به [أي: الدُّعاء بأن يُنجِّيهم أي: لا يَدْعون معَه غيرَه] أَخَذ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قولَه: [دونَ غيرِه] من قوله تعالى: ﴿مُخۡلِصِينَ﴾؛ لأن الإخلاص بمَعنَى التَّخليد يَعنِي: أنه يُجعَل لهذا الشيءِ وحدَه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيّنة:٥]، فهُـمْ في هذه الحالِ يَعرِفون الله تعـالى ويَدْعونه، وهذا يَدُلُّ على أن شِرْك مَن سبَق أخَفُّ مِن شِرْك مَن لَحِق، فهناك أُناس الآنَ إذا غَشِيـهم مَوْج كالظُّلَل أو أَصابَتْهم الضَّرَّاء مَن يَدْعون مَخلوقًا، فتَجِده بدَلًا من أن يَقـول: اللَّهُمَّ أَنقِذْني! يَقول: يا عليُّ أَنقِـذْني! يا عبدَ القادِر أَنقِـذْني! يا فلانُ أَنقِذْني! فصار شِرْك هؤلاءِ أقبَـح من شِرْك الأوَّلين؛ لأن الأوَّلين يَعرِفون الحَقَّ إذا أَصابَتْهمُ الضرَّاء، وأنه لا يَكشِف هذه الضَّرَّاءَ إلَّا اللهُ سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأمَّا هؤلاءِ فإنهم يَزدادون عمًى إلى عَماهُمْ.

ومن المَعلوم أنه لا يُمكِن أن يَكشِف به مِن الضَّرَّاء لا عَبْدُ القادِر ولا البدَويُّ ولا عليُّ بن أبي طـالِب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ ولا غـيرهم؛ بل كـلُّ هَؤلاءِ -وهُمْ بأنفـسهم- لو أَصابَتهم الضَّرَّاءُ ما استَطاعوا أن يَكشِفوها عن أنفسهم، فكيف يَكشِفونها عن غيرهم، وهذا مع أنهم قد ماتوا وانقَطَع الرجاء بهم من كل وَجْه؛ لكن لو كانوا أحياءً حاضِرين ربَّما يَستَعين الإنسان بهـم، فيَنتَقِل، لكن إذا كانوا أمواتًا فلا يُمكِن أن يَستَغيث بهم إلَّا جاهِـلٌ، ولا يُمكِن أن يَأتِيَ عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ من قَبْره من أَجْل أن يُنقِذَك أو عبدُ القادر يَأتِي من قَبْره لأَجْل أن يُنقِذك أو البدويُّ من قَبْره لأَجْل أن يُنقِذك، أو غيرهم ممَّن يُدْعَى عند الشدائِد ليُنقِذ!! والله أَعلَمُ.

وقوله تعـالى: [﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ يَعنِي: [لا يَدْعون غيرَه] ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾] هذه ضُمِّنت مَعنَى الإيصال، يَعنِي: نجَّاهم وأَوْصَلهم إلى البَرِّ لم يَقُل: فلمَّا نجَّاهم من هـذه الظُّلَل فقَطْ؛ بل نَجَّاهم إِنجاءً وصَلوا فيه إلى شاطِئ السلامة إلى البَرِّ، والبَرُّ هنا ضدُّ البَحْر، فيَشمَل ما لو نجَّاهم إلى بلد، فإن البلد في هذه الآيةِ من البَرِّ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾: (لَمَّا) هنا شَرْطية؛ والجَوابُ: ﴿فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ يَعنِي: ومِنهم غير مُقتَـصِد؛ فالجوابُ إِذَنْ مَحذوف دل عليه قوله تعـالى: ﴿فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ أي: فلما نجَّـاهم إلى البَرِّ انقَسَموا قِسْـمين: ﴿فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ ومِنهم كافِر.

و(لَمَّا) لها عِدَّة مَعـانٍ: تَأتِي شَرْطية، وتَأتِي جازِمة نافيـة، وتَأتِي بمَعنَى (إلَّا)، وتَأتِي بمَعنَى حين، هذه أربعةُ مَعانٍ.

فتَأتِي شَرْطية كما في هذه الآيةِ، ومثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف:١٦٦].

وقد تَأتِي بمَعنى (إلَّا) كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ [الطارق:٤] أي: إلَّا عليها حافِظ.

وتَأتِي جازِمة نافِية كقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص:٨]، أي: بل لم يَذوقوا عَذابي.

وتَأتِي ظَرْفًا بمَعنَى حين فتَقُلْ: زُرْتُك لَمَّا سمِعْت بقُـدومك أي: حين سمِعْت بقُدومك.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ انقَسَموا إلى قِسْمين، هذا الجَوابُ محذوف ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ هذه (من) للتَّبعيض يَعنِي: فبعضُهم مُقتَصِد؛ قال المُفسِّر: [مُتوسِّط بين الكُفْر والإيمان، ومنهم باقٍ على كُفْره] هذا القَسِيمُ الثاني؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: [مُتوسِّط] والاقتِصاد في كل شيء هو التَّوسُّط فيه؛ فالمعنى أن منهم مَن صار لا مُؤمِنًا ولا كافِرًا إذا ذُكِر عليه نِعْمة الله بالإيمان جاء آمَن وشكَر ربَّه، وإن غرَّته السلامة كفَر وطغَى فيكون مُقتَصِدًا.

ومنهم المُقابِل وهو الكافِر، والدليل أن المُراد بالمُقابِل هنا كافِر قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ وإلَّا فقَدْ يَقول قائِل: مَن الذي يَدُلُّكم عن أن المُقابِل هو الكافِر؛ ألَا يُمكِن أن يَكون المُقابِل هو المُؤمِنَ؟ كما في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢]؟

قُلْنا: هذا مُمكِن؛ لكن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ يَدُلُّ على أن المُقابِل للمُقتَصِد هو الكافِر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الجَحْد بمَعنَى النَّفْي والكِتْمان، وقد يُضمَّن مَعنَى التَّكذيب كما هنا، فإنه ضُمِّن مَعنَى التَّكذيب؛ لأن الجَحْد الذي بمَعنَى الكِتْمان يَتعدَّى بنَفْسه فيُقال: جحَدَه. أي: كتَمه، لكن هنا ضُمِّن مَعنَى التَّكذيب؛ ولذلك تَعدَّى بالباء فقيل: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: ما يُكذِّب بها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ ومنها الإنْجاء من الموت ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غَدَّار ﴿كَفُورٍ﴾ لنِعَم الله] أيْ: ما يَجحَد بآيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويُنكِرها ويُكذِّب بها، والمُراد بـ(الآيات) هنا كل ما يَدُلُّ على نِعَمه وتَوحيده من الآيات الشَّرْعية والآيات الكَوْنية: ما يَجحَد بها ويُكذِّب إلَّا من جَمَع هذين الوَصْفين:

الخَتْر وهو الغَدْر، والثاني الكُفْر وهو الاستِكْبار.

فإذا قال قائِل: كيف الغَدْر هنا؟

قُلْنا: لأن كل إنسان قد عاهَدَ ربَّه قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠]، فكل إنسان قد عاهَد ربَّه بمُقتَضى فِطْرته أن يُؤمِن به، فإذا كفَر صار غادِرًا لم يَفِ بالعَهْد.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن إرسالَ الأَمْواج من الله عَزَّوَجَلَّ امتِحان لعِباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ حتى رحِمَهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات رِسالة الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾؛ والرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما ركِبَ البَحْر حتى يَعرِف هذه الأمواجَ، وأنها كالظُّلَل، ولكنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ علِم بها مِن خبَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾؛ ولهذا قال بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إن كونَ هذه الآيةِ تُفيدُ كأنَّ الرسول ﷺ في وسَط البَحْر وهذا المَوجُ يَغشَى: يَدُلُّ على أنه رسولُ الله حَقًّا، لأنه لم يركَبِ البَحْر، ولا يُقال: إنه ربَّما أُخْبِرَ بذلك؛ لأن الله أَبطَلَ هذا في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هؤلاءِ المُشرِكين إذا وقَعوا في الشِّدَّة عرَفوا الله تعالى.

فيَتفَرَّع على ذلك: أن مَعرِفة الله تعالى في مِثلِ هذه الحالِ لا تُجْدي؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»(١).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن المُشرِكين يُقِرُّون بالرُّبوبية؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ ولا يَدْعونه إلَّا لأنهم يَعلَمون أنه قادِر على إِنْقاذهم، وإلَّا فلا يُمكِن أن يَدْعوا مَن لا يَعتَقِدون أنه قادِر.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن المُشرِكين فيما سبَق أحسَنُ حالًا من المُشرِكين الآنَ؛ لأن المُشرِكين الآنَ إذا أَصابَتْهم الشِّدَّةُ يَدْعون آلهَتَهم أيًّا كان! ولا يَدْعون الله تعالى، بل يَدْعون الوليَّ الفُلانيَّ والصَّحابيَّ الفُلانيَّ، وما أَشبَه ذلك؛ أمَّا المُشرِكون السابِقون فإنهم يَدْعون الله تعالى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ يُجيب دُعاءَهم مع عِلْمه بأنه سيَكفُرون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ وهو يَعلَم ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إجابةُ دَعْوة المُضطَرِّ ولو كان كافِرًا؛ فهؤلاءِ أَجاب اللهُ تعالى دَعْوتهم مع عِلْمه بأنهم كُفَّار وسيَكفُرون؛ ويُؤيِّد هذا عُمومُ قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ ولم يَقُلِ: المُؤمِن. بلِ قال: المُضطَرَّ، وهو عامٌّ، وكذلك أيضًا المَظلوم تُستَجاب دَعْوته ولو كان كافِرًا؛ لعُموم قول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لمُعاذِ ابنِ جبَل: «اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»(٢).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٠٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن مَن نجا من نِقْمة من النِّقَم فإنه إمَّا أن يَقوم بما يَجِب عليه فيكون مُقتَصِدًا، أو يَرجِع إلى كُفْره فيكون غَدَّارًا خَدَّاعًا؛ لأنه لَمَّا دَعا الله تعالى مُخلِصًا له الدِّينَ في هذه الشِّدةِ كان مُقتَضى ذلك أن يَكون بينَه وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَهْد بأن يَبقَى على إخلاصِه، فلو كفَرَ صار غَدَّارًا خَتَّارًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثباتُ عِلْمه عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ سَمْعه عَزَّوَجَلَّ.

فالسَّمْع والعِلْم والقُدْرة تُؤخَذ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ﴾؛ لأنه لا يُنَجِّيهم إذا دَعَوْا إلَّا بعد أن يَسمَع دُعاءَهم ويَعلَم بحالِهم ويَقدِر على إزالة ضَرَرِهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن مَن كان وفِيَّ العَهْد فإنه لا يَجحَد بآيات الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: التحذيرُ من الغَدْر؛ لأنه قد يَكون سببًا في الكُفْر والجَحْد؛ ولهذا قال الرسولُ ﷺ: «**آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ**» وذكَر منها: «**إِذَا عَاهَدَ غَدَرَ**»[1]؛ فإذا كان لا يَجحَد بالآيات إلَّا الغَدَّار فمَعنَى ذلك أن الغَدْر يَكون سببًا للجَحْد والكُفْر.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «**وإذا وعد أخلف**»، وأخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (٥٨)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بلفظ: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا... وإذا عاهد غدر**».

الآية (٣٣)

• ● ∞ ● •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان:٣٣].

• ● ∞ ● •

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ فما دام هو الربُّ فهو الخالِق، وما دامَ هو الخالِق فيَجِب أن يَكون هو الذي يُتَّقى؛ فكأنه يُعلِّل الأمر بالتَّقوى: (اتَّقُوا رَبَّكُم؛ لأنه ربُّكم الذي أَوْجَدكم وأَعَدَّكم وأَمَدَّكم) فهنا إيجاد وإعداد وإنزال، فالله تعالى (أَوْجَد) الناس، و(أَعَدَّهم): هيَّأهم لما يَنبَغي أن يَكونوا عليه؛ و(أَمَدَّهم): أمَدَّهم بالعُقول وأمَدَّهم بالرسُل التي جاءَت بشريعة الله تعالى.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي﴾ لا يُغنِي ﴿وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ فيه شَيْـًٔا] قوله تعالى: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا﴾ الخَشْية تقدَّم لنا أنها أخَصُّ من الخَوْف؛ لأنها تَكون مع العِلْم بحال المَخشِيِّ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨]؛ ولأن سببَها قُوَّة المَخشِيِّ، وأَمَّا الخَوْف سببه ضَعْف الخائِفِ -وهذا هو الغالِب- أمَّا الخَشْية فأخَصُّ؛ يَعنِي: اخشَوْا هذا اليومَ العَظيمَ الذي صِفَته كيت وكيت، وقد بيَّنه الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله الله: [﴿يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ فيه ﴿شَيْـًٔا﴾] ومَعنَى ﴿يَجْزِي﴾

يُغنِي؛ فلا أحَدَ يَستَطيع أن يَدفَع عن أولاده شَرَّ ذلك اليومِ أبَدًا مع أنه بالدنيا يُغنِي عنـهم ويُدافِع ربَّما يُلقِي بنَفْسه للتَّهْلكة من أَجْل حَياة أولاده، لكن في الآخِرة لا؛ بل إنه كما قال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس:٣٣-٣٥]؛ يَفِرُّ منهم خَشيةَ أن يَتعلَّقوا به بتَقْصير حَقٍّ قصَّر فيه نحوهم؛ قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١]، فلا أحَدَ يُسأَل عن أحَد، فكُلٌّ يَقول: نَفْسي نَفْسي؛ لأن الأمر عظيم، إذِ الجِبال تَندَكُّ حتى تكُون كثيبًا مَهيلًا، ثُمَّ بعد ذلك تَكون كالعِهْن المَنفوش، ثُم تَتَطاير وتَكون هَباءً مَنثورًا هَباءً يَطير في الجَوِّ، فالأمرُ أَعظَمُ من أن يُغنِي أو أن يَجزِي والِدٌ عن والِده شَيْئًا.

وكلِمة ﴿وَالِدٌ﴾ نكِرة في سِياق النفي، يَشمَل الأبَ والجَدَّ والأُمَّ والجَدَّة وإن علَوْا؛ وقوله تعالى: ﴿عَن وَلَدِهِۦ﴾ أيِ: الذَّكَر والأُنْثى؛ لأن الوَلَد يُطلَق على الذَّكر والأُنثَى في اللغة العَربية؛ قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:١١].

وقوله تعالى: ﴿مَوْلُودٌ﴾ يَجوز في إعرابِها وَجْهان:

١- أن تكون مُبتَدَأ و﴿هُوَ جَازٍ﴾ الجُمْلة هذه خبَرُ المُبتَدَأ، فـ﴿مَوْلُودٌ﴾ مُبتَدَأ، و﴿هُوَ﴾ مُبتَدَأ ثانٍ و﴿جَازٍ﴾ خبَر المُبتَدَأ الثاني، والجُمْلة من المُبتَدَأ الثاني وخبَرِه في مَحلِّ رَفْع المُبتَدَأ الأوَّل؛ وسَوَّغ الابتِداءَ بالنَّكِرة في قوله تعالى: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ أنها وارِدة في مَقام التَّقسيم.

٢- ويَجوز أن يَكون قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ مَعطوفًا على قوله تعالى: ﴿وَالِدِهِۦ﴾ يَعنِي: ولا يَجزِي مَولود.

فعلى الوجهِ الأوَّلِ: لا إشكالَ فيه في المَعنَى، لكن فيه إشكال في تَغيير النَّظْم،

يَعنِي: في تغيير الأُسْلوب حيث أتَى بالنِّسبة للوالِد في الفِعْل، وأتَى بالنِّسبة للمَوْلود بالجُمْلة الاسمِيَّة، والجوابُ على هذا أن يُقال: إنه أتَى بمَوْلود في الجُمْلة الاسمِيَّة؛ لئَلَّا يَطمَع أحَدٌ من المُسلِمين الذين قد أَسلَموا في كِفايتهم عن آبائِهم شيئًا أي: لئَلَّا يَطمَع المَوْلود المُسلِم في الإغناء عن أبيه الكافِر أتَى بالجُمْلة الاسمِية للدَّلالة على الثُّبوت والاستِمْرار.

وعلى الوجهِ الثاني: إنه مَعطوف على والِد؛ وعلى هذا الوجهِ يَرِد إشكال في قوله تعالى: ﴿هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ إِذْ إن المَعنَى يَكون ولا يَجزِي مَوْلود هو جازٍ عن والِده شيئًا قُلْنا: الجَواب على ذلك أن مَعنَى ﴿هُوَ جَازٍ﴾ أي: هو أهل لكِفايته، ولكنه في ذلك اليَوْمِ لا يَدرِي وإن كان من أهل الإِجْزاء أو من أهل الجَزاء.

فإذا قال قائِل: لماذا لم يُقيِّد الوالِد بهذا القَيْدَ أيضًا؟

قُلْنا: لأن الوالِد غالِبًا أهلٌ لأَنْ يَجزِي؛ لأنه الوالِد هو الأكبَرُ، ويُمكِن أن يَجزِيَ بخِلاف الولَد، فالولَدُ يُمكِن أن يَكون صغيرًا لا يَجزِي شيئًا؛ ولهذا قُيِّدت بالنِّسبة للمَولود بكَوْنه أَهْلًا لأَنْ يَجزِيَ.

فقوله تعالى: ﴿هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ إذَنْ ما الذي يَنفَع الإنسان في ذلك اليومِ؟

الجَوابُ: يَنفَعه ما ذكَره الله تعالى عن إبراهيمَ الخليل ﷺ: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٧-٨٩]، هذا الذي يَنتَفِع؛ فقوله تعالى: ﴿مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: سَليم من كل ما يُنَقِّصه من الشِّرْك فما دونَه.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بالبَعْث] يَعنِي بالبَعْث وما فيه، وليس بالبَعْث فقَطْ، بل بالبَعْث والحِساب والجَزاء من خَيْر وشَرٍّ.

وقوله تعالى: ﴿حَقٌّ﴾ بمَعنَى: ثابِت واقِع، وهذا من ضِمْن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [لقمان:٣٠] من كونه حَقًّا: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حقٌّ، ووَعْدُ غيره قد يَكون حَقًّا وقد يَكون باطِلًا غير مُوفًّى به؛ لأن غير الله عَزَّ وَجَلَّ قد يَتَخلَّف مَوْعوده إمَّا لكذِبٍ في الواعِد وإمَّا لعَجْز فيه.

فمثَلًا: رجُل قال لك: سآتِي إليك بعد صلاة العَصْر مُباشَرةً بطبَق من الخُبْز وكَأْس من المرَق، وبعد العَصْر لم يَجِئْ لك بشيء، وعنده أطباق الخُبْز وعِنده كُؤوس المرَق؛ لكن لم يَجِئْ بشيء لكَذِبه؛ وفي اليوم الثاني ما جاء لك بشيء؛ لأنه ليس عنده شيء، لا عنده فُلوس يَشتَرِي بها، ولا عنده شيء في البَيْت، فهذا أيضًا أَخلَف المَوعِد للعَجْز.

ومِن العَجْز أيضًا النِّسيان؛ لأن النِّسيان في الحَقيقة نَقْص في الإنسان، فالله عَزَّ وَجَلَّ وَعْده حَقٌّ لا بُدَّ أن يَقَع.

فقول المُفَسِّر: [بالبعث] الصوابُ: بالبَعْث وغيرِه، ممَّا يَكون في ذلك اليومِ من الحِساب والجَزاء.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ هنا الفِعْل مُؤكَّد بنون التَّوكيد، والتَّوكيد في الفِعْل من غير الواجِب؛ فإنه ليس واقِعًا في جواب القَسَم، فما دام في جَواب القَسَم ليس بواجِب فإِذَنْ: هو من غير الواجِب، لكنه كثير.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ الغُرور: الخِداع؛ يَعنِي

لا تَخدَعَنَّكم بزُخْرفها ولذاتها ومَسَرَّاتها؛ وذلك عن [الإسلام] وشَرائعه؛ فـ(عن الإسلام): إن كان الإنسان كافِرًا، و(عن شَرائِعه): إن كان مُسلِمًا.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ تَزهيد في هذه الحَياةِ؛ لأنه قال: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ والدنيا فُعْلَى من الدُّنُوِّ، وهي دانية الزمَن، دانية المَعنَى والمَرتَبة، فهي دُنيا؛ لأنها سابِقة للآخِرة؛ ودنيا لأنها ناقِصة، كما تَقول: هذا دون هذا، يَعنِي: أَنقَصَ منه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ نون التَّوْكيد دليل على أن غُرورها شديد؛ ولهذا أكَّدَ النَّهيَ بالنون: ولا تَغُرَّنَّكم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِٱللَّهِ﴾ في حِلْمه وإمهاله] يَعنِي: لا يَغُرَّنَّكم بالله، والأمر -كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ- بإِمْهاله وحِلْمه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ صِفَة مُشبَّهة، ويُراد بها [الشَّيْطان]، كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠].

والشيطانُ يَغُرُّ الإنسانَ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فمَثَلًا: يَقول له: لو أنك على باطِل لعاقَبَك الله تعالى؛ أو يَقول له: إن رحمة الله واسِعة والله غَفور رحيم؛ أو يُمنِّيه بالتَّوْبة يَقول: صحيحٌ أن هذه مَعصية، والإنسان مُعرِّضٌ نَفسَه للعُقوبة، لكن التَّوْبة أمامَك، فالآنَ تَمتَّعْ بهذه المَعصيةِ وبعدَئِذٍ تَتوبُ.

ومن ذلك ما يُمنِّيه بعض الناس بأن يَقول: لا تُصلِّ حتى تَبلُغ أربَعين سَنَةً. وهذا مَوْجود عند بعض الناس، فبعض الأجانب يَقولون: إن أهلَهم يَقولون:

ما تَجِب عليكم الصلاةُ إلَّا بعدَ بُلوغ أَرْبَعين سَنَةً؛ ولهذا يَسأَلون دائمًا عن الصَّلاة الماضية: هل يَقضُونها أم لا؟ فهذا من غُرور الشَّيْطان.

ومن غُرور الشَّيْطان أيضًا أنه يَقول في الشيء الذي يَعتَقِد الإنسان أنه مَعصية: هذه مَسأَلة خِلافية، وما دام فيها خِلافٌ تَجشَّمْها، مع أنه هو يَعتَقِد أنها مَعصية؛ وكذلك من غُروره أنه يَقول في الشيء الذي يَعتَقِد الإنسان أنه واجِب يَقول له: هذه المَسأَلةُ خِلافيةٌ، فيَكون هذا الرجُلُ إنِ احتاج لمُحرَّم قال: المَسأَلةُ خِلافية وافْعَلْهُ، وإن لم يَحتَجْ له قال: الذي أَدِين اللهَ به أن هذا مُحرَّم، ولا أَفعَلُه. فيَكون هذا الشيءُ دِينًا بالأمسِ غيرَ دِينِ اليومَ، أو يَقول مثَلًا إذا هَواهُ فِعْل واجِب: واللهِ هذا واجِب، يَجِب عليَّ أن أَفعَله. فالمُسلِم يَلتَزِم بأحكام الله تعالى، وإذا صار له شُغْل ذاك اليومَ يَقول: المَسأَلة خِلافية، والأَمْر سَهْل ما دامَتْ خِلافية فليس مجزومًا بها.

مِثالُ ذلك: الصلاة في المَساجِد جماعةً هذه مَسأَلة خِلافية؛ فصلاة الجَماعة نَفْسُها خِلافية وكونها في المَسجِد خِلافية أيضًا، وهو يَعتَقِد أن الصلاة في المَساجِد جَماعةً واجِبةٌ، وأنه لا يَجوز لإنسان أن يَترُك الجَماعة، ولا يَجوز أن يُصلِّيَها جَماعةً في بَيْته، لكن إذا صار له شُغل يَختار: المَسأَلة خِلافية؛ فالحاصِل أن هذا من غُرور الشَّيْطان.

ومن غُرور الشَّيْطان أيضًا أن يُفتِيَ للناس بشيء ويُفتِيَ لنفسه بشيءٍ آخَرَ؛ فيُرخِّص لها ويُسهِّل لها، ولغَيْره يُشدِّد، فمِثْل هذه المَسائِلِ كلِّها من خِداع الشَّيْطان، والواجِب أن يَكون الإنسان على دِين واحِد: على دِين الله تعالى لنَفْسه ولغيره وفي جميع أحواله.

مَسأَلَةٌ: إذا كان يُشدِّد على نَفْسه تَربيةً لنفسه فلا بَأسَ ما دامَ يَعتَقِد أن حُكْم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو التَّسهيل، لكن يُشدِّد على نَفْسه تَورُّعًا، وله من الأصل من الدَّليل فلا بأسَ؛ فمثَلًا: بعض الناس يَتَورَّعون عن بعض المأكولات، هو نفسه لا يَأكُل، لكن لا يَقول للناس: لا تَأكلوا؛ لأنه ليس عِنده دَليل، أو يَتورَّع عن بعض الأَطياب، لكن لا يُحرِّمها على النـاس؛ لأنه ليـس فيها دَليل، أو مثَلًا يُلزِم نَفْسه بِفِعْل شيء ليستِ الأدِلَّة صَريحة بالوُجوب فيه، فهو لا يُوجِبه على الناس، لكن هو لا يُحِبُّ أن يَتأخَّر، فهذا ليس فيه بأسٌ؛ لأن هذا ليـس فيه هوًى، فالمُشكِلة الهَوى: بأن يُسهِّل على نَفْسه ويُشدِّد على الناس.

فإن قال قائِل: أنا أُبيح لنَفْسي فِعْل هذا الشيءِ؛ لأني أَضبِطُ نَفْسي، فلا أَتَجاوَز الحَلال؛ وأَنهَى الناس عنه؛ لأَنَّني لو رَخَّصْت لهم فيه يَتَجاوَزون الحَلال فأنا أَمنَعُه؛ لئَلَّا يَتَجاوَزوا الحَلال، وأمَّا بالنِّسْبة لنَفْسي فأنا ضابِط نَفْسي أني لا أَتعَدَّى الحَلال؟

فالجَوابُ: أن نَقول: لا تَقُلْ: (حرام) على الناس، لكن قُلْ: (أَخشَى عليك أن تَتَجاوَز) وما أَشبَه ذلك؛ هذا الواقِعُ؛ أمَّا أن تَقول له: (حَرام) فتَمنَع هذا الرجُلَ من هذا الشيءِ وأنت تَتَمَتَّع به كما تَشاءُ، فهذا لا يَصلُح، لكن قُلْ له: (أنا أَخافُ عليك أن تَتَجاوَز الحَلال أو أن يَقتَدِيَ بك مَن يَتَجاوَز به)، وما أَشبَه ذلك حتى يَتَبيَّن له الأمر: أنَّ حُكْم الله تعالى فيه حلالٌ، ولكنه يَخشَى من أن يَزيد الناس فيه، والله أَعلَمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجوبُ تَقْـوى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لقـوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ فالأمرُ ولا سِيَّما أنه قُرِن بالتحذير باليَوْم الآخِر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات اليومِ الآخِرِ؛ لقَوْله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا﴾، ولولا تَحقُّقه ما حذَّر منه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هذا اليَـوْمَ لا يَنفَع فيه قَريبٌ قريبَه؛ فإذا قال قائِل: إن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لم يَذكُر إلَّا الوالِد والولَد؟ فنَقول: إذا انتَفَى الوالِدُ بولَده والولَدُ بوالِده فغيرُه من بابِ أَوْلى؛ لأن الولَـد بَضْعة من أَبيـه، فإذا كان البَضعـة لا يَنتَفِع بكُلِّه، والكُلُّ لا يَنتَفِع ببَضْعته فمِن بابِ أَوْلى مَن سِوى ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَأكيدُ هذا اليومِ ووقُوعه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: التَّحـذيرُ من الدُّنيا وغَدْرها وغُرورها؛ لقـوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الدُّنيا من أكبَرِ الأسباب التي تَحول بين المَرْء وبين خَشْيته لليَـوْم الآخِر؛ لأنه فرَّع عليـه قوله تعالى: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا﴾، ثُمَّ قال تعـالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ وهو كذلك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التَّحذير من الشَّيْطان؛ لقوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الشَّيْطان خَدَّاع؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ فهي إمَّا صِيغة مُبالَغة، وإمَّا صِفَة مُشبَّهة، وكِلاهما يَدُلُّ على الثُّبوت والكَثْرة.

ويُحتَمل أنها تَشمَل حتى شَياطينَ الإِنْس، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:١١٢]؛ فإن غرَّه مالُه أو ولَـدُه فإنه إذا غرَّه عن الحَقِّ فهو من الشَّيـاطين، ولكن ظاهِر الآية: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ أن هذا الوَصْفَ لازِم، فيَكون هذا من الشَّيْطان.

الآية (٣٤)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان:٣٤].

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ مَعروفٌ أنَّ الله -لفظ الجلالة- اسمُ ﴿ إِنَّ ﴾، و﴿عِندَهُۥ﴾ خبَر مُقدَّم، و﴿عِلْمُ﴾ مُبتَدأ مُؤخَّر، والجُمْلة خبَرُ (إنَّ) الجُمْلة الخبَرية فيها حَصْر، وهو مُستَفاد من تَقديم الخبَر؛ فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ يَعنِي: لا عندَ غيره ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

ويَدُلُّ على هذا الحَصرِ قولُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ [الأعراف:١٨٧] حَصْر بقَوْله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا﴾ ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ فلو أن مُدَّعِيًا قال: إن الحَصْر هنا في الخبَر لا في الجُملة كلها؛ قُلْنا: لكن الخبَر هو الذي دلَّ على انحِصار عِلْم الساعة بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ ويَدُلُّ عليه ويُؤكِّده الآية التي ذكَرْناها؛ فإذا جاءَتْ مثل العِبارة هذه: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ فالمَعنَى: لا يَعلَمها إلَّا ربِّي؛ كما إذا قُلْت: (إنَّما القائِمُ زَيد)؛ فمَعناهُ: لا قائِمَ إلَّا زَيْدٌ.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ متَى تكون؛ وفي أيِّ وَقْت؛ ولا يَعلَمه إلَّا اللهُ تعالى؛ ولهذا سأَل جِبريلُ النبيَّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال: «**أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟**»

قال: «**مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»(١)، فتَأَمَّلْ: رَسولان أحدُهما أفضَلُ المَلائِكة والثـاني أفضَلُ البَشَر، كِلاهما يَقول: لا عِلمَ عِنْـدي؛ لأن قوله ﷺ: «**مَا الْمَسْؤُولُ بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**» يَعنِي: إذا كنتَ أنتَ لا تَعلَم فأنا من باب أَوْلى لا أَعلَمُ.

فإِذَنْ: عِلْمها يَختَصُّ بالله تعـالى، ولقَدْ كذَب مَنِ ادَّعى أنه يَعلَمـها، ولا سِيَّما بالواسِطة التي ذَكَر أنها دالَّة عليها، كما نُشِر عن شَخْص يُسمَّى رَشاد خَليفة، هذا رجُل في أمريكا، وهو رجُل عِنـده عِلْم، لكنه اغتَرَّ اغتِرارًا عَظيمًا بما يُسمِّيه (العدد التاسِعَ عَشَرَ)؛ حيـثُ ادَّعى أن القُرآن كُلَّه مُركَّب على تِسعـةَ عَشَرَ حَرْفًا، وأن هذا الماثِلَ عنده: التِّسْعةَ عَشَرَ، استَدَلَّ به على أنه يَعرِف متى تَقوم الساعة، وحدَّدَها - أَظُنُّ- فوق الأَلْفَيْن بسَنوات قليلة.

وهذا الرجُلُ في الواقِـع الله أَعلَمُ: هل هو مُتأَوِّل، أو مُعانِد؟! لكنَّ كلَّ مَنِ ادَّعى عِلْم الساعة فهو كافِر؛ لأنه مُكـذِّب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وإجماع المُسلِمين، والمُسلِمـون مُجمِعون إجماعًا قَطعيًّـا على أنه لا يَعلَم متى تَقوم الساعةُ إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الساعة هي القِيامة، وسُمِّيَت الساعةَ؛ لأنها أَعظَمُ حدَثٍ يَكون، ولأن فيها وَعيدًا للمُكذِّبين؛ ولهذا يُتَوعَّد بالساعة؛ فيُقال مثَلًا: (ساعَتُك عِندي) إذا أَرَدْت أن تُهدِّد إنسانًا تُهدِّده بكلِمة (الساعة)؛ لأنه يَقَعُ فيها حدَث عَظيم.

وقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ ولم يَقُل: ويَعلَم متى يَنْزِل الغَيْث، بل قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ فاختِلاف التَّعبير له مَعنًى عَظيمٌ، وإلَّا فإنَّ هذه الخَمْسةَ كلَّها

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من عِلْم الغَيْب، فإن النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَسَّر قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ بهذه الخَمْسةِ، ولفظ الحَديث: «وَمَا يَدْرِي أَحَدٌ مَتى يَجِيءُ المَطَرُ»(١)، لكن في القُرآن يَقول الله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فكَيْف نَقول: إنه يُراد بها: (لَا يَعْلَمُ مَتى يَنزِل الغَيْثَ إِلَّا اللهُ)؟

نَقول: لأن الله تعالى إذا كان هو الذي يُنزِّل الغَيْث، فلا يَعلَمه إِلَّا اللهُ تعالى؛ لأنه هو المُنزِّل له، والمُنزِّل للشيء هو الذي يَعلَمه، وغيرُه لا يَعلَمه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْغَيْثَ﴾ أي: المَطَر وسُمِّيَ غَيْثًا؛ لأن به تَزول الشِّدَّةُ، والاستِغاثة طلَب إزالة الشِّدَّة، ففي المطَر تَزول الشدائِد؛ شَدائِدُ القَحْط وشدائِدُ الجَدْب، فيَبقَى الناس عندهم ماء ثُمَّ عِندهم مَزارِعُ.

وهناك إِشْكال في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فبَعضُهم يَقول: إنه سيَكون غدًا مطَرٌ في النشرة الجَوِيَّة؛ فهل هذا من عِلْم الغَيْب؟

الجَوابُ: لا، ليسَتْ من عِلْم الغَيْب، وأنها تَوَقُّعات بواسِطة الآلات الدَّقيقة التي يَعلَمون بها تَكيُّف الجَوِّ وصلاحيته لأَنْ يَكون مُطِرًا أم غيرَ مُطِر؛ ولهذا أحيانًا لا يَكون الأمر كما توقَّعوا، ثُمَّ هُمْ لا يَستَطيعون أن يَتنبَّؤُوا بالأمطار بعد سَنَوات؛ غاية ما هناك أن يَكون في المُدَّة القَليلة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتَّخفيف والتَّشديد] (يُنْزِل) و(يُنزِّل) وكِلاهما جاء في القُرآن؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [البقرة:٢٢] هذه على قِراءة التَّخفيف، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ [غافر:١٣]

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب الاستسقاء، باب لا يدري متى يجيء المطر إلا الله، رقم (١٠٣٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

هذه على قِراءة التَّشديد.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱلْغَيْثَ﴾ بوَقْت يَعلَمه] هذا هو الشاهِدُ الذي بيَّن به المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أن المُراد بتَنزيلِ الغَيْث في الوقت الذي يَعلَمه؛ ليَكون هذا من عِلْم الغَيْب.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾: ﴿وَيَعْلَمُ مَا﴾ أيِ: الذي في الأَرْحام، وعبَّرَ بـ﴿مَا﴾ لأنها أَعَمُّ وأشمَلُ من (مَن)؛ إذ إنَّ: (مَن) تَختَصُّ بالعاقِل، هذا من جِهة، ومن جِهة أُخرى: أن ﴿مَا﴾ تَختَصُّ بالصِّفات و(مَن) بالذَّواتِ؛ ألَمْ تَرَ إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣] ولَمْ يَقُلْ: مَن طاب. مع أن المَنكوحة من ذوات العَقْل، ولكنه قال: ﴿مَا طَابَ﴾ دون (مَنْ)؛ لأن النِّكاح يَرتَكِز على صِفة المَرأة كما قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ»(١).

وهنا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا﴾ دون (مَن) لأن عِلْم ما في الأَرْحام من حيثُ الصِّفة أَبلَغُ من عِلْمه من حيث الذات، أي: أَبلَغُ من حيث كونه ذكَرًا أو أُنْثى، فالجَنين الذي في الرَّحِم ليس العِلْم المُختَصُّ به مُجُرَّدَ كونه ذكَرًا أو أُنثى، أو طويلًا أو قصيرًا، أو صغيرًا أو كبيرًا؛ بل هناك ما هو أَبلَغُ من ذلك، وهو صِفات هذا الجَنينِ، هل يَكون شقيًّا أم سَعيدًا، طويلَ العُمر أم قَصير العُمر، وهل عمَله صالِح أو عمَلُه فاسِد؛ ولهذا جاء التَّعبيرُ بـ﴿مَا﴾ التي يُلاحَظ فيها الصِّفات؛ لأن عِلْم ما في الأَرْحام من هذه الوِجهةِ أَعظَمُ من كَوْنه ذكَرًا أو أُنثى؛ ومن هذا ما يَطَّلِعون على عِلْمه بكَوْنه ذكَرًا أم أُنثى الآنَ فيَعرِفون ذلك قبل أن يُولَد.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم (٥٠٩٠)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، رقم (١٤٦٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فعلى هذا يَتبيَّن بلاغة القُرآن حيث عبَّر بـ﴿مَا﴾ دون (مَن)؛ لأن (مَن) تُحدِّد الشخصية شَخصيةَ عاقِلٍ، وإذا كان غَيرَ عاقِلٍ يُقال: (ما). أمَّا ما يَتعلَّق بالصِّفات والأعمال فهذه يُعبَّر عنها بـ(ما)، وأنا ضَرَبْتُ لكم شاهِدًا قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ﴾ [النساء:٣] دون مَن طاب.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ الأرحام جَمْع رَحِم، وهو وِعاء الجَنين، والجَنينُ مُحاط بثَلاثة جُدران: البَطْن، والرَّحِم، والمَشْيَمَة، فالمَشيمة هذا القُمقُمُ الذي فيه الجَنين، وهذا القُمقُمُ -سُبحان الله العظيمِ- مادَّة غَريبة لا هي مائِيَّة مَحضَة، ولا جامِدة محضة، ولكنها لَزِجة سَهْلة لأَجْل أن يَتيَسَّر حرَكة الجَنين؛ حتى أُمُّه لا تُحِسُّ بالتَّعَب وهو أيضًا لا يُحِسُّ بالتَّعَب؛ فالله عَليم حَكيم جَلَّ وَعَلَا.

وهذه الظُّلُماتُ الثَّلاثُ كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزُّمَر:٦]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات:٢١]، يَعنِي: لا يَدخُله أيُّ شيء يُؤذِي هذا الجَنينَ لا هَواءٌ ولا غَيرُه.

وقوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ مُتعلَّق هذا العِلْم كَونُه ذكَرًا أو أُنثَى، وكذلك ما يَتعَلَّق من صِفات كونُه: سَعيدًا أو شَقيًّا، وكونه عامِلًا عمَلًا صالِحًا أو عمَلًا سَيِّئًا، وكونُ رِزْقه واسِعًا أو ضَيِّقًا، وكون عُمرِه طَويلًا أم قصيرًا؛ فكل هذه تَتعلَّق بعِلْم الأَجِنَّة، فمِنها شيء لا يُمكِن أن يُعلَم أبدًا، ما يَعلَمه إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، ومنها ما يُعلَم -كالأَمْر المُشاهَد- بالأَمْر المَحسوس، فهذا يُمكِن أن يُشاهَد ويُوصَل إليه الآنَ؛ ولكن هل يُمكِن أن يَعلَموا أن هذا الجَنينَ ذكَر أم أُنثَى قبل أن يُخلَّق؟

الجَوابُ: إلى الآنَ ما وصَلوا إلى ذلك، ولا نَقول: (لا)، بل نَقول: (إلى الآنَ ما وصَلوا)، وقد سمِعْت أن بعضَهم يَستَدِلُّ على أن كَوْنه ذكَرًا أو أُنثَى بنَفْس

الحَيوان المَنوِيِّ، وأنَّ الذكَر له صِفة خاصة والأُنثى لها صِفة خاصَّة، فإذا صَحَّ هذا فلا تَقُل: من أَيْن؟

فإن قال قائِل: كيف ذلك في نَفْس الحَيوان إذ لم تَتَلقَّح نفسُ البُويْضة بعدُ؟

فالجَوابُ: هُـمُ الآنَ أَثبَتوا هـذا، وصَوَّرها أيضًا، صَوَّروا هذا؛ فقـالوا: إن الحَيوان المَنَوِيَّ الذكَر هذا له إشعاع خاصٌّ، يَنطَلِق بإشعاع خاصٍّ، واللهُ أَعلَمُ.

وعلى كل حال: هم إذا تَوَصَّلوا إلى ذلك فإننا نَقول: مَن يَعلَم أنه سيُقدِّر الذكَر أو الأُنْثى إلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثُمَّ الأحوال الأُخرى التي ذكَرْنا أنها مُتعلِّق مَن عِلْم الأَجِنَّة لا يُمكِن أن يَعلَموها.

وأَقول: يَجِب أن لا نُعارِض الشيءَ هكذا، بل يَجِب أن نَتَريَّث؛ لأننا لو نَدفَع هذا الشيءَ ثُمَّ نَقول: هذا الشيءُ مُحال. ثُم يَكون ثابِتًا بمُقتَضى العُلوم الحَديثة، فإنه يُؤدِّي ذلك إلى رَدِّ القُرآن أو التَّشكيك فيه، ونحن نَعـلَم أنه لا يُمكِن أن يَتَناقَض أمران يَقينِيَّان، فكل أَمْرَيْن يَقينِيَّين فإنه لا يُمكِن أن يَتعارَضا أبدًا، فهذا مُستَحيل.

فإن قال قائِل: الإنسان الذي يُحاوِل بهذه الأُمور على أن يَعلَم هل يَأثَم أو لا؟

فالجَوابُ: لا، لا يَأثَم، قال تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ ولم يَقُلْ: لا تَعلَموا، فنحن نَعلَم الآنَ عندما نَتَوصَّل بهذه الوسائِل فليس عِلْمَ غَيْب.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ أذكَر أم أُنْثى، ولا يَعلَم واحِدًا من الثلاثة غيرُ الله تعالى] اقتِصاره على [أذكَر أم أُنثى] فيه نظَرٌ؛ لأن عِلْم ما في الأرحام ليس مُتعلِّقًا بالذكَر أو الأُنْثى فقَطْ، بل ما هو أعَمُّ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَلا يَعلَم واحِدًا من الثَّلاثة غيرُ الله] هذا قَبْل تَكوينه مُمكِن،

لكن بعد أن يَتكوَّن يَعلَمه غيرُ الله فهذا المَلَك يَعلَم أنه ذَكَر أم أُنثى.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾: ﴿نَفْسٌ﴾ نكِرة في سِياق النَّفي، و﴿تَدْرِى﴾ بمَعنَى: تَعلَم، والنَّفْس هنا نَكِرة في سِياق النَّفي فتَعُمُّ كلَّ نَفْس، فأيُّ نَفْس لا تَدرِي ماذا تكسِب غدًا حتى لو كان من أَمهَر الناس في التَّدبير والتَّنظيم لوَقْته فلا يَدرِي ماذا يَكسِب غدًا؛ وإذا كانت النَّفْس لا تَدرِي ماذا تَكسِب فإنها لا تَدرِي ماذا يَكسِب غيرُها من باب أَوْلى؛ وإذا كانَتْ لا تَستَطيع أن تَعلَم ما يَتعَلَّق بعِلْم المَخلوق فكيف تَعلَم ما يَتعَلَّق بعِلْم الخالِق؛ فمِن بابِ أَوْلى أن لا تَعلَمه.

إِذَنْ: فلا أحَدَ يَدرِي ماذا يَكسِب غدًا من خيرٍ أو شَرٍّ أو مال أو ولَد أو غير ذلك؛ وقد يَتَوقَّع الإنسانُ الشيء، ولكنه لا يَحصُل له؛ إذ يُصرَف عنه أو يُحال بَينَه وبَينَه بسبَب فلا يَصِل إلى كَسْبه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ ما المُرادُ بالغَدِ: اليَوْم المُباشِر ليَوْمك أو كل المُستقبَل؟

الجَوابُ: المُرادُ كل المُستقبَل، فلا تَدري ماذا تَكسِب فيه ولو كان بَعيدًا، لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨] فهل يَعنِي: ليوم الأَحَد بعد يوم السَّبْت؟

الجَوابُ: لا، بل ليوم القِيامة، فكُلُّ مُستقبَل يَصِحُّ أن يُطلَق عليه غَد.

وكلِمة ﴿غَدًا﴾ منصوبة، وهي مَفعول لـ﴿تَكْسِبُ﴾ مَفعول فيه؛ لأنها ظَرْف؛ يَعنِي: ماذا تَكسِب في غَدٍ؛ ومنه قول الشاعِرِ:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِي[1]

إِذَنْ: فهِي ظَرْف.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من خَيرٍ أو شَرٍّ]، ولكن الذي يَعلَمه الله تعالى؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ويَعلَمه إلَّا الله تعالى].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ نَقول في: ﴿نَفْسٌ﴾ مثل ما قُلْنا في (نَفْس) الأُولى: نَكِرة في سِياق النَّفي فتَعُمُّ كلَّ نَفْس.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَدْرِى بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ هل هي بأَرْضها التي وُلِدت فيها أو بقَريب منها أو ببَعيد لا تَدرِي، ولا تَدرِي بأيِّ زمَنٍ تَموت، بل من بابِ أَوْلى؛ لأن المَكان للإنسان فيه اختِيار، فيَختار أن يَكون هنا أو يَختار أن يَكون هناك؛ أو يَختار أن يَكون في مَحلٍّ آخَرَ ثالِثٍ، لكن الزمَن ليس لك فيه اختِيار؛ فإذا كنت لا تَعلَم المكان الذي تَموت فيه مع أن لك فيه اختِيارًا فمن بابِ أَوْلى أن لا تَعلَم الزمَن الذي تَموت فيه.

وهذه من حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ: أَنْ أَخفَى على الإنسان اليومَ الذي يَعلَم أنه يَموت فيه أو المكان الذي يَعلَم الله تعالى أن الإنسان يَموت فيه؛ لأن الإنسان لو عَلِم بهذا لقَلِقَ في حَياته؛ فما يَكون هَمُّه إلَّا حِسَاب ما بَقِيَ؛ أي: ما بَقِي إلَّا كذا وكذا من السنَوات أو من الأَشهُر أو من الأَيَّام، ويَتعَب تَعَبًا عظيمًا.

لكن الآنَ كلُّ يوم يَجيء على الإنسان يُؤمِّل فيه وقد يَكون الأَجَلُ أَقرَبَ من شِراك نَعْله؛ لكِنِ المُهِمُّ أن عنده أمَلًا في الطول، ولا يَلتَفِت إلى هذه المَسأَلةِ إطلاقًا؛

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى من معلقته المشهورة، انظر: ديوانه (ص٧٠).

لأنه يَعلَم أنه لا عِلمَ له فيها، وأن عِلْمها عند الله، وهذا من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بنا.

وهل الإنسانُ يُقَدِّر أنه يَموت بالأرض الفُلانية؟

الجَوابُ: قد يُقدِّر هذا، وأحيانًا إذا قيل له: ألَا تُسافِر؟ قال: أبَدًا أنا بلَدي فيها أَحْيا وفيها أَموتُ، ولكن عند قُرْب أَجَله يُسافِر؛ فتَحصُل له حاجة حتى يُحمَل إلى الأرض التي يَموت فيها.

وأنا أَعرِف رجُلًا ما خرَج من بَلَدِه عنيزةَ أبَدًا منذ سنَوات بعيدة، ولَّا مَرِض قُدِّر أن يَكون عِلاجُه في مِصرَ، وهو ما خرَجَ من عنيزةَ عُمرَه إلَّا أَظُنُّـه للحَجِّ مرَّةً ولا عِنده نِيَّة، فكَبِر وانتهى عُمُره، لكن سُبحانَ اللهِ! لَّا أَراد أن يَنقُله الله تعالى إلى أَرْضه التي يَموت فيها نُقِل إلى مِصرَ ومات هناك.

وأَعرِفُ أُناسًا كَثيرين نُقِلوا إلى أماكِنَ بَعيـدة ما كانوا يَحلُمون أنهم يَذهَبون إليها، وهناك قِصَّة حدَّثَني بها الثِّقة في المرأة المريضة التي رجَعوا بها من الحَجِّ، ولَّا كانوا في الريع -الجِبال المُحيطة بالحِجاز- ونزَلوا ليلةً من الليالي، فلَّما أَصبَحوا حَمَلوا إبِلَهم على أنهم سيَمْشون، وهذا الرجُلُ كان معه أُمُّه مَريضة فبَقِيَ ليُوطِّئ لها المكانَ على الراحِلة، فمَشَى الناس وهو في مَكانه، ولَّا أَنهَى ما أَحَبَّ أن يُنهِيَه من تَوْطِئة الرَّحْل لأُمِّه وركِبَـت مشَى فضَيَّعهم، لم يَعرِف أين ذهَبوا؛ فدخَـل في الريع وظَلَّ يَمشِي ويَمشِي ولا يَسمَع حِسًّا ولا حولَه أحَـدٌ حتى وصَل إلى خِباءٍ -خِدْر صَغـير لبَـدْوٍ- ونزَل عِندهم وسأَلَهم عن الطريق قالـوا: الطريق وراءَك؛ فقال: سأَرْتـاح قليلًا؛ فلَّما نزَل -سُبحانَ الله العَظيمِ- ونزَّل والِدتُه ماتَتْ في ذلك المَكانِ الذي ما كان هو ولا غيره يَقدِر أن يَأتِيَ إليه، لكن من أَجْل أن تُحمَل هذه المَرأةُ إلى أرضِ مَوْتِها حَصَل ما حَصَل من الأسباب.

وهكذا أيضًا تَجِدون الحوادِثَ الآنَ؛ فالإنسان في البلَد لا يُقدِّر أنه سيَموت في مَكان ما من البَرِّ، ولكنه يُنقَل إلى المكان الذي يَموت فيه، حتى إنه يَموت في المكان بالضَّبْط على نفس حَبَّات التُّراب التي قُدِّر أن يَموت فيها، وهذا أَمْر مُشاهَد.

وفي الزمَن كذلك: لا يَدرِي الإنسان متى يَموت، رُبَّما يَتأخَّر لَحَظاتٍ من أَجْل أن يَستكمِل زمَنه ومُدَّته، وهذا له شَواهِدُ؛ منها أيضًا ما حصَل في عنيزةَ: أن رجُلًا جاءَ بسَيَّارته مع الطريق العامِّ، وهناك شَابَّان على (دبَّاب) (دَرَّاجة ناريَّة) قد أَتَيا من طريق آخَرَ مُعترِض، فلمَّا قرُب الكُلُّ من نِهاية نُقْطة المُلاقاة وقَفَ كلٌّ منهم يَنتَظِر أن يَعبُر الآخَرُ؛ فقال الآخَرُ: سأَمشِي فمشَوْا جميعًا فصَدَمت السيَّارة المُؤخَّر من (الدبَّاب) الذي فيه الشابَّان وماتا في الحال؛ فلماذا وَقَف هذه الوَقْفة التي هي لحظاتٌ؟ الجَوابُ: من أَجْل أن يُستكمَل الزمَن المُحدَّد.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ويَعلَمه الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكُلِّ شيء ﴿خَبِيرٌ﴾ بباطِنه كظاهِره] وأيُّها أخصُّ: الخَبير أو العَليم؟

الجَوابُ: الخَبيرُ أَخصُّ؛ لأن العِلْم يَتعَلَّق بالظاهِر والباطِن، والخِبْرة تَتعلَّق بالباطِن؛ ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿خَبِيرٌ﴾ بباطِنه كظاهِره]؛ لأن العليم بالباطِن من باب أَوْلى أن يَكون عَليمًا بالظاهِر.

ثُمَّ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [روَى البُخاريُّ عن ابنِ عُمرَ حديثَ: مَفاتِح الغَيْب خَمْسة: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ...﴾[1] إلخ السُّورة] قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب لا يدري متى يجيء المطر إلا الله، رقم (١٠٣٩).

وقد بيَّنَّا في شَرْح صحيح البُخارِيِّ وجهَ كَوْنها مَفاتِحَ فقُلْنا: الساعة مِفتاح الآخِرة؛ وتَنزيل الغَيْث مِفتاح للحياة؛ حياة الأرض والنبات؛ وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ مِفتاح لحَياة الإنسان وابتِداء خَلْقه؛ فأوَّلُ ما يَمُرُّ بعد التَّكوين بالرَّحِم؛ ولهذا الإنسانُ له أربَعُ دُور: الدار الأُولى في بَطْن أُمِّه، والثانية في الدنيا، والثالثة في البَرْزَخ، والرابِعة في الآخِرة؛ قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ مِفتاح للعمَل في المُستقبَل؛ وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ مِفتاح للآخِرة بالنِّسبة لمَوْت كل إنسان بعَيْنه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن عِلْم الساعة من خَصائص عِلْم الله عَزَّوَجَلَّ وحدَه؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ فقوله تعالى: ﴿عِندَهُۥ﴾ تُفيد الحَصْر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيان فَضْل الله عَزَّوَجَلَّ في إنزال الغَيْث؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ والمُنزِّل للشيء هو العالِمُ به.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: اختِصاص الله تعالى بعِلْم الغَيْب.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن عِلْمَ ما في الأرحام إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحدَه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾.

وإذا نظَرْنا إلى ظاهِر السِّياق ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ لا نَنفِي أن غَيرَه يَعلَم؛ لأن كونَ الله تعالى يَعلَم نحن يُمكِن أن نَعلَم، لكن تَفسير الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

بأن هذه بعِلْم الغَيْب التي لا يَعلَمها إلَّا الله تعالى يَدُلُّ على أنه لا يَعلَم ما في الأَرْحام إلَّا الله تعالى.

فإن قال قائِل: لماذا لم تكُن بهذه الصِّيغةِ: (ولا يَعلَم ما في الأَرْحام إلَّا الله)؟

فالجوابُ -واللهُ أَعلَمُ-: أنه لمَّا كان عِلْم الأَجِنَّة قد يُتمكَّن منه ببعض الأَحْوال قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الإنسان لا يَعلَم الغَيْب في المُستقبَل؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ فإذا كانت يَقصِد بـ(ماذا تكسِب) هو نَفْسه، فما يَقدِر عليه إلَّا الله تعالى فجَهْله به من بابِ أَوْلى، وما يَكسِبه غيرُه فجَهْله فيه من بابِ أَوْلى، وعلى هذا فلوِ ادَّعَى مُدَّعٍ أن الله تعالى يُقدِّر على هذا الرجُل كذا وكذا فإننا نَجزِم أنه كاذِب؛ لأنه لا يَعلَم ما في غَدٍ إلَّا اللهُ تعالى.

ولَمَّا قالَتْ إحدى النِّساء في حَضْرة النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَفِينَا نَبِيٌّ يَعلَم ما في غَدٍ» نَهاها الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقال ﷺ: «قُولي ببَعْضِ ما تَقولِينَ»[(1)]؛ وهذا لا يَجوز على الرسولِ ﷺ ولا غيرِه أن يُدَّعَى أنه يَعلَم ما في الغَيْب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الإنسان لا يَدرِي بأيِّ أَرْض يَموت؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: هل يُقال: إنه لا يُمكِن أن يَموت أحَد فوقَ الجاذِبية في فضاء؟ فيه احتِمال؛ لكنه ضَعيف؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ قد يَكون هذا مَبنِيًّا على الغالِب مع أن لدَيْنا آيةً في القُرآن يَقول الله عَزَّوَجَلَّ فيها: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ

(1) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، رقم (٤٠٠١)، من حديث الرُّبَيِّع بنت معوذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف:٢٥]، فتقديم المَعمول الَّذي هو الظَّرْف ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ يَدُلُّ على الحَصْر، وهذا هو الأَصْل، فإن تَبيَّن فيما بعدُ أن يَموت أحَدٌ في الفَضاء ولا يَرجِع إلى الأرض فإننا نَقول: إن هذا احتِمال. بِناءً على الأَغلَب الكثير، وما سمِعْنا أن أحَدًا مات فوقَ الجاذِبية، بل حتى لو مات فالظاهِرُ أنه لا بُدَّ أن يُرَدَّ، وليس المَقصودُ الرُّوحَ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنه لا يَعلَم أحَدٌ متى يَموت؛ تُؤخَذ: من أن جَهْلنا بمَكان مَوْتنا يُبيِّن جَهْلنا بزمان مَوْتنا، فالجَهْل هنا بالزَّمان أَوْلى.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات اثنَيْن من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهُما: العَليم والخَبير، وما تَضمَّناه من صفتَيِ العِلْم والخِبْرة.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن مَنِ ادَّعى عِلْم شيء ممَّا اختُصَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعِلْمه فهو كافِر؛ لأنه مُكذِّب لله تعالى، والتَّكذيب لله تعالى كُفْر.

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة
«مَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ بِسْمِ اللهِ»	٩
«ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»	٣٣
«لَيَكُونَنَّ أَقْوَامٌ مِنْ أُمَّتِي يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ»	٣٤
«يَمُدُّ صوتَه بِآخِرِها»	٣٥
«يَا أَنْجَشَةُ رِفْقًا بِالْقَوَارِيرِ»	٣٦
«نَعَمْ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»	٤٤
«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»	٤٥
«مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ حَسَنَةً كَامِلَةً»	٤٥
«أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ»	٥٠
«الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ»	٥١
«وَمَنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ»	٥٨
«أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟»	٦٣
«حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ»	٧٣
«يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»	٧٧

«سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» ٩٥
«لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ» ٩٦
«وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» ١٠٧
«إِنَّ اللهَ يُعْطِي بِالرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ» ١٠٨
«إِنَّ هَذِهِ لَمِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللهُ إِلَّا فِي هَذَا المَوْقِفِ» ١١٢
«وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى» ١١٣
«إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، وَلَا تُسْرِعُوا» .. ١١٦
«لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ» ١١٧
«لَا يَجْهَرْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْقُرْآنِ» ١١٨
«إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى المَكَارِهِ» ١٢٠
«فَإِنْ أَبَى فَلْيُقَاتِلْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ» ١٣٢
«أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ» ١٤٢
«لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ١٤٣
«لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الآخِرة إِلَّا الأَسْمَاءُ» ١٤٣
«لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ١٤٦
«أَنَّهُ إِذَا حَضَرَ المَوْتُ إِلَى هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ وَبُشِّرَتْ رُوحُهُ بِالْغَضَبِ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَإِنَّهَا تَتَفَرَّقُ فِي بَدَنِهِ؛ تَتَشَبَّثُ فِيهِ، حَتَّى يَنْتَزِعُوهَا مِنَ الْبَدَنِ، كَمَا يُنْزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المَبْلُولِ» ١٤٧
«وَاللهِ لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا» ١٤٩
«أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ» ١٥١

«حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» .. ١٧٠
«يَا ابْنَ آدَمَ خَلَقْتُكَ مِنْ أَجْلِي، وَخَلَقْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَجْلِكَ» ١٧٣
«مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ» ١٧٤
«إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ» ١٧٥
«أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ» ١٧٩-١٨٠
«تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ» ١٩١
«اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» ١٩١
«آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ» ١٩٢
«مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» ٢٠٢-٢٠٣
«وَمَا يَدْرِي أَحَدٌ مَتَى يَجِيءُ الْمَطَرُ» ٢٠٤
«تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ» ٢٠٤
«قُولِي بِبَعْضِ مَا تَقُولِينَ» ٢١٢

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة
أَرجَحُ الأقوال في المكي والمدني	٧
السورة إذا كانت مَكِّيَّة فإننا لا نَستَثْنِي منها شيئًا إلَّا بنَصٍّ صريح واضِح	٧
الكلامُ على البَسْمَلة معنًى وحُكما وإعرابًا	٩
الفائِدة من وُجود الحروف المقطعة في القُرآن	١٢
الحِكمة مِن قَرْن الصَّلاة بالزَّكاة في القرآن كثيرًا	١٩
ضَمير الفَصْل يُفيد ثلاث فَوائِدَ	٢٢
تفسير الصَّحابيِّ حُجَّة	٢٧
تَفسير اللهوِ بالغِناء لا يعني أنه لا يتناول غيره	٢٧
إذا كان إنسان قد تَعوَّد على الغِناء فترة، ثُمَّ لمدَّة شَهْر أو شهرين أَراد سَماع الأناشيد للمُعالجة؟	٢٩
اتِّخاذ آيات الله تعالى هُزوًا له أنواعٌ كثيرة	٣١
الكلام على تَحريم الغِناء	٣٣
هل مِن الإعراض عن آيات الله تعالى مَن يَقُول للقارِئ: انْتَهِ مِن القِراءة؟	٤٣
العِزَّة التي وصَف الله بها نَفْسه لها ثلاثة مَعانٍ	٤٨
الحِكْمة مِن خَلْق الضارِّ	٥٧
إبطالُ قولِ الفلاسِفة في قِدَم الأفلاك	٦٠

يَجِب علينا أمام بعض النَّظَرياتِ أن نَجعلَها كأحاديث بَنِي إسرائيلَ ٦٤
(مُبِين) لا يُظَنُّ أنها دائِمًا مُتعدِّيَة، فقد تَكون لازِمةً وقَد تكُون مُتعدِّية ٦٩
ما تَوجيهُ قوله ﷺ: «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ» ومَن كان خارِجَ بني إسرائيلَ فما حُكْمه؟........ ٧٣
مُتعَلَّقُ الشُّكْر ثلاثة ٧٤
لا يَلزَمُ مِن النَّهي عنِ الشِّرْك أن يَكونَ الإنسان قد أَشرَك ٨٠
الجوابُ علَى مَن قالَ: لِمَاذا لا تُكثِرُون الكلام في التوحيد في المَمْلكة السُّعُودية مثَلًا، ولاسِيَّما في نَجْدٍ؟! ٨٢
فوائَد الطَّلْق الذِي يَحصُل عند انطِلاق المولُود ٨٥
الوهَن كلُّه بسبَب الحَمْل ٨٦
بيان خَطَأِ بعضِ النِّسَاء اليَوم اللاتي لا يَصْبِرْنَ على وَهْن الحَمْل ٨٨
نفيَ الكَمال أهونُ مِن إثْبَات النَّقْص على النُّفوس ٩١
هَل يَجُوز التأَوُّل في الشِّرْك؟ ٩٤
حكم طَاعةِ الوالِدَين في غير مَعصِية الله تعالى ٩٦
الله تعالى لَطيفٌ بعَبْده ولطيفٌ لعَبْدِه ١٠٢
أحكام الأَمْر بالمَعروف والنهيُ عن المُنكَر ١٠٦
الغَضُّ مِن الصَّوْت باعتِبَار الكَمِّيَّة وباعْتِبَارِ الكَيْفِيَّة ١١٤
الإِسْبَاغ يَتَنَاوَل شَيْئَيْن ١٢١
المَسائِل العَقْلية ليس لها دَخْل في الأمور الخَبَرية ١٢٤
هل لنا أن نُحاوِل الصعود إلى الكواكِب والنُّجوم لنَرَى ما فيها من الآيات؟ ١٢٦

الإنسان الناصِح يَحزَن إذا كفَر الناس ١٣٨
غِلَظ عذاب النار في كَيْفيته وفي نَوْعه.................................... ١٤٥
يَنبَغي تَأكيد الكلام في مَوْضِع التأكيد ١٥٤
الدُّعاء له مَعنَيان: دُعاء عِبادة، ودُعاء مَسأَلة ١٧٩
(لـمَّا) لها عِدَّة مَعانٍ ١٨٨
وَجْهُ كَون مَفاتِح الغَيْب مفاتِح ٢١١

• ● ● •

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة

تقديم ٥

سورة لقمان ٧

البسملة ٩

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿الٓمٓ ①﴾ ١١

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ②﴾ ١٣

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ③﴾ ١٦

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④﴾ ١٩

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ⑤﴾ ٢٢

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ⑥﴾ ٢٤

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑦﴾ ٤٠

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ⑧ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ⑨﴾ ٤٥

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ

زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ ٥٣

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ ٦٧

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ ٧١

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ ٧٨

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ ٨٤

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ ٩٠

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ ١٠٠

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ ١٠٥

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ ١١٠

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ ١١٣

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةًۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى

وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٢٠﴾ ١١٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ١٢٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ١٣٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ١٣٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾ ١٤٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ١٤٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ .. ١٥٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٧﴾ ١٦٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ١٦٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٩﴾ ١٧١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ١٧٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ

ءَايَـٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ١٨٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ١٨٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ١٩٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ٢٠١

فهرس الأحاديث والآثار ٢١٥

فهرس الفوائد ٢١٩

فهرس آيات السورة ٢٢٣

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤٠)

تفسير

القرآن الكريم

سورة السجدة

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية